دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر



حمد الجاسر

من سوانح الذكريات

الجزء الأول

المراجعة والتعليقات

عبد الرحمن الشبيلي



إشراف: مركز حمد الجاسر الثقافي

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

من سوانح الذكريات



دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر

حمد الجاسر

من سوانح الذكريات

الجزء الأول

المراجعة والتعليقات
عبد الرحمن الشبيلي

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

ⓒ دار اليمامة ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجاسر ، حمد

من سوانح الذكريات / حمد الجاسر ـ الرياض ، ١٤٢٦هـ

٢ مج

ردمك: ٢ ـ ٠ ـ ٩٧٢٤ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)

٠ـ١ـ٩٧٢٤ـ٩٩٦٠ (ج١)

١ـ الجاسر ، حمد بن محمد ـ مذكرات أ. العنوان

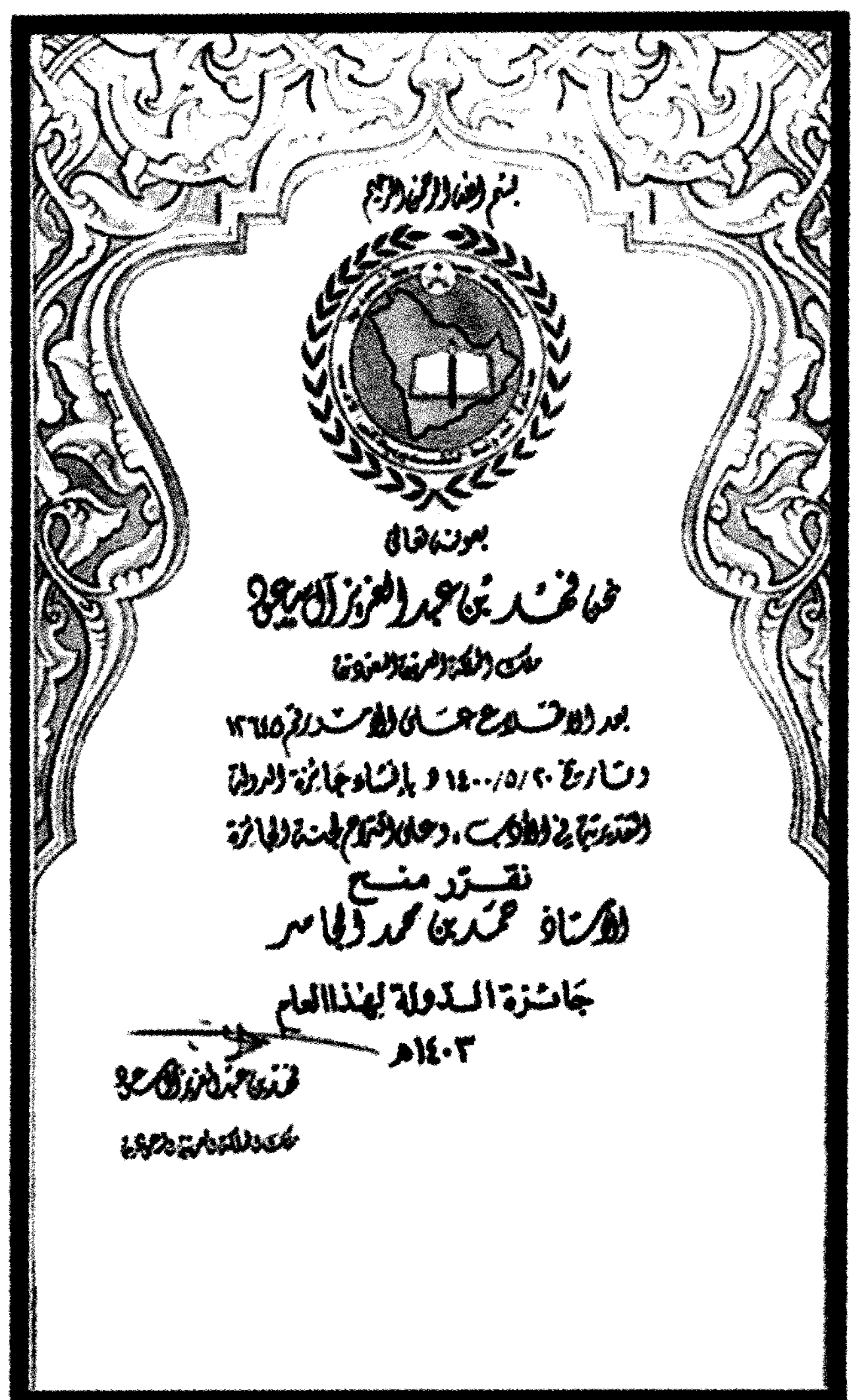
ديوي ٩٢٣.٩ ١٤٢٦/٧٦٩٥

رقم الإيداع: ١٤٢٦/٧٦٩٥

ردمك: ٢ ـ ٠ ـ ٩٧٢٤ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)

٠ـ١ـ٩٧٢٤ـ٩٩٦٠ (ج١)


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

بعونه تعالى

نحن فهد بن عبد العزيز آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية

بعد الاطلاع على الأمر رقم ١٣٦٦٥

وتاريخ ٢٠/٥/١٤٠٠هـ بإنشاء جائزة الدولة

التقديرية في الأدب، وعلى قرار لجنة الجائزة

نقرر منح

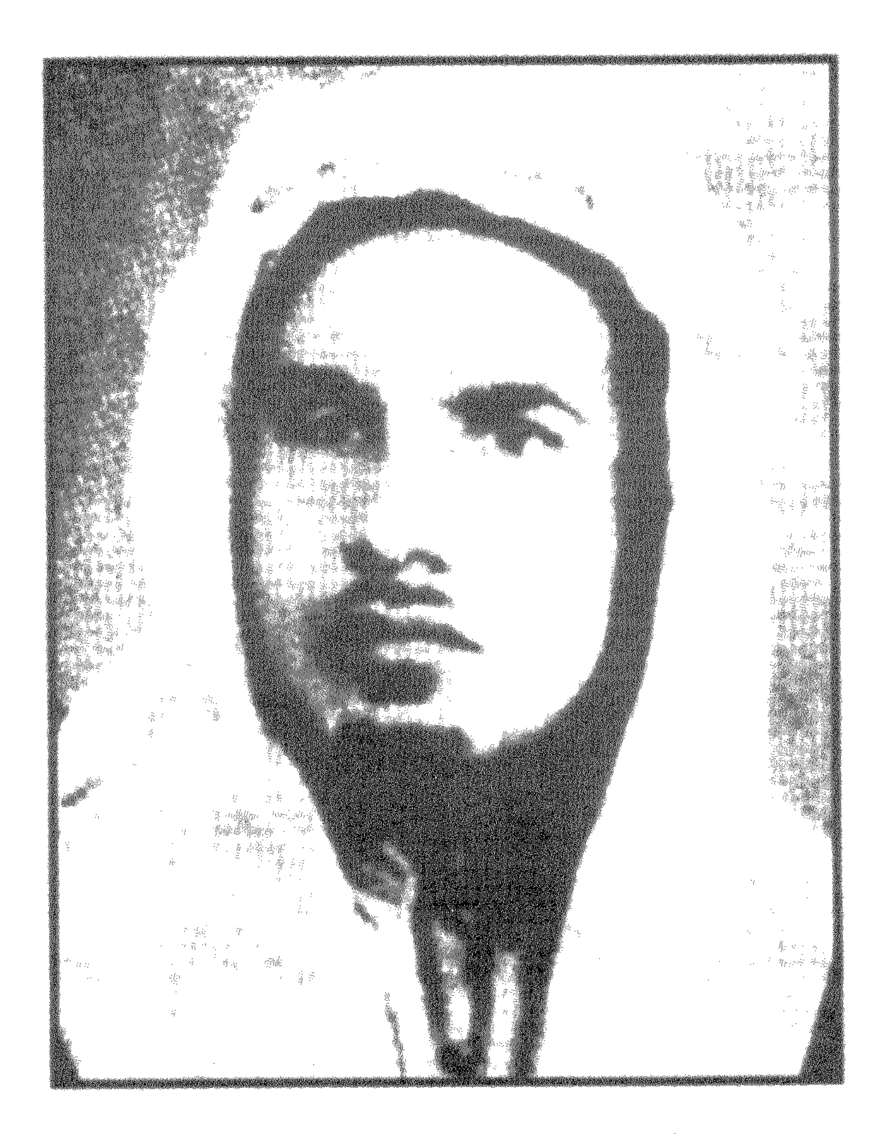
الأستاذ حمد بن محمد الجاسر

جائزة الدولة لهذا العام

١٤٠٣هـ

فهد بن عبد العزيز آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية



الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ في أيام شبابه



الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ مع سمو الأمير سلمان ـ حفظه الله ـ
في إحدى المناسبات

مُقَدّمَة

أحمد الله على توفيقه وأصلّي وأسلّم على خير خلقه الذي بعثه الله نبياً ومعلّماً وهادياً للبشرية.

ها هي دار اليمامة التي أسسها الوالد الشيخ حمد الجاسر رحمه الله قبل أربعة عقود لخدمة تاريخ وتراث وآداب العرب تواصل عطاءها بإصدار جديد، ولكن هذا الإصدار من نوع مختلف، فهو يُعنى بسيرة مؤسس هذه الدار منذ قَدمَ إلى هذه الدنيا وحتى سنوات العقد الأخير من حياته. وبين دفتي هذا الكتاب سُجّلت، وبأسلوب أقرب ما يكون إلى الرواية، معظم تفاصيل حياة الشيخ الجاسر: طفولته وسنوات تعليمه وحياته العملية في التعليم والبحث والتأليف والطباعة والنشر والصحافة، إضافة إلى جوانب أخرى لها علاقة بتطور المملكة العربية السعودية، عاصرها وكان له دور فيها.

وربما كانت الصفحات التي يضمها هذا الكتاب الحلقة المفقودة التي تُكمل ما نُشر عن حياة وإسهامات علاّمة الجزيرة الراحل، وقد سبق أن أصدر عدد من الباحثين في أوقات مختلفة عدداً من الكتب التي تناولت جوانب من حياة الشيخ الجاسر، وتراوحت ما بين رصد بيبليوغرافي لإنتاجه المنشور، وجهوده في مجالات البحث والتحقيق والتأليف والنشر، إلى إسهاماته في مجالات الطباعة والصحافة، وتوثيق لبعض ذكرياته في مقابلات أجريت معه في التلفزيون السعودي.

لقد نُشرت معظم مادة الكتاب في المجلة العربية في ثمان وتسعين حلقة، في الفترة من رجب ١٤٠٦هـ، الموافق لشهر آذار (مارس) ١٩٨٦م، إلى رجب ١٤١٧هـ، الموافق تشرين الأول/ تشرين الثاني (أكتوبر/ نوفمبر) ١٩٩٦م. ولكن تلك الذكريات ـ التي أسماها الشيخ الجاسر سوانحاً ـ خَلَتْ من تفاصيل مهمة للقراء والباحثين والمهتمين، ونُشرت مجزأة لا تتوفر بشكل كامل إلا لقلة من المهتمين. وبما أن العديد من العلماء والمثقفين والباحثين والقراء داخل المملكة وخارجها طالبوا بعد وفاة الشيخ الجاسر رحمه الله بإعادة نشر هذه السوانح في عمل واحد، فقد ارتأت دار اليمامة إعادة نشرها، وتكرّم سعادة الدكتور عبدالرحمن بن صالح الشبيلي مشكوراً بالإشراف على ترتيب وتنقيح مادة الكتاب، وإعداده للنشر.

وإلى جانب حلقات السوانح المنشورة، أضيفت مادة أخرى عُثر عليها بعد وفاة الشيخ الجاسر في مكتبته، وبذل الدكتور الشبيلي جهوداً مضنية لاستكمال مادة الكتاب من خلال مادة إضافية عُثر عليها خلال الفترة التي أمضاها في البحث والتمحيص. وبعد إكمال مرحلة البحث والتدقيق، رؤي تضمين الكتاب مواد أخرى لها علاقة مباشرة بمضمونه ولا يكتمل بدونها، فأضيفت إليه عشرات الصور والوثائق والرسائل التي لم يسبق أن نشر معظمها.

لقد بذل الدكتور عبدالرحمن الشبيلي ـ عضو مجلس أمناء مؤسسة حمد الجاسر الخيرية، وعضو لجنتها العلمية، والشخصية العلمية المعروفة ـ جهوداً مضنية في إعداد الكتاب للنشر، وحرص على مراجعة تجارب (بروفات) النسخة المعدة للنشر، الواحدة تلو الأخرى، وتم ذلك في فترة محدودة، رضي مشكوراً بتحمل الكثير من المشقة خلالها. ولا يُستغرب من باحث في مستوى الدكتور الشبيلي مثل هذا الحرص والسعي إلى اكتمال العمل المنجز، ليس فقط من منطلق علاقته الشخصية ووفائه للشيخ حمد الجاسر، بل ولأن له باعاً طويلاً في خدمة المعرفة والثقافة والبحث العلمي وخصوصاً ما يُعنى بالإعلام السعودي، من خلال ما أنجزه من أعمال وما أصدره من كتب في مجال الإعلام، فضلاً عن مشاركاته العلمية والمنبرية العديدة والمتواصلة بما فيه كتاب عن الشيخ الجاسر أخرجه ضمن سلسلة كتب لأعلام من بلادنا.

ولا يجد المرء حاجة إلى التعريف بشخصية معروفة ـ بل هي علم من أعلام الثقافة في المملكة ـ ولا إلى الجهود التي بذلها في خدمة بلاده، سواءً أثناء مسيرته الوظيفية الحافلة في وزارة الإعلام، أو في وزارة التعليم العالي حينما كان وكيلاً لها، أو في مجلس الشورى الذي كان عضواً فيه لثلاث دورات.

لذلك كله نجد أنفسنا عاجزين عن التعبير عن الشكر والتقدير والعرفان للدكتور الشبيلي على ما بذله من جهود، ولعل صدور هذا الكتاب على النحو الذي يسر القراء ويلبي حاجتهم ـ وهذا ما نرجوه ـ يكون معيناً لنا على ذلك. ولا ننسى في هذا المقام إسهامات اللجنة العلمية ـ ممثلة في رئيسها الأستاذ الدكتور أحمد الضبيب وزملائه الأفاضل ـ وإخوة آخرين في مركز حمد الجاسر الثقافي عاضدوا هذا الجهد وكانوا عوناً لُمعد هذا الكتاب ومُراجعه، فلهم منا جزيل الشكر والامتنان.. والحمد لله رب العالمين.

معن بن حمد الجاسر



المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني

الملاحق والكشافات





بين يدي السوانح*

هذه اللمحات قد تكون أوفى تفصيلاً، وأكثر مطابقة للواقع لو بَدَأتُ بتسجيلها في وقت كانت الذاكرة أقوى مما هي عليه الآن، ولكن ما كان هذا يخطر لي ببال قبل بضعة عشرَ عامًا، حين كنت في بيروت، قبيل الحرب الأهلية التي حدثت في ١٣ نيسان (إبريل) عام ١٩٧٤م، وأكملت عامها الحادي عشر في ٤ شعبان ١٤٠٦هـ (١٣ نيسان ١٩٨٦م)، فلقد كان بين يديَّ وفي ذاكرتي ما أستطيع الاستعانة به من المعلومات، وكنت قد فكَّرْتُ في تدوين بعض ذلك، وشرعتُ بإملاء جوانب منه تتعلق بالأعمال التي مارستها موظفًا، وفي الرحلات التي قمت بها، ولكن سرعان ما استعر أُوارَ الحرب، فأتى على كل شيء تحت يدي في تلك المدينة، ولم يبق سوى ما كنتُ نشرته في بعض الصحف، وما اختزنته الذاكرة الكليلة.

وها أنا ذا أَعصرها وأعود إلى بعض ما تحت يدي مما نشرته، لأدوّن هذه اللمحات كيفما اتفق، فقد أنساق في الاسترسال فيما أكتب، فأخرج عمَّا ينبغي أن أحصر فيه الحديث، وقد أستطرد فأذكر أمورًا قد لا تعني أكثر القراء، ولكنني تركت نفسي على سجيتها، لعل في ذالك ما يعين على تذكر ما يحسن تدوينه، وقد أضطر إلى إنهاء الكلام في مقام يحسن فيه الاسترسال، حيث لا تسعف الذاكرة.

---

* المجلة العربية، العدد (١٠٣) شعبان ١٤٠٦هـ / أيار ١٩٨٦م.

ولقد حاولت ـ ما استطعت ـ ألاَّ يكون للعاطفة أيُّ أَثَرٍ فيما أكتبُ، فلا أَهْضِمُ أحداً حَقَّهُ، ولا أصِفُه بما لا يستحقه، مهما كانت صلته بي، ولا أُبرز نفسي بغير مظهرها الصحيح ـ فيما أعتقد ـ ولو كان في ذالك ما يعرِّي هذه النفس مما جُبِلَت عليه النفوس الأخرى، من محبة الظهور بمظهر الإجلال والتقدير، فما الذي يجدي هذا المظهر حين يدرك المرء أنه مفارق عالم المظاهر إلى غير رجعة؟!

وبعد ذالك وقبله فما أتفه هذه الحياة على علاّتها وعللها، فكيف إذا اعتراها التزييف والتزويق؟!

حمد الجاسر

تمهيد

لم أكن لأجرؤ على مراجعة عمل قام به قمّة مثل شيخنا العلامة حمد الجاسر، أو على التجاسر على التعليق عليه بأي شكل من الأشكال.

ولقد كنت، واللجنة العلمية لمركز حمد الجاسر الثقافي، على اتفاق بأن هذا الأثر الثمين الذي تركه لنا الشيخ، ينبغي أن يبقى على ما هو عليه، كما كتبه وصنفه وعلق عليه، وأن أي مساس به يعد تطفلاً على الشيخ ومزايدةً على مكانته وفضله.

وكنت بالإضافة إلى ذلك ، أشعر بأن تلاميذ الشيخ الأقربين والملازمين له في حياته وندواته وجلساته هم الأَوْلَى والأحرى بالتعامل مع أعماله على اختلاف أنواعها ، فهم الذين يحق لهم النقل عنه وتفسير كلامه وهم الأعرف بطريقته وتوجهاته.

ومع أن الشيخ، رحمه الله، هو أستاذ الجيل في مجاله، وعلاّمة العصر في ميدانه، وأحد موسوعيي زمنه، وبالتالي فكلنا تتلمذنا عليه بشكل أو بآخر، إلا أنه لا يمكنني الادعاء بمقارنة نفسي بغيري من زملائي أعضاء مجلس الأمناء واللجنة العلمية، من حيث القرب منه والاتصال به، والتلقّي على يده، والغرف من مورده .

ومع ذلك، كان لابد من تجاوز هذه الاعتبارات، لأن من المهم أن تظهر هذه السوانح بالسرعة الممكنة دون مزيد تأخير، وأن تبدو بأقصى قدر ممكن وأوفاه من التكامل والشمولية ، والمظهر الذي يليق بمكانة مؤلفها،

وأن يتزامن صدورها مع مناسبة عزيزة على خاطره ـ لو كان بيننا ـ وهي مرور أربعين عاماً على صدور مجلته الأثيرة على قلبه (العرب) .

فماذا يمكن أن يكون قد بقي من السعادة والإمتاع أكبر من أن أعيش شهوراً مع هذه السوانح ، قراءةً وتعلماً ، وتدقيقاً يلامس الشكل ولا يمس المضمون ، ومراجعةً تتناول المظهر ولا تطال المخبر .

من هنا ، كان التعامل مع هذه النفائس التي خلّفها الشيخ من أصعب المواقف التي واجهتها اللجنة العلمية وواجهتُها ، وبخاصة بعد الاتفاق على ما سبق قوله من ضرورة بقاء السوانح كما كتبها الشيخ ، وكما أراد لها أن تظهر ترتيباً وموضوعاً وأسلوباً وعرضاً .

كانت قد راودتنا فكرة أن نعيد ترتيب الحلقات ، بحيث تنسجم مع التسلسل الزمني لمراحل حياته ، وأن نقوم بتجميع الحلقات المتجانسة تحقيقاً لمبدأ (وحدة الموضوع) ، إلا أن الرأي الذي غلب هو أن تبقى الحلقات وفق التسلسل الذي صدر عنه ، ووفق تواريخ نشرها ، خاصة وقد أسماها «سوانح» ، بما يفيد التلقائية ، كتبها حسبما عنّت له وسنحت على خاطره ، وكيفما وردت على ذهنه وساح بها قلمه ، دون أن يلتزم بتسلسل زمني معين ، مع أن من يقرؤها بشمولية وعناية سيجد بين حلقاتها كثيراً من الترابط ، ولو أنها تبدو ذات عناوين منفصلة .

ثم تداولت اللجنة العلمية في مسألة أخرى ، تتصل بالطريقة التي دأب الشيخ ، رحمه الله ، على أن يكتب بها بعض الكلمات ، خلافاً لما هو سائد في أسلوب الكتّاب والمؤلفين الآخرين ، فآثرت اللجنة الإبقاء على وضع تلك الكلمات (من أمثال اؤلئك ، وهاؤلاء ، وذالك) على الشكل

الذي كان يحبّذ كتابتها عليه، وتظهر في مؤلفاته وكتاباته الأخرى، والكلام نفسه يقال عن كلمات كتبها الشيخ بطرق مختلفة مثل: عروىٰ وعروا.. وضبا وظبا..الخ..

وسوف يلاحظ القارئ الكريم فيما سيلحظه، أن المعلومة الجديدة أو الكلمة الغريبة، قد تردان مراراً في ثنايا سوانحه، ثم يفطن الشيخ إلى أنهما بحاجة إلى توضيح، فيعمل على تحقيق ذلك في سانحة لاحقة، بل ربما وجد ضرورة إلى تكرار التعريف بمعلومة معينة، عند تكرر ورودها، وهو مالم نتعرض له بأي تغيير، آخذين بالاعتبار أنه كتب هذه السوانح منجّمة على مدى ما يقرب من اثني عشر عاماً.

إن من المعروف أن «سوانح الذكريات» التي بين أيدينا هي الخواطر والسيرة الذاتية الوحيدة التي سجلها الشيخ في حياته، وهي في الواقع تعد من أنفس ما خلفه، رحمه الله، من تراث فكري، وكان أن نشرتها (المجلة العربية) تباعاً، وقد دُونت في هامش كل عنوان المعلومات الوراقية (البيبلوغرافية) الخاصة بتاريخ نشر كل مقال ـ إذا كان قد نشر ـ وأرقام الأعداد التي نشر فيها مع دمج الحلقات المجزّأة، ثم أضيفت عليها ـ دون أي تدخل رقابي ـ تلك الحلقات التي لم تنشر في حينه، بل لقد أضفنا عليها مقاطع كانت (المجلة العربية) قد اجتهدت في حذفها لاعتبارات الرقابة الذاتية.

كما حرصت اللجنة العلمية على أن يضاف إلى هذه السوانح كل ما جرت العادة أن تشتمل عليه علمياً من الكشافات والفهارس التي تساعد الباحثين وتعينهم على احتياجاتهم من وراء قراءة هذه الذكريات.

وتوافقت اللجنة على ضرورة إضافة التواريخ الميلادية المقارنة للتواريخ الهجرية المهمة الواردة في نصوص المقالات، وذلك تحرياً لاستكمال الفائدة منها، كما اتفقت على استحسان قيامي بكتابة بعض الهوامش والتعليقات التوضيحية حيثما يكون مثل ذلك ضرورياً، على أن تميز كل إضافة داخل متن السوانح أو حواشيها بالقوسين الحاصرتين [ ] ، وبحرف (ش) من اسمي إذا ما وردت في شكل هامش مستقل، أما حواشي الشيخ فقد بقيت على حالها في آخر كل مقال ، وفقاً لما ظهرت عليه عند نشرها في (المجلة العربية)، مع فصل الهوامش التي كانت المجلة تضيفها، عن تلك التي كتبها المؤلف.

وقد رأينا أن من تمام حلية هذا الكتاب أن يضاف إليه بعض الصور والوثائق النادرة ، وبخاصة مما له صلة بموضوعاته.

لقد حرص الشيخ ، رحمه الله ـ على عادة العلماء الكبار الذين دوّنوا سيرهم الذاتية ـ على تجنب استخدام ضمير المتكلم ، واستعاض عنه بتعبير (صاحبنا أو الفتى) رمزاً إلى نفسه.

ويبدو أن الشيخ الجاسر ، رحمه الله ، كان بعد أن فرغ من كتابة هذه السوانح أو معظمها ، قد شرع في كتابة حلقات متممة بعنوان : من فائت السوانح، عثر منها على حلقتين فقط ، وحلقات إضافية أخرى تحت عنوان: البوارح على السوانح، عثر منها على حلقة واحدة، فألحقنا هذه الحلقات الثلاث ـ اللواتي لم يثبت نشرها قبلاً ـ في ختام الجزء الثاني (قبل الكشافات) نظراً لصلتها بموضوع الكتاب.

تبقى بعد هذا كلمة أخيرة ، وهي أن كل فرد من أسرة الشيخ :

حرمه أم محمد رحمه الله (هيلة بنت عبدالعزيز العنقري)، وابنه معن وبناته الأربع: د. مي و هند وسلوى ومنى، وأن كل منسوبي المؤسسة الخيرية ومركزها الثقافي وأعضاء اللجنة العلمية، قد أسهموا، كل بنصيبه، في إظهار هذه السوانح على النحو الذي ظهرت عليه، إلا أن هناك من قام بجهد استثنائي يستحق عليه تقديراً خاصاً، ومنهم الزملاء: د. أحمد الضبيب، وحمد القاضي، ود. عبدالله العثيمين، ود. عايض الردّادي، ود. عبدالله العسكر، ود. إسحاق يوسف، وفراس الخالدي، وخالد المانع، فلهم الشكر جميعاً، معترفين ـ صراحةً ـ أن الوقت كان يطاردنا لإنجازها في مدة تتوافق مع مناسبة الاحتفال بالذكرى الأربعين لصدور مجلة (العرب)، برعاية سمو رئيس مجلس الأمناء، سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض، مؤملين أن نتدارك ما يرد عليها من ملحوظات في طبعتها المتأنية القادمة قريباً بإذن الله، بعد أن نتلقى من قرائها الكرام ملحوظاتهم وتصويباتهم.

كم كنا نتمنى لو مدّ الله في حياة أبي محمد، ليكمل هذه السيرة، فلقد تبقّت جوانب كثيرة من إسهاماته الفكرية والعملية ـ ومن رحلاته وبخاصة إقامته في لبنان عدة سنوات ـ مما لم تغطّه الذكريات.

رحم الله كاتبها، وجزاه عن أمته خير الجزاء، وأثاب كل من عمل على إنجاز هذا العمل بأحسن ثواب.

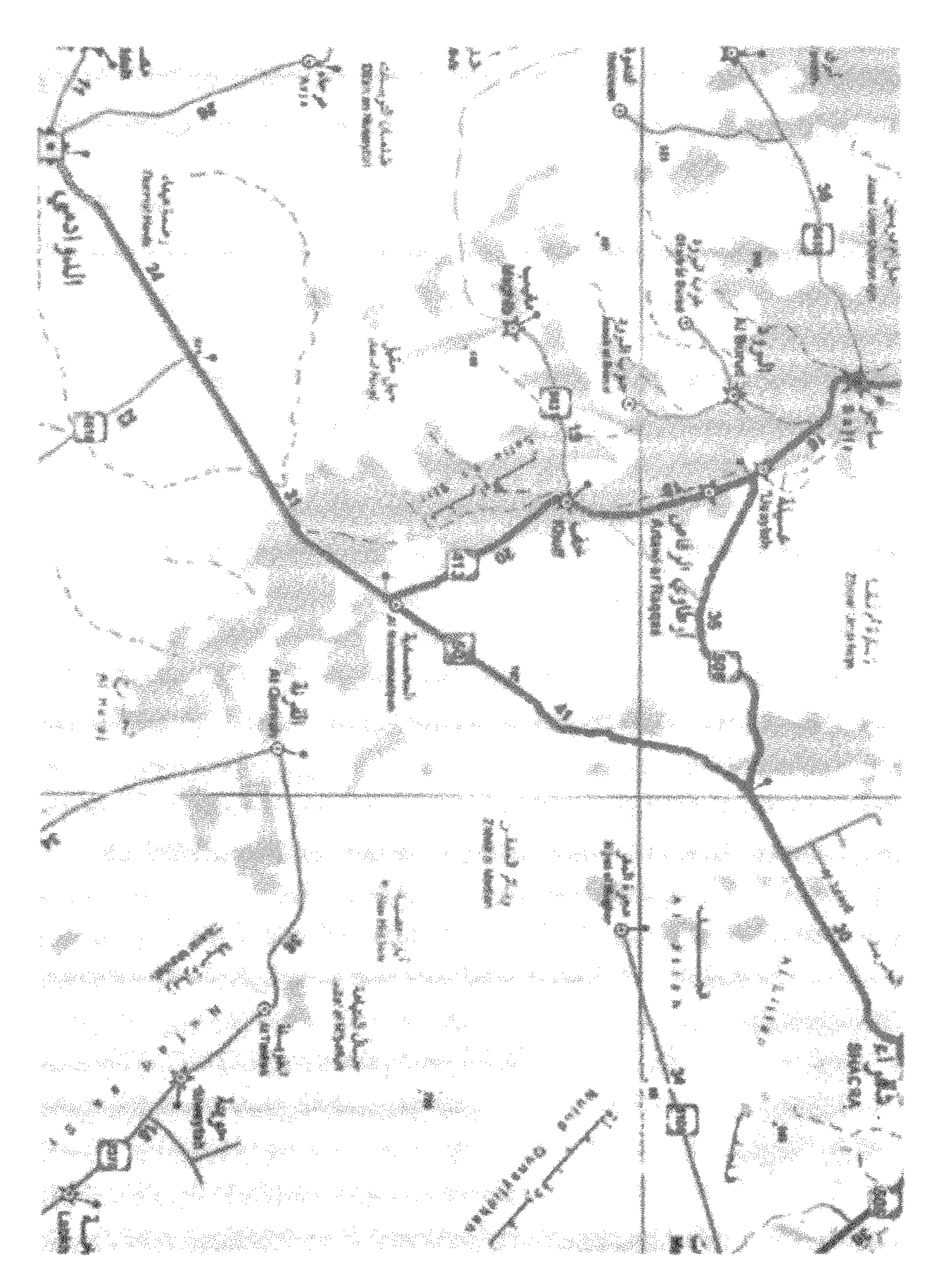
عبدالرحمن الشبيلي

عضو مجلس الأمناء، واللجنة العلمية

مركز حمد الجاسر الثقافي

الرياض ١ صفر ١٤٢٧هـ

١ آذار ٢٠٠٦م



قرية البرود ـ مسقط رأس الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله

المصدر : القطاع الأوسط ـ خرائط الفارسي

رحلتي الأولى إلى: مدينة الرياض*

كانت أولى رحلاتي إلى مدينة الرياض سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة وألف**، وقد تجاوز عمري إذ ذاك العاشرة بسنوات، وهي فترة من حياتي عشتُها عيشة بؤس وشقاء، وضَعف في صحتي مما انتابني من أمراض.

كان السفر صباحًا من قرية (شرقة) قرية أسرتي الواقعة على مقربة من بلدة (البرود) في الشرق منها بنحو أربعة أكيال.

وكان المرور ببلدة (شقراء)، والمبيت في ضيافة رجل من تجارها يدعى عبد العزيز بن يوسف بن عمار، كان ذا صلة بجدِّي لأمي علي ابن عبد الله بن سالم، لأنه يتولى بَعثَ ما يحتاج إليه في تجارته، وكان حسن المعاملة محبوبًا عند كل من عرفه.

ثم كان المسير في الصباح، فعرَّجنا ذات اليمين إلى قرية (غِسْلَة) وما كانت على القصد، ولكن لحاجة في نفس أبي، كنت أجهلها!

لقد أسرَّ إليه فهد بن محمد ـ الرجل الذي قابله بالأمس ـ بأن ابنه جاسِراً مريض، وأنه مُعانٌ (منضول) و(النضل) عندهم الإصابة بالعين، وهذا من الأمراض التي تعارف الناس عليها منذ عهود قديمة، وجاء الشرع بإقرارها: «العين حق، ولو كان شيء سبق القدر لسبقته العين».

وكنت أعهد الناسَ في زمن قريب ينسبون إلى العين كثيراً من الأمراض، وكثيراً من الأسباب التي تحدث تأثيراً سيئًا في أحوالهم، وكُنتَ ترى دائماً عند أبواب المساجد من يجلس وفي يده إناء فيه ماء يعرضه على كل خارج بعد الصلاة لينفث فيه ـ وقد لا يكتفي بالنفث ـ ويذكر عن

---

* المجلة العربية، العدد (١٠١) جمادي الثانية، ١٤٠٦هـ / آذار ١٩٨٦م، والعدد (١٠٢) رجب ١٤٠٦هـ / آذار ١٩٨٦م.

** يصادف بالتاريخ الميلادي عام ١٩٢٢م، والمعروف أن الشيخ حمد الجاسر، قد ولد في بلدة البرود من إقليم السر غرب مدينة الرياض، عام ١٣٢٨هـ تقريباً (١٩٠٩م). (ش).

الشيخ محمد الشنقيطي العالم المعروف الذي أسس في بلدة الزبير * (مدرسة النجاة) لما أتى مدينة عُنيزة ، ورأى ذالك الأمر قال : من الخُرافات فررنا ونشاهدها هنا ! !

فسافر إلى الزُّبير ، ومعاذ الله أن يقصدالشيخ إنكار أمر ثابت بنصوص شرعية ، ولكنه ينكر طريقة جمع (نفثات) الناس لعلاج المرض الذي لم يثبت أنه من العين ، ومن يدري فقد يكون ما يجمع من ذالك يُسبب المرض فضلاً عن أن يزيله ؟ !

ولقد كنت أعهد بعض العجائز تدخر قطعة من العجين يابسة ، تُسمى (عزيمة) فعندما يصاب أحد بمرض يطلب منها كسرة صغيرة تذاب بالماء لتسقي المريض ، ولا أدري ما سر هذه (العزيمة) إلا أنهم يقولون : إن (المطوّع) الفلاني المشهور قرأ فيها ـ أما كيف قرأ وماذا قرأ وهل قرأ حقيقة قرآنًا أو أدعية نافعة فعلم ذالك كله عند الله ! ! ـ وقد عرف ـ إلى عهد قريب ـ بعض القراء والعباد وذوو الصلاح يعملون (العزائم) كتابة بالزعفران في صحون من الصين ، يؤتى بها إلى المريض فتغسَل ويُسقَى الغسالة .

كان خالي سليمان [السالم]ساكنًا في (غسلَة) وعند طلوع الشمس أنخنا بباب داره ، فاستقبلنا وأكرمنا ، ورأيت أبي وقد أكلنا تمرًا مع القهوة يجمع النَّوى ، ثم عرض علينا خالي أن نخرج إلى طرف القرية ـ حتى يتم إعداد الغداء ـ ليرينا بئرًا حفرها ودعاها (قَرَنقوش) ، وأثناء وقوفنا عندها مال خالي ناحية ليقضي حاجته ، ثم أبصرت أبي يأتي إلى موضعه ويحمل التراب المبتل ـ ومعروف حكم التداوي بالنجس من الناحية الشرعية ، ولكن عاطفة الأبوة تتجاوز الحدود والقيود ـ .ثم

---

* كان تأسيسها في حدود عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، وقد خرَّجت عدداً من رجال التربية والتعليم في الخليج والأحساء ونجد. (ش).

أدركت ـ فيما بعد ـ أن الرجل الذي أخبر أبي بمرض أخي بالعين نسب ذالك إلى خالي و (الطعنة ما تجي إلاَّ من الصديق) على زعمهم.

لقد كان أخي مريضًا، ولكنه لم يُصب بعين خاله ولا بعين غيره من الناس، وإنما أصابته حُمْى المنطقة التي عمل فيها، وكانت مشهورة بالحمى (الملاريا) لكثرة مياهها الراكدة منذ أقدم العصور، وبحماها يضرب المثل: (حُمْى قطيف الخط أو حمى فَدَك)*، فقد أنشأ (الإخوان) من قبيلة العجمان لهم هجراً في وادي المياه (الستار قديمًا) غربي منطقة القطيف، ومن تلك الهجر (حَنيذ) حيث كان أخي مع خاله يعملان في البناء، فأصيب بالحمى، حين عزم على العودة ولكنها طرحته في مدينة الرياض حتى حضر إليه أبوه فأتى به إلى قريته بعد أن أبلَّ من مرضه، ولكنه ترك ابنه حَمداً لدى أحد أقرباء الأب من جهة الأم ويدعى عبد العزيز بن فائز ـ وآل فايز أخوال أبي ـ وكان مقيمًا في هذه المدينة لطلب العلم، وكان كفيف البصر، وما أكثر المكفوفين في الرياض ممن تلجئه ظروف الحياة ليتخذ من طلب العلم وسيلة للبحث عن الرزق، فيتجه لحفظ القرآن ـ أو سور منه ـ تمكنه من الاتصال ببعض بيوت الأمراء ليقرأ شيئًا مما حفظ ـ أو يتولى إمامة نساء ذالك البيت في صلوات التراويح في شهر رمضان، وكثيراً ما كان ذالك الكفيف على صفات من الذكاء والجد والفهم تهيأ له شق طريقه في الحياة بحيث يبلغ من العلم ما يؤهله لتولي وظائف عالية كالقضاء، ولهذا فلم يكن غريبًا أن يبرز من أولئك في ذالك العهد أشهر القضاة والعلماء.

لا أزال أذكر ما يردده أبي عليّ ـ حين يشاهد ما أنا عليه من ضَعف ـ

* الخط: اسم قديم يطلق على ساحل القطيف وامتداده، وفدك: واحة قرب المدينة المنورة لها شهرة تاريخية (انظر سانحة: مراقبة التعليم في الظهران) بالجزء الثاني. (ش).

مما معناه: هذا الشيخ عبد الرحمن بن عودان ـ وكان قاضي الجهة التي تقع فيها قريتنا ـ كان أبوه يقول: أنا ما أخاف على عيالي فهم أقوياء ويستطيعون أن يعيشوا كغيرهم من الناس، ولكن هذا «الأَعيمي» (تصغير أعمى) المسكين كيف يعيش؟! ثم يضيف أبي: فأصبح هذا «الأعَيمي» المسكين بفضل العلم يعيش إخوته بكنفه!! وكان أبي ذا صلة بهذا الشيخ حين عيِّن قاضيًا في هجرة (عُسيلة) أول ما تولى وظيفة القضاء، وكانت على مقربة من قرية (شرقة) فكان أبي كثير الصلة به، وكثيراً ما دعاه لإكرامه، وأذكر أنه طلب مني أن أسمعه (سورة الرحمن) فلما سمعها أثنى على قراءتي التي لم أغلط في كلمة منها، وهي قراءة لا تسير على قواعد التجويد، فما كان (المطاوعة) الذين كانوا يقومون بتعليم القرآن يحسنونها، وإنما كانت قراءاتهم تعتمد على الترنم، والتنغيم، ومحاولة تجميل الصوت، وإن استلزم هذا الخروج على تلك القواعد، وكان الشيخ ابن عودان يحسن النظم، فحفظت شيئًا مما نظمه، ومنه قصيدة قالها حين ولي القضاء وجهها للملك عبد العزيز ليعفيه منه، مطلعها:

أتعرف رسم الدار أم أنت تجهلُ؟ ... ديار تُعَفّيها جَنوبٌ وشَمأَلُ

بدأها بالغزل وتخلص إلى مدح الإمام، ثم قال:

فيا أيها الوالي الذي هو أعدل ... تأمل لشرح الحال إن كنت تجهلُ
أنا قاصر في العلم والحلم والحجا ... ولستُ إلى حكم القضا أتوصل
وإنَي لذو عجز وضَعفٍ وأنتم ... بذالكم أدرى وذا ليس يشكلُ
وحَمّلتني أمرًا مُشقًّا (؟) كأنه ... عليَّ من الثقل (طُوَيقٌ) و (يذبلُ)
فلا ترمِني في حفرة الشَّرِّ والردى ... فإني من العلم الشريف مُقَلّلُ
ولستُ بذي علم وحلم وفطنة ... وذي للقضا في العبد لابُدَّ تحصلُ
ومَعي أمورٌ لست أحصِي لِعدِّهَا ... تنافي شروطاً للقضاء وتضحِلُ
فسامح فَدَتك النفسُ وأرفق فإنني ... أمور القضا أثقالها لَست أحملُ

ـ إلى آخرها ـ ولا أزال أحفظها، كما أحفظ من نظمه مقطوعة قالها حول مغالاة بعض (الإخوان) في أمور زعموها من الدين، أولها :

يا أيها الباغي بطغيانه ليقلع الإسلام من أسه

ومنها :

وبعضهم همته نصره عصابة تلوى على رأسه
يحب فيها بل يوالي لها كـ (العروة الوثقى) لدى نفسه
ليست هي الوثقى ولكنها كالثوب أو كالخف في لبسه

-الخ-

تركني أبي في الرياض، في كنف ذالك الرجل الضرير، عبد العزيز ابن فايز، وكان يُعَدّ في ذالك من متقدمي الطلبة، وكان هؤلاء يصرف لهم من النفقة ما يقوم بحاجتهم من تمر وأرز، وقد يمنح متقدموهم نقوداً أو كسوة في الأعياد، من بيت المال الذي كان يتولاه في ذالك الوقت الشيخ حمد بن فارس، وهو عالم فاضل، معروف بالزهد والورع والعقل الراجح ، ومن اولئك الطلبة من يتولى صلاة التروايح بالنساء في قصور الأمراء، ويقرأ القرآن فيها في شهر رمضان، فينال بذالك رعاية خاصة، وكان صاحبي من اولئك، فهو يؤم في الصلاة ويقرأ في أحد قصور الملك عبد العزيز، ولهذا فقد كان في حالة حسنة في المعيشة، ولكنه بدأ به داء عضال كان يعرف في نجد باسم (الخنازير) وهو السرطان، عُقَدٌ تنشأ في الجسم ثم لا تلبث أن تتقيح وتنتشر بما يصل إليه إفرازها حتى تقضي على صاحبها، فقد برزت في الجانب الأيمن من الرقبة، فاستعمل لها من العلاج كيَّ المحيط بها ولكنها تجاوزته حتى انتشرت في الصدر، فاستعمل المراهم المختلفة التي كانت ترد من

الهند، من طريق شرق المملكة وبشرب أخلاطٍ من الأدوية كالصبر، و(العُشبة) المغلاة التي كثيراً ما تستعمل دواء لمن يصاب بالداء الأفرنجي (البلش) الذي يعبر عنه أحياناً بالشَّجر، وهو قروح تنتشر في مراقِّ البدن، وفي الأنف وما حوله.

لقد انهارت صحة صاحبنا حتى أصبح طريح الفراش، ولكنه كان يولي الصَّبِيَّين اللذين يعيشان معه ما استطاع من رعايته وحُسن توجيهه، فيحرص على أن يواصلا القراءة في حفظ القرآن غيباً، وفي إسماعه دروساً يومية من الرسائل المختصرة في التوحيد والفقه، ككتاب «ثلاثة الأصول» و«الأربع القواعد في التوحيد» وحفظ شروط الصلاة وأركانها وفروض الوضوء، والمواظبة على الصلاة ـ جماعة ـ في المسجد المجاور للبيت، وكان قد كفاهما مؤونة المطعم والمسكن، فلديه شاب أكبر منهما يدعى (الفريح) يتولى إعداد الأكل والقهوة، ويقوم بإحضار ما يلزم إحضاره من خارج المنزل، وما كان عمله في البيت يتطلب طويل مكث فيه، ولهذا فهو يقوم بأعمال أخرى خارجه أكثر وقته، سعياً وراء الرزق.

كان إعداد الأكل في الصباح لا يكلف كبير عمل، فالرز والتمر ـ وهما عماد الغذاء ـ موجودان في البيت، إذ يتم إحضارهما من بيت المال في أول كل شهر، كما يتم شراء فلذات شحم سنام، تحفظ زمناً، وعند إعداد الطعام يذاب جزء منها، بعد وضع البصل والتوابل فوقه إن وجِدَت، ويطبخ معه الرز، وعند الحاجة إلى اللحم ـ في الشهر على فترات قليلة ـ يُؤتى بشرائح من لحم الإبل من السوق لا يتجاوز ثمنها نصف ريال، بعظمها وعصبها، تطبخ حتى تنضج، ثم يوضع فوقها

الرُّز حتى يَشرَبَ ماءها، وقد يتخذ من مرقها إدام للخبز، وهذا هو الغداء، ويبقى منه للعشاء ما يكفي، ويعتبر التمر أساسًا في الغذاء، يؤكل في جميع أوقات الحاجة إلى الأكل، وقد يستعاض به في الصباح عن الغداء، مع اللبن الذي يؤتى به من السوق. ويتولى بيعه النساء، وكان لهن سوق يضم كثيراً منهن، يمتد بمحاذاة سور القصر الخارجي، بمواجهة السوق العام، وفي سوقهن تباع اللحوم المطبوخة، وخاصة الأطراف كالرؤوس والكروش والكوارع، كما يباع اللبن والزبد والخبز المعمول على الصاج (المِقرصَة). ومنهن من يتعاطى بيع الأقمشة والحلي وأنواع الطيب على اختلافها.

وللطلبة في نفوس أهل المدينة منزلة، إذ أغلب من يفد لطلب العلم غالبًا ما يكون من ذوي الفاقة، ولهذا فهم يجدون من العطف ما يهيىء لهم سبل المعيشة بيسر وسهولة، وكثيراً ما تجد أهل البيت، حين يكون فيه وليمة، لا ينسون جارهم من الطلبة، أو من كان في محلتهم من المحتاجين.

لقد كان عملي أنا وزميلي عند صاحبنا القيام بالأخذ بيده عند ذهابه إلى المسجد للصلاة أو للقراءة على الشيخ، وقراءة الدرس حتى يحفظه، وكان قد حفظ جُلَّ كتاب «زاد المستقنع» وقسماً من كتاب «بلوغ المرام» وكل كتاب «عمدة الأحكام» وأبوابًا من «ألفية ابن مالك» مع المتون المختصرة التي يبتدىء الطالب بحفظها في أول أمره.

وكان يحرص على أن نواصل الدراسة في حفظ القرآن، والمختصرات التي تقدم ذكرها، ويوضح لنا معانيها، ويقرأ عليه أحدنا بعض ما يصل إليه من المؤلفات الحديثة الطبع، ليستفيد هو. إلا أن المرض ـ بعد أن تمكن منه ـ أبقاه طريح الفراش، مكتفيًا بالاستماع إلى قراءتنا

بالتناوب، فنقرأ بعض سور من القرآن، أو في بعض الكتب، ويحرص على أن نستمر في حفظ ما وجهنا إلى حفظه، وما كنا نرتاح لما يبديه من حرص على ذالك، إذ من طبيعة من في مثل سننا الرغبة في الانطلاق في حياته من كل تكليف.

مكثنا في تلك الحال بضعة شهور، حتى بلغ الأمر بصاحبنا أن شغل بنفسه حين اشتد عليه المرض، إذ عَمَّ الداء رقبته وصدره، فصار القيح يسيل على ملابسه وعلى فراشه، وما يوضع على الجروح من أدوية ولفافات فوقها، وأصبح بحاجة إلى العناية به طول الوقت الذي يمضيه فريسة للآلام، لا يشتهي أكلاً، ولا يرتاح بنوم.

وما أصعبها ليلة من ليالي الخريف من عام ١٣٤١هـ [١٩٢٢م] وكان الجو غائماً، والبيت يخيم عليه الحزن والأسى، بهذا المريض الذي يواصل الأنين بين صبيين لم يكونا جاوزا مرحلة الطفولة إلا بزمن يسير، قد أرهقهما السهر، وتمكنت الوحشة في نفوسهما من طول مشاهدتهما لهذا الجسد المرعب منظره.

وما أقساها ساعة ـ عند منتصف تلك الليلة ـ حين أبصرا الدم يسيل بينهما بعد سُعال خافت من ذالك الجسد الملقى، من فمه ومن أسفله، أثناء اشتداد هطول المطر حتى تشقق سقف البيت فانهمر الماء غزيراً فاختلط الدم بما غمر ذالك الجسد الذي صار لا حراك به، في وقت كنت فيه أنا وصاحبي نتناوب قراءة آية الكرسي، وقلبانا يرتجفان، ثم لم نطق صبراً على الوقوف بجوار جسد صاحبنا الذي فارق الحياة، بعد أن امتلأت الحجرة ماء، وانطفأ السراج من شدة عصف الريح، فخرجنا من البيت، وأمضينا بقية ليلتنا واقفين تحت سقف الباب

الخارجي، حتى سمعنا أذان الفجر، فأسرعنا إلى المؤذن حين فرغ من الأذان، نستنجد به لتجهيز ميتنا ! !

علم أبي بوفاة صاحبنا ـ وكان في بلدة (الفرعة) يزور ابنته فمرض عندها فدفع راحلته إلى عم زميلي ليأتي بي وبابن أخيه من الرياض، فوجدت أبي على حالة من المرض يحتاج معها إلى عناية ابنته، حيث أصبح بدون أهل، فقد طلق زوجته، وتفرق أبناؤه فذهب اثنان منهما للبحث عن الرزق إلى مدينة بريدة، يعملان في البناء، وأنا بحاجة إلى من يعولني، فبعث بي إلى جدي لأمي في البرود، ولم يلبث أن وافاه الأجل، بعد أن تجاوز الستين من عمره بداء سل العظام في عام ١٣٤١هـ.

لقد كان النزل بيتًا صغيراً مجاوراً لبئر (دخنة) التي كان يستعذب الماء منها سكان مدينة الرياض، شرقي مسجد الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، يقع البيت شمال البئر، التي كان أكثر السقاة منها مكفوفي البصر، يأتي أحدهم فيلقم فم القربة في محقن ممتد من حوض من الحجر المحفور (قَرْو) ولا يعدمَ ـ لكثرة السقاة ـ من إنسان يجذب الماء بالدلو من البئر، فيملأ (القرو) ولكثرة تردد أولئك السقاة، وتعارفهم، يتعاونون فيما بينهم، وقد يقوم الواحد منهم بإيصال الماء إلى عدد من البيوت، التي أُعِدَّت فيها أوان كبيرة من النحاس، لتُمْلأ بما يكفي أهل البيت من الماء العذب طول اليوم، وهم يفضلون لكونهم لا يبصرون.

كان منظر أولئك السقاة من أول ما لفت نظري في هذه المدينة، لقرب البئر التي يسقون منها من البيت الذي كنت أسكن، وأذكر أنني كنت أطيل الوقوف عند دخولي وعند خروجي للنظر إلى ما يبديه أولئك من مهارة في عملهم عند إخراج الماء من البئر، وفي مَلءِ قِرَبِهم، وفي حملها

والسير في الطرقات بدون مرشد، بل أشاهد بعضهم يعرف بعضاً حين يحس بأدنى حركة من صاحبه، وما كان السقاة كلهم من هاؤلاء، بل فيهم من المبصرين والجواري السود.

كانت المدينة حللاً (حارات) صغيرة، متقاربة تتشابه بيوتها في الصغر، باستثناء القصر الملكي وقصور بعض الأمراء وهي قليلة، والبناء بالطين واللبن، ويزدان القصر بشرفات في أعلاه محيطة بجدار سطحه، وبتبليط أسافل جدران مجالسه التي في داخله بالجص المنقوش بنقوش تمثل دوائر أو مربعات، وكذا مقاهي الوجهاء وذوي الثروة، وتسقف البيوت بخشب الأثل وبعسبان النخل، وقد تنقش بعض السقف التي تتوسط في البيت، أما الأعمدة التي يقوم عليها السقف في المنازل الواسعة فتبنى من الحجر والجص.

وللقصر الملكي* جناحان مستطيلان أحدهما غربي ممتدّ من الشمال نحو الجنوب والآخر ممتد من الطرف الجنوبي من الجناح الأول نحو الشرق، وفي الأول المجالس المعدة لاستقبال الوفود، وغرف الديوان الملكي، ويمتد منه جسر متصل بالمسجد الجامع، حيث يؤدي الملك صلاة الجُمَع، وفي الدور الأسفل من هذا الجناح (المَضيف) والمَقهى، وفي جانبه الجنوبي المطبخ، وفي حوش متصل بالقصر حجر بيت المال، بما تحويه من أطعمة، وبقربها المسجد، وأمكنة لاجتماع الخدم.

وكان في جانب من الحوش في ذالك الجناح أربع نعامات واحدة منهن بيضاء، والثلاث سود، أتِي بها من الربع الخالي.

وكان دخول هذا الجناح مباحاً لكل واحد، بعد أن تنتهي المقابلات الملكية.

---

* من الواضح أنه ـ في هذا التاريخ ـ يتحدث عن القصر القديم، المجاور لقصر الحكم (الديرة) والمصمك وجامع الإمام تركي بن عبدالله، وهو ما أوضحه لاحقاً، أما قصر المربّع فقد اكتمل بناؤه بعد هذا التاريخ بأكثر من عشر سنوات (ش).

وطِراز البيوت متشابهٌ، وتمتاز بيوت الوجهاء بالسعة وقوة البناء، وقلَّ أن يخلو بيت من بئر يستعمل ماؤها للنظافة.

والاستصباح بسرج توقد بالقاز، تحيط بفتيلها بلورة كبيرة من الزجاج، وأكثر الأواني يؤتى بها من الهند، إلا ما يصنع في البلد كقدور النحاس، وصحاف الخشب، أما أواني القهوة فمن صناعة الشام ـ إلا الفناجين فمن الصين وكذا بعض الصحون.

ولا يخلو بيت من مقهى (حجرة للقهوة) وتسمَّى (ديوانية) وتكون غالبًا في مقدَّم المنزل، وتخلو أكثر المنازل من المراحيض، ولهذا كان الناس يقضون حاجاتهم خارج سور المدينة، وما يوجد من أمكنة لذالك في القصور أو البيوت الكبيرة تكون برجًا صغيراً في أعلى المنزل، وله باب منفرد يستعمل عند استخراج ما فيه إذا امتلأ، ولا تسل عن انتشار الروائح الكريهة من جراء فتح تلك الأبراج الصغيرة.

ويضايق المرء كثرة الكلاب في الشوارع، وخاصة بين سوق النساء الواقع بجوار القصر غربًا منه وبين المجْزَرَة المقابلة لذالك السوق، الفاصلة بينه وبين الشارع العام الممتد من باب الثميري إلى المسجد الجامع، الذي يقع غربه شارع ممتد من الشمال إلى الجنوب، حيث ينتهي عند طرف المقيبرة، التي يظهر أنها إحدى المقابر القديمة، وهي واقعة غرب قصر ابن ناصر الذي تولى إمارة الرياض في فترة من فترات ضعف الحكم، وكان يحيط بهذا القصر حَفْرٌ ممتد غرب القصر الذي شيد القصر الملكي شرقه، وهو واقع وسط المدينة التي تشمل محلات (حارات) صغيرة منها: الحلَّة، وهي الواقعة بقرب القصر، والظُهيرة في شماله، والقَريّ في شرقه، والدِّحوُ في الجنوب الغربي منه، ودخنة في الشمال الشرقي،

وبها يسكن العلماء من آل الشيخ وغيرهم، وتقع منازل الأمراء - كالإمام عبد الرحمن [الفيصل] والأمير محمد بن عبد الرحمن والأمير سعود بن عبد العزيز الكبير - في الشمال الشرقي من القصر غير بعيدة عنه.

ويحيط بالمدينة سور من الطين، ذو أبراج عند الأبواب الستة وهي: باب الثُمَيري في الشرق، وباب المَذبَح في الغرب، وباب آل سُويلم في الشمال، وباب دخنة في الجنوب، وغرب هذا الباب باب الشميسي.

وتقع أقوى حركة في المدينة في الشارع الممتد من باب الثميري حين يحاذي الجانب الشرقي من القصور، جنوب محلة الظُهَيرة - تصغير ظهرة - وكانت أرضًا صخرية بارزة عما حولها، وكذا الأرض الواقعة بينها وبين القصر، ولهذا تدعى الصفاة، وفيها فيما يلي باب القصر الواقع في شمال طرفه الغربي ينيخ الوافدون على الملك حيث يتم استقبالهم من طلوع الشمس حتى ارتفاع النهار، وفي جانب الصفاة يقام سوق بيع الإبل، بحيث يمتلىء المكان آخر النهار.

وبامتداد الشارع غربًا من الصفاة إلى المسجد الجامع يقع البيع والشراء، والدكاكين محيطة بالمسجد، وممتدة بامتداد الشارع الواقع غربه، نحو الجنوب، وفي جنوب المسجد تمتد دكاكين تنتهي من الغرب بدكاكين الجزارين، وخلف هذه الحوانيت فيما يلي سور القصر يقع سوق النساء.

وكانت المدينة تقع وسط غابة من النخيل، والقادم إليها من الغرب أول ما يطرق سمعه - قبل مشاهدة شيء من معالمها - أصوات (المحاحيل) - جمع محالة - حيث تخرج السواني الماء من الآبار لسقي

الحدائق والبساتين، ويُختار لذالك أنواعٌ من الحمر، ضخام الأجسام، بيضاء الألوان غالبًا، لا البقر، الذي قلَّ أن يخلو منه بيت للانتفاع بلبنه.

ولعل أبرز مظهر للحركة والنشاط ما يحدث أمام القصر الملكي في صباح كل يوم، سوى يوم الجمعة، حيث تزدحم الساحة الواقعة هناك، والمعروفة باسم (الصَّفَاة) بالوافدين من مختلف أنحاء البلاد، فينيخون رواحلهم في تلك الساحة، ويستقبلون كُلٌ بما يستحقه من حسن الضيافة وكرم الوفادة.

ولا تخلو تلك الأيام من إقامة (عرضات) على الخيل، وكان مما أذكر أن فيصل بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ قدم من بلاد عسير في جمادى الآخرة من عام إحدى وأربعين وثلاث مئة وألف، فأقيم في صباح اليوم الثاني حفلُ استعراض[1] خارج المدينة في البطحاء، وكانت خالية من العمران، باستثناء حائط صغير يسقى ببئر تعرف باسم (حَجر).

ولا أزال أذكر أنَّ جُل الذين حضروا لمشاهدة السباق على الخيل، كانوا جالسين بامتداد السور، من قرب باب الثميري، جنوبًا إلى نهاية السور شمالاً.

وكأني أشاهد الملك عبد العزيز يتبارى هو وأخوه الأمير محمد ـ رحمهما الله ـ وكانا راكبين على فرسين شقراوين، وكان الأمير محمد يلبس عباءة (برقاء) من نوع يؤتى به من العراق، وكنت أُمَيِّزُ ملامح الأمير محمد، فأراه رَبعَة من الرجال، مستدير الوجه، كثَّ اللحية، ذا شاربين، واسع العينين، وكانا يسيران بجوار الجالسين على فرسيهما سيرًا هادئًا، بينما كانت الخيل تعدُو وسط الوادي ذاهبة وآيبة.

وكان الملك ـ رحمه الله ـ في تلك الأيام كثير الاختلاط بسائر

الناس، بحيث من السهل لكل امرىء أن يقابله، وأن يُفضي إليه بما في نفسه.

وكان للعلماء مجالس محددة ومعروفة في كل يوم، يرتادها طلبة العلم للدراسة في أوقاتها، ويزورهم غيرهم، ليفضوا إليهم ببعض شؤونهم.

وما كانت الجمعة تقام إلا في المسجد الجامع الكبير في وسط المدينة، وفيه وفي مسجد الشيخ عبد الله وفي مسجد الشيخ صالح تقام حلقات لتدريس الطلبة بعد صلاة الفجر حتى طلوع الشمس، وبعد صلاة الظهر، وفيما بين صلاتي العشاءين يجلس كل شيخ للاستماع إلى قراءة أحد طلبته في كتاب من كتب التفسير أو الحديث أو الفقه المشهورة، بينما يستمع إلى ذالك الدرس العامة من الذين يحضرون لصلاة العشاء.

الحاشية:

(١): شبه الجزيرة ـ للزركلي ص ٢٥١.

البادية في عهد الفوضى*

تكاد تنحصر أسباب المعيشة في بلاد نجد في فترة استقرار أسرة الشبول[١] في قريتهم البرود ـ أول القرن الثاني عشر على وجه التقريب ـ في الزراعة في الأعم الأغلب والتجارة لقليل جداً من السكان، هذا بالنسبة للحضر المستقرين في القرى والمدن، أما أبناء البادية فإضافة إلى وسيلة حياتهم الأولى وهي تربية أنعامهم من إبل وغنم فإن ظروف الحياة قد تلجئهم إلى ارتكاب وسائل أخرى، فيها خروج عن المألوف، ومخالفة لقواعد السلوك والأخلاق، من إغارة بعضهم على بعض، أو التعدي على أصحاب القرى بنهب مواشيهم وأموالهم، ومثل هذه الأمور مما تأصَّل في النفوس واستقرَّ منذ العهد الجاهلي، ولم تستطع تعاليم الدين الحنيف اقتلاع جذوره من نفوس أكثرهم، ممن استقر على حالة البداوة، فأظهر الانقياد للإسلام ظاهراً حين انتشر في الجزيرة [قالت الأعرابُ آمنّا قل لم تُؤمنوا، ولكنْ قُولوا أسْلَمْنا ولمّا يَدخُلِ الإيمانُ في قلوبِكُمْ] ولهذا سرعان ما رجع أكثر أبناء البادية إلى شبه حالتهم الأولى بعد وفاة رسول الله ﷺ، ومنعوا أداء الزكاة، وقال قائلهم:

أَطَعنا رَسُولَ الله مَا كانَ بَيْننا	فَيَا لَعِبادِ الله مال (أبي بَكرِ)[٢]؟!
أَيورِثُهَا (بكراً) إذَا مَات بَعدَهُ؟	وتِلْكَ لَعَمْرُ اللهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ!

وبعد إخضاعهم بالقوة في عهد النبي ﷺ ثم في عهد الخلفاء بعده انقادوا ظاهراً، ولكنهم عادوا إلى حالتهم بعد انتقال قاعدة الخلافة من الجزيرة، وانصراف الخلفاء عنها حتى كادت تنسى من رقعة الخلافة

* المجلة العربية، العدد (١٠٣) شعبان ١٤٠٦هـ / أيار ١٩٨٦م.

الواسعة باستثناء جوانب منها، كان للدولة من المصلحة في حمايتها ما تحافظ به على مكانتها بين العالم الإسلامي، أو كانت ترى في الحفاظ عليها مما يزيد في تماسكها وقوتها، فكانت تولي حكام تلك الجوانب ـ كالحجاز واليمن والبحرين ـ من الاهتمام بالقدر الذي يُهيِّىء للدولة نفسها الاطمئنان على مصالحها، وما كان اؤلئك الحكام على درجة من القوة تمكنهم من بسط نفوذهم لإضفاء الأمن ونشر الاستقرار فيما حولهم من البلاد، بل تكاد سيطرتهم لا تتعدى مدن أقاليمهم، فأصبح قلب الجزيرة تحت سيطرة القبائل التي لا تخضع لسلطان قاهر، ولا تنقاد لنداء عقل أو ضمير، بل تتصارع حين يقع الاختلاف بينها لأتفه الأسباب، وتسعى حين تقسو عليها الحياة في مختلف السبل لتخفف تلك القسوة، وترى فيمن لا يسير على نهجها في الحياة، من صفات الخور والضعف والهوان، ما يدفعها أن لا تحسب له أي حساب، وهكذا نظرتها إلى سكان القرى، بل إلى الحضر عامة (أغْزُ على الحضيري وُرْدَياك السلامة)[٣]، لهذا كانت حياة سكان القرى دائماً حياة قلق وخوف، فهم إن حصّنوا مساكنهم ـ وكذالك كانوا يفعلون ـ بإحاطة قراهم بالأسوار والأبراج العالية، حفظوا مواشيهم داخلها فكيف يصنعون بمزارعهم، ومراتع مواشيهم؟!، وليس لديهم من القوة لحمايتها وما يستطيعون به ردّ عادية البوادي، مما يفوقهم كثرة وقوة.

إنهم يلجأون في كثير من الأحيان إلى مصانعة أدنى القبائل إليهم، بما يمنحونه بعض رؤسائهم من طعام أو كساء، ليكون (أخاً) لهم، يحميهم من الاعتداء عليهم، ويسمى ما يُدْفَعُ (إخاوة) ولكن ما أقل جدوى هذه (الإخاوة) حين يكون الاعتداء من غير قبيلة (الأخ) أو من إنسان من القبيلة نفسها أقوى منه.

وأبناء البادية في تصرفاتهم التي ما كانت بواعثها سيئة، بل كانوا أقرب إلى الطبيعة (الفطرة) الخالية من الشر، ولكن الحاجة تضطرهم، فيلجأون إلى ما يدفع غائلة الجوع عنهم ، وهم في ذالك لا يلامون، لأنهم يرون لهم حقًّا في مشاركة إخوانهم الحضر، بما أنعم الله عليهم، ومع ما يتخذه الحضر من وسائل لحماية أنفسهم ، وبمصانعة رؤسائهم وشيوخهم بما يدفعون لهم عن طيب نفس، إلا أن بعض النفوس من المتلصصة ممن لا يد لشيوخهم عليهم، ممن يهتبل فرص الغِرَّة والانشغال، من الأفراد المعروفين باسم (الحنشل) ممن يقنعه خطف اليسير من متاع أو لباس يستر به عورته، ينهب ذالك بطريقة الخطف بسرعة، ولهاؤلاء طرائف وغرائب، وما يحدث منهم لا يصح أن ينسب إلى قومهم، الذين لا يستطيعون منعهم، ومثل هاؤلاء كانوا معروفين بين العرب في العهد القديم.

وكثيراً ما انتقلت القبيلة فحلَّت أخرى مكانها، أو غلبت على أمرها، كما هي حالة قبائل نجد في مختلف العصور (نجد لمن طالت قناته)[٤] حتى أنعم الله على هذه البلاد بالأمن والاطمئنان بتوحيد أجزائها، وبالتأليف بين سكانها بروابط الأخوة، حتى زالت العداوة، وثبتت الألفة، وقوت أواصر المحبة، فأصبح الجميع إخوانًا متحابين، منذ استقرار الأمر لموحد أجزاء هذه المملكة الملك عبد العزيز ـ طيّب الله ثراه ـ .

وحين استقرت الأمور للدولة السعودية في دورها الأول فترة من الزمن (منتصف القرن الثاني عشر الهجري) شملت البلاد حالة من الأمن والاطمئنان، فانتعشت أحوال السكان بصفة عامة، وتمكن أهل القرى من الاتساع بنشاطهم الزراعي في نواحي قراهم، يحيون أرضها

بحفر الآبار في رياضها، وإنشاء المساكن بقربها، فلا تلبث أن تصبح أماكن استيطان في الفصول التي تصلح فيها زراعة تلك النواحي صيفاً أو شتاءً، أو هما معاً، فانتشر بقرب قرية البرود عدد من هذه الأماكن، واتسع فيها السكان بوجود قرى صغيرة استقر فيها أهلها، أو قصوراً زراعية تزرع أرضها في أحد الفصول الذي تصلح فيه زراعتها، فقد تكون مياه الآبار بدرجة من الملوحة بحيث لا تصلح إلا لزراعة فصل الشتاء من القمح، حيث يساعد ريّ الزرع هطول الأمطار فتصبح حاجة الزرع إلى ماء تلك الآبار قليلة.

وأكثر تلك القصور والقرى والآبار المعدة للزراعة تقع شرق البلدة، وفي الشمال الشرقي منها، إذ الجهة الغربية محصورة بمنطقة صلبة من الأرض، تعرف قديماً باسم (الحَلَّة) وحديثاً باسم (الصَّفْرَاء)، من الصعب في تلك الأزمان حفر الآبار فيها، ويصعب تسهيلها بوسائل ذالك العهد، وتكون المياه غائرة جوف الأرض من غير الممكن استخراجها، للاستفادة منها، في تلك الرياض الواسعة الصالحة للزراعة.

أما في عصرنا الحاضر، فقد تغير جميع وسائل الحياة، فأصبح ـ بفضل مخترعات الحضارة ـ ما كان صعباً أو مستحيلاً في الماضي سهلاً وممكناً، بحيث أحييت تلك المنطقة بالسكنى، وحفرت فيها الآبار وانتشرت المزارع بكثرة.

كان أقرب مكان يقع شرق البلدة روضة مستطيلة، تمتد من الجنوب إلى الشمال، بحيث تفيض أودية وشعاب كثيرة، تملأ الأرض سيولها التي تستريض فيها، أعلاها يدعى (القاع)، أدركته في أوائل عشر الخمسين من القرن الماضي مخصصاً ليشترك جميع السكان في زراعته

شتاء، عندما يجود الغيث فيزرع بَعْلاً ، لا يحتاج إلى سقي طول الفصل ، وكثيراً ما يجود زرعه، ثم سمح في العهد الأخير منذ نحو أربعين عاماً بإحيائه بعد ذالك بحفر الآبار فيه، والبناء والاستقرار جميع فصول العام، وكان يتصل بـ(القاع) رياض طيبة التربة واسعة، أُحْيِيَت بحفر الآبار، وإعدادها للزراعة ، وغرس النخل على بعضها، وكانت آبارها معروفة بأسمائها، ويظهر أنها لبعض الأسر التي استقرت في عهد متقدم في بلدة (البرود) وما بقربها من القصور، منها (حمدانة) و(قليب الراشد) و (مشعانة) وغربها بجوارها (البديع) وعلى هاتين البئرين الأخيرتين نخل حسن ، وشمالها (أُمّ خُشَيم) لوقوعها بقرب أكمة بارزة ، ثم شمالها قصران يدعيان (الحَزْم) لحفر آباره فوق مرتفع من الأرض ، غرب روضة واسعة تدعى (الغَرْبَة) تملأها سيول وادي (القرنة) من أشهر أودية منطقة (السِّرّ) بقوته وبُعْد مأْتَاهُ، فهو ينحدر من المرتفعات الغربية في أعلى المنطقة، شرقة (الدوادمي) مارًّا بآبار (خُفٍّ) و (الخُفيفية) اللتين كانتا من أشهر مناهل البادية قديمًا، وقد عُمِرتا حديثًا فأصبحتا (هِجْرَتَيْن)، ويتجه الوادي شمالاً ، فيمر بآبار (عسيلة) وكانت من المناهل أيضًا، فعمرت (هِجْرَةَ) في عهد إنشاء هِجَرِ أبناء البادية في أول عشر الأربعين من القرن الماضي، واستقر فيها (الحُفَاة) من الرُّوَقَة من قبيلة (عُتَيْبَةَ)، وبقرب (عسيلة) قبل عمرانها آثار آبار درست، منها (النَّمْلِيَّات) التي حاول جاسر بن حمد الجاسر جَدُّ الأسرة إحياءها، ولكنه عدل عن ذالك، واستقر أولاً مع أسرته في (البرود)، ويقع

شمال (النَّمْليات) فيما بينها وبين (الحزم) آثار عمران قديم، منها برج متهدم يعرف باسم (برج تركي) وغرب آبار (الحزم) بقربه قصر يعرف باسم (الصَّدْع)، كانت بئره حفرت في موضع صَدْعٍ في روضة فَأُنْبط ماؤها، فأصبح قصراً زراعياً، وغرب (الصدع) تقع آبار (ساجر) وهو منهل له ذكر في الشعر الجاهلي القديم، وقد اتخذ (هجْرة) عند إنشاء الهجر، لفرع (الحَناتِيش) من (الرُّوَقَة) من (عُتَيْبة)، وشرق (ساجر) غير بعيد، تقع قصور تعرف باسم (سِنادَات) واحدها (سناد) لأن آبارها حفرت في (سَنْدَاء) من الأرض، أشهرها يدعى (حَزْمِيَّة) وشمالها (سَناد) لآل فليح، وجنوبها (سَهْلة) لآل حوشان من آل مُشَوَّح، ثم تمتد قرى (السر) وآباره شمالاً، بامتداد الأراضي الصالحة للزراعة حتى منطقة (العيون) فالقصيم.

وأما العمران في الناحية الشرقية، فمن (القاع) وآبار (الروضة)، تقع قرية تعرف باسم (شَرْقة)، وجنوبها في أعلى روضتها قصر (الصُّدَيع) وهما لآل جاسر، وشمالها قصر (القصير) لآل مشوح، فآبار ضعيفة شماله منها (الجُوَيُّ) و(الحُسَيُّ).

وأما من الناحية الجنوبية من بلدة (البرود) فالعمران لم يحدث فيها إلا متأخراً في أول عشر الخمسين من القرن الماضي، حين حفر سليمان بن شتوي ـ دوسري الأصل ـ بئر (مُصَيْبيحة) بمشاركة الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان، من أهل (شقراء) ولكنه تخلص منه بعد خلاف بينهما، فاختص بالبئر وأبناؤه من بعده، تلك أشهر ما كان يتبع قرية (البرود) من قرى وقصور زراعية، وآبار قديمة.

وفي آخر القرن الماضي شملت البلاد جميعها نهضة عمرانية باكتشاف المياه الغزيرة الجوفية في وسطها، فلم تبق بقعة لم تعمر، وتسابق المواطنون إلى ذالك، فأنشئت قرى كثيرة، وأحييت مساحات واسعة من الآراضي، مما لا يتسع المجال للحديث عنه.

الحواشي:

(١) الشبول: العشيرة التي تنتمي إلى الكتمة من فرع بني علي من قبيلة حرب.
(٢) «تاريخ ابن جرير» ٣/٢٤٦، و«الأغاني» ٢/٥٧ ط دار الكتاب.
(٣) أي خذ ما استطعت منه، واتل ما تنال به السلامة من شره (رديك) عاقبتك وأراد ما يصيبك منه.
(٤) القناة: هنا يقصد بها الرمح الذي كان في الأزمنة الماضية من أشهر أنواع الأسلحة، ويعبر بطول القناة عن شجاعة حاملها، أي حكم نجد لمن غلب بالشجاعة.



الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ مع الشيخ عبدالكريم الجهيمان في اليونان

حياة الفلاح في الماضي*

يتعرض الفلاح ـ بعد ما يزرع الأرض ـ لكثير من النكبات التي تحلّ بزرعه، فتوقعه في حالة من البؤس والحاجة، بحيث يكون فريسة للتاجر.

وكانت موارد التجارة ـ في العهد الذي أدركت آخره ـ تكاد تنحصر في البيع والشِّرَاء، والسَّلَم، في بيع ما يؤكل ويلبس وما يكملهما، وفي المضاربة وهي دفع نقود لآخَرَ، على أن يتصرف بها والربح بينهما على ما اتفقا، أما السَّلَمُ فهو الفخُّ الذي بواسطته يصاد الفلاح.

إن الفلاح قبل أن يُقْدِم على عمله بحاجة إلى تهيئة ما يلزم له، فلا بُدَّ من وجود دواب من بقر وإبل للسَّنْيِ ـ إخراج الماء من البئر ـ ومن أدوات لذالك من غُرُوبٍ ومحالٍ ودرَّاجات وأعمدة وأرشية وما يكملها، ثم هو بحاجة أيضًا إلى قُوتٍ لأهله طوال فصل الزراعة، وإلى ما يبذر به الأرض من حبوب، وهذا يتطلَّبُ حصوله على نقود يدفعها ثمنًا لحاجاته، ولهذا يلجأ إلى التاجر.

ولقد أدركت كل من يشتغل بالتجارة من القادمين إلى البلدة من إقليم الوشم من أشيقر، أكثرهم منهم آل الحُصَيْني، وآل ابن حمد، وآل ابن ضُوَيَّان، ومن الفرعة من آل فايز، وأكثرهم يحضرون وقت استواء الثمرة لاستيفاء دينه.

يأتي الزارع فيطلب من التاجر مبلغًا من النقود، بالقدر الذي يفي بحاجته، ويقابل محصول زرعه، فيتم ذالك بين الاثنين بطريقة (الكَتْب) المعروف عند الفقهاء باسم (السَّلَمِ)، ولكن التاجر يجعل نصبَ عينيه

* المجلة العربية، العدد (١٠٤) رمضان ١٤٠٦هـ / حزيران ١٩٨٦م.

الاستحواذَ على جميع أحوال الزارع قبل كل شيء، بحيث يصبح في المستقبل تحت رحمته، لا يستطيع فكاكًا من قبضته، ولا يدفع له كل المبلغ الذي يطلب منه، بل ما يعتقد أن محصول زرعه يفي بسداده كاملاً.

إن الزارع يُقْدِمُ على عمله من الاستدانة مضطراً، لأنه لايجد أمامه وسيلة من وسائل العيش سوى امتهان الفلاحة التي ورثها عن سلفه، وأَلِفَها، وأصبح لا يحسُّ بما تسببه له من بؤس وشقاء، ولا يتأثر مِن جَرَّاء ما قد تثقل به ظهره من كثرة الديون، وسوء معاملة صاحب الدين، فكل شيء يسهل أمام (الجوع) الذي قال عنه المصطفى ﷺ «بئس الضجيع»، والمثل يقول: أحْيِني اليوم وأمِتْني غداً.

ها هو محتاج من النقد إلى مئة ريال مثلاً، وهو واثق بأنَّ غلة زرعه ستفي بسدادها، إلا أن التاجر قد لا يوافق إلا على دفع ستين ريالاً، بعد أن أدخل في حسابه ما سيتقاضاه من الربح الذي يقارب الضعف في خلال الفصل الزراعي الذي لا يزيد على خمسة شهور، فإذا كان القمح تباع ثلاثة آصُعٍ منه الآن بريال، فإن الريال الذي سيدفعه للزارع لا يقل عوضه عن ستة في الغالب، مع اتخاذ كافة الوسائل التي تمكن التاجر من السيطرة التامة على ما يملكه الزارع، حفاظًا على ما في ذمته من الدين، وبقائه في أَسْرِه طول حياته.

وطريقة التوثيق في القرى على درجة من السذاجة والضعف، فيأتي التاجر وعميله إلى أيِّ إنسان في القرية يحسن الكتابة، فيقدم له التاجر دفتراً فيكتب فيه (أقر فلان بن فلان بأن في ذمته لفلان بن فلان

مبلغ ست مئة وستين صاع بُرّ، كتب ستين ريالاً ثمن سُقْمَة وسواني وخلافها، يحل وفاؤها عند الحصاد هذا العام، وقد أرهنه بذالك زرعه وسوانيه .. إلخ، شهد بذالك فلان بن فلان وشهد به كاتبه فلان بن فلان، ثم التاريخ). وقد تكون الكتابة على حالة من الضعف بحيث تصعب قراءتها، وقد يكون الكاتب أو الشاهد غير من سُمِّيَ، ولكن جرى الأمر عند وقوع خلاف حول أمثال تلك الوثيقة أنَّ القضاة في ذالك العهد يصححونها.

وأذكر أن أحد التجار ممن كان أبي يستدين منه، كان بعد وفاة أبي بزمن قدم إلى بلدة البرود، وقت زراعة البَعْلِ ــ الزرع الذي لا يحتاج إلى سَقْيٍ بالسواني ــ فقال لي: أنا خَالُكَ، والدُك الله يغفر له باق عليه لنا دين، فساعدْنَا على الْجَرَار ونسامحه، فخرجت معه وعملت سائقًا للدواب التي تَجُرُّ الحرَّاثة سبعةَ أيام، حتى انتهى حرثُ بَعْلِه، وما كان المدينون إذْ ذاك يتوثقون من التاجر في إبطال وثيقة دينه، بل يثقون به، فَيَدَعون الأمر إليه، وقد ينسى، وقد يموت قبل ذالك، بل قد يتساهل فيه مما يسبب تراكم الدين على الزارع ثم مطالبة ورثته من بعده.

فُوجِئْتُ بعد وفاة ذالك التاجر بسِنِيْنَ بابن أخ له يبرز لي ورقة كتب فيها أنَّ على أبي لفلان بن فلان كذا ريالات، وكذا آصَعُ من البُرِّ، وكذا من الذرة، وشهد بذالك فلان .. وكاتبه فلان .. ونقله من خطه بعد معرفته فلان ــ وهذا الناقل أعرفه حق المعرفة ! فما كان مني حين عرض عليَّ ابنُ أخي التاجر الورقة ــ وذالك بعد إكمالي الدراسة متخصصاً في القضاء ــ إلاَّ أن قلت له ــ من قبيل رَدِّهِ بالحسنى : اذْهَبْ بهذه الورقة

واعرضها على أيٍّ قاض، فإذا أثبت مضمونها دفعته لك. وما أسرع ما عادَ إليَّ بها وقد ذُيِّلَتْ بتوثيقها وصحة ما تحتويه، مختومة بختم قاضي إقليم معروف، مما اضطرني إلى دفع ما تضمنته، لئلا يقال عني: إنني أطعن بحكم قاضٍ شرعي.

بين جشع التاجر وآفات الزراعة*

ليس كل ما يصفو للزارع من نتاج عمله مخصصاً لوفاء دينه بل هو مطالب بالتزامات أخرى، فهو بحاجة إلى عُمَّالٍ يساعدونه، بل يقومون بأعمال الزراعة، ويسمون (صِبْيَانًا) لا يقلون عن ثلاثة، مُصَدِّرٌ، ورائِسٍ، ومَلْحُوق، الأول: يتولَّى سوق السواني التي تخرج الماء من البئر، والثاني: يقوم بتوزيع الماء في أحواض الزرع، والاثنان يتناوبان في عملهما، والثالث: يُشْرِفُ على أعلاف الدواب (السواني) فيأتي لها بالعلف من البر أو من الزرع، ويقدمه لها، وهاؤلاء الثلاثة يعملون طول الفصل، وهناك عمال آخرون عند بَدْءِ حرث الأرض، ووقت الحصاد، وقد تحتاج البئر لحفرٍ حين يقلُّ ماؤُها، وكل اؤلئك يتقاضون أجوراً قد تضطر الفلاحُ إلى تكرار الاستدانة.

ثم إنَّ الزرعَ نفسه مهدَّدٌ بأنواع من الآفات التي تهلكه، منها العطش عندما ينضب ماء البئر، أو تموت السواقي بسبب وباء أو قحط، يجعل الحصول على العلف الذي تنبته الأرض متعذراً، أو انهيار البئر وعجز الفلاح عن وجود عمَّال يقومون بحفرها، ومنها البَرْد ـ بإسكان الراء ـ في زرع الشتاء، فكثيراً ما يشتد حتى يموت الزرع، ومنها البَرَدُ ـ بفتح الراء ـ فقد يحدث سقوطه بعد أن يستتم الزرع قائمًا على سوقه، فيأتي عليه حتى يسقط على الأرض، ومنها الجراد أو الدَّبَا الذي كثيراً ما يَجْرِدُ الزرعَ بأكمله حتى تصبح الأرض خالية، وهناك آفات وأمراض للزراعة كالصفار والهياف والشَّرَقِ والدُّود وغيرها.

---

* المجلة العربية، العدد (١٠٥) شوال ١٤٠٦هـ / حزيران وآب ١٩٨٦م.

وزراعة فلاَّحي القرى محصورة بأربعة أنواع من الحبوب: في الشتاء القَمْحُ وهو المحصول الرئيسي، وقد يزرع بجانبه أحواض قليلة من الشَّعير، لعلف الدواب، وللحصول على جزء قليل من ثمره كثيراً ما يؤكل في أول نضجه، إذْ يُحَمَّصُ ثم يطحن ويعجن، ويسمى (سهْواً) يؤكل بعد عجنه بالماء، وفي فصل الصيف تزرع الذرة، كما يزرع الدُّخْن.

ولا عناية بزراعة الْخُضَرِ سوى قليل من البطيخ في وقته على جوانب السواقي، ويسمى الأصفر منه جِرْوٌ ـ جمعه جِراوة ـ والأحمر جُحًّا ـ واحدته جُحَّةٌ ـ، وفي الشتاء يزرع نوعان من القرع الأصفر المعروف بالشامي، واليقطين الأخضر ذو الرقبة (الرُّقيبي) والأول يترك حتى تصلب قشرته لكي يخزن ليستفاد بأكله زمناً طويلاً، وقد يترك الثاني حتي يَجْبُرَ ـ أي تشتد قشرته ـ لِيُنْقَفَ مافي الجوف، ويستفاد بالقشرة سليمة باستعمالها إناءً للسمن ونحوه، وتسمى دَبَّةً، والفلفل الأخضر والباذنجان والبصل مما يزرع بقلة، وقد تقوم النسوة بزرع بعض ما يحتجن إلى استعماله كالحُلْبَة والرشاد (الثفاء) والحبة السوداء (الخُضَيْراء) والكَمُّون في أحواض صغيرة في طرف الزرع، يتعهدْنها بالعناية حتى تثمر، أما البادنجان الأحمر (الطماطم) فلم تعرفه قرى نجد إلا بعد الاتصال بالحجاز سنة ١٣٤٣ هـ [١٩٢٤م].

عندما يستوي الزرع ـ متى سلم من الآفات ـ ويحين حصاده، يكون التاجر قد أشْرَأَبَّ للحفاظ على الثمرة، لئلا يتصرف الزارع بشيء منها حتى يستوفي دينه كاملاً، وأنَّى له استيفاء دين قُصِدَ منه استغراق ما قُدِّرَ للزرع من ثمرة قبل حصولها، فتراه منذ بدء الحصاد حتى تصفية الحب ملازمًا لمراقبة الزارع لئلا يختلس ولو ما يقيت به أهله أيام

الحصاد، ولو أردتَّ أن تنظر إلى أسْوإ خلق الله منظرًا، وأشدهم أسى واكتئابًا لما رأيت أسوأ من منظر الزارع وقد حاصره التاجر ليستولي على ثمرة جُهده وتعبه وشقائه خلال خمسة شهور.

يُحْمَلُ الحبُّ بعد كيله إلى محل التاجر، وقد يحظى الفلاح بنظرة عطف منه فيسمح له بقدر يبقيه له في (القُوع) يجمعه مع بَدَادِ ما حوله من متناثر الحب في مكان تنقيته.

ثم يأتي الحساب، ومن النادر أن تجود الثمرةُ حتى تفي بما على الزارع من دين، ولكنها في الغالب تقارب ذلك، وما بقي من الدَّين يسمى (خَنِيْسًا) ولوفائه ـ في نظر التاجر ـ طريقة لا تجري وفق ما أمر الله به من الإنظار ﴿وإنْ كانَ ذُوْ عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ﴾ بل على نظرة التاجر إلى هذا العميل، فإن أحسَّ منه من التَذمُّرِ والاستياء ما يحمله على الظن بأنه سيبحث في المستقبل عن تاجر آخر للتعامل معه في الفصل الزراعي المقبل فلابُدَّ من محاولة قَصِّ جميع أجنحته، لقد بقي له ما يعينه في مستقبله، فالسواني، وآلات الحراثة كلها لا تزال بيده، إلاَّ أن في يد التاجر سيفًا مصلطًا، تلك الوريقة التي نُصَّ فيها على رهن السواني وغيرها لوفاء الدين كاملاً، وثمن الرهن قد لايفي بالباقي (الخَنِيس)، من الخير إذن ـ للزارع أولاً ـ الانصياع لرغبة التاجر، وإضافة (الخَنِيس) إلى دين الفصل الزراعي الآتي، وقد يُقْلَبُ ويوحَّدُ مع ذالك الدين، وإن خالف هذه قاعدة (قلب الدين على المعسر) وسيبقى الزارع في أسر هذا التاجر مدة حياته، بل قد ينتقل الأمر إلى ورثة الاثنين، وقد تبلغ الحالة بينهما إلى توقف التاجر عن الاستمرار في معاملة عميله عندما يبلغ درجة من الفاقة تعجزه عن أداء

ديونه، كتوالي سني القحط مما يسبب ضعف الفلاحة، قد لا ينطبق هذا على كل التجار الذين يتعاملون مع الفلاحين، ولكنني أتحدث عن حالة عانيتها، وكان من أثرها أنِ اضطر أبي حين لم يجد من يدينه في قريته بعد تراكم الدين عليه وعلى أبيه من قبله الانتقال في إحدى السنوات إلى قرية الفَيْضَة، والتعامل مع تاجر من أهلها، إلاَّ أن الدَّبا أتى على الزرع ـ وكان على بئر تدعى (عَقْلة) وشريك أبي في الزرع محمد بن عويويد الباهلي ـ فلحق بنا من الفاقة والجوع ما أذكر أننا في يوم كامل لم نَجدْ ما نطعمه، وفي أثناء الليل أتى أبي بقليل من التمر، يحمله في حجره فأطعمنا، لقد استدان ثمنه دريهمات قليلة من رجل يدعى ابن غازي، أوفيت أبناءه ذالك الدين، بعد وفاة أبي.

ولقد قمت بوفاء ديون على جدِّي جاسر وعلى أبي، بعد ما مات أصحابها وطلب ورثتهم وفاءها. وأعرف عدداً من الفلاَّحين حلَّ بهم الفقر والْعَوزُ بسبب تراكم الديون عليهم، وامتناع التجار من معاملتهم، حتى أصبحوا عالةً يتكَفَّفُون الناس.

معيشة أهل القرى..*

وعن حالة الفلاح في مطعمه وملبسه فحدِّثْ عن البؤس ولا حرج، القمح والذرة هما عماد الغذاء، والقمح يُخْلَطُ بالشعير بمقدار يتناسب مع حالة صاحب البيت جدَةً وفقراً، ويُصنع منه من الأطعمة ما يطبخ أقراصًا ويسمى (مرقوقًا)، وإن كانتْ صغيرةً مدورة سميت (مطازيز)، ويضاف إلى هذا الطعام القرع، ويؤكل عشاء، ويصنع من القمح طعام الصباح، وهو أقراص تعمل على الْمِقْرَصَة أو تصنع بالتنُّور صغيرة، وهذه ألذ وأطيب من أقراص المقرصة، وهي قطعة مستديرة مُقَبَّبة، تتخذ من حديد (الصاج) توقد النار تحتها حتى تحمى، فتوضع فوقها الأقراص، وهي نوعان: القرصان رقيقة جداً وكبيرة، و(المراصيع) أصغر من الكف، وليست برقّة (القرصان)، والتنور بُرمةٌ مستديرة نصف قطرها يقارب ربع متر، وعمقها نصف متر، تصنع من طين جيد كهيئة الزِّير، المستعمل لتبريد الماء في الحجاز، ثم تحفر لها حُفرة تسقط فيها، وإذا أُريد استعمالها أُوقِدَت النار داخلها حتى تحمى ثم أُلْصِقَت الأقراص عليها حتى تنضج كأقراص الفرن إلا أنها أصغر.

وغالبًا ما يكون في بيوت الفلاحين من البقر أو المعز ما ينتفعون بلبنه وزُبَده.

ويُطْبَخُ طعامُ البر ـ بنوعيه المرقوق والمطازيز ـ مع القرع والباذنجان، أو مع اللحم والقديد (القفر)، وهو اللحم المقدّد المملّح الميبَّس في الشمس، الباقي من لحوم الأضاحي، وهذا نادر، لأنَّ اللحم لا يوجد إلا

* المجلة العربية، العدد (١٠٦) ذو القعدة ١٤٠٦هـ/ آب ١٩٨٦م.

في حالات قليلة، عند إكرام ضيف عزيز، أو موت دابَّةٍ بمرض أو حادث، أو في عيد الأضحى، حيث يقوم الموسرون بذبح الأضاحي، كلٌّ على قدر جِدَتِه، يقددون منها ما يبقى شهوراً.

ويصنع من القمح طعامٌ يدعى (جَرِيشاً) حيث يُجْرَشُ نوع من الحب يسمى اللُّقَيمي ـ منسوب في الأصل إلى قرية اللقيم من قرى الطائف ـ يمتاز بكبر الحب، ثم يطبخ بالماء كما يطبخ الأرز، وقد يضاف إليه اللحم أو اللبن، وهذا الطعام هو مايقدَّمُ عادة للضيوف وفي الأعياد.

وللطبقة المتوسطة الحال والغنية طعام يدعى (الحُنَيْني) يصنع من خبز البر، يُلْبَكُ الخبزُ بعد تقطيعه قطعاً صغيرة بالسمن النقي، وبالتمر المنزوع النَّوى، ولعل هذا النوع من الطعام ما عناه الشاعر القديم في مدح ابْنِ جدعان القرشي بأنه كان يقدم لضيوفه (لُبَابُ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِّهَاد) والشَّهْدُ ـ العسل ـ كان كثيراً في الحجاز، أما في نجد فاستعيض عنه بالتمر لكثرته.

ومن أطْعِمَةِ الفلاحين طعامٌ يصنع يوم الجمعة ـ غالبًا ـ في أوقات الخِصْبِ، فتجمع رَبَّةُ البيت زُبْدَ ما لديها من (منائح) جمع (مَنِيحة) وهي البقرة أو الغنم التي تحلب، ثم تضعه في قدر، وتُذيبه على النار، وتضع عليه قليلاً من الدقيق، لترسيب مافي الزبد من شوائب اللبن، ثم تُصَفِّي السمنَ، وتضع فوق ما رَسُب تمراً، تَدُوفه به فوق النار، ثم يقدم للأكل، وهو عندهم من ألذ وجبات الغذاء، ويسمى ما يستخلص من الزبد (خلاصة) و(قشدة).

وهناك أطعمة أخرى تصنع من القمح أو الذرة أو الدُّخْن، أما الأرز فلم ينتشر استعماله عند فلاحي نجد إلا بعد منتصف القرن الماضي مع

أنه كان يزرع في الأحساء، وأول ما عُرف منه نوع كان يأتي من العراق يسمى الهَبيش، ذو قشرة خشنة، ويدعى التُّمَّن أيضًا.

والبُرُّ بمختلف أطعمته مأكولُ الطبقة العليا من الفلاحين، أما المتوسطة والفقيرة فمن الذرة أو الدخن أو الشعير المخلوط بيسير من القمح، وتتخذ من الذرة أقراص تعمل على المقرصة تسمى (مصابيب)؛ لأن عجينها لا يتماسك، فهو يُصَبُّ فوق المِقْرَصة حتى ينضج، وقد يجرش حَبّ الذرة بعد نقعه بالماء ـ وكذا الدخن ـ كالأرز ـ ويسمى ما كان من ذرة (مُخَرَّمًا)، وما كان من دُخنٍ (هَرِيسًا)، ويعمل من النوعين طعام هو الغالب يدعى (العَصِيد)، يطبخ الدقيق من أحدهما بقدر من الماء ـ كما يطبخ الأرز ـ ويصلح طعام الذرة والدخن المطبوخ بإضافة قطعة من الشحم المحفوظ، تسمى (حَزْرَةً) و(محْزَرةُ) تصنع غالبًا من الأضاحي، حيث يُجمع الشحم المختلط بأجزاء من اللَّحمِ أو الأمعاء، ويُخلط بما رقَّ من اللحم، ثم يُوضع داخل الكرش، ويترك في الشمس برهة، ثم يعلق ويبقى زمنًا حتى يذْبُل، بعد أن تتغير رائحته، وفي الاستعمال يضاف إلى الطبيخ ـ عصيدًا أو مُخَرَّمًا أو هريسًا ـ قطعة صغيرة منه، تضيف إليه دَسمًا، وتجعله مُتَمَاسِكًا عند الأكل، وقد يجعل مع (الجريش) عند الحاجة إليه.

والتمر ـ لدى الفلاحين ـ غذَاءٌ رئيسٌ، ولكنه لا يتوفر لكل أحد كل وقت، ويؤكل في وجبة الصباحِ مع اللبن (فكوك الريق)، وقد يكتفى به (هجورا) وهو ما يؤكل ظهراً بين وجبتي الغداء والعشاء ـ لأنه يؤكل في الهاجرة وهي منتصف النهار ـ وكثيراً مايقدَّم لدى ذوي اليسار مع القهوة، ويسمى (قُدُوعًا)، ولعله سمي بهذا لأنه يَقْدَع الجوع، أي

يكسر حدَّتهُ، وفي الأثر: (اقدعوا هذه الأنفس) أي اكسروا نزعَاتها إلى ما تَهْوَى من المعاصي. ويقال عند تقديمه: اقدع ـ أي كُل منه ـ.

ومتى أنعم الله على الفلاح بالخصب واستطاع أن يَقْتَني بقرة أو غنمًا فيها حليب فإنه يعيش في رغد من العيش، لا من حيث ما يوجد في بيته مما به يطيب أكله من لبن وسمن فحسب، بل لما يتوفر له مما تقوى به فلاحته من وفرة الماء في الآبار، ورِيِّ الزرع بالمطر بدون كلفة، وكثرة العشب لإطعام ما لديه من دواب، بل قد يشارك القوم أنعامهم في الانتفاع بما تنبته الأرض من الأعشاب التي لا يجدون غضاضة في جَنْيها وأكلها، كالْحُوَّاءِ والبَسْبَاس والْبَقْرَاءِ والذَّعَاليقِ والْحَوْذَان والْعُنصُلِ والْحَرْفِ، ومنها ما يضيفونه إلى ما يطبخونه من طعامهم، ليزداد، لا ليحسنه، وذالك في أوقات الحاجة كالخطْمي والرَّشْوَة والحنْزَاب (الحنْبَاز) والدَّعَاع، وهو حُبَيْبَاتٌ سُودٌ صغيرة، ينبت عشْبها في الرمال غالبًا ـ شبيه بما يسمى شمال الجزيرة (السَّمْح) ـ انظر كتاب «في شمال غرب الجزيرة» ص ١٠٠ ـ.

أما الْهَبِيْدُ، وهو حبُّ الحنظلِ، فَيُحْتَاجُ إليه في أوقات الجدْب والفقر، يوضع ذالك الحب في حُفَرٍ، ويُجْرى فوقه الماء حتى تزول مرارته، ثم يجرش ويعجن بالماء داخل خرقة صفيقة، ويعصر حتى يخرج جميع مافي داخل الحب، ولا يبقى سوى القشر، وتكون العصارة كاللَّبن، ثم توضع على النار فتصير لذيذة الطعم.

ولا كـ (الْفَقْعِ) المعروف قديمًا باسم (الكمأة) حين يجود الغيث مبكرًا وقت الوسم، وهو أول الربيع، يستبشر الناس بوجوده، ويسعون لجمعه، فيأكلون منه، ويخزنونه بعد تيبيسه في الشمس.

نساء الفلاحين*

ومَرْأَةُ الفلاَّح هي خير مُعينٍ له في جميع أعماله، وتتولَّى نساءُ الفلاحين حَلْبَ البقر والغنم، وإعْدَادَ اللبن، من تَرْوِيبِ الحليب، ثم مخضه لاستخراج الزُّبْدِ منه، وحينئذ يكون مُعَدًّا للشرب، ولاستعماله إدَامًا لبعض الأطعمة، وكثيراً ما اكتفي به غذاء على حد المثل: (اللبن مقطِّع الشهوات). وهن ربَّاتُ بيوتٍ حقًّا، ويقمن بكثير من الأعمال التي لا تقتصر على العناية بأطفالهن، وإعداد الطعام، والقيام بجميع شؤون البيت، ومنها طحن الحبوب، ونَسْج بعض الفرش من الخوص أو الصوف، وإعداد أغطية الأواني مما ينسجن، وخياطة الملابس، بل يقمن بأعمال أخرى خارج المنزل، فيأْتين بالماء العذْب للشرب من آبار عادة ما تكون خارج القرية، وبالْحَطَبِ من الْبَرِّ، يَحْمِلْنَ ذالك على ظهورهن مسافات طويلة، يذهبن صباحًا مبكراتٍ فلا يَعُدْنَ إلا ظُهْراً، بعد أن أجهدْنَ أنفسهن.

وهن يشاركن الرجال في أعمال الفلاحة، كإعداد علف الدواب بجمعه من الزرع أو من الْبَر، ومن تهيئته من نَوَى التمر المَرْضُوخِ المطبوخ، ويقمن بالمساعدة في قطاف سنبل الذُّرَةِ والدُّخْن عند الاستواء، وبلقاط ما تساقط من سنبل القمح عند حصاده، بل كثيراً ما تُشَاهِدُ الرجَالَ والنِّسْوَةَ متشارِكين في جميع أعمال الزراعة بدون استثناء.

وبيوت الفلاحين وما تحويه من أمتعة وأوان تتناسب مع رقة أحوالهم، فالقصر المحاط بسور ذي باب يقفل ليلاً اتقاءً لهجوم اللصوص، يحوي هذا القصر عدداً من البيوت بقدر السكان، والبيت قسمان: حوشٌ مكشوف أكثره للمواشي، وبجانب منه مكان معدٌّ للطبخ وللتَّنُّور،

* المجلة العربية، العدد (١٠٧) ذو الحجة ١٤٠٦هـ / آب ١٩٨٦م.

والقسم الثاني بَهْوٌ مسقوف يدعى (مُجَبَّبًا) هو مجتمع أهل البيت للأكل والجلوس، وبداخله حجرة للنوم، يجتمع فيها كل أهل البيت غالبًا، وفي جانب منها بعض حاجات أهل البيت، وفي سطح المنزل غرفة تغلق على ما أُعِدَّ من طعام للمستقبل، والبناء كله من اللبن والطين، والسقوف من خشب الأثل، ولا نوافذ في البيوت، فلا تدخلها الشمس ولا الهواء.

والاستنارة في الليل قد تقتصر على النار، واستعمال السُّرُجِ نادرٌ في القرى، وكنت أعهد الاستصباح بالْوَدَك ـ الدهن المستخرج من الشحم ـ توضع قطعة منه في حَجَرٍ محفور أو حُقٍّ، ويوضع وسطها قطعة من قماش القطن دقيقة طويلة، توقد النار في طرفها، فلا تلبث أن تَمْتَصَّ الدُّهْنَ حتى ينفذ، ثم استعملت سرج التَّنك بالقاز، بفتيلة من القطن، مكشوفة، يعبث بها الهواء.

ويفرش بَهْوُ المنزل غالبًا بالحَصير الذي تنسجه النسوة من خوص النخل، وفرش النوم بساط من نسيج الصوف من غزل الغنم، تنسجه ربات البيوت، وقد يُشْتَرى غالبًا من البدْو، واللحاف مثله، ومخدات النوم أكياس من القطن مَحْشُوَّةٌ تِبْناً، وقد يكون اللحاف (مُضَرَّبًا) وهو قماش يحشى قطنًا، ولا يكون سميكًا، ويسميه أبناء البادية (الجَوْدَري)، ولعل أكثرهم يشترونه من سوق (الجودرية)، بمكة المكرمة.

والألبسة قمصانٌ من نسيج القطن الثخين للرجال وللنساء، إلا أن لَوْن ألبستهنَّ أسود أو مُلَوَّن، وقد يتميز ثوب الزواج فيكون من الحرير الأخضر الناعم، أو ذي لون برَّاق، قد نُقِشَ صدره، ووضع على جوانبه من التطريز ما تتفنن به الخيَّاطة، مبديةً مقدرتها.

الألبسة والحُلَى .. في القرى*

ولباس النساء نوعان (المقْطَعُ) وهو قميص ذو أكمام ضيقة، والثوب، وله أشكال متعددة، مَفْرُوجُ الجنبين،وتُطَرَّزُ الجيوب وأكمامُ القميص، ويُجْعَلُ على المتْنَيْنِ من الثياب قِطَعُ الحَرير الملوَّن، فيسمى الثوب (مُتفَّتاً) القطعة (تَفتة) وتنقش جوانب وجهه من أعلاه إلى أسفله، وهو (المُسَرَّح) ويسمى (المُقَوَّد) وما كانت النسوة يلبسن السروايل، ولا الرجال، إلا منذ عهد قريب.

وتلبس المرأة نطاقاً تحت ملابسها من الجلد الناعم المفتول المبرم، يسمى (بَريمًا) وكذا الرجال، يُطْوى فوق البطن طيَّاتٍ كثيرة، وقد يستعيض الرجال عنه بِشريحة من الجلد الناعم ذات إبزيم (بازَم) تُدعى (سبْتَة).

وتُعْنَى النساء بوسائل التجمل، فيستعملن الحنَّاءَ، في حفلات الزواج وفي الأعياد، ويحرصن على إصلاح شعور رؤوسهن بتنظيفه ومشطه بالسِّدْرِ المخلوط بالْوَرْسِ (العصفر) وبشيء من أنواع الطيب، ويَفْرِقْنَهُ، ويضْفِرْنَهُ ضفائر كثيرة، ويُطيِّبْنَ أجسامهن وثيابهن ببخور العُود (القماري) أو (الجاوي) أو (المصطَكَى) وبالزبَاد وبالمسْك، متى وُجِد ذالك، وقد تَدَّخِرُ من قوت أهل بيتها ما تدفعه للحصول على شيء منه.

وتتحلَّى المرأة بأنواع من الحُليّ من الذهب والفضة والأحجار الكريمة متى قَدِرَتْ على ذالك، ومن أنواع الحِلْية المعروفة الخواتم، وتُلْبس

---

* المجلة العربية، العدد (١٠٨) محرم ١٤٠٧هـ / تشرين الأول ١٩٨٦م.

بالأصابع، وهي نوعان: ذواتُ فصوص كبيرة من الْعَقِيق الأخضر، وأخرى بشكل الحَلقَات تملأ بها الأصابع، وتكون الخواتم من الذهب أو الفضة.

ومن أنواع الحُلِىّ: الهامَةُ، وهي قطعة مستديرة من الذهب أو الفضة، مرصعة بأحجار كريمة، توضع فوق هامة الرأس، وفي أطرافها ثقوب يمسك بها الشعر.

ومنها (الفَرْدَة) وهي سِلْكٌ من الذهب، محنيٌّ بشكل دائرة، لا يلتقي طرفاه، تتحلَّى به المرأة في أنفها، حيث يثقب طرف الأنف الأيمن ثقبًا يدخل منه طرف ذالك السِّلك، ويتدلَّى باقيه، وغالبًا ما نُضِّدَ فيه من الأحجار الكريمة، ومُدَّ منه سلك يتصل بِزمام الأُذُن، وهذا الزِّمام مسمارٌ من الذهب في ثقب الأذن، معلق بطرفه حجر كريم، أو قطعة من الذهب أو الفضة.

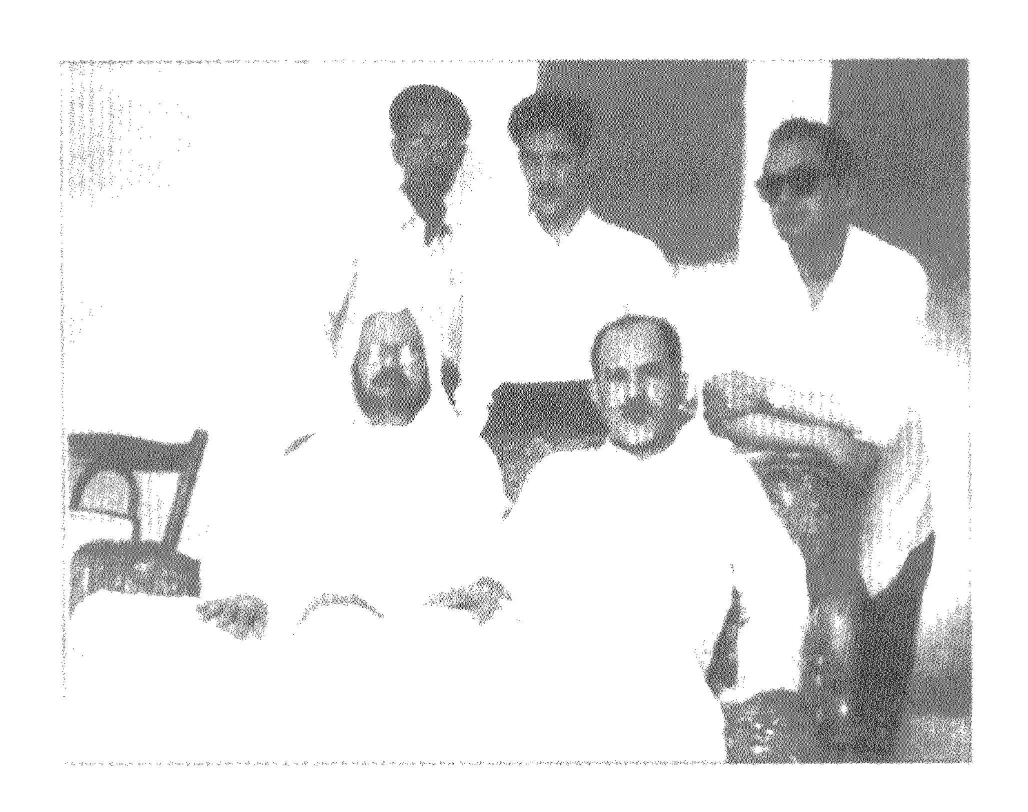
ومن حُلِيِّ الأيدي (المفاتيل) سبائك مفتولة من الفضة، لكل يدٍ (مفتُولْ) وقد يستعاض عنها بـ (المعاضد) واحدها (معْضَد) وهذه من الزجاج. و(الْخِصرُ) عِقدٌ من الأحجار الكريمة (الخرز) يُلْبَسُ فوق الذراع. وحُلِيُّ الرقبة (القلائد) وهي عقود من أحجار كريمة مختلفة، مفصّلة بحبات من اللؤلؤ أو الجُمَان ـ قطع الفضة ـ أوالذهب، وقد تتعدد، فما ولي الرقبة وأحاط بها يدعى (خنَّاقَة)، وما طال وانحدر (قلادة) ثم (لَبَّة) وهي ما صار فوقَ الصدر، وغالبًا ما يكون عقدًا يحوي قطعة كبيرة من الذهب أو الفضة.

والحِجْلُ حُلِيُ الرِّجْلِ، شريحةٌ من الفضة بعرض ثلاثة أصابع، تحيط بأسفل الساق، ولا يلتقي طرفاها، ويسمع رَنينُها عند المشي، وقد

يُتَّخَذُ بَدَلَها الخلْخال، سلك دقيق من الفضة، يلبس في أسفل الساق، وتعلق به قطع صغيرة من الأحجار الكريمة ـ من الخرز أو غيره ـ .

وفي أيام الأعياد يلبس الرجالُ ثيابًا زاهية البياض، من القطن الناعم المسمى (بَفْتة) وكذا الأطفال والصبيان، وتُزَيَّنُ صدور ثيابهم بتطريز بالإبرة بخيوط حمراء بجانبي جيب القميص، ويبالغ النساءُ بتجميل ثيابهنَّ فيطرِّزْنَ جوانِبها وصدورها بواسطة الخِياطة بأشكال تدل على ما يتمتعن به من ذوق سليم، وَهنَّ يعملن ذالك بأنفسهن غالبًا، وقد يكون في القرية من اشتهرت بإتقان ذالك فتتولاه، ومع ذالك فقلَّ أن يتولى خياطة ملابس القرويِّ وملابس أبنائه غير زوجته.

وأواني المنزل لا تزيد عن قدور قليلة من النحاس، وصحن منه، أو صحفة من الخشب، ومغرفة كبيرة منه، ويتولى صناعة أواني النحاس، ومنها السكاكين والمساحِي والمناجل (المحاشّ وأحدها مِحَشٌّ) صُنَّاعٌ يطوفون بالقرى من طبقة تدعى (الصُّلبَة) وقد يوجد في القرية صَانع، أو نَجَّار لإعداد ما يُحتَاج إليه من أوانٍ وأدوات للزراعة.



الجلوس من اليمين :
الشيخ حمد الجاسر، الشيخ محمد بن حسن الضبيب (رحمهما الله)
الوقوف :
السيد عبدالحميد حامد آسدالله (رحمه الله) ، د. أحمد بن محمد الضبيب ،
السيد محمد ظاهر العثماني

الحياة الاجتماعية بين الفلاحين*

ويعيش أهل القرية كالأُسْرَةِ الواحدةِ، متشاركين في شؤونهم العامة، في الدفاع عن قريتهم، وفي الدفاع عن بعضهم، وفي تعاونهم بأداء ما قد يُطْلَبُ منهم، لحاكم أو لعدُوّ لا يستطيعون دفعه.

وعندما يستضيف أحدٌ منهم ضيفًا وجيهًا فإنه يُعِدُّ من الطعام ما يكفي لأهل القرية، فيدعو الرجال لمشاركة الضيف، ويبعث للبيوت من الطعام ما يكفي من لم يحضر من أهلها.

ويعيش أهل القرية في مجتمعاتهم كأهل بيت واحد، يتلاقون في اليوم مَرَّاتٍ، إذْ يجتمعون أوقات الصلوات الخمس في مسجد القرية، أما صلوات الجُمَع فيذهبون إلى أقرب بلدة تقام فيها الجمعة.

وأهل القرى يرون في الاجتماع لشرب القهوة متنفَّسًا لهم في كثير من أوقاتهم، ففي كل قرية مكان مخصص لذالك يسمَّى (القهوة)، وأبناء البادية يسمونه (مقهاة) يجتمع فيه الرجال بعد صلاة الفجر وبعد صلاة المغرب كل يوم، وقد يجتمع فيه بعضهم ممن لا عمل له بعد العصر وبعد العشاء، ويصرفون في سبيل الحصول على البن (حب القهوة) جزءًا كبيرًا مما أعدوه لشراء أقواتهم، وكثيرًا ما يستدينون لذالك، وللقهوة تأثير كبير، لا في نفوس الفلاَّحين، بل في نفوس عامَّة أهل نجد من حضْرٍ وبدو، فهم يرون تعاطيها وتقديمها للزوار كرمًا وسماحة ومروءة، ولهم في ذالك من المأثور الشعبي من الأشعار والأخبار والنوادر مابقي الكثير منه متناقلاً موروثًا إلى عهدنا.

* المجلة العربية، العدد (١٠٩) صفر ١٤٠٧هـ / تشرين الأول ١٩٨٦م.

ويتبارى أهل القرية حين اجتماعهم بتقديمها، فقد أعدَّ كل واحد منهم في بيته قَدْراً من البُنِّ، يأخذ منه حين يريد الذهاب إلى محل القهوة حفنةً ملءَ جُمْعه، تسمى (طَبْخَةً) فيقدمها للرجل الذي تهيأ لصنعها، فيوقد النار، ويُهَيِّيءُ الأواني، وهي ـ عادة ـ (١) ثلاثة أباريق، تسمى دِلالاً، واحدتها دَلَّة ـ ويظهر أن الكلمة فارسية ـ (٢) محْمَاس ـ لتحميص البن، (٣) مُبَرَّدٌ لتبريد البُنْ بعد تحميصه (٤) نَقِيرة أو نِجْرٌ لسحقه، (٥) فناجيل (فناجين واحدها فنجان).

يوضع البُنُّ في المُبَرَّد، ويتخذ من الخشب المحفور على هيئة ميزاب صغير، وقد يكون من عِيدان الخيزران المنسوجة، بشكل صحن بقدر الكف، ثم ينقَّى البُنُّ مما خالطه، ويوضع في المحماس، فوق النار ويحرك بحديدة طويلة معدة لذالك ملحقة بالمحماس، حتى يتغير لون البن من الصفار إلى السواد، فيوضع في المبرد.

وكانت أكبر الدِّلالِ (الأباريق) قد مُلئَتْ ماء، وكانت تَحْوِي من ثُفْلِ القهوة ما سبق صنعه، لكي يستفاد من بقية أثَرِه، فيكسب الطبخة الجديدة زيادة لون وطعم، فإذا غَلَى ذالك الماء، زُلَّ في الإبريق الثاني (الدلة)، والإبريق الأول يسمى (المصفاة) حيث يصفَّى التِّفْل، والثاني يسمى (اللقمة) إذ القهوة بعد دقها توضع فيها فكأنها لُقِّمَتْ بها، ـ وقد تسمى الخُمرَة ـ وهذه تبقى فترة على النار تغلي، وقد أَعَدَّ عاملُ القهوة في الإبريق الثالث (الدلة)، التي تسمى (المِبْهَرَة) أُعَدَّ (الإبهار) ـ وهو قليل من (الهيل) إنْ وُجِد، وإلاَّ استعيض عنه بالقرنفل ـ يسحق أحدهما، وقد يكمل بعضهما الآخر، ويوضع في (المِبْهَرة)، وتُسْكَب القهوة فيها من الإبريق الثاني (اللُّقمة) بعد مكثها

يسيراً خارج النار، ليرسب ثِفْلُهَا ويصفو ماؤها، وتوضع (المِبْهَرَةُ) فوق النار حتى تفوح (تغلي)، ومن ثم يحملها الساقِي ممسكًا بها باليد اليُسْرَى، والفناجين وهي أوان صغيرة من الصين في يمناه، فيسكب في الفنجان قطراتٍ لا تزيد على رَشْفَتَيْن، ويبدأ بتقديمها للوجهاء وكبار السن ويدور على الحاضرين، ويعاقب الفناجين بينهم، ولا يرى أحد غضاضةً في أن يشرب بإناءٍ شرب به غيره، ويوشك أن يكون هذا الأمر عامًا.

وعند انتهاء ما في الدلة من القهوة لن يَعْدِمَ القوم من آخر يُقدِّمُ (طبخة) ثانية، وثانيًا وثالثًا حتى يحين وقت انصراف كلٍّ واحد إلى عمله، وقد يقوم أحد الوجهاء بإعداد القهوة كلَّ صباح، أو كل وقت تُقَدَّمُ فيه، وإذا حضَر الضيفُ أيَّ وقتٍ كان فأول ما يُبادَرُ به من الإكرام القهوة، وقد يقدم معها التمر (القُدُوع)، وشرابُ السُّكَّر يستعمل نادراً في المناسبات، وما عرف الشاهي في القرى إلا في العقد الخامس من القرن الماضي، إنما كان المستعمل (الدَّارْصِيني) والليمون، فالدارصيني قشور نباتٍ يأتي من الهند، فيها حلاوة وحرارة يسيرة، توضع في الماء فتكسبه بعد غليانه على النار طعمًا ورائحة، ثم يُحَلَّى الماءُ بالسكر، ويشرب بأواني الفناجين ـ كالقهوة ـ أما الليمون فكان يجلب يابسًا فيكَسَّر في الماء، وبعد غليانه يضاف إليه السكر، ولكن هذا لا يقدم إلا في مناسبات خاصة.

ومكان القهوة هو مكان اجتماع أهل القرية، فيه يبرمون جميع أمورهم العامة، وهو في الغالب مَقَرُّ الضيوف، ما لم يَتَّخِذْ أحدُ وجهاء

القرية أو أميرها ـ إن اسْتقلَّت بأمير ـ مكانًا عامًا للاجتماعات .

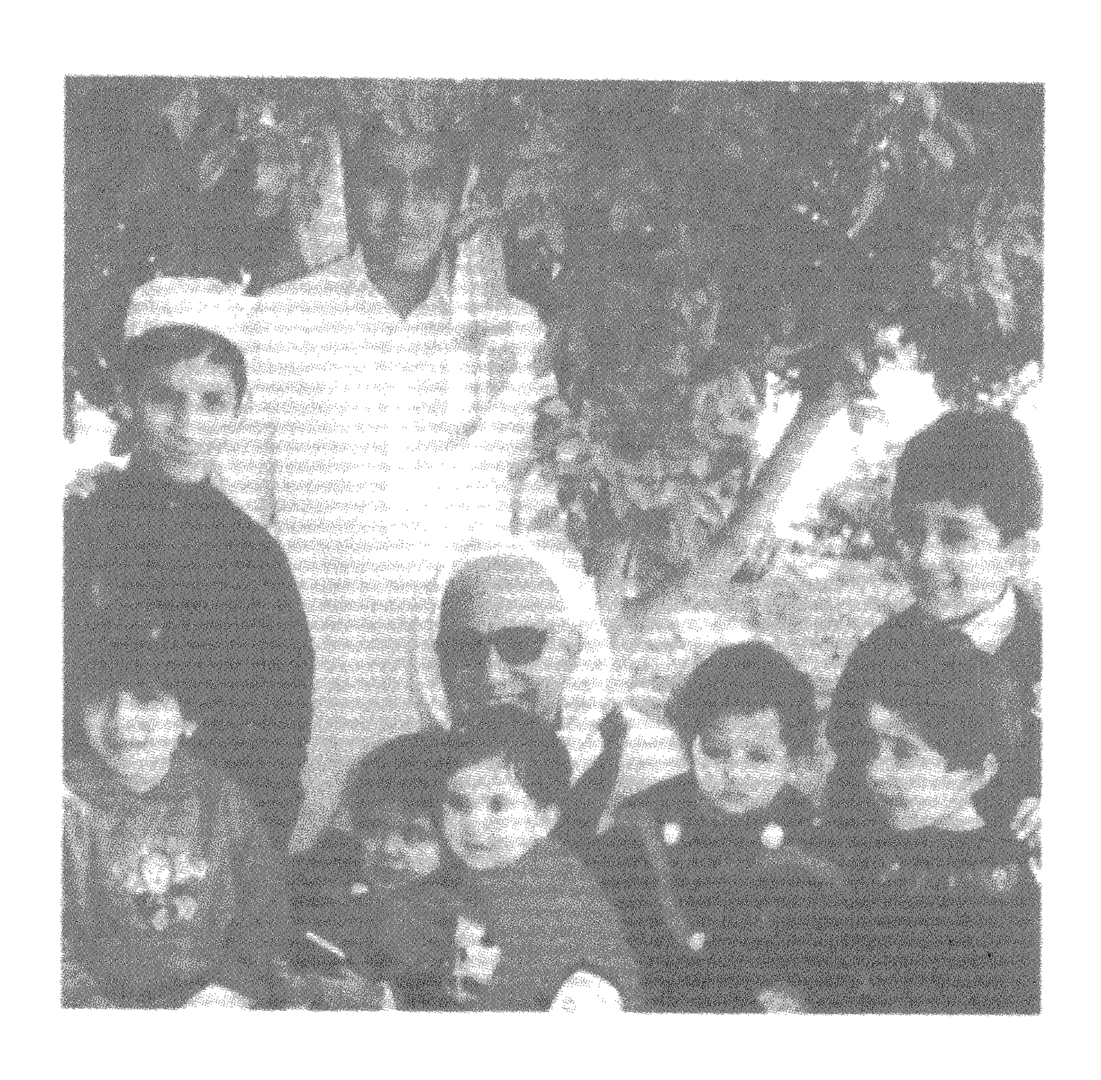
ومع أن الحياة في القرى حياة جدٍّ وعمل دائب، وأن الفلاح يمضي وقته في كَدٍّ وتعب، ولهذا يسمى (كَدَّاداً) ومن أمثالهم: (اسم كدَّاد ولا اسم كالف)، ـ والكدّاد الزارع، والكالف العامل عنده بالأجرة ـ إلاَّ أنها لا تخلو من فترات فراغ وراحة، لا سيَّما عند استقامة حالة الفلاحة إبَّانَ الخِصْب، غبَّ هطول الأمطار، وسلامة الزرع من الآفات، ووفرة العلف للأنعام، فتبدو آثار ذالك في أحوال الفلاحين في التوسع في المعايش والملابس، وفي ارتياح النفوس، إلاَّ أن أمْراً لا يزال يثير القلق في النفوس، ويحدث عدم الاستقرار، إنه الخوف من أهل البادية على مواشيهم، أو محاصرتهم في قريتهم، ومطالبتهم بغرامة من المال لا طاقة لهم بدفعها. إنهم إن سَلِمُوا من رِكْبٍ ينيخ بالقرية بقيادة أحد وجهاء قبيلة من قبائل البادية فلا يغادرها إلا بما يرضيه مما يدفع له من طعام أو غيره ، فلن يسلموا من مُتَلَصِّصَةٍ يخطفون ما شذَّ وانفرد من أهل القرية، ولا يعفُّونَ عن شيء حتى الحمير، التي لا غناء للفلاح عنها للتنقل بواسطتها بين القرى، ولحمل العلف والحطب وسماد الزرع وسباخه، وغير ذالك مما يحتاج إليه، يأتي هاؤلاء اللصوص جماعات قليلة العدد، في واضحة النهار، فينهبون ما استطاعوا نهبه، إنهم (الحنشل) واحدهم (حِنْشُولي)[1].

توفيت خالة أبي هيا الفايز، فحملها أبي على حمار، بعد وضع جثمانها على باب وتغطيته بعباءة فوق الكفن، من قرية الصُّدَيع، وسار بها لدفنها في مقبرة البرود، وهناك يقبر موتى القرية لقرب المسافة، وليصلِّي عليها جماعة هناك، وفي منتصف الطريق ما

شعر إلا بـ (الحنشل) عدد قليل من الرجال، يعدُون نحوه هاجمين بأسلحتهم، فوضع النعش وهرب، فعمد اؤلئك إلى الأكفان وإلى ما غُطِّيَ به النعش من عباءة خَلَقَةٍ، فأخذوه وتركوا الميت كيوم ولدته أمه، واستاقوا الحمار معهم.

الحاشية:

(١) : لم أهتد إلى معرفة أصل الكلمة ولعلها منحوتة من كلمتين (حمش) و (نشل)، أي غضب فنهب، ومن أمثال العامة : (مطاوعة . . حناشل). أي المتظاهرون بالطاعة والعبادة من البلدة الفلانية، لا يعفون عن نهب ما قدروا على نهبه .



الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ في حديقة منزله بالرياض مع بعض أحفاده

لمحات عن طفولتي*

عند انتهاء الفصل الزراعي ـ صيفًا أو شتاءً ـ لا يطيب للفلاحين البقاء في أماكن زراعتهم، بل يعودون إلى قريتهم الأم حتى يحين أوان الزراعة المقبلة، ومن أقوى أسباب ذالك الخوف.

العامَّةُ في نجد لا يؤرخون سني حياتهم، وإنما يعرفونها بما كان يجري فيها من حوادث ذات صلة بحياتهم، أو بمجتمعهم. فيقولون: وُلِدَ فلان سنة الْبَرَد، أو سنة الجَرَاد، أو سنة الرحمة أو سنة جِرَاب، أو سنة حسين بن جَرَاد، ويقصدون السنة التي نزل فيها مع المطر بَرَدٌ أفسد زروعهم، والسنة التي أكل الجراد ما زرعوا، والعامَ الذي انتشر فيه الوباء المعروف حديثًا باسم (الكوليرا) فحصد الكثير من أهل نجد، فَسَمَّوْا تلك السنة سنةَ رحمةٍ تفاؤُلاً، والسنتان الأخيرتان من الحوادث التي جرت أثناء حروب الملك عبد العزيز مع ابن رَشِيد ـ رحمهما الله ـ فسنةُ ابنِ جَرَادٍ حدثتْ سنةَ ١٣٢١هـ [١٩٠٤م] حين أغار الملك عبد العزيز على سرية لابن رَشِيد بقيادة حسين بن جَرَاد ـ من أهل حائل ـ فقتل رئيس السرية.

وسنة جِراب حدثت سنة ١٣٣٣هـ [١٩١٤م] على ماءٍ يعرف بهذا الاسم جِراب، واسمه القديم (إراب)، بين [الإمام] عبد العزيز وبين سعود بن رَشِيد، وكان الانتصار للبادية من أتباع الرجلين.

في إحدى السنوات المجهولة التاريخ ـ بالنسبة لي ـ وفي فصل الصيف ـ منها على ما حدثتني أختي التي تكْبُرُني سنًا ـ وفي بيت

---

* المجلة العربية، العدد (١١٠) ربيع الأول ١٤٠٧ هـ / تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٨٦م.

يملكه أبي في قرية البُرُود، في سوقٍ مسقَّف مظلم، يدعى (سوق الحَميدي) يقع البيت في رأسه (الرايسة) يعرف ببيت (أبو راشد) غَلِقَ في رَهْنِ عليٍّ بن إبراهيم بن فايز فاستولى عليه، وأصبح الآن لمالك آخر، هَدَمَ جانبًا منه فجدده، في هذا البيت وُلِدتُّ، وكنت ثالث أبناء أبي، من أم لم يتزوج أبي إذْ ذَاك عليها.

ثم وُلِدَ أخي رَشُود الذي من بَعْدِي سَنةَ جِرَابٍ، أو قبلها بيسير، وأنا أَكْبُرُهُ بنحو أربع سنوات، وعلى هذا التقريب أكون وُلِدت في آخر العقْد الثالث من القرن الماضي سنة ١٣٢٧هـ [١٩٠٩م] أو بعدها بيسير.

لا أذكر من أحوال طفولتي إلا اليسير، منها أنني وأخي رَشُود خُتِنَّا في صباح يوم واحد، تولَّى ذالك نجَّارٌ يسكن قرية الفَيضة يُدْعَى (دُحَيم الصانع)، وبينما كنا نصرخ من ألم عمله أخذت أختي بيدنا وذهبت بنا إلى أُمنِّا، وكانت تَخْبز (تُرصِّع) على التَّنوُّر، فأعطت كل واحد رغيفًا بادرنا إلى الأكل وسكتنا. وكان سبب تأخير ختاني أنني منذ وُلِدتُّ كنت ضعيفًا، مصابًا بمرض في بطني، بحيث حُفِرَ قبري مرَّات، ورُقِّعَ بطني بالْكَيِّ، وكَذَا سلسلة ظهري، مما بقي أثره واضحًا.

والكيُّ بالنار إلى عهد قريب يعتبر في قرى نجد علاجًا لكثير من الأمراض، أذكر أنني وقد تجاوزت العاشرة خرجتُ مع لِدَاتي من صبيان القرية لصيد نوع من الطيور، تأتي في فصل الصيف مهاجرة من الشمال تُدْعَى (السَّبَارِي) واحدتها (سُبارِي) فتَبيتُ في أشجار الأثل، وتُصاد بالأيدي، وكان الأثل الذي ذهبنا إليه يُدْعَى (أثل الياسيَّة) على مقربة من قرية البرود، وفي أثناء البحث عن الطيور طرف عيني اليمنى غُصْنٌ أسال دمعها، واستمرَّ يسيل لَزِجًا، واشتدَّ أَلُمها، وكانت زوجة

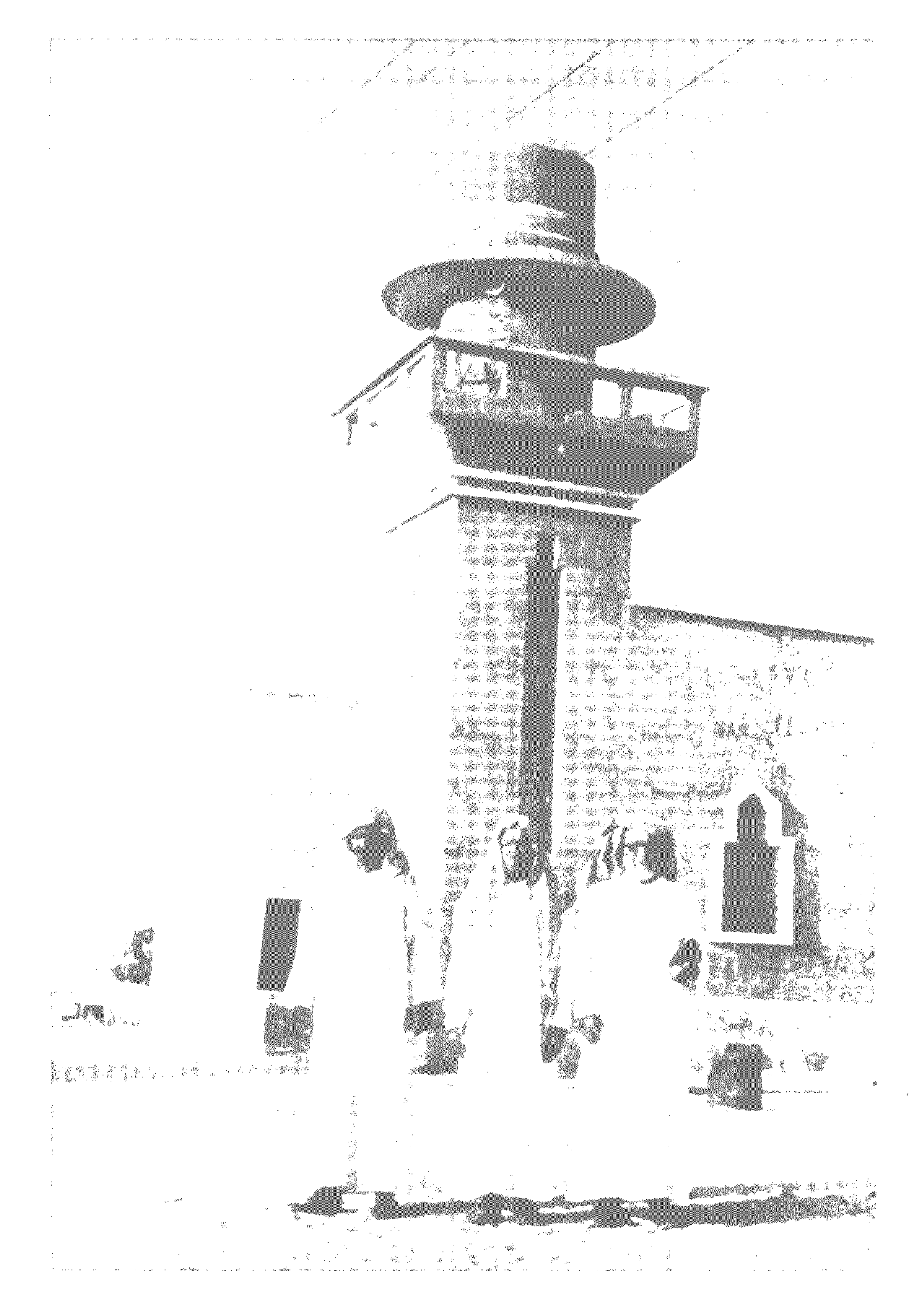
جَدِّي لأمي فاطمة مشهورة بمعالجة بعض الأمراض بالكي، فأخذني جَدِّي إليها، فوضعت مسماراً في النار له رأس كالإبهام، بطول الشبر، حتى صار طرفه جمرةً حمراء، فَلطَّعَتْ به من جبهتي حتى مُؤخِّرَ رأسي، وأنا مُمْسَكٌ لها أصرخ من شدة حرارة النار، فلا يُجْدي صراخي، بدأتْ بكَيِّ الحاجب ثم أعلى الجبهة ثم وسط الرأس فمؤخرته خمس كيَّات، ولم يُجْدِ هذا، بل استمر مرض العين حتى نشأ فوقها بياض أضعف نظرها، وقد بقيت شهراً بعد الْكَيِّ في حِمْيَةٍ ـ ويسمونها (حِجْبَة) لا آكل سوى رغيف ناشفٍ في الصباح ومثله في المساء.

كان أطفالُ الفلاحين منذ صغرهم يشاركون أهلهم بما يستطيعون القيام به من أعمالهم، ـ فينشأون وقد عرفوا شؤون الفلاحة وأمورها، وحملوا كثيراً من أعبائها، وكذا كان شأن أخوايّ جاسر ورشود، وكنت حين أذهب معهما لمشاركتهما في بعض أعمالها كإحضار علف للمواشي من البَرِّ، وهذا يتطلب حشَّ النبات في وقت الربيع باستعمال (الْمَحَشّ) أو (المِقْشَعة) أو بقطع شجر القتادِ بـ(الْمِسْحاة) وجمعه وإحراق شوكه، وكنت لا أستطيع الاستمرار في العمل، بل أُحِسُّ بالإعياء والتعب، فأجلس رغم ما يُوَجِّهُ إليَّ أخي الكبير من تأنيب وعَتْب، قد لا يقف عند حدِّ الكلام اللاذع، كأنْ يتغنَّى مُرَدِّدًا مع أخي الصغير ـ:

رِخْوَ اليدَينْ وجَيِّدَ البلعومِ إذَا تغدًّا قال آنـا مَحْمُومِ

أو يكرران:

وهـو قاعـدِ يشـوفْ مـثْلَ العَيْـرَ الصنُّـوفْ



الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ في إحدى رحلاته بموقع سلوى
وإلى يمينه الشيخ سعد بن جنيدل ، وأحد الأعيان

التغير المفاجىء في الحياة العامة*

ما كان أبي متعلمًا لكي يدرك قيمة العلم، بل كان أُمِّيًا، ولم يحسن القراءة إلا على كِبَر، حين انتشرت حركة التَّديُّنِ بين أبناء البادية في عشر الثلاثين وما بعدها من القرن الماضي، فأقبلوا كلهم على تَعَلُّمِ القرآن وأصول الدين، وقويت الحركة الدينية حتى شملت سكان القرى، فاتَّجه كبيرهم وصغيرهم إلى التعلم.

وكان أبي لصغر سنِّه ـ بالنِّسبة لأخويه حمد وعلي ولرشود بن حمد الذين كانوا يقومون بأعمال الفلاحة ـ يعيش في أوَّل حياته عيشة انْطلاق، فيمارس جوانبَ من اللهو الذي يمارسه لِدَاتُه في ذالك العهد ممن في مثل سنه، فيحسن نظم الشعر باللهجة العامية، ويتغنَّى به على الرَّبَابَةِ، ويتطلع لمحادثة الفتيات البدويات، وكانت أحوال أبناء البادية الاجتماعية قبل اشتداد موجة التديّن العارمة فيها كثير من الانطلاق، فما كانت النساء يعرفن الحجاب ـ ستر وجوههن ـ ولا يتحاشين مجالسة الرجال والتحدث معهم، وكُنَّ في أوقات الزواج يَقُمْنَ بالرقصِ، ولا يرى الشَّبَاب غضاضة في التطلع إليهن أثناءه.

وأذكر أنَّ عشيرة تُدْعَى (الكُعَبَة) ـ بضم الكاف ـ (القعبة) من السياحين، من الرُّوَقَة من عُتَيْبَةَ كانت قاطنةً على آبار بلدة البرود الجنوبية (طُفَيْح) وما حوله، وأنني كثيراً ما أُشاهد الرجال في المجلس الذي يجتمعون فيه عند طلوع الشمس لتناول القهوة، كانوا يتعاطون شرب الدُّخَان، بواسطة عَظْمٍ، يتداولونه بينهم، ولقد رأيتُ الفتياتِ ـ

---

* المجلة العربية، العدد (١١١) ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ / كانون الأول ١٩٨٦م.

ومنهن من تجاوز سنَّ البلوغ ـ مجتمعاتٍ يرقُصن على نغمة أُغْنية، تلقي إحداهن وهي ترقص معهن، أبياتَها متفرقة، ولكن لم يَعْلق بذهني لصغر سني سوى (مطلق زْرار ثَوْبي) ![1].

وكنت أذكر أنني مررتُ برجل كنتُ أعرفه يعمل في زَرْعٍ له، على مقربة من بلده «البرود» في جنوبها، وكان يتجاذب الغناء مع زَوْجته بصوت مرتفع مُنَغَّمٍ، فكان يقول: أبو ثَنَايَا كنَّها حَبِّ رُمَّانْ.

فتجيبه قائلة: أو قِحْويانٍ طاغْيٍ في مسيلهْ.

وكنت كثيراً ما أُصيْخُ لإحْداهُنَّ وهي تَطْحَنُ على الرَّحَا ـ وما كالغناء في قطع الوقت أثناء العمل ـ فكانت تتغنَّى بصوت مسموع، وبنغمة تتناسب مع تحريك الرَّحَا وإدارتها، والرَّحا في القرى مشتركة بين النساء، يتناوبْنَ العمل بها.

وسرعان ما تغيرت الحال الاجتماعية حين بدأ عهد الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ في الاستقرار، في آخر العقد الثالث من القرن الماضي ومابعده، حين أقبلت البادية على الانتقال من حياتها إلى الرغبة في الاستقرار، وتَلقَّتْ بعض المباديء التي تبرز تلك الحياة بصورة بعيدة عن الدِّين، فاتَّجَهَ أبناؤها إلى تعَلُّمِ أصوله وقواعده بطريقة التَّلْقين، وكثير منهم أقبلوا على تعلُّم القرآن على تقدمهم في السِّن، ثم اسْتَقَرَّ أغلبهم في قُرَى دُعِيَتْ في أول الأَمْرِ (هُجَراً) واحدتها هِجْرَةً، أخْذاً من الهِجْرة التي هي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وكانت (الأرطاوية) أول (هِجْرة) أُنشئَتْ سنة ١٣٣٠هـ [١٩١١م]، ثم تتابع إنشاء الهُجَرِ بعد ذالك حتى بلغت نحو (١٥٠) هجرة[2].

وهَجَرَ كثيرٌ منهم حياة البادية، ورأوا فيها ما يتنافى مع كمال الإسلام، وهذا مما تَلَقَّوْهُ من تلك القواعد الأساسية في أول أمرهم، فاتَّصلوا بعد استقرارهم بالحَضَرِ من أهل المدن والقُرَى، فكانوا يشاهِدون من بعض أفعالهم ما لا يتفق مع ما تلقوه من تعاليم دينيَّة، على ما يفهمون منها، وأكثر ما تلقوه لم يكن عن علماء بلغوا منزلة من العلم تمكنهم من فهمها فَهْمًا صحيحًا، بل من (مُطاوعة) كان مبلغ أحدهم من العلم قراءة القرآن، وحفظ بعض (المتون) المُخْتَصرة من مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ كـ «الأصول الثلاثة» و «أركان الصلاة» وما يتعلق بها، مُجَرَّدَ حفْظٍ بدون سعة إدراك أو تَعمُّقٍ في فَهْمٍ، فنشأ عن هذا التَّغَيُّر في أحوال أبناء البادية بعد مخالطتهم ومجاورتهم للحضر، ومشاهدتهم لأمور يَرَوْنَهَا لا تَتَّفقُ مع ما تَلَقَّوْهُ عن (مُطَاوَعَتِهم) مما يكمل به إسلامُ المرءِ إسلامًا صحيحًا[٣] ـ نشأ عن ذالك التَّغير الإنْكَارُ، وصادف هوى في نفوس كثير من أهل القرى، فسارعوا إلى التأثُّر بهذه الحالة الجديدة، واستجابوا عن رغبة وصدقٍ لتغيير أحوالهم، فكان أن أقْبلُوا على تعلُّمِ القرآن، حتى اؤلئك الذين تقدمَتْ بهم السِّن حتى اجْتازوا مراحل حياتهم الملائمة للتَّعَلُّم.

ولكن ما لبثت تلك الحالة الدِّينية في الازدياد حتى بلغت درجة من الشدة والغلوِّ المذموميْن، اللذيْنِ نشأت عنهما أمور عادت بأسوإ العواقب التي كان آخرها وقعة (السَّبَلة) في ٢٠ شوال سنة ١٣٤٧هـ [٣١ مارس ١٩٢٩م).

الحواشي :

(١) : أي أن أخي مطلقاً هو الذي بيده التصرف في أمري، وهو الذي يصونني، فكما أن (أزرار الثوب) هو الذي يقي الجسم مصاناً ومستوراً، فكذا أخي مطلق.

(٢) : انظر بيان أسمائها في كتاب «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» ص ٢٦٥.

(٣) : تجد لتلك الأمور في كتاب «إرشاد الطالب» للشيخ سليمان بن سحمان.

ملامح من حياة أسرتي *

لقد قرأ أبي ـ رحمه الله ـ القرآن بعد أن جاوز الأربعين من سني عُمُره، وبعد أن أصبح لا يحسن نطق بعض الحروف لكبر سنّه، كنت أذكره يتولّى إمامة الجماعة في قريتنا (شَرْقَة) فكان إذا قرأ (سورة الفيل) يقرأ: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ولا يظهر الهمزة في الكلمة الأخيرة، فحفظتُها كما حفظتُ بعض السُّور القصيرة عنه تلقينًا، قبل أن أدخل المدرسة، ولا أَنْسَى ولَنْ أنسَى أنني بعد أن قرأت تلك السورة في المدرسة، بعد زمن، على (المُطَوع) عبد الرحمن بن إدْرِيس أوضح لي الخطأ في قراءتي حيث لم أهَمِزْ (مأكول)، فلما سمعت أبي يقرأها أثناء صلاة المغرب رفعتُ صوتي بالكلمة مهموزةً وأنا في الصلاة، وبعد الخروج من المسجد ـ كان أبي آخِذًا بيدي إلى البيت ـ أمَرَني بقراءة السورة، ثم قرأها بعدي على طريقته، فنطقت الكلمة، فحاكاني بالنطق بدون هَمْزٍ، فعل ذالك مرَّاتٍ محاكيًا لي، فقلت له بنَزَقٍ: أنت ما تعرف تقرأ!! فرفع يَدَهُ ولَطَم خَدِّي، فأجهشتُ بالبكاء، وتأثرتُ من فعله، بحيث كنت أختفي عن رؤيته حتى استرضاني، وما أذكر أنه أغضبني سوى تلك المرَّة، مع أنه بعد أن تقدَّمت به السِّنُّ صار عَصَبِيَّ المِزَاج بدرجة لا تطاق، لقد فقد أخويه وابنَ أخيه في زمن متقارب، فأصبح ربَّ عائلة تتكوَّن من نساء ست: أمه وثلاث بناتٍ لأخويه وبنت لأخته وخالته، ولم يُخَلِّفْ له أبوه وأخواه شيئًا من حطام الدنيا، بل كانوا مُثْقَلِين من تراكم الديون، ففوجيء الرجل بحالة من الحياة خلاف ما أَلِفَ، إنها حياة جَدٍّ، وعمل دائب، قد لايعود على صاحبه

---

* المجلة العربية، العدد (١١٢) جمادى الأولى ١٤٠٧هـ / كانون الثاني ١٩٨٦م.

بكبير نَفْعٍ، ولكن لا عمل سواه للحفاظ على الحياة و(لابُدَّ مما ليس منه بُدٌّ)، إنه السير على نهج مَن تقدمه في مهنة (الفِلاحة) والاصطلاء بالنار التي اصطلى بها أبوه وأخواه من تعب وشقاء، واستثقال بالديون، ولا مَفَرَّ من ذلك، فكان أن تغيَّرت حالته النفسيّة، فأصبح سريعَ الغضب، منقبض النفس، منعزلاً عن الناس وإن كان بينهم، شديداً في معاملة أهله لدرجة القسوة، وزاد ذالك ـ إن لم يكن من أثره ـ أن تعاورته الأمراض التي أنهكت جسمه، فعاش بقية حياته عليلاً حتى فارق الدنيا ـ رحمه الله ـ عام ١٣٤١هـ [١٩٢٢م].

كانت أُمِّي كثيرة العطف عليَّ لِمَا تشاهد من ضَعْفي، ولكنني لم أتمتع بهذا العطف طويلاً، فقد أصابتها قرحة سوداءُ في صَدْرِها فمرضتْ حتى نزفت الدَّمَ من فمها، وماتت في أقل من أسبوع، وقد عاشت مع أبي ـ رحمهما الله ـ عيشة تَعَبٍ وشقاء وفقر، وكان أبي حادَّ المزاج، يغضب ويثور لأقل الأسباب، ولكنها كانت كثيرة التحمل، شديدة الصبر، لشفقتها على أبنائها الأربعة.

وقد تزوج أبي عليها بأم أخي علي، في قرية شرقة، فلما علم جَدِّي بذلك أتى القرية وأخذ ابنته التي لم تستطع أخذ صغار أبنائها معها، فَأَوْصَتْ أختي بأن تلحق بها بي وبأخي الصغير، فما شعرتْ بعد وصولها مع أبيها القرية إلا ونحن داخلون عليها، وكانت لا تجد في بيت جَدِّي ـ وقد طلَّق أُمَّها فحلَّ البيتَ غيرها ـ ارتياحًا لبقاء أطفالها معها، فأخذتنا ساعة وصولنا إلى بيت أُمِّهَا، جدَّتنا نورة بنت سليمان العُبَيْدي، وتلقب (أُم سليمان). وأسرة العُبَيدي من أهل القراين من آل مُعَيقل أمراؤها من قبيلة شَمَّر.

لم أَرَ ـ ذالك العهد ـ امرأة تهتم بالنظافة كاهتمام تلك الجدة، فلم أُشاهدْ في بيتها إناءً مكشوفًا، ولا في أي مكان من البيت ما يُؤَثِّر في نظافته، فحين تصبح تبدأ في كنسه من أعلاه إلى بابه، وترشُّ جوانب منه بالماء خوفًا من الغبار، وتبقي بابه مغلقًا، ولا تترك منفذًا فيه مفتوحًا.

وكانت تحسن نسج الخُوصْ من سعف النخل، فتصنع منه حُصُرًا ـ جمع حَصِير ـ وأواني كالزَّبيل والوِقْر وأغطية للأواني (طبايق واحدها طِبَاقة)، وقد تُحَلِّي بعض ما تصنع، فتنسج معه خُيُوطًا من الصوف الأحمر (وَشِيع)، تبيع مما تَعْمل، وتستعمل في بيتها، لقد كانت ـ رحمها الله ـ على أفضل ما تتصف به المرأة الفاضلة أخلاقًا، ونشاطًا، وقيامها بما يتطلبه بيتها من أعمال كإحضار الماء العذب من مكان خارج القرية، وكذا الحطب، وعلف الأنعام، مع إعداد متطلبات المنزل من طحن وطبخ ونظافة وغيرها.

ويتحدث أهل القرية أنها في إحدى المرات فَلَغت رأس رجل بِمِقْشَعَتِها ـ آلة قلعُ الحشيش من الأرض ـ حين قَرُبَ من المكان الذي تجمع منه العشب، فأمرته بالابتعاد عن مكانها فأبى فهجمت عليه وضربت رأسه بتلك الآلة فسقط على الأرض، ومن ثَمَّ كان الذين يجمعون الكلأ يبتعدون عنها.

ولقد كنت أضعف إخوتي فكانت تمنحني مزيداً من الرعاية والعطف فتدلّلني كثيراً، وتلاعبني، وتناغِيني حين ترقصني بين يديها بأهازيج لا أدري هل هي من قولها أو من حفظها، ومنها:

أعيذكْ بالله وذكْرِهْ ما شِفْتِ فيك الفِكْرَهْ
إلاَّ الرَّمَدْ والزُّكْمة والعافِيْة مُحتَكْمَهْ

والفِكْرَةُ هُنا الأمر المخوف ـ وكانوا لا يَعُدونَ الزُّكَامَ والرَّمَدَ مِنَ الأَمْرَاض

يا (حمد) يا (آبو رياح)   مطْرقهْ فـي الخيل لاحْ
إنْ غـزا جـا باللّقـاحْ   وانْ جلَسْ فَكَّ المراحْ

(أبو رياح) فارس تتناقل العجائز حكايات بطولته، والمراح مكان الإبل والغنم، أي أنه يحمي أنعام أهله.

يا (حمد) يا (آبو مْطِلَّهْ)   الحق الخيال قل لهّ:
عندنا سَمْنٍ ودَلَّهْ   والْحليب مْبَرَّدٍ لهْ

أي: نحن على استعداد لإكرام الفارس الشجاع.

لم يلبث أبي أن أرضى أمي بأن اشترى لها قطعة قماش، لتتخذ منها ثوبًا لها، وما كانت حالتها بحاجة إلى الاسترضاء بأكثر من ذالك، وهي تُحِسُّ بما جرى لها ولأطفالها من البعد عن بيتها، واستدرار العطف حتى من الأقرباء.

أطفال القرية في لهوهم*

ولأطفال القرية ألعابٌ يقومون بها جماعات، منها المسابقة، والمصارعة (المطارحة)، والمرامحة، فيقابل أحدهم الآخر قائلاً: أتسابقني؟ ليظهر مقدرته حين يغلب صاحبه فيصل إلى المدَى قبله، والمصارعة أن يمسك أحدهما الثاني ويتصارعان حتى يطرح أحدهما الثاني، أما المُرَامَحة فهي التضارب بالأَرْجُل حتى ينهزم أحدهما.

ومن ألعابهم الطَّابَةُ والقابَة، وهما متشابهتان، فالأولى كُرَةٌ من القماش أصغر من الكف، والثانية العظم المستدير الذي في ركبة البعير، وطريقة اللعب بهما وضع حفرة يقف عندها أحدُ اللاعبين وبيده عَصًا، وتكون الطابة أو القابة بيد لاعب آخر، على مسافة بضعة أمتار من الحفرة، فيرميها بيده محاولاً أن تقع في الحفرة، ولكن اللاعب الواقف عندها يحاول ما استطاع ألا تسقط في الحفرة، فمتى سقطتْ حلَّ صاحبهُ محله.

ومنها (عُظَيْم سَاري)، وتعرف عند العرب قديمًا باسم (عُظَيْمٌ لاَحَ) - إن لم تخني الذاكرة - وتُلْعَبُ لَيْلاً جماعاتٍ على فريقين، فيصطفون في مكان، ويرمي أحدهم بِعَظْمٍ صغير قدر الأصبع، بعيداً عن مكان وقوفهم، فيجرون مسرعين إلى مكان سقوطه، فإذا وجده أحدهم صاح (عُظَيْم ساري) وجرى إلى المكان الذي رُميَ منه، فإذا أُمْسِكَ قبل الوصول إليه أُخِذَ منه، وغُلِب فريقُهُ، فصار رَمْيُ العظم بيد الفريق الآخر.

---

* المجلة العربية، العدد (١١٤) رجب ١٤٠٧ هـ / آذار ١٩٨٧م.

ومنها (عُتَيْب) وتعتمد على المقدرة على المشي برجل واحدة مع القفز، يلعبها اثنان، تُخَطُّ أربعة خطوط متوازية، بين كل خطين نحو نصف مترٍ، ويأتيان بحجر صغير أملس لا يؤثر في الرجل عند وَطْئه، فيبدأ اللاعب برمي الحجر بين الخطين الأولين، ثم يَعْتِبُ ـ يسير على رجل واحدة ـ في قفزة واحدة قبل الخط الأول حتى يطأ الحجر، وإن لم يصل إليه بتلك القفزة غُلِبَ وكان اللعب من حق الثاني، ثم إذا جاز الخط الأول حاول أن يَجُوز الخطَّين، ثم الثلاثة، ثم الأربعة قفزة واحدة.

وألعاب أخرى، ولكنني ما كُنْتُ أشترك مع لداتي في شيء منها، حتى السِّبَاحَة التي قَلَّ أن يوجد بين أطفال القرية من لا يحسنها، فقد كنتُ أخاف من النزول في الآبار، وقد حاول أخي بعد مُجَاوزتي مرحلة الطفولة أن أتعلمها فلم أفعل.

لقد أثر اعتلال صحتي وما عانيته من معالجتي بالكيّ، وبإرغامي بشرب أدوية لا يُسْتَسَاغُ طعمها كالصَّبِر والْمُرِّ والحِلْتِيتْ وغيرها أن تمكَّنَ منْ نَفْسِي الهلعُ وشدة الخوف في جميع مراحل حياتي.

قد أُشارك في بعض الألعاب التي لا تتطلب حركاتٍ جسمية مما كان معروفًا في ذالك العهد، كلعبة الخط (أم خطوط) ويلعبها اثنان، تخط ثلاثة مُربَعاتٍ، تقطع أوساطها بأربعة خطوط، ولكل لاعب تسعةُ أحجارٍ صغيرة يغاير لونها لون أحجار صاحبه، فَيَصُفُّ كل واحد أحجاره في أركان المربعات وتقاطع الخطوط، ومتى استطاع صفَّ ثلاثة أحجار على خط مستقيم بدون فاصل من أحجار صاحبه أبطل حجراً مما مع صاحبه، حتى يأتي على أحجاره كلها ـ كما في لعبة الشطرنج ـ

وهذه اللعبة منتشرة في نجد، وفي الحجاز ومعروفة منذ عهود قديمة، وتُدْعَى السُّدَّر، والقرْقَ والخَطَّ ـ انظر كتاب (في سراة غامد وزهران) ـ ص ٥٧ ـ وكثيراً ما يلعبها كبار السن في القرى.

ولعبة أخرى أخفُّ من تلك تُدْعَى (سُطَيْع) تتكون من ثلاثة خطوط متقاطعة، ولكل لاعب ثلاثة أحجار، يصفّها على الخط الذي يليه، ثم يحاول صفها على خط مستقيم في مكان آخر، ومتى استطاع غلب صاحبه، وطلب منه أن يَمُدَّ كفه ليضربه بكفّه ضربة تسمى (سَطْعة)، ولا يقتصر لعب هذه على الصبيان، بل تلعبها الفتيات في البيوت.

وهناك (الصَّقْلة) يشترك في لعبها اثنان فأكثر، بخمس حصيات مصقولة بشكل الكرات الصغيرة، فيطرح اللاعب الأحجارَ على الأرض، ويأخذ واحدة منها تقع على ظهر كفه حين يرمى بالأحجار، ثم يرمي بالحجر الباقي على ظهر كفه بالهواء، ويلتقط الأحجار الساقطة على الأرض واحدة واحدة، وهو في كل مَرَّةٍ يحاول الجمع بين تَلَقُّف الحجر الذي رمي به في الهواء، وأخذ الحجر الذي في الأرض، وفي المرة الثانية يأخذ من الأرض حجرين حجرين، وفي الثالثة يأخذ واحداً ثم ثلاثة، وفي الرابعة يأخذ أربعة أحجار مرة واحدة، ومتى تمَّ له ذالك بدون أن يسقط الحجر الذي يقذف به في الهواء ويتلقاه بظهر كفه، فإنه لم يبق عليه سوى فتح ما بين أصبعي الإبهام والسبابة من يده اليسرى بعد وضعها على الأرض، ثم مخالفة يده اليمنى وفيها الأحجار وراء اليسرى ورمي الأحجار مقابلة لفتحة ما بين الأصبعين، ويسأل اللاعب الثاني: أين خالك؟، فيختار من بين تلك الأحجار المتقاربة ألصقها وأقربها من حجر آخر، ثم يحاول اللاعب إدخال الأحجار بين الأصبعين

بيده بعد أن يرمي الحجر بالهواء ويتلقفه بعد محاولة إدخال تلك الأحجار بخفة وسرعة، وبدون أن يمس أحدها (الخال) الذي يكون آخر ما يدخل، ولكن متى تحرك بإصابة حجر آخر أو بيد اللاعب، أو سقط الحجر الذي يرمى في الهواء على الأرض، غُلِبَ اللاعِبُ، وحل الآخر محله، والبنات يلعبن (الصقلة) وكذا النساء في بيوتهن.

ولعبة (الكُعُوب) وتسمَّى في الحجاز (الكِبَاش): كان الصبيان يجمعون كعوب الغنم ـ جمع كَعْب ـ ويتبارون في ذالك بحيث يكون لدى الواحد منها العشرات، ويشتركون في اللعب بها، فيضع كل واحد عدداً مساويا لما يضعه الثاني، ثم يصفُّونها على مقربة من حفرة هيأوها ويقفون منها على بعد خمسة أمتار أو نحوها، ويكون كل واحد قد اختار من كعابه أكبرها وأثقلها، وهو (الصَّوْلُ) عندهم، فيرمي به الكعَاب المصفوفة، فما سقط في الحفرة فهو له، ويستمر في اللَّعِب، وإن لم يسقط شيء أُعيد صَفُّها وجاء دور صاحبه، حتى يأتي أحدهما على ما مع صاحبه من كِعَابٍ، وتعتمد الغلبة فيها على تسديد رمي (الصَّوْل) وثِقَلِه، ولهذا يعمدون إلى حفر جوفه، وملْئه بالرصاص بعد إذابَته.

وتَتَلَهَّى فتيات القرية الصغيرات بلعبة تدعى (التَّخَرُّف) يجتمعن غِبَّ المطر، أو على مقربة من أرض رطبة، أو يُحضرن رَمْلاً مبتلاً، مما لا يلصق بالكف (يتَخرَّفْنَ) به، وهو (الخَرُّوْفُ) عنْدَهُنَّ، فتمسكه إحداهن بيديها محاولة أن تُمَثِّلَ به ما صَنَعتْ أمُّها في البيت من طعام، من البدء بعمله حتى الانتهاء من أكله، ولكنها تشوب كلامها بما يستطرف من مبالغة، كأن تقول: (نقوم البارح، وتَيْسٍ قارِح، وأدَعْ

وبنْت أدَعْ، والحِقّتَينْ والجَذَع، وقرص كُبْرَ السموات والأرض، نَتَلهَّى به حتى يالم العشاء) أي إنَّنا هَيَّأنْا للأكل تَيْساً قارحاً، كبير السن، و(أدع): هي العنز تسمى بالكلمة التي تُطْرَد بها، والحِقّتان: البكرتان من الإبل لهما سنتان، والجذع البكر من الإبل له ثلاث سنوات، القُرْصُ الرغيف، يالم العشاء: يَتَهَيأ من ولَم الأمر تَمَّ، ثم بعد ذالك تحكي حقيقة ما أكل أهلها في تلك الليلة، وتعقبها الثانية والثالثة وهكذا، ولعل اسم (التخرف) مأخوذ من (الخرافة)، فالفتيات يُزَوِّقْنَ أحاديثهن بما لا حقيقة له.

وقد يَجْتَمِعْنَ لاستماع (السَّبَاحِين)، وهي حكايات خرافية تُبْدأ بجملة: (يقولون هَاكَ الواحد والواحد الله سبحانه)، ولا كالعجائز في حفظ تلك الحكايات، وتسمى الحكاية (سبحونة) لأنه يقال في أولها: (الواحد الله سبحانه). وبها كان يُلَهِّى الأطفال ليناموا، وكثيراً ما تكون تلك (السباحين) من وسائل التخويف، وإدخال الرعب في نفوسهم، لما تحويه من أوصاف خرافية لأشياء وهمية، يُخْلِدُ الطفل عند سماعها للسكون حتى ينتابه النوم.

ولا أزال أذكر تلك النغمة الخشنة التي بقيت في ذاكرتي من (سبحونة): (قعود عمتي مِي) حين يقول: (السِّعْرُ) بصوته الأجش عند سماعه بتحريك سيفه: (من سلَّ السيف الحنَّان الرنَّان، مقطِّعْ روس الصبيان).

وكثيراً ما تعمد الأمهات إلى تخويف أطفالهن بترويعهم بما يزعمن أنه سيأتي إليهم إن لم يناموا، أو يتركوا ما يُردْنَ تركه منهم: يجيك (السِّعْلُو) (ياخذونك أهل بسم الله ـ أنادي مُسَدِّد عيونه بالخرق)!

وأمثال تلك الكلمات التي تبعث في نفوسهم من الرهبة ما يدفعهم إلى التظاهر بالنوم، بل بالاستغراق بالأوهام والتخيلات التي يعشش أثرها في نفوسهم بعد أن يتجاوزوا مراحل الطفولة، وقد اختزن في ذاكرتي كثير من تلك الأوهام، فكنت إلى عهد قريب أخشى الظلام، إذْ كثيراً ما كنت أسمع حين أريد دخول الحجرة المظلمة في صغري من يأمرني بالتَّسمية أو يسمي عليَّ (بسم الله عليك الرحمن الرحيم) وأتَوقَّى مَسَّ الرَّماد، لكثرة ما أسمع من الخرافات عن أناس خبطوه بأيديهم بدون تسمية فلاطفتهم الجن، أي دخلت في أجسامهم، فصارت تصرعهم في بعض الأحيان، وحينما أكون ماشياً في البَر فأبصر خيال حيوان أو ظلال شجرة ينتابني الخوف من أن يكون (شِيفة) ـ وهي الغول ـ التي سمعت من أخبارها وحِيَلِهَا ما جعلني أكره السير في الخلاء وحدي. وقد بقيت آثار الخوف في نفسي حتى الآن، بحيث صرتُ كثير التردُّد في أموري، شديد الترقب للعواقب، وقد تنتابني الأوهام والوساوس، حتى تؤثر في صحتي بدون أن يكون لبواعثها أساس.

في مدرسة القريـة*

يشب ابن الفلاح مشاركًا في أعمال الفلاحة منذ صغره بقدر استطاعته، وهكذا نشأ أخواي جاسر ورشود، أما أنا أوسطهما سنّاً فنشأتُ عليلَ الْبَدَن، مَيْؤُوسًا من بقائي على الحياة، ولكنني صارعت الأمراض حتى أنهكتْ جسمي فصرعتها، وعشت عاجزاً عن القيام بأي عمل مهما قَلَّ مما يُنْتَفَع بي فيه.

كان العامل ـ ويدعى (الصَّبي) مهما بلغ من العمر ـ الذي يتولى سوق السَّوَاني التي تُخْرِجَ الماء من الآبار حين يأتي وقت تناول طعام الغداء، يكِل عمله إلى أحد الأولاد الصغار فأتولى ذالك العمل، إلا أن إحدى السواني، وكانَتْ ناقة (مَلْحاء) لأبي، حين تراني نازلاً في (المنْحَاة)، تعترض في مكانها منها وتقف، فأنهال عليها بالضرب، ولكنها لا تتحرك حتى ترى (الصَّبيّ) عائداً إلى عمله.

وفي أول فصل من فصول الشتاء، وقد تأخر عمل الزراعة لتأخر نزول المطر، وكان أهل البلدة (البرود) قد أحضروا معلماً للصبيان (مُطَوَّعًا) من أهل شقراء، يدعى عبد الرحمن بن إدْريس، فمطوعهم ـ مع حفظه للقرآن الكريم، وإحسانه للكتابة بالنسبة لزمنه، وصلاحه وعبادته وورعه ـ لم يكن على درجة من سماحة النفس، وسعة البال، تمكنه من رعاية الأطفال، والقيام بتعليمهم مبادىء القراءة والكتابة، وما كان أهل البلدة يرغبون بتكليفه بذالك لرغبتهم ببقائه لديهم.

وكان أهل القرى في ذالك العهد يتولَّون ـ بالتعاون فيما بينهم ـ القيام بمتطلبات شؤونهم العامة، دون الرجوع إلى الحكام الذين

* المجلة العربية، العدد (١١٥) شعبان ١٤٠٧ هـ / نيسان ١٩٨٧م.

يصرفون أحوال البلاد بصفة عامة، إذْ ما كان هاؤلاء ـ على وجه الإجمال ـ على درجة من الاهتمام بشؤون القرى وأهلها، فهم مشغولون بأحوالهم العامة.

ذهب بي أخي الكبير أنا وأخي الصغير إلى البلدة، مشيًا على الأقدام، والمسافة بينها وبين قرية شرقة تقارب خمسة أكيال، وقد حمل معه (الدِّخَالة) خريطةً مملوءة قمحًا، يقارب ستة آصع.

و (الدِّخالة) هي ما يدفع للمدرس حين إدخال الطفل في المدرسة، وهي بحسب حالة وليِّ الأمر، نقودًا أو طعامًا، بالقدر الذي تجود به نفس الْوَلِيِّ، وليستْ كل ما يدفع للمدرس، وليس ما يُدفع بالأمر المقرر دفعه بطريقة حتمية، فهناك (خِتَامَةُ الْهَجْوَةِ)، تدفع عندما يستطيع الطفل معرفة حروف الهجاء، و(ختامة جُزء عمَّ)، و(ختامة القرآن)، وهذه أجْزَلُ ما يُدْفع للمعلِّم.

كنت أحمل أنا وأخي (رشود) لَوْحَيْنِ من خشب الأثل، أصلحهما نجَّارٌ يدعى (دُحَيم الصانع)، وكان رجلاً طيب النَّفْس، يشاهد عطف أبي عليَّ رحمةً بي لضعفي، فيداَعبني كثيراً، ويخصُّني بأن يُمَازِحَني ويعابثني، وكنت ألازم الجلوس عنده، وهو يُصْلِحُ الأبواب وأدوات البئر من مَحَالٍ ودرَّاج وأنباع وعَمَدٍ وغيرها، وكان يحضر بأدوات النجارة من بلدة الفيضة، وهو الذي تولَّى خِتاني أنا وأخي الصغير رشود، إذْ لم أُخْتَن إلا بعد الرابعة، لما اعتراني من الأمراض، وأذكر أن صراخي أنا وأخي من ألم الختان لم يهدأ حتى قدمت أُمُّنا لكل واحد منا مَرْضُوعًا (قرصًا صغيراً)، وكانت تخبز فوق التَّنُّور.

ويُذَكِّرني ارتياحي للجلوس عند هذا النجار بعاملٍ آخر كان يتردَّدُ

على قُرَى السِّرِّ، في ذالك الزمن، لخرازة الغروب (جمع غَرْب)، كان يأتي من ضَرَما في أوائل الشِّتاء، وكان يحمل معه عَيْبَةً صغيرة، قد ملأها بالسكاكين والمخاريز، ويتولّى عمله صباحًا في المِشْراق، وهو المكان الذي يجلس فيه أهل القرية للاستدفاء بالشمس، ويدعى (ابن نُوَيْجِم)، وحين ينصرف الكبار إلى أعمالهم لا يبقى عنده سوى الأطفال الذين يأنسون بترديده أغاني تتفق نغماتها مع حركات يده في خرز الجلد بالإِشْفَى (المخراز)، ومما حفظت من أغانيه لتأثير تنغيمه قوله:

دنيَاك هَاذي خَارَبَهْ	وأطْرافها متْقارْبَه
والشُّوْر عنْد أمّ الوَلَدْ	والرجِلْ عِقّبْ شاربْه

وقوله:

دنّيَاك هاذِي دَيّحَتْ	واطْرافها قد بَيّحَتْ
وإذَا خَذَاش الأبُو	فأمّ الولد قد صَيّحَتْ

وكان حين يردد الأطفال معه تلك الأغاني يُغْرِق في عمله، ويسترسل فيه، حتى يفاجأوا بكلمة منه يرفع بها صوته ما استطاع (هَاهْ)، مُخْرِجًا أحد سكاكينه من الْعَيبة، ومادا يدَهُ إلى أقرب الأطفال إليه، مشيراً إلى (ذاك) منه بالقطع، فيهربون، ليفرغ لجمع قطع الجلد والسيور، وقد أكمل عمله.



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي

جامعة الملك سعود

قرر مجلس الجامعة

بجلسته الثامنة المنعقدة بتاريخ ٢٧ ذي الحجة ١٤١٦ هـ

منح: الشيخ حمد بن محمد الجاسر

الدكتوراه الفخرية

والله ولي التوفيق

رئيس مجلس الجامعة	مدير الجامعة	أمين مجلس الجامعة
خالد بن محمد العنقري	عبد الله بن محمد الفيصل	خالد بن عبد الرحمن الحمودي

طريقة التعليم*

كانت الدراسة في مكان يدعى (حوش مِجْلاد) وكان مسقَّفًا، وهو بقرب بيت الأمير، وفي أول الصباح في (مسجد أم عشيرة) أقدم مسجد في القصر، وقد أُزيل سقفه، إذ استبدل به مسجد آخر أوسع منه، بعد أن هُجر القصر الذي بُني له ذالك المسجد، وكان الجلوس للتعلم على الأرض بدون فراش، وكانت أمكنة قضاء الحاجة في الخلاء غير بعيدة عن المدرسة، وما كانت هناك عناية بالنظافة، ووقت التعلم متواصل من طلوع الشمس حتى قرب صلاة الظهر، لا يتخلله فراغ للاستراحة، وبعض الصبيان من المتقدمين في الدراسة يحضرون بعد صلاة الظهر.

كتب المُطَوَّعُ في لوحي ولوح أخي حروف الهجاء، وهي أول درس يتلقاه الطفل (أ ـ ب ـ ت) إلى آخرها، وقرأها لكل واحد منا حرفًا حرفًا (أَلْف ـ بَا ـ تَا ـ ثَا) وأمرنا بتكرارها.

كانت صورة المطوع التي بقيت في ذاكرتي تثير الرعب في نفسي، فأذكر انقباض وجهه، وإمساكه عصاً من الخيزران تزيد على المتر، وكلمات التهديد والوعيد، حين يشاهد من أحد الأطفال انصرافًا عن النظر إلى لوحه، ولا أدري هل تلك الرهبة كانتْ من الأسباب التي حملتني على الاتجاه التام لحفظ تلك الحروف، ولكن الذي لا أزال أذكره أنه لما حان وقت الانصراف من المدرسة أشار لي (المطوع) ولأخي ـ لحداثة عهدنا بدخول المدرسة ـ ليعرف هل حفظنا، فكان أن طلب مني قراءة تلك الحروف، وكانت إلى حرف (ض)، فقرأتها مرتبة، ثم

* المجلة العربية، العدد (١١٦) رمضان ١٤٠٧ هـ / أيار ١٩٨٧م.

طلب قراءتها من آخرها، فكان ذالك، فصار يخط في الأرض بعض تلك الحروف ويسألني عنها بدون النظر إلى اللوح، فاطمأن إلى أنني قد حفظت ما كتب لي.

وأتى دور أخي الذي قابل طلب (المطوع) بأن يقرأ ما كتب في لوحه بالصمت، فقرأه المطوع نفسه، وكرر القراءة ليتابعه، فلم يحرك شفته، فانهال عليه ضرباً بالعصا، بحيث صرت أرْتَعد، وأجهشتُ بالبكاء، أما أخي فقد رفع صوته المختنق بالعبرة صارخًا: (أنا أعرف أقول: ألْف، بَا، تَا، ثَا، جِيْم، حَا، خَا ولا أنا بْقَائلها)، وكان انتهاء وقت الدراسة والعودة إلى القرية، ثم الحضور في صباح اليوم الثاني ومعنا أخي الكبير، الذي أقنعه المطوع أن (رشود ما يصلح للتعلم!).

فكنت آتي وحدي ـ بعد أن يقطع بي أخي أو أبي مسافة من الطريق، وأشاهد ما قرب من البلدة من نخل ـ حتى تجاوزت مراحل دراسة حروف الهجاء.

وأولى تلك المراحل: حفظ الحروف (أ ـ ب ـ ت) إلى آخرها، مرتبة بأسمائها.

وثانيها: معرفة حركاتها والطريقة هي (أَا أُا أْا ـ بَ ـ بِ ـ بُ ـ بْ) إلى آخر الحروف وتُنْطَقُ (أ نَصَب، إ خَفَضْ، أُرَفَعْ، أْ جَزْم)، ويرفع بها الطفل صوته ويكررها كل الضحوة حتى يتيقن (المطوع) أنه حفظها، بكتابتها في الرمل بدون ترتيب، وقد ينوب عنه من يثق به من تلاميذه.

وثالثها: التنوين هكذا (اً ـ اٍ ـ اٌ ـ باً ـ بٍ ـ بٌ) إلى آخرها، وينطق

(اً نصبتين، اٍ خفضتين ـ اٌ رَفْعتين) وهكذا.

ورابعها : تشديد الحرف (أّ ـ اّ ـ أُّ ـ بَّ ـ بّ ، بٌّ) والنطق هكذا (أ أّ شدَّة ونَصْبةْ ـ إِّي شدَّة وخَفْضة ـ اُّو شدَّةْ ورفعة، ب ـ أبَّا شدَّةْ ونَصْبه، أبِّي شدَّة وخَفْضَة ـ أَبُّو شدَّة ورفعةْ)، ويلحق بهذه المرحلة التنوين مع الشّدَّة (أًّ ـ اٍّ ـ اٌّ ـ بّاً ـ بٍّ ـ بٌّ) إلى آخر الحروف وكيفية النطق (أَ أّن شدة ونصبتين ـ أَ إِّنْ شَدَّةْ وخفضتين ـ ا أُّنْ شدّة ورفعتين ـ أَبَّنْ شدة ونصبتين، أَبِّنْ شدّة وخفضتين ـ أَبُّنْ شدَّةْ ورفعتين).

وخامس المراحل : مَدُّ الحرف (آ ـ اِي ـ اُوْ ـ بَا ـ بِي ـ بُو).. .إلخ، والنطق كالكتابة بدون ذكر المدّ.

ثم المرحلة الأخيرة وتسمى (الغُبَيْبَة) تَصغير غِبَّة، ولعلها مأخوذة من غِبَّة البِئْر التي لا يغوص فيها إلا من يجيد السباحة، وهي مرحلة متى اجتازها الطفل فإنه قد أجاد دراسة الهجاء، وتكتب هكذا : (اَيْ ـ أَوْ ـ أَهْ ـ أَيْه، اُو، أَء، ـ بَيْ ـ بَوْ ـ بَهْ ـ بِيْه ـ بُوهْ ـ اَبْ) ونُطْقها ككتابتها ، ويختبر (المطوع) تلميذه بأن يكتب له في الرمل حروفًا منها فإذا سارع بنطقها وثق من حفظه، وإلاَّ أرجعه لأول مراحل الهجاء، فأعاد ما سبق أن درس، ولا يحدثُ هذا إلا لمن يتعثر في دراسته، وما كنت مُتَعثِّراً في ذلك، وهذا يرجع ـ في رأيي ـ إلى أنني لكثرة ما أصابني من أمراض، وما قاسيت من طرق سيئة في علاجها أصبحت ذا هلع شديد، ولهذا كنت أخاف من (المطوّع) حين أراه ينظر إليَّ، وكانت كلماته: (هَاهْ تراي أشوفك) ! حين يراني لا أنظر في لوحي ـ تُوقع الرعب في نفسي، فأُحاول أن أسلم من عقابه، حتى أنني لا أذكر أنه عاقبني إلا مرة واحدة أمرني بالبقاء في المدرسة وقتًا قصيراً،

أنا وثلاثة معي، لأنني لم أحسن تقليده في كتابة أحد الحروف.

وأقسى أنواع العقاب في المدرسة استعمال (البُغَيْلَة) المعروفة في البلاد الأخرى باسم (الفلكة)، وهي عصاً طويلة رُبِط بطرفيها حَبْلٌ، فتدخل رِجلا الصبي بين الحبل والعصا، ثم تُزْوَى العصا حتى تحكم ربط الرجلين، ثم يرفعان أمام (المطوّع)، يتولى ذالك اثنان من كبار التلاميذ، فينهال بالضرب على القَدَمَين، وقد يمتدُّ إلى الفخذين.

ويحمل (المطوّع) عصاً طويلة تكون من الخيزران، قد يغافل بالضرب بها من يراه منصرفًا عن درسه.

وفي الهفوات الصغيرة يكون الضرب بالمسطرة، وهي عصاً بطول الذراع، طرفها مستدير أملس، وموقع الضرب باطن الكف، وقد يبالغ بالضرب حتى يَحْمَرَّ موقعه.

أدوات الدراسة*

وأدوات الدراسة ـ في ذالك العهد ـ لوح من خشب بطول الذراع، وعرض الشِّبْر، من خشب الأثل، سمكه نحو خمسة سنتيمترات ليخف محمله، وقد أُصلح وجهاه فصارا أمْلَسَيْنِ، لتسهل الكتابة فوقهما، ومتى حفظ التلميذ درسه غسله من اللَّوْحَ بالماء، وطلاه طلاءً خفيفًا بنوع من الطين أملس يُسمَّى الْغَرِيْن، أو مسحه بنوع هشٍّ من الحجر الأبيض يُدعى الرُّصَين، لتتضح الكتابة فيه.

والحِبْر يُتَّخَذُ من (السِّنُو) ويُسمى (السخام) و (الهباب) عند بعضهم، وهو ما بقي من آثار النار فوق ظهر القدْر، أو باطن (المقْرصة) أو في الكُوَى، التي توضع فيها السُّرج التي تَتَّقدُ بالْوَدَكِ أو بالقاز، ولا زجاج لها، فيتجمع السِّنْوُ في أعلى الكُوَّة، ويقوم الصبيان بجمعه أيام فراغهم من الدراسة، وهم يصنعونه بأن يطبخوه بالماء على النار، مضيفين إليه الصَّمْغَ الذي يأتون به من شجر الطلح من الْبَرِّ، وقد يضيفون إليه قليلاً من (الزَّاج) الذي يرد من خارج البلاد لصبغ ثياب النساء.

أما الأقلام فتأتي من الخارج أيضًا ـ عِيْدَانًا طويلة من قصب اليراع، ويسمونها (اليرا) ويأتي بها الحجاج من مكة، ولكنها لا تتوفر في كل وقت لكل أحد، ولهذا يُستعاض عنها بأغصان العوسج (العوشز) اليابسة، لأنها مجوفة، ويسهل بَرْيُها، وشَقُّ أَسلاَتِها ليلصق به الحِبْر من الدَّواة.

* المجلة العربية، العدد (١١٧) شوال ١٤٠٧ هـ / أيار، حزيران ١٩٨٧م.

وتُصْنَعُ الدُّوِيُّ من خشب الأثل، وتكون بطول الشِّبْرِ، تزيد قليلاً في طرفها حفرة مستديرة، يوضع فيها الحِبْرُ، وبقيتها حفرة مستطيلة، لوضع الأقلام، ولها غطاء من الخشب، ملاصق لها، يسهل تحريكه عند الحاجة.

ثم بعد مرحلة الهجاء يبتدىء الطفل بقراءة القرآن، في أجزاء مطبوعة في الهند، وكثيراً ما كانت تحتوي على (الهجاء) من أول حروفه إلى آخر مراحل تعليمه ـ مع اختلاف عما تقدم ذكره ـ وقد ذكر في أوله (قاعدة بغدادية)، ولا أعرف حتى الآن ما المراد بها، ولعل هذا الجزء الذي يحويها مع (جزء عمَّ) طبع أول ما طبع في بغداد.

والمصاحف تأتي من الهند، وتطبع هناك على الْحَجَرِ، ككثير من كتب الحديث، أما المصاحف العثمانية المطبوعة في (اصطنبول) فهي قليلة وغالية الثمن.

في مدرسة أخرى *

اجْتَزْتُ الهجاء، وبدأْتُ في (جزء عمَّ) بعد أن حفظت غيباً دعاء الاستفتاح، والتشهد (سبحانك اللهم وبحمدك) و (التحيات لله والصلوات والطيبات) ثم (سِورة الفاتحة) ثم (سورة الناس)، واستمر الحفظ بدون تعثُّرٍ، وسُرَّ (المطوع) بما أظهره أبي من سرور بدا أثره بما قدَّمه له من (حِفَاظَةٍ) كانت آصُعًا قليلة من القمح المخلوط بالشعير، ودعوة إلى القرية مع بعض الوجهاء ومتقدمي الطلاب لطعام الغداء، ولكن ما أسرع ما فارقنا هذا (المطوع) عائداً إلى بلدته (شقراء) فحل محله آخر يدعى عبد الله بن فنتوخ، من بلدة أُشَيْقِر، ولكنه كان أكبر سناً، وأقلَّ نشاطًا وحَزْمًا، بحيث ترك أكثر الأطفال المدرسة، فنقلني أبي ـ لا لهذا السبب ولكن لسبب آخر ـ حيث زرع في مكان هو أقرب إلى قرية تدعى (حَزْمِيَّةَ)، وفي هذه القرية قريبة لأبي ـ هي بنت أخته موضي الناصر، وزوجها عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ـ من آل رَاشد ـ وقد أحضر أهل هذه القرية (مطوعًا) مشهوراً من إحدى قرى العُيون (عيون السِّر) يدعى عبد الرحمن بن إبراهيم(**) ـ فنقلني أبي إلى هذه القرية لأقيم فيها تحت رعاية ابنة أخته، وصهره زوجها، ولا

---

* المجلة العربية، العدد (١١٨)، ذو القعدة ١٤٠٧ هـ / تموز ١٩٨٧م.

(**): هو عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم الفوزان (المعجل) وهو من أهالي (المذنب) انتقل مع والده إلى (عين الصوينع) واستقر بها، هو وأولاده، وهو من قبيلة (النواصر) من تميم وله أبناء منهم الدكتور: فوزان أستاذ محاضر يحمل درجة (الدكتوراه) في جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية.

ومن الذين تتلمذوا على يديه الشيخ حمد الجاسر، ودرس على يديه مِن سورة «النور» إلى سورة «الناس» ومحمد بن علي العبود، وعبدالرحمن بن عبد الله المشوح، وعلي بن عبد الله بن حوشان، ومحمد بن عبد الله بن حوشان. هذا الكلام نقلاً عن ابنه عبد الله بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن إبراهيم الفوزان. (المجلة العربية).

أدري لماذا انطبع في نفسي من احترام ذالك المطوع، ومن محبته ما لا أنساه، ولكنني كنت أذكر عنه أنه دائمُ الابتسام، حتى حين يقوم أحد الأطفال ـ بل حتى التلاميذ الكبار الذين تخطوا مراحل الطفولة ـ بأنواع من العبث، لاستثارة غضب المطوع، فإن عقابه يكون صارماً بـ (الحبس) الإبقاء في المدرسة بعد انصراف التلاميذ، وبالتكليف بحفظ درس مقبل، أو كتابته، وما كان يتخذ من الانتصاف لنفسه حين يهان وسيلةً للحقد أو الغضب، فقد يرميه أحد الطلاب بأحجار صغار من حصباء المدرسة ـ ولا فِرَاشَ للمدرسة غير الحصباء ـ فيدعو الرَّامي قائلاً: خذ الحصا!! ويقف عند هذا الحد، فيخجل الفاعل، ولا يُجْديه اعتذاره لأن (المطوع) هذا تمكن من أن يدرس (نفسية) تلاميذه حتى استطاع أن يميز بين أخلاقهم.

كنت في هذه المدرسة من أوائل الطلاب، لا يتقدمني إلاَّ من هو أكبر مني سنًا، وأذكر بعضهم بألقابهم: عُبُود (عبد الله) بن حوشان، وحمد بن عبد الرحمن بن فُلَيِّح، يلقب (الجَدْي) لأنه يلازم مكانه في المدرسة، وولد شُرَيِّدة، واسمه إبراهيم بن عبد الرحمن بن فُلَيِّح، ينسب لوالدته، وهي ابنة رجل يرعى غنم أهل البرود، يدعى شُرَيِّد، تزوجها عبد الرحمن، فولدت له إبراهيم، وكان له زوجة أخرى ذات أولاد كبار، ولها حظوة لدى زوجها، وكان إبراهيم ذا طباع تشابه طباعي، فكان عليل الجسم، منقبضًا لا يشارك الطلاب في عبثهم، فكنا نجلس ـ دائمًا ـ متجاورَيْنِ، مقبلَيْنِ على الدراسة، وكانت الاستمرارَ في حفظ القرآن، وكان (المطوع) يولينا من عطفه واهتمامه أكثر من غيرنا، ويحاول منَّا أن نتولى تدريس من هو دون مستوانا،

ولكن لخوفنا من (شيطنة) من هو أقوى منا نحاول الابتعاد عن التدخل في أحوال زملائنا.

لعل أولَ مرة أُحِسُّ فيها بلوعة الحزن حين فاجأ الموت صاحبي، فلقد تُوُفِّيَتْ أمي وأنا صغير حول السابعة من عمري، فما أحسست بموتها في مرض لم يزد على ثلاثة أيام، ولا تأثرت لفقدها، فقد قامتْ جدتي (أم سليمان) ـ رحمها الله ـ برعايتنا أنا وأختي وأخي فما شعرنا بفقد أمنا، وإن لم تتجاوز تلك الرعاية من جدتنا أياماً.

في عصر يوم خميس دعاني إبراهيم إلى بيتهم ـ ولعله في آخر شهر ذي الحجة ـ وأهل القرى في عيد الأضحى يكثرون من الأضاحي، فَيُقَدِّدُون لحومها، ويضعون فوقه الملح، وينشرونه على حبال حتى يجفَّ وَيَيْبَس، ويسمونه (قُفْراً) وهو الْقَديد، ويأكلون منه على حالته هذه بعد جفافه، ويصلحون به أطعمتهم فيطبخونها به، أو يستعملون مرقه في عمل الثَّرِيد (القرصان).

كان (القُفْرُ) في بيت صاحبي ـ منشوراً على الحبال في (مِجْباب) واسع وهو حجرة مستطيلة في البيت، فصار يُناولني مما فوق تلك الحبال فآكل، ويأكل هو، وفي أثناء ذالك تناول (قفرة) كانت ساقطة على الأرض فأكلها، وبعد برهة قصيرة رأيت صاحبي يحاول القَيْء، ثم أصابه فتور فجلس، ثم تمدَّد على الأرض، ثم صار يَنْحَطُ بصَوْته، كمن يحاول إخراج شيء من جوفه، ثم ذَرَعَهُ القَيءُ وأصبح لا يحسُّ بمن حوله، ثم صار يخرج من بطنه دمٌ شديد، وقد أحاط به بعض إخواته وأهله، وأخذَني أحدهم وأنا في حالة من الذهول، فأخرجني من البيت، فجلست بقرب الباب أبكي، حتى أتت السيدة التي أقيم في بيتها،

وذهبت بي إليه، وهي تحاول تهدئة روعي، كان هذا قبيل غروب الشمس. وبعد صلاة العشاء صُلِّي عليه مَيْتًا!

تقع قرية (حَزْمِيَّة) على مقربة من هجرة (ساجر) ـ التي أصبحت الآن أكبر مدينة في السِّرّ، وكانت حركة (التَّدَيُّن) عند (الإخوان) في عُنْفُوانها، وكان من شعار (المتدين) لبس العمامة فوق (الغترة) التي يُسْتَرُ بها الرأس[1]، وهي قطعة من القماش مستطيلة تُلَفُّ على (الغترة) لفاتٍ، وكان نفوذ (الإخوان) في القرى القريبة من هُجَرِهم قويًا، فحملوا الكبار من التلاميذ في المدرسة على لبس العمامة، فأحضر لي أبي ستة أذرع من القماش الأبيض، تعممت به بعد شقه نصفين، ووصلهما ليبلغ ما لففت على رأسي اثنى عشر ذراعًا، وهي (العمامة) الكاملة، والأخرى ستة أذرع، ولك أن تتصور شكل رأسي وفوقه تلك القطعة الكبيرة المكوّرة مع صغر جسمي، وكنا نحفظ تلك الأيام أبياتًا من النظم، كان أحد (المطاوعة) المتجوّلين بين القرى للوعظ، يكرر إنشادها أثناء وعظه، ويُدّعَى (ابن بَطِي) من بلاد (القصيم)، وكان معه ابنان له يدعوهما بـ(موفق) والآخر (مسدد) قد حفظا أحاديث من «الأربعين النووية»، فإذا انتهت الصلاة رفع (المطوع) صوته: اقْرَأ يامُسَدَّدُ (حديث العِرْبَاض) أو أي حديث سماه، وكانا يجلسان في طرفي الصَّف الأول، ثم يشرح الحديث المقروء، ويسترسل في الوعظ، والأبيات هي:

يا منكرًا فَضْلَ (العِمامة) إنها	من هَدْي من قدْ خُصَّ بالقرآن
وكذاك كانتْ لِلصحابة بعده	والتابعين لهم على الإحسانِ
ليستْ كلبس الجُنْدِ في أزماننا	حاشا وَربِّي كيف يستويان
هذي شعار ذوي التقى وذا	ل (الزِّكِرْتِ) وكل ذي طغيان[2]

أي العِقَال: لباس (الزكرت) القليلي الدين، والجُنْد.

وكان من الطلاب في مدرسة (حَزْمية) من (الإخوان) رجل كبير السِّن، يدعى مشعان ابن قشعان، أخوه خالد من مشاهير الإخوان، وكان يتعلم حروف الهجاء، وقد يأمرني (المطوع) أو أحد الطلاب بتحفيظه الدرس، ولكنه ـ لكبر سنه ـ بطيء الفهم، وأذكر أنه وهو يكرر درسه (أنصَابْ ـ إخفَاضْ ـ أُرفَاعْ ـ أجَزْمْ) رافعًا صوته بصورة منغَّمة، بحيث ارتفعتْ على ضجيج الطلاب؛ إذْ مَرَّ بقرب باب المدرسة رجل يسوق جملاً فوقه حِمْلُهُ ـ عرفتُ الرجُلّ فيما بعد، فهو جمَّالٌ معروف يدعى عبدُ العزيز القُوَيْز، يتردد على القرى، يجلب ما يحتاجه أهلها من ملح أو بصل أو تمر أو غير ذالك ـ فلما حاذْى الباب سَلَّمَ مُشيراً بيده، وكان ممن رَدَّ عليه صاحبنا (مشعان) الذي سرعان ما نهض مسرعاً، ولحق بالرجل الذي كان قد أناخ بعيره في سوق القرية، فأتى به ممسكا بِغُتْرَته يقوده حتى أوقفه بباب المدرسة، ثم سأله: (ويْن أنْتَ جايٍّ منه؟) أي من أين جئت؟ فأجاب: (جَايٍّ من الدوادمي) فقال: (نعوذ بالله! أنت سَفَرِي! رُدَّ علينا سلامنا) فقال: كيف أردُّه؟ قال: قُلْ: سلامكم مردود عليكم، فقال ذالك فأطلقه! والسَّفَرِيُّ ـ عندهم ـ هو من يسافر إلى بلاد المشركين، ومن بهذه الصفة كان يعاقب بالهَجْرِ بعدم السلام عليه وبمقاطعته ثلاثة أيام، وقد يُؤَدَّب بالجلد حتى يتوب، ويتعهد بترك ذالك، بل قد يؤدب من يكتب كتابًا إلى رجل يقيم في تلك البلاد المعتبرة ـ في رأيهم ـ من بلاد الشرك، وهي كل بلاد لم يشملها حكم الملك عبد العزيز آل سعود في ذالك العهد، فقد حدث أن طلب أحد أهل بلدة البرود ـ ويدعى عبد الله بن

عبدالكريم بن ناهض ـ من جدِّي إمام أهل البلدة أن يكتب كتابًا باسمه إلى أخ له يقيم في بلدة الكويت، ففعل، فعلم بعض الإخوان من أهل هجرة ساجر بذالك، فأتوا فاستتابوا جَدِّي بعد التأنيب والإهانة بالقول، فتاب وتعهد بعدم العودة لمثل ذالك الأمر.

الحواشي:

(١) : لعل الكلمة مأخوذة من (القترة) فأبدلت القاف غينًا، وهي ما يختفي به الصائد، فالغترة تستر الرأس فتخفي شعره، ولاتزال كلمة (القترة) مستعملة عند أهل الشمال في وادي السرحان، فقد سمعت أحد الشرارات وهو يتحدث عن صيد الظباء يذكر القترة، وقد تكون من التغتر وهو الاختفاء، والكلمة مستعملة بهذا المعنى الآن حين يحاول المرء إخفاء مظهره بلباس يخفي سماته، ولا يكشف من وجهه سوى عينيه، ولم أر لهذا ذكراً في كتب اللغة.

(٢) : رد على هذه الأبيات الشيخ سليمان بن سحمان بقصيدة في ديوانه المطبوع.

تمزق شمل الأسرة*

لم يستمر بقائي في مدرسة حَزْمِيَّة، فقد حدث لأبي أن انتقل إلى بلدة الفَيْضة، في أول فصل الشتاء للزراعة هناك، بعد أن اتفق هو وأحد أهل بلدة البرود ـ ويدعى (محمد بن عُوَيْوِيْد) ـ على استئجار بئر تدعى عَقْلة، ولعل من أسباب انتقال أبي تراكم الديون بدرجة أعجزته عن الوفاء، وأضعفت ثقة الدائنين بمعاملته.

أذكر أننا ذهبنا إلى الفيضة من شرقة ومعنا ثلاث بقرات، كنت أحفظ أسماءها، وثوران، وقليل من الغنم، وقد استدان أبي ما يلزم لفلاحته من نقود، من تاجر يدعى راشد بن سكران، وبدأ العمل في الزرع، وبعد نباته ـ وكان قمحًا ـ هجم عليه الدَّبا فرعاه حتى ترك أرضه قاعًا صَفْصَفًا، وكانت سنة قحط، فماتت المواشي بانعدام العلف، وباع أبي ما يمكن بيعه مما بقي لديه من متاع البيت وآلات الفلاحة ليقيت أهل بيته، ولم يَجِدْ من يَسْتَدِيْنُ منه، حتى بلغت بنا الحاجة منتهاها، بحيث كانت تمرّ بعض اللَّيالي لا نجد ما نطعمه.

ثم كانت العودة من الفيضة إلى شرقة حِيْنَ حان وقت الزرع، ولابُدَّ لأبي من أن يزرع ليملأ بطون من امْتَلأ بيته بهم من أبناء ونساء وأقارب، وكيف يقوى على ذالك وقد تحاماه كثير من دائنيه لفقره وعجزه عن وفاء ديونه؟ اتخذ على بئر تقع بقرب شَرْقَةَ تُدْعَى (الحُسَيَّ) ـ تصغير حِسْيٍ ـ مزرعة صغيرة، اقتصر في القيام عليها على أبنائه لقلة تكاليفها، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان.

كانت زوجة أبي هيا بنت زيد بن عبد العزيز بن رُشَيد امرأة قوية

---

* المجلة العربية، العدد (١١٩)، ذو الحجة ١٤٠٧ هـ / آب ١٩٨٧م.

الشخصية، ومع ما يتصف به أبي من غلظة في معاملة نسائه إلا أنها تغالبه، وتنال حقها منه في كثير من الأحيان، قد يقسو عليها إلى حد الضرب، ولكنها تنتصف منه، وكانت صَنَاعَ الْيَدَيْن، محبوبة عنده، وقد تزوجها في حياة أمي، فعلت منزلتها عند أبي.

أذكر أن أبي تزوج عليها امرأة تدعى سارة بنت عبد الله البويليد ـ سبيعية النسب ـ في سنة تعرف بسنة الجَدَرِي، ونحن في قرية الحزم، وشريكنا في الزرع عبد الله بن عبد الكريم بن ناهض ـ فأتى أبي بزوجته الجديدة من قرية الفَيضَة، في وقت كانت زوجته الأولى ترضع ابنها أخي عليًّا، فأخذت ترقصه بين يديها بعد سلامها على ضَرَّتِهَا وتتغنَّى:

مرحباً بك يوم جيتي والجملْ بك يوم سار
نِخْتِشِرْ فيما عَطَا الله والشّقا على الحمار[1]

ثم ما لبثت ـ لحظوتها عند أبي ولقوة شخصيتها ـ حتى أزاحتْ تلك الضرَّة، بحملها أبي على طلاقها.

وما كانت ـ رحمها الله ـ لَيِّنَةً في معاملتنا أنا وإخواني، أو كذا كنا نتصورها، ومع أن أخي جاسراً أكبرنا سنًا ـ بعد أختي ـ وكلاهما تجاوزا مرحلة الطفولة، إلا أنه يبدو ضعيفًا أمامها، لأن أبي غالبًا ما يكون بجانبها حين يختلفان، وما أكثر اختلافهما بحيث قلَّ يوم من الأيام لا يحدث في البيت خصام.

ذهب أخي في صباح يوم من الأيام ليقوم ـ كعادته ـ برياسة الزرع، و(الرِّياسة) تصريف الماء في الأحواض المزروعة، إذا امتلأ حوضٌ صرف الماءَ إلى الحوض الذي يليه، لقد أتى الوقت الذي يعود فيه لتناول طعام الغداء ولكنه لم يحضر، نظر أبي الزرع ولم يكن بعيدًا عن البيت فلم

ير أحداً، وعندما ذهب إليه وجد الماء قد وُجِّه على عدد كثير من الحياض ولا أحد هناك.

لقد مرَّت بجاسر أخي قافلةٌ متجهة إلى الأحساء فرافقها، ومضت أيام لا يُعْرف شيء عنه مما أثَّر في نفس أبي، فقد فَقَدَ ساعدَه الأيمن في حراثته، وجهل أمْرَ ابنه فلا يدري ما جرى له، وبعد أسابيع بُشِّر بأنه في الأحساء في جهات الجُبَيل، يعمل مع خاله سليمان في البناء، وكان الخال (اسْتاداً)* أي يتقن البناء وتَزْويق أمكنة (القهوة) فيجيد نقشها بالجص، وكان عمران الهُجَرِ لأبناء البادية في آخر عشر الأربعين من القرن الماضي نشيطًا حيث عمرت هُجَرُ العُجْمانِ وغيرهم هناك.

لا أدري كيف انتهى الزرع في (الحُسَيِّ)، ولكنه زرع ينطبق عليه ـ لقلَّته ـ المثل العامي (لا أكلت خيراً، ولا تركت خيراً).

وجاء فَصْلُ زرع القيظ، فتشارك أبي مع آخر في زراعة شرقة، وبعد أن استتم نبات الزرع، وقام على سُوقه أصابه البَرَدُ ـ بفتح الراء ـ فقضى عليه، ومع أنَّ البَرَد يسقط غالباً مع المطر الذي تنتفع به الأرض، إلا أنه من أشد ما يفتك بالزرع فيقضي عليه، وكذا البَرْدُ ـ بإسكان الدال.

أذكر أن رجال القرية كانوا مجتمعين كعادتهم لتناول القهوة قبل طلوع الشمس، إذْ أتى خالي سعد من البرود، وبعد السلام، والاستدفاء بالنار الموقدة للدفء ولعمل القهوة قال لأبي: أرسلني فهد بن محمد (الأعرج)[٢] وقد قدم من الرياض ومعه رسالة من جاسر ليبلغك بها، فذهبا معًا.

---

*بالدال، كما تنطق عامياً. (ش).

لم يطل أبي المكث هناك، وعاد بغير الوجه الذي ذهب به وهو سريع الانفعال، ليس ممن يستطيعون كتم مشاعرهم، وكانت له ناقة تركها ترعى بعيدة عن القرية، فذهب وأتى بها، بعد أن هيأ ما استطاع تهيئته مما يحتاجه في السفر.

وفي الصباح، وقبل طلوع الشمس ـ وما كان أحد منا في ذالك العهد ينام بعد صلاة الفجر، بل يجتمع الرجال وكبار أبنائهم في المكان المعد لتناول القهوة ـ ناداني أبي، وكان عند باب القصر، فوجدته قد هيأ الراحلة برحلها، وحمل ما أراد حمله من زاد وماء، وبعد أن قَبَّلَني قال لي بلهجة كلها عطف وحنان ما معناه: يابني اركب معي لنذهب إلى أخيك جاسر.

أثَّرَتْ لهجته الرقيقة التي خاطبني بها، فلم يكن لوقع المفاجأة أثر في نفسي، وكان هذا آخر عهدي بهذه القرية التي أمضيت فيها زمن الطفولة.

وكانت الرحلة الأولى إلى مدينة الرياض.

الحواشي:

(١): نختشر: نشترك، الخشير ـ عند العامة ـ الشريك. الشقا: التعب على الزوج.

(٢): يلقب للتفريق بينه وبين سمي له هو فهد بن محمد ـ أخو الأمير إبراهيم، وكلاهما يدعى (ابن ناهض).

في مدينة بريدة*

عـدتُ من الـرياض مع صـاحـبي إلى بلدته الْفَـرْعـة ـ بقـرب مـدينة شـقـراء ـ فـوجدتُ أبي قـد تمكَّن منه المرض، حتى أصبح طريحَ الفـراش، لدى ابنتـه التي كـانـت زوجـة محـمـد بن إبراهيم بن فـايـز، من أهل هذه البلـدة، وكـان فـلاَّحـًا، لـه حـائطان من النخل، يدعى أحـدهمـا حـائط الحصـان، والآخـر حـائط الفـرس، إلاَّ أن حـالتـه ضـعفتْ حتى عـجـز عن فلاحتهما، وماكان محصولهـما يفي بما يصرف في سبيل القيام عليهما لرخص التمر، فقد كـانت القَلَّةُ (الجُلَّة) من تمر الأحساء الطيِّب لا يزيد ثمنهـا على ثلاثـة ريالات، ومـا كـان ذالك المحـصـول من الكـثـرة بحـيث يتـوفـر من ثـمنه ما يكفي للإنفـاق على صـاحـبـه مع تكـاليف إصلاحـه، كـان لِلصِّهْرِ ابنٌ بلغ مبلغ الرجـال من غـير أختي يدعى عبـد الله، وابنه الآن مـدير مـدرسـة البـرود، وكـان عـبـد الله في تـلك الأيام يسـاعـد أباه بالذهاب إلى البر لجمع ما يستطيعـان جمعه من الكَلإ الذي يجلبانه إلى مـدينة شـقـراء، فـيـبـيـعـان مـحـصـول اليوم منـه بما قد لا يفي بما يحـتـاج بيـتـهـمـا من وجـبـة الطعـام، وكـنـت أثـنـاء إقـامـتي في الـرياض قد أدركت جانبـًا من خَفْضِ العيش، سرعان ما فُوجئت بفـقده، وكـان أخي الكـبـير قد اضطر إلى ترك أبيه عند ابنته، وذهب بأخيه الصغير إلى مدينة بُرَيدة سعيًا وراء الرزق، فعلم بما حدث لي، فأتى مسرعًا إلى الفرعة فرأى الحالة تدعو إلى عـدم الإثقال على الصـهر بمريض، وبإنسـان سيكون عـالة عليـه، سيزيد من إرهاقه على ماهو فيه من فقر وفاقة.

---

* المجلة العربية، العدد (١٢٠)، محرم ١٤٠٨ هـ / أيلول ١٩٨٧م.

أين يذهبُ بِي وليس لي قدرة على ممارسة أي عمل من الأعمال؟ وأيُّ قريب يضمُّني إلى كنفه ما دامت أُختي عاجزة، وزوجة أبي قد طُلِّقت، وذهبت بطفليها إلى قرية أهلها المُرَبَّع، وهي من الضعف بحاجة إلى أن تكون محلاً للمساعدة؟! ثم هو وأخوه لا يزيد ما يحصلان عليه في اليوم كثيراً عما ينفقانه!!

كان جَدِّي لأُمِّي إمام البلدة على حالة حسنة من اليسار، بحيث كان يُعَدُّ في قريته من التجار، وله بيتان في كل واحد زوجة، ومثل هذا لا يتيسر إلا لذوي السعة.

كان الذهاب إلى البرود، ولكن الإقامة في كنف الجدِّ لم تكن طويلةً، فإلى متى سأبقى عالةً أستجدي عطفَ الأقارب وشفقتهم في أقل ما أحتاج إليه؟ وما الذي ستؤول إليه حالتي لو دامتْ بهذه الصفة؟ هذا ما فكر فيه أخي الكبير بعد أن تأثر بما حدث عند التحدث مع الجدِّ في أمر بقائي عنده، فرجع من بُرَيْدَةَ بعد زمن قصير، وأخذني إليها.

كانت مدينة بُرَيْدَةَ أهمَّ مركز لتجارة الإبل في الجزيرة، ولهذا كانت قوية الصلة بالشام ومصر، وفي أسواق هذين القطرين رواج تلك التجارة بواسطة تجار معروفين من أهل القصيم باسم (عُقَيْل)[1] منهم من يتولى تصريفها في دمشق وعَمَّان والقاهرة، ممن بلغ من الشهرة في الثراء ما نافس به أثرياء القطرين، ونال من ذالك بحسن المعاملة ما أحله مكانة رفيعة عندهم، ومنهم (آل مشيقح) و(آل دَخِيل)، ومن مشاهير أولْئك التجار الشيخ فوزان السابق ـ الذي أصبح وزيراً مفوضاً للمملكة في القاهرة حتى توفي سنة ١٣٧٢هـ[١٩٥٣م] عن عمر يناهز مئة عام إن لم يزد ـ ومنهم عيسى بن رميح العقيلي، وكان أول

كتاب رأيته مطبوعًا المجموع المنسوب إليه، ويحوي رسائل للشيخين ابن تيمية وابن عبد الوهاب، ولغيرهما من علماء السنة.

وما كان يضارع تلك المدينة في نشاطها التجاريِّ سوى مدينة عنيزة، التي كان تجارها على صلة قوية بالبلاد الشرقية كالبحرين، حتى الهند، وفي البصرة وبغداد، ومن هذه المدينة كان كبار تجار العرب في تلك الجهات كآل بسام وغيرهم.

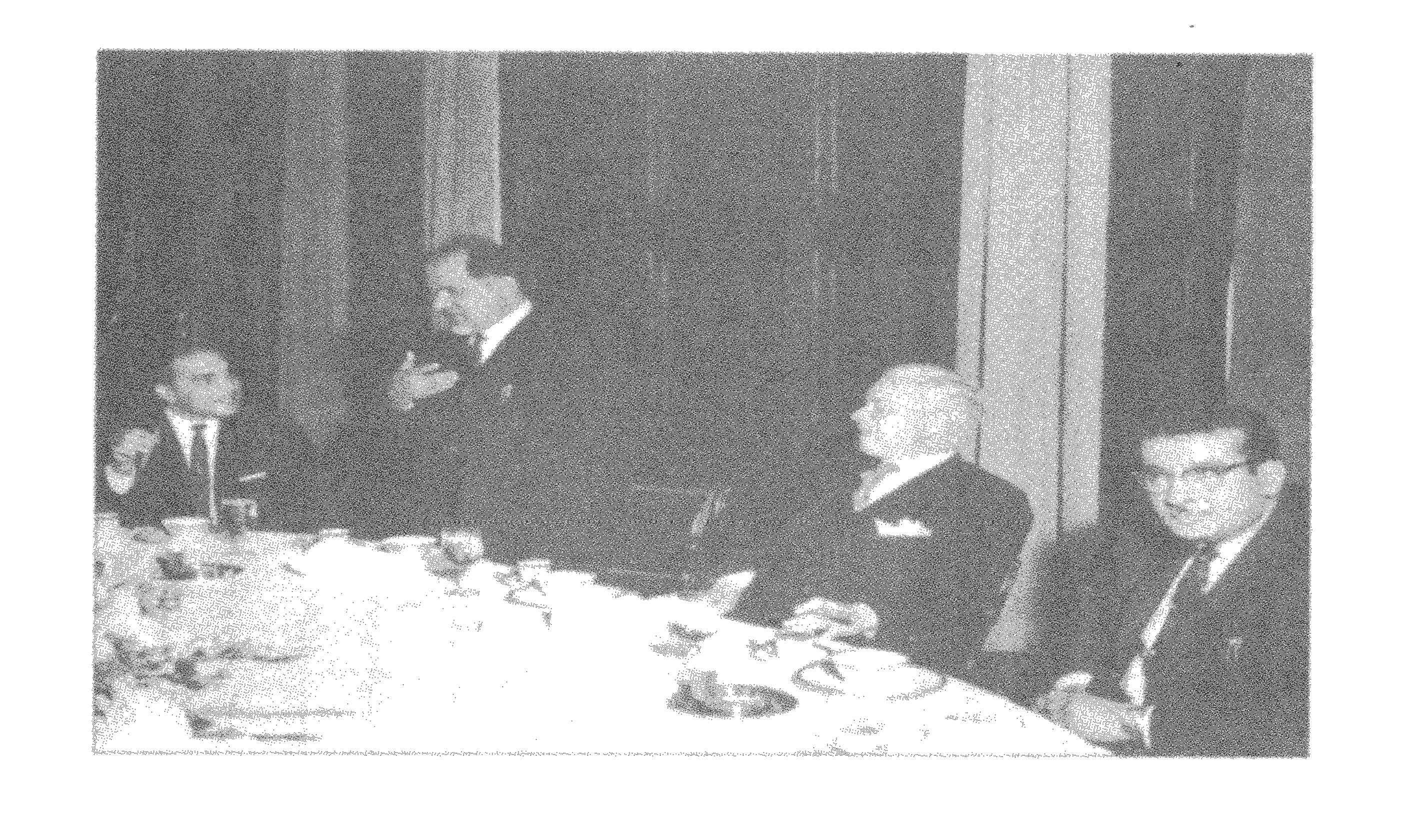
كنت أحسن القراءة، وقد حفظت غيبًا أَكْثَرَ من نصف القرآن، ولكنني لم أُحْسِنِ الكتابة إلا في مدينة بُرَيْدَة.

الحواشي:

(١) : عُقَيلُ في الأصل قبيلة من عرب الأحساء، قال عنهم ابن فضل الله العُمَرِيُّ في كتابه (مسالك الأبصار) ـ انظر (العرب) س ١٦ ص ٧٧٩ ـ عُقَيلُ من آل عامر، قالَ الحمداني : وهي غير عامر المنتفق، وغير عامر بن صعصعة. انتهى، وأُضِيفُ : ورد في (شرح شعر ابن المُقرَّب) أنهم من عامر ربيعة، والعُمُورُ بطن من عبد القيس من ربيعة مشهور. وقال ابن فضل الله : وبرز الأمرُ السلطانيُّ إلى آل فَضْلٍ بتسهيل الطريق لوفودهم، وقال : إنَّ دارهم الأحساءُ والقَطِيف ومُلْج، ونِطَاع والقرعا واللَّهابة وجُودَة ومُتالع.

وقال ابن فضل الله أيضاً في كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) ـ ص ٨٠ ـ (وأما عرب البحرين فهم قوم يصلون إلى باب السلطان وصول التجار، يجلبون جياد الخيل، وكرام المهارى، واللؤلؤ وأمتعة من أمتعة الهند والعراق، ولهم متاجر صريحة، وواصلهم إلى الهند لا ينقطع) انتهى.

ثم استمر اسم عُقَيلٍ يطلق على التجار الذين ساروا على طريقة من كانوا من قبيلة عُقَيلٍ، ولو لم يكونوا منها إلى عهدنا.



الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ في مدينة سان فرانسيسكو ـ مقاطعة كاليفورنيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية في رحلته الأولى إلى أمريكا بدعوة صحفية من شركة الزيت العربية الأمريكية «ارامكو» بتاريخ ١٣٨٠/٣/٢٩هـ ـ ١٩٦٠/٩/٢٠م حيث وضعت شركة «ستانفورد» برنامجاً ليومين يشتمل على تناول الغداء مع نائب الرئيس ومقابلة مع رئيس العلاقات العامة، والالتقاء بالطلاب السعوديين بجامعة كاليفورنيا ـ ثم زيارة المناطق السياحية .

مدرسة الصقعبي *

كان أخوايَ يعملانِ في البناء من طلوع الشمس إلى غروبها، لا يتخلل ذالك سوى فترتي صلاة الظهر وصلاة العصر، وكانا يحصلان على قليل من (البيشليات)[1] النقود النحاسية التي هي أجزاء من الريال، ولكنها تكفي لما نحتاج من أكل نحن الثلاثة، وهو لا يزيد في الغالب عن خبز نأْتَدِمُهُ بمرق، قد يبقى اليومين والثلاثة، إذْ نشتري (شرْكًا) وكذا يسمَّى، وهو فلذاتٌ من لحم الإبل مع عظمها، أو نشتري (سِقْطاً) وهو ما في جوف الشاة من كبد وكِرش وطحال وأمعاء، وبعد الطبخ نُبْقي جزءاً من المرق، ومما زاد عن حاجتنا من غيره لليوم الثاني، وقد نطبخ معه (جَرِيشاً).

وفي بعض الأيام لا يجد أخواي عملاً فيبقيان ـ أو أحدهما ـ في المسكن، وكثيراً ما كان أخي الصغير يعمل مع أخيه بدون أجر، لكي يتيسر له في اليوم الثاني العمل، بعد أن يرى صاحب العمل من نشاطه ما يحمله على قبوله عاملاً لديه، بل قد يعمل في بعض الأيام لدى أحد الفلاحين مقابل إطعامه يقولون: (يشتغل بِجَازْته) أي بدون أجر، وكان هذا الأمر شائعًا في كثير من قرى نجد، وخاصة أيام القحط والفاقة، وما أكثر تلك الأيام!!

أما أنا فبقيت عالة على الأخوين، لعدم قدرتي على العمل، وما أقسى ما أسمعه من أخي من عبارات التأنيب، حتى كنت أحرص دائمًا على أن أخفي نفسي في أحد جوانب المنزل عنه.

---

* المجلة العربية، العدد (١٢١)، صفر ١٤٠٨ هـ / تشرين الأول ١٩٨٧م.

لقد جاء الفرج بالنسبة لي، لا لأخي الذي سيزداد حمله ثقلاً، فقد أدخلني في مدرسة معلم يدعى (الصقعبي)[٢] يعلم القراءة في الصباح، وبعد العصر يعلم الكتابة، ومدرسته في الصباح ليست واسعة، ولكن طلابه قليلون، وكلهم ممن أجادَ مباديء القراءة والكتابة، وأتى ليستزيد من حفظ القرآن، وإِجادة الخط.

كان له دكانان واسعان، اتخذهما مدرسة في المساء، من صلاة العصر حتى أذان المغرب، يقعان على الجانب الشمالي من السوق العام، على مقربة من [ميدان] (الجَرَدَة)، وكان الطلاب الذين يقوم بتعليمهم في هذين الدكانين من كبار السن، وكانت طريقته أن يكتب للطالب سَطْرًا أو سطوراً قليلة، في أعلى الورقة، ويطلب منه محاكاة ما كتب حتى يملأُ الورقة، وقد يعطيه ورقة تحوي قطعة من الشعر في الحكم أو في الوعظ، وقد يكلف بعض المتقدمين في الكتابة بتوجيه مَنْ دُونهم فيها بالكتابة، فكنت أذكر من بين هاؤلاء طالبًا ذا خطٍّ حسن يدعى (العظامي) وآخر يقال له: (ابن رزقان)، وأحفظ مما كان يكلف الطلاب بكتابته هذه الجمل: (قدوة الأماجد، وعمدة الأعيان، ذو العز والقدر والشأن، أعني بذالك فلان ابن فلان).

ويكلف الطلاب بحفظ قصائد من النظم الركيك مبنىً ومعنى، ومنه قصيدة ليمني يدعى (الوعيظي)[٣] منها:

وللبنين حقوقاً (؟) لا تضيّعُها — خال كريم، واسم غير منكتم؟
وخصهم بأديب عاقل فهم — فأفضل العلم علم اللوح والقلم
من لم يَخُطَّ ولم يقرأ رسالته — قَدِّمْ له بقراً يرعاها أو غنم؟

ومنها:

ليت العجائز في حَبْلٍ معلَّقَةً — نحو الثُّريَّا وذاك الحبل ينصرم؟

ومن ذالك قصيدة أولها :

ليس الغريب غريبَ الشام واليمن إنَّ الغريبَ غريبُ اللَّحْد والكفن

لا تنهرنَّ غريباً طال غربتُه والدهر ينهره بالذُّلِّ والمحن

سفري بعيد وزادي لا يبلغني وقسمتي لم تزل والموت يطلبني

إلى أمثال هذه المقطوعات الركيكة، ولكنها مع ذالك لم تكن تخلو من فائدة، وكان هذا المدرس يكلِّفُ المتقدمين من الطلاب بكتابة (دعاء ختم القرآن الكريم) لابن تيمية، أو (دعاء الوتر)، ويقدم ما كتبوا لبعض أئمة المساجد، ويأمر الكاتب بأن يذكر اسمه في آخر ما كتب ويضع التاريخ.

ومما لاحظت على هذا المدرس تأنُّقُه في حُسن مظهره، بحيث إنني لم أره يومًا إلاَّ ولباسه نظيف، وكله أبيض، العباءة والثوب وغيرهما، وحذاؤه نظيف، ويحمل دائمًا معه عصا دقيقة طويلة من الشوحط، (مِسْيَر) وكان يعامل طلبته أحسن معاملة، بحيث إنني لا أذكر أنه أهان طالبًا أو رفع صوته عليه.

وكنت أصلي الفجر مع أخي في الجامع، ونبقى بالقرب من حلقة الشيخ عبد الله بن سَليم ـ رحمه الله ـ وكان طلابه قليلين، يقاربون العشرة، ومما لاحظتُ سقوط الكِلْفَة بينهم وبينه، بخلاف ما شاهدته في مدينة الرياض، ومن أغرب ما لفت نظري من ذالك أن الشيخ بعد انتهاء الدرس يَمُدُّ رِجلَيْه بين الطلبة، وقد لا يستنكف بعضهم من (تكبيسها). ثم رأيت قريبًا من هذا بين طلبة العلم في المسجد الحرام وبين مدرسيهم، فكثيراً ما كنت أشاهد الشيخ عمر حمدان ـ رحمه الله ـ في (الحصوة) التي تلي باب الزيادة نائمًا على بطنِه، وتلميذه

الشيخ عبد الرحيم صدِّيق (يكبس) ظهره.

وكنت أذكر قارئًا كفيف البصر، يجلس للطلبة فوق سطح المسجد الجامع، فيقرأون عليه القرآن غيبًا، وكنت إذْ ذاك قد حَفظت سورا كثيرة، فأردت أن أقرأ على ذالك الرجل ويدعى (العبَادي)[٤] - بتخفيف الباء - ولكني عندما بدأت في القراءة تلعثمت فقال لي: (كفاية، كفاية) فخجلت وانصرفت.

الحواشي:

(١): واحدتها (بيشلية) نقد نحاسي مستدير بقطر خمسة سنتيمرات، وأصل الكلمة تركي (بيشلك) من (بيش) بمعنى خمسة و (لك) علامة النسبة كالياء في العربية، و بمعنى (ذي) إذ كان أصلها خمسة قروش (صاغ) أو ٢٠ قرشاً رائجة، وهذه النقود كانت مستعملة في القصيم يصرف بها الريال بما يتراوح بين الـ (١٥) والعشرين، وفي الوشم تستعمل (البيزة) التي كانت تضرب في مسقط، والأربع منها تسمى قرشًا، وصرف الريال يصل إلى أكثر من خمسين قرشًا في بعض الأحيان، وفي العارض تعرف (الجديدة) وهي أربع بيزات، ويصرف الريال بما يقارب صرفه بالقروش.

(٢): ترجمةُ الشيخ صالح بن سليمان العمري في كتابه (علماء آل سليم وتلامذتهم) ٢/٧٢ وسماه صالح بن محمد بن عبد العزيز الصقعبي المتوفي سنة ١٣٥٨هـ، وذكر مدرسته وأنني ممن تعلم فيها.

(٣): يظهر أنه من قبيلة (الواعظات) في جنوب تهامة.

(٤): ترجمة الشيخ محمد بن عثمان القاضي في كتابه «روضة الناظرين» ٢٧٨/١ وهو عبد العزيز ابن إبراهيم العبادي (١٣١٤ / ١٣٥٨) وأثنى عليه وأطال ترجمته.

عود إلى قرية البرود *

فكَّر أخي أن يبحث عن عمل آخر، فقد تعب من الاستمرار في أعمال البناء، ورآى كثرة المسافرين إلى مكة، بعد أن أصبحت تحت حكم الملك عبد العزيز، ودعا الأمر لإنشاء ما يتطلبه الحكم من الأعمال التي تحتاج إلى من يقوم بها من الرجال على اختلاف أحوالهم، ومنها شؤون المحافظة على الأمن، حيث أُنْشئت إدارة للتجنيد، عرفت باسم (الهَجَّانة) غير إدارة الشرطة، مع أن أخي لا يزال في سن قابلة للتعليم، ولكن ماذا يفعل بأخويه؟

لقد وجد للصغير منهما عملاً ملائمًا عند أسرة رأتْ فيه من الصفات ـ كصغر السن، والهدوء، والنشاط ـ ما كان به محلاً لعطفها ورعايتها، أما ما ستدفع له من أجر عما سيقوم به من عمل فما كان بالأمر المُهِمِّ ـ بالنسبة لأخي ـ فكان ضئيلاً.

فماذا عن الكبير الذي يتطلب بقاؤه في بُرَيدة الإنفاق عليه، ودفع مكافآت المدرس؟

ليأخذه معه إلى مكة، وليقدِّر الله ما فيه الخير، وهذا ما عزما عليه، فقد كان السفر، ثم المرور بقرية البرود، وكان ذالك الأخ قد اكتسب ـ أثناء مقامه في مدينة بُرَيْدَة ـ أطرافًا من المعرفة، منها إحسان الكتابة (الخط)، والمران على قراءة الكتب، وكان جدُّهُ إمام أهل القرية قد تقدمت به السن، حتى ضعف بصره فأصبح لا يستطيع القراءة إلا بصعوبة، وهو بحاجة إلى من يُسْمعه خطبة الجمعة لكل أسبوع ـ مع

* المجلة العربية، العدد (١٢٢)، ربيع الأول ١٤٠٨ هـ / تشرين الثاني ١٩٨٧م.

تكرارها طول عمره ـ من خُطَبِ المخضوب[1] ، التي قلَّ أن يخرج أحدٌ من خطباء المساجد في نجد عنها ، ثم هو مُطَالَبٌ بأن يقرأ بعد صلاة العصر ، في أحد الكُتب ما يعظ به الجماعة ، ومن تلك الكُتب (الكبائر) للذهبي ، أو (التبصرة) لابن الجوزي، أو (رياض الصالحين) للنووي، وقد أصبح الآن عاجزاً عن تلك القراءة ، والقرية ليس فيها من يُعلم أطفالها .

هذا حَمَد فيه بركة ـ إن شاء الله ـ وهاهو الأمير سيدفع له جزءاً من الزكاة ، وأنا سأقوم برعايته ، فلا داعي لسفره سفراً لا تعرف غايته ، هذا ما أبداه الْجَدُّ لجاسر ، فصادف هَوى في نفسه ، فبقي حمد في البرود في كنف جده ، وجمع له أهل القرية أبناءهم ليتولى تعليمهم ، ومن بينهم من بلغ مبلغه من العمر ، ومنهم من زاد على ذالك ، وما كان على درجة من المعرفة وعمق الإدراك والرزانة تؤهله لمهنة التعليم ، وإنْ وجَدَ لَدَيْه جدُّه ما يتطلع إليه منه ، فقد واصل قراءة الوعظ بعد صلاة العصر ، وصار يُسْمِع جده الخطبة كل صباح جمعة حتى يحفظها ، واستفاد هو أيضًا من مطالعة كُتب الوعظ ، وخاصة (التبصرة) و(الكبائر) فلغتهما سهلة الفهم ، وأسلوبهما المسجوع يستهوي القارىء ، بحيث بقي في الذاكرة كثير من نصوصهما حتى الآن .

الحواشي :

(١) : اسمها (الحكمة البالغة) ومؤلفها الشيخ عبد الله بن حسين بن أحمد المخضوب، المتوفى سنة ١٣١٧هـ من المخاضيب من بني هاجر من قحطان، وهو من أهل الخرج .

بين الإفادة .. والاستفادة *

كانت الكُتب المتوارثة عند أهل القرية عند جدِّي بحكم وظيفته، فكنت كثير المطالعة فيها، وفيها عدد من المخطوطات ككتاب (السيرة) لابن هشام، و(مختصر السيرة) للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكتاب (التبصرة) في مجلدين، يقول جدِّي: إن الكتاب بخط عبد الله بن عوشن، ويلقبه أهل شقراء (المُطَيْبِعة) لجمال خطه، وجزء من كتاب (الإحياء) للغزالي، وأجزاء في تفسير القرآن، ومجاميع تحوي رسائل لبعض متأخري العلماء، ومن بينها ما هو لابن تيمية، ومجلد من تاريخ ابن شاكر الكتبي، وفي آخره أوراق عبثت بها الأرضة فحفرتُ لها حفرةً في المدرسة ـ وكانت في البيت المعروف باسم (المَجْمَع) ودفنتها من قبيل الصيانة، وكذا علَّمَنَا مدرسُونا حين يرون مصحفًا بدأ التمزق في أوراقه، وقلَّ أن يُوجد بيننا من يحسن ترقيعه، ولقلة الورق الأبيض وعدم وجود الْغِرَاءِ في كل وقت.

وحين أذكر ما عملت بأوراق التاريخ ينتابني الأسى على ضياع تلك الأوراق، التي قد يكون بقي فيها ما يَسُدُّ نقصًا في مخطوطة أخرى، وكان من بين تلك الكتب ما قد يعتبر نادرًا، فمخطوط (السيرة) لابن هشام في آخره ما يفيد أن مؤلفه لما انتهى من عرضه قراءة على بعض الأشياخ أنشد أحدهم أبياتًا بقي في ذاكرتي منها:

تمَّ الكتاب وصار في فَرْضِ ... عشرين جزءًا كلها تُرْضي

والجمع ... صح ناقله ... بعض من العلماء عن بعض

---

* المجلة العربية، العدد (١٢١)، صفر ١٤٠٨ هـ / تشرين الأول ١٩٨٧م.

هكذا حفظت ـ وهو ما لم أره فيما اطلعت عليه من نسخ ذالك الكتاب ، أما الجزء الأخير من (إحياء علوم الدين) [لأبي حامد الغزالي] ففي مجلد صغير ، وخطه فارسي واضح ، وفي آخره تقاريظ ، منها أبيات ورد فيها البيت :

غَزَلتُ لهم غَـزْلاً دقيقاً فَلَمْ أجِدْ لِغَزْلِيَ نَسَّاجاً فَـكَسَّرتُ مِغزلِي

ومنها :

أبا حامدٍ جُوزِيتَ عنْ كُلِّ مسلم بتصنيفك «الإحياء» خَيْرَ جَزَاءِ

شفَيْتَ به كَمْ من قلوبٍ مريضةٍ وداويْتها حقّاً بغير دَواءِ

هذا مابقي في الذاكرة بعد ستِّين عاماً .

لقد هَيَّأَتْ لي المطالعة في تلك الكتب وفي أخرى مطبوعة كـ (مقامات الحريري) و(جمهرة أشعار العرب) وأجزاء من (تاج العروس) ـ مما وصل من مكة والمدينة تلك الأيام ـ أجواء من التطلع إلى المزيد من المعرفة ، وحفظت نماذج من الشعر كقصيدة مالك بن الرَّيْبِ المازني في رثاء نفسه :

ألا لَيْتَ شِعْرِي هل أبِيْتَنَّ ليلةً بجنبِ الْغضَا أُزْجِي الْقِلاصَ النَّواجِيَا

ومن شعر الحريري مقطوعات وقصائد منها :

دَعِ ادِّكَـارَ الأرْبُـعِ والمَـرْبَـعِ المُرْتَبَـعِ

وقصيدته المملوءة بالألغاز اللغوية :

عندي أحاديثُ أرْوِيهَا بلا كَذِبِ عَنِ الْعِبَانِ فَسَمُّونِي أبَا الْعَجَبِ

رأيتُ ياقَـومِ أقواماً غِـذَاؤُهُـمُ (بَولُ العَجُوزِ) ومَا أعْنِي أبْنَةَ الْعِنَبِ

ومقطوعته :

سِمْ سِـمَـةَ تَحْـسُنُ آثارُها وأشكُرْ لِمَنْ أعْطَى وَلَوْ سِمْسِمة

وقصيدته :

إِيَّاكَ والدنيَا الدَّنِيَّـةَ إِنَّـهَا   شَرَكُ الرَّدَى وقَرَارةُ الأكْدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أضحَكَتْ في يَوْمِهَا   أبْكَتْ غَداً تباً لَهَا مِنْ دَارِ

يضاف إلى ذالك بعض أشعار في الوعظ، كان جدِّي كثير الترنم بها، وكان قد نسخها وبقيت مع الكتب التي لديه، ومنها أشعار للصرصري[1]، كقصيدته التي مطلعها :

أَنَا العَبْدُ الَّذِي كَسَبَ الذُّنُوبَا   وَصَدَّتهُ الأَمَانيُّ أَنْ يَتُوبَا

وكان من أهل البلدة رجل استقرَّ مع الإخوان في هجرة ساجر، وطلب العلم على قاضيها الشيخ ابن عيسى الذي توفي مسجوناً، وهو فهد بن محمد بن ناهض أخو الأمير، وكان على جانب كبير من الصلاح والعبادة، يتكرر مجيئه إلى البلدة لزيارة والدته، وكان يستميلني ويرغبني في الانتقال إلى ساجر، ويألف الاجتماع بي كَثِيراً، وقلَّ أن يفارقه شيءٌ من مؤلفات ابن القيِّم ككتاب (إغاثة اللهفان عن مكائد الشيطان) أو (مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) ويمضي وقته بالوعظ والعبادة، وقد قُتِل ـ رحمه الله ـ في موقعة السبلة، كان حريصاً على أن أتَّجهَ لطلب العلم، وأن أنتقل من هذه القرية ويردِّدُ عليّ (ساكنو الكفور، كساكني القبور) ويرغبني بمطالعة كتب الشيخين، ومؤلفات علماء الدعوة، وترك الكتب الأخرى، وكنت أدركُ من صدق الرجل ومحبته لي، ومن صلاحه وحسن أخلاقه ما أثَّر في نفسي حتى كدت في إحدى زياراته أن أذهب معه، وكأنَّ جدِّي أحسَّ بشيء من ذالك، وكان بحاجة إلى بقائي عنده، فكان يكرر على سمعي في مجالسه ما يحدُثُ من المنتسبين إلى الدين من تجاوز الحدِّ

إلى الغُلُوِّ المحرَّم، ويورد أمثلة من ذالك من قوم صاحبي الذين يعيش بينهم، ومما كان يبدر من بعضهم مما سبب لهم في النفوس كراهية، واشمئزازاً من أعمالهم، وخاصة ما يحدث من بعض جُهَّالهم وما أكثرهم.

بقيت على صلة طيبة بالرجل حتى تفرقنا، وما كان يأنس بأحد حين يأتي البلدة سواي.

الحاشية:

(١) : هو يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي، من أهل صَرْصَر، بلدة بقرب بغداد، حنبلي المذهب، ضرير البصر، قتل في وقعة التتار في بغداد سنة ٦٥٦هـ عن نحو (٧٨) سنة، وله ديوان شعر مخطوط.

سجن أصبح.. مدرسة!! *

كانت المدرسة التي أقوم بتعليم أبناء القرية فيها تُدْعَى (المَجْمَع) ـ بفتح الميم وإسكان الجيم ـ ويظهر أنها بُنِيَتْ لتكون سِجْنًا يُجْمع فيه من يُرادُ تأديبه، وكان أولئك ـ في الغالب ـ من أبناء البادية، الذين كانوا يؤذون سكان القرى بالنَّهْبِ والسلب، قبل استقرار الأمن في عهد الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ، والمكان مكون من ثلاث حُجَرٍ سفليَيْنِ وعليا، يصعد إليها بدرج في داخل المكان، ويفصل بين الحجرتين السفليين جدارٌ ذو ثقوب في أسفله نحو العشر، والداخلية مستطيلة والأخرى واسعة مربعة، والثقوب التي في الجدار هُيِّئَتْ لكي يَتَمَدَّدَ من يُرادُ حَبْسُه في الحجرة الداخلية ويخرج رِجْلَيْه من ثَقْبَيْنِ متجاورين منهما، بحيث يُجْمَعُ ساقاه بين خشبتين يربطان بأقفال الحديد، وقد أُعِدَّا طُوْلاً لكي يَتَّسِعا لعدد الثقوب من الأرجل، وهما ما يُعَبَّرُ عنه بـ (الخشبة) فيقال: ضعوا المجرم في الخشبة، وهي أشد أنواع السجن، وكانتْ معروفة منذ عهود قديمة، وردت في شعر جَحْدَرٍ العُكَليِّ[1] في وصف سجن إبراهيم بن عَرَبيٍّ، والي اليمامة في عهد بني أُمية، واسم ذالك السجن دَوَّار، وكان في مدينة حَجْرٍ:

كانتْ منازِلُنَا الَّتِي كُنَّا بِهَا ... شَتَّى، فأَلَّفَ بَيْنَنَا دَوَّارُ

سِجْنٌ يُلاقِي أهلُهُ من خَوْفِهِ ... أزلاً، ويُمْنَعُ منهمُ الزُّوَّارُ

يُغْشَوْنَ مِقْطَرَةً كأنَّ عَمُودَها ... عُنُقٌ يُعَرِّقُ لَحْمَهَا الْجَزَّارُ

ـ المِقْطَرَةُ خشبةٌ فيها خُروق على سعة الساق، تُدخل فيها أرجلُ

* المجلة العربية، العدد (١٢٣)، ربيع الثاني ١٤٠٨هـ / تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٨٧م.

المحبوسين، مشتَقٌّ من قِطَارِ الإبل، لأن المحبوسين فيها على قِطارٍ واحد، مضموم بعضهم إلى بعض، أرجلهم في خروق خشبة مغلوقة على قدر سعة سُوقِهم، كذا ورد تعريف المِقطرة في كتب اللغة ككتاب (تاج العروس) وغيره.

لما توطد حكم الملك عبد العزيز في البلاد عَمَّ الأمنُ، فزالت الحاجة إلى ذالك المكان الذي كان بناؤه قوياً ـ إذْ لا يزال عامراً إلى وقتنا بعد أن تهدم ما حوله من البيوت ـ فَاتُّخِذ قبل ستين عاماً مَدْرَسَةً، باستعمال الحجرة الواسعة منه، وما كان أطفالُ القرية ومَنْ في سن التعليم من أبنائها من الكثرة بحيث لا تتسع لهم، فما كانوا في ذالك العهد يتجاوزون الأربعين، وكانوا يجلسون مجتمعين، بدون ترتيب أوْ صَفٍّ، حول معلمهم، وما كانت البيوت في القرى تشتمل على أمكنة لقضاء الحاجة، بل كان ذالك في الخلاء، وكان الموضع المخصص للدراسة مفروشاً بالرمل، الذي يتولى نقله من خارج القرية التلاميذ، فكثر منه الغبار بحيث يرش بعض الأحيان بالماء، وكأنني أشاهد في جانب تلك الحجرة المِدْفَع الذي يتحدث أهل القرية عن تاريخه وأنه مما خلفه الشريف ـ يعنون عبد العزيز بن مساعد حين هرب عاجزاً عن الاستيلاء على هذه القرية عام ١٢٠٥هـ ـ لذالك ذكر في حلقة من هذه الأحاديث.

الحاشية:

(١) : انظر ترجمة جحدر وأشعاره في «العرب» س ١١ ، ص ٧٣ / ٩٥ .

أصبحت مطوّعاً ..!*

كان أكثر التلاميذ من لِدَاتي - أمثالي في السن - وما كان لي من الهيبة في نفوسهم ما أمتاز به عليهم، وليس لي من صفات المدرس سوى إجادة الخط بالنسبة لهم، وحفظ القرآن غيباً، ومع ذالك فأهلُ القرية - بصفة عامة - يُقَدِّرُون (المُطوَّع)[1] وكذا يُسَمَّى من يتولى الإمامة في المسجد، أو تعليم الأطفال.

كان جَدِّي - في أول الأمر - يمرُّ بالمدرسة ليشاهد سير التدريس، وكان المجلس الذي يجتمع فيه كبار السن بقرب باب المدرسة، الواقعة قبالة باب المسجد، ويشاهد اؤلئك ويسمعون ما يجري داخلها، وكنت أحاول أن أظهر بمظهر (المطوع) الذي يهابه تلاميذه هيبة إجلال واحترام، كما كنت أعهد أثناء الدراسة، فأعامل صغارهم معاملة لا تخلو من القسوة والحيف، بالنسبة لكبار السن منهم ممن أتحاشى إغضابهم خوفاً منهم، وتبدو من هاؤلاء بعضُ التصرفات التي تُخلّ بسير الدراسة، كتأخر الحضور إلى المدرسة، أو الغياب، أو عدم حفظ الدرس، فما أستطيع ردعهم عن ذالك، بل قد يحملني الخوف على التغاضي عما يحدث من انحرافاتهم التي تَحْدث منهم خارج المدرسة متى حاولوا إرضائي.

أذكر - فيما أذكر من ذالك - أنَّ بقرب القرية نخلةً مثمرة، وكان البلح في القرية قليلاً، وما كان الواحد منا يجد من الطعام في بيت أهله إلا ما يقارب الكفاف من حاجته لا الكفاية، فكنا نحس بالجوع،

* المجلة العربية، العدد (١٢٤)، جمادى الأولى ١٤٠٨هـ / كانون الثاني ١٩٨٨م.

فاتفق كبار التلاميذ ـ بموافقة مني ـ على أن يقوم أحدهم أثناء غفلة الناس بالذهاب إلى تلك النخلة[2] وقطع عِذْقٍ من حملها، وقد صلح للأكل، فكان ذالك، وأحضره في الصباح مبكراً قبل حضور التلاميذ إلى المدرسة، وكنت مع ثلاثة من كبارهم في انتظاره، فعلقنا العذْقَ في (الروشن) الغرفة العليا من المدرسة، وكنا نتسلل إلى الأكل منه في آخر وقت الدراسة، إذْ قبل أن ينصرف التلاميذ يقول لهم المدرس: (صَجّة الطلعة) أي ارفعوا أصواتكم وتَأَهَّبُوا للخروج، وفي هذه الأثناء يتم التسلل، إلا أن للصغار من قوة الحَدْسِ وعُمق الإِحساس ما يدركون به كثيراً من خفايا الأمور، فقد صاروا يتهامسون بما حدث، حتى تحدث به الناس.

وقد يدفع اؤلئك الكبار (مطوَّعهم) إلى الخروج معهم إلى البر، لصيد اليرابيع (الجرابيع)[3] وقد يبلغ من دَالَّة (المطوع) على تلاميذه حين يتعب من كثرة المشي ـ وكان ضعيف البنية ـ أن يتبرع أحدهم بحمله، وإن كانوا يَرْوُوُن ـ فيما بعد ـ أنه يتوعَّدُ من يأبى ذالك، كما يروون حكايات قد تكون من نسج الخيال ينسبونها إلى (المطوَّع):

ومَنْ دعَا الناسَ إلى ذَمِّهِ   ذَمُّوهُ بالْحَقِّ وبالباطل

الحواشي:

(١): من المفارقات الغريبة أن تطلق هذه الكلمة في بعض جهات المنطقة الشرقية على أحد الحيوانات (الحمار) لأنه يطوع عند تصريفه بالضرب بالعصا.

(٢): هي نخلة (أم عشيرة) وقد شاهدتها ـ كما عهدتها ـ سنة ١٤٠٦هـ أي بعد ما يقرب من (٦٢) عاماً وكانت وحيدة منذ ذالك العهد، وليس بقرب البلدة نخلة غيرها.

(٣) : واحدها يربوع، ولكن العامة يبدلون الياء جيماً، وهي دُويبَّة أشبه ما تكون بالفأر، إلا أنها تمتاز بصفات منها : طول رجليها بحيث تعتمد عليهما في العَدْوِ فلا تلحق، ومنها سعة عينيها وجمالهما، ومنها أن طرف ذنبها أبيض اللون ـ كالزهرة البيضاء ـ واليربوع ـ شرعاً ـ مباح الأكل، وهو من أذكى الحشرات ـ إذا صح أن توصف بالذكاء ـ يتضح هذا من طريقته في حفر جُحْره، فهو يعمد إلى مكان منخفض كموطىء بعير أو مقلع حجر، يتسع للتراب الذي سيخرجه من الجحر عند الحفر، فيحفر ثلاث شُعَبٍ طويلة إحداها تتجه إلى أسفل الأرض لتكون دافئة وقت الشتاء وبعيدة عن حرارة الشمس زمن القيظ، وتنتهي بطرف واسع، ليجمع فيه من القش اللّين ما يضع فوقه فراخه، والشعبتان الأخريان تنتهي إحداهما حين لا يبقى سوى قشرة رقيقة من الأرض يسهل عليه فتحها حين يحس بما يفزعه فيضربها برأسه ويهرب منها وتسمى النافِقاء، وتدعوها العامة (النطقة) فيقولون : نطق الجربوع، والشعبة الأخرى يفتحها بمقدار ما يتسع لدخوله وخروجه، فإذا خرج دَمَّها بالتراب حتى تختفي، لئلا يدخل جحره شيء من الهوام، وإذا دخل الجحر سدَّها بتراب يدفعه برأسه وتسمى (القاصعاء) وعند العامة (ألقصعة)، أما الشعبة التي بدأ بها في الحفر فإنه بعد أن يخرج كل تراب الجحر في الموضع المنخفض يعمد إلى ملء المنخفض، ويساويه بمستوي الأرض حوله، ويعمد إلى التراب الذي على ظاهر الأرض فيغطي به ما أخرج من الجحر، لئلا يبين للناظر مكان الحفر من لون التراب المخرج من باطن الأرض، ويسمى هذا التراب (الدامناء) و (الدامثاء) وعند العامة (الدمينا) و(الدميثا).

ولليربوع طرق للنجاة عند محاولة صيده لا محل لذكرها .



الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - في موضع عسير مثالع - في إحدى رحلاته العلمية وإلى يساره الشيخ سعد بن جنيدل

تغيّر مفاجىء في حياة الفتى *

وَمَنْ دعا الناسَ إلى ذَمِّـهِ   ذَمُّـوهِ بالْحَق وبالبَاطِلِ

وهكذا كان، فقد تغيّرت النظرة إلى هذا الشاب، الحافظ لكتاب الله الكريم بتغيّر بعض أحواله، فبعد أَنْ كانَ قليلَ الاختلاط بلِدَاته من الشباب، كثيرَ العُزْلَة، شديد الانقباض عن الناس حياء وخجلاً، انحرف فجأةً لمصاحبة شباب يكبرونه سِنّاً، في سلوك قد لا يكون مُرِيباً، ولكنه كان غريباً بالنسبة له.

لا أَحَدَ يتصور قسوة الحياة في القرية ـ في ذالك العهد ـ إلا مَنْ عاناها، فالمعيشةُ فيها لدَى أكثر السكان لا تتجاوز سَدَّ الرَّمَقِ، بما تيسر من الطعام، لا من طَيِّبه، وما كلُّ إنسانٍ في تلك الأزمان من سكان القرى يتوفر له ذالك كُلَّ وقت.

وفي نواحي القرية نُخيلاتٌ قليلة، قد يتسلل إليها كبارُ (العيال)[1] بمدَرِّسِهِمْ وقت القيلولة عند الانصراف من المدرسة للحصول على قليل من البلح، لدفع غائلة مايحسُّون به من ألم الجوع،فَيُفَاجَأُونَ في كثير من الأحيان بصاحب النخل الذي إِنْ نَجَوْا منه بهربهم، فلا ينجون من تشهيره بهم، واتِّصاله بأولياء أمورهم واحداً واحداً، مما يصبح حديثَ أهل القرية، بل مجالَ تَنَدُّرِهم، وهوينْصَبُّ أكثر ما ينصبُّ على هذا (المطوَّع) الذي صار يعلم (العيال) من الأفعال السيئة ما يجب أن ينهاهم عنه، وها هو يُحَرِّضُ بعضَهم ليسرق مما قد يَدَّخِرُ

* المجلة العربية، العدد (١٢٥)، جمادي الآخرة ١٤٠٨هـ / شباط ١٩٨٨م.

أهلُ بيته من طعام كتمر أو غيره ! ! قد يَحْدُثُ أنَّ أحَدَ الطلاب أَحْضَرَ معه شيئاً من ذالك بدون طلب ، فأشرك معه في أكله (المطوع) وكبار (العيال) فأصبحَ موضوعَ حديثِ أهل القرية ، وأُيُّ حديثٍ لهم في تلك الأيام سوى ما يتصل بحياتهم ، ولك أن تتصورَ تَفَنُّنَ القرَويِّ في صياغة تلك الأحاديث بما يُضْفِيهِ عليها من سُخْرية لاذعة ، وتهكُّمٍ مؤْلِمٍ ، وما يُضيفه إليها من تهويل وتشنيع ! !

ومهما يكنْ فإن حالة ذالك الشّاب الوديع الخجول انتابها نوعٌ من التغير المستغرب وقوعه من مثله هو ، وقد عاشَ حياةً كلها جدٌّ وعمل دائبُ ، بإشراف من يراه أَهْلُ القرية مثالاً في الأفعال الحسنة ، لاَ الْبُعْد عما يخدش الكرامة فحسب ، بل عن كثير من الأمور التي لا يَرَى عامةُ الناس بأساً بفعلها .

ولَوْ لم يكنْ مِنْ أثر هذا الانحراف في حياة صاحبنا سوى ضَعْف اهتمامه بشؤون مدرسته ، وقلةِ ملازمة جدِّه إمام أهل القرية ، بَعْدَ أن اشْتَدَّتْ حاجةُ الجَدِّ إلى ملازمته باشتداد شيخوخته ، وما تلك الحاجة سوى حضوره عنده في بعض الأوقات لقراءة خُطْبة الجمعة على الجدِّ ليحفظها عن ظهر قلب ، ولإسماع المصلين بعد صلاة العصر فصلاً من أحد كتب الوعظ ، ولكتابة بعض ما يحتاجُ أهلُ القرية لتوثيقه بالكتاب من بعض شؤونهم بإملاء الجد ، وقد يبقَى معه فترات قصيرة من الوقت بعد أداء الصلوات وقبل حضورها في المسجد لتعويده على العبادة والذكر .

لقد كان الوقت الذي أمضاه في التدريس كافياً لتمكين بعض (العيال) ـ التلاميذ ـ من إحسان القراءة والكتابة ، بالدرجة التي تمكن من القيام بهما في مثل هذه القرية ، ومن هاؤلاء من هو بالنسبةلإمامها

(المطوّع) من القرابة يماثل صاحبنا، بل يمتاز بقوة صلته بالجدِّ، فأمُّه لا تزال على قيد الحياة، وهي بين بنات الجد الأَثيرةُ في نفسه إذ أمُّها إحدى زوجاته، وزوجُها ابنُ أخيه، أما ابنُها فإنه يعيش في كنف والديه، لا كصاحبنا الذي أصبحَ كَلاًّ على كُلِّ من في هذا البيت الذي تولّى كفالته في حالة اليتم إحساناً وعطفاً، ثم تغيرتْ حالته فبدَتْ منه تصرفاتٌ هي في نظر الجد ـ الذي يراه أهل القرية مثالَ الصلاح والاستقامة ـ لا ينبغي أن تصدر ممن يعيشُ في كنفه وتحتَ رعايته وتوجيهه، ولا سيما بعد أن أصبح غير سريع الانصياع لتوجيه الجد كما كان، وليس في المستطاع الآن أكثر من إسداء النصح في أول الأمر، ثم التأنيب بأقسى أساليبه، فالإعراض التَّامُّ عنه.

وما كان الفتى على حالة من غلظة الطبع بحيثُ لا يتَأثَّر بما يسمع وما يشاهد ويرى من جدِّه من أساليب العتاب، بل كان على جانب من رقة الإحساس، ملأ نفسه أسىً وامتعاضاً، بحيث ظل ينتابه كثير من الأحيان من حالات التأثر من ذالك ما يؤرقه، ويدفعه في كثير من الأحيان على أن يُمضي اليوم كاملاً دون أن يتناول من الطعام ما يحتاج إليه، وأصبح من كثرة إعراض جدِّه عنه يتخيل الكراهة والبغض من كل من له صلة بالجد، فيتمنَّى أن يختفي عن الأنظار.

وَلَجَّتْ بِهِ الأَوْهَامُ حَتَّى كأنَّهُ ... يَرَى الْمَوْتَ في الْبَيْتِ الذي كَانَ يألَفُ

الحواشي:

(١) : العيال هو الاسم الذي يطلقه سكان القرى على تلاميذ المدرسة، بل على الشباب عامة من أبناء القرية.



الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ في إحدى رحلاته العلمية في موضع المشيّحات

في الطريق إلى البادية*

وَفَجْأةً ـ وقد ارتفع الضَّحَاءُ، وقربَ وقتُ الانصراف من المدرسة ـ دخل عليه أحدُ أخواله في المدرسة وما اعتاد دخولها، فأخبره أنَّ جده يدعوه، فسار خلفه بعد أن أمر التلاميذ بالانصراف، فوجدَ الجدَّ مع أمير القرية، وثالثهما بَدَويٌّ قد أناخ راحلته في المكان الذي اعتاد القادمون إلى القرية إناخة رواحلهم فيه من سوقها، للتزود ببعض ما يحتاجون من طعام وغيره، وما كان صاحبنا بحالة من هُدُوءِ البال والاستقرار الذِّهْنيِّ تمكنه من الإصغاء لما دار بين الثلاثة من حديث، فضلاً عن أن تختزنه ذاكرته، ولكنه لم يَنْسَ ما شاهده على وجه جدِّه من التَّأَثُّرِ حين قال له ما معناه: هات عباءتك من البيت، واركب مع هذا ـ مُشيراً إلى البَدوي ـ تُصَلِّي بجماعته التراويح، وتعلمهم أمور دينهم. وأتبع هذا بدعوات أحدثَ تأثُّرُها بحشرجة صدر الجدِّ انهمار الدمع من عَيْنَيْ صاحبنا، وانكبابه على جبهة جده بالتقبيل.

كانت العباءةُ من نوع (الحِيَاكة) سوداءَ خشنة قد تمزَّقت أطرافُها من كثرة الاستعمال، لباساً وفِرَاشاً ودثَاراً، وهي كلُّ ما حمله صاحبنا معه، فوق ثوب (صَلْتٍ) والصلت ـ عندهم ـ الذي لا لِباسَ تحته ولا فوقه، ويستر الرأسَ (شُقْرَةٌ) من قُماش القُطن الأبيض السميك، و (الشقرة) قطعة مربعة تقسم بشكل زاويتين توصل إحداهما بالأخرى لتغطيا كُلَّ الرأس والرقبة وتسمى (غُتْرَة).

وفي بيت الجد ـ في غرفة أعدَّها لحفظ ما يجمع من غلال الحبوب

* المجلة العربية، العدد (١٢٦)، رجب ١٤٠٨هـ / شباط ـ آذار ١٩٨٨م.

التي يستوفيها من دائنيه من الزراع ـ قليلٌ من القمح، وهو كل ما اجتمع له مما كان يقدمه أولياء التلاميذ مقابلَ تعليم أبنائهم، أضاف إليه أمير القرية من الزكاة التي تُرِكَ له حَقُّ استيفائها وصرفها شيئاً يسيراً، وما كان كل ذالك بذي قيمة لقلَّته ولكونه من نوع (الشَّبيش)، وهو عندهم رَدِيءُ القمح المخلوط بالشعير، وهو كل ما اجتمع له أثناء عمله في مدرسة القرية مما كان يبذله أولياء الطلاب بدون طلب، وكان الْجَدُّ ـ تغمده الله بواسع رحمته وغفرانه ـ يبيع منه ما يدفع ثمناً للباسه، وهو لا يزيد على قميص (مِقْطَع) تتولَّى إحدى نساء القرية تفصيله وخياطته احتساباً، وعمامة (غترة) لستر الرأس، وهما من القطن الخشن، في كل فصل من فصول السنة، يلبسان غالباً في الأعياد، ويستمر لبسهما بدون تغيير حتى يتمزقا، ويتولَّى صاحبنا غَسْلَهُما عند اتِّساخهما في الْبِرَكِ أو مجاري المياه، بدون إشنان* ـ فضلا عن الصابون الذي لا يُعْرف في القرية إلا نادراً ـ أما العباءَةُ، فإنها تحاك من الصوف الخشن، وتلبس حتى تتمزق أطرافها، فينتفع بها بعد ذالك في أمور أخرى، كأحلاسِ الأقتاب، وأمْهِدَةَ الأطفال، وهي تنسج عادةً في سُدَيْر، وتسمى (حِيَاكَة سُدَيـر) أو في الأحساء وهذه أجود، وتدعى (مَزْوِيَّةً) ويُراعى في نسجها قوة التحمل، والدِّفءُ، عند الاستعمال.

ومع أنَّ صاحبنا قد فَتَحتْ له كلماتُ جده الطريق إلى عالم آخر، بعيد كُلَّ البعد عما ألفه من أنماط الحياة القروية، لا يعلم من أمره شيئاً، وكان عليه أن يعرف كل شيء عنه لارتباط مستقبل حياته به، إلا أنه لم يستطع ـ تلك الساعة ـ سوى الانصياع لأمْرِ الجدِّ الصارم،

* مسحوق محلي خشن للتنظيف، من نبتة بهذا الاسم، وسميت بلدة (الشنانة بالقصيم) لكثرتها فيها (ش).

بسرعة لم يتمكن معها من الاتصال بمن كان عليه الاتصال به من أقاربه، وكَأَنَّ ما غمر وجدانه، وأرهق نفسه من أوهام وأفكار سيئة طغى فحال دون ما هو في أشد الحاجة إليه من التهيؤ لهذا السفر المجهول، ثم ما الذي يمكن لمثله أن يُهيِّئَه؟! لا شيء أكثر من المرور بخالتين لَهُ، يحسّ من حنانهما ورعايتهما في كثير من الأحيان ما يُوجب عليه بِرَّهُمَا وصِلَتَهُمَا، وإخبارَهُما بأمره، ولكن ذالك لم يتم.

في تلك الأيام سنة ١٣٤٦هـ [١٩٢٧م] وما قبلها ـ وكان أكثر أهل البادية في نجد قد اتجهوا إلى التحضر، وأقامت لهم الدولة عدداً من القرى عُرِفَتْ باسم (الْهُجَرِ) ـ بضم الهاء وفتح الجيم ـ واحدتها هِجْرَة، وتَخَلَّوا عَنْ حياة البداوة طَوَاعيةً واختياراً، ورأوا في الاستقرار بتلك الهجر مَظْهَراً مميزاً يُمَكِّنُ من الإقبال على العبادة، وتعلم مبادىء العلوم الدينية، والاستعداد للجهاد في سبيل الله، حين يدعوهم وَلِيّ الأمر (إمام المسلمين) إلى الإغارة على بعض القبائل الخارجة عن طاعته، أو يحدُثُ في أطراف البلاد اعتداءٌ خارجيٌ، ولكن ذالك المظهر المتميز اسْتَشْرَى وتجاوز الحدَّ، بحيث أصبح سكان الهجر يرون أنهم أفضلَ من غيرهم ممن لم يترك حياة البداوة، وهي حياة ـ بدون شَكٍّ ـ بعيدة كلَّ البعد عن معرفة ما تجب معرفته من أمور الدين، ومتأثرةٌ في أغلب أحوالها بعادات وأخلاق متوارثة، ومنها الحسن ومنها السيء.

وكانت الدولة بحاجة إلى تألُّفِ ذالك الجيل من أبناء البادية الذين هيأت لهم أَهَمَّ وسائل الاستقرار في الهجر، وعُرِفُوا باسم (الإخوان)، فكان أن استجابت لما طلبوا من نشر الدعاة والمرشدين (المطاوعة) بين سكان البادية، ممن لا يزالون يعيشون حياة التنقل في نواحي البلاد،

بحثاً عما يُصْلح حالة معيشتهم القائمة على تربية الإبل والغنم .

ولقد بَدَأَ يُفْلِتُ زمامُهم من يد الدولة ، فقد قاموا بغزوة إلى حدود الأردن ، بدون موافقة إمام المسلمين ، وتجرأ بعضهم على نهب قافلة لتجار من أَهلِ القصيم ، وبدرتْ منهم أفعالٌ تَتَّسِمُ بالشدة والانحراف لا عن سوءِ قصد منهم ، ولكن لحسن نية وإرادة للخير ، والانصياع لبعض الدعاة الذين تنقصهم سعةُ المعرفة بأمور الدين ، مما يجد الباحث تفصيلاً لجوانب منه فيما كتبه علماء نجد في معالجة مشكلات تلك الفترة ، وخاصة كتاب «إرشاد الطالب إلى أهم المطالب» للشيخ سليمان ابن سحمان ، ورسائل بعض العلماء في منتصف عشر الخمسين من القرن الماضي .

مَعَ الحَوّامى مِنَ النُّفعَةِ*

لم يُحِسَّ صاحبُنا بأي تأثر وهو يغادر القرية التي أمضى فيها جُلَّ أيام طفولته، ولم تكن هذه المغادرة هي الأولى، فقد سبقها ذهابه مع أبيهِ إلى الرياض، وقد قارب العاشرة من عمره في أوائل عشر الخمسين من القرن الماضي، ولعل ما انتابه من سيطرة الأوهام على نفسه في آخر أيامه كان ذا أثر بأن يشعر بشيء من الراحة، وقد أَرْدَفَهُ صاحبُه البدويّ خلفه على راحلته مخلفًا تلك القرية وراءه، متجهاً غربًا وِجْهَةً يجهلها كل الجهل، ولكنه يتوقع أن تحدث له من الاطمئنان النفسي ما هو في أَشدِّ الحاجة إليه.

كان الوقتُ ظهراً، وها نحن قد قطعنا بسير راحلتنا السريع المنطقة المعروفة باسم (صَفْرَاء السِّرّ)، وأفضى بنا السيرُ بعد الانحدار منها إلى سهل يمتد البصر فيه فينتهي قبل انتهائه، وقد علا لونَ الشمس الاصفرارُ، وضعفت حرارتها، وأحسسنا ـ وقد أكون وَحْدِي ـ بالحاجة إلى الراحة، فلم أَعْتَدْ ركوب الإبل كُلَّ هذه المسافة التي قطعناها، وما كانَ الركوبُ مع صاحبي مُمِلاً، فقد مَهَّدَ لي رِدْفَ الراحلة، وخَفَّفَ السير في اجتياز عقبات الطريق ومضايقه، واستأْذَنَ (المطوّع) في (الهَيْجَنَةِ) أثناء (هَوْذَلَةِ) الذلول، كما استأذنه بأن يستعمل دواء وصفه له الطبيب سَمَّاهُ (دِهْنَان)، وهو في حقيقته نوع من (الدخان) ملأ منه أُنْبُوباً من العظم بطول الإصبع، وأشعل بأحد طرفيه النار، وصار يمصُّ دخانه من الطرف الثاني.

---

* المجلة العربية، العدد (١٢٧)، شعبان ١٤٠٨هـ / نيسان ١٩٨٨م.

ها هي بيوتُ الحيِّ (الفريق) ـ وهذا هو الاسم المعروف في البادية ـ ممتدة من الشمال إلى الجنوب، وأبوابها مفتحة من القبلة، إلا أنها مُتَنَكِّبَةٌ أشعَّةَ الشمس بحيثُ لا تستقر فيها وقتًا يؤثر على ما في داخل البيوتِ من متاع، وها هو بيت كبير الحي يتوسطها، ويتميز بكبره، ويليه في الجوار والقرب أقرباؤه، ويلتزم ترتيب البيوت عند إقامتها هذا الوضع، وهو وضع ثابت لا يتغير، بحيث يُعْرَفُ موقعُ كُلِّ بَيْتٍ بالنسبة لبيت لكبير الحي.

كان رجلاً بشوشًا، طَلْق المُحَيَّا، حَسَنَ الطَّلْعَةِ، في مُقْتَبَلِ عمره، هذا الذي أنخنا راحلتنا أمام بيته، إنه نافل بن بادي الحويماني ـ كبير الحَوامَى من النُّفَعَة من برقاء من قبيلة عُتَيبة ـ حتى (أمُّ غازي) صاحبة البيت زوجة نافل، ها هي تشارك بالترحيب بالضيف، وها هم رجال الحي يتقاطرون إلى بيت كبيرهم، مرحبين بـ (المطوّع). ومُطيفين بصاحبه يسألونه عن أخباره.

لقد عرفتُ ـ فيما بعد ـ أنَّ هذا الْحَيِّ من النفعة انحدر إلى نجد منذ عَهْدٍ قريب، حين عمَّ الخصبُ كثيراً من جهات هذه البلاد، بينما أصيبَ الحجاز بجدب دفع كثيراً من بواديه إلى انتجاع مواقع الغيث، لرعي أنعامهم، ومنهم أصحابُنَا الْحَوَامَى، فقد كانت أمكنة استقرارهم في أسافل أودية الطائف، ووادي كُلاَخ، وما حوله، وهناك مواطن أكثر فروع قبيلة عتيبة، وانتشار هذه الفروع في بلاد نجد طارىء، في عصور متأخرة، لا تتقدم على القرن الحادي عشر الهجري.

أدركت ـ أول ما أدركت ـ أنني لست غريباً بين هاؤلاء القوم، فكل واحد منهم يعاملني ويخاطبني كما لو أنني نشأت فيهم، وعشتُ بينهم.

هذا (بِجَادٌ) المؤذِّنُ، لقد حُرِم من الولد، ولكن الله أتاح له ولداً من حيث لا يحتسب، إنه (المطوع) حمد، وهاهي (أم غازي) ـ ربة البيت ـ تهيىء لضيفها في (رَبْعة البيت) من نسج يديها (غرارة) قطعة طويلة من الصوف، فراشًا له، أما (أبو غازي) فقد أصبح أباً لثلاثة أبناء، بعد أن كانا إثنين.

ولكن أَتُرى هذه الحالة ـ بالنسبة لصاحبنا ـ ستدوم، أم سَينكَشف من أموره ما يغيرها؟! هذا ما أفعم إحساسه، وطغى على شعوره.

لقد كانت الليلة التي وصلنا فيها الحي هي أول شهر رمضان، وكان عليَّ أن أتهيَّأ لصلاة التراويح بأصحابي، ولقد حفظت القرآن الكريم كله عن ظهر قلب، فلماذا لا أُبْدِي لهاؤلاء القوم ما يحملهم على أن يدركوا أنَّ (مطوعهم) جديرٌ باحترامهم؟! اختمر في ذهني ما كان يسير عليه جدي ـ رحمه الله ـ فقد كان يَبْدَأ القراءة في صلوات التراويح من أول القرآن، وفي ليلة الجمعة ـ أيًّا كان موقعها من أيام مبتدإِ الشهر إذا تجاوزت الخامس ـ يكون قد بلغ ما قرأ من القرآن أثناء صلوات التراويح (سورة الكهف)، وفي ليلة الجمعة الثانية يختم القرآن، وكَان يُطيل الركوع والسجود، وهكذا بدأتُ صلاة التراويح، فَأَطَلتُ القيام والركوع، والسجدة الأولى، ولكن حدث في السجدة الثانية ما لم يكن في الحسبان، فقد غلبني النوم، فلم أستفق إلا عندما أيقظني نافلُ للسحور، ولكن لم يَبْدُ على الرجل أيُّ تأَثُّرٍ أو استغراب لما حدث، بل أَدْرَكْتُ من حديثه أن القوم قد ارتاحوا لذالك، وأنَّ الصوم مع طول النهار يرهقهم، فهم بحاجة إلى الراحة ليلاً، هذه (فَعْلَةٌ) لها ما قد يبررها، فقد أجهدتني الرحلةُ التي قمت بها بعد حياة القرية التي

كلها ارتخاءٌ وكسلٌ، مع صغر سني.

لقد مرت هذه (الفعلة) بسلام فماذا سيتبعها؟!.

ما كان لي أنْ أشغل ذهني في التفكير فيما يخبئه لي المستقبل، وكان عليَّ أن أطمئن فأرضى بما أنا فيه ـ على حد قول الشاعر:

مَا مَضى فَاتَ، والمُؤَمَّلُ غيْبٌ   ولَكَ السَّاعةُ الَّتِي أنْتَ فِيهَا

ولكنَّ مؤثرات حياة المرءِ في أول نشأته تظلُّ ملازمةً له، وخاصة ما يرتبط بتفكيره، ولا سيما مَنْ فَقَدَ الاستقرارَ النفسيَّ منذ صغره، فَنَشأ مَحْرُوماً من عطف أبويه، وعاش عيشة بؤس وعيلةٍ يتكفف الناس، وها هو الآن حين يَتَنَسَّمُ رَوْحاً من الأمل في حياة أخرى يغمره من الخوف ما يطغَى على مشاعره، فيبدو له المستقبل قاتماً، وما أَسْوَأَ حياة امْرِيءٍ تُنَغِّصُها الأوهام، وما أضعف من استسلم لها!!.

لمحة عن حياة البادية*

أصحابي ـ كما عرفتُ منهم ـ حَدِيثُو عَهْدٍ بالانحدار من بلادهم القريبة من الطائف، وما كان أبناءُ البادية في تلك الجهات عند قيام حركة (الإخوان) على جانب قويٍّ من الإلمام بمعرفة المباديء الأساسية من أمور الدين، كحالة أهل نجد ممن انتشر بينهم المرشدون، وانتقل كثير منهم إلى (الهُجَر)، ولذالك فلا بُدَّ من وجود (مطوع) بينهم كغيرهم من أحياء العرب الأخرى في هذه البلاد، وهذا الفتى ـ على ما فيه ـ يتلائم مع حالتهم، فليسوا بذوي رغبة قوية في التعمق بتعلّم ما ينبغي لمثلهم تعلّمه من أمور دينهم، ولم يبلغوا من فهمه وإدراك حقائقه ما بلغه غيرهم ممن تخلَّى عن كثير من العادات والتقاليد الموروثة، مما لا يتفق مع تعاليمه، وهم يرون في مثل هذا التخلي مفارقَةً لحالةٍ ألفُوها، وقد تأَصَّلَتْ فيهم فلا يستطيعون تركها، ولن يجدوا من هذا (المطوع) ما سمعوا الكثير منه من أفعال أمثاله من (المطاوعة)، إنه (حُضَيْري ابن حَلاَل)! ثم هم ـ من قبل ومن بعد ـ بَدْوٌ مسلمون، وهاهم يتعلمون أصول الإسلام على (مطوعهم) محافظون على أداء شعائر الدين، متأدبون بالظاهر من آدابه، فماذا يريد (الإخوان) منهم أكثر من هذا؟!.

لقد كانوا أصحاب إبلٍ، تتجاوز أذوادهم العشرة بقليل ـ كعدد بيوتهم ـ وقد تكثر حين ينضم إليهم بعضُ قومهم، وهذا في أوقات الاجتماع في إحدَى المناطق الخصبة التي تمتاز على غيرها بالسعة، وجودة المراعي، وكذا عند ورود المناهل.

---

* المجلة العربية، العدد (١٢٨)، رمضان ١٤٠٨هـ / نيسان ـ أيّار ١٩٨٨م.

وكانت عشيرةُ (النُّفَعَة) من أكثر الْبَدْو إبلاً، ولعل ذالك يرجع إلى قلة من انتقل منهم من حياة البادية إلى الاستقرار في (الهُجَر) في عشر الأربعين من القرن الماضي، حين بدأت هذه الحركة في نجد، فتخلى كثير من أهل البادية عن حياتهم الأولى، وتركوا ما توارثوه عن سلفهم من تربية الأنعام التي هي أساس معيشتهم، بخلاف بعض بطون عُتيبة من المستقرين في الحجاز، ذالك الحين، ممن جاء انحداره إلى نجد بدوافع اضطرارية، وفي عهد متأخر، كـ (النُّفَعَة) الذين لم يكونوا من السابقين في إنشاء (الهجر) للاستقرار فيها كإخوانهم من البطون الأخرى: (المقطة) في هجْرَتَيْ (الغُطْغُط) و(عَرْوا) و(العُصَمة) في (سَنَام) و(الرُّوسان) في (مُصدَّة) و(الدَّعَاجين) في (الحُفَيِّرة) و(الدَّغَالبَة) في (الرُّوَيضة) و (الشَّيَابين) في (حَلَبان).

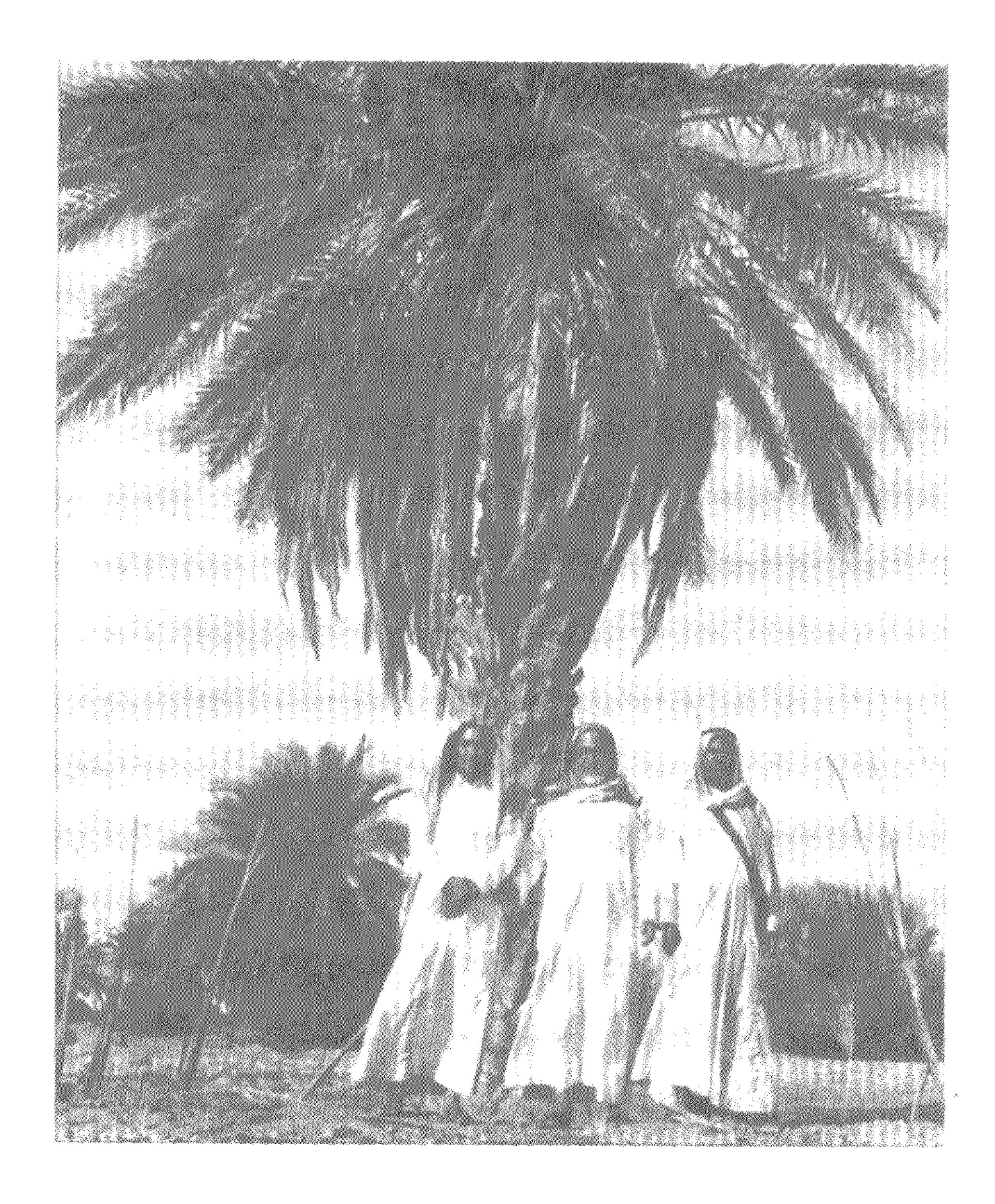
أذكر في تلك الأيَام أنَّ حُمُود بن درْعَانَ النُّفيعي له ثلاثة أذواد من الإبل، مختلفة الألوان، (مجاهيم) و(مغاتير) و(عُفْرٌ)[1] وأنَّ لأبناء نجْر بن حجْنَةَ أحد شيوخ النفعة ذَوْدَيْن، يتولى القيام عليها مولى له، لصغر سن الأبناء بعد موت أبيهم، أما شيخ الحي الذي أعيش في كنفه فله ذود واحد، يتراوح عدد الذود من الإبل بين عشر وثلاثين، منْ دقٍّ وجُلٍّ، أكثرها نياق، ولا يخلو الذود من جمل غير خَصِيٍّ، ومن قَعْدَان - جمع قَعُود - قليلة تستعمل للرُّكوب في الحلِّ والترحال، وحمل الأمتعة، أما العِشَارُ - جمع عُشَرَاء - الناقة الحديثة العهد بالولادة -[2] فعليها عماد حياة البدويّ، إذْ بلبنها يتقَّوتُ، وبنتاجها يستكمل ما يحتاج إليه من متطلبات حياته على بساطتها، وكثيراً ما يكون من هذا النتاج من ذكور الإبل ما لا ينتفع إلا بثمنه.

لا أَحَدَ أَقنعُ باليسير من العيش من ابن البادية، ولا أَشَدَّ صبراً منه على قسوة الحياة فيها، فقدْ كَيَّفَ حياته لظروف صحرائه هذه التي يعيش فوقها، ينتابها الجدب بانحباس الغيث عنها فترة من الزمن قد تطول سنوات، وقد لا تزيد على فصل من فصول العام، فيذوي كل ما على وجهها من حيوان حي، حتى هذا الإنسان الذي تشتد مغالبته لقسوة الصحراء بازدياد قسوتها عليه، وقد تزدهر الحياة فيها حين يجودها الغيث، فيبدُو أهلُها في أَرْفَهِ حالةٍ من الرخاء ورَغدِ العيش، بالنسبة لظروف حياتهم، وبما أخذوا أنفسهم به من القناعة، والرضا باليسير من دنياهم.

الحواشي:

(١): (المجاهيم): ذوات اللون الأسود، من الجهمة وهي آخر الليل، و (المغاتير) ما شاب بياض ألوانها حُمْرةٌ وقد يكون أصل الكلمة بالقاف ـ من القترة وهي الغبرة أي عدم وضوح اللون، و (العفر): البيض، واحدتها عفراء.

(٢): وهم يسمون العُشراء (خَلْفة) ولهذا أصل في اللغة فالْخَلِفُ ـ بفتح الخاء وكسر اللام والخلفة التي استكملت سنة بعد النتاج ثم لقحت.



الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ في إحدى رحلاته العلمية في موقع إبرين عام ١٣٩٥هـ

المطوع وجنيّة مصلح!*

مُصْلِحُ بنُ خلَفٍ فتىً في مقتبل شبابه، يتمتع بخير ما يطمح إلى التمتع به شابٌ في مثل سنه، صحة وقوة وجمالاً، لقد أصيب ـ بصورة مفاجئة ـ بخلل في عقله، وأيَّةُ إصابةٍ بمثل هذا النوع مما يؤثر في شعور المرء تعتبر عند أكثر سكان بلادنا من فعل الجنِّ، فهم يداخلون المرء يَجْرُونَ منه مجرى الدم، ويحملونه على أن يأتيَ بأفعال وبأقوال لا يشعر بها إذْ كُلُّها من فعلهم.

ها هو الفتى مُكَبَّلُ اليدين والرجلين بالحديد، مغلُولٌ بالسلاسل، لئلا يَعْتّدي على أحد، ولا علاج لمثل هذا سوى القراءة، وها أنا أجْلسُ أمامَ شابٍّ منْ أجمل مَنْ رأيت، ذيْ غَدائرَ شُقْرٍ تكادُ تستر كُلَّ صدره، وبجواري أمُّهُ تتوسَّلُ إليَّ: (أنا فْدَاك، مالي غيره، يَبَا يأخْذُونه مني): أنا فداؤك، ليس لي سواه، يريدُ الجنُّ اختطافَه، فأنقذه، وما علمت المسكينة أنَّ هذا الذي تستنجد به قد استبدَّ به الخوف حتى أوشك أن يفقد وَعْيهُ، ومع ذالك فهو يتمتم بآية الكرسي، ويوالي النَّفْثَ من فيْه على هذا المخلوق العجيب صورةً ووضعاً وحالة، إنه يتحفَّزُ ليَدْنُوَ منْ هذا المتمتم الغريب، لولا أنَّ السلاسل التي رُبِطَ بها تُقْعدُه: (اقْرُبْ اقْرُبْ منّي ياهَاْلحْضَارِي، قَرِّبْ لي خَشْمكْ أقْطمه يا زْقَيْنك زقَيْناه) ادنُ مني ياهذا الْحضَيْري ـ (تصغير حَضَري ضدَ البدويّ) أدن أنفَكَ لأَعُضَّهُ ... فَأَقَطَعَهُ بَأسناني ما أحلاك وما أكثر حلاوتك!! فأنتَ لا تزال طفلاً تخاطَبُ بهذه الجملة التي لا يُخاطبُ بها إلا الأطفال! ثم تتتابع الضحكات من مصلح، ويوالي إخراجَ لسانه من فمه لتخويف هذا الحضريِّ!!

---

* المجلة العربية، العدد (١٢٩)، شوال ١٤٠٨هـ / حزيران ١٩٨٨م.

أدركَ القومُ أنَّ صاحبهم يستخفُّ بمطوعهم بدرجة أقنعتهم أنَّ (جنية مصلح تضحك على المطوع) أي تستهزيء به فضلاً عن أن تخافَ منه خوفاً يُلْجِئُهَا إلى ترك (مصلح)، بل أدركوا أكثرَ من ذالك منذ أن رأوا المطوع حين شاهدَ الفتى المكبَّلَ يَتعَثَّرُ في السير نحو المكان الذي هو فيه، وجلس بعيداً عنه، حتى طَمْأَنَهُ أهلُهُ بأنه (مُربَّط) ولا يستطيع التحرك، والجن ـ عندهم ـ إذا لم يكن (المطوع) قويًا ومستخفًا بهمْ استهانوا به، ولم يستطع (إخراجهم) ممن (لاطفوه)!!.

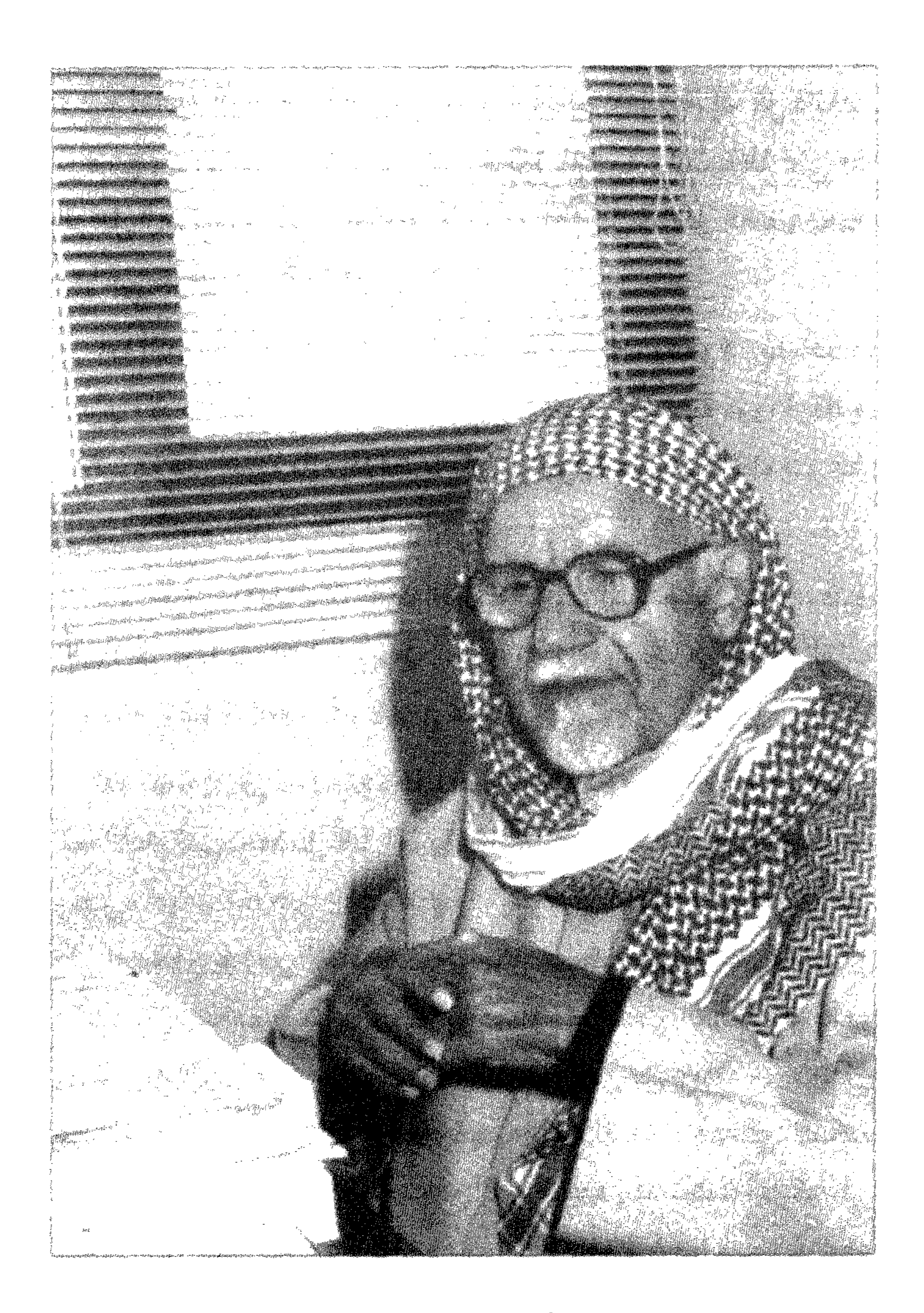
وما علم أؤلئك أنَّ عُقْدة الخوف من (الجن) قد تأصلت في إحساس (مطوعهم) منذ صغره، فقد كان أحدُ أخواله ـ و اسمه سعد ـ كثيراً ما يصاب بالصَّرْع، وكان هذا الخالُ هو الابن الأثير عند أبيه ـ جَدِّ صاحبنا الذي عاش طفولته في كنفه ـ لصلاحه، وملازمته لخدمته، إنَّهُ لا يزال يتذكر ذالك الخال وما يصيبه من شدة الصرع الذي كثيراً ما فاجأه وهو في خير حالة من الاطمئنان والراحة، فينغِّصُها عليه، ويحدث لوالده من الإشفاق عليه حين يبصره ما يؤثر في أقسى القلوب، رحمةً بهذا الشيخ الذي تعصره الآلام وهو يرى ابنه صريعاً بين يديه ولا يدري ماذا تكون نهايته، قد يكون في أثناء الصلاة فما يشعر مَنْ في جواره إلا بسقوط الرجل على الأرضِ كأشّدِّ ما يَسْقُطُ من يُرْمَى به من مكان شاهق، ثم يعلُو شَخيره، وتجحظ عيناه، ويهتزُّ كلُّ عضو من أعضائه، ويمكث على هذه الحالة نحو ساعة، حتى يبدأه الهدوء شيئاً فشيئاً فيتصبب العرق من جسمه، بعد أن يفحص الأرض بأحد أصابع يديه أو رجليه بعنف، كأنه يريد إدخال الأصبع فيها، ثم يفيق بدون أن يُحسَّ بشيء مما جرى منه، ولا بما اعترى ذالك الجسم من لَكْمٍ وضرب، أو

وُجِّهَ لذالك الوجه الطاهر من نَفْثٍ مُشَابٍ بغيره، إنَّ كل ذالك ـ بزعمهم ـ مُوَجَّهٌ إلى هذه الروح الشِّرِّيرة (الجنيَّة) المتسلطة على هذا الرجل الصالح، والتي لا تفارقه إلا باستعمال كل وسائل العنف معها، وها هي خرجت من أحَدِ أصابعه!!.

أما الأب المسكين فإنه في مثل تلك الحالة يقف مذهولا، يشاهد ما يَجْري ولا حول له سوى الابتهال بالدعاء، وتكرار (الحسبلة) و(الحوقلة)، فالخبيثة قد حذرته بأنه إذا تعرض لها بالقراءة على ابنه أثناء صَرْعِهِ، فإنها ستقصم رقبته ـ على ما يزعمون.

ومن غريب الاتفاق أن ذالك الخال ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ فارقَ الحياة إِثْرَ نوبةٍ من تلك النوبات، فَأكَّدَ ما كان راسخا في أذْهَانِ العامة من أنَّ (الجنيَّةَ) الملعونة قد تقضي عليه.

لقد كان يتولَّى ـ حِسْبَةً وطلباً لثواب الله وحده ـ إصلاحَ ما تحتاج إليه الآبار التي يستعمل أهل القرية مياهَهَا شرباً، أو استقاءً، أو وضوءاً، ويُهَيِّءُ أدواتِ استخراج الماء منها، ويقوم بتنظيفها مما يسقط فيها، وفي صباح يوم من الأيام ذهب إلى بئر في ضاحية القرية تُدْعى (الرُّكَيَّة) ـ بالتصغير ـ ليملأ بركتها ماءً لسقي الغنم، ولكنه لم يحضر صلاتي الظهر والعصر هذا اليوم، وليس من عادته أن يتخلف عن الصلاة مع والده وقتاً واحداً، فهبَّ القوم للبحث عنه في الأمكنة التي يرتادها، ومنهم من كان يتوقع أن (الخبيثة) قد تكون أغرقته في إحْدَى الآبار التي يقوم عليها، وهكذا كان، فقد وجد مَيِّتاً في قاع (الرُّكَيِّةِ) ووجهه مُنْغمسٌ بِحَمْأةِ الطين التي تتجمع عادة في القاعة (الْغَرَبَةَ).



في مكتبه بمجلة العرب بالرياض

إنهم طيبون حقاً !!*

كان الجفاءُ بين سكان القرى وبين أهل البادية في بلادنا مستحكماً منذ أقدم العصور، وقد ازداد شدَّةً إبَّانَ نشأة حركة (الإخوان) واستقرارهم في (الْهُجَرِ) وإقبالهم على التفرغ للعبادة، والاستعداد للغزو لإخضاع من لم يَنْقَدْ لطاعة وليِّ الأمر في أطراف هذه البلاد، حتى استقامت أحوالُ المملكة في جميعها، فحالفهم الحظُّ، إذْ كانوا مُتَدَرِّعين في القيام بأعمالهم بعزيمة قوية، ونية صادقة، غير أن كثيراً منهم اعتراه من الغرور ما دفعه إلى الاستهانة والاستخفاف بأهل القرى من الحضر، وبغيرهم من سكان البادية.

وكانت نظرةُ الحضر ـ قبل ذالك ـ إلى البدو بصفة عامة ـ متأثرةً بالأحوال السائدة في هذه البلاد قبل استقرار الحكم فيها، واستتباب الأمن في ربوعها، حين كانَ البدويُّ لا يَعفُّ عن أخذ ما قَدرَ على أخذه من أموال أهل القرى، ولا يتورع عن سلب ما استطاع سلبه منهم، مما تناله يده بمختلف الوسائل، منذ أن مَيَّزَتْ ظروفُ الحياة بين هذين الجنسين في أساليب معيشتهما، ومن هنا حدث التنافر، وتأصَّلَت الكراهية في النفوس، وأصبح الحضريُّ يرى في أخيه البدويِّ الْعَدُّو اللدود، ويُطِلُّ الآخرُ بنظرته إلى أخيه إطلالةَ القانص المحفَوِّزِ للافتراس، متى قدر على ذالك.

وما كانت النظرتان المتبادلتان بين الأخوين مُنْبَعثَتَيْنِ عن عُمْقٍ، أو أَصالة تفكير، أو محاولة لإدراك الأسباب والبواعث التي تلجيء إلى ذالك التنافر، فما كان ابنُ القرية يجهلُ أنه كان ابن البادية قبل أن

* المجلة العربية، العدد (١٣٠)، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / تموز ١٩٨٨م.

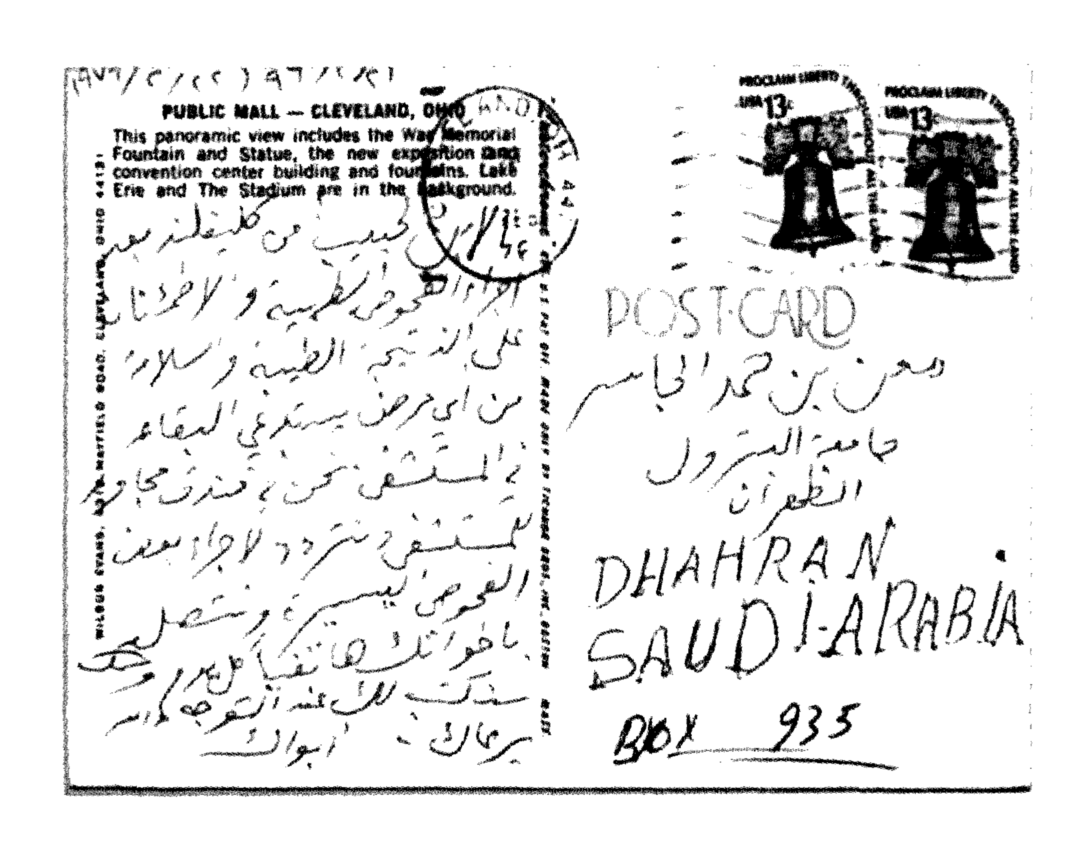
يستقر في قريته، وأنه فرع من ذالك الأصل الباقي على حياته الأولى، التي لها أَكْبَرُ الأثر في نظرته إلى فرعه المستقر، فالفقر - وهو قَرين الكفر - لا يستقيم مَعَهُ خُلُقٌ كريم، والجوع - وبئس الضجيع هو - لا يُبْقِي في نفس من ابْتُلِيَ به أَيَّ مكانٍ للرحمة، أو الإحساس بالشفقة على أقرب قريب، والبادية معدنُ هذين الداءَيْنِ، ومُسْتَقَرٌّ جميع أنواع الشقاء المُغَيِّرَةِ للطباع، المُزيلة من النفوس الكريمة ما يجب أن تتحلَّى به من حميد الصفات.

حين أتذكر تلك الأيام التي سعدتُّ فيها بالعيش بين أولئك الإخوة، مغموراً بعطفهم، وحسن رعايتهم، أُحِسُّ بأسىً وتأثُّرٍ شَدِيدَيْنِ مَدَى التَجنِّي والعقوق - بل والظلم - الذي ارتكبته الأجيال المتعاقبة حيال هذا الجنس الكريم من أهل هذه البلاد، بوَصْمه بأنواع الرذائل، وبالنيل منه في كل مناسبة ذات صلة به، إِنْ حَقًّاً وإِنْ باطلاً، وكان الأولى قبل كل ذالك الاهتمام بإصلاح حياته.

وما إخالُ الخليفةَ الثاني - وهو العبقريُّ اللَّمَّاحُ - إلاَّ وقد أدرك خطورة ذالك التباعد في نمط الحياة، وسُوء أَثَرِ ذالك الاختلاف بين هذين العنصرين اللذين يَقوم عليهما كيانُ الأمة، فكانت وصيته للخليفة بعده وهو في أحرج ساعات حياته، يقاسي غمرات الموت: (وأوصِي الخليفة بعدي بالبادية فهم أصلُ العرب ومادة الإسلام).

وروَّحَ الله روحَ الملك الطيب الذكر عبد العزيز آل سعود، فقد أدرك أن هذا العنصر الأصيل للأمة العربية لا تتم مشاركته في حياتها العامة، مُشاركةً مُجْدِيَةً ما لم يكن قويَّ الالتصاق بتربة هذه الأرض التي خُلق منها، فكان أن مَهَّدَ له أولَى المراحل إلى ذالك بالاستقرار في الْهُجَرِ، ثم أرَاعَ عليه من وسائل الرزق ما كان خيراً مما ألِفَهُ من شَظَفِ العيش،

حيث مكَّنَهُ عن رضا واطمئنان بما قرره من مرتبات سنوية باسم (شَرْهات) و (قواعد) و (براوي) تُدفع لرؤساء العشائر ولأتباعهم، مَكَّنهُ بذالك ليكون ذا أثَرٍ قويٍّ في تكوين هذه الدولة التي تستظل الآن بأفياء اليُمن والسعادة والاستقرار، وهكذا كان.



PUBLIC MALL — CLEVELAND, OHIO

This panoramic view includes the War Memorial Fountain and Statue, the new exposition and convention center building and fountains. Lake Erie and The Stadium are in the Background.

POSTCARD

DHAHRAN

SAUDI-ARABIA

BOX 935

صورة لبطاقة بريدية أرسلها الشيخ من كليفلند في الولايات المتحدة حيث أجرى فحوصاً طبية ، والبطاقة موجهة لابنه معن الذي كان طالباً في جامعة البترول والمعادن بالظهران ، مؤرخة في ٢١ صفر ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦/٢/٢٢م)

أيام السرور قصار!*

كذا يتخيل المرءُ عندما يفكر في أيام سعادته وسروره، وكذا يحدث له حين يتذكر أوقات بؤسه وشقائه فيراها طويلة، والأَيامُ هِيَ هِيَ، ولكنَّ النظرة متغيرةٌ بتغير الإحساس.

وهؤلاء القوم الذين شعرتُ بقدرٍ من راحة البال بينهم لا يستقرون في مكان إلا بقدر ما يجدون لإبلهم المرعى الخصب، ثم سرعانَ ما يُغادرونه إلى مكان آخر خير منه، والفَصْلُ رَبِيعٌ، وعاليةُ نجد قد غمرها الغيثُ فعمها الخصب منذ أول الفصل، ولهذا فما كانت منازلُ القوم متباعدة فيها طيلة الأيام التي مكثتها بينهم، وقد زادتِ الآن عن الشهرين، ولكنها مَرَّتْ سريعةً، وما فكرت فيها في العودة إلى القرية، بل ما خطر في ذهني تلك الأيام ما ينتاب المرء ـ عادة ـ حين يعيش فترة من الزمن بعيداً عن مرابع صِبَاهُ من الحنين لرؤية تلك المرابع.

لقد اطْمَأننْتُ بأنَّ هذه الحياة التي أعيشها بين هاؤلاء الإخوة ـ على بساطتها ـ أَلْصَقُ بطبيعتي، وأجلَبُ لما تتطلبه نفسي من الراحة والاطمئنان، وقد وجدت من رعايتهم وإكرامهم ما أحسست معه بالاندماج فيهم، بصورة صرفتني عن التفكير في مغادرتهم يوماً من الأيام.

لقد أدركت أن من أقوى الأسباب التي تَجْذِبُنِي إلى الارتباط بهؤلاء القوم هذا التوافق والتلاؤم بين طباعهم وبين ما فُطِرتْ عليه جِبلَّتِي من كراهية التكلف في أي مظهر من مظاهر حياتي، إنهم يَكْتَفُون باليسير القليل من الملبس والمأكل، ولا يكلفون أنفسهم في حياتهم الاجتماعية

---

* المجلة العربية، العدد (١٢٣)، ربيع الثاني ١٤٠٨هـ / تشرين الثاني ـ كانون الأول ١٩٨٧م.

ما ليس من طبيعتها، فلا يتملَّقُون أحداً، ولا يُجاملون فوق حدود اللياقة، ولا يتظاهر أحدٌ منهم بفعل مالم يفعل، ولا يهضم أحَدٌ أحداً حقاً من حقوقه، ولو كان من أعدائه.

والقوم على جانب عظيم من دماثة الأخلاق، ورِقَّة الطباع ـ بخلاف ما يُوصمون به ـ أذكر أنني في الأيام الأولى من قدومي إليهم، وكنت قد اعتدتُ طعام القرية اللَيِّن، السهل الهضم، وفي طعام القوم من القلة مع الخشونة ما لا بُدَّ أن يُحْدِثَ لمثلي ارتباكاً في الأمعاء، حتى تعتاده الطبيعة، وهكذا كان، فقد أصِبْتُ بالإمساك، واعتراني من شدة الألم ما حمل القوم ـ بعد أن بذلوا ما في وسعهم في سبيل معالجتي ـ على التفكير في الذهاب بي إلى إحْدَى القرى للعلاج، ولكن أية قرية يوجد فيها طبيب من القرى القريبة منهم!!

لا أنسى ـ ما حييت ـ ما غمرني من عطفهم عليَّ، وما شملني من رعايتهم وعنايتهم بي، وتقديم ما استطاعوا تقديمه مما يحتاج إليه من أصيب بمثل ما أُصبت به، وكان آخر ذالك الدواءَ الناجعَ، حليبَ ناقةِ بِكْرٍ، ممزوج ببولها، أشربه صباح كل يوم، حتى زال ما بي من ألم، واستقامتْ طبيعتي في تناول الغِذَاء، وكانَ حليبُ الإبل عمَادَ قُوت القوم، صباحاً ومساء، مع قليل من التمر ـ إن تيسر ـ أثناء النهار، أما الطعام المطبوخ ـ وغالباً ما يكون من الرز ـ فلا يتهيأ الحصول عليه إلا بقدوم ضَيْفٍ عَزيزٍ عندهم، فَيُكْرَمُ بتقديمه له مع لحم الغنم، ويشاركه أهل الْحَيِّ جميعهم، إذْ حياتهم تقوم على التشارك في السراء والضراء، كالأسرة الواحدة، وهكذا شأن أحياء العرب الآخرين.

(غـزّاي) و (عمشاء) !!*

(غزَّاي) فتى ليس وحيدَ أُمِّه، وقد يكون أَثيرَها كحال الصغير من الأبناء، وله أخ يكبره بنحو خمس سنوات، شارف العشرين من عمره هو (غازي) وهذان الْفَتَيَان هما اللذان يتوليان رعاية (ذَوْدِهما) فيتتبعان الفيافيَ والقفارَ طلباً لِما يطيب له من المراتع والمراعي، ويقومان بسقيه عند الورود على المياه، وقد يَعْزُبَانِ به عن الحيِّ اليومين والثلاثة فأكثر، وعندما يَضْوِيَانِ على أهلهما في غَلَس الظلام، وينيخان الإبلَ في مباركها، يسارعان لاستقبال أمهما التي تكون غالباً قد هيأتْ لهما ما استطابت من عشاء، وكثيراً ما يفاجئُها (غزاي) بما يحرص على إتحافها من صيدهما، كأرنب أو ضَبٍّ أو يربوع، عندما تحتضنه بضمة على صدرها، وتمطره بوابل من كلمات التَّدلْيل والمناغاة: (يا زُقَيْنك زُقَيْنَاه[1]!! أنا فْدَاك يا غزَّاي! متى أشوف عُويناتك مثل عيون الصقر! يا ليتني أَقْدر أبادلك بعيوني)!! وقد تتبع هذا الكلام ـ أو نحوه فما الذاكرةُ أمينة في كل الأحيان ـ قد تتبعه بمناسبة وبغير مناسبة: (نفْع الله ولا نفع النّفَاعي)!!.

ومَنْ هذا (النفاعي)[2] يا أم غازي؟! إنه السؤال الذي يحرك نِياطَ قلبها فيجيش صدرُها بحديث مؤثر، يروي مأساة شاب تحاول أمه أن تخفف بعض ما تحس به من ألم وأسى، حين تسترسل في سرده ـ بمعنى هو أقرب إلى اللفظ إن لم يكن هو ـ : (عيونه أحلى من عيون الظبية الحولية، هو (غزَّاي) وقبل شهور ماهي كثيرة نزل مع فريقنا أهل بيت

* المجلة العربية، العدد (١٣٣)، صفر ١٤٠٩هـ/ أيلول ١٩٨٨م.

من (الْخَلَوِية)[٣] وقت مقاطننا على (عفيف) في علو نجد، (خلوية) يتبعون العرب، يسترزقُون منها، يَرُبُّون القدور، ويُشرِّطُون* (القدْحان) والصحاف، ويصنعون السكاكين والفؤوس وأخلة البيوت، يبيعونها، ويشْحَذُون.

و (عمشاء) عجوز منهم من (الخلوية)، تدور على البيوت تشحذ، وتساعد من يحتاج منّا إلى مساعدة، في عَرْكٍ جلد، أو تنقية غزل، أو تنظيف بعض الأوعية.

دخلتْ عليَّ في يوم ما هو مبارك ـ وأيام ربنا كلها مباركة ـ ورأس (غزاي) في حجري، أَفْليه، جلستْ وأنا منصرف عنها، وأحَسَّتْ بذلك، مدَّت لي (سعْنَها)[٤] كعادتها ـ أملاه من اللبن، وقف (الورِع)[٥] يطالعها، شيفَتُهَا تُرَوِّع[٦]، أقبلت عليها وهي تهمهم بكلام ما سمعت منه إلا قولها وأنا أَمُدُّ لها سعْنَها: (بَحِّرْ بي !! بَحّر بي ! يا عوينات الغزال !!)[٧] ثم فَغَرَتْ فمها الأَشْدَق مثل فم الضبعة، وصدرها له زَنِيْت[٨].. حَدُّ الله بيني وبينك يا (عمشاء) خُذي سعْنَك، وتوكلي على الله ! الله يكفينا شَرَّك!!

وبنحو هذا الحديث الشجي تستمر في تصوير ما أصاب ابنها بعد أربع ليال ـ لا تزيد ولا تنقص كما تؤكد ـ ولازِمَتُهَا عند انتهاء الجُمل التي ترددها: (الله بيني وبينك يا عجوز السوء !!).

لقد احمرَّت العينان، وانتفخ جفناهما حتى غطَّيا الحدقتين، واشتد ألمهما بحيث حُرِمَ الصبي النوم، فعمدتِ الأمُّ إلى كل ما عهدتْ

* تجبير القدح والصَّحْفَة المكسورين باستعمال شريط حديدي أو نحاسي. (ش).

وعـرفتْ من العـقـاقـيـر والأدوية المتـوارثـة بين أبنـاء البـادية منذ أقـدم عـهـودها، كلبن أغـصـان (العُـشَـرِ) ومـسـحـوق ثَـمَـرِ (الحـرمل) ومـاء (العُنْصُل) وبخور (الْحَزَأ)[9] مع (الحِجْبة) أيامـاً معدودة على نوع من الخـبـز الجـاف[10]، الخـالي من الملـح، والحـرمـان مـن شـرب المـاء أو اللبن، ولكن ألـم العـينين لـم يخف، وانتـفـاخ الجـفنين ازداد، وانهـمـال الدمع غَزُرَ، ولا حيـلة لتلك الأم المسكينة، سوى اللجـوء إلى عـجائـز الحضـر، تلتمس بينهن من عُرِفت بـ (الحكمة) وما أكثرهن، وما أكثر مـا يـصفن لمرضاهن من الأدوية !!.

ها هو (قطور الشب)[11] المخلوط بـ (القرمز) أو (الحلتيت)، وأحيانًا بقليل من (العنزوت) فإن لـم يفد فأضيفي إلى (الْمُرِّ) قليلاً من (الصبر).

لم تدع قـريةً مـرَّ الحي بقـربهـا من زيارة من (يتطبب) من أهلـهـا، وباستعمال ما يصف من العقاقيـر التي كـانت من أكثر مـا في دكـاكين القرية، إلا أن عيني (غزاي) لم تزدد إلا ألماً، ودمعه انقلب صديداً أبيض.

ويمرُّ بالحي مسافر، يستـضيف أهل البيـت الذي لا يفتأُ حديثُ ربّته لا يتجاوز شغلَهَا الشاغلَ من حال ابنها:

ـ أنا فـداك ! ذكـر لنـا (حكيم) يداوي العـيـون، نـازل مع فـريق من (الدعاجين) حول (سَجَا) لعل عندك منه خبر؟!

ـ سمعت عنه، يسمونه (النفاعي) وما هو من (النُّفَعَة) يقولون: (حكيم) والحكيم الله، وهو مـوصـوف عند العـرب بـ (الْبُـخْص) والمعرفة، وهو مع فريق (الدعاجين) فوق (سَجَا).

وفي صبـاح اليـوم الثـاني تـسـتـردف (أمُّ غـازي) ابنَهـا فـوق جـملهـا،

وتغيب خمسة أيام، ولكنها تعود في حالة من التأثر والأسى أشدً من حالتها قبل ذهابها.

هذا (النفاعي) متعارف بين أبناء البادية بمعالجة مختلف الأمراض على كثرتها وتنوعها بعلاج واحد هو (الكيّ) أيًّا كان نوعُ المرض، وفي أي موضع كان من الجسم، وهو على جانب من الذكاء، بحيث يتمكن من إقناع المريض بأنه أَدَرك حقيقة مرضه، فيستسلم له. أما (أم غازي) فهي ـ وإن لم يخامرها الشكُّ في معرفته مرض عيني ابنها بحيث تطمئن لعلاجه ـ إلاَّ أن عاطفة الإشفاق من أن يبدو مُشوَّهَ الْوَجه طَغَتْ، فحالت دون الانصياع لرأيه.

ـ يا (حكيم) هذي الْعِكّة سمنها جُزُو، خالٍ من (الْجبَاب)[١٢] وهذا الجراب، (مَضير) جمعته من (سلا) أول الربيع، قبل (يُصَرِّبْ) الأقط[١٣]، وهذا (الفَلِيج)[١٤] من وَبَرِ نياقنا، غزلته ونسجته بيدي، ولا كُلُّ هذا حقك عندي، حقك على (النجاح) رضاك وفوق رضاك، وأنا مدخلتك على الله من أمْرٍ يُشَوِّه وجه (غزاي).

ـ يا (أم غازي) وِرْعك بلاه من دماغه، يهضب الماء الأبيض، ودواه بيدي ـ والله الشافي ـ لابد من (رَدْعَتَيْن) فوق الحِجاجين، مع (مِطْرقَين) في طرف المذنيين[١٥]، ونور العين ما له ثمن، والرجال بأفعالهم، ماهم بجمالهم، وأنا ما عندي غير هذا!!.

ـ وجه (غزاي) الأصبح تُرَقِّعُه (المَكَاوي) مثل خَدّ (المفرود)[١٦] الأجرب!! لا والله!! طِبُّ الله ولاطبُّك، ونفع الله ولا نفعك يا (نفاعي) وعليه خلف ما دفعنا.

وتسرع إلى امتطاء جملها وإرداف ابنها خلفها، تضمُّ أضلاعُها فؤاداً قَدْ أذواه الهمُّ والأَلَم، ولكنه لا يزال يستروح نسيم الأمل، بانجلاء ضُرِّها، فتندفع ـ أقوى ما تكون ـ في البحث عما يكشفه ! !

الحواشي :

(١) : جملة : (يا زقينك) جملة استملاح واستحسان يقولها ابن البادية حين يشاهد من طفل صغير ما يعجبه من حركاته أو حسنه، ومثلها عند الحضر : (يا حُليلك حْليلاه) أي ما أحلاك ! وقد تكون الكلمة (زقينك) المصغرة تصغير تلميح أصلها (زكن) من الزكانة وهي الفطنة والذكاء، وفي المثل : هو أزكن من إياس ـ وهو ابن معاوية الذي ولي القضاء في سن صغيرة.

(٢) : النفاعي: المنسوب إلى قبيلة (النُّفعة) من برقا من عتيبة ـ بلهجة الْبدو، وعند الحضر (النفيعي).

(٣) : الخلوية : جنس من أبناء البادية أصلهم غير قبلي، يتنقلون بين القبائل للقيام بحاجتها مما يصنعونه من أوانٍ وأدوات، فهم صناع مهرة.

(٤) : السِّعْن : جلد جفرة أو تيس أو ابن شاة صغير،أو جلد ضب، يدبغ أو يُرَبُّ لئلا ينضح أو يتغير ما يوضع فيه من سمن أو لبن، والكلمة فصيحة.

(٥) : الْوِرْعُ : الشابُّ في آخر مرحلة الطفولة، من اللغة الفصيحة إذ هو الصغير الضعيف.

(٦) : شيفتها: منظرها القبيح يفزع.

(٧) : بَحِّرْ بي: انظر إليَّ فاتحاً عينيك.

(٨) : الزَّنيت: الأنين والحشرجة من (زَنَتَ) أي أنَّ.

(٩) : العُشَرُ والحرمل: من أشجار البادية الشديدة المرارة، والعُنْصُل : أشبه شيء بالبصل، بل هو البصل البريُّ. والحَزاَ : واحدته حزاءة ـ شُجيرة شديدة الخضرة كثيرة الورق، لها رائحة قوية ليست طيبة، وهم يضعونها في البيوت لطرد الهوام، ويُشمُّونها المرضى، لئلا تتسمم جراحهم.

(١٠): الحِجْبَةُ : الحِمْيَة من الأكل والشرب إلا بقدر محدد، وكان (المحجوب) المحمي في الأصل يحجب عن الزّوار في مكان خاص من البيت.

(١١): القَطُّورُ ـ كالسَّعُوطِ والسَّفُوف ـ لما يتسعط أو يسفُّ من الدواء ـ : إذابة الدواء كالشب وغيره في ماء، ثم تقطيره في العين.

(١٢): السمن الجزو : الصافي من زُبْد الغنم الضأن خاصة، لم يخالطه سمن معز، أو إبل (جباب) ولا وَدَك وهو مُذّاب الشحم.

(١٣): المَضير الأقط : وأجوده ما جمع في أول الربيع حيث وفرة اللبن، إذ في آخر الوقت يقل اللبن فيجمع أياماً فإذا أُقِّطَ صار (صريبا) أي حامضاً في الفم، قاسياً على الأسنان.

(١٤): الفَلِيجُ : الشُقَّةُ من نَسيج الصوف التي يتكون منها البيت البدوي، وتبلغ خمساً في المتوسط، وقد تزيد أو تنقص بحسب حالة صاحب البيت ومنزلته في قومه. وكلمة (الفليج) فصيحة، إذ الفلجة : القطعة من البِجاد، وهو الكساء من الصوف المنسوج يقال لشقته فليج، وتجمع على فُلُج.

(١٥): الرَّدْعَتَان : الكيتان المستديرتان، والمِطرقان: الكيتان المستطيلتان. المذنيان : طرفا العينين مما يلي الأذنين.

(١٦): المفرود : ولد الناقة الصغير الذي أُفْرِدَ عن أمه لئلا يرضعها.

عيد (غزّاي) !*

المرأة البدوية ـ في الغالب الأعمّ ـ ربّةُ بيت، مدبِّرةٌ لأمورها، صَناعُ بيدَيْها، دؤوب في عملها، مُجدَّةٌ بالعناية بأحوال أُسْرتها، تجيد جميع الأعمال التي هي عِماد حياة تلك الأسرة في محيط بيئتها، كالغزل والنسيج، ودباغة الجلود، وتَنْمية نتاج الأنعام، ومعالجة أمراضها، بالطريقة التي تُهَيِّءُ ما يسُدُّ متطلبات حياة البادية.

إنها ـ عدا القيام بإعداد ما يلزمُ بيتها من أثاثٍ وفُرُشٍ وأوعية لحفظ الأطعمة وغيرها كالعِياب والمزاود[1]، والبُسُط، ولوازم الرَّحْل وبَيْت الشَّعْر من حبالٍ وأوتاد وأعمدةٍ، وكل ما تقوم عليه بنيةُ ذالك البيت، وما يُقْتَنى ويُسْتعمل داخلَه ـ تتعهد ما تنتج أنعامُها بالرعاية والإصلاح، فتستخلص من ألبانها السمنَ والأقط، ومن أصوافها أو أوبارها أو أشعارها وجلودها ما تستفيد به في مختلف حاجاتها، وما يُعْرَضُ للبيع في أسواق القرى لمقايضته بما يحتاج إليه أبناءُ البادية من مأكول أو ملبوس أو مستعمل.

تَجدُ البدويّات حينَ يحلُّ الحَيُّ في الأمكنة القريبة من القرى ـ وذلك لا يكون غالباً إلا بعد فترة من الزمن قد تبلغ شهوراً ـ تَجدُهُنَّ يُسَارِعْنَ في الذهاب إلى القرية، حاملات معهن ما جمعن مدة انقطاعهن عن زيارة القرى من نتَاج أنعامهن ـ إبِلاً كانت أو غنماً ـ ومن عمل أيديهن، من أقط أو سمن، ومن أدوات مغزولة أو منسوجة أو مدبوغة، كالقِرَب والأَجْربة والدِّلاء[2]، وما تُزَيَّنُ به الرِّحَال من (ميارك)[3] و(مزاود) و(سفائف) مما ينسج من صوف ملون (وَشِيْعٍ)[4] يُتَأَنَّقُ بطريقة نسجه.

---

* المجلة العربية، العدد (١٣٤)، ربيع الأول ١٤٠٩هـ / تشرين الأول ١٩٨٨م.

إنهن يعـرضن ذالك في أسـواق كثيـراً مـا كـان أهلُها يتطلعون إلى عرضه في الأوقات التي يتحرون فيها قُرْبَ البوادي من أَعْداد المياه بعد انقضاء فصل الربيع، وتَوفُّرِ ما جادتْ به أنعامهن من نتاجها في أيديهم.

وكما أنَّ البادية تقوم حياتُها على حياة الحاضرة، فكذلك حياة الحضريين من سكان المدن والقرى:

النَّاسُ للنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ   بَعْضٌ لِبَعْضٍ - وإن لَمْ يَشْعُرُوا - خَدَمُ

ثم تعود النسوةُ بعد أن استبدلْنَ أشياء أخرى مما هُنَّ بحاجة إليه بما ذَهَبْنَ به، من ألبسة أو زاد، أو قهوة وسكر، وأفاويه* وأبازير مما يصلح به الطعام، وكثيراً ما يكون من بينه بعض لوازم الزينة أو أدواتها، كالخواتم والقلائد من الخرز (الجزْع) والطيب والكُحل، فالبدويات لم تقسرهن حياة البادية القاسية على الخشونة، بَلْ يَتَحَلَّيْنَ بأخلاق وطباع رقيقة، ويُعْنَيْنَ بالظهور بالمظهر الحسن، ما وَجَدْنَ إلى ذالك سبيلاً، ومن بينهن من تستطيب لفتاها ـ زوجاً أو ابناً ـ من سوق القرية ما تتحفه به.

في العشر الأواخر من رمضان سنة ١٣٤٦هـ ـ حلَّ الحيُّ في الجانب الغربي من (نُفُودِ الملحاءِ) وأقرب ما يليه من القرى بلدة (أُشْيقِرِ) من إقليم الْوَشْمِ، وذلك في إقبال العيد، ولابُدَّ للنسوة وغيرهن من الذهاب إلى هذه البلدة ـ كالعادة ـ لعرض ما تهيَّأ جمعه، ثم العودة بالميسور من حاجات القوم.

سارَتِ القافلة مغلِّسةً، ليتسنَّى لها أن تعود قبل ظلام الليل، وَقِوامُها بضعُ نسوة، تكاد تتفق غاياتُهن، لولا أنَّ من بينهن واحدة لا

---

* عرّفها في حواشي سانحة لاحقة (ش).

أرَبَ لها في شيءٍ مما ذهبن للبحث عنه، ومع ذالك فهي أقواهن رغبة في الذهاب إلى القرية، وأَشَدُّهُنَّ تَعَلُّقاً بها.

وأمام دكان (أبي سليمان) الواقع في مُتَّسعٍ من أحدِ مداخل القرية، غير بعيد عن سوقها الذي لايحوي سوى بضعة حوانيت، قد سارع أصحابها إلى فتحها عند مشاهدة حضور القافلة، وتجمعوا حول ما تَحْمِلُ من بضاعةٍ قوامها (عِكَاكُ السَّمْن)[٥] ومزاوِدُ الأَقِط، وأوعيةُ الجلود المصنوعة من قِرَبٍ وأجْرِبة وعِيَابٍ، ومنسوجاتٍ من الوبر أو الصوف، من صنع تلك النسوة اللواتي أَنخْنَ (قعْدَانهن)[٦] في البَراح، وأتين ببضاعتهن حتى طرحنها أمام ذالك الدكان.

و (أبو سليمان) ممن عُرِف بين كثير من أبناء البادية بالأمانة، وطيب القلب، وحسنِ المعاملة، وفوق ذالك فهو ذُوْ عطفٍ على المحتاجين منهم، فاكتسب من الثقة والمحبة ما جعلهم يركنون إليه في تصريف كثيرمن شؤونهم، وهم مطمئنون إلى صدقه وأمانته، وهو مع هذا تكاد طيبة قلبه تبلغ درجة السذَاجة، إنه في كثير من تصرفاته غَرِيرٌ كالطفل، فقد يُكَدِّسُ في داخل حانوته مالا ينبغي ادخاره، فلا يلبث أن ينال منه ربحاً وفيراً في كثير من الحالات.

وها هي عجوز منزويةٌ داخل الحانوت، على مقربة من بابه، تَرقُبُ صواحِبَها وتتطلع إليهن ليسرعن في إفساح المجال لها لتتحدثَ مع الرجل فيما أتتْ لأَجْلِه، إذْ لن يشغل نفسه بها، وليس بين يديها ما هو بحاجة إلى الاشتغال به.

ها قد أوشكَ القومُ أن يَنْفَضُّوا بما اشتروه من تلك البضاعة، وها هُنَّ النسوة قد شُغِلْنَ بجمع ما رغبن بالعودة به إلى أهلهن.

وها هو (أبو سليمان) يلتفت إلى هذه المرأة المحفوفزة في مدخل دكانه، وقبل أن يفتح فاه لمخاطبتها تبادره سائلة باستعطاف وتلهف: أنا فْدَاك ما تَعرف لي (حكيم) يداوي العيون؟! فيكون جوابَه وقلبه مشغولاً بمن حوله: (أُمُّ دحيم) يَدُها خفيفة بـ (الكي) ومجربة!! وينصرف إلى مخاطبة أخرى وثانية وثالثة لإحضارِ ما يحتجن من الدكان أو خارجه، وحين ترى العجوز من الرجل التفاتاً نحوها تعاوده الكلام، بعد أن كانت كلمة (الكي) على قلبها أشدَ لَسْعًا منها في وجه ابنها: أنا فداك (غزّاي) ما يتحمل (المكاوي)!!

ـ (أم دحيم) دَاوَتْ عيونَ كثير من الناس وعافاهم الله! شاوِريها!! دُلّها يا عبد الله بيت (أم دحيم)!

وبعد عصر اليوم الثاني من عودة النسوة من القرية ـ بعد أن تناولت (أمُّ غازي) (النِّجْرَ)[7] من رَبْعَة البيت المخصصة لاجتماع الرجال لتناول القهوة، وكثيراً ما تفعل ذلك ـ فَيُفاجَأُ الجالسون في (الربعة)[8] وما بقربها من البيوت بانتشار روائح غريبة، مما تقوم بسحنه من الأدوية المختلفة، إلا أنَّ هذه المرة كانت الرائحةُ أشدَّ وأقوى، بحيث أثارت في أنوف الحاضرين العُطَاسَ الشديد، وأسالتِ الدموع، لا مِمَّنْ في (الربعة) وحدَها بل امتدَ ذالك إلى البيوت الأخرى.

ـ ما هذا يا (أم غازي)؟!

ـ دواء لعيون (غزاي) واصفته لي (أم دحيم) حكيمة في (أشيقر) (تراز) مع سَمْن رِخَال، خالٍ من الجباب والودك[9]، ومن سمن المِعْزَى، ثم استرسلت في وصف الدواء: تختار كل يوم ثلاث حبَّات من الفلفل الأحمر الناضج، وتُنْعِمُهنَّ سَحْناً، ثم تُغْلِي السمنَ الجُزُوَ[10]، وتأخذُ منه قدر نصف فنجان قهوة، تضعه فوق الفلفل المسحوق وهو دافيء،

وبعد أن تغسلَ عيني الفتى قبل نومه تُقَطِّرُ السمن المفلفل كله فيهما كل ليلة، مدة أسبوع.

ـ قالت لي (أم دحيم): هذا دَوَاءٌ مُجَرَّبٌ، وبعد أسبوع أو أسبوعين تذكرين الله ثم تذكريني بخير!!

لعل الفتى لم يَنْعَمْ بالنوم في الليالي الأولى اللواتي كان والداهُ يتعاونان على إرغامه لوضع الدواء في عينيه، فقد كان بكاؤه ثم تأوُّهُهُ لا ينقطع خلالها، وتلك ليالي عيد الفطر، حيث كان لِدَاتُهُ من أبناءِ الحيِّ يتطلعون لاستقبال عيدهم بالبهجة والسرور.

ولئن حُرِمَ (غزاي) في تلك اللُّيَيلاتِ القصيرة من مشاركة فتْيان الحيِّ في الفرحة بالعيد، فلقد تمتع بعدها بشفاءٍ تامٍّ، أعاد لعينيه صحتهما كما كانت، فزال الألم، وكفَّ الدمعُ المشوب بالصديد الأبْيَض، وذهبَ الورم من جفنيهما حتى بدتا سَلِيمْتَين كأن لم تصابا بأذى، وبدا على وجه تلك الأم الذي أذواه الأسَى من الابتهاج والسرور ما كانت تتمتع به أيام سعادتها، إلا أن نغمات مناغاتها لـ(غزاي) حين احتضانه: (يا زْقَيْنك زْقَيْناه)[11]!! تغيرت بدعوات وابتهالات لـ(أم دحيم).

الحواشي:

(١): المزاود ـ جمع مِزْوَدَة: وهي شُقَّةٌ من الصوف بطول ذراعيْن تُثْنَى ثم يخاط جانباها، ويجعل لها عروتان، ويوضع فيها ما يحملهُ المسافر من زاد وتعلق على الرَّحل، وقد تُزيَّنُ فيعلق في جوانبها رُبَذٌ (رُبَثٌ عند العامة) من الصوف الملوَّن.

(٢) : الأجربة ـ جمع جراب : وهو جلد يدبغ، وتخاط منافذه ليستعمل وعاءً لما يوضع فيه، وقد تُزَيَّنُ أطرافه بسيور ملونة. والقِرَبُ ـ جمعِ قربة : وهي الجلد الذي يهيأ لحفظ الماء، وقد يكون كبيراً من جلد الناقة، وهو (الراوية). والدِّلاء ـ جمع دَلْو : ما يستخرج به الماء من البئر، مصنوعًا من الجلد، ومن الدلاء نوع يدعى (الْقَلَص) وهو بدون عَرَاقي، يُقَلَّصُ فَمَه ـ أي يضيَّق ويحكم خرزه ويوضع في أعلاه عروتان طويلتان من السير المضفور، ليعلق في الرحل، وقد يضع فيه المسافر بعض أكله.

(٣) : الْمَيارك ـ جمع مِيْركة ـ : وهي جلدٌ يحشى بشعر، وتزيَّنُ جوانبه بسيور مسفوفة ملونة تتدلى على جوانبه، ويكون أمام الرحل، ليضع الراكب فوقه وَرِكَهُ وقت سير الراحلة.

(٤) : السفائف ـ جمع سَفيفة ـ : وهي حبال من الشعر تُسَفُّ ـ أي تفتل ـ بطريقة خاصَّة من صوف مُلَوَّنٍ، ويجعل في أطرافها رُبَذٌ (ربثٌ وكُتُلٌ) من صوف كبيرة، وتعلق في الرحل لتَتَدَلَّى على وَرِكَي الراحلة للزينة، والْوَشِيعُ : الصوف المصبوغ بحمرة أو خضرة أو صفرة.

(٥) : العكَاكُ ـ جمع عُكَّة ـ : وهي جلد يدبغ ثم يُرَبُّ بتمر ليوضع فيه السمن، فإذا كان كبيراً فهو النِّحْوُ.

(٦) : القعْدان ـ جمع قعود ـ : وهو الصغير من الجمال إذا صلح للركوب.

(٧) : النِّجْرُ ـ بكسر النون ـ : هو الآلَةُ التي تدق فيها الأشياء اليابسة، المدق (الهاون).

(٨) : الرَّبْعَةُ ـ بفتح الراء ـ : جانب من البيت كثيراً ما يخصص للضيف أو لاجتماع الرجال لتناول القهوة أو الطعام أو الجلوس.

(٩) : ترَاز : فلفل أحمر . والرخال ـ جمع رخْلة ـ : وهي الصغيرة من الضأن. والجباب : السمن المستخرج من لبن الإبل. والودك : الدهن المستخرج من الشحم.

(١٠) : الجزو : الصافي الذي لم يخالطه شيء.

(١١) : أي ما أحلاك وأجملك !.

ليلة ليْلاء*

هي الليلة التي يُقَاسي المرءُ من شِدَّتِها وما حدثَ له من الهمِّ خلالها ما لم يسبق حدوثه، وهكذا كانت ليلة (المَلْحَاء) بالنسبة لي، فقد ارتحل الحيُّ من نواحي (الْمَـرُّوْتِ) جنوب غَـرْبِ إقليم الوشم، طوال نهار كامل، ولم ينزلوا إلا في (نفود الملحاء) في الشمال الغربي من ذالك الإقليم، في إقبال الليل، وقد نفد ما معهم من ماء الشرب قبل رَحيلهم، فبعثوا السقاة حين نزلوا إلى آبار (الْخُوَيْشَّات) المعروفة في جانب (المُسْتَوِي) وجَنَّ الليل قبل عودتهم، وما في الحيِّ إلا من هو بحاجة إلى الماء، كانت الليلةُ قَمْرَاءَ، فالقمر في إحدَى الليالي البِيْضِ، وقد أحسست من الحاجة إلى الشرب بما دفعني إلى السير غير بعيدٍ عن البيوت، مترقباً مَجِيءَ السُّقَاة قبل أن يغلبني النوم فيما لو جلست في مكاني من البيت، إلا أنني وقد أجهدتني رحلة اليوم الطويلة تمدَّدْتُ فوق كثيب من الرمل، فوق (مرَاح الإبل) بحيث لا تحجب البيوت عني لقربها مني، وما كنت ـ في وقت من الأوقات ـ أذهبُ بعيداً عنها، ولك أن تعلل هذا بما شئت، وما إخالُكَ تُخْطِيءُ الحقيقة.

استرخيتُ في التمدد فوق تلك الأرض اللينة، حتي غلبني النوم، فلم أستيقظ إلا بلَسْعة عَقْرب أصابتْ شَحْمَةَ أُذُنِي اليُسرى،فَشُغلْتُ بشدة ألَمِها، ومكثتُ سهْرانَ، أتَلَوَّى مما أصابني، وقد مضى من الليل أكثرُهُ، فأنا أترقَّبُ طلوع الفجر ليوقظ (بِجَاد) الحيَّ بأذانه، أو ليدعوه (نافل) فيما لو تأخر في نومه.

---

* المجلة العربية، العدد (١٣٥)، ربيع الثاني ١٤٠٩هـ/ تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٨٨م.

ولعل قصتي مع (مُصلح بن خلف) لم تغبْ عن ذاكرتك، وممَّا لم أقصه عليك من خبرها أنني منذ جرى لي معه ما جرى صِرْتُ أتباعدُ ـ ما استطعت ـ عن البيت الذي هو فيه، إنني رقيق الإحساس بدرجة تجعلني أتوهم ما لا حقيقة له، وأخْشَى مما لا داعي للخشية منه، ولِمَ لا أكون صريحاً معكَ فأُبْرِزُ نفسي أمامك مُعَرَّاةً مما اعتاد غَيري أن تبرز به نفسه أمام الآخرين، إنَّ أسْوَأ صفاتي (الخوف) ولو وَصَفْتَني بأنني (جَبَانٌ) لما خِلْتُكَ مُتَجَنِّياً عليَّ، ولكن لن أبالغ في إبراز نفسي بسرد حوادث تؤيد هذا!

في (رَوْضَةِ سُدَيْرٍ) مُطَوَّعٌ يُدْعَى (ابن زَكَرِي) إنه مشهور بعلاج (المجانين) بدرجة أن بعض (الجنيَّاتِ) تخرج ممن (لاطَفَتَه) بمجرد سماع اسمه، وهذه (أم مصلح) تحدثت مع إحدى زائراتها على مقربة من (مصلح) ولمَّا جرى ذكر اسمه على لسان الزائرة صرخ ـ بل صاحت جِنِّيتُهُ ـ بشتمها، وطَلَب طردها من البيت.

لقد استقرَّ رأيُ الْحَيِّ على الذهاب بالرجل إلى ذالك المطوع، فَحُمِل يُثْقِلُهُ ما كُبِّلَ به من أغلالٍ وقَيُودٍ وسلاسل، وذهب معه وَالِدَاهُ وأحدُ أقاربه، ومضى لذهابه أربعة أيام، في أولها كان (المطوع) مشغولا بغيره، ولا يُدْرَى بما حدث بعد ذلك.

ها أنا أُقَاسِي من آلام لَسْعَة العقرب ما أُقاسي، أترقَبُ طلوع الفجر، على أَحر من الجمر، وها هي أذْوَادُ الحيِّ باركةٌ أمامي دون البيوت التي أميزها واحداً واحداً، ولا أرى بقربها مَنْ يتحرك فما الذي أسمع ؟! إنه صَوْتُ وَقْعِ خُطاً في الرمل، ليس بعيداً عني، وبالتفاتتي أبْصَرْتُ إنسانا

حالَ دون رؤيته إياي شجرةُ (أرطَى) كبيرة كنتُ قد هَيَّأْتُ بقربها آخرَ النهار مكاناً جلست فيه على طرف الكثيب، وها أنا الآن في ذالك المكان.

يالله!! إنَّ الرَّجُلَ عريَان، لا يستر جسمه أيُّ شيء من اللباس، كدتُ أسْقُطُ هَلَعاً ورُعْباً، إلا أنني تَنَفَّسْتُ الصَّعْدَاءَ حين اتجه إلى البيوت دُونَ أنْ يراني، لقد قصدَ بيتَ شيخ الحي الذي أنزل فيه، ها هو قد دخل البيت، أتُرَاهُ سَيَسْرِقُ (مِزْوَدَتِي) وماذا في هذه (المِزْوَدَة)[1]؟ قليلٌ من أقطٍ و (سِعْنٌ) مملوءٌ سَمْناً (جُزْواً)[2]، كافأني به جارُ الحي العُصَيْمِي الذي توليت عقدَ زواجه، وكان صاحبي حين أتيت من القرية.

لا بُدَّ من إيقاظ أصحاب البيت، وها أنا بِحَيْثُ يسمعون صوتي، وأُبْصِرُ الرجل، ولكن ماذا أرى! العادة أن بنادق أهل البيت وأسلحتهم تُعَلَّقُ بالواسط، وهو العمود الأوسط من أعمدة الْخِبَاء، بحيث تكون قريبة التناول، بارزةً وقتَ الحاجة، وها هو صاحبي يتناول إحدى البنادق، ويَمْلأُ خِزانتها بِمشْطٍ الرصاص، ثم ينادي: (يا أم غازي! يا أم غازي! وَيْن الحَضَيْرِي اللّي عندكم؟!) فتجيبه: (مصلح! مصلح! وِشْ تَبَابِه!!)[3] فيجيبها بما يكاد قلبي ينخلع عند سماعه!! إنه يبحث عني لكي يقتلني، وها هي البندق في يده مملوءة رصَاصاً، فما كان مني إلا أن هجمت على أقرب بيت مني وهو بيت (بِجَادٍ) المؤذِّن، الذي فوجيءَ بصراخي (يا بجاد! يا بجاد) ! وهو مع امرأته في دثارٍ واحد، فكان أن هَبَّ مسرعاً، فوجد نافلاً وزوجته وبعضَ رجال الحيِّ قد وقفوا يحاورون (مصلحاً) ويحادثونه ليشغلوه عن إطلاق الرصاص، حتى أمسك به اثنان من خلفه، وأَفْلَتَ القومُ البندقَ من يده، ورَمَوْهُ أرضاً

وغَلُّوا يَدَيْهِ إلى عنقه وربطوه، فهل تراني اطمأنَنْتُ بعد هذا؟ ومن لي بعقرب أخرى تلسع أذني الثانية لتنبهني إلى ما يخبئه لي الغيب من حوادث السوء؟

الحواشي :

(١) : (المِزْوَدَة) : كيس يصنع من الصوف، بعروتين طويلتين في جانبيه يعلق بهما في الرحل، يجعل فيه المسافر زاده، وما يحتاج إليه في سفره، وقد تستعمل المزودة لوضع حاجات المرء في البادية.

(٢) : (السِّعْنُ) : نِحْوٌ صغير من جلد صغار البَهَمِ أو كبار الضِّباب، والسمن (الجزو) سمن زبد الغنم الخالص الذي لا يخالطه سمن زبد الإبل (جِباب) ولا وَدَك، وهو دهن الشحم.

(٣) : وين : أين. الحضيري : تصغير الحضري، وِشْ : أيُّ شيء؟ ماذا؟ تبا : تبغى.

وفارقت من أهوى*

نَعَمْ ـ وأيْمِ الحَقِّ ـ فارقتُ كارهاً ـ قوماً تنسَّمْتُ بينهم نَسِيمَ الراحة والهدوء النفسي، فارقتُهم وفي القلب لوعةٌ لفراقهم، ولكن ماذا أعمل؟:

يُقْضَى عَلَى الْمَرْءِ في أيَّامِ مِحْنَتِه   بِأَنْ يَرى حَسَناً مَا لَيْس بِالْحَسَنِ

لم يَقِرَّ لي قرارٌ بعد ما حدث في تلك الليلة، فبعد أن كنتُ قد عقدتُ العزم على الاستمرار في البقاء مع أولئك الإخوة، أصبح يعتريني من القلق والأوهام الْمُبَرِّحَة ما شغلَ ذهْني في التفكيرِ في أُوْلَى الْفُرَصِ التي تُهَيِّءُ لي سرعةَ الرحيل عنهمْ قبل أن يحدث لي من صاحبي ما لا أستطيع دفعه، وها هي قد سنحتْ بإقبال شهر الحج، ولكنَّ (نافلاً) شيخ الحيِّ ـ وقد أوضحتُ له رغبتي بأداء الفريضة ـ أبْدَى استحسانه بأنْ أبقى أياماً لنذهب معاً، إنه لم يدرك حقيقة الدوافع لتلك الرغبة، إذْ لا يحسُّ بما يضطرم بين جوانحي من رهبة في المكث بينهم ساعات، لا أيامًا و (وَيْلُ الشَّجِي مِنَ الْخَلِيِّ)[1] غير أني أقنعته بحاجتي ـ قبل ذالك ـ إلى الذهاب للقرية، والبقاء هناك بعض الوقت، لأُرَتِّبَ أمور سفري، ومن الممكن أن نتلاقَى في مكة، فكان أن جمع من القوم ما تيسر جمعه من أقطٍ وسَمْنٍ، مما جادتْ به نفوسهم لـ (مُطَوِّعِهِمْ) الذي عزم على الرحيل، وسيعود إليهم بعد الحج.

كانت بلدة (أُشَيْقِر) أقرب القرى من منزل الحي في (نفود الملحاء) بحيث اعتاد ذوو الحاجات منهم الذهاب إليها لقضاء حوائجهم، من بيع ما أرادوا بيعه من نتاج أنعامهم، وشراء ما يحتاجون إليه ثم العودة في اليوم نفسه.

---

* المجلة العربية، العدد (١٣٥)، ربيع الثاني ١٤٠٩هـ/ تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٨٨م).

وما ارتفع نهار اليوم الثاني من مكاشفتي لنافل بعزمي على العودة إلا وأنا وسط سوق تلك القرية، مع مَنْ قَدِمَها من أصحابي، أعْرِضُ - كما يعرضون - ما معي من بضاعة لم أتقاضَ عنها نقوداً أكثر من ثلاثين ريالاً (فرانسية)[٢]، وقد قاربت بضاعتي حِمْلَ بعير من أَقِطٍ وسَمْنٍ، وكان ثمنُها أولَ نَقْدٍ تَمَوَّلْتُهُ، وكان خيراً كثيراً في ذالك الزمن.

وفي بلدة (الفَرْعة) القرية المجاورة لبلدة (أُشَيْقِر) تحلُّ أختي مع زوجها وبناتها، ولابُدَّ من المرور بهم للسلام عليهم، وإذَنْ فما الداعي ليرافقني هذا الأخ الذي كانت الغاية من بعثه معي الرجوع بالجمل الذي سأركبه حتى أصل إلى أهلي، لِيَعُدْ به من الآن، ولنْ أعدم في (الفرعة) راحلة أستأجرها.

هذه هي المرة الثانية التي أزور هذه القرية، وقد بدتْ لي خيراً من رؤيتها في المرة الأولى، حين كان القحط عاماً، فكان شديد الأثر على حياة سكانها الذين يعيشون على الفلاحة، وكانت مياه الآبار قد غارتْ، والمواشي قد أدركها الهُزال، فانصرفوا لامتهان حِرَفٍ ضعيفة بالنسبة لما يقيم حياتهم، كجلب الحطب ونحوه من أماكن بعيدة، وعرضه في أسواق أقرب المدن إليهم، أو البحث عن وسائل الرزق في المدن النائية، أما هذه السنة فالخِصْبُ قد عَمَّ البلاد، فمياه الآبار غزيرة، وعلف دواب الفلاَّحِ مُتَوَفِّرٌ، وثمرة النخل جيدة، والأسعار رخيَّة.

وفي اليوم الثالث كانت راحلة محمد بن بُدَيِّع - التي استأجرتها تجتاز بي - أنا وهو - صفْراءَ الوشْمْ، صوب القرية التي غادرتها منذ أكثر من شهرين، ولكنَّ إحساسي الآن وأنا متوجه إليها ليس كإحساسي نحوها حين غادرتها، إنَّ لي الآن فيها مأوى وأهلاً، فقد عاد أكبر إخواني وهو

(جاسر) من مكة، بعد أن مكث فيها نحو عامين، انتظم جنديًا في سلك (فرقة الهجانة) في أول الأمر، ثم اتجه لطلب العلم ـ مع بقائه في عمله ـ بعد أن قويت صلته ببعض طلبة العلم، ومنهم عبد الرحمن القويز[٣]، وعبد الغالب الصنعاني ـ إمام مسجد المعابدة ـ وإخوته من (المهاجرين) الصنعانيين، فأتقن القراءة والكتابة، واشتدت رغبته في مطالعة كتب الحديث، فاقتنى مجموعة من أمهاتها، ومن غيرها في مختلف الفنون، غير أنه أصيب بداء عُضَال فَاخْتُضِرَ[٤]، بعد استقراره في القرية وزواجه.

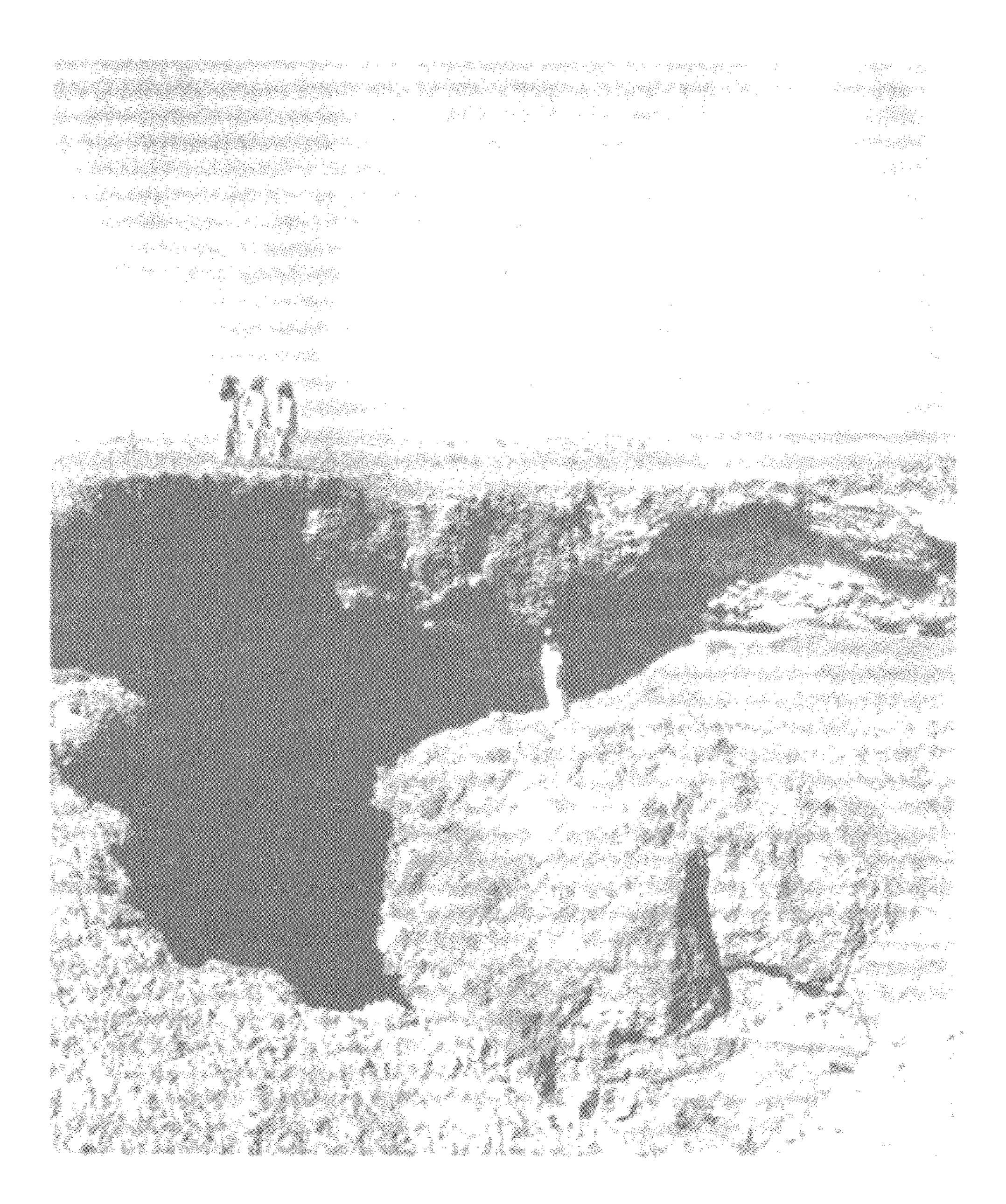
الحواشي :

(١) : أي ويل لمن أشجته أي أحزنته الآلام، فملأت فؤاده من الإنسان الذي لا يحس بشيء منها فيتخيل صاحبه مثله مرتاحاً لا يحس بشيء.

(٢) : الريال (الفرانسي) هو ريال (ماري تريزا) ملكة النمسا، واسمه من المصور فيه (فرانسو) وقد استعمل في بلدان الخليج وعمان ثم في بلادنا منذ سنة ١١٦٦ هـ (١٧٥٢م) على ما جاء في كتاب، المفصل في تاريخ الإمارات العربية. ج١ ص ١٩٦ .

(٣) : هو الشيخ عبد الرحمن القويز الذي أصبح ـ فيما بعد ـ المقرىء الخاص للملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وبعد وفاته كان مستشارًا في الديوان الملكي ـ حتى توفي رحمه الله.

(٤) : اختُضِرَ ـ بالبناء للمجهول ـ أي مات فتيا غضًا ـ ومنه ما يحكى أن شاباً قد أولع بإيذاء شيخ فكان كلما رآه قال له : أجززت يا أبا فلان، فيجيبه الشيخ : وتُخْتَضَرُون، أي آن لك أن تجز ـ كالزرع حان حصاده، والاختضار هو جزّ النبات أخضر غضًا طريًا.



في رحلـة علميـــة

بيت الإخوان*

لم يَرُقْ لجاسر ـ الأخ الكبير لصاحبنا ـ حين عاد من مكة أن يجد أخاه عند جَدِّه، عالَةً عليه في كل شيء، وقد بلغ مرحلة من العمر بها يبدأ المرءُ الاعتمادَ على نفسه، إن كان ذا قدرة على مواجهة الحياة، فقد شارف سنَّ البلوغ، أو بلغه، وما كانت حالة جاسر تمكنه من ضمٍّ أخيه إليه بعد أن تزوج، واتخذ في القرية منزلاً، فهو لا يستطيع مجابهة متطلبات الحياة بدون ممارسة عمل ذي دَخْلٍ ثابت، وأنَّى يكون هذا في قرية تنحصر أعمالُ أهلِها بالْفِلاَحَةِ، وقلَّ أن ينجح فيها إلا من عاناها سنين طوالاً، متحملاً ذلة الاستدانة، وقهر المرابين، ثم هي ـ مع ذالك ـ طالما كانت مدعاةً للفقر المدقع، وسبباً لتشتيت الشمل، كما حدث لكثير من الأُسَرِ.

ولقد عرف جاسرُ ـ أَثناء إقامته في مكة منخرطاً في سلك الجندية، وكان قويَّ الصلة بالشيخ غالب بن محمد الصنعاني ـ عرف كثيراً من طلبة العلم المترددين على الشيخ، ومن بينهم بعض الإخوة اليمنيين، المقيمين في مدينة الرياض، المعروفين باسم (المهاجرين الصنعانيين) الذين قدموا من بلادهم في أول عشر الخمسين من القرن الماضي، فاستقبلوا في هذه المدينة استقبالاً حسناً، وهُيِّءَ لهم ما يحتاجون إليه من سكن ونفقة، فاستقروا بأهلهم واتَّجَهَ أكثرهم لتلقي العلم، وكانوا محلَّ تقدير واحترام من كل من عرفهم لحسن أخلاقهم، ولهم كبير يُرْجَعُ إليه في شؤونهم يدعى يحيى بن حِزَامٍ، من خُلَّصِ أصحاب الشيخ عُمر بن حسن ـ رحمهما الله تعالى.

---

* المجلة العربية، العدد (١٣٧)، جمادي الآخرة ١٤٠٩هـ / كانون الثاني ١٩٨٩م.

وكان الشيخ غالب أحدُهم إلا أنه اختير ليتولى إمامة أحد مساجد مكة في حيّ (المعابدة) وليكون أحد الوعاظ والمرشدين، وقد كان من أثر اتصال جاسر به أن اتجه لطلب العلم، فلازمه للقراءة حتى شدا أطرافاً من المعرفة، وقويت رغبته في اقتناء الكتب، أحضر بعضها معه إلى القرية من بينها كتاب «الموطأ» بشرح السيوطي و «الصحيحان» و«الأذكار» و «رياض الصالحين» كلاهما للنووي، وغيرها مما كان الشيخ يرغبه في اقتنائه منها، والقراءة عليه فيها، حتى اتجه لطلب العلم، وقويتْ رغبته فيه، إلا أنه اضطر للعودة من مكة، بعد أن نال طرفاً من الرزق لينظر في حالة أخويه اللذين يعيشان عيشة تكفف للناس في فاقة وفقر.

ثم كان أن أُصيبَ جاسرْ بداء عُضَال كان استهان به في أول أمره حتى تمكن من القضاء عليه، بقروح نشأت بجانب رقبته تعرف في نجد باسم (الخنازير) وما هي سوى نوعٍ من السرطان، ينخر في الجسم إنْ لم يُستْأصَل قبل سريانه فيه.

لا يذكر الفتى من رحلته الثانية إلي الرياض شيئاً، ولكنه لم يَرَ في هذه المدينة تَغْيِيراً بارزاً عما عرفه من معالمها منذ خمس سنوات، وكان الوصول إليها في شهر ذي القعدة سنة ١٣٤٦هـ [١٩٢٨م].

ولقد تهيأ للفتى الانضمامُ إلى (الإخوان) ـ أي طلبة العلم ـ بمساعدة أخوين كريمين هما حسين جابر وأخوه (من المهاجرين الصنعانيين) اللذان عرفهما جاسر بواسطة شيخه غالب الصنعاني بمكة، كما تهيأ لجاسر الحصول على كتاب من الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ لوكيله في البحرين (الحاج عبد الرحمن بن حسن القصيبي) للعلاج على

حساب الملك، حيث يوجد هناك طبيب غربي مشهور يدعى (ديم)، ولكنَّ جاسراً قرر العودة أولاً إلى القرية لترتيب بعض شؤونه، ولم يخرج منها.

أُنْزِلَ صاحِبُنَا ـ بأمر الشيخ محمد بن إبراهيم وبوساطة الأخ الصنعاني ـ في حُجْرَة من حُجَر (بيت الإخوان) ورُتِّبَ له ما يقوم بأَوَدِه من تمر ورز كغيره من سكان هذا البيت.

و (بيت الإخوان) هذا دارٌ تقع على مقربة من سور المدينة في الجنوب منها، غير بعيدة عن مسجد الشيخ الذي كان يعرف بـ (مسجد الشيخ عبد الله) ثم (مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم) في حَيِّ دُخْنَةَ، حيث منازل العلماء من آل الشيخ، وفي الدار نحو خمس حجر، وغرفتان، وما كان السكنُ فيها مختصاً بطلبة العلم، فقد يحتاج إنسان ذُو صِلَةٍ بأحد المشائخ فيطلب الإسكان فيها فيتم له ذالك، وإن لم يكن طالب علم، ولهذا كان من بين السكان المعتوه، والأُمِّيُّ العاجز، والأعمى، فهي أشبه بدار العجزة، وهناك أماكن أخرى مخصصة لسكنى طلبة العلم بقرب مسجد الشيخ، وملحقة ببعض المساجد.

كان من بين سكان (بيت الإخوان) بدوي ضرير البصر، كبير السنّ، يدعى (حمد أبو فَرْوَةَ) عُرِفَ بفروة من جلد كان يلبسها، قدم من بلاده (تَثْلِيثَ) وهو من قحطان، وكان أُمِّيّاً، وقد أُنزِلَ صاحبنا معه في حجرته.

وفي البيت شابٌّ من آل جعفر من شمَّر، يدعى (نُغَيْمِش) كان يسرد نسبه فيعدِّدُ أسماء كثيرمن أجدادِه حين يُسْأَلُ عن اسمه، ومع أنه

معتوه فما كان يتعرض لأَحَدٍ بشرٍّ، وقد يحلو لبعض الصِّبْيِة أو غيرهم معابثته، فيضيق بالمعابثة ويصرخ: (الله يبلاك يا قميران) ثم ينجحر في أقصى (بيت الدرجة) وهو مسكنه، ويعيش بما يقدم له من طعام، وكان آخر العهد به أن ضاق مما يتعرض له من أذى الأطفال، فخرج من البيت، ولم يعهد خارجاً منه سوى هذه المرة التي استقبل بها الخلاء فكان آخر العهد به.

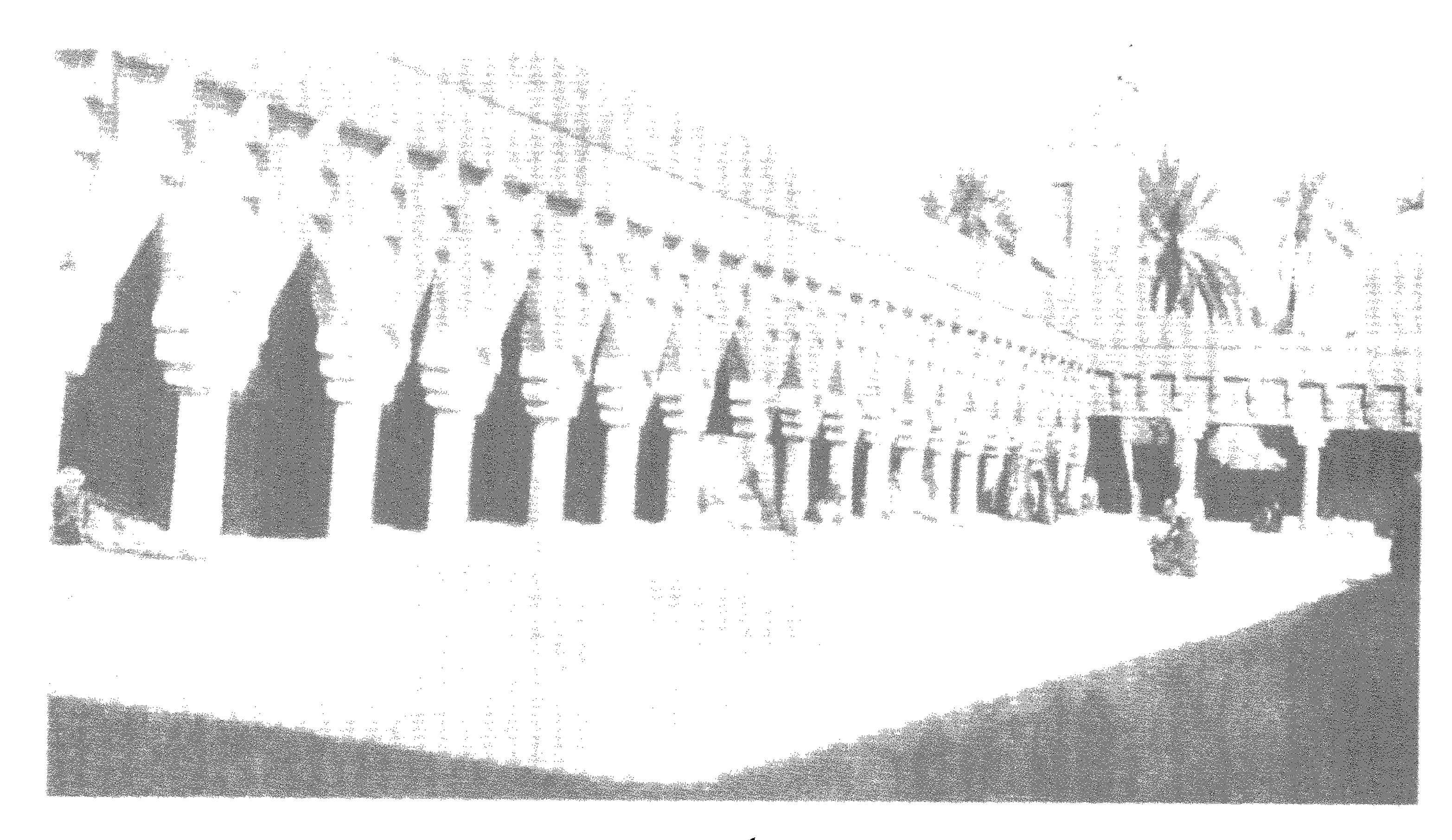
وفي إحدى الغرف ـ وهي الجنوبية الصغيرة ـ ثلاثة شُبَّانٍ من وجهاء أهل الجوف، لا أذكر الآن من أسمائهم سوى (ابن شلهوب) وحالتهم أرفع مِمَّنْ يسكن هذه الدار، وقد قدموا من بلادهم في تلك الأيام، فأبدوا للملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ رغبتهم في الاستقرار في الرياض لطلب العلم، فأمر الشيخ محمد بن إبراهيم أن يتولى ترتيب أمورهم، فكان أن أنزلهم في (بيت الإخوان) وأُجْري لهم من (بيت المال) أكثر مما يجرى لغيرهم من الطلبة، حيث لا يزيد ما يخصص للواحد في الشهر عن نصف (قَلَّةٍ) من تمر الأحساء الرُّزَيْزِي، وستة أصواع من الرُّز، وأقل ما كان يجرى ربعُ قَلَّةٍ، وثلاثة أصَواع في أول كل شهر، وكان (بيت المال) في الجانب الجنوبي الغربي، داخل حوش واسع في القصر (قصر الشيوخ)[1].

وكانت أمور المعيشة ـ تلك الأيام ـ مُيَسَّرةً في مدينة الرياض، فعلى مقربة من القصر ما يلي سوره الغربي سوق للنسوة، يَعْرِضْنَ للبيع بعض المأكولات كاللحم المطبوخ، والخبز واللبن والتمر ـ غير ما يباع منه بالجملة ـ وكان اللَّحْمُ النِّيْءُ يُبَاع مُجَزَّءاً مقطعاً قطعاً صغيرة مجموعة في خوصة من خوص النخل، تدعى القطعة (شِرْكاً) تَقِلُّ أو

تكثر بحسب حاجة المشتري، وما كان أمثال صاحبنا ممن يقدر على الشراء في الشهر سوى مرات معدودة. وكان عماد القوت التمر، ومع ذالك فقد أحس الفتى بنوع من رفاهية الحياة، لا عهد له به أيام كان يعيش في القرية، فينتابه الجوع، حيث لا يجد الكفاية مما يتيسر له من أي طعام كان، في كثير من الأوقات.

الحواشي:

(١) : كان أمين بيت المال من أول عهد الدولة السعودية من سنة ١٣١٩هـ [١٩٠٢م] - عالم جليل عُرِف بالنزاهة والزهد هو الشيخ حمد بن فارس حتى توفي - رحمه الله - سنة ١٣٤٥هـ [١٩٢٥م].



صورة داخل الجامع الكبير بالرياض عام ١٣٤٠هـ

تعارف واستقرار *

وسكن معي ـ أنا وصاحبي (حمد أبو فَرْوَةَ) ـ وافدٌ جديد من الإخوان ، يدعى صالح بن علي بن سلطان من أهل رياض الخبراء ـ إن لم تخني الذاكرة ـ وكان في غاية الطيبة من سلامة القلب ، وسماحة النفس ، وحسن الخلق ، ومحبة فعل الخير ، حتى عُرِفَ فيما بعد باسم (صالح الزاهد) .

كان يتولى إعدادَ الأكل لثلاثتنا في الغرفة ، فيقوم بالطبخ ، وتنظيف الأواني ، وقد يغسل ملابسنا احتساباً ، وكان يذهبُ إلى (بيت المال) فيحضر ما قرر لي ولصاحبي من طعام ، ولم يقرر له بَعْد ما يُقَرَّرُ عادةً لأمثاله .

وأذكر أَنني مرضتُ ، إذْ أصبتُ بسُعَالٍ شديدٍ وحُمَّى ، فأصبحت لا أشتهي الأكل ، فكان صالح يأخذ إناءً ويطرق أبواب البيوت يسأل حليباً يحضره فيغليه ثم يقدمه لي ، وكان ذالك في الأيام الأولى من قدومي من القرية ، وقد عرفتُ الرجل زمناً خيرَ معرفة ، وآخِرُ عهدي به أن سافر إلى بلاد عسير ، وسمعت أنه تولى إمامة مسجد هناك ثم توفي رحمه الله .

جاوَرَنَا في حجرة صغيرة اثنان من أبناء البادية قدما حديثاً ، فبدآ يتعلمان القراءة بحفظ السور القصيرة من القرآن ، عرفْتُ أحدهما لاستمرار بقائه مع الإخوان ، ويدعى صالح بن نَشَاط عتيبي النسب ، من (الدعاجين) ، وقد استقر في الرياض حتى عهدته آخر القرن الماضي إماماً لمسجد المرقب .

أما صاحبي (حمد أبو فروة) فلم يلبث أن مرض ثم مات في الحجرة ، ومكث برهة من الوقت حتى هيأ الله رجلاً يدعى جمعان بن ناصر ـ كان

* المجلة العربية ، العدد (١٣٨) ، رجب ١٤٠٩هـ / شباط وآذار ١٩٨٩م .

يخدم في بيت الشيخ محمد بن إبراهيم ـ فتولى تجهيزه غُسْلاً وتكفيناً وحِملاً إلى المسجد للصلاة عليه، وحفر قبره.

وكان جمعان هذا وهو ممن عرفت بتردده على (بيت الإخوان) صالحاً عابداً، قدم من بلاد قَطَر، وبعد شهور من قدومه أمسك به أحد القادمين من تلك البلاد، وادَّعى أنه مملوك له، فاستعان بالشيخ محمد وبغيره لتخليصه فلم يتم له ذالك، وأُعِيدَ مع الرجل القطري قَهْراً.

وكان يسكن في الغرفة الثانية الكبيرة الواقعة في الدور الثاني من (بيت الإخوان) طالبا علم، مكفوفا البصر، من أهل الوَشْم، أحدهما فهد بن شاهينَ من بلدة أُثَيْثِيَة، والآخر عبد الرحمن بن مانع من بلدة القراين، وهما رجلان فاضلان، وحالة معيشتهما مرتبة، فلكل واحد منهما طعامه المقرر من بيت أحد الوجهاء، ممن كان يتردَّدان عليه كل ليلة لقراءة حزب من القرآن الكريم بين العشاءَيْن، وفي شهر رمضان يقومان بإمامة النساء في صلاة التراويح، وقلَّ أن يوجد بيت فرد من الأسرة المالكة الكريمة من قصر فما دونه لا يُقْرَأُ فيه القرآن بعد المغرب، وتقام فيه صلاة التراويح للنساء، ويتولى القراءة والإمامة مكفوفو البصر، ولهذا فإن كثيراً من طلبة العلم ممن أصيبوا بداءِ العمى، وما أكثر من يَفِدُ من هاؤلاء إلى هذه المدينة بحثاً عن الرزق بأية وسيلة يحصل عليها بها، فمن استطاع من هاؤلاء أن ينال طرفاً من العلم كحفظ القرآن الكريم أو بعض سوره التي تمكنه من القراءة في أحد البيوت والصلاة بالنساء، وإلا فلا أقل من امتهان (السِّقَاية) ـ نقل الماء بالْقِرَبِ من الآبار إلى كل بيت ـ حيث تُعَدُّ أواني من النحاس حين تملأ بالماء تكفي حاجة البيت طوال اليوم، وأشهر الآبار التي يستقى منها

ماء الشرب بئر (دخنة) في الحي المعروف بها.

وفد إلى الرياض في تلك الأيام أحد أقاربي من جهة الخؤولة، ويدعى عبد الله بن عبدالكريم بن سالم، أبوه عبد الكريم أخو جَدِّي لأمي علي ابن عبد الله بن سالم، ومعه أخ له مريضٌ بالْحُمَّى، يدعى عبد الرحمن، حضر به من الأحساء، ولمعرفته لعبد الرحمن بن مانع وكونهما من بلدة واحدة نزل معه في الغرفة، فعرفت عبد الرحمن وصاحبه فَهْداً أثناء ترددي لزيارة قريبي، وقويت صلتي بهما حيث كانا يستعينان بي فيما يحتاجان إلى مثلي من شؤونهما، كقراءة ما يدرسانه، حتى يحفظاه، وكان الحفظ عماد الطلب، إِذْ لابُدَّ لكل طالب علم من سَرْدِ درسه اليومي من ذاكرته على الشيخ الذي يتولى بعد ذالك شرحه في أي فن من فنون العلم.

كان فهد بن شاهين يقرأ بعد المغرب في بيت الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الفيصل القريب من (بيت الإخوان)، فكان فهد يحضر أكله في الضحى وبعد العصر، ويشرك فيه من عنده، إلا أنه وجد في الفتى استعداداً للقيام بذالك، فذهب به إلى البيت، وعرفه بالجارية التي تتولى إحضار الطعام، فذهبت به إلى (العمة) التي رأتْ في قماءته، وصغر جسمه ورثاثة مظهره، ما حملها على الموافقة على تردده إلى البيت، ودخوله في أي وقت من الأوقات، وكانت الجاريةُ التي تُعِدُّ إحضار الطعام حبشية عند من يعرفها، ولكنها تقول: إنها من اليمن، نُهِبَتْ صغيرةً، وتنقلت في أيدي النخَّاسِينَ حتى استقرت في ملك صاحب هذ البيت، وكانت رقيقة القلب، تسألني حين أَحْضُرُ لأخذ الطعام عن عدد الموجودين مع (المطوع) فتهيء ما يكفيهم وتستطيبه.

وكان فهد على جانب كبير من الرزانة، وإنْ كان بَطِيءَ الفهم لما يحفظ من دروسه، ولهذا فلم يكن مواظباً على القراءة على المشايخ كغيره من مكفوفي البصر الذين كان استمرارهم عليها من الأسباب التي هيأت لهم تولي أعمال القضاء في (الْهُجَرِ) أو الإمامة في الصلاة، وما كان فهد بأقل إدراكًا منهم، ويقال عنه بأنه لَيْسَ غبِيًا ولكنه يتغابَى فما في وظائف الهجر ـ في ذالك العهد ـ ما يرغب فيه، ولطول مكث فهد في (بيت الإخوان) حظي بثقة المشرفين على أموره فصار يُرْجَعُ إليه فيما يحدث بين سكانه من اختلاف.

أما ابن مانع فمن أذكى من رأيت من العميان وآنقهم مظهراً، وأجملهم ملبسًا، وكان دمثَ الأخلاق، فكه المحضر، قلَّ أن تراه لا يعمل شيئًا، وكان إذا لمس جلد الشاة أو العنز أدرك لونها، وإذا احتاج أَحدُ المبصرين نَظْمَ السلك في الإبرة في الظلماء عمل له ذالك أسرع ما يكون بطريقة اللمس، ويُمَيِّزْ بين الناس بذالك وإن لم يسمع كلامهم، ولحظوته لدى أصحاب البيت الذي يصلي بهم في رمضان ما كان يطيل البقاء في الرياض بعد انقضاء ذالك الشهر، وكذا كثير من أمثاله بعد الحصول على كسوة العيد و (الشرهة) وما يَسَّر اللهُ من الرزق تكون العودة إلى البلدة والاستقرار هناك حتى تدعو الحاجة للقدوم إلى الرياض.

ومما حَزَّ في نفسي أنني في الأيام الأخيرة أثناء مروري بتلك المدينة أو إقامتي فيها حرصت على أن أعرف شيئًا من أَحوال الأخوين لما تمَّ بيننا من ألفة وأخوة، فلم أحظ إلاَّ بالقليل من معرفة أحوالهما في أول الأمر، ثم انقطعت أخبارهما عني، ولعل من خير أخلاقي أنني ـ كما قال أبو الطيب :

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصِّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوْجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا

مسجد الشيخ*

كان شيخُ العلماء في أول القرن الماضي ـ وقبله بسنين ـ الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ابن الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهم الله ـ كما كان أبوه وجدّه قبل ذالك.

وكان يتولى الإمامة والتدريس في أشهر مساجد مدينة الرياض في حيّ (دخنة) حيث تقع منازل آل الشيخ على مقربة من قصور آل سعود، وقد عُرِفَ ذالك المسجد بـ (مسجد الشيخ).

ولما توفي الشيخ عبد الله سنة ١٣٣٩ هـ [١٩٢٠م] كان أَبْرَزَ طلبته وأَنْبَهَهُمْ ذِكْرًا ابنُ أخيه الشيخ محمد بن إبراهيم، فحل محل عمه في الإمامة في المسجد والتدريس فيه، بل وفي رئاسة العلماء، ولهذا أصبحتْ شؤونُ طلبة العلم منوطةً به، وإن كان لعمه الشيخ محمد بن عبد اللطيف ـ لكبر سنه، ولكونه مَعْدُوداً من علماء الأُسْرَة ـ مكانته من التقدير والتقديم في الاجتماعات العامة من قبل ولاة الأمور.

ولَعَلَّ مَا أُصيبَ به الشيخ ـ محمد بن إبراهيم ـ من فقدان البصر منذ صغره مما هيأهُ للقيام بما أُنِيط به من أمور، حيث اتجه لتحصيل العلم، وتفرغ لذالك بِجِدٍّ ودَأبٍ، حتى كان جديراً ببلوغ تلك المنزلة التي حلَّها بعد وفاة عمه.

لقد شَغَلَ جُلَّ أوقاته بالتدريس، وفي دراسة ما يعرض عليه من قضايا الناس العامة والخاصة، ليصدر أحكامه فيها، فكان يقوم بتدريس طلبة العلم في المسجد من بعد صلاة الفجر إلى وقت الضحى، حيث

---

* المجلة العربية، العدد (١٣٩)، شعبان ١٤٠٩هـ / آذار ونيسان ١٩٨٩م.

يعقد ثلاثَ حلقات للطلبة الذين يدرسون التوحيد، في مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب بَدأً بـ «الأصول الثلاثة» و «كشف الشبهات» فكتاب «التوحيد» على حسب تَدَرُّجِ الطلبة في الدراسة، وبقدر إدراكهم، ومن بعدهم دَارِسُو النحو كذلك، فالمتقدمون منهم يحفظون «ألفية ابن مالك» حيث يشرحها لهم الشيخ، ويعرض عليهم الأمثلة التي يطالبهم بحلها ليدرك مبلغ فهمهم لما قرره، وبعدهم حلقة أخرى من طلاب النحو، ممن يدرس كتاب «الأُجْرُومية» ثم المبتدئون من أول هذا الكتاب حتى الفصل الأول منه، حيث يكونون حلقة ثانية تكمل «الأُجْرُومية» وتلك تحل محل الحلقة الثالثة، وقد يعيد طلاب الحلقة الأولى ما بدأوا بدراسته أو بعضهم ممن يتضح للشيخ ضعفهم أو عدم فهمهم لما درسوا.

وفي الضحى يكون تدريس كبار الطلبة في كتاب «زاد المستقنع» في الفقه الحنبلي، وذالك لمن أكمل دراسة «آداب المشي إلى الصلاة» على أحد المشائخ، ويتكون هاؤلاء الطلاب في حلقتين، الأولى للمبتدئين منهم، والثانية للمتقدمين في القراءة، وعدد طلبة الحلقة ليس محدوداً فقد يتجاوز العشرين وخاصة من المبتدئين، وقد يتناقص العدد حتى لا يزيد على الخمسة في الحلقة الثانية.

وللمتقدمين من الطلبة من أوقات الشيخ نصيبهم، فهناك أفراد منهم ممن يتوسم فيهم من الإدراك وسعة المعرفة ما يؤهلهم لما قد يرشحهم له من قضاءٍ أو إمامةٍ أو وعظٍ، فيخصص لبعض هاؤلاء من الوقت ما يتمكنون في خلاله من الاستزادة من العلم في قراءة بعض (المطولات) من كتب السنة كـ«الصحيحين» أو أحد كتب «السنن» أو من كتب الفقه في اختلاف المذاهب كـ «بداية المجتهد» لابن رشد أو

«المغني» أو «الشرح الكبير» والقراءة في هذه الكتب بطريقة السرد بسرعة، وقد يستوقف الشيخُ القارِيءَ لبحث ما يعرض من إشكال، أو لإرشاد إلى خطإٍ في القراءة، ويكون هذا غالباً في المسجد بعد صلاة الظهر، أو قبل العشاء، إذْ حين يدخل وقت هذه الصلاة يكون المصلون قد اجتمعوا في المسجد حيث تكون القراءة على الشيخ من أحد كبار الطلبة في بعض كتب تفسير القرآن الكريم، لابن جرير أو ابن كثير.

وبعد صلاة العشاء هناك حلقتان من الطلبة لدراسة علم الفرائض ـ المواريث ـ في منظومة «الرحبية»، وقد يكل الشيخ إلى بعض النابهين من طلبته تدريس المبتدئين منهم.

ولقد كان (مسجد الشيخ) كأنه خَلِيَّةَ نحْلٍ لكثرة ما يجتمع فيه من طلبة العلم، فهو يزخر بهم دائماً، من طلوع الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء وانتهاء الشيخ من التدريس، ولهذا كان مجتمع (الإخوان) ومحل التقاء بعضهم ببعض وتعارفهم، وعقد حلقات المذاكرة والبحث بينهم فيما يتلقون من دروس على شيخهم، بل كان ملتقاهم ومكان اجتماعاتهم للبحث في جميع شؤونهم العامة من سكن ومعيشة إذ كانت منوطةً بالشيخ، سواء استمروا في طلب العلم، أو ولوا بعض الأعمال كالقضاء والإمامة والكتابة والوعظ والإرشاد، كما أن كثيراً من أصحاب القضايا التي تُحال إلى الشيخ يلجأون إلى بعض طلبته للاستعانة بهم في حل قضاياهم.

ولبعض العلماء في مدينة الرياض ـ في ذالك العهد ـ حَلَقَاتُ تدريسٍ في أوقات محدودة في المساجد بعد الصلوات، كالشيخ سعد بن حمد ابن عَتِيقْ قاضي مدينة الرياض للبادية، والشيخ صالح بن عبد العزيز

ابن عبد الرحمن آل الشيخ قاضي الحاضرة، والشيخ محمد بن عبد العزيز ابن عَيَّاف، فكان للشيخ سعد حلقة صغيرة من الطلبة في المسجد الجامع بعد صلاتي الفجر والظهر، وللشيخ صالح في المسجد المعروف به في حَيِّ (دُخْنَةَ) كذلك.

أما الشيخ ابن عيَّاف فكان يقرأ عليه قليل من مبتدئي الطلبة بعد صلاة الفجر في مسجد خالد[1].

كان صاحبنا قَميئاً [2] في مظهره، تقتحمه العين، ذَا وَجْهٍ تبدو عليه آثار الفاقة، قد شَوَّهَ الكيُّ أحدَ حاجبيه، وعَلَتْ حدقةَ إحدى عينيه نقطةٌ بيضاء، وكان زَرِيْئاً في لباسه، يستر جسمه قميص (مقطع) من الخام [3]، وفوق رأسه (شُقْرة)[4] منه، حافي القدمين، لم يألف في قريته ما عليه الناس في هذه المدينة من مظاهر الحياة، فكانت نفسه تنقمع من مخالطة من يهوى الاجتماع به حياءً وخجلاً، ولكنه وجد في مجتمع من الطلبة على اختلاف أنماط حياتهم، وتغاير بلدانهم وطباعهم ما دفعه إلى الاندماج فيهم، والتأثر بتصرفاتهم، وأكثرهم ممن عاش في القرى عيشة لا تختلف كثيراً عما عاشها في قريته.

وكالأمْسِ القريب، لا يزال يذكر منذ نحو ستين عامًا كيف اندفع شاب من بين المصلين بعد الفراغ من الأذكار الجهرية لصلاة المغرب، فتقدم إلى الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم، في المحراب، وهو مشتغل بالذكر، إلا أن ارتفاع صوت ذالك الشاب الواقف أمامه بجملة: (السلام عليكم ياشيخ) قطعتْ عليه ما هو مشغول به، فَرَدَّ السلام بصوت خافتٍ مادًّا يدَهُ وهو جالس، إن هذا الشاب ـ كصاحبنا ـ لا تزال آثار القرية باديةً في مظهره، حتى ثوبه الملون بلون تربة قريته

الحمراء (الجعر)[٥] إنه إبراهيم بن محمد بن جهيمان من (القرائن) وهو لا يكبر صاحبنا في سنه[٦].

ولا يزال يذكر ـ لكثرة تردده على (مسجد الشيخ) ـ صلته باثنين من (الإخوان)[٧] كانا يسكنان حجرة في المسجد تحت درجته، (بيت الدرجة)، وكان يكثر زيارتهما حتى بَرِمَا من كثرة تردده، وهو وشاب صغير يدعى عبد الله الرواف[٨] من بلدة الدرعية، فكان الأَخَوان يَلْجآن في بعض الأحيان إلى التخاطب بينهما بكلمات رمزية، تعرف بـ(الريحاني)[٩] فما كان من صاحبنا إلا أن قَدْ زَمَ ما ظنه شعراً في هجوهما، منه على سبيل التندر والفكاهه:

(. . .) الذي قد كان ذْا نَزَقٍ   وذا سِبَاب بِأْلغَازِ (الرياحين)
أما (ابن . . .) الْمَزْهُوُّ مِنْ صَلَفٍ   فَإِنَّهُ بَشَرٌ قَدْ صِيْغَ مِنْ طِينٍ[١٠]

إنهما الأخوان اللذان لا تزال صداقتهما وصلتهما بصاحبنا تنمو وتزداد، الشيخ عبد الله بن عبد العزيز الخيَّال، وكان قد قدم مدينة الرياض من بلدته الدرعية في شهر شوال ١٣٤٦هـ [١٩٢٧م] ـ قبل قدوم صاحبنا بشهر، والأستاذ عبدالكريم بن عبد العزيز بن جُهَيمان، الذي لم يطل مكثه في الرياض بل عاد لقريته، وتولَّى أبوه عرض كُتبه في (بيت الإخوان) فاشتراها صاحبنا، وكلها من المطبوعات التي كانتْ تُوَزَّعُ على طلبة العلم، وكان عند قدوم صاحبنا إلى الرياض يقوم بتدريس أبناء محمد بن زيد[١١].

الحــواشي:

(١): منسوب إلى خالد بن سعود بن عبد العزيز الذي ولاه المصريون البلاد سنة ١٢٥٢هـ فلم يستقم أمره، وكان بناءُ هذا المسجد في عهد ولايته، وكان يقع بجوار القصر جنوبًا منه، وكان

ذا طراز خاص في بنائه، يخالف ما كان عليه بناء مساجد الرياض ذالك العهد، فالسواري متينة، والعقود التي فوقها ليست مثلثةً بل مستديرة، وقد أزيل عند توسعة قصر الحكم في العهد الأخير.

(٢) : الْقَمِيءُ : هو الصغير الجسم القصير، قال الشاعر:

تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْقَمَاءَةَ ذِلَّةٌ وَأَنَّ أَعِزَّاءَ الرِّجَالِ طِيالُها

(٣) : الخام نوع من نسيج القطن الغليظ، وبياضه ليس صافياً وهو أردأ أنواع ما يلبس من القماش.

(٤) : الشُّقْرَةُ قطعة من القماش مربعة ، تُقَصُّ بشكل مثلثين، يوصل أحدهما بالثاني فيكونان زاوية حادة تستر قاعدتها الرأس ويمتد طرفاها على المتنين، ولا يلبس هذا النوع سوى الفقراء.

(٥) : هو ما مايعرف لغة باسم (المغرة) طين أحمر، يكثر في بعض قرى الوشم فيتميز سكانها بحمرة ثيابهم.

(٦) : امتدت صداقته له حتى توفي حين سقط من السيارة وهو قاصد بلدة (الدوادمي) ليتولى إدارة مدرستها، بعد نقله من إدارة مدرسة (شقراء) إثر مضايقة حدثت له أثناء عمله، حين كان صاحبنا يتولى إدارة التعليم في نجد سنة ١٣٦٩ هـ .

(٧) : يطلق اسم (الإخوان) في ذالك العهد على (طلبة العلم) وعلى أبناء البادية المستقرين في الهجر لاتجاههم للعبادة والتعليم والاستعداد للجهاد.

(٨) : توفي ـ رحمه الله ـ صغيراً، وكان نادرة في سرعة بديهته، حادَّ الذكاء، وقد أُصيب بعاهة في حلقه، حالت دون نطقه بعض الحروف من مخارجها كحرف الطاء فقد كان ينطقها (قافاً) فيقول في رطب (رقب) وأخوال هذا الفتى الباهليون أمراء الدرعية الآن.

(٩) : الريحاني كلمات وضعت موضع حروف الهجاء مثل (الراء من الرياحين)، والسين من السمك والهاء من الهوامّ إلى آخر حروف الهجاء، فبدلاً من أن يستعمل المتكلم حرف السين ينطق اسم حيوان بحري، أو حرف الراء نطق اسم ما يتطيب به أو يشم، أو هاء ـ أتى باسم ما يهم بمهاجمة الإنسان عند إثارته كقول العاميَ يتغزل بمحبوبته وتدعى (سارة) :

أو عَلَى (الرِّبْيَانْ) وقْياسَهْ (الْهَيْلْ) وَ (الْعَبْدَ) اللِّـي وِدٌ عَمّه يبِيْعِـهُ

فالربيان من الأسماك يدل على حرف (س) و (الهيل) ذو رائحة طيبة فهو من الرياحين، يدل على حرف (ر) و (العبد) المملوك من الهوامّ إذا أغْضِبَ، ومن الهوام حرف (هـ) والعامة لا يحسنون قواعد الكتابة الصحيحة ولهذا فقد نطق القائل الاسم ناقصاً (سره) فحذف الألف.

(١٠): كان محمد بن إبراهيم البواردي الشيخ القاضي الظريف ـ رحمه الله ـ مُطَوِّعاً في هجرة (حَنِيذ) عند (العُجْمان) فمرَّ تلك الأيام بمدينة الرياض ومدح سعود بن عبد العزيز ـ الملك سعود ـ رحمه الله ـ بقصيدة أعجب بها (الإخوان) وتناقلوها بينهم منها :

وآملٌ منْكَ ياذَا الْجُودِ رَاحِلَةً فَأَنْتَ تُعْطِي الْجَزِيلاَتِ الْمَثَامِيْنِ

ـ كذا والقافية مكسورة ومنها : (وذِكْرُهُ سَارَ حَتَّى شَاعَ فِي الصِّيْنِ)

وقد استوحى صاحبنا منها ما هجا به صديقيه ـ من حيث الوزن والقافية ـ .

(١١): (محمد الزبيدي) من أكابر خدم الملك عبد العزيز، كان يوليه إمارة الرياض إذا خرج لسفر أو غزوة.

مشايـخ...وإخـوان*

لقـد انضم صاحـبنا إلى حلقتي المبـتدئين فـي التوحـيد والنحـو في (مسجد الشيخ) مع أنه يرى في نفسه أنه يمتاز على أكثرهم بكونه يحفظ القرآن غيباً، وجُلُّهُمْ ممن لا يزال يدرسه نظراً، وهو ـ لولا ما يعتريه من حياء وخجل ـ أثناء القراءة أو الإجابة على أسئلة الشيخ ليس بأقلهم فهماً وسُرْعةَ إدراك، ومع ذالك فهو شديدُ الرغبة، قويُّ الحرص على الاستزادة من المعرفة، بدرجة تدفعه إلى الانضمام في اجتماعات من هم أكبر منه سنّاً، وأعلى مستوى في الدراسة أثناء المذاكرة، محاولاً الاشتراك فيها، وقد يجد في ذالك حرجاً، أو مضايقة من بعض الطلبة، بسبب مظهره الزَّرِيء، ولتعرضه في بعض الأحيان لما لا يفهمه بدافع الرغبة في المشاركة في البحث، إنَّهُ طُلَعَةٌ، يحب أن يعرف ما يدور حوله الحديث، أو يقع عليه بصره، وقد يتعرض للبحث فيما لا يعنيه، ولكن ذالك كله كان من الأسباب التي أزالت من نفسه كثيراً مما علق بها من آثار بيئته الأولى، كالانقباض عن الناس، واستشعار الخجل والحياء عند الاجتماع بهم أو التحدث إليهم، وإن لازمه من آثار ذالك فيما بعد ما أوقعه في بعض المآزق.

لقد عرف أكثرَ الإخوان واختلط بكبارهم، وزامل في حلقات الدراسة بعض من أصبحوا ـ فيما بعد ـ من العلماء والقضاة كعبد الله بن محمد ابن حُمَيْد، وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، وعبد العزيز بن مُسْلِم (ابن سوداء) وإبراهيم بن سليمان، وسعد بن غُرَيْر، وعبد الرحمن بن سعد، وغيرهم.

---

* المجلة العربية، العدد (١٤٠)، رمضان ١٤٠٩هـ / نيسان ١٩٨٩م.

ووجد في دماثة أخلاق الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ وَتَأَلُّفه للطلبة، وعطفه عليهم مَا قوّى رَغْبَتَهُ وزاد حرصه على طلب العلم، والاتصال بالمشائخ الآخرين.

ولقد انضمَّ إلى حلقات تدريس بعض المشايخ، فبدأ بقراءة «الثلاثة الأصول» أول ما بدأ على الشيخ ابن عيَّاف، ولم تكن حلقة تدريسه آنذاك تزيد على خمسة من صغار الطلبة، من بينهم أخوان لعبد الله الحماد الشبيلي، صَغِيْرا السن، وكان ابن عيَّاف، ـ رحمه الله ـ من أرق المدرسين خُلُقاً وألطفهم معاملة لطلبته. لا يؤنبهم على تقصير، ولا يتأثر بما يبدو من هفوات أحدهم، وكان كفيف البصر، أنيق المظهر، تهابُهُ العين لكمال طلعته.

أما الشيخ سعد بن عتيق فإنَّ صاحبنا قد انضم إلى درسه في كتاب «التوحيد» بعد صلاة الظهر، وكان (الإخوان) الدارسون يقاربون العشرة. وكان الشيخُ رَبْعَةً من الرجال، تغلب السمرة على لونه، في صوته خُنَّة، وفي خُلُقه بعض الشدة بالنسبة لطلابه، فلا يعذر من تأخر عن درس، أو لم يُجِدْ حفظه عن ظهر قلب، أو قصَّرَ في الإجابة أثناء إلقاء الأسئلة، وهي أمور قد تضطر صاحبنا ظروفه إلى عدم الاحتراز منها لبعد منزله، ولحداثة عهده بالدراسة مما دفعه إلى الانقطاع عنها، بعد استمرار دام نحو ثلاثة شهور.

وفي كتاب «آداب المشي إلى الصلاة» بدأ صاحبنا القراءة على الشيخ صالح بن عبد العزيز بعد صلاة الظهر، مع أخ يدعى حمد الجنوبي، كفيف البصر، تولى القضاء فيما بعد في بلاد (الخرج).

وللشيخ صالح ـ رحمه الله ـ مَظْهَرٌ مُهَابٌ، أَضْفَى عليه تولّيه

القضاء، وكثرة ما يغشاه من الناس وقاراً و احتراماً، إلا أنه كان مع طلبته ذا نَفْسٍ سَمْحَةٍ، وأخلاق على جانب كبير من الرقة واللطف، فقد يداعبهم ببعض الكلمات الرقيقة، وقد يشاركهم في الضحك، ويذكر صاحبنا أنَّ زميله في الدراسة وكان يكبره سنّاً فيَبدأ بقراءة الدرس قبله، قرأه وفيه جملة تنهى عن مصافحة النساء (إلا عجوز لا تُشْتَهَى) فكسر الهاء قائلاً (لا تشتهي) فقهقه الشيخ وقال : إنها تشتهي مهما بلغت من العمر.

ومَرَّ في درس آخر في وصف حصى الجِمار: (أصغر من البندق وأكبر من الحمص) فسأل الزميل عن الحمص، فكان جواب الشيخ: ما حج أحد من معارفك وأتى لك من مكة بـ(قريض)؟!.

ويذكر صاحبنا أن سيدة من آل الشيخ هي منيرة بنت الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهم الله ـ أوقفت عليه كتاب «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم وكان مخطوطاً، فأعطى أحدَ المشايخ كتاب «الضياء الشارق»، وكان من المطبوعات التي توزع تلك الأيام على طلبة العلم، ولصاحبنا صلة بهذا الشيخ الذي استعار الكتاب، يكثر التردد عليه ليقرأ له بعض الكتب التي يريد حفظها، لأنه كان كفيف البصر، فأخذ منه كتاب «الْعدَة» وبعد أيام رأى الكتاب مع أحد الإخوة الصنعانيين، وقد طُمِسَتْ كتَابةُ الوقف التي في طرته، وقال الأخ الصنعاني: إنه اشتراه من فلان، فشكى صاحبنا «فلاناً» هذا إلى الشيخ صالح لبيعه لكتاب الوقف، ولكن الشيخ صالحاً لم يُبْدِ اهتماماً بالأمر، بل أجاب : قد يكون محتاجاً. إلا أنَّ الشيخ محمد بن إبراهيم

حين علم بذالك من صاحبنا أخذ الكتاب، وأمر من استعاره بإرجاع الثمن إلى صاحبه، ولعل الشيخ صالحاً أراد أن يعالج الأمر بطريقة هادئة، لأنه أجلُّ من أن يجهل حكم بيع الوقف، وكان ـ رحمه الله ـ يتولى القضاء فيحضر إليه أصحاب الدعاوَى في دكانه، إذ كان يتعاطى البيع والشراء، وله دكان في وسط سوق الرياض في ذالك العهد شمال غرب القصر بقربه، وقد يحضر إليه ذوو الدعاوي في بيته، أو في المسجد، وكذا قاضي البادية في الرياض الشيخ سعد بن عتيق، كان يتولى فصل الخصومات في المسجد الجامع، أوقات الضحى أو بعد الصلوات غالباً، فليس في المدينة تلك الأيام أمكنة مخصصة للقضاء (محاكم)، وقد تُحال بعض القضايا عند الاختلاف أو عدم قناعة أحد الخصمين إلى غير القاضيين المذكورين من العلماء.

وكثيراً ما كان علماء الرياض يجتمعون في بيت أحدهم كالشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ، عميد الأسرة وأكبرهم سنًّا، وبعد صلاة الجمعة هناك اجتماع عند الشيخ سليمان بن سحمان يحضره بعض الإخوان، وكان لصاحبنا معرفة به في آخر حياته، ورثاه بعد وفاته ـ حين كان طالبًا في (المعهد السعودي بمكة) وكذا الشيخ محمد بن عبد اللطيف، وكان الشيخ سليمان نحيل الجسم، قصير القامة، أسمر اللون، تغلب عليه الْحدَّةُ أثناء الحديث.

ولعل أحفل مجتمعات الرياض في ذالك العهد (ديوانية[1] الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف)، فقد كان ـ رحمه الله ـ على جانب عظيم من الكرم، وقلَّ أن يقدم المدينة أحد من الوجهاء لا يقوم بإكرامه، وقد بقي بيته مفتوحًا بعد وفاته حيث سار ابنه محمد على طريقة والده.

أما ديوانية الإمام عبد الرحمن [الفيصل] فقد كانت من أشهر مجتمعات الرياض في ذالك العهد، إلا أنها لم تكن خاصة بالعلماء، بل يغشاها الوجهاء من مختلف الطبقات، لما لصاحبها من منزلة اجتماعية تستدعي زيارته، ولهذا فهي تغصُّ بالزائرين صباح أيام الجمع.

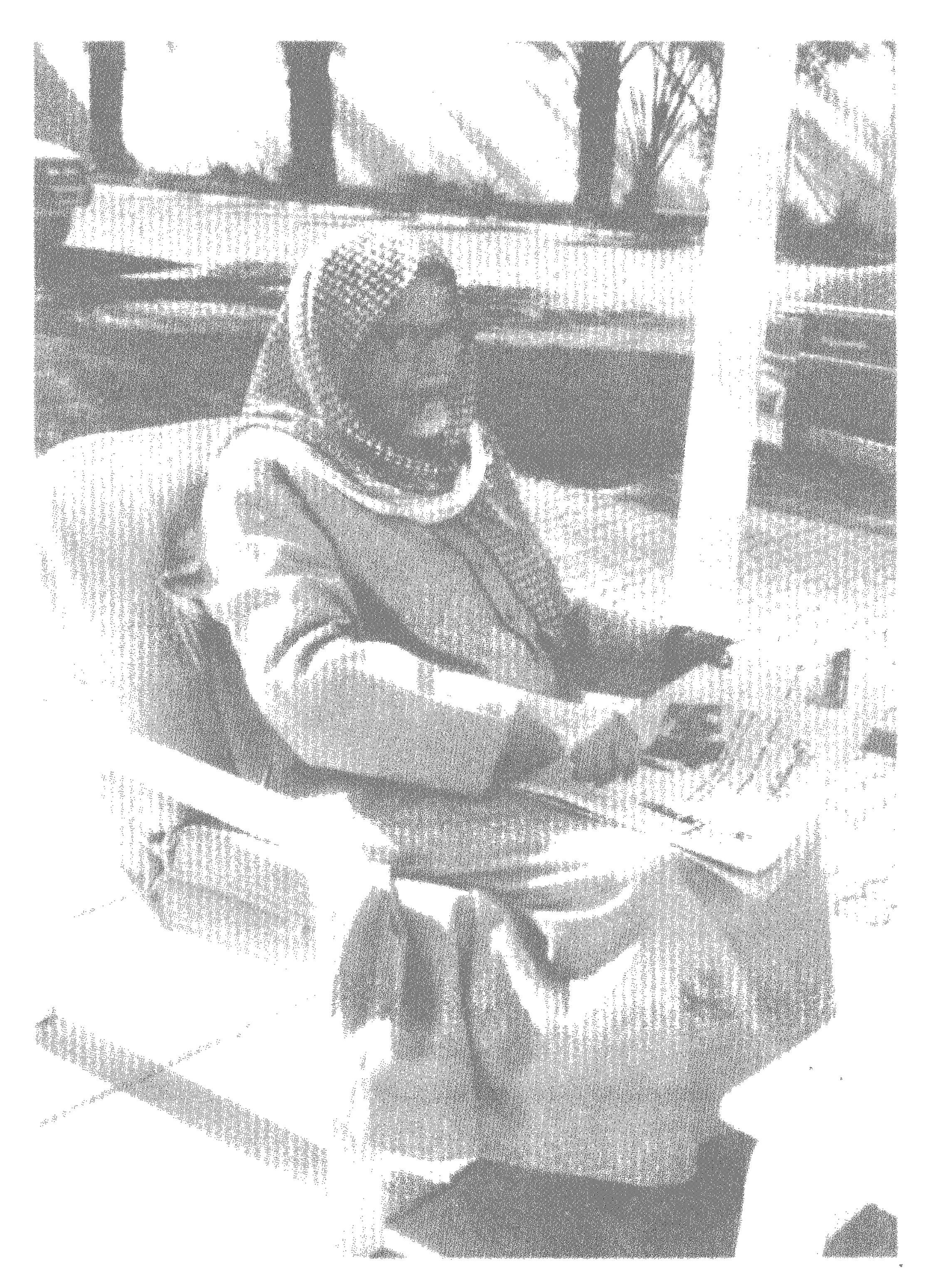
وللعلماء (المشايخ) في يوم الخميس من كل أسبوع ـ اجتماع بالإمام عبد العزيز*، يطلعهم على ما يرغب اطلاعَهُمْ عليه من الأحوال العامة، ويعرض عليهم بعض القضايا، وقد يطلب من أحدهم دراسة قضية بعينها، أو يوعز إليهم بأن يقدموا فتوى أو يكتبوا رسالة في أمر من الأمور المستجدة التي وقع فيها الاخْتلاف بين (الإخوان)[2] وبين وليّ أمرهم، وما أكثرها في تلك الأيام التي كانت نهايتها (وقعة السبلة)!!.

الحواشي:

(١): كلمة (الديوانية) تطلق على المكان المعد لاستقبال الزوار، ويكون واسعًا مستطيلاً، قد أُعِدَّت أواني القهوة في صدره، وهُيِّئَتْ لتقدم للزائرين.

(٢): تقدمت الإشارة إلى أن كلمة (الإخوان) تطلق على المهاجرين من أبناء البادية.

* بدأ لقب الملك يُطلق على الإمام (السلطان) عبدالعزيز بعيد انضواء منطقة الحجاز في الدولة السعودية ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) (ش).



في فناء منزله يقرأ الصحف اليومية كعادته كلَّ صباح

دار أبي هريرة*

وهو اسم يطلقه ظِرَافُ الطلبة على الدار الواقعة شرقيّ (مسجد الشيخ) متصلة به، والتسمية ذات صلة بالخبر المنسوب إلى الصحابي الجليل أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر الدَّوْسِيّ الزهراني، ولا تَصِحّ نسبته إليه: (الصلاة خلف عليٍّ أفضلُ، وهَرِيْسَةُ معاوية أدسم)، فقد كان سكان هذه الدار يتمتعون بقسط من الرفاهية ونعومة العيش، أكثر من الطلبة الآخرين، ولاسيَّما أؤلئك الذين حشرتهم الظروف حَشْراً في بيت (الإخوان).

تقع هذه الدار مجاورة لدور كثير من الوجهاء والأغنياء كدار الشيخ محمد ابن إبراهيم، ودار عبد الله بن متعب بن رشيد ـ آخر حكام إقليم حائل في العهد الرَّشِيْدِي ـ وغيرهما ممن لا ينسون جيرانهم من الطلبة بما زاد عن حاجتهم من الطعام، ومن بين سكانها عدد من كبار الطلبة ذوي صلة بالأمراء وسيدات القصر، ومن ذوي المخصصات الشهرية الوافرة بالنسبة لغيرهم، لهذا فليس من المستغرب مشاهدة كثير من الفقراء مجتمعين بقرب باب تلك الدار في ترقب وجبات الطعام صباحاً ومساء.

لا أدري كيف تَمَّت المعرفة بيني وبين أحد الإخوة الذين هم أرفع مستوى من حيث المعرفة والتحصيل مما أتصف به، إلاَّ أن إتقاني للكتابة كان من أقوى الأسباب لإيجاد صلة متينة بيني وبين اؤلئك الطلبة، ولعل أول مرة كانت بواسطة عبد الله بن نَصْبَان الذي كنت أتولى

* المجلة العربية، العدد (١٤١)، شوال ١٤٠٩هـ / أيار ١٩٨٩م.

نسخ نصائح يدفع لي أجرة نسخها، ويقوم بتوزيعها، وكان من بين رُوَّاد تلك الدار إبراهيم بن خُنَيْزَان، وكان أتقن مني كتابة وأجمل خطا، إلاَّ أنه بلغ منزلة من التحصيل أهلته ليرشَّح قاضياً فترفع عن مهنة النسخ التي تميَّز بها في ذالك العهد، وقد تفرد بها في بلدة الرياض عبد الله ابن إبراهيم الربيعي ـ من أهل عنيزة ـ وما كان حسن الكتابة ولكنه كان سريعًا، وكان خطه واضحًا.

من سكان تلك الدار ـ وما من سكانها إلاَّ من تأهل للقضاء إلا القليل ـ إبراهيم بن سليمان من أهل حريملاء، ويُعَدُّ من كبار طلبة الشيخ محمد ـ إن لم يكن أعلاهم منزلة في العلم في تلك الأيام، وقد رُشِّح للقضاء مراراً فرفض، متعلِّلاً بضعف صحته، وكان صادقاً فهو ضعيف البنية، ناحل الجسم، كفيف البصر، لا يكاد يُسْمَعُ صوته حين يتحدث، وكان على جانب عظيم من التواضع، ومن أبرز صفاته الهدوء والسكينة بحيث لا يشعر المرء بوجوده في المكان، وكان يتولى إمامة إحدى سيدات القصر في صلاة التراويح في شهر رمضان، ويقرأ حزْباً من القرآن بعد صلاة المغرب في غير ذالك الشهر، وكانت منزلته لدى شيخه لا يُساميها منزلة، ولهذا كان يُجِلُّه، ويحقق رغباته.

ومنهم عبد العزيز بن مُسْلم ـ ويعرف بابن سوداء ـ من بلدة الزلفي، تجاوز مرحلة الدراسة، وأصبح معدوداً من القضاة، ويمتاز بجمال الصوت في قراءة القرآن، بحيث إذا رفع صوته في المسجد أَنْصتَ من فيه لاستماع قراءته، وكان يتعاطى نَظْمَ الشعر، وراجت له في الأيام الأخيرة قصيدة قالها في وقعة السبلة (٢٠ شوال ١٣٤٧هـ) أثنى فيها على شجاعة أهل الرياض، وأوصى الإمام بتخصيصهم بالإكرام،

فأصبحت تتلى في المجالس، وتتناقل بالنسخ، منها قوله:

وأَكْرِمْ بَنِي الأَحْرَارِ مِنْ سَاكِنِي الْقُرى   تَجِدْهُمْ إذَا تَحْتَـاجُهُمْ فـي النَّوَائِبِ
ولا سِيَّما أهـلُ الـرِّيَاضِ فَإنَّـهُمْ   هُـمُ جُنْدُكَ الأَدْنَـوْنَ يَـوْمَ التَّنَـادُبِ

ومنهم سعد بن غُـرَير ـ من بلدة الحلوة، بمنطقة حوطة بني تميم، ومن أبرز صفاته سعةُ أُفُقه، بخلاف ما عليه كثير من طلبة العلم ممن عرفتهم تلك الأيام من شدة الانقباض، مع تمتعه بروح مرحة على ما يبدو في مظهره من وقار، ومراعاة للتأنق والاحتشام، وهو ممن أكمل الدراسة على الشيخ، وأصبح من الطلبة الكبار، الذين يُمرُّون[1] عليه في المطولات، وكان قد أُرْسِلَ إلى إحدى الهُجَر واعظاً ومرشداً، ولكنه عاد سريعًا، وكان يقرأ على الشيخ في كتاب «بداية المجتهد» في الفقه لابن رشد الحفيد، الفيلسوف المعروف.

ويتردد على الدار ـ ممن ليس ساكنًا فيها ـ سعد الرِّفيعة، من جماعة ابن غُرَيْر، ومن صغار طلبة العلم، وكان يقوم بتدريس الأمير سعود بن محمد بن عبد العزيز الكبير ـ من الأميرة منيرة بنت عبد الرحمن الفيصل أخت الإمام عبد العزيز ـ وسعد هذا شاب أنيق الشكل والملبس والسلوك، بحيث كان يحلو لمداعبيه أن ينسبوا إليه أنه لا يسير في القمراء ليلاً إلا مستعملاً المظلة (الشمسية) لتحجب عنه أشعة القمر لئلا تؤثر في بياض وجهه !! على ما يروي صاحبهُ ابنُ غُرَير الذي كثيراً ما يعابثه حين يسمعه منتسباً إلى بلدته (حوطة بني تميم) فيضيف: (من الْيِيرْان، لا تَيْهَلْ) ! أي من الجيران، لا تَجْهَل، على لهجة سكان تلك البلدة من إبدال الجيم ياءً، وكان سعد هذا لصلته بالأمير يقع في يده كثير من الكتب، ومنها ما كان قليل الانتشار بين الطلبة، إما لندرته، وإمّا للتحرج من اقتنائه، وليس لدى

سعد الرفيعة من سعة المعرفة ما يمكنه من التمييز بين ما يُحْضَرُ من تلك الكتب ولكن سميُّهُ ابنَ غُرَيْر كان يهوى الاطلاع والقراءة، ولا يرى غضاضة في مطالعة أيِّ كتابٍ رآه، بل كان يشارك الحضور في إسماعهم الطريفَ الغريبَ مما يقع عليه بصره فيما يطالع من الكتب، ومنها ما لا يسوغ أن يسمعه كلُّ إنسان، وأذكر من بين تلك الكتب «حياة الحيوان» و «المستطرف في كل فنّ مستظرف» وكتاب «الطب» لابن الأزرق، بل كان ابن غرير ـ رحمه الله ـ لا يتورَّعُ حين يمر أثناء مطالعة أي كتاب بكلمة ينبو عنها السمع أو يُسْتَحْيَا من ذكرها من أن يترنَّمَ بها، ولقد كان كثير المطالعة لكتاب «تاج العروس» في اللغة، فكان مما حفظته مما كان يردده الرجز المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَـهُ مِزُخَّـهْ ... يَـزُخُّـهَا ثُـمَّ يَنَامُ الْفَـخَّـةْ

أو :

أَفْلَحَ مَنْ كَانَـتْ لَـهُ قَوْصَرَّهْ ... يَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ يومٍ مَـرَّهْ

ومن سكان تلك الدار بل من ألطف من عرفت من الإخوان خُلُقَا، وأسمحهم نَفْسًا عبد الرحمن بن سعد، من أهل بلدة مَلْهَم، ولقد توطدت الصلة بيني وبينه بحيث كان لا يراني إلا ذهب بي إلى منزله، فأجد جَوًّا آخر يخالف الجوَّ الذي أعيش فيه في (بيت الإخوان) حيث يبدو الجفافُ سِمَةً لكل مظهر من مظاهره، فأخلاق السكان تتميز بطابع الجفاء والخشونة والتنافر، إذ يؤلفون خليطاً من الناس من مختلف البلدان، فيهم الصبي والشيخ الكبير، ومن شدى* طرفاً من العلم، ومن لا يزال يتعلم قراءة الفاتحة، بل بينهم المريض والمعتوه والأعمى، فما كان جمعهم في هذا المنزل قائماً على أساس من الاختيار

* من التعبيرات الأدبية نادرة الاستعمال، بمعنى أخذ وحصّل، وقد وردت مراراً في سوانحه ثم شرحها لاحقاً، لكنه هنا يكتبها بالألف المقصورة. (ش).

والتنسيق، إن الأمر لا يعدو همسة في أُذُنِ الشيخ محمد بن إبراهيم من أحد تلاميذه، بأن فلاناً قدم من بلده، وهو من أهل الخير، والرغبة في طلب العلم، وبحاجة إلى المساعدة على ذلك، فيأمر الشيخُ عليًّا بن خميس بأن ينزله مع الإخوان، وأن يرتب له كأحد المبتدئين ـ نصف قَلّة[٢] تمر وثلاثة أصوع رز ـ وبهذا يَتِمُّ (حَشْرُهُ) في إحدى حجر البيت مع من فيها أيًّا كانوا ومن أي بلد جاءوا، وهكذا اجتمع هذا الخليط المتنافر من الأجناس في هذا المنزل الذي لا يدرك سكانه ضرورة اهتمامهم بالحفاظ على صحتهم بالنظافة، فضلاً عن اهتمامهم بأن تبدُو مساكنهم بخير مما هي عليه من تراكم الأوساخ والروائح الكريهة، بحيث يتحاشى أكثر المارة القرب من (بيت الإخوان)!!

تكاد تكون الدار ملتقى لكبار الطلبة، ولقربها من بيت الشيخ محمد ومن مسجده حيث يجتمع بذوي الصلة به من القضاة والوعاظ وغيرهم، كان أكثرُ أخبار هاؤلاء تُعْرَفُ وتنتشر أول ما تعرف بين سكانها، بل كان أكثر ما يجري في المدينة من أمور عامة يجري التهامس به بينهم قبل غيرهم، ولا تسل عن تَنَطُّسِ بعض من حُرِمُوا نعمة البصر للأخبار، وحِذْقِهِم في إدراك خفاياها، وكان للإشاعات في تلك الأيام من الانتشار ما كان سبباً في إحداث كثير من القلق والبلبلة والاضطراب في النفوس، لقد اشتد الخلاف بين الإمام [عبدالعزيز] وبين (الإخوان)، وكاد الأمر أن يفلت من يَدِ وَلِيِّ الأمر، فقد هاجم اؤلئك حدودَ الأردن، وغزوا سَوَادَ العراق، وتجرأوا على نهب قافلة من تجار أهل القصيم، كانت عائدة من الشام، وقتلوا بعض من فيها[٣].

وهاهو الإمام يتابع إرسال المشايخ إليهم في هُجَرِهِمْ لدعوتهم للانصياع

للحق، وهاهم المشايخ يوالون كتابة الرسائل لإيضاح المسائل التي سببتْ لهم مخالفةَ ولي الأمر، والخروج على إجماع المسلمين، وللتحذير من عاقبة ذالك، ومع كل هذا فلا يزال لبعض الإشاعات المقلقة للنفوس مُرَوِّجُوهَا في تلك الأيام، ولها فرائسُها من الأبرياء، لقد انْسَلَّ من بين الطلبة من أبناء البادية بضعة نفر، انضموا ـ على ما قيل ـ إلى (الإخوان) في هجرة (الغطغط)، ولاكَتِ الألسنةُ أسماء بعض مشاهير أهل مدينة الرياض، وبينهم علماء أجلاء، كعمر بن حسن آل الشيخ، وعبد العزيز بن مَرْشَد، ومحمد الشَّقَري، وأسماء آخرين من القضاة والمرشدين من أهل القصيم وغيرهم ممن نُسب إليه ممالأة الجانب الثاني، أو على الأَقَلّ اتهام المشايخ بالضلوع أو التساهل بالنسبة لموقف وليِّ الأمر، مما اتضح فيما بعد بطلانه بعد انجلاء تلك الْغُمَّة التي غشيت كثيراً من البصائر، فانطمست معالم الطريق القويم عن الإبصار، حتى حلَّت الكارثة ولكنها ـ والله المحمود في كل الأحوال ـ سرعان ما زالت، وزال بزوالها أَثَرُهَا السَّيِّءُ، فعاد الجميع إخوة متحابين متصافين، متعاونين على ما فيه الخير.

الحواشي:

(١) : الإمرار عندهم القراءة بسرعة في إحدى أمهات الكتب الشهيرة، والشيخ يستمع ولا يشرح، إلا إذا مَرَّ القارىء بكلام في حاجة إلى الاستدراك أو بيان المذهب الصحيح فيه.

(٢) : القَلة ـ بالقاف واللام المفتوحتين والأخيرة مشددة ـ كيس للتمر يُسَفُّ من خوص النخيل، وقد تكون القاف مبدلة من الجيم المضمومة (جُلَّة) كما في قول حُميدِ الأرقط :

باتُوا وجُلَّتَنَا الصَّهْبَاءُ بَينَهُمُ ... كأنَّ أظفارَهُمْ فيها السكاكينُ

وأصبحو وَالنَّوىَ عَالي مُعَرَّسِهِمْ ... وليس كُلَّ النوى تلقي المساكِينُ

(٣) : من اؤلئك المقتولين علي الشويهي، والد محمد بن علي الشويهي أحد موظفي وزارة الخارجية الآن.

في (قصر الشيوخ)*

وهو القصر الذي عُرف في الأيام الأخيرة بـ (قصر الحكم)، وكان مَقرَّ الملك منزلاً، ومكاتب، ومجالس استقبال، فقد كان المقصود بكلمة (الشيوخ)**، إذْ كلمة (الملك) لم يشع إطلاقها عليه، وإن كان الخاصَّةُ كالعلماء يسمونه (الإمام)، وبيوت أقاربه تقع بقرب هذا القصر، وأقربها بيت أخيه الأمير محمد بن عبد الرحمن، الواقع شرقه بطرف (الصَّفَاة)، وبجواره بيت الإمام عبد الرحمن. وخلفهما إلى الجنوب بيت الأمير عبد الله بن عبد الرحمن، و(الصَّفَاة) وهي مكان بيع الإبل، ومحل تنفيذ أحكام القتل تَلُبٌّ بالقصر من الجنوب، مستطيلةٌ باستطالته، عند بابيه الجنوبي والغربي، حيث ينيخ الوفود ركابهم فيُستقبلون، وينزلون في أمكنة مخصصة لهم، على مقربة من قصر آخر يقع في الجنوب الشرقي*** من (قصر الشيوخ) ويعرف باسم (الْمُصْمَك)[1] ويستعمل سِجْنًا، وهو أقدم قصر في مدينة الرياض****.

و(قصر الشيوخ) كان مستطيلاً، ممتداً من الغرب إلى الشرق، ويخترق وسطه بابٌ عليه حرس رئيسهم يدعى (الماص) يَنْفُذُ من (الصفاة) إلى جنوب المدينة، محلة (دُخْنَة) وما حولها، وفي الشمال الغربي من القصر يقع سوقُ الرياض، مُمْتَدًّا من الشرق من (الصفاة)[2] حتى جنوب المسجد الجامع. حيث توجد مقبرةٌ عُرِفَتْ فيما بعد باسم (الْمُقيبرة) وشملها

---

* المجلة العربية، العدد (١٤٢)، ذو القعدة، ١٤٠٩هـ / حزيران ١٩٨٩م.

** يروى أن كلمة (الشيوخ) قديمة، وربما عادت إلى عهد القرامطة. (ش).

*** لعله الشمال الشرقي. (ش).

**** ألَّف عبدالرحمن بن سليمان الرويشد كتاباً عن قصر الحكم وتاريخه، ويتضمن بحثاً عن المصمك (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م). (ش).

السوق بعد اتِّساعه وقد شاهدت آثارَ القبور فيها ، وشرقها ـ فيما بينها وبين القصر ـ بيت كبير يعرف ببيت (العائذي) ، وهو حَمد بن ناصر الذي تولى إِمارةَ الرياض فترة قصيرة في أول الحكم الأجنبي بعد سقوط الدرعية سنة ١٢٣٣هـ* ، ويقع غرب هذا البيت خَنْدَقٌ (حَفْرٌ) يظهر أنه كان قد جُعل لحماية القصر ، ويمتد جسر من قصر الشيوخ إلى المسجد الجامع فوق السوق ، يُؤْتَى منه لصلاة الجمعة ، والقسم الغربي من القصر يضم في أسفله (بيتَ المال) أي مخازن التمر والرز ، يتولاها الشيخ حمد بن فارس ، ومخازنَ الألبسة على اختلاف أنواعها والنقود ، وأمينها شلهوب واسمه محمد بن صالح ، وشرق هذه المخازن حوش واسع متصل بها ، وفي طرفه يقع مسجد القصر . وشرقه (ديوانية القهوة) وبجوارها شمالاً (المطبخ) أما (المضيف) فقسمان (مَضيفُ ابنِ مُسَلِّم) باسم المشرف عليه ، وهو المخصص للحضر ، وهو بجوار المطبخ ، و (مضيف خُرَيْمس) للبادية ، ويقع غرب المضيف الأول ، يفصل بينهما مَمَرٌّ يخترق القصر من الشمال إلى المسجد ، فبيت المال ، ومنه مدخل القصر للوفود وذوي الحاجات ، وفي القسم العلوي من القصر في غربيه تقع المكاتب ، وبجوارها الأمكنة المخصصة لجلوس الملك ، ومنها المجلس الكبير ، أما الجانب الشرقي من هذا القسم ففيه منازل النساء من زوجات وجوار وخادمات .

وتحت جدار القصر الغربي الشمالي سوقٌ للنساء ، يبعن ويشترين فيه ، ويرتاده الرجال لشراء بعض ما يحتاجون من الأطعمة الجاهزة ـ كاللحم المطبوخ والخبز واللبن والزبد ـ وبعض الخضر والأفاويه ، وعلى

* ٩ ذو القعدة ١٢٣٣ هـ (٩ سبتمبر ١٨١٨م) . (ش).

مقربة منه غرب دكاكين السوق الكبير الذي يدعونه الْمَوْسِم يقع (الْمَقْصَبُ) سوق الجزَّارين. وغربه مكان بيع الأعلاف ـ القتّ وقصب الذرة ـ وهناك محلٌّ بيع الغنم وبقية الدواب عَدَا الإبل.

وتقع أغلبُ محلات المدينة (حاراتها) جنوبَ القصر وشرقه، ففي الجنوب الغربي (الْحِلَّة) فَـ(الدُّحْوُ) منها جنوباً، فـ(دُخْنَة) فـ(الْقَرِيّ) شرقاً، وهو أحدث الحارات وأوسعها وجنوب غرب القصر فـ(المريقب) فـ(الجُفْرة) والحلتان الأخيرتان حديثتان.

أما في شمال القصر فأمكنة البيع والشراء (الْمَوْسِمُ) ثم حِلّةُ (الظُّهَيْرة) تصغير ظَهْرة، وهي كَاسْمها مرتفع صَخْري من الأرض، يتصل بـ(الصفاة) من الجنوب، وغربها الْمُعَيْقلية، وفي تلك الجهة بابان من أبواب المدينة، الشمالي (باب الظهيرة) والغربي (باب السُّوَيْلم)، وأشهر الأبواب للمدينة (باب الثميري) في الشرق، و(باب الوُسَيْطَى)[3] في الجنوب، تصْغير وُسْطَى، باسم حائط نخل مشهور هناك، مُجَاور للسور الذي يحيط بالمدينة من جميع جهاتها، وكان هذا السور يُدْعى (حَامِي دهام) نسبة إلى دهام بن دوَّاس أمير الرياض عند نشوء الدولة السعودية، وهو أول من أحاط البلدة بذالك السور، أثناء حروبه مع تلك الدولة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، وجُدِّدَ في عهود مختلفة، وكان مَبْنِيًّا باللبن والطين، وفي مَدْخَل أبواب البلدة أبراجٌ مربعة مرتفعة، وفي أعاليها منافذُ يُبْصَرُ منها القادمون على بُعْدٍ، تدعى (مزاغيل)[4].

وحدائق النخيل كانت تحيط بالمدينة من جميع جهاتها، والقادم إليها يُشْعِرُهُ بقربها سماعُ أَنِينِ السواقي [السواني] من مسافة بعيدة، إذْ يُهَيَّأُ مِحْوَرُ الْمَحَالَةِ بطريقة تحدث له صريراً مرتفعاً، ويُسْنَى على

الحمير بخلاف ما يجري في البلاد الأخرى من السَّنْيِ على الثِّيران، وعلى الإبل، وتُعْلَفُ السواني التمر بكثرة[٥].

وتكاد تكون مدينة الرياض مستطيلة تمتد غرباً من بابي السُّوَيْلم والمَذْبَحِ، إلى بابي القَرِيِّ والشُمَيْرِي شرقاً، وشمالاً من باب الظُّهَيْرة حتى باب الوُسَيْطَى جنوباً، ولا تتجاوز ذالك إلا بما هو خارج سورها من بيوت قليلة داخل حدائق النخيل، ولا تزيد المسافة في كل جهة من جهاتها الأربع على مسير ربع ساعة على الأقدام من (الصفاة)، وكثيراً ما كان الناس يخرجون إلى الأرض البراح لقضاء الحاجة، مع وجود مراحيض في البيوت الكبيرة ـ شطَّ الاستطراد عن المراد ـ.

وفي القصر صِبْيَةٌ وشبابٌ ينمون ويتكاثرون، من أبناء الموالي والخدم المقيمين داخله، أو العاملين فيه أثناء النهار. يتخذون من ممراته وطرقه مجالاً لعبثهم ولعبهم، فيحدثون قلقاً وإزعاجاً لراحة السكان، أو بعض المارة، بحيث إن (الإمام) أحَسَّ بذلك وهو سائر إلى مجلسه الكبير، فدعا (ابن مُسَلَّمٍ) المنوط به الإشراف على شؤون القصر، وأمره بتهيئة مكان يجمع فيه اؤلئك الصبية، وأن يذهب للشيخ محمد ابن إبراهيم ليعين مدرسين لتعليمهم القراءة والكتابة.

كان صاحبُنا ممن عرف بين (الإخوان) بحفظ القرآن، وبإجادة النسخ للرسائل والنصائح، ودعاء ختم القرآن، حتى بلغ به الأمر أن اتجه إلى هذا العمل، ولا يزال يذكر أن رجلاً كان ذا صلة بإحدى فضليات نساء القصر ممن يرغبن في فعل الإحسان سِرّاً، يصلي بها ذالك الرجل ـ وكان كفيفاً ـ التراويح، ويقرأ في بيتها القرآن، فكان يدفع لصاحبنا بعض الأوراق التي يرى في توزيعها فائدة ليقوم بكتابة

عـدد من النسخ منهـا ، وكـان يـدفع له (ربيـه)[٦] عن كل أربع ورقـات ، ويوزع مـا ينسخ على من يتوسـم فيـه الرغبـة في الاستفادة منه ، إنه أحد كبـار الطلبـة عبـد الله بـن نَصْبَـان ، إمام مـسجـد الإمام تـركي ، الواقع جنوب قصر (المُصْمَك) بينه وبين الشارع المُؤَدِّي إلى باب الثُّميري ، وكان الذين يحسنون الخط بدرجة تؤهلهـم للاشتغال بالنسخ قليلين بل لا يتـجـاوزون عـدد الأصابع ، كان من أشهـرهم عبـد الله بن إبـراهيم الرَّبِيـعي ، من أهل عُنَيـزة ، وقـد تجرَّد لهذا العمل ، فكان ينسخ الكتب التي يراد طبعها من مؤلفات المشايخ في تلك الأيام ، ومن غيـرها من الكتب القديمة ، التي كثر نشرها أولاً في الهند ، ثم في (مطبعة المنار) بمصر ، وكان صاحبنا ذَا معرفة بالرَّبِيعي فقد كان بيتـه مجاوراً لـ (بيت الإخوان) ، وكـان يعجب بجلده وصبـره على مواصلة الكتابة ، إذ كـان يتمدَّدُ فوق الأرض ، ويجعل ما يريد نسخه في كرسيٍّ أمامه ، وعلى يمينه الورق الذي يكتب فيـه والدواة ، وما كـانَ حسنَ الخط ، ولكنه سريع الكتابة وكان الشيخ سليمان بن سْحمان ممن عُني بالنسخ في أول عمره ، وكذا ابنه صالح ، وإبراهيم بن خُنَيزان ـ من الطلبة ـ كان ذا خط حسنٍ ، وهناك ناسخ جميل الكتابة من أهل الخرج يدعى ابن حُوبان ، وما كانت المدراس ـ على قلتها ـ تهتم إلا بتعليم القرآن ، وأشهرها (مدرسة ابن مُفَيْريج) بقرب مسجد الشيخ ، و (مدرسة ابن مُصَيبيح) في حيّ دُخْنَة ، و (مدرسة الخيَّال) في (الظهيرة) على مقربة من الصفاة .

تغيرت حالة صاحبنا منذ أن دعاه الشيخ محمد هو ورجلاً يكبره سناً يدعى عبد الرحمن بن دُعَيْج من أهل مراة ـ و أخبرهما بأنهما سيقومان بتعليم القراءة والكتابة في القصر ، وقال لأحد الحاضرين :

اذهب بهما إلى ابن مُسَلَّمٍ، وقل له: يرتب أمورهما، وإن شاء الله يرى فيهما الخير والبركة، عبد الرحمن يقري القرآن، وحمد يعلم الدين من «ثلاثة الأصول» ويعلم الكتابة.

لقد كان حمدُ ذَا مواصلة للقراءة على المشايخ، ولكنه لم يكن من متقدمي الطلبة، وله من ذكائه ما يرفعه عن مستوى ضعفائهم، إلا أنَّ ما أقبل عليه من حياة جديدة سَتَنْآى به بعيداً عن ذالك الجو الذي ألفه، وعاش حقبة على قصرها كادت لقوة تأثيرها أن توجِّهَهُ وجهة أخرى في حياته، لو استمرَّ يعيشها. إلا أن ذالك لم يقدر له.

الحواشي:

(١): لعل الكلمة مأخوذة من الارتفاع (المسمك) بالسين أي المرفوع كقول الفرزدق:

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنَى لنا   بيْتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ

والسين والصاد يتعاقبان في كثير من الكلمات.

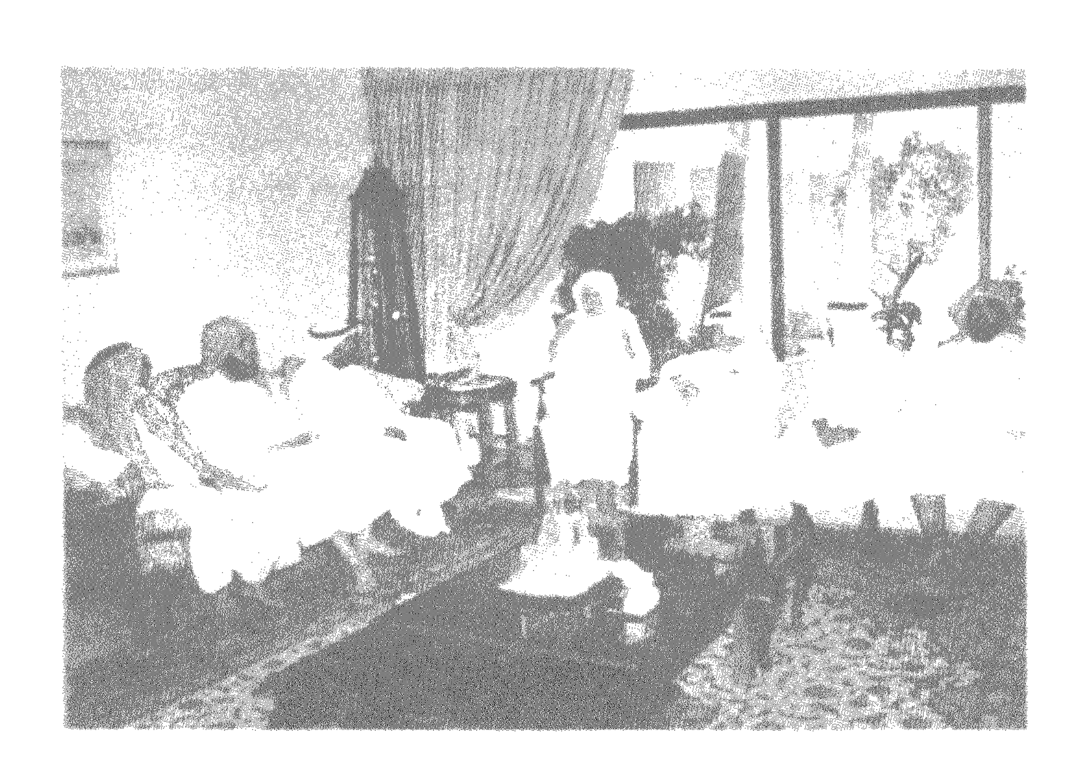
(٢): يظهر أن اسم الصفاة أطلق على الموضع لأنه أرض صخرية، وبعد كثرة إطلاقه على أشهر سوق للإبل في المدينة، صار يطلق على أسواق البيع المماثلة له مثل (سوق الصفاة) في الكويت، فما كانت الأرض هناك صلبة من الصفا كـ(صفاة الرياض).

(٣): كانوا يسمون الباب (دروازة) تَأَثُّراً بما هو شائع في المنطقة الشرقية التي تنتشر فيها اللغة الفارسية، كما يسمون الفاكهة (مِيْوَه) و (منفذ الهواء) (بَاقْدِير) و (الملعقة) خاشوقة ـ وهكذا في كلمات كثيرة.

(٤): لعلها كانت في أول الأمر منافذ لأدوات الرمي كالنبل، ثم أطلق عليها أخيراً هذا الاسم لمشابهتها للثقوب والفتحات المستعملة في أبراج قضاء الحاجة من (الزغولة) الكلمة العامية للخارج من أحد السبيلين.

(٥) : من الطرائف السانحة أن أحد ولاة نجد ـ وكان ذا فلاحة ـ عُيِّنَ أميراً لإحدى الجهات، وما كان الأمراء إلى عهد قريب يتقاضون عن وظائفهم سوى مبلغ من الحب والتمر في العام، يسمى (قاعدة)، فقال هذا الأمير للوالي: ولكن أرجو أن تساويني ـ يعني بالمقرر السنوي ـ بأحد حمير ابن فلان يعني القائم على فلاحة الوالي، ويدور الزمان فأقابل حفيد ذالك الأمير في ذي الحجة سنة ١٣٦٣هـ فيسألني عما قرر لي من مرتب شهري فأخبره أن (٥٠٠) روبية فيقول ضاحكاً ـ : لم تزد على أحد حمير يوسف ياسين في بستانه في الأحساء . فأجيبه : لِي بِجَدِّكَ أُسْوة.

(٦) : كانت (الروبية) الهندية هي النقد الرائج في الرياض؛ إذ واردات الحكومة تحصل من مينائي العُقَيْر وعَيْنَيْن (الجُبيل) على الخليج، وهناك نفوذ شركة الهند الشرقية التي كانت النواة الأولى للاستعمار البريطاني في تلك الجهات، أما في جهات نجد الأخرى كالقصيم والوشم وغيرهما، فالريال المعروف باسم (الفرنساوي) هو الرائج، وهو عملة نمساوية، ضرب في عهد الأمبراطورة (ماريا تريزا) ولعله يحمل اسم زوجها (فرانسوا جوزيف).



الشيخ في إحدى ضحويات يوم الخميس حيث كان ـ رحمه الله ـ يستقبل زواره

مدرسة (المسجد)*

لا أدري ـ حتى الساعة ـ هل كانت الغايةُ تعليمَ اؤلئك الصبية، أو الحيلولةَ دون انتشار صخبهم وضجيجهم أثناء لعبهم، لئلا يُقلْقوا راحةَ سكان القصر، فلم يَبْدُ لدى (ابن مسلّم) كبيرُ اهتمامٍ بالأمر عند مقابلتنا، بل كان فاتراً حتى في السلام علينا، واكتفى حين أبلغه رسولُ الشيخ ما أُمِرَ بإبلاغه أَنْ أَصْغي إلى رجلِ جالس بجواره، هامساً بكلام لم نسمعه، ثم تناول منه ورقةً مَدَّها لصاحبي قائلاً ما معناه: لكل واحد منكما (قَلَّةٌ) تمْرٍ، وستةُ أصواع رز في الشهر، والكسوة والشرهة[١] مع غيركما، وأكلكما من مطبخ ابن عنبر[٢]. ثم التفت إلى رجل واقف بقربه، وأمره بالذهاب بنا إلى عبد الله البرقاوي[٣] الذي طلب منا الحضور صباحاً ـ قبل جلسة (الشيوخ) عند (سويلم)[٤] في (ديوانية القهوة).

لم نجد البرقاوي في صباح اليوم الثاني، ولكن استقبلَنا مولى اسمه (سعيد) وسار بنا إلى المسجد الواقع بقرب الديوانية، فإذا في داخله نحو العشرين بين صبي وشاب، ورجل قد تجاوز الثلاثين من عمره.

اتضح أنَّ (سعيداً) هذا مكلف من البرقاوي بجمع اؤلئك، وبأن يتولى ملاحظتهم أثناء الدراسة لمساعدتنا فيما لو احتجنا إلى تأديب أحدٍ منهم.

ومسجد القصر ـ كغيره من المساجد في ذالك العهد ـ مفروش مقدمه بالحصباء، ويُنَار وقت صلاتي العشاء والفجر بسراج كبير[٥]،

* المجلة العربية، العدد (١٤٣)، ذو الحجة ١٤٠٩هـ / تموز ١٩٨٩م.

وبجواره بينه وبين الحوش الذي تخزن فيه قلال التمر وأكياس الرز (بيت المال) بئر فوقها دَلْوٌ، يستخرج بها الماء، فيصب في (قَرْوٍ)[٦] ذي صنابير. تستعمل للوضوء.

ولا شيء يميز هذا المسجد عن غيره من المساجد.

كان أول عمل لنا، أنا وصاحبي، أن بدأنا نسأل اؤلئك الحاضرين واحداً واحداً: ما اسمك؟ وهل تعرف القراءة والكتابة؟ وأتولى كتابة الأجوبة في ورقة أخذها سعيد لكي يحضر لنا مصاحفَ وأجزاء بعدد الأسماء التي فيها، ولمن سيتوقع حضوره فيما بعد، فلا يزال بعضهم هارباً، ولا بُدَّ من إحضاره بأمر (الشيوخ) ـ على ما يقول ـ.

تربَّع صاحبي فوق الحصباء في ركن من أركان مقدمة المسجد، مُدْنِياً إليه كبار السن من اؤلئك المجتمعين فيه، وأمرني بالجلوس على مقربة منه، وصرفَ إليَّ عدداً من الصبية الصغار للاستماع إلى ما يحفظون من سور القرآن القصيرة، ولتلقينهم (دعاءَ الاستفتاح) و (دعاء التشهد)، وما لبث (سعيد) أن أتى يحمل مجموعة من المصاحف، ومن (أجزاء عمّ) التي في أولها طريقة تعليم الهجاء المعروفة باسم (القاعدة البغدادية) فوضعها مع رزمة من الورق وعدد من الأقلام، ـ المراسم ـ أمام صاحبي، وذهب للبحث عمن تخلف من الصبية في بيوت أهلهم، وفي أمكنة لهوهم ولعبهم، ولم يغب طويلاً، إذْ وقتُ الغداء قد أَزِفَ، وما علم اؤلئك الجالسون بين أيدينا حتى تطايروا، وقد علا صخبهم وارتفعت أصواتهم، وغَصَّتْ (سرحة[٧] المسجد) بعدد منهم، يحاولون إثارة (المطوع)[٨] بتقليد صوته، وتمثيل مظهره، وجَرِّ عباءته

التي كان جالساً على طرفها، فوق الحصباء، وأخذ العصا من يده وطرحها بعيداً عنه، فَأُفْلِتَ الزمام من يد (سعيد)، ولم يستطع سوى إخراج من بقي منهم في المسجد.

عاد كل واحد منا إلى منزله بعد أن اتفقنا مع سعيد على الاكتفاء بالحضور صباحاً من الساعة الثانية [بالتوقيت الغروبي السائد آنذاك] حتى (فَزَّة الشيوخ)[٩].

لم يَثِرْ ما حدث بالأمس لصاحبي كَبِيرَ اهتمام، بل لم يَبْدُ عليه أثناء ذالك انفعال أو تأثر، وها هو في الصباح لم يزد على تكرار كلمة (ياشياطين)، وحين يقع بصره على أحد شارك في ذالك العبث يشير إليه: (تعال ياشويطين)، ويكتفي بِلَيِّ أُذُنِه حتى يصرخَ مُتَظَاهِراً بالألم، وما به ألم، وعندما طلب سعيد كتابة أسماء اؤلئك (الشياطين) في ورقة لتأديبهم أبى ـ مكرراً ـ : يهديهم الله! يهديهم الله! كان صاحبي ربَّ أُسْرَةٍ في قريته هو عائلها، وما كان من الميسور لمثله الحصول على عمله، ولهذا فهو لا يريد أن يثير حوله زوابع، وهو لا يزال في أول الطريق، والمستشرفون لما يقوم به من أمثاله كثيرون، فهو بحاجة إلى استشعار الراحة والاستقرار، إنَّهُ في مثل أبي سناًّ، ولهذا فهو يفرض عليَّ من احترامه ما يَعْتَبِرُنِي به تابعاً له، وهذا مما بدأ يضايقني في عملٍ لم أَرَ من الحوافز ما يقوي رغبتي فيه، كما أنني أحسست بشيءٍ من الضيق بمخالطة جنس من البشر لا عهد لي بمخالطته، إنه مزيج من الناس، جنساً ولوناً ولغةً، يتكون أكثره من أبناء الموالي ممن يتكلم بلغات مختلفة، فيها الحبشي والصومالي والتكروري والعربي الذي لا يُفْهَمُ أكثره، ولكنني أحسست أن هاؤلاء كانوا أكثر لصوقاً بي، وميلاً إليَّ من صاحبي، ولعل لتقارب السن أثراً في ذلك.

لقد سار العمل هادئاً، أتولّى تلقين بعض الصّغار جماعةً أدعية الصلوات، وسوراً قِصاراً، وأُعَلِّمُ آخرين النطق بالحروف الهجائية مع تعرف صورها في الأجزاء التي بين أيديهم، وقد أكتب بعض الأسماء في أوراق بصورة واضحة لمن أتوسم فيه الفهم، فيثير هذا اعتراض صاحبي فيأمرني أن لا أتَعَدّى المكتوب في الجزء، أما هو فيجتمع حوله الكبار، حيث يقرئهم في المصاحف مجتمعين إحدى السور، بادئاً من آخر القرآن، ويكرر قراءة السورة آيةً آيةً فيكررونها بعده، حتى يحس أن أغلبهم يستطيع قراءتها، فينتقل إلى أخرى، ولكنه قد يعود في اليوم الثاني إلى ما تجاوز من السور، إذْ يتضح له عدمُ حفظها، وقَلَّ من بينهم من يتقن تهجئة الكلمات المكتوبة، وإنْ كان منهم من أدرك طرفاً من ذالك ممن تردد مع مولاه على إحدى المدراس، وحين يرى من أحد من أقوم بتعليمه رغبةً في الاستفادة مني، يصرفه عني ويبعث إلي بغيره، وما كان يقابلني حين أُبْدِي شيئاً من التَّذَمُّرِ من فعله بأكثر من جملة: (الله يهديك!! أنت واحد من عيالي وأنا أبخص[١٠] منك) فأتقبل تصرفاته مرغماً.

هناك أمرٌ كان له أكبر الأثر في استمراري في العمل، ففي صباح يوم من الأيام قال مولى لإحدى سيدات القصر يدعى (خير الله) لصاحبي: عمتي[١١] تقول لك: هات ورقاً، وتعال معي، ولكنه لا يحسن الكتابة، فماذا يفعل؟، قال: بعد انتهاء الدراسة يروح معك حمد، ولكن المولى أكَّدَ أن عمته قد أمرتْ بالحضور الآن، فما كان منه إلا أَنْ أمَرَ حمداً بالذهاب مع المولى، وأن لا يتأخر أكثر من نصف ساعة، غَيْرَ أن كتابة ما رغبت السيدة كتابته استغرقت الوقت كله،

بحيث حضر (سعيد) فأدرك ذالك، فكان هو المدافع، لأن عمل (العمة) مقدم على غيره.

لم يكن ما جرى مُتَنَفَّساً لصاحبنا من سيطرة زميله في العمل فحسب بل لقد أكرمته (العمة) بحلة كاملة من اللباس، وبحفنة من النقود، لا عهد له بالحصول على مثلها، وأمرتْ مولاها بأن لا يُحْضِرَ غيره حين تحتاج كاتباً، وهكذا كان حتى أصبح يجد في بيت تلك السيدة الكريمة من العطف والحنو من كل من فيه ما أزال من نفسه ما كان يُحسُّ به من ضيق، حتى (طباخ القصر) ابن عنبر ـ وقد أبلغه مولى السيدة توصيتها بإكرام (المطوع)، كان يختصه دائماً بما يكرمه به، ويقدمه على غيره، وما كانت الحاجة إليه في مثل ذالك العمل بأكثر من مرة أو اثنتين في الأسبوع، مع عدم اقتصاره في بعض الأوقات على الكتابة (للعمة)، بل كان يقوم بالكتابة لمن كان معها من نسوة، وهو في كل مرة لا يعدم ما يكرم به ولو قليلاً مما به يزداد إلفه لسكان ذالك البيت بازدياد تردده عليه، ويظهر أن زميله في العمل رأى في ذالك ما يُخْلي له الجو ـ ولو بعض الوقت ـ فيشعر غيره بتفرده في العمل، فأصبح لا يكترث لغيابه، مع أن ما يقوم به صاحبنا منه أبرز أثرا، فها هو عدد من صغار الصبية أتقنوا معرفة حروف الهجاء، وحفظوا الأدعية التي لقنوها، بل إنَّ بعض الكبار ممن كان يرغب الانضمام إلى اؤلئك الصبية تمكَّنَ من الاستمرار في القراءة، عن معرفةٍ لهجاء الكلمات، لا مُجَرَّدَ تلقين.

ثم جاءت كسوة العيد وشرهته بدون تفضيل واحد على الآخر، مما امتعض منه أحدهما، حيث كان يتوقع أن يحظى ابنه بمثل نصيب زميله

ويميز هو، ولعل لسعيد من الأثر في ذالك ما أقنع موزعي (الكسوة) في القصر بالمساواة بينهما، ولقد كان ذالك الزميل على جانب كبير من طيب القلب، أقرب ما يكون إلى السذاجة، بحيث لا يحمل له من عرفه حق المعرفة كراهية، أو يُكِنُّ له في نفسه إحَنَةً أو حقداً.

الحواشي :

(١) : كان ما هو مقرر للعاملين في القصر من موظفين وخدم، وما يكرم به الوفود لا يتعدى منحاً مختلفة في فترات من العام لا رواتب شهرية مقررة، وتلك المنح هي :

(أ) الكسوة : في العيدين وتختلف باختلاف من تدفع له وأعلاها مشلح (عباءة) من الوبر، وغترة من الصوف الكشميري الناعم المطرز، ودونها : مشلح شمال، وغترة (شماغ) ودون ذالك مشلح حساوي أسود.

(ب) الشرهة : مبلغ من النقود، بقدر من تمنح له مع الكسوة.

(ج) قاعدة سنوية : أي مبلغ محدد مقرر كل عام من نقد أو تمر أو رز، وهذه تصرف من عمال الزكوات، أو من بيت المال في الأحساء، وتسمى ورقتها التي تصدر من الديوان (بروة) وقد تكون هذه الكلمة فارسية.

(٢) : ابن عنبر هو المشرف على مطبخ القصر الخاص أبوه (عنبر) من مشاهير موالي (آل رشيد)، وعاش ابنه ـ ولعله يدعى سليمان، في مدينة حائل وهو أعرج ولكنه كان يتصف بكثير من الرقة والطيبة واللطف، وهو أخ لغاطي العنبر، والد الأديب المعروف رئيس (ديوان المجاهدين) في أواخر القرن الماضي عبد الله الغاطي.

(٣) : عبد الله البرقاوي كان رئيس موالي الملك عبد العزيز ـ وحارسه الخاص ـ من أبرز الرجال قامة، وأسمحهم وجهاً.

(٤) : سويلم هو أحد الموالي وهو المشرف على (القهوة) التي تقدم للملك في مجالسه الخاصة، وهناك مشرف آخر يدعى ابن عبدالواحد يقدم القهوة في المجالس العامة في القصر، وكان لدى (سويلم) رغبة في التعليم ـ مع كبر سنه ـ ولهذا اتفق مع الصديق عبد الله الخيال في تلك الأيام على أن يتولى تعليمه.

(٥) : هو من نوع ما كان يسمى (اتريك) ولعل الكلمة تحريف كلمة (الكتريك)، فقد كان ذا نور ساطع يضاهي لون الكهرباء، له فتيلة خاصة من الحرير ويملأ بالهواء الذي يستمر في نفخ الفتيلة وهي مشتعلة فيسطع نورها.

(٦) : القَرْو : إناء من حجر مستطيل، يحفر جوفه ليتسع لوضع الماء فيه، وتثقب جوانبه ثقوباً ضيقة تدعى (صنابير) ، و(بزابيز) ليخرج منها الماء عند الحاجة إليه، وتسد بخرق معدة لذالك.

(٧) : سرحة المسجد : ساحته المكشوفة في مؤخره.

(٨) : كلمة (المطوع) بفتح الواو مشددة على اسم المفعول من طوع، وفي العارض ينطقون الاسم بكسر الواو على اسم الفاعل (المطَوِّع). والكلمة يقصد بها (المعلم) و(الإمام) في الصلاة، وقد تطلق على من يبدو بمظهر أحدهما، وفي المنطقة الشرقية تطلق الكلمة على أحد الحيوانات (الحمار).

(٩) : فَزَّة الشيوخ : انصرافهم من القصر فيتبعهم من فيه بِسُرْعَة في الانصراف.

(١٠): كلمة (أبخص) معناها أعلم وأعرف، وكذا ما تصرف من (بخص) البخص: العلم والمعرفة هو من أبخص الناس بهذا الأمر : أي من أعمقهم معرفة به، ما عندي بخص به: لا أعرف شيئاً عنه، وهكذا. ولعل الكلمة مأخوذة من التبخص وهو التحديق بالنظر أي المبالغة فيه، وفي الأثر: في قول الله عز وجل: ﴿الله الصمد﴾ لو سكت عنها لتبخص لها الرجال فقالوا : ما صَمَد؟

(١١) عَمَّتي : العَمَّة السيدة، والعمُّ السيد، فالمولى المملوك والخادم يدعوان سيدهما وسيدتهما عَمّاً وعمَّةً.



عدد ١/١ مرفقات

حضرة الفاضل الشيخ حمد الجاسر معاون الابتدائية بجدة

بعد التحية ـ تبلغنا من المقام السامي صدور الامر الملكي رقم ١٤/١/٣٢ وتاريخ ٢٩/١٢/٣٥٧ بالحاقكم بالبعثة العلمية بمصر وامتثالا للامر سيكون الحاقكم في اول العام الدراسي القادم فاستعدوا للسفر في الوقت المذكور ولذا حرر في ١/١/٣٥٨

مدير المعارف العام

صورة خطاب تبليغ الشيخ ـ رحمه الله ـ إلحاقه بالبعثة العلمية بمصر موقَّع من مدير المعارف آنذاك السيد طاهر الدباغ ـ رحمه الله ـ

كادت تكون القاضية !!*

سيدة جليلة القدر، من سيدات (القصر) ما ذكرتها إلا استمطرتُ الرحمات على قبرها، فبسببها نجوتُ من الانتقال إلى العالم الآخر بصورة رهيبة، إنها السيدة (شهيدة) زوجة الملك عبد العزيز ـ رحمهما الله ـ وأم أبنائه أصحاب السمو الملكي الأمراء منصور ومشعل ومتعب.

في آخر عام ١٣٤٧هـ [١٩٢٩م] ـ بلغ الخلاف بين الإمام عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وبين (الإخوان) ذروته، وكان بدأ منذ عام ١٣٤٦هـ بتمرد بعضهم عن الانصياع لأمره، وبإنكارهم عليه بعض الأمور لا حَقَّ لهم في إنكارها، ولكن ذالك الخلاف انحسم بوقعة (السبلة)[1] التي حدثت في ٢٠ شوال من ذالك العام، وكان النصر فيها حليف الإمام، إلا أن شراذم من العصاة لم تستسلم، فصار يتعقبها ببعث السرايا لملاحقتها للقضاء عليها، وفي صبيحة يوم من أيام ذي القعدة من ذالك العام وبينما صاحبنا بين تلاميذه في المسجد، إذ وقف عليه رسول الشيخ محمد [بن إبراهيم]، مُشيْراً بالانفراد به، ليبلغه أن يكون على استعداد للسفر مع إبراهيم بن عَرْفج، الذي كُلِّفَ من الإمام بـ(مهمة) وهو بحاجة إلى (مطوع كاتب) وقد وقع اختيار الشيخ عليه.

لقد كانت صلة صاحبنا بشيخه حسنة، فلم يكن من متقدمي الطلبة الذين يحظون دائماً بالتقريب والرعاية، وتفقد أحوالهم، ولم يكن من الضِّعاف الذين لا يبلغ اهتمام الشيخ البحث عنهم عند فقدانهم أثناء الدروس، إنه يسمع عنه أنه (يقرزم)[2] الشعر، ولابُدَّ أنه سمع ما نظم

* المجلة العربية، العدد (١٤٤)، المحرم ١٤١٠هـ/ آب ١٩٨٩م.

عن وقعة (السبلة)، وقد يكون قبل ذالك علم بأنه حاول رثاء الإمام عبد الرحمن [الفيصل] الذي توفي في ذي الحجة من العام الماضي[٣] *، كما أنه يعرف أنه في جودة الكتابة يمتاز على كثير من الطلبة، ولكنه منذ انصرف إلى التدريس في القصر فترت همته في طلب العلم، أو هكذا تصور الشيخ، وهو تصور له ما يبرره، فالتردُّدُ على القصر، والإحساسُ بنوع من الرفاهية والراحة مما لا عهد له به، والبعدُ عن الاختلاط بمن كان يقوي في نفسه نوازع الجد، وحوافز التنافس والتسابق، كل ذالك له أثر بالغ فيما بدا منه من فتور، على أنَّ في الإحساس برتابة طريقة تدريس المشايخ مما يبعث في النفس السأم، ويورث الملل، وهو ـ مع كل ذالك ـ راض عن نفسه، راغب في عمله، حريص الحرص كله على الاستمرار فيه، ولهذا فلم يكد الدرس ينتهي حتى همس في أذن (خير الله): سأذهب معكم إلى (العمة)، فكان ذالك.

ولمسجد القصر مؤذن لم يَرَ صاحبنا في حياته أحسن سمتاً[٤] منه، ولا أكثر هدوءاً منه، كان كثيراً ما يأتي لصلاة الضحى، ثم يتكىء على إحدى سواري المسجد، يقرأ أو يَدْعُو سرًّا، وقد يستمع إلى قراءة أحد الصبية، فيهمس بإرشاده إلى ما قد يقع منه من خطإٍ، ولكنه حين يشاهد ضوضاء من بعضهم، أو يسمع صوت (المطوع) مرتفعاً على أحدٍ منهم يَنْسَل خارجاً، كان قصيرَ القامة، أسمرَ اللون، بشوش الوجه، نظيفَ اللباس مع رثاثته، وأغربُ صفة له رسخت في الذهن قوة صوته في ترجيع كلمات الأذان، بحيث إنني الآن كلما شاهدت الملك حسيناً يخطب أو سمعت صوته، ذكرت هذا الرجل.

---

* نشر عدد (أم القرى) رقم (١٨٢) وتاريخ ١٣٤٦/١٢/٢٦هـ (١٩٢٨/٦/١٥م) خبر وفاة الإمام عبدالرحمن الفيصل، والد الملك عبدالعزيز (ش).

كان (سعد بن مشعان) محبوباً من كل من في القصر، من الإمام [عبدالعزيز] فمن دونه من خواصه وحاشيته، وكان محلَّ ثقة المحسنين منهم لأمانته وورعه، فكان يتفقد ذوي الحاجة بما يكون تحت يده، بل ربما سعى لمن يتوسم فيه الخير، فلم يخب سعيه.

لما سمعت (العمة) ما أخبرتُها به أمرت مولاها باستدعاء (مشعان) وكذا يسمى، وسرعان ما حضر، فأمرته بالذهاب إلى الإمام، وكان في بيت إحدى نسائه، وما كان (مشعان) يُحْجَب عن دخول أي بيت في القصر، لورعه وأمانته وصلاحه، فأخبر (العمة) بأن الإمام سيصلي العصر في مسجد القصر، ولكنها أمرته بالذهاب إليه الآن، وإخباره بأمر الشيخ، وأن في إمكانه اختيار إنسان غير (المطوع حمد) الذي نحتاج إليه، فذهب ثم عاد ليخبرها بأن الإمامَ أمره بإخبار الشيخ أن يدع صاحبنا في مكانه، وأن يعين (مطوعاً) آخر لابن عرفج، فكان ذالك.

وسار الرجل يقود سريته حتى بلغ منهل القاعية، وباتها ليلة غاب سعدها، إذ في أثنائها (صبَّحَ) عُزَيِّزُ بن فيصل الدويش القوم شرَّ صباح، فلم ينج من القتل سوى أقلهم، ومنهم قائدهم [ابن عرفج] الذي اتخذ من صهوة جواده ملجأً نآى به بعيداً عن مكان المعركة، وكان من بين القتلى (المطوع) الذي كان من سوء طالعه أن وقع اختيار الشيخ عليه، بدل صاحبنا!!

لا أدري ألقلَّة طلبة العلم الذين يحسنون الكتابة أم لغاية أخرى كانت سبباً في صرفي عن الاستمرار في عملي، فلم يمض على مجيىء رسول الشيخ إليَّ في المرة الأولى طويلُ وقتٍ حتى دُعِيتُ لمقابلة الشيخ نفسه في بيته، فكان حديثٌ ذو أثرٍ في النفس بعد استقبال حسن، بقي

في الذهن من معنى ذالك الحديث : أنت طالب علم ، وقد منحك الله من الفهم والذكاء ما يكون خيرَ عون لك في الاستمرار في الطلب ، لتبلغ رتبة أرفع مما أنت فيه من مخالطة أطفال وأشباههم ، وهذا العم الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف سيسافر إلى (عروا)[٥] قاضياً ، وهو بحاجة إلى كاتب سيكون معه كأحد أبنائه ، يستفيد ديناً ودُنْيا ، وقد اخترتك للسفر معه ،و أنا واثق بأنك ستوافق ، لأنني لم أُرِدْ لك إلا ما هو أصلح لك في حياتك ، لم أتمالَكْ نفسي من تقبيل جَبين الشيخ ، والدعاءِ له وإظهار الموافقة ، فأنا ابنه وما اختاره لي ففيه الخير والبركة .

ثم كان الذهاب مع أحد أبناء الشيخ إلى بيت الشيخ عبد الرحمن للسلام عليه ، ومعرفة وقت السفر ، وإعداد ما يلزم له ، وما كان الأمر بالنسبة لي يستلزم استعداداً ، فأنا كما يقولون : (خفيف العلائق)[٦] .

لقد لَجَّ بي التفكير ـ فيما بعد ـ وانتابت قلبي الوساوسُ ، وتعاورته الأوهام ، كيف سارعت إلى الموافقة على أمر لم أتبين مختلف جوانبه ؟ وما الذي أستفيده من الذهاب إلى جهة لا أعرف ماذا ستكون عاقبة أمري فيها ؟ مع إنسان لم يكن له من الشهرة ـ وإن كان قاضياً ـ ما يرغب في مصاحبته ؟ !

ولكن أسأبقى بين اؤلئك الصبية وأشباههم ، ولا عمل لي ـ بل ولا أمل ـ سوى الاستمرار في تلقين بعضهم آيات وأدعية ، وتعليم آخرين الحروف الهجائية ؟ إن عملي أشبه بالمثل المعروف (أَكْلٌ ومرعى ، وقلَّة صنعه) ما أقرب شبهي بمن عناهم الشاعر فؤاد الخطيب ، بقوله :

واعجب لغوغاء إن تشبع فقد رضيت

رضا السوائم أقصى همها العلفُ

لقد عقدت العزم، وصممت على السفر، ولن أعدم واحدة من (الخمس) المعدودة من فوائد السفر[7].

الحواشي:

(١) : سميت الوقعة باسم المكان الذي وقعت فيه، وهي روضة في جانب جبل طويق (عارض اليمامة قديماً) الشمالي على مقربة من بلدة الزُّلفي.

(٢) : قرزم الشعر : ابتدأ بقوله ضعيفاً.

(٣) : كان حاول أن يجاري الشيخ محمد بن عثمان الشاوي الذي رثى الإمام بقصيدة نشرت ذالك الوقت في جريدة، أم القرى، مطلعها :

نعزي إمام المسلمين ورهطه بخير فقيد(؟) غاب تحت الجنادل!

(٤) : السَّمْتُ الخلق ـ كلمة فصيحة ـ وفي الحديث : ما أعلم أحداً أشبه سمتاً وهدياً ودَلاً برسول الله ﷺ من ابن أم عبد ـ أي عبد الله بن مسعود ـ .

(٥) : هو الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولي القضاء في هجرة ساجر، ثم في عروا، وتوفي سنة ١٣٦٦هـ .

عَرْوَا هجرة المُقَطَة من برقاء من عتيبة، شيخهم جهجاه بن بجاد بن حميد أخو سلطان، وهي في إقليم العرض ـ عرض شمام قديماً ـ وعرض القويعية حديثاً، منها يشاهد جبل (ابني شَمَام) المشهور، والذي حُرِّف اسمه الآن إلى (إذني شمالي) ، [انظر حواشي سانحة (الليالي السود) حول عروا أيضاً] .

(٦) : يقال: رجل خفيف العلائق، أي متخفف من كل شيء. ليس له من الشواغل والأعمال والأمور ما يتطلب منه جهداً أو زمناً .

(٧) : في قوله:

تغرب عن الأوطان في طلب العُلى
وسافِرْ فَفِي الأسفارِ خمسُ فوائد
تَفَرُّجُ هَمٍّ، واكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ
وعِلْمٌ وآدابٌ وصُحْبَةُ ماجِدِ

صورة لقصيدة ألقاها أمام نائب الملك الأمير فيصل بن عبدالعزيز
في ٢٥ ربيع الثاني لسنة ١٣٥٣هـ

رحلة ليست مريحة!!*

وغادر صاحبنا الرياض بعد عشاء ليلة من ليالي شهر صفر عام ١٣٤٨هـ [١٩٢٩م] - بعد أن اتفق مع الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ على الحضور إلى بيته في ذالك الوقت، حيث امتطى الشيخ راحلته، وركب صاحبنا مطيةً لنقل الأمتعة مَلْحَاء، صعبة[1]، أمسك بخطامها بيمناه، وقدم له أحد أبناء الشيخ عدداً من المخارف[2] ليبقيها في نخل لهم في (الباطن) حيث تُمْلأُ بالرُّطَب، وتبعث إلى بيتهم، وكان الوقتُ وقتَ خَرْف النخل.

لم يعتد صاحبنا ركوب مثل ذالك النوع من الإبل، ولهذا فعندما هبطت الراحلتان في منحدر (الباطن) أحست المطية بحركة طائرٍ أَفْزَعَتْها فَفَزَّت قافزةً، طارحة راكبها أرضاً بعيداً عنها، وعند نخل الشيخ كان الالتقاء برفقة السفر، فيهم أمير (عَرْوَا) جَهْجَاه بن بجاد ابن حُمَيْد، وبعض قومه، فكان المسير ليلاً، ثم الاستمرار فيه، مروراً بمنهل (تِبْرَاك) فبلدة (القويعية) حتى الوصول إلى الهجرة التي قصدنا.

كان الشيخ قد أقام في تلك الهجرة زمناً، بعد أنْ نُقِل إليها من وظيفة القضاء في هجرة (ساجر) فاتخذ فيها بيتاً فسيحاً، إلا أنَّ الخلاف الذي وقع بين الإخوان وبين الإمام [عبدالعزيز] دفع بكثير من قضاة الهجر إلى مغادرتها، بعد أن تجرأ بعضُ أهلها للتعرض للطعن بأولئك القضاة، واتهامهم بالمداهنة.

---

* المجلة العربية، العدد (١٤٥)، صفر ١٤١٠هـ / أيلول ١٩٨٩م.

وبعد أَنْ تَمَّ القضاء على مُثِيري ذالك الخلاف بوقعة (السبلة)، أمر الإمام بهدم أكبر معقل للإخوان وهو هجرة (الْغُطْغُط) وحبس عدد من زعمائهم، منهم سلطان بن بجاد بن حُميد، أمير تلك الهجرة، التي كان أكثر سكانها من (المقطة) من برقاء من عتيبة، وهؤلاء قد استقر كثير من قومهم في هجرة (عَرْوا) وبعد هَدْمِ منازل من هُدِمت منازلهم في الغطغط التجأوا إلى النزول بقرب قومهم في هجرتهم، وبما حولها من المناهل، ومنها (ماسل).

كان الوصول إلى (عروا) بعد عصر اليوم الثالث من مغادرة الرياض، وكان قاضي بلدة (القويعية)[٣] قد دعا الشيخ ومن معه للغداء، فاستمرَّ المقيل في هذه البلدة دون مواصلة السفر في اليوم الثاني.

وتقرر بين الشيخ وأميره أن يكون إعداد ما يلزم الشيخ من طعام في بيت الأمير، حتى يتم للشيخ الاستقرار بحضور أهله من الرياض.

وحان وقت صلاة المغرب أول يوم من أيام الوصول إلى (عروا) فكان الذهاب إلى المسجد، وعندما فرغ المؤذّنُ من الدعوة لإقامة الصلاة انخزل أكثر المصلين من مواقفهم في الصفوف، واتجهوا لشرقيِّ المسجد حيث كونوا صفوفًا تقدمها أحدهم، ويدعى (شُلَيْويح بن فَلاح) يصلِّي بهم إمامًا، ولم يبق خلف الشيخ سوى نفر قليل لم يكملوا صفاً واحداً، فيهم الأمير جهجاه، وبعض أقاربه.

كان جهجاه من أذكى من عرفت من الرجال، وأرجَحِهِمْ عَقْلاً، مع أنه أميٌّ، بل بدويٌّ بكل ما تُؤَدِّي هذه الكلمة من معنى، إلا في سلاسة أخلاقه، ورقة طباعه. لقد خرج بعد الصلاة، يُسَايِر الشيخ من المسجد

إلى البيت، فأدرك شدَّةَ تأثُّرهِ بما حَدَث، بل أبدى له الشيخ بأنه لا يمكن أن يبقى وسكان الهجرة له كارهون، غير أن (جهجاه) ما زال يُهَوِّنُ الأمر، فأولئك الذين فعلوا ما فعلوا ليسوا أهل (عروا) إنهم ممن ابتلاهم الله بمصائب فليس من بينهم إلا من قُتل أخوه أو قريبه، وهُدِم بيته، فجمعت بينهم وبين أهل (عروا) القرابة وشدَّةُ الحاجة، وسيصلح الله أحوال الجميع، أو يذهب أولئك عنا، ولكن الأَمْرَ يحتاج إلى تَأَنٍّ وصبر، ومعالجة بحكمة.

اثنان في البيت مع الشيخ، كاتبه، وخادم من أهل الرويضة، ذو معرفة قديمة بالشيخ، ويُوشك أن يكون (جهجاه) رابعًا، لكثرة تردده وملازمته للشيخ، كأنه يحاذر وقوع أمر يخشاه.

وفي بيت (جهجاه) سيدة مدبرة عاقلة، هي (شيخة بنت محمد ابن هندي)[٤] سبق أن تزوجها (مُحْسِنُ بن مُقْعِدِ بن هِنْدي بن حُمَيْدٍ) فأتت منه بولد، ثم تزوجها بعده (جهجاه)، كان من أبنائها منه (محمد) قارب الخامسة من عمره في ذالك الوقت، ولجهجاه من غيرها ابن كبير، يدعى (فيحان) كان مضعوفًا[٥].

ولقد كانت (شيخة) وهي سيدةٌ بَرْزَة[٦] ـ حَفِيَّةً بالشيخ، كثيرةَ العناية والاهتمام بمأكله، وبما قد تتحفه به من صنع أهل البادية، وكثيراً ما رغبته في الاستقرار في (عروا) بإحضار أهله من الرياض، وقد تتبسط معه في الحديث فتعرض عليه البحث له عن زوجة (أحسن من زوجته الحضرية). وهي تتخذ من تبسطها معه وسيلة لِتُرَوِّحَ عن نفسه وليذهب ما يستشعره من عدم استقرار، وكذالك يفعل زوجها الأمير (جهجاه) حتى أحسَّ الشيخ بشيء من الاطمئنان والراحة، وفتح باب

بيته للزوار، فكان مجتمعاً لـ(الإخوان) كل ليلة بعد صلاة العشاء، لسماع قراءة في كتابي «التفسير» لابن كثير و«البداية والنهاية» في التاريخ له، تلاوة صاحبنا على شيخه، وما يكاد ينفض ذالك الاجتماع حتى يخيم على أهل ذالك البيت جَوٌّ من التوقع، والإحساس بالرهبة من جَرَّاءِ سُوءِ الإشاعات المثيرة للرعب.

كان من أبرز الصفات التي يتحلَّى بها الشيخ تواضعه وسهولة جانبه، بحيث لا يظهر بمظهر المترفع على غيره أيًّا كان، مما يدفع بمعاشره إلى سرعة الميل إليه ومحبته، حتى ترتفع الكلفة بينهما، وهكذا أصبح مع صاحبيه في المنزل كالأب بين أبنائه.

وكان للإشاعات ما يروجها تلك الأيام، من عدم الاستقرار في بعض جهات البلاد، في عالية نجد حيث تنتشر فروع قبيلة (عُتيبة)، وفي شرقي البلاد هناك قبيلتا (مُطَير) و(العُجْمان)، وحرارة طلب الثأر لمن قُتِل من أبناء البادية بمعركة (السبلة) لا تزال تغلي في الصدور، وها هو الطريق إلى الحجاز أصبح غير آمن، فقد تعرضت للنهب إحدى قوافل السيارات التي تقوم بنقل الطعام وغيره من الحجاز إلى بيت المال في الرياض، ولم يقف الأمر عند حدِّ النَهْب، بل أُحرِقَتْ جميعها في أعلى وادي (الشُّعْلِ) الذي أصبح لا يعرف الآن إلا باسم (شَعِيب اللنسيات)[7].

لقد استولى اليأس على قلوب كثير ممن اصطلى بِأُوَارِ القتل والتشريد في ذالك العام، فكادوا يفقدون الأمل في الحياة، لقد تَخَلَّوْا مختارِيْنَ ـ في أول الأمر ـ عن أهمِّ مقوماتها بتركهم تربية الأنعام واستقرارهم في (الهُجَرِ) قانعين بما ينالون من يسير العيش عن نية

صادقة، في تطلعهم إلى ما هو خير منه في مآلهم، وهاهم الآن يصبحون في حيرة من أمرهم بلغتْ مبلغ الشك في نفوس كثير منهم، حتى تزعزع اليقين من تلك النفوس، فتطلعت إلى حياتها الأولى، حياة الفوضى بدون وازع من عقل أو خلق.

أراد فيصل ـ نائب الملك في الحجاز ـ إرسالَ جباة لزكاة الأنعام من البوادي المنتشرة في العالية [عالية نجد]، وجُلُّ اؤلئك من قبيلة عتيبة، فبعث إلى جهجاه بن حميد ـ وآل حميد هم شيوخ تلك القبيلة ـ ليرسل رَجُلاً من أسرته يرافق رئيس اؤلئك الجباة، علي بن صويلح بن سرْحان الرُّوَيْسي العتيبي[8]، فأرسل أحد أبناء عمه الأقربين، حَشْر بن مُقْعد بن حُمَيد[9]، وسار ابنُ سرحان بين مرابع قومه (العتيبيين) ومناهلهم، مادّاً يده لقبول ما يبذلون من زكوات أنعامهم، متغاضياً ـ بدون اختيار ـ عما يمنعون، فكان له من كل ذالك ما ينطبق عليه المثل: (ما أخذت خيراً، ولا تركت خيراً) إذ كان بعض (حاميها هو حراميها)، وبلعها (عبد العزيز) على مضض، وما أكثر ما فعل مثل ذالك مع (الإخوان) ـ غفر الله للجميع.

وما أسوأها ليلة وأطولها: بات خلالها الشيخ وصاحباه يترقبان فجرها على مضض لم يطرق الكرى جفن أحدهم، فقد أناخ بعد صلاة مغربها عند باب المسجد راكبُ جملٍ (أَملح) ووقف يصرخ بأعلى صوته بكلام لا تزال الذاكرة تحفظ جملاً منه، وتعي جميع معانيه كتبشير (الإخوان) بفكاك أميرهم من الحبس والتفاف (العربان) بقيادة (مقعد الدهانة)[10] فوق (رُكَيَّة سعْدِيَّة) ثم الدعوة لمساعدته ومن معه بالرجال والمال والسلاح و(الزهاب) والركاب، والوقيعة ببذيء القول بـ (الجرملي السحَّار) وبأعوانه.

ومع أن (جهجاه) تظاهر بعدم الاكتراث بما جرى، وحاول أن يخفف من وقعه في نفس الشيخ، أثناء الاجتماع به في بيته لتناول طعام العشاء، إلا أنه لم يؤثر فيما اعترى الشيخ من اضطراب، ولكن ماذا يفعل؟ لقد أمر بإغلاق باب البيت بعد صلاة العشاء، ولكن أحد صاحبيه أوضح له عدم جدوى إغلاقه، وأن تركه مفتوحاً ربما كان أبلغ في إظهار عدم التأثر مما حدث، وأدَلَّ على مقابلة ما سيحدث بالتصدِّي، فكان أن حضر بعض القوم ـ كالعادة ـ وفيهم نزيلٌ بينهم من (الدغالبة) لا من (المقطة) وكان الشيخ يطمئن إليه، فيثق به في إسناد بعض أموره ليقوم بها، فلما أراد الانصراف استبقاه حتى انصرف القوم كلهم، ثم أملى على كاتبه كتاباً إلى (ابن سرحان) وكان فوق منهل (البويضاء) في العالية يخبره بقيام (الدهينة) بحركته، وبتجمهر العربان حوله، ويحذره من أن يُبَاغَتَ من اؤلئك على غِرَّةٍ، ثم دفع الكتاب إلى (الدُّغيلبي) وأمره بالسُّرَى ليلاً لإيصاله بعد أن نفحه بمبلغ من المال، إلا أن هذا لم يغادر (عروا) فوقع لـ(ابن سرحان) ما كان الشيخ يخشاه.

بدأ التحرك من (الرياض) سريعًا للقضاء على حركة (الدهينة)، فسار الأمير خالد بن محمد بن عبد الرحمن إلى بلدة (الشعراء) واستقر هناك، لاستقبال أفواج الغزاة من المدن والقرى الهجر، وما بلغ الشيخَ خبرُ وصولهِ إلى تلك البلدة حتى سارع لاستدعاء جَمَّالٍ من أهل الرُّويضة، يدعى (ابن جبرين)، فكان أن رتب أموره معه للتوجه إلى بلدة (الشعراء) بدون أن يشعر أحد من الناس.

وفي منتصف إحدى الليالي ودع الشيخُ صاحبَيهِ، بعد أن أمر

أحدهما بالعودة إلى قريته القريبة من (عروا) ، وأمر صاحبنا بالبقاء في البيت للمحافظة على مافيه من متاع وأثاث وكتب ، وانتظار ما يؤمر به حيالها ، وانسلَّ مع جَمَّاله ، لم يشعر بهما أحد إلى حيث أُنيْخَتْ راحلتهما في مكان خارج البلدة ، بعيدة عن الأنظار .

الحواشي :

(١) : الملحاء : السمراء اللون، والجمل أملح، والذود منهما هو (المجاهيم) من الجهمة وهي سواد الليل، والناقة البيضاء اللون : عفراء، والجمل أعفر. وذودهما (مغاتير) من (الغترة) وقد تكون تحريف (القترة). والصعبة : التي لم تذلَّل للركوب.

(٢) : المخارف : جمع مخرف، مكاتل (زِبْلاَن) صغيرة جمع زَبيل يجمع فيها الرُّطَب عند جَنْيه (خرْفه) من النخلة.

(٣) : هو الشيخ عبد الله السياري.

(٤) : محمد بن هِنْدي بن حُميد (المتوفي سنة ١٣٣٣هـ) من الكُرْزان من المقطة، شيخ قبيلة عتيبة، بفرعيها في عهده، وفارس البادية في مطلع القرن الماضي ـ انظر عنه «ما رأيت وما سمعت» للزركلي ـ ٢٠٣ ـ ط : مكتبة المعارف في الطائف.

(٥) : أي ضعيف العقل.

(٦) : البرزة : المرأة الجليلة القدر عقلاً وعفافاً، وفي وصف (أم معبد) التي حلب الرسول ﷺ عنزها في وادي قُدَيد : كانت امرأة برزة تحتبي بفناء بيتها ـ أو كما في المثل العامي : (ما في وجهها قامعة).

(٧) : اللنسيات : نوع من السيارات الكبيرة المهيأة لنقل الأشياء الثقيلة، والشعيب : الوادي. و(التعل) اسم قديم لذلك الوادي تكرر ذكره في المؤلفات القديمة.

(٨) : علي هذا هو والد الأستاذ حسين سرحان، الأديب المشهور.

(٩) : حشر هذا هو الذي حاول تهدئة الإخوان حين حدثت المعركة بينهم وبين جنود (المحمل المصري) في منى أثناء حج سنة ١٣٤٤هـ [١٩٢٥م] فأصيب برصاصة سببت قطع يده.

(١٠): الدهانة : الدُّهَيْنة وإبدال الياء ألفاً عن لهجات البادية فيقولون: (فاصل) و (سلامان) في (فيصل) و (سليمان) ، وقد صدر العفو عن الدهينة وعاد إلى البلاد بعد أن أمضى سنين مشرداً، فاستقر مكرماً حتى توفي منذ بضع سنوات.



اليمامة

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر عربي



خطب جلل ...!!

مقالة للشيخ عبدالله بن خميس في وفاة الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ .

مع الإخوان*

و (الإِخوان) هنا ليسوا طلبة العلم الذين انضممت إليهم في مدينة الرياض، وكَرَّرْتُ الحديثَ عنهم، ولكنهم الذين عُرِفْوا بهذا اللقب منذ عشر الأربعين من القرن الماضي، مِمَّنْ هَجَر (البادية) من أبنائها، واتَّخَذَ من (الهُجَرِ) مَحَلَّ إقامةٍ واستقرار، تَفَرُّغًا للعبادة، واستعداداً للجهاد في سبيل الله، حين هيأ لهم الإمام عبد العزيز من وسائل العيش ما يَسُدُّ عَوَزَهُمْ، ومكَّن كلَّ قبيلة من اختيار المكان الملائم لها لتتخذ منه (هجْرَةً) تقيم فيها، وتكون على حالة من التأهُّبِ والاستجابة لدعوة وَليِّ الأمر عند الحاجة.

لقد بدأتْ صلتي بهؤلاء منذ أن صحبتُ الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ[1] في سفره إلى هجرة (عَرْوَا) كاتبًا له، ويظهر أنني كنت مُتَأَثِّرًا بمخالطة أبناء البادية أثناء إقامتي بينهم فترة قصيرة من الزمن خلال عام ١٣٤٦هـ، لهذا تغيَّرَتْ نظرتي إليهم عن نظرة كثيرين من سكان المدن والقرى، ممن ينظر إليهم باعتبارهم مصدرَ إزعاجٍ وقلق في حياة الحاضرة ما وجدوا إلى ذالك سبيلا، وتلك نظرةٌ لا تتعمق في البحث عن الأسباب، والبواعث التي قد تدفع ابنَ البادية إلى تجاوز الحدود فيما يرتكبه من أفعالٍ تُسِيءُ إلى غيره، وكلها ترجع في أساسها إلى الفقر، الذي قرنه المُشَرِّعُ الحكيم بالكفر، «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من الكفر والفقر»، و«كاد الفقر، أن يكون كُفْراً» إنه سبب جميع ما يحدث في هذا العالم من شرور ـ ولا داعي للاستطراد ـ ولكنني أقولها عن قناعة واطمئنان: إنَّ طَبِيعةَ ابنِ البادية أقْرَبُ ما

* المجلة العربية، العدد (١٤٧)، ربيع الثاني ١٤١٠هـ / تشرين الثاني ١٩٨٩م.

تكون إلى الصفاء والنَّقاء، وتَقَبُّلِ دواعي الخير، متى وجدت التوجيهَ الحسنَ الحكيم، إذ للتوجيه ـ إذًا لم يكن حسنًا قائمًا على أسس قوية من الحكمة تتناول جميع جوانب ذالك الْمُوجَّه ـ له مزالقُ في مهاوي الشّر، ولا أُبْعِدُ عن الحقيقة حين أَنْسِبُ أعظمَ أخطاء هذا العُنْصُرِ الْخَيِّرِ من بني قومنا ـ في تلك الفترة من تاريخنا ، وفي غيرها من أحقاب التاريخ ـ إلى سوء التوجيه .

لم يَنْدَفِعْ (جَهْجَاهُ) بن بجَادِ بن حُمَيْد أمير (عَرْوا) ككثير من قومه في مناصرة (فتنة الدُّهَيْنَة)، ولعله غَيْرُ كارهٍ لها، تَوَهُّماً وتطلُّعًا منه بأنها ستكون ذَا أَثَرٍ في إطلاق أخيه سلطان بن بجَادٍ زعيم (الإخوان) في (وقعة السَّبَلَة) هو ومن معه من كبارهم من السجن، فسرعانَ ما أرسل عددًا من نسوة أُسْرَتِهِ (الْحُمَدة)[2] إلى الرياض للوفود على الإمام عبد العزيز، ومن بينهن زوجة سلطان، وابنته وضحاء زوجة فيصل الدَّويش، الذي سُجن مع سلطان فيما بعد، وشيخة بنت محمد بن هنْدي بن حُمَيد، زوجة جهجاه نفسه، ومعهن أفراس من (أصايل)[3] خيلهم المشهورة، وكتب إلى عبدالعزيز إمام المسلمين: أزْعَجَنا بكاءُ حَرِيم سلطان، وجزعهن مما جرى عليه، وطلبن منا السماح لهن ليقابلن والدهن عبدالعزيز، وهو أرحم لهنَّ منَّا.

ولكن عبدالعزيز ليس ممن (يُغْمَزُ كتغماز[4] التِّين) لهذا كان استقبال تلك النسوة فاترًا من كل من حاولن الاتصال به من الإمام فَمَنْ دُونَه، من ذوي الوجاهة عنده، من رجال أو نساء، حتى مَلَلْنَ المقام، وأحسسن أنهن مسجونات، فاضطررن إلى طلب السماح لهن بالعودة، فَسُمِحَ لهن، فَعُدْنَ ومعهن أفراسهن وكتاب من عبدالعزيز إلى جهجاه

كله تقريع وتأنيب : إرسالك حريم الحمدة، ما له معنى، والظاهر أنك تجهل طباعي، وأنك تظن أني مثل (البقرة) إذا جُرَّتْ بأُذُنِها ربَضَتْ، أنا رجل مؤمن، طباعي طباع المؤمن القوي، في الرخاءِ لَيِّنٌ، وفي الشدة قاسٍ، وليست طباعي طباع المنافق، في الرخاء قاسٍ، وفي الشدَّة لَيِّنٌ.

لقد كنت أتولى كتابة رسائل (جهجاه) وأقرأ ما يرد له من كتب، ولعلي لو توقعتُ أنَّ الأمر يبلغ بي ما بلغ من حيث الاهتمام بالحوادث التاريخية لكانت حصيلتي من تلك الرسائل والكتب أوفرَ من هذه اللمحات التي تبدو على صفحة الذاكرة حِيْنًا وتنطمس أحيانًا، إنني لأَتذكَّر تلك الليلة وحركة (الدهينة)[٥] المشؤومة في أول أمرها، والقوم يتناولون القهوة بعد صلاة العشاء في بيت الشيخ، بعد انتهائي من قراءة فصل من كتاب «البداية والنهاية» في التاريخ لابن كثير؛ إذ دخل فَجْأَةً رجلٌ لم ينكر القوم منه سوى مظهره الزِّرِيء، الرأسُ معصوبٌ بقطعة خرقة، والقميص بدون أكمام، والصدر عار، إنه حشر بن مُقْعَد[٦] بن حُمَيْد، الذي بعثه (جهجاه) ليرافق عليَّ بنَ سِرْحان، عاملَ جباية الزكاة من قبل فيصل نائب الملك في الحجاز، لكي تنقاد فروع عتيبة لدفع زكواتها للعامل الذي يرافقه أحد مشايخها (الحمدة).

بادره القوم بالسؤال المعهود: عَسَى ما شر؟!! فكان الجواب: (إلاَّ شَرّ، وعيشٍ مُرّ!!) هجم علينا (الدهينة) ومن معه وكنا فوق (البويضا)[٧] وأخذوا كل ما معنا، ولولا أنني حميت ربعي[٨] ما حال حلالهم دون أرواحهم، ما ذبحوا منا إلا الكاتب (ابن نَفيسة) حالقٌ لحيته، والباقون حميتهم بوجهي وَرحَّلتهم إلى (مُصدَّة)[٩].

وتمضي يُوَيْمَاتٌ وإذا بكتابٍ يصل إلى جهجاه من علي بن صويلح

ابن سِرْحان في مُصدَّة، وفيه الخبر اليقين : حَشْر ـ لا بيض الله وجهه ـ (بغيناه)[١٠] يَحْمينْا من عدونا فإذا هو العدو نفسه، ثم تفصيل ما جرى، وفيه أنَّ حَشْراً أخذ من الجنيهات الذهب آلافاً، ومن الريالات عشرات الآلاف.

وتكون محاورة بين جهجاه وحشر: هَا يَا وَلَدْ مقْعِدْ هات أخبارك!!

ـ ما عندي غير ما أخبرتكم به!

ـ الله لا يبيِّضْ وجهك، سودت (وجيهنا) حتى عند (ربعنا)[١١].

ـ هَاهْ! عندك خبر جديد؟! لا تكثر علي الكلام ياجهجاه (خاشرنا)[١٢] القوم بحلالنا.

ثم ما لبث أن أحضر (مزودتين)[١٣] مملوءتين بالنقود.

علم الإمام بِفَعْلَةِ حشر، ولكنه لم يزد على إجابة كتاب ورد إليه من جهجاه عنها بأكثر من قوله: من طرف حشر ما ضَرَّ إلا نفسه، أما الجنيهات والريالات فأوفوا منها (براوي) الإخوان و (قواعدهم)[١٤] وفرقوا الباقي على المحتاجين منهم.

ما كان (حشر) خاملَ الذكر، ولا مغمورَ القدر، لدى عبد العزيز، فهو من أنبه رجال (الحمدة) صيتاً، وأرفعهم مقاماً، وقد نَدَبَهُ عبدالعزيز أثناء حج سنة ١٣٤٤هـ [١٩٢٥م] حين اشتبك (الإخوان) مع جند (المحمل المصري) في منَى، لتهدئة الحالة، بردع الإخوان، فأصيب برصاصة في يده سببت قطعها من العضُدِ، وكانَ الرَّجُلَ الثاني ـ بعد جهجاه ـ بين جماعته (المقطة)، ولهذا بعثه جهجاه ليرافق ابنَ سِرْحان أثناء جباية الزكاة، فكان ما كان، وكما قال الْمَعَرِيُّ:

وَقَدْ يُخْطِئُ الرَّأْيَ امْرُؤٌ وَهْوَ حَازِمٌ   كَمَا اخْتَلَّ في نَظْم الْقَرِيضِ عَبِيدُ

أكْبرَ أبناءِ جهجاه يدعى (فيحان) في عشر الثلاثين من عمره، من أم توفيت وهو صغير، وهو فتى سَوِيُّ الخَلْقِ صُورةً ومظهراً إلا أنه مضعوف[١٥]، وكان يحفظُ بعضَ السور القصيرة من القرآن، وما كان يجيد القراءة، وقد أَلِفَ المجِيْءَ إليَّ في بيت الشيخ في صباح كل يوم، حيث يتناول القهوة مع غيره من الزوار، وحين يخفُّ المجلسُ يُخْرِجُ من جيبه ورقة كبيرة، ثم يطلب مني ـ بلطف وأدب وتضرع ـ أن أجلس بجانبه، وقد يخرج بي إلى الحوش. ثم يأمرني بأن أكتب من أعلى سطرٍ في الورقة بحيث لا أترك بياضاً، وأن تستمر الكتابة حتى تمتلئَ الصفحات الأربع.

ما كنت ـ في أول الأمر ـ مرتاحًا لتصرفه، بل كنت أُبْدِي له التذمر، ولكنني أحسست أنه أحوجُ ما يكون إلى العطف والشفقة، بحيث كان يبدو بحالةٍ من التأثر من الأسى تستدعي الرفق به، مع ما هو عليه من قوة وصحةٍ وشباب، فصرت أحاول تخفيف ما يعانيه من قلق نفسي، إنه قد وقع في شباك (الغرام) وبمن؟ بابنة عمه؟ ثم ماذا يُملي علي ولا يرتاح حتى تمتليء تلك الورقة الكبيرة به مكتوباً فوقها؟ كلام لا ارتباط بين جُمَله، ولا مفهومَ لأكثر عباراته، تتكرر فيه كلمات تتفق أو تتقارب أواخر حروفها، فيحاول إبرازَهَا شِعْرًا بمد صوته في النطق بها، ويُنَغِّمُ الآهاتِ وألفاظَ الأنينِ والتوجع والتمني، ويسارع بالنطق بها بصورة تجعلني أتخيل بأن الفتى يوشك أن يفغر فاه ليهرسني بأضراسه بين فكيه المرتعشين، مع تركيز نظراته، وكأنه يريد التثبت هل أكتب ما يمليه، وقد يقف متسائلاً: (ياوْخَيِّي وَانْ هَو القلب[١٦]؟!) ظاناً أنَّ كتابته تستلزم رسم صورته.

لَمْ تزل صورةُ (مُصَلح بن خلف الحُويماني) منطبعةً في الذهن، وها هي صورة (فيحان بن جهجاه بن حميد المقاطي) تتراآى من ملامحها الباهتة سِمَاتُ الأسى والحزن، وسيطرةُ العاطفة، وطغيانها، ورقتها، ولكن شتان بين الصورتين!!

الحواشي:

(١) : هو ابن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ الإمام المجدد ـ تقدم ذكره في سانحة (كادت تكون القاضية).

(٢) : الحمدة هم شيوخ قبيلة عتيبة، ينسبون إلى جدهم حميد، ومن أشهرهم محمد بن هندي بن حميد ـ تقدم ذكره ـ ولعل ابتداء مشيختهم في قومهم متقدمة على عهد محمد هذا، فقد جاء في كتاب «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة» الذي قمت بتحقيقه ونشره ـ ص ٢٩٠ ـ في الكلام على حوادث سنة ٩٦٢ هـ ـ: وسألت عن السبب في تأخير الحاج العراقي بالمحمل، فذكر لي أن السبب في ذالك عدم الأمن في الطرقات من عربان آل غزّي، وشخص من مفسدي العربان يدعى ابن عجل، ومن ابن حُمَيْد من عربان نجد، انتهى فهل ابن حميد هذا من (الحمدة) شيوخ عتيبة، وهم لم ينتشروا في نجد في ذالك العهد، فامتد نفوذهم إلى هذ البلاد، أم اسم طابق اسماً، أما ابن عجل فمعروف أنه في تلك السنين شيخ بني لأم الطائيين ذوي النفوذ القوي في نجد.

(٣) : الفرس الأصيل التي تنمى إلى (مربط) من مرابط الخيل القديمة المشهورة أي أصل من أصولها المعروفة بتسلسل آبائها، كـ(الكحيلة) و (العبية) و (الصقلاوي) و (الحمداني) وغيرها، وكما يحفظ العرب أصول أنسابهم، فهم يحفظون أصول خيلهم ولهم مؤلفات مشهورة في ذالك منذ بُدِىء بالتأليف في القرن الثاني الهجري إلى عهدنا الحاضر، ومن آخرها رسالة للأمير عبد الله بن الحسين ـ أمير شرق الأدرن ـ في الموضوع.

(٤) : التين الفاكهة المعروفة. ويميز بين جيده ورَدِيْه، بأدنى غمزة بطرف الأصبع؛ لهذا يقال للرجل القوي: (لا يغمز كتغماز التين ولا يقعقع له بالشِّنَان) أي أنه بعيد الغور ليس ممن تدرك حقيقته.

(٥): مقعد الدهينة من النفعة من برقاء من عتيبة، وحركته التي قام بها سنة ١٣٤٨هـ وقضي عليها في مهدها معروفة، وقد فاء مقعد إلى الحق، وعاد إلى البلاد بعد طول تشرد وتوفي في أول هذا القرن.

(٦) : حشر هذا هو ابن مقعد بن دُحَيم بن هندي، عَمُّهُ محمد بن هندي بن حُميد، وأخوه محسن بن مقعد تزوج شيخة بنت محمد قبل جهجاه، وسيأتي الحديث عن حشر.

(٧) : البويضاء ـ تصغير البيضا، في لهجة أبناء البادية، والبيضاء بلهجة الحاضرة اسم منهل في عالية نجد، بقرب قرية الخاصرة.

(٨) : الربع جماعة من الناس ـ والكلمة فصيحة ـ أي جماعتي وقومي.

(٩) : مصدة : هي هجرة الروسان ـ واحدهم رويس ـ من برقاء من عتيبة، وهم قوم ابن سرحان، والد الأستاذ [الأديب] حسين بن علي بن صويلح بن سرحان. [المشهور بحسين سرحان].

(١٠) : بغيناه : أردناه وطلبنا منه.

(١١) : (وجيهنا) : وجوهنا. والربع جماعة الرجل، ويقصد بهم جهجاه هنا : ابن سرحان وقومه الروسان من برقاء وهم من ربع (الحمدة) إذ مشيختهم تشملهم.

(١٢) : (خاشرنا) : شاركنا. والخشير الشريك في لهجة العامة بدوًا وحضرًا، ونقل صاحب «تاج العروس» عن شيخه عن بعض الفضلاء، قال: بادية الحجاز يستعملون الخشير بمعنى الشريك، قال : ولا أصل له فيما علمنا. قال : شيخنا: هو كما قال. وأضاف صاحب «التاج» قلت : ويمكن أن يكون من خشر إذا شره، إذ كل منهما حريص على الربح في التجارة والفائدة. انتهى ولكن سيرورة استعمال الكلمة وانتشارها بين السكان منذ قرون يدل على وجود أصل لها، وجهله لا يستلزم نفيه.

(١٣) : المزودة : وعاء ينسج من الصوف أو الوبر ليضع فيه المسافر زاده وأمتعته، وهو المزود وجمعه مزاود.

(١٤) : البراوي واحدها (بروة) وهي ورقة يأمر بكتابتها الحاكم إلى أحد جباة أمواله بأن يدفع لحاملها مبلغاً محدداً من النقد، وما أرى الكلمة عربية لكونها تبعث عادة إلى من يتولى الجباية في شرق البلاد وهم في الغالب ذوو صلة ببلاد العجم، أما (القواعد) فمفردها (قاعدة) وهي مقدار من الطعام من قمح أو أرز أو تمر يقرره الحاكم سنوياً لأحد الأمراء أو الوجهاء من الرعية.

(١٥) : المضفوف الضعيف العقل .

(١٦) : (يا وخيي) : يا أخيي ـ تصغير عطف لكلمة (أخي) . (وان هو) : وأين هو ؟

سبيل الدعوة إلى الحق

لصاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز

[illegible]

صورة مقالة بعنوان «سبيل الدعوة إلى الحق» لفضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز نشرت في أول عدد لمجلة اليمامة في ذي الحجة ١٣٧٢هـ وكان فضيلته آنذاك مدرساً في معهد الرياض العلمي .

الليالي السود *

ما كنت لدى الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، تلك الأيام التي قضيناها معاً في هجرة (عروا)[1] كاتباً للشيخ فحسب، من حيث المعاملة بل كان ـ تولى الله مكافأته فأجزل مثوبته ـ يعاملني معاملة أصغر أبنائه عطفاً ورقة وحنواً وإكراماً، حتى أصبحت أحس بأنني أعيش في كنف أب رحيم.

ولقد كانت أياماً بالنسبة إلينا أثناء وجودنا في تلك الهجرة تتخللها فترات تُحْدِث لنا كثيراً من القلق والانزعاج من أنباء الحوادث التي شغلت الناس كلهم، وهي أنباء قل أن يصل إلينا منها سوى ما يثير في نفوسنا عدم الارتياح، فقد نكون الوحيدين اللذين تختلف نظرتهما وتوقعهما ورغبتهما عن جميع ما عليه أهل هذه البلدة من تطلعات، وما في نفوسهم من رغبات، مع ما كان يحوطنا به أميرها جهجاه بن بجاد بن حميد من كرم الضيافة وحسن الرعاية، بحيث كان يحرص دائماً ليسرّي عنا ما نحس به من ضيق، وإن كان يعتلج في نفسه من آثار تلك الحوادث المزعجة بالنسبة إليه أشد مما نقاسيه من جرائها، فقد كانت نظرته إليها في أول الأمر لا تقف عند حد (لم آمر بها ولم تسؤني) بل كان يتوقع هو ومن حوله من أقاربه الأدنين أن يكون لها من الأثر، ما قد تغير نظرة الملك عبد العزيز ـ تغمده الله برحمته ـ نحو اؤلئك الذين أثاروها شعواء في أول الأمر، فكانوا كما قال شاعر تلك الأيام [محمد بن عثيمين][2]:

همُ أشعلوا ناراً فكانوا وقودها وهمْ جردوا سيفاً فكانوا به خدبا

---

* المجلة العربية، العدد (١٤٣)، ذو الحجة ١٤٠٩هـ / تموز ١٩٨٩م.

وها هم قادتهم ـ وبينهم سلطان بن بجاد وأخوه جهجاه ـ يعانون أسوأ حالة يعانيها سجين في (المصمك).

كان يترددعلى (عروا) جمّال من أهل (الرويضة) ـ رويضة العرض ـ يدعى (ابن جبرين) يجلب ما اعتاد الجمَّالون جلبه من المدن مما يحتاجه أهل القرى وأهل الهجر مما لا يوجد لديهم، كالقهوة والأفاويه وبعض الأواني والأقمشة، وكان عندما ينتهي من بيع ما لديه يجد في بيت الشيخ ـ وخادمه من أهل تلك القرية ـ مكاناً لراحته حتى يعود إلى قريته، وما كنا نتنسم بعض ما نرتاح لسماعه من أنباء ما يجري حولنا إلا حينما يأتي، ومنه علمنا أن الأمير خالد بن محمد بن عبد الرحمن قد وصل بلدة (الدوادمي) وخيم هناك ليجتمع إليه غزو أهل نجد، بعد خمود الفتنة التي أثارها (الدهينة) والأحوال هادئة، ولكن اجتماع الغزو تحسب لما قد يحدث.

وما كان الشيخ ملومًا حين أيقظ كاتبه من (غرقة النوم)[٣] أول الليل، في وقت ما اعتاد إيقاظه، ليخبره بعزمه على السفر، مع ابن جبرين تلك الساعة، وليؤكد له بأنه لا يتوقع أن يحدث له سوء ببقائه وحده، لقد عاشها الشيخ أيامًا ما كان ينعم خلالها (براحة نوم أو اطمئنان) بل يبدو ـ في أكثر الأوقات ـ قلقًا مضطرب النفس، وما كان هناك من الأمور المزعجة ظاهرًا ما يدعو إلى أن يختار ذالك الوقت لسفره، ولكنه فعل ذالك مبالغة في الحيطة وشدة التكتم، وكان الجَمَّال قد أناخ بعيره خارج البلدة، ونقل ما يحتاجان إليه في سفرهما، ثم ذهبا وحدهما، وأخفيا وجهة سفرهما.

لقد استولى عليَّ الأرقُ تلك الليلة، وانتابتني الهواجس، فلم

أستطع مغالبتها حتى سمعت أذان الفجر ، وكنت اعتدت أن أصحو كل ليلة قبيل الفجر ، حين يستيقظ الشيخ ليصلي الوتر ، وليوقظ محمداً الخادم لعمل القهوة التي نشترك الثلاثة في تناولها مع قليل من التمر ، قبل الذهاب إلى المسجد ، وبعد الصلاة يحضر جهجاه وبعض الإخوان إلى بيت الشيخ للاستماع إلى فصل من كتاب «البداية والنهاية» في التاريخ لابن كثير ، يسرده الفتى على شيخه سرداً دون توقف أو شرح ، إلا عند التلعثم في القراءة ، أو استشكال بعض الجمل ، فيحاول الشيخ إيضاحها ، وقد يصيخ وينصاع لمشاركة فتاه في بعض الأحيان بل قد يستحسنها ، وتلك خلة من خلال الشيخ الحسنة التي يمتاز بها ، فما كان من أولئك الذين يرون في هذا الأمر غضاضة ، لأنه ـ تغمده الله برضوانه ـ على جانب عظيم من التواضع .

لم يحضر (محمد) لعمل القهوة كعادته ، ويظهر أنه علم بسفر الشيخ ، فقد رأيته في المساء يجمع بعض ما في المجلس من أواني القهوة التي تتخذ عادة للزينة لا للاستعمال ، ويطوي الفرش النفيسة ، ولم أستغرب شيئاً من ذالك إذ كنا نتوقع أن نفاجأ بالسفر في أية لحظة .

ذهبت إلى المسجد كالعادة مبكراً ، ولما تكامل اجتماع المصلين همست في أذن جهجاه بأن الشيخ لن يحضر ، فأمر المؤذن بالإقامة ، وتقدم أحد الإخوان فأم المصلين . وكان أكثرهم ممن يتخلف عن الصلاة خلف الشيخ ، ثم كان الحضور إلى البيت ولكن كان كل شيء فيه قد تغير ، وفي بيت (الأسيود) جار الشيخ كان الاجتماع ، و (أبو جدي) وهذه كنية هذا الجار من (الدغالبة) ليس من (المقطة) أهل (عروا) إلا أن صلته بهم كانت قديمة وقوية ، حتى أصبح معدوداً منهم ، لم يكن

الجار يعرف من حال جاره أكثر مما يعرفه الآخرون، سوى أنه استراب من كثرة تردد (ابن جبرين) أمس على بيت الشيخ، ومن بقائه طوال النهار، وعادته أن يذهب بعد تصريف ما معه إلى قريته القريبة، أما محمد ـ خادم الشيخ ـ فقد عرف منه أنه سيذهب إلى القرية كعادته في كل أسبوع.

الوحدة والفراغ هما المنفذان الواسعان للأوهام القاتلة إلى قلب الإنسان، حتى تُثْخنَه الجراح، فيسقط صريعًا بوخزها وآلامها، لا يقر له قرار، ولا يحس بشيء من متع الحياة، ولا يهنأ بمأكل ولا مشرب، ولا يطمئن بنوم، وإنما تنتابه أثناءه الأحلام المرعبة فتقض مضجعه، فيبقى منهك الجسم، خائر القوى، متبلد الذهن، متبلِّد الرأي، قد اسودَّ العالم كله من حوله، فلا يبصر إلا ظلامًا في ظلام، ولا يتجه وجهة إلا وتتراآى جميع المسالك أمامه مسودة في وجهه، فتستولى عليه الحيرة، وتضيق عليه الأرض بما رحبت.

وهكذا أمضيتها أيامًا، وإن كانت قصيرة، إلا أنها في غاية الشدة والسوء والإرهاق والملَلْ استولى عليَّ فيها اليأس فبقيت فريسة للوهم المرعب، حتى بعد أن أخبرني جهجاه ـ بعد خمسة أيام ـ بأن الشيخ في بلدة (الدوادمي)، وأن الإمام ـ الملك عبد العزيز ـ سيصل إلى الشعراء هذه الأيام، وأضاف بأن (ابن جبرين) سيحضر لنقل أمتعة الشيخ وكتبه، ويظهر أنه أراد الاعتذار إلى جهجاه من سفره المفاجىء، وأنه أخبره بأنه لن يعود إلى (عروا) بل سيسافر إلى الرياض بعد الاستئذان من الإمام، أما أنا ـ على ما يرى جهجاه ـ فيحسن أن أبقى هنا في انتظار ما يأمر به الشيخ و (ويل الشجي من الخلي)[٤]!!

البلاد تسعد وتشقى، كما يشقى ويسعد العباد ـ كما يقال ـ وها هي (عروا) وقد غفت أحقاباً من الدهر إلا في أخيلة مرتادي المواقع والمرابع التي خلد ذكرها الشعر العربي[٥]، تدركها الصحوة التي أدركت العديد من أمثالها من الهجر في عشر الأربعين من هذا القرن (الرابع عشر)، فتصبح مهاجر القبيلة (المقطة) وشيخهم جهجاه بن بجاد بن حميد كـ(الغطغط) هجرتهم الأخرى التي كادت تكون القاعدة الأولى لكل الهجر، برئاسة سلطان بن بجاد بن حميد، وما أنباء الكوارث التي حلت بسكان هذه الهجرة ومن شايعهم منذ وقعة (السبلة) في ٢٠ شوال ١٣٤٧هـ[٦] ـ وما تلاها من قتل وسجن وهدم لتلك الهجرة وتشريد لأهلها بمجهولة، وما حديث كل ذالك بسر، وإن كان مؤلماً ومحزناً، إنه جزء من تاريخ أيام عشناها، جزء من تاريخنا شئنا أم أبينا، رضينا أم كرهنا، فلنتقبله على علاته، فهو ابتلاء من الله لنتخذ منه العظة والعبرة، ولنقابل ما أنعم به علينا ـ بعد ذالك الابتلاء ـ من تآخ وتآلف وتحاب وتصاف بشكر هذه النعمة شكراً يستلزم الحفاظ عليها بكل ما نستطيع من قوة واستمساك بالمُثْل التي تزيدها رسوخاً وثباتاً.

وأين لـ(المقاطي الغطغطي) من ملجأ بعد أن أصبح طريداً شريداً معدماً سوى أخيه (المقاطي) في (عروا)؟!

إن نفس ابن البادية نقية كبيئته التي عاش فيها، حيث لا يبصر إلا سماء صافية، تسطع منها الشمس نهاراً وتزدان بالقمر والنجوم ليلاً، ويعيش في أرض قد تجدب فتبدو على طبيعتها غبراء مقشعرة، ولكن سرعان ما يجودها الغيث فتصبح مروجاً مخضرة، تسر الناظرين،

ولكنه مع صفاء نفسه سريع التأثر كتقلب أحوال طبيعة بلاده، قصير النظرة (أحيني اليوم، وأمتني غداً)، ولهذا كان (الإخوان) في (عروا) من أول من تهافت في (أتون) الفتنة، منذ أن ذر حرنها في هذه الأيام، وما منهم إلا من اصطلى بأوارها إبان اشتعالها قبل بضعة شهور، وهاهم بعد أن منوا بالهزيمة، وأحيط بهم من كل جانب يتراجعون إلى هذه الهجرة البائسة، بل الغارقة بمختلف أنواع البؤس، ولعل من أشدها ما أذهل الناس من الهلع توقعًا لما سيحل بهم من شر بدت بوادره في حشر البادية، فوق مناهلها القريبة من (عروا).

ما كنت راغباً في البقاء وحيداً، ولا مختاراً للاستقرار في هذه البلدة التي مع ما ابتلي به سكانها من محن، لم أر أثناء إقامتي بينهم من لا ينظر إليَّ نظرة احترام وتكريم، ولكن إلى أين أتجه وقد فقدت عملي في الرياض قبل مغادرتها إذ تولاه من قام به، وأنا الآن لا أملك من الدنيا ما يهيىء لي الاستقرار في القرية التي فيها نشأت، وفيها كابدت أنماطاً من الحياة ما كان تذكرها مما يريح النفس ويبعث فيها الرغبة لمعاودة العيش هناك، حتى ما كان مقرراً لي لقاء قيامي بعمل (كاتب قاضي عروا) مما سيصرف من (مأمور بيت المال في الوشم) قال الشيخ بأنه سيوكل من يقبضه مع مخصصه من هناك، وقد يعين الشيخ في بلدة أخرى فيدفعه لكاتبه فيها!

ولك أن تتصور حالة فتى غِر أضناه المرض واليتم في أول حياته، ثم عصره الفقر والاغتراب، لم يتدرع بعد بأهبة من القوة والتجارب تمكنه من خوض غمار الحياة بعزيمة قوية، وها هو بعد أن بدأ يستنشق نسيم الراحة والاطمئنان تُظْلِمُ الدنيا أمامه فجأة، وتنسد مسالكها في وجهه!!

وارحمتاه لمن أصبح غرضاً للوساوس السيئة تتعاوره من كل جانب، وإن لم يكن فتى غض الإهاب!!

الحواشي:

(١): آثرت كتابة هذا الاسم وأمثاله بالألف (عروا) وان خالف القاعدة المعروفة في كتابته، إذ الغاية من الرسم (الإملاء) صيانة اللسان عن الخطأ في النطق، وكتابة الاسم بالياء [الألف المقصورة] (عروى) ومثله (الحزامى) يوقع بالخطأ لكثير ممن يجهل علم الصرف.
و (عروا) من أسماء المواضع القديمة في بلاد العرب ويطلق على موضعين لا يزالان معروفين، أحدهما هَضْبة من جبال (القهر) في أسفل سراة عبيدة، وليس المقصود هنا، والثاني موضع في (العرض) المعروف قديماً بعرض شمام وسواد باهلة وفيه يقول الشاعر القديم:

فلما بدت (عروا) وأجزاع (مأسل) وذو خشب كاد الفؤاد يطير

و(عروا) هذه تتوسط في العرض في وادي (عروان) بمنطقة وصفت قديماً بالعمران بالقرى والنخيل والزروع وحولها تكثر معادن الذهب والفضة، والبلاد قديماً لقبيلة باهلة، وقد درس عمرانها القديم.

(٢): هو الشاعر محمد بن عبد الله بن عثيمين، شاعر الملك عبد العزيز رحمهما الله ـ المتوفي سنة ١٣٦٣هـ [١٩٤٤م] من قصديته في وقعة (السبلة) وهي في ديوانه المطبوع.

(٣): أي حين استغرقت ـ أو غرقت في لجته ـ والجملة مِنْ فصيح العامية.

(٤): الشجي: من أشجاه وآلمه الغم والحزن، والخلي: الفارغ الذي لا هم له.

(٥): تكرر اسم (عروا) الموضعين المذكورين في الشعر العربي القديم، بما لا يتسع المجال لذكره، وفي شعر مزاحم العقيلي وتميم بن أبي بن مقبل العامري وغيرهما نماذج من ذالك أورد بعضها في المؤلفات القديمة.

(٦): هي الوقعة التي حسمت الشقاق بين (الإخوان) وبين الملك عبد العزيز، وقد وقعت بقرب بلدة الزلفي في روضة تدعى السبلة ـ بضم السين المهملة وفتح الباء الموحدة واللام وآخرها هاء ـ في ٢٠ شوال سنة ١٣٤٧هـ [٣١مارس ١٩٢٩م].

بسم الله الرحمن الرحيم



رقم ... ٢٣٤/١٢/١/٣٦

تاريخ .. ٢٥/٣/١٣٧٣

مرفوقات ـــــــــ

حضرة جناب المكرم الأستاذ حمد الجاسر سلمه الله

بعد التحيه : اشير الى مذكرتكم تاريخ ٢٣/ ٣/ ١٣٧٣ بصدد العدد الخاص الذى اصدرتموه مشتركاً مع هيئة ادارة صحيفة اليمامه والذى اعربتم به عن مشاركتكم ابناء الشعب فى ترحمهم بوفاة المغفور له العاهل العظيم وفرحهم بالعهد الجديد وانني اذ ابلغكم شكر جلالة مولاى الملك المعظم على شعوركم الصادق ارجو لكم ولهذه المجله العزيزه دوام الرقى والنجاح . ودمتم ..

رئيس ديوان جلالة الملك

[توقيع]

بارقة أمل.. ولكن*

اعتدت تلك الأيام، بعد تناول طعام الغداء في بيت الأمير جهجاه أن أترقب في منزلي ـ بيت الشيخ ـ من يزورني من (الإخوان) ومنهم من يحلو له التردد علي كل يوم، وما كنت كارهاً لهذا؛ إذ أجد في إشغال فراغ الوقت بالحديث مع من يزورني، أو بكتابة ما يطلب مني كتابته، ما يسّري عن نفسي بعض همومها.

رأى الملك عبد العزيز أن يكون غير بعيد عن مواقع الأحداث الأخيرة، وعن أمكنة انتشار فروع قبيلة (برقا) ومنهم (النفعة) قوم (مقعد الدهينة) وغيرهم من الفروع الأخرى، ممن أصاخ لناعق الشر، وها هم بعد هزيمتهم قد حشروا حشراً حول موارد أنعامهم لـ (خفرهم) ولهذه الكلمة مدلول ذو تأثير سيء في نفوس المشاركين في إثارة الفتنة من أبناء (البادية) أما سكان (الهجر) فقد تجمعوا فيها.

وقدم الملك في ٣٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٨هـ [٣أكتوبر ١٩٢٩م] بلدة (الشعراء) في عالية نجد، وفيها استقر، ليشرف بنفسه على اتخاذ الأمور التي يتطلبها تثبيت الأمن، واستقرار الأحوال في هذه الجهات التي اضطربت أمورها اضطراباً كاد أن يعم أجزاء البلاد كلها.

كان ماجد بن خثيلة[1] من أبرز أهل الغطغط وأنبههم ذكراً، وكان ذا كلمة مسموعة ومكانة رفيعة لا في قومه الأدنين (القمزة) الفرع المعروف من قبيلة (المقطة) فحسب، بل بين الإخوان كلهم على اختلاف قبائلهم وتفرق (هجرهم)، فقد كان عند اشتداد الخلاف

---

* المجلة العربية، العدد (١٤٨)، جمادى الأولى ١٤١٠هـ / كانون الأول ١٩٨٩م.

بينهم وبين الملك عبد العزيز المتكلم باسمهم[٢]، ومع ما يتصف به الرجل من الحنكة والدهاء، وما كان يغدقه عليه الملك عبد العزيز من صنوف الإكرام فقد أمسكته كماشة الفتنة التي انتهت بوقعة (السبلة) قبل ستة شهور (وقد يخطىء الرأي امرؤ وهو حازم)[٣] فكان أن ناله ما شمل غيره من سكان هجرة (الغطغط) الذي التجأ أكثرهم بعد إجلائهم وهدم منازلهم إلى (مَأْسَلٍ) وإلى (عروا)، ومنهم (ماجد) وعشيرته (القُمَزَة) حيث الاستقرار مع إخوتهم من سكان هذه الجهات.

ويقال: إن (ماجداً) أثناء حركة (الدهينة) ذو موقف غير واضح، ولكن الذي لا شك فيه أنه انصاع للانضمام إلى تلك الحركة أول ما بدأت، وبعد القضاء عليها كان ممن عاد إلى (عروا) ولكنه لم يذهب في أول الأمر لمقابلة الملك عبد العزيز في بلدة (الشعراء) كما فعل كثير من رؤساء الإخوان، ممن لم يتظاهر بالاشتراك فيما حدث.

لم أشعر ضحوة يوم من أيام جمادى الأولى سنة ١٣٤٨هـ ـ بعد قدوم الملك إلى بلدة (الشعراء) بأيام قليلة ـ إلاَّ بـ(ماجد) يأتي إليَّ، وما كان من عادته المجيء، بل ما كنت أراه إلا لماماً في المسجد أو في مجلس (جهجاه)، فطلب مني أن أكتب له كتاباً منه إلى الإمام، يعتذر عما حدث ويطلب العفو عنه، وتولّى إملاء الكتاب بإيجاز ووضوح، إلا أنني رأيت أن أشفع كتابه بكتاب مني إلى الملك أفصل فيه ما أجمل، ولم تمض أربع ليال حتى عاد رسول ماجد من (الشعراء) يحمل كتابين من الملك: أحدهما جواب كتاب ماجد يتضمن العفو عنه، والثاني يحوي دعوة لأحضر إلى الشعراء بدون ذكر الغاية منها، وكان (جهجاه) يتأهب للسفر لمقابلة الملك فذهبت معه.

وكان الشيخ عبد الله بن حسن بن إبراهيم آل الشيخ[٤] قد عين قاضياً في (الطائف) فأتى إلى (الشعراء) بطريقه إلى مقر عمله، وقابل الشيخ عبد الرحمن قاضي (عروا) وعلم منه أنه لن يعود إليها، ولعله أراد أن يخفف من أثر تصرفه معي فذكرني للشيخ عبد الله لأذهب معه كاتباً، فطلب حضوري، فقد علمت من أحد موظفي الديوان ذلك.

قابلت الشيخ عبدالله، فأظهر لي من حسن الاستقبال ما لم يخل من مجاملة، وقال: بأنه تأخر هنا يومين في انتظاري، وأن السفر سيكون غداً وقد أدركت من تكرار كلمات (الاستفادة) من مرافقته، و (الاستزادة) من العلم أنني سأذهب معه (مرافقاً) لا (كاتباً) بل أحسست لأول وهلة أنني أمام نفس تتصف بالغموض والانطواء ـ أو هكذا تخيلت، وقد يكون هذا بسبب ما يبدو من اعتلال صحته ـ والله يعفو عنه ـ وقد أخبرتُه بأنني لا أستطيع السفر ما لم أعد إلى (عروا) فأنْفَسُ ما نلته خلال إقامتي في الرياض هناك[٥]، وأنا في انتظار ما يكتب به إلى الشيخ بعد وصوله إلى الطائف.

لم أعد من هذه الرحلة ـ كما يقال ـ (بخفي حنين)، فمرافقتي للأمير (جهجاه) هيأت لي الحصول على مبلغ من النقود باسم (شرهة)[٦]، وفوق هذا فمنذ أن غادرت (عروا) أحسست أن ما كان مسيطراً على جميع مشاعري في تلك الأيام، وما كنت خانعاً تحت كابوسه من الأوهام، والهموم المؤرقة قد بدا يتبدد ويزول، حتى بعد تلك (المقابلة) التي كان من المتوقع أن يكون أثرها عنيف الصدمة في نفسي، فقد كان من الحوافز إلى الانصراف للتفكير في اتجاه آخر في مستقبل حياتي.

ولعل من أسوأ ما أتصف به من خلال ـ وما أكثرها ـ أن صدري يضيق بكتم ما ينبغي عدم الإفصاح به من شؤوني الخاصة عن كل من أتوسم فيه الصدق ومحبة الخير لي لأول وهلة، دون تثبت، وقد وجدت من رعاية رفيق السفر وسماحة خلقه، وحسن معاملته ما حملني على الإفضاء إليه بدخيلة نفسي، وبما كنت أشعر به من إحساس في حاضري، وما يتراآى لي من قتام رؤية المستقبل أمامي، وما كان هذا الرفيق على درجة من عمق النظرة، ونفاذ البصيرة، وإدراك حقائق الأمور بحيث يتميز في كل ذالك عن غيره، ولكن طيبة قلبه وصفاء نفسه من أبرز الصفات الحسنة التي تحببه إلى كل من عرفه، أنه (بدوي) النشأة والطباع، ولكن ما كل طباع أبناء البادية بمرذول، وهو أبعد ما يكون عما يوصمون به من غلظة وجفاء.

لم يكتب إلي قاضي (الطائف)، ولم أكن راغباً بأن أقوم بعمل يُدْفَعُ ما خصص له من راتب لغيري ـ على ما اتضح من تلميحات الشيخ ـ مكتفياً بأن أكون (مرافقاً)[٧]، وخير لي العودة إلى (الرياض) لمواصلة طلب العلم، وهذا ما عقدت العزم عليه، إلا أن صاحبي نصحني بالتريث في (عروا) بعض الوقت، وما كنت الآن كارهاً للبقاء في هذه البلدة في كنف هذا الأمير الكريم، فقد وُعد بتعيين قاض قد أرتاح للعمل معه، وإن كان الاستقرار مما لا يوحي بالراحة والاطمئنان، فالناس هنا هذه الأيام يعانون أسوأ الحالات من ضيق في معايشهم، وفزع في نظرتهم إلى مستقبلهم، مما يخشون من سوء المصير.

دنا اليوم المشؤوم المنتظر فاشتد الهلع تحسباً لما سيقع، وها هم ذوو (الحلال)[٨] من أبناء البادية قد حُشِروا حشراً بدون اختيار، على

مناهل محددة في منطقة (العرض)[9] وانضوى إلى الهجر والقرى كثير ممن اندفع للمشاركة في إثارة الفتنة، عن غير روية، وبدون تبصر في العواقب، فمع اشتداد ظلام الشر تنطمس معالم الخير حتى عن بعض ذوي البصائر، إذ طغيان الحيرة والذهول في النفوس مما يحجب إدراك مسالك النجاة، فيحيق البلاء ويعم ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾.

وهكذا الحال بالنسبة لما جرّته تلك الفتنة العمياء لا على سكان (عروا) وحدهم، بل على جميع سكان تلك المنطقة التي تنتشر فيها هجر فروع قبيلة (برقا) ومواردهم، ففي كل هجرة أو منهل ترقب وخوف واضطراب، بل في كل بيت وخباء حزن ووحشة وأنين!!.

وما ألطفك يارب!! لقد نزل الغيث في هذا العام في وقت التطلع لنزوله، فارتوت الأرض إبان فصل الربيع بمطر (الوسميِّ) وأخصبت المراعي، فشبعت الأنعام، ونمت وسمنت، وعادت على أهلها بتوالدها ووفرة لبنها بما سدَّ فاقتهم، بعد اشتداد قنوطهم، وانقطاع موارد الرزق عن كثير منهم من جَرَّاء تلك الحوادث.

الحواشي:

(١): ماجد هذا هو الذي أصبح من أقرب المقربين من الملك عبد العزيز حتى توفي ـ رحمهما الله ـ هو ونافع بن فضلية، ومطلق بن الجبعاء.

(٢): انظر «جزيرة العرب في القرن العشرين» لحافظ وهبة، ص ٢٨٣.

(٣): صدر بيت لأبي العلاء المعري، وعجزه: (كما اختل في نظم القريض عبيد) أي أن عبيد بن الأبرص الأسدي الشاعر الجاهلي وقع في الخطأ من حيث الوزن في قصيدته. (أقفر من أهله ملحوب) وما كان هذا عن ضعف شاعرية.

(٤) : آل الشيخ هاؤلاء من أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تولى جدهم الشيخ عبد الملك القضاء في حوطة بني تميم فاستقر بها، هو وأبناؤه وحفدته، ومنهم الشيخ عبد الله بن حسن بن إبراهيم بن عبد الملك بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

(٥) : وذالك مجموعة من الكتب التي كانت تطبع على نفقة الملك عبد العزيز، وتوزع على طلبة العلم، كتفسير ابن كثير وتاريخه، و«المغني» و «الشرح الكبير» و «مجموعة الحديث» و«مجموعة التوحيد» و«مجموعة رسائل وفتاوى علماء نجد»، ومؤلفات الشيخ سليمان بن سحمان وغيره من علماء الدعوة.

(٦) : الشرهة : مبلغ من المال يقدم لِمَنْ يفد على الملك متطلّعاً لرفده، والكلمة (عامية) نجدية.

(٧) : هو من يرافق الوجيه ـ أميراً كان أو عالماً ـ وهو تلطيف لكلمة (خادم) في الغالب، وخاصة بالنسبة للشيخ.

(٨) : الحلال ـ عند أهل البادية ما يملكون من سائمة الأنعام، من إبل أوغنم.

(٩) : هو عِرْضُ القويعية ـ البلدة المعروفة ـ منطقة واسعة كانت تعرف قديماً باسم (عِرْض شَمَام) و(سواد باهلة).

أوشكت أن أكون (فلاحاً)*

انجلت الغُمَّةُ مع شدة وطأتها، وعمق أثرها في حياة قوم سُلب منهم أعزُّ ما يملكون، ولكنهم تآسوا بينهم بما بقي في أيديهم، فعاد ذُو الْجِدَةِ على ذِي الحاجة المُعْدِم، وجاد الغنيُّ بما يَسُدُّ عَوَزَ الفقير، ولعل من أبرز خلال أبناء (البادية) الحميدة في مثل هذه الأحوال التعاطف بينهم، والإيثار بسخاء وطيب نفس، عن قناعة بحتمية ذالك بين من تجمعهم آصِرَةُ النسب، ولو من بُعْدٍ، وهذا هو أقوى عنصر من عناصر بقائهم، في بِيَئةٍ لا تسير أمورُ الحياة فيها على وَتيرةٍ واحدة من الثبات والاستقرار، بحيث يسهل تنظيم تلك الأمور، بل هي عرضةٌ دائماً للتغير، بين خصب وجدب، وأمن وخوف، واستقرار واضطراب، حتى غَيَّر اللّهُ تلك الأحوال بالثبات والاستقرار، بقيام هذه الدولة الميمونة، التي أصبحت البلاد في عهدها مضرب الأمثال، في توفر وسائل العيش، وانتشار جميع أسباب الراحة بين الناس، وإزالة دواعي الفرقة والشحناء، وإرساء قواعد الحب والإخاء.

ولعل من الصفات الأَصيلة ـ قديماً وحديثاً ـ التي يتحلَّى بها ابنُ (البادية) أنَّ عِداءه لغيره لا يحمله دائماً على إِيغار صدره له بالحقد والكراهية، بل سرعان ما يعود إلى سجيته من الصفاء والمودة، بزوال أسباب العداء، حتى تصبح الصلةُ بين الإثنين المتقاتلين بالأمس على أصفى حالات الألفة والتآخي.

ومع ما حدث من نَفْرَةٍ بَيْنَ (الإخوان) وبين إخوانهم من سكان

---

* المجلة العربية، العدد (١٤٩)، جمادى الآخرة ١٤١٠هـ / كانون الثاني ١٩٩٠م.

القرى في تلك الأعوام، إلا أنَّهَا لَمْ تكن ذَاتَ أثرٍ في النفوس، أعقب انحسار غَمَّائِها، فهي لم تَنْشأْ عن بواعث ذات صلات عميقة في الحياة الاجتماعية، بصفة عامة، وإنما تنحصر بواعثها في أسباب واهية، حدثت عن اختلاف تَصَوُّرٍ لحقائق الأمور، وعن عدم إدراكٍ تامٍّ لجميع جوانب ما جرى الاختلاف فيه، وعن تَسَرُّعٍ سبق إعمال الرويّة وتعميق التفكير من بعض قاصري النظر ـ كما هو الحال في كل زمان ومكان.

ها أَنا قد أَكون (الحضريُّ) الوحيد الذي يعيش بين هاؤلاء الإخوة من أهل (عروا) وبين إخوانهم ممن انضوى إليها، وما منهم إلا وقد اكتوى فؤاده بنار تلك الحوادث المحزنة، فما الذي أحسست به من اؤلئك، في أحرج وقت كانوا مُثْخَنِينَ فيه بجراح الماضي؟!

لقد عشت بينهم نحو تسعة شهور ـ من شهر صفر سنة ١٣٤٨هـ إلى نهاية شهر رمضان ـ وكنت كثير الاختلاط بعلية القوم لمنزلَتي لدى الأمير جهجاه بن بجاد بن حُمَيد، وكان التقائي بعامتهم يتجدد، ويتكرر في كثير من الأوقات، حيث كنت أغشى مجتمعاتهم، وأُدْعَى لحضور ما يقام من مآدب لإِكْرام ضيفٍ وحفلة زواجٍ ونحوها، ورافقتهم في السفر ـ ولا كالأسفار محَكًّا للاختبار ـ وكثيراً ما تَبْدُر مني الكلمة المثيرة للحفيظة حينما أعابث أحدهم هازلاً، دون أن ألقي لذالك بالاً، وما أكثر ما يثير الهزل الضغينة الكامنة في النفوس، ويكشف الحقد، غير أنني ـ وأقولها كلمة لوجه الحق ـ لم أسمع طيلة مقامي بين اؤلئك الإخوة ما يبعث في النفس نفوراً منهم، أو اشمئزازاً، أو كراهية أو غضباً من سوء تصرفهم معي، بل لم أُحِسَّ من أحد منهم ممن يُوبَهُ به بينهم ما يَنُمُّ عن كُرْهٍ أو بغضاء لإخوانهم، فضلاً عن التظاهر بذلك بينهم، مما قد يحدث من غيرهم.

وأرى المناسبة استطردت بِي، وإن لم أخرج عما أنا فيه من إيضاح بواعث بقائى في هذا البلد الذي يعيش تلك الفترة في شبه غفوة وهدوء، من جَرَّاءِ عنف ما عاناه من شدة الصدمة التي أطالت سَدَرَهُ، في كنف هذا الأمير الكريم النفس، الطيب القلب، وبين هاؤلاء الإخوة الذين أزالوا بما لقيت منهم من حسن المعاملة ما كان عالقاً بذهني زمناً طويلاً من تصور خاطيءٍ، عن طباع أبناء (البادية) وخاصة ما له صلة بنظرتهم نحو إخوانهم من (الحضر).

إذن لماذا لا أُوَطِّنُ نفسي على الاستمرار في البقاء هنا، فأقبل ما عرضه عليَّ الأمير (جهجاه) وما وعدني بتقديمه من بذل ما يستطيع من تهيئة جميع وسائل الاستقرار، ومنها منحي قطعة أرض واسعة، على ضفة شَعيب (عَروان)[1] بقرب هجرة (عروا) يتوفر فيها مع صلاح التربة وفرة الماء وعذوبته في بئرها، وما كانت تكاليف الزراعة في ذالك العهد تتطلب نفقات تزيد عما وعد به الأمير من أجرة إصلاح الأرض للزراعة، وتقديم ماشيتين للِسَّنْي (استخراج الماء من البئر) بطريق المشاركة بيننا ؟!

أنا لم أُفلح حَقًّا في مساعدة أبي على شؤون فلاحته كَأَخَوَيَّ اللذين أنا أوسطهم عمراً، مما حمله على إدخالي المدرسة، ولكن الحالة الآن تختلف عما كانت عليه في زمن أبي، فأكبر الإخوة قد أوشكت أن تنسد أمامه الطرق إلى أي عمل يكسب من ورائه من الرزق ما يقيم أَوَدَه، بعد إنفاق ما كسبه أثناء إقامته في مكة ثلاث سنوات جنديًّا، في نفقات زواج ومتطلبات استقرار في القرية (البرود)، وأصغرهما يكافح الفقر والفاقة أقسى ما يكونان، فيعمل طول يومه عند أحد

الفلاحين في إحدى قرى (القصيم) بما لا يزيد عن سَدَّ الرمق يومًا بعد يوم ـ أي يعمل (بِجَازَتِه)[2] كما يقولون، وتلك حالة أوسط الإخوة وثالثهم منذ أتى إلى (عروا) وحسبك ما علِمتَ من تشتُّت وضياع يعانيه هاؤلاء الإخوة الثلاثة!!

أليست المغامرة أوسع المناهج المؤدية إلى كل نجاح في هذه الحياة، وأحمدها عاقبة، وإن كانت أشقها؟! فلتكن محاولة لِلَمِّ شتات اؤلئك الإخوة، للقيام بعمل لم يسبقوا إلى مثله في هذه الهجرة الحديثة العهد:

هذا ما عقدتُ العزم عليه، ولكن (وتُقَدِّرُونَ فتضحك الأقدار)!!

الحواشي:

(١): حيث تبدو آثار العمران القديم منتشرة في تلك الجهة، وجاء في كتاب «صفة جزيرة العرب» ص ٢٩٢ نشر (دار اليمامة): وابْنا شَمَام جبلان مشرفان على سَخِين وسَخينة قريتين ونخل لباهلة، وعلى عَرْوَانْ والشط، كل ذالك قرىً ومزارع ونخيل. انتهى

(٢): (الجازة): وجبات الطعام، فقد كانت الفاقة تحل بالناس فيضطر المرء للعمل طول النهار ولا ينال أجراً عن عمله سوى ما يقدم له من طعام، فيقال: (فلان يعمل بجازته).

أسوأ يوم شهدته

لعلَّ احتكاكي بالحياة العامة بدأ منذ أصبحتُ أطلع على ما يدور في مجالس (الإخوان) في (عَرْوَا) في أول عام ١٣٤٨هـ، وقد شارفت العشرين عاماً من سِني عمري، فالمجتمعات التي كنت أغشاها قبل ذالك يكاد ينحصر ما يدور فيها على ما يتصل بشؤون حياة الطلبة خاصة، مما يتعلق بمعاشهم، أو بدروسهم أو سكناهم، وحين يتسع ما يجري في المجتمعات التي يمكن لمثلي غشيانها - كمجالس المشايخ مثلاً - ففيما لا يُسْمَحُ لصغار السن من الطلبة الخوضُ فيه، مما قد يتصل بالبحث في تقرير حكم شرعي في إحدى المسائل العامة، المثيرة للجدل والاختلاف في تلك الأيام.

كان (جهجاه) - بحكم صلته بالرجل القوي في حركة الإخوان[1]، ولكونه يعتبر من أبرز رجال البادية ورؤسائها - لا تكاد تفوته شاردة أو واردة من أمور جميع فروع قبيلة (بَرْقَا)، وما كان الرجل على درجة من التعصب الديني، تدفعه لمشاركة مثيري الفتنة في إبَّان إثارتها، بل كانَ يُنْظَرُ إليه من أكثرهم نظرةَ جَفَاءٍ وكراهية، وهو وإن كان قد (هاجر) واستقر في (عروا) أميراً لقومه، فأصبح معدوداً من (الإخوان)، إلا أنه لم يقطع صلته بالبادية كأكثرهم، ولعله (البدوي) الوحيد الذي كان يملك ذَوْداً من الإبل (الحمر)[2] مع ما يملك من غيره منها مما لا يزال محافظاً على تنميته، في الوقت الذي سارع غيره ممن استقر في (الهجر) وترك حياة البادية إلى قطع جميع علاقته من كل ما يتصل بحياتها، بل حدث من هذا وأمثاله أن أصبحوا ينظرون إلى

تلك الحياة نظرةَ كَراهيةٍ ومَقْتٍ وبُغْضٍ ، ويَدْعُونَ بعنف وإصرار لتغييرها ، والقضاء عليها باعتبارها مما يشغل عن عبادة الله ، وعن الجهاد في سبيله ، عملاً بالأثر المعروف « من بدا جفا »[٣] .

ولكن (جهجاهًا) بدا لي منذ الوهلة الأولى التي اجتمعتُ به فيها أثناء السفر من الرياض إلى (عروا) ثم بمخالطتي له في مجالسه الخاصَّة والعامة من أرقِّ الناس خُلُقًا ، وأَسمحهم نفسًا ، لا أثر للبادية في شيء من طباعه سوى صفاءِ النفس ، والبساطة والوضوح في جميع أموره ، دون مواربة أو غموض ، إنه لا يحمل في قلبه ضغينةً أو حقداً لأحد ، ولهذا تراه دائماً بشوشًا مُنْبَسِطَ الأسارير ، حتى في تلك الساعة الحرجة التي كان يعيشها هو وقومه تلك الأيام ، من جَرَّاءِ تلك الحركة المشؤومة ، إنهم ـ وقد تجمعوا حوله قد استبدت بهم الأوهام ، وانتابتهم المخاوف من سوء المصير ، يتحدثون عن وصول أحد رجال الدولة الأَشدَّاء (شويش بن ضويحي المعرقَب) الجبلي المطيري ، ومعه عدد من الجند ، قاموا بـ (سَرْب حلال العرب) وجمعه فوق (ذلقة) و (رُكَيَّة سعْديَّة) . وتتكرر كلمة (الخفر) أثناء ذكر وسائل التنكيل الأخرى مما يُهْطِعُ هاؤلاء لتحمل ضرباتها ، وهم في أسوأ حالات القهر والخنوع ، إذ مدلول كلمة (الخَفْر) اللغوي الإجازة والحراسة والمنع ، والخفير هو الحارس والحامي ، ومن هذا (خفر السواحل) أي حفظها ، ومنع الأعداء من التسلل إليها ، إلاَّ أنَّ هذا المدلول تَغَيَّرَ إلى ضدِّه بين سكان البادية ، فأصبح المرادُ بـ (الخفر) ومشتقات الكلمة أَخْذَ الأموال وسلبها من أصحابها ، بطريق القهر والسيطرة ، للإذلال والخضوع والاستكانة ، فإذا قيل : خفر الحاكم القبيلة الفلانية فإن هذا يعني أنه استصفى

واستخلص وأخذ خير ما تملك من الأنعام والسلاح، وهو لا يفعل هذا إلا حين تخرج عليه تلك القبيلة فتخالف أمره، أو تَجْني جنايةً بحقه، فحين يستولي عليها يسعى لإضعافها لئلا تكون قادرة مرة أخرى على العصيان، ولا أَشَدَّ عقاباً لها حينئذ من (الخفر)، إنه ـ بالنسبة لها ـ قاصمةُ الظهر، إذْ به تفقد مقومات حياتها، فتلجأ إلى التشتت والتفرق في مختلف البلاد.

لقد خَمَدَتْ فتنةُ (الدُّهينة)* وإن كانت بدأتْ ميتةً لم تتجاوز أن (نعق) ناعقها بين فئة قليلة العدد، ضعيفة الجَهْد، أفعم الْحقْدُ قلوبها بما وُتِرَتْ من قتل خيارها في وقعة السَّبَلَة، ثم بهدم منازلها في هجرة (الغُطْغُط)، فأصبحت بطونُها خاويةً، وأيديها خاليةً مما يسدُّ عوزاً، أو يُمْسك رمقًا، فانْسَدَّتْ أمامها المسالكُ، بعد أن حُرِمت مما كانت تستدره بمختلف وسائل الاستعطاف والتطلع والاستجداء حين كانت طوعَ وليّ الأمر، فأُغلقَت أبوابهُ أمامها بالخروج عن طاعته، فماذا تفعل؟ وكيف تستطيع مغالبة أعدى عدو للإنسانية؟!

وها هي كل فئة من اؤلئك القوم التجأت بمن تلوذ به من ذوي نسبها، والْتَأَمَتْ بأقرب من يليها من قومها، فكان أن تَجَمَّع فَلٌّ (اللاجئين) من أهل هجرة (الغطغط) بعد هدمها على منهل (مَاسَل) القريب من هجرة قومهم (عَرْوَا) أكبر هُجَرِ (الْمُقَطَة) من (برقا) من (عُتَيْبَة)؛ إذ كان أكثر سكان (الغطغط) من ذالك الفرع من فروع (برقا)، ومن هُنَا كان أول ما دَوَّى صوتُ (الناعق) بالفتنة عند باب مسجد تلك الهجرة، وفيها وعلى مقربة منها كان أكثر اؤلئك البؤساء الذين كان

* سبقت الإشارة إليها في حواشي سانحة (مع الإخوان) ثم كرر التعريف بالدهينة في حواشي هذه السانحة .(ش).

يصــدق على كل واحــد منهم (أحْــيِني اليــومَ وأَمِــتْني غــدا) ممن لا يزال سـادراً من عنف ما أُصـيـب به من صـدمة أفقـدته التـبـصـر في أمـره، أو التفكـير فيـما يدعى إليه، أو تصوره تصوراً تامًا ليدرك غايته.

وفي (عـاليـة نجد) حـيـث تنتـشـر فـروع (بـرقـا) ومنـهـم (النفـعـة)[٤] اشـتـعل أوار تـلك الفـتنة الهـوجـاء ، إلاَّ أن شـؤمـهـا لـم يقف عـند حَدٍّ من (خَبَّ فـيـهـا ووضع)[٥] وسعى لإشـعـالهـا من تلك الفـروع، لقـد انْحَلَّ رباطُ الأمن في تلك الجـهـة ، وانـتشـر الخوفُ، وقُطِعَت السبل، ونـهـبت قوافلُ السيارات التي كانت تنقل الأطعمة والمؤن من غـرب المملكة إلى شرقها وشمالهـا ، بل تعدَّى الأمرُ ذالك إلى إحداث بلبلةٍ واضطرابٍ في نواحي أخرى فتحركت بعض القبـائل في شرق المملكة، ومـا كانت على حالـة مطمئنة من الهـدوء بعد الفـتنة الكـبـرى ، إذ لا يزال أكـبـر رأس مثـير لهـذه الفـتنة يَـسْعَى جـاداً لإشـعـال نارها ـ مـرة أخرى ـ بـإثارتها الفـوضى والتـأليب على العـصـيـان ، والاتصـال ببـعض القوى الأجـنبـيـة للاسـتـعـانة بها للتدخل في شؤون البلاد.

لقد شطَّ الاسترسال فـاتسع الحديث في موضـوع يبعث الاتسـاع فـيه من الأسى والحـزن ما ينكا الجـرْحَ المندل ، وكان يجـدر هنا التأسي بـقـول أحد السلف الصالح ، وقد سُئِلَ عـما جرى بين المسلمين من الاختلاف في عـهـد الإمـام علي ـ رحـمـه الله ـ : تلك دِمَـاءٌ طَهَّـرَ اللهُ منهـا سـيـوفَنَا فَلْنُطَهِّر منها أَلسِنَتَنَا!!

إلا أن حـوادث أيامنا تـلك أصـبـحت جزءاً من تاريخنا ، الـذي ينبـغي أن نفهـمه فهماً تامًّا على حقيقتـه التي جرى عليها ، لنتأسَّى بما فيه من حسن ، ولنـدرك ما لله علينا من فـضل ونعمـة حين نعرف مواطن السوء

فيه ، بعد أن ذهب بخيره وشره ، ومضى أهله فقدموا على ما قَدَّمُوا «ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» .

لا أكتم القارئَ أن من أبرز صفاتي المزرية رقة العاطفة بدرجة تبلغ حدَّ الهلع والارتياع مما أشاهده من الحوادث المثيرة للأسى، ولو مع من لا أكره له ما أُصيب به، ومع هذا فأنا طُلَعَةٌ قد أَدُسُّ أَنْفي فيما لا يعنيني، وقد يدفعني الفضولُ وحبُّ الاستطلاع إلى ارتكاب ما ينبغي لمثلي الترفع عنه.

لقد نصحني (جهجاه) بعدم الذهاب لمشاهدة ما سيجري لأولئك البؤساء من العقاب، ولكن ضحوة يومهم السِّيءِ لم تَمُرَّ بي إلا وأنا في خيمة لا تبعد كثيراً عن خيمة رئيس الجند ، في جانب الوادي الذي تقع فيه آبار (ركيَّة سعدية)[٦] في أحد أيام شهر ربيع من عام ١٣٤٨هـ، وها أنا أشاهد أذواد الإبل (تُسْرَبُ) أمام الرجل، وقد حداها الظمأُ لتقبل مسرعة على حياض الماء، وقد اشتدت الجلبة والضوضاء ، وارتفع العويل والصراخ من كل جانب، فاختلط بكاء الأطفال بنحيب النسوة والعجائز، وترديدهن كلمات (الويل) و(شق الجيب) مما يستدر الرحمة والشفقة من أقسى القلوب.

ها هو رجل ممتلىءُ الْجسم، قصير القامة، واسع العينين، أبرزُ ما بدا منه من الشعر شاربان طويلان، قد جلس متكئاً على رَحْلٍ (شدَاد) وسيفه على فخذيه، وعلى مقربة منه رجال مسلحون، وبقربهم آخرون يقومون بتوجيه كل ذَوْدٍ حين يقبل على الورد [الماء] للمرور أمام الرجل الذي يكتفي بالإشارة بعصا يحملها في يمناهِ لاسْتِصْفَاءِ ما يريد من الإبل، وهو خيارها إن لم يكن كلها، فيفصل المختار في جانب ليضاف إليه غيره من الأذواد الأخرى، وذالك بمجرد إشارة بالعصا، قد

تستثني من الذود جميعه بَعِيْراً أو خَلِفَة واحدة من بين العشار الكثيرة، وقد لا تبقى شيئاً، فتعلو الصرخات والولولات، مختلطة بأنين الشيوخ وتأوههم، وبحنين الإبل المفصولة عن أُلافِها ورغائها.

أما كلمات الاستغاثة والاستعطاف، ومحاولة إثبات عدم المشاركة في العصيان بأية وسيلة كانت، فكلها لا تقابل إلا بالانهيال على أصحابها بالطرد والإقصاء ـ وعَوْذاً بك اللهم من قَهْرِ الرجال!!

الحواشي:

(١) جهجاه بن بجاد بن سلطان بن هندي بن حُمَيد، وهندي [هو] أبو الشجاع المشهور محمد بن هندي، وجهجاه هو أخو سلطان [بن بجاد] زعيم الإخوان المشهور الذي ألقي القبض عليه بعد وقعة السبلة في عام ١٣٤٧هـ ـ وسجن حتى توفي.

(٢) الإبل الحمر أنفس مال عند العرب، وبنفاستها يضرب المثل فيقال: (هذا خير من حمر النعم).

(٣) قال السيوطي في «جمع الجوامع» ١/٧٦٠: رواه أحمد وأبو يعلى عن البراء.

(٤) مقعد الدهينة نفيعي برقاوي من (المساعيد) يحاول بعض الباحثين في أنساب القبائل إيجاد صلة بين (المساعيد) الساكنين في (البِدْع) في شمال الحجاز، ومساعيد النفعة لتطابق الاسمين مع تباعدهما في النسب والبلاد.

(٥) الخَبَبُ والوَضَعُ: من أنواع سعي الخيل والإبل، ويقال: خب فلان في الأمر ووضع، أي جَدَّ فيه وبذل ما يستطيع، ومنه قول دريد بن الصمة:

يَالَيْتَنِي فيها جَذَعْ ... أخُبُّ فيها وأَضَعْ

(٦) سعدية امرأة عصيمية مشهورة بشجاعتها، أورد لها صاحب «صحيح الأخبار» ـ ٥/٦٧ ـ الطبعة الأولى ـ قصة طريفة ـ وفيها يقول هذال بن فهيد الشيباني:

شيخ الجحادر في شعيب عميل ... من رمح سعدية قزا

تعلمت فيهم بقلح الخيل ... والشيخ في الهضبة وزا

قزا: أي قر، ووزا: دخل واختفى.

غـزوت مـع (الإخـوان)

لم تُسْتَأْصَلْ ـ بعدُ ـ بواعثُ الشقاق التي شملت البلادَ كُلَّها، خلال هذين العامين، فلم تكن وقعة (السَّبَلَة) ولا القضاء على حركة (الدُّهَينة) بالحاسمتَيْن في ذالك، إذْ لا يزال بعضُ دعاة الفتنة، بل أكبر رأسٍ مُدَبِّرٍ لها في مَنْأىً عن سلطة الدولة، يسعى لمحاولة إثارة بعض أهل البادية في شرق المملكة للتمرد والعصيان، وحملهم على الخروج عن الطاعة، وإحداث ما يُخِل بالأمن، مما حمل ولاة الأمور على تصميم العزم للقيام بأقوى الوسائل وأقساها لاقْتلاع جذور الشر، فكان أَنْ أمر الملك بالاستعداد للغزو، وأن لا يتخلف عنه أحدٌ من القادرين عليه من أهل القرى و (الهُجَر) أبناء البادية والحاضرة، وحدد زماناً ومكاناً للاجتماع، وسار من (الرياض) في آخر جمادى الآخرة من هذا العام ١٣٤٨هـ ومعه غزو (العارض)، وخَيَّمَ في شعيب (الشَّوْكي)[1] المكان المحدد لاجتماع الغزاة، في مدة لا تتعدَّى الأسبوع الأول من شهر رجب.

وقد أَجْمَلَتْ فروع قبيلة (بَرْقا) للاستجابة للأمر، دَرْءًا لتهمة العصيان، وتعبيراً عن صادق ولائهم لدولتهم، إلا أَنَّ الظَّهْرَ كان شحيحاً بعد نكبة (الخفر) ولهذا لم يتجاوز عددُ الغزو من أهل (عَرْوا) وكانت أكثر هجرهم سكاناً، وينظر إلى أميرها ـ لمكانة بيته قديماً ـ بأنه شيخ القبيلة بأسرها ـ لم يتجاوز الغزو خمسين رجلاً، مع كثرة من كان راغباً في المشاركة في الغزو بدوافع من الفاقة أو شدة الحاجة، تطلعاً لما سوف يقدَّمُ للغزاة مما جرت العادة بتقديمه من نفقة،

أو إثبات اسم الغازي في سجلات الدولة بين من سيحظَى برعايتها بما تقرره من (قواعد)[٢].

وكان (جهجاه) بحاجة إلى الاستعانة بي، لأقوم بكتابة ما قد يحتاج إلى كتابته كأسماء أتباعه من الغزو في المناسبات التي تستدعي ذالك، ولهذا فقد رغبني بمرافقته، وهيأ لي جميع لوازم الرحلة، من راحلة (ذلول) وسلاح (بندق) وغيرهما من حاجات السفر، وما كنت كارهاً لذالك، إذْ بينما كنت أتطلع لقدوم أخي الكبير إلى (عروا) بشأن ما كتبت به إليه عن العمل في الفلاحة، أتى إليَّ كتاب منه يوضح فيه بأنه سيتأخر إلى نهاية شهر رمضان، لعزمه على السفر هذه الأيام إلى الكويت، للعلاج لدى طبيب مشهور هناك يدعى (ديم)[٣] * وكان قد بَدَا برقبته (خرَّاجٌ)، وكان الداء العضال الذي قضى عليه بعد بضعة شهور.

وكان المسير من (عروا) والاتجاه إلى حيث يخيم الملك للانضمام للغزو، في أول شهر رجب سنة ١٣٤٨هـ، ووافق بلوغ المكان المعيَّن للاجتماع قبل انتهاء المدة المحددة بيومين، ونال القوم قَسطَهُم من زاد السفر (الزهاب)[٤] كغيرهم، وكان كثير منهم بحاجة شديدة إلى ذالك.

ثم كان السير من (الشوكي) والاتجاه شرقاً، باجْتياز (الدَّهْنَاء) ثم الصَّمَّان نحو (الدبدبة)[٥]، وفي جانب منها يدعى (المُسَنَّاة)[٦] كانت أولى حوادث تلك الغزوة التي لم يحدث فيها لقاءُ عَدُوٍ مقاتلٍ، وإنما تأديب فريق قليل العدد من البدو الذين استمالهم أحد مثيري الفتنة فانقادوا له.

---

* ذكر في حاشية سانحة (عيد تعوزه الحاجة) أن الطبيب(ديم) كان يقيم في البحرين أيضاً (ش).

ولقد كان السير في غاية الهدوءِ، فلم نبلغ ذالك المكان إلا في اليوم المكمل لشهر رجب ـ أي بعد ثلاثة وعشرين يوماً من مغادرة الشوكي في ٧ رجب إلى ٣٠ منه ـ .

أما اؤلئك الذين مُنْوا بسوء الطالع في اليوم الثلاثين من ذالك الشهر فَفَخذٌ من (بُرَيْهٍ) أَحَدِ فروع قبيلة (مُطَيْر) يدعى (آل عَشْوَانَ)، وقد أُدِّبوا وأُخِذَ (حلالهم) وهم أصحاب إبلٍ، ولم ينج منهم سوى الأطفال والنساء.

حِيزَ نصيبُ قبيلةِ (عُتَيْبَةَ) بفرعيها (بَرْقَا) و (الرُّوَقَة) من الغنيمة، وأُفْرِزَ، ثم سِيق حيث أوقف أمام مخيم شيخ (الروقة) عُمَرَ ابن رُبَيْعَان ، فأثار هذا حَفيظةَ (البرقاويين) الذين يرون في جهجاه بن بجاد بن حُمَيْد شيخاً لقبيلة (عُتَيْبَة) بأسرها، كما كان آباؤه (آل حُمَيد) شيوخاً من قبله ، فكان اجتماع ثلاثة عشر من رؤسائهم في أول يوم من شعبان في خيمة جَهْجَاه، وبعد التداول بينهم في الأمر اتفقوا على الاكتفاءِ بأَنْ يُبْعَث لهم نصيبهم ، وهو النصف، ولكن إخوانهم أرادوا الاستحواذَ على الثلثينِ، بدعوى أنهم يبلغون اثني عشر ألفاً، والآخرون لا يزيدون على أربع مئة، والواقع أنَّ في مثل هذه الحالات تأخذُ المبالغة مأْخَذَهَا بُغْيَةَ الحصول على قسط أوفر مما يُفَرَّقُ ـ عادة ـ على الغزو ، من زاد وغيره ، وهنا ثار الخلاف مرة أخرى، فاجتمعوا بعد ظهر ذالك اليوم ، وكان من أبرزهم ـ بعد جهجاه ـ سلطان أبا العلاء ـ شيخ العُصَمَةِ ـ وسَجْدي الْهَيْضَل (الدَّعَاجين) وجَمَل المَهْري (الدغالبة) وخالد بن جامع (الرُّوْسَانِ) وماجد بن فُهَيْد (الشيابين)(٧) .

كان أبو العلاء أشدَّ المتحدثين انفعالاً، بل كان أصوبهم رأيًا ـ في

ذلك الاجتماع ـ لا بدَّ من إِحصائهم (سَرْبهم مثل سرب الْبَهَمِ ، واحدْ بَعْدَ واحدٍ) أَنَا سُوسُهُمُ الذي يُظْهِرُ مَدْسُوسَهُمْ ، ويضيف : (سلمتْ يمين السوس ، يوم أظهر المدسوس) ويستطرد قائلاً : تاجرٌ يجمع العيش ـ الحبَّ الْحَمَر ـ وقت رخصه ، ولا يبيعه على النَّاسِ وقت حاجتهم ، إلا حين يشتد الغلاء ، يا ابن الحلال : ساعِدْ إخوانك بِعْ عليهم ما يحتاجون ـ ما عندي لَوْن (شيء) حتى سلط الله السوس على الحب فاضطر أن ينشره في الشمس أمام الناس (سلمت يمين السوس ، يوم أظهر المدسوس) أنا سُوسَهم حتى أظهر مدسوسهم ! !.

وأثناء اجتماع كبار القوم في خيمة جهجاه حدث شجار عنيف ، بعيداً عن مكان الاجتماع ، بين غوغاء من الفريقين ، فتسرع بعضهم بإطلاق الرصاص ، حتى انتشر الخبر ، وبلغ الملك ، فما شعر المجتمعون إلا بكوكبةٍ من الخيَّالة بقيادةِ الأمير محمد بن عبدالرحمن ـ أَخي الملك رحمهما الله ـ تقف أمامهم ، وهم في حوارهم ، وأبرزهم صوتاً كان سلطاناً أبا العلاء ، فوجه إليه الأمير محمد الكلام قائلاً بانفعال شديد : أبا العلا .. أبا العلا .. جماعتك (العصمة) يثارون[٨] علينا بيوم (السبلة) ! وقبل أن يكمل كلامه يقاطعه سلطان قائلاً : عندك إيَّاهم ! ! عندك إياهم[٩] ! !

ـ كان ذلك مساء يوم الأربعاء اليوم الأول من شهر شعبان سنة ١٣٤٨هـ .

لقد كان ، رحمه الله ، في ذلك اليوم ـ وكنت أجلس بينه وبين جهجاء ـ يتمتع بحيوية قوية ، فهو لم يتجاوز مرحلة الكهولة ، صحيح

الجسم ، قصيرُ القامة، واسعُ العينين ، مستديرُ الوجه، وكان بُشُوشاً، طَلْقَ المُحَيَّا ، لا يملُّ جليسُه من الاستماع إليه إذا استرسل في الحديث .

وهناك حيث جرى مصرع (آل عَشْوان) تجاورتْ قبورٌ عِدَّة على ما بين أصحابها من التنائي: قبر سلطان أبا العلاء ، وقبرُ عبد الرحمن بن زيد ـ من كتاب الديوان الملكي ، قُتل أثناء المعركة ـ وقبور أخرى لأُناس مجهولين من (آل عشوان) ممن أُخْرِجَ من بين الخيام فقتل صَبْراً !!

أمر الملك الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ[١٠] بقسم الغنائم، وبذالك انتهى الخلاف بين الإخوة . وتمَّ التراضي والوفاق ، وزالت جميع أسباب الفرقة والشقاق، والحمد لله رب العالمين .

وأثناء مسير الجيش ساق الحظُّ السَّيّءُ فَخِذاً من قبيلة (العُجمان) يدعى (الصُّقْهَان) في طريق الجيش ، فقضي على مقاتليهم ، وأُخذت أموالهم ، وذالك في اليوم العاشر من شعبان ، بين (المسناة) و (جَوّ الحُوَار) في (الدبدبة) .

وعلى (خَبَارِي وَضْحَا)[١١] في أسفل (الدِّبْدِبة) كانت الإقامة أسبوعاً، حتى انتهت المفاوضات بالاتفاق بين مندوبي الملك ، ومندوبي الدولة البريطانية التي كانت صاحبة النفوذ في العراق والأردن في ذالك العهد على تسليم الدَّوِيش ومن معه من مثيري الشّغب الذين التجأوا إلى القطرين المذكورين ، فأحضروا بطائرة بريطانية في اليوم الثامن والعشرين من شعبان (٢٨ كانون الثاني) إلى المخيم الملكي ، وبذالك انتهت الغزوة ، وأُذِنَ لجميع الغزو بالرجوع إلى أوطانهم .

الحواشي :

(١): الشوكي : أشهر أودية العرمة يتجه شرقاً حتى يفيض في روضة التّنهَات، ويبعد عن الرياض في الشمال الشرقي نحو مئة وتسعين كيلاً .

(٢): قواعد : جمع قاعدة وهي ما تخصصه الدولة سنوياً لرجالها وموظفيها قبل أن تقرر الرواتب الشهرية ، وقد تكون القاعدة طعاماً وقد تكون نقداً ، [إدارة تابعة حالياً لوزارة المالية] .

(٣): الدكتور (ديم) كان طبيباً في بعثة تبشيرية كانت تقيم في الكويت، وكانت له شهرة في عشر الخمسين من القرن الماضي، فقد عالج كثيراً ممن أصيبوا بأمراض مستعصية بإجراء عمليات جراحية.

(٤): الزهاب : هو ما يحتاجه المسافر من طعام ونحوه وهو (البتات) لغوياً.

(٥): الدّبْدبَةُ : منطقة واسعة في شرق المملكة كانت تعرف قديماً باسم (الدَّوّ) وانظر عن تحديدها (قسم شمال المملكة) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» .

(٦): المُسَنَاة : الجانب الشرقي الشمالي من الدّبْدبَة . انظر الكتاب الآنف الذكر .

(٧): والهجر ثلاث عشرة: (١) عروا ، (٢) سنام للعصمة أميرهم سلطان أبا العلا . (٣) الحفيرة للدعاجين وأميرهم سجدي الهيضل ، (٤) الروضة للشيابين ـ ماجد بن فهيد، (٥) الرويضة للدغالبة وأميرهم جمل المهري ، (٦) مصدة للروسان اميرهم خالد بن جامع، (٧) أبو جلال وأميرهم محماس الشعار، (٨) اللبيب للدعاجين أميرهم الهيضل،(٩) القرارة أميرها سلطان أبو سنون ، (١٠) كبثان وأميرها سلطان أبو خشيم ، (١١) شبيرمة وأميرها ناصر ابن رازان ، (١٢) القرين أميره عاصم بن مسعد ، (١٣) الصوح أميره سلطان .

(٨) : يُثاورن : أي يذكرون الثأر .

(٩) : عندك إياهم !! كلمة تحريض أي ها هم عندك فافعل بهم ما تشاء .

(١٠): الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين (١٢٨٧ / ١٣٧٨هـ) من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو الذي أصبح رئيساً للقضاة في مكة المكرمة بعد الشيخ عبدالله بن بُلَيهد من سنة ١٣٤٩هـ حتى توفي .

(١١): خباري وَضْحا : جمع خَبراء وهو المكان الممسك لماء المطر ، وكانت مياهها تبقى فترة طويلة يقطن فوقها البوادي ويخيم المسافرون ، وهي منسوبة إلى امرأة تدعى وضحا ماتت بقربها على ما قيل .

وماذا بعد (غزوة الدبدبة)*

لم تكن أيامُ تلك الرحلة مُرِيحةً كلُّها، بل فيها السهل المريح، وفيها الشَّاقُّ المُؤَرِّقُ، مع قِصر المراحل، وعدم الإسراع في السير، ولكن لا عهد لي بركوب الإبل بعد الرحلتين اللتين سقطتُ في أولاهما حين جفلت راحلتي قبل بضعة شهور.

وما كنت بالْمُرفَّه الناعم الجسم في أول نشأتي، ولكن إحساسي المرهف كان شديدَ التَّأثُّرِ بما جرى لي أيام الطفولة، وما اعتدتُ سماعه من النسوة اللاتي يقمن بتربيتي من كلمات التخويف والترهيب، مثل (السِّعْلُو) و(أَهَل بسم الله) و(الشِّيفة)[1] وعما يخبئُه الظلام من الأرواح الشريرة، حتى أصبح الإحساس بذالك العدوِّ الخفي للإنسان عقيدةً راسخةً في ذهني، فأصبحتُ خَرِعَ الفؤاد، كثيرَ الخوف، يطغى عليّ سُوْءُ الظن ـ بعض الأحيان ـ حتى أتصور الأمرَ خلافَ ما هو عليه، لا أدري لماذا جرى القلم بهذه الخاطرة، وقد يكون لذكرها مناسبة فيما بعد.

لقد وجدتُ أثناءَ الرحلة، من رعاية رفقة السفر من شيخهم إلى أصغر صغير فيهم، ما غمر نفسي ارتياحاً، وأفعم ذهني بأطيب الذكريات.

ومع أن (جَهْجاه) بَدَويٌّ ـ بكل ما تُؤدِّيه هذه الكلمة من معنى ـ ومعروف ما يوصم به أبناء البادية من جفاء الطباع، إلا أنَّهُ ـ يرحمه الله ـ كان منْ أَرَقِّ من عرفتُ من الناس طبعًا، وألطفهم أخلاقًا، وأكثرهم أُنْسًا وبِشْرًا ومَرَحًا.

كان (أُمِّيًّا) إلا أنه يهوَى سماع الشعر العربي الفصيح، ويَستلذُّهُ،

---

* المجلة العربية، العدد (١٥٠)، رجب ١٤١٠هـ / شباط ١٩٩٠م.

ويطيب له استماعه، وحفظه حفظًا لا يخلو من تغيير بعض الكلمات، لتندمج في لهجة أبناء البادية، وكان مما يحفظ قصيدة كعب بن زُهَيْر (بَانَتْ سُعَاد) وإن كان لا يقيم إعراب كلماتها، وحين تُنْعِقُ الإبلُ بالقوم أثناء السير يرفع عَقيرته بالغناء ببعض ما حفظ، بوزن وتنغيم يُوَائمان حركات سير الْعَنَق[2]:

يَمْشُونْ مشْيَ الجِمَال الزهر يعصمهم   ضَرْب (الْيَا) عَرّدَ ال (سود[3] التنابيلا)

فأبادر بقراءة البيت صحيحاً متغنياً به كما فعل، ليُقوِّم نطقَه فيقول: (كلّ أبوه سوا)[4].

كنت أرهب الظلام، فلا أبعد عن الخيمة حين أخرج ليلاً لقضاء الحاجة، فيحلو لصاحبي حين يبصرني أن ينادي بأعلى صوته مُعَابثاً:

يَاهَيْـه يَاللِّي فـي الشِّعَيْـبْ   عَانُـوا (حَمَـدْ) وَسْـطَ الزَّهَابْ
والْيَـا مشَـى مَشْيَـةْ دِبِيْبْ   يِـذِلُ مِـنْ رَدَّ الـرّكَـابْ[5]

ومجالس القوم لا تخلو من تنوع الأحاديث جداً وهَزْلاً، وقد يجري على لسان أحدهم ـ في مقام التندر والمفاكهة ـ ذكرُ بعض مثالب الآخرين، أو الإشارة إلى نظرة بعضهم إلى بعض، وما كان أحد من اؤلئك الإخوة يأخذ شيئاً من ذالك مأخذ الجد.

وكنت أُفَضِّلُ تناول التمر طعاماً في بعض الأحيان حين يتولى طبخ الأكل وإعداده من لا أرتاح إلى نظافته، وكثيراً ما كان (جهجاه) حين يراني على تلك الحالة منفرداً، يحاول مداعبتي: تَبَا عصيدَة يَا (الْحضَيْري)[6]:

يَاحِبِّنــي لَلْعَصِيـدَةْ والْمَيْرَق الْحـارْ   و الْبَدُو تَبْغَى الْمِضِيرَهْ، يَابَدْوَ الاَشْرَار[7]

فأبادله القول بأقسى منه، فينفجر ضاحكاً.

إنها سويعاتٌ قصيرةٌ بما غمرها من أنس وسرور، مرت مسرعة

(وأيام السرور قِصارٌ)، ولا أدري لماذا تَخْتَزِنُ ذاكرتي كثيراً من الجُمل التي اعتاد المتشائمون في نظرتهم إلى الحياة ترديدها، وقد يكون هذا من جَرَّاءِ ما قاسيته صغيراً من آلام المرض واليتم والفاقة.

لقد كان من أبشع ما شاهدت أثناء تتبع فلول البدو مَشْهَدُ ذالك البدوي الذي حاول الالتجاء داخل إحدى الخيام من القتل، متوسلاً بأرق عبارات التذلل والخضوع، ولكن ذالك لم يحل دون سَحْبه من الخيمة، وإفراغ عدد من الرصاصات في رأسه ليسقط جثة هامدة، تُوَارَى في حفرة حيث سقطت. إنني أكره الشَّرَّ أيًّا كان، وممن كان، ومع من كان، بصرف النظر عن أسبابه وبواعثه، ولعل هذا يرجع إلى أنني مرهف الحس فوق ما يتصف به من ذالك ذو الطبع السليم، ولكن هكذا كنت، ولك أن تصف ما انتابني من التأثر بذالك المشهد خَوَراً وضَعْفاً، ولكن ليس لك أن تتجاوز ذالك فَتَصِمَني بِحُبِّ الفتنة أوْ مُثيْرِيْهَا فَتَظْلِمَني.

وابتدر السُّقَاة ورود بئر (وَبْرة)[8] وكان ماؤها آسناً قد أصْرَى، فلما حركته الدِّلاَءُ انبعثَتْ رائحته وكانوا أربعة، فسقطوا صرعى في جوف البئر، ولم يُخْرَجُوا منها إلا جثثاً هامدة، بعد أن جُهِرَتْ ... ومن بين اؤلئك السقاة الأربعة (فلاح) وهو فتى يساميني عمراً، تعارفنا أثناء الرحلة، كان ذا رغبة شديدة في تعلم القراءة والكتابة، فلازمني حتى شدَا طرفاً منهما، وحفظ سوراً وأدعية قصيرة، وعاش بدويّاً يرعى ذَودَ إخوته، ولكن حرصه على التعلم حمله على العزم على الاستقرار في الهجرة (عروا) عند أخت له متزوجة فيها، لقد كان يقوم بحمل بتاتي [متاعي] فوق راحلتي ويهيىء رحلها، ويقربها لي، ولا يَدَعُني حتى يراني سائراً مع رفقتي، ويحرص على مجاراتي في السير ليسمع مني،

أو يُسْمعني ما حفظ، وقد حَزِنْتُ حين شاهدتُّ موته على تلك الصورة البشعة، حزنًا أحدث في نفسي صدمة عنيفة لا ينمحي أثرها.

وانتابَتْ جارِي في الخيمة نوبةُ بَرْدٍ أحدثتْ له مرضًا في صدره، فكان يمْضي ليله في الأنين والسُّعَال المؤرِّقَيْنِ، فما أكاد أُغْفِي ناعسًا حتى تجثم عليَّ الأحلام المرعبة التي لا يدفع عني وطأة كابوسها سوى ارتفاع أنين جاري المؤثر في أقسى القلوب!! إلاَّ أنَّ ذالك لم يزد على عشرة أيام، حيث كان الإيابُ بعد رحلة استغرقت نحو ستّين يومًا ـ من غرة شهر رجب إلى اليوم الخامس من شهر رمضان سنة ١٣٤٨هـ.

الحواشي:

(١) : (السَّعْلُو): هو مايعرف باسم السعلاة. (أهل بسم الله): يقصد بهم الجن، (الشِّيفة): هي السعلاة لأنها تتلون وتتكيف بصور مختلفة في النظر، مأخوذة من الشوف (الشوف عند العامة الرُّؤية).

(٢) : العَنَقُ: نوع من سير الإبل الجادّ، قال الراجز:

يـا نـاقُ سِيْـري عَنَقًـا فسَيحـاً ... إلـى سليمـان فَأُسْتَـرِيحَـا

(٣) : بيت زهير:

يَمْشُونَ مَشْيَ الْجِمال الزُهْرِ يعصِمُهُمْ ... ضـربٌ إذا عَـرَّدَ السُّودُ التَّنابِيْل

كلمة (اليا): بلهجة العامة: إذا.

(٤) : معنى هذه الجملة: كله سواء، ولعل كلمة (أبوه) يقصد بها أنه يرجع إلى أصل واحد.

(٥) : ياهَيْه: يا هاؤلاء. يَالّلي: يا الذين. عَانْوا: عاينُوا: انظروا. إلّيَا: إذا.

(٦) : تـَبَا: تبغي. الحُضيري: تصغير رقة وعطف.

(٧) : يا حبْني: ما أشدَّ حُبِّي، المَيْرق: المرق. المضيرة: الأقط.

(٨) : وَبْرَة: هو المنهل المعروف قديماً باسم (ثَبْرة) وانظر لتحديد موقعه (قسم المنطقة الشرقية) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

(عيد) تعْوِزُه البهجة!*

وأين للبهجة أن تحلَّ بين أكواخ هذه (الهجرة) المكتظة بأصناف من بؤساء البشر، من بين همٍّ هَرِمٍ، أو مريض قد استشرى دَاؤُه، أو فقير وَقِير[1]؟!!

لقد حلَّ العِيدُ بعد الأوبة من رحلة مضنية، زادها مضضاً وإرهاقاً ما تخللها من هموم التطلع إلى ماذا سينتهي إليه سَيْرُ هذا الفتى الحائر في دروب حياته المظلمة!

ها هو بعد أن عاد من تلك الرحلة في غاية الترقُّبِ لما انتهى إليه أمر أكبر إخوته، بشأن ما عرض عليه من قيام الإخوة ـ متشاركين مع أمير هذه الهجرة ـ بعمل يتوخَّوْنَ من القيام به انتشالهم مما هم غارقون فيه من فاقةٍ وبُؤْسٍ، وفرقةٍ وتمزُّقِ شملٍ، منذ انحلَّ عِقْدُ التئامهم بعجز أبيهم قبل بضع سنوات، عن الاشتغال بأيِّ عمل من أعمال الحياة التي كان يشارك فيها أهل قريته، مما يتيح له ولأسرتِه العيشَ كَفافاً، من أضيق طرقه وأشقها وأقساها، حتى أنهكه السعي فخارتْ قُوَاه، وأذواه ما يُجْهِدُ نفسَه بالقيام به من عمل تعباً وإعياء، حتى أضواه المرضُ فسقط جثَّةً نخرتها الأدواء، بعيداً عن قريته التي عاش فيها غريباً عن أبنائه المشتتين غرب البلاد وشرقها، وشمالها وجنوبها[2].

لم يَطُلْ تَرَقُّبُ نَبإِ الأخ بعد إياب الفتى من سفره، بل لم يمض أسبوع، وإذا بالبابِ يُطْرَقُ ذات صباح، وإذا الطارق يكادُ يسقط ضعفاً وهزالاً، بحيث لم يستطع إنزال ما على راحلته من متاع ورحلٍ، لقد بدا

* المجلة العربية، العدد (١٤٩)، جمادى الآخرة ١٤١٠هـ / كانون الثاني ١٩٩٠م.

هيكلاً عظميّاً يرْعبُ من يراه، لقد استهان بدائه ـ وهو الداء العضال[3] ـ فلم يذهب إلى الكويت لعلاجه، فتمكن منه وانتشر في جسمه، فأصبح من جَرَّاءِ ما يعانيه من آلام مشغولاً بنفسه، منصرفاً عما عداها من أمور الحياة، ولقد أتى على كل ما حازه من متاع الدينا ـ على قلّته ـ وجاء مؤملاً أن يجد لدى أخيه ما يَسُدُّ به رَمَقهُ بقية أيام حياته التي آذَنَتْ شمسُها بغروب، لقد أطمعه الفتى وأغراه حين عرض عليه العمل في (الفلاحة) التي قَلَّ أن يفكر في القيام بها من لم يكن ذَا بَسْطَةٍ في الرزق، وسعةٍ من المال، أو إسْنادٍ ممن هذه صفته للقائم بتلك الحرفة، وغالباً ما يكون هذا الإسنادُ مبْنيًّا على جشع وطمع.

لقد تغلبتْ عاطفةُ الشفقة بين الأَخَوَيْنِ بعد مكاشفة الصغير، وقناعة الكبير بما سيناله، وياليته اكتفى بما جادتْ به نفسُ أخيه له، وهو لم يَضِنَّ عليه بخير ما عنده، لقد رغب أن يعودَا إلى القرية معًا، بل أصَرَّ على ذالك، مستعملاً أرقَّ وسائل الاستعطاف والرجاء، مظهراً أنه ـ وقد أصبح على شفير القبر ـ إن لم ينل رعاية أخيه وَصِلَتَهُ، ووقوفه بجانبه وهو على هذه الحالة فمتى يكون ذالك؟! وأَيُّ خَيْرٍ في هذه الحياة إذا عُدِمَ فيها التعاطفُ والتراحمُ بين الأَقربين في أشدِّ الأوقات حاجةً إلى ذالك، وحين يصبح أحدهم فريسةً لنوائب الدهر ومصائبه؟!!

لم أتمالك نفسي فشاركته البكاء، بل أحسست كأن قلبي يتمزق حين ارتفع نشيجُهُ، إنه في حالة تستدعي ذالك، وأنا ذُوْ عاطفةٍ تطغَى عَلَيَّ رِقَّتُهَا في كثير من الأحيان، بحيث تخنقني الْعَبْرَةُ بِمُجَرَّدِ سماعِ صوت مُؤَثِّرٍ، من قارىءٍ، أو من خطيب، أو حين أشاهد منظراً مُحْزِناً مرسوماً في ورق، فضلاً عن أن يكون لذي روح، ولو حشرة من الحشرات التي اعتاد الناس قَتْلَها.

ولكنَّ رهافَةَ هذا الإِحساس ورقَّةَ هذا الشعور لا يَبْدُوَانِ لي إلا في المواقف المحزنة، فلا يُمَكِّنَانِي من استجلاء مظاهر الجمال، وإدراك مميزاته المؤثرة في العواطف، قد أستطيب روائحَ الأزهار العَطِرة، وأَسْتَلذُّ بمشاهدة تناسُقِ ألوانها، ولكنني لا أُدْرِكُ ميزاتِ بعضها عن بعض، فضلا عن استشفاف سِماتِ الجمال الطبيعي في مختلف مباهج الطبيعة، وقد يعود هذا إلى ضحالة روافد المعرفة المُنَمِّيَة للمشاعر العميقة، التي لم تَقُمْ أساساً على اتِّسَاقٍ من التفكير المركز، أو على نظامٍ في التحصيل الدراسي، ولكنها لا تعدُو أنماطاً من أفكار مبعثرة، ومعلومات مبسترة، اختزنتها الذاكرةُ، دون استعمال رَوِيَّةٍ، أو إعمالِ جُهْدٍ علميٍّ لصقلها، ولإحداث احتكاكٍ ذهنيٍّ عميق في الدراسة والبحث لتنميتها ـ أو هكذا يَبْدُوْ لي ـ ولعلَّ من هذا ما تدركه في حديثي إليك عن عدم ارتباط بين ما يحويه من أفكار، والجنوح ـ دائمًا ـ إلى الاستطراد، والخروج عن الموضوع قبل تمامه!!

لم يَرْتَحْ صاحبُنا (الأمير) لمجيءِ أخي، بعد أن أدركَ أنه قد أَثَّر عليَّ للذهاب معه، وفي هذا تأجيلٌ للقيام بما جرى البحث فيه عن المشاركة في (الفلاحة) إن لم يكن عُدُولاً عن الأمر كله، ولكنه لم ييأس من عودتي حين علم بأنني بعد أن أزور أقاربي في القرية سأذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج، ثم أرجع، ورجا أن نتقابل هناك.

وبعد صلاة إحدى جُمَعِ شهر شوال سنة ١٣٤٨هـ [آذار ١٩٣٠م] ـ وقد مضى شَطْرُ الشهر ـ امتطى الأخَوان (ناقة سلامة) التي استأجرها الأخ في مجيئه من صاحبها سلامة بن نُغَيْثر، وغادرا (عَرْوَا) ومع كثرة من رآهما عند الرحيل فلم يسمعا من أحدٍ كلمةَ توديع، وإنْ

شاهدا في نظرات كثير من اؤلئك ما يُعَبِّرُ عن شفقةٍ أو (توجُّع) لما بدت عليه حال هذين المسافرين من رثاثة وضعف، وما أشدَّ وَخْزَها من نظرات!!

وَلِرَحْمَةِ الْمُتَوجِّعِيْنَ مَرَارَةٌ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ

ولكن هذا لم يَصْرِفْ قلبَ الفتى عن التَّلفُّت نحوَ هذه البلدة الكريمة، التي بدأ البعدُ يَلُفُّها بردائه، بعد أن تَلَفَّتَتْ عيناه الغريقتان بالدموع إلى ما بدا من معالمها ـ بأسى وَوَلَهٍ وحُزْن:

وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِي فَمُذْ خَفِيَتْ عَنِّي الطُّلُولُ تَلَفَّتَ الْقَلْبُ

لم يستغرق زَمَنُ الرحلة سوى ليلتَيْن، سَيْرَ تُؤَدَةٍ ورِفْقٍ، حتى بلغنا مَغَانيَ الطفولة، ومرابعَ الشباب، ومعاهدَ الأَحبة، ولدات الصَّبا:

بِلاَدٌ بِهَا نِيْطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي وأوَّلُ أرْضٍ مَسَّ جِلْدِيْ تُرَابُهَا

وكان مُنَاخُ الراحلة عند بَاب (المَجْمَعِ) الذي أُعدَّ منذ أزْمَانٍ ليكون (سِجْناً)[٤] ثم أصبح (مَجْمَعاً) لأطفال القرية، يجتمعون فيه لتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن، حين كان الفتى يتولّى تعليمهم فيما بين عامي ١٣٤٢ و ١٣٤٥هـ[٥]، بجواره يقع منزلُ مؤذن القرية الرجل النقي الورع إبراهيم بن حُمُود ـ رحمه الله ـ ويتصل بهذا المنزل بيت صغير، لإحدى قريبات المؤذن تدعى (خديجة) وفيه يَحلُّ الأخ الأكبر هو وزوجه منيرة بنت إبراهيم بن ناصر من أسرة المؤذن، وما كان هذا البيت لصغره ليتسع لأكثر من الزوجين، ولكن أين يسكن الفتى، ولا مأوى له في قريته ومسقط رأسه؟!!

لقدْ كان لِجَدِّ الأسْرةِ بيتٌ في هذه القرية ـ كغيره من سائر أهلها ـ

واقعٌ في الجانب الشرقي من قصرها الداخلي، تحت منارة مسجدها الجامع، ولكنَّ الخرابَ أتى عليه فلم يبق منه سوى معالم حدوده، وللأب القريب دار تقع في نهاية (سُوق الحَميدي) في القصر الخارجي، وقد غَلِقَتْ في الرهن لتاجر جشِع، أثقل الأبَ بديونه الربوية، يلقَّب بـ(مكروه) فاستولى على تلك الدار، وللأسرة قصر زراعي في قريتهم المعروفة باسم (شَرْقة) التي تبعد شرقاً عن هذه القرية بمسافة خمسة أكيال، ولكن هذا القصر أصبح أطلالاً دارسةً، يُغَنِّي الْبُومُ فوق خرائب أبراجه[٦]، بعد أن نزح عنه آخرُ من سكنه منذ عشر سنوات، فأين يأوي الفتى؟ وأين يستقر؟

لقد أدرك الأخُ الآن خطأ تَسَرُّعِه بالإلحاح بمجيء أخيه هنا، حين شاهده يمضي أوقاته (سَبَهْلَلاً)[٧] بدون عملٍ ولا أملٍ، فريسةً لهموم سيطرت على نفسه، حتى بدا مُرْهَقَ الجسم، خائر الذهن، ثم ما هي الْجَدْوَى من اجتماع ضعيفين عاجزين، أَدْنَفَتْهُمَا أوصابُ الجسم والنفس، وانْسَدَّتْ أمامهما سُبُلُ العيش، في هذه القرية المحدودة الرزق لأقويائها، فضلاً عن الضعفاء والمرضى.

كان الأخُ يتوقع من الْجَدِّ ـ وهو إمام أهل هذه القرية، ومن أثريائها ـ أن يَضُمَّ إليه الفتى، كما فعل سابقاً حين كان يستعينُ به في القراءة والكتابة، ولكنه الآن أصبحَ مستغنياً عنه بِسِبْطٍ آخر[٨]، ولهذا فما كان راضياً بمجيئه، ولا مرتاحاً ببقائه في حالته التي هو فيها (يتسَدَّح في السِّيْسَان)!! إنَّ حجاجَ أهل هذه القرية يتأهبون بإعداد لوازم السفر إلى مكة المكرمة، فلماذا لا يتهيأ للذهاب معهم، ولن يَعْدِمَ هناك عملاً يستفيد به خيراً، أو يستزيد علمًا نافعًا؟!

ولكن (جاسراً) الذي انتشر الداء في جسمه، [أصبح] في حالة تستدعي الرأفة والشفقة؟! غَيْرَ أَنَّ الجدَّ يلوذ بالصمت، بل يتهم الرجل بالتراخي والإهمال، والإخلاد إلى الكسل، ها هو وقد بدأ به الداءُ منذ ثلاث سنوات لم يغادر القرية، ولم يقم بأيِّ عملٍ يكسب من ورائه ما يصون به ماء وجهه عن تكفف الناس ـ ومنهم إخوانه ـ!!

وتمضي لُيَيْلاَتٌ قلائل، هي أطولُ ما مَرَّ بالفتى من ليالي حياته، ضِيقاً واكتئاباً وحيرةً، وما أسرع الفرج! لقد وصل الطبيب (ديم)[٩] الرياض، ويقال بأنه بعد أيام سيأتي إلى بلدة (شقراء) التي لا تبعد عن (البرود) أكثر من مسيرة يوم، ولا يزال الأخ بحالة تمكنه من الذهاب إلى الطبيب في إحدى البلدتين، وقد أبْدَى خالهُ (سعد) أنه لا يتوانى عن مرافقته للعلاج متىً احتاج إلى ذلك، وإلى أي بلد شاء.

ولم يَحِنْ وقتُ سفر الحجاج ـ في منتصف شهر ذي القعدة ١٣٤٨هـ ـ إلا والفتى قد أَعَدَّ ما استطاع إعداده من لوازم الرحلة، فقد نقَد (سلامة) سبعة وتسعين ريالاً، ثمنًا للراحلة، وَهيّأ من المتاع ما قدر على تهيئته بما بقي معه من نقود هي كُلُّ ما سمح له أخوه بعد أن جاد له بجميع ما عنده، وما أقلَّه!!

وتُودِّعُ القريةُ ركبَ الحج الذي لم يزد أفراده على أربعة[١٠]، بينهم صاحبنا، وما كان أزهد حظّاً بين رفقائه بالنسبة لِمُوَدِّعيه، لكثرة أقاربه، بين أخ وجدٍّ، وأخوال وخالات، وأقارب ومعارف، وتلاميذ ممن كانت منزلته في نفوسهم ليست بأدنى من منزلة ذالك العالم في نفوس مودعيه الكُثْر، الذين لم يكن بينهم حين خرج من بلدته من

يَجُودُ له بالقليل مما يقيته من طعام الباقلا ، فلا غَرْوَ أنْ يكون وداعُ الفتى لقريته وداعَ فِراقٍ ، استمرَّ أكثر من ستين عامًا لم يَرَها إلاَّ لمَامًا ، في مناسبات سريعة ، ومَنْ يدري ماذا سيكون نهاية أَمْره لو أجَنَّهُ أحدُ أكواخها تلك الليالي الحالكَة السَّواد ، إنَّهُ لَنْ يَعْدُوَ أن يكون حَجَراً من أحْجَارها ، أو حفْنَة من تُرَابِها ، ولكن ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

الحواشي :

(١) : الهِمُّ ـ بكسر الهاء ـ : الشيخ الفاني. الوَقِيرُ : الذي أثقله الفقر. وفي لغة عرب هذا العصر : الوَقِير : من سُلِب ماله وجميع ما يملك بالقوة والقهر، فَرْداً أو جماعة، فالتجأ إلى القرى لسؤال أهلها.

(٢) : أكبرهم في (مكة) وأصغرهم في (المُرَبَّع) والآخر في أحد (خبوب بريدة) وأوسطهم في (عَرْوَا) ووفاة الأب في (الفرعة) من قرى الوشم.

(٣) : هو نوع من (السرطان) يدعى في نجد (الخنازير) غُدَدٌ من الأورام، تنشأ في الرقبة، ثم تنتشر في بقية الجسم حتى تقضي على صاحبها.

(٤) : بني هذا السجن دورين أعلاه غرفة للحراس، وفي أسفله حجرتان يفصلهما جدار قد ثُقِبَ أسفله عدة ثقوب ضيقة، تُخْرَجُ منها أرجل المسجونين الذين يلقون على ظهورهم مُكَتَّفِي الأيدي في الحجرة القُصْوَى، ثم تجمع الأرجل المخرجة من الثقوب في الحجرة الثانية ـ تجمع بخشبتين تطبق إحداهما على الأخرى، وتربطان بسلسلة من حديد مقفلة ، وهذا النوع من السجون معروف في بلاد العرب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً [انظر وصفه في شعر جحدر العكلي «العرب» س ١١ ص ٧٣] .

(٥) : انظر السانحتين (عود إلى قرية البرود) و (سجن أصبح مدرسة).

(٦) : تقدم الحديث عن هذه القرية في السانحة المتعلقة بـ (أسرة آل جاسر).

(٧) : سَبَهْلَلُ : فارغ بدون عمل. ومن قول عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ : إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللا.

(٨) : هو ابن خالة الفتى وأحد من تعلم عليه سالم بن عبد الرحمن بن سالم الذي خلف جده في إمامة المسجد إلى وقتنا ــ أكثر من خمسين عاماً.

(٩) : كان في البحرين والكويت في أوائل القرن الماضي (بعثة تبشيرية) اشتهر من بين أفرادها طبيب أمريكي يدعى (ديم) قام بمعالجة كثير من الأدواء بطريق الجراحة في (الرياض) و (شقراء) وغيرهما من مدن نجد، وكان يعالج مجاناً (انظر كتاب، جزيرة العرب في القرن العشرين، لحافظ وهبة ــ ص ١٢١ ــ حيث أشار إلى معالجته الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٢هـ ــ (١٩٢٢م) من قرحة في شفته.

(١٠) : هم : عبد الله بن سليمان الحصيني، وعبد الله بن سعد بن نُغيشر، وحمدان بن مرزوق، وصاحبنا.

وعاد (العيد) بحال أخرى !!*

يحاول المرءُ ـ جاهداً ـ أن يرسم طريق سيره في هذه الحياة ليبلغ بعض غاياته، وكثيراً ما يخيب السعي، فينعكس القصد، ولكن قد تجري أموره دون تدبير منه، أو تَوَقُّعٍ لما سيكون من عواقبها أو آثارها، فتندفع به إلى الوجهة الملائمة لطبيعته حتى يبلغ ما هُيِّءَ له السعي نحوه في معترك حياته، فيحمد العُقْبَى، بعد نُجْح المَسْعَى.

وما كانت زيارة القرية مع الأخ المريض إلا بدافع العطف والشفقة عليه، فقد عشْتُ فيها حياةَ بؤس وشقاء، في عهد كنتُ فيه جديراً بالحنو والرعاية، فما الذي سأجده فيها الآن؟!

كان الاتجاه إلى مكة للحج، لطلب العلم، للبحث عن الرزق، للخروج مما اعتراني من كآبة وضيق، لماذا؟ لا أدري فقد كان دون أن تنطبع في الذهن الغايةُ منه، ولكنه تَمَّ فأزاح عن النفس ما جثم عليها من كابوس الضيق، مما يحس به من أقسى أسباب الأسى، وأعنف بواعث الحزن، وآهٍ من الاسترسال في التفصيل!!.

سار الرفقة الأربعة وهم على خير ما يتصف به الرفاق في السفر من الوئام، واتفاق الأهداف، والتعاون في مختلف أوجه السعي، إلا أن مِنْ بينهم من لم يفكِّرْ في أمرٍ اتفقوا عليه، سيعود كل واحد منهم بعد أدائه فريضة حجه، متزوداً بما سَيُتْحفُ به أهله وأقاربه وأصدقاءه مما اعتاد العائد من الحج إحضاره معه، فَيُسْتَقْبَل بالبشر والترحاب، ويقدم على أهل ومَوْطِىءٍ سهل، أما صاحبنا فما الذي يذكر هنا؟.

---

* المجلة العربية، العدد (١٥٢)، رمضان ١٤١٠هـ / آذار ونيسان ١٩٨٩م، والعدد (١٥٣) شوال ١٤١٠هـ / نيسان وأيار ١٩٨٩م.

ما أرحم هذه الفيافي الرحبة، والفجاج المترامية الأطراف في هذه الصحراء الفسيحة، حيث يتنسم المرء أَرَجَ الانطلاق والانعتاق مما كبّل فؤاده، وأوهَى قواه، فعجز عن النهوض به من أعباءِ الحياة وهمومها داخل تلك الجدران، أو في أسواقها الضيقة أو بين أهلها البؤساء.

إن للحياة أثناءَ السفر طعْماً ولذة قد لا يحس بهما إلا من حُرِمَهُما في المدن والقرى، ممن لم تتيسر له وسائل العيش الرخيّ، ناعمَ الحال، هادئَ البال.

أو هكذا خُيِّلَ لصاحبنا خلال سبعة عشر يومًا أمضاها من آخر شهر ذي القعدة وأول شهر ذي الحجة، فيما بين قرية (البرود) ومدينة (أم القرى) من عام ١٣٤٨هـ [أواخر شهر نيسان ١٩٣٠م] ـ وما كانت المسافة بين المكانين يتطلب قطعها ذالك الزمن كله، ولكن كان سير الرفقة وفق خطة (إنَّ لراحلتك عليك حقًا).

وما منهم إلا من كان بِرُّهُ براحلته مُقَدَّمًا على اهتمامه بمتطلبات نفسه، ومن كان يرى في أيام سفره ذالك ما يراه المتنزه، المستمتع بمباهج ما يشاهده في أجمل ما يقصده من البقاع، وما أبهى ما مررنا به منها، وهي مكسوة بالخضرة النضِرة، تزهو بمختلف ألوان البقول المزهرة، وتَفْهَقُ محاني أوديتها ورياضها بالغُدْرَانِ الصافية، التي يُهفْهِفُ النسيم عن حواشيها الْقَذَى فتبدو كالمرايا.

ولا أرى غضاضة في القول بأنَّ السَّفْرَ ـ وقد قُدِرَ عليهم زَادُ سفرهم ـ منحتهم تلك الأرض المخصبة المربعة، وجادت لهم بما فَتَقَ الخواطر، ونَتَق البطون، منهم ومن مطاياهم، من طَيِّبَ نبتها، وحُلْو جناها[1]،

ومْرِع أحرار بقولها، ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ولقد كان الجوُّ سَجْسَجاً لا حَرَّ ولا قَرَّ، ولهذا لم تَدْعُ الحاجةُ إلى نَصْبِ (الشِّرَاع)[2] طيلة أيام الرحلة إلا في ليالي مِنَى والأبطح.

صاحبنا أصغرُ القومِ سناً، وأرقُّهُم حَالاً، ومن لازِم هذين الأمرين ـ عادةً ـ أنَّ مَنْ يَتَّصِفُ بهما أو بأحدهما يكون أوفرَ حَظّاً من غيره في القيام بمتطلبات الرفقة من أعمال السفر، كإحضار الحطب، وعمل القهوة، وطبخ الطعام، وملاحظة الرواحل في المرعى، وإحضارها وقت السفر، مع التعاون غالباً في جميع ذالك، ومع أَنَّهُ ضَعِيفُ البنية، لم يعتدْ كثيراً القيام بتلك الأعمال إلا أن مشاركته بما يستطيع أَداءه منها يحدث له من النشاط والقوة ما يفعم نفسه ارتياحاً وسروراً، بالإضافة إلى أنَّ رُفْقَتَه لا يضِنُّون عليه بما يستحقه من تقدير ورعاية، فقد يخصونه بشيء من أطايب الأكل، وقد يؤثرونه بالفراش الوثير، وبالجلوس في الظل حين يتقلص فلا يتسع لهم جميعاً، إذ هو إمامهم في الصلوات، ومعلمهم لأحكام المناسك، ومرشدهم لمعرفة ما يحتاجون معرفته من أمور دينهم، فليس من بينهم من يقيم قراءة الفاتحة على الوجه الصحيح، وكثيراً ما كان يُسْمِعهم من محفوظاته من الشعر مُتَرَنِّماً به ـ على عادة قراء ذالك العصر في نجد ـ فيطربون، ويستزيدون منه، وتأثرهم بالتغني به أقوى من إدراكهم لمعانيه، فهو لا يَعْدُو قصائد الوعظ من شعر يحيى ابن يوسف الصَّرصري[3] وأمثاله:

أنا العبد الذي كسب الذنوبا ... وغرته الأماني أن يتوبا

أو نحو

ليس الغريبُ غريب الشام واليمن ... إن الغريب غريب اللحد والكفن

أو قصيدة ابن القيِّم(٤):

فَحَيِّ على جنات عَدْنٍ فإنها   منازلك الأولى وفيها الْمُخَيَّمُ

ومن المعروف أن الأصل في قراءة الأشعار التغني بها لإطراب السامع بالصوت المنسجم مع وزن الشعر، على حد قول القائل:

تَغَنَّ في كلِّ شعرٍ أنت قائله   إن الغناء لهذا الفنِّ مضمار

ومع أنه لم يسبق لواحد من الإخوة سلوك طريق الحج ليكون ذا معرفة به للاستدلال على معالمه وورود مناهله، إلا أنهم لم تعترضهم أيَّةُ مشقَّةٍ أثناء سيرهم، ولم ينحرفوا عن الوجهة التي كانوا يقصدون، فكانوا حين يصدرون عن أحد المناهل المعروفة يستوضحون عن الطريق، ممن يلتقون به من الناس، وقلَّ أن يتجاوزَ وقتُ سيرهم بياضَ النهار وأطرافَ الليل، وكان من أشهر ما مَرُّوا به من المناهل المعروفة: الدَّفينة وقُبَا ومَرَّان، وعُشَيرة، والسِّيل الكبير (قَرْن المنازل) ومنه إحرامهم، وفيه التقوا بعدد كثيرمن الحجاج الذين لم ينقطع الاجتماع ببعضهم أثناء الطريق، حتى كان بلوغ مكة المكرمة في مساء اليوم السابع من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٨هـ [٥ أيّار ١٩٣٠م] ـ وكان النزول في جانب الأبطح، المقابل لقصر السقاف ـ القصر الذي كان ينزله الملك وحاشيته ـ إذ الحجاج القادمون من نجد في ذالك العهد لم يعتادوا النزول في بيوت البلدة، وإنما كانوا ينصبون خيامهم ويقيمون أخبيتهم في بطحائها الممتدة من قرب (قصر الجعفرية) شرق ريع الحُجُون إلى مفترق طريقِ مِنَى من طريق الشرائع، وفي الشعاب المُتَّصِلَة بتلك البطحاء من الجهتين الشمالية والجنوبية، وخلف القصر الملكي، وأمامه حيث لم ينتشر العمران في حارة (المعابدة) بَعْدُ.

كان الواحد منا ـ منذ أن تجردنا من ملابسنا بارتداء ملابس الإحرام بعد الغسل وأداءِ ركعتي السُّنَّة وترديد تلبية التمتع بالعمرة إلى الحج ـ يتصورُ في كل شيءٍ يُشاهده من الجمادات أثناء السير من الجبال أو الصخور أو الأشجار أطيافاً ذات إحساس بمن يمر بها، بحيث توشك أن تدنو منه فتلتزمه فيمتليء قلبه من هذه الرُّؤَى الغريبة، وما ذاك إلا من تأثير ما شغلنا به أفكارنا من أننا بأداء فريضة الحج ينبغي أن نتأثر بذالك العمل، فنخرج من أوضارنا كيوم ولدتنا أمهاتنا، فعشنا من جراء هذا التفكير تحت طغيان عاطفة غريبة ، ملكَتْ علينا مشاعرنا، تستمد مما اشتغلنا به منذ الانتهاء من أعمال الإحرام من التلبية والدعاء، والتضرع والاستغفار، بصورة أثرت في أنفس بعضنا إلى درجة البكاء، ومع أننا اعتدنا تناول طعام العشاء حين يستقرُّ بنا المنزل، ونُهَيِّءُ لرواحلنا ما هي بحاجة إليه من علف ومناخ، إلا أننا وقد انتهينا من شؤون الإحرام لا نزال منصرفين عن التفكير في إعداد الطعام أو القهوة، بل لا نزال تحت تأثير ذالك الشعور الروحي الغريب، وكأنه لا يعنينا من أمور الدنيا شيءٌ، لنذهب الآن لأداء مناسك العمرة، ولن نعدم من يرشدنا الطريق إلى الكعبة المطهرة، وإن لم تكن الشوارع في ذالك العهد منارة، ولنُرِح نفوسنا بما يشغلها من أمر مناسكها.

ولكن كيف نترك أمتعتنا ورواحلنا؟! هَاهُوَ خِدْرٌ على مقربة منا، وأبناء البادية منتشرون في هذه الجهات ـ كحالتهم في مداخل المدن وأطرافها ـ وفي الْخِدْرِ ـ على ما ذكر عُبَيِّد أحد الرفقة ـ عجوز معها ابنتها، وقد وعدت بملاحظة الرواحل وحفظ المتاع حتى نعود.

لم تُثِرْ رُؤْيَةُ هذه الأنوار الساطعة في جوانب قصر السقاف في

نفوسنا كبير اهتمام، وإن كانت المرة الأولى التي أبصرنا فيها في حياتنا أنوار الكهرباء، وهذه أنوار أخرى رأيناها حين انحدرنا فبلغنا الحرم، ولكننا دُهِشْنا عنها حين أبصرنا الكعبة المطهرة، وقد أحاط الطائفون بها مرتفعة أصواتهم بالدعاء والذكر والاستغفار، إننا بحاجة إلى من يرشدنا إلى ركن الحجر الأسود لنبتدئَ منه الطواف، وبعض الطائفين ما كان يقتصر على تقبيله وحده، أو الإشارة بيده إليه بل قد يعم بذالك بعض الأركان الأخرى، هاؤلاء حجاج لم يشرعوا بعد في الطواف فلنسر خلفهم، ولا حاجة إلى الاقتداء بمطوفهم بالأدعية والأذكار، فصاحبنا قد لقّن إخوته ما ينبغي ترديده منها.

ما كان الحجاج ـ في ذالك العام ـ كثيرين،* ولهذا فلا ازدحام في الطواف، ولا في غيره مِن المشاعر، ولا مضايقة عند بئر زمزم للشرب من مائها، فقد أُعدَّت مشارب (بزابيز) بأقداح خارج البئر، ولكننا لم نكتف بالشرب منها حتى التضلع، بل تسللنا داخل زمزم كما يفعل غيرنا، فظفر كلٌّ واحد منَّا بسَجْل ماءٍ دَلَقَهُ الساقي الذي يُخرج الماء بالدلو من البئر ـ فوق رأسه حتى غَمَرَ بِه جميع جسمه وهو يكرر (بَركة يا حاج! بركة ياحاج!) متطلعاً إلى أثر كلمة الاستجداء هذه في نفوسنا، ولكن (لا حياة لمن تنادي!) فلم ندرك الغاية منها، فاكتفينا بالدعاء: (بارك الله فيك! بارك الله فيك!).

كان الدخول إلى المسجد من غير باب السلام ،فقد قالت لنا العجوز حين استوضحنا منها عن الطريق: احْذُروا الواديْ حتى يوقفكم جدار الحرم، فسلكنا الطريق الأيسر حتى أفضى بنا إلى أحد أبواب المسجد

* بسبب تأثير الأوضاع الاقتصادية العالمية، وذيول الدعاية المضادة في الخارج للحكم السعودي الجديد في الحجاز، (ش).

الغربية، ولم نَمُرَّ بالجودَرية فَالْمُدَّعَى، وبعد الانتهاء من الطواف سألنا عن (باب السلام) ظَنَّاً أنه هو المفضي إلى الصفا، فأَرشدنا إليه، وعند الخروج منه سرنا معَ زُمَرِ الساعين، وكانوا متجهين نحو المروة، فتابعناهم ولم ندرك خطأنا من أننا لم نبدأ بالسعي من الصفا إلا بعد انتهاء سبعة أشواط غير كاملة، فكان أن أعدناها كلها يوم النحر.

واستبطَنَّا الوادي عائدين إلى منزلنا في أعلاه، ومعنا أرغفة من خبز (التميز)[٥] وما كنا نُحِسُّ للجوع بأثر، بعد تَضَلُّعنا من شرب ماء زمزم، بل كنا نتصور أننا سنستغني به عن الطعام، كما كنت حدثت الرفقة بحديث ذالك العالم التقي ابن القيِّم[٦]، وبكتابه الهدي «زاد المعاد» و«منسك شيخ الإسلام ابن تيمية» كنا نستنير ونسترشد في أمور حجنا.

خشينا أن لا نَجِدَ في ذهابنا إلى منى فعرفات فمزدلفة عَلَفاً لمطايانا فاشترينا ساعة نزولنا في الأبطح ما توقّعناه كافيا، ووضعناه بين (الشراع) وبين خبَاءِ العجوز، التي أحسسنا حين عدنا أنها قد نامَتْ، وأبصرنا مكان العلف خالياً، فلم نوقظها ظَنّاً أنَّها خبأته، ولكنها فاجأتنا في الصباح حين سألناها عنه بجملة: (الله يخلف عليك.. كم غدا على الحاج من جمل!!) وها هو الحوش مُشيرة إلى مكان قريب ـ مملوء ـ بـ (الصلايب)[٧] وأضافت: يظهر أنكم ما قد حججتم، قدامكم (هذيل) والسنة ربيع و(حُوَشَة) منى ما تأخذ أكثر مما فيها من الحشيش.

لا أدري بم أُعَلِّلُ ما يعتري المرء المسافر من الخفة التي تسبب له دائماً عدم الارتياح، فلقد كنا من أول من بلغ منى في صباح يوم التَّروِيَة، يتقَدَّمُنا بعضُ الجمالين الذين يظهر أنهم كانوا يفضلون الإدلاجَ ليلاً لإراحَة جمالهم التي يحمل الواحد منها (شُقْدُفَيْن)[٨] على جَنْبَيْه،

مُتَّجِهِينَ إلى عرفات، ومع أننا كنا واصلنا السير طيلةَ نهار اليوم الماضي وجزءاً من الليل، ثم قضينا مناسك العمرة سعياً وطوافاً وسيراً من منزلنا في الأبطح إلى الحرم ثم العودة إليه، ولم ننل من الغذاء ما يقيم أَوَدَنَا، إلا أننا نحس بنشاط واندفاع إلى الحركة.

وبقرب (حَوْشٍ) وصفت موقعَهُ لنا العجوزُ البدوية نصبنا (شراعنا) واتجهنا بعد أن ارتفعت الشمس حيث اتجه الناس، وفي عرفات توخينا مكان موقف المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ منها فوق جبل (إلاَلٍ) عند الصخرات الكبار، ولم نبذل كبيرَ جُهْدٍ في الوصول إليه، إذ مَكَّنَنَا بُكُورُنا من ذلك، وفاتنا التريُّثُ إلى ما بعد أداء صلاتي الظهر والعصر بمسجد نَمِرَةَ مع جمع الحجاج، حيث أبصرنا خياماً كثيرة منصوبةً بقرب جبل الرحمة، ورأينا كثيراً من الحجاج مطيفين بالجَبَل، غير أنَّ شدَّةَ حرارةِ الشمس أَذْوَتْ ما كُنَّا نحس به من قوة، بحيث اضطر اثنان منا إلى الجلوس في ظل الناقة، ومحاولة الاستظلال بالمحامل أو الشقادف فوق الجمال، وملاهمة الماء الذي لا ينفع شربُه لعدم برودته، وبالباقي من الرغفان وقليل من التمر كان الاكتفاء غداءً، وكان لتأثير (القهوة) التي اعتدنا شربها، مع اشتداد حرارة الشمس ما أحدث لكل واحد منا صُدَاعاً شديداً استمر بنا حتى صباح اليوم الثاني.

ولم يكن الانصراف من عرفات بعد غروب الشمس شاقًّا لقلة الحجاج[٩]، وكان الوصول إلى مُزْدَلِفَة مبكرًا بحيث كان النزول عند ما يعرف بالمشعر الحرام[١٠]، حيث البناء المقام هناك، بقرب الجبيل المعروف قديما باسْمِ (قُزَحٍ)، ولم نُصِخْ ـ وقد استقربنا المكان ـ لركب أناخوا علينا، وصرخ أحدهم في وجوهنا قائلاً: (تقلَّعُوا!! هذا مكاننا

ما هو مكانكم) ! ! بل قابلناه بصوت واحد : لن نتزحزح عن مكانٍ سبقنا إليه فنحن أحقُّ به ، ورغم مضايقتهم بالنزول علينا فقد أدركنا منهم أسفهم على ما بدر منهم ، حيث قدموا لنا بقيةً من طعامهم ، وغادرنا المكان بِغَلَسٍ لإحساسنا بفتور في أجسامنا من جرَّاءِ حرارة الشمس ، والإجهاد من أثر مامارسناه من عمل ، وربما لعدم تنظيم الغذاء أيضاً ، ولكننا كملنا نسكنا حتى طواف الإفاضة ، واشترينا هَدْيَ التمتُّعِ من جالب غنمٍ مَرَّ بالقرب من منزلنا في منى ، وظننا أنه لا يجزيءُ حتى يُذْبَحَ في المكان المخصص لذالك ، ومن هناك حمل كل واحد منا هديه مسلوخاً إلى المنزل ، ولشدَّة قَرَمِنَا عُدْنَا إلى المذبح ، فأحضر كل واحد منا ذبيحةً منه ، لقد شُغلنا بقية يومنا بإخراج عظام الذبائح ، بعد أن تناولنا من رقائق اللحم شِوَاءً وطَبْخاً وشُرب مَرَقٍ ما كفانا ، ومع أن اليوم يومُ عيدِ الأضحى إلا أن الإحساس بشيء من مظاهره ـ كما بدا لنا ـ كان أقلَّ ما كنا نتوقع ، فالناس مشغولون بأداء المناسك من رمي الجمرة ، والذهاب إلى مكة للطواف ، وتُرَدِّدُ فِجَاجُ مِنى أصداءَ ارتفاع الأصوات بالتلبية والتكبير والتحميد والتهليل .

كنا حريصين على أداء صلاة العيد في المسجد الحرام ، ولكننا لم نصل إليه إلا بعد انتهائها ، ولئن كانت مباهجُ الأعياد تتمثل بما يغمر القلوب من إحساس بالراحة والاطمئنان ، وبخلوها مما يشغلها من هموم متاعب الحياة أيًّا كانت ، فليس من المبالغة القول بأن حظنا من كل ذالك في هذا العيد كَان موفوراً .

وها نحن ـ وقد استرخت منا الأَجسام ـ قد أَخَذَ كلُّ واحد منا مكانه ، واستغرق في نوم عميق ـ من جراء التعب ثم الشِّبَع ـ لم يوقظنا منه إلا انكفاء الظل نحو الشرق ، وانكشافه عن واجهة الشِّرَاعِ التي نمنا فيها .

لا يأخذ منك الاستغراب والعجب مأخذه لقوم اعتادوا أن لا يشبعوا من اللحم إلا أيام عيد الأضحى أو حين تصاب إحدى الإبل بداءٍ أو كَسْرٍ، فتنحر ـ كحالة سكان القرى ـ لا تستغرب من هاؤلاء وقد شاهد بعضهم آلاف الذبائح في ذالك المكان، يكتفي أكثر أصحابها بأخذ بضعة من لحمها بعد حضور ذبحها، ويتركها، لا تعجب لأولئك أن يصابوا بالنهم، وشدة القَرَمِ، عند رؤية لحوم تلك الذبائح، للاستحواذ على ما يستطيعون أخذه منها، لإطفاء أُوارِ ذالك السُّعَارِ، في مستقبل أيامهم ولكن كيف الوسيلة إلى التزود بما يريدون؟ تاجرُ الرفقة الحصيني عبد الله ـ هو رجل لَمَّاحٌ ـ أبصر أثناء الذهاب لرمي جمرة العقبة على مقربة من الجمرة الأولى أواني معروضة للبيع، ومن بينها قدور محكمة الأغطية (مُطَبَّقِيَّات) وما أسرع أن ذهب ومعه حمدان ـ بعد أن أيقظتنا الشمس من النوم، وعادا بأربعة قدور.

لِيُنقَّى اللحمُ من جميع العظام، ويُقَطَّع فِدَراً صغيرة يسهل تحريكها عند (حمسها) حتى تنضج، ولتسكب مع ما فيها من الدهن في أحد القدور حتى يمتلىء، وهكذا حتى استوعبت قدورنا الأربعة جميع لحوم الذبائح التي أحضرناها، وغداً نستطيع إحضار ما سنأكل، وما سنتخذ منه وشائق أو قديداً مملَّحًا [11]، ولكن: وتُقَدِّرُونَ فَتَغْلِبُ الأقدارُ [12].

لقد أوشكنا ـ في اليوم الثاني ـ أن لا نستطيع كلنا الذهاب لرمي الجمرات، ولكن الله لطف بنا ـ فتَولَّى اثنان منا ذالك، وأُصيب الآخران بإسهال وآلام شديدة في الأمعاء، مع صداع شديد طيلة ذالك اليوم، والغريب في الأمر أَنَّ أحد الحجاج ـ وهو يمني ـ نصح المريضين بشرب زيت (الخروع) فأحَسَّا بشيء من الراحة بعد ذالك، واكتفيا

عملاً بنصحه بالاقتصار على التَّغَذِّي بالمرق ومُغْلَى الحِلْبَة، التي جاد لنا بحفنة منها أتى بها من بلاده.

وهكذا حينما يتخيل المرء أنه بلغ منتهى أربه، وأدرك ما يرغب فيه من متطلبات حياته، يحدث له ما يصرفُهُ عن التمتع بإشباع رغبته منه بعد قدرته عليه.

وبعد زوال شمس اليوم الثالث كان الاتجاه إلى مكة، بعد رمي الجمار، وبجوار خِبَاءِ صاحبتنا العجوز في الأَبطح كان النزول، ولكننا كنا أحرص على أن يمكث أحدنا في المنزل، بينما يذهب الآخرون لأعمالهم، وما أكثرها في هذا اليوم، وما أكثر من يجب الاحتراس منهم فيه ـ على ما قيل لنا ـ.

لنا إخوة من أهل القرية، من جنود (الْهَجَّانَة) في قلعة أجياد (البلك الأول) كذا كان الاسم، و (شاووشهم) أي قائدهم حمود الفايز ـ من أهل (الفرعة) ذوي الصلة القوية بسكان قرية (البرود)، وبالاجتماع باثنين من اؤلئك الإخوة هما خالدبن سعد بن ناهض، وعبد الله بن إبراهيم الهذيلي، تَمَّ ترتيبُ شأنِ تخلف صاحبنا عن رفاقه، وهو أمر كان عازماً عليه منذ أنْ أزمع السفر، ولم يحنْ وقتُ صلاة الظهر في الحرم حيث اتفق مع أحد الأَخوينِ على الاجتماع في مكان عَيَّنَاهُ إلا وقد التقيا، ثم خرجا بعد الصلاة ليجدا الرفاق في انتظارهما ليقودا راحلة الفتى لعرضها للبيع في المكان المخصص لذالك في أعلى الأبطح، على مقربة من منزلهم، ولم يتطلب الأمر أكثر من الالتقاء بدَلاَّلٍ يعرفه الأخ، وتحديد ثمن يربح الفتى به بضعة عشر ريالاً عما دفع ثمناً لتلك الراحلة، ثم العودة حيث منزل الرفقة لوداعهما وداعا

لا لقاء بعده، وكان محزناً حقًّا، ومؤثراً بالنسبة للفتى، كما حدث له وهو يسلِّم خطام ناقته للدلال الرُّوَيْس في المعابدة!

الحواشي:

(١) : الْجَنَى ما يجنيه الإنسان يتناوله ويجمعه ليأكله من نبات الأرض، وأكثر ما يستعمل مما كان غضًا كالرُّطَبِ والكمأة، ومن النبات البقول الحلوة، مثل البقراء والبسباس والحوذان والذعاليق والحُوَّاء والحماض والحمصيص.

(٢) : الشِّرَاعُ ـ نوع من الخيام، لا رواق له، بل كل جوانبه مشرعة مفتوحة، ومن هنا اشتق اسمه.

(٣) : شاعر حنبلي من صرصر بقرب بغداد قتله التتار سنة ٦٥٦ هـ شهيداً وشعره في الزهد.

(٤) : انظرها في كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح».

(٥) : يظهر أن (التميز) تحريف كلمة (السميد) وهو الخبز الْحُوَّارَى المصنوع من لباب البر الأبيض.

(٦) : قال: وقد جربت أنا وغيري من الاستشفاء بماء زمزم أموراً عجيبة، واستشفيت به من عدة أمراض فبرأت بإذن الله، وشاهدت من يتغذَّى به الأيام ذوات العدد، قريباً من نصف الشهر أو أكثر، ولا يجد جوعاً ويطوف مع الناس كأحدهم، وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يوماً وكان له قوة ...) زاد المعاد ٣ / ٤٠٦ مطبعة السنة المحمدية.

(٧) : جمع صلية، وهي حبل متين مفتول بقدر الباع طرفاه مجموعان من ناعم العشب ورطبه يعرض للشمس حتى ييبس لئلا يتعفن إذَا غُمِلَ [أي وضع بعضه على بعض] رطباً، ويسمَّى الحبل منه صَلية، والجمع صلائب.

(٨) : الشقدف ـ كالهودج وكالظلة ـ يعد لركوب النساء والشيوخ المسنين يكون واسعاً بحيث يحمل الإنسان فيه ما قد يحتاج إليه، ويظلل بأقمشة من الصوف مزركشة وتحمل ـ الراحلة شقدفين على جنبيها.

(٩) : كان عدد الحجاج القادمين من خارج المملكة هذا العام (٨١,١٦١) واحداً وثمانين الفاً ومئة وواحداً وستين حاجاً ـ [جريدة «المدينة المنورة» ١١ ذي الحجة ١٤١٠ ـ العدد ٨٤٤٩].

(١٠): من العلماء من يصحح إطلاق (المشعر الحرام) على البناء الواقع وسط مزدلفة كصاحب «المصباح المنير» و «القاموس» ولكن المحققين من المفسرين يرونه مزدلفة كلها.

(١١): جمع وَشيقة وهو اللحم المشمس حتى تذهب نداوتُه، ومثله القديد الذي يقد كالسيور ويوضع فوقه الملح ليهضب ماءه، وهو القفر عند أهل نجد.

(١٢): غيرت كلمة (فتضحك) إلى (فتغلب) تأدُّباً.

تعـارف وتـلاقٍ*

اعتاد القادمون إلى مكة من أهل نجد في ذالك العهد ارتيادَ أمكنة في الحرم وبقربه مما يجعل الالتقاءَ بمن يُبْحَثُ عنه منهم سهلاً، فهم يتجمعون غالباً لأداءِ صلاة المغرب في (السَّرْحة)[1] الواقعة أمام ركن الحَجَرِ الأسود، حيث يصلي (الأغوات) ويؤدي كثير منهم صلاتي الظهر والعصر في (الخلوة)[2] المخصصة لموظفي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمتصلة بالمسجد، فيما بين بابَيْ أَجْياد وأُمِّ هانِيء، إذ أكثر موظفي الهيئة من طلبة العلم من أهل تلك البلاد.

أما بعد صلاة الفجر فقد كان إمام الحرم الشيخ محمد عبد الظاهر أبوالسمح[3] يلقي درساً في (السرحة) الواقعة يسار الداخل من باب السلام، وهناك يلتئم عدد منهم للاستماع إليه، لبساطة أسلوبه في الوعظ، لا لغزارة علمه ـ رحمه الله ـ وقد يكتفي بقراءة القرآن سَرْداً، بنغمة شَجيَّةٍ، ذاتِ تأثير قويٍّ في النفوس، وأشبهُ القراء به الشيخ عبد الله الخياط، وكان من أخص تلاميذه، وأشبههم به سمتاً، وفي الحرم مدرسون كثيرون في تلك الأيام، منهم الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة[4]، وهو ذو عناية بالغة بالحديث النبوي، ومقرئه الشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصَّنيع، يسمعه الحديث من أحد الصحيْحَيْنِ، فيبين المعنى بأسلوب لا يستعصي فهمه على المستمعين وجلهم من عامة الناس، ومن المدرسين الشيخ محمد العربي البتاني ـ جزائري الأصل ـ يدرِّس الحديث أيضاً، وله مؤلف في جزءين بعنوان «تحذير العبقري، من

---

* المجلة العربية، العدد (١٥٤)، ذو القعدة ١٤١٠هـ / أيار وحزيران ١٩٨٩م .

محاضرات الخضري» في الرد على المؤرخ محمد الخضري المصري صاحب المؤلفات في التاريخ الإسلامي، والشيخ جمال مالكي[٥]، عالم جليل كبير السن، من أبرز الرجال طولاً وضخامة جسم، واختصاصه في النحو، وألف فيه "الثمرات الجنيَّة" ومنهم الشيخ عمر حمدان الونيسي، محدث أيضاً، ومنهم الشيخ أحمد الهرساني وله حلقة صغيرة من الطلبة بعد صلاة العصر، عند باب (الداوودية) يدرس السيرة النبوية من كتاب «عمود النسب» لأحمد البدوي الشنقيطي، ولعل من أبرز اؤلئك المدرسين ـ من حيث كثرة الإقبال من المستمعين إليه ـ الشيخ فيصل بن محمد بن مبارك، فقد كان يتعرض لبعض المسائل التي يكثر الخوض فيها في ذالك العهد، مما يتعلق بدعوة الإمام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، فيعرضها بأسلوب واضح، ويتقبل ما يوجه إليه من انتقاد برحابة صدر، ويفنده بطريقة مقنعة لا أثر للعاطفة فيها.

وعلى مقربة من باب (الزيادة) رباط * يعرف بمدرسة محمد علي، ويدعوه النجديون (رباط الحنابلة) لأن مفتيهم الشيخ محمد بن عبد الله ابن حُميد (١٢٣٦ / ١٢٩٠هـ) مؤلف كتاب «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة»[٦] كان من سكانه، وكذا حفيده الشيخ عبد الله بن علي بن محمد بن حميد المتوفي سنة ١٣٤٦هـ، ومن بعدهما استقر فيه بعض طلبة العلم من أهل نجد، وكان ممن أدركتُ منهم الشيخ سليمان المحمد الشبل[٧]، كان نازلا في الحجرة التي سكنها المفتيان الحنبليان، وشاهدتُ فيها كثيراً من الكتب، ومنها مخطوطات من بينها كتاب «شرح المنتهى» بخط الشيخ عبد الله بن أحمد بن عُضيب

* الأربطة: مشروعات خيرية، يوقفها المحسنون عادة في مكة المكرمة والمدينة المنورة لسكنى المهاجرين (المجاورين) ولطلبة مدارس تحفيظ القرآن الكريم وأمثالها. (ش).

المتوفي سنة ١١٦١هـ، وكان خطًّا واضحاً حسناً، وفيها من الكتب المطبوعة نسخ كثيرة من كتابي «كشاف القناع» و «حادي الأرواح».
وممن كان يسكن ذالك الرباط الشيخ محمد الحسن الضُّبَيْب ـ والد الدكتور أحمد الضبيب ـ وكان على جانب كبير من المعرفة وحسن الأخلاق، موظفاً في (إدارة الأوقاف) ـ والشيخ إبراهيم بن عبد الله الهُوَيْش، من رجال التعليم، قبل أن يكون قاضياً.

وفي سوق (الجودرية)(٨)، كان ملتقى المشتغلين في التجارة من حجاج ووافدين وغيرهم، إذ في ذالك السوق تقع متاجر مشاهير التجار ومنازلهم كآل الجفَّالي، وآل النَّفيسي، والعُبَيْدي وغيرهم، وكانت الكتب [الرسائل] التي يُجْهَلُ أصحابها من أهل نجد تطرح في مدخل دكان تاجر في ذالك السوق يدعى الفُريح، حتى يبحث عنها أصحابُها، وجُلُّ التجار كانوا من أهل عُنيزة، ولكبارهم كالجفالي والنفيسي مجالس يرتادها الزوار ممن يُعْنى بتلقُّف الأخبار العامة، أو يهتم بشؤون التجارة. أما طلبة العلم فإن أحفلَ مكان بهم بعد المسجد الحرام مجلس الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ (٩) ـ رئيس القضاة ـ بجوار الحرم في (رباط الداوودية)، ففيه يستقبل زواره بعد صلاة العصر، وبين العشاءين، وفيه تُؤَدَّى الصلواتُ ائتماماً بإمام المسجد الحرام.

وللشيخ عبد الله بن حسن نفوذ واسع ليس منحصراً في أحوال القضاء من تعيين القضاة وعزلهم، وتدقيق الأحكام الشرعية، بل كان يشمل جميع الأمور الدينية، كالتدريس في الحرمين الشريفين، واختيار المدرسين فيه ومدرسي الدين في المدراس، ومراقبة المطبوعات، والإشراف على ما يتعلق بهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واختيار أعضائها،

وتعيين أئمة المساجد، وكان ذا هيبة في نفوس كبار موظفي الدولة في مكة لسعة اختصاصه ونفوذ تصرفه، وعلو منزلته لدى ولاة الأمور.

وفي تلك الأيام كان قد أسْنِدَ إلى الشيخ عبد الله اختيار عدد من الشبان الراغبين في طلب العلم لإلحاقهم بـ (المعهد الإسلامي السعودي) الذي أنشيء بإشراف عالم الشام الشيخ محمد كامل القصاب[١٠]، فولّى إدارته العالم السلفي الأستاذ محمد بهجة البيطار[١١]، الذي كان قويَّ الصلة بعلماء نجد، ووُضِعَ لذالك المعهد مَنْهَجٌ دراسيٌّ تتمثل الغاية منه في ترسيخ العقيدة الإسلامية السلفية، وبذل الوسع في نشرها بتخريج علماء فهموا أصولها، وتشربت نفوسهم بمباديء الدعوة الإصلاحية التي قام بتجديدها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وإزالة ما ألصقه بها دعاة السُّوْءِ لتنفير الناس من قبولها.

ومع إنشاء ذالك المعهد من أكثر من عام، واختيارمكان ملائم له من حيث البناء وحسن الموقع في مقر (المدرسة الهاشمية) التي أقامت الحكومة الماضية لها بناية حسنة في أعلى (شعب أَجْيَاد) غير بعيدة عن المسجد الحرام، وتخصيص إعانة شهرية لكل طالب من طلاب المعهد، من الحكومة، إلا أنَّ الإقبال على الالتحاق به كان ضعيفاً، فكان أن اختار الشيخ عبد الله عدداً من آل الشيخ ومن غيرهم ممن حج في ذالك العام وفي أثناء ذالك كان ممن يلتقي صاحبنا به كثيراً ـ أثناء أداء الصلوات في مدرسة الهيئة ـ الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن عَمَّار، وهو من أهل بلدة (القراين) بلدة جدِّ الفتى لأمه علي بن عبد الله بن سالم، وبين الرجلين صلة قوية، فقد كان الشيخ عبد الله (مطوّعاً)[١٢] لأهل هِجْرَة (الْعَمَار) بمنطقة السِّرِّ، فتتكرر زيارته للجد، ويكثر التواصل بين

الاثنين لما بينهما من قرابة في النسب وانتساب إلى بلدة واحدة.

كان الفتى قد استقر ـ من حيث العمل ـ إذ عُيِّنَ جندياً في (الهجّانة)[١٣] مع من فيها من أهل قريته، وعمله هذا لا يشغل وقته، ولا يحول بينه وبين الالتجاء لمواصلة طلب العلم، وإذا أراد الله لامرئٍ خيراً هيأ له أسبابه، فعند انصراف صاحبنا من صلاة العشاء داخل المسجد التقى بالشيخ ابن عمار مُتَّجِهاً إلى مجلس الشيخ ابن حسن في (الداوودية) فعرض عليه الذهاب معه للسلام على الشيخ فكان ذلك، وكان ابن عمار من ملازمي الشيخ، والمقربين منه، ومحل الثقة عنده حتى في شؤونه الخاصة، بل بين الشيخين آصرةُ قُرْبَى، فابنُ عَمَّار أبٌ لبعض أبناء الشيخ من الرضاعة، أرضعت زوجته حَسَناً* ابن الشيخ مع ابنها إبراهيم**[١٤].

همس ابن عمار في أذني: (تعرف تكتب)؟ ثم أخذني بجانب من المجلس وأبرز ورقة وقلماً وطلب مني أن أكتب أسماء أثاث منزل بأثمانها، فكان أن فعلتُ، ويظهر أن الشيخ كلفه بشراء ذالك الأثاث لأنه قدم له الورقة.

ولعل السبب الذي حمل الشيخ على سؤالي أين تعلمت؟ وضوح كتابتي، وكان مِمَّا ذكرت طلبي العلم في الرياض، وعملي كاتباً مع الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، واختياري لأكون كاتباً عند قاضي بيشة الشيخ عبد الله بن حسن بن إبراهيم، ولكنني لم أرغب الذهاب إلى هناك، ومن هنا عرض الشيخُ علي أن يكتب اسمي

---

* حسن بن عبدالله آل الشيخ. (ش).
** إبراهيم بن عبدالله بن عمّار، الملحق الثقافي الأسبق في الأردن. (ش).

مع الطلبة الذين ستقوم الحكومة بجميع ما يحتاجون من نفقة وسكن مدة دراستهم في (المعهد) ثم تسند إليهم من الأعمال ما يستطيعون القيام به، وأضاف: إنه لا يليق بمثلي الاتجاه للعمل في (الجندية) وهو في هذه المرحلة من مقتبل العمر.

وقع كلام الشيخ في نفس الفتى موقعاً مؤثراً، وما كان ليكتم مثل هذا الحديث عن رئيسه في فرقة (الهجانة) التي ينتمي إليها، وقد سُرَّ به ساعة اجتمع به لأول مرة، وعرفه به صاحباه من أهل قريته، وبغايته من وجود وسيلة للاستقرار في مكة للعمل وللدراسة، وغمره بما بذل من عناية واهتمام بأمره، ومسارعة إلى تحقيق رغباته، من حيث تخفيف أعباء وظيفته جنديًّا في الهجانة بالنسبة لصلة القربى بينه وبين أبي الفتى، فأمه من أسرة (آل فايز)، وحمود قائد تلك الفرقة من هذه الأسرة[١٥]، وما كان يتوقع من جَرْاءِ إخبار القائد بعرض الشيخ سوى المساعدة بإعفائه مما ارتبط به من عمل، فيما لو عزم على قبول ذالك العرض؛ إذ كان التخلص من الجندية في ذالك الوقت لمن لم يكمل فيها سنتين، لا يتم بسهولة، مما كان يسبب الهرب منها، فتبذل مختلف الوسائل لإعادة الهارب من أي مكان في المملكة، ويعاقب بالسجن بقية المدة التي لم يكملها في الخدمة.

ولقد كان لما أبدى هذا القائد الكريم من ارتياح لما عرض عليه الفتى، والتعبير عن سروره باتجاهه الجديد ما قَوَّى في نفسه الرغبة الصادقة لقبول نصح الشيخ، والاتصال به لتحقيق ذلك، وإن لم يتضح لصاحبنا من القائد ماذا سيكون موقفه من العمل الذي سبق أن ارتبط به عن رغبة واختيار، وهل سيتم اعفاؤه منه أم ماذا؟ فقد اكتفى بأن قال لأحد رفاق

الفتى في المسكن: (خَلّ بندق حمد عندك حتى نطلبها)! فقد يكون خشي عليها من الضياع، فيما لو انتقلت إلى منزل آخر، خارج القلعة التي لايسمح بإخراج السلاح منها إلا بأمر من قائد جندها.

ما كان صاحبنا مكلفاً بالقيام بأي أمر من متطلبات الالتحاق بالعمل سوى وجوده ـ كغيره ـ ليلاً في القلعة كبقية الجند، الذين تكاد تنحصر خدمتهم في الحراسة ليلاً ونهاراً عند باب القلعة، والتجوال حولها في مداخل الطرق الموصلة إليها أثناء الليل، ومراقبة أحد عشر سجيناً كانوا في ذالك العهد في حجرة داخلها مكبلين بالأغلال والقيود، وجميعهم من أسرة (آل أبي طُقَيْقَة) من شيوخ قبيلة الحُوَيْطات، وكان ممن عرفه صاحبنا منهم حين كان في القلعة محمد بن إبراهيم أبو طقَيقَة، وقد خرج من السجن، وتوفي في بلدته، وله ابن يدعى ابراهيم وكان يزور صاحبنا حين كان مقيماً في بيروت في عشر التسعين من القرن الماضي، هو وصديق له يدعى سالم (أبو دُمَيْكٍ) من شيوخ بادية تبوك بني عَطِية، وقد ألف أبو طُقَيقَة كتاباً في نسب عشيرته ـ أو أُلِّفَ له ـ قدّم منه نسخة لصاحبنا فلم يرتح إلى كثير مما يحويه من معلومات في الأنساب.

تَحَيَّنَ الفتى وقتَ حضورِ ابن عمار في المكان المعهود لأداء صلاة الظهر ولكنه لم يحضر، فعزم على الذهاب إلى الشيخ ابن حسن، وخشي أن تخونه شِدْةُ حيائه عند مقابلته عن الإفصاح عن رغبته في الالتحاق بطلبة المعهد، فتأنَّقَ بكتابة جمل من كلمات الشكر على النصح الأبويِّ، وعبر عن سروره بتقبله، وبالدعاء للشيخ، وأَدَّى صلاة العصر على مقربة من (الداوودية) حيث منزل الشيخ، فأبصر عن بُعْدٍ

أحدَ أصدقائه الذين عرفهم قبل عام في مدينة الرياض، هو إبراهيم بن محمد بن جُهيمان[١٥]، فسعى إليه وأخبره بما عزم عليه، ونصحه بأن يذهب معه إلى الشيخ فلم يتردد، واطَّلع على كتاب الفتى وطلب أن يذكر فيه اسمه، وأنه ممن يرغب الانضمام إلى الطلبة، فكان ذالك مع إضافة أنه يحفظ القرآن الكريم غيباً، وبعض المُتَون ...

لقد خرج الشيخ من مجلسه قبل تقديم الكتاب، ولكن تَمَّ الالتقاءُ بابن عمار الذي نصح بأنْ نَحْضُرَ ضحى الغد، إذِ الشيخ سيذهب الليلة إلى الملك، وأضاف: الليلة عندي للعشاء سعد بن حَجْرَفٍ البواردي، ووجه الدعوة للحضور إلى بيته، بعد صلاة العشاء في (حصوة)[١٦] الأغوات. وبادَرنا ساعة التقائه بنا في الحرم بأن الشيخ كتب أسماءنا الثلاثة، مع الإخوان الذين سيتم إدخالهم في المعهد، وأن علينا الحضور إلى (الداوودية) الساعة الثالثة [بالتوقيت الغروبي السائد آنذاك] من صباح الغد.

دار الحديث في بيت ابن عمار الوقت كله حول (المعهد) وطلبته ومدرسيه، والغاية من إنشائه، واهتمام الإمام [الملك] بأموره، واشتغال الشيخ عبد الله هذه الأيام في اختيار العلماء الذين سيتولون التدريس فيه من الشام ومصر ونَجْد، وعن تردد حافظ وهبة بين الإمام وبين الشيخ للبحث في هذه الأمور. وما يكاد حديثُ مضيفنا في الموضوع ينتهي حتى يبدأ مُعَاداً، بحيث بلغ من تهويله ـ رحمه الله ـ شأن (المعهد) تلك الليلة ما أوقع في نفوسنا الشكَّ والحيرة والتردد فيما كنا مقدمين عليه من رغبة شديدة، خشية أن لا نحظى بانطباق صفات الطلاب الذين سيتم اختيارهم، ومن بينهم ـ على ما قيل لنا ـ بعضُ

كبار طلاب العلم من أهل نجد، وما منا إلا من هو معدود من صغار الطلبة.

كان سعد ـ وهو أسن الثلاثة ـ على جانب من الرزانة، وطول الأناة في جميع أموره، فلم يَبْدُ منه أيُّ تأثر أثناء حديث صهره [١٧]، وكان طول الوقت صامتاً، فخرجنا بعد العشاء وكان الحرم قريباً منا ونحن بحاجة إلى التداول في أمرنا غداً، ولكن لم يستقر بنا الجلوس حتى بادر سَعْدُ متمثلاً ـ وكان يحفظ كثيراً من الأشعار الفصيحة والعامية ـ :

دَعِ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَزِمَّتِهَا وَلاَ تَبِيْتَنَّ إِلاَّ خَالِيَ الْبَالِ

مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا يُغَيِّرُ اللهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ

ثم وقف قائلاً: الالتقاء هنا صباحاً الساعة الثانية والنصف، لنَذْهَب معا لمقابلة الشيخ ابن حسن الساعة الثالثة، ثم افترقنا إلاَّ أنني لم أهنأ بالنوم تلك الليلة، حيث ظَلَّت الهموم تتنازعني بين الخوف والرجاء، وإنْ لم أكن أقَلَّ حَظّاً من أَخَوَيَّ سعدٍ وإبراهيم في التحصيل والفهم، ولا في الرغبة الحافزة لبذل الوسع لبلوغ ما أسعى لبلوغه، ولكنها صفة ملازمة لي دائماً، حين أُفكر في الإقدام على القيام بأي علم من الأعمال، قبل أن تتضح لي جميعُ جوانبه، أُصَابُ بالحيرة والتردُّد، بحيث تنغلق أمامي المناهج.

أدرك عبدُ الله ـ صاحبي في المسكن ـ ما اعتراني طول الليل من قلق، فتوقع أنه حدث لي في النهار ما سبب ذالك، وتبادر إلى ذهنه أنني علمت بوفاة أخي، الذي خلفته في القرية مريضاً، وكان قد توفي فَأُخْفِيَ خبرُ وفَاتِهِ عني، فما كان من صاحبي إلا أن صار يواسيني، ويعزيني بترديد

كلمات الاسترجاع، والحث على الصبر ولم يُسَمِّ أَحَداً، فانصرف ذهني عما أنا مشغول به من شأني، مشدوها بما فاجأني به، حتى أوضح لي الأمر.

لقد كانَ وَقْعُ نَبَإِ وَفَاةِ أخي عميق التأثير في نفسي، وإنْ كنتُ قدْ وَطَّنْتُها على تحمل الصدمة به، منذ أن أدركت أنَّ الداءَ قد تمكن منه، ولكنني لا أُدْرِك بِمَ أُعَلّل إحساسي الآن بفيض غامر من الهدوء الذي استولى على عواطفي حين علمت بذالك النبأ، بحيث إنني بمجرد استرخائي فوق الفراش ـ بعد تلقي تعزية الأخ ـ استغرقْتُ في نوم عميق، لم يوقظني منه إلا نداؤه لأداء صلاة الفجر، وما كان يسبقني في ذالك عادةً، ثم ذهبتُ في الصباح حيث موعد الاجتماع، يكاد قلبي أن يكون فارغاً مما شغله بالأمس، فكان الالتقاءُ بالأخَوَيْنِ والسير إلى مجلس الشيخ.

الحواشي:

(١) : السَّرحة الجزء المكشوف غير المسقف من الحرم، ولعل الكلمة مأخوذة من (سرح الدار) وهو فناؤها، ويسميها بعضهم (الحصوة) لكونها مفروشة بالحصا.

(٢) : الخلوة يقصد بها حجرة متصلة بالحرم، ولعل الأصل فيها أن أحد المتعبدين يتخذ منها مكاناً يخلو فيه وحده للعبادة وتستعمل الكلمة في نجد لأسفل المسجد حيث يعد منه دور في باطن الأرض يصلَّى فيه وقت اشتداد البرد [أو الحرّ] .

(٣) : «العرب» : ٧ / ٩٤٧ .

(٤) : انظر «العرب» ١٨ / ٥٠٧ ـ وصواب تاريخ وفاته سنة ١٣٩٢هـ.

(٥) : «العرب» : ٦ / ١١٨ .

(٦) : انظر عن الشيخ ابن حميد هذا وعن مؤلفه «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» مجلة «العرب» س١٢ ص ٦٤١ إلى ص ٦٥٢ .

(٧) : انظر ترجمته في كتاب «روضة الناظرين» ج١ ص ١٤٦، وقد ولد الشيخ سليمان الشبل سنة ١٣١٢هـ وتوفي سنة ١٣٨٦هـ.

(٨) : لا أعرف معنى هذا الاسم، على أنه يسمى به موضع مأهول في مدينة القاهرة ذكره المقريزي في «الخطط» وأنه منسوب إلى جوذر بالذال المعجمة ـ فحرفته العامة الآن الجودرية محلة لا تزال معروفة الآن ، والعامة من أبناء البادية يسمون اللحاف المبطن بالقطن (جوْدري) وهو ماكان يباع في سوق الجودرية ، فهل هو منسوب إليها؟.

(٩) : أُلِّف في ترجمته كتاب مطبوع بعنوان «كلمة الحق» .

(١٠): الشيخ محمد كامل القصاب (١٢٩٠ / ١٣٧٣هـ) من زعماء الحركة القومية العربية في أول نشأتها وقد حكم عليه الفرنسيون بالاعدام ـ انظر ترجمته في كتاب «الأعلام» ٧ / ٢٣٥ .

(١١): الشيخ محمد بهجت البيطار (١٣١١ / ١٣٩٦هـ) من أشهر علماء دمشق في عصرنا، وهو من دعاة الإصلاح المشهورين، وله ردود على معارضي الدعوة السلفية، وقد كان من أبرز أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ـ رحمه الله ـ .

(١٢): تعني كلمة المطوِّع ـ بفتح الواو ـ إمام أهل القرية الذي يؤمهم في أداء الصلوات ويعلم أطفالهم مبادىء القراءة والكتابة ممن شدا طرفاً من علوم الدين.

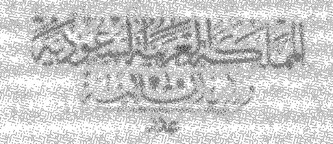
(١٣): واحدهم هجّان، والهجن من صفات الإبل، وهؤلاء الجنود كانوا يستعملونها غالباً في أداء واجباتهم وهم لا يتلقون تدريبات عسكرية.

(١٤): حمود هذا هو ابن إبراهيم بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الله بن فايز، وجَدُّ أبي من أمه هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن فايز، خاله عبد العزيز ـ ويلقب جد أبي (ابن البيه) ، انظر عن إبراهيم هذا «العرب» س١٥ ص ١٦٨ / ٣٢١ / ٣٣٠

(١٥): انظر إلى سانحة (مسجد الشيخ).

(١٦): الحصوة ـ والاسم محلي ـ المكان المكشوف في أحد جوانب الحرم ـ كالسرحة ـ ولعل الاسم مأخوذ من كون المكان يفرش عادة بالحصباء (الحصا) الصغار.

(١٧): زوجة الشيخ عبد الله بن عمّار هي ابنة إبراهيم بن محمد البواردي، فسعد بن حجرف البواردي يعد من أخوال أبناء ابن عمار، وخالهم القريب الشيخ محمد بن إبراهيم البواردي، أحد قضاة الرياض الذي توفي قبل بضع سنوات.



حضرة الأخ الكريم الأستاذ حمد الجاسر المحترم

تحية طيبة وسلاماً عاطراً ..

وبعد فقد تلقيت بسرور واعجاب خطابكم الرقيق تاريخ ١٠/١٢/٧٢ ومعه نسختين من مجلة ((اليمامة الجديدة)) . واني اشكركم واقدر جهودكم [illegible] لما بذلتموه من مجهود مشكور في اخراج مشروع هذه المجلة المباركة الى حيز الوجود . ولقد تصفحتها [illegible] المجهود [illegible] الشباب السعودي المثقف .. واني لأرجو الله تعالى ان يبارك عملكم هذا ويمدكم بقوة [illegible] .. [illegible]

[illegible]

المخلص

[illegible] في ٢٣/١٢/١٣٧٢

خطاب مؤرخ في ١٣٧٢/١٢/٢٣هـ للشيخ
من وزير المالية عبدالله بن سليمان ـ رحمهما الله ـ

أخرجنا من مجلس الملك (مطرودين)!!*

كان الذهابُ لمقابلة الشيخ [عبد الله] بن حسن، بعد أن أبدى أَوْجَهُنا مَظْهَراً وأجرأُنا سعد بن حجرف استعدادَه للتعبير له أثناءَ المقابلة عن شكرنا، وعن استعدادنا لبذل الجهد لنكون مثالاً حسناً في سيرنا، إلا أنَّنا وَقَدْ صُدِمْنَا بِشيءٍ من جفاء الاستقبال فيما بدا لنا، حيث لم نفز من الشيخ بأكثر من مَدٍّ يده للمصافحة، ثم الجلوس في طرف المجلس المكتظّ بالزائرين، الذين كان الصمت يخيم عليهم، فشملنا ما شملهم، ولم ينبس صاحبُنا ببنت شَفَةٍ.

ولقد كان الشيخ مشغولاً بمحادثة رجل جالس بجانبه، يظهر أنه من العلماء من أهل الهند، يتولى ترجمة الكلام هنديٌّ آخر، بصوت أقرب ما يكون إلى الهمس بين المتحدثَيْنِ، وما تجاوزت الساعة الرابعة بقليل حتى نهض الشيخ، فحاول الهنديُّ تقبيل يمناه لما قدمها لمصافحته فجرَّها بسرعة، وقال للمترجم: قل له هذا لا يجوز! والتفت إلى رجل واقفٍ بقربه قائلاً: خذ الإخوان معك في السيارة الكبيرة واتبعوني إلى القصر - كان ذالك يوم الثلاثاء، ٢٣ / ١٢ / ١٣٤٨هـ[٢٠ / ٥ / ١٩٣٠م].

ركبنا الثلاثة في تلك السيارة مع من ركب فيها، وما كانوا كلهم يتجاوزون السبعة، ووقف الشيخ عند باب القصر، لكي يسمح الْحُرَّاسُ بدخول من أتى معه، ثم أمر بإجلاسهم عند صاحب القهوة، وسار يتبعه ثلاثة كانوا ركبوا معه، ولكنه حين أراد الصعود مع الدرج أبصرهم، فأمرهم بالرجوع إلى أولئك الجالسين. ولم يطل انتظار هاؤلاء فقد نزل

* المجلة العربية، العدد (١٥٥)، ذو الحجة ١٤١٠هـ/ حزيران وتموز ١٩٩٠م .

جنديٌ مسرعًا يسأل عن الطلبة الذين خَفُّوا لمقابلته، والسير خلفه إلى الدور الأول من القصر، حيث يجلس الملك في مجلس مستطيل، يتوسط الجانبَ الشماليَّ منه أمام الباب، ومع سعة ذالك المجلس كان خاليًا إلا من ثلاثة، الملك، وإلى يساره بعد كرسي واحد الشيخ عبد الله بن حسن، وعند رجلي الملك على الأرض المفروشة [الوزير] عبد الله السليمان.

وقف الملكْ لِتَلقِّي تحية القادمين التي ما كانت تقتصر على ما كان يردده من يقدمهم للسلام: (مُصافَحْ! مصافح!) [باليد فقط] بل تتجاوز ذالك إلى تقبيل الجبهة أو الأنف، وحاول بعضهم الجلوس بقرب الشيخ، وفي الصف الذي يجلس فيه الملك، ولكن ابن سليمان أشار للجندي بأن يجلسهم جميعاً في الجانب المقابل لمجلس الملك.

أمضى الملك ما يقرب من ربع ساعة يتحدث عن العلم، وحاجة الأمة إليه، وعن حرصه على نشره، ومن ذالك إنشاء (المعهد الإسلامي) في (أم القرى) ليكون قريبًا لجميع المسلمين في مختلف الأقطار، واختيار العلماء للتدريس فيه، ووجه الدعوات إلى الله بأن ينفع به الإسلام والمسلمين، ثم اتجه بحديثه إلى (الإخوان) وهكذا كان يسميهم راجياً أن يكونوا عند حسن الظن بهم، قدوةً صالحة في أخلاقهم، وفي جِدِّهم واجتهادهم في التزوّد من العلم النافع والتفرغ لهذه الغاية الشريفة: (لقد كُفِيتم جميعَ شؤونكم من نفقة وسكن وكسوة، وهذا الشيخ عبد الله ابن حسن وكيل عليكم بأن لا يحدث منكم تقصير، وهذا عبد الله بن سليمان وكيل عني بأن لا يحدث عليكم قصور فيما تحتاجون إليه) وختم حديثه بالابتهال إلى الله ليكون عمله خالصاً لوجهه الكريم.

ليس من بين (الإخوان) من لَم يُحِسَّ بكثير من الهيبة في مقام لم

يسبق له أن بلغه، إلا أن الملك وقد تحدث على سجيّته، حديثاً منبعثاً عن وُجْدَانٍ وعمق إحساس، كان من تأثيره في نفوس المستمعين ما أضفى عليها ارتياحاً وسروراً، ولكن ماذا حدث بعد هذا؟

وقف أحد الإخوة ـ ولعله لا يزال حَيّاً يرزق ـ فقال رافعاً صوته، موجهاً الكلام إلى الملك: (عوايلنا ياطويل العمر ـ في الرياض ـ تحتاج تقررون لها رواتب)!! لم يكن تأثير هذا الكلام قاصراً على الملك الذي سرعان ما انفعل، واستحال لون وجهه المشرق البشوش إلى لون آخر، بل لقد فُوجِئَ كل من في المجلس بما كَدَّرَ صَفْوَ ما كان غامراً من السرور والارتياح في تلك الساعة، ولم نشعر أثناء ما حل بنا من دهشة واستغراب مما حدث إلا بعد أن تناولتنا أيدي الحرس بالجذب والدفع حين سمعوا جلجلة صوت الملك: (تشرّطّون علي! اخرجوا! اخرجوا يا...)!

وخارج القصر وقف عددٌ من اؤلئك الإخوان يتداولون الرأي بينهم في الطريقة التي يعبرون بها للملك عن تنصلهم بل استنكارهم لما حدث، فاتفقوا على الاجتماع بعد صلاة العشاء في الحرم لتلك الغاية، ولكن الاجتماع تلك الليلة اقتصر على ستة ممن حضروا مجلس الملك، هم: إبراهيم بن محمد بن جهيمان، من القراين، وحمد بن محمد آل جاسر، من البرود، وسعد بن حجرف البواردي من شقراء، وعبد العزيز بن صالح المداوي، وأخوه عبد الله، وعبد الله بن عبد العزيز الخيال، والثلاثة من الرياض، وعبد الله الشثري من الحوطة.

وفي ضحى اليوم الثاني اتجه أحدهم إلى القصر يحمل كتاباً منهم، يحوي التنصّل مما جرى من ذالك المتكلم، والتوجه بالرجاء إلى الملك بأن لا يأخذ المحسن بذنب المسيء، فهم معترفون بفضله وإحسانه،

ومتطلعون لما يجود به عطفاً وإحساناً منه، مساعدة لهم على التزود من العلم.

دفع الكتاب لإبراهيم بن جُمَيعة الذي كان يتولى في ذالك العهد ما يشبه (إدارة المراسم) في عهدنا، ومضت أيام خامر أكثرَ الإخوة الشكُّ في جدواه، فالتحق اثنان منهم بالعمل في المكتب الخاص لنائب الملك هما عبد الله الخيال، وعبدالله المداوي، ولم ينقطع أحدهم عن التردد كل صباح على مجلس الشيخ ابن حسن في (الداوودية) رَغْمَ ما يقابل به في بعض الأحيان من تجهم، أو صرف بكلمة (الشيخ مشغول) مع أنه لم يحاول مرة أن يتكلم مع الشيخ، وإنما كان يكتفي في الغالب بالجلوس في طرف المجلس لحظات، ثم الانصراف عندما لا يجد من يتحدث معه.

وفي أحد الأيام التي لم يذهب فيها إلى (الداوودية) وكان جالساً في دكان الفريح ـ في (الجودرية) ـ يقلب كومةً من الرسائل التي يضعها ساعي البريد عادة لمن لا يُعْرَف عنوانهُ، إذا بشرطي يسأل صاحب الدكان عن اسمي، ولما عرفني أمرني باتباعه إلى مجلس الشيخ، وبعد السلام عليه سألني: أنت قدمت كتاباً للإمام؟ فأجبت بأن الكتاب مني ومن عدد من الإخوة غيري، كان الوقت ضحىً، فقال الشيخ: غداً الساعة الثالثة والنصف [بالتوقيت الغروبي] تحضرون، وفي الزمن المحدد حضر منا ثلاثة، واعتذرت بأنني لا أعرف أين ينزل الباقون منا، فركبنا مع الشيخ في سيارته ومعنا رابع من أقربائه فكان استقبالاً حسناً، وإن لم يكن اهتمام الملك بشأننا كما كان في أول الأمر، إلا أنه فيما ظهر لنا ـ قد تأثر بما جاء في كتابنا، من عبارات الاستعطاف، ومع أن حديثه لم

يخرج عن مضمون ما أوضحه في المرة الأولى إلا أنه كان في غاية الهدوء، في جمل عاطفية: إنه بمنزلة الأب لنا، يسعى في فعل ما فيه خير لنا ولأمتنا، ويأمل أن نبذل من الجهد ما يحقق أمله فينا، وماله من غاية سوى توقع الثواب من الله عز وجل.

لم يتجاوز وقت المقابلة نصف الساعة، حتى أُشير إلينا بالخروج أثناء استقبال أحد رؤساء الحجاج، يقدمه ضابط يدعى (حمدي) كان (ياوراً) للنائب العام ـ أي مدير مراسم ـ.

بعد ذالك أصبح لأولئك الإِخوة دَالَّةٌ على الشيخ، فقد أَسنَدَ إليه الملك ترتيب جميع الأمور التي تهيِّئُ لهم الانضمام للدراسة في المعهد، فكانوا يترددون إلى (الداوودية) صباح مساء، ويكتفون دائماً بمحادثة بعض زوار الشيخ، ومن بينهم ذوو صلة بموضوعهم من حيث الدراسة من الإِخوة الذين سينضمون معهم فيها، أو العلماء الذين أصبحوا فيما بعد من مدرسي ذالك المعهد أو غيره من المدارس الابتدائية في مكة، ومنهم المشايخ محمد بن عثمان الشاوي، ومحمد بن علي البَيْز، وعبد الله ابن مطلق بن فُهَيْد، وقد تولى هاؤلاء التدريس في المعهد، وإبراهيم بن عبد الله الهُوَيْش، ومحمد بن حمد بن راشد، عملا في (مديرية المعارف) الأول مدرساً والثاني مفتشاً، فضلاً عن كثير من المثقفين من موظفي القضاء أو التدريس أوهيئة الأمر بالمعروف أو غيرهم ممن لا يخلو منهم مجلس الشيخ في كثير من الأوقات، إذ هو مرجع جميع تلك الشؤون، وإليه أسندَ وليُّ الأمر تصريفها، وفق ما يتوخيان من تحقيق مصلحة الأمة، وأن تسير أحوالها سيراً مرضياً، منذ سنة ١٣٤٦هـ.

وهنا سؤال عارض: أكان بمقدور هذا الشيخ الجليل وكان في ذالك

العهد قد تقدمت به السنُّ أنْ يُصَرِّفَ ما نيط به من شؤون عامة، ومعروف أن جميع الترتيبات الإدارية لأمور الدولة لم تستقرَّ بعد، ولم توضع أُسُسُها، وترسخ قواعدها؟! والجواب بمنتهى اليسر، فتلك الأمور لا تزال تسير على أساس: (سَدِّدُوا وقاربوا)، ومن أبرز الصفات التي عرف بها الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وفاؤه لأولئك الرجال الذين انضموا إليه، وساروا معه إبَّان قيامه ـ أول ما قام ـ في توحيد أجزاء هذه البلاد، ولقد كان الشيخ من أوائل اؤلئك، إذ كان يتولى إمامته في الصلوات حضراً، ويرافقه سفراً، حتى عرف كل واحد منهما صاحبه حق المعرفة، ثم إن الشيخ عَمِيدُ أُسْرَةٍ تُعَدُّ الثانية بعد الأسرة السعودية، وقد توطدت أواصر الصلة والقربى بين الأسرتين في خلال مئتي عام، منذ قيام الدولة السعودية الأولى بمؤازرة الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، جد الشيخ ابن حسن، يضاف إلى ذالك ما يتصف به هذا الشيخ من رجاحة عقل، وهُدُوْءٍ في تصرفاته، والرجوع في المهم منها لولي الأمر، وتلك من أبرز الصفات المحبوبة عنده في كل من يعول عليهم في تصريف الأمور، أما دِعامةُ نجاحه في أداء أعماله فإخلاصُه فيه وتحرِّيْه لأن يكون محققاً لرغبات ولي الأمر، وهو لطول مصاحبته له من أعرف الناس بتلك الرغبات، ومن خلال اللمحات التي أوردها الشيخ حافظ وهبة في كتابه «جزيرة العرب في القرن العشرين» عن الشيخ ابن حسن تتضح جوانب من أبرز صفاته، وحافظ ممن عرف الشيخ ولم يبخسه حقاً.

لقد هَيَّأَ ابنُ سليمان ما وُكِلَ إليه ترتيبه وإعداده للإخوان، من إعاشة وسكن، فأمر (إدارة الضيافة) بالقيام بذالك وأعدّ لسكناهم

بناية حديثة واسعة، مطلة على المسعى من جانبه الشرقي، يقابل بابها مدخل (باب السلام) ويبدُو أنها كانت مَقَراً لأمانة العاصمة (البلدية)، إذ تحوي بعض غرفها الخلفية إضبارات [ملفّات] وأوراقاً تتعلق بالأمانة، وأكياساً مملوءة بالنقود النحاسية التي ألغي التعامل بها، لقد أُثث المنزل تأثيثاً حسناً. وفرشت غرفه ومجالسه، وأُعدّ فيه من الأواني ما يحتاج إليه تحت إشراف ثلاثة من الخدم، وما كان هذا المنزل يبعد عن مقر (دار الضيافة) الواقعة في نهاية شارع المسعى مما يلي الصفا، ويتولى إدارتها رجلان فاضلان: صالح الدويش من بلدة الزلفي، وعبد الله السليمان المزروع.

ويقتضي الوفاء أن أشير ـ موجزاً ـ عن صلتي بعبد الله المزروع، فلقد كان من ألمع من عرفت تلك الأيام، واستمر التواصل بيننا طيلة ستة وثلاثين عاماً حتى انتقل إلى العالم الآخر سنة ١٣٨٥هـ[١٩٦٥م] ـ رحمه الله ـ، لعل من أبرز صفاته تأنقه في ملبسه ومظهره، ثم هو رجل طُلَعَة، وخاصة فيما يتعلق بأحوال الثقافة الحديثة، قَلَّ أن يقرأ أو يسمعَ بخبرِ صدور كتابٍ، أو نشر مقال ذي إثارةٍ في صحيفة إلا وكان من أوائل من يَقْتَنِي ذالك الكتاب، أو يطلع على ذالك المقال ويشرك إخوانه باطلاعهم على ذالك، وما وفد أديبٌ أو شاعرٌ أو صحفيٌّ أو سياسي معروف إلا ورأيت الشيخ عبد الله المزروع ملتفًّا بذالك الوافد، التفافَ المساعد المعرف به، وله من لطف الهِنْدَام، وحسن المظهر ما يُهيءُ له ذالك. إنه ـ كما في المثل ـ: (خَرَّاجٌ ولاَّجٌ) ذو اتصال بالوجهاء والأعيان من مختلف الطبقات، وكثيراً ما كان يحمل معه دفتراً يقدمه لذالك العالم أو السياسي أو المفكر ليسجل فيه ما يوجهه من نصائح لبني أمته، لقد أخذ من الثقافة بطرف ومن المعرفة بنصيب، وهو مع ذالك

مغرم بالقراءة، وباقتناء ما يستطيع اقتناءه من المؤلفات الحديثة المتعلقة بتاريخ هذه البلاد، يُهْدي كثيراً منها إلى أصدقائه، إنَّ عَمَلَهُ لا يقتصر على ما يبذله من مساعدة إخوانه، بل يَتَعَدَّى ذالك إلى محيط أعمّ وأشمل، هاهي حفلة تكريم تقام للشاعر خير الدين الزركلي يبدو الأستاذ المزروع قطب رحاها، وأُخرى في استقبال حجاج (جامعة فؤاد) من مشاهير أساتيذها يتصدَّر أبرزَ القائمين بها، ومحاضرة يلقيها عالم أو سياسي، يُدَوِّيْ صوتُه أثناء إلقائها، أو في التعقيب عليها، ثم هو فوق ذالك ذُوْ انْدفاع في فعل الخير بوجه عام، وفيٌّ لإخوانه، قريبٌ من قلوبهم، خفيف الظل بينهم، شديد التحمل لما يبدر من إساءة أحدهم إليه، بحيث يوُصَم بضعف الإحساس، ولا سيما حين يجابه بما يثير الغضب والكراهية، فيقابله بالابتسامة وعدم الانفعال، لقد كان رجلاً طيباً بكل ما لكلمة (الطيب) من معنى.

منذ عرفت الأستاذ عبد الله المزروع ــ وكان من أوائل من عرفت في مكة ــ أحسست جوانب مما تتصف به روحه من سلاسة ورقة، وصفاء من التعقيد، وخُلُوٍّ من مظاهر التكلف والتصنع ــ أو هكذا تخيلت ــ ولعله أحسَّ بشيء من هذا بما بدا له من أخلاقي، ومن هنا نشأَتْ بيننا صداقة كنت أحوجَ منه إلى اتصالها وتقويتها، فقد فتح لي نافذةً أُطلّ منها إلى آفاقٍ رحبةٍ من عالم كنت أجهله الجهل كله، إنه عالم المعرفة الذي يتغذَّى بروافد من الثقافة الحديثة، مما تزخر به هذه المؤلفات، والمجلات والجرائد، ومن اتصال مباشر برجال الفكر والأدب، ومن حضور مجتمعات وندوات، وكل ذالك مما لا عهد لي به، إن لم أكن أنظر إلى بعضه نظرةَ نُفُورٍ واشمئزاز، تأثُّراً بما رسخ في ذهني من أن

المعرفة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة محصورة فيما خلفه لنا سلفنا الصالح وما عداه لا خير فيه:

كُلُّ العُلُومِ سِوَى (القرآنِ) مَشْغَلَةٌ إلاَّ (الحديثَ) وإلاَّ (الفقْهَ) في الدِّيْنِ
خَيرُ الأحَادِيثِ ما قَدْ قالَ: (حَدَّثَنا) وَمَا سِوىَ ذَاكَ وَسْواسُ الْشَّيَاطِينِ

وهذا حقٌّ لا مرية فيه، إذ بتعاليم القرآن الكريم، وبما صح عن المصطفى قولاً وعملاً، وما سار عليه السلف الصالح من نهج قويم، في ذالك كله قوامُ الدين، وصلاحُ حال المرء في دنياه وأُخْراهُ، ولكن الحياة ـ وهي الوسيلة إلى الآخرة ـ تتطلب علوماً أخرى تتطور وتتغير بتطورها وتغيرها، وما كان المسلمون في أزهى عصور الإسلام يقتصرون على التوجه جميعهم لتلقي علوم الدين، وحين هَمَّ بعضُهم بذالك في عهد المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنزل الله عليه: ﴿وما كانَ المؤمنُونَ لينفروا كافَّةً فَلَولا نَفرَ مِنْ كُلِّ فرقَةٍ منْهُمْ طَائفَةٌ ليَتَفقّهُوا في الدِّيْن، وَلِيُنْذرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُوْنَ﴾.

قلَّ أن ترى ابنَ مزروع إلا متأبطاً كتاباً حديثاً، أو عدداً جديداً من مجلة، أو جريدة تحوي مقالة طريفة، وهو ـ بالنسبة لي ـ لا يكتفي بإعارتي ما أرغب في مطالعته، بل قد يُقَدِّمُ لي ما يتوخى أنني بحاجة إلى الاستفادة منه، ولا يقفُ عند هذا الحد، لقد كان يدفعني في بعض الأحيان للمشاركة ببعض ما أكتب مما لا أُسِيْءُ الظنَّ بفهمه وعدم إدراكه أنه جدير بالاطراح والإهمال، فضلاً أن في إبرازه كشفَ ما يجب ستره، ومع ذالك فقد كان ذا أثرٍ في اتجاهي الثقافي هذه الوجهة التي لا أملك حيال سيطرتها عليَّ إلا الاعتراف بفضله، وبفضل احتكاكي أثناء إقامتي في مكة بخيرة أدبائها وكبار مثقفيها، ممن نَمَّوا ذالك الاتجاه، وعمقوه في إدراكي حتى كانت تلك نتيجته.

كاد البيت على سعته أن يضيق بكثرة سكانه، فقد ضَمَّ الشيخُ إلى الإخوان آخرين في تلك الأيام، واستمر على ذالك بعدها، أذكر من أوائل أولئك، ـ عبد الرحمن بن عبد العزيز آل الشيخ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ من الرياض، ومحمد بن عبد العزيز بن هليّل من الدلم، وعبد الكريم بن عبد العزيز بن جهيمان، من القرائن، وحمد الكهلان من المجمعة، وحسين بن محمد آل سليمان من الحريق[1]، والاثنان الأخيران قد انضما إلى طلبة المعهد قبل هذا العام.

ويبدو عدمُ تجانس اولئك الإخوة إدراكاً، وتفكيراً ونظرةً إلى المستقبل، من التنافر بينهم، وعدم انسجام بعضهم مع بعض أثناء اجتماعهم لتناول وجبات الطعام، أو شرب القهوة، وحتى في أداء الصلوات، فقد رأى بعضهم تأديتها جماعة في المنزل، إلا أن الشيخ ـ وقد علم بذلك إذْ كان فيهم من يُشْغِلُ ذهنه بنقل التوافه مما يجري بينهم ـ توعد من لم يُصَلِّ الصلوات كلها في الحرم في جميع الأوقات بالطرد.

ولكن ما أسرع ما شُغِلَ كل واحد من اولئك بشأنه منذ اليوم الأول لاجتماعهم بالشيخ محمد بهجة البيطار، مدير المعهد، الذي كان ذَا صلة بالشيخ ابن حسن ليعلم متى تنتظم أمور استقرارهم، وهاهو بعد ذالك قد هيأ لهم فصلاً ملائماً خاصاً سمي (قسم التخصص الديني) جمعهم فيه دون اختبار، مع تفاوتهم في الأعمار، وفي الفهم والمعرفة، وترك الأمر للمستقبل، وضم إليهم من لم يستطع مجاراة طلاب القسم العام في سيره الدراسي، وأصبح اسم ذالك القسم مثار سخرية في بعض الأحيان من الطلاب الآخرين بالعبث بتصحيف بعض حروفه نطقاً وكتابة، كما أصبح مبعث تندر وفكاهة، لقد اعتاد الشيخ البيطار

الاستماع إلى قراءة القرآن من أحد طلاب ذالك القسم لإجادته القراءة وجمال صوته، يدعى (نور الدين فلمبان) جاوي الأصل، وكان يلح على الشيخ لينقله إلى السنة الأولى عن هذا القسم وهو ـ كبعض بني جنسه ـ يقلب الصاد سينا فيقول: (قسم التخسس) فيحاول الشيخ تصحيح نطقه، فَيَزُمُّ شَفَتَيْه ويفخم النطق بالصاد، ويطلب منه محاكاته فيفعل، ولكن الصاد تخرج من فيه (شيناً) فيخرج الشيخ ضاحكاً: لا. لا: يا شيخ نورالدين (التخشش) لا يكون إلا للاختفاء في فعل السوء و(التخسس) أسهل منه!!

لم يتم الانسجام بين طلاب (قسم التخصص الديني) وبين إخوانهم من طلبة القسم العام إلا بعد مرور فترة من الزمن، فقد كانت الخشونة ـ بصفة عامة ـ أبرز مظاهر طلبة ذالك القسم، ولهم زيهم المتميز في ذالك العهد، مع انفرادهم بفصل خاص، واختصاصهم بعدد من المدرسين، مما وَسَّعَ هُوَّةَ التنافر، فضلاً عن توهم بعضهم بأن ما يدرسون من علوم ـ وتكاد تنحصر بالتفسير والحديث والتوحيد والفقه وماله صلة بها ـ تمتاز على غيرها من العلوم الأخرى التي يتلقاها إخوانهم، وهذه أمور لا تتفق مع الغاية التي أُنشيءَ هذا المعهد لتحقيقها، فلقد كان كثير من الناس حديثَ العهد بقيام الدولة السعودية، وبما تقوم بنشره من تطهير العقيدة الإسلامية مما أُلْصق بها من بدع وخرافات، وإزالة ما لا يزال عالقاً في الأذهان عن حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهذه الأمور وما يتصل بها مما أُنشيءَ هذا المعهد لترسيخه في النفوس، وإيضاحه بوسائل العلم المقنعة، ولا شك أن تقوية الصلة بين جميع طلابه تصبح عميقة الأثر في ذالك، لو اتجه القائمون على شؤون المعهد

لإنماء كل ما يقويها من وسائل الألفة، وإزالة جميع أسباب النفور والفرقة، كاختلاط جميع الطلاب في فصولهم وأماكن اجتماعاتهم، واحتكاكهم بجميع أساتذتهم أوقات فراغهم.

الحواشي:

(١) : تخرج حسين من المعهد، وعين قارئاً للقرآن عند الملك فترة قصيرة في عام ١٣٤٩هـ، [١٩٣٠م] قبل عبد الرحمن القويز .. قتل حسين موظفاً في السفارة في الهند سنة ١٣٨٩هـ «العرب» : السنة الرابعة، ص (٨٩) .

في (المعهد الإسلامي السعودي)*

وهكذا كان اسمه في السنوات الأولى الثلاث من إنشائه، ثم غير فأصبح (المعهد العلمي السعودي). وكان أنشِئَ لنشر العقيدة السلفية، وتصحيح مفهومها لدى من يجهل حقيقتها، وإيضاح حقيقة القائمين على نشرها.

وفي سنة ١٣٤٩هـ [١٩٣٠م] كان الانضمام إلى طلبة ذالك المعهد، مع الإخوة الذين خُصِّصَ لهم فيه قسم خاص، وكان مستوى التعليم في المعهد ـ بصفة عامة ـ مماثلاً لمستوى التعليم الثانوي، مع الاختلاف في المواد التي قرر تدريسها، روعي فيها أن تكون أقرب إلى تحقيق الغاية من إنشائه من حيث الإكثار في العلوم الدينية كالتفسير والحديث والتوحيد، من مؤلفات محققي السلف، واختير له من المدرسين بعض من عُرفوا بتبريزهم في تلك العلوم.

وكان صاحبنا قد أدرك طرفاً منها، أثناء إقامته في الرياض، مما أَهَّلَهُ للسير في دراسته دون تعثر، فقد حفظ القرآن غيبًا، وبعض المختصرات في التوحيد والفقه، وتلقى مباديءَ النحو في متن «الأجرومية» و «ملحة الإعراب» وأكثر المطالعة في كتب التفسير والتاريخ، واستمعَ إلى بعضها يُقْرَأُ سَرْداً على الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وخاصة الأجزاء الأخيرة من «تفسير ابن كثير» بقراءة أخيه عبد الملك في المسجد قبل صلاة العشاء، وبعض كتب الحديث في أوقات أخرى، فألمَّ إلماماً حسناً بتلك العلوم، ولهذا لم تعترضه أَيَّةُ صعوبة أثناء انتظامه في

---

* المجلة العربية، العدد (١٥٦)، المحرم ١٤١١هـ / تموز وآب ١٩٩٠م.

سلك الدراسة، فما كانت أكثر كتبها المقرر تدريسها فوق مستوى إدراكه، وكان بعض مدرسيها على درجة قوية من فهمها تمكنهم من تبسيط معلوماتها، وتقريبها من أذهان الطلاب أكثر مما كان يفعل اؤلئك العلماء الذين عرفهم وتلقى عنهم.

وقد ضم المعهد في أول إنشائه صفوة من خيرة المدرسين، كل في اختصاصه، وأرى المناسبة تدعو لعرض بعض ما رسخ في ذهني مما لا يزال منطبعاً في الذاكرة عن بعض اؤلئك الأساتذة، الذين كان لتأثير بعضهم في التوجيه من حيث السمت والسلوك ما هو أبلغ مما قد يستفاد من علمهم وإرشادهم، وقد يؤخذ عَلَيَّ ـ حيال ما لاؤلئك الأساتذة من فضل التوجيه والتعليم ـ التجاوز في التعبير بجمل جافة أو مؤثرة في النفس في حق بعضهم، والواقع أنني لا أرى ـ فيما تحدثت به عنهم ـ تجاوزاً لحدود الاحترام، أو انتقاصاً لأقدارهم، أو خروجاً عما يجب عليَّ من الاعتراف بفضلهم، ولكنهم كغيرهم من البشر ليسوا مُبَرَّئين من كل المعايب، ولست فيما نسبت إلى بعضهم مُتَجَنِّياً عليهم، وإنما أردت التعبير عن بعض ما قد يكون ذا أثر من طبيعة المربي في أخلاق تلاميذه.

لقد أُسْنِدَتْ إدارة المعهد إلى عالم من أبرز علماء المسلمين في ذالك العهد، هو الشيخ محمد بهجة البيطار، العالم السلفي المعروف بمناصرته للعقيدة السلفية في عهد قَلَّ مناصروها فيه، ولعل من أبرز صفات هذا العالم تأثره بشيخ الإسلام ابن تيمية في آرائه وأفكاره، وتصدِّيه للدفاع عنه، وهو خطيب مرتجل، سلس العبارة، كثيراً ما يطغى عليه التأثر في مقام الوعظ حتى ينهمر الدمع من عينيه، وهو

رقيق العاطفة، فما كان تأثيره على الطلاب إلا من قبيل إجلاله واحترامه، ولكن ما كلهم ينظر إليه هذه النظرة، ولهذا فلم تتصف إدارته بالحزم، وكان يلقي على الطلاب بعض الدروس، وأذكر منها (المحفوظات) وكانت قطعاً مختارة من النثر أو النظم، وقد اعتاد مدرس هذه المادة أن يمليها من كتاب مطبوع بمصر باسم «مجموعة النظم والنثر»، ولكن الشيخ البيطار كان يملي علينا من حفظه مقطوعات قصيرة من النظم، أدركت ـ فيما بعد ـ أنه انتقاها من بعض المؤلفات القديمة ككتاب «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر مثل:

إنِّي مَنَحْتُكَ يَا كَدَامُ نَصِيحَتِي فاسْمَعْ لقولِ أبٍ عليكَ شَفِيقِ

ومثل:

تَـأنَّ وشاوِرْ فَـإنَّ الأمـو رَ منها جَلِيٌّ ومُسْتَغْمِضُ

ولم يطل عهد الشيخ البيطار في المعهد، ولكن صلتي به امتدت إلى قبيل وفاته سنة ١٣٩٦هـ [١٩٧٦م]، فكنت إذا مررت مدينة دمشق أحرص على زيارته في بيته في (الميدان) وأجتمع به في مقر (المجمع العلمي العربي)، وكثيراً ما يكرمني بدعوتي إلى أحد متنزهات (الرّبوة) مع بعض العلماء، وأذكر آخر اجتماع هناك كان دعا فيه الشيخ عبد الله القلقيلي ـ مفتي قلقيلية من بلاد فلسطين ـ للعشاء ولم أجتمع به بعد ذالك سوى مرة واحدة ـ في (مجمع اللغة العربية) في القاهرة بعد قيام الوحدة بين الشام ومصر أثناء اجتماع للمجمع، تحدث فيه محاضرٌ عن عقيدة أبي العلاء المعري، فنال منها أحد الحاضرين أثناء النقاش، فقال الشيخ ـ بصوت مرتعش، والدمع يتساقط من عينيه ـ: لقد قدم على غفور رحيم، وسعت رحمته السموات والأرض، فدعوه وشأنه!!.

وقد ذكر الأستاذ أحمد علي أسد الله الكاظمي في مقال نشر في جريدة «اليوم» أن الشيخ البيطار هو الذي رشَّحني عضواً في (المجمع العلمي العربي) بدمشق، على ما كتب به إليه عبد الله المزروع، ولا غضاضة في هذا لو كان صحيحاً، ولكن الأستاذ البيطار لم يعلم بانضمامي إلى المجمع إلا بعد فترة من الزمن، والترشيح إنما كان من رئيس المجمع وأمينه العام الأستاذين محمد كرد علي، وخليل مردم، وكان ذالك في عام ١٣٦٨هـ [١٩٤٨م] حين مررت بدمشق فحدثت الأستاذين عن مخطوطة مكتبة الكرملي في بغداد من «شروح المعري لشعر ابن أبي حصينة» واستغربا أن يكون المعري شرح ذالك الشعر، لا سيما أن أحداً من الباحثين لم يشر إليه أثناء احتفال المجمع بذكرى المعري، فذكرت أنه ورد ذكر الكتاب عرضاً في مؤلف ابن النديم عن المعري، المنشور في كتاب الاحتفال الذي أعده المجمع، ووصفت المخطوطة، فنشر الوصف في مجلة المجمع، وعينت عُضُواً مراسلاً فيه.

وقد تولى الشيخ البيطار إدارة (دار التوحيد) أول ما أنشئت في أول عشر الستينات فترة يسيرة من الزمن، ولم يطل عهده في إدارة المعهد، إذْ تولى بعده الأستاذ إبراهيم محمد الشُّوْرَى، وهو أستاذ مصري تخرج في مدرستي القضاء الشرعي ودار العلوم، وقدم إلى مكة عام ١٣٤٧هـ [١٩٢٨م]، واستقر فيها حتى توفي سنة ١٤٠٤هـ وتولى أعمالاً في الدولة، منها وكالة (إدارة المعارف) و (إدارة الإذاعة) وعمل مديراً لشؤون الحج، ومستشاراً لإمارة الظهران، وعضواً في (رابطة العالم الإسلامي)، وشارك في أعمال كثيرة، وقد كان حازماً في إدارته، ذا هيبة بين الطلبة، فقد اعتاد بعضهم أثناء إدارة الشيخ البيطار التأخر

صباحاً، أو الخروج من الفصل أثناء إلقاء الدرس، فكان يعاقب من يحدث منه ذالك بصرامة وحزم، بل كان كثيراً ما يفاجيء المدرس أثناء التدريس بالدخول في الفصل والجلوس آخر التلاميذ ، وملاحظة سير الدراسة.

ومن خيرة مدرسي المعهد في ذالك العهد الأستاذ السيد أحمد بن محمد العربي، كان من أفراد أول بعثة سافرت إلى مصر للدراسة، وقد تخرج في (دار العلوم) وأسند إليه في المعهد تدريس النحو، وكانت له في نفوس الطلاب منزلة سامية من الإجلال والتقدير، لما يتصف به من علم وعقل وخُلق، وإن كان لا يخلو من الانفعال ـ في بعض الأحيان ـ ولعل هذا راجع إلى أثر البيئة الأولى التي نشأ فيها، فهو مغربي الأصل(*) ، ولكنه كان سريع الفيئة، طيب القلب، أذكر أنه أثناء اختبار نصف السنة الدراسية بعد أن أملى الأسئلة، أمر الطلاب بكتابة الأجوبة، والإمساك عن الكلام، وجلس أمامهم يراقبهم، فقال أحدهم ـ وهو سعد بن حجرف ـ : (لكن يا أستاذ ...) ليستوضح عن كلمة وردت في أحد الأسئلة، فأجابه الأستاذ بغضب وانفعال شديد: (لَكِّنَكَ عفريت!!) وقام إليه ليخرجه من الفصل، إلا أنَّ سعداً أجاب بهدوء: (لو كنت عفريتاً ما سألتك) فضج الطلبة في الضحك، مما دفع الأستاذ إلى إبقاء الطالب في الفصل، ومما أذكر عن أستاذنا الجليل، وكان الدرس في كتاب «تهذيب التوضيح» في النحو، في (باب تعدد الخبر) فقرأ الرجز المعروف:

مَنْ يَكُ ذَابَتٌّ فَهَذَا بَتِّـي
مُقَيِّظٌ مُصَيِّفٌ مُشَتِّـي
تَخِذْتُهُ مِنْ نَعَجَاتٍ سِتٌّ

(*) : انظر استدراكه بعد هذه السانحة . (ش) .

ولكنه لم ينون (نعجات) بل أضافها، فرفعت أصبعي ولفتُّ نظره إلى ذالك، فحاول أن يصحح نطقه بأن المقصود : من نعجات سيدتي، وأحضر كتاب «تاج العروس» وفيه قول البهاء زهير :

بَنفْسِي من أُسَمِّيْها بِسِتِّي فَيَنْظُرَني النُّحَاةُ بِعَيْنِ مَقْتِ

إلا أنه اعترف أمام الطلاب بأن الصواب ما قلته، وكان بعد ذالك يوليني من تقديره فوق ما أستحق، وخاصة حينما كنت مدرساً للعلوم الدينية في (المعهد) و (تحضير البعثات) حين وُحِّدَتْ إدارتهما، وأُسندتْ إليه، فقد عُيِّنَ الشيخ محمد بن مانع مشرفاً على الدروس الدينية، فكان مما قرر أن يلتقي بطلاب المعهد والبعثات صباح كل خميس، ليلقي عليهم درساً في التوحيد، بحضور مدرسي المادة، فجمعوا في بهوٍ واسع، فرش بالبسط لجلوسهم، وأُعِدَّتْ كراسي للشيخ وللأساتذة والمدير أمام الطلاب، وبدأ الشيخ ابن مانع بقراءة كتاب «فتح المجيد» سَرْداً بدون إضافة أو تعليق، وكان يقف عند انتهاء كل جملة، ويكرر (لازمة) اعتاد تكرارها وهي (عرفت) بصيغة استفهام، فما كان من أحد خبثاء الطلاب إلا أن كررها مُقَلِّداً صوت الشيخ، فتابعه الطلبة كلهم، واستمروا على ذالك، فلم يبد من الشيخ تأثرٌ أو إنكارٌ، ولكنني وأنا مدرسهم ولم أعتد منهم إساءة أدب، قمتُ من المكان خارجاً والشيخ يراني، وفي صباح السبت قال لي المدير الأستاذ العربي : إن الشيخ قد استاء من خروجك أثناء إلقائه الدرس، وأمرني بإبلاغك بالبقاء حتى ينتهي، فما كان مني إلا أن تناولت ورقة وكتبت استقالتي، وخرجت، وبعد أربعة أيام دعيتُ لمقابلة السيد طاهر الدباغ ــ مدير المعارف ــ فطلب مني الاستمرار في العمل بدون

حضور درس الشيخ، فأبديت له أنني لا أريد إثارة سوء تفاهم بين المعارف وبين الشيخ ابن مانع المعين بأمر ملكي، ولكن السيد طاهراً ألحَّ عليَّ بالعودة، وكان مما قال: لأُفْصَلَ من المعارف، ولكن أرجو أن تستمر في عملك، وقد علمت فيما بعد أن للسيد العربي يداً في طلب بقائي.

ويُعَدُّ هذا الأستاذ الفاضل من أبرز أعلام التربية والتعليم في هذه البلاد، تخرج على يديه جيل من الشباب الذي عَبَّ وارْتَوَى من مناهل العلم المختلفة حتى تأهل لِتَسَنُّمِ مراكز قيادة الأمة في مختلف مناهج حياتها، وكثيراً ما كان يُبدي أساه وتأثره من عدم إقبال النجديّين على التعليم الحديث، وقد تولى في عشر الستين من القرن الماضي إدارة (مدرسة الأمراء) في الرياض، ولما رغب عبد الله الخيال و عبد الله الملحوق الانضمام إلى بعثة إدارة المعارف إلى مصر من خريجي (المعهد) و(تحضير البعثات) سنة ١٣٥٥هـ [١٩٣٥م] طلبا منه التوسط لدى السيد محمد طاهر الدباغ ـ مدير المعارف العام ـ لإلحاقهما بالبعثة، ولكنه أفهمهما أنهما ما داما لم يدرسا دراسة منتظمة، ويكملا الدراسة الثانوية لا يستطيع السيد طاهر إلحاقهما، وذهب بهما إلى يوسف ياسين، فتوسط هذا بتقديم طلب منهما للملك، فأمر بضمهما إلى البعثة.

وأذكر أن أحد أبنائنا رغب الالتحاق بمدرسة (تحضير البعثات) وكان أستاذنا العربي مديرها، فاعترضته مشكلة نيله الشهادة التي تهيء له الالتحاق، فأقنعت الأستاذ بأن رغبة ذالك الشاب في التعلم ستمكنه من مسايرة الطلاب حتى يكمل الدراسة فكان ذالك.

ومن اؤلئك المدرسين ممن كانوا عميقي الأثر في توجيه الطلاب في سلوكهم، وفي اتساع مداركهم، وانفتاح أذهانهم لتلقي مختلف

الروافد الثقافية حديثها وقديمها الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة، قدم من مصر هو والشيخ عبد الظاهر أبو السمح سنة ١٣٤٤هـ [١٩٢٥م] - وكانا ممن درس في مدرسة (دار الدعوة والإرشاد) التي أنشأها السيد محمد رشيد رضا - العالم السلفي - الذي كان ذا صلة قوية بالملك عبدالعزيز، وبعلماء نجد، لمؤازرته للدعوة السلفية بنشرها، والإشراف على طبع كتبها، فَعُيِّنَ الشيخُ محمد بن عبد الرزاق إماماً وخطيباً ومدرساً في المسجد النبوي في المدينة عام ١٣٤٧هـ - ولكنه اختلف مع بعض العلماء، فنقل إلى مكة سنة ١٣٤٨هـ - مدرساً ومساعداً للشيخ أبي السمح في الإمامة والخطابة في الحرم، وعين مدرساً في (المعهد)، وكان - كما تحدثت عنه قبل بضع سنوات - مع سعة علمه بالحديث النبوي، وبتفسير القرآن الكريم وهما العِلْمان اللذان كان يقوم بتدريسهما، على جانب عظيم من الإلمام بالثقافة الحديثة، يكثر مطالعة كتبها، ويحث الطلاب على الاطلاع على الصحف، وقد يقوم بتدريس بعض العلوم الحديثة في غياب مدرسها، كالإنشاء فيطلب من التلاميذ أن تكون الكتابة في موضوع ذي صلة بالحياة، وكان على درجة عظمية من التواضع، مُحَبَّبًا إلى الطلاب، ذَا أثرٍ في اتجاه كثير منهم لدراسة بعض العلوم العصرية التي كان ينظر إليها من بعض العلماء نظرة ارتياب كـ (الجغرافية) و(الفلك). وكنت ممن قويتْ صلتي به، فلا أكتفي بالتقائي به أثناء الدرس، بل أحضر دروسه في الحرم في أحد كتب الحديث المعروفة، وأجتمع به بعد العصر في (حجرة الساعات) التي كانت ملحقة بالحرم، وقد أستعير منه بعض الكتب أو الصحف، وقد أستشيره في بعض شؤوني الخاصة.

وفي سنة ١٣٧٢هـ [١٩٥٢م] عين مدرساً في (معهد الرياض العلمي) غير أنه لم يمكث أكثر من عام، وما كنت أرى عليه أثناء عمله في هذا المعهد ما كنت عرفته عنه من سجية التسامح، والنظر إلى الحياة نظرة تفاؤل، وقد طغت عليه حالة الاكتئاب، واعتورته الأمراض حتى توفي سنة ١٣٩٢هـ [١٩٧٢م] ـ رحمه الله ـ.

وعرفت في (المعهد) ثلاثة من أفاضل العلماء، يقومون بتدريس العلوم الدينية كالتوحيد والفقه، هم: محمد بن عثمان الشاوي ـ من بلدة البكيرية ـ، ومن أبرز صفاته سماحة نفسه، فلا تراه إلا يتهلل بِشْراً، ولا يحدثك إلا ويحاول أن يزيل الكلفة بينكما، مع أنه ـ رحمه الله ـ كان كفيف البصر، يشكُو من داءٍ عُضال، هو وجود سلعة[1] في أحد فخذيه تضايقه أثناء المشي، وكان ممن حضر ـ مع الإخوان ـ دخول مكة المكرمة سنة ١٣٤٣هـ [١٩٢٤م] ـ فوجه قصيدة إلى الملك عبد العزيز، يهنئه فتصدى للرد عليه شاعر يدعى صبحي طه الحلبي[2] بقصيدة بائية نشرت في إحدى صحف ذالك العهد بتوقيع (فتى البطحاء) دعا على الشيخ دعوات هو أجدر بأن توجه إليه كقوله:

وأبكمه رَبِّي وأرغم أنفه   ولقّاه في دنياه شر العواقب

ومع صلاح الشيخ الشاوي وتقواه فقد نال منه أعداؤه في ذالك الوقت، ونسبوا إليه زوراً وبهتاناً ما هو بريء منه، ومع ذالك فما كان يكترث بما قيل عنه، وكان يتعاطى النظم، وقد نشرت له جريدة «أم القرى» سنة ١٣٤٧هـ مقطوعة في رثاء الإمام عبد الرحمن الفيصل، منها:

نُعزِّي إِمامَ المسلمينَ ورهطَهُ   بخيرِ فَقِيدٍ غاب تحتَ الجنادلِ

ولما بدأت جريدة «صوت الحجاز»* تنشر لي نظماً ساقطاً، مما كان ينبغي عدم إبرازه لضعفه وسخفه ومنه هذيان بعنوان :(هناك مرام النفس من كل مطلب) كان من المعجبين به، واندفع يحثني على مطالعة كتب الأدب القديم، وحذرني من أن تُفسد ملكتي الكتبُ العصرية، وما كان ـ رحمه الله ـ يقصد لي إلا الخير.

أما الشيخ محمد بن علي الْبَيْز ـ من بلدة شقراء ـ وقد عُرِفَ أهلُ هذه المدينة بالسخرية اللاذعة، والنكتة البارعة، وخفة الروح، فكان على النقيض مما كان ينصحني به الشيخ الشاوي مما يحفز إلى الاتجاه لنظم الشعر، بل كان يجابهني ساخراً: (تعال يا غزّاوي !!):

الشِّعْرُ صَعْبٌ وطَوِيلٌ سُلَّمُهْ
إذَا رَقَى فِيهِ الَّذيْ لا يَعْلَمُهْ
زَلَّتْ بِهِ إلَى الحضِيضِ قَدَمُهْ
يُرِيدُ أنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمَهْ

والشيخ البيز كان من أخص تلاميذ الشيخ ناصر بن سعود بن عيسى ـ الملقب بشُوَيمي ـ وهو الذي مازحه حين رآى في أصبعه خاتما بقوله :

ألا قُلْ لِبَعضِ النَّاسِ مِثْلِ محمدٍ ... مَتَى كَانَ دِينُ الله لِبْسَ الْخَوَاتِمِ؟

فرد عليه الشيخ سليمان بن سحمان بأبيات معروفة، مطلعها :

ألاَ قُلْ لِرَبِّ الْبَيْتِ مَنْ كَانَ نَاظِماً ... سَتَقْرَعُ إنْ لَمْ تَرْعَوِ سِنَّ نَادِمِ

وهي في «ديوان ابن سحمان»، ولقد كان الشيخان الجليلان الشاوي

---

* صدرت يوم ١٣٥٠/١١/٢٧هـ (١٩٣٢/٤/٤م). (ش).

والبيز يظهران لي كثيراً من التقدير، ويبذلان الوسع في توجيهي وجهة صالحة، ولكن اختلاطي بهما لم يطل، فقد نقلا قاضيين حتى توفيا، وما كانا في طريقة تدريسهما يخرجان عن الطريقة المعروفة من الاعتماد على شرح النصوص من الكتب المؤلفة في ذالك، ككتابي «فتح المجيد» شرح كتاب التوحيد و «الروض المربع شرح زاد المستقنع».

والأستاذ الثالث هو الشيخ عبد الله المطلق ـ من عُنَيزة ـ ويختلف عن الشيخين الشاوي والبيز بأمور: منها طول ممارسته لمهنة التعليم، واحتكاكه بأساتذة يمارسون هذا العلم ممن سبق له أن تلقى مباديء طُرق التدريس الحديثة، فاستفاد منهم في ذالك بحيث اتجه للتأليف فيما يقوم بتدريسه بما يتلاءم مع فهم طلابه وإدراكهم، مما رأت (مديرية المعارف) صلاحه، فعممت تدريسه في المدارس الابتدائية في مقررات (الفقه والتوحيد)، وقد كان مدرساً ـ أول أمره ـ في تلك المدارس، ثم نقل إلى (المعهد) سنة ١٣٤٩هـ، فكان من مدرسي (قسم التخصص الديني) ثم لما أُنشيء (قسم التخصص في القضاء)(٣) كان الشيخ عبد الله من أساتذته، فتتلمذ عليه فيه خريجون تولوا القضاء في مختلف أنحاء المملكة في عشر الستين من القرن الماضي، وكان على جانب قوي من كرم الأخلاق، وسعة العلم، ورحابة الصدر، ومحبة تلاميذه، ويعد من أبرز رجال التربية والتعليم في المملكة، ومن أوائل من حاول السير في تدريس العلوم الدينية على الطرق الحديثة، وألف للطلاب كتباً تتدرج بهم في المعلومات وفق مراحل دراستهم، ولا تفوت الإشارة إلى أن الشيخ عبد الله المطلق حديث العهد في الانتقال من حياة البادية، ولعل أول من استقر في إحدى مدن القصيم جَدُّهُ

(فُهيد بن قاحم العنزي)، فهو، كما يضع فوق مؤلفاته: عبد الله بن مطلق بن فهيد بن قاحم العنزي .. ومن هنا كان أبرز سجاياه السماحة، والبعد عن التكلف والتعقيد في أخلاقه، وذالك من السمات التي تتميز بها طباع أبناء البادية.

ولعل من أظرف أساتذة المعهد وأعرقهم في العمل فيه الأستاذ حلمي ـ خطاط المعارف ـ (محمد حلمي بن سعيد)[٤]، وهو من أشهر خطاطي مكة في ذالك العهد هو والأستاذ سليمان غزاوي في مدرسة الفلاح. ويظهر أنَّ طِيْبَ القلب سمة بارزة من سمات الفنانين، وهكذا كان أستاذنا الجليل، وكان يدرس مع الخط الإملاء، وقد استفدتُّ منه حتى أصبحت أُحْسِنُ أشهر أنواع الخطوط، وأذكر أنه كان يملي على طلابه قطعة من الشعر في رثاء قط: ـ

يَا هِرُّ فارَقْتَنَا ولَمْ تَعُـدِ وأنْتَ عِنْدِي بِمَنْزِلِ الْوَلَدِ

وأثناء استرساله في الإملاء غلب عليه التأثر حتى بكى، وفي أحد الأيام قال للفراش: (أعطني حبتين مُوْيَةْ) ومن بين تلاميذه من لا تزال الخشونة تطغى على صفاته، فقال: (يا أستاذ أُحسَنَ الله إليك ـ وهل الماء حبات؟) فرفع رأسه موجهاً الخطاب لجميع الطلاب: (شوفوا أخوكم الحمار ما يعرف أن الماء حبات) من دون إدراك لمعنى ما وصمهم به، إلا أن أحدهم يدعى عبد الرحيم أمين[٥]، له مواقف في تسجيل ما هو من هذا القبيل، ونشره في جريدة «صوت الحجاز».

وكان الأستاذ حلمي لا يحمل حقداً لأحد، ولا يتأثر بما يقال عنه، وقد مد الله عمر أستاذنا حتى تولى إدارة المعهد، ولقي من كثير من تلاميذه من الاعتراف بفضله و تقديره ما هو جدير به.

وممن عرفت من مدرسي المعهد الأستاذ سليمان بغدادي أباظة، وكان على جانب من العلم والفضل لولا زعارة في أخلاقه، بحيث كان يَجْبَهُ المرءَ بما يراه فيه من عيب أو خطإ، وقد درست عليه النحو أنا وعدد قليل من الإخوة في الحرم بعد صلاة المغرب من كل يوم، منهم عبد الله ابن محمد بن جلاجل[٦] وأخوه سليمان، وعثمان الفضل، وسعد بن حجرف البواردي، وكان يدرسنا في كتاب «النحو الواضح» القسم الابتدائي حتى أكملنا أجزاءه الثلاثة، وكان يكلفنا بحفظ القواعد، ويتولى شرحها بطريقة سهلة مفهومة، أذكر أن سعداً كان يحضر معه بعض الأحيان أحد أصدقائه من أهل بلدته يدعى (حمدي) ويجلس خلف الأستاذ، وفي أحد الأيام تَجَشَّأَ الرجل ـ بصوت مرتفع ـ فما شعرنا إلا بأستاذنا يضم أوراقه ويدخلها في الحقيبة، ويقفلها، ثم ينفتل بسرعة نحو الرجل قائلاً: (بَأَ أنت مُسْلم)؟ فلم يفهم كلامه حتى حذف الكلمة الأولى، فقال: نَعَمْ، ولكن الأستاذ أردف قائلاً: (لا لو كنت مسلماً لتعلمت أدب الإسلام) وصار يمثل ثُغَاءَ البقر، وقام وتركنا، ولكنه ـ والحق يقال ـ ذُوْ حِرْصٍ شديد على أن يستفيد منه طلابه، وذُو رِقَّةٍ ولطْفِ مَعْشَرٍ معهم، ما لم يلاحظ من أحد منهم أية هفوة، وقد استقر في مكة حتى توفي.

وفي المعهد مدرسون مصريون، كالأستاذ عبد المنعم الدشلوطي ـ مدرس اللغة الإنجليزية ـ وفيه من أفاضل علماء مكة المشايخ علي جعفر ومحمد شيخ بابصيل، والسيد حسن محمد كتبي، ولكن تدريسهم في (قسم التخصص) كان في فترات غير متواصلة، باستثناء السيد حسن، فقد كان ذا أثر لا يُنسى في نفوس تلاميذه لرقة خلقه، وحرصه

على توثيق صلته بهم، يضاف إلى ذالك أنه من حيث السن كأوسطهم، إذْ لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، ولد في شعبان سنة ١٣٢٩هـ[٧] [١٩١٠م]، وكأمس القريب حين دخل الفصل شابٌ وسيمُ الطلعة تقتحمه العين لضآلة جسمه، أبرز ما لفت الأنظار من مظهره زِيُّهُ، الذي لم يكن مألوفاً في محيط طلاب المعهد لمن في مثل سنه، طاقية طويلة مزركشة، تكاد تغطي كل رأسه، تُحيط بها عمامة بيضاء، يرفل في جبة فضفاضة، واسعة الأكمام، ذات لون براق، يحدق النظر بعينين حادتين يصرفهما في الجالسين أمامه، كالمتعجب من تباين ما بينهم من أشكال، وتفاوت أعمارهم ما بين رجل كث اللحية قد تجاوز الثلاثين من عمره، وإلى جواره فتى لم يبلغ الخامسة عشرة .. لقد صرفتْ غرابةُ ذالك الزِّيِّ انتباه الطلاب عن الاتجاه نحو أستاذهم الجديد، ولم ينقطع ما دار بينهم من تهامسٍ مَشُوبٍ بابتسامات إلا بدخول المدير ليتحدث عن الأستاذ السيد حسن كتبي .. ما أسرع ما زال ما بينه وبين طلابه من عدم انسجام يحدث عادة عند الالتقاء بمجهول الطباع، حتى أصبح من أقرب الأساتذة إلى نفوس كثير منهم، لقد كان قريب العهد بـ (التلمذة) تخرج في (مدرسة الفلاح بمكة) سنة ١٣٤٨هـ ـ ومن هنا فهو يتفق معهم في الآمال والرغبات، وهو ذو اتجاهات فكرية تستهوي ميول بعضهم، فقد كان معدوداً ممن لمعت أسماؤهم من الكتّاب في تلك الفترة من الزمن، وتولى رئاسة تحرير جريدة «صوت الحجاز»، وعرف من بين تلاميذه من كانت تلك الصحيفة تنشر بعض كتاباته، ذكر بعضهم في كتابه «هذه حياتي» ومنهم صاحبنا الذي قال عنه: أما في قسم التخصص في القضاء فلم يكن من الطلبة سوى .. حمد الجاسر .. كان السيد حسن يدرس الأدب فكان كما قال عن نفسه: حرصت أن أضع

شيئاً أتفاهم فيه مع طلابي لأُنمِّي في نفوسهم الذوق الأدبي وملكة الكتابة، وقد وضعت فصولاً قصيرة في ذالك أسميتها «الأدب الفني»[8].

وللسيد حسن جولات واسعة في ميدان الكتابة والتأليف، وإن لم يكن عميق التفكير ولا طويل النفس، بل تكاد تبرز في كثير من كتاباته الصفة الغالبة على طبعه وهي طيبة قلبه، أو هكذا اتضح لي من خلال ما قرأت من أوائلها، ولقد كان ذا أثر لا يُنْسى لرقة طباعه، وحرصه على توجيه طلابه، وقد تولى أعمالاً كان آخرها وزارة الحج والأوقاف.

أما الأستاذ محمد صادق بن ماجد الكردي ـ أحد أساتذتنا في تلك الفترة ـ فهو أقربهم إلى نفوسنا؛ إذ كان دائماً رَضِيَّ النفس، مُشْرِق الطلعة، بشوشاً في وجه كل واحد يقابله منا، وكان متمكناً من تبسيط ما يقدم لنا من دروس بدرجة تيسر لنا فهمها، ومنها (النحو).

الحواشي:

(١): السلعة ورم يتدلى من الجسم، والكلمة فصيحة.

(٢): من أهل حلب، وقد هرب إلى اليمن بعد فتح مكة فتوفي في الحديدة وعرفت أخاً له كان موظفاً في بريد ينبع سنة ١٣٥٤هـ.

(٣): العرب: ٨/٩٢٥.

(٤): انظر مؤلف الأستاذ حلمي «خواطر من ذكرياتي» ففيه طرائف عن حياة الشيخ حلمي.

(٥): تخرج من قسم التخصص في القضاء فكان مفتشاً في المحاكم حتى توفي.

(٦): آخر علمي بالأخ عبد الله أنه كان موظفاً بوزارة الداخلية.

(٧): العرب: ٦ / ١٩١.

(٨): نقد الأستاذ عزيز ضياء، هذا الكتاب في «صوت الحجاز» (ع ١٤٣ تاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٥٣هـ) (٢٨ كانون الثاني ١٩٣٥م) ومما قاله عنه: فأقول للناس إن كتاب «الأدب الفني» هذا لا يحمل الشيء الذي توهمتهوه، إن هو إلا كتاب مدرسي لا أقل ولا أكثر ـ ٦٦ صفحة من القطع الصغير ـ إلى آخر ما قال.

السيد الأستاذ أحمد العربي *

كنت ذكرت في إحدى سوانح مذكراتي التي نشرتها «المجلة العربية» ـ عدد ١٥٦ محرم ١٤١١هـ ـ أن أستاذنا المربي الكبير السيد أحمد ابن محمد العربي مغربي الأصل.

وقد تلقيت من حفيده السيد المهندس أحمد بن محمد بن أحمد العربي تنبيهاً إلى ما وقعت فيه من خطإ حيث ذكر السيد أحمد ـ الحفيد ـ أن جده ـ حفظه الله ـ من علية أهل الحجاز من بني هاشم من أشراف ينبع من بني هِجَارٍ ـ وهاؤلاء سأتحدث عنهم في إحدى السوانح ـ، وأنه ولد في المدينة المنورة عام ١٣٢٣هـ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارسها وعلى علماء المسجد النبوي الشريف وفي مدرسة (الفلاح) وفي المسجد الحرام بضعة أشهر، ثم رحل إلى القاهرة عام ١٣٤٣هـ فالتحق بالأزهر ثم بدار العلوم وتخرج فيها، حيث عين مدرساً في (المعهد السعودي) بمكة المكرمة، ثم عين أستاذاً بمدرسة الأمراء في الرياض حيث شارك في تأسيس تلك المدرسة، ثم عين مديراً لها، وتنقل في عدد من الوظائف ومن آخرها عضوية (مجلس الشورى)، واستمر حتى بعد تقاعده ـ حفظه الله وأحسن له الختام ـ.

وإنني بعد أن أتقدم للأخ المهندس أحمد حفيد شيخي بالشكر، أحبُّ أنْ أُوَضِّح أنّ ما ذكرته قد أخبرني به أحد أساتذتي في مكة المكرمة في تلك الحقبة من الزمن، ولكن كما قيل: (وما آفة الأخبار إلا رواتها).

---

* جريدة عكاظ (ملحق الأربعاء) بتاريخ ١٤١٩/١/٢٤هـ (١٩٩٨/٥/٢٠م) وتاريخ ١٤١٩/٢/٢هـ (١٩٩٨/٥/٢٧م). (ش).

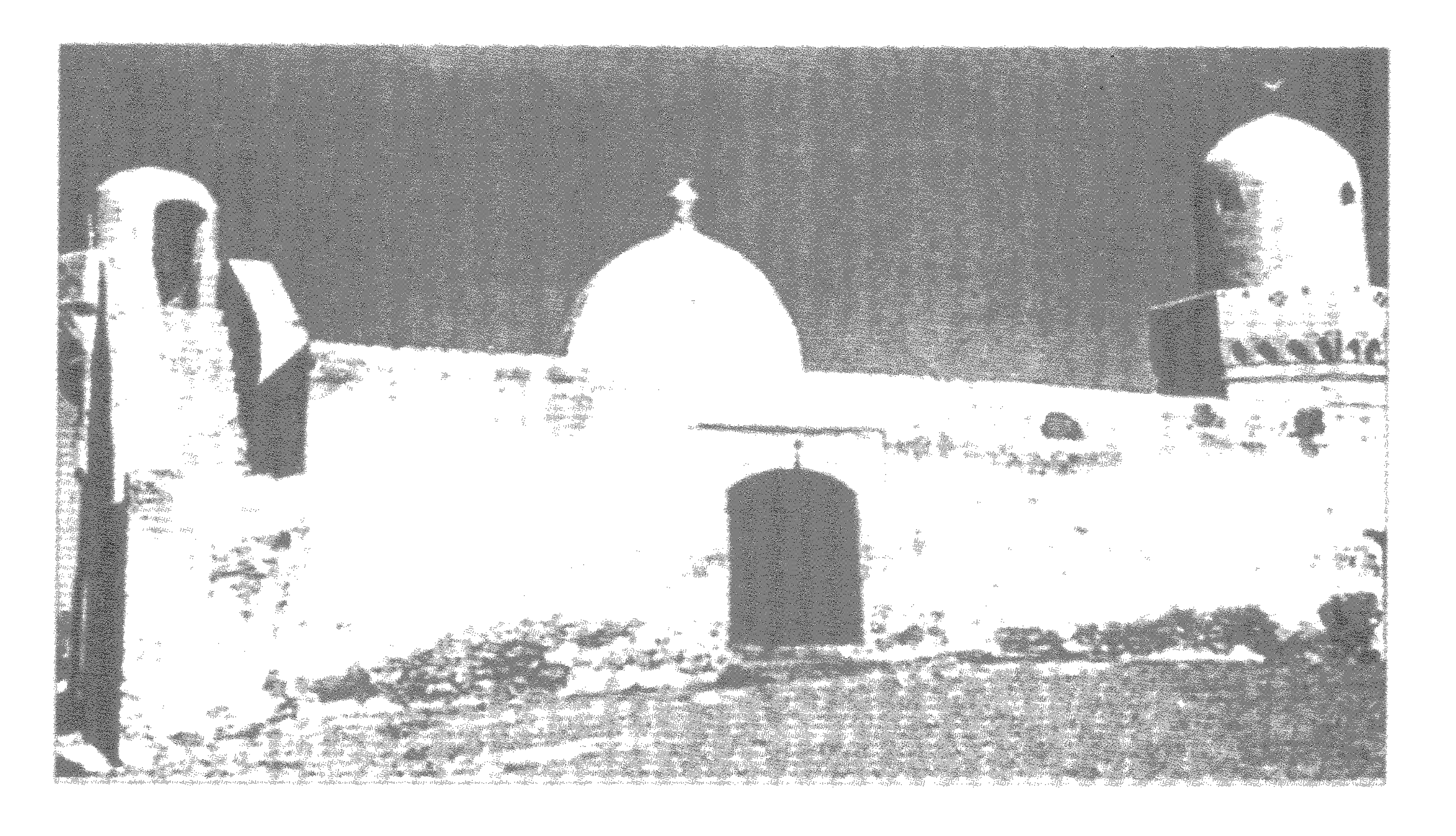
ولعل منشأ ما وقع مني من هفوة ـ إن صح عَدُّهَا هفوةً ـ أن فرعاً من أشراف ينبع انتقل إلى بلاد المغرب، واستقر هناك، ومن هذا الفرع الملك الحسن الثاني وآله ملوك المغرب، وقد يكون أحد أجداد شيخنا من ذالك الفرع، أو أن أحدهم استقر في المغرب فترة من الزمن ومن هنا وقع ما وقع من نسبته إلى تلك البلاد، وحبذا لو أن الأخ المهندس أحمد فَصَّل ترجمة أستاذنا السيد أحمد، وذكر مؤلفاته وآثاره العلمية، فأنا وغيري من تلاميذ الأستاذ نتطلع لنعرف الكثير عنه حباً وتقديراً، واعترافاً بفضله.

ومع كل ما تقدم فمعذرة إلى أستاذنا الجليل، فلم يخطر ببالي يوماً ما أن أعبر بأية كلمة تنال من قدره ومنزلته السامية في نفسي.

أسأل الله تعالى أن يطيل عمره، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه رضاه، إنه على كل شيء قدير *.

حمد الجاسر

* توفي في مكة المكرمة بتاريخ ١٤١٩/١١/٥هـ (٢١/٢/١٩٩٩م]. (ش).



مسجد أبو قبيس في مكة المكرمة ، حيث كان أول عمل رسمي للشيخ حمد الجاسر

(جُلِدتُ) لأني قلت بجواز لبس الزي العسكري *

لم أكن أذكى زملائي في الفصل، ولا أنشطهم جِدًّا، ودَأَبًا في المذاكرة والتحصيل، ولكنني كنت ـ كما سبقت الإشارة إلى هذا مرارًا ـ شديد الحذر من العواقب، بدرجة تسبب لي كثيراً من القلق، حيث يستولي الخوف على مشاعري بمجرد توهم حدوث أمر ما، ولهذا كنت دؤوبًا على أن لا يمر درس دون أن أهضمه هضماً تامًّا، وأن لا يفوتني أيُّ درس من الدروس المقررة، وكان كثير منها يعتمد على الحفظ، وهذا ما كنت أجهد فيه نفسي، وكان جَوُّ الدراسة في ذالك العهد جَوًّا ملائمًا، فلا شواغل ولا وسائل تسلية تلهي، وقد هُيِّئَتْ لي ولزملائي متطلبات الاستقرار الذهني كاملة، من سكن مريح، وتوفير ما نحتاج إليه فيه، فمن (المعهد) إلى البيت، إلى (الحرم) حيث يزخر بحِلَق التدريس والمذاكرة، مما يغري الطالب بمواصلة اجتهاده في التزود من المعرفة، يضاف إلى هذا قرب (مكتبة الحرم) من المنزل، وكانت تفتح بعد صلاة العصر، وتُؤَدَّى داخلها صلاة المغرب اقتداءً بإمام الحرم، فهي متصلة به، وكان يقوم على إدارتها عالم فاضل، يُسَرُّ كثيراً بما يقدمه لمرتادها من مساعدة في علمه، وفي عمله، إنه الشيخ محمد بن سيَّاد الداغستاني**(1) الأصل الذي هاجر من بلاده حين استولى عليها (الروس) فاستقر في مصر زمنًا، وعرف مشاهير علمائها، كالسيد رشيد رضا، ومحمد منير الدمشقي، وغيرهما من دعاة العقيدة

---

* المجلة العربية، العدد (١٥٧)، صفر ١٤١١ هـ / آب وأيلول ١٩٩٠م، والزِّي ـ بكسر الزاي ـ هو الهيئة واللباس وهو المقصود هنا.

** لعله من كان يلقّب «بالفرائضي» لتخصصه في تدريس الفرائض. (ش).

السلفية، فتلقاها عن رغبة واقتناع، ثم سافر إلى الشام، ولم يطل مقامه هناك، بل حجَّ، واستقر في مكة المكرمة، ولقد كان من الخير لتلك المكتبة أن أُسندتْ إليه إدارتها في وقت كانت فيه عرضة للعبث، ولكنه اتخذ من صيانتها أولى غاية يوجه إليها كل جهده، وما كان له من الأعمال ما يصرفه عن ذالك، وكثيراً ما يلجأ إليه بعض الطلبة للاستعانة به في إيضاح مسألة علمية لم يوفها المدرس إيضاحاً، فيسارع إلى عونه، وإرشاده إلى ما هو بحاجة إليه من المراجع التي لها صلة بما استوضح عنه، ويبدوُ الأستاذ ابن سياد غريباً في كثير من حالاته، فلقد كان رحب الصدر، هادئًا دائماً، بحيث لم أشاهده غاضبًا، أو منفعلاً يومًا ما، مع طول ترددي على (مكتبة الحرم) وهو مديرها سنين كثيرة، ومع ما قد يتعرض له من لجاجة بعض المراجعين أو سوء معاملتهم، وكان دائماً حسن الهندام، نظيف الثياب، وكان يجيد الخطَّ إجادة فائقة، وأذكر أنني اشتريت من تركة الشيخ محمد منير الدمشقي في القاهرة مخطوطة كتاب «العلل والتاريخ» ليحيى بن معين، وقد أُعجبت بجمال خطها، وتوقعته قديماً، إذ هو بالقلم الكوفي الخالي من الإعجام، وبينما أنا أقلب أوراقها رأيت كتابة دقيقة في طرف ورقة ملحقة بها توضح أنها منسوخة من مخطوطة (دار الكتب الظاهرية بدمشق) وأن ناسخها حرص على أن تطابق الأصل مطابقة تامة، ثم توقيع (ابن سياد) بالخط الكوفي، ولما عرضت المخطوطة على الشيخ في الطائف بعد نقله من إدارة مكتبة الحرم، أخبرني أنه نسخها حين كان في الشام، وكان الشيخ منير الدمشقي قد أوصاه بأن ينسخ له بعض ما يجده في (دار الكتب) من الكتب أو الرسائل الجديرة

بالنشر، فكان أن نسخ له ذالك الكتاب، محاكياً فيه النسخة الأصلية بحيث لايفرق الناظر بين النسختين، فبدت مخطوطة الشيخ صعبة القراءة كأصلها لخلوها من النقط، ولكونها كوفية الحروف، وقد دفع له الشيخ منير عنها (عشر ذهبات)[٢].. لقد كان ابن سياد خير من تولى إدارة المكتبة ممن عرفتُ، أمانةً وعلماً وحرصاً على استفادة مراجعيها مما تحويه من كتب، غير أنه لم يحاول إدخال النظم الحديثة التي تيسر الاهتداء إلى جميع محتوياتها بسهولة ويسر، خوفاً من أن يمتد العبث إليها، كما حدث حين نقل من عمله فيها، وتولاه فترة مَنْ تظاهر بتنظيم المكتبة ووضع فهارس عامة لها، إلا أن نوادر من نفائس مخطوطاتها فقدت منذ ذالك الحين.

كان مدير المعهد ومدرسوه النجديون يجتمعون بالشيخ ابن حسن فيما بين العشاءين أغلب الأيام، وقد يدور الحديث حول الطلبة، فكان الشيخ على معرفة ببعض أحوالهم أثناء سيرهم الدراسي. وبعد عصر أحد الأيام دعا صاحبنا فأخبره أن (مسجد أبي قبيس) ينتابه أناس من الجهال في بعض الأوقات، وإمام المسجد إنسان (مُخَرِّف) يزيدهم ضلالاً على ضلالهم فيما يتعلق بانشقاق القمر، وإيراد بعض الخرافات المتعلقة بالمسجد. وقد جرى عزله ووقع الاختيار على (صاحبنا) ليكون إماماً لذالك المسجد وليقوم بإرشاد زواره، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فأبدى الموافقة، وفي اليوم الثاني تلقى كتاباً من الشيخ بصدور الموافقة السامية على التعيين، ومراجعة (إدارة الأوقاف).

كان الشيخ محمد ماجد الكردي هو مدير الأوقاف، وكان من أبرز سراة مكة فضلاً وعلماً وجلالة قدر، وكان ذا مآثر خالدة، فهو أول من

أنشأ فيها (المطبعة الماجدية) بعد المطبعة التي أنشأتها الدولة التركية، وأول من أنشأ مكتبة عامة، جمع فيها آلافاً من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون، وقد قام بنشر العديد من المؤلفات المختصرة.

قابلت الشيخ ماجداً في مكتبه في (الحميدية)، ويظهر أن قماءة مظهري حملت الشيخ على الاكتفاء بِمَدٍّ يده للسلام، أو لعل ذالك ناشيء عن كبر سنه، وثقل جسمه، فهو من أضخم الرجال مظهراً، مشرق الطلعة، معتمًّا بعمامة بيضاء صغيرة، وقد أخرج يديه من أكمام جبته البيضاء التي أسدلها خلفه على الكرسي، وبعد أن قرأ كتاب الشيخ دعا رجلاً كان جالسًا على مكتب أمامه وأشار إلى صِوَانٍ (دولاب) بقربه، أخرج منه عدداً من المفاتيح، فقدم لي واحداً منها، فكانت أول وظيفة عينت فيها بصفة (رسمية) هي إمامة مسجد (أبي قبيس) وذالك في أول سنة ١٣٤٩هـ [١٩٣٠م].

قد يحدث بين الرفاق في المنزل ما يحدث عادة من خلاف في أمور يسيرة يسبب شجاراً بين بعضهم ولكن سرعان ما يزول باعثه، ويعود الصفاء والوفاق، إلاَّ أن من بينهم من يحاول الظهور بمظهر المهيمن على أمورهم، فيسعى لإشغال بال الشيخ ابن حسن بنقل بعض ما يحدث، لما يمتُّ به إليه من صلة القربى، وقد يبالغ فيما ينقله، ومع ذالك فقد سارت أمور الإخوة في المنزل وفي الدراسة سيراً حسنًا، ومَرَّ اختبار نصف السنة، وتعثر في اجتيازه من لم يكن متوقعاً منه التعثر، وخاصة في دروس كان يتظاهر بتفوقه فيها، لطول مثابرته في دراستها قبل الالتحاق بالمعهد على مشايخ عرفوا بطول الباع فيها، وما كان صاحبنا متميزاً بين زملائه بذكاء ولا بمؤهلات أخرى للتفوق، ومع

ذالك فقد حاز أرفع درجات بينهم في ذالك الاختبار.

وفي عام ١٣٤٩هـ أصدر (مجلس الشورى) قراراً باعتماد الزي الرسمي لموظفي الدولة العباءة (المشلح) والعقال[٣]، وفي المعهد مدرسون من مختلف البلاد، مختلفو الأزياء، فيهم المصري ذو الطربوش الأحمر فوق اللباس الأفرنجي، وفيهم المكيون المتعممون، ومنهم النجديون الذين يلبسون العباءة وفوق الرأس (الغترة)[٤].

ويظهر أن تنفيذ ذالك القرار بالنسبة للعلماء تأخر فترة من الزمن، وفي صبيحة أحد الأيام فوجيء الطلاب، وأكثرهم لا يعلم بذالك القرار، وقد ظهر أكثر أساتذتهم باللباس الجديد (المشلح)[٥] و (العقال) ما عدا النجديين، إذ ليس من عادة طالب العلم لبس (العقال)[٦] وكان مما أخذ على الشيخ محمد بن حسن المرزوقي ـ أحد مشاهير العلماء في شرق الجزيرة ـ أنه لما قدم من (قطر)، وافداً على الإمام عبد العزيز، كان لابساً عقالاً، فكان استقبال علماء الرياض له فاتراً، مما سبب وقوع خلاف بينه وبينهم، وكان ممن عرف بمناصرة الدعوة السلفية، ونشر مؤلفات علمائها، بل إنَّ أحد المنتسبين إلى العلم، وكان ممن يطوف على القرى يعظ في مساجدها تطوعاً، كان ينشد نظماً في الحث على لبس العمامة، والنهي عن استعمال العقال، لباس (الزكرت)[٧]* وذوي الطغيان:

لَيْسَتْ كلِبْسِ الجنْدِ في أزمانِنَا ... حَاشَا وَرَبِّي كَيْفَ يَسْتَوِيان؟
هذِي لِبَاسُ ذَوِي التُّقَى وذَاكَ ... لِـ (الزُّكرْتِ) وكُلٌّ ذِي طُغْيَانِ

---

* مفردة زكرتي، ويقال إنها تحريف الكلمة الإنجليزية Security. (ش).

وقد شغل الشيخ سليمان بن سحمان بهذا الأمر فأثبت في ديوان شعره قصيدة في الرد على ذالك النظم، وتحدث ـ بتفصيل ـ عن العمامة والعقال في كتابه «إرشاد الطالب» بما هو معروف.

قال لي أحد الإخوة ممن لمحت إلى موقفهم حيال ما يحدث في المنزل، وقد استغرب أن يرى بين مدرسيه من العلماء من يلبس (العقال): لو أَمَرُونا بلبسه أتلبسه؟ فقلت: نعم لو أمرنا ولاة أمورنا بذالك لأطعناهم، ولو أمرنا ولي الأمر بلباس(الشرطة)[٨] للبسناه، فقال: أعوذ بالله تلبس لباس الكفار !! وانصرف عني قبل أن يسمع جوابي، وظننت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، وبعد ظهر ذالك اليوم وبينما أنا وإبراهيم ابن جُهَيمان جالسان نتحدث في انتظار اجتماع الإخوة لتناول طعام الغداء، إذا بصاحبنا في الصباح يقف علينا مشيراً إلى إبراهيم ليفسح له المكان ليجلس بيننا، فقال له: المجلس واسع ولا داعي لمضايقتنا، فقال: (انفهق[٩] يا ابن ...) فأجابه: (أنت ابن... ولا انفهق) فضج صارخاً: (شيخ الإسلام.. يا ابن...) فلم يَزِدْ رَدُّ إبراهيم على قوله: (لم أقل شيئاً عن شيخ الإسلام، وإنما رددت كلامك عليك) وسكت، بينما استرسل صاحبنا في النيل من صاحبه حتى هَدَّأَ الإخوةُ ما بينهما من لجاج، ولكننا فوجئنا بعد المغرب بمن يدعو ابن جاسر وابن جهيمان لمقابلة الشيخ.

دخل الاثنان المجلس وأرادا الجلوس في أحد جوانبه إلا أنهما حينما وقفا أمام الشيخ لمصافحته اكتفى بمقابلتهما بتجهم، وأشار بأن يجلسا تحته على الأرض، وبدأ بتوجيه الكلام لصاحبنا، ولكن ما اعتراه من

دهشة حين رأى انفعال الشيخ، وتفوهه بجمل قاسية على غير عادته، وهو لم يدرك بعد سبب ذالك ـ صرف ذهنه حتى عن محاولة الدفاع عن نفسه حين وصفه الشيخ بصفات قاسية، وأنه أراد انتقاص إمام المسلمين: (لو يأمرنا ابن سعود بلباس النصارى لبسناه) ثم دعا شرطياً كان يقف عند باب المجلس، وقال ـ مشيراً إليَّ ـ: (ابطحه) فقلت: (أنا سأنبطح) وتمددت على الأرض على بطني، فوطىء الشرطي على ساقي، ووطىء عبد الرحمن بن حسن ـ أخو الشيخ وكان إمام جامع القصر في الرياض ـ فوق متني، وبيد الشيخ عصا من الخيزران صار يضربني بها بعنف وقوة، وهو يردد كلمات التأنيب والتبكيت الموجهة إلي، والمجلس ـ كعادته في مثل هذا الوقت ـ يضم عدداً من العلماء منهم مدير المعهد، وبعض مدرسيه كالشيخ محمد بن عثمان الشاوي الذي كان هو الوحيد بين اؤلئك، الذي حاول أن يهدِّيءَ ثورة الشيخ، فقال: (ما يقول حمد هذا القول) فرد عليه: (هذه حمية جاهلية لأنه من أهل القصيم تدافع عنه) فقال: إنه من أهل السر وليس من أهلِ القصيم، ولكنني أعرفه من خيار الطلبة، ويظهر أن الشيخ خشي أن ينجر الكلام بين الحاضرين وفيهم من تأثر مما حدث، فكف عن الضرب، وجاءت نوبة إبراهيم، ولم يكن بأهون من صاحبه في توجيه أشنع التهم إليه، إنه لم يقف به الأمر عند حد انتقاص أقدار أبناء شيخ الإسلام بل تجاوز ذالك إلى احتقار الشيخ نفسه حين سماه (. . . . .) ونال نصيبه من (البطح) والضرب وافياً، ولكنه كان أقوى على تحمل ذالك من صاحبه، وأقل اكتراثًا بما حدث.

هدأت سورة غضب الشيخ فأراد مدير المعهد الشيخ إبراهيم

الشورى أن يخفف أثر الأمر في نفوس الحاضرين : سماحة الشيخ هو بمنزلة الأب المربي لأبنائه، وقسوته في التأديب ليست قسوة انتقام وإيلام، ولكنها قسوة محبة ومحاولة إصلاح، وهما عاقلان يدركان هذا، ويعلمان قدر ما يكنه والدهما لهما من الحب والحرص على ما فيه الخير لهما ـ أو ما هذا معناه ـ وكان أذان العشاء قد انتهى فاتخذ المجتمعون أمكنتهم من ساحة المجلس لصلاة سنة العشاء، ومعهم أجلد المجلودين، أما الثاني فقد تحامل على نفسه وانحدر مع الدرج يَجُرُّ جسمه جراً إلى المسجد، حيث استند على إحدى سواريه حتى أُقيمت الصلاة.

لقد كانت هفوة من هفوات الشيخ ـ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفرها له ـ وهو إنسان ليس معصوماً من الخطإ، «وكل بني آدم خَطَّاء، وخير الخطائين التوابون» فما بلغه عني وعن صاحبي ليس صحيحاً، فلم أنطق بكلمة (النصارى)، وما كنت أعبر بكلمة (ابن سعود) وإنما بـ (الإمام) أو بـ (ولي الأمر) ولم يخطر ببال إبراهيم أثناء الشجار بينه وبين أحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإساءة إلى الشيخ، ولكن وجهت إليه كلمة فلم يتمالك أن أعادها بدون تفكير بمدلولها.

ولقد كان لطيب الذكر الشيخ حسن بن الشيخ عبد الله ـ رحمهما الله جميعاً ـ معي وقفاتٌ رام منها أَنْ يَسُلَّ سخيمة قلبي من جراء ما حدث لي من والده، وفي كل مرة يدرك أنني لا أحمل حقداً أو إحنة أو ضغينة منذ أن قابلت والده في مكة سنة ١٣٥٧هـ [١٩٣٨م]، حين رشحني للقضاء فأظهرت ـ في مقام الاعتذار ـ عدم صلاحي، وذكرته بما قد يكون نسيه، ولكنه تأثر من الإشارة إلى ذالك الأمر مبدياً أسفه، وأظهر لي من حسن الرعاية والعطف ما أزال من نفسي آثاره، ولولا ما

له من تأثير في مجرى حياتي مما أنا مضطر للحديث عنه لاستكمال ما بدأت به لضربت صفحاً عن ذكره ﴿ ربَّنا اغْفر لَنا ولإِخْوَانِنا الذَّينَ سَبَقُونا بالإِيمَانِ ، ولا تَجْعَلْ فِيْ قُلوْبِناَ غِلاً للَّذِينَ آمنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

كيف أحتمل نظرات رفاقي إليَّ بعد ما لحقني من إهانة؟ لقد كنت بالأمس القريب محل تقديرهم واحترامهم ، أما اليوم فَلَنْ أَعْدِمَ بينهم من ينظر إلي نظرة شفقة ، إن لم تكن تَشَفِّيًا ، وما أسوأ وقع النظرتين في نفوس مرهفي الإحساس ! ! لقد انفصلت عنهم من تلك الساعة فلم أذهب إلى البيت .

كان صاحباي الجنديان قد انتقلا من (قلعة أجياد) وانضما إلى جنود هيئة الأمر بالمعروف ، حين فرقوا للعمل في حارات مكة ، واستقر الأَخَوَانِ في (مركز القرارة) فوق جبل المروة ، فذهبت إليهما وأمضيت تلك الليلة عندهما ، ولم يصبح الصباح إلا وقد حمل أحدهما معي كتبي وأمتعتي إلى بيتهما ، وكان رئيس المركز على جانب عظيم من الشهامة وكرم النفس ، فرغبني في الانضمام إلى صاحبيَّ في عملهما ، وأبدى استعداده أن لا أُطالب بالقيام بما يحول دون مواصلة الدراسة ، فتمَّ ذالك ومضت أيام ثلاثة لم أذهب إلى (المعهد) ، لقد عزمت على الالتحاق بـ(مدرسة الفلاح) فوجدت حسن استقبال من مديرها الشيخ عبد الله حَمَدُوه السناري ، واكتفى بأن طلب مني أن أسمعه سورة (والفجر) بعد أن وجه إلي أسئلة قليلة ، تتعلق بأحكام الصلاة ، وعرف مني أنني قد طلبت العلم على بعض المشائخ ، وفي بعض المدراس : إذَنْ

ستنضم إلى السنة الأولى من القسم الثانوي وبعد الاختبار يتم إلحاقك بالسنة الملائمة لمعلوماتك.

لم أكمل الأسبوع في (مدرسة الفلاح) فقد دعاني الشيخ عبد الله، وكان مما قال لي: يابني علمت أنك كنت من طلاب المعهد فخرجت منه، ولهذا ينبغي إحضار كتاب من مديره بأنه لا يمانع في التحاقك بمدرسة الفلاح.

لقد كنت أتوقع أن مدير المعهد الشيخ إبراهيم الشورى ـ وصلتي به على خير ما يرام ـ لَنْ يحول دون تحقيق رغبتي تلك، إلا أنني حين قابلته وعبر عن أسفه لما حدث لي، عاتبني بمنتهى الرقة واللطف على تأخري عن الحضور الأيام الماضية، ثم لما علم باتصالي بمدرسة الفلاح أبدَى تَصَلُّبًا قويًّا، بل امتناعًا عن موافقته على التحاقي بأية مدرسة سوى المعهد، ولـمَّحَ لي بأنه عرف أنني بعد أن خرجت من البيت الذي أحسست فيه بالمضايقة قد أكون بحاجة إلى مَدِّ يد العون والمساعدة من المعهد، الذي كنت فيه محل تقدير بين أساتيذك وإخوانك.

أَثَّرَتْ هذه المقابلة في نفسي، إلا أن من أسوإِ ما أَتّصِفُ به من عيوب طغيان الحيرة عليَّ حين تلتبس الأمور فأبقى حائرًا مترددًا بين الإقدام أو الإحجام، ويظهر أن المدير أدرك ذالك مني، فأمسك بيدي وسار بي إلى غرفة الأساتذة قائلاً: تعال يا حمد يا جاسر، هذا يريد أن يهرب فأمسكناه فأحسست بما غمرني من حسن استقبال الحاضرين، وتوددهم إليَّ ما أزال ما كنتَ أُحِسُّ به من حيرة وتردد، بحيث اندفعت في تلك الساعة للذهاب إلى الفصل.

كنت قد انتظمت (جنديًا) مع إخوة كلهم من أهل ثرمداء بعد أن سافر صاحباي أحدهما إلى القرية، والثاني إلى منطقة جازان، وكان أؤلئك الإخوة في (مركز القرارة) على مقربة من الحرم، ورئيسهم شهم كريم هو عبد العزيز بن عبد الله العنقري، الذي لم تقف صلتي به عند حدِّ الصداقة، بل أصبح صِهْرًا، إنه جَدُّ أبنائي، ولكن حدث في تلك الأثناء استبدال (الشرطة) بجنود هيئة المعروف من (الهجانة)، وفُرِّقَ هاؤلاء على الفرق المستقرة في قلاع مكة، فنقل رفاقي وأنا معهم إلى (قشلة جرول)[١٠] وهي بعيدة عن (المعهد)، فكنت أضطر للذهاب فجراً للصلاة في الحرم والبقاء هناك حتى انتهاء الدراسة ظهراً.

لا أزال إماماً لمسجد (أبي قبيس)، وقد أبديت للشيخ ابن حسن في أول الأمر أن المسجد لا مؤذن له، ولا ميضأة فيه (ماء للوضوء) ولا ساكن بقربه، فهو واقع في قمة الجبل، وقل أن يرتاده أحد في النهار لصعوبة الوصول إليه، ويظهر أنه لم يُبْنَ حديثاً إلا لما حيك حول المكان من خرافات، ومنها أن من أكل في ذالك الموضع لحم رأسٍ أمن الصداع طوال حياته، فأمرني الشيخ أن أتحين أوقات زيارته في الليل للوعظ والإرشاد، وإمامة من يحضر وقت الصلاة، وأنه سيأمر جنود الهيئة في تلك الجْهة بمنع من يريد الصعود إلى الجبل نهارًا، ومن هنا فما كنت مواظباً على الذهاب إليه دائماً، وفي هذه الأثناء اتصلت الأوقاف بالمعهد لتسأل عني، فلما قابلت الشيخ ماجداً الكردي قال لي: هات مفتاح المسجد، فقد أُبلغنا بتعيين إمام غيرك!

لقد كان من أبرز صفاتي الحياء والخجل، ومن لازمهما رقة الطباع،

ولكن يظهر أن المرء مهما بلغ من الثقافة والتهذيب ما بلغ تبقى في نفسه رواسب مما كان متأثراً به في أول حياته من الخشونة في بعض أخلاقه، لقد أحضرت المفتاح، ولا أزال أحس بالخجل يغمرني من موقفي عند تقديمه لذالك الشيخ الوقور، لقد رميته إليه رمياً، وأنا واقف بباب مكتبه، فما كان منه إلا أن قال: يابني قدمته لك بيدي فقدمه لي بيدك!، ولك أن تتصور حالتي تلك الساعة، مع هذا الرجل الذي يُعَدُّ في قمة رجال العلم والفضل والصلاح في عصره في بلده.

سارت جميع أحوالي على ما يرام، وكنت مُجِداًّ في الدراسة حتى أكملتها في (قسم التخصص في القضاء الشرعي) وكان ذالك في عام ١٣٥٣هـ [١٩٣٤م].

الحواشي:

(١) : أمضى مدة من الزمن في إدارة المكتبة، ثم عين مدرساً في دار التوحيد في الطائف حتى توفي.

(٢) : كذا عبر الشيخ، ويقصد عَشْرَ جنيهات ذهباً، وذهبت المخطوطة مع ما ذهب من كتبي عند بدء الحرب في بيروت سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٥م).

(٣) : نشر القرار في جريدة «أم القرى».

(٤) : الغترة غطاء للرأس يتخذ من قماش خاص، مثلث الشكل، يسدل طرفاه على الصدر، ويظهر أن الكلمة محرفة من كلمة (الجتر) الفارسية وهي ظلة تحمل فوق الرأس كانت خاصة بالملوك والقادة، كما أخذت كلمة (الشماغ) وهو غطاء للرأس من الكلمة التركية (يشمك) غطاء لرأس المرأة، ولو تحذلق متحذلق لإيجاد أصل عربي للكلمة لوجد (القترة) ما يختفي به الصائد عن أعين الصيد.

(٥) : المشلح ــ هو العباءة بالفصحى، والتشليح التعرية ــ دخيلة ــ.

(٦) : مأخوذ من الحبل الذي يعقل به المسافر راحلته، ولعله كان في أول الأمر يديره فوق رأسه ليكون قريباً منه، ثم اتخذ زيًا.

(٧) : تطلق كلمة (الزكرت) على من لا عمل لهم سوى خدمة الأمراء غالباً، والكلمة أعجمية.

(٨) : كان يعرف باسم (الشنقيط) ويقولون : تشنقط فلان إذا لبس لباس الشرطة، ولما أمرت الدولة بإلغاء جند (الهجانة) في ذالك الوقت إلا من انضم إلى الشرطة، قال أحد الجنود :

نَبُّوا علينا نلبس (الشنقيطِ) وأمْرَ الحكومة كلنا راضِيْنَهْ
نأخذْ ثلاثْ ونتركْ الخِرِّيطِ واللِّي يْخَايِرْ ما يْحَصِّل عِيْنَهْ

وكان راتب الشرطي ثلاثة جنيهات.

(٩) : أصل الكلمة من (الفهق) وهو الاتساع (انفهق) أي أفسح ووسع لي المكان.

(١٠) : قشلة جرول قصر محصن عُمِرَ في عهد الدولة التركية ليكون مقراً للجند في ضاحية جرول خارج مكة في ذالك العهد. وكان من أفخم ما عمرته تلك الدولة، وقد أزيل في عهدنا الحاضر، وكلمة (قشلة) تحريف (قشلاق) التركية.





الرقم

التاريخ

جدة في ٢٠/٥/١٣٧٦

أخي الأستاذ حمد

تحية عطرة. وتحيات أكثر عطراً.. ووفاءً لما التزمت به نحوك من المساهمة في تحرير العدد الأول من مجلتكم الغراء "الرياض" أقدم لكم برفقه قصة سبق أن أذيعت من محطة الإذاعة السعودية بعنوان "ليته يعود.." وكنت أود أن أساهم بمقال اجتماعي ولكني آثرت الانتظار حتى أتبين السياسة العامة للمجلة.

وقد ترخصت في اختياري لهذه القصة بالذات ما يلائم عقلية القراء في نجد العزيزة وأرجو أن تجدوا فيها مادة صالحة للنشر. وأؤكد رغبتي الأكيدة للتعاون معكم في إرسال هذه القصة.

ولكم شكري وتقديري.

المخلص

جميل الحجيلان

خطاب من الشيخ جميل الحجيلان ـ حديث التخرج آنذاك ـ حول مساهمته في الكتابة في مجلة اليمامة

على هامش الدراسة*

كنت أحاول ـ ما استطعت ـ ألا أنطوي على نفسي، ومع أنني لا أبدو بمظهر يحفز للانجذاب نحوي أو حتى الارتياح للاختلاط بي، ولا أتصف حين أُحادث غيري بما يؤثِّر في استمالته لمتابعة الاستماع إِلَيَّ، إلا أنني ـ مع كل ذالك ـ أسعى جاهداً لتكون لي صلات مستمرة بمن أحس في نفسي ميلاً لتقوية صلتي به حين يتسنَّى لي الاجتماع به.

ويكاد يكون الحرم في ذالك العهد أَحْفَلَ مجتمع للطلاب، وذالك بعد صلاة العشاء، لمذاكرة دروسهم، بعد أداء صلاة أغلبهم فيه، وبعد الاستماع إلى بعض الدروس التي يلقيها أشهر العلماء من الحجاج الوافدين أيام الحج، ومن غيرهم من العلماء المقيمين في مكة، يضاف إلى هذا قربه من أشهر مدرستين كبيرتين، مدرسة (الفلاح) الواقعة على شارع الْمَسْعَى المجاور للحرم، و (المعهد) في حَيٍّ أجياد، لا يبعد سوى خطوات معدودة، وكثيراً ما يلتقي فيه طلاب المدرستين حيث تتوفر الإنارة التي قد لا تتهيأ لكل طالب في مكان آخر.

عرفت بالإضافة إلى كبار طلاب المعهد، عدداً من لِدَاتي في السن من غيرهم، وكان من أوائل من عرفت، واتصلت المعرفة به أَحَدُ طلاب مدرسة الفلاح في ذالك العهد عبد الله عُرَيْف، ومع أن مبدأ التعارف بيننا نشأ عما يسبب عادةً التجافيَ والتباعد، وخاصة في تلك الأيام، إلا أن الأمر بيننا جرى بخلاف ما كان يُتَوَقَّعُ. كنت جالساً ـ كعادتي دائماً ـ في وسط (السرحة)[1] الواقعة على يمين الداخل من باب السَّلاَم،

* المجلة العربية، العدد (١٥٨)، ربيع الأول ١٤١١هـ / أيلول وتشرين الأول ١٩٩٠م.

على مقربة من المصباح الكهربائي الكبير الذي قد أُعِدَّ لأحد مدرسي الحرم بين العشاءين، أذاكر دروسي، فإذا بالشاب الذي قابلته في الليلة الماضية في هذا المكان، وجرى بيننا حديث قصير، يَقفُ بقربي، ويكبر رافعاً صوته قائلاً: (نويت أن أصلي لله ركعتين تحية المسجد) فلما أكمل صلاته بدأته بالتحية، وأعقبتها بجملة: (أتخبر الله بأنك ستصلي له؟ إنه لا يخفى عليه خافية) فما كان منه إلا أن انفعل، واكفهرَّ وجهه وتغير، وكان مما قال لي :(أنت يا هذا البدوي الذي تبول على عقبيك تريد أن تُعَلِّمنا أمور ديننا) !؟. فحورت الحديث إلى مجرى الهزل، فعاد إلَي صاحبي هدوءُهُ، واستمر التلاقي وقويت الصلة بيننا، واستمرت بعد أن عمل في الصحافة رئيس تحرير جريدة «البلاد السعودية» حتى توفي ـ رحمه الله ـ أمِيناً للعاصمة.

وفي العام الذي كنت التحقت فيه (بالمعهد) عام ١٣٤٩هـ [١٩٣٠م] كان يصدر في مكة جريدتان ـ بل لم يكن يصدر من الصحف في البلاد سواهما ـ هما : «أم القرى» و «صوت الحجاز» يرأس تحرير الأولى الأستاذ رشدي الصالح مَلْحَس، من نابلس من فلسطين، واستقر في المملكة حتى توفي مديراً للشعبة السياسية في (الديوان الملكي) في آخر عشر السبعين من القرن الهجري الماضي، ويتولى رئاسة تحرير الثانية في أول أمرها الأستاذ السيد محمد حسن فقي، ويعنى الأستاذ رشدي بنشر الأبحاث التاريخية والجغرافية والأدبية وغيرها مما له صلة بجزيرة العرب، وينحو الأستاذ السيد محمد حسن فقي لمعالجة بعض القضايا الأَدبية والاجتماعية، وكان الطلاب شديدي الإقبال على مطالعة الصحيفتين، والاهتمام بما ينشر فيهما بحثاً ومناقشة وتعليقاً،

ويستهويهم ما ينشر في «صوت الحجاز» من نقاش بين بعض الأدباء أو مساجلات شعرية، أما الصحف العربية التي تصدر خارج البلاد فكان المتداول في أيدي القراء منها قليلاً لصعوبة الحصول عليها، ومنها «الهلال» و«المقتطف» و«الفتح»، وقد يتداول عشرات القراء الصحيفة الواحدة بينهم، وقد يكتفون بمطالعتها في بيت أَحدهم.

وكان من زملائي في (المعهد) عبد العزيز بن صالح المُداوي ـ من أهل الرياض ـ وله أخ هو عبد الله موظف في المكتب الخاص للنائب العام، وبواسطتهما كنت أطلع على أكثر الصحف العربية التي كانت تصدر في ذالك العهد، وتصل إلى المكتب، وقَلَّ أن يكون بين موظفيه من يتجه لقراءة ما ليس له صلة بالدولة.

وكل شاب يتطلع إلى الظهور والبروز بمختلف الوسائل الممكنة، فلا بدْعَ أَنْ يُحسَّ بميلٍ قويٍّ في المشاركة في الكتابة، كبعض زملائي الذين بَدَتْ أسماؤهم تَبْرز في بعض الصحف، وهذا الإحساس من طبيعة كل شادٍ من شداة الأدب إبان نشأته الأدبية، وقبل أن يبلغ من النضج الفكري والاستعداد التام لمستلزمات الكتابة ما يمكنه من أَن يُقَدِّمَ للقراء ما هو مفيدٌ، ولهذا فما أكثر ما يحرص هاؤلاء الشُّدَاةُ بدافع الرغبة في الظهور على نشر ما هو أولى بالسَّتْرِ مما قد يثير السخرية والازدراء، وكم تمنيت حين أطلع على ما كنت أطلب من المشرفين على تحرير بعض الصحف في تلك الفترة نشره مِمَّا كتبته، بل كنت ألح في ذالك وأَتهم بعضهم حين يصارحني بأنه ليس صالحاً للنشر بأن له دوافع أخرى، وأكاد الآن أن أتوارَى خجلاً حين يبرزه أحد (العابثين) من أُدبائنا، متمنياً أن يبقى لسخفه وتفهاهته (مَوْؤُوْدًا)!.

كان من أوائل ما نشر من كتاباتي كلمة بعنوان: (قل الحق ولو كان مُرًّا) نشرت في جريدة «صوت الحجاز» سنة ١٣٤٩هـ* ـ وكان رئيس تحريرها الأستاذ السيد محمد حسن فقي، وكانت روح التشاؤم تبدو على كتاباته منذ أول عهده بالكتابة، فكان أن تذمَّر وشكا دهره، فما كان من الأستاذ عبد الله عبدالغني الخياط ـ وكان طالبًا في المعهد، ومن أبرز تلاميذ العالِمَيْنِ السلفيَّيَنِ وألصقِ الناس بهما الشيخ عبدالظاهر أبو السمح والشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة، ولم تكن لي صلة بالأستاذ الخياط في تلك الأيام، ولكنني ـ مدفوعاً بالرغبة بالظهور ـ بعثت بكلمة إلى الجريدة، مناصراً رأيه، ومؤيداً، فنشرتْ، ولا تسل عما غمرني من السرور حين رأيت اسمي بارزاً في إحدى الصفحات، مما زادني استرسالاً في هذا المجال، غير مفكر بما للتسرع من مساويء.

لقد أردتُّ أنْ أَلِجَ باباً آخر من أبواب البروز فصرت ألفق ما أتوهمه شعْراً، وما هو سوى كلمات مرصوفة تافهة المعاني، وجعلت أُكثر التردد والإلحاح على رئيس تحرير تلك الصحيفة لتنشر، ولا أصيخ لنصحه حين يحاول أن يقنعني بأنني بحاجة إلى الاستزادة من المعرفة، وكثرة مطالعة المؤلفات الأدبية، ليصبح ما أُقَدِّمْهُ مُفيداً ونافعاً وصالحاً للنشر، ولعل أقدم ما نشر لي من ذالك مما توهمته شعراً وهو أبعد ما يكون عن الشعر منظومة بعنوان (ولا تَحْتَجِزْ إلا لِحَجٍّ وعمرة)، وقد أبرز أحدهم هذه (السوءة) منشورة في هذه (المجلة) منذ عهد قريب، وبعد نشرها وما رأيت من اهتمام زملائي في المعهد وحرصهم على الاطلاع عليها، وما سمعت من ثناء بعض أساتيذي عليها ازددت

* استدرك الشيخ على هذه المعلومة، ونشر الاستدراك بعد هذه السانحة. (ش).

اندفاعاً في هذا المجال، فنشرت لي «صوت الحجاز» من ذالك السخف بعنوان (رباعيات) وبتوقيع (بدوي نجد الجاسر).

وفي (المعهد) وفي محيط الطلاب كان أحدهم ممن اتجه تلك الوجهة، وجهة الرغبة في الظهور باسم الأدب، فعمد إلى جمع كتابات من إنشائه ومن إنشاء بعض زملائه، ودعا ما جمعه «الشباب الناهض» بشكل صحيفة، وذالك حين قام آخر من طلاب مدرسة الفلاح بعمل مماثل باسم «الفلاح»، ولقد وجدت في «الشباب الناهض» مجالاً رحباً لنشر نماذج من عبثي نظماً ونثراً، نقداً وكلاماً مرصوفاً ـ وهذا أسمى ما يوصف به ـ بحيث إنني نقدت رواية للشاعر المعروف علي أحمد باكثير، لا أذكر من اسمها إلا (همام، أو في صحراء الأحقاف) مع أنني لا أعرف عن الرواية سوى اسمها، بل حدث أن الشاعر المعروف أحمد بن إبراهيم الغزاوي مدح الشاعر عبد الله بلخير، وكان في ذالك العهد لا يزال طالباً في (الفلاح) ولكنه أشاد بالغزاوي مثنياً عليه في قصيدة ألقاها في حفل استقبال فيصل بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ عند عودته من غزوة اليمن سنة ١٣٥٣هـ [١٩٣٤م]، وكان الغزاوي غائباً، فما كان من صاحب «الشباب الناهض» إلا أن استثارني لأهجو الغزاوي، فكان ذالك مع نقد قصيدة صاحبنا عبد الله بلخير (الفلاحي) التي مطلعها:

(تحيرت) فيما أستَهِلُّ به شعري ... وقد راعني هولُ المقام فما أدري

جلال ونور شعَّ من كل جانب ... فأخرس أرباب (القوافِـيَ) والنثرِ

ما كنت كبعض الطلاب (المعهديين) الذين يحملون لإخوانهم (الفلاحين) إحناً وكراهية، بل كانت صلتي بكثير منهم وثيقة، ومنهم

عبد الله عريف الذي يقوم بكتابة صحيفة «الفلاح» الطلابية، فقد نمقت ما ظننته شعراً لينشر في صحيفته، ومما قلت فيه:

إيهِ (عبد الإلـهِ) نَبِّـهْ صِغـارًا   للمعالـي، ودَعْ نُفُـورَ الكبـار

وقد (زَيَّن جِيْدَ «الفلاح» بالقصيدة العصماء) كما جاء في كتاب بعث به إليَّ مشحوناً بعبارات الإطراء، وعندما أصدر الأستاذان محمد عبد المقصود خوجة، وعبد الله عمر بلخير، كتاب «وحي الصحراء» يحوي نماذج من كتابات مشاهير الأدباء والشعراء في مكة وفي المدينة[٢]، وتجاهلا أكثر الأدباء الناشئين اجتمع عدد منهم في بيت (صالح باخطمة) خلف (الحميدية) مقر مجلس الشورى، والمعارف، والشرطة وغيرها من دوائر الحكومة. ومن المجتمعين السيد علي حسن فَدْعَق، وحسين عرب، وعبد السلام الساسي، وحمد الجاسر، وعبد المجيد شبكشي، وكان من أثر ذالك الاجتماع جمع مواد من الشعر والنثر حواها كتاب «نفثات من أقلام الشباب الحجازي»*.

وكان الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجة ـ المشرف على تحرير جريدة «أم القرى» ـ من أبرز الكُتَّاب، وأغزرهم إنتاجاً في الميدان الصحفي، ذا عناية بالأبحاث التاريخية والجغرافية المتعلقة بمكة المكرمة، وله كتابات اجتماعية في نقد كثير من العادات والتقاليد الشائعة في ذالك العهد المتغلغلة في المجتمع الحجازي، وكان يوقع كثيراً من مقالاته بكلمة (الغربال) وهو من أبهى الرجال طلعة، وأتمهم

---

* جَمْع عبدالسلام الساسي، وهاشم الزوّاوي، وعلي فدعق، وكتب المقدمة محمد سرور الصبّان، وصدر عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٧م)، ويعد ـ مع كتابي أدب الحجاز ومن وحي الصحراء ـ من أوائل كتب الأدب في العهد السعودي (ش).

جسماً، مشرق الوجه، طُوَالاً، يستقبلك بالبشاشة والابتسامة، ومع شهرته بين لداته ومعاصريه من الأدباء إلا أنه خمل ذكره بعد وفاته ـ توفي رحمه الله سنة ١٣٦٣هـ* . ولعل من أسباب ذالك أنه كان على جانب من التحرر الفكري لا يتلاءم مع ما كان مألوفاً بين عامة الناس في ذالك العهد. فكان كثير الانتقاد لبعض عاداتهم وتقاليدهم، يضاف إلى هذا أنه ما كان يهتم بكتابات الناشئين حين يقدمونها له لنشرها في جريدة «أم القرى» عندما كان مديراً لمطبعتها ومشرفاً على تحريرها، بل كان صريحاً في مجابهتهم بعدم صلاح ما يعرض عليه للنشر، وكان الأستاذ عبد الله عمر بلخير طالباً في مدرسة الفلاح، فاحتضنه الأستاذ ابن عبد المقصود**، وعُنِي كثيراً بإبرازه، بنشر شعره، وإسباغ لقب (شاعر الشباب) و (شاعر الفلاح) عليه، وإشراكه معه في جمع كتاب «وحي الصحراء» مع أن الأستاذ بلخير عند جمع الكتاب كان طالباً في مدرسة الفلاح سنة ١٣٥٣هـ[٣]، يناهز العشرين من سني عمره، وقد لاحظ هذا أستاذنا الدكتور علي جواد الطاهر، حين قال: (ربما كان محمد عبد المقصود الأكثر عملاً في التأليف لفارق السن والعلم)، والغريب أن الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود مُنِي بالتناسي حتى من أخص صنائعه لا مريديه، فلم يُشِر إليه الأستاذ بلخير في مذكراته التي نشرت في جريدة «الشرق الأوسط»[٤] ولم يَتَصَدَّ أحد من الأدباء لدراسة آثاره على غزارتها وجدارتها بأن تدرس، حتى قام في الأيام الأخيرة الدكتور محمد بن سعد بن حسين، فأصدر كتاباً باسمه.

---

* الصحيح أن محمد سعيد عبدالمقصود توفي يوم الخميس ١٣/٤/١٣٦٠هـ (٨/٥/١٩٤١م). (ش).
** كان يتخذ من هذا اللقب (ابن عبدالمقصود) توقيعاً له في جريدة (أم القرى) ومن لقب (الغربال) في كتاباته الأخرى. (ش).

لقد كانت جريدة «أم القرى» تُعْنَى كثيراً بنشر شعر المناسبات، مما يلقى في حفلات قدوم الملك أو نائبه، أو في مدحهما، وقد نُشر لي نماذج مما كنت أنظمه أيام الدراسة من نظم هزيل منه مما ألقيته بعد عيد الفطر بمحفل فيصل ـ رحمه الله ـ :

ذاتَ الجمال وفتنةَ العُبَّاد ... مَنْ لي بمثل قِوامك الميَّاد؟
خَضِلاً يشابه بانَةً مخضرَّةً ... غِبَّ السماء وفي مسيل الواد

إلى :

في ليلة سَمَر الأغرُّ جميعَها ... وكَسَا الفضاء بنوره الوقاد
فكأنه بين النجوم مُمَلَّكٌ ... فوق السرير، وهُنَّ كالأجناد
أو وَجْهُ فَيْصل بين أمَّةِ يعرب ... وسطَ المواكب حُفَّ بالأعياد

ومنها ـ مما ألقيته في إحدى الحفلات ـ حفلة استقبال فيصل، حين عاد من غزوة الحُديدة ـ:

بِمَنْ حفل الأقوام فازدان مَحْفل؟ ... وأضحت بلادُ الله بالْبِشْرِ ترفل؟

ونماذج أخرى أعفي القارىء ـ بل أعفي نفسي قبل ذالك ـ من عرض ما يغثي النفس ويكشف ما فِيَّ من عُوَار النقص، ولكن المناسبة دعت إلى إبداء هذه السوانح، التي التزمت عند تدوينها أن تبدو على أنصع ما يكون من الوضوح والصراحة، ما وجدت إلى ذالك سبيلاً.

وكان من أبرز الأدباء تلك الأيام الأستاذ محمد حسن عواد، وكان من أرقِّهِمْ حالا، ولعل هذا من الأسباب التي هيأت لعدد من الشُّدَاة الاتصال به، فقد كان يسكن حجرة في أسفل بيت يقع فيما بين الحلقة والفَلْق، وكان موظفاً في الشرطة، كاتب ضَبْطٍ، ومكتبه في (الحميدية) بجوار الحرم مع موظفين آخرين، وكثيراً ما يزوره بعض الطلاب في

منزله، ولا يبخل بإعارة بعض كتبه، وأذكر أنني استعرت منه كتاب «الياذة هوميروس» تعريب سليمان البستاني، والأستاذ ــ رحمه الله ــ كثيراً ما يُضَمِّنُ في أشعاره أسماء مشاهير الإغريق، ويشير إلى بعض خرافاتهم، كأن يقول ــ في مقام الرثاء ــ :

وكأنَّ القضاء سَيفُ (دِمَقْلِيس) فويلٌ للمعشر العائشينا

ويسارع لإمداد بعض الشداة بشيء من كتاباته، وفي تلك الأيام كان الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود خوجة يشرف على تحرير جريدة «أم القرى» حين يسافر رئيس تحريرها إلى نجد، وكان ينشر سلسلة مقالات بنقد العادات والتقاليد بتوقيع (الغربال)، فكان أن كتب الأستاذ محمد حسن عواد لصحيفة المعهديين «الشباب الناهض» مقالاً مطولاً بعنوان: (الغربال .. الخزيان) وبه ماتت تلك الصحيفة بعد أن استعدى الأستاذ سعيد عبد المقصود خوجة ذوي الاختصاص في الدولة، ولعل في هذا ما يوضح ما لاحظه أستاذنا الدكتور علي جواد الطاهر من عدم ذكر الأستاذ محمد حسن عواد في كتاب «وحي الصحراء» الذي كان للأستاذ محمد سعيد عبد المقصود الجهد البارز في جمع مواده.

وصدر في تلك الأيام أمر بمنع النوم في (الحرم) بعد العشاء، وكان مدير شرطة الحرم رجلاً تركيًا يدعى نظمي، ولا تخلو طباعه من تَسَرُّعٍ وانفعال، وكثير من الطلاب يمتدُّ بهم الوقت في المطالعة واستذكار دروسهم إلى ما بعد العشاء بزمن، وكان الضابط يحرص على إخلاء الحرم في وقت مبكر، فيفاجئ الجالسين وقد يكون من بينهم من هو مستلقٍ على الأرض يطالع أو يحادث من بجواره، فلا يشعر إلا بوقع الخيزرانة فوق جسمه، وهكذا حدث لي في إحدى الليالي، فما كان

مني إلا أن ذهبت لإدارة اللاسلكي ـ لا يفصل بينها وبين الحرم إلا شارع المسعى ـ وأرسلت برقية للإمام عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أشكو تصرف ذالك الضابط، وأوضح أنه لا يجوز الإخراج من الحرم بتلك الصورة، وأن بعض العلماء عَدَّ من (العاكفين فيه) النائمين. ولم تحن الساعة الثالثة من صباح اليوم إلا والشرطي يدعوني للحضور إلى إدارة الشرطة في الحميدية، حيث أبلغني أحد الضباط بأن الملك أمر بإحالتي مع مدير شرطة الحرم للشرع، وأن النظر في القضية الساعة الخامسة من هذا اليوم، وأمام الشيخ عبدالغني حسين كان الترافع، وكان نظمي في بدء دفاعه يقرأ من أوراق فيتلعثم في قراءة كثير من الكلمات مثل (انه مُسْتَهتَرٌ) وفتح التاءين فما كان من القاضي إلا أن سأله: من كتب لك هذا الكلام؟ فأجاب: محمد حسن عواد، فتناول منه الأوراق وأمره أن يتكلم بدونها، وانتهت المرافعة، فأمر القاضي بتوبيخ نظمي، وتوقيع تعهد منه بعدم التعرض لمن ليس نائماً، وإخراج النائمين بالحسنى ممن يترتب على نومهم ضرر، وترك من عداهم.

ولقد حاولت بعد تخرجي في المعهد بزمن التحكك بكبار الكتاب أمثال الأستاذ محمد حسن عواد ـ وهو يعد بينهم في القِمَّة ـ وكانت مجلة «المنهل» تنشر فصولاً من كتاب ألفه ونشره فيما بعد بعنوان «سليمان بن عبد الملك محرر الرقيق»، وما كان هذا الكتاب بخير مؤلفات الأستاذ؛ إذ كان كثيراً ما يعول فيه على المبالغات التاريخية حين يكتب عن سليمان بمجال الثناء، بما لا يطابق الواقع، كأَنْ يصفه بأنه أخرج من سجن الحجاج سبع مئة ألف سجين، وأمثال هذا، وكان الأستاذ عبد الله عريف رئيس تحرير جريدة «البلاد» فنشر لي فيها

ثلاث مقالات بعنوان (إلى الشيخ محمد حسن عواد)[٥] مهلهلة الأسلوب، إلا أنها أثارت حفيظة الأستاذ، إذ كان يأنف من أن يُدْعَى شيخاً، وكنت قد اشتريت كتابين هما: «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» كانا من كتبه وكتب اسمه في طرتيهما (محمد حسن قاسم عواد، جمادى الأولى ١٣٣٦هـ) وله تعليقات في هوامش بعض صفحاتهما، كما اقتنيت نسخة من كتاب كان مطبوعاً سنة ١٣٤١هـ حين كان الأستاذ مدرسًا في مدرسة الفلاح بجدة هو كتاب «الإكليل الذهبي في الإنشاء العربي» من تأليفه ـ فنشرت له «البلاد» ردًّا موجهاً إليَّ بعنوان (يهبُّ متأخراً)!! ولعله أراد التشفي بتكرار مخاطبتي بكلمة (الشيخ) ولا آسى على ما حدث بيني وبينه ـ رحمه الله ـ فلقد كان متسامحاً، ولم يرحل من هذا العالم إلا وقد زال ما بيننا من تنافر[٦]، فكنت لا أمُرُّ بمدينة جدَّةَ دون أن أحرص على زيارته، ومن آخر ذالك حين كان رئيسًا للنادي الأدبي، في حيّ البغدادية، حيث أكرمني بمجموعة من مؤلفاته، وما كنت أرى فيما تناولت بمؤلف الأستاذ عن سليمان بن عبد الملك سوى أفكار ضحلة لا ترقى إلى مستوى تفكيره، وعمق إدراكه، ولكن ذالك من آثار الرغبة في الظهور قبل اتخاذ ما يلزم له من الوسائل، ولعل هذا هو الذي حدا بالأستاذ عبد الله عريف لعدم نشر كل ما بعثت به مما يتعلق بكتاب الأستاذ، ولعل فيما كتبت عنه ما كان من آثار موقفه معي في قضية مدير شرطة الحرم.

الحواشي:

(١): السرحة: المكان الذي لم يسقف من المسجد وتسمى (الحصوة) ولعلها لكونها مفروشة بالحصا (الحصباء) والجوانب الأخرى مفروشة بالبسط.

(٢) : نشرت مجلة «الفيصل» ـ ص ٤٤ العدد الـ ١٥٣ ـ الصادر في شهر ربيع الأول سنة ١٤١٠هـ (تشرين الأول سنة ١٩٨٩م) حديثاً للصديق الكريم الأستاذ محمد سعيد العامودي جاء فيه عند ذكر كتاب «وحي الصحراء» : (جمع من قبل لجنة من أدباء الحجاز آنذاك ، وهم عزيز ضياء، وعبد الله بلخير، ومحمد سعيد عبد المقصود، وأنا، وأحمد محمد جمال، وبالمناسبة فقد اقترحت شخصياً اسم هذا الكتاب، حينما اجتمعت اللجنة المذكورة فوافقتني على التسمية) انتهى كلام الأستاذ العمودي، فقد عد أحمد محمد جمال بين مؤلفي كتاب «وحي الصحراء» ويظهر أن هذا سبق لسان من الأستاذ العامودي، فالأستاذ أحمد محمد جمال في زمن تأليف الكتاب وهو سنة ١٣٥٣هـ كان صغير السن لم يتجاوز الحادية عشرة من سني عمره (ولد سنة ١٣٤٣هـ). ولهذا لم يرد اسمه بين من حوى الكتاب نماذج من كتاباتهم.

(٣) : «العرب» س ٨ / ٩١٨ ـ ولد الأستاذ بلخير في حضرموت سنة ١٣٣٣هـ وقدم به والده إلى مكة سنة ١٣٤٥هـ ودرس في الفلاح حتى تخرج سنة ١٣٥٣هـ، ثم أكمل دراسته في الجامعة (الأمريكية) في بيروت.

(٤) : في الفترة من ٢ / ٩ / ١٩٨٥م إلى ١١ / ١١ / ١٩٨٦م فما بعده.

(٥) : كان تاريخ نشر هذه المقالات في شهر ذي القعدة سنة ١٣٦٥هـ ـ لا كما جاء في «العرب» س ٩ ص٤ ـ من أنها نشرت وأنا طالب في قسم التخصص في القضاء الشرعي في المعهد ـ وللابن الحبيب الأستاذ عبد الله بن حمد القرعاوي فضل تنبيهي إلى هذا الخطأ (انظر «العرب» س١٩ ص ٢٨٤).

(٦) : «العرب» س١٥ ص ٣٣١ ـ حيث تجد كلمة مفصلة عنه. و(س١٠ ص ٢٤٣).

«صوت الحجاز» في (السوانح)

أُمْلِي هذه السوانح مما تجود به الذاكرة، وهي كما يقال: (خَوَّانَةٌ) ولا سيما عند محاولتي تذكر ما مضى له أكثر من نصف قرن من الزمان، مع عدم العودة إلى ما يعين على تَذَكُّرِه، لهذا فليس من المستغرب أن يقع فيها خطأ، بل أخطاء كثيرة، بحيث يصح أن تعد ملامح، وليست مذكرات تعتمد على أسس ثابتة مكتوبة وقت حدوثها.

لقد ورد في السانحة الـ (٥٥) المنشورة في هذه المجلة الكريمة (عدد ١٥٨ ربيع الأول ١٤١١هـ ص ٢٩) ما هذا نصه: (وفي العام الذي دخلت فيه المعهد سنة ١٣٤٩هـ كان يصدر في مكة جريدتان هما «أم القرى» و «صوت الحجاز»)، وبعد سطور: (ويتولى رئاسة تحرير الثانية في أول أمرها السيد محمد حسن فقي). ثم في ص ٣٠: (كان من أوائل ما نشر من كتاباتي كلمة بعنوان: (قل الحق ولو كان مُراً) نشرت في جريدة «صوت الحجاز» سنة ١٣٤٩هـ).

وبعد سطور: (فما كان من الأستاذ عبد الله بن عبد الغني خياط ـ وكان طالباً بالمعهد) الخ.

وقد نبهني الأخ الأستاذ محمد بن عبد الله الحمدان إلى: ـ

١ ـ أن جريدة «صوت الحجاز» لم تصدر إلا في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٣٥٠هـ.

٢ ـ أن جملة: (فما كان من الأستاذ عبد الله عبد الغني خياط) لم يرد ما يكملها.

والحقيقة كما ذكر الأستاذ محمد الحمدان، فالجريدة لم تكن تصدر سنة ١٣٤٩هـ وإنما صدرت في الوقت الذي حدد، وكان أول من تولى رئاسة تحريرها الأستاذ عبد الوهاب آشي ـ رحمه الله ـ أما الأستاذ

* المجلة العربية، العدد (١٦٠)، جمادى الأولى ١٤١١هـ / تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٩٠م.

السيد محمد حسن فقي فقد تولى تحريرها بعد ذلك، وقد نشرت له تلك الجريدة في العدد الثاني عشر من السنة الأولى مقالاً بعنوان (ذكرى عام ١٣٥٠هـ السيئة) ووصف العام (بأنه مشؤوم منحوس، لا يستحق مني سوى اللعنات، فإلى الهاوية والجحيم يذهب ما كان على شاكلتك نحساً بارداً ثقيلاً).

ثم نشرت الصحيفة في العدد السابع عشر من سنتها الأولى بتاريخ ٢٨ / ٣ / ١٣٥١هـ كلمة للأستاذ عبد الله عبد الغني خياط بعنوان (لا تسبُّوا الدهْرَ فإنَّ الله هو الدهر) وعلقت الصحيفة بجملة: (نشارك الكاتب دفاعه، ولنا كلمة في هذا الصدد بعنوان (وداع عام) سننشرها في العدد القادم)، ثم نشرت في ذالك العدد كلمة للأستاذ محمد حسن فقي يعتذر عما فهم من كلمته الأولى بما انتابه من تأثر نفسيٍّ خاصٍ دفعه إلى أن تبدر منه بعض كلمات كانت محلاًّ للانتقاد، وختم الكلمة بوداع ذالك العام (من أعماق القلوب المكلوبة الحزينة، والنفوس المضطربة الحائرة) وحيا العام الجديد (عام الأمل بالراحة من أوصاب الحياة وعنائها).

وكنت قد بعثت كلمة إلى الصحيفة في الموضوع بعنوان (قل الحق ولو كان مُراً) ولكنها لم تنشر إلا في العدد السابع والثلاثين من السنة الأولى بتاريخ ٢١ / ٨ / ١٣٥١هـ كتبت تلك الكلمة متأثراً بما ينبغي أن يظهر به تلميذ تلقى دراسته الأولى في حلقات المشايخ، وها هو يواصل دراسته في (المعهد الإسلامي السعودي) في قسم (التخصص الديني) منه، ولهذا جاءت تلك الكلمة مشبعة بروح الغيرة والدفاع عن تعاليم الدين الحنيف.

حمد الجاسر

على هامش الدراسة أيضاً*

وأثناء دراستي في المعهد قُمْتُ في فصل الصيف سنة ١٣٥٣هـ برحلة إلى بلاد عَسِيْر، فقد كان لي صديق يشتغل بالتجارة من أهل الحوطة (حوطة بني تَميم) يدعى محمد السُّنَيْدِي قد شدا طرفاً من الأدب، فقويت الصلةُ بيني وبينه، وكان الغزوُ المتجه إلى اليمن بقيادة الأمير فيصل بن سعد مخيماً في بلدة خَميس مُشَيْط، فأشار عليَّ الأخ السُّنيديُّ بأَن نسافر معاً إلى تلك الجهة بَعْدَ أن أَشْترِيَ شيئاً مما يحتاج إليه القوم المخيمون هناك أَلْبِسَة وأدواتٍ، فاشتريت من ذالك حِمْلَ بعيرٍ، وسافرنا نحن الإثنين بعد أن حملنا بضاعتنا على أربع من الإبل.

ومما أذكر من تلك الرحلة أننا لما حَاذَيْنَا بلدة بِيْشَةَ بينها وبين تَبَالَةَ، وقد تركنا بِيْشَةَ يسارنا بِتْنَا، وفي الصباحِ فقدنا الراحلةَ التي كنت أحمل فوقها متاعي وأركبها، ورأينا آثار رجال قد أَتَوْا إلى مراح الإبل فأخذوها، وبينما نحن نفكر في الطريقة التي نبحث بها عنها، ونحن جلوس لتناول القهوة أنا وصاحبي، ومعنا جمّالان إثنان هما صاحبا النِّيَاق، إذا بِبَدَوي يسلم علينا من بُعْدٍ، فأشرنا إليه بالدُّنُوِّ، فأتى وجْلس معنا يتناول القهوة، فقال السُّنيديُّ ـ رحمه الله ـ وكان على جانب من الذكاء: البارحة فقدنا واحدةً من رواحلنا الأَرْبع، وأَحْمَالُنا أشياءٌ أرسلها الأَمير فيصل إلى الأمير ابن سعد رئيس الغزو الذين في الخَميس، وما كنا نُحبُّ أن ينالَ أهل هذه الجهة شَرٌّ، ولكن لا شَكَّ أَن أمير الغزو حين يعلم بأَنَّهُمْ أَخَذُوا الراحلة التي تحمل متاعه سيميل عليهم بغزوةٍ وسيطوقهم، والويل لمن يجد الناقة عنده، فقال البدويُّ: (عِنْدنا وِرْعَانِ الْيَا هَا الْحِين ما عقلوا، أَعْطُوني عرقْةٍ أَدَوِّرْهَا لكم)[1]

---

* المجلة العربية، العدد (١٥٩)، ربيع الآخر ١٤١١هـ / تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٩٠م.

فقال له السُنيدي: يعطيك ابن سعود ما علينا منها!! فقام الرجل مسرعاً وقال: سأبحث لكم عنها، وسَرعانَ ما عاد يسوقُها، وكان الرجل من قبيلة يَكْلُب[٢] (أكلب).

واعتذر عما حدث، وأنه بفعل جهال.

ولما قربنا من بلدة الخَمِيس تقدَّم صاحبي واستأجر لنا بيتاً فيها، بجوار مخيم الغزو الذين كانوا مخيمين هناك، والبيت لرجل يدعى حمدان بن عُوَيْمر من شَهْرانٍ، ولقد استقبلني صاحبي وأرشدني إلى البيت، وكان واسعاً، وأسفله غير مسكون، وإنما كان مملوءاً بالقَصَب الذي يتخذ علفاً للدواب، واسمه عند أهل تلك الجهة (عَجُوْر).

دهشْتُ لأولِ مرة عندما قُرِّبَ الْعَشَاءُ، إذْ تقدم إليه معي ومع صاحبي وصاحب البيت أربعُ نِسْوَةٍ، أمُّهُ وثلاثُ فَتياتٍ هُنَّ أخواته، وكُنَّ على جانب من الجمال، فاستنكفت من الأكل معهن مُتورِّعًا، وانفردتَّ، فأعطوني أكلي، ويسمون الخبز (دَوْحًا) وهم يعملونه مستطيلاً مَتِيْنًا من القمح في التنور، وكان الحِجَابُ في هذه البلدة في ذالك العهد لم ينتشر بين النساء، وكان صاحبي متزوجاً فتاة عسيرية، فأحضر زوجته إلى بلدة الخميس، وكانت سافرةً، كنساء تلك المنطقة.

كان صاحبُ البيت قد استأجرَ امرأةً قَحْطَانيةً ترعى غنمه، وكانت لها ابنة تُدْعى (شاطرة) تُعْجِبُ بجمالها من رآها، وكان يتردد على بيتنا لزيارة صاحبي السُّنيديِّ كثيرٌ من الناس من بينهم رجل ذو مقام كبير بين الغزو، وهو محمد بن يُوَيْسِف ـ من أهل ثَرْمداء، ومن مرافقي الأمير ـ فوقعت الفتاة في نفسه، فطلب من السُّنيدِّي أن يخطبَها له،

فوافقت الفتاةُ وأمُّها على الزواج منه، وكانت يتيمة، وكان وليُّ أمرها مُتْرِكُ بن شُفْلُوتٍ من مشايخ قبيلة قحطان، فوكلت الأمُّ وابنتُها الأمرَ إليه، فاتصل به الخاطب فوافق، وتم عقد الزواج، وأرسل الرجل ذَبيحتين لِيُهَيَّأَ طعام العرس في البيت الذي استأجرناه، وتم كلُّ شيْءٍ، ودخل الرجل بأهله، وبعد أيام قليلة بينما هو ذات صباح يحدث السنيديَّ ويصف فتوره عن الوصول إلى أهله، سمع الكلامَ فتى شهرانيٌّ يدعى سعيد، كان يحضر عندي فأعطيه كل يوم بعض ما معي من البضاعة ليعرضه في مخيم الغزو، وما باع منه أكافئه عليه، وكان يعمل عندنا في البيت فيصنع لنا القهوة، ويقوم بخدمتنا، فسمع شكوى الرجل، وبعد أن انْصرف قال لي على انفراد: أنا أعرف دواءً لفلان، فإذا كان سيعطيني مكافأة وصفته له، فلم أكترث بكلامه وهَزِئْتُ به ولكنه قال: إنه لا يريد شيئاً إلا إذا قنع الرجل بصحة كلامه، وأنه يُخْفِي سِراً، وكانت خيمة الرجل قريبةً من البيت الذي نسكنه، فلما حَضَرَ - كعادته كُلَّ يوم - أخبرته بما قال سعيد وقلت له: لتسمع كلامه، فلما اجتمعا قال: إن حمدان قد عقَّدَ لك، وقد رأيتُ ما عمل، كان أثناء (الإمْلاك) قد سَلَّ جزءاً من خنجره، من الجراب، ثم أدخله فيه عند قول المملك: قل: قَبِلتُ زواج فلانة، وأنه بعد أن سُلِخَت الذَبيحتان عمد إلى عرقوبيهما فأخذهما، وأخذ جزءاً طويلاً من الأمعاءِ فوضع عرقوب الذبيحة على عرقوب الأُخْرىَ وطوى الأمعاء عليهما، وحفر حفرة عميقةً بجوار صايرِ بابِ حوش البيت، ودفن ذالك في تلك الحفرة، وأنه متى أبطل عمله هذا زال ما بكَ.

استدعى الرجل المتزوج حمدانَ بن عُويمرَ، فلما حضر قال له: إنني

قد عرفت ما عملت من السحر وعقوبة الساحر القتل، وتوعده بقتله إذا لم يبطل عمله، وإن أبطله بِسِتْرٍ عفا عنه، وكان ابن يُوَيْسف يحمل سيفاً، إذ هو من كبار خدم أمير الغزو، وله كلمة مسموعة، فما كان من حمدان إلا أن أخرج الخنجر ومسحه بخرقة ثم أعاده، ثم ذهب إلى باب حوش البيت، وحفر حفرة بطول الذراع، واستخرج العرقوبَيْنِ اللَّذَيْنِ قد طُوِيتْ فوقهما الأمعاء فحل الطِّيَّ منهما.

لست ممن يعتقد بأمثال هذه الخرافات، ولو حدثني إنسان بما شاهدته وعلمته لَما صَدَّقْتُ، ولقد حدثت به الدكتور أمين رويحة ـ وقد توفي قبل بضع سنوات ـ وهو من علماء الطب الحديث وله مؤلفات في العلاج النفسي، فذكر لي تعليلاً، لكنني لم أستطع فهمه، وهو أن الرجل عندما أقدم على الزواج في هذه البلدة كان قد اختمر في ذهنه ما عُرِف عن بعض أهلها من ممارسة أعمال (التَّعْقيد) الحيلولة بين الرجل وبين الاتصال بزوجه، فطغى عليه التفكير في ذالك ساعة محاولة اتصاله بأهله، ومن هنا أصبح عاجزاً لطغيان تفكيره على حاسَّة الاتصال، هكذا علل الدكتور ـ أو هكذا فهمت منه ـ .

أما الرجل المتزوج فقد رُزِقَ من أهله أولاداً وقد توفي ـ رحمه الله ـ .

نزلت أياماً في مدينة (أَبْها) بعد أن استأجر لي رجل يدعى (الحُبَيْنِي) بيتاً صغيراً بجوار بيت القاضي، وكان إذ ذاك الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك[٣]* ، ولم تكن صلتي به قوية، وكان الحُبَيْنِي هذا يقوم بأعمال كثيرة فهو دَلاَّلٌ، وهو حفار للقبور، وهو مُوَذِّنٌ، وهو من رجال الحِسْبة،

* عرّف به الشيخ الجاسر في الحواشي، وهو يختلف عن الشيخ فيصل بن محمد المبارك الذي ورد ذكره في موقع آخر، والاثنان من أسرة واحدة من بلدة حريملاء. (ش).

وذُو صلة بالقاضي، وهو الذي ينادي في السوق عند إِقامته يوم الخميس، بما يراد إِبلاغه من شؤون الدولة، وأذكر إِذ ذاك أن أحد الغزو من الجند توفى، وكان فقيراً، وكان يلقب (صنعاء) فأتى رفقاؤُهُ إِلى الحبيني ليتولى غسله، وليحفر قبراً له، على أن يأخذ سَلَبَهُ، وهو كل ما خلف، ولكنه سُرَّ عندما رأى أحد أسنانه تعلوه قشرةٌ ذهبية، فاشترط أن يقلعها.

وكان يُعْقَدُ في مدينة أَبْها سوق أسبوعي، وكان مما يلفت النظر فيه أن النساء اللواتي يحضرنه من تهامة يلبسن نوعاً من القبعات الكبيرة المعمولة من الخوص، يسميها أهل تلك الجهة (الطَّهَفَة) وكان لباس كثير من النساء التهاميات الإِزَارَ والصدارةَ، بحيث تبدو أجزاء كثيرة من الجسم بارزة، والناس في ذالك الوقت على جانب كبير من الطيبة، قل أن تجد من يتعرض للنساء، وكان أهلُ أبها يجلبون الماء من بئر ليست بعيدة عن البلدة، ماؤها عذبٌ، فكان المرء يرى أسراب الفتيات تتوالى إِلى هذه البئر، ولاعتدال جو هذه البلاد كُنَّ على جانب كبير من صباحة الوجوه والرقة.

تزودت بجزءٍ من ثمن بضاعتي ببضاعة أخرى، فاشتريت كمية من الرصاص، إِذ السلاح وعتاده في ذالك الوقت كثير، لأنه يفرق على الغزو بسخاء، وقد أصاب الجند الذين مع الغزو الْعَوَزُ، لتأخر صَرْف رواتبهم، فكان بعضهم يتعاطى بيع الأسلحة بدافع الحاجة، وما كان ذالك ممنوعاً في ذالك العهد، ويرأس الجند قائد من أهل بلدة الرسِّ، يدعى صالحاً البلاعُ، أما أمير عَسير فكان تركي بن أحمد السديري،

وكاتبه محمد بن ضاوي، من أهل بلدة حَرْمَةٌ ، وقد تزوج إِحدى أخوات حمدان بن عويمر الشهراني.

صلَّيْتُ الجمعة في المسجد الذي يصلي فيه الأمير السديري، وبعد الصلاة سلمت عليه، وكنت قد لفقت نظماً في مدحه، لأَحْظَى بجائزة منه، أوله:

لا تَعُجْ بي على الرُّبوع الخوالي أي نفع أناله بالسؤال ؟

ولكن الأمير ـ رحمه الله ـ أحسن إِليَّ فَحَرَمني، حتى من دعوتي إِلى القصر كما كان يُدْعى كثير من الضيوف، ولعله لو فعل لاسترسلت في تلك العادة الذميمة، عادة (الاستجداء) ! ! وتلك إحدى (هفواتي) التي يجب سترها لو احترمت نفسي ! !

الحواشي:

(١) : ورعان : أطفال. اليا : إلى . عرقة : أجرة . أدورها : أبحث عنها .

(٢) : يكلب : كذا ينطق الاسم بعض البادية في نجد ، يقصدون (أكلب) تخفيفاً، وقد يتعاقب الحرفان في الأسماء كما في (الملم) و (يلملم) اسم الموضع الذي يحرم منه الحجاج القادمون بالطريق التهامي من جنوب مكة ويعرف الآن باسم السعدية. و(إِدام): (يدام) و(ادمة) : (يدمة) وعند المتقدمين (ابنبم): (ينبم).

(٣) : هو الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل بن محمد بن مبارك من آل راشد من وائل (١٣١٣ ـ ١٣٧٧هـ) .

ما أجهل المخدوعين بالمنصب الزائل !!*

ليس المقام مقام وعظ، ولكنها فكرة عرضت، بل أثارَتها سانحَةٌ خطرت في الذهن، بعد أن مَرَّ على ما أثارها ما يزيد على نصف قرن من الزمان، ولم يطمسها النسيان، وما ذالك إلا لعمق أثرها في نفسي، وهي مما يكثر حدوثه، ويتكرر وقوعه في كثير من الأوقات لكثير من الناس ممن تناط أمورهم بآخرين مِمَّنْ هَيَّأَتْ لهم ظروف حياتهم تسنُّمَ مناصب تصريف الشؤون العامة في مجتمعهم، فأصيبوا ـ من جراء ما أُحيط بهم من بهرجة المنصب، وخداع النفس وغرورها ـ بما تخيلوا معه أنهم إنما بلغوا ما بلغوا منْ عزٍّ وجاهٍ وعُلُوٍّ منزلة لميزة اختصوا بها بين بني جنسهم، فلماذا لا يستعلون عليهم، ولماذا لا يجنح بهم الخيال في متاهات الغرور والطغيان، وتلك طبيعة الإنسان حين يُحسُّ بتفوّقه على من حوله فينسلخ من طبيعته ﴿قال إِنَّمَا أُوتِيْتُه عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[1].

لم تكن صلتي برئيس القضاة ـ بعد أن حدث ما سبق أن قصصتُ خبره[2] ـ لِتُهَيِّىءَ لي التعيين في إحدى وظائف المحاكم، وفق تخصصي، كزملائي الذين تخرجوا في القسم الذي أكملت الدراسة فيه، وهو (قسم التخصص في القضاء الشرعي) في (المعهد السعودي)، وما كان أحد من اؤلئك عُيِّنَ في وظيفة تدريس في إحدى مدارس مكة، وكان القائمون بتدريس العلوم الدينية في هذه المدارس ـ بصرف النظر عن مبلغ تحصيلهم في تلك العلوم ـ يجري تعيينهم من قبل رئيس القضاة، كسائر الوظائف الدينية.

لقد أصبح الشيخ إبراهيم الشورى ـ مدير (المعهد السعودي) ـ

---

* المجلة العربية، العدد (١٦٠)، جمادي الأولى ١٤١١هـ / تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٩٠م.

وكيلَ المعارف[٣] بعد نقل مديرها الشيخ أمين فودة لرئاسة المحكمة الكبرى بمكة المكرمة، وموقف الشيخ إبراهيم مني حين حدث لي ما حدث موقف كريم، وقد واصل رعايته وعطفه أثناء دراستي، وكان سيري أثناء الدراسة حَسَناً في نظر أساتذتي، سلوكاً وتحصيلاً، وما كان هذا مقتصراً على المواد التي أدرسها في المعهد ، بل كانت لي صلات بكثير من مدرسي الحرم وبمشاهير الطبقة المثقفة من الأدباء والكتاب والشعراء، كالأساتذة محمد حسن عواد، وأحمد السباعي، وعبدالوهاب آشي، وإبراهيم فلالي، وعبد القدوس الأنصاري، ومحمد سعيد العمودي، ومحمد حسن كتبي، ومحمد حسن فقي وغيرهم، كما كانت صلتي بالصحفيين ـ على قلتهم في ذالك العهد ـ حسنة، يتجلى هذا من خلال ما نشر لي في تلك الفترة، مما كان جديراً بِالْوَأْدِ والْسَّتْرِ لتفاهته[٤] !.

وعرض عليَّ الشيخ الشورَى وظيفة مدرس في مدرسة ينبع الابتدائية بمرتب شهري قدره (٣٣٠) قرشاً أميرياً[٥] ـ أي ثلاثون ريالاً ـ فقبلتها، وصدر الأمر بالموافقة على ذالك ، فكتبت المعارف إلى المقام السامي بطلب صدور الأمر بإركابي من جدة إلى ينبع ـ الدرجة الثانية ـ بواسطة إحدى بواخر شركة (البوستة الخديوية)[٦] على حساب وزارة المالية، أما الذهاب إلى جدة فسيكون في سيارة البريد.

كان عليَّ أن أذهب إلى ديوان (النيابة العامة)ـ إنْ رغبتُ الإسراع في الأمرـ فكان ذالك، ويرأس ذالك الديوان شيخ جليل القدر، ذو مكانة مرموقة في مجتمعه، موصوف بالتواضع وحسن الخلق، ولكن :

وَقَدْ يُخْطِئُ الرَّأْيَ امْرُؤٌ وَهْوَ حَازِمٌ ... كَمَا اخْتَلَّ فِي نَظْمِ الْقَرِيْضِ عَبِيْدُ[٧]

ولعل في رثاثة مظهري ما كان سبباً في فتور استقبالي، والإشارة إلى

مكان قصيٍّ من مكتب الشيخ لكي أجلس هناك، ولقد شُغِل الرجل بما بين يديه من أوراق، وبكثرة مراجعيه، ومن بينهم من علية القوم من تتطلب مجاملته بحسن الاستقبال والمحادثة زَمناً استطلته، بحيث لم أستطع الاستمرار في الجلوس خلاله، فوقفت أمام الرجل، ويظهر أن انفعالي أثناء الكلام معه ـ حين أبديت رغبتي في الانصراف والعودة وقتاً آخر ـ أثار غضبه، فجبهني قائلاً: أنت أحمق، لا تصلح لتكون مدرساً!!، واتصل ـ بالهاتف ـ بالأستاذ الشورَى، ولا أدري ماذا قال، فقد خرجت مغموماً لا أكاد أُبصر طريقي مما حدث لي، ولك أن تتصور أثر هذه الصدمة العنيفة في نفس شابٍّ متطلع للحياة، بدأ يَدْلِفُ إِلى أَوَّل أَبوابها فيجابه من إِنسان ذي حَوْلٍ وطَوْلٍ بمثل تلك الشراسة والإِهانة، وواصلت السير إِلى مقر (مديرية المعارف) في (الْحَميدية) فوجدت الشيخ الشورَى متأثراً، إِذ استقبلني قائلاً: ماذا عملت؟ هل ذهبت لتشتم الرجل وتهينه؟ والواقع أنني لم أقل له أَشَدَّ من كلمة: (ما وُضعت في هذا العمل لكي تميز بين الناس في معاملتك)، ولم أقبل الذهاب مع الشيخ الشورى إِليه للاعتذار عما حدث مني، بل أظهرت عدم رغبتي في أيِّ عمل لا أعامل فيه معاملة تصون لي كرامتي.

ويظهر أن الأستاذ الشورى عالج الأمر من ناحية أخرى، وهو أن وظيفة التدريس بمدرسة ينبع بقيت شاغرةً زمناً، مع الحاجة إِلى شغلها، وفلان خير من تقدم لذالك؛ وهكذا هُيِّئَتْ وسائل السفر إِلى ينبع.

ويجنح بي الاسترسالُ لاسْتِذْكَارِ هذه السوانح إِلى الإِشارة إِلى موقفين آخرين لهذا الرجل الرفيع المقام مع هذا الإِنسان الضعيف حقّاً إِلا من اعتزازه بكرامته وحفاظه عليها، وما أجدر هذا الرجل وأمثاله ممن وُهِبُوا

حَوْلاً وَطَوْلاً أن تتسامى نظراتُهم بتسامي منازلهم، ولكن قلَّ من يدرك أنَّ عظمة المرء في إدراكه حقيقة هذه الحياة، وأنَّ ما وُهبَهُ اليومَ فسرعان ما يُسْتَرَدُّ غداً، وأن الرجل العظيم حقًّا من اتخذ من عَمله وسيلة لترسيخ محبته في القلوب، وازدياد قربه من النفوس، بفعل الخير ما استطاع إلى ذالك سبيلاً، وبهذا تعلو منزلته ، ويرتفع قدره، مهما تقلبت به الأحوال ، وتغيرت له الدنيا.

في أول عام ١٣٥٨هـ [١٩٣٩م] زار فيصل ـ رحمه الله ـ مصر ، فذهب طلاب (البعثة السعودية) للسلام عليه في فندق (شبرد) مع مراقبهم السيد ولي الدين أسعد ، الذي قام بتقديمهم لفيصل ، وكان الشيخ الذي سبق الحديث عنه بين الحاضرين، فما كان منه حين قدم المراقب صاحبنا للسلام على فيصل إلا أن أطلقها كلمة بدون مناسبة حين سمع الاسم: (صاحب قصة الهلال) مذكراً بهفوةٍ وقعت منه قبل عامٍ[٨]، حين كان قاضياً في بلدة (ظبا) فأبلغته الإمارة برؤية هلال عيد الفطر لعام ١٣٥٧هـ ـ اعتماداً على برقية من فيصل، فرغب التأكد من صحة ثبوت الرؤية، فاتصل برئاسة القضاة، مما جعل الأمر موضوعَ أَخْذٍ وَرَدٍّ، تأثر منه فيصل، فاستاء من تصرف القاضي حيث لم يُوَضَّح له على وجهه الصحيح، أما الآن وفي هذه المناسبة فما كان هناك ما يدعو إلى ذكر هذا، ولكن فيصلاً ـ رحمه الله ـ لم يُعِرْ كلام الرجل أدنى اهتمام، بل كان استقباله لصاحبنا ـ كغيره من إخوانه ـ بما عرف عنه من بشاشة ولطف.

وينتقل ذالك الشيخ من عمله في (ديوان النيابة العامة) إلى إحدى الوظائف الرئيسية في (السفارة السعودية في القاهرة) ويجري

انتخابُ صاحبنا في عام ١٣٧٨هـ عضواً عاملاً في (مجمع اللغة العربية) وفي الوقت نفسه يتم انتخاب عضوَيْنِ آخَرَيْنِ هما الشيخ محمد رضا الشَّبِيْبِي ـ من العراق ـ والشيخ محمد الفاسي ـ من المغرب ـ ويقرر المجمع إقامة استقبال وتكريم للأعضاء المنتخبين، وأن يبدأ بالاحتفال بصاحبنا، ويحدد الزمن باليوم الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨هـ (٥ / ١ / ١٩٥٩م) وتبلغ (السفارة السعودية) بذالك، وترسل إليها بطاقات الدعوة لتوجيهها إلى من ترى مشاركته في الحضور، ويحين الوقت المحدد لِبَدْءِ الحفل، بعد أيام من إبلاغ السفارة، إلاَّ أن رئيس المجمع بعد مضي فترة من الزمن في الانتظار يلتفت إلى صاحبنا مبدياً استياءه من تأخر موظفي السفارة، ويتم الحفل دون حضور أحد منها، وتقديم سفارتي العضوين الآخرين ـ بعد أن شاركتا في حفلات الاستقبال ـ حفلتي تكريم دُعي إليهما المجمعيون ومشاهير العلماء والأدباء والمثقفين.

ويثير تصرف (السفارة) وموقفها ذالك الموقف استياء الأدباء في مدينة الرياض، فيقيمون ندوة تكريم ـ بمناسبة انتخاب عضو من البلاد في مجمع الخالدين ـ برئاسة أمير الرياض الأمير سلمان بن عبد العزيز، في (فندق اليمامة)، يتحدث فيها الأمير وعدد من المثقفين كالدكتور حسن نصيف والأستاذ عبد العزيز التركي ـ مدير التعليم في المنطقة الشرقية ـ والأستاذ السيد علي حسن فدعق، الذي عبر بكلمته عن استياء الطبقة المثقفة في هذه البلاد من موقف السفارة، وكان من أثر ذالك توجيه عتب شديد إلى السفير في القاهرة من جهة عليا لما حدث.

ثم يدور الزمن دورته ـ ويقلب الدهرُ ظَهْرَ المِجَنِّ لذالك الشيخ ـ

فيتخذ من بيروت موطن استقرار ، ورغم ما ملك فيها من عقار وقصور، وما حاط نفسه به من أنواع البهجة والسرور ، فقد تقلص عنه ما أحيط به من زيف المظاهر الخداعة، ورأى انصراف الناس عنه بزوال احتياجهم إليه ، فأدرك حقيقة أمره، ولكن متى؟! وكيف؟! بعد أن أحسَّ بوحشة الوحدة تضيق عليه مسالك سيره في حياته، فأضحى فريسة للأوهام، يعيش في شبهِ عُزْلَة تَامَّةٍ، حتى من اؤلئك الذين كان يرى فيهم منتهى الولاء والإخلاص له.

وأقابل الرجل ـ دون تطلع أو توقع ـ (في السفارة السعودية في بيروت) فلا يتركني حتى أعده بالزيارة في داره (الفيحاء) بقرب (جامعة بيروت العربية) فيغمرني بلطف استقباله، وأشاهد من تواضعه ورقة طباعه ما تخيلت معه أنني أمام إنسان آخر، ثم تكون المفاجأة ـ بعد مضي فترة من الوقت ـ فيطلعني على كتاب من تأليفه بعنوان : «هاؤلاء تعلمت منهم» أو ما هذا معناه، وما عهدتُّ الرجل مَعْنيًّا أو منصرفاً للعلم، بل ما علمت عنه أنه يعير أي جانب من جوانب الثقافة أي اهتمام، ثم أُفَاجَأ بما هو أَغْرَبُ وأَعْجَبُ، لقد كان اسم صاحبنا بين اؤلئك الذين خصص المؤلف لكل واحد منهم فصلاً في الكتاب، يوضح مدى الاستفادة وناحيتها، وكان آخر عهدي إِثر زيارة قصيرة حين علمت بتأثر صحة الرجل ، وكان تأثري من تغير حالته بالغ العمق في نفسي، ولا أدري ماذا حدث لذالك الكتاب ، ولكن أبناء الشيخ ـ تغمده الله بواسع مغفرته ـ وبعض المتصلين به في آخر أيام حياته ـ ومن بينهم من قد يقرأ هذا ـ يعلمون شيئاً عنه، فقد كان مُعَدًّا للطبع حين اطلعت عليه.

وفي (السفارة) في بيروت في إِحدى زياراتي أنا والصديق الأستاذ

عبد الكريم بن جهيمان لأحد موظفيها عام ١٣٨٧هـ دخل المكان رجلٌ كان يتولى إدارة مكتب ذي صلة قوية بشؤون عامة الناس، وما كان إذ ذاك على حالة من لين الطباع تقربه من نفوسهم، وهو الآن قد أصبح منذ فترة من الزمن لا يزاول شيئاً من أعمال الدولة، ولما استقر به المجلس ما شعرت ـ بعد أن عرفني من أحد الحاضرين ـ إلاَّ وقد (انْكَبَّ) عليَّ يقبل وجهي، ويكرر بصوت أجش: (والله إني أُحبُّك! والله إني أُحبُّك!) لست بحاجة إلى أن تَعُود بي الذاكرة لأبحث عن السبب، فأنا لا أَزال أُحسُّ بما جرح به قلبي منذ ربع قرن من الزمان، وكما قال الشاعر:

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامٌ ... ولاَ يَلْتَامُ مَا جَرَحَ الِّلسَان

كان ذالك في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان من عام ١٣٥٨هـ ـ أي ما يقرب من ثلاثين عاماً ـ حين دخلت على الرجل في مكتبه الساعة الرابعة والنصف، لأسأله عما تَمَّ بشأن إنسان مسجون مريض، حاولت لفت نظر الجهات المسئولة للرأفة به، فما كان منه وقد عرفني إلا أن صرخ في وجهي: (إِنتْ إِنسان شرِّيْر، تدافع عن إِنسانٍ شرِّيْر ...) مُتَّكِئاً على تشديد غُنَّة النون وكسر الهمزة، ثم إبلاغ الأمر بالزَّجِّ بي في أسوإِ سجن أكثر من أسبوع في ذالك الشهر المبارك[٩]!! وها هو الآن ـ وبعد فوات الأوان ـ يدرك خطأه:

لأَلْفِيَنَّكَ بَعْدَ الْموتِ تَنْدُبُني ... وفِي حَيَاتِيَ ما زَوَّدتَّني زَادي

لم أَكُنْ ـ وأَيْم الْحَقِّ ـ في موقف الشامت المُشَنِّع المُشَهِّر باؤلئك الذين لا أزال وكثير غيري من مجروحي الأفئدة يَئِنُّونَ مما قاسوه من غطرستهم وترفعهم، لكنني أَقِفُ موقف الآسي الراثي الحزين لهم حين أذكر مواقف بعضهم، وقد تولوا تصريف شؤون الأمة، فبلغ بهم من

غرور المنصب، وخداع المظهر، إلى أن تصوروا أنفسهم أنهم إنما بلغوا ما بلغوا لما امتازوا به على غيرهم، فوجهوا نظرات الاستعلاء والترفع والاستهانة إلى إخوة لهم هم أشد ما يكونون بحاجة إلى عطفهم ورعايتهم، ثم ما أسرع ما تتكشف لهم حقائق أحوالهم فينتابهم من الأسى والندم وتأنيب الضمير ما لا قِبَل لهم بتحمله، ساعة لا يجدي ذالك نفعاً!!

حقاً إنهم جديرون بالرحمة والشفقة، فما أشدَّ أساهم حين يفقدون مناصبهم وتتضح حقيقةُ أَحْوَالِهم مجردة من كل زيف وبهرج، ممثلة بما يقابلون به في مجتمعهم من أُنَاسٍ قد يكون من بينهم من لا يزال يتجرع مرارة ما أصابه منهم من إهانة واحتقار.

الحواشي:

(١) : الآية الـ (٧٨) من سورة (القصص) وهكذا حين يبلغ الغرور بالمرء مبلغه يتخيل أن ما نال من منصب أو جاه، كان لبلوغه مرتبةمن التفوق على بني جنسه استحق بها ذالك.

(٢) : في السانحة (جلدت لأنني قلت بجواز لبس الزي العسكري).

(٣) : كان أول من تولى شؤون إدارة المعارف في عهد الدولة السعودية الشيخ محمد كامل القصاب من علماء الشام، وتدعى (مديرية المعارف العامة) وتولاها السيد صالح شطا والشيخ محمد ماجد الكردي، ثم الشيخ محمد أمين فودة من سنة ١٣٤٨هـ إلى سنة ١٣٥٣هـ فتولاها بالوكالة الشيخ إبراهيم الشورى من مصر ـ وهو إذ ذاك مديراً للمعهد ـ وقد أصبح سعودياً واستقر في مكة حتى توفي رحمه الله.

(٤) : ومع حرصي على هذا إلاّ أن أحد الإخوة ـ سامحه الله ـ أبرز جانباً منه في كتاب دعاه «مواقف نقدية» نشرته (دار الصافي) في الرياض سنة ١٤١٠هـ.

(٥) : كانت رواتب الموظفين في ذالك العهد تحدد بـ (القرش الأميري) سيراً على طريقة الدولة العثمانية حين كانت تحكم هذه البلاد قبل ربع قرن من الزمان.

(٦) : هما باخـرتان تمخران البحـر بين جدة والسويس تـدعيان (الطائف) و (تالودي) في كل أسـبوع مرة لإحداهما ، وهناك باخرة ثالثة تمخر بين (بور سودان) و (السويس) .

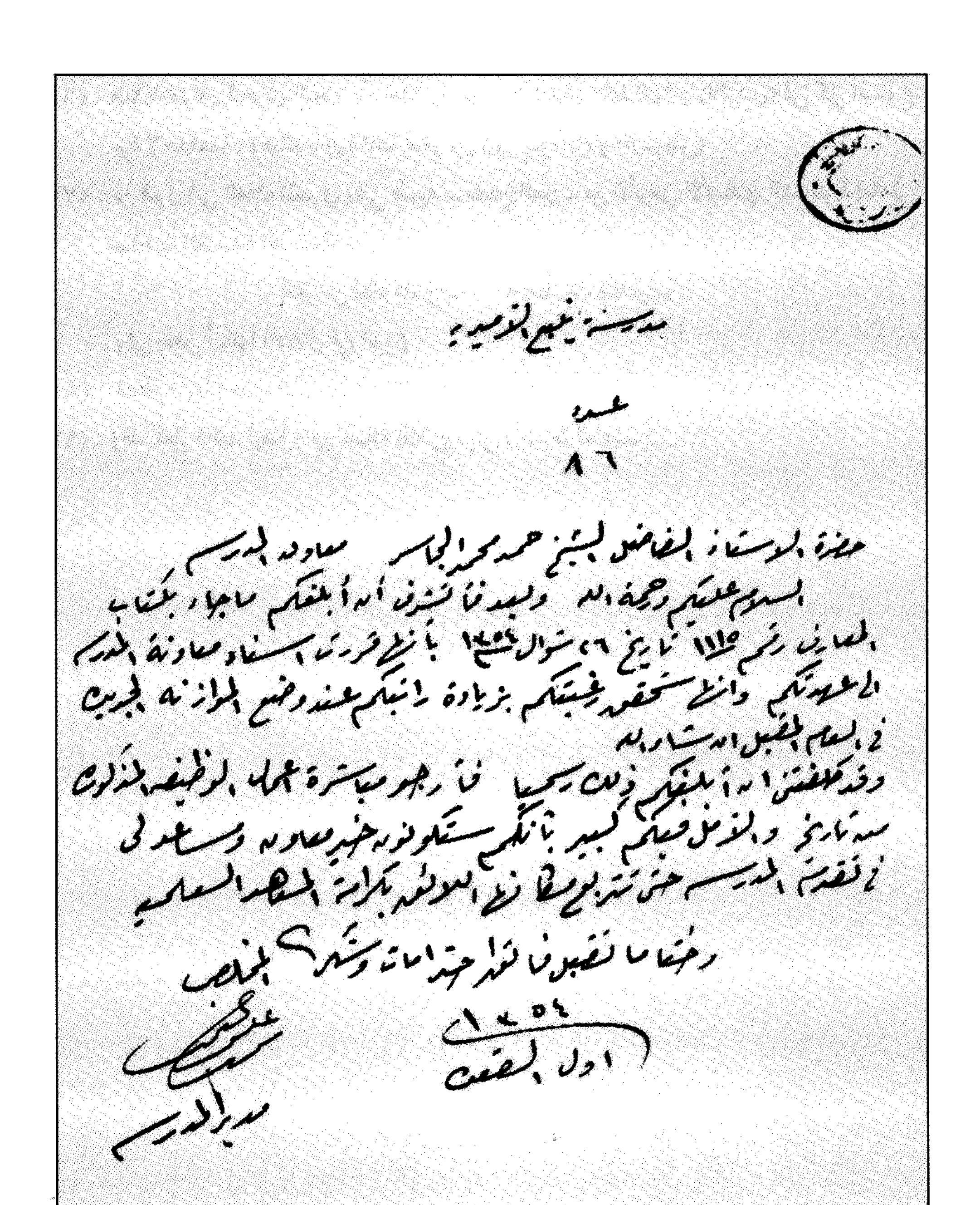
(٧) : من قـول أبي العلاء المعـري يعني عَـبـيد ـ بفـتح العين ـ بن الأبرص الأسـدي الشـاعر الجـاهلي صاحب القصيدة التي مطلعها :

أقفر من أهله ملحوب فالقطِّبيات فالذنوب

وفي بعض أبياتها اختلال في الوزن .

(٨) : قد أفرد لها إِحدى السوانح (حركات غير مريحة) .

(٩) : وقد أفعل ذالك أيضاً (من ضيافة التكريم) إِلى (ضيافة التأديب) .


مدرسة ينبع الأميرية

عدد
٨٦

حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ حمد محمد الجاسر معاون المدرسة
السلام عليكم ورحمة الله وبعد فأتشرف أن أبلغكم ما جاء بكتاب
المعارف رقم ١١١٥ تاريخ ٢٦ شوال سنة ١٣٥٤ بأنه قررت الإدارة معاونة المدرسة
إلى عهدتكم وأنه سيحقق رغبتكم بزيادة راتبكم عند وضع الموازنة الجديدة
في العام المقبل إن شاء الله
وحيث أنه إذ أبلغكم ذلك رسمياً فأرجو مباشرة عملك الوظيفة المذكورة
من تاريخه والأمل وطيد بأنكم ستكونون خير معاون ومساعد لي
في تقدم المدرسة حتى تترقى في ظل الدولة بكرامة العهد السعودي
وختاماً تقبلوا تأكيد احتراماتي وشكري المخلص

أول القعدة ١٣٥٤

[illegible]
مدير المدرسة

خطاب من مدير مدرسة ينبع للشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ

خصوص تعيينه معاوناً للمدرسة

في بلدة (ينبع) قبل خمسين عاماً *

بِتُّهَا ليلةً بين جدة وينبع، في الباخرة (تالودي) وهذا اسمها، وهي إِحدى البواخر الثلاث التي تسيرها شركة تدعى (شركة بواخر البوسطة الخديوية) في البحر الأحمر، اثنتان فيما بين جدة والسويس هما (الطائف) و(تالودي) والثالثة بين (بورت سودان) والسويس، وما أحسست أثناء الرحلة تَعَباً أَوْ تأثُّرًا بِالْهُدَام(1)، مع أنها المرة الأولى التي أُسافِرُها بحراً، وقدْ أَنِسْتُ برجل عرفته في الباخرة، كان مسافراً إِلى الوجه، فكنا نُمْضِي أكثرَ الوقت مجتمعَيْنِ على ظهر الباخرة، نطالع في بعض الكتب أو نتحدث، ومضى الوقت، وكنت أتخيله نَجْدِيًّا بمظهره، وبلهجته، وبسعة معرفته بالأحوال العامة، حتى أبصرته في صبيحة اليوم الذي وصلت الباخرة فيه ينبع، في المكان الذي اعتدنا الجلوس فيه، وشفتاه تداعبُ (السَّبِيل)(2) فسألته: ومتى عهدك أيها الأخ بشرب الدخان؟! وما كنتُ عرفت اسمه بَعْدُ، فقال: منذ صغري، فازددتُّ اسْتغراباً، إِذْ أَكثرُ من يتعاطى شربه من النجديين ممن تأثروا بأسفارهم واجتماعهم خارج بلادهم بمن كان شربه متوارثاً فيهم.

لقد كان الشيخ مصطفى سِحْلِي الخُنَاني ـ رحمه الله ـ على جانب كبير من حسن الأخلاق، ورجاحة العقل، وكرم النفس، والأدب الجم، مع إِلمامه بطرف من العلوم والمعاوف، إِنه في ذالك الوقت أحد أساتذة مدرسة الوجه، وهو من سَرَاة أهل هذه البلاد ووجهائها، وتولى إِدارة المدرسة، والقضاء في بلدته بعد سنوات ـ إِن لم تخني الذاكرة ـ.

بدتْ معالمُ البلدة، بيوتها التي ليس بينها ما يزيد على دورين،

---

* المجلة العربية، العدد (١٦١)، جمادى الآخرة ١٤١١هـ / كانون الثاني ١٩٩١م.

وسفُنها الشراعية الراسية في الميناء، والقواربُ الصغيرة المهيأة للدنو من الباخرة لإيصال من فيها إلى الرصيف.

و(فاز المُخفُّونَ) وما في كيس الْخَيْشِ الذي أحمله ـ باستثناء عدد من الكتب ـ ما يثقل نقله أو يتعب، وها هو أحد رجال الإمارة حين سمعني أسألُ عن مقرها يُسلِّمُ عليَّ، ويدعوني للسير معه، بعد أن أخبرته بأمري، وكان المكانُ على مقربة من الشَّاطئ، وإن كان في طرف البلدة الشرقي، وكان الوقت ضحى، ولا يزال الأمير في مجلسه، وسيبقى حتى يحين وقت صلاة الظهر ـ هذا ما قال لي الرجل السمح الطلعة، البشوش الوجه.

كان استقبالاً حسناً من الأمير بدون سابق معرفة، ويظهر أنَّ صاحبي الذي أتى معي من الباخرة قد أفضى إليه بما أبديت له من رغبتي في البحث عن مكان أسكنه، إذ عند تَهَيُّئِي للقيام من المجلس بعد تناول القهوة استبقاني، وهمس في أذن صاحبي بما لم أسمعه، ثم التفت إِلَيَّ قائلاً: أنت ضيفنا، ومقامك أعز عندنا من مقام الضيف (حنَّا ربعك)[٣] ولا نسمح لك تبعد عنا ليلاً ولا نهاراً إلا لعملك.

لم يكن في (دار الضيافة) على سعتها وتعدد منازلها سوى عدد قليل من خدم الأمير وأتباعه، وبعض الضيوف، وتقع مجاورة لقصر الإمارة، في بَراح واسع من الأرض، في الجنوب الغربي من البلدة، والمدرسة تُشاهَد منها على قرب، وهي ـ بل كل الأماكن الحكومية باستثناء قصر الإمارة الصغير ـ مما أُنْشِيء في العهد التركي، إلاَّ أن إتْقَانَ البناء، وتعهُّدَهُ بالصيانة مما أضفى على تلك المباني من جمال المظهر ما يحمل على تصور حداثة إنشائها.

يبدُوْ على الأمير حمود بن إِبراهيم[٤] من ملامح وجهه، وتململه أثناء جلوسه، وعدم استرساله في الحديث، أنه يعاني مرضاً، ولكنه مع ذالك يتصف بتواضع جَمٍّ، ودماثة خُلُقٍ، وتَذَوُّقٍ للأدب، وارتياح لسماع الشعر، أدركت هذا خلال الأيام التي أمضاها في عمله، وغمرني فيها بِتَفَقُّدِي أثناء جلساته، وحين يذهب لزيارة خارج البلدة.

ومن مآثره المحمودة موقفه من إنشاء (مدرسة أبناء البادية في ينبع) وهي مدرسة أنشأتها الحكومة تلك الأيام، وخصصتها لأبناء البادية، وهيأتْ لهم فيها ما يحتاجون إِليه من سكن وطعام وكسوة وتعليم، وما كان لأولئك رغبة في الالتحاق بها عند افتتاحها، بَلْ كثيراً ما هرب بعضهم ممن أُدْخِل فيها بدون اختيار، لعدم إِلْفِهِم للاستقرار، ولتصورهم أن للحكومة غايةً أُخرى غير تعليمهم، ولكن الأمير حموداً ـ رحمه الله ـ كان يولي هذه المدرسة الكثير من عنايته، وكان يستعمل الصرامة في قسر بعضهم على البقاء في هذه المدرسة، وإِرجاع من يهرب منهم إِليها بواسطة إِرغام شيوخهم وأقاربهم:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوْا ومَنْ يَكُ راحما   فَلْيَقسُ أَحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

ولقد كان لهذه القسوة أثرها النافع، فكان من هذه المدرسة النواة الطيبة التي أثمرت تجاهَ بعض أبناء البادية ـ في عهد مبكر ـ إِلى التعليم، حتى أصبح من بينهم من تولّى أَعمالاً نافعة لأمتهم ووطنهم بصفة عامة، وأذكر من هاؤلاء عيد بن سليمان الجهني الذي تولّى إِدارة مدرسة ينبع، في عشر الستين من القرن الماضي، وأخاه عودة بن سليمان كان* أول

---

* انظر الحواشي على سانحة (وكان الاستقرار في مدينة الرياض) في الجزء الثاني. (ش).

من تولى إِدارة مدرسة الجمعة في نجد[٥]، وعايش بن حسين الجهني وقد كان مفتشاً في وزارة المالية بمنطقة الظهران، وغير هاؤلاء.

وفضلاً عن ذالك فقد كان أثرُ المدرسة بالغاً في إِنارة الأذهان، وتقويم مفاهيم كثير من أبناء البادية، وتصحيح نظرتهم نحو جدوى التعليم الحديث الذي كان ـ ولا يزال ـ بعضهم ينفر منه.

ولكن مما يؤسِفُ أنه بعد فصل الأمير حمود من إِمارة ينبع بدأ أمر تلك المدرسة يضعف حتى أُغْلِقَتْ، وهكذا كثير من الأعمال النافعة متى تفقد من مؤسسيها ذوى الإِدراك التام بجدواها لا تلبث أن تتلاشى وتزول، ما لم تتضافر جهود خيرة لرعايتها.

بعد استراحة قصيرةٍ في الغرفة المخصصة لسكني في (دار الضيافة) أَحْسَسْتُ برغبة في التجوال في شوارع البلدة، لمشاهدة معالمها، فكان المرور بسوقها العام، وذهب معي إِليه أحدُ الإِخوة النازلين في الدار، وكان الوقت قبيل العصر، والسوق يبدو خالياً، ثم كان المرور بالجامع الكبير، وفي البلدة غيره مسجدان إثنان، وزوايا[٦]، ثُمَّ الاتجاه إِلى المرفإِ حيث تقع المكاتب الحكومية كلها، سوى قصر الإِمارة، وتنتشر المساكن والدور بقرب البحر، ولا يبدُوْ على شيءٍ منها أيُّ أثر للإِنشاء والتجديد، بل لا أثر للعمران الحديث في أية ناحية من نواحي المدينة، ولولا ما يشاهده المرء من كثرة السفن الشراعية والقوارب على الشاطىء، وكثير منها مهمل، وغير صالح للاستعمال، لتخيل أن البلدةَ خاليةٌ من السكان، ومن المدرك بداهة أن حياة هاؤلاء متوقفة على أعمال البحر، بها تقوى وتنتعش، وبِضَعْف تلك الأَعمال تضعف تلك

الحياة التي طرأ عليها في هذه الحقبة من الزمن تغيير مفاجيء شمل العالم كله، بتغير أنماط الحياة العامة، بما أحدث العلم من وسائل حضارية حديثة استعيض بها عن تلك الوسائل التي خلفتها القرون الماضية، فلم تَعُد هذه السفُنُ الشراعية التي لا يزال سكان كثير من مرافيء البلاد العربية يصوب نظرات الحيرة والذهول إليها، متذكراً أنه كان في الأَمس القريب وإن لم يكن أسعد حالاً في معيشته من غيره، إلا أنه قانع بما يثمر له كده وكدحه في سفينته التي يشاهدها الآن أمامه لَقَىً مطروحاً لا نفع فيه، ولا جدوى ترجى من وراء الاشتغال به، بعد أن قهرت زمجرةُ قوة ما أبدعه الفكر الإنساني من الصناعات ما غير جميع مظاهر الحياة على ظهر الأرض، ومنها إِخْضَاعُ عَصِيِّ أمواج البحار، وإسكان هَدِيْرِ عَتيهِّا بقوة هذه البواخر التي تمخر عبابها، محملة بما يجود به هذا الكوكب الأرضي من صنوف خيراته، ومتطلبات الحياة في أية بقعة من بقاعه، فماذا سيكون موقف هاؤلاء الذين لا يزالون سادرين في إغفاءة وارتخاء منذ قرون طويلة، على أساليب بدائية في حياتهم، وأَنَّى لهم التسابق مع مبتدعات ذوي الأفكار الحية، ومخترعاتهم ونظراتهم المتطلعة دائماً إلى تغيير مفاهيم الحياة بما ينتجون من أعمال مدهشة.

مع ما يراه بعض الباحثين من قِدَمِ بلدة ينبع ـ هذه الميناء ـ إلى أزمان سبقت ظهور الإسلام(٧)، إلا أنني لم أُشاهد في هذه البلدة من الآثار القديمة ما سبق العهد التركي، مما بعد القرن العاشر الهجري، بل لم أَرَ ـ فيما اطلعت عليه من مؤلفات ـ حين حاولتُ كتابة لمحات من تاريخها في كتاب «بلاد ينبع»(٨) ما يستدل منه على أن لها من الشأن لدى قدماء

المؤرخين ما حملهم على عدم إهمال ذكرها، بينما حَظِي مرفأي (الحوراء) و(الجار)[٩] ـ وينبع واقعة بينهما ـ باهتمام أولئك المؤرخين، ويأتي العُذْريُّ الأندلسي أحمد بن عمر بن أنس[١٠] (٣٩٣ / ٤٧٨هـ) فيؤلف كتاباً عن مسالك البلدان، يورد فيه فصلاً عن (الطريق من جدة إلى القلزم) ـ السويس ـ فيذكر الموانيء والجزائر كلها، ولكن لا يرد بين ما ذكر اسم (ينبع)، وكتاب العذري لم يصل إلينا كاملاً، كما لم يرد ذكر اسم (الحوراء) وهو لا يذكر إلا ما كان معروفاً في عهده في القرن الخامس الهجري.

لقد كانت الشهرة والذكر لبلاد ينبع المنطقة الواسعة، ذات الواحة المشهورة بكثرة ينابيعها، ووفرة حدائق نخيلها، وتردد أخبارها في كتب التاريخ، ووقوع (غزوة العُشَيْرَة)[١١] إحدى الغزوات النبوية في إحدى قراها، أما (ينبع البحر) كما عرفت للتمييز بينها وبين ينبع المشهورة، فقد أراد الأَيُّوبيون حين امتد نفوذهم إلى الحجاز في القرن السابع الهجري أن يجعلوا منها ميناء للمدينة[١٢]، ولكن عدم استتباب الأمن في تلك الجهات حال دون الاستمرار بذالك، وحاول الجراكسة من حكام مصر في القرن التاسع ذالك الأمر مرة أخرى، ولكن انتشار الفوضى في هذه الجهات في آخر عهد أولئك الحكام في أول القرن العاشر كان من أسباب تخريب البلدة، وبعد استيلاء الدولة التركية على الحجاز عُنِيَتْ بتعميرها لاتِّخاذها مرفأً لما تبعث به إلى المدينة المنورة من المقررات السنوية من الأطعمة، ولوازم رجال الدولة وجنودها مما كان يرسل بحراً من السويس أو الطُّور، فبدأها الانتعاش، وانتقل إليها بعض أصحاب الحرف والأعمال من مصر.

تنتشر بيوت البلدة على مقربةٍ من الشاطىء حيث تكاد تنحصر أعمال أهلها بشؤون البحر، ولكن الصحراء تنداحُ من جميع نواحي المعمورة عن البلدة، فسيحةً منبسطةً فيما دون سلسلة جبال الحجاز الممتدة لمحاذاة البحر الأحمر، على امتداده، وتشاهد بعض قمم هذه السلسلة عن بعد، ولهذا تبدو المنطقة كلها برية بحرية، ولك أن تستدل من سُحْنة السكان وملابسهم ولهجتهم فتقول حضرية بدوية، فسكان الواحة من هذه المنطقة (ينبع النخل) من أبناء البادية من قبيلتي جُهَينة وحَرْبٍ، ومن امتزج بهم من ألفاف القبائل الأخرى المعروفة، وجلُّ هاؤلاء ممن لا يزال متمسكاً بما ورثه عن أسلافه من أساليب الحياة القديمة، فهم أصحاب إبل وغنم، وقليل منهم من اتجه إلى استصلاح الأرض بالزراعة وغرس النخل، وراثة منذ عهد قديم، أما سكان (ينبع البحر) فكغيرهم ممن يعيش على الحرف البحرية، ومن بين هاؤلاء من يمتهن التجارة، من هنا فالحياة تبدُو مَيْسُورَةً بما تجود به الواحة من حاصلات زراعتها من تمور وفواكه وخضر، وما تنتجه أنعام اؤلئك البدو، مع كثرة أسماك شواطىء المنطقة، وتوسط مينائها بين موانىء المملكة كجدة ورابغ وأم لج والوجه، والموانىء المصرية كالطور والقُصَيْر والسُّوَيَس، فبينما تزود هذه المنطقة تلك الموانىء بحاصلاتها من التمر والفحم والحناء والأسماك ونحوها مما يستخرج من البحر فإنها تتلقَّى من الموانيء الأخرى ما يحتاج إليه سكانها، إنها كما وصفها الشاعر القديم العباس بن الحسن حين قال له الرشيد ــ وقد أكثر من ذكرها في مقام الإطراء: قَرِّبْ لِي صفتها، فقال(١٣):

يَاوَادِيَ الْقَصرِ نِعْمَ الْقَصرُ والْـوَادي
مِنْ مَنْزِلٍ (حَاضِرٍ) إِنْ شِئْتَ أو (بَادِي)
تُـلْـقَـى (قَـرَاقِـيْـرُهُ) بِالْعَـقْـرِ وَاقِفَـةً
و(الضَّبُّ) و (النُّوْنُ) و (الْمَلاَّحُ) و(الْحَادِي)[١٤]

ومما يدل على مبلغ اعتزاز الينبعيين ببلدهم هذه الطرفة التي قد تكون وضعت على لسان أحدهم، وقد سَأَل آخَرَ قدم من مدينة اصطنبول: اصطنبول فيها منارة؟ فأجاب: نعم فيها منارة ... وفيها زبارة؟ نعم فيها زبارة... وفيها بنبور؟ وفيها بنبور ... وفيها قطيرة؟ نعم وفيها قطيرة. فقال السائل الينبعي: اصطنبول يَنْبُعْك والسلام[١٥].

الحواشي:

(١): الْهُدَام ـ بِضَمِّ الهاءِ الدُّوارُ الذي يصيب الإنسان من ركوب البحر، والكلمة عربية فصيحة، ولا تزال مستعملة، وهي أخَفُّ من كلمة (دُوَار البحر) التي اعتاد كثير من كتاب العصر استعمالها نطقاً وكتابة، بحيث إن بعضهم يخطيء في النطق فيشدِّدُ الواو (دُوَّار) والصواب تخفيفها.

(٢): السَّبِيل هو الأنبوب الذي يُمْلأُ طُبَّاقاً ثم تشعل به النار ويُمَكُّ (الغليون) واسم السَّبيل كان مستعملاً بين بادية الجزيرة، وعند بعض الشعراء المتأخرين، فقد قرأت لأحد شعراء العراق قصيدة في مدح عبدالباقي العمري الموصلي ضمّن فيها بيت المعري وعنى استعمال الممدوح (السبيل) المذكور: ألا فِي سَبِيلُ الْمَجْدِ مَا أنَا فَاعِلُ

(٣): (حنا): إنَّا (ربعك): رَبْع المرء قومه الأدنون والكلمة فصيحة، قال الشاعر:
فَإِنْ يَكُ رَبْعٌ مِنْ رِجَالِي أَصَابَهُمْ   مِنَ اللهِ وَالْحَتْمُ الْمُطِلُّ شَعُوبُ

(٤): وآل إبراهيم من آل فضل من قبيلة طيء ولهم مواقف بارزة ومآثر محمودة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود، ولأحد الأدباء مؤلف حافل بتاريخ تلك الأسرة الكريمة، ومنهم الأمير عبد العزيز بن إبراهيم ـ أخو الأمير حمود ـ أحد الأمراء المشهورين بالصرامة والحزم، وهو جَدُّ الأمير عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز.

(٥) : أول من تولى إدارة مدرسة المجمعة الشيخ سليمان بن أحمد ومعاونه الأستاذ عثمان الصالح ، وقد قويت صلتي بالشيخ سليمان حين كان في مكة قبل تولي إدارة المدرسة .

(٦) : جمع زاوية مسجد صغير يخصص غالباً لمن ينقطع للتعبد من المتصوفة أصحاب الطرق، وكانت الزوايا منتشرة في الحجاز وغيره من الأقطار الإسلامية إلاَّ أنها بدأت تزول.

(٧) : انظر كتاب «تاريخ العرب» قبل الإسلام، للدكتور جواد علي ج٢ ص ٣٨٩.

(٨) : كتاب «بلاد ينبع لمحات تاريخية وجغرافية ـ وانطباعات خاصة» صدر سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م).

(٩) : عن الحوراء ـ أم لج ـ انظر «شمال المملكة» «من المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» وعن (الجار) الرايس ـ انظر كتاب « في شمال غرب الجزيرة».

(١٠) : تجد تفصيلاً عن العُذْرِيُّ هذا وكتابه في مجلة «العرب» س١٢ ص ٣٢١ وما بعدها .

(١١): ملخص خبر غزوة العشيرة في السنة الثانية من الهجرة خرج رسول الله ﷺ يعترض عير قريش في اتجاهها إلى الشام حتى بلغ العشيرة من بطن ينبع، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة ووادع ـ أي صالح على عدم الحرب بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ـ أي فاتته العير ولم يحدث قتال ـ .

(١٢): «السلوك» للمقريزي ٩١٧/١ و «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة».

(١٣): « معجم ما استعجم » رسم (ينبع).

(١٤): القراقير : جمع قرقورة : السفينة العظيمة (العقر) : هنا وسط المحجل، أي إن السفن ترفأ على الشاطىء بقرب البلد، (النون) : الحوت، (الملاح) : ربان السفينة، (الحادي) : حادي الإبل الذي يسيرهَا بحدائه، أي غنائه.

(١٥): الزبَّارة عندهم أكوام من التراب خارج البلدة يذهبون إليها لقضاء الحاجة حيث لم تنتشر المراحيض في المنازل، (بنبور) : (وابور) باخرة، قطيرة ويجمعونها على (قطاير) السفينة، ينبعك والسلام : أي لا فرق بين المدينتين.

المملكة العربية السعودية

عدد الأوراق

مديرية المعارف العامة

الموضوع :

نمرة

تاريخ

حضرة الفاضل الشيخ حمد الجاسر المحترم

معاون مدرسة ينبع

بعد التحية ـ نكتب اليكم ان العثور على اساتذة من طرفنا متعذر جدا فيمكنكم البحث بطرفكم عنهم مثل احمد ابوبكر وابوريحان الذى ابرقنا لكم عنه وولد بن عثمان كاتب المحكمة فان كانوا صالحين لضمان المصلحة فالا وفق تعيينهم وبمساعدتكم سيحققون الغاية ان شاء الله تعالى ـ والمقصود ان لاتبقى المصلحة معطلة ليتطرق الوهن فى سير الدراسة ويصلكم كتابنا هذا مع الشيخ حمد بن جبارة الذى نرجوكم ان تمدوا مدرسة ينبع النخل بالمساعدة التى تكفل نجاحها ان شاء الله تعالى وستجرى ما يلزم نحو تعيينكم رسميا فى ادارة المدرسة ونبلغكم بذلك فى وقته واملنا فى غيرتكم كبير لتحقيق الغاية المنشودة من التقدم والنجاح والله يرعاكم حــــــرر فى ١٧/١/٣٥٦ مدير المعارف العام

ليلة (ينبعية) !!*

قَلَّ أن تَخْلُوَ بلدةٌ تقع على مقربة من المياه من انتشار كثير من الحشرات المؤذية، في زمن لم تُعْرف فيه بعدُ مبيداتُ تلك الحشرات، وهكذا حال هذه المدينة حين حللت بها قبل نصف قرن من الزمان، ونزلت ضيفاً على أميرها الماجد الكريم حمود بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ فأُسْكِنْتُ في (دار الضيافة)، وهي لكثرة من يرتادها ويحلُّها ـ من مختلف الطبقات ـ ليست في حالة من النظافة ترضي كلَّ ذوق، ومع اختيار الغرفة المناسبة في الطابق الثاني، وإعدادها بفراش ملائم، إلاَّ أن السُّرُرَ المهيأة للنوم كانت مصنوعة من الخشب ومن خوص النخيل المسفوفة، مما يمكّن بعض الحشرات التي تتغذى بدم الإنسان من اتخاذ أماكن لاستقرارها في مطاوي الخوص، وفي ثقوب الخشب .

وما كنت وقد اتخذت من اسم هذه البلدة الكريمة عنواناً لإحدى هذه السوانح أروم استهانة بمكانتها في نفسي، أو انتقاصاً لقدرها، أو التفكير في أن أنالها من قريب أو بعيد بما يُعَدُّ ثلباً أو عيباً، ولكنها مجرد سانحة خطرت، وكما قيل:

وَإِذَا الْحَبِيْبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحدٍ جاءَتْ محاسِنُهُ بألْفِ شفيع

وما تلك الليلة بجانب ما لهذه البلدة من محاسن إلا كشامة في خدِّ حسناء، ارتفعت عن الموقع الملائم لها، فكان ذالك مدعاة لنبوٍّ بعض النظرات إلى ذالك الخد الجميل.

يضرب بالليلة النابغية المثلُ لليلة التي يصاب المرء فيها بما يحرمه

* المجلة العربية، العدد (١٦٢)، رجب ١٤١١هـ / كانون الثاني وشباط ١٩٩١م .

من النَوم فيؤرقه ويؤلمه طول ليلته، فقد وصف النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي المعروف إحدى لياليه التي أرقه الهمُّ خلالها وأمَضَّهُ السهَرُ فبات يجافي جنبه عن مضجعه بقوله:

كِلِيْنِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيْهِ بَطِيْءِ الْكَوَاكِبِ (١)

ووصف أخرى قاسى فيها من ألم السَهر أشدَّ وأوجع بقوله:

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيْلَةٌ ... مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ (٢)

وما أشبه أولى ليلة بِتُّها في هذه البلدة بإِحدى ليلتي النابغة.

كنت وضعت جنبي على الفراش الوثير فوق ذالك السرير بعد أن أمضيت هزيعاً من أول الليل، في محادثة بعض الإِخوة الذين أسعدوني بالزيارة، مما كان سبباً في استغراقي في النوم ساعة اضطجاعي، إلا أنني ـ وقد أحسست أنني لم أتمتع بالقسط الكافي من الراحة ـ شعرت بلسعة شديدة في مَرَاقِّ الجسم، وكنت متخففاً من اللباس، فقد كان الجَوُّ معتدلاً ـ لا حرَّ ولا قرَّ ـ فدعكت ذالك المكان الذي آلمني، فازداد الألم انتشاراً مما دفعني إلى إِيقاد المصباح، وخلع ملابسي للبحث عن مصدر الألم، فلم أُبْصِرْ شيئاً، وتخيلت أنه ناشي عن حالة ليست غريبة عن الجسم، مما حملني على مغالبة ما أشعر به من انتشار الألم مع شدَّته، بحيث تخيلته لسعة عقرب، ولكن أين هي؟ أرض الغرفة مفروشة بفراش أبيض، لم يَبْدُ فوقه أيَّةُ حشرة مؤذية، وقد تتبعت جوانب السرير ووسطه وما تحته فلم أُبْصِرْ شيئاً، وإِذَنْ فلا مناص من تحمل ما أَلَمَّ بي فَأَقَضَّ مضجعي بما أستطيع من صبر وجلد، ولم يبق من الليل سوى أَقَلِّه، إلاَّ أن انتشار الألم في جسمي بدرجة أحسست أن نارا

تشتعل فيه، دفعني إلى الإسراع إلى الحمام، ومع ذالك فقد بقي فترة من الوقت على أشد ما يكون التهاباً بعد دَلْكه بالماء والصابون، حتى أتى الغوث بالنداء الأول لصلاة الفجر، فهرعتُ مسرعاً إلى المسجد، ولكنني لم أتمالك من الهدوء والطمأنينة أثناء انتظار الصلاة، وفي أدائها بما يجب، بل ظللت أهرِشُ كل موضع من جسمي، وعدت إلى الغرفة فرميت بكل ما فوق بدني من ملابس وأخذت غيرها ، وعدت إلى الحمَّام ، أدلك ـ ما استطعت بقوة ـ مواقع اللسع من مغابن الجسم ومراقِّه ، حتى اطمأننت بأنني لم أدع غريباً بينها ، وبادرت مسرعاً إلى الخروج من المنزل، حيث انتعشت نفسي باستنشاق نسيم الصحراء العليل، خارج البلدة .

وحينما تحدثت في الصباح شاكياً إلى بعض الإخوة ما قاسيته من سهر وألم في ليلتي تلك جَبَهَني بقوله: (الذهب في البيوت كثير) ! ! ويقهقه آخر مردفاً بقوله: (غرفتي ممتلئة ذهباً) ! ! ثم أَتَبَيَّنُ ـ بعد لأيٍ ـ أن تلك الحشرة الخبيثة التي أقضت مضجعي بشدة لسعتها تعرف في هذه البلدة باسم (الذهب)[٣] .

ما كنت بأولِ من جَأَرَ بالشكوى مما حل به من تلك الحشرات من امتصاص دمه، وإحراق جسمه بشدّة لسعتها، فقبل قرن ونصف من الزمان كان يقيم في هذه البلدة شاعر من أبرز شعراء عصره، ومع رفعة المنصب الذي كان يحتله في مجتمعه وبين أهلها، تجرع من مرارة الألم والسهر ما حاول التعبير عنه برائعة من روائع شعره، عارض بها قصيدة فتح الله بن النحاس الحلبي المتوفي في المدينة المنورة سنة ١٠٥٢هـ، التي مطلعها:

رَأَى اللَّوْمَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ فَرَاعَهُ فَلا تُنْكِرُواْ إِعْرَاضَهُ وَامْتِنَاعَهُ

ذالك الشاعر هو السيد جعفر البيتي المدني المتوفي سنة ١١٨٢ هـ[٤]، وكان قد تولى الكتابة لحاكم ينبع، ثم الوزارة لأمير المدينة، ومطلع قصيدته:

رَأى (الْبَقَّ) مِنْ كُلِّ الْجِهاتِ فَراعَهُ فَلا تُنْكِرُوا تَحْكِيْكَهُ وَالْتِياعَهُ

ومنها:

نَـزَلْنا بِمَرْسَى (يَنْبُعِ الْبَحْرِ) مَرَّةً عَلَى غَيْرِ رَأْيٍ، مَا عَلِمْنَا طِبَاعَهُ

نُقَارِعُ مِنْ جُنْدِ (الْبَعُوضِ) كَتَائِباً وفُرْسَانِ (نَامُوسٍ) عَدِمْنَا قِرَاعَهُ

ولن يذهب بي الاستطراد إلى ما قد يؤثّر في نفوس أحبتي وتلاميذي من أهل هذه المدينة الكريمة، فأورد تلك القصيدة المؤثرة بالنسبة لمن عانى طرفاً مما عاناه ناظمها، وكما قيل (ما تحرق الجمرة إلا رجل واطيْها)، وما كانت بلدة (ينبع) بِدْعاً بين غيرها من كثير من مدن العالم، بما كانت عليه من رثاثة وقلة نظافة، قبل قرن من الزمان، فقل أن توجد مدينة لا تماثلها.

والبلاد ـ أيُّ بلادٍ كانت ـ تشقى أو تسعد بسكانها، المشرفين على إدارة شؤونها العامة، وقل أن يوجد بين هاؤلاء ممَّن تولى أمر هذه البلدة من أولاها من عنايته واهتمامه بها جزءاً يسيراً مما هي جديرة به من اهتمام ورعاية في ذلك العهد، ومن هنا فإن التبعة كاملة تقع على اؤلئك الولاة.

ولماذا أذهب ـ أو يذهب بي الخيال ـ في أعماق الماضي السحيق؟!

فَإِنَّا لم نُوَقَّ النَّقْصَ حَتَّى نُطَالِبَ بِالْكَمَالِ الأَوَّلِيْنَا

قمت في صيف عام ١٣٦٧هـ [١٩٤٨م]، برحلة بدأتها من

الظهران، ماراً بالكويت ثم بالبصرة، ثم ببغداد إِلى دمشق، بواسطة السيارات، وبعد إِقامة قصيرة اتجهت إِلى بيروت فَعَمَّان، ومنها إِلى مدينة مَعَان، وهي من المدن المتقدمة في شرق الأردن عُمراناً، وكثرة سكان، وتقدماً اجتماعيّاً، فبحثت عن فندق أَحُلُّ فيه أثناء إِقامتي في هذه البلدة، فعلمتُ أن فيها فُنْدُقَيْنِ أحدهما في محطة سكة الحديد، ولكنه ـ وإِن كان حسناً ـ بعيد عن البلدة، والثاني في وسطها وإِن كان أقل مستوى من الأول إِلا أنه ملائم، فاخترت السكن فيه، وبينما أنا عند بابه، والمستقبل يتناول حقيبتي، إِذ أبصرت مكتبة بالقرب منه، فأوصيت الرجل باختيار غرفة يضع فيها الحقيبة، وذهبت إِلى المكتبة، فوجدت فيها من الإِخوة من استهواني حديثهم إِلى الجلوس معهم ، ثم الذهاب إِلى منزل أحدهم للعشاء، ويتمتع أكثرُ سكان مَعَان بحسن المعشر ، ولطف الاستقبال ، ورقة الطباع، وهم أشبه ما يكونون في كثير من أحوالهم وأخلاقهم وصفاء فطرهم بسكان قلب الجزيرة، إِذْ جُلُّهُمْ ممن انتقل من هذه البلاد على مرّ العصور، فأمضيتُ هزِيْعاً من الليل مع اؤلئك الإِخوة، وكانت الأحاديث متشعبةً إِلاّ أنها تمتد إِلى ما له صلة بتاريخ القبائل العربية وأنسابها، وما أُلِّفَ قديماً وحديثاً حول هذه الموضوعات، مما استهواني حتى مضى جُلُّ الوقت دون شعوري بذالك، وكما قيل (حَرِّكْ لَهَا حُوارَهَا تَحِنّ)[٥]، عدتُ إِلى الفندق فوجدت بَوّابه في انتظاري، وقد استبطأ رجوعي فخشي أنه حدث لي ما يحاذر منه، وعلى عجل أرشدني إِلى مكان حقيبتي وانصرف.

كان الفندق مظلماً، والإِضاءة فيه بمصابيح القاز الضعيفة النور، إِذ الكهرباء لم تَعُمَّ البلدة في ذالك العهد، وكنت في حاجة إِلى النوم بعد

رحلة يوم كامل من عَمَّان إلى هذه البلدة، أعقبها الجلوس طويلاً مع اؤلئك الإخوة، فأسرعتُ بالتمدُّدِ على السرير لأنام، وكان من نوع أسِرَّة الخشب والخوص التي كانت مستعملة في المقاهي بمكة في عشر الخمسين وما قبلها من القرن الماضي، وسرعان ما أحسستُ لَذْعاً شديداً في أسفل جسمي عندما تمدَّدت فوق السرير، فحاولت أن أتبيَّن سبب ذالك اللذع، ولكنني لم أستطع لضعف نور المصباح الذي كان معلقاً في الجدار، فنزعته وأدنيته من السرير، فدهشت من كثرة ما أبصرت!! ثوباً ممتلئا بأنواع تلك الحشرة الملعونة، التي شقيت بمعرفتها أول ما عرفتها في تلك البلدة الطيبة التي سعدت بالإقامة فيها قبل عشر سنوات، بين ما هو من صغره لا تكاد تبصره العين، وما هو من كبره وانتفاخه يشبه (القراد) الكبير بما مصّ من الدماء، بأقذر منظر وأكره رائحة، قد امتلأت به خشب السرير ومثاني ما سُفَّ من خوصه.

اندفعت خارج الغرفة ورفعت صوتي بالنداء (يأخي! يأخي!) فلم أسمع مجيباً، فطرقت باب الغرفة المجاورة فخرج إلي أحد إخواننا من أبناء البادية ولما سألته: ألاَّ يوجد أحد من خدم الفندق؟ أجاب: إنَّ عادتهم الخروج في الليل، ولا يعودون إلا في الصباح، وهم يغلقون بابه على سكانه خوفاً من أن يسافر أحدٌ منهم قبل أن يدفع الأجرة!! ياللّه إذَنْ نحن سجناء لكي يرتع (البقُّ) في أجسامنا، كيف العمل؟ فولج غرفته وأغلق الباب دوني وهو يتلو: (إن الله مع الصابرين) فدلفت ـ في الظلام ـ إلى الباب الخارجي محاولاً فتحه، فلم أستطع، فصعدت إلى السطح وكان واسعاً ومكشوفاً، وخالياً من أي أثاثٍ، والجوُّ أقرب إلى البرودة منه إلى الاعتدال، ولكنني رأيت الصبر على البرد أهون من

مقاساة ما اعتراني من شدة آلام لسع (البق) الذي لا تزال بقيته تجد في جسمي مرتعاً خصباً من خلال ملابسي، مما اضطرني إلى خلعها كلها، ورَمْيِها بعيداً عني، وبقيت كما خرجت من بطن أمي، أُعْمِلُ أظافري في هرش جلدي، وأتَلَوَّى مما أُحِسُّ، وظللت أدور في ذالك السطح ماشياً، وعند الإعياء أحاول الجلوس محفوفزاً فلا ألبث أن أهُبَّ واقفاً حين أشعر بلذعة شديدة، لا تقع إلا في أشد مواقع الجسم حساسية وتألماً، وهكذا ديدني حتى أشرقت الشمس، وهكذا أمضيتها ليلةً لَيلاء في (فندق الحجاز)[٦] في مدينة (معان) في هذا العصر الذي قل أن يوجد فيه موضع مأهول لم ينل قسطه من الحضارة الحديثة، ولندع هذه الحضارة جانباً، فلقد كانت النظافة في المسكن وفي اللباس وفي الجسم من الأسس التي يرتكز عليها الدين الإسلامي الحنيف، وتقضي بها الأخلاق العربية الفاضلة التي فطرت عليها النفوس منذ أقدم العصور، إلاَّ أنَّ الجهل ـ وهو أشد الأمراض فتكاً ببني الإنسان ـ سيطر على العقول.

إنه استطراد قد يكون له ما يبرره من عرض سوانح ذهنية، قد يعوزها الارتباط والتناسق في كثير من الأحيان، وقد يستدعي عرض بعضها الإشارة إلى ما يماثله أو يقاربه، فالإشارة إلى الليلة (الينبعية) ورغبة تخفيف وقع وَصْفِها في نفوس أحبتي من أهلها دفع لذكر ما حدث لي أثناء مثيلتها في بلدة أخرى، قدمتها مدفوعاً بالرغبة إلى معرفة كثير من أحوال أهلها الوثيقي الصلة ببلدة أقمت فيها فترة من الزمن، فأدركت قوة الصلات بين أهلها وبين جيرانهم، ذالك ما كنت أتوق إليه إلاَّ أنَّ سوء تلك الليلة دفعني إلى الإسراع في مغادرتها، بصورة لم أتمكن من خلالها من اتخاذ الأهبة لرحلة مريحة، فقد

أبصرت في صبيحة اليوم الثاني، وأنا عند باب الفندق متهيئاً للانتقال منه، أبصرت سيارة كبيرة، ينتظر راكبوها أحد سكان ذالك الفندق لمرافقتهم، وعرفت أنهم متجهون إلى بلدة أرغب زيارتها، فكان أن حشرتُ نفسي بين أكثر من ثلاثين راكباً، و(حَنَانَيْكَ بعْضُ الشرِّ أهْوَنُ منْ بَعْض) فالدفع بقوة واللَّكْمُ دون قصد، وإن كان شديداً، والوطْءُ بعنف ـ يتبع ذالك كله الاعتذار بكلمة (سامحني) كل ذالك أَخَفُّ إيلاماً من لسع ذالك العدو الذي يبلغ من لطفه أن الرؤية الحادة لا تتبين مكانه، ولا تستطيع اليدُ صدَّهُ والحيلولة دون أذاه.

وفي مساء اليوم نفسه كان المرور سريعاً بالمدورة (سَرَغ قديماً) آخر حدود شرق الأردن، فما كان في السيارة ما يتطلب التأخير، ولكن ينبغي المبيت بـ(ذات الحاج)[٧] والبقاء حتى يؤدي الموظفون في الجوازات والتفتيش عملهم، ولم يتم ذالك حتى ارتفع النهار، ويرأس العمل أخ من أهل الجوف يدعى الحواسي، لم يلبث بعد أن نظر جواز سفر صاحبنا وقلب صفحاته، أن قال: ـ مشيراً إلى خيمة ليست ببعيدة ـ: تفضل اجلس هناك!! وكان الجلوس مُريحاً حقاً إِثرَ طول الانتظار والوقوف في الشمس، وبعد قليل: أُحضرتِ الحقيبة ووضعت الخيمة، وعاد الأخ الحواسي بعد أن سمح للسيارة ومن فيها بالمسير، فأتى اثنان مسرعان من إخواننا الفلسطينيين إليَّ مُوَدِّعَيْن، فدهشت والتفت إلى رئيس المركز مستوضحاً: كيف هذا؟ فأجاب: جواز سفرك قد انتهت مُدَّتُه. فحاولت إفهامه بأنها لم تنته، ولكنه أصر وأبى أن يريني إياه، فقلت: هب أنها انتهت فأنا سعودي عائد إلى بلادي، وجواز السفر أقوى وثيقة فلماذا تمنعني من العودة؟! وأردفت قائلاً ـ بانفعال ـ:

أنت لا تحسن القراءة فأعط الجواز أحد الإِخوة ليتضح لك خطأك، فدعا أحد التابعين له، ووقفا على انفراد، ثم أشارا إِلى السيارة بعدم التحرك، وتقدم نحوي: لا مؤاخذة، اختلط علي التاريخ العربي بالتاريخ الإِفرنجي، مع السلامة!! فتناولت الحقيبة ـ وأنا لا أكاد أميز طريقي من الغيظ، ولكنه طلب فتحها فأبصر فيها كتباً وأوراقاً، فأمرني بإِغلاقها قائلاً: هذه سنبعثها إِلى القاضي، ويمكنك أن تراجعه بشأنها! لا فائدة من الإِلحاح بالتشبث بأخذها وليس فيها ما يحاذر منعه، ولي من الصلة بولاة الأمور في بلدة تبوك ما يرجعها إِليَّ بأيسر الطرق.

كان الوصول إِلى مدينة تبوك بعد المغرب، ولكن اتجاه السيارة ومن فيها لم يكن إِلى المكان الذي اعتاد المارون بهذه المدينة الذهاب إِليه، بل كان إِلى داخل قصر كبير، أوقفت عند بابه، وأمر راكبوها بالدخول إِلى القصر، وفي ساحته صُفّوا صَفًا واحداً مستطيلا، ثم أقبل عليهم رجل كَرِيهُ المنظر، وبدأ يتحسس أجسامهم واحِداً واحِداً، من القَدَم إِلى الهامة، ولا يتورع عن إِدخال يده في العورة المغلظة بعنف، لم أشاهد في حياتي مثل هذا المنظر البشع، فاعتراني من التأثر منه ما كدت من جَرَّائه أسقط على الأرض، ها هو الخادم القبيح يتقدم نحوي، فلم أتمالك أن خلعت جميع ما على جسمي من ملابس سوى تُبَّانٍ قصير يستر العورة، ورميتها أمامه، ففتشها، وأقبل إِليَّ، فصرت أقلب جوانب التُّبَّان وأتحسس أمامه على مغابن العورة، وأكرر الرجاء بشفقة ورِقَّةٍ أن لا يَمَسَّ جسمي، وقد أدرك أنه لا يخفي شيئاً مما يبحث عنه، حتى (نفذت بجسمي) ـ كما يقال ـ وأعجب ما في الأمر حدوثه بمدينة تربطني صلات طيبة، وأواصر معرفة بكثير من وجهائها، كأميرها وقاضيها فمن دونهما[٨].

أراني قد أبعدت النجعة في الاستطراد قاصداً رَتْقَ ما فَتَقْتُ، بما أسلفت من وصف الليلة الأولى، التي عنها انْجَرَّ الحديث ، إلاَّ أنني أكرر ـ بثقة واطمئنان وصدق ـ أن مدينة (ينبع) في ذالك العهد لا تقل عن مثيلاتها من مدن المملكة نظافة ، وقد تمتاز بسعة شوارعها ، وانفتاحها على الصحراء، وامتدادها على شاطىء البحر ، مما يكسب جَوَّهَا هواءً نقيًّا منعشاً ، وصفاء ينشرح له الصدر.

الحواشي :

(١) : كِليني : دعيني ، أميمة: صاحبته، ناصب: مُنْصب من النصب وهو التَّعب، بطيء الكواكب : تَخَيَّل الليل لشدة ما أحس به خلاله من السهر والأرق قد أبطأت نجومه في مسيرها للغروب .

(٢) : ساورتني : واثبتني. ضَئِيلة: حيَّة دقيقة هزيلة الجسم من كثرة جوعها، وتلك أبلغ ما تكون بين الحيات سُمًّا حين تلسع، الرقش : الرُّقْط .

(٣) : ويعرف في كثير من البلاد باسم (البق) واحدته (بقة) وهي حشرة مفرطحة حمراء كالقراد، منتنة الريح ، والبق البعوض أيضاً .

(٤) : ترجمةُ الجبرتي في تاريخه (٣١٨/١ وما بعدها) ومن مؤلفاته «مواسم الأدب» وله « ديوان شعر» لا يزال مخطوطاً ، وهو في شعره يصور حالة الفوضى واضطراب الأمن في طيبة، ويصف تسلط أبناء البادية لسوء تصرف حكام البلاد.

(٥) : من الأمثال العربية القديمة، يضرب لمن ذكرته بأمر مغرم به، أو كما قال الميداني «مجمع الأمثال» : ذِكْرُهُ بَعضَ أشجانه يَهِجْ له.

(٦) : وكان صاحب هذا الفندق من المدينة المنورة موظفاً في تلك السنة في إمارتها .

(٧) : انظر عن (ذات الحاج) المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية «قسم شمال المملكة» رسم (الحاج).

(٨) : فالأمير خالد بن أحمد السديري عرفته في الظهران من خيرة من عرفت من الأمراء خُلُقاً وعقلاً وسعة اطلاع، والقاضي الشيخ إبراهيم السويح، عرفته أثناء إقامتي بمكة، ومدير جمارك البلدة الشيخ محمد الوكيل من أهل الوجه، كان مديراً لجمرك ينبع حين كنت مديراً للمدرسة، ومدير المالية الشيخ محمد علي النحاس معاونًا له، وهو مدير مدرسة ينبع، ثم حللت محله لما نقل إلى الأحساء، وتولى إدارة مدرستها وعملت معه فيها سنة ١٣٥٨هـ .

في مدرسة ينبع*

في آخر عهد الدولة التركية أُنْشِئَتْ مدارسُ في بعض المدن، ومنها مدينة ينبع، حيث اختير لموقع مدرستها مكانٌ ملائم، يقع على مقربة من شاطىء البحر، في وسط المدينة، أمامه ميدان فسيح، وكان البناء حسناً مُتَعَدِّدَ الْحُجَرِ، يتخلل الهواء حجره المنسقة الواسعة، وهو مكون من دورين، ويتسع لجميع طلاب البلدة، في وقت كان سكانها قليلين.

وكان من أوائل من تولى إدارة هذه المدرسة في العهد السعودي، عالم فاضل من أهل الشام، كان تخرج في الأزهر، ونال شهادته العليا، يدعى الشيخ راغب القباني[1] الدمشقي، أتى إلى المملكة أثناء تولي الشيخ محمد كامل القصاب شؤون المعارف، وللشيخ راغب معرفة بالشيخ محمد بهجة[2] البيطار، العالم المعروف الذي قدم في ذالك العهد، وعمل مع الشيخ القصاب في شؤون التعليم، وقد عين الشيخ راغب مديراً لمدرسة الوجه، ولكن لم يحصل انسجام بينه وبين أهل البلدة، فقد كان عالماً أبرز منه مُرَبِّياً، فقدموا شكوى للمعارف تتعلق به، وقد حدثت له أثناء وجوده هناك حادثة كانت ذات أثر عميق في حالته النفسية، كان متزوجاً بامرأة من أهل ينبع، وكان يلقي دروساً في الوعظ كل يوم في جامع البلدة بعد صلاة العصر، وفي إحدى المرات أثناء وعظه بدرت منه هفواتٌ أثناء كلامه عن صفات المولى جل وعلا، فعلم القاضي بذالك وهو الشيخ سليمان السحيمي[3]، من أهل عنيزة فدعاه، ولما سأله عما بدر منه أنكر، وعلق طلاق زوجته بثبوت ما نُسِب من كلام إليه، فشهد شهود عند القاضي بأنه تكلم بذالك،

* المجلة العربية، العدد (١٦٣)، شعبان ١٤١١هـ / شباط وآذار ١٩٩١م.

ففرق القاضي بينه وبين زوجته، وكان شديد الحب لها، فأصيب بنوع من البلبلة الفكرية، ثم نقل من مدرسة الوجه في شهر ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ، وعُين مديراً لمدرسة ينبع، ويظهر أنه كان لا يزال متأثراً بما حدث له، بدا أثر ذالك في دفاتر المدرسة وسجلاتها في عهده، إذ كان يسجل في دفتر المكاتبات الرسمية كتب استعطاف يوجهها إلى والد زوجته ليرجعها إليه، وكان يبدأها بجملة (حضرة صاحب الجلالة الوالد خليل علام) كما ظهرت له آثار غير هذا في أوراق أخرى بقيت في المدرسة، وقد كان مدير المعارف في ذالك العهد، بعد الشيخ حافظ [وهبة] الشيخ محمد أمين فودة، أحد علماء مكة المعروفين، فكان الشيخ راغب يكتب إليه بعض الكتابات التي يرى فيها الشيخ أمين ما لا يناسب، فكان يقسو عليه في المعاتبة ويؤنبه، وما كان يدري بما جرى له.

ثم نقل الشيخ راغب من مدرسة ينبع، ليفتتح أول مدرسة قُرِّر إنشاؤُها في الأحساء سنة ١٣٥٢هـ، إلا أنه لم يكن ذا خبرة بطبيعة هذه البلاد، ولا معرفة سابقة بحالة علمائها، ولهذا لم يستطع القيام بما أُسند إليه من عمل في إنشاء تلك المدرسة ، فقد وقف خطيباً بعد صلاة الجمعة في الجامع الكبير (جامع فيصل) مبيناً فضل العلم ومنافعه، ثم شرع يتكلم عن الجهل الذي وصفه بأنه ضرب أطنابه في هذه البلاد، ولكن أثر هذه الجملة لم يقف عند حدِّ رميه بالحصباء حتى إسكاته، بل أثرت تأثيراً سيئاً في نفوس العلماء، مع ما تشبع به بعضهم من فكرة سيئة عن تأثير المدارس الحديثة من الناحية الخلقية، فسعوا في التنفير من الدخول في المدرسة التي فتحها الشيخ راغب، حتى اضْطُرَّ أخيراً إلى إغلاقها بعد بضعة شهور من فتحها ، لعدم انتساب طلاب إليها.

وقد تولى إدارة مدرسة ينبع بعد الشيخ راغب الأستاذ أحمد أبو بكر زارع، من أسرة آل زارع، المعروفة من أهل هذه البلدة، وممن تشقف ثقافة دينية، ولم يسبق له أن درس خارج بلاده، ومع صلاحه وتقواه إلا أنه أُخِذتْ عليه بعض الأمور المتعلقة بعدم صلاحه لإدارة المدرسة من حيث التوجيه للعقيدة السلفية.

ثم عين الأستاذ محمد علي النحاس ، وكان من أول بعثة مصرية ، وفدت إلى المملكة للعمل في التعليم، في عهد إدارة الشيخ حافظ وهبة للمعارف. فعُين مدرساً في مدرسة جدة الابتدائية في ٦ / ٧ / ١٣٤٧هـ ، ويظهر أنه لم يَطِبْ له المقام في هذه المدينة، إذ قدم شكوى إلى الشيخ حافظ بأن جوها لا يلائمه، فنقل إلى مدرسة الوجه في ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ ، خلفاً للشيخ راغب.

ثم بعد ذالك عين مديراً لمدرسة ينبع ، سنة ١٣٥٤هـ محل الشيخ أحمد أبي بكر زارع، ولم يطل عهد الأستاذ النحاس في عمله، حيث نقل سنة ١٣٥٥هـ ، وندب سنة ١٣٥٦هـ لافتتاح مدرسة في مدينة الهفوف، وكان له هناك من الأثر ما ساعد على انتشار التعليم في ذالك القطر، واستمر في عمله إلى سنة ١٣٦١هـ، فاستقال(٤).

وقد أسندت إدارة المدرسة إليَّ بعد الشيخ النحاس ، وكنت إذ ذاك معاوناً له، حتى نقلت إلى القضاء في بلدة ضبا ، في شهر رجب سنة ١٣٥٧هـ .

كانت المدرسة في ذالك العهد تتكون من قسمين، قسم تمهيدي مدة الدراسة فيه سنتان، وقسم ابتدائي مدة الدراسة فيه ست سنوات، وفي

المدرسة من الطلاب ما شغل الفصول كلها، وكان القسم التمهيدي مزدحماً بهم، بينما عدد الطلاب في السنوات الأخيرة الابتدائية يقل، حتى لا يتجاوز طلاب الفصل العشرة، إذ يحتاج إليهم أهلهم في أعمالهم، بمجرد مجاوزة الواحد منهم مرحلة الطفولة.

وفي المدرسة أساتذة كلهم من جل أهل البلدة، ولكن لا انسجام بين هاؤلاء الأساتذة، للتفاوت بين إدراكهم العلمي، ومبلغ ثقافتهم.

كان من هاؤلاء أستاذ يدعى السيد رضوان محمد رابح، قدم والده من المغرب إلى الكويت ثم انتقل إلى بلدة الزُّبَيْر فاستقر بها(٥)، فتلقى السيد رضوان مبادىء تعليمه في بلدة الزُّبَيْر، وكان رجلاً غريب الأطوار، ويُظْهِرُ أنه يعرف كل شيء، ويجيد كل علم، ويتكلم الإنجليزية ويدرسها، ويجيد العربية ويؤلف فيها، ويتقن كثيراً من العلوم الحديثة كالزراعة والكيمياء وغيرها، وقد أطلعني على مؤلف له في الزراعة في مجلد ضخم، ويشاهد المرء بين كتبه كثيراً من القواميس الإفرنجية، وعدداً من الكتب العربية الحديثة بجوار «مجرّبات الديربي» و«تذكرة داود الأنطاكي» وأمثالهما من الكتب، ويسمع من آرائه عن النظريات العلمية الحديثة ما يدهش، ومن أفكاره ومعتقداته الخرافية ـ كتحضير الجن ـ ما لا يصدقه عقل، وكان طرازاً غريباً في أسلوب حياته البيتية.

ومن بين مدرسي تلك المدرسة، عالم جليل هو الشيخ عبد الغني مُشْرِف، من أهل المدينة المنورة، وقد استوطن ينبع مدة من الزمن، وعمل في المدرسة، ثم استقال من التعليم، وأُسْنِدت إليه وظيفة القضاء

في بلدة ضبا، وأخيراً استقال وعاد إلى المدينة، وفيها توفي في غرة شهر رمضان[٦] ١٣٩٧هـ .

ولقد كان الشيخ عبد الغني من خيرة العلماء الذين عرفتهم، وحظيت بصداقتهم في تلك المدينة، ومع أن دراسته كانت دينيةً إلا أنه كان طُلَعَةً، ذا رغبة قوية في مطالعة أي كتاب في أي علم من العلوم، مستنير الفكر، ولهذا فكثيراً ما كنا نقضي أمسيات الأيام خارج المدينة، ومعنا ما نطالع به من الكتب التي وصلت إلينا حديثاً، وكنا حينما نقرأ خبر نشر كتاب من الكتب التي تروق لنا مطالعتها، نسارع إلى طلبه من مصر، وكانت المواصلات بين ينبع وبين مصر منتظمة في كل أسبوع، وفي موظفي الباخرة التي تمر بينبع بعض من لهم صلة بسكان البلدة، كانوا يساعدون بإحضار ما يطلب منهم إحضاره من مصر، كنا اعتدنا أن نخرج بعد صلاة العصر، ويخرج معنا في الغالب بعض أهل البلدة، ومنهم رجل ينبعي كريم يدعى محمد العبيسي عباس، كان عضواً في المجلس البلدي، وآخر يدعى السيد غنيم بن سالم، وهو إنسان أبرز صفاته طيب قلبه، وبساطة نفسه، كنا نذهب خارج البلدة، فنجلس في ظل أحد الأبنية المعدة لحفظ ماء السيول (الصهاريج) نطالع ونقرأ ونبحث مسائل أدبية، حتى تغرب الشمس فنصلي هناك، ثم يعود كل واحد منا إلى حيث يمضي ليلته .

وفي المدرسة مدرسون، منهم الأستاذان جميل معليف، وسليمان خلاف، من أهل البلدة، وممن درس في مدرستها .

وقد تندب المعارف بعض المدرسين الذين لا يمكثون سوى فترة من

الزمن ، ثم ينقلون إلى مدرسة أخرى ، ومنهم أستاذ فاضل يدعى ياسين الأديب ، ذو معرفة واسعة بعلم النحو ، بحيث نظم « القطر » لابن هشام بأرجوزة مطلعها :

يقول مَنْ إلى الكريمِ هِجْرَتُه ياسِينُ من إلى الأدِيبِ نِسْبَتُهْ

ولسهولة الرجز عليه كان ينظم به بعض دروسه ، وكان هذا من الأسباب التي أثارت الخلاف بيني وبينه ، بحيث لم يبق في المدرسة سوى زمن قصير ، وكان يغلب على طبعه سرعة التأثر ، ولم أعرف من أي بلد هو ، وهو مع ذالك رجل فاضل الأخلاق .

ليس في هذه البلدة ما يغري للعمل فيها ، فرواتب المدرسين في ذالك العهد ما كانت تزيد على ثلاثين ريالاً ، بل كثيراً ما يتأخر صرفها بضعة شهور ، والبلدة تعد نائية بسبب عدم تمهيد الطرق ، وتوفر وسائل المواصلات ، ولهذا كان التعليم على درجة من الضعف لعدم وجود المدرس الكفء ، وكثيراً ما يضطر مدير المدرسة للاستعانة ببعض الطلاب للقيام بالتدريس في الفصول الأولى ، وقد تُضَمُّ الفصول الابتدائية المتقدمة في المدرسة لمدرس واحد ، في جميع الحصص ، وليس هذا خاصاً بمدرسة ينبع ، بل في أكثر مدارس القرى النائية ، حيث كان انتشار التعليم في نطاق محدود ، وفي المدينتين الكريمتين بالدرجة التي قد لا تفي باحتياج مدارسهما من المدرسين .

الحواشي :

(١) : يظهر أن للشيخ راغب صلة بالشيخ محمد رشيد رضا ، وكانت له صلة بالشيخ محمد بهجة الأثري ـ انظر «تاريخ الكويت» ١٢٦/٢ .

وقد توفي الشيخ راغب في بيروت سنة ١٣٧٣هـ ، وانظر عن الشيخ النحاس مجلة «اليمامة» جزء محرم سنة ١٣٧٤هـ ص ١٦ .

(٢) : كان الشيخ محمد بهجة البيطار ، ذا أثر في التعليم في هذه البلاد ، فقد كان مساعداً للشيخ محمد كامل القصاب، لما أسند إليه الإشراف على شؤون التعليم في أول عهد الدولة السعودية سنة ١٣٤٧هـ فكان عضواً في المعارف ، ثم كان مديراً للمعهد السعودي فترة من الزمن ثم أسندت إليه إدارة دار التوحيد أول إنشائها ، وكان من أجلة العلماء المصلحين ، ذا عقيدة سلفية، وكانت له صلة بالملك عبد العزيز، حين قام بتوحيد أجزاء هذه المملكة.

(٣) : الشيخ سليمان السحيمي هو: سليمان بن عبد العزيز (١٢٩٦ ـ ١٣٥٧هـ) تلقى تعليمه في مدينة عنيزة التي ولد فيها على مشاهير علمائها ثم تنقل في القضاء خمس سنوات بين الوجه وأُمِّ لُجٍّ والقنفذة ، من سنة (١٣٤٧ ـ ١٣٥١هـ) ثم عين مدرساً في الحرم من سنة ١٣٥١هـ حتى توفي بمكة سنة ١٣٥٧هـ .

(٤) : وقد توفي الشيخ النحاس ، مديراً لمالية تبوك عام ١٣٧٦هـ .

(٥) : انتقل من الكويت سنة ١٣١٣هـ إثر قتل مبارك الصباح أخويه محمد وجراح ، قال عبد العزيزالرشيد في «تاريخ الكويت» هامش ص (٤٤) الطبعة الأولى عن مغادرة أبناء القتيلين الكويت: (وكان في معيتهم رجلان فاضلان السيد عبدالوهاب الطباطبائي مدير ناحية الزبير اليوم ، وأما الثاني فالعلامة الفاضل الأستاذ الشيخ محمد بن رابح المغربي المقيم الآن في الزبير، وقد كتب عن الوقائع التي حدثت بين مبارك وأبناء القتيلين والشيخ يوسف آل إبراهيم كتابة مستفيضة ، ولكنه أخيراً أتلفها ولم ينشرها.

(٦) : وله أبناء وأحفاد ، ومن أبنائه الأستاذ عبد العزيز ، مدير مكتب رئيس محاكم جدة، منذ عهد قريب.

إدارة برقيات المملكة العربية السعودية

مدير المعارف العامة للشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ يخبره بالأمر السامي لتعيينه في قضاء ضبا

أهلٌ بأهلٍ وإخوانٌ بإخوان *

حين حللت بلدة ينبع في أول سنة ١٣٥٤هـ، [١٩٣٥م] أحسست بفيض يغمرني من الراحة والانشراح، وهدوء النفس، لقد أمضيتها سنوات خمس في تلك البلدة الطيبة (مكة المكرمة) ولم أغادرها إلا مرات قليلة، قضيت خلالها فترات قصيرة من الزمن لعل أطولها لم يزد على شهرين في رحلتي إلى أبها، أثناء عطلة الدراسة من عام ١٣٥٣هـ وكنت مع ذالك أشعر أنني بحاجة شديدة إلى البعد عن ضوضاء المدينة، والركُون إلى مكان هادىء، للراحة، فقد أَلِفْتُ منذ صِغَري الصحراء، واعتدت الانطلاق بين أجواءها الفسيحة، وها هي هذه المدينة التي حللتها ـ وإن لم تعدم ما تتمتع به غيرها من المدن من محاسن الحضارة ومباهجها ـ تنداح جهاتها الثلاث متوغلة في قلب البادية إلى أقصى مدى من الاتِّساع، مما يذكرني بمرابع صِبَاي، حيث كنت أعيش في قرية صغيرة، تكاد تبتلعها الصحراء من جميع نواحيها.

كنت بعد صلاة الفجر أتجه حيث تقودني قدمايَ دون قصد، ولا مبالغة في هذا رغبة في البعد عما أحس به من ضيق داخل مباني المدينة، فلا يستمر بي السير بضع دقائق حتى أُحِسُّ باحتضان الصحراء لي وحُنُوِّهَا عليَّ، بما ينعشني من رقة هوائها، وانفساح جهاتها، وامتداد النظر فيما حولي منها، مما يغري بمواصلة السير ولو إلى غير غاية، لولا ما يتطلبه عملي من التقيد بحدود زمنية.

إنها بلدة تبعث في النفس الإحساس بالهدوء حتى أهلها، وقد اختلطت بعدد منهم أثناء تجوالي في السوق، فشاهدت فيما بدا لي من

* المجلة العربية، العدد (١٦٤)، رمضان ١٤١١هـ / آذار ونيسان ١٩٩١م.

مظاهر حياتهم الرضا عما هم فيه من حياة، وإن اكتنفها بعض الضيق، والإخلاد إلى السكون والقناعة، بل وجدت حين احتككت بأهل البلدة مدى قوة الترابط بينهم، فأكثرهم قد قَدِم من صعيد مصر، ونَمَتْ بين أُسَرِهِمْ أثناء استقرارهم أواصر المحبة، التي عمقت الصلة بينهم وبين من خالطهم ممن قدم من بلاد أخرى غير البلاد التي قدموا منها، وإن كان معظم السكان يتكون من أسر متميزة من أشهرها أسرة (آل الخطيب) وكثير من أفرادها يمتهنون التجارة، ومن مشاهير هذه الأسرة الشيخ مصطفى الخطيب (قائم مقام) المدينة، وهو رجل بهي الطلعة، وقور ذو رَزَانةٍ وحلم. وقد توفي ــ رحمه الله ــ في اليوم الخامس من ذي القعدة سنة ١٣٧٢هـ، على ما كتب به إليَّ عمر محمد حامد الخطيب بتاريخ ٢٥ / ١ / ١٤١١هـ، وهذه الأسرة تنتمي إلى السادة.

ومن تلك الأسر أسرة (آل زارع) ويتولى كثير من أبنائها مختلف الوظائف الحكومية، فمنهم رئيس كتاب الإمارة أحمد سندا زارع، ورئيس محاسبة البلدية عبد الله محسن زارع[١]، ومدير المدرسة أحمد أبو بكر زارع، ومدير الميناء ومدير (اللاسلكي)، ومنهم موظفون آخرون في المالية والتدريس وغيرهما، ولا أدري هل لمنزلة هذه الأسرة الاجتماعية صلة بالانتساب إلى السيد زارع، الذي لا تزال آثار القبة العظيمة التي كانت مشيدة على قبره في مقبرة المدينة بارزة. وتشاهد بقية تلك الآثار عن بعد، إذ لم يُسْتَطَعْ هَدْمُها لإحكام بنائها، وقوة أساسها إلا بواسطة إطلاق قنابل المدافع عليها عند استسلام البلدة سنة ١٣٤٣هـ، للجند الذي كان بقيادة إبراهيم النشمي[٢]، لما قام الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ بتوحيد أجزاء هذه المملكة.

ولم أعرف زمن السيد زارع، ويظهر أنه من أهل القرن الثالث عشر، إِذْ لم أَرَ فيما اطلعت عليه من كتب الرحلات السابقة لهذا العهد ذكراً له.

ومن الأسر الكريمة أسرة السادة آل سُبَيْه ـ بسين مهملة مضمومة بعدها باء موحدة مفتوحة فيها مثناة تحتية ساكنة فهاء ـ وكان من هذه الأسرة رئيس التجار السيد مصطفى سبيه، على جانب عظيم من سلامة النفس، ولطف الخلق، وحب الخير، والإِحسان إِلى المحتاجين.

ومن تلك الأسر أسرتا آل شاهين، وآل جبر، وقد توطدت الصداقة بيني وبين عميدَيْ هاتين الأسرتين الشيخ محمد حامد بن جبر، وقد كان رجلاً شهماً، ذَا مكانة بارزة بين أهل هذه المدينة بما يتصف به من كرم الخلال، مع ما منحه الله من بسطة في الرزق، فقد كان من كبار تجار هذه البلدة، وكان يملك قرية في المبارك في ينبع النخل، له فيها حديقة غَنَّاءُ نَضِرَةٌ بما تحويه من أشجار الفواكه وأنواع النخيل، وكان كثيراً ما يدعوني للنزول في ضيافته في تلك القرية الفسيحة الواقعة في متسع وادي ينبع النخل، عند اقترابه من شاطىء البحر، فكنت أجد في الأوقات التي اعتدت المشي فيها في أول النهار وفي آخره، أجد في تلك الأمكنة الفسيحة ما يمضي الوقت الطويل دون أن أشعر به، أثناء تجوالي في تلك الفجاج الواسعة، وكثيراً ما يجنح بي الخيال إِلى الترنم بما أبدعه ذالك الشاعر الينبعي من وصفها قبل ألف عام:

يَا وَادِيَ الْقَصْرِ نِعْمَ الْقَصْرُ وَالوَادِي

بِمَنْزِلٍ حَاضِرٍ إِنْ شِئْتَ أَوْ بَادِي (٣)

وبِوَصْفِ السفن التي تشاهد رافِئَةً* بِقُرْبِ الشاطيء، وحولها ملاحوها وما يشاهَدُ من مظاهر البادية تنتشر في الأودية، والمراتع الواقعة على مقربة منها لأذواد الإبل، ومضارب أخبية أهلها، حيث تتجلى في تلك البقاع البداوة والحضارة بأجلى مظاهرها.

وعندما مَرَّ الدكتور محمد حُسَيْن هيكل بينبع البحر في ١٤ محرم ١٣٥٥هـ (١٦ أبريل ١٩٣٦م) نزل في بيت الشيخ محمد بن جبر، بتوجيه من وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان، وقد قال هيكل عنه في كتابه «منزل الوحي»[٤] ـ لما عرض عليه أمير ينبع القيام بما قد يحتاج إليه ـ قال: (إن مضيفي وأهله قد بلغوا في الحرص على طَمَأنِينَتِي ما طوقوا به عنقي، وما جعلوا له عِنْدي يَداً لا تُنْسَى).

ودارت الأيامُ دورتَها، وضعفت أحوال بلدة ينبع ضعفاً كان عميق الأثر بالنسبة لجميع السكان، في عشر الستين من القرن الماضي، فانتقل الشيخ محمد بن جبر إلى مصر واستوطنها، وإن أَنْسَ لا أَنسى آخر زيارتي إياه سنة ١٣٥٨هـ، حين كنت في مصر في البعثة السعودية، لقد سار معي إلى باب منزله مودعاً، على ضعف جسمه وشدة مرضه، وكان لا يستطيع الإفصاح في كلامه من شدة تأثره بالبكاء، حين استرسلنا في تذكر تلك السويعات الجميلة، التي كان يدعوني فيها إلى زيارته في المبارك فنجلس بجوار جدول بستانه النضر، المزدان بأنواع الأشجار التي تعبق أزاهيرها بالفاغية والورد والليمون فتعطر الجوَّ بأريجها.

أما الشيخ سالم شاهين، فقد كنت حين أشاهده أذكر قول الشاعر

---

*أي راسية، من رفأ ومنها المرفأ. (ش).

طَرَفَةَ بن العبد :

أنَا الرَّجُلُ الضِّرْبُ الَّذي تَعْرِفُونَهُ   خَشَاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ الْمتَوَقِّدِ

فهو وإن كان حضرياً يتصف بما لأبناء البادية من صفات كريمة، كان كثير الأسفار، عليماً بمواضع تلك البلاد، ذا ملامح تعبر عن ذكاء وصرامة، مع اتصافه بالهدوء والرزانة وطول التفكير، وكان إذا تحدث تحدَّث بصوت منخفض، بحيث لا يكاد يُسْمع، وبلهجة بدوية عربية فصيحة بحيث يظن سامعه أنه أحد أبناء الصحراء .

ومن الأسر الينبعية، آل مُقدَّم، وأصلهم من المغرب، وآل الطحلاوي وآل النقادي وآل خَلاَّفْ وآل ضُليمي وكلهم من مصر، وآل رُحَيْمي ـ بضم الراء ـ وعميد الأسرة في ذالك العهد هو الشيخ ناصر فرج رحيمي، ذو تقوى وورع وعبادة، كان قد تجاوز السبعين وقد أخبرني بأن جد الأسرة قدم من الهند .

وهناك أُسر أخرى لا تحضرني أسماؤها، وجلها من الطارئين على هذه البلدة. وفي ينبع من أهل البلاد القدماء من الأشراف ، ومن قبيلة جهينة الذين انتقلوا من ينبع النخل موطنهم الأول، واستقروا في مدينة ينبع، بعد أن اتسعت ونَمَتْ، في العهد التركي وما بعده من العهود، ومن أشهر من عرفتُ من هاؤلاء الشيخ محمد بن جُبَارَة الصُّرَيْصِرِيِّ الجهني، أحد مشايخ قبيلة جهينة، وكان ذا عقل ومنزلة في قومه.

والشريف عبد الكريم بن بُدَيْوِي، وهو رجل سَمْحُ الطَّلْعة، متهلل الوجه، يذكر من يراه بقول الفضل بن العباس بن عتبة الهاشمي القرشي :

وَأنَا ٱلأخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي   أخْضَرُ الْجِلْدَةِ مِنْ أصْلِ الْعَرَبِ

والشريف عبد الكريم كريم اليد والخُلُق، شريف النسب من آل هِجَارٍ(٥)،

أمراء ينبع قديماً، وهم ينتمون إلى الشريف هجَار بن درَّاجٍ الحسني، من ذرية قتادة بن إدريس جد أشراف مكة، الذين تداولوا حكمها إلى سنة ١٣٤٣هـ، وكان قتادة وآله مستوطنين في بلدة العلْقَميَّة من ينبع النخل، فكثر أتباعه، وقويت شوكته، حتى استولى على وادي الصفراء ثم على المدينة المنورة، ثم مكة المكرمة حتى شمل حكمه الحجاز، وامتد إلى نجد في أول القرن السابع الهجريِّ.

ومن ذريته هجَارُ بنُ وُبَيْر بن نَخْبَارِ بن محمد بن عَقيل بن راجح بن إدريس بن حسن بن قتادة، كان وُبَيْرُ أمير ينبع حتى سنة ٨١٤هـ، حيث تولى ابنه هجَارُ إمارة ينبع إلى سنة ٨٢٤هـ، وتداول الإمارة عدد من آل هجَارٍ هاؤلاء حتى كان من آخرهم علي بن هجَارٍ المتوفي سنة ٩٢٨هـ، الذي وصفه ابن إياس صاحب كتاب «بدائع الزهور»[٦] بأنه من خير من ولي إمرة ينبع.

ومن مشاهير آل هجار هاؤلاء سبع بن هِجار بن محمد، تولى إمارة ينبع سنة ٨٨٧هـ، ثم ابنه يحيى بن سبع، الذي تولى الإمارة سنة ٩٠٣هـ، وليحيى هذا مع دولة الجراكسة في مصر في آخر عهدها تاريخ طويل، لا يتسع المقام للاسترسال في الحديث عنه ويجد القارئ طرفاً منه في كتاب «بلاد ينبع»[٧].

وقد استقر في هذه البلدة منذ انضواء هذه الجهات إلى الحكم السعودي الميمون سنة ١٣٤٣هـ كثير من رؤساء موظفي الدولة من بلاد نجد، ممن كان يَفدُ مع الأمراء الذين تعاقبوا على هذه البلدة، فيطيب له المقام فيها، ويفضل البقاء على العودة إلى بلدته، وقد قويتْ صلتي

بعدد من هاؤلاء الإخوة، منذ أن تم التعارف بيني وبينهم على مائدة الأمير في أول يوم قدمت فيه إلى هذه البلاد، ومنهم الشيخ إبراهيم الرَّشِيْد ـ مدير الشرطة ـ وهو من الشخصيات التي لا تُنسى لخفة روحه، وغرابة أطواره، وقد عاش في العراق دهراً، ثم انتقل إلى مكة، وصاهر بيت الملطاني، وكان صديقاً لمدير الأمن العام مهدي المصلح.

والشيخ محمد العثمان الناجم ـ مدير المالية ـ وهو من القصيم، وقد رافق الشيخ فوزان السابق زمناً، أثناء اتجار فوزان بالإبل في الشام وفي مصر، وتردد في هذين القطرين.

والشيخ محمد الصالح التركي ـ المفتش في دائرة الرسوم ـ وهو من أهل عنيزة.

والشيخ محمد الصالح المضيان ـ مدير المرفأ ـ.

والشيخ عبد العزيز بن عبد الله الرُّشَيْد[^8] ـ مأمور خفر السواحل ـ وكان له بيت صغير، ولكنه في مكان فسيح في طرف المدينة الشمالي، على ساحل البحر، بني حديثاً، فكان هذا البيت مجمعاً لأولئك الإخوة.

كان الاجتماع يبدأ بعد صلاة العصر، ويمتد إلى الساعة الرابعة ليلاً، وكان المجتمعون يمضون الوقت في بعض الألعاب اليدوية، وفي كثير من الأحيان في صيد السمك، والسمك في تلك الناحية موفور بكثرة، والمكان جميل، ولا يحيط به شيء من الأبنية، ولهذا فهو في وقت الصيف مما يجلب الراحة، ويخفف شدة الحر، وكان المجتمعون يتناوبون طبخ (العشاء)، فآونة يعملونه من (الصيَّادِيَّة)، وأخرى من (المعدوس)، وثالثة من (فَرِيك الدخن)، كان الشيخ محمد المضيان ـ رحمه الله ـ ورحم الجميع، فقد انتقلوا إلى رحمة الله، كان الشيخ محمد المضيان يجيد طبخ (المرقوق) وهي أكلة نجدية، ولهذا أضاف

إلى اسمه أحد الظرفاء هذا الاسم، تمييزاً بينه وبين سَميِّه، وكان ـ رحمه الله ـ ذا نفسٍ رضيَّة، وصدر رَحُب، لم أره يوماً من الأيام غاضباً مَهْمَا وُجِّهَ إليه مما يغضب، وكان الشيخ عبد العزيز الرُّشَيْد كريمَ النفس، سمح الخلق ، لا أذكر يوماً من الأيام أنني رأيت منه متأفِّفًا أمام زائر، أو أحد من إخوانه، على كثرة ترددهم عليه، واجتماعهم في بيته.

لقد كانت تلك الليالي التي أمضيتها في (ينبع) من أمتع ليالي العمر، ومن أبقاها ذكراً في النفس، بحيث أصبحتُ أنظر إلى تلك البلدة نظرة خاصة، وأحمل لها في نفسي أجمل الذكريات.

الحواشي :

(١) : توفي ـ رحمه الله ـ في ١٤٠٦/١٢/٩هـ وله أبناء ذوو أخلاق فاضلة، تولى بعضهم وظائف وأعمالاً بارزة.

(٢) : إبراهيم النشمي، كان من أوائل من تولى إمارة ينبع، وممن تولاها أيضاً الأمراء: عبد العزيز بن فهد بن معمر، وسعد بن سعيد من أهل الدرعية، وحمود بن إبراهيم من أهل حائل، وحمد بن عبد العزيز بن عيسى من أهل شقراء.

(٣) : تقدم الشعر في السانحة (في بلدة (ينبع) قبل خمسين عاماً).

(٤) : ـ ص ٦٦٦ ـ.

(٥) : تجد تراجم بعض (ال هجار) في «الضوء اللامع» للسخاوي، وأنباء الغمر بأبناء العمر» لابن حجر.

(٦) : «بدائع الزهور» ـ ٤٥٧/٥ ـ.

(٧) : كتاب «بلاد ينبع» ـ من ص ٥٠ إلى ص ٦٨ ـ.

(٨) : عبد العزيز بن عبد الله الرشيد، من أهل قرية الشقة من قرى بريدة، وقد تولى إدارة ـ خفر السواحل ـ في المنطقة الشرقية فترة من الزمن مستقراً في مدينة الدمام ثم في آخر حياته انتقل إلى المدينة وبها توفي.

[وقد استدرك الشيخ الجاسر على هذا الكلام في آخر حاشيته على سانحة (مع تلاميذي في المدرسة)] . (ش).

وكان الاصطياف في سويقة*

سويقة هذه إحدى قرى ينبع ، واسم ينبع حين يردُ في كتب المتقدمين يُراد به ما عُرف أخيراً باسم ينبع النخل، للتمييز بينه وبين ينبع البحر الميناء، التي وإن كانت قديمة، إلا أنها لم تنل من الشهرة في صدر الإسلام ـ ثم في كتب التاريخ ـ ما نالته ينبع النخل، حيث حدثت غزوة العُشَيْرة في إحدى قُراها القديمة التي درست[1] .

لقد كانت ينبع هذه من أخصب الواحات بحيث نقل ياقوت في «معجم البلدان» عن الشريف ابن سلمة بن عياش الينبعي، قال: عددت بها مئة وسبعين عيناً .

وقد أقطع الرسول ﷺ عليًا فيها أرضاً، كما أقطعه عمر ـ رضي الله عنه ـ ولهذا استقرّ كثير من أحفاده في هذه البلاد، ولقد أدركت فيها سنة ١٣٦٤هـ، عيوناً كثيرة بلغ مقدار زكاة حاصلاتها من التمر عام ١٣٦٣هـ (٣٤٩٦٠) أقة، وها هي أسماء العيون التي كانت معمورة إذ ذاك، وتُسمى خيوفاً، والخَيْفُ عندهم يراد به العين، وقد يطلق على القرية التي تُسْقَى بالعيون[2] :

١ ـ الْبَثْنَةُ : وتبعد عن ينبع البحر (٥٨) كيلاً.

٢ ـ الْبَركَةُ: وهي من أقدم عيون ينبع ، وهي إحدى عيون العُشَيْرة، وموقعها فيما بين الْبَركَة هذه وبين البحر .

٣ ـ البِقَاعُ .

٤ ـ الجَابِرِيَّةُ: وتبعد عن ينبع البحر (٤٥) كيلاً .

٥ ـ السكوبية: وسماها صاحب كتاب «الدرر الفرائد المنظمة»[3] السَّكْبِيَّةُ من السَّكْبِ.

---

* المجلة العربية ، العدد (١٦٥) ، شوال ١٤١١هـ / نيسان وأيّار ١٩٩١م .

٦ ـ السُّوَيْقُ: تصغير السُّوقْ بضم السين، وبينها وبين ينبع البحر (٥٤) كيلاً.

٧ ـ خيف حسين: وتبعد عن ينبع البحر (٥٦) كيلاً.

٨ ـ عين حسن.

٩ ـ الْفجَةُ: ـ بكسر الفاء وفتح الجيم ـ.

وكل هذه العيون المتقدم ذكرها كانت لجهينة، سوى البَرَكَة فإنها للأشراف.

١٠ ـ سُوَيْقَةُ: وتبعد عن ينبع البحر (٥١) كيلاً.

١١ ـ عين جديد.

١٢ ـ عين الحَارثيَّـــة.

١٣ ـ خَيْفُ فاضل.

١٤ ـ شَعْثَاء.

وهذه كلها لقبيلة حرب.

١٥ ـ العلقمية: والعلقمية هذه بلدة الشريف قتادة وذويه، الذين حكموا مكة في القرن السابع الهجريِّ إلى القرن الرابع عشر.

١٦ ـ عين حسين.

١٧ ـ عين سلمان.

١٨ ـ عين عجلان.

١٩ ـ عين عَليٍّ: وهما عينان، إحداهما حربية والأخرى جُهَنِيَّة، وتبعد عن ينبع البحر (٤٦) كيلاً.

٢٠ ـ عين النَّوَى.

٢١ ـ عين الْقَرْيَة.

٢٢ ـ عين المُبارك.

٢٣ ـ عين مَدْسُوسٍ .

٢٤ ـ عين المزرعة .

٢٥ ـ عين النُّجَيْل : ـ بضم النون وفتح الجيم ، تصغير نَجْلٍ ـ .

٢٦ ـ عين الْيَسِيْرَة .

وهذه العيون الاثنتا عشرة مشتركة بين الأشراف وجهينة وحرب .

وقاعدة هذه الخيوف أو القرى بلدة السُّوَيْق .

وقد دَرَسَتْ أكثر عيونها القديمة ، ومنها عين البغيبغة التي كانت لعليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، ثم لآله من بعده ، وبقي اسمها يطلق على مكان يقع بين قريتي المزرعة والمبارك في أسفل وادي ينبع .

ومن أشهر عيون ينبع وأقدمها سُوَيْقَة ، وفيها عدد من الخيوف (العيون) وكانت من منازل الحسنيين أبناء الحسن المُثَنَّى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ، وقد قام بعض هاؤلاء بثورات متعددة على الخلفاء العباسيين في فترات مختلفة من الزمن ، ولهذا تعرضت بلدتهم سُوَيْقَةُ للتخريب ، وقطع النخيل ، وهدم البيوت ، ففي سنة ١٤٥هـ ، بعد القضاء على ثورة النفس الزكيّة ، محمد بن عبد الله بن الحسن ، الذي ثار في المدينة ، فقضي على ثورته في عهد المنصور وقُتل ، كانت بلدته سُوَيْقَة فخربت وعُقِرَ نخلها ، وصُودرت أموال محمد وآله من الطالبيين(٤) .

وعندما ثار محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن ، سنة ٢٤٤ هـ ، في عهد الخليفة المتوكل ، جرى لِسُوَيْقَة ما جرى لها في عهد المنصور .

ولشاعر ينبعي جهني هو سعيد بن عقبة، قصيدة مؤثرة يصف خراب هذه البلدة أوردتها في كتاب «بلاد ينبع»[٥].

ولم تسلم هذه القرية من نكبات أخرى في العصور الأخيرة، فقد ذكر النابلسي في رحلته «الحقيقة والمجاز»[٦]: أنه لما مر بها في اليوم الثاني والعشرين من شهر شعبان (سنة ١١٠٥هـ) خمس بعد المئة والألف وجد البلدة خالية ليس بها أحد، قال: قد رحل أهلها وخرجوا على الشريف سعد بن زيد لأنهم حالفوا قبائل حَرْبٍ، فذهبوا معهم يساعدونهم على قتاله، وهذه القرية فيها ماء جار، ونخل كثير، وكان له حمل كثير في هذه السنة، والعراجين بعدما نضج بسرها قال: فجلسنا على حافة ذالك الماء، وشربنا القهوة مع الشريف سعد وولده سعيد، وبقية من كان من فرسانهما، وقد أمر الشريف ـ حفظه الله تعالى ـ بحرق بيوت القرية، وإنَّا لَنَرَى النار تتأَجَّجُ في جُدْرانها التي هي من أخشاب النخل اليابس، والهواء يزيدها تَأَجُّجاً والتهاباً، وقد أمر بقطع النخل، فيصعد العبد الأسود إلى أعلى النخلة، ويقطع جُمَّارَهَا وعَرَاجِينَهَا، فتسقط العراجينُ إلى الأرض، كل عرجون فيه البسر الأخضر الذي لم ينضج، مقدار العشرة أرطال الشامية، أو أكثر أو أقل، حتى ذكرنا لحضرة الشريف ـ حفظه الله ـ قوله تعالى: ﴿ما قَطَعْتُمْ من لِينَة أَوْ تَرَكْتُمُوْهَا قَائمَةً علَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّه، وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِيْنَ﴾ بأنَّ نظيرَ هذا الفعل وقع من جَدِّه النبي ﷺ في شأن الكافرين الخارجين عن طاعة الله ورسوله.

هذا كلام النابلسي، ولم يكن منصفاً ولا عادلاً، بل كان مُتَزَلِّفاً إلى هذا الأمير بما يُحِبُّ، وفرقٌ بين أناس مسلمين، وبين قوم من اليهود حاربوا الله ورسوله، وأبوا عن قبول الهدى.

امتدّ بي الاستطراد، وقد يكون في هذا فائدة للمهتمين بدراسة تاريخ هذه الناحية من بلادنا، لقد كان ممن توطدت الصداقة بيني وبينهم في بلدة ينبع، رجل كريم، سمح الخلق، مرح النفس، فاضل على جانب كبير من اليسار، هو الشيخ إبراهيم بن مُسْفِرٍ آل بِشْرٍ(٧)، من بلدة الأفلاج، قدِمَ هذه البلاد بعد انضوائها تحت لواء الحكم السعودي الميمون بزمن يسير، حيث عُيِّنَ إماماً لجامع الإمارة، فاستوطن مدينة ينبع البحر، فأصبح ينبعياً، وبسط الله له في رزقه.

جاء وقت الصيف فدعاني الشيخ إبراهيم لقضائه في ينبع النخل في بلدة سويقة، حيث كان يملك بستاناً جميلاً، فاستجبت لدعوته الكريمة، فكان أن أمضيت صيفاً جميلاً في تلك البلاد التي كانت في ذالك العهد على جانب كبير من الازدهار، فمياه عيونها قويّة، وأرضها مخصبة، وباديتها على جانب كبير من الارتياح، وما أبهج تلك الحدائق والبساتين في تلك الواحة، تتخللها الأنهار الجارية، وتزدهر بأنواع أشجار الفواكه والرياحين، ولا سيما أشجار الحنَّاء، التي تعبق أريج فاغيتها(٨) تلك الأجواء، مما يبعث في النفوس البهجة والانشراح والسرور، يضاف إلى كل ذالك ما يتصف به سكان تلك القرى من سلامة النية، وطيب القلوب، وكرم النفوس، والتسامح والتآلف بينهم، وكلهم من العرب الأقحاح، من قبيلتي حرب وجهينة، ومن الأسرة الطاهرة التي تنتمي للسبطين الكريمين ابني فاطمة الزهراء من علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه.

لقد كنت أمضي بياض النهار متنقلاً بين الحدائق، فقد هيأ لي مضيفي الكريم منزلاً في بستان واسع، بين النخيل وأشجار الليمون

التي يتخللها نهر جارٍ، وكنت أتناول طعام الإفطار ثم أقوم مبكراً فأذهب خارج النخيل أتجول في الأودية القريبة منها، وأعلو فوق التلال المرتفعة، حيث أشاهد في بعضها آثاراً وكتابات قديمة، ولو كنت ممن يُعْنَى في ذالك الوقت بتدوين ما شاهدت لجمعت حصيلة طيبة مما هو منقوش على الصخور بالخط الكوفي القديم، حيث تكرر كلمات الأسماء المنعوتة بـ(الأنصاري) في تلك الكتابات، مما يدل على قدمها، وامتداد زمنها إلى القرون الأولى من الهجرة.

وبعد أن أُمْضي أوْلَ النهار، وأُحِسُّ بحرارة الشمس أعود إلى منزلي في داخل ذالك البستان، وكنت أعددت فيه مجموعة من الكتب التي أرغب مطالعتها، وقد علقت بقرب باب المنزل في أحد أغصان شجرة الليمون قِرْبَةً قديمة (شَنًّا) لتبريد الماء، فأجمع من الليمون كميات كبيرة وأعصرها في القربة، وأتناول من ذالك الماء العذب وقت حاجتي، وكان مُضيفي يغدق عليَّ من كرمه، ومما يجود به بستانه من صنوف الفواكه والخضر، وعندما أُحِسُّ بحرارة الجو أنزل في النهر، وأمضي فيه وقتاً ممتعاً في الاستحمام.

ولن أعدم في أكثر الأحْيان زُوَّاراً، أقضي معهم جُلَّ الوقت في المذاكرة والبحث، لقد أمضيتهاأياماً من أجمل أيام العمر، وأعمقها بالذكريات الطيّبة في نفسي، واستمتعت باصطياف في تلك البلدة، قلّ أن استمتعت بمثله في بلدة أخرى:

بِنَفْسِي تِلْكَ الأَرْضَ مَا أطَيْبَ الرُّبَا   وَمَا أحْسَنَ المُصْطَافَ والْمُتْرَبَّعَا

الحواشي :

(١) : سبقت الإشارة إلى غزوة ذي العُشَيْرَة، وهي من غزوات الرسول ﷺ التي لم يَلْقَ فيها كيداً، فقد خرج في السنة الثانية من الهجرة لاعتراض عير قريش ففاتته، إذ نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، ووادع فيها بني مُدْلِج وحلفاءَهُم من بني ضَمْرَة ورجع إلى المدينة، وبنومدلج هاؤلاء هم من بني مرة بن عبد مناة بن كنانة، وبنو ضمرة أبناءعم لهم من بكر بن عبد مناة بن كنانة، ويظهر أن هاؤلاء الذين وادعهم رسول الله ﷺ هم سكان ينبع في ذالك العهد، وأن قبيلة جهينة لم تنتشر في هذه البلاد، والموادعة: المصالحة والمسالمة على ترك الحرب والأذى.

(٢) : لم يرد للخيف بالمعنى المعروف عند أهل هذه البلاد في كتب اللغة ذكر، وإنْ ورد في كتب المتقدمين كما في كتاب «جمهرة نسب قريش» ـ ص ٧٧ ـ من شعر عبدالملك بن يحيى الزبيري، قال في عينه التي يدعى خيفها منكوباً، واسم عينها عين الرضا، وكان يقال لخيفها محبوب:

وَجَدنَا بحمد الله ماءً وَمزْرَعًا ... وعينًا رُوَاءً بالْمَسَاحِي تُفَجَّرُ

فعينُ الرِّضَا عما قليلٍ غَزِيْرةٌ ... وساكن مَحْبُوْبِ يُحَيَّى ويُنْشَرُ

وانظر «معجم ما استعجم» حيث تجد خيف ذي القبر ، وخيف سلام ، وخيف الظبي (ص ١١٦١) وخيف النعمان ، وخيف نوح ، وكلها أسماء عيون .

(٣) : ص ١٤٢٠ .

(٤) : خطّأني بعضهم والكمال لله والعصمة لأنبيائه :

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سجايَاه كُلُّها ؟ ... كفى الْمَرْءَ نُبْلاً أن تُعَدَّ مَعَايِبُه

فزعم هذا المُخطِّئُ أن ما ذكرته عن سُويقة هنا لا ينطبق على سويقة ينبع، وإنما على سُويقة تقع أسفل وادي حورة مستدلاً بقول أبي عبيد البكري في «معجم ما استعجم» ـ رسم الأشعر ـ : وبأسفل الحورة عين عبد الله بن الحسن التي تُدعى سويقة . وفات هذا :

أ ـ أن اسم سويقة يطلق على مواضع كثيرة ، لا على موضع واحد .

ب ـ أن بلاد ينبع كانت مقر الحسنيين منذ أن أوقف الإمام عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ أملاكه فيها على ذريته، ومنهم أحفاده الذين استقروا في تلك البلاد إلى عصرنا الحاضر.

ج ـ لا تزال مدافن بعض مشهوري الحسنين معروفة في هذه الجهات، ومنها قبر الإمام الحسن المثنى فالمتعارف أنه في قرية الجابرية القريبة من سُويقة، والحسن هذا هو جد محمد بن عبد الله الذي ثار في عهد الخليفة المنصور وجرى لبلدته سويقة ما جرى.

د ـ قد تكون سويقة الواقعة في أسفل وادي حورة من أملاك الحسنيين ولكن من المستبعد أن تكون هي التي خربت في عهد المتوكل، إذ هذه ذات نخيل كثيرة ومنازل ، وهي ـ كما يصفها هذا الْوَاهِمُ الْمُوَهِّمُ ـ لا تزيد أرضها على سبع مئة متر طولاً في عرض مئتي متر، فهل هذه المساحة تتسع لنخيل ودور، إننا يجب أن نستعمل عقولنا وفكرنا قبل أن نرمي القول على عواهنه.

(٥) : ـ ص ١٨٩ ـ .

(٦) : النسخة المصورة ، ـ ص ٣٢٥ ـ .

(٧) : وعندما ضعفت أحوال ينبع ، انتقل إلى المدينة فاستقر فيها إلى الآن ، وهو من آل مغيرة القبيلة الطائية الكريمة .

(٨) : الفاغية : زهر الحنَّاءِ .

وللفاقة أثرها في حياة الفتى !!*

يُعَدُّ كتابُ «معجم البلدان» لياقوت بن عبد الله الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ، من أوفى الكتب المؤلفة - إن لم يكن أوفاها - في تحديد المواضع والأمكنة في البلاد الإسلامية مما كان معروفاً في عهد مؤلفه، ولا يقتصر الكتاب فيما يحويه من معلومات على ما خُصِّصَ له من التحديد والوصف الجغرافي، بل يضيف إلى ذالك أطْرافًا منوعةً من مختلف العلوم، من لغة وأدب وتاريخ، وقد يتبعها بأقاصيص وخرافات، إنه خزانة علم حافلة، فيها ما تهوى الأنفس وترتاح إليه.

وكنت قد اقتنيت نسخة من مطبوعة الخانجي المصرية من هذا الكتاب على نُدْرَةِ نُسَخِه، في أول الستين من القرن الماضي، نَقَدتُ عنها للشيخ عبدالفتاح فِدَا شيخ الكتبية بباب السلام بمكة ما يزيد على ثلاثة أمثال مرتبي الشهري، حين عُيِّنْتُ مدرساً بمدرسة ينبع سنة ١٣٥٤هـ[1]، فبعد أن مكثت في تلك البلدة فترة قصيرة من الزمن، أحِلُّ في ضيافة أميرها الكريم، أُقِيلَ الأميرُ فَنُقِلَ، وحلَّ محلَّهُ آخر، أَبْدَى الاحتياجَ إلى مسكني في دار الضيافة، فاضطررت للسكنى في المدرسة، وأن أتولَّى بنفسي القيامَ بشؤوني الخاصة، وأعقب ذالك تأخر صرف رواتب جميع الموظفين في هذه البلدة بضعة شهور.

ولقد كنت أَثناءَ إِقامتي في مكة السنوات الخمس من آخر سنة ١٣٤٨هـ إلى أول سنة ١٣٥٤هـ - قد وفرت مبلغاً من النقود، صرفت بعضه ثمناً لمجموعة من الكتب أعددتها للاستفادة بها بعد عودتي إلى

---

* المجلة العربية، العدد (١٦٦)، ذو القعدة ١٤١١هـ / أيار وحزيران ١٩٩١م.

البلدة، فبعثتها مع الأخ عبد الله بن محمد الزَّوْم[٢]، داخلَ صناديق حديدية، إلى بلدة شقراء، لتسلم أمانة لدى عبد الرحمن بن عَوْشَن، أحد وجهاء تلك المدينة، والمعروفين بالتقوى والصلاح والأمانة، وهذا آخر العهد بها[٣]، وقد بقي لديَّ ما يزيد على خمسين جنيهاً ذهباً، وكان به سَدَادٌ من عَوَزٍ في تلك الأيام الحرجة، إلا أنَّ ما يعتريني في تصرفاتي في كثير من الأحيان من سَذَاجة وغَفْلَةٍ أَفقدني ذالك المبلغَ أَحْوَجَ ما أكون إليه، وإيضاحُ السبب بالنسبة لي من (السَّوْءَات) التي يجب سترُها، لو كانت الوحيدة بين ما أبرزته أثناء ما جلوته في هذه السوانح، ولكنْ (أنا الغريقُ فما خَوْفي من البلل).

كنت أضع تلك النقود في حقيبةٍ أَضَعْتُ مفتاحَ قفلها حين انتقلت إلى المدرسة، وإذَنْ فلا ينبغي إبقاءُ النقود في حقيبة مفتوحة، فكيف تحفظ؟ فكْرَةُ دَفْنِ النقود أقربُ ما يخطر بالبال، منذ فكر الإنسان بالاحتفاظ بمقتنياته النفيسة، والأرض أَمينة، ولا تَنِمُّ عَمَّا أُخْفِيَ فيها، ولكن الحجرة التي أَسكنها مُبَلَّطَة، ومن الصعب حَفْرُ أَرْضِها، والدهليز الممتد منها إلى باب المدرسة الخارجي كذلك إلاَّ أن في مدخل الحجرة خارجها أَرْضاً هَشَّةً، بمعالجتها يمكن توسيعها وتعميقها بالقدر الذي يخفي كيس النقود الصغير، وهكذا كان، ويمضي أسبوع وآخر، والرِّجْلُ تتحسَّسُ عند الخروج من الغرفة، أثناءَ وجود التلاميذ في المدرسة، ثم يُعْقِبُ ذالك بعد خروجهم التَّثَبُّتُ، وفي إحدى المرَّات طُرِقَ بابُ المدرسة قبل العصر، في وقتٍ أكون مرتاحاً فيه في أغلب الأوقات، وعلى عَجَلٍ سَوَّيْتُ ما برز من تراب الحفرة، واستقبلت الزائر، ثم انْصَرَفَ، ولكنني في صبيحة اليوم الثاني حين وضَعتُ قدمي

فوق الموضع كما اعتدتُّ، أحسستُ فيه انخفاضاً وليونَةً! يا اللّه ما هذا؟! ليس في الحفرة سوى التراب! التراب! لقد كان ما كان، مما أثار الأشجان، وأعقب الأحزان!

ويمضي الشهر والشهران والثلاثة، وصَرْفُ الرواتب يتأخَّرُ، والحاجة تَشْتَدُّ مما اضطرني إلى التفكير في أنفسِ عِلْقٍ في الجعبة[٤]، وما هو سوى الكتاب الذي افتتحت الحديث بتعريفه، إنه أنيس وحدتي تلك الأيام، ومبعث سلوتي، أتراني أقدر على استرخاصه، والاستغناء عنه بهذه السهولة؟ ولكنها الفاقة التي لا ترحم، ومع صلتي ببعض الوجهاء من أهل هذه البلدة ومن غيرهم، إلاَّ أنَّ أكثرهم على شاكلتي من موظفي الدولة، ومن آخرين ممن لم تتعمق تلك الصلة بهم بحيث أَجْرُؤُ على مكاشفتهم بما أنا فيه من ضيق، ومن بين اؤلئك وَجِيهٌ ثَرِيٌّ، وهو الشيخ محمد بن حامد بن جبر، وكان يملك قرية في (ينبع النخل) تدعى (المبارك)[٥] تقع على مقربة من موقع (الْبُغَيْبِغَات)[٦] الموضع الأثري الذي أجرى مياهه الإمامُ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ثم أصبح وما بقربه في تلك الناحية من أملاكه، وأملاك أبنائه وأحفاده، الذين استقروا في هذه البلاد، وخالطوا أهلها، وامتزجوا بهم، منذ ظهور الإسلام إلى العهد الحاضر، بحيث أَصبحوا فَرْعاً كبيراً من فروع قبيلة جُهَيْنَةَ القُضَاعيَّة القحطانية[٧]، يعرف بـ(بني إبراهيم) نسبة لجدهم إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المُثَنَّى بن الحسن السِّبْطِ بن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ[٨].

كنت أُذاكِر الشيخ ابنَ جبرَ وأقرأُ عليه بعض المرات، من أخبار تلك البلاد في ذالك الكتاب، فيرتاح لما يسمع، ويستزيدني حين يدعوني

ونذهب إلى قريته يوم الجمعة، لنعاود الحديث والبحث عن المواضع الواردة فيه، وها أنا الآنَ قد بلغ بي الأمْرُ أن طلبت من (بواب المدرسة) أن يُحْضِرَ لي عشرة أقراصٍ لأُعدَّها لاشتداد الحاجة، فلم يأت إلا باثنين، ولم يكتف بالإلحاح بطلب الثمن الذي مَاطَلْتُهُ بدفعه مُضْطَرًّا إلى الغد، بل أسمعني كلمة تضاءلت نفسي حياء وخجلاً ـ بل ضَعَةً وهواناً ـ عند سماعها: (تاكل على حسابي بلاش!!) وياليته ممن يؤكل على حسابه! إنه (البواب)!!

لقد أَظهرتُ للشيخ ابن جبر ـ أثناء زيارته في بيته في وقت لم أَعْتَدْ زيارته فيه ـ أظهرتُ له رغبتي في بيع الكتاب، الذي حملت مجلداته الأربع معي، ولما علم بالثمن الذي دفعته فيه أَبْدَى عدم رغبته، ولعله أدرك جانباً من الحالة التي أنا فيها فعرض عليَّ ما يوازي ثلث ما اشتريته به، فقبلتُهُ مُرْغَماً، بل لقد عزمتُ على قبول أي مبلغ يعرضه، من يدري فالرجل على جانب من الشهامة والفضل، مما يحمل على حسن الظن به، وأنني لو كاشفته بحاجتي لما حملني على مالا أهوى، فإنني ـ وأَيْمِ الْحَقِّ ـ لم أكنْ بأضعف رغبة في كتابي، ولا بأقل احتياج إليه من ذالك العالم الذي كان يملك نسخة من كتاب «جمهرة اللغة» لمحمد بن الحسن ابن دريد، فأَلْجَأَتْه الفاقة إلى بيعها [٩]. وكتب عليها هذه الأبيات:

أَنِسْتُ بِهَا عِشْرِيْنَ عَاماً وَبِعْتُهَا ... وَقَدْ طَالَ وَجْدِيْ بَعْدَهَا وَحَنِيْنِي

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنَّني سَأَبِيْعُهَا ... وَلَوْ خَلَّدَتْنِيْ فِي السُّجُوْنِ دُيُوْنِي

وَلكِنْ لِعَجْزٍ وافْتِقَارٍ وصِبْيَةٍ ... صِغَارٍ عَلَيْهِمْ تَسْتَهِلُّ شُؤُونِي

فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَابِقَ عَبْرَةٍ ... مَقَالَةَ مَكْوِيِّ الْفُؤَادِ حَزِيْنِ:

وَقَدْ تُخْرِجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... كَرَائِمَ مِنْ رَبٍّ بِهِنَّ ضَنَيْنِ [١٠]

ولئن كان ذالك الرجلُ الذي اشترى «الجمهرة» شَهْمًا كريماً ـ إذْ أَعادَها لصاحبها ومعها الثمن ـ فإن صاحبي حين علم برغبتي بالاستفادة من الكتاب فترة قصيرة من الزمن ، سمح لي ببقائه عندي شَهْراً تمكنت في خلاله من نقل جميع ما يتعلق منه بتعريف مواضع جزيرة العرب ، وتحديد أَمكنتها ، وبذلك استطعتُ أَنْ أُلِمَّ إلماماً حَسَناً بجوانب من المعرفة ، لا تقف عنْدَ حَدٍّ ما قصدته من تلخيص ما في الكتاب ، بل شمل نواحيَ أُخْرَى تُعَدُّ ذخيرة طيبة في مختلف المعارف والعلوم .

لَمْ آسَ ـ فيما بعد ـ مما عانيته من شدة وبؤس وفقر تلك الأيام ، بعد أَنْ أَدْركتُ عُمقَ أَثره الحسن فيما استقبلته من حياتي ، بل لعلي لا أُجانف الصوابَ حين أُقرر بأَنه قد اتضح لي من جَرَّاءِ ما حدث ـ فيما بعد ـ أَنَّ ما يعتري الإنسانَ من المكاره والنكبات في هذه الحياة ـ وإِنْ كان شَراًّ كله ـ إلا أنَّ المصاب به قد لا يعدم فيه ما يُقَوِّمُ سَيْرَهُ نحو الوجهة التي أُعدَّ للاتجاه نحوها بما رُكِّبَ في طباعه وميوله ، واستعداده الفطري ، من خصائص ، ولعله بدون ما اعتراه من الشدائد يتعثر في سيره فيضلُّ قَصْدَهُ حين يحاول تَطَلُّبَ مالم يُهَيَّأْ لإدراكه ، ويتطلع لنيل ما ليس في مقدوره نَيْلُهُ ، من رغبات هذه الحياة ، ورسم طريق مستقبله فيها .

ما كانتْ مِهْنةُ نسخ الكتب ـ وتلخيصُها نوعٌ من نسخها ـ مِهْنَةَ ارتزاقٍ فحسب ، يوماً من الأيام ، بل كانت من أَنجع الوسائل لتوسيع مدارك المعرفة ، ولصقل الْمَلَكَات ، ولتنمية المواهب ، وسعةُ مجال التفصيل تحمل على الاكتفاء بالإشارة إلى علمين عبقريين في القمَّة بين أدباء العرب القدماء ، أبي عثمان الجاحظ ، وأبي حَيَّان التوحيدي ، فقد عرف عن الأول أنه كان يستأجر حوانيت الوراقين[11] ، فيبيت فيها

ليلاً ليستفيد بما يقرأه وينسخه مما تحويه كتبها، وجأَرَ الثاني في كتابه «مثالب الوزيرين» من قسوة معاملة الصاحب بن عباد بتكليفه فوق طاقته في نسخ ما يقدم له من مؤلفات، وقد بَرَزَ من ثمار علم هذين العالمين ما بَزَّا به غيرهما، إمْتَاعاً وغزارة، وسَدَاداً وحكمة[١٢].

وأمام القاريء إحدى أمهات كتب اللغة، إن لم يكن أوسعها كتاب «لسان العرب» لمحمد بن مكرم بن منظور المتوفى سنة ٧٧١هـ ـ إنه ثمرة من ثمار تعاطي حرفة النسخ، فقد كان مؤلفه يمارس هذه الحرفة الشريفة فينتقي من مطولات الكتب ما يختصره وينسخه، كما فعل بكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، وبكتاب «تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر، ثم عمد إلى نَوْعٍ آخر من أنواع النسخ الْمُهَذَّب المرتَّب، حيث اختار خمسة كتب من أمهات كتب اللغة هي: «تهذيب اللغة» لمحمد بن أحمد الأزهري المتوفى سنة ٣٧٠ هـ وكتاب «المحكم والمحيط الأعظم» لعلي بن إسماعيل بن سِيْدَهْ الأندلسي المتوفَّى سنة ٤٥٨هـ وكتاب «الصحاح» لإسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ٣٩٣هـ و«حواشي الصحاح» لعبد الله بن بَرِّي المتوفى سنة ٥٨٢هـ، وكتاب «النهاية في غريب الحديث» للمبارك بن محمد بن الأثير الشيباني المتوفى سنة ٦٠٦هـ ـ عمد إلى هذه الكتب فجمعها ونسخها مرتبة منسقة، وقدمها في هذا الكتاب الذي دعاه «لسان العرب»، وأفصح في مقدمته بأن عمله لا يَعْدُوَ مجرد الجمع ـ أى النسخ المنسَّق ـ فقال: (وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أُمتُّ بها، ولا وسيلة أتمسك بها، سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم فمن وقف فيه على صواب أو زلل فَعُهْدَتُهُ على المصنف الأول، وحَمْدُهُ وذَمُّهُ

لأصله الذي عليه الْمُعَوّل، لأني نقلت من كل أصلٍ مضمونَه، ولم أُبدل منه شيئاً، بل أدَّيْتُ الأمانة في نقل الأصول)، ومع ذالك فقد أسدى للغويِّين ـ بل لجميع المعنيين بمختلف الدراسات العربية ـ بهذا المؤلف الفخم الضخم أَكْرَمَ يَدٍ وأَنْدَاها .

ولقد نلْتُ من هذه المهنة ـ مهنة النسخ ـ على طَرَفِ الثُّمَامِ كما يقال[١٣]، ففي أول شبابي كانت أوائلُ التجربة حين كنت أنسخ الرسائل والنصائح، لِقَاء أَجْرٍ زَهيْدٍ، يدفعه لي الشيخ عبد الله النصيبي ـ إِمام مسجد تركي ـ وغيره[١٤]، وفي عنفوان الشباب كنت أُكْثِرُ من التردد على (مكتبة الحرم المكي) بحيث كان من يراني يخالني أَحَدَ موظفيها، وقَلَّ أنْ أُغادرها دونَ التزود منها بما نقلته، مما أرجع إِليه للاستفادة والاستزادة من المعرفة في مختلف فروعها، وقد يكون من بين ذالك مؤلَّفٌ كامل، فقد أُعْجِبْتُ بجودة مخطوطة من مخطوطات تلك المكتبة من كتاب«طبقات الأمم» لصاعد بن أحمد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢هـ كان أَحْضَرَ أصلها إِلى المشرق العالم الأندلسي المشهور علي ابن موسى بن محمد بن سعيد المغربي (٦١٠ / ٦٨٥هـ) فدفعني الإِعْجَابُ إِلى نسخ هذا الكتاب، بطريقة تُيَسِّرُ لي سهولةَ حَمْلِه في جيبي، فكان أن نسخته بحرف دقيق جدًّا بالخط الفارسي[١٥]، على ورق رقيق، والكتاب كما هو معروف صغير الحجم، قليل الورق، إلا أنه غزير الفائدة، ومن أَمْتَعِ ما أُلِّف في موضوعه ـ ممَّا اطلعت عليه ـ، سهولة عبارة، ووضوح أُسلوب، وقد طبع مراراً .

ولقد كنت أَنقل ما أختار من نوادر الكتب أثناء المطالعة نقلاً عَفْوِيًّا، كما اتفق بدون ترتيب، فيختلط ويتداخل، بطريقة تسبب لي قلة

الاستفادة منه وقت الحاجة إليه، ولم أعتدْ ترتيبه إلا بعد أن قُمْت بتلخيص «معجم البلدان» إذْ جُلُّ ما نقلت منه كان خاصًّا بموضوع واحد، ومرتباً على الحروف، أما ما عرض لي نقله مما هو خارج عن موضوع تحديد الأماكن كالتراجم، ورقائق الأشعار، وطرائف الأخبار، فقد أفْرَدتُ كُلاًّ على حدَةٍ، فأدركتُ بعملي هذا أن التنظيم من أقوى وسائل النجاح في جميع الأعمال، ثم أَدركتُ أَنَّ من تلك الوسائل أيضاً عَدَمَ تشتيتِ الذهن في التفكير لإِدراك حقائق العلوم، وأنَّ ذالك من أهم عوامل التبريز في أيِّ جانب من جوانب إِدراك تلك الحقائق.

لقد أصبح هذا الملخصُ الذي وقع في اثنتي عشرة كراسة مدرسية أمْتَعَ ما أَرجع إليه عندما أرغب المطالعة، في وقت لم يكنْ بين يدي من الكتب ما أهوى مطالعته سوى كتب الدراسة، ومطالعتها مُمِلَّةٌ، ونسخة من كتاب «البداية والنهاية» ـ في التاريخ ـ لابن كثير، استعرتها من الشيخ إبراهيم بن مسفر آل بِشْرٍ، لأقرأ على الأمير حمود وحاشيته فيها، وقد سافر الأمير ، فاستعاد الشيخُ كتابه، ومن يدري فقد يكون العلامة ابن خلدون صائب النظرة حين قرر (أن كثرة التأليف مُعيْقٌ لطلب العلم) وأوضح هذا بما أورده من الأمثلة لدارسي النحو في عهده[١٦].

ولكن مما لا شك فيه أنَّ كثيرا من المؤلفات في مختلف أنواع العلوم مما يصدق عليه قول زهير:

مَا أرَانَا نَقُولُ إلاَّ مُعَارًا ... أوْ مُعَاداً مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُوْرَا

ولن تَحْملَنَا الثقةُ وحسنُ الظن بمتقدمي علمائنا بأَنْ نسبغ على جميعهم من سلامة القصد وسمو الغاية في جميع مؤلفاتهم ما يُبْرِزُهَا

في الدرجة المتوخاة:

لَوْلا التَّنافُسُ فِي الدُّنْيَا لَما وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّناظُرِ لا «المُغْني» ولا «العُمَدُ» (١٧)
يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَداً ... وَبِالَّذِيْ حَلَّلُوْهُ زَادَتِ الْعُقَدُ

هُما عامِلانِ أَثَّرَا في انصرافي عما شغلت به طيلةَ أيامَ الدراسة، وعن اتجاهي للاهتمام بجانب من جوانب المعرفة، إلى ناحية أخرى قد تَبْدُو بعيدةَ الصلة به، من حيث الميل للدراسات الجغرافية والتاريخية العميقة الصلة بهذه البلاد، وما كان لي مِنْ يَدٍ في ذالك الانصراف، ولا اختيار في ذالك الميل في هذا الاتجاه ناشيء عن طول رَوِيَّةٍ، أو عمق تفكير، إنَّهما العوز الشديد، ثم ما كان من أثر هذا الملخص من ذالك الكتاب، الذي استحوذ محتواه على تفكيري، بل طغى عليه طغياناً سَدَّ أمامِي ما عداه من الاتجاهات، وكانت المعلومات التي تضمنها – على ضآلتها – الركيزةَ الأولى لما أحسست ملاءمته لرغباتي وميولي الفكرية، في مرحلة من مراحل حياتي، انتابتني فيها نوبَةٌ حادَّةٌ من القلق النفسي، عَصَفَتْ بما أعددتُّهُ فيما مضى من تلك المراحل، للمغامرة به فيما سأستقبله منها، مما أوضحت بواعثه وآثارَهُ في إحدى السوانح التي قد تمرُّ بك – أو تمرُّ بها إنْ أَردتَّ.

الحواشي:

(١): عينت مدرساً براتب قدره ثلاث مئة وثلاثون قرشًا أميريًا (أي ثلاثون ريالاً) والقرش الأميري اسم بلا مسمى.

(٢): رجل مثقف فاضل من أهل شقراء، آخر عهدي به كان موظَّفاً في المعارف قبل ثلاثين عاماً في قسم التفتيش بعد أن تنقل في وظائف التعليم.

(٣): لقد توفي – رحمه الله – وكان مألفاً لكثير من الناس، يأتمنونه على حاجاتهم، ومنهم الشيخ

محمد بن عبد الله بن بليهد الذي بعث إليه كتباً ليحفظها ، ولا أستبعد أن الرجل في آخر حياته صار لا يميز بين ما أودع عنده فيدفع ما لهذا لذاك ـ فالله يغفر له ـ .

(٤): العِلْقُ ـ بكسر العين وسكون اللام ـ النفيس من كل شيء، لأن القلب يتعلق به، والجُعْبَة هنا الخزانة.

(٥): عن المبارك وغيره من قرى ينبع النخل يحسن الرجوع إلى كتاب «بلاد ينبع» لكاتب هذه السطور.

(٦): عن البغيبغات وعن أصل تملك علي ـ رضي الله عنه ـ لها ولغيرها في ينبع ارجع إلى ص ٢٢ وما بعدها من الكتاب المذكور .

(٧): انظر عن نسب جهينة « العرب» س١ و س٢ في كثير من الصفحات .

(٨): للأسرة العلوية في هذه البلاد تاريخ حافل جدير بأن يفرد في التأليف .

(٩): تنسب القصة إلى أبي علي القالي صاحب «الأمالي» في كثير من الكتب ومنها «المزهر» للسيوطي، ولكنني اطلعت في بعضها على نسبتها للفالي ـ بالفاء ـ لا بالقاف ـ وأن نسبتها للقالي نشأ عن التصحيف.

(١٠): هذا البيت مضمن وقائله قديم .

(١١): انظر « معجم الأدباء » ١٦ / ٧٥ .

(١٢): قال في « معجم الأدباء » ١٣/١٥ : (وَقَصَدْتُ ابْنَ عَبَّاد بأمَلٍ فَسِيحٍ، وصَدْرٍ رَحِيب، فَقَدَّمَ إليَّ رَسَائِلَهُ في ثَلاثِينَ مُجَلَّدَةً عَلَى أنْ أنْسَخَهَا لَهُ، فَقُلْتُ : نَسْخُ مِثْله يَأتي عَلَى العُمُرِ والبَصَرِ، والوِرَاقَةُ كانت مَوْجُودةً ببغداد ـ فَأخَذَ في نَفْسِه عَلَيَّ من ذالك ، وما فُزْتُ بطَائِلٍ من جهته. فقال: بَلَغَني ذالك ، فقلتُ له : ولو كان شَيْئاً يَرْتَفِعُ من اليَد بمُدَّة قَريبة لكنتُ لا أتَعَطَّلُ وأتَوَقَّرُ عليه، ولو قَرَّرَ معي أجْرَةَ مثله لكنتُ أصْبِرُ عليه، فَليس لِمنْ وَقَعَ في شَرِّ الشُّبَّاكِ وعين الهَلاكِ إلاَّ الصَّبْرُ).

(١٣): أردتُ قلَّة ما نلت يقال : تناوله على طرف الثُّمَام، لأن الثمام نبت قصير، فهو لذالك هين التناول ، وما يحمل على أطرافه الضعيفة ضعيف.

(١٤): انظر إلى سانحة (مسجد الشيخ).

(١٥): كان خطي حين دخلت (المعهد) آخر عام ١٣٤٨هـ حسناً ، ولكنني استفدت من تعليم الأستاذ الشيخ محمد حلمي سعيد خطاط المعارف المدرس في المعهد، وهو من أبرز الخطاطين في أم القرى هو والشيخ سليمان الغزاوي في مدرسة الفلاح، والخطاط الدهان ـ فأتقنت على يد شيخي حلمي الخط بأنواعه المختلفة من رقعة ونسخ وثلث وفارسي وديواني وكوفي ، بحيث كنت أقوم بتدريسه أثناء اشتغالي بالتدريس فيما بعد عند غياب مدرسه.

(١٦): ونص كلامه في المقدمة ص: ١٠٢١ ـ طبعة بيروت سنة ١٩٨٢م ـ الفصل الرابع والثلاثون في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل ـ واسترسل في إيضاح هذا.

(١٧): المقصود كتاب «المغني» لعبد الجبار المعتزلي، وهو مطبوع في أجزاء عِدَّة، و«عمد الأدلة» لمحمد ابن عبد الرحمن البصري ، والكتابان في علم الكلام .

في (طيبة) قبل ستة وخمسين عاماً *

واغتنمت حلول عطلة الدراسة في صيف سنة ١٣٥٥هـ [١٩٣٥م] لزيارة المدينة المنورة، وما كان السفر تلك الأيام إليها مُيَسَّراً ، فالطرق هي، لا يستطيع سلوكها سوى الماشي أو راكب الإبل والدواب الأخرى، والمسافة تقارب مسيرة ستة أيام بسيرها، وهي لا تتوفر إلاَّ أثناء الحج لنقل الحجاج إلى ينبع ومنها، ولكن حدث في ذالك العام أنْ بعثت الحكومة سيارات تنقل الحبوب التي أُرسلت من مصر بالبواخر من (الجِرَاية) المخصصة من أوقاف الحرمين لأهل المدينة ، وكانت الحكومة المصرية قد أوقفت إرسالها ما يقرب من عشر سنوات منذ حادثة حج سنة ١٣٤٤هـ بحيث خزنت حتى عبث بها السوس، الذي انتشر منها أثناء وضعها في مخازن (الجمرك) في ينبع، إلى ما يجاورها من الحوانيت والمنازل.

لقد استغرق وقت السير من ينبع إلى المدينة يومين كاملين، إذْ حدث خلل في السيارة، وكادت تنقلب بمن فيها مرات عدة، والرفقة أربعة، السائق ومعاونه في مقدمة السيارة ، وصاحبنا و(حِزَام) أحد الإخوة من أبناء البادية ، الذي لم يكن طوال الرحلة بحالة انسجام مع (الحضريِّ) تسمح بذكر ما هو أكثر من اسمه ، وما كان للسوس الذي انتشر في أجسامنا من أكياس الحب التي نَعْلُوْهَا وقت السير ، وننام فوقها في الليل من أثر ، لولا استقراره وتطلبه لمغابن أجسامنا ومراقِّها، مما دفع (حزاماً) أن يبدو بين الرفقة كما ولدته أمه ، لولا (غترته) التي أدارها حول حَقْوِهِ !! ومع أننا نشترك بما يقدمه السائق من طعام ، له

* المجلة العربية ، العدد (١٦٧) ، ذو الحجة ١٤١١هـ / حزيران وتموز ١٩٩١م .

ولصاحبه أطايبه، إلاَّ أن ما نقاسيه من التعب من شدة سير السيارة، وعدم اختيار سائقها أسهل الطرق، كان يدفعنا إلى القناعة باليسير مما يقدم، وقد نقنع عن هذا اليسير ، لما يبدو على نفسه من فظاظة في طبعه ومن جفاء وكزازة، مما حمل صاحبنا إلى أن ينسل من الرفقة أثناء وقوف السيارة لخلل طاريء فيها بعد أن بَدَتْ له معالم المدينة، وما كانت بالقرب منها إلاَّ بمرأى العين، ولكن (جال الرَّكِيَّة ولا جال ابن غنام)!!

وفي (أوتيل المدني) ـ كَذا الاسم ينطق ويكتب ـ كان النزول ، وهو مبنى مربع الشكل، يحوي عَدَداً من الحجر في أَسْفله، والغرف في الدور الثاني منه، وفي داخله (ميضأة) متصلة بما يغذي المدينة من ماء، ويظهر أنَه أُعِدَّ ـ أولَ ما أُعِدَّ ـ ليكون (رِبَاطاً) فرأى المشرف عليه استغلاله بتأجيره على من يرغب السكنى فيه من ميسوري الحال، وكان يقع أمام باب المسجد النبوي، المعروف بـ(الباب الْمَجيدي) لا يفصل بينهما سوى شارع ضيِّق، وكان نظيفاً ـ أو هكذا بدا لصاحبنا ـ والأجرة مناسبة، والاهتداء إليه ووجود حجرة خالية فيه بواسطة صاحب مكتبة تقع بقربه، حيث يوجد بضع مكتبات في تلك الجهة، وأرض الحجرة مفروشة ببساط، وهي خالية من كل شيء، ومن أهم الشروط أن لا توقد النار داخلها، وما كانت صالحةً إِذْ لا منافذ فيها سوى كوة صغيرة فوق الباب .

كان الوقت قبيل الغروب، ولا بد من تهيئة المكان بما لابُدَّ منه كالإبريق والقِدْر والإناء والموقد (الدافور) فتم شراء كل ذالك من دكان مجاور للمنزل، وحين اتجهت إلى المسجد لصلاة المغرب قبل أذانه سلكت طريقاً يمتد بي إِلى باب السلام، ففوجئت بالمرور بعدد من المطاعم في

تلك الجهة، وكنت قد توقعت بأنني سأحتاج إلى ما اشتريت من الأواني، وقد احتجت إليها أخيراً.

لم أُغادر المسجد إلاَّ بعد صلاة العشاء مع ما كنت أُحِسُّ به من الجوع الذي حاولت دفع غائلته بما (قعبته) من الماء الذي لم يحل طعمه بينه وبين الإكثار من شربه، وهو طعم قد لا يتذوقه من ألف شرب الماء المقطَّر مما تعودت شربه في بلدة ينبع، وعرجت على أحد تلك المطاعم، وكان يقدم الرءوس المشوية، فطلبت نِصْفَ رأس خروف بتوابعه، مما أتيت عليه جميعه، مضيفاً من الشاهي شرب (بَرَّاد أبو أربعة)[1] ولم أصل المنزل إلاَّ وقد أخذ مني التعب كُلَّ مَأْخَذٍ، فتمددت على البساط، بعد أن أغلقت الحجرة، واستغرقت في النوم، ولم ينقذني من كابوس حلم مزعج سوى ألم في بطني بدأ خفيفاً، وما لبث في الازدياد حتى توقعت أنني لا أصبح على قيد الحياة، لقد أُصِبْت بمغص في الأَمْعَاء، أعقبه إسهال وقَيْءٌ بلَغَا من الشدة ما توهمت معها أنهما صارا يفرزان قِطَعاً من جسمي، ثم حدث لي ارتخاء وعجز عن الحركة، فاستسلمت لما حدث، وكنت قد شغلت عن باب الحجرة بعد عودتي من قضاء الحاجة فتركته مفتوحاً، فلم أشعرْ إلاَّ بِرِجْلٍ تركلني: قُمْ! قُمْ! وكان الوقت ظهراً، وهذا جاري في الحجرة، يبدو أنه أحسَّ ببعض ما جرى لي ليلاً ثم رأى الباب على مصراعيه، فلما شاهدني بتلك الحالة أراد التثبتَ أَحَيٌّ أم ميت!! وما لبث بعد مشاهدتي أن سارع فأحضر لي حبَّات من الليمون، وتمراتٍ قال: إنها من عجوة المدينة، نصحني بالاستشفاء بها، فكانت على قلتها مع أكواب من عصير الليمون هو ما تغذيت به إلى ضحى اليوم الثاني حين قدم لي جاري البخاري حِسَاءً من الأرز حَافًا،

تناولت قليلاً منه ، فاكتفيت به وبعصير الليمون بقية اليوم .

استعدتُ صحتي وراحتي، وصرت أقوم بنفسي بإعداد ما أحتاج إليه من طعام، مكتفياً باليسير منه مدة إقامتي في هذه البلدة الطيبة، التي زادت على الشهر، باستثناء الأيام الخمسة الأخيرة، وكنت أتردد بين مكتبتي عارف حكمة والمحمودية في أول النهار ، وبين حلقات المدرسين في المسجد بين صلاتي الظهر والعصر ، وصلاتي المغرب والعشاء، وفي ضحوات الجمع أذهب لزيارة بعض الأمكنة الأثرية كقباء وشهداء أحد والبقيع والعقيق، واقتنيت كتاب «وفاء الوفا» فكنت أحاول ـ على ضوء تحديده لبعض الأمكنة ـ الاهتداء إلى مواقعها .

وكانت (مكتبة شيخ الإسلام)[٢] وبهذا تعرف (مكتبة عارف حكمة) من أحفل المكتبات بالمخطوطات النادرة، على ما أبقته أيدي العبث منها ، وكان يتولى إدارتها في ذالك الوقت الشيخ إبراهيم حمدي الخربوطي ، وهو ذو إلمام بالأدب ، وأطراف العلوم ، وخطه حسن، وقام بنسخ نوادر مخطوطات المكتبة لدائرة المعارف في حيدر آباد الدكن في الهند، وللشيخ محمد حسين نصيف، ولبعض العلماء من المغرب ، بل كان ذا صلة ببعض الجهات التي ترغب في اقتناء بعض المخطوطات في الهند وفي المغرب، كالشيخ الكتاني الذي تحوي بقية مكتبته في الرباط المضمومة إلى الخزانة العامة مخطوطات مدنية ، وقد كان ما ينفق على (مكتبة شيخ الإسلام) يصل إلى المكتبة من ريع عقارات أوقفت عليها البلاد التركية، ولانقطاع العلاقات السياسية من قبل الحكومة التركية الذي استمر سنوات توقف إرسال ريع الأوقاف مما اضطر موظفي المكتبة لاكتساب معيشتهم إلى البحث عن

وسائل أخرى، مما أثر في الحفاظ على مقتنيات المكتبة وفقدان كثير من نفائسها ، وينسب بعضهم ذالك إلى الوالي التركي فخري باشا الذي استصفى جل مخطوطاتها، وذهب بها معه إلى تركيا حين استولت الحكومة السعودية على المدينة عام ١٣٤٣هـ ، وما أرى هذا صحيحاً؛ لأنني اطلعت على مخطوطات نادرة في المكتبة بعد ذالك بزمن ، وليس من المعقول أن تترك عند اختيار النوادر، وقد عبرت عن تأثري لما حدث من عدم صيانة لمخطوطات مكتبات المدينة، حين زرتها المرة الثانية بعد سنتين من زيارتي الأولى، وطلبت من الدولة أن تستنقذ البقية منها في مقال نشرته جريدة «المدينة» بعد أن حذفت منه ما يتعلق ببعض المشرفين على تلك المكتبات.

ومما جاء فيه: (زُرت في يوم ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٦٨هـ مكتبة شيخ الإسلام، تلك المكتبة التي تُعَدُّ من أنفس المكتبات العربية ، وكانت الساعة قد بلغت الثالثة ، وكان معي أحد أجزاء كتاب «المستجاد» الذي قام بطبعه المجمع العلمي العربي بدمشق . وقد أحضرته لكي أقابله على نسخة خطية في المكتبة ، فلما دخلت دارها وطلبت الكتاب بدهني حضرة أمينها بقوله: إنه سيذهب إلى المحكمة الشرعية، ولذلك فهو لا يستطيع أن يحضر لي الكتاب المطلوب، وبعد مداولة طويلة قال : إنَّ ذالك الكتاب قد نقل إلى (اسطنبول) ثم ألقى علي محاضرة طويلة، عن حالة تأخر رواتب موظفي المكتبة واضطرار بعضهم إلى الاشتغال بأعمال أخرى بدافع العوز والحاجة.

وفي اليوم نفسه زرت مكتبة السلطان محمود فوجدتها مغلقة، فتحريت وقت فتحها ، فلما دخلتها وجدت في داخلها أناساً يصلون

صلاة الظهر، فسألت أحدهم عن (فهرس المكتبة) فقال لي: إن النظر في الكتب ممنوع بسبب وفاة ناظرها وعدم تعيين من يخلفه.

لقد كذبت ما حدثني به أحد أدباء أهل المغرب من أن خاله الشيخ عبد الحي الكتاني اشترى من المدينة حينما جاء إلى الحجاز منذ بضع عشرة سنة، اشترى من الكتب الخطية ما ملأ ثلاثة صناديق كبيرة، كذبت هذا الخبر مستبعداً أن يُقْدِمَ أحد على حرمان هذه البلدة الطيبة من الانتفاع بكتبها القيمة النفيسة.

ولكن من يدري! أنا لا أستبعد أن البقية القليلة من الكتب التي في خزائن المدينة سيكون مآلها مآل غيرها في التسرب إلى الخارج). انتهى.

وكان من أندر ما شاهدته في الزيارة الأولى في مكتبة عارف حكمة مصورات جغرافية (خرائط) كبيرة لجزيرة العرب، كانت معلقة على جدران حجرة واسعة، مجاورة لحجرة المطالعة، وتبدو ندرة تلك المصورات في قدم رسمها؛ إِذْ كتبت فيها أسماء قبائل كانت منتشرة في أماكنها في القرن العاشر كقبيلة الظفير، مع إتقان تلك المصورات ودقة تفصيلها لأسماء المواضع والقبائل.

وما كنت في تلك الأيام ذا اهتمام بنوع خاص من المخطوطات، بل أكتفي بمطالعة ما عرض لي اسمه منها، وكان من بينها مؤلف عن (القاضي الفاضل) في مجلد ضخم، و«المنجم في المعجم» للسيوطي في تراجم شيوخه، اطلع عليه الزَّبِيدي صاحب «تاج العروس»، وجزء من كتاب «المستجاد من فعلات الأجواد» للمحسن التنوخي، وكتاب «الروض المعطار في خبر الأقطار» للحِمْيَرِي، وكتاب «الجبال والمياه

والأمكنة» للزمخشري، ونسختان من كتاب «النبات» للأصمعي، و«درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة للجزيري»[٣]، وغيرها من الكتب التي لا تحضرني أسماؤها .

وقد واظبت على التردد على المكتبة، فكنت من أول الداخلين وآخر الخارجين منها، وكان ممن يكثر زيارتها والمداومة على المطالعة فيها الشيخ محمود شويل، فلم أفقده في يوم من الأيام مع قلة من يرتادها تلك الأيام، وكان موقع المكتبة مجاوراً للمسجد في قبلته، (أما المكتبة المحمودية) فتقع مجاورة له أيضاً في الجانب الغربي منه جوار باب السلام ، وكانت في جانب من مدرسة واسعة ، لها غرف ذوات نوافذ مطلة على المسجد، في إحدى تلك الغرف وضعت الكتب ، ويتولى إدارتها تلك الأيام الشيخ محمد قُمْقُمْجِي، ولعله كان يقوم بكل عمل يتعلق بها فلم أرَ فيها سواه، وهو لا يحضر لفتحها إلاَّ قرب وقت صلاة الظهر، ولا يمكث بعد الصلاة طويلاً، وليس للمكتبة فهرس ـ كما لمكتبة شيخ الإسلام ـ ولهذا فلم أحظ بمطالعة أي مخطوط من مخطوطاتها التي سمَّى لي الشيخ القمقمجي بعضها سوى كتاب «إعراب القرآن» للسمين، ولم تُغْرِني الأسماء التي كان يحفظها الشيخ بالاطلاع عليها، ووجدت ـ فيما عرفت عن المكتبة الأولى ـ ما حملني على الاكتفاء بالتردد عليها .

إن طالب العلم الذي لم يختطَّ لسيره في مستقبل حياته منهجاً يُبْلِغُهُ ما يتوخاه من غاية، هو بين الكتب التي يهوى مطالعتها كالجائع النهم، الذي يرى أمامه أنواعاً كثيرة من الطعام الطيب، فيحاول التهامها كلها، دون أن يعرف ما يلائم طبيعته منها، وهكذا أنا من خلال محاولتي

الاستفادة من نوادر تلك المخطوطات، فقد أُشْغِلُ نفسي بنقل ترجمة عالم من هذا الكتاب، وباستجادة قصيدة في هذا الديوان فأنقلها أيضاً، وبموضوعات ذات صلة بعلم أرغب الاستزادة منه، فقد نقلت بحثاً مطولاً في وصف طريق الحج المارِّ بالعقبة، ومنها على الساحل حتى بلاد ينبع فبدر فالمدينة من كتاب «درر الفوائد المنظمة» وهو أوفى كتاب شمل الحديث عن هذا الطريق بتوسع.

كما نقلت كتاب «النبات» للأصمعي في ورقات، وحاولت تلخيص كتاب الزمخشري في المواضع فرأيت صاحب «معجم البلدان» قد نقل جُلَّ ما فيه، ونقلت من «الروض المعطار» تعريف بعض المواضع، وما علمت أنه يعول على أبي عُبيد البكري في تحديد مواضع الجزيرة في كتابيه «معجم ما استعجم» و«المسالك والممالك» إلاَّ بآخره .

ومهما يكن من عدم انتظام مطالعتي تلك الأيام، وفي نقل ما يَعِنُّ لي نقله من بعض الكتب ، كما حدث لي قبل ذالك في (مكتبة الحرم المكي) فقد أَلْمَمْتُ بما لا بُدَّ لطالب العلم من معرفته عن المخطوطات على وجه العموم، بل أضفتُ إلى ذالك تصوراً عامًا عن أشهر المؤلفات الجغرافية ، وأحسست برغبة قوية تشدني دائماً إلى المطالعة، والرغبة فيها من أهم وسائل استزادة المعرفة .

وكانت لي جولات بين حلقات المدرسين في الحرم النبوي الشريف ، وكان من أشرهم الشيخ عبد الرؤوف عبد الباقي ـ وهو مصري الأصل ـ وكان يُعَدُّ له كرسي في وسط المسجد ويلقي درس وعظ عام، تحيط به حلقات من المستمعين، وقد توجه إليه بعض الأسئلة فيجيب عليها ، ومن ظريف ما عرفت عن هذا الشيخ ـ فيما بعد ـ أنه جرى خلاف بينه

وبين عالم آخر كان يدرس في المسجد يدعى الشيخ صالح التونسي* في (أيهما أفضل البدء بأكل الفاكهة قبل الطعام أو بعده) وأَيَّدَ كل واحد من الشيخين رأيه في رسالة ألفها بما أورد من الأدلة الشرعية.

وجلست إلى حلقة مدرس يدعى الشيخ أحمد المصطفى شنقيطي ـ أو موريتاني ـ وكان يشرح أحاديث في «صحيح البخاري» وطلابه لا يتجاوزون العشرة، وكان موضوع الدرس حديث (أُمِرْنَا يا رسول الله بالصلاة عليك فكيف نقول؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» ـ الحديث ـ وقد أوفى الشيخ شرحه ولكنه أضاف وإن قال: اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا ومولانا محمد كما صليت على سيدنا ومولانا إبراهيم فهو أحسن، فما كان مني إلاَّ أَنْ رفعت يدي فالتفت إليَّ قائلاً: ماذا لديك أيها الأخ؟ فقلت: أليس الأحسن عدم مجاوزة النص الوارد؟ فما كان من الشيخ إلا أن أطبق الكتاب الذي كان مفتوحاً بين يديه، واسترسل في الحديث ـ بانفعال وتأثر ـ عن الاختلاف بين العلماء في مسألة (هل الأدب مقدم على الامتثال أم العكس؟) وأن الصواب الأول، كما جرى في خبر صلح الحديبية، حين طلب سهيل بن عَمْرٍو مسح كلمة (رسول الله) من كتاب الصلح فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بمسحها وكان هو الذي يتولى كتابة عهد الصلح، فقال: والله لا أمحوها! فحاولت أن ألفت نظر الشيخ إلى أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يُقِرَّ عليًّا، بل أخذ الكتاب ومسح الكلمة، ولكن الشيخ دخل في متاهات من البحث، واندفع في

* والد الفريق محمد الطيب التونسي وإخوانه. (ش).

الحديث كالسيل المنهمر ـ مما دفع بعض المارة إلى الوقوف على الحلقة، فانسللت من بينهم .

وللعالم السلفي الشيخ محمد الطيب الأنصاري(٤)* حلقة صغيرة من الطلبة وغيرهم بعد صلاة المغرب في مؤخرة المسجد (السرحة) وكان الوقت صيفاً ، فكنت أمضي أكثره بالاستماع إلى درسه في أحاديث الأحكام ، وكان بِفصاحتهِ وحسنِ أسلوبه في شرح الأحاديث، وتمكُّنه من اللغة يستهوي السامع، وعند انتهاء درسه يحادث بعض من حضره فعرفني، وفي إِحدى المرات قال لي ـ وقد جرى ذكر النفاق ـ: لعل الله عافى بلادكم من المنافقين؟ فأجبته : وأين نحن من حديث حُذَيفة رضي الله عنه؟ فقال : صدقت ! صدقت ! وكان على جانب كبير من التواضع وسماحة النفس، مع غزارة علم وصلاح وتقوى ـ .

ومن القرَّاء في المسجد النبوي الشيخ حسن الشاعر**، وكان يدرس التجويد بجوار (دكة الأغاوات) خلف الحجرة النبوية .

ما كان تجوالي بين حلقات التدريس في المسجد الشريف إلا بدافع حب الاستطلاع، فأنا لا أزال ـ كما يقال ـ كـ (الطير الْمُبَرْقَع)(٥) لا أبصر ما يحيط بي، فضلاً من أن يتضح لي النهج القويم في مسير حياتي في مستقبلها فأسلكه .

وفي ضحوة أحد الأيام ـ وكنت منهمكاً في المطالعة والنقل في (مكتبة شيخ الإسلام) ـ إذا بشرطي يدخل مكان المطالعة، ويتجه إلى الشيخ محمود شويل الجالس في صدرها، وإذا بالشيخ يشير إليَّ،

---

* والد الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري . (ش) .

** والد الأستاذ علي بن حسن الشاعر . (ش) .

والشـرطي يتـجـه نحـوي، ثم يأمـرني بالخـروج مـعـه، فلم أجـد بُدًّا من إرجاع الكتاب الذي كنت أطالعه، والسير معه لأجد شرطياً آخر واقفاً بالباب، وأمراني بالتوجه إلى محل سكني ، ثـم بجمع الأشيـاء التي لي في الحجرة في كيس كنت أعددته لذالك، تأهباً للعودة إلى ينبع ، فتم ذالك بدون ترتيب ، ودون مـراعـاة الحـفـاظ على مـا يخـشى تلفـه، كالكتب والأوراق التي كنت أنقل فيها ما أستطرفه ، فما كان موقف صاحبيَّ مُرِيْحاً بالنسبة لي، لقد أمراني بحمل ذالك الكيس (الخيشة) وأن أسير أمامهما، فامتثلت حتى بلغت (حارة المناخة) وهناك عند باب بيت كبير قال أحدهما لشرطي واقف عند مدخل البـاب: هذا الرجل المطلوب! فقـال: كلمـوا الضـابط فلان، وأجلسـاني بجـوار صاحبهما حتى خرج من البيت ضابط سألني عن اسمي ، ثم أمرني بحمل (خيشتي) ودخول البيت والجلوس في جانب من حوشه الواسع، وشغل عني فترة من الوقت، ولعله يُعِدُّ كتابة شيء ما، فقد شاهدتُ أحد الشرطيين خارجاً من حجرة على مقربة مني ثم ما لبث أن رأيت الضـابط يخرج من تلك الحجرة وبيده ورقة يناولها ذالك الشـرطي، ويأمره بأن يدعو (هوشان)[٦] ويقبل رجل قصير ، متهلل الوجه، قد نَسَف رُدْنَيْ ثوبه على كتفيه، فيشير الضابط إلي قائلاً : هذا الرجل المطلوب فيسرع (هوشان) إلي قبل استكماله سماع كلام الضابط، ولعله تأثر من إجلاسي بذالك المكان، فسلم علي قائلاً (الِّي ما يعرفك ما يثَمِّنك) تفضل! تفضل! فأحمل كيسي ولكنه يسرع إلى أخذه مني، ويتقدمني صاعداً في درج طويل، يوصل إلى مجلس مستطيل واسع، يتصدره مكتب كبير جلس فوق كرسيه رجل سارَّهُ هوشان

بكلام لم أسمعه ، فإذا به يسارع لاستقبالي، والأخذ بيدي، وإجلاسي على كرسي مجاور له، ولم تتكرر كلمات الترحيب كالعادة، فقد انطلق الرجل يتكلم ـ كالجمل الهادر ـ عاتباً وموبِّخاً : كيف أقدم هذه البلاد دون أن يعلم بي أحد ، ثم أنزل في (الرباط) مثل الدرويش المجهول . . وإذا حملك التواضع على أن لا تعرف منزلتك فما كان ينبغي أن تجهل ما لعارفيك من حقوق أيسرها المرور والسلام ! كلموا (ابن الشيخ) فيقف أمامه شاب وضيء الوجه سمح المحيا ، تتدلى غدائرُ شعر رأسه إلى منكبيه، تحمل يمناه سيفًا .

ـ البيت الذي كان يسكنه ابن رمان هيئوه للشيخ، ورتبوا فيه ما يلزم وخصصوا سيارة يلازم سواقها الشيخ في جميع الأوقات التي يحتاج فيها السيارة !

هكذا استقبلني الأمير الشهم عبد العزيز بن إبراهيم[٧] لأول مرة ، وبدون سابق معرفة، وقد يكون أخوه الأمير حمود حين كان أميراً في ينبع أخبره بشيء من أمري، ولقد حاولت ـ بَعْدَ أن اعتذرت عما وقع مني من تقصير ـ أن أبقى قريباً من المكتبات حيث كنت ، فأنا هناك بغاية الراحة، غير مترفع عما يوجه لي من فضل أو يسبغ علي من إكرام، وأوضحت أنني بدأت في التأهب للعودة إلى عملي، وأريد اغتنام بقية الوقت لإشباع نهمي بمطالعة ما أرغب مطالعته، ولكن الأمير أصرَّ على ما قرر، مضيفاً بأن السيارة توصلك أى مكان تريد حتى تبلغك مقر عملك ، وهكذا كان، فقد كنت أذهب في الصباح إلى المكتبة وبعد صلاة الظهر في الحرم أعود إلى البيت ، لكي أتناول طعام الغداء مع الأمير وضيوفه، وقبيل المغرب أرافقه في سيارته إلى

بستان له في (العوالي) ولا تكون العودة إلا الساعة الرابعة ليلاً، حيث الوقت كان صيفاً، وكان الأمير ، رحمه الله ـ على ما كان يعرف عنه من شِدَّةٍ وغلظة ـ ذا نفس سمحة، وخلق رضي، في مجالسه الخاصة، وبين من ترتفع بينه وبينهم الكلفة.

لم تزد المدة على الأيام الخمسة، وفي آخر ليلة منها أبديت عزمي على السفر مستأذناً، بعد أن أسمعته نظماً كنت لفقته، محاولا أن أعبر عما غمرني من لطفه وكرمه:

اوُلِئكَ أَهْلُ الْفَضْلِ مَنْ جَدُّهُمْ (فَضْلُ) بِمَدْحِ الْكِرَامِ الْغُرِّ يُسْتَعْذَبُ الْقَوْلُ

ـ لم يبق في الذاكرة سوى هذا البيت، وقد أدركت من كثرة ما يلهج الأمير بأخبار قبيلته (آل فضل) رغبته بتأليف كتاب عنهم، وكان هذا من الحوافز التي دفعتني ـ فيما بعد ـ لمحاولة جمع ما أستطيع جمعه من معلومات تتعلق بأخبار تلك القبيلة ، وذكر فروعها، وانتشارها في قرى نجد، بعد أن هاجرت من الجزيرة، ووجدت في كثير من المؤلفات التاريخية منذ القرن السابع فما بعده مادةً وفيرة عنها، ككتاب «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العُمَري، و«صبح الأعشى» للقلقشندي، وهو يعول على كتاب ابن فضل الله، و«تاريخ ابن خلدون»، ومن مؤلفات الصفدي «أعوان العصر في تراجم أعيان العصر» وغيرها من المؤلفات، وقد نقلت قدراً مما تمكنت من نقله من تلك الكتب، وأذكر أن الأمير إبراهيم بن الأمير عبد العزيز بن إبراهيم كتب إلي من أَبْهَا وأنا في بيروت، يستحثني لِنشر ما جمعته عن تلك القبيلة، فاعتذرت بأنه لا يزال بحالة لا تصلح للنشر من عدم الترتيب واستكمال المعلومات، وأنه لا رواج للمؤلفات التي تنحصر في موضوع خاصٍّ ، ومثلت له

بتأليفي أول كتاب عن «تاريخ مدينة الرياض» ومع أنني لم أطبع منه سوى ثلاثة آلاف نسخة فإن أكثرها بقي فترة طويلة من الزمن .

ثم زارني أحد الإخوة الأردنيين تلك الأيام، وكان يُعدُّ دراسة عن الإمارة الطائية، هو الأستاذ مصطفى الحياري (الدكتور) الذي ألف كتاب «الإمارة الطائية في بلاد الشام» فرغب الاطلاع على ما جمعت من آل فضل الطائيين، فأطلعته عليه، وفي أحد أيام الجمعة أخذته معي من المكتب، وأنا عائد إلى البيت، وكان مجموعة من أوراق، وجزازات، في ظرف كبير، فمررت بحلاق في أول شارع الحوت اعتدتُّ إصلاح شعر رأسي عنده، فوضعت الظرف على كرسي، وبعد انتهاء إصلاح الشعر قمت ذاهباً إلى بيتي، ولم أذكر الظرف إلاَّ في اليوم الثاني، وكان والذي يليه يومي عطلة، ولما مررت على الحلاق صبيحة الإثنين قال لي: إنه ظن أنه من الأوراق المهملة، فرماه في المكان المُعَدِّ لها ! .

الحواشي :

(١) : (بَرَّاد أبو أربعة) يقصد به الإبريق الذي يحوي أربعة فناجين من الشاهي ، وكان أصحاب المقاهي في الحجاز لا يقدمون الشاهي بفناجين مفردة بل بأباريق تسع مقدار ما يُطْلَب فيقال: أبو أربعة، أبو ستة ... وهكذا ، والبرَّاد يعنون به الإبريق الذي يفرغ فيه الماء الحار ويقدم للشارب .

(٢) : شيخ الإسلام هو أحمد عارف حكمة (١٢٠٠/١٢٧٥هـ) عالم تركي ينتمي إلى أصل عربي كريم، وقد ألف السيد محمود الألوسي كتاباً في ترجمته هو «شهي النعم في ترجمة عارف الحكم» وحققه الدكتور محمد عيد الخطراوي ـ «العرب» ١٤٢/٢١ ـ . وقد ولي مشيخة الإسلام في استنبول واشتهر بخزانة كتبه التي أنشئت في المدينة وكانت بما تحويه من نوادر المخطوطات من أنفس المكتبات لا في المدينة وحدها بل في السلطنة العثمانية في عهد إنشائها ، كما وصفها الأستاذ محمد كرد علي في مجلة «المقتبس» حين زارها في آخر العهد التركي .

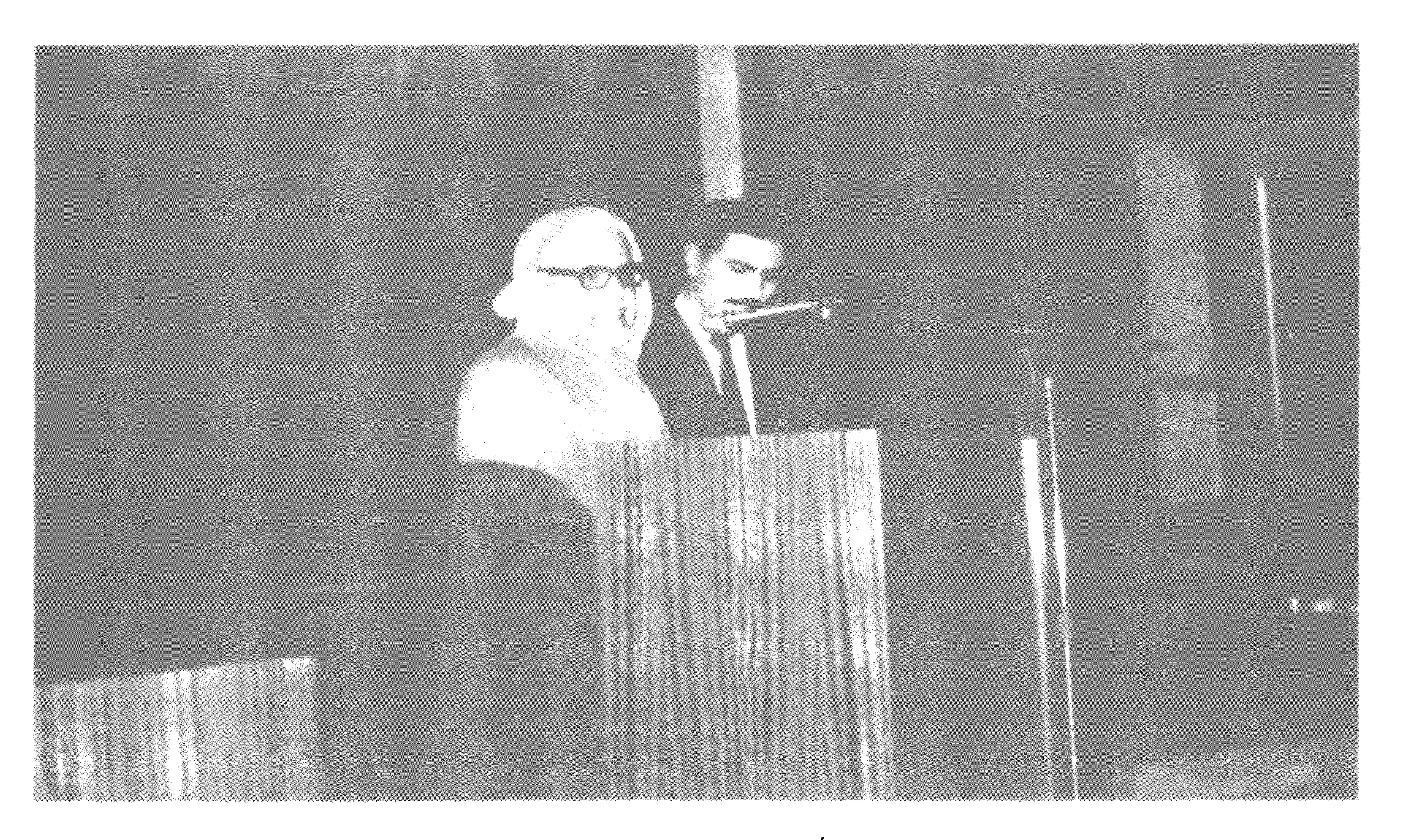
(٣) : وقد نشرت تلك المخطوطات ما عدا الكتاب المتعلق بترجمة «القاضي الفاضل» و «المنجم في المعجم».

(٤) : محمد الطيب الأنصاري (١٢٦٧/١٣٦٣هـ) أوفاه ترجمة ابن أخته الأستاذ عبد القدوس الأنصاري في مجلة «المنهل» ـ جمادى الأولى ١٣٦٥هـ في المجلد السادس منها في حلقات.

(٥) : (الطير المبرقع) هو الصقر حين يصطاد ويعد للتعليم يلبس برقعاً من جلد يستر عينيه فلا يبصر ما حوله، ولكنه يسمع صوت معلمه وهو يدعوه باسمه، ومن أمثال أهل نجد (فلان كالطير المبرقع) لا يقصدون ذمًّا وإنما يريدون أنه محدود الإدراك.

(٦) : هوشان كان صاحب ضيافة الأمير ابن إبراهيم وهو من أهل مدينة الرس.

(٧) : عبد العزيز بن إبراهيم من أسرة عرفت بإخلاصها للأسرة السعودية الكريمة، فقد تولى جده عبد الرحمن بن إبراهيم إمارة بريدة سنة ١٢٧٧هـ ، وولى الملك عبد العزيز الأمير عبد العزيز إمارة بلاد عسير وبواديها سنة ١٣٤١هـ ، ثم إمارة الطائف سنة ١٣٤٣هـ ، ثم نقل إلى إمارة المدينة المنورة عام ١٣٤٧هـ ثم نقل في عام ١٣٥٥هـ لعضوية مجلس الوكلاء، ومرض بعد ذالك مرضاً لازمه أشهراً وسافر إلى مصر للعلاج وتوفى فيها عام ١٣٦٥هـ .



الشيخ ـ رحمه الله ـ في تركيا أثناء مشاركته جمعية الصداقة والثقافة التركية ـ العربية السعودية

أخرجت من المكتبة قسْراً*

وهذه سانحة دفعت المناسبة إلى تقديمها على سوانح ما قبلها من زمن، فقد أشرت في السانحة السابقة إلى أنني أُخْرِجت من المكتبة بواسطة الشرطة، وقد تكررت الحادثة مرة أخرى بعد ربع قرن من الزمان، وقبل ما يقرب من ربع قرن من الوقت الذي أتحدث فيه الآن، كان ذالك في شهر ربيع سنة ١٣٨٦هـ ـ أيّار ١٩٦٦م ـ وكنت قد نقلت أولادي إلى بيروت، وأحضرت من المملكة سيارة لاستعمالها في تنقلاتهم، ومع أن سائقها على جانب من التحلي بالصدق، إلا أنني أُرْهِقْتُ بكثرة ما ينفق أو يطلب، لإصلاح ما يحدث فيها من خلل، أو يدفعه غرامة لمخالفة لقواعد السير، أو يدّعِيه ثمناً للبنزين، فعزمت على التخلص منها بإرجاعها إلى الرياض، وفي دمشق إنسان يدعى الطُّريقي، ممن اعتاد التردد بين المدينتين، ولكِن الصديق الأستاذ فهد المارق[1] ـ رحمه الله ـ حين قابلته قادمًا من المملكة، سفَّهَ رأيي قائلاً: ها أنا الآن قد أحضرت سيارة مثل سيارتك من الكويت، لكي أذهب بها إلى تركية، لبيعها هناك، وسأربح فيها ربحًا مُغْرِيًا، فأثمان السيارات مرتفعة في تلك البلاد، فلنذهب معاً بسيارتينا ـ وكان موظفاً في (السفارة السعودية في أنقرة).

ها نحن الآن في مدينة أنقرة، والسيارتان في أحد معارض السيارات، والرجل منهمك في عمله، فلماذا لا أذهب إلى مدينة اصطنبول، أزخر مدينة في العالم بالمكتبات، وأحفلها بالمخطوطات العربية، واستفادتي بالمطالعة والتزود من المعرفة أولى وأهم من انشغالي بشأن السيارة، ولكن

* المجلة العربية، العدد (١٦٨)، محرم ١٤١٢هـ / تموز وآب ١٩٩١م.

كيف أتصل بك ؟ هذا ما قاله صاحبي، وكنت قد زرت مدينة اصطنبول مرتين، أولاهما مع الأخوين الأستاذين عبد الكريم بن جهيمان وإبراهيم شَبُّوح [من تونس]، والأخرى وحدي، وعرفت عن تلك المدينة ما يحتاج زائرها مثلي إلى معرفته، وأهم ذالك المكتبات، والفنادق. فأجبته: سأسكن في (كُنْتْ هوتيل KUNT HOTEL) بقرب (شارع الاستقلال) في الجانب الأوروبي من المدينة، لا في (كِنْتْ هوتيل KENT HOTEL) الواقع في (ميدان الحرية) في الجانب الآسيوي، وأ رجو ملاحظة التفريق بين الفندقين.

وكان النزل الأول ملائماً من حيث الأجرة، بخلاف الثاني الذي يُعَدُّ من فنادق الدرجة الأولى.

صرت أتردد على المكتبات وأُمْضي فيها جُلَّ الوقت، وخاصة (دار الكتب السليمانية) التي ضُمَّتْ إليها مكتبات أخرى كثيرة، فأحضر في الصباح مبكراً، وأبقى إلى الظهيرة، وقد أتناول أكلاً خفيفاً خارج المكتبة ثم أعود حتى الساعة الثالثة.

كان صاحبي سألني : متى أعود ؟ فأجبته ـ مازحًا ـ: بعد يومين، أو أسبوعين أو شهرين ! !

لم يمض من الأسبوع الثاني أكثر من نصفه، وقد قاربت الساعة الواحدة ظهرا، وأنا منهمك بمطالعة كتاب «إعراب مشكل القرآن» لأبي الفتح ابن جني، وكان الأخ الأستاذ أحمد راتب النفاخ، في دمشق ـ قد رغب مني أن أخبره بما أطلع عليه من المؤلفات المتعلقة بإعراب القرآن الكريم، إذ كان يُعِدُّ دراسة في هذا الموضوع لنيل درجة (الدكتوراه) وذكر لي كتاب ابن جني بين تلك الكتب.

ما شعرت إلا برجل يقف أمامي ويأخذ الكتاب من يدي، ولما بدا له استغرابي، وتأثري من فعله قدم لي بطاقة الاستعارة التي وقعتها، وأمسك بيدي، فقمت معه إلى باب الخروج، وإذا بِشُرطِيَّيْنِ واقفين بالباب، لم أفهم من كلامهما سوى (الجاسر) فعرفت أنني المقصود، ولكنني أشرت إلى الجالسين في غرفة المطالعة، ونطقت بكلمتي (ترجمان عربي) وكانت الأنظار قد اتجهت إليَّ عند مشاهدة الشرطيَّيْنِ قد أحاطا بي، وكانت الجملة الأولى من كلامهما ـ على ما عربها أحد الموجودين في المكتبة ـ : يجب أن تغادر البلاد الآن!! ولما استوضحت عن السبب كان الجواب : السفارة السعودية طلبت ذالك ! وهنا أحسست بزوال كثير مما اعتراني من الفزع والضيق، فأجبت : لا أستطيع السفر حتى تُهَيِّءَ لي السفارة وسيلته، وسأذهب إلى أنقرة لذالك، وأردت العودة لإكمال مطالعة الكتاب، ولكن أحدهما أمسكني وأشار بأن أسير أمامه نحو الباب الخارجي، وكنت قد أخبرتهما بمكان سكناي، فأوقفا سيارة أجرة أوصلتنا إليه، وأمراني بدفع الأجرة، وأن أجمع كتبي وملابسي في الحقيبة، وأن أحاسب الفندق، وذهبا إلى موقف السيارات التي تتجه إلى أنقرة، وبعد اتفاقي مع أحد أصحابها، وكان يحسن اللغة العربية سألني عن ملازمة الشرطينِ لي، فأخبرته، وطلبت منه أن يتعهد لهما بإيصالي إلى أنقرة، وقدمت له جواز السفر بعد أن وضع حقيبتي داخل السيارة، فأمراه بالذهاب معهما إلى (مركز الشرطة) فحاول التنصل من أمري، ولكنهما أرغماه، وقد ظَنَّ أنني لم أُخبره بالحقيقة، ولكنه بعد أن عاد وحده حاول طمأنتي بإظهار سوء تصرفهما معي، فالحالة لا تستلزم ذالك، ومادام الطلب من السفارة فقد تعهد للشرطة بإيصالي إليها.

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ـ بعد سير ما يقرب من أربع عشرة ساعة فيما بين اصطنبول وأنقرة ـ كانت حقيبتي تُنْزَلُ عند باب (السفارة السعودية) من حافلة يتقدم صاحبها للحارس بجواز سفري، ويجري بين الاثنين كلام باللغة التركية، يحمل بعده الحارس الحقيبة، ويأخذ الجواز، ويشير لي بالجلوس في حجرة صغيرة قرب الباب، ولم يمض طويل وقتٍ حتى يدخلني الحارس مكتبَ صاحبي (أبي محمد) وكان خالياً ولكن صوته كان مرتفعاً في مكان قريب، ويكون اللقاء، ثم تكون المفاجأة:

ـ كيف تقول بأنك لن تبقى في اصطنبول سوى يومين، وقد مضى لك الآن أكثر من أسبوع، وأنك ستسكن في (كنت أوتيل) فلم تسكن فيه؟

ـ والآن يا (أبا محمد) أرحني وأخبرني لماذا أُحْضِرْتُ إليك بواسطة الشرطة؟

ـ حضرت معي إلى تركيا، وأهلك يعرفون ذالك، وذهبت إلى اصطنبول فلم تعد في الوقت المحدد لعودتك، ولم تسكن في مكان معروف، ولا يعرف عنك أصحاب (المكتبة السليمانية) أعظم المكتبات هناك شيئاً، فتوقعت أنك رجعت إلى بيروت، ولكن السفارة اتصلت بأهلك فلم يعرفوا عنك شيئاً، فاضطررنا للاتصال بالشرطة للبحث عنك خشية أن يكون أصابك مكروه، وأنا المسؤول عنك!!

والمفاجأة الأخرى: يدخل الأخ عبد الحميد السعداوي ـ السكرتير في السفارة ـ على الأستاذ فهد المارك (أبي محمد) وكان فهد في تلك الأيام قائماً بأعمال السفير حسين فطاني، ويقدم الصحف التركية[٢]، مشيراً إلى بعض ما نشر فيها من الأخبار، ومنها نبأ (اغتيال كامل مروة

الصحفي اللبناني صاحب جريدة «الحياة»، وكان ذالك في ٢٦ المحرم سنة ١٣٨٦هـ (١٦ مايو سنة ١٩٦٦م)[٣]، ويلفت (السكرتير) صاحبه إلى خبر أن فلانا ـ صاحبنا ـ قدم إلى تركيا في ظروف غامضة، وأخبر سفارته أنه سينزل في (كنت أوتيل) وأنه سيتردد على المكتبة السليمانية، ولكن سفارته لدى البحث عنه لم تجد في الفندق ولا في المكتبة خبراً عنه، فاستعانت بالأمن العام، الذي اتصل بـ (الانتربول)[٤] للمساعدة في العثور على الرجل، وتتكتم السفارة السعودية في بيان الغاية التي حضر الرجل من لبنان لأجلها!!

ويثور (أبو محمد) ويطلب من عبد الحميد بن بشير السعداوي، كتابة تكذيب لما نشرته تلك الصحف، إلاَّ أَنَّ صاحبنا أقنعهما بأن إثارة الموضوع مرة أخرى مما يزيد الصحف اهتماماً به. (احفر البير يكثر ورده، قال: بل ادفن البير يَقِلُّ وِرْدُهُ).

ـ الله يهديك رِحْت (تَدَرْبِي)[٥] رأسك في شوارع اصطنبول، لو قابلك أحد الزُّعْرَان من حُمران البطون توهم أن جيوب معطفك مملؤة دولارات، لم تتحمل صفعة منه على وجهك، أو ضربة (بلطة) على قفاك، وماذا يقول أهلك: آخر العهد به سافر مع فهد المارق! توكل على الله حجزنا لك لتسافر في طائرة الغد!!

وهكذا (رضيت من الغنيمة بالإياب).

وبعد مرور شهرين كاملين أتلقى كتاباً من (أبي محمد): لم يتيسر للسيارة بيع. وقد سلمناها للملحق العسكري السوري.. المتوجه هذا اليوم إلى دمشق.. وكان جواب هذا الأخ الكريم لمن اتصل به: كانت

بحاجة إلى إصلاح، وهي في الورشة، وقد أصلحت ويمكن تسلمها، إلا أن صاحب الورشة طلب أجرة كان أسهل من دفعها محاولة التخلص من تلك السيارة بأية وسيلة، وهكذا كان!.

الحواشي:

(١) : كان الصديق الكريم الشيخ فهد المارق ـ رحمه الله ـ كره اسم (المارق) فغيره بـ(المارك) ولكنني أظهرت له أن العرب دائماً يختارون لأبنائهم من الأسماء ما فيه قوة وشراسة، فهم يسمون (شيطان) و (حرباً) و (مرة)، وتسمية (مارق) لعله مأخوذ من المروق الذي يقصد به التخلص والفرار من كل سوء، فاستحسن هذا وأسف لتغييره، إذ هو الاسم الصحيح لوالده.

(٢) : منها : (يني صباح) و (جمهورية) و (تركمان).

(٣) : أشار الأستاذ مصطفى أمين في سلسلة مقالاته التي بعنوان (فكرة) في جريدة «الشرق الأوسط» وفي «الأخبار» القاهرية تاريخ ٢٤ شوال ١٤١٠هـ إلى سبب هذا الاغتيال.

(٤) : البوليس الدولي.

(٥) : أي تذهب إلى غير غاية (يدربي : يدحرج)، وللكلمة من الفصحى أصل : دربي فلان فلاناً، يدربيه درباه، إذا ألقاه. قال الراجز :

اعْلَوَّطا عَمْرًا لِيُشْبِيَاهُ   فِي كُلِّ سُوءٍ ويُدَرْبِيَاهُ

يشبياه ويدربياه : يلقياه فيما يكره ـ مادة (درب) من «تاج العروس».

مع تلاميذي في المدرسة*

ليس من السهل نجاح المدرس في عمله، إذا لم يسبق له مِرَانٌ قائم على أساسِ إدراك أهم قواعد التربية عن تجربة، أو دراسة، وهذا ما لم يتهيَّأْ لي قبل أنْ أُزاول مهنة التدريس في مدرسة ينبع عام ١٣٥٤هـ، فدراستي في (قسم التخصص في القضاء الشرعي) في (المعهد) لم تكن تختلف كثيراً عن طريقة تَلَقِّي العلم في حلقات المشايخ، المتوارثة منذ مئات السنين، حيث يحفظ الطالب الدرس عن ظهر قلب، في أي علم من العلوم، ثم يسمعه شيخه مع زملائه، فيتولَّى الشيخ شرحه من كتاب مخصص لذالك، مما حفظه بكثرة التكرار، مردداً عباراته بدون زيادة أو نقصان، حتى في نصوص ما يوجه من أسئلة أو تمارين ليدرك مدى فهم كل طالب، أو قدر تحصيله، فتلك الأسئلة والتمارين لا تخرج عما حوته كتب الشروح والحواشي القديمة.

ومع الاختلاف اليسير في طرق مدرسي المعهد إلاَّ أَنَّ تأَثُّري بمشايخ القسم الذي أدرس فيه كان أقوى لعمق الصلة بهم، فَجُلُّهُمْ ممن عرفتهم قبل الدراسة، ثم قويت تلك المعرفة أثناءها، كالشيخ محمد بن علي الْبَيْز ـ من شقْراء ـ والشيخ محمد بن عثمان الشاوي ـ من البُكَيْرِيَّة ـ والشيخ عبد الله بن مُطلق بن فُهَيد ـ من عُنَيزة ـ وهاؤلاء هم الذين كانوا يقومون بتدريس العلوم الأساسية التي كان الطلاب مطالبين بتحصيلها، والنجاح فيها في الاختبارات، وطريقتهم في التدريس هي الطريقة الموروثة المألوفة.

ويضاف إلى أؤلئك أساتذة آخرون، ممن تخرجوا في مدارس تسير

* المجلة العربية، العدد (١٦٩)، صفر ١٤١٢هـ / آب وأيلول ١٩٩١م .

على أساليب التربية وطرقها الحديثة، كالشيخ إبراهيم الشُّوْرَى ـ مدير المعهد ـ والأستاذ السيد أحمد محمد العربي، والشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة، والسيد حسن محمد الكتبي، فالأولون تخرجوا في مصر، والرابع بُعِثَ بعد إكمال دراسته في (مدرسة الفلاح) بمكة إلى الهند فازداد تحصيلاً.

ويُعَدُّ الأستاذ الشُّوْرَى ـ رحمه الله ـ ممن تخصص في علم التربية، وله أبحاث في هذا العلم نشر جوانبَ منها في جريدة «أم القرى» في عشر الستين من القرن الماضي بعنوان (تربية الأبناء ورقيّ الأمة) إلا أَنَّ تأثيره في طلاب القسم الخاص من المعهد كان محدوداً، فعمله الإداري غالباً ما يحمله على عدم الانسجام، وقلة الاختلاط بالطلاب، ومحاولة إبراز ما لمكانته من منزلة تستلزم الهيبة والاحترام.

أما الأستاذ العربي ـ أمده الله بالصحة والعافية ـ فقد كان أستاذَ (النحو)، وكان يدرسه من كتاب «تهذيب التوضيح»[1]، وهو وإِنْ سار في تدريس هذا العلم على طريقة فيها تبسيط له، ومحاولة لتوجيه طلابه إلى تقريبهم من فهمه، بمختلف الوسائل التي تقربهم من أستاذهم، بما يعرضه من وسائل الإيضاح، وكثرة التمارين، إلا أنَّ جفاف ذالك العلم ـ على وجه العموم ـ مما أضفى على طبع الأستاذ في نظر بعض تلاميذه مظهراً من الاحترام والتقدير ليس في مقدور كثير منهم تجاوزه بإدراك الغاية منه.

ويقوم الشيخ ابن عبد الرزاق ـ تغمده الله برحمته ـ بتدريس (علم الحديث) وكان المقرر على الطلاب فيه كتاب «بلوغ المرام، من أحاديث الأحكام» ومن شرحه «سبل السلام»[2]، وهذا الشيخ قد يكون أوسع أساتذة القسم انفتاحًا على مختلف وسائل الثقافة الحديثة، من صِحَافَة

ومؤلفات في مختلف العلوم والفنون، ولهذا كان أقربَهُمْ إلى نفوس طلابه، يضاف إلى هذا أنه يَبْدُوْ بينهم مُتَبَذِّلاً، غيرَ متظاهر بما ألفوه، واعتادوا مشاهدته من الأساتذة الآخرين من الظهور بمظهر الاحتشام، والترفع في الأوقات التي تستدعى المباسطة في الأحاديث، وإِبداء الأُنس والانشراح، ثم إنه أثناء التدريس يبذل ما استطاع، محاولاً استجلاء مافي فكر الطالب حين يبدي أيَّ اعتراضٍ أو تساؤل فيما يعرض له من كلام الشيخ، ولا يجبهه بالردِّ، أوبما يبدو فيه انتقاص له وعدم اهتمام بسؤاله، ومن هنا فقد كان لسلوكه هذا مع طلابه أَحْسَنُ الأثر توجيها وخُلُقاً وسلوكًا في نفوس كثير منهم، ومن بينهم صاحبنا الذي ما كان يكتفي بما يتلقاه عليه من دروس في المعهد، بل كان يحرص على حضور درسه في المسجد الحرام في أحد الصحيحين، بقراءة الشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع[3] أحد تلاميذه المبرزين في علم الحديث، وكان صاحبنا يتردد على الشيخ في (حجرة الساعات) المطلة على الكعبة المشرفة في المسجد الحرام، حيث كان قد أَعَدَّ فيها طائفة من كتبه التي ما كان يَضِنُّ بمطالعتها على المستفيدين منها، ومن بينها مخطوطات ومصورات ومطبوعات نادرة.

وللسيد الكتبي صلة حسنة بطلابه، فهو لا يكبر أوسطَهم سِنًّا، وقد أدرك أن من بينهم من يحاول (قرزمة)[4] النظم أو الكتابة في الصحف فيجد من أستاذه ما يحفزه على تنمية تلك المحاولة.

وإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ من طلاب أوشكوا على اجتياز مراحل الدراسة العالية، ومن بينهم من لا يزال بحاجة إلى معرفة علم (الرسم) ـ الخط

والإملاء ـ ممن كان يتلقى دروسه على المشايخ بطريقة هي أشبه بالتلقين كمكفوفي البصر من بعض مدرسيهم، فكان لا بد من تخصيص حصص إضافية لدرسي الخط والإملاء لمن يرغب من أولئك الطلاب، وأُسْنِدَ ذالك إلى الأستاذ محمد حلمي خطاط المعارف، وأبرز ثلاثة خطاطين عرفوا في مكة في ذالك العهد، والآخران سليمان غزّاوي والدهان، والأستاذ حلمي فَنَّانٌ بطبعه، رقيق الشعور، خفيف الروح، حسن الهندام، وما هكذا أكثر طلاب (قسم التخصص)، وكان يعلم الخط في كراريس تسمى «السلاسل الذهبية» كاتبها الخطاط المصري الشهير نجيب هواويني ـ خطاط جلالة الملك ـ ولكل كراسة من تلك السلسلة غلاف، قد رسم فوقه صورتا فتاتين صغيرتين جميلتين، تحمل إحداهما لوحة كتب فوقها بالخط الفارسي المتقن : (الخط الجميل حلْيَةُ الكاتب) وتحمل الأخرى لوحة كتب فوقها : (هذه السلاسل أَثْمَنُ من الجواهر) وقد أرشد الأستاذ طلابه حين وزعها عليهم إلى طريقة استعمال تلك الكراسات، بعد أن أوصاهم بالمحافظة على نظافتها، وعدم الكتابة فوقها قبل أن يطلع على القدر المحدد لمحاكاة ما عينه من سطورها التي تحوي كل صفحة منها سطرين مخصصين لحصتين من حصص الدراسة الأسبوعية، ولكن الأستاذ فوجيء في اليوم المحدد لعرض نماذج التمارين من طلابه بما لم يكن يتوقعه من أكثرهم، كان أيسرُهُ تشويهَ غلافِ الكراسة بطمس كل ما هو مكتوب أو مرسوم حولها، ومن ذا الذي يجرؤ على محاولة إنكار هذا؟! فليذهب (الفن) ودعاته حيث شاءوا، وليكظم الأستاذ غَيْظَهُ على مَضَضٍ، ولكنه لم يَعْدِم بين أولئك من طلابه من قدم له كراسته أنظفَ ما تكون، وقد

غَلَّفَ ظاهرها بورق صيانة لها، ولم يدنِّسْ صفحة من صفحاتها، فكان أن حظي من تقديره وحسن توجيهه ما قوى بينهما الصلة التي عادت على التلميذ بخير العوائد، لا من حيث الاستفادة والتحصيل من درس الأستاذ فحسب بل بالتأثر بأبرز ما كان يتحلَّى به من الأخلاق كالطيبة والتواضع، إنه لا يحمل في نفسه حقْداً لمن أساء إليه، ولا يترفع عمن دونه مهما كانت منزلته، ويتخذ من حِصَّة دَرْسِه وَقْتاً أشبهَ ما يكون مُخَصَّصًا للراحة، لحسن معاملته لطلابه فقويت صلتهم به، بحيث سقطت بينه وبينهم الكلفة، فبادلوه حُبًّا بحب، واحتراماً باحترام، بصرف النظر عن مكانته العلمية.

تلك أبرز ملامح صفات سلوك المدرسين مع طلابهم في عهد دراستي، كما بقيت منطبعة في ذهني، وهي الملامح التي لا شَكَّ أنها ستكون ذات أثر في النهج الذي سأسير عليه مع تلاميذي، حين أُقدمت على أَمْرٍ لم أتخذ له أهبته، ورُشِّحْتُ لعمل لا أُحْسِنُ منه أكثر من آثار تلك الملامح، وقد يخونني تَرَسُّمُهَا أشدَّ ما أكون بحاجة إليها، وقد أجدُ من بينها من المنافذ ما يسلك بي طريقاً مأموناً أَبلغ بسلوكه الغاية المتوخاة.

ها أنا في صبيحة أول يوم أزور فيه المدرسة، ألتقي بعدد من الإخوة العاملين فيها، من مدير ومدرسين وغيرهم، ولم أُبْدِ اهتماماً بما استقبلتُ به من فتور، إِذْ لم أَبْدُ بمظهر يحمل على الاحتفاء بهذا الزائر الجديد، ولم يتجاوز الحديث ترديد كلماتٍ من العادة ترديدها في مثل هذه المناسبة، ولم أستغربْ عدم استقرار المدير في المكان، فقد دخل وقت الدراسة، وبدأ الطلاب يتهافتون في فصولهم، ومن بينهم من يدفعه فضوله عند مروره بباب حجرة الأساتذة من الوقوف، وتركيز نظراته

في هذا الأستاذ (الجديد) أو هكذا يتخيل هو، ويدخل المدير وقد خلت الحجرة إلا من هذا المخاطب قائلاً: طلاب السنة السادسة تأخر مدرسهم. إنه يطلب مني أن أَحُلَّ محله، وهكذا كان، واؤلئك هم أعلى طلاب المدرسة، ولا يتجاوز عددهم العشرة، وهم في غرفة من غرف الدور الثاني، ودرسهم كان المقرر للمحفوظات، ومادته قصيدة أبي العلاء المعري:

أَلا فِي سَبِيْلِ الْمَجْدِ مَا أَنَا فَاعِلُ ؟! عَفَافٌ وَإِقْدَامٌ وَحَزْمٌ وَنَائِلُ

وكان عليهم الحفظ أولاً، وعلى المدرس بعد تَثَبُّتِهِ من ذالك شرح ما حفظوا، هكذا كانت الطريقة المتبعة ولا يَدَ لي في استقامتها أو اعْوجاجها، ولم أُعْنَ تلك الساعة بمن حفظ أو لم يحفظ منهم، بل رأيتُ أَن عليَّ أَن أَشْرَع في شرحها، فتناولت من أحدهم الكتاب المقرر في المحفوظات، وهو «مجموعة النظم والنثر» المقرر في المدارس المصرية، وبدأت بشرح القصيدة بيتاً بيتاً، غير مكترث بما يبدو من بعض الطلاب من انصراف عن الاستماع، ومن تهامس بينهم، وحركات لا تخلو من الاستثارة لمن (خَفّ مع الريح) وكأنَّ الأمر لا يعنيني حتى بلغت:

يَهُمُّ اللَّيَالِي بَعْضُ مَا أَنَا مُضْمِرٌ وَيُثْقِلُ رَضْوَى دُوْنَ مَا أَنَا حَامِلُ

فكان مما قلت: رَضْوَى جبلٌ قريب من المدينة، سهلٌ، ترقاه الإبل، ولعلي اعتمدت بقولي هذا على ما قرأت في أحد شروح «مقامات الحريري» وعلى ما في «القاموس المحيط»(٥)، فما كان من الطلاب إلاَّ أَن قالوا بصوت واحد: لا. لا. ياأستاذ: هاهو جبل رَضْوَى أمامك ـ وكانت نافذة الغرفة مفتوحة ـ وليس قريبًا من المدينة، ولا تستطيع الإبلُ أن ترقى أعلاه، ويظهر أنَّ الطلاب ارتاحُوا إِذْ أَدْرَكوا أَنَّ مدرسهم قد لا يمتاز عليهم بعلمه، ولهذا أَمِنُوا من أَنْ يُبْدِيَ من الاستعلاء والترفع

عليهم ما اعتادوا أن يعاملوا به من بعض مدرسيهم، أما أنا فلم أشعر بأية غضاضة، أو امتعاض مما ظهر لتلاميذي من قصوري في أول لقاء معهم، بل سررت بما جرى وشكرت الطلاب، وحمدتُ لهم موقفهم، وبينت لهم أن أكثر الذين يُحَدِّدُوْنَ المواضعَ الواردةَ في الأخبار والأشعار المتعلقة بجزيرة العرب جُلُّهُمْ ـ إن لم يكن كُلُّهُمْ ـ من غير أهل الجزيرة، وممن يعتمد فيما يكتب عنها على النقل دون مشاهدة أو تَثَبُّتٍ، ولهذا وقع في تحديدهم تلك المواضع كثير من الخطإ، وعلى أبناء البلاد أنفسهم أن يُعْنَوْا بالدراسات الجغرافية والتاريخية المتصلة ببلادهم.

وأحسست بعد ذالك مما اتضح لي من حالة الطلاب أنهم ارتاحوا من موقفي معهم، وأنني بذالك أصبحت أقربَ إلى نفوسهم، وأقوى صلة بهم مما تصوروني عليه ساعة وقفت بينهم لأول مرة، وقَوَّى هذا الشعور أنه ما ابتدأ وقت الدرس الثاني حتى فُوْجئت بأحدهم يسرع إِلَيَّ في حجرة الأساتذة ليدعوني لأقوم به لغياب مدرسه، وكان مجالُ هذا الدرس أرحبَ للمباسطة في الحديث، إنه درس إنشاء وقد أُعِدَّ موضوعه، وكان عن (نعمة الله في تسخير السفن للسير في البحار لمنفعة الناس) وما عليَّ إلاَّ تصحيح ما كتبه الطلاب الذي لم أر التركيز فيه في التصحيح على لُبِّ الموضوع، بل اكتفيت بتصحيح الأَخْطاء النحوية واللغوية، بعد أن أناقش كل طالب بما حدث منها فيما كتب، فيدرك عن قناعةٍ ما وقع منه من خطإٍ، وتحاشيت وضع درجاتٍ لما صححته، كما سار على ذالك من سبقني في التدريس، مُعَلِّلاً هذا بأنني لم أُمَيِّزْ بَعْدُ ما يتصف به كل طالب من الفهم والتحصيل، لأِضَعَ له الدرجة التي يستحقها، وهذا ما سألاحظه آخر السنة الدراسية، ولعلَّ مديرَ المدرسة

أدرك عن الدرس الأول، وعن استعجالي للقيام بالدرس الثاني ما حفزه لدخول الفصل مفاجأةً، والوقوف أمامي حتى قدمت له الكرسي الذي كنت أجلس عليه، واتجهنا بعد أن أبى إلاَّ الوقوف لأكمل الحديث في موضوع الأخطاء العامة فيما كتبه الطلاب في موضوع الإنشاء، وأكثرها ناشيءٌ عن ضعف في قواعد اللغة العربية، مما حمل المدير على المشاركة في إيضاح أسبابه، وأنها في مجملها تعود إلى عدم انتظام تدريس هذه المادة فيما مضى.

ثم كان أن قام المدير بإعداد الجدول الدراسي الأسبوعي لأَتَوَلَّى تدريس قواعد اللغة العربية، وما يتصل بها من محفوظات وإنشاء ومطالعة، في السنوات الابتدائية الثالثة إلى السادسة، ولم يكن لي منْ رَأْيٍ في الأمر، فضلاً عن الاعتراض حين قدمه لي في صباح اليوم الثاني، وإنْ كنت قد أظهرتُ له رغبتي في أول يوم بأن أقوم بتدريس العلوم الدينية، من توحيد وحديث وفقه، إذْ هي العلوم التي درستها وباستطاعتي تدريسها، ولكنه قال: إن الشيخ عبدالغني مُشْرِف يقوم بذالك من زمن، وليس من الممكن نزعها منه.

وهكذا بدأتِ الأمور تسير، مع شعوري بالارتياح بما يجري حولي باستثناء موقف المدير من وضع جدولي الدراسي دون البحث معي فيه، لا منْ حيث عدد الحصص الأسبوعية، ولا من عدم إسناد بعض الدروس الدينية التي أحس في نفسي قدرة على أدائها أكثر من غيرها إلي، ولقد كانت مقررات قواعد النحو في سنوات الدراسة الابتدائية شاملة جُلَّ قواعد ذالك العلم منذ السنة الثالثة حتى السنة السادسة، وفق ما في كتاب «النحو الواضح» في أجزائه الثلاثة بالتدرج في الدراسة، موزعة

على مراحلها الثلاث، ومع قلة محصولي من ذالك العلم إلا أن الكتاب المقرر على درجة من الوضوح والسهولة، مع تدرجه من المبادي اليسيرة إلى ما هو أعم وأشمل، بحيث لا تعترض المدرس أية صعوبة في تدريسه، وقد ألمحتُ فيما سبق إلى أنني قد درست هذا الكتاب على الأستاذ سليمان أباظة ـ رحمه الله ـ في الحرم الشريف، وكان ذا عناية شديدة بأن يقدم لطلابه الدرس أسهلَ ما يكون، بإعداده قبل البدء فيه، وبمحاولة تشويقهم لتقبله وفهمه، بإزالة ما في بعض عباراته أو أمثلته من جفاف بما هو أقرب إلى إدراكهم، فكان عليَّ أن أحرص دائماً على عدم دخولي أيَّ فَصْلٍ دراسيٍّ ما لم أكن هضمت ما سألقيه على طلابه من درس؛ لأَبْدُوَ أمامهم بصورة توهمهم تفوقي في هذا العلم، وتحملني على أن أسترعي انتباههم، وانصرافهم نحوي لئلا يشغلوا أنفسهم بالعبث، وعدم الالتفات إلى الدرس، ولن يكون هذا بدون طريقة مشوقة، يُحِسُّونَ من خلالها جوانبَ من الجدة والطرافة، تزيل السأم والملل، من رتابة ما يتلقون من دروس، وما أرى مثلَ عملي هذا بالصعب على أيٍّ مدرس متى أدرك أن منزلته في نفس تلميذه بقدر ما يستطيع صرفه إلى التلقي عنه من خلال احترام متبادل.

ويزور ينبع الشيخ عبد الرؤوف الصبان[٦] ـ عضو مجلس الشورى ـ ورئيس مجلس المعارف، فيبدي له مدير المدرسة طرفاً مما بيني وبينه من جفوة، ما كانت لتؤثر في أداء ما أنا مطالب بأدائه من عمل، أو تنال من مكانة المدير، بل تكاد تنحصر فيما يجري بين أساتذة المدرسة من أحاديث، لا أخفي خلالها تذمري مما يبدو من بعضهم وفيهم المدير في بعض الأحيان من تطرف صوفي، أو ثناء على أصحاب الزوايا من

الطرقـيين المعروفين بشطحاتهم، وقد لاَ أُلام على ذالك، فلم أبلغ بعد من الإِدراك الفكريِّ، ولا من رحابة الصدر، ما يمكنني من معالجة الأمر بحكمة، بل لم يَبْدُ مني ما توقعت أنه سيخرج عن محيط المدرسة، وإِنْ كنت أُحاول دائماً أَن يدرك الطلاب رأيي حيال ما كان منتشراً في هذه البلاد في العهد الماضي، ولا يزال باقياً في غيرها من البلاد الإسلامية، ما لا يتفق مع أصول الدين، كالطرق الصوفية الغالية، والبدع والخرافات، وتقديس الأموات، وقَلَّ أن أُقابَلَ بإِنكار من أحد، بل قد يحلو لبعضهم من قبيل الممازحة والتهكم والسخرية ترديد كلمات (الله الله!! اسكت. اسكت لا يشوّر بك السيد زارع[٧]!! مَدَدْ مَدَدْ! يا بُرعِي[٨]! شيء لله ياسنوسي[٩]) تتبعها ضحكات ساخرة!.

وعلى أثر دعوة الشيخ عبد الرؤوف إلى مكة بلغني أنني قد أُنْقل إلى الوجه، تحقيقاً لرغبة المدير، المؤيدة باقتراح الشيخ، فلم أَجِد بُدّاً من أن أَنْثُلَ ما في كِنانتي من سهام ـ كما يقال ـ في كتاب وجهته إلى السيد طاهر الدباغ ـ مدير المعارف العام ـ أوضحت فيه رأيي مفصلاً في المدير، بعد أن أثنيت على تقواه وعبادته وصلاحه، وأنه ينتمي إلى أسرة كريمة لها مقامها المرموق في البلدة، ولكن ما بِكُلِّ ذالك تتوفر الشروط التي تؤهله لإِدارة المدرسة، وأشرت إلى جوانب ضعفه، وأنه كان على الشيخ عبد الرؤوف أَن يجمع بيننا ليدرك حقيقة ما بيننا من خلاف، وأبديت استعدادي للحضور إلى مكة لإيضاح ذالك، وأنني لا أرغب في النقل إلى أية جهة كانت ما لم يتضح للمعارف الأَمرُ على جَلِيَّتِه.

وبينما كنت متأهباً لتلقي الدعوة لسفري إلى مكة إِذَا بمفاجأة لم

تكن متوقعة، لقد وصل من بلدة الوجه مدير مدرستها الأستاذ محمد علي النحاس، يحمل أَمْراً من المعارف بتولي إدارة مدرسة ينبع، وبإقالة مديرها الشيخ أحمد أبو بكر زارع، ولم يمضِ طويلُ وقتٍ حتى تلقيت كتاباً من المدير النحاس خلاصته: أنه (تلقى كتاباً من مديرية المعارف العامة برقم ١١٥ وتاريخ ٢٦ شوال ١٣٥٤هـ بأنها قررت إسناد معاونة المدرسة إلى عهدتكم).

ويدأَب الأستاذ النحاس جاهداً، ويحاول أَنْ تقترن إدارته للمدرسة بإضفاء طابع من النشاط عليها بفصل بعض المدرسين، وتعيين محلهم من خريجي المدرسة، وباستعمال نوع من الصرامة للحيلولة دون تأخر كثير من التلاميذ عن الحضور للدراسة في وقتها المحدد الناشيء في أغلب الأحوال عن اضطرار أهلهم لإشغالهم بعض الوقت في شؤون معيشتهم، إلاَّ أنه مع محاولته للإصلاح، وحسن قصده، لم يعدم بين أهل البلدة من ينظر إلى تصرفاته تلك نظرة استياء وكراهية، مما اضطره للسفر إلى مكة، ومنها إلى الأَحْساء حيث عين صديقه الشيخ زكي عمر[١٠] ـ مديراً للمالية والجمارك هناك بعد نقله من محاسبة مالية ينبع، ثم ما لبث الأستاذ أَن تولَّى إدارة التعليم هناك، وحلَّ محله في إدارة ينبع صاحبنا.

وها هو الحديث وقد سلك مسارات متعرجة أبعدتْ به عما استشرف قارئه من عنوانه، وأوشك بسلوك تلك المسارات أن يُمِلَّ ويُمَلَّ، أصبح الآن جديراً بأن يتخذ من القصد والإيجاز ما يبلغ الغاية.

تلك حصيلةُ صاحبنا إِبَّانَ الدراسة في الجانب السلوكي الذي انطبع في ذهنه عن مشايخه، ومعاملاتهم لطلابهم، أفَتراها ستكون الركيزة التي سيقيم عليها بناء عمله الجديد؟! وأين إِذَنْ الفارق ـ بل الفوارق ـ

بين اؤلئك الطلاب الذين كان أحدهم وما منهم إلاَّ من أوشك تجاوز سنّ الشباب، وقد يكون من بينهم من دلف إلى المرحلة التي بعدها، وبين هاؤلاء التلاميذ الذين لم يتجاوز أكبرهم سنًّا مرحلَةَ البلوغ إلاَّ بسنوات يسيرة، ولم يتخط أصغرهم السنة السادسة من عمره؟ وما لهذا الاختلاف من آثار في التحصيل والتفكير والإدراك؟!

لقد كانت بواكير العمل الأولى بواعثَ اطمئنان، أوحت في نفس صاحبنا بعضَ الثقة، ولكنه وقد حظي مع ذالك بما ناله من تقدير يطمح أن يزداد عن جدارة، في أهم جانب من جوانب عمله، وهو نجاحه فيه، حيث تراوده نفسه بأن يكون الأساسَ الذي يصلح أن يبني مستقبله، وأولى تلك الجوانب في نظره نجاحه بمهنة التدريس التي اضْطُرَّ لامْتِهَانِهَا دون أن يكون متدرعاً بأية وسيلة من وسائل معاناتها، فهو وإن نال قسطاً من المعارف والعلوم الدينية والعربية لا يزال بحاجة إلى ما يؤهله ليكون مُرَبِّياً نَاجِحًا، وهذا لا يقتصر على نيل قسط من العلوم وإِنْ عَظُمَ، بل يتطلب مع ذالك الإلمام بقواعد التربية الحديثة، التي تعنى بتحليل غرائز الطفل وميوله، وإيضاح وسائل الاستفادة من تلك الغرائز، بتنمية ما بتنميته منها صلاحه واستقامة سيره في حياته، ومحاولة الحدِّ من تأثير الضارِّ منها بطريقة تجتثُّ أصولها قبل أن تستشريَ وَتَقْوَى وتتغلب على الغرائز الْخَيِّرَة، وهذا من اختصاص علم التربية، ولا يتأتَّى بمجرد شحن فكر الطالب وعقله بالعلوم، ثم إن المعلومات التي ينبغي تقديمها لهذا الطالب إذا لم تكن ملائمة لميوله وغرائزه بتبسيطها وتحبيبها وترغيبه بمختلف وسائل الترغيب لتقبلها فمن العبث تقديمها له، وإدراك ما يلائم كل طفل من المعلومات لا يتم

بدون دراسة نفسيات الأطفال في أولى مراحل حياتهم، وهذا مما عُنِي به ذالك العلم دون غيره من العلوم، وبضاعتي منه مزجاة، بل لا بضاعة لي منه، وإنما هي خيوط واهية مما تَلَقَّفَتْهُ الذاكرة على غير أساس، وما أوهى ما تتلقَّفُ ، وما أضعف ما تعي !.

وأما بعد : فإذا كانت أَبْرَزُ صِفَةٍ يتحلَّى بها المدرس الناجح امتدادَ صِلَةِ الحب والتقدير، والذكرى الحسنة بينه وبين طلابه فإن صاحبنا قد جاز الامتحان مسروراً، ولا يزال يتجدد سروره ويزداد بما يلقاه من أوفياء اؤلئك الطلاب من حسن التواصل، في كثير من مدن المملكة التي سعد فيها بامتهان تلك المهنة الشريفة. وكانت أولى التجارب في مدرسة ينبع ـ كما مَرَّ ـ ثم أعقبها أن كُلِّفَ بتحمل عِبْءٍ من إدارة تلك المدرسة، فلاحظ ضعف إدراك تلاميذ القسم التمهيدي، بل أدرك ما لذالك الضعف من أثر في بقية فصول الدراسة، إِذْ بقوة الطالب في دراسته في أولى مراحله تنمو معارفه، وتقوى في المراحل الأخرى، وبضعفه ينمو الضعف ويعمُّ، ومن عادة بعض مديري المدراس أنهم يَكِلُونَ تدريس الفصول الأولى لأضعف المدرسين، بحيث كان أقدرهم يترفع عن التدريس فيها، لهذا كان لابُدَّ من إجراء تجربة أَعَمَّ وأَشْمَلَ تمثلت في إسناد تدريس بعض الحصص في القسم الابتدائي ـ مما لا يعدُّ أَساساً في الدراسة كالخط والمحفوظات والإِملاء ـ لبعض مدرسي القسم التمهيدي، ليحل محلهم فيه من هو أقوى منهم، وكان أَنْ شاركتُ في التدريس بحصة يومية في كل فصل من فصول الدراسة التمهيدية الثلاثة، في الهجاء، وفي الدين، وفي الحساب، ومَرَّتْ على ذالك أيام كانت من أمتع أيام الدراسة، وقد لا يعني القاريء الاسترسالُ في

الحديث عن بواعث إِمتاعها أكثر من معرفة مدى تأثيرها في سير دراسة أولئك التلاميذ، لقد أدركت ـ أو هكذا تصورت ـ أن (الطفل) رجل (كبير) في إحساسه وكثير من غرائزه، وعلى هذا التصور ينبغي أَن ينظر إليه أستاذه، وهذا ما كنت أسير عليه في معاملة تلاميذي، بحيث إنني كنت أتحاشى في السنة الأولى التمهيدية أن أجلس على الكرسي وهم جلوس على فرش مبسوطة على الأرض، بل أخرجت الكرسي من الغرفة، وجلست وسطهم، ثم إن ما يراد من الطفل إدراكه من العلوم يجب أن لايزيد على مقدار ما يفهمه شيئاً فشيئاً، وكلما كانت وسائل التعليم مشوقة ومتجددة كانت نفس التلميذ أَشَدَّ تطلُّباً وقبولاً لها، ولهذا كنت أتخذ من دروسي مادة للترويح عنهم، بصياغتها بأسلوب قصصي، يستهوي نفوسهم، ويشدهم إلى تلقيها والاستمتاع بالاستماع إليها، بدرجة تحملهم على استبقائي بينهم أثناء وقت الراحة، لمواصلة الحديث معهم، وقد أطلب منهم القيام بعمل مَّا لأُدْرِكَ مدى فهمهم للدرس فيستعصى على بعضهم فعله، فأظهر له من الرضا وحسن التوجيه بلطف، ما يدفعه ليحرص دائماً على أداء واجبه حسب استطاعته، وهو واثق بأني سأقابله بإصلاح ما يبدو في عمله من خطإٍ، مسروراً من قيامه بذالك العمل على أَيٍّ وجه كان، فلا يلبث أن يستقيم في سلوكه، ولا أذكر أنني لجأْتُ إلى مؤاخَذة تلميذ مقصر بما يجرح شعوره بين إخوانه، أو بما يبدو له منه بأن المراد التشفِّي والانتقام، بل أحاول ـ ما استطعت ـ إقناعه بِحُنُوِّي وعطفي عليه، وأن ما قد أكلفه بفعله ليس من قبيل العقوبة على تقصير بدر منه، ولكنه حَفْزٌ لهمته لئلا يبدو بين إخوانه أقلَّ منهم مكانة، وبتلك الطريقة التي أكتفي بعرض

جوانب منها في معاملة تلاميذي شعرت بأنني حللت من نفوسهم منزلة المحب المكرَّم، ونَمَّى هذا الشعور ما استمرَّ بيني وبين كثير منهم من مشاعر الحب والتقدير.

وقد تسأل عن آثار ما بدأت به من حيث الاهتمام أوَّلاً بتوجيه الطلاب الصغار، فلن يكون الجواب كما تتوقع، فقد فوجئت بما سيكون موضوع سانحة أخرى، قبل تحقيق ما أردت.

الحواشي:

(١) : «توضيح المسالك إلى ألفية ابن مالك» من أشهر شروح الألفية في النحو، وقد ألفه فعمد عالمان مصريان معاصران إلى تهذيب ذالك الشرح بكتاب «تهذيب التوضيح».

(٢) : «سبل السلام بشرح بلوغ المرام» للعالم اليمني المجتهد محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (١٠٩٩ / ١١٨٢هـ) انظر «العرب» س٧ ص ٦٨٠ / ٧٨٠ .

(٣) : أسرة الصَّنيع ـ بفتح الصاد وكسر النون ـ من الأسر العنيزية، انتقل بعض أفرادها في أول القرن الماضي [من عنيزة] إلى مكة للتجارة، فاستقروا فيها، ومنهم الشيخ سليمان الذي تلقى العلم في الكتاتيب ثم على بعض مدرسي الحرم، واتصل بالشيخ عبد الظاهر بن محمد أبو السمح وبقريبه الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة وقويت صلته بهما بجامع السلفية، ثم اتجه لعلم الحديث فبرز، واقتنى مكتبة ضمت إلى إحدى مكتبات جامعة الملك سعود، وتولى وظائف بارزة منها رئاسة هيئة الأمر بالعروف بمكة، وعضو مجلس الشورى، وإدارة مكتبة الحرم المكي، وتوفي في مكة المكرمة في صفر سنة ١٣٨٩هـ .

(٤) : قرزمة الشعر الابتداء بقوله.

(٥) : في «معجم البلدان» رَضْوَى جبل بالمدينة، ثم أورد كلام عَرَّام، وأنه يبعد عنها سبعة أيام، وعن ينبع يوماً واحداً، وفي «القاموس المحيط» كما في «المعجم» إلا أن شارحه أضاف ما يصححه من قول نصر وهو نص كلام عَرَّام في رسالته «أسماء جبال تهامة».

(٦) : الشيخ عبد الرؤوف الصبان من أبرز رجالات الحجاز في عهد الشريف حسين ثم في عهد الملك عبد العزيز ـ انظر «أعلام الحجاز» ج١ ص ١٠٣ ـ .

(٧) : تساءلت عن السيد زارع فيما سبق، وقال لي أحد تلاميذي الينبعيين إنه يمني الأصل، ولكنني اطلعت فيما أهدى لي هذا الابن البار الأستاذ عبد الكريم بن محمود الخطيب الحفي بتاريخ

هذا الجزء الحبيب من وطننا صورة «ديوان عبد الرحيم القفطي» فرأيت فيه ما ملخصه أنه تولى ولاية ينبع التابعة لإمارة مكة في عهد الشريف ابن عون أحد المقربين منه إبراهيم باشا عواد في آخر القرن الثالث عشر، وكان لهذا الوالي ابن يدعى زارعاً تولى القضاء، مدحه القفطي وجرت بينهما مساجلات شعرية عام ١٣١٥ هـ ـ وتوفي هذا القاضي فرثاه القفطي وقال عنه:

من معشر خلد الله وزارتهم لدى المليك ابن عون طاهر النسب

وقال فيه: خير قاض ولي الأحكام في عصره.

ولا أستبعد أنه لما مات بنيت عليه القبة المعروفة، وإن كان الأستاذ عبد الكريم يرى زارعاً من سادة اليمن.

(٨): البرعي هو: عبد الرحيم بن أحمد ينسب إلى جبل بُرَع ـ بضم الباء وفتح الراء ـ الواقع جنوب وادي سَهَام بقرب زَبِيد في تهامة، مُتَصوف من أهل القرن الثامن، وقد توفي على مايقال في وادي الصفراء حيث عُرِف به خيف البرعي، الذي كان يعرف بخيف الحزامي وخيف بني سالم، ولهذا كانت له شهرة في هذه النواحي ونسب إليه الكثير من أشعار المديح النبوي والتصوف ـ انظر «العرب» س٩ ص ٧٩١/١١ وس١٦ ص ٩١٤ .

(٩): السيد محمد السنوسي (١٢٠٤/١٢٧٦هـ) من أشهر دعاة التصوف المتأخرين، وقد أنشأ وأُنشيء باسمه ـ زوايا كثيرة في ليبية وفي المغرب، وفي الحجاز وفي تهامة، وكانت زاوية السنوسي في ينبع من أشهر زوايا تلك البلدة.

(١٠): الشيخ زكي عمر كان رئيس محاسبة مالية ينبع، وكان المدير محمد العثمان الناجم، من أهل عنيزة، وقد سافر مع حمد السليمان وكيل وزارة المالية الذي رافق فيصلاً في غزو اليمن سنة ١٣٥٣هـ وفي إحدى الليالي ما شعر أهل مدينة ينبع إلا ببناية المالية الواقعة بقرب الميناء تشتعل فيها النيران، وتنبعث منها طلقات الرصاص المخزن في أسفلها، حتى احترقت البناية وما تحويه مما أثار غضب الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فبعث هيئة للتحقيق يرأسها عباس قطان ـ أمين العاصمة ـ وفيها الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي والسيد حلمي كتبي من وزارة المالية ومدير شرطة ينبع وغيرهم فقررت الهيئة أن الحريق قضاء وقدر، وأن ينقل زكي عمر ومساعده محمد النجمي إلى عمل آخر، وهو إدارة مالية الأحساء وجماركها، فكان من أصدقائه الذين لحقوا به الأستاذ النحاس.

وعبد العزيز بن عبد الله بن رُشيد ـ بضم الراء ـ من أهل الشُّقَّة، وكان مديراً لخفر السواحل في ينبع ثم في المنطقة الشرقية كلها، وقد ذكرت في حاشية سانحة (أهل بأهل وإخوان بإخوان) أنه انتقل في آخرحياته إلى المدينة وبها توفي اعتماداً على ما بلغني، وبعد نشر هذا في «المجلة العربية» جزء رمضان ١٤١١هـ كتب إليَّ الأخ عبد الرحمن بن محمد الفراج من بريدة يذكر أن الشيخ عبد العزيز لا يزال حيّا يرزق، وأنه يقيم الآن بمدينة بريدة، ويتمتع بصحة جيدة، وأنه يعتب علي، ولكنني لم أقل إلاَّ ما بلغني (وما آفة الأخبار إلاَّ رواتها) فمعذرة.

اتجاه في تفكير الفتى*

كان من أثر ما أحس به الفتى من استقرار نفسي في هذه البلدة من جَرَّاء شعوره بقسط وافر من الراحة، بعد أن بدأ بمزاولة مهنة التدريس، التي اندفع إليها بدون اختيار، مع شدة تهيّبه، وعدم اطمئنانه من أن تكون ملائمة لما قد أَعَدَّ نفسه له، ولما أخذها به من سلوك واتجاه في حياته، منذ أن أصبح قادراً على تكييف ذالك الاتجاه، وإعداد العدة لِيُكَوِّنَ مستقبله وفقَ ذالك الأسلوب، إنه بعد إحساسه وشعوره بالراحة والقدرة على مواصلة السير في هذا النمط الجديد من الحياة أدرك شدَّةَ الحاجة إلى التعمق في التفكير في مستقبل حياته، وإعادة النظر بما كان قد أخذ به نفسه من اتجاه قد لا يكون مُهَيَّأً لمواصلة السير لبلوغ الغاية منه، بعد أن اتضح له من خلال تجارب مريرة مرت به مع شدة التزامه عن قناعة ويقين بأنه الاتجاه الصحيح ـ بدا له أن الاستمرار على ذالك النَّهْج يَتَطَلَّبُ من التكيف والاستعداد والمرونة ما لا يتلاءم مع طبيعته التي تعوزها تلك الصفات، إنه لا يزال يتذكر ـ بمرارة وأسى ـ ما جرى له منذ ثلاث سنوات من إهانة أمام جمع من خِيرة من يتخذهم قدوة في علمهم وأخلاقهم، ولم يكن بينهم من استطاع أن يجهر بكلمة الحق فيحول دون الظلم، بل أحس من ضعفهم وهوانهم وذِلَّة أنفسهم وعدم اعتزازهم بمكانتهم ما غمره أسى وحسرة، وغيّر نظرته نحو كثير منهم كان يعدهم قدوة حسنة، ومِثالاً يُحْتَذَى في علمهم وأخلاقهم وسلوكهم، ومن بينهم صفوة أساتذته في المعهد.

---

* المجلة العربية، العدد (١٧٠)، ربيع أول ١٤١٢هـ / أيلول وتشرين الأول ١٩٩١م.

ها هو الآن، وقد انتصف العقد الثالث من سني حياته، وفي أجواء من راحة النفس وارتياح الضمير، بدأ يحس بفراغ هائل يقف عقله دون اجتيازه حائراً، فراغ لم يستطع خلاله أن يُعِدَّ لمستقبل حياته بعده ما يمكنها من الاستقرار، ويُهَيِّءَ لها الاطمئنان، والاتجاه لعمل نافع، يملأ قلبه أَمَلاً لمواصلة سيره لغاية واضحة، إنه فراغ يمتدُّ أمام نظراته نحو المستقبل المجهول، لم يُعِدَّ العُدَّة لاستشفاف ما وراءه، وتدفعه غمرة التفكير ـ بدون وَعْيٍ أو قصد ـ فيتذكر أيامه الأُوَلَ التي حين بدأ يشعر خلالها بما يحيط به من هذا الوجود، فيذكر كيف التجأ إلى جَدِّه لأمه، بعد أن عاد من رحلته الأولى إلى الرياض بعد وفاة من تولَّى كفالته فيها سنة ١٣٤٣هـ [١٩٢٤م]، مارًّا بقرية (الفَرْعَة) من إقليم الوَشْم، حيث تقيم أخته المتزوجة فيها[١]، ليواصل السفر إلى قرية (البرود) بمنطقة السِّرِّ، مقر إقامة الجدِّ ليرعاه، بعد أن تَمزَّقَ شمل أسرته، ولم يبق بين أفرادها من يستطيع لمَّ شعثها، فعميدها الأب طريح فراش الموت لدى ابنته، وأكبر أبنائه طوحت به الغربة إلى ساحل الخليج العربي لاكتساب الرزق فَجُهِل أمره، وبقية الأبناء على درجة من الضعف أوهى من أن يقوموا بشؤونهم الخاصة، إنه ـ وإن لم يتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره ـ قد شدا أطرافاً من المعرفة، فحفظ القرآن الكريم، وتلقى بعض مباديء العلوم الدينية، فوجدَ فيه الجدُّ أداةً طيِّعةً للتوجيه، فأخذه ـ أول ما أخذه ـ على تلاوة القرآن، وتعهده ليحفظ ما لم يحفظ منه عن ظهر قلب، وقسره على ملازمته في جميع أوقاته، وأكثرها كان يمضيه في المسجد للصلاة والقراءة، والمطالعة في بعض كتب الوعظ والحديث والتفسير ككتاب «الكبائر» للذهبي، و «رياض الصالحين» للنووي، و«التبصرة» لابن الجوزي، و«التفسير» للبغوي،

ويقرأ في بعض هذه الكتب على الجماعة بعد صلاة العصر، وقبل صلاة العشاء، كما يكرِّرُ على مسامع الجد خُطْبَةَ الجمعة التي سيلقيها من «خطب المخضوب» فهو خطيب مسجد القرية، وإمامهم فيه، وموثِّقُ عقود معاملاتهم، وعاقدُ أنكحتهم، والقائمُ بحل ما قد يحدث بينهم من القضايا اليسيرة، وهو محلُّ ثقة بينهم، وقد يقوم الفتى في بعض الأحيان ـ حين تتأثر صحة الجد ـ ببعض أعماله.

لقد أخذ الجدُّ ـ تغمده الله برحمته ورضوانه ـ سِبْطَهُ بالشِّدَّة ليُوَجِّهَهُ الوجهة التي يسير عليها من التقوى والعبادة والصلاح، منذ أن اختارهُ أهل القرية لتولي عمله بينهم، فقام بهذا العمل خير قيام، وها هو الآن لا يزال على ذالك منذ أكثر من ثلاثين عاماً[٢]، كان يوقظ الفتى في الثلث الأخير من الليل بعد أن يكون أمضى هزيعاً منه في التهجد فيصليان معاً صلاة الشفع والوتر، ثم يذهبان إلى المسجد في انتظار صلاة الفجر، وبعد الصلاة وقراءة الجَدِّ وِرْدَهُ من القرآن والأدعية يكون الذهاب إلى (قهوة المؤذن)[٣]، ويدعى إبراهيم بن عبد الله بن حمود[٤]، وهو من خُلَّص أصدقاء الجد، فقد كان رجلاً صالحاً، أبعد ما يكون عن التعرض لما لا يعنيه، وأكره الناس لأن يُنَالَ أحدٌ في مجلسه بغيبة، أو يرفع فيه الصوت، ثم هو مع ذالك من أعفِّ الناس لساناً، وأنزههم معاملة، وأزهدهم في غشيان المجتمعات التي تضم الغوغاء، ولهذا أصبح ـ بالنسبة للجد ـ أصدقَ صديقٍ في هذه القرية، ولا يُشْغَلُ الاثنين أثناء اجتماعهما بعد تناول القهوة مع أكل قليل من التمر ما يشغل الناسَ عادةً من الأحاديث في الأمور المتعلقة بأعمالهم اليومية، فقد يكون الجد قد حمل معه أحد الكتب، ليطلب من حفيده قراءة موضوع سبق

الحديث حوله في أحد الاجتماعات، ولا تعدو المذاكرة حول القراءة ما لا يستطاع إدراكه على متوسطي الفهم، فضلاً عن طلبة العلم.

ومما أذكره لهذا المؤذن الطيب القلب أنني بعد أن صرت أتولى تعليم صبيان القرية، وكانت المدرسة مجاورة لبيته القريب من المسجد، وكان من عادة كبار (الجماعة) ومنهم الإمام والمؤذن الجلوس عند باب (الْمَجْمَع)[٥] وهو المدرسة في (المِشْرَاق)، ففي صبيحة أحد الأيام حضر سبط المؤذن (ابن بنته) إلى المدرسة متأخراً، والعادة أن المتأخر يتلقى عقاباً، وذالك بضرب باطن كفه بـ(المِسْطرة)[٦] ضربات يسيرة، فمبجرد ما دخل الصبي وقد أدرك ذنبه، رفع يده فتناولت (المسطرة) وكان أحد خبثاء الصبيان قد غرس داخلها مسماراً لم أُبْصِرْهُ، وعندما ضربت كف الصبي صرخ بأعلى صوته من ألم المسمار الذي شق الجلد، فَثَعَّ الدمُ غزيراً، فسمع المؤذنُ صراخ سِبْطَه، فانقض داخل المدرسة كالأسد الهائج، وكان ضخم الجسم، في غاية من القوة والنشاط، فحمل المعلم بين يديه حتى تجاوز به رأسه، ثم أنزله بهدوء، وطفق يقبل جبهته ويكرر الاستغفار والاستعاذة من الشيطان الرجيم، وأخذ بيد سبطه وخرج، وكان يتحدث بعد ذالك بأنه حين رفع المعلم بين يديه أراد أن يضرب به الأرض أقوى ما تكون الضربة، ولكنه ذكر أثناء ذالك أنه (يتيم) وأن الله أوصى برعاية اليتامى والعطف عليهم، فاستعاذ بالله من الشيطان وصار يكرر﴿ إذا مَسَّهُمْ طَائفٌ مِنَ الشَّيْطَان تَذَكَّرُوْا ، فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُوْنَ ﴾ و ﴿ لَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَالِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُوْرِ ﴾.

ويبدو لـ(الجماعة)[٧] ـ ممثلين في أميرهم وإمام مسجدهم ـ من

حالة الفتى مايؤهله للقيام بتعليم صبيان القرية، وإن كان على درجة من صغر السن بحيث كان من بين أولئك الصبيان من يساميه عُمُراً، ويبزُّهُ قوة ومظهراً، مما كان من أسباب تعثر سيره في هذا العمل، حتى يعود أكبر إخوته من غربته، ليجد الجدَّ يرشِّحُ سبطه ليكون أَحَدَ طلبة العلم، ولن يكون ذالك إلاَّ في مدينة الرياض على علمائها، حيث يُهَيَّأُ للطلبة ما هم بحاجة إليه من مسكن ونفقة، ليتمكنوا من التفرغ لإدارك ماقصدوا، وها هو قد حفظ القرآن وأجاد القراءة، وحفظ عن ظهر قلب بعض مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب كـ(الثلاثة الأصول) و «شروط الصلاة وأركانها» و «الأربع القواعد في التوحيد» وغيرها مما يتصل بأمور العبادةِ من أدعية، ولقد كان الجد ـ بصفته إمام أَهل القرية ـ يقتني مجموعة من الكتب في فنون متنوعة، مما اعتاد أئمة المساجد اقتناءه للاستفادة منه في الوعظ والإرشاد، ومن غيرها من المخطوطات التي يتوارثها (مطاوعة)[٨] أهل القرى، وقد وجد الفتى في تلك الكتب ـ في الوقت الذي أدرك من جده رغبَته بملازمته، وَعَدَمَ اختلاطه بِلِدَاتِهِ من الصبيان للمشاركة في لهوهم ـ وجد فيها ما صرف ذهنه عما أحس به في أول الأمر من مضايقة في صرفه عما يتمتع به مَنْ هُمْ فِي مثل سِنِّه من لعب ومرح وانطلاق، بحيث صار يشعر بكثير من الراحة أثناء استغراقه بمطالعة كتاب في الأدب أو التاريخ، أو السيرة النبوية، وكان يجد من الجد توجيهاً ودفعا قَوِيَّيْنِ للإكثار من المطالعة.

وَإِنْ نَسِيَ فلن يَنْسَى قصة (الأُعَيْمِي)[٩] التي كان الجدُّ يكثر من تكرارها على مسامعه : كان لـ(فلان بن فلان) ـ من أهل شقراء ـ أبناء

ثلاثة، ذهب داءُ الجدري ببصر أحدهم، فكان الأب كثيرَ الإشفاق والخوف على هذا (الأُعَيْمِي) ماذا يستطيع القيام به من الأعمال التي تهيء له العيش، دون أن يكون عالة على غيره، يتكفف الناس ويستجديهم، كما هي أكثر حالات أمثاله..؟! وكان لأخويه ـ في نظر الأب ـ من الإدراك وقوة التصرف ما يصرفه عن التفكير في مستقبل أمرهم، ولكن (عبد الرحمن) ـ وهذا اسم الابن المشفَقِ عليه ـ ظل يَدْأَبُ ويُجِدُّ حتى يحفظ القرآن في بلدته، ثم يذهب به أحد إخوته إلى مدينة الرياض ـ في آخر العقد الثالث من القرن الماضي ـ حيث بدأ الاهتمام بترتيب شؤون طلبة العلم وحيث يجد المكفوفون في قصور الأمراء والوجهاء، أثناء شهر رمضان، بقراءة القرآن في تلك القصور، وبإمامة النساء في صلوات التهجد في ذالك الشهر ـ يجد اؤلئك من عطف المحسنين ما قد لا يجده غيرهم، وكان لـ(عبد الرحمن) من ذكائه واهتمامه بمستقبل أمره أقوى الحوافز ليصبح بعد فترة قصيرة من الزمن في عِدَاد كبار الطلبة، وها هو الآن ذالك (الأُعيمي) الذي كادت نفسُ أبيه تزهَق إشفاقاً ورحمة به، وخوفاً عليه من سوء المصير، ها هو يتولى منصِبَ القضاء في (هِجْرة) من أكبر هُجَر البادية[١٠]، يضاف إليها عدد من قرى الحاضرة، وكان منصبُ القضاءِ في ذالك الزمن أَرْفَعَ رُتْبَةٍ تتوق لبلوغها نفوس طلبة العلم، وها هما أخواه ـ وما كان ينقصهما من القوة والعقل وحسن التصرف ما يمكنهما من أن يشقا طريقهما في الحياة بجدهما وجهدهما ـ ها هما يعيشان الآن في كنف هذا الأعمى الضعيف البدن، المحدود التصرف، الذي احتلَّ في نفوس أهل المنطقة ـ بعد أن نال من ذوي الحل والعقد من التقدير ما نال ـ

احتل من علو المنزلة في نفوسهم مادفعهم للتسابق لدعوته لزيارة قراهم، لكي يعبروا له عما يكنونه له من حب وإخلاص وإجلال، بمختلف وسائل التقدير والإكرام، ولقد كان من بينهم قبل بضع سنوات والدُ الفتى، حيث غمره السرور والاستبشار عندما فاز فتاه بدعوات (الشيخ) والتفاؤل له بمستقبل حسن، حين استمع إلى بعض ما حفظ من سور القرآن، بل كان من أثر تكرار زيارة الشيخ للقرية أن انطبعت صورته في ذهن الفتى بحيث أصبح يحاول أن يحاكيَهُ سَمْتاً ولهجةً وغُنَّةَ صوتٍ أثناء القراءة.

في هذا الجو استشعر الفتى الحياة ـ حاضراً ومستقبلاً ـ كما صورها لَهُ الْجَدُّ فعلاً وتوجيهاً، وعلى هذ النمط الصارم من السلوك الذي أخذه به، بدتْ له معالم صورة ـ وإن لم تكن واضحة ـ لما ينبغي أن تكون عليه غاية المرء التي يسعى لبلوغها ما استطاع، وأن يكون مستقبل أمره متجهاً نحوها، وهو وإن لم يبلغ من عمق الوعي وقوة الإدراك ما يمكنه من تجاوز دور التقليد والمحاكاة، وسهولة الانقياد والاستسلام لمن يتوخَّى فيه الخير، إلاَّ أَنَّ هذا الدور في مراحل حياة الإنسان ـ أي إنسان كان ـ قد يكون أعمق أدوار الحياة كلها تأثيراً فيما يعقبه من الأدوار الأخرى.

وكان من أثر ذالك رحلة الفتى الثانية إلى الرياض، واتصاله القويّ باؤلئك العلماء الذين كان هو وغيره يرى فيهم المُثُلَ العُلْيا لما انطبع في مخيّلته من صلاح ونجاح في هذا العالم، ثم ها هو وقد أمضى في تلك المدينة قرابة عامين يغادرها في مطلع عام ١٣٤٨هـ، لا زهداً بما كان ساعياً بما يستطيع من جهد لبلوغه، بل تطلعاً لإدراك المزيد منه، عن

طريق الاختصاص بأحد مشاهير العلماء من أحفاد الإمام المجدد، ليلازمه أثناء توليه القضـــاء في إحدى الهجر النائية، متوقعاً أن يتيح له ذالك الاختصاص والانعزال عن مشاغل الدنيا في ذالك المكان جواً من الفراغ والصفاء الذهني، ومزيداً من الإدراك والاستزادة من المعرفة، ولكن الأمور سارت بخلاف ما كان في الحسبان، لا بالنسبة للفتى وشيخه فحسب، فلم يستقم الشيخ في عمله، ولم يتم للفتى ما أمل.

وتبدو له بعد استقراره في مكة للدراسة في (المعهد الإسلامي السعودي) ملامح مستقبل أوضح إشراقة، وأكثر اطمئناناً، فيبدو في سيره أشدَّ تصميماً، وأقوى عزيمةً، وأصلبَ في مغالبة ما يعترض طريق اتجاهه نحو ما يطمح إلى بلوغه من غاية كان للظروف وحدها توجيهه نحوها، فيكمل دراسته متخصصاً في (القضاء الشرعي) وهو ما كان مؤهلاً له منذ مطلع حياته، وفيما مر به من مراحلها، وكان المتوقعُ أن ينخرط في سلك القائمين بذالك العمل، وما أكثرهم ممن لا يحمل مثل مؤهلاته، بل ما أشد الحاجة إلى من يقوم بذالك، ولكن تغير نظرة القائمين على شؤون القضاء حالت دون ذالك في أول الأمر، ولعله اتضح لهم فيما بعد أنه لا أثر للفتى في أسباب ذالك التغير، وأنه لم يخطر بباله يوماً من الأيام أن يحيدَ عن نهج سار عليه طيلة حياته، ولا يزال مصمماً على السير فيه، ولكن متى أدرك اؤلئك هذا ؟ بعد أن (شبَّ الفتى عن الطوق).

لم يكن ـ في يوم من الأيام ـ إلى ساعته هذه، بل إلى غاية ما يأمل أن يبلغه من عمر ـ بالمفكر للتنكر للمباديء الخُلُقِيَّة التي أُشرِبَ بها

قلبه، وغُذِّيَ بها دَمُهُ، فَشَبَّ ونشأ وعاش ما عاش من حياته، متمسكاً بأداء واجباتها، معتقداً الاعتقادَ الراسخَ أن تلك المباديء الخلقية الكريمة، ترتكز على أقوى الأسس وأرسخها من الاستقامة والصلاح، والتوجيه لخير الغايات وأسماها في إسعاد البشر حالاً ومآلاً.

وهو ـ بعد ـ وإن اتسعت مداركه بإلمامه أثناء الدراسة بأطراف من الثقافة الحديثة لم يتأثر سلوكاً أو اعتقاداً، بل ازداد تصميماً وتمسكاً، وسيراً على ذالك النهج الذي سلكه توجيهاً ثم اختياراً.

وإلمام الفتى باليسير من جوانب تلك الثقافة التي قد تبدو حديثة نوعاً ما لم يكن بالقدر الذي يبلغ به متاهاتٍ أو اتجاهاتٍ تحدث في فكره من البلبلة ما يحرفه عن السير في النهج الذي ارتضى سلوكه، فالثقافة العامة إذ ذاك في مجملها ثقافة دينية لغوية، وكان لصرامة الدولة في رقابتها على هذا الجانب إبَّان ذالك العهد من نُشُوْئِهَا ما أوصد المنافذ التي يُخْشَى أن تكون ذات تأثير في الحياة الفكرية في هذه البلاد جميعها، ولاسيما في مناهج التعليم أو في نشر المطبوعات، أو في التَّصَدِّي للتدريس في المساجد من قبل من لا يوثق بصحة عقيدته، في نظر القائمين على تلك الشؤون، أو من يحاول إحداث بلبلة في أفكار المجتمع فيما يتصل بسلوكه، ومجرى حياته العامة، من جرَّاء حزم ولاة الأمور، وصرامتهم لتحدِّي ما قد يحدث من ذالك، إلا أن هناك ما قد يتخطى المنافذ الموصدة، ويخفى على العيون الساهرة، فللاتصال بالعالم الخارجي بعد توحيد أجزاء المملكة، وللاطلاع على مختلف أحواله مما لا عهد لكثير من أبناء هذه البلاد به ـ ثقافة وسلوكاً واختلاطاً ـ أعمق الآثار في إحداث مفاهيم حديثة لواقع الوجود كله،

ولم تقف هذه المفاهيم عند حدّ الاستفادة والتأثر بالماديات، بل امتدت إلى ما له صلة ببعض القضايا المتصلة بالأخلاق والسلوك، فأثرت تأثيراً هو أقرب إلى التساهل واليسر، مما عرفت به هذه البلاد منذ أقدم العصور، من قوة محافظة وشدة تمسك، عبر عنه الشاعر القديم:

ألا حَبَّذَا نَجْدٌ وطِيْبُ تُرَابِهِ   وَغِلْظَة دُنْيَا أَهْلِ نَجْدٍ ودِيْنِهَا

قد يكون للفتى نظرة نحو جوانب خاصّةٍ من هذا التأثير، تغاير نظرات اؤلئك الذين لا يزالون يعيشون بمنآى عن بواعثها القوية المفاجئة، في مسار الحياة بصفة عامة، إلاَّ أن نظرةَ صاحبنا لم تكن لتتجاوز النواحي المادية وبعض الوسائل التي لا تؤثر في الاعتقاد أو السلوك.

وهو لذالك كان ذا إحساسٍ بالغِ العمق في تصوره لتصرف كثير ممن كان ـ ولا يزال ـ يرى فيهم القدوة الحسنة لتوجيه الأمة وجهة الخير، وهو تصرف ليس من السهل استساغته، وأقل ما يوصف به أنه جهل مطبق لما تصطخب به جميع أرجاء العالم من تيارات مضطربة، غيرت بأمواجها المادية العاتية مختلفَ الاتجاهات، وما أحوج الأمة إلى ربابنة قديرين ـ بعلمهم وسلوكهم وإدراكهم لما يحيط بهم ـ على اجتياز تلك التيارات!

وما أوسع هذا الخواء الذهني الذي ملك عليه إحساسه وشعوره في هذه الفترة من فترات حياته!! فلقد تكشف له ـ أو هكذا تخيل ـ من أحوال ألصق الناس به تأثيراً ما أحدث في نفسه من الأسى والحيرة ما أذهلها، فضلاً عما يبطن اؤلئك ويسرون! أَفَتُرَى من الخير له أن يغير اتجاهه في مسير حياته، لا من حيث الخلق والسلوك، والتمسك بما شب ونشأ ودرج عليه من اعتقاد راسخ بمثل سامية، ولكن في النمط الذي ينبغي أن يعايش عليه الأخرين في أساليب الحياة؟! وأن يسلكه نَهْجاً

لمستقبل حياته الخاصة ،هذا ما وطد العزم عليه بعد أن شُغلَ به شغْلاً أمَضَّهُ، فترةً من الزمن، وملك عليه تفكيره.

الحواشي :

(١) : توفيت في ١٥ شعبان ١٤١٠هـ عن عمر يناهز الخامسة والثمانين عاماً .

(٢) : كان هذا سنة ١٣٤٣هـ، وقد استمر على ذالك حتى توفي سنة ١٣٥٢هـ

(٣) : يطلق عامة الحاضرة كلمة (قهوة فلان) على المكان المعد لإعداد القهوة وتقديمها، أما أبناء البادية فيسمون المكان (المقهى) و (المقهاة) وهما أصوب.

(٤) : أسرة آل حُمُود من آل حمدان ـ وهم يرجعون إلى الشبول الذين تقدم ذكرهم، ويربط هذه الأسرة بـ (آل جاسر) غير رابطة النسب رابطة المصاهرة التي امتدت خلال قرنين ولا تزال.

(٥) : تقدم الكلام عن (المجمع) في سانحة (عود إلى قرية البرود) .

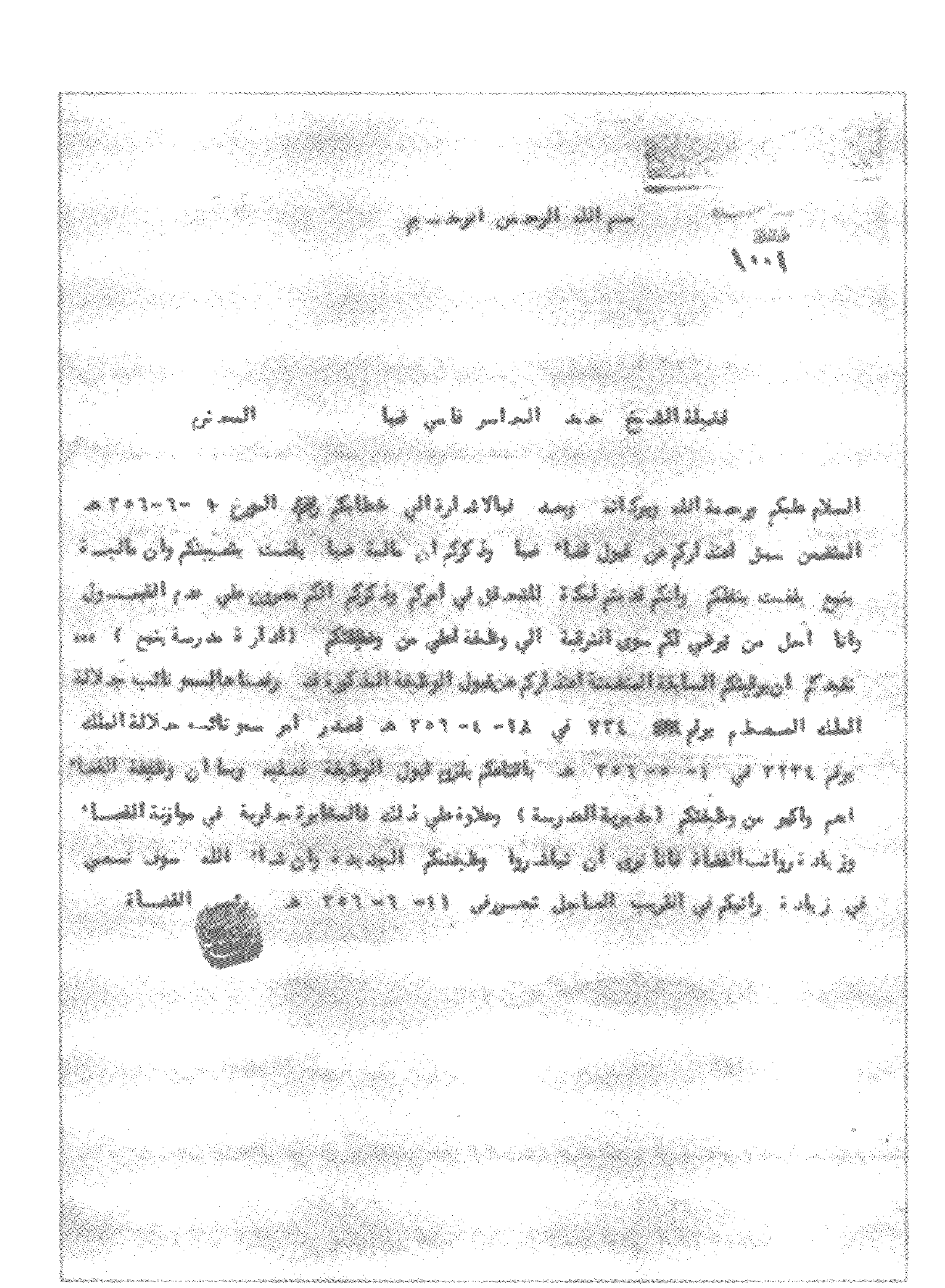
(٦) : المِسْطرة هي لوح من الخشب يجعل طرفه مستديراً، تمتد منه عصاً يمسك بها وتستعمل الدائرة للعقاب اليسير في المدرسة بضرب الصبي على كفه أو رجليه عدة ضربات، وتليها (العصا) للضرب اليسير بمراق الجسم، ويتحاشى ماهو عرضة للجرح أو الإيلام، وبعدها (البُغَيْلَة) وتسمى في البلاد الأخرى (الفلكة) وهي عصى طويلة غليظة مربوط بطرفيها حبل يُزْوَى على رجلي الصبي، وحين يشدهما يَحْمل طرفي العصا اثنان من الصبيان الأقوياء فينكس الصبي المعاقب يكون رأسه أسفل ورجلاه أعلى، ويتاوله المعلم بضرب قدميه ضرباً مبرحاً .

(٧) : يعبر أهل القرى بكلمة (الجماعة) عن أهل الحل والعقد في القرية الأمير، وإمام المسجد والوجهاء من كبار السن وذوي المكانة فيها .

(٨) : المطاوعة واحدهم مُطَوِّع أئمة المساجد، وفي بعض قرى نجد قد يسمى (المُلاَّ) و (الخطيب) ما لم ينل رتبة القضاء ليدعى شيخاً .

(٩) : الأعَيْمي ـ تصغير الأعمى ـ .

(١٠): الهُجَر ـ جمع هِجْرَة ـ وهي البلدة التي تستقر فيها طائفة من أبناء البادية، وقد استحدثت في عشر الثلاثين من القرن الماضي حين أراد الملك عبد العزيز أن يستعين بأبناء البادية بإنشاء المملكة، ولا يتم هذا إلا بوجود أمكنة يستقرون فيها، فكان دعاتهم ومرشدوهم يرغبونهم في الهجرة من البادية التي ينتشر بين أهلها الجهل ، والاستقرار في أمكنة تجمعهم.



بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٠١

فضيلة الشيخ حمد الجاسر قاضي ضبا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فبالإشارة إلى خطابكم رقم [illegible] المؤرخ ٩-٦-٣٥٦ هـ المتضمن [illegible] اعتذاركم عن قبول قضاء ضبا وذكركم أن حالة ضبا [illegible] بصحتكم وأن [illegible] ينبع [illegible] بصحتكم وأنكم قد تعرضتم لكذا للتحقيق في أمركم وذكركم أنكم مصرون على عدم القبول وأنا أحمل من يرغب لكم سوى الترقية إلى وظيفة أعلى من وظيفتكم (إدارة مدرسة ينبع) نفيدكم أن موقفكم السابق المتضمن اعتذاركم عن قبول الوظيفة المذكورة قد رفعناه لسمو نائب جلالة الملك المعظم برقم [illegible] ٢٣٤ في ١٨-٤-٣٥٦ هـ فصدر أمر سمو نائب جلالة الملك برقم ٢٢٣٤ في ١-٥-٣٥٦ هـ بإقناعكم بلزوم قبول الوظيفة [illegible] وبما أن وظيفة القضاء أهم وأكبر من وظيفتكم (مديرية المدرسة) وعلاوة على ذلك فالمخابرة جارية في موازنة القضاء بزيادة رواتب القضاة فإنا نرى أن تبادروا وظيفتكم الجديدة وإن شاء الله سوف نسعى في زيادة راتبكم في القريب العاجل تحريراً في ١١-٦-٣٥٦ هـ [illegible] القضاة

خطاب من الشيخ عبدالله بن حسن رئيس القضاة للشيخ حمد الجاسر ـ رحمهما الله ، بخصوص طلب نائب جلالة الملك إقناعه بتولّي القضاء

إلى القضاء ! وما أشقَّها من نقلةٍ !!*

كانَ ذالك بعد أن أحسستُ بقسط من الراحة، ووطَّنْتُ النفس على الاستقرار في هذه البلدة، وقويتْ صلةُ التعارف بيني وبين عدد من وُجَهَائها، وأصبحت أَجِدُ من الميل إلى عملي والرغبة فيه ما يشغل ذهني، بحيث لا أتطلع إلى أيِّ عملٍ سواه، بل لا أُفَضِّلُ عليه غيره.

لقد فُوْجِئت مساء يوم من الأيام بما لَمْ أكن أتوقَّعُ، بل صُدِمْتُ بأمر كاد يفقدني صوابي، إذ أوقعني في شبه حيرةٍ انْسَدَّتْ خلالها أمامي جميعُ المسالك التي تفضي بي إلى استيضاح مناهج الصواب، فصرت لا أبصر من أمري موقع قَدَمِي.

ثم مِمَّنْ تلك الصدمة؟! لا داعي لنبش الماضي: (لقد صدر الأمر السامي بالموافقة على تعيينكم قاضيا لظباء[1]، فيقتضي الاستعداد للسفر لمباشرة عملكم، وقد أُبْلِغَتْ ماليةُ ينبع بترحيلكم الخ: رئيس القضاة عبد الله بن حسن آل الشيخ).

لم يُجْدِ استعمالُ ما استطعت استعمالَهُ من وسائل اللطف والاعتذار، واستدرار العطف والشفقة، ولا الاتصال بابْنَي الشيخ محمدٍ، وعبدالعزيز لما بيني وبينهما من صداقة، ليشفعا لي بالبقاء في عملي، ولا بما أوضحته للشيخ نفسه من عدم كفاءتي، وأنا الذي حدث مني ما حمله على تأديبي، ولا الاستشفاع بمن له صلة به من مشايخي، فقد أُبْلِغَتْ (مالية ينبع بطيِّ قيدي من إدارة المدرسة) وتلقيت برقية من

* المجلة العربية، العدد (١٧١)، ربيع الآخر ١٤١٢هـ/ تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٩١م.

السيد طاهر الدباغ ـ مدير المعارف العام ـ (تبلغنا من المقام السامي بتعيينكم في قضاء ظباء فيقتضي تنفيذ الأمر، وتسليم المدرسة إلى معاونكم).

وكان أن صدر أمر نائب الملك [في الحجاز] إلى رئاسة القضاء برقم ٤٢٣٤ في ١ / ٥ / ١٣٥٦هـ [٩ / ٧ / ١٩٣٧م] بإقناعي بلزوم قبول الوظيفة الخ ـ فكان موقف الشيخ معي ما سأوضحه.

لقد تركتُ عملي في ينبع مُكْرَهاً، وسافرتُ إلى مكة، ونزلت مع أحد إخواني إبراهيم الحميضي في إِحْدَى حُجَرِ رباط (الداوودية) الذي يسكن الشيخ ابن حسن رئيس القضاة الدار الملحقة به، المطلة على الكعبة المشرفة.

لم أَرَ في الوجوه التي عرفتها قبل بضع سنوات ما كنت أشاهد فيها ذالك الحين من البشاشة واللطف، أو هكذا يتصور من كان على مثل ما أنا عليه من الحيرة، فقد كانت مقابلةُ الشيخ لي جافَّةً، ولم أتأثر من ذالك فهي أُوْلى مقابلة بيننا بعد أن حدث لي منه ما حدث وهو معذور، فالْمَنْصِبُ والجَاهُ، والكِبَرُ، وَ (وِشْ أَنْتِ يا بَعُوْضَة)[٢]، فكان أن زرته في مجلسه في البيت مرة أخرى، واكتفيت بتقديم كتاب أفرغت فيه من رقيق العبارة ولطف الاستجداء والخضوع ما توهمت أنه قد يستدر العطف والرحمة من أقسى القلوب، ثم شفعته في اليوم الثاني بكتاب آخر كان يحوي (آخر سهم في الكنانة) ـ كما يقولون ـ دفعته للشرطي الواقف على باب مجلس الشيخ فسلمه له، أوضحت فيه أنني متى أُرْغِمْتُ على القيام بهذا العمل الذي لا أستطيع القيام به،

فسأستعمل كُلَّ الوسائل التي تخلصني منه، وقد يكون من بينها ما لا ترضون!! .

ولقد كانت العادة من أَكْثَر مَنْ يُوَلَّى القضاء التَّمنُّع، وعدم قبول الوظيفة، لأول وَهْلَةٍ، ظهوراً بمظهر العفَّة والزهد، وتأسِّياً بما أُثِرَ عن كثير من علماء السلف من امتناعهم عن تولِّيه، وتحذيرهم منه (مَنْ وَلِيَ القضاء فقد ذُبِحَ بغير سِكِّينٍ) و(الْقُضَاةُ ثلاثة اثنان في النار، وواحد في الجنة).

إنَّ نِصْفَ النَّاسِ أعْدَاءٌ لِمَنْ ... وَلِيَ الأَحْكَامَ هذَا إِنْ عَدَلْ!

ولكن الحالة لا تلبث مع كثير من اؤلئك أن تكون وسيلة من وسائل تحقيق بعض المآرب الخاصة، وسرعان ما يتم ذالك، والنتيجة (أَكْرَهُونَا ونسأل الله الإعانة) وكما قيل قديماً[٣]:

عِنْدِي حَدِيْثٌ ظَرِيْفٌ ... بِمِثْلِهِ يُتَغَنَّى
عَنْ قَاضِيَيْنِ يُعَزَّى ... هذَا وهذَا يُهَنَّى
هذَا يَقُول (أَكْرَهُونَا) ... وذَا يَقُولُ (اسْتَرَحْنَا)
وَيَكْذِبَانِ جَمِيْعًا ... فَمَنْ يصدِّقُ مِنَّا

ما كنت متردداً حين أوضحت ـ فيما كتبته لرئيس القضاة ـ بأنني لن أدع أية وسيلة تخلصني فيما لو كلفت بدون اختياري إلاَّ اتخذتها، وما كنتُ مفكِّرًا إِذْ ذَاك بالامتثال بطوعي واختياري، ومضت أيام توقعت خلالها أن الأمر انتهى، وبدأْتُ أفكر في إصلاح حالي.

وكنت قد أظهرت لمدير المعارف وأنا في ينبع رغبتي في أن أُبْتَعَث

مع أول بعثة من خريجي مدرستي تحضير البعثات والمعهد السعودي، إلا أن الحاجة إلى بقائي في عملي حال دون تحقيق تلك الرغبة ـ فيما يظهر ـ وإنْ تعللت المعارف بأن شهادتي من قسم التخصص لا تؤهلني للابتعاث ـ كما يتضح هذا من الكتاب الموجه إلى أحد أساتيذي حين رغبت منه الاتصال بالمعارف في الموضوع وهو الشيخ عبد الله بن مُطْلَق ـ أحد مدرسي (المعهد) وتقدم الحديث عنه ـ فكان أن كتب إليه السيد طاهر الدباغ، مدير المعارف بتاريخ ٢٤ / ٥ / ١٣٥٥هـ: (يمكن للمذكور أن يكتب بنفسه طلبَ الالتحاق ونحن نعاونه بذالك بكل ممنونية، وإن كان يؤسفنا تركه عمله في ينبع فإنه مشكور في عمله) ألخ .

لقد اعتدت التردد على مكتبة الحرم المطلة على المسجد، وبعد مُضِيٍّ أيام اطمأننت خلالها، وتوقعت أن الأمر انتهى، وبعد صلاة الظهر في المكتبة مع من فيها بصلاة إمام الحرم، ما شعرتُ إلاَّ بشرطي يتقدم إليَّ طالباً الخروج معه، ولما استوضحته عن الغاية لم يجب بسوى كلمة (الشرطة) فاستجبت، وسرت معه، فتطرَّقَ بي المسجد حتى بلغ بابه المقابل لـ(دار الحميدية) وكانت مَقَرَّ أكثر الدوائر الرسمية كمجلس الشورى، والمعارف، والأوقاف، والمحكمة المستعجلة، وإدارة الشرطة، وفي إحدى الغرف ـ في الدور الأرضي ـ قَدَّمَني الشرطي لضابط قام فأدخلني غرفة واسعة يتصدرها مكتب جلس خلفه (مدير الأمن العام مهدي المصلح[٤]) تقدم إليه الضابط فهمس بأذنه، فما كان منه وأنا لا أزال واقفاً إلاَّ أن خاطبني بحدَّةٍ وانفعال، بكلمات تتضارب في فمه، مع ما في نطقه من تعتعة واضطراب، وكنت مُتهيئا لمصافحته، فلم يتحرك من مكانه، فاندفعت بأعلى صوتي قائلاً : أنا

طالب علم، لست مجرماً، ولم أرتكب ما يستوجب إهانتي، فتمتم بكلمات إلى ضابط جالس بجوار مكتب بقربه، فوجه الكلام إليَّ: اسمع برقية جلالة الملك (أبلغوا حمد الجاسر بالتوجه سريعاً لمباشرة عمله قاضياً لضبا، أو احبسوه وأفيدونا)، خشيت أن أتلقى من الإهانة وسوء المعاملة في الحبس ما لا طاقة لي به، ولا أجدُ أحداً ممن أعرف في استطاعته أن يُعْنَى بشؤوني داخل السجن، فما كان منِّي إلاّ أن قلت: (أنا مستعد للسفر) ووقعت تَعَهُّدًا بذالك، وبأن أحضر صباح كل يوم إلى الشرطة التي ستتولى مراجعة المالية لإعداد ما يلزم لترحيلي إلى (ظبا)، وما ذاك في ذالك العهد سوى كتاب من وكيل وزارة المالية إلى (إدارة البريد) لإركابي في سيارة بريد جدة إليها، وإبلاغ مدير ماليتها بإركابي في الباخرة - الدرجة الثانية - من جدة إلى الوَجْه، والكتابة إلى مدير مالية الوجه لاستئجار راحلتين لركوبي وحمل أمتعتي (كتبي) إلى مقر عملي، وسرعان ما انتهى كل ذالك، وأُبْلغت به من شرطي كان يتردد على منزلي في رباط (الداوودية)، وفي اليوم الثاني كان مبيتي في جدة لأُدْرِكَ الباخرة التي ستسافر منها يوم السبت إلى الوجه.

وفي ضحى يوم الإثنين كان النزول في ميناء الوجه[٥]، بعد أن قاسيتُ خلال اليومين الماضيين من (الهدام)[٦] ما أنهك جسمي، وَأَوْهَى قوتي، إلاَّ أَنَّ اجتلاءَ طلعة أمير هذه البلدة المشرقة، وحسن استقباله ولطفه - حين حللت في ضيافته - مسح آثار ما أحسست به من تعب، يشعر المرء حين يقابل الأمير علي بن عبد الله آل مبارك لأول مرة، أنه يقابل صديقاً تربطه به روابط الود والألفة منذ زمن، بما يتصف به من تواضع، وما يبدُوْ على مظهره الخالي من أي تصنع أو تكلف مما

هو أبعد ما يكون عن مظاهر كثير ممن تولى مثل عمله من رجال السلطة مما قد تتطلبه مراكزهم ـ أو هكذا يتوهمون ـ وهو من أسرة آل مبارك الوائلية التي عرف منها منذ ثلاثة قرون عدد من العلماء والأمراء والوجهاء[٧].

وبعد تناول ما (يسر الله) ـ كما عَبَّرَ الأمير ـ من غَداءٍ بعد صلاة الظهر اقترح أن يكون مبيت الليلة المقبلة في (الوجه) الآخَر، والمسافة بين المكانين لا يكلف اجتيازها جُهْداً، وهذا الوجه الآخر هو الذي حفلتْ كتب رحلات الحج بذكره، فقد كان من أشهر منازل طريق القادمين من مِصْرَ إلى الحجاز، وهو وادٍ ضيق، فيه آبار، ماؤها عذْبٌ حين تجود الأمطار، وفيه آثار قلعة قديمة أُعِدَّتْ لحماية المنزل، فعرف المكان بقلعة الوجه، للتفريق بينه وبين الميناء وهو أَنْزَهُ وأعْذَى، وخاصَّة في أيام الربيع حيث تزدان أرضه بأنواع النبات، وتَطَّرِدُ الغدران في محاني الوادي، وتنتشر الأشجار على جوانبها، فتبسط وارِفَ ظلالها في الْغُدُوِّ والآصَال، بحيث لا يحتاج المرء إلى الاستظلال عن حر الشمس في خيمة، أو اتقاء البرد بلباس، والْجَوُّ سَجْسَجٌ[٨]، لا قَرٌّ ولا حَرٌّ، وفوق كل ذالك فَخلق المضيف الكريم أضفَى على ما يتصف به ذالك المكان ما زاده بهجةً وسروراً، فمضى بياض اليومين كساعة من نهار، وأوقات السرور قصار!.

كان مدير مالية الوجه، الذي أبلغته (وزارة المالية) بتهيئة ما يلزم لسفري إلى مقر عملي رجلاً صعب المراس (مُلَيَّعا)[٩]، أو كما نقول ونحن صبيان (عَصَا مُكاسر)[١٠]، فقد كان من أول ما تولاه من أعمال الدولة وظيفة كاتب مع أحد أمراء الحدود الشرقية الْأَشِدَّاء، فكان لا

يتورع عن معاملته بمنتهى القسوة، في وقت هو أبعد ما يكون عن مكان يجد فيه مَلْجَأً أو مُدَّخَلاً، فتكونت في نفسه عقدة حقد وكراهية لمن يُنْمَى إليه ذالك الأمير، وحين بعثت إليه طالباً تهيئة ما يلزم لسفري علمت منه بأنه سيكل ذالك إلى (جَمَّال) بدويٍّ اعتاد أن يكلفه بالقيام بإيصال من تؤمر (مالية الوجه) بترحيله من صغار موظفي تلك الجهات من النواحي الشمالية النائية، وغالباً ما يكون ذالك الموظف طَوْعَ تصرف (الجمَّال) في كل أموره، وتحت رحمته فيما يحتاج إليه، مما اضطرني ـ بعد طول ملاحاة وكثرة مراجعة ومشورة من المضيف الكريم ـ إلى أن أستغني (عَنْ سَجَا وَوِرْدِه)[١١] فكان اختيار (الْجَمَّال) وراحلتَيْه، ومصاحبة إخوة من أهل البلدة التي بلغتها مُسْيَ رابعة ـ وكأنما كان زمن الرحلة وقت استجمام ونزهة.

فالرفقة على قلب رجل واحد، والأرض كأَنها بساط سندسيٌّ تزدان بمختلف الألوان بأزاهيرها وأَنواعِ نباتها، ننزل منها حيث يطيب لنا النزول، ونرحل حين نهوى المسير، وقد يستجدُّ لنا من ذكريات ما نمر به من المواضع ما يحملنا على استجلاء ما في جعبة رفيقنا الْبَلَوِيِّ من أخباره، فيجنح إلى الغور في أعمال الخيال، حين تُكْدِيْ ذاكرته، ولم لا ؟ إنه أحد حفدة أولئك الأعراب الذين كان نقلة اللغة والأدب ورواة الأخبار والأشعار في القرن الثاني الهجري يتسابقون لتلقُّفهم، حين يفدون إلى البصرة أو الكوفة، ليملأوا قماطرهم بما ينقلونه عنهم، وينسبونه إليهم، فلا يجد الواحد منهم مَنْدُوْحَةً وقد أحس بالزَّهْوِ والإعجاب أن تتفتح قريحته بالمعجب المطرب، بل قد تلجئه المسغبة وشدة الحاجة فَيُغْرِبُ في حديثه وقد يكذب، ومالنا ولهذا وها نحن

نجتاز (وادي عَنْتَر)[١٢] الواقع على مرحلة شمال بلدة الوجه، ولن يَعْجزَ هذا الْبَلَوِيَّ أَنْ يسرد لك من أخبار فارس بني عَبْسٍ ما يستهويك سماعُه، وأن يصل بين ما يحدثك به وما تشاهده من جبال وأودية وأمكنة، ولست بأول من يصيخ لما تسمعَ مَبْهُوراً، ومُصَدِّقاً إِنْ لم تكن ذَا إلمام بمعرفة منازل القبائل العربية في الزمن القديم،كما وقع لكثير من الرحالين[١٣]، فالاتِّفَاقُ في أسماء المواضع، وأسماء المشاهير، يوقع في الخلط في الحوداث التاريخية، وهذه البلاد التي نسير فيها كانت تحلها عند ظهورالإسلام قبيلة بني عُذْرَةَ القُضَاعيَّة، التي عرفت برقة الأفئدة، وطهارة القلوب حتى ضرب بها المثل في (الْهَوَى الْعُذْرِيِّ) إنها مرابع عَزَّة كُثَيِّرٍ، وجَمِيْل بُثَيْنَةَ، وها نحن نجزع مسيل الواديَيْنِ اللذين وصفهما كُثَيِّرٌ بقوله يخاطب صاحبته:

وأنْتِ الَّتِي حَبَّبَتِ شَغْباً إِلَى بَدَا إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِلاَدٌ سِوَاهُمَا
حَلَلْتِ بِهذَا حَلَّةً بَعْدَ حَلَّةٍ بِهذَا فَطَابَ الْوَادِيَانِ كِلاهُمَا

ويُضِيفُ الدَّلِيلُ الْبَلَوِيُّ: وها هي قرية شَغْبٍ على أيماننا، ليست بعيدة عنا، إنها لا تزال مأهولةً ذاتُ نَخْلٍ وماءٍ عذْب، وترجع بي الذاكرة إلى مافي كتاب «المسالك والممالك» للإصطخري من أن بني مروان أقطعوها عالم الحجاز في عهده في الحديث الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري. وما ذكره غير الإصطخري من أن قبره في وَادِيْ أَدَامَى على مقربة من تلك القرية، فأَسْتَزِيْدَ صاحبنا استيضاحاً عن أَدَامَى فيضيف: قرية شغب في فرعي واديين ينحدران من الْحَرَّةِ (حَرَّة العويرض) مشرِّقَيْن صوب البحر، أحدهما هذا الوادي الواسع الذي سنجزعه بعد قليل، وهو وادي الأَزْلَم. وهذه القلعة الخراب التي

على يسارنا عند مفيضه في ساحل البحر كانت مقر حُرَّاسِ الحجيج القادمين من مِصْر مع هذا الطريق، أَمَّا أَدَامى فنحن نسميه وادي دَامَةَ، وسنمر به في المساء أو صباح الغد، وهو واقع في المنتصف بين الأَزْلَم وبين ظباء، الأَزْلَم جنوبه وظبا شماله، ومفيضه في البحر بقرب شرم النُّعْمَان، وفروعه بقرب قرية شَغب، وطريق الحج القديم يجزع أسفله.

لقد طاب الواديان بحلول أحد أوعية العلم بأحاديث المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيهما، فقد أقطع الأَمَوِيُّونَ الإمام محمد بن مسلم شهاب الأزهريَ مالاً في شَغْبٍ استقرَّ فيه في آخر حياته، وفيه مرض، وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق لينال من دعاء المارَّة، وشغْب منحرفة، ذات اليسار عن القادم للحج من مصر، فنقل لما توفي سنة أربع وعشرين ومئة من تلك القرية إلى أسفل وادِي أَدَامَى (دَامَة) وقُبِر هناك، حيث يجزع الطريق الوادي، كما جاء في «المعارف» لابن قتيبة، وكما جاء في «الطبقات الكبرى» لابن سعد: وعن الحسين بن أبي السَّرِيِّ العسقلاني: رأيتُ قبر الزهري[١٤] بِأَدَامَى وهي خلفَ شغْبٍ وبَدَا.

لقد طال الالتفات إلى الماضي، ولكنه بالنسبة لما يتعلق بموطن ذالك الإمام الجليل يُعَدُّ قليلاً في حقِّه، وما فائدة العلم إِذَا لم يُتَّخَذْ وسيلةَ للاقتداء والتأسي:

وَإِذَا فَاتَكَ الْتِفَاتٌ إلى الْمَاضِي   فَقَدْ غَابَ عَنْكَ وَجْهُ التَّأَسِّي

لقد درس قبر ذالك العالم الجليل، وخير القبور الدوارس، فليس في وادي أدامى (دامة) منزلة من منازل الطريق في العصور الأخيرة، إِذْ الموضع يقع بين منزلتي (دار السلطان) شمال بلدة ظبا، و (الأزلم) حيث منتصف طريق الحج من القاهرة إلى مكة، ولا آثار للعمران فيما

بين المنزلتين، وأَغلب المياه شديد المرارة لقربه من البحر، وخاصة ماءُ الأزلم، ويكثر نبات العشرق الذي يستعمل للإسهال في تلك الجهات، التي لا يزال أكثرها يحتفظ باسمه القديم، وهذا راجع إلى أمرين: أحدهما بقاء فروع من سكانها الأقدمين، مستقرين في تلك المواضع، من بقايا القبائل القُضَاعِيَّة من بَلِيٍّ، وبني عُذْرَةً، ويظهر أن القبيلة الأولى كانت أقوى، فانضوت بقية العُذْرِيِّيْنَ وجيرانهم بحكم الجوار وقرابة النسب داخلها، والأمر الثاني: استمرار سلوك الحجاج بين مناهلها، واجتياز أوديتها، فبقيت أسماؤها متداولة، متناقلة على مَرِّ السنين، مذكورةً في كتب رحلات الحج، ولكن يحسن التثبت عما يورده أصحابها في تعريف تلك المواضع، فقد يطبقون بعض الأسماء على ما ورد في بعض المؤلفات القديمة، دون إدراك للاختلاف بينها، وملاحظة أن الاسم الواحد قد يطلق على عدة مواضع، ومما وهم فيه بعضهم منها سلمى ـ اسم واد معروف بقرب بلدة ظبا، وأشهر منه اسمُ أَحَدِ جَبَلَيْ طَيِّءٍ، والشربة في عالية نجد، و (الشرنبة) بقرب وادي عنتر بين الأزلم والوجه، وكذا العلم ـ الجبل الواقع في العالية، مع العلم السعدي الذي يقرن بالشَّرَبَّة، (الشرنبة) تلك[١٥].

وما أكثر ما كان يقصُّ علينا دليلنا البلويُّ أطرافاً من الأخبار، لا رابط بينها سوى تشابه الأسماء مما بقي متناقلاً بين أهل هذه البلاد مما يسمعونه ممن هو أوسع منهم معرفة من أصحاب الرحلات من العلماء.

ها قد شارفنا معالم البلدة الواقعة في مفيض وادٍ واسع، تنتشر فيه المزارع الصغيرة، التي لا يبدو منها ـ مع ظلمة الليل ـ سوى سوادها، والانتعاش بالروائح المنبعثة من أشجار تلك البساتين، وأكثرها مباقل ومقاثي.

وترتفع همهمات من بعض الإخوة، تنتهي بمسح الوجوه بالأكف، ويهمس لي أحدهم: هذا قبر السيد المرزوقي ـ مشيراً إلى مرتفع لا أتبينه مع السُّدْفَة* ـ فأستزيده إيضاحاً عنه فلا يفصح بأكثر من قوله: (من الأولياء الصالحين)!!.

ومع ما كان للمرزوقي هذا من شهرة في هذه الجهات، وفي كتب رحلات الحج المؤلفة في القرن العاشر ـ فما بعده ـ إلاَّ أنني لم أهتد إلى معرفة شيء من أحواله، باستثناء كونه يُعْرَف بـ(مرزوق الكفافي) وأنه موصوف بالتقى والصلاح، بحيث اعتنى بعض أمراء الحج في سنة ٩٥٩هـ بصيانة قبره ـ وكان من سكان تلك الجهة إلى ما يقرب من عصرنا الحاضر من يتيامَنُ باسمه[١٦]) ولا أستبعد أن يكون أحد الحجاج المغمورين، أدركته الوفاة في هذا الموضع، فاستغلَّ بعضهم العامَّةَ والسُّذَّج بإظهاره بمظهر القداسة، كما يفهم من وصف الخياري المدني (إبراهيم بن عبد الرحمن ١٠٣٧ / ١٠٨٣هـ) في رحلته سنة ١٠٨١هـ لقبره إذْ قال: (والعامة يقولون: إنَّ البحر لا يَعُمُّهُ، ولو زاد في الْمَدِّ على الْحَدِّ، ولكنه يفترق عن قبره يَمْنَةً ويُسْرَةً، وله أقارب وأتباع، علامتهم لبسُ شَمْلَةٍ من الصوف الأحمر على الرأس، يقفون بالطريق، ويطلبون نذر المذكور ممن هو عنده من الحجاج، فيعطيهم إياه، وهم طائفة كبيرهم يقال له أبوحلاوة، يتقدم رجل من الحجاج إلى المنزل كل يوم، ويقف إذَا قرب من المنزل على نحو ساعة أو أَقَلّ، ينادي بأعلى صوته على وضع مخصوص: السلامة يا حجاج!! فيستبشرون بصوته، ويظهر فيهم النشاط لعلمهم بقرب المنزل، وإذا حَلَّ الناس

* ظلمة الليل. (ش).

بنْدراً طافوا عليهم يطلبون شيئاً في مقابلة صنيعهم) انتهى. إذَنْ (كُلُّنا طالب صَيْدٍ غَيْرَ أَنَّ الشِّبَاكَ مختلفات)!!

ومرزوق هذا يُضَافُ إلى كُفَافَةَ، وهذا اسمُ وادٍ جنوب بلدة ظُبا يوشك أن يبلغه عمرانه، وهو من المواضع المعروفة قديماً، فقد ذكره العبدَرِيُّ في «الرحلة المغربية» وذكره مَنْ بَعْده، وكان مما خطر في ذهني حين علمتُ بما يجري من تعظيم قبر مرزوق الكفافي أن توهمته قبر الإمام الزهري، الذي توفي في قريته شَغْبٍ، ولكن الزهريَّ نقل فقبر على قارعة الطريق في أَدَامَى[١٧]، وهذ الوادي لا يزال معروفاً ولكن باسم (دَامَة) ويقع جنوب وادي كُفَافَة بنحو مرحلةَ، فهو بعيد عن موقع قبر مرزوق الكفافي.

لندع التعمُّقَ في البحث عن هذا الكفافي لمن يُعْنَى به، وها هو أحد الإخوة يصرف بي الراحلةَ للاتجاه إلى المكان الذي قد هُيِّءَ لي السكن فيه، وهو (المحكمة) في الجانب الغربي من البلدة :

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى   كَمَا قَرَّ عَيْناً بِالإِيَابِ الْمُسَافِرُ

الحواشي :

(١) : اعتاد كتاب الدواوين كتابة اسم هذه البلدة بالضاد (ضبا) وظننت هذا من آثار كتاب الدولة التركية الذين لا يفرقون بين الحرفين، حتى رأيت ذالك عند بعض العلماء المتقدمين كالبكري في «المسالك والممالك» والحِمْيَرِي في «الروض المعطار» وقبلهما العذري في «آكام المرجان» وبعضهم (ضبَّه) كالمقدسي في «أحسن التقاسيم»، أما أهل البلدة فينطقون الاسم بالظاء (ظبا) ومعلوم أن العامة لايفرقون في النطق بين الحرفين، وممن كتب الاسم بالظاء (ظبة) صاحب كتاب «المناسك» وكثير من أصحاب رحلات الحج ـ وللاستزادة في معرفة المكان يحسن الرجوع إلى كتاب «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» قسم شمال المملكة ـ رسم (ضبا) و (ظبا).

(٢) : كلمة يقصد بها قلة الاكترات وأصلها ـ كما يقال : إنَّ بعوضة وقعت فوق رأس فِيْلٍ ، فلم يشعر بها، فما كان منها لتلفت نظره إليها إلا أن قالت : إن كنت أثقلتُ عليك فأخبرني لأُطير، فأجابها : (وِشْ أَنْتِ يا بعوضة) أي لم أشعر بوقوعك فوقي حتى أرتاح لطيرانك عني .

(٣) : كنت قرأت الشعر ـ إن لم تخنني الذاكرة ـ منسوباً إلى ابن حجر العسقلاني في ديوانه ، فنسبته إليه ، ولكنني قرأته أخيراً في كتاب « الكامل » لابن الأثير و «البداية والنهاية» لا بن كثير ـ ج١١ حوادث سنة ٣٩٩ هـ منسوباً إلى العصفري ، وهذا قبل ابن حجر بزمن كما يدل النص الوارد في الكتابين في حوادث سنة تسع وتسعين وثلاث مئة قال : وفيها صرف عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة ووليه أبو الحسن بن أبي الشوارب فذهب الناس يهنئون هذا ويعزون هذا فقال في ذالك العصفري : وأورد الأبيات.

(٤) : كان يعرف بـ(مهدي قلعلي) فلقبه الملك عبد العزيز ـ رحمهما الله ـ بـ(مهدي المصلح) وقد عرف بالصرامة والشدة في أداء عمله، وقد عاش ـ بعد خروجه من العمل في شبه عزلة، وتوفي في القاهرة يوم الأربعاء ١٣٧٣/٦/٢هـ (١٩٥٢/٢/١٦م)جريدة البلاد ١٣٧٣/٦/٩ هـ .

(٥) : ستجد بحثاً مفصلاً عن بلدة (الوجه) في قسم شمال المملكة «من المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

(٦) : الهُدَام : بضم الهاء وفتح الدال بعدها ألف فميم ـ الدوار الذي يصيب الإنسان من ركوب البحر ـ والكلمة من الفصاح التي لا تزال مستعلمة عند أهل نجد.

(٧) : في كتاب «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» وفي مجلة «العرب» س٢٥ ص ٥٦٢ ـ إيضاح نسب هذه الأسرة، أما الأمير علي فقد توفى سنة ١٣٦٤هـ عن أربع وأربعين سنة، وقد توفي ـ رحمه الله ـ وكان أميراً لبلدة الوجه وقبل ذالك تولى من الأعمال إمارة الأفلاج، كما شارك بعض الأمراء في أعمال أخرى.

(٨) : السَّجْسَجُ الْمُعْتَدِلُ ، يقال : يوم سَجْسَج، لا حَرٌّ ، ولا قُرٌّ، وكل هواء معتدل طيب سجسج.

(٩) : الْمَلَيَّعُ ـ في العامية من حككته الشدائد، حتى بلغت به حالة الاسترابة وعدم الثقة بأي أحد.

(١٠): و (عصا المكاسَر) بفتح السين من ألعاب الصبيان ـ يختار أحدهم عصا قوية صلبة، ويماري صاحبه بأنه لن يجد عصا أقوى منها، وتنتهي المماراة بأن يضرب أحدهما عصا الآخر، ويتباريان حتى تنكسر الضعيفة، فالقوية هي (عصا المكاسر).

(١١): (سجَا) من أشهر مناهل البادية في عالية نجد، وقدعرف منذ القدم بصعوبة الاستقاء منه لأنه بعيد القعر، قال فيه الراجز :

لاَ سَلَّمَ الله عَلَى خَرْقًا سَجَــا ... مَنْ يَنْجُ مِنْ خَرْقَـا سَجَا فَقَدْ نَجَا

أَنْكَـدُ لاَ يُنْبِتُ إِلاَّ العَـرفَجَـا ... لَمْ تَتْـرُكِ الرَّمْضَـاءُ مِنّي وَالـوَجَـا

وَالنَّزْعُ مِنْ أَبْعَدِ قَعْرٍ مِنْ سَجَا ... إِلاَّ عُـرُوْقَاً وَعُـرُوقـاً خُــرَّجَــا

(١٢): انظر عن هذا الموضع «المعجم الجغرافي» - قسم شمال المملكة - رسم (اصطبل عنتر) و(عنتر).

(١٣): كابن عبد السلام الدرعي ـ وهو من أجلة العلماء ـ في كلامه على (اصطبل عنتر) و (سَلْمَى) وغيرهما من المواضع.

(١٤): انظر عن (قبر الزهري) مجلة «العرب» س١٤ ص ٣٦٩ أما شغْب قريته فتقع في أعلى وادي الأزلم بقرب خط الطول : ٢٠َ/ ٣٦ْ وخط العرض : ١٥َ / ٢٧ْ.

(١٥): انظر لمثل هذا الخلط «رحلة محمد بن عبد السلام الدرعي» و «الدرر الفرائد المنظمة».

(١٦): «الدرر الفرائد المنظمة» ، ومن الأسر الكريمة المعروفة في مكة أسرة الشيخ محمد المرزوقي أبو حُسين رحمه الله من أهل ظبا، وانتقل إلى مكة وتولى مناصب رفيعة في القضاء وابنه محمد تولى قضاء جدة، وللشيخ المرزوقي أحفاد فضلاء.

(١٧): أدامي : ذكر ياقوت في «معجم البلدان» أن الزهري غرس فيها نخلاً بعد ما أسن ولتحديد الموقع انظر « المعجم الجغرافي» ـ قسم شمال المملكة.

(ظبا) البلدة الغافية في أغوار التاريخ*

المنطقة الواقعة فيما بين مينائي (الوجه) و(العقبة) من شمال الحجاز موطن حضارة قديمة حَلَّتْهُ وعمرته من الأمم العربية البائدة (مَدْيَنُ) المذكورة في القرآن الكريم، فعرفت بها، كما عرفت مواطن أمم أخرى كالحِجْرِ، بلادِ ثَمُود، والأحقاف بلاد عاد، وكان موطِنُ النبي شعيب رسول تلك الأمة ــ عليه السلام ــ معروفًا في تلك المنطقة ــ ولا يزال ــ إلى عهدنا الحاضر، قَلَّ أنْ يخلو كتابُ رحلةٍ من رحلات الحج التي عُنِيَتْ بوصف الطريق الذي يخترق تِلْكَ المنطقة من ذكره، وذكر بئره، والمغارة[1] التي بقربها المنسوبة إلى شُعَيْب، ويُدْعى الموضع الآن (الْبِدْع) ويقصد بالكلمة عند أهل هذا الزمان كل بئر أو موضع ينشأ حديثًا، محلَّ موطن مأهول قديم[2]، وهناك مواضع أثرية لا تزال معروفة في هذه الجهة، منها (مَقْنا)[3] الوارد ذكرها في بعض المؤلفات القديمة، ثم في السيرة النبوية، و (عَيْنُوْنَا) و (بَدَا) بلدة النبي شعيب، و (شَغْب)[4] قرية الإمام محمد بن مسلم بن شهابٍ الزُّهْرِي ــ المتقدم ذكره ــ .

ولِفِلْبِي مُؤَلَّفٌ سماه «أرض مَدْيَن» عُرِّبَ خطأً باسم «أرض الأنبياء أو مدائن صالح» ولا صلة له بمدائن صالح، وعناية فلبي في هذا الكتاب مُنْصَبَّةٌ على مشاهداته، ووصف الآثار البارزة، وليس بذي معرفة بالتاريخ، ولهذا فهو في كتابه عن مَدْيَن يقول[5]: ولست أبالغ إذا قلت: يمكن للمرء أن يقول وهو آمِنٌ: إنه لم يبقَ أَيُّ شيْءٍ مَدْيَنِيٌّ في المنطقة

---

* المجلة العربية، العدد (١٧٢)، جمادى الأولى ١٤١٢هـ/ كانون الأول ١٩٩١م.

بأسرها، أما الأضرحة فهي تؤكد أَنَّ النبطيين سكنوا الوادي فترة من الزمن، وأن تاريخ الوادي بعدهم وأثناء إقامتهم وتاريخ المدينيين بحاجة إلى البحوث العلمية الدقيقة. انتهى قول فلبي مع أن المؤرخين يكادون يجمعون على أن هذه البلاد هي بلاد مَدْيَنَ، وأن تلك الآثار المشاهدة فيها هي آثارها، بل يرى بعضهم أن قبيلة جُذَامٍ القحطانية الأصل، التي استوطنت المنطقة إلى ما بعد ظهور الإسلام كانت بقيةَ مَدْيَنَ، وأن النبي شُعَيباً ـ عليه السلام ـ كان من بني وائل الجُذَاميِّيْنَ، أَخْذاً بالأثر المنسوب إلى النبي ﷺ من أنه قال لوفد جذام: (مَرْحَباً بقوم شُعَيْبٍ وأصْهار موسى، ولا تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح، ويولد له)[٦].

ومن المعروف أنَّ كل أمة من الأمم ينتابها في أطوار حياتها ما ينتاب الإنسانَ من ضعف فقوة فضعف يُلْجِئُها إلى الاندماج في أمة قوية حديثة، تلك حالة جميع الأمم القديمة كعادٍ وثَمُودَ ومَدْيَنَ وطَسْمٍ وجَدِيْسَ وغيرها، وما قبيلة جُذَام وجيرانها من ألفاف القبائل الأخرى كبني عذرة وبني عقبة وبَليٍّ سوى مظهر من مظاهر سكان تلك البلاد القدماء أيًّا كانوا، ممن كانت تربطهم بهم أواصر القربى، من نسب أو جوار، ولا يزال ذالك المظهر مُمَثَّلاً بسكان تلك المنطقة في العهد الحاضر ممن عرف بأسماء حديثة، كبني عقبة، وبني عطية والحويطات والعمران والعميرات وغيرهم ممن لا يزالون معتزِّيْنَ بما أُثِرَ لأسلافهم في هذه البلاد، وإِنْ جَهِلوا روابطَ الصلة بهم.

أما هذه البلدة التي لا تزال غَافيةً، ويبدو أنَّ غفوتها هذه من مميزاتها المحمودة، فهي وإِنْ كانت تَمْتَدُّ بجذور عميقة إلى أغوار التاريخ إلاَّ أَنَّ المتعمق في بحثه لا يتضح له من تاريخها أكثر من أن تلك البلدة كانت

معروفة ومأهولة قبل ألف عام، فقد قال ابن أَنَسٍ العُذْرِيُّ الأَندلسي صاحب كتاب «نظام المرجان» والرجل من أهل القرن الرابع الهجري ألف كتابه سنة ٤١٤ هـ[٧] : مَرْسَى ضبا مأمون، به سبع آبار عذبة، وشجر المُقْل، وتَمر هندي (؟) وبها أثر قدم إنسانٍ في الحجر، متوسط الكعب والأصابع لم أجد من يخبرني عنه. انتهى.

وأَغرب صاحب «معجم البلدان» فسَمَّاها (ضَبَّة) بلفظ واحدة الضِّبابِ، ووصفها بأنها قرية بتهامة على ساحل البحر، مما يلي الشام، وبحذائها قرية يقال لها بَدَا، وهي قرية يعقوب النبي عليه السلام، بها نَهْرٌ جارٍ، بينهما سبعون ميلاً، ومنها سار يعقوب إلى ابنه يوسف عليه السلام ـ بمصر ـ انتهى. ولولا ذكر صلتها ببَدَا لقيل إنه يَقْصُدُ موضعًا آخر، غير أن بَدَا وادٍ كان مأهولا بقرب شغْب والواديان في منطقة ظبا البلد الذي اشتهر بكونه من الموانيء القديمة.

وتنتاب هذا الميناء إغفاءةٌ تمتد قرونًا ـ خلال العهد الإسلامي ـ مع ما يجري في المنطقة كلها من حركة قوية، تتمثل بمرور الحجاج القادمين من مِصْر، ومن بلاد المغرب كلَّ عام، في فترتين من كل عام في شهر ذي القعدة للقدوم إلى البلاد المقدسة، وفي شهر المحرم في الإياب من تلك البلاد، ويكاد اسم ذالك الميناء يختفي، والسبب يرجع إلى أن الطريق البحريَّ قلت أهميته، واتخذ الحجاج الطريقَ البرِّيَّ المحاذيَ لشاطيء البحر، حتى عادت الحركة التجارية في موانيء البلاد المصرية للبحر الأحمر كالسُّوَيْس والقُصَيْر، فنشأتْ حركة مماثلة لما حدث في الساحل المقابل، شملتْ كلَّ الموانيء الممتدة من خليج العقبة حتى ميناء ينبع، فنالت بلدة ظبا نصيبها، وأخذت تستعيد نشاطها، فبعد

أن كانت في مطلع القرن الثاني عشر الهجري لا تعدُوْ منزلاً من منازل بعض المارة من الحجاج، ذَا آبارٍ من الماء العذب الرائق كما يصفها الشيخ عبد الغني النابلسي، وقد مر بها سنة ١٢٠٥هـ، إذَا بها تبدأُ بالانتعاش ممثلاً بما يزاوله سكانها من نشاط تجاري، بعد أقل من قرن من الزمان، مما أَلْمَحَ إليه محمد صادق باشا أمير الحج المصري وقد مَرَّ بها سنة ١٢٩٧هـ فوصفها بأنها محطة في بقعة[٨] متسعة، محاطة بجبال قريبة من البحر، وبها بيوت وحواصل، وجامع، وبرج صغير، تابعة لمحافظة المويلح، وتجارتها الحطب والفحم والسمك، انتهى.

لقد أصبحت ذات تجارة تستلزم التصدير إلى البلاد التي تتصرف فيها تجارتها وهي البلاد المصرية، وتستدعى وسائل نقلٍ، وهي السفن، أما عن ارتباطها بالمويلح فلقرب هذه البلدة من المركز الإداري المصري في ذالك العهد، وتستمر الحركة التجارية في النشاط، وينتقل إلى البلدة كثير من رجال الأعمال في البحر وفي التجارة، من السويس ومن القُصَيْر ومن غيرهما فيكثر السكان، وينمو العمران، حتى تصبح في منتصف القرن الماضي من أقوى موانيء البحر الأحمر الغربية، إنْ لم تكن أقواها بعد ينبع.

ويزورها فلبي سنة ١٣٧١هـ (١٩٥١م) فيصفها بأنها أكثر سكانا من بلدة الوجه، حيث يقدرهم بما يقارب ألف نسمة[٩] وفضلاً عن موقعها التجاري بصفته نقطة اتصال في الحركة البحرية بين الموانيء المصرية وبين موانيء شمال البحر الأحمر المقابلة، فإن البلد تعدُّ قاعدة القبائل في المنطقة الواقعة شمال المملكة، المنتشرة بكثرة في البادية، أو في القرى المأهولة بين العقبة وحدود الوجه، كحقل، والبِدْع، وعَيْنُوْنَا

ومَقْنَا وشَغْبٍ وبَدَا وغيرها من بني عقبة وبني عطية والحويطات والمساعيد والعميرات وغيرهم، ومن هنا تَبْدُوْ أهميتها، وكانت إمارتها في ذالك العهد مرتبطة بالنيابة العامة في مكة المكرمة، ولم تنفصل إلاَّ في أول عشر الثمانين من القرن الماضي، حين بلغت مدينة تبوك وضعاً إدارياً مُتَمَيِّزاً من الناحية العمرانية، بعد أن ولي إمارتها أمير ذُوْ صلة قوية برجال الحكم، بل كان ذالك الأمير مع تلك الصلة ذَا همَّةٍ عالية، ورغبة قوية في الإصلاح الإداري، والتنظيم الاجتماعي، شمل أثرهما المنطقة بأسرها(١٠) فعيَّنَ أميراً في بلدة ظبا أحد أتباعه يدعى محمد النفيسي، إلاَّ أَنَها أُصيبت بركود في الحركة التجارية، التي كانت تعتمد على تصدير الأغنام، وفحم الخشب، والأعمال البحرية بواسطة السفن الشراعية، فيما بين مواني تلك المنطقة وبين ما يقرب منها من الموانيء المصرية كالسويس والقُصَيْر، فَمُنِعَ التصدير، فتوقفت أعمال أَهلِ تلك الموانيء مما اضطر أكثرهم للنزوح عنها سعياً وراء الرزق.

وتقع بلدة ظبا على مرتفع من الأرض على الضفة الشمالية من مُتَّسَعِ وادٍ يتصل بالبحر من الناحية الغربية، وتنتشر المساكن في هذا المرتفع وفي سفحه حيث تتصل ببساتين صغيرة قليلة في بطن الوادي، تُسْقَى من آبار قريبة القعر، عذبة الماء مع ضحالته، وقربه من ماء البحر، والبيوت متفرقة وواسعة وحديثة، وقَلَّ أن يخلُوَ بيت من بئر، وَتدْنُو المنطقة الجبلية من البلدة، بحيث يشاهد المرء في الجهة الشمالية منها عن بُعْدٍ ما امْتَدَّ من سلسلة جبال (حِسْما)(١١) التي هي امتداد لجبال سراة الحجاز، ومنها جبل (شَار) الذي ذكر فلبي أن النفيسي أنزله لما مَرَّ بالبلدة بيتاً يطل من نافذته فيرى جهة الشمال قِمَّتَهُ، وهو يعني الجبل الذي حدثت بقربه الوقعة المعروفة باسمه سنة ١٣٥١هـ،

وفيها قتل ابنُ رِفَادَة الذي قام بثورة ذالك العام[١٢].

لا أراني انصرفْتُ كثيراً نحو الماضي حتى شغلت به عما أَنا فيه من الحديث عن الحاضر، ويبدو لي مما شاهدته من مظاهر أهل هذه البلدة وأَنا لا أزال حديث العهد بها لم أستكمل أسبوعًا، أَنَّ لحداثة عهدها بالإفاقة من شدة صدمات الحوادث السيئة التي سببتها تلك الثورة، فهي لا تزال تُعاني من آثارها، كما يبدو مما يعلو وجوه كثير من السكان من الانقباض والوجوم، عند الاختلاط بهم، بحيث لا يشاهد بينهم ما اعتادهُ سكان المدن الصغيرة من التزاور والتواصل والاجتماعات العامة، وقد يكون هذا ناشئا عن كونهم خَلِيْطًا غير متجانس من الحاضرة ممن يمتهن التجارة، والأعمال البحرية، ومن أبناء البادية الذين يُمدُّوْنَ البلدةَ بمنتجاتهم من الأنعام، وبما يجلبونه من باديتهم مما يحتاج إليه سكان المدن من حطب وفحم. وهناك عدد قليل من موظفي الدولة أكثرهم ممن طَرَأَ على البلدةَ، لا يختلفون عن غيرهم، فلا يبدُوْ بينهم من التواصل ما يعبر عن تآلفٍ وترابط، مع اشتراكهم في أعمالهم اليومية، وهكذا تصورت هذه البنية التي يقوم عليها هذا المجتمع الصغير، في هذه البلدة في الأسبوع الأول من وصولي إليها.

لقد كان استقبال الأمير لي في غاية من اللطف والإيناس فوق ما كنت أتوقع، إنه أمير دَمِثُ الأخلاق طلق المحيا مَرِحُ النفس، ذُو المام واسع بما يطرقه محدثه من موضوعات مختلفة، ثم هو من أسرة كريمة المحتد، عريقة في الإمارة[١٣]، ذات حظوة لدى كبار رجال الدولة قديْماً وحديثاً هو عبد العزيز بن عبد العزيز بن ماضي، وجُلُّ حاشيته وأكثر رجال الإمارة من جهة واحدة[١٤]، ولهذا فهم بطبيعة عملهم كالأسرة

الواحدة في جل شؤونهم، وأكثر موظفي البلدة الآخرون مَدَنِيُّوْن، ومن أبرز طباع هاؤلاء أنهم اجتماعيون، وهكذا كانت حالتهم، فمدير المالية والجمارك السيد ياسين طه، ومدير الشرطة حسين جميل أخو علي جميل مساعد مدير الأمن العام في عهد مهدي ثم مديره بعده، ومدير البرق والهاتف حاتم توفيق، والمهندس محمد علي القصاص، كل هاؤلاء من المدينة المنورة، وهم يُكَوِّنُوْنَ أسرةً متآلفة.

ولأبناء البادية مجتمعهم الخاص حيث يرعى شؤونهم وصلاتهم بالإمارة محمود أبو طقيقة من كبار مشايخ الحويطات بوظيفة (قائم مقام)[١٥]، ويتولى موظفون من أهل البلدة بعض الأعمال في المحكمة والبلدية، فالشيخ حسين حسن خُضَيْر ـ بضم الخاء ـ واثنان من أبناء أخيه من موظفي المحكمة، وأخوه علي رئيس البلدية، أما المدرسة فيتولى إدارتها الشيخ محمد رشيد، ويساعده في عمله ثلاثة من أبنائه، إنه شيخ فاضل قدم هذه البلدة من قرية سِلْفِيْت، من قضاء نابلس من بلاد فلسطين مُجَنَّدًا في العهد التركي، فاستقر بعد أَنْ طاب له المقام في بلاد لا تبعد كثيراً عن وطنه[١٦].

ومن أبرز رجال الأعمال من التجارة محمود بديوي شحاته، ثم ابنه إسماعيل، وأسرة آل بديوي من أنشط الأسر ذات سمعة طيبة، ونفوذ واسع، لا في المنطقة وحدها بل يتجاوزها إلى السُّوَيْس والقُصَيْر، فلها صلات قوية، ومركزها التجاري في الوجه.

لقد اعتاد كثير من الناس في البلاد الأخرى أن يتهافتوا على الاتصال بالقاضي، ولاسيما إذا كان حديث العهد في بلدتهم، ليكسبوا وُدَّهُ بتقوية صلاتهم به، وهناك من ينتمي إلى العلم والتدين والصلاح، ممن

يرى في القاضي أسوةً وقدوةً ووسيلةً للاستزادة من العلم والفضل، أما اؤلئك الذين يتعرضون لما يحدث في البلدة من قضايا ومشكلات، ممن يسعى ليكون ذَا كلمة مسموعة لدى القاضي، فيحرص ساعة قدومه إلى البلدة للاتصال به فَقَلَّ أَنْ تَخْلُوَ أية بلدة منهم.

ولكن ها هو الأسبوع الأول لوصولي هنا ينتهي دون أن يَلِجَ هذا الباب المفتوح لكل أَحَدٍ أيٍّ زَائِرٍ من تلك الأصناف، أفَترى هذا الطارئُ الغريب سيصبح وجوده نشَازًا في هذا المجتمع الجديد بالنسبة إليه، بل الغريب حقًا؟ وهل وَطَّنَ نفسه على تَحَمُّلِ ما سيشعر به أثناء وجوده فيه من متاعب الغربة، غربة الشعور، والإحساس به من أشد ما يؤلم النفس، وتلك أقسى أنواع الغربة؟!

لقد بدأت أُحسُّ بثقلِ ما يمرُّ بي من وقت، فما من عمل في المحكمة أَتَّجِهُ للقيام به لأَصْرِفَ جهدي وتفكيري في أَدائه، فالمترددون عليها طوال أيام الأسبوع على قلتهم تكاد تنحصر غاية ترددهم في خلافات يسيرةً على أشياء تافهة، أو في الاستيضاح عن مسائل تتعلق بالأحوال الشخصية، والشيخ حسين خُضَيْر ـ كاتب المحكمة ـ له منزلة في نفوس أهل البلدة، ومكانة بينهم، وهو محلُّ ثقتهم لرجاحة عقله ونزاهته، ولهذا فقد كانوا يعوِّلُون عليه في حلِّ مشكلاتهم، ويرجعون إليه حتى مع وجود القاضي، فيتولَّى ذالك بطريقة تنال رضاهم، ومعرفته بأحوالهم مكَّنَتْهُ من أن ينظروا إليه نظرة تقديرٍ واحترام، من هنا لم أُشْغِلْ نفسي بمثل تلك الأمور، ولم أَرَ من الحكمة والعقل التأثير على ما لهذا الرجل الفاضل من مكانَة بين أهل بلدته، وكان لموقفي هذا منه موقعه في نفوسهم، وكان على درجة من الوعي والإدراك تمكنه من

الحرص على نيل رضا الجميع، وكان يتولى الإمامة في جامع البلدة احتسابًا، وله ابنا أخ شابّان فاضلان، هما إبراهيم وأحمد يعملان معه في المحكمة، ولأبيهما منزلة بين سكان البلدة، تسامى منزلة أخيه الشيخ حسين في إدارة عمله ـ رئيساً للبلدية ـ بحكمة ونشاط، ورعاية عامة لجميع مصالح السكان، دون تفريق أو تمييز، واهتمام بالغ بإصلاح الشؤون العامة بالقدر المستطاع.

لم يقتصر الإحساس بالفراغ بالنسبة لي على ما اعتراني من ضيق نفسيٍّ كنت أُحاول إزالته أو تخفيفه باللجوء إلى المطالعة، بل كان من آثار ذالك الإحساس أنني صرت أشعر بعزوف شديد عن المطالعة والقراءة، فسرعان ما أَطْرَح الكتاب من يدي قبل استكمال ما أردت بحثه فيه، وقد يكون من أسباب ذالك اقتصار ما أحضرت معي من مؤلفات على ما له صلة بعملي، الذي لم أُقْبِلْ عليه عن رغبة، وهي مؤلفات فقهية لَعَلَّ أبعدها عن الجفاف أجزاء من كتاب« المغني» و «الشرح الكبير» ثم من بينها «كشاف القناع عن متن الإقناع» و «شرح منتهى الإرادَات» و «الروض المربع» «شرح زاد المستقنع» وهي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، سوى الأول فهو شامل للمذاهب الإسلامية ومن بين ما أحضرت «تفسير القرآن الكريم» لابن كثير، ومع أن تاريخه «البداية والنهاية» وهو من الكتب التي توزعها رئاسة القضاة والكتب التي أرتاح لمطالعتها فقد توقعت بأنني سأجد من القضايا ما يحول بيني وبين المطالعة، فاكتفيت بإحضار ماله صلة بما توقعته من عمل من الكتب الفقهية، بحيث إنني عند إعداد خطبة الجمعة ـ وكنت أتولى صلاتها إماماً في المسجد الجامع ـ لا أجد ما أستعين به مما

يتصل بالوعظ سوى كتاب «رياض الصالحين» فأختار من موضوعاته ما أراه ملائماً لِلْعظَة، وأتخذه مداراً للخطبة، شارحاً ما يتصل به من أحاديث.

وتوثقت الصلة بإخوة لا يزيدون على عدد أصابع اليد، الشيخ حسين خُضَيْر، لصلته بالمحكمة وقيامه بالعمل فيها منذ العهد التركي، ولإشرافه على ترتيب شؤوني الخاصة، وفوق هذا وذاك فقد كان من خِيرة من عرفت خُلُقاً وصِدْقاً ونزاهة، وأبورَشيد محمد بن رَشيد ـ بفتح الراء ـ مدير المدرسة، ولا أقول بأن صلته كانت من قبيل (وكُلّ غَرِيْبٍ لِلْغَرِيْبِ نَسِيْبُ) بل لما يتصف به من لطف وعقل وأدب جم، وإسماعيل محمود بديوي شحاته، من أنشط رجال الأعمال في البلدة، بل في المنطقة الشمالية الممتدة من الوجه إلى العقبة، وهو مع ماهو عليه من سعة اليد، فاضلُ الأخلاق، ذُوْ شهامة وكرم، وتقدير لذوي الفضل والعلم، وينضم إلى أولئك علي حُسين خضير، وهو سداد عَوَزِهم[١٧] حينما يذهبون خارج البلدة فيحتاجون إلى تهيئة ما يلزم من فراش وغيره، ويلتئم شمل الثلة غالباً[١٨] في بيت أحد الجماعة إلاَّ أَنَّ أكثر اللقاءات تتم مساءً بعد صلاة العصر، إذ الفصل فصلُ الصيف، وهو في تهامة شديدُ الحر، والْجَوُّ مع حرارته وَمْدٌ[١٩]، ويكون الذهاب إلى ضاحية تقع على مقربة من البلدة مَشْياً على الأقدام، تُدْعى ضاحية (كُفَافة) ـ بضم الكاف وفتح الفاء مخففة ـ أسفل واد فيه يقع قبر مرزوق الكفافي، على ضفاف البحر، ومع ذالك فيه بساتين قليلة لأهل البلدة، ماء آبارها عذب، لم تؤثر فيه ملوحة ماء البحر، وهذا الوادي معروف قديماً بهذا الاسم، ورد ذكره في «الرحلة المغربية» للعبدري

وهو من أهل القرن السابع، ولكنه خلط بينه وبين وادي سَلْمَى المجاور له من الجنوب فقال: كفافة[20] جبل على يسار الطريق ويقولون: إنها نصف الطريق من مصر إلى مكة، وفي سفح الجبل أحساء* يحفر عنها في وادٍ يقال له سلمى، وماؤها غزير عذب، ما يكاد يُرَى في البريَّة مثله عذوبةً وصفاء. انتهى.

والاسم يطلق على الجبل وعلى واديْه، ومنتصف الطريق الأزلم المنزلة التي بعد هذا المكان للمتجه جنوباً ـ ولا بأس من إيراد بيتين من الشعر لعل استلطاف صاحب كتاب «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة» لهما هو الباعث على إيرادهما وهما يتعلقان بهذا الموضوع قال: ولناصر الدين بن مِيْلَق[21]:

كَفتْنَا أَكُفٌّ مِنْ كُفَافَةَ أَكْفَأَتْ ... عَلَيْنَا زُلاَلاً مِنْ غُيُوثِ نَدَاهَا

فَلِلّهِ ذَاكَ الْغَيْثُ كَمْ عَمَّ ظَامِئاً ... وكَمْ ظَمِئَتْ مِنْهُ كُبُوْدُ عِدَاهَا

لقد (كفكف) الشيخ كما (شلشل) قبله الأعشى الكبير و(قَلْقَلَ) المتنبي، ولن تعدم الحسناء ذَاماً، فالمكان ـ رغم اسمه ـ كان من مجالي التجليات، ومسارح الأُنس والمسرات، في العهود الماضية للشيخ ناصر الدين وأضرابه كالشيخ عبد الغني النابلسي القائل بعد أن ذكر وادي الفال شمال ظبا:

أَتيْنَاهُ صُبْحاً فِي طَرِيْقِ الْحِجَازِ مِنْ ... حِمَى مِصْرَ حَيْثُ الرَّكْبُ كَانَ مُطَنِّبَا

إِلَى أَنْ وَرَدْنَا مِنْ ظُبَا مَاءَهَا الَّذِيْ ... صَفَا رَوْنَقاً كَالْمَاءِ فِيْ أَعْيُنِ الظِّبَا

وَلَذَّ لِصَادٍ فِي الْهَوَاجِرِ نَهْلُهُ ... فَلِلّهِ مَا أَحْلاهُ طَعْماً وأَعْذَبَا

لقد كانت نظرات اؤلئك إلى هذه الأَمكنة تغاير النظرات المألوفة

---

* جمع حسى: مجمع الماء كما في إقليم الأحساء. (ش).

من غيرهم إليها، إنها نظرات من يتخيل في الوسائل ما في الغايات من الصفات، وقد عَبَرُوْا هذه البقاع بقلوب مؤمنة، يحدوها الشوق لبلوغ ما فيه طاعة محبوبهم، والفوز برضاه، فاستسهلوا الصعاب، وعَبَّرُوْا عَنْ قناعة وصدق عما يغمر قلوبهم، وتستشفه نفوسهم المفعمة بالطمأنينة والارتياح، مِنْ رضا واستحسان، فهم يتنَسَّمُونَ نفحات الدنوِّ والقُرْبِ من تحقيق أَسْمَى مآربهم وأشرف غاياتهم، في هذه الحياة، كلما اجتازوا وادياً أو شاهدُوْا جَبَلاً أو حَلُّوا مَنْزِلاً فَلْنَسْتَمْطِر سُحُبَ الرحمة على أضرحة أولئك القوم، من ذوي القلوب الطاهرة، والنفوس المفعمة بالحب والرضا، فلا يَبْدُوْ لها فيما تشاهد من أودية هذه البلاد وجبالها، وسهولها وحزونها، سوى وجهها الجميل (كُنْ جَمِيْلاً تَرَ الْوُجُوْدَ جَمِيْلاً) ولَمْ يبْخَسْ هذا المكان نَصِيْبُهُ من ذالك، إنه سهل منبسط من الأرض تنتشر فيه البساتين الصغيرة، المزدانة بالزهور العطرة، وأنواع الخضر، وأصناف البطيخ، تسقى من آبار قريبة المنزع، عذبة الماء، وتُطِلُّ على هذا المكان قِمَمُ الجبال من جهاته الثلاث، وتنفسح الجهة الغربية لتلامس البحر، فتفسح للأبصار الامتدادَ فوق تلك الزرقة الصافية، في أكثر الأحيان، المزبدة الصاخبة في أيام معدودة من الشهر، ولن يعدم هواة العوم أو اصطياد السمك وغيره من حيوانات البحر في هذا الشاطىء الهاديء ما يطمحون إليه من إمتاع النفس وإراحتها.

أمَّا أولئك الإخوة وفيهم من قُضِيَ عليه بـ(الشيخوخة) قبل أوانها ـ وقد:

يُقْضَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ ... بِأَنْ يَرَى حَسَناً مَالَيْسَ بِالْحَسَنِ

فقد تَميْلُ نفوسُ بعضهم لممارسة بعض أنواع التسلية البريئة، أو تَهْفُو رغبةُ أحدهم لمشاركة الشبان في هواياتهم كالْعَوْمِ والتجديف في أحد القوارب، ولكن للشيخوخة وقارها ورزانتها، ولها حدودها التي يحتم العرف الاجتماعيُّ عدم تجاوزها، وفي الاستمتاع برياضة المشي إلى هذا المكان، وفي جوانبه النزهة الْعَذِيَّة حيث يتموج رقراق النسيم الصافي بين تلك البساتين، المزدانة بشجيرات تنبعث من أزهارها روائح عَبِقَةٌ ينتشر أريجها العطر في جَوّ ذالك المكان فيضفي عليه من البهجة والارتياح ما ينعش الأرواح، ويمنح الأجسام قَدَرًا من الحركة والنشاط، هي في أشدِّ الحاجة إليه، بالنسبة لهاؤلاء (المتشايخين) بحيث يعودون وقد نالوا قسطاً من الهدوء والراحة، والبعد عن مشاغل الحياة، والاستمتاع بمشاهدة بعض المظاهر الكونية المختلفة الأشكال والألوان في البر والبحر.

الحواشي:

(١) : انظر رسم (مغارة شعيب) في قسم شمال المملكة من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية». وتحسن الإشارة إلى الاختلاف بين شعيب هذا وشعيب النبي المذكور في القرآن الكريم مما ليس هذا محل تفصيله.

(٢) : عن البدع انظر المصدر السابق.

(٣) : عما اعترى هذا الاسم من تحريف انظر «العرب»، س٢٠، ص ٨١.

(٤) : «العرب» س١٢، ص ٣٢٤.

(٥) : «أرض الأنبياء»، ص ٣٠٤.

(٦) : «الخطط» للمقريزي، ج١، ص ٣٠١.

(٧) : «الحقيقة والمجاز».

(٨) : «دليل الحج»، ٢٧.

(٩) : «أرض الأنبياء»، ٣٢٥.

(١٠): هو الأمير خالد بن أحمد السديري.

(١١): آثرت كتابة (حسما) بالألف، درءاً للخطإ في قراءة الاسم.

(١٢): هو حامد بن سالم بن رفادة ـ من آل رفادة مشايخ قبيلة بَلِي ـ انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي.

(١٣): في سنة ١٠٥٧هـ كان ماضي بن محمد أمير الروضة فقتله الشريف زيد بن محسن لما استولى على نجد «تاريخ بعض الحوادث» لابن عيسى، ص ٥٦ .

(١٤): أما رئيس ديوان الإمارة عبد الدائم محمد عبد الدائم فيزعم فلبي في «أرض الأنبياء» ٣٢٥ أن أباه كان كبير موظفي الدولة في المويلح سنة ١٨٧٧م ذكره الرحالة رتشارد بورتون الذي زار المويلح تلك السنة وألف كتاباً عن مدين ومياهها المعدنية.

(١٥): يظهر أن هذه الوظيفة عُرِفَتْ من عهد الأتراك، ويقصد بها من يتولى ما يتصل بأبناء البادية من قضايا، ولا تزال باقية حتى الآن في مكة حيث يتولى وظيفة (قائم مقام العاصمة) الشريف شاكر بن هزاع أبوبطين خلفا لأبيه الذي تولاها من سنة ١٣٣٤هـ.

(١٦): حين زرت بلدة حَقْل سنة ١٣٩٠هـ وجدت قاضيها الشيخ رشيد بن محمد رشيد هذا وقد تولى قبل ذالك قضاء أمّلج وتنقل في القضاء في تلك النواحي.

(١٧): (سداد من عَوَز) يقصد بهذه الجملة من يقوم بما يُحتَاج إليه من الأمور.

(١٨): الثُّلَّةُ ـ بضم الثاء ـ الجماعة من الناس، والثَّلَّةُ ـ بالفتح ـ مجموعة الغنم، ويقال : (فلان لا يُفَرِّقُ بين الثُّلَّةِ والثَّلَّة) وليس من المستبعد أن تكون كلمة (شُلَّة) المستعملة في عهدنا تحريف (ثُلَّة) من قبيل (إبدال الثاء شيناً).

(١٩) الْوَمْد : نَدَى البحر مع شدة الحر، وسكون الريح ، فتتأذَّى الأجسام بالحرارة والرطوبة ونتن الرائحة.

(٢٠) «الرحلة المغربية » ـ ١٦١ ـ وعن هذه الرحلة ومؤلفها انظر« العرب» ـ س ١٠/١٥ ـ .

(٢١) في «تاج العروس» رسم (ألق) بعد أن ذكر بعض مشاهير من يعرف بهذا الاسم منهم ناصر الدين محمد بن عبدالدائم بن أخت الميلق اجتمع به الحافظ بن حجر وكان واعظاً مشهوراً.

نظرة عامة عن القضاء في نجد
قبل استقرار الدعوة الإصلاحية *

هي لمحة موجزة عن القضاء قبل قيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدعوة الإصلاحية، واستقرارها في هذه البلاد، وما كان لي أن أتحدث في هذا الموضوع إذ لست بالمطمئن الواثق بجميع ما أقول، إلاَّ أَنَّ المناسبة وحْدَها دفعتْ إلى ذالك، فكانت هذه السانحة عن استذكار معلومات لا عن تسجيل ذكريات حوادث، وبضاعتي مزجاة من تلك المعلومات.

لقد شَرُفَ بصحبة المصطفى عليه الصلاة والسلام رجالٌ من أهل هذه البلاد من حاضرة وبادية، وعرف من بينهم عدد من بني حنيفة وإخوتهم بني عِجْلٍ، ومن غيرهم من القبائل، من أهل (قُرَّانَ) ومن (حَجْرٍ) وغيرهما من قرى اليمامة، وقد أَفَرد بعضُ المتقدمين من المؤرخين كابن سعد وخليفة بن خياط في طبقاتهما اؤلئك الرجال والآخذين عنهم من محدثي اليماميين بالذكر[1] وإن كانوا قليلي العدد، إلاَّ أن هذا يبرز جانباً من اهتمام أهل هذه البلاد بعلم الحديث في أول نشأته، وقد عرف من مشاهير العلماء من تتلمذ على محدث اليمامة يحيى بن أبي كثير[2] (المتوفى سنة (١٢٩) الذي وصفه الإمام أحمد أنه (من أثبت الناس)[3] كالإمام أبي عمر الأوزاعي عبد الرحمن بن عمر (٨٨ / ١٥٧هـ) الذي وصفه الحافظ الذهبي بأنه شيخ الإسلام وعالم أهل الشام[4]، فقد أتى إلى اليمامة في بعثها (الجند المبعوثون للمحافظة على الأمن فيها) فأتى مسجدها فصلى فيه، وكان يحيى بن أبي كثير

---

* المجلة العربية، العدد (١٧٣)، جمادي الآخرة ١٤١٢هـ / كانون الأول وكانون الثاني ١٩٩١م.

قريباً منه، فجعل ينظر إلى صلاته فأعجبته، ثم إنه جلس إليه، وسأله عن بلده وغير ذالك، فترك الأوزاعي الدِّيْوَانَ وأقام عنده مدة يكتب عنه، كما أخذ الأوزاعي هذا عن أبي كثير السحيمي اليمامي من محدثي اليمامة.

ومن هنا تبدو أولى الصلات الثقافية بين علماء هذه البلاد وبين علماء الشام.

وعُرِف من رواة الحديث النبوي آخرون غير يحيى، كعكرمة بن عمار وأيوب بن عتبة الذي ولي قضاء اليمامة، وأبي مريم الحنفي قاضي البصرة، وآخرون غيرهم ممن ذُكرت أسماؤهم مفرقة في كتب التراجم، ككتاب «الكمال» و«تهذيب الكمال» و«تهذيب التهذيب» وغيرها من المؤلفات.

وعرف مذهب الخوارج في نجد منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري، حين خرج نَجْدَةُ بن عامر الحنفيُّ في اليمامة سنة (٦٦) واستقل بحكمها نحو خمس سنين، وامتدَّ نفوذُهُ إلى البحرين وعُمَان، وكان عبد الله بن الزبير قد استقل بحكم الحجاز، إلاَّ أن حكم نجدة امتد إلى سراة الحجاز الجنوبية، وبلغ بلاد طَيِّءٍ شمالاً، حتى قضت عليه الدولة الأموية.

ومذهب الخوارج من أنقى المذاهب الإسلامية وأوضحها، وأقربها إلى مذهب السلف، لولا ما يتَّصف به من الغلو في بعض أمور ورد النهي عن الغلو فيها ﴿يَاأَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوْا فِي دِيْنِكُمْ﴾ و«وإياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

ويبدو أن هذا المذهب لم يكن ليلائم طبائع أكثر سكان هذه البلاد،

لجفافه وغلظته، فلم يكن الخضوع لحكم نجدة إلاَّ بتأثير القوة والقهر، كما في قول الراعي النُّمَيْري، مع أنه لم يكن إذ ذاك مرتاحاً للحكم الأموي[٥]:

وَلا أَتَيْتُ نُجَيْدَةَ بْنَ عُوَيْمِرٍ أَبْغِي الْهُدَى فَيَزِيدُنِي تَضْلِيْلاَ

مِنْ نِعْمَةِ الرَحْمنِ لاَ مِنْ حِيْلَتِي أَنِّي أَعُدُّ لَهُ عَلَيَّ فُضُولاَ

ولعل من أقدم ما عرف من المذاهب في بلاد نجد المذهب الشيعي الزيدي، فقد قامت حكومةُ بني الْأُخيضر في اليمامة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، واتخذت من (الخِضْرِمَة) في إقليم (الْخَرْجِ) قاعدةً لها، وشمل حكمُهَا وسَطَ الجزيرة، والأُخيضريون من أشراف مكةَ، شيعةٌ زيديُّوْنَ، وقد استمر حكمهم في هذه البلاد حتى أزالته القرامطة في العشر الثانية من القرن الرابع الهجري (٣١٧هـ) ولعل القرامطة أَبْقَوْا في الحكم منهم من انقاد لهم كما يفهم من كلام الرحالة الفارسي ناصر خسرو، ويرى بعض المؤرخين أن القرامطة ما كانوا يتعرضون لمعتقدات الناس، وأفكارهم الدينية، بل يتركون لهم الحريَّةَ في ذالك، ولهذا نجد الرحالة الفارسي ناصر خسرو لما مَرَّ باليمامة سنة (٤٤٣) قال عنها[٦]: (وأُمراؤها علويون منذ القدم ... ومذهبهم الزيدية، وهم يقولون في الإقامة (؟): محمد وعلي خير البشر، وحي على خير العمل).

ويخيم الجهل على هذا الجزء من البلاد العربية، فلا يتضح للباحث ما يروي غلته لمعرفة أي جانب من جوانب الحياة فيها، فكرية كانت أو اجتماعية أو تاريخية.

ومن المُدْرَكِ بداهةً أنَّ انتشار المذاهب، وكذا الآراء والأفكار أيًّا كانتْ، يقوم على أَساس وجود علماء يعتنقون تلك المذاهب والأفكار، ويعملون

على نشرها وترويجها عن بصيرة وعلم، ولم يُعْرَفْ في نجد في العهود الماضية حتى انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أَيٌّ عالم مُبرز في فرع من فروع العلم، وإنما هي أَثَارَةٌ من معرفة الفروع الفقهية، لدى قلّةٍ من المتصدرين للقضاء والفتيا في عصور مختلفة، في حدودٍ تمكنهم من القيام بالوظائف الدينية، ولم يؤثر في ذالك العهد المتقدم على زمن الشيخ محمد لواحد من العلماء من المؤلفات ما أُثِرَ عن مشاهير علماء البلاد الأُخرى، وهذا مما يدل على ضعف حظ النجديين من المعرفة في مختلف جوانبها، ولعل ما عُرِفَ من ذالك لا يعدُوْ رسائل في فروع الفقه والاعتقاد، وشروحًا وحواشي على بعض المؤلفات الفقهية، مما أُلِّفَ في عصور متأخرة، كحواشي الشيخ سليمان بن علي بن مشرف (١٠٧٩هـ) جد الشيخ محمد على كتاب «المقنع» ومنسكه المعروف و«شرح عمدة الفقه» للشيخ عثمان بن أحمد بن قايد (١٠٩٧هـ) ورسالته «نجاة الخلف في اعتقاد السلف» ورسائل أخرى موجزة، وللشيخ أحمد بن محمد المنقور المتوفى سنة ١١٢٥هـ مجموع في الفقه يضم فتاوى لعلماء عصره وما قبله بزمن يسير، ولَهُ ولآخَرِيْنَ تقييداتٌ تاريخية لحوادث بعض السنين ضمنها ابن بشر كتابه «عنوان المجد في تاريخ نجد» فيما بعد.

ولعلَّ إقفارَ هذه البلاد من العلم وانصرافَ أَهلها لِمَا يشغلهم من أمور دنياهم مما زهد بعض العلماء بالإقامة فيها، وحملهم على مغادرتها، فالشيخ عثمان بن أحمد بن قايد وهو من أبرز علماء عصره كان يقيم في بلدة (العُيَيْنَة)، ولكنه إِثْرَ خلاف بينه وبين قاضيها الشيخ عبد الوهاب ابن سليمان على مسألة فقهية غادر البلدة، بل نَجْدًا كلها إلى الشام فلم يطب له المقام هناك بعد خلاف بينه وبين شيخ حنابلته أبي المواهب،

وهو ممن أخذ عن الشيخ عثمان نفسه، فذهب إلى مصر وهناك استقر حتى وافاه الأجل، ومن مشاهير تلاميذه عبد الحي بن العماد مؤلف «شذرات الذهب»[٧]، والشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف الذي وُصِف بأنه لا نظير له في علم الفرائض[٨] وهو والد الشيخ إبراهيم مؤلف «العذب الفايض في علم الفرائض»، هَجَر بلدته (المجمعة) واستقر في المدينة حتى توفي.

ولا يتضح أَنَّ القضاء والإفتاء يجريان على مذهب مُعَيَّنٍ من المذاهب الأربعة في جميع بلاد نجد، ولكن وُجِدَ من العلماء من يتمذهب بالمذهب الحنبلي من فقهاء هذه البلاد، فقد ذكر ابن بشر في «سوابق تاريخه» في ترجمة الشيخ موسى بن أحمد الْحَجَّاوِي المقدسي الحنبلي المتوفى سنة ٩٦٨هـ وهذا من تلاميذ عالم نجدي حنبلي سيأتي ذكره، وممن أخذ عن الحجَّاوي من النجديين زامل بن سلطان قاضي الرياض[٩]، وأحمد بن مشرف.

كما ذكر أن من تلاميذ الشيخ منصور الْبُهُوتِي الحنبلي المصري المتوفى سنة ١٠٥٢هـ الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب قاضي (العُيَيْنة) المتوفى سنة ١٠٥٦هـ وهذا يدل على انتشار المذهب الحنبلي في هذه البلاد في عهد متقدم، ويبدو من رواج مؤلفات الْحَجَّاوِيِّ والْبُهُوتِي «الإقناع» و«زاد المستقنع» وشرحهما إلى عهدنا الحاضر استقرار ذالك المذهب.

وممن عرف من علماء الحنابلة في القرن العاشر الشيخ أحمد بن يحيى بن عَطْوَة الناصري التميمي، وكان من أهل (العيينة)، ورحل إلى دمشق وتلقى عن مشايخها من الحنابلة، مثل يوسف بن حسن بن

عبدالهادي، وعلي بن سليمان المرداوي، وأحمد بن عبد الله العسكري.

ومن مشاهير من قرأ عليه موسى الحجاوي، وقد عاد إلى بلاده حيث توفي ودفن في مقبرة الجبيلة بجوار قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنه.

وعرف عدد من فقهاء نجد في القرن الحادي عشر وما بعده من مشاهيرهم الشيخ محمد بن أحمدبن إسماعيل الأشيقري[10]، والشيخ سليمان بن علي بن مشرف (١٠٧٩هـ)، والشيخ عبد الله بن محمد بن ذهلان (١٠٩٩هـ) قاضي مقرن (الرياض الآن)، والشيخ عبد الله بن أحمد عُضَيْبٍ الناصري التميمي (١١٦١هـ) الذي انتقل من بلدة المذنب إلى بلدة عنيزة وفيها توفي.

ويبدو من استقرار المذهب الحنبلي لدى علماء بلدة (أُشَيْقِر) وتلاميذهم ممن انتقل إلى (العُيَيْنَة) رسوخ هذا المذهب في تلك البلدة منذ عهد مبكر، ولنفوذ حكام (العيينة) فيما حولها من البلاد انتشر المذهب فيها، وفي كل وادي حنيفة، وفي إقليم سدير حيث عرف الشيخ أحمد بن محمد المنقور (١١٢٥هـ) الذي تلقى العلم عن الشيخ ابن ذهلان.

ولعل انتشار المذهب الحنبلي في اليمامة وما حولها فيما تقدم كان من أثر صلات النجديين التجارية ببلاد الشام (سورية وفلسطين وغيرهما)، فقد عُرِفَتْ هذه الصلاتُ في عهود مبكرة، واستمرت إلى منتصف القرن الماضي ممثلة بتجار عرفوا باسم (عُقَيْلٍ) كانوا يجلبون الإبل والخيل إلى العراق وإلى الشام وإلى مصر، وكان ممن تميز بها في العهد الأخير تجار بلاد القصيم، ومنهم كان الشيخ فوزان السابق

المتوفى سنة ١٣٧٣هـ[١١] الذي كان معتمداً للملك عبد العزيز في مصر حتى توفي، ومنهم الأستاذ سليمان الدخيل المتوفى سنة ١٣٦٤هـ[١٢]، وعمه جار الله الدخيل وكيل ابن رشيد في بغداد.

ولعل مما يدل على تأثر النجديين بتلك الصلات وخاصة من الناحية الثقافية ما سبقت الإشارة إليه من أنَّ الحجاوي موسى المقدسي المتوفى سنة ٩٦٨ كان ممن أخذ عن ابن عطوة النجدي، ومن تلاميذ الحجاوي هذا من النجديين أحمد ابن محمد بن مشرف، وزامل بن سلطان قاضي الرياض، ومن تلاميذ الشيخ منصور البهوتي المصري (١٠٥٣) عبد الله ابن عبد الوهاب قاضي العيينة، بل قبل هاؤلاء كان للشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة نشاط علمي، واحتكاك بمشاهير علماء الحنابلة خارج نجد، كما تقدمت الإشارة إلى ذالك.

ولما أَلَّفَ العالم الحنبلي الفلسطيني الشهير مرعي بن يوسف الكرمي (١٠٣٣هـ) كتابه «غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى» بعث بنسخة منه إلى نجد، أشار في آخرها إلى صلته ببعض علمائها كَأَبي نُمَيٍّ ابن عبد الله بن راجح، وخميس بن سليمان، ومحمد بن إسماعيل[١٣].

ولو حظي هذا الجانب ـ جانب التواصل بين العلماء ـ بدراسة أَعْمَق وأَعَمَّ لكان ذَا فائدة جُلَّى في إيضاح مبلغ التأثر المذهبي بين الأقطار الإسلامية.

ولا يعني القولُ باستقرار المذهب الحنبلي في بعض الجهات في نجد، عدم وجود فقهاء غير حنابلة في جهات أخر منها، فقوة انتشار المذاهب الأخرى وصلة المتمذهبين بها بسكان هذه البلاد مما يؤثر في امتداد انتشارها، ولهذا نجد عالم منطقة (الخرج) وهي من أخصب

مناطق البلاد، وأكثرها سكاناً في عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو الشيخ راشد بن محمد بن خنين[14] ليس حنبليَّ المذهب بل على مذهب الإمام أبي حنيفة، ولهذا العالم شهرة تجاوزت منطقته، كما نجد في «مجموع المنقور» فتاوى لغير علماء الحنابلة.

الحواشي:

(١) : «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٥٤٩/٥ إلى ٥٥٧ الطبعة الثانية بيروت، و«الطبقات» لخليفة بن خياط ص ٢٨٩ وما بعدها الطبعة الثانية تحقيق أكرم العمري.

(٢) : انظر «تهذيب التهذيب» ، ج١١ ، ص ٢٦٨.

(٣) : «سير أعلام النبلاء» ٢٨/٦ .

(٤) : لمصدر السابق ١٠٧/٧ .

(٥) : «ديوانه» ، ص٥٩ ، طبع المجمع العلمي العراقي.

(٦) : «سفر نامة» ، ص ٩٢ ، طبعة جامعة القاهرة ، تحقيق الدكتور يحيى الخشاب .

(٧) : «علماء نجد في ستة قرون» للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام.

(٨) : «تحفة الأصحاب فيما للمدنيين من الأنساب» لعبدالرحمن الأنصاري.

(٩) : لم يطلق اسم الرياض على البلدة إلاَّ بعد هذا العهد فكانت تعرف قديماً بـ(حجر) ثم بـ(مقرن).

(١٠): توفي سنة ١٠٥٨هـ على ما ذكر ابن بشر في سوابقه وسنة ١٠٩٥هـ على ما ذكر ابن بسام في «علماء نجد».

(١١): «الأعلام» للزركلي وفيه ترجمته.

(١٢): انظر ترجمته في مجلة «العرب» ، س١، ص ٤٦٩ وما بعدها.

(١٣): انظر سوابق ابن بشر سنة ١٠٣٣هـ وابن راجح هو العريني من أهل عودة سدير، وخميس بن سليمان الوهيبي من أشيقر، ومحمد بن أحمد بن إسماعيل الأشيقري العالم المعروف .

(١٤): انظر «العرب» ، س٢٣ ، ص ٤١٢ .

حول القضاء في نجد بعد استقرار المذهب الحنبلي *

لم تقم في قلب الجزيرة ـ نجد وما حولها ـ بعد ظهور الإسلام حكوماتٌ قوية، تتمتع بسلطة واسعة، بها تتمكن من تنظيم جميع شؤون البلاد، وترسيخ قواعدها، ومنها القضاء الذي به يستقيم سير جميع الأعمال، متى كان قائماً على أسس من العدل والمعرفة.

فبعد امتداد حكم القرامطة في القرن الرابع الهجري من الأحساء إلى وسط الجزيرة، ثم زوال الحكم بعد فترة قصيرة من الزمن، تمزقت تلك البلاد إلى إمارات صغيرة لا رابط بينها، ولا حكم يُنَظِّمَ استقامةَ شؤونها العامة لتحقيق ما فيه مصلحتها، وإنَّمَا ظلت تتقاذَفُهَا التيَّاراتُ الناشئةُ عن قوة ما يجاورها من حكام الأقطار الأخرى، غربًا وشرقًا وجنوبًا، حتى أذن الله لها بحياة جديدة، نعمتْ فيها بالاطمئنان والاستقرار، حيث انضَوَتْ تحت لواءِ الدعوة الإصلاحية المباركة، التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقام بنشرها الأئمة المصلحون من آل سعود.

ولما ثبتتْ قواعدُ تلك الدعوة، واستقرتْ في بلاد نجد بقيام الدولة السعودية الأولى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، أصبح مذهبُ الإمام أحمد بن حنبل هو مذهب الدولة الذي عليه تسير الأحكام في البلاد كلها، بعد أن تمهد هذا الأمر بانتشار هذا المذهب في أكثر الأقاليم.

---

* المجلة العربية، العدد (١٧٤)، رجب ١٤١٢هـ / كانون الثاني وشباط ١٩٩٢م.

ومع أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانَ ـ كأبيه وسلفه ـ حنبليَّ المذهب، وأنه هو الذي كان في عهده يقرر الأحكام، ويعين القضاة ـ إلا أَنَّ من قواعد دعوته الإصلاحية محاربةَ التقليد، والدعوة إلى الاجتهاد، ثم سار جميع علماء الدعوة بعده على هذه الطريقة، فكثيراً ما يصرح أحدهم بمخالفة المذهب متى اتضح له دليل أقوى منه، ومؤلفاتهم مشحونة بهذا، ومنذ عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب حتى عهد الملك فيصل بن عبد العزيز الذي تولى حكم البلاد فيما بين سنتي ١٣٨٤هـ، ١٣٩٥هـ[١٩٦٤م ـ ١٩٧٥م]، كان اختيار القضاة راجعاً إلى آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، كما كان جدهم الشيخ يتولى ذالك، وكان آخرهم الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد كان المرجعَ في ذالك، كما كان آباؤه الخمسة من قبله، ثم عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بعدهم، كان شيخ العلماء في أول عهد الملك عبد العزيز[1].

ولم تُوْضَعْ أُسُسٌ وقواعِد يسير عليها القضاة في ذالك العهد، بل الأمر مُفَوَّضٌ للقاضي، وفي أول عهد الملك عبد العزيز عرف في البلاد عدد من مشاهير العلماء، ففي الرياض الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف والشيخ سعد بن حمد بن عتيق وغيرهما، وفي سُدَيْر الشيخ عبد الله ابن عبد العزيز العنقري، وفي حائل الشيخ عبد الله بن سليمان بن بُلَيْهِد، وفي الوشم الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف الباهلي، وفي الأفلاج ووادي الداوسر الشيخ عبد العزيز بن حمد بن عتيق وهناك غيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم، وكان هاؤلاء العلماء بمثابة محاكم، قد تحال

إليهم بعض الأحكام التي يقع فيها الاختلاف، وقد يُدْعَوْنَ للاجتماع في مدينة الرياض، لبحث بعض الشؤون العامة، مع ولي الأمر، فهم بمثابة المرجع الأعلى لشؤون القضايا العامة حين تعرض عليهم.

ولما أراد الملك عبد العزيز أن يُمْسِكَ زِمَامَ البادية لِيُصَرِّفَهَا وفق إرادته في توحيد أقطار البلاد، ولكي يستتبَّ الأمن في ربوعها، رأى ضرورةَ ارتباطِ أبنائها بمواطن يستقرون فيها، فوجَّههم إلى إنْشَاء (الْهُجَرِ) ـ وهي القرى المعمورة ـ ورغّبهم في ذالك، وهَيَّأ لهم بعض الوسائل التي تعينهم، وتمكنهم من الاستقرار، فاختاروا مناهلَ كانوا يألفونها من قبل، فكان شيخ القبيلة يختار أحد الموارد ممَّا كان يخص قبيلته، أو لم يكن لغيرها فيطلب من (الإمام) الموافقة على اختياره موقع (هجرة) تبنى فيها مساكن على جانب من البساطة، وقد لا يستمر الاستيطان لعدم توفر بواعث الرغبة والبقاء، فهناك بعضُ (الْهُجَرِ) سرعان ما هجرت بعد حادثة (السَّبَلة) سنة ١٣٤٧هـ ـ إلاَّ أن إقبال أبناء البادية في أول الأمر على الاستيطان كان قويًّا، وكانت الرغبة من ولي الأمر من أقوى الوسائل الدافعة إلى تركهم حياة البادية، والْبَدْءِ بالتَّحَضُّر، بحيث لم يمض من إنشاء أول هجرة في عام ١٣٣٠هـ ـ حتى عام ١٣٤٧هـ حين توقف إنشاؤها حتى بلغ عدد ما أُنْشِىءَ منها (١٢٢)[٢] هجرة هـ وكان من لوازم ذالك أن أصبح سكانُ كل هجرة بحاجة إلى من يبصرهم في أمور دينهم، ويؤمهم في أداء صلواتهم، ويتولى عقد أنكحتهم، بل ويحلُّ قضاياهم في حالة بُعد هجرتهم عن بلدة فيها من القضاة من يتولى ذالك، وأكثر الهجر أُنْشِىءَ فوق موارد المياه المتباعدة، يضاف إلى هذا أَنَّ الاستقرارَ الذي شمل البلاد كان من أثره تقدم

عمرانها، وكثرة سكانها، وكل هذا يتطلب وجود عدد كبير من العلماء، يقومون بتلك الأعمال في الهجر، وفي القرى التي كثر سكانها.

ومنذ قامت الدولة السعودية الأولى وهي ذَاتُ اهتمامٍ بإيجاد الدعاة الصالحين، لنشر الدعوة الإصلاحية، فكانت مدينةُ الدرعية في عهد الشيخ محمد ثم في عهد أبنائه حتى سنة ١٢٣٣هـ أقوى مركز علمي يُنَشِّئُ اؤلئك الدعاة، الذين يتتلمذون على أئمة الدعوة، وعلى علماء من الأحساء كالشيخ حسين بن غنام، والشيخ عبد الله بن مبارك بن بُشَيِّر، والشيخ أحمد بن رشيد العفالقي وغيرهم، ومن هاؤلاء الدعاة يتم تعيين القضاة والمرشدين.

واستمر الأمر على تلك الحالة من حيث الاهتمام بمن يتولّى نشر الدعوة عن إدراك وفَهْمٍ في عهد الدولة الثاني، بعد عودة الشيخين عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد، وابنه عبد اللطيف من منفاهما في مصر ـ ثم بعد استقامة الأمر للملك عبد العزيز ـ حيث وكل الإشراف على شؤون طلبة العلم إلى الشيخ حمد بن فارس الذي كان يتولى أمر بيت المال، وإلى الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، وفي آخر الأمر بعد وفاة الشيخ عبد الله إلى الشيخ محمد بن إبراهيم، فكان طالبُ العلم حين يقدم إلى مدينة الرياض يجد من العناية ما يوفر له جانباً مما يحتاج إليه من سكن ومساعدة في النفقة، وإن لم تكن غير كافية، فما كانت ظروف المعيشة متوفرة بصفة عامة، ولهذا فما كان من يقدم إلى الرياض لطلب العلم في تلك الأزمان بالقدر الذي يتلاءم مع حاجة البلاد لمن يصبح صالحًا للقيام بالوظائف الدينية في القرى والهجر، يضاف إلى هذا شدة تكاليف الحياة في قرى نجد، مما يضطر

أهلها إلى الاستعانة بأبنائهم في مشاركتهم بالقيام بأعباء تلك التكاليف من صغرهم، فلا يتمكن من يرغب منهم بطلب العلم من ذالك، ولهذا فكثير من القادمين إلى الرياض لتلك الغاية ممن ليس مؤهلاً للقيام بأيٍّ عمل، عن عجزه أو فقره، إما ممن حُرِموا نعمة البصر، أو ممن لم يجدوا في قراهم من الأعمال ما يستطيعون بالقيام به معيشة الكفاف، ولم يعدم كثير من هاؤلاء في خلال سنوات قليلة من التأهيل لتولي بعض الوظائف الدينية متى اتصف الطالب بحسن السلوك مع مشايخه وبالمواظبة على الدراسة في حلقاتهم، وكان ذا حافظة تستوعب ما يكلف بحفظه من (المتون المختصرة) كـ«الثلاثة الأصول» و «كشف الشبهات» و«آداب المشي إلى الصلاة» وأبواب من كتاب «التوحيد» و«الأجرومية» في النحو، و «الرَّحبية» في علم المواريث، أما إذا أسعفه الحظ فأضاف إلى ذالك حفظ كتاب «التوحيد» و «زاد المستنقع» و«العقيدة الواسطية» وأَلَمَّ بمجمل ما في شرحي الكتابين الأولين «فتح المجيد» و«الرَّوض المُرْبِع» مما يقرره الشيخ غالباً منهما، ومن شرح «العقيدة» أو بما يستذكره من شروح استعداداً لما قد يوجه إليه من أسئلة هي في الغالب مكررة ـ فإنه يُعَدُّ بذالك من كبار الطلبة الذين سيرشحون لتولي منصب القضاء، بل ما أسرع أن يُولَّى أَحَدَ مناصبه في إحدى الهُجَرِ، التي لا يزال كثير منها بأشد الحاجة لمن يتولى قضاءها، ولكن الأمور تتكشف ـ فيما بعد ـ عن عدم كفاءة عدد من اؤلئك الذين أُسْنِدَتْ إليهم أعمال القضاء، مع محاولة سَتْرِ عُوَارِهِم، واستصلاح أحوالهم، للحيولة دون فتح منفذ للنيل من العلماء بصفة عامة، وقد يتم هذا بالنسبة لما يتعلق بسلوك أحدهم القائم على أساس إيجاد منزلة

للقاضي في نفوس العامة، باستعمال مختلف الوسائل، بحيث إن من القضاة من يتطاول على الخصم بِضَرْبٍ أو بِبَصْقٍ في الوجه[٣]، ولكن يحدث أن يتجاوز الأمر السلوك الخاص إلى القضايا العامة، مما يسبب إثارة العداوة وإشعال نار البغضاء بين المواطنين، بكثرة القضايا، واستشراء الخصومات، من جَرَّاء تضارب الأحكام في الأمور المتماثلة، فالمرجع في الأعم الأغلب لذوي التمكُّن في الفقه من القضاة ـ وقليلٌ ما هُمْ ـ كتاب «الروض المُرْبِعِ» والمعول على قدر فَهم (الشيخ) من عباراته، التي هي في اختصارها وإيجازها أقرب إلى الألغاز، فما بالك بقاضٍ كان آخر عهده بهذا الكتاب وبأمثاله أيام الدراسة، إنها الضرورة ـ ولها حكمها ـ إلى شغل مناصب القضاء بمن هم على تلك الشاكلة، من قبيل (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا).

ولكن كيف تعالج تلك المشكلات الناشئة عن عدم وضوح منهج للقضاء ينبغي السير عليه في هذه المملكة الواسعة المترامية الأطراف، بعد أن شملها الله برعايته، فوحد أقطارها، وقد أصبح القضاء ـ وهو الأداة التي بها تصلح الأمور، وتستقيم الأحوال ـ في أشد الحاجة إلى الإصلاح؟!.

لقد كان لانضواء الحجاز (المنطقة الغربية) إلى حظيرة الدولة أَثَرُهُ في تنظيم كثير من مرافق البلاد، وشؤونها العامة، سوى ما يتعلق بالقضاء، فلم يكن للترتيبات الإدارية المتبعة في تلك المنطقة، المتعلقة بالقضاء، لدى المشرفين على شؤونه في نجد من أثر في إصلاح شؤونه، فهناك محاكم مختلفة، متميزة الاختصاصات على أساس أنظمة موضوعة لذالك، وجهة تشرف على تدقيق الأحكام الصادرة عن تلك

المحاكم، ومحكمة تجارية في جدة تختص بقضايا التجارة قد حددت صلاحيتها، وأُقِرَّ نظامٌ عام للمرافعات القضائية، ولكن شيئاً من كل ذالك لم يتبع في غير الحجاز، وهذا راجع إلى الحذر الشديد لدى العلماء، وعدم ارتياحهم إلى تغيير شيء مما أَلفُوا، خشية المساس بالناحية الدينية، وقد يكون ذالك من قبيل (مَنْ جَهِلَ شَيْئاً عاداه) كجوانب إصلاحية رفضوها حتى اتضحت لهم.

ولقد كان الملك عبد العزيز أَبْعَدَ نظرة، وأَعْمَقَ إدراكاً لكثير مما يتعلق بمصالح الأمة، ويوجهها لمسايرة ركب التقدم الحضاري، وهو وإن كان يُسايرُ اؤلئك العلماء في كثير من الأمور التي لا تحول دون تحقيق الغايات النافعة، التي يهدف إليها، لا يَتَوَانَى في العمل لتنال البلادُ حَظَّهَا من تنظيم سير الأعمال فيها على طرق صحيحة، فلا ينصاع في سبيل ذالك متى اتضح له وجه الصواب إلى أيِّ رَأْيٍ يُخالِفُهُ، ولهذا حين رأى ضرورة إنشاء (إدارة شرطة) في مدينة الرياض تعنى بشؤون الأمن كان من بين المعارضين قاضي الرياض الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ـ رحمه الله ـ ولكن الملك نفذ ما أراد، وما لبث الشيخ أن وافق فيما بعد، وقد أوضح (فلبي) في مقدمة كتابه «المملكة السعودية العربية»[٤] ما يتمتع به الملك من استقلال في آرائه، و (فلبي) ممن عرفه حق المعرفة.

ولقد أدرك الملك عبد العزيز ضرورة إصلاح أمور القضاء وتنظيمها بكثرة ما حدث من منازعات وقضايا كانت مثاراً للقلق والإزعاج، ولإشغال ولاة الأمور عن الاهتمام بما هو أهم وأولى من رعاية المصالح العامة، فكان من أثر ذالك أن جمع العلماء في نجد، وطالبهم بالنظر في الأمر بوضع طريقة تكفل سيره على نهج واضح في جميع أجزاء

المملكة، ليكون وسيلة استقرار وإحقاق للحقوق، ودَرْءٍ لأسباب الاختلافات والنزاعات والفوضى، وإثارة الشحناء بين المواطنين ، دعا أولئك العلماء ليجتمعوا بإخوانهم علماء الحجاز لتلك الغاية فتم ذالك في (منى) ، وبعد مباحثات ومناقشات استمرت ثلاثة أيام قرر العلماء مجتمعين ـ القيام بوضع مرجع عام للأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل على غرار (المجلة) التي وضعها العلماء على مذهب أبي حنيفة، في عهد الدولة التركية، وسار العمل فيها في الأقطار الإسلامية في تركية والشام ومصر وفي الحجاز، وقد عُهِد إلى الشيخ أحمد القاري ـ رئيس محكمة مكة الكبرى ـ ليتولى إعداد مَوَادِّ المجلة* ، ثم تعرض على العلماء لإقرارها، ويبدو أن العمل وقف بوفاة الشيخ أحمد ـ رحمه الله(٥) ـ بعد أن أعد قدراً حسناً يصلح اتخاذه أنموذجا لإكمال ما بدأ به.

لقد كانت نظرة الملك عبد العزيز إلى تنظيم القضاء تُعَبِّرُ عن إدراك عميق للغاية التي شُرِعَ من أجلها، وهي إشاعة الراحة والطمأنينة بين المواطنين، برعاية مصالحهم، والرفق بهم، ودفع الحيف والظلم عنهم، ولهذا فقد كان بعيداً ـ البعد كُلَّه ـ عن التعصب لأَيِّ مذهب، أو الانحياز لأَيِّ رَأْيٍ من الآراء، مهما كان مصدره، مما لا يحقق الغاية الْمُثْلَى، وهي رعاية المصالح العامة.

ولعل هذه الحادثة توضح بجلاء أحد مواقفه الدالة على بعد نظرته، وتوخيه لما فيه تأليف المسلمين، والتقريب بينهم بإزالة ما بين مذاهبهم من خلافات أَدَّتْ إلى تنافرهم وتفرقهم.

* مجلة الأحكام الفقهية ، انظر العدد (١٤١) من جريدة (أم القرى) لعام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م). (ش).

كان الشيخ أحمد البرزنجي من مشاهير علماء المدينة ، وكان يتولى قضاءها وهو شافعي المذهب ، فحكم بجواز إجارة أرض ذات شجر مثمر بمبلغ محدد من النقود ، مستدلاً بنص من كتاب «شرح المنتهى» في الفقه الحنبلي ، ولما عُرِضَ الحكم على رئاسة القضاة لتمييزه أمرت بنقضه ، وإعادة المحاكمة ؛ لأن ما ورد في «شرح المنتهى» وقع فيه خطأ وصوابه (ولا تصح إجارة أرض وشجر فيها) دَرْأً للغرر الحادث بمقدار ثمر الشجر ، على المذهب الحنبلي ، ولكن القاضي أوضح لرئاسة القضاة أنَّ الخصمين شَافعيًّا المذهب ، وأنه حكم على مذهبهما وهو أرفق بهما ، وعليه العمل في المدينة ، وطلب إحالة القضية إلى علماء نجد ، ولكن الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وهو رئيسهم أَيَّدَ نَقْضَ رئاسة القضاة ، وطالب بالتقيد بمذهب الإمام أحمد بن حنبل ، فماذا كان موقف الملك عبد العزيز ؟ ! .

لقد كتب إلى فيصل نائبه في الحجاز بما ملخصه : إليكم رأي الشيخ محمد بن إبراهيم ، وهو يؤيد رأي رئاسة القضاة ، ولكن الذي أراه أنه ما دام أن القاضي حكم على مذهب إمام من الأئمة الأربعة ، وأن الخصمين على مذهب هذا الإمام . وأن مثل هذا الحكم أرفق للرعية ، فإنني أرى تنفيذ حكم القاضي ، لما فيه من تسهيل ورفق ، وأرى أن يُعَمَّمَ هذا في المحاكم ، للسير بمقتضاه فيما يماثل تلك القضية من القضايا ، وقد أُبْلِغَتِ المحاكم في الحجاز بهذا .

وهذا الرَّأْيُ الجرِيْء ـ للملك رحمه الله ـ حول عدم الجمود على المذهب ، واختيار النهج الذي ينبغي السير عليه في المحاكم بما يكون أرفق بالرعية ، وأوفق لتحقيق المصلحة العامة ، وأوضح في الدليل ، قد

سبقه ما يمهد له من هذا الملك المصلح، فقد أمر قبل حدوث تلك القضية ببضع سنوات بنشر كتاب «المغني» وهو وإن كان مؤلفه شيخ المذهب الحنبلي موفق الدين بن قدامة، إلا أنه يعدّ من أوفى المؤلفات الإسلامية التي اشتملت على الأحكام الشرعية بأدلتها مع بيان آراء جميع أئمة المسلمين ومشاهير علمائهم على اختلاف مذاهبهم.

ولكن مما يُحْزِنُ حقّاً أنَّ تلك الفكرة ، بل الأُمْنِيَة العظيمة لكل ذي غَيْرة يُحِسُّ بما أحدثته الخلافات المذهبية في صفوف الأمة الإسلامية من تمزيق وتفرقة وعداء ـ لم يُهَيِّءِ الله لها من القائمين على شؤون القضاء من يُعْنَى بإبرازها وتحقيقها.

لقد مضى الملك عبد العزيز إلى ربه، وجرت الأمور بعده على ما هي عليه، ومرت الأعوام وأحوال القضاء هي هي ، وإن تغير المظهر بالنسبة لبعض مناطق المملكة، فبعد أن كان القاضي يتخرج في حلق المشايخ في المساجد ، أصبح يواصل الدراسة في المعاهد والكليات حتى يَحُوز أرفع الدرجات ، وحل محلَّ كبار القضاة ممن تحال إليهم كبريات القضايا محاكم تتولى الفصل فيها ، ثم يُحَالُ تمييز ما يحتاج منها إلى هيئة من العلماء، ونِيْطَ اختيارُ القضاة إلى (وزارة العدل) بَعد أن كان شيخ العلماء من آل الشيخ في الرياض هو الذي يتولى ذالك، ولكن المشكلة التي لم تُحَلَّ لا تزال هِيَ هِيَ، فَالتَّذَمُّرُ من تأخر سير القضايا في المحاكم ، والتَّأَلُّمُ من تصرُّفِ بعض القضاة ، ووقوع الاختلاف في الأحكام بين بعض القضايا المتماثلة لعدم وضوح النهج الذي يسار عليه فيها ـ كل ذالك وغيره لا يزال بأشد الحاجة إلى الإصلاح والتنظيم ، ودقة المراقبة في اختيار القضاة وفي سير أعمالهم.

وأراني تماديت في السير حتى أبعدت النجعة ، ولكنها أَنَّةُ مُتَألِّمٍ ! !

الحواشي :

(١) : عن تراجم العلماء الواردة أسماؤهم في هذه السانحة يحسن مراجعة كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام .

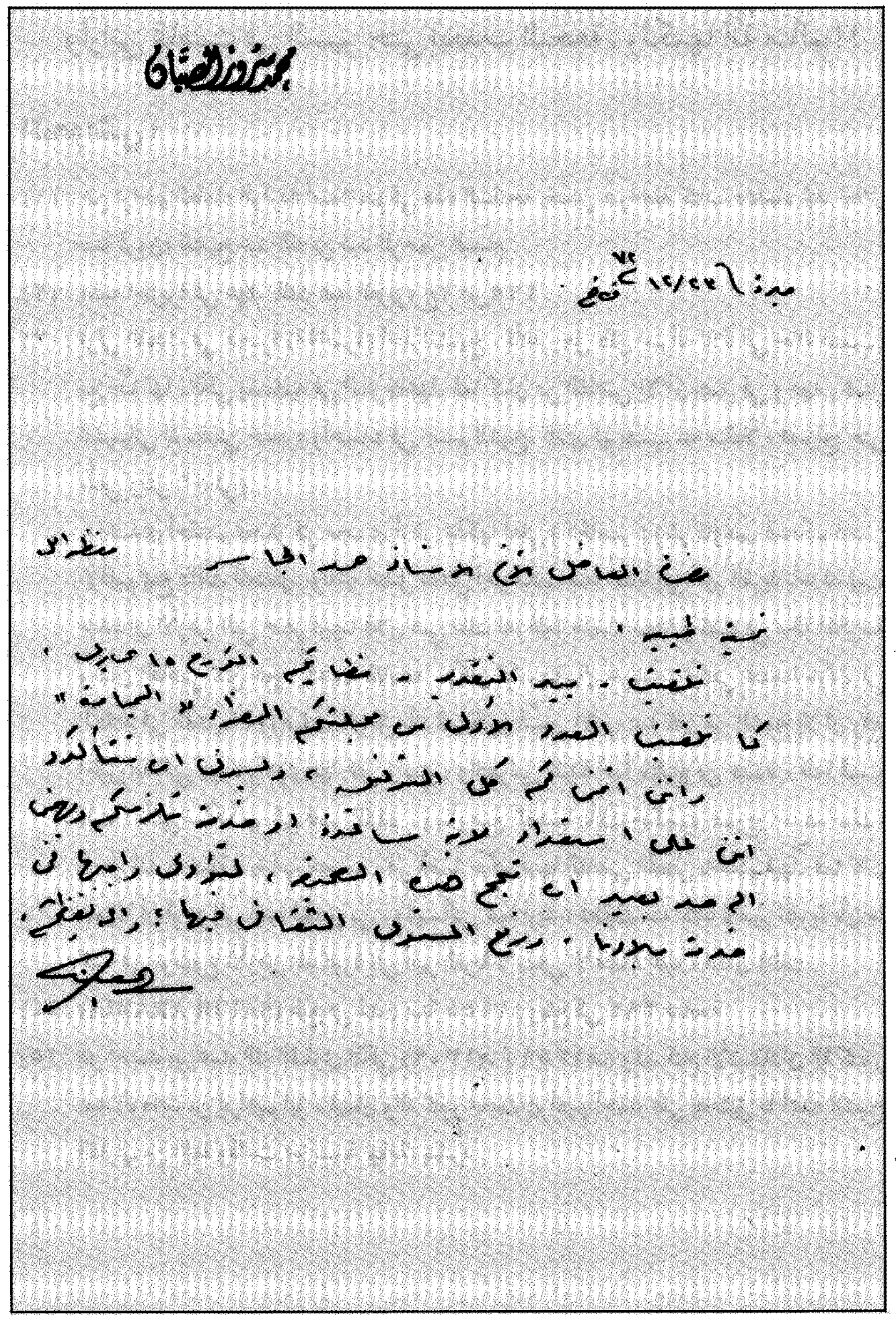
(٢) : «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» ج١ ص٢٦٥ .

(٣) : تولى القضاء في هجرة (الخاصرة) أحد المشايخ ، فأتاه رجل طلق امرأته ثلاثاً في حالة غَضَبٍ، مع حُبِّه لها ، لكي يستفتيه في استرجاعها، فما كان من القاضي إلا أن بصق في وجهه ، فسل الشيباني المستفتي خنجره وأغمده في جسم الشيخ، الذي لم يصب منه مقتلاً ، فعولج حتى شُفيَ وقتل (الجاني).

واعتدى أحدهم فحفر في مجرى أرض يملكها أهلي [الجاسر] وشركاؤهم، فحكم قاضي الإقليم بمنع ذالك المعتدي، ولكنه اتصل بقاضٍ آخر فبعث معه كتاباً إلى أمير القرية بأنه قد ثبت عنده أن الأرض التي حفر فيها فلان هي ملك له، فلما علمت بهذا وكنت في مكة المكرمة وكان القاضي ممن حج ، ذهبت لمقابلته ، فكان الاستقبال حسناً، ولكنني عندما بدأت في الكلام في القضية ، ووصفت الرجل بأنه قد يكون لَبَّس الأمر، ما كان من الشيخ إلا أن رفع الخيزرانة التي بيده وأهوى بها على رأسي ، وانتهرني بشدة آمراً بالقيام من عنده ، فلما قمت قلت : بأنني سأذهب إلى قصر الملك ، وسأوضح القضية بأنك حكمت خارج اختصاصك، لرجل لك به صلة ، بغياب خصمه ، في قضية حَكَمَ فيها القاضي المختص بالحكم فيها، فما كان منه إلا أن أوعز إلى أخيه ليلحق بي ، وليسألني عما أريد ، فطلبت منه كتاباً لأمير القرية بأن ما كتبه في موضوع الأرض المذكورة إلى أمير القرية لا ينبغي الاعتماد عليه ، فكان ذالك .

(٤) : (SAUDI ARABIA) طبع في لندن سنة ١٩٥٥م ويقع في ٣٩٣ صفحة.

(٥) : هو أحمد بن عبد الله القاري المكي (١٣٠٩هـ / ١٣٥٩هـ) وقد قام الأستاذان الدكتور عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان والدكتور محمد إبراهيم أحمد علي بتحقيق ما أعده الشيخ القاري من المجلة وقامت (مؤسسة تهامة) بنشره .



محمد سرور الصبان

جدة في ٢٢/١٢/[illegible] هـ

حضرة الفاضل الأخ الأستاذ حمد الجاسر المحترم

تحية طيبة،

تلقيت - بيد التقدير - خطابكم المؤرخ ١٥ [illegible]،
كما تلقيت العدد الأول من مجلتكم الغراء "اليمامة"
وإني أهنئكم على التوفيق، ويسرني أن [illegible]
أني على استعداد [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] تنجح هذه [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

خطاب الشيخ الصبان للشيخ حمد الجاسر ـ رحمهما الله ، يشكره على العدد الأول من مجلة اليمامة ويبدي استعداده للمشاركة

حركات غير مريحة !!

ما كنت متوقعاً أن ينظر إلى بعض التصرفات اليسيرة التي كنت أقوم بها مدفوعاً بنية حسنة، وثقة تامة عقيدة وعلماً أنني ـ وقد قُلِّدتُ أعباء تلك الوظيفة الشاقة وظيفة القضاء ـ مُكَلَّفٌ بالقيام بها على خير الوجوه، فلقد كانتْ نظرتي إلى عملي نظرةً مثالية، وما كنت مرتاحا لتصرف بعض من ابْتُلِيَتْ بهم تلك المهنة الشريفة، فهبطوا بها إلى الحضيض، باسْتِخْذَائِهِم* لتصرُّفِ أمرائهم، وانْصِياعهم لتحقيق أهواء هاؤلاء الأمراء، وانقيادهم لأوامرهم، بينما الحق أَنْ تنعكس الأحوال، فما الحاكم الإداريُّ ـ الأمير أَوْ من هو أعلى سلطة منه ـ سوى أداة تنفيذٍ للأحكام الشرعية، التي تصدر عن الحاكم الشرعي (القاضي).

ولقد أدركتُ ـ عن قناعةٍ وعُمْق إدْرَاك ـ أنَّ ضعفَ منزلة القضاء ناشِيءٌ عن ضعف القضاة أنفسهم، وعن جهل أَكْثرهمْ، لا بما هو مطالبٌ به من واجبات بحكم وظيفته فحسب، بل بما هو أعم وأشمل.

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ   رأَى غَيْرُهُ فِيْهِ مَالا يَرَى

ولقد نشأ عن ذالك أنْ أَصْبَحَ الاستخفافُ بتلك الوظيفة وبالقائمين بها يوشك أن يكون شاملاً، بحيث صار بين الأُمراء من يتصور أنَّ القاضيَ أَحَدُ مَرْؤُوْسِيْهِ ـ كغيره من الموظفين في دائرة نفوذه ـ فلا يعدُّهُ سوى مُنَفِّذٍ لما يقرره في القضايا التي هي من اختصاص القاضي، ولقد سار أكثر الأُمراء ـ وخاصَّةً ذوي الحظوة وعلوِّ المنزلة ـ على الاتصال بولاة الأمور عند حدوث بعض المشكلات التي ينبغي الرجوع فيها إلى

* لعلها من استخذأ أي خضع . (ش) .

القضاة ، مبدياً رأيه حيال معالجتها ، وأَيُّ رَأْيٍ أو توجيهٍ لا يكون مُجَرَّدًا من الأهواء والغايات ؟ ! وكثيراً ما يتلقَّى من أولئك الولاة ما كان يتوقعه حيال ما أبداه ، ولرؤسائه العذْرُ في ذالك ، فقد كان ـ ولا يزال ـ محلَّ ثقتهم ، وموضعَ حسنِ ظنهم ، وقد منحوه من السلطة الواسعة والتصرف في توجيه شؤون بلاده ما ليس لغيره .

منطقة (ظبا) ليست من السعة بالتي تكثر مشكلاتُها ، وأهلها من سكان القرى على جانب كبير من الهدوء ، والاتجاه لأعمالهم الخاصة ، والاستقامة في سلوكهم ومعاملاتهم فيما بينهم ومع غيرهم ، وهم في نظرتهم إلى ما يتصل بالدولة من أمورهم حَذِرُوْنَ ، وحريصون على أن يعالجوها بينهم دون أن تسبب لأَحَدٍ إزعاجاً ، أو تحدث ضرراً ، وهم في تكافلهم وتعاونهم كَالْأُسْرَةِ الواحدة ، ولهذا فقلَّ أن تتجاوز قضاياهم تَصَرُّفَ وجهائهم وعقلائهم .

أما أبناء البادية ، وهم أكثر انتشاراً وعدداً في المنطقة ، فقد تحدث من أحدهم بعض التجاوزات ، ولكن الدولة كانت لا ترحم المُسِيْءَ ، ولا يفلت المجرم من عقابها الشديد ، ومنذ زمن ليس ببعيد حدث من قبيلة (الحويطات) ما استوجب الزج بأحد عشر من شيوخها (آل طقيقة) في سجن لم يغادره سالماً سوى واحد منهم ، فكان للرهبة أثرها حتى انقطع دابر الفساد ، وفي المنطقة الأمير عبد العزيز بن ماضي[1] ـ يحرص ويسعى دائماً ما استطاع لاستصلاح الأمور ، ومعالجتها بحكمة ورفق ، وهو في الوقت نفسه يتمتع برحابة صدر ، وحسن أخلاق ، ودماثة طباع ، ولهذا يعمل جادًّا على إشاعة الطمأنينة والهدوء ، وأن تسود الرَّاحة والاستقرار والمحبة في نفوس جميع المواطنين من بادية وحاضرة .

وقد يكون عرف عني قبل لقائي به ما دفعه ليبادلني احتراماً باحترام، وأن يعاملني بإكرام وتقدير، مدة وجوده في هذه البلاد.

١ ـ نحن الآن في آخر شهر رمضان من عام ١٣٥٧هـ [تشرين الأول ١٩٣٨م]، وبعد مضي الثلث الأول من الليلة المكملة للثلاثين من ذالك الشهر وصل إلي كتاب من الأمير خلاصة ما فيه (تلقينا برقية من نائب جلالة الملك بأن غداً العيد).

هكذا بدون تفصيل بطريقة ثبوت رؤية هلال شوال، ونصوص الفقهاء صريحة واضحة في هذه المسألة، فمجرد الخبر فيها لا يصح الأخذ به، بل لا بد من ثبوت حكم قاض بالرؤية، ولهذا كتبت إلى الأمير بفحوى ما فهمته، ورجوت أن أتلقى جواباً صريحاً بثبوت رؤية الهلال بحكم أحد القضاة، وأبرقت إلى رئاسة القضاة بنص ما تلقيت من الإمارة، وبخلاصة ما أجبتها به، وأظهرت استغرابي من موقف رئاسة القضاة، وهي المرجع في الأحكام الشرعية من عدم إخباري وغيري من القضاة بما تم في الأمر، فوردني منها الجواب ـ في الليلة نفسها ـ موضحاً ثبوت الرؤية شرعاً، مع تأنيب موجه إلي لموقفي من عدم الاقتناع بكتاب الإمارة، وفي الوقت نفسه تلقيت كتاباً آخر من الإمارة جاء فيه (إليكم ما تلقينا برقياً من نائب جلالة الملك: أخبروا القاضي أن هذا أمر ثبت لدى علماء المسلمين ولا يسعه مخالفتهم، فإن وافق وإلا فابحثوا عمن يصلي بكم العيد، وأفيدونا)، وكان جوابي أنني لم أرد إلا التثبت، وقد تمَّ هذا، وأبرأ إلى الله من مخالفة اتباع الحق، أو أن تكون لي غاية غير حسنة، وينتهي الأمر عند هذا الحد، إلا أن الإشاعات

تَعَدَّى التهامس، لتصبح حديث مجالس: لقد غضب فيصل على القاضي، ووقع خلاف بينه وبين الأمير، وأنه سيغير بغيره، أو يعزل قريبًا، وتقل الصلة بيني وبين بعض أناس كان من بينهم من يلازمني ملازمة الظِّلِّ في كثير من الأوقات.

و أُلْحَق بالبعثة العلمية في مصر في عام ١٣٥٨هـ ويزور فيصل القاهرة فيذهب طلاب البعثة للسلام عليه في فندق (شبرد) في أحد الربيعين من ذالك العام، ولا ينسى رئيس ديوانه إبراهيم السليمان ابن عقيل ـ وهو يقوم بتقديم الطلاب للأمير واحداً واحداً ـ أن يقول عند تقديم صاحبنا: (.. قاضي ظبا، صاحب قصة الهلال) فلم يُعِر الأمير قوله اهتماماً، بل أسبغ عليه من حفاوته ما شمل به إخوته الطلاب الآخرين.

ويمضي من الزمن ربع قرن، إذ يمتنع عمال المطابع التي أنشأها صاحبنا في الرياض في اليوم الثاني من شهر رمضان سنة ١٣٨١هـ [٧ / ٢ / ١٩٦٢م] ـ فيعرض الأمر على المشرف على وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، وكان إذ ذاك الشيخ ناصر المنقور مع عمله أميناً عاماً لمجلس الوزراء، فيقترح مقابلة فيصل ـ رئيس الوزراء ـ لتهنئته بدخول الشهر المبارك، ولإخباره بما جرى من (إضراب) العمال المصريين عن العمل.

وفي أثناء المقابلة ضحوة اليوم الثالث من الشهر تَتِمُّ المقابلة، ويتحدث يوسف ياسين عن رؤية الهلال، وعن الخلاف بين العلماء فيما إذا رآه أهل قطر فهل يَلْزَمُ الأقطار الأخرى التي لم يُرَ فيها العملُ بتلك الرؤية، فيلتفت فيصل مبتسماً ومشيراً إلى صاحبنا وهو يقول:

(أمور الأهلة عندنا الشيخ فلان، فهو المرجع في أحكامها) ويحاول يوسف ياسين الاستيضاح، فأقاطعه بعرض الأمر الذي حضرت لعرضه، ولم أخرج من المجلس إلا وقد نلت أكثر مما أملت من تلك النفس الرضية التي لا تحمل حقداً.

٢ ـ في بعض قرى منطقة (ظبا) كـ (مقنا) و (عينونا)، و (البدع) وغيرها قليل من النخل يملكه أبناء البادية، يختص أحدهم ـ أو بعضهم متشاركين ـ بالنخلات القليلة، التي لا تبلغ ثمرتها نصاباً تجب فيه الزكاة شرعاً، إلا أن طريقة استيفائها منذ عهد الدولة التركية إلى هذا العام ـ ١٣٥٧هـ ـ تجري على مذهب أبي حنيفة، المذهب الرسمي لتلك الدولة الذي لا يشترط للزكاة نصاباً محدداً، بل يقضي بأن يستوفي عُشْر الثمرة مما يُسقَى سَيْحَاً، قَلَّت تلك الثمرة أو كثرتْ، ومذهب الدولة الرسمي هو المذهب الحنبلي، وهو يشترط لاستيفاء الزكاة ـ وجوبها ـ بلوغ مقدار النصاب وهو خمسة أوسق »، عملاً بالحديث الوارد عن النبي (ص) «لا زكاة فيما دون خمسة أوسق»[٢] والوسق ستون صاعاً بالصاع النبويٍّ، فما لم تبلغ ثمرة النخل المتميز بملك خاص ثلاث مئة صاع فلا زكاة فيها، وأكثر نخل تلك القرى لا تبلغ ثماره النصاب الشرعيٍ لقلتها، وأهلها من فقراء البادية، الذين كثيراً ما يعانون إرهاقاً من بعض جباة الزكاة، مما لا يرضى به ولاة الأمور متى علموا به، كما لا يرضون بأن تعامل بعض الرعية بأحكام مذهبٍ خلاف المذهب الذي يجري العمل به بصفة عامة، وخاصة ما دامت تلك الأحكام تتنافى مع ما يهدفون إليه من الإحسان إلى رعيتهم والرفق بها، وشمولها بالعدل والإنصاف في جميع أمورها.

ولقد بعثتُ للملك برقية فصلت فيها الأمر، فكان أن تلقيت جواباً فحواه: (أمرنا ابن سليمان بأن يسير عمال الزكاة طرفكم على تعليمات تضعونها لهم مطابقة للأحكام الشرعية) مع أنني تلقيت من (رئاسة القضاء) ما يشعر بعدم ارتياحها مما فعلت، وكنت قد بعثت إليها نسخة مما أبرقت به إلى الملك في الموضوع، فكان مما أجابتني به: (ينبغي عدم تجاوز مرجعكم بالاتصال بالجهات العالية)، ولكنني أوضحت للرئاسة أنني لم أتصل بولاة الأمور ولن أتصل إلا بما أنا مطالب به شرعًا قبل أن أكون قاضيًا بنص الحديث الشريف (الدين النصيحة قالوا: لمن يارسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) ولن أدع هذا الأمر ما استطعته.

بعثتُ إلى (مالية ظبا) ما طلبت مني من تعليمات لتزود بها عمال الزكاة الذين ستبعثهم لجبايتها من أهل تلك القرى، وقد فصلت فيها الطريقة التي ينبغي أن يسير عليها العامل في استيفاء الزكاة من عدم الحيف على صاحب النخل في الخرص، أو في اختيار أجود أنواع الثمرة، أو تجاوز الحد المقرر شرعاً، وغير ذالك مما نص عليه العلماء من حيث التعامل بين جُبَاة الزكاة وبين أصحاب الملك.

ويبدو أن إدارة المالية ما كانت مرتاحة للتدخل في أمر تراه من اختصاصها، فقد أبرقت إلى وزير المالية بأن العمال إذَا ساروا على ما قدمه لنا القاضي من تعليمات فسوف يعودون بدون شيء، ولا داعي لدفع تكاليف بعثهم وتحمل مصاريفهم بدون مقابل.

وكان آخر ما بلغني في الأمر أن الملك أبرق إلى وزير المالية: (لا بد من تنفيذ أمر الشرع في الموضوع)، فكان أن بعثت بتلك التعليمات التي كنت قدمتها لإدارة المالية إلى الملك وإلى رئاسة القضاة طالباً التثبت من مطابقتها للأحكام الشرعية.

٣ ـ كان جلُّ اهتمام الدولة منذ أن شمل الحكم هذه المنطقة منصرفًا إلى تثبيت قواعد الأمن، والاستقرار في ربوعها، فقد كانت من آخر مناطق المملكة هدوءاً واطمئناناً، إذ لم يمض على القضاء على آخر تمرد حدث فيها بقيادة حامد بن رفادة سوى أربع سنوات، وصلاتها بقطرين مجاورين، منفصلين بحكمهما عن المملكة، يستلزم من الدولة أن تعنى بالأمن فيها أولاً، ثم تتفرغ لإصلاح أحوالها العامة، وها هو الأمن قد أضفى عليها رواقه، ونعمت بنصيبها من استقراره وشموله كغيرها من المناطق الأخرى، ولكن كثيراً من أحوالها لا يزال على ما هو عليه منذ عهود قديمة، مما هو بحاجة إلى أن ينال من عناية الدولة من الإصلاح والرعاية ما تهدف وتسعى ليكون عامًّا شاملاً.

ولقد كان مما أثار اهتمامي جَهْلُ كثير من أبناء البادية بأمور دينهم جهلاً مطبقاً، بحيث إن بعضهم لا يحسن أداء ما فرض الله عليه، مما لا يتم إسلامه إلا بالقيام به، فقد تعاقبت عليهم حكومات لم تُعْنَ بهذا الجانب من حياتهم، فاستمروا في حالة تشبه ما كان عليه أباؤهم في عصور ما قبل ظهور الإسلام، وتَبِعَةُ هذا الأمر لا تختص بالدولة نفسها وإن كانت تحمل القسط الأوفر منها، ولكنها تَعُمُّ كلَّ من عرف حالة اؤلئك، وقَدرَ على مَدِّ يَد الْعَوْن لهم بما استطاع، فكان أن قدمت إلى (رئاسة القضاة) تقريراً مفصلاً عما عرفته عن سوء حالة اؤلئك، وأوضحت أماكن سكناهم، وحاولت أن تكون شاملة لكل مواضع تجمع البادية في منطقتي الوجه وظبا، حتى حدود المملكة شمالاً، مع ذكر القبائل التي تنتشر في هذه الجهات من

قبيلة بَلِيٍّ جنوباً، حتى قبيلة بني صَخْرٍ في الأردن شمالاً، وطلبت فيما كتبت أن تبعث رئاسة القضاة ـ في أول الأمر ـ عشرة مرشدين، ممن لديهم إلمام بمعرفة الأحكام الشرعية، وإن لم يكونوا على جانب من سعة العلم، وإنما ينبغي أن يكونوا قدوة في أخلاقهم وسلوكهم، والسير على النهج الذي يُرَغِّبُ الناسَ ويحببهم في الاستجابة للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، إذْ طباع البادية لا تنقاد إلا بذالك، ويحسن أن يستقر هاؤلاء المرشدون في القرى التي يُكْثِرُ أبناء البادية ارتيادها ومنها: أبو القَزَاز، وشغب، وبَدَا والمويلح، ومَقْنَا، والبدع، وحقل، وعَلَقَان.

لم أتلق جواباً من رئاسة القضاة حتى توهمت أن التقرير لم يصل إليها فبعثت نسخة أخرى منه، مع كتاب أوضحت فيه أنني قد قمت بفعل ما أستطيع، وأصبح الأمر منوطاً بغيري.

٤ ـ وفي المنطقة مساجد لم تمسسها يَدُ الإصلاح والتعمير منذ زمن طويل، فأصبحت في حالة سيئة من الإهمال والتشعث، وعدم العناية، فأبرقت إلى الملك، ورجوت أن يكون إصلاحها إحدى المكرمات التي يفضل بها، ابتغاء الأجر والثواب، فكان أن صدر الأمر بأن تقوم لجنة مكونة من الإمارة والمحكمة والمالية والبلدية بزيارة القرى، للاطلاع على مساجدها، وتقرير ما يلزم لإصلاحها، وبيان ما يحتاج إلى عمارةْ مسجد منها.

٥ ـ كان راتب القاضي الشهري من قضاة الشمال عام ١٣٥٧هـ [١٩٣٨م]، أربعين ريالا، بينما راتب مدير مالية ظبا وجماركها ياسين طه ستون ريالاً، ومثله مدير مالية الوجه وجماركها عبد الله بن محمد القين،

فأوضحت هذا لرئاسة القضاة، وأن من الغبن للقاضي والاستخفاف بقدره أن ينال غيره من تقدير الدولة ورعايتها أكثر مما ينال، فكان الجواب: (... وسننظر في موضوع الرواتب في الوقت المناسب)، فما كان مني إلا أن أوضحت الأمر للملك ببرقية بعثت نسخة منها للرئاسة فتلقيت الجواب الملكي: (أمرنا ابن سليمان أن يقرر لكل قاض من قضاة الشمال، تبوك والوجه والعلا وظبا، راتب ستين ريالاً شهرياً) وكان القضاة في هذه البلدان ذالك العام: ناصر بن عبد الله الوهيبي *، ومحمد العلي الحركان، وضياء الدين رجب، وحمد الجاسر - على الترتيب.

هي وأمثالها حركات أو تصرفات منبعثة عن شعور صادق بأنني - ولو لم يُولِني ولاة الأمر شرفَ القيام بما كُلِّفت به - أرى أن تلك الأمور من أولى ما تجب المسارعة مني للقيام به، فإنني كفرد من أبناء أمة أوجب الله عليها أن تكون في تعاون أفرادها على الخير وتوادهم وتعاطفهم كالجسد الواحد، وأن الفرد من أبنائها - أيا كانت منزلته في مجتمعه - مطالبٌ حسب قدرته أن يبذل في توجيه أمته وجهة الخير والصلاح ما استطاع، وأن يكون أداةً حسنة في الإرشاد وحسن التوجيه، عوناً لمن ولاهم الله أمور الأمة، بتبصيرهم بما قد يخفى عليهم من أحوالها، والقيام بواجب النصح لهم، وهذه الأمور ليست وقفاً على من أسندتها الدولة إليهم - فيما لو فرض أنها من اختصاص أحد - فضلاً عن أحوال منطقة نائية حديثة العهد بانضوائها تحت لواء الحكم، أما اؤلئك الذين قابلوا بعدم ارتياح بعض ما قمت به عن قناعة وحسن نية

* والد الدكتور عبدالله الوهيبي . (ش) .

وسلامة قصد ـ ومنهم من كان يؤمل منه أن يكون موقفه موقف المؤيد المساعد ـ فقد كانوا يتصورون مما ألفوا واعتادوا من كثير من القضاة أن عَمَلَ القاضي محصور داخل محكمته ، وهذا هو غاية الجهل بوظيفة القضاة كما شرعها الله لعباده، وغاية الجهل أيضاً بما أوجب بين الأمة من تعاون على الخير ، ومناصحة ولاة الأمور ، وأن يكون كل فرد من أفرادها عضواً نافعاً في جسم لا حياة له ولا سعادة إلا بقيام كل جزء منه بواجبه .

الحواشي :

(١) : هو الأمير عبد العزيز بن عبد العزيز بن جاسر بن عبد العزيز بن جاسر بن محمد بن ماضي المستشار الخاص لسمو أمير المنطقة الشرقية الآن، ولد سنة ١٣٣٠هـ في روضة سُدَيْر ، وعاش فترة في مكة المكرمة، ثم عين سنة ١٣٥٤هـ في إمارة ظبا، وتنقل بين إمارة القطيف وإمارة وادي الدواسر وإمارة الخبر، وعن أسرته انظر (آل ماضِي) في «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد».

(٢) : بوب له البخاري في «صحيحه» من كتاب الزكاة، وانظر «المغني» ج٤ ص ١٢ و ١٥٥ وما بعدها .

(ياقاضي المسلمين ، يا فكاك من الظالمين*)

هكذا ابتدأ كلامه هذا البدوي الزائر الذي فاجأني بالحضور في صباح مبكر ، قبل الوقت الذي اعتاد الزوار من ذوي الدعاوي الحضور فيه ، ومن عادة بعض أبناء بادية الشمال بدء عرض قضاياهم بكلام مسجوع ، وقد يستمر أحدهم ساجعًا حتى ينتهي من عرض قضيته .

هذا البدوي حُوَيْطِيٌّ من بادية منطقة (ظبا) كان يتلجلج في كلامه ويتلعثم ، وينتابه أثناءه شبه ذهول يدفعه إلى تكرار بعض الجمل ، إنه يقول ــ باللفظ وبالمعنى : سبعة أنفس ، ثلاثة (ورعان)[1] وأمهم (العجوز) ــ يعني أمه ــ وهو السابع . إنه حَطَّابٌ ، يجلب هشيم الشجر ــ من طلح وسمر ــ من الأودية والجبال البعيدة عن البلدة ، وقد يغيب في سبيل ذالك الأيام الثلاثة والأربعة ، وفي الغالب يحضر في اليوم الرابع بما يَسَّر الله له محمولاً على ظهر جمله ، إنه جمله الذي لا يملك من حلال الله غيره ، والذي هو ــ بعد الله ــ وسيلة قيامه بـ(معوشة أهل الخِدر)[2] كلهم .

ومنذ ثمانية أيام وهذا الصباح التاسع ــ وفي الصباح ــ وكل صباح من ربنا مبارك (نَوَّخْت)[3] جملي في سوق البلدة على عادتي ، ووضعت ما على ظهره من الحطب مصفوفًا بقربه ، معروضًا للبيع أترقَّب (حماد) أكبر (ورعاني) في العاشرة من عمره ، ليحضر ويحل محلي في الإشراف على الحطب وعلى البعير ، لي ثلاث ليال ما (صَبَّحْت على العجوز) الله يُجيرك من كل بلاء ، أكثر الليالي لا أحد منا يَتَهَنَّى بالنوم من شدة

* وضعها الشيخ بين قوسين لتنطق بلهجتها العامية ، وإلا فإن الفصيح أن تعرب كلمة (فكاك) على النصب (فكاكاً). (ش) .

(سُعَالها) وارتفاع أنينها ، هذا سابع عام على هذه الحال ، تصرفنا وتحرَّفنا ، وفعلنا كل الأسباب ، آخرها مَدَّدَ (ابن سميران)[٤] حكيم من أهل السلط ـ بالنار الحمراء ـ تسعة مطارق فوق صدرها وفي ظهرها ، والعافية عند الله ـ أنا وحيدها ، و (أم حماد) بنْت أختها .

أقبل (حماد) يعدو : جملنا (وُخِذَ)[٥] ، جاء حَضَرِيٌّ وفكَّ عِقَاله وساقه ، ولما تبعته لأرد الجمل طردني وتناولني بالعصا ! . والحطب ؟ الحطب مكانه ما أخذه ! ! عرفت من أحد أصحاب الدكاكين أن الرجل الذي ذهب بالجمل هو ابن سلامة ، من خدم الأمير ، ولدى باب الإمارة وجدتُّ الجمل بارِكًا معقولاً ، فلما حاولت فَكَّ عقاله أتى إلي الحارس ومنعني ، دعا ابن سلامة فقال لي : ثلاثة أيام أو أربعة ويرجع إليك جملك ، أرسلني الأمير إلى عرب قرب (الخريطة)[٦] من دون تبوك ، وما وجدت في السوق ما (أَتَرَحَّلُهُ) غيره ، ابن سلامة يعرف حالتي وأن ما لي من موارد الرزق إلاَّ ما هيأه الله مما أحمله على جملي من حطب من أقصى الأودية ، خَفِ الله يابْنَ سلامة (ورعان) وأنثى ، وعجوز مريضة ، لا تقطع رزقهم ! ! والبر (مَلْيَان)[٧] من حلال ناس أقوى مني ، انتهرني بشدة وقال : راجع الأمير ، لكنني حين حاولت الدخول عليه منعني الحارس ، فترقبت خروجه من البيت بعد بيع الحطب ، فلم أر الجمل في مبركه ولم أستطع الدنو من الأمير . . ذهب الجمل ولم يعُد ، وفي مساء اليوم الثامن وقف ابن سلامة على باب (الخدْر) وقال : يا (أبو حماد) استخلف الله في جملك ، أصابه (نحاز)[٨] أو مرض ، فبرك وحنى رقبته ، ولم يقم من مبركه ! ! كيف لي أن أصدق بما سمعت من كلام الرجل ؟ لقد أسرعت في الخروج من البيت متطلعًا حوله لكي

أرى الجمل فلم أره وأين الجمل يا ابن سلامة؟!! ما قلت لك إلا الصدق إنه الآن جيفة تتناهشها النسور والغربان، دون عقبة الخريطة فاطلب من الله الخلف فيه!، ثم انصرف الرجل وتبعته مشدوهاً حتى بلغ بيت الإمارة فأردت الدخول لكن الحارس منعني، فعدت إلى (خدري) ومن فيه، وبتُّها ليلة الله أعلم بما انتابني فيها من الهموم والأحزان، لقد كانت ليلة (غبراء)[٩] سهرتها إلى الصباح.

كان أمير المنطقة قد غادرها وأناب قريباً مكانه، وشَتَّان بين الرجلين فهما وإن كانا من أسرة كريمة نال كل فرع من فروعها حَظَّه مما عرفت عنه من حَميد الصفات إلاَّ أنهما يختلفان، أو أنني نظرت إلى كل واحد منهما نظرتين مختلفتين:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ
كَمَا أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي اَلْمسَاوِيَا

ولعل لما قابلني به الأمير حين قدومي إلى هذه المنطقة كان ذا أثر في انطباعي عنه كما ألمحت فيما تقدم، كان دمث الأخلاق، سَمْحَ النفس، رَحْبَ الصدر، طَلْقَ المحيا، كريم العشرة، أقام في مكة فترة من الزمن فتهذّبت طباعه، وتفتحت له من آفاق المعرفة بالناس وأحوالهم ما أتاح له وأكسبه حسن التعامل معهم، كما أَلَمَّ بجوانب من الثقافة العامة والأدب، بخلاف نائبه فلم يغادر القرية التي ولد فيها إلاَّ في فترات قصيرة، وهو مع ذالك عليل الجسم، ولهذا فهو متغير المزاج في كثير من الأحيان، أو هكذا بدا لي من أخلاق الرجلين من أثر المدة القصيرة التي أمضيتها مع كل واحد منهما، مع أنها لا تكفي للحكم عليهما.

لقد بعثت إلى نائب الأمير ما أَفْضَى به إليَّ صاحبُ الجمل بحذافيره،

وأضفتُ بكتاب خاصّ : إنه جدير بالعطف، ومدِّ يَد العونِ لفقره، ولما يعول من عَجَزَةٍ فَقَدَ قِوَامَ تحصيل ما يُقيتها، وما كنت فيما كتبت قاصداً أكثر من مساعدة الرجل بالحُسْنَى، فلم يخطر ببالي الاعتراض على تصرُّفِ الإمارة في ذالك الأمر، لأنني لم أكُنْ بَعْدُ على معرفة تامة بجميع جوانبه.

فما كان من نائب الأمير إلاَّ أن أرجع ما كتبت إليه مُذَيَّلاً بجملة : (هذا من اختصاصات الإمارة التي لا يحق للقاضي التدخل فيها) فكتبت إليه بأنني لم أتدخَّل في شؤون الإمارة الخاصة، وما قصدته لا يَعْدُو طلب إحسانٍ لرجل جدير بالعطف والشفقه، والإمارة مسؤولة عما حدث له، ومطالبة شرعاً ـ ولو لم تكن مسؤولة ـ رعايته ورعاية من يعول.

غاب البدوي يومين، وظننت أن الأمر انتهى بما أرضاه، ولكنه عاد إليَّ في اليوم الثالث يشكو ما ناله من إهانة من بعض خدم النائب الذي لم يتمكن من مقابلته.

بعثتُ إلى ابن سلامة ـ خادم الإمارة ـ الذي شكى منه صاحب الجمل، وبعد أن أسمعته الشكوى ضِدَّهُ اعترف بما نسب إليه وأضاف : العادة أنَّ الإمارة حين تريد إرسال أحد إلى أية جهة من جهات المنطقة، إلى قرية، أو (فريق) من البادية لإحضار مطلوب بحق أو إبلاغ أمر من أمور الحكومة، فإن المكلف بذالك من الأمير يذهب إلى السوق، فيأخذ الراحلة التي توصله إلى الجهة التي كُلِّف بالذهاب إليها، ويعيدها بعد رجوعه إلى صاحبها، وحين أمرني الأمير قبل أسبوع بالاتجاه إلى مكان يبعد نحو أربعة أيام لأمر كلفني به، لم أجد في السوق سوى بعير ذالك الرجل، معقولاً بقرب حِمْلِه من الحطب، فحللت عقاله، وسقته

أمامي إلى مقر الإمارة، فلحق بي ابن صاحبه ومن بعده الأب لإرجاع الجمل، فحاولت إقناعهما بلطف بأن جملهما سيعود إليهما بعد انتهاء ما كُلِّفتُ بالقيام به من مهمة، وكعادة البدو في لَجَاجَتِهم التي لم ألتفت إليها، فصرفتهما وسرت على الجمل ضُحَى ذالك اليوم وفي صباح الليلة الثالثة من مسيري، وقد قيدته ليرعى حتى وقت الرحيل، أبصرته باركًا في المكان الذي تركته فيه، وقد حَنَى رقبته وفارق الحياة. (والأرواح يُغدَى عليها ويُراح) وأنا إنسانٌ مأمور!!

لقد كان لتصلب نائب الأمير ومحاولته إبراز الموضوع في ناحية أخرى بعيدة عما قصدت أو فكرت فيه، ما دفعني إلى أن أحاول بالقضية الوقوف عند هذا الحد ـ بعد أن ثبت لديَّ أن ما جرى لهذا البدوي المسكين يستثير عاطفة كل إنسان، ذي إحساس وشفقة، فرجوت ابنَ سلامة النظرَ إليه نظرة إحسان ورحمة لشدة فقره، ولما يعول من أطفال وعَجَزةٍ، فوعد بذالك، غير أنه عاد إليَّ بوجه آخر: الأمير لم يوافق على دفع أي شيء؛ لأن هذا يفتح الباب لغيره بالمطالبة حين تريد الإمارة إرسال أحد من أتباعها في أمر من الأمور المتعلقة بالمصالح العامة، وأغلبها تتصل بأحوال أبناء البادية، وليس لدى الإمارة إلاَّ أن يأخذ مندوبها أَيَّةَ راحلة مما يجد قريبًا منه.

إذَنْ فليست قضيةُ هذا البدوي قَضِيَّةً خاصة، إنها من الأمور التي تعم كل أبناء جلدته، وليست وليدةَ وقتها، وقد تكون من آثار حوادث الإخلال بالأمن في المنطقة خلال السنوات القريبة، ولكن الآن تغيرت الأحوال، فاستقرت الأمور، وأصبح جميع سكان هذه الناحية من البلاد كغيرهم من إخوانهم في نواحي المملكة الأخرى، ينعمون بالأمن

والاطمئنان ويدينون بالطاعة والولاء لدولتهم، ويشملهم من عدلها ورعايتها ما لا ينبغي معه أن يلحق بهم حَيْفٌ أو ينالهم ظلم، وولاة الأمور لا يرضون بإيجاد تفريق بين من سعد بحكمهم في أي جانب من جوانب الرعاية، وإصلاح الأحوال العامة، على أساس العدل والمساواة، أفتراهم يرضون بما يجري في هذه المنطقة من بعض التصرفات وإن كانت يسيرة إلاَّ أنها عميقة الأثر في النفوس؟!.

ما كنتُ أَهْدفُ من وراء إِثارة تلك القضية بعد أن انسدَّت أمامي طرقُ علاجها قبل أن تتسع أن أُسِيء إلى أحد، ولا أن أتجاوز من اختصاص عملي ما لا يحق لي تجاوزه، ولو لم يتصل بي الرجل الذي أثارها لحمدت الله على العافية، ولكنني الآن ـ رضيت أم كرهت ـ أصبحت ذَا صلةٍ بها تستلزم حمل قسط من تَبعَتها، لقد أوضح لي المظلوم مظلمته، وطلب إنصافه، واعترف خصمه بظلمه، والتعدي عليه، فلماذا شرع القضاء إذا لم تكن غايته الإنصافَ بين الناس، وردع التعدي «لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر ولتأخُذُنَّ على يد الظالم ولَتأْطُرُنَّهُ على الحقِّ أَطْرًا أو ليوشك أن يعمَّكُم الله بعذاب من عنده».

بعثت إلى (قائم مقام البادية) محمود أبو طقيقة شيخها، ومرجع شؤونها لدى الحكومة، بكتاب طلبت تقدير ثمن الجمل، وأوضحت له قضية صاحبه كما عرضها عليَّ، وما اعترف به ابن سلامة بشأنها، ومحمود ذُو معرفة بالرجل، وخبرة بأثمان الإبل، فقدرها بما بين خمسة وستين إلى ستين ريالاً، فدعوت ابن سلامة وبينت له أنه لا يسعني السكوت على هذا الأمر، وأنه هو وحده المسؤول، باعترافه وإقراره عما حَلَّ بذالك الرجل الفقير من أذى، وبعثت معه كتابًا لنائب الأمير

فحواه : إنني أدرك موقف الإمارة ولا أريد التدخل في شأن من شؤونها، بل أرى أن من واجبي أَنْ أكون عونًا لها في جميع واجباتها من رعاية الحقوق، وردع الظلم، وتثبيت قواعد الأمن، والسير على نهج العدل والإنصاف بين الناس، وغير ذالك مما هي مكلفة به من الأمور الإدارية من قبل الدولة، ولكن هذه القضية بحاجة إلى معالجة بحكمة، وحالة صاحبها تستلزم أن ينظر إليها نظرة خاصة لو لم يكن للإمارة أية صلة بها، إِذْ حَقُّ الرعاية حقٌّ عامّ لكل مواطن فكيف وقد جاء الحيف ممن يتطلع منه إلى دفعه، والأمر ـ في حَدِّ ذاته ـ أقلُّ من أن تثار هذه الزوبعة التي لا يرضى أَيُّ عاقلٍ بإثارتها، ولا بما قد ينشأ عنها من سَيِّءِ السمعة.

وكان (القائم مقام) قد أخبرني بأنه سيعالج المسألة بمحاولة إقناع نائب الأمير بإرضاء صاحب الجمل، غير أنه أبدى لي ـ فيما بعد ـ رغبته في البعد عنها ما استطاع، ويبدو أنه واجه ما لا يتوقع، وخشي أن يُعَدَّ طرفًا في الموضوع، والأعين حوله لا تزال مفتحة.

لا مندوحةَ إِذَنْ من إِلْقَاءِ التَّبِعَة بإطلاع ولي الأمر، فكان أن بعثت بذالك برقية للملك، حاولت أن أحصر القضية بوصف حاجة ذالك البدوي إلى الشفقة والإحسان، بعد فقد جمله عن إعاشة أطفاله، والعاجز من أسرته، ولدى إمارة المنطقة علم بحالته.

وفي اليوم الثاني حضر إليَّ ثلاثة من وجهاء أهل البلدة مظهرين تأثرهم من انتشار إشاعة وقوع خلاف بيني وبين الإمارة، وأنهم على استعداد لإرضاء البدوي، فوافقت على هذا ولكنني علمت منهم أن البرقية لم تُبْعَثْ بعد، فأمليت بحضورهم على كاتب المحكمة برقية موجهة إلى الملك بأنني في الساعة الثالثة من صباح أمس [بالتوقيت

الغروبي السائد آنذاك] بعثت برقية باسم جلالتكم وقد علمت ظهر هذا اليوم أنها لم تبعث، لقد سارع اؤلئك بإحضار خمسة وستين ريالاً وطلبوا إيقاف البرقيتين، ليكن ذالك بالنسبة للأخيرة، وأما الأولى فليس فيها ما يحاذر منه، ولن يرتاح ضميري حتى أُحِس بأنني بذلتُ ما أستطيع حيال مظلمة طُلِبَ مني دَفْعُهَا.

وما كنت أود أن يتسع نطاق الجفوة بيني وبين الإمارة، ولهذا حاولت إزالة أسبابها، وكررت زيارة نائب الأمير في مناسباتها المعتادة ولكن:

إِنَّ ٱلقُلُوبَ إِذَا تنافَرَ وُدُّهَا ... مِثْلُ الزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا لا يُشْعَبُ

الحواشي:

(١) : (ورعان) جمع ورع وهو الصغير الضعيف لغة، وعند أبناء البادية يراد به الطفل ويجمعونه على (ورعان).

(٢) : الخذر : البيت الصغير من شَعر، والكلمة عربية فصيحة.

(٣) : نَوَّخَتْ : أنخت.

(٤) : مَدَّد ابن سُمَيْران تسعة مطارق : أي كَوى أُمَّهُ تسع كيات مستطيلة بشكل المطرق وهو العصا الدقيقة.

(٥) : (وُخذ) : أُخِذ، من قبيل إبدال الهمزة المضمومة واواً .

(٦) : الخريطة : عقبة في جِبال حِسْمَا ينزل منها الطريق إلى تبوك.

(٧) : (مليان) : ملآن.

(٨) : نُحَاز : داء يأخذ الدواب في رئاتها فتسعل سعالاً شديداً.

(٩) : غبراء : مشؤومة.

(يا قاضي العرب، يا فكاك من النَّشب) !!*

امرأة بَرْزَةٌ[1] لم تتجاوز الخمسين من عمرها فيما يبدو من ملامح وجهها، وما من عادة كل نساء بادية شمال الجزيرة التَّحَجُّب، دخلتْ عليَّ المحكمة ضحوةً، وكنت مشغولاً بمحادثة زائر، فجلست خلفه، باديَةَ الانفعال والتأثر، فلما التفتُّ نحوها بادرتْ بتكرار السجعة المألوفة، تكاد العبرة تخنقها: (يا قاضي العرب، يا فكَّاك من النَّشَب) واسترسلت بكلام قَدْ تَعي الذاكرةُ جُمَلاً منه باللفظ، وأكثره بالمعنى ـ: (فكّني، الله يَفُكُّ هالْوَجْه من كل شرٍّ) أنا أنثى خِضر بن شِهْبي[2]، خضر المعروف، شيخ قبيلة العُمَيْرات، أنا رابع أنثى، ولكنني بينهن أنا الجارية، وأنا الراعية، الجارية في البيت أخدم، أطبخ، وأحضر الماء والحطب، وأنظف الأواني، وأنا الراعية في البر، أرعى إبله، وأوردها الماء، ما قسم الله لي منه (نماء)[3] ولي أكثر من ثلاثين عاماً راضية بقسمة الله، له (ورعان)[4] من كل زوجاته، تغيرت حالته معي، ما يعاملني معاملة زوجة، بطني خالي، وجسمي عاري، وما يرفع عصاه عنِّي، بسبب وبغير سبب، ثم أبدت جوانب من وجهها وذراعيها فإذا فيها خدوش وآثار ضرْبٍ، وأجهشت بالنحيب والبكاء، فبعثت بها إلى محمود أبو طقيقة[5] ليستوضح أمرها، ولعل في استطاعته التوفيق بينها وبين زوجها، ولكنه أتاني في المساء ووصف لي من فظاظة زوجها وقسوته وشدته في معاملتها ما لا تستقيم معه بينهما عشرة زوجية، وأنه بعث إلى أخيها وهو من أقرباء زوجها ـ لعل بحضوره ما يزيل ما بينهما من خلاف.

---

* المجلة العربية، العدد (١٧٦)، رمضان ١٤١٢هـ / آذار ونيسان ١٩٩٢م، وقد وضعها الشيخ بين قوسين لتنطق بلهجتها العامية، وإلا فإن الأولى أن تعرب كلمة (فكاك) بالنصب (فكاكاً). (ش).

والمرأة في بادية الشمال تختلف منزلتها عند زوجها وبين قومها باختلاف مكانتها الاجتماعية، وحالتها المادية، فكثير منهن يقبل عليهن الأزواجُ لمنزلة المرأة الاجتماعية في القبيلة، كأن يشتهر وليُّ أمرها بشجاعة أو كرم أو علو منصب، ومثل هذه ينظر إليها نظرة إجلال واحترام، وقد يرتفع مقامها متى خلَّفَتْ من زوجها ابناً، ينبه ذكره بمنزلة أخواله في العشيرة، ومنهن من يُرغب بالزواج بإحداهن متى كانت ذات مال، والإبل هي أغلى الأموال عند أبناء البادية، ولهذه منزلتها عند زوجها متى توثقت الصلات بينهما بحب أو نسل، أو احتياج زوجها إليها لفقره وغناها هي، وبإحدى تلك الخلال تحفظ مكانتها.

وقد يتزوج المرء منهم إحدى قريباته، فيحدث بينهما ما يغير أحدهما على الآخر، وغالباً ما يكون ذالك التغيُّرُ من الزوج، كَأَنْ يتزوج عليها من هي أَحْظَى منها في نفسه، فيفضلها عليها لجمالٍ أو لإنجاب أطفال، أو غيرهما من وسائل التفضيل، فتبقى الأولى في عصمته كـ(المعلَّقة)، لضَرَّتِهَا الحبُّ والتقدير، والتفضيل في كل الأمور، حتى يبلغ به الأمر أن يحرمها من جميع الحقوق الزوجية، وكثيراً ما تكون قد بلغت مرحلة من العمر لا مطمح لها إلى غاية، ولا مطمع لأحد في زواجها، فترضخ ـ ذليلةً صاغرةً ـ لكل ما يلحق بها من ظلم وإهانة، وقَلَّ من أبناء البادية ـ إِذْ ذَاكَ ـ من كان ذا إدراك ومعرفة، بما هو مطالب به شرعاً وعقلاً من الحقوق والواجبات.

ويبدو أنَّ امرأة ابن شِهْبِي من النوع الأخير من النساء، لقد حضر أخوها، ومع ما يتصف به من كبر سنٍّ، ورزانة وتأثر مما حدث بين أخته وبين زوجها ابن عمه، إلا أن نظرته كنظرة كثير من أبناء البادية إلى

(المرأة) بصفة عامة (الأنثى ما لها إلا زوجها أو قبرها) !!.

ولكن ديننا الحنيف شرع لها حقوقاً تكفل لها السعادة، وأوجب أن تعامل بالإحسان والعدل، ولم يفرق بينها وبين الرجل من حيث التكاليف الشرعية إلا بما يتلاءم مع طبيعتها، مما يدل على مكانتها في المجتمع، ومطالبتها بأن تشارك صِنْوَهَا الرجل العملَ في ما تقدر عليه من الأعمال النافعة.

لقد أُحْضِرَ ابنُ شِهْبِي من قبل الإمارة، بعد تردد منها بصلته بحكومة شرق الأردن، وانتشار بعض عشيرته في تلك البلاد، وانتمائهم إليها في بعض الأحيان، وحاول حين حضر مع زوجته وأخيها عدم النظر فيما بينهما من خلاف، أردت إزالته بإيضاح حقوق كل من الزوجين على الآخر، وأن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قال: «خيركم خيركم لأهله» وأوصى بالنساء خيراً، ولابنة عمه وزوجته عليه حق الرعاية والعدل، وأن يكون أولى الناس بالدفاع عنها، والقيام بما يجب لها عليه من حقوق تلك العشرة الطويلة التي تزيد على ثلاثين عاماً، وحرصت على أن يتم الوفاق بينهما لأنني أدركت ضعف حالة المرأة، وأحسست من أخيها عدم رغبته بتوسيع شُقَّة الخلاف بينه وبين ابن عمه، ولو على الغض من حقوق أخته، وتبين لي من تطاول الرجل بغليظ الكلام، ومن تَذَمُّرِه لشكوى زوجته مما حدث لها منه، ما يدل على صَلَفه وغروره، وقوة نفوذ في قومه، فأدركت أنَّ من الصعب انصياعَهُ قَسْراً للقيام بما هو مطالب به شرعاً من حسن معاملة زوجته، والعدل بينها وبين زوجاته الثلاث، وهو ـ ككثير غيره من رؤساء عشائر الشمال في ذالك العهد بعد انتهاء

التمرد الذي حدث في تلك الجهة ـ ممن لا تزال الدولة تحاول تأليفهم بمختلف وسائل الترغيب المختلفة، فهم في حالة تَذَبْذُبٍ بين الولاء وبين الانحراف إلى الجانب الآخر، كحالة كثير من رجال البادية في كل زمان ومكان، وأحدهم كما في المثل (كالقرلي[٦]، إنْ رأى خيراً تَدَلَّى، أَوْ رَأى شَّراً تَعَلَّى).

لَجأتُ إلى اللين في مخاطبته : أنت شيخ قبيلتك (ولا يُقَدَّمُ في قوم إلا خيارها) تتحمل في سبيل الدفاع عن حقوقها ما لا يستطيع تحمله سواك، وتحل من مشكلات أمورها ما لا يقدر على حله غيرك، وخلافك مع زوجتك وابنة عمك أسهل وأيسر من أن يؤثر فيما بينكما من صلة القربى، والعشرة الطويلة، فاذهب أنت وأخوها ابن عمك إلى من ترضياه من عشيرتكما واتفقا على ما فيه الخير، والإصلاح بالطريقة التي ترضيكم جميعاً، وتحفظ لهذه الأنثى الضعيفة كرامتها، وتصون حقها، كزوجة تعامل بين ضَرَّاتها بالعدل، وعدم التمييز بما لها من حق طول العشرة وحق القرابة، وفوق ذالك كله حق الله سبحانه الذي أقام هذا الكون كله على أساس العدل، وأوجب على جميع خلقه أن يكون أساس تعاملهم فيما بينهم.

عاد الثلاثة إلي في اليوم الثاني، وقد بدا الرجل في حالة من الهدوء لم أعهده عليها في يومه الأول، وبدأ كلامه بما معناه : انتهى الخلاف بيننا وما كان بيننا خلاف، فأبديت ارتياحي ولكنني علمت من المرأة وأخيها أنه طلب إرجاع (سَوْقِه)[٧] ليطلق المرأة، فوافقا على ذالك، فبينت لهم أنَّ إساءة معاملة الرجل لزوجته لكي يسترد ما دفع لها من مَهْرٍ من الأمور المحرمة في كتاب الله عز وجل، وتلوت عليهم الآية في

ذالك، وكيف يجوز للزوج شرعاً وعقلاً ومرؤة أن يستحل عشرة امرأة ضعيفة خلال تلك المدة الطويلة ثم يطالبها بإرجاع ما نَحَلَها؟ غير أنهم كلهم تظاهروا أمامي باتفاقهم وتراضيهم، وزوال كل ما في نفس أحدهم على الآخر، وأنَّ ما بينهم من وشائج القربى قبل الزواج وبعده ما يوجب التعاطف بينهم، فأمرتهم بأن يذهبوا حتى يتم الاتفاق بينهم بإزالة ما تشكو منه المرأة، أو بمساواتها في الحقوق والواجبات بالزوجات الثلاث، وما كنت ـ بعد أن اتضح لي أن الزوجَ صَعْبُ الْمِراس ـ كارهاً أن يتولوا حل مشكلتهم بأنفسهم، وبعد أن بذلت كل ما استطعت فعله حيال قضية تلك المرأة المغلوبة على أمرها ، لامن زوجها وحده بل حتى من أقرب قريب لها.

وما مضى أسبوع حتى عادوا ومعهم ثلاثة من قومهم، لقد استرد الزوج بعض ما دفع من المهر وهو أغلبه، وسامح في بعضه وهو اليسير منه، و (فَكَّ الأنثى) هكذا عبر الأخ فوجهت الكلام للزوج: لعل ما تم يا ابن شِهْبِي عن تراض وصفاء، وزوال ما في النفوس، فأجاب: ما كنا نريد الأمر يصل إلى ما وصل إليه، ولكن ما داموا اختاروا (الْفَرْقَى) الله يلقِّيْهُم الخير، والأنثى؟ فلانة؟ سمى زوجته باسمها: كرهتني باختيارها وفارقتها برضاي، أصبحت حلالاً لغيري، وحراماً علي، الله يستر عليها، فأمرت بتسجيل إقراره بفراقها، وبجميع ما تم بشأن ذالك، بتوقيع جميع الحضور، وأخبرت الإمارة بما انتهت إليه القضية.

لم أشعر ـ بعد مضي أيام ـ إلا بالمرأة تقف أمام باب المحكمة وأنا عائد من أداء صلاة الظهر، فوقفت لها فإذا مطلقة ابن شِهْبِي التي خالعها، فأخبرتني بأنه تعرض لها مراراً يريد منها الرجوع إلى بيته،

وأنَّ (العميرات) لا تلتزم (بشرع الطويل)[٨]، وأنه تَحَيَّنَ فرصة خُلُوِّها وحدها في بيتها فهجم عليها كالذِّيبْ يريد افتراسها بالقوة ليفعل بها ـ وصرحت بما أراد ولم تُكَنِّ ـ ولكنها حمت نفسها فضربها على وجهها ضربة أثرت فيه، فأمرتها بالحضور حين تعلم بمجيئه، وخشيت أن يذهب إلى الأردن وطلبت من الإمارة سرعة إحضاره، فلما واجهتُهُ بما نسبتْ المرأة إليه بحضورها اعترف به، بل جابهني بما هو أسوأ، وهو أنه لم يكن راضياً بما تم في القضية، ولكنه تظاهر بالرضا للتخلص من إجباره بحكم لا يقبله، ولا يخضع له لا هو ولا قبيلته.

لقد كانت الدولة إلى عهد قريب تجنح إلى استعمال بعض الوسائل التي تتألف بها شيوخ العشائر، لظروف تدعو إلى ذالك، أما الآن بعد أن أصبحت على درجة من القوة، وإقرار قواعد الأمن، وتعميم العدل والإصلاح في جميع أنحاء المملكة، فإن إرْخَاء الحبل لهذا المستخف بها، المستهتر بما تقره من أحكام يُحْدِثُ أعظم خلل في الأحوال العامة، ويسبب الفوضى والاضطراب في جميع الأمور.

ذالك ما أوضحته فيما كتبت إلى الإمارة بشأن الرجل، لقد حاول ارتكاب محرم مع مطلقته، واستخف بالدولة، واستهان بما أقرته إحدى محاكمها الشرعية، وتظاهر باستمراره في عدم الخضوع والامتثال لما تقره من أحكام في حقه أو حق غيره من عشيرته، وطَلَبْتُ تأديبه بحبسه شهراً واستتابته وعدم إخراجه قبل الاطمئنان إلى حسن سلوكه، والثقة باستقامته، ولولاة الأمر اتخاذ ما فيه تأديب له وردع لغيره من أنواع العقوبات، فإن (الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن)[٩].

على أثر ما حدث بيني وبين نائب الأمير من فتور لم تكن صلتي

تمكنني من معرفة ما اتخذته الإمارة بشأن ابن شهبي هذا، إلا أن العادة أن كل ما يجري من حوادث، وما قد يصدر من أحكام فيما يحال منها إلى الشرع، يعرض في وقته على (النيابة العامة) وقد يصدر منها توجيه حيال بعض القضايا.

وقد حبس الرجل ومضى وهو في حبسه أكثر من شهر، فلم أشعر إلا باستيضاح موجز من الإمارة: للإفادة عن أسباب حبس خضر بن شِهْبِي للرفع عن ذالك للمقام السامي.

كان للرجل صلة خاصة بالملك عبد الله ملك شرق الأردن، فلما علم بحبسه اتصل بالملك عبد العزيز بشأنه، ويظهر أنه تأثر من حبس الرجل بدون علمه، فكان أن لفتُّ نظر نائب الإمارة إلى ما كتبت إليه بشأنه، وفيه تفصيل قضيته، ثم علمت أنه خرج من السجن، ولم أدر بما تم في أمره بعد ذالك.

لم آسَ على ما فعلتُ ـ أو حاولت فعله ـ لأدفع عن تلك المرأة المهضومة الحقوق، المغلوبة على أمرها، ما لحقها من أذى، واضطهاد وظلم، بل تمنَّيْتُ أن لديّ من القوة والقدرة ما به أستطيع ردع ذالك الرجل وأمثاله من التمادي في غيّهم وضلالهم، في السيطرة والظلم، والإساءة إلى الضعفاء ممن لا يستطيع الدفاع عن حقوقه. ولم أكترث مما قيل من أن تلك القضية ذاتُ اعتبارات تتصل بسياسة الدولة العليا، وأن تَعَرُّضي لها من قبيل التدخل فيما لا يعنيني، إذ هو ما سبب ـ أو قد يسبب ـ تأثر العلاقات بقطر مجاور، فما تلك العلاقات يوماً ما بأشد تأثراً مما كانت عليه بعد الحوادث الأخيرة، وبمن أُعْنَى إذا لَمْ أُعْنَ بمن كُلِّفْتُ بالنظر في قضاياهم، ولا سيما من كانوا في أشد الحاجة إلى الرعاية

ودَرْءِ الظلم، وصيانة الحقوق من الضعفاء والمضطهدين؟

وحسبي أنني لم آلُ جهداً في بذل ما أستطيع في ذالك السبيل.

الحواشي:

(١): البَرْزَةُ من النساء هي التي تبرز للقوم وتحادثهم عن عفة وعقل.

(٢): ابن شِهْبِي هذا بلغني أنه توفي سنة ١٤٠٦هـ.

(٣): (نما) تقصد أولاداً.

(٤): ورعان: جمع ورع تقدم معناه.

(٥): محمود هذا هو المكلف من قبل الحكومة بشؤون البادية في وظيفة (قائم مقام).

(٦): القرلّى: ويسمى مُلاعب ظلّه، والزُّفراف وهو طائر صغير الجسم، حديد البصر، سريع الاختطاف يطير على وجه الماء، وينظر إليه بإحدى عينيه ويرفع الأخرى فإن رأى في الماء ما يستطيع حمله من سمك أو غيره انقض عليه كالسهم، وإن أبصر جارحاً يخشاه مرّ في الإرض.

ولبعض الظرفاء:

يَا مَنْ جَفَانِي وَمَـلاًّ — نَسِيتَ (أهْلاً وَسَهلاً)

وَمَاتَ (مَرْحَبُ) لَمَّا — رَأَيْتَ مَالِي قَلا

إنِّي أُظُنُّكَ تَحكِي — بما فَعَلْتَ الْقَرِلَّى

عن كتاب «حياة الحيوان» ٢/٢٩٧.

(٧): السَّوْق ـ بفتح السين ـ هو ما ساقه أي دفعه من مهرٍ، وهو في الأصل من الإبل، تُسَاقُ إلى أهل العروس، ثم أطلق الاسم في البادية على المهر أيّاً كانَ.

(٨): (الطَّويل) يقصد به الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ لأنه كان فارع القامة.

(٩): من حديث معناه أن من يَكُفُّ عن ارتكاب المعاصي مخافَةَ السلطان أكثَرُ ممن يكفُّ عنها مُتَأثِّراً بما في القرآن من أمر أو نهي أو إنذار.

قضيَّة كانت هي (القاضية) !!*

ولم يَمْضِ على قضية ابن شِهْبِي سوى أيام يسيرة، حتى حدثتْ حادثةُ قتلٍ، أُحيلتْ إليَّ للحكم فيها، فاعترف أولياءُ القتيل بأن القَتْلَ حدث خطأً ـ بدون قصد ـ ووافقوا على قبول الدية من أولياء القاتل، والفريقان من أبناء البادية من قبيلة واحدة ومن أصحاب إبلٍ، فحكمتُ بالدية مئة منها، كما في الحديث: «في النفس المؤمنة مئة من الإبل»[1]، ورد تفصيل أسنانها في الحديث الآخر «في دية الخطأ عشرون حقَّةً، وعشرون جَذَعَة، وعشرون بنت مُخَاض، وعشرون بنت لَبُوْن، وعشرون بني مخاض»[2] وأضفتُ إلى ذالك: وإن اتفق الفريقان على قبول قيمة الإبل المحددة شرعاً، قُدِّرَتْ أثمانُها بواسطة أهل الخبرة.

وبعد عرض القضية ـ ومثلُها من قضايا الجنايات الكبيرة لا يُبَتُّ فيها حتى تُعْرَض على الملك، ويُصْدِرَ ما يراه حِيَالها ـ ويبدو أنَّ طريقة العرض لم تتضمن ما أوردتُّ في الحكم من تفصيل حول القيمة، فقد أُبْلِغْتُ بتوجيهٍ ملَكِيّ بأَنْ يكون الحكم بمقتضى ما حدده (مجلس الوكلاء)[3] عشرة آلاف ريال، فحاولت إيضاح صحة ما حكمت به للملك، ولنائبه، ولرئاسة القضاة بأن المحكوم عليهم بَدْوٌ أصحابُ إبلٍ، وتحديدُ الدية بالنسبة للقضية ـ قتل الخطأ ـ وردتْ بنصٍّ شرعيٍّ لا يقبل التأويل، وقرار مجلس الوكلاء بشأن تحديد الدية اجتهاد، والاجتهاد لا يسوغ مع وجود النص الشرعي، ثم إنني راعيت في الحكم الأسهلَ، فيما لو اتفق الطرفان على القيمة، وهي في تلك الأيام أَقَلُّ من عشرة

---

* المجلة العربية، العدد (١٧٧)، شوال ١٤١٢هـ / نيسان ومايو ١٩٩٢م.

آلاف ريال، وتلك أرفق، في قضية لم تحدُثْ عن دوافع مقصودة، نَصَّ العلماءُ على تَخْفيفها فتتحملها عائلةُ القاتل عنه، وتُدْفَعُ مؤجَّلَة في خلال ثلاث سنوات، ولفتُّ الأنظار إلى ما سبق أن أقره الملك بشأن مراعاة الرفق بالرعية فيما يصدر من أحكام شرعية، في حدود ما قرره أحد الأئمة الأربعة(٤).

ما كنت أتوقع أن يكون لما أوضحته في القضية أيُّ أَثَرٍ لكثرة ما أسمعه من إشاعات في تلك الأيام عن قرب مجيء قاضٍ يحلُّ محلي، وما كنت كارهاً لذالك، فقد أدركتُ خلال المدة القصيرة التي أقمْتُها في هذه البلدة، ونظرتُ فيها قضايا معدودة، مكنتني من الاحتكاك بمختلف طبقات الناس، فأحسست أنني خرجت من محيط ضَيِّقٍ محدودِ الإدراك والمعرفة ـ هو محيط التلمذة والدراسة ـ إلى محيط العالم الرَّحبِ الذي لا يُحَدُّ سعةً، حقا أدركتُ أنني لا أزال يُعْوِزُني الكثير من المؤهلات والصفات، لأبلغ منزلة القاضي الناجح، وقمة النجاح في هذا العصر ـ كما تصورت ـ بلوغ أعلى مراتب الرضا عنه في جميع تصرفاته من قبل رؤسائه، وَأَنَّى لي أن أبلغ ذالك!!

ومع أنني أصبحتُ أشعر تلك الأيام الأخيرة بالضِّيق، والوحشةِ من الوحدة إلا أَنَّني كنت مع ذالك أُحِسُّ من خلال تصرفاتي في عملي أنني أحاول ما استطعت القيام بذالك العمل مع ضَآلته وضَعْفِ جدواه على خير الوجوه وأَنْفَعِها، وهذا ما كان يُضْفِي على نفسي قسطاً وافراً من الارتياح والاطمئنان.

لم يكن أيُّ قاض ـ فيما مضى ـ بِمَنأىً عن العزل، وتعود أسبابه في الغالب إلى القضاة أنفسهم، فكثير منهم غير مؤهَّلٍ لتولي القضاء،

ولكن الضرورة أَلْجَأَتْ لعدم من هو أصلح ـ كما تقدمت الإشارة إلى ذالك ـ وقد يكون من بين القضاة من لا تنقصه الكفاءة والأهلية من ناحية العلم والمعرفة بالأمور الشرعية ولكنه يجهل حالة أهل عصره، وما يتطلبه المجتمع الذي يعايشه في سلوكه وفي سائر أحواله القائمة على أساس المداراة والمجاملة، فيحاول أن يكون مثاليًّا في تصرفاته، ولا يدرك أنه بذالك أَعْجَزُ من أَنْ يَتصَدَّى للتغيير أو التأثير في أحوال ذالك المجتمع، فلا يلبث أَنْ يجِدَ نفسه في مَعْزِلٍ لا عَمَّا أُسْنِدَ إليه من عمل فَحَسْب، بل عن مجتمعه كله، وهكذا حال كل من لم يُوَطِّنْ نفسه على الاندماج في الحياة العامة التي يحياها جِيلُهُ سلوكًا وأخلاقًا، إنْ تَطَبُّعاً أو مجاملة أو مداراة.

أما أغلبُ حالات عزل القضاة فإنه ينشأ عن عدم وضوح المصدر الذي تُسْتَمَدُّ منه الأحكام.

لا خلاف في أَنَّ القاعدة الأساسية في ذالك أصول الشرع : الكتاب والسنة والإجماع، وأَنَّ المذهب المعمول به هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وأَنَّ مؤلفات أصحابه هي المرجع الذي تُقْتَبَسُ منه نصوص الأحكام الشرعية، ولا يتأهل للقضاء إلا من بلغ درجة من الإدراك والمعرفة تمكنه من فهم تلك النصوص، واستخلاص ما ينطبق منها على ما سيصدر من أحكام، ومن هنا اشتُرِطَ في القاضي أن يكون مُجْتَهِداً ولو على مذهبه، وقلَّ أن يتولى القضاءَ فيما مضى أحد من أهل نجد من لم يُكْمِل دراسة كتاب «زاد المُسْتَقْنِع» لموسى الحَجَّاوي، مستعيناً بشرحه «الرّوض الْمُرْبِع» للبهوتي، مع الرجوع إلى «كَشَّاف الْقِنَاع في شرح الإقناع» له أيضاً.

ومع احتواء هذه الكتب على فروع الفقه الحنبلي، إلا أنَّ أحوال الناس عُرْضةٌ للتغير في كل زمان ومكان، فيستجد من القضايا ما لا يوجد لحكمه نَصٌّ في تلك الكتب، أو توجد نصوص لأحكام قائمة على اجتهاد بدون دليل شرعي ثابت، وفيها من الشدة والعسر ما لا يلائم ما تتطلبه المصلحة العامة في هذا الزمان، من حيث تيسير الأحكام، والسير على قاعدة «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا» والقاضي مطالبٌ شرعاً ببذل الجهد في النظر بما فيه صلاح أحوال الناس، واستقامة أمورهم، وإلا لانْتَفَى شرط أساسي لصلاحه للقضاء وهو (الاجتهاد)، ومن هنا نَعَى محققو العلماء على بعض المستمسكين بنصوص مؤلفات المتأخرين ـ كالكتب المذكورة ـ ووصفوهم بأنهم أتباع الْحَجَّاوِي والبهوتي، لا أتباع الإمام أحمد بن حنبل، الذي توجد آراؤه بأدلتها في مؤلفات متقدمي أصحابه، ككتاب «المغني» وفي مؤلفات ابن تيمية وغيره من محققي العلماء.

ولا ريب أنه ليس من الحكمة فتح هذا الباب لكل من ولي القضاء، ممن لم يَتَّصِفْ بالأَهْلِيَّة التامة، وقلّ المتَّصفُ بها من قضاة عصرنا؟! ومن هنا تتضح شدة الحاجة إلى وجود مصدر عامٍ، تقتبس منه الأحكام، ويرجع إليه جميع القضاة في حلِّ ما يُعْرض عليهم من مشكلات، يتولى إعدَادهُ نخبة من علماء المسلمين، على نمط «مجلة الأحكام العدلية» المعمول بها في محاكم الدولة العثمانية، فيما مضى، وليس من المصلحة الالتزامُ في كل حكم بمذهب معين، بل تُجْرَى الأحكام على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ويُرْجَع في القضايا الخلافية إلى ما يسنده الدليل، أو يتفق مع القاعدة العامة من حَيْثُ يُسْرُ الإسلام.

وما لم يَتِمَّ تحقيق هذا الأمرُ فلن تستقيم أحوالُ القضاء، ولن تُحَلَّ

مشكلاتُهُ، وسيضيق القضاةَ ذرعاً بكثرة ما يعرض عليهم من قضايا، وسيشتدُّ تَذَمُّرُ الناس، وتكثر شكاواهم، لتعطيل قضاياهم في المحاكم، فَيُشْغِلُوْنَ ولاةَ الأمور بها عما هو أهم وأشمل من الشؤون العامة، فيعم الضرر فوق ما هو متصور.

وَإِخَالُني قد انْسَقْتُ انسياقًا نَأَى بي عما أنا بصدده بشأن قضية الديَة، ومحاولة إيضاح مطابقة مَا حكمتُ به بما ظهر لي أنه صوابٌ لآراء العلماء ونصوصهم، وأنه الملائم بالنسبة لتلك الحادثة، التي تستلزم التخفيف، ومَا كنت أَهْدِفُ من وراءِ ذالك معارضةَ ما أصدره (مجلس الوكلاء) في تحديد (الدية) ولا مخالفةَ ما يراه وليُّ الأَمرِ بهذا الشأن إلا أَنَّ لبعض القضايا التي تقدم ذكرها ـ فيما يبدو ـ من الأَثَرِ لدى المَراجع العليا ما كان سبباً لأَنْ يُنْظَرَ إلى موقفي في قضية الدية كموقف المعارض، ولا سيما بعد أن أمر الملك بأن يكون الحكم مطابقاً لما قُرِّرَ من قبل، فلم أُسارعْ إِلَى الاستجابة لتنفيذ هذا الأمر، وكيف لي أن أسارع بالانصياع ونقض ما أصدرته من حكم قبل قناعتي بخطئه، وقَبْلَ أَن أُوضِّحَ للمسؤولين في الدولة ما أنا واثقٌ بأنهم أُبْلِغُواْ به على غير حقيقة.

كان أَنْ صدر الأمرُ بـ(فصلي) من العمل، ولم أكن متوقعاً أن يكون خروجي منه بهذه الصورة، وإن كنت غير مرتاح إليه، فأنا منذ الوهلة الأولى قد أدركت أن كثيراً من صفات القاضي الناجح في عمله في تلك الأيام تعوزني، وقد وَطَّنْتُ نفسي للاتجاه في مستقبل حياتي وجهة أخرى، وما باشرت وظيفة القضاء ـ حين كُلِّفْتُ ـ راضياً بها أو واثقاً من أنني سأسير في عملي دون تَعَثُّرٍ، ومع كل ماتقدم فإنني خلال المدة القصيرة لا أشعر أنني أَقْدَمْتُ على أمرٍ من الأمور لم أكن أَتَوخَّى الخير

والإصلاح من ورائه بقدر ما أستطيع، ولكنني مع ذالك لا أثق بنفسي ثقة تحملني على اعتقاد صواب كل ما أُقدم على فعله، بل أُدْرِكُ في كثير من ذالك فيما بَعْدُ تَسَرُّعِي، بل وقوعي في الخطإ فيما فعلت، فأحاول إصلاحَهُ، ولكن بعد فوات الفرصة ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ وحسبي أنني بذلت الجهدَ، وأحسنت القصدَ (ولا يُلام المرءُ بعد الاجتهاد).

تحققت نبأ الفصل، وأنه بأمر ملكي بسبب الحكم بمئة من الإبل، وأنه يتضمن وصفي بعدم الصلاحية لوظيفة القضاء بعبارات تنم عن عدم الرضا، فرأيت أن أَكِلَ أَمْرَ المحكمة للشيخ حسين بن حسن خضير، كَما فعل سلفي الذي ترك العمل قبل حضوري، وتوجه إلى البلدة التي نُقِل إليها، وأَنْ أُسافِرَ دون أَنْ يشعرَ بي أحد، فأفضيت بهذا لأحد ممن أثق به، فلم أشعر إلا ببرقية من رئاسة القضاء، بإلزامي بالبقاء حتى أُبَلَّغ بالموافقة على سفري، فتوقعت أن يكون في الأمر بالنسبة لي ما يستلزم البحث معي في بعض تصرفاتي، وكنت واثقاً بأنه لو حدث ذالك لاتَّضَح أن تلك التصرفات مُنْبَعِثَةٌ عن حسن قصد، وفيما ظهر لي أنه في سبيل المصلحة العامة، وأنه من الخير لي إجراء مثل ذالك البحث.

ثم كان أن ورد إلي من رئاسة القضاة بتاريخ ٢٢ / ٦ / ١٣٥٧هـ [٨ / ٨ / ١٩٣٨م] برقية هذا نصها:

(الشيخ حمد الجاسر: صدر الأمر العالي بتعيين السيد علي الدباغ قاضياً لظبا بدلاً عنكم، المذكور توجه بالباخرة الخديوية في ٢٠ الجاري، حين وصوله أجروا الدور والتسليم معه، وأسلموه أعمال المحكمة ـ رئيس القضاة ـ عبد الله بن حسن).

وصل السيد علي[٥] بعد أسبوع، وكنت قد تَهَيَّأْتُ للسفر، فغادرت البلدة في آخر اليوم الذي قدم فيه. بعد أن أمضيتُ فيها عامًا وأيامًا قليلة (من ٢٨ / ٤ / ١٣٥٦ إلى ٢٧ / ٧ / ١٣٥٧هـ).

ولكن إلى أين الاتجاه بعد جدة حيث تنتهي الرحلة؟! لقد أصبحت الآن (سُبَيْتُ، ماله بَيْت)[٦] أإلى قريتي التي وُلِدْتُ ونشأتُ فيها وغادرتها منذ نحو عشر سنوات، ولا أذكر فيها ما يربطني بها سوى القرابة وحب أهلها، وليس فيها ما يرغبني بالعودة إليها، مما يُهَيِّيءُ لي فيهَا ولو قسطًا من الراحة والاستقرار، فماذا سأجد هناك؟ أم إلى (ينبع) البلدة التي وطنت نفسي فيها على مزاولة مهنة التدريس، مرتاحًا مطمئنًا، منظوراً إليَّ نظرة تقدير واحترام، ولكنني حُرِمْتُ من عملي، فنقلت منه بدون رغبة مني، فانقطعت صلتي به!! ليكن إلى البلد الذي تَهْوِى إليه الأفئدة، وفيه تَفَتَّحَتْ لي آفاق المعرفة التي لا أزال بحاجة إلى الاستزادة منها.

وفي حجرة أعارني السكنى فيها أحد الإخوة في (مدرسة محمد باشا) التي تعرف باسم (رباط الحنابلة)[٧] بقرب (باب الزيادة) أحد أبواب الحرم كان الاستقرار أيَّامًا، حتى أُبْلِغْت من الشيخ عبد الله بن حسن بالخروج منها، ودفع مفتاحها لرجل يدعى (ناصر بن بُرَيْهٍ) قدم واثنان من أثرياء الرياض لصيام شهر رمضان في مكة، فاحتاجوا إلى حجرة قريبة من الحرم للتردد عليه للصلاة والعبادة!!.

أما أنا فقد عَرض عليَّ الأستاذ إبراهيم الْحُمَيْضِي[٨] السكنى معه في حجرة صغيرة في (رباط الداوودية) أرضها مشبعةٌ بالرطوبة، لمجاورتها لدورة المياه، إلاَّ أنَّ الحاجة إلى الاستقرار فيها لا تعدو سويعاتٍ

قليلةً للنوم في الليل، أو إعداد الأَكْل ظهراً، وفي الحرم وفي مكتبته أرحب مجال للجلوس وللاستفادة!!

للنفوس ولع في إشاعة ما قد تَسْتَغرِب، أو تَسْتَظْرِفُ أو تَتَعَجَّبُ منه، ولا يعنيها التثبت من صحته، ولهذا فقد كادت قضية (الحكم بمئة من الإبل دية) أن تكون من سمات التعريف بي، تلك الأيام، بل قل أن أغشى مجلسًا لا تتخذ فيه مجالاً للتندُّرِ، ومن الطريف أنني بعد أن عدتُّ مع (البعثة العلمية) من مصر، مررت بمدينة الرياض في شهر رمضان سنة ١٣٥٨هـ فكنت من ضيوف (المصمك) من اليوم الحادي عشر من الشهر إلى اليوم الثالث والعشرين منه لأَمْرٍ - قد أتحدث عنه مفصلاً في إحدى السوانح - يتعلق بكتابتي للملك عن قضية سجين في (المصمك) من أهل قريتي تربطني به صلة قرابة، فَحُبِسْتُ معه، فلما علم الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ بذالك اتصل بالملك، الذي أكد للشيخ أنه أمر بالسجن لإنسان ظنه جاء (فَازِعًا) من أهل البرود، وأنه لم يعلم بأنه (قاضينا الذي حكم بمئة من الإبل)!!

أسبغ الله على الجميع رداء العفو والغفران ..

الحواشي:

(١): أصل هذا الحديث قال عنه ابن عبد البر: معروف عند أهل العلم معرفة يُسْتَغْنَى بشهرتها عن الإسناد لأنه أشبه التواتر. انظر «المغني»، ج١٢، ص ٥، طبعة الأمير تركي بن عبد العزيز.

(٢): انظر «المغني»، ج١٢، ص ١٩ وما بعدها.

(٣) : مَجْلِسٌ أُنْشِيءَ عام ١٣٥٠هـ للنظر في القضايا المهمة بشؤون الدولة يرأسه فيصل، ومن أعضائه عبد الله السليمان وحمد السليمان ، وعبد الله بن محمد الفضل ، وعبد العزيز بن إبراهيم ، وفؤاد حمزة ، ويوسف ياسين ، وقد حل محله (مجلس الوزراء) فيما بعد [١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م] .

(٤): انظر سانحة (نظرة عامة عن القضاء في نجد).

(٥): السيد علي ابن أخي السيد طاهر الدباغ الذي كان مديراً للمعارف ، وهو والد السيد عبد الله الدباغ الذي كان وزيراً للزراعة.

(٦): مثل نَجْدي يضرب للإنسان الذي ليس له مكان يستقر فيه.

(٧): عُرِفَتْ بهذا الاسم لسكنى قاضي الحنابلة في القرن الثالث عشر في إحدى حجره.

(٨): قدم إبراهيم الحميضي إلى مكة رغبة في طلب العلم، ولكن كبر سنِّه حال دون دخوله إحدى المدارس، فاكتفى بالدراسة في حلقات المشايخ في الحرم، وعلى أساتذة خاصين، حتى نال طرفاً من العلم، وسافر إلى مصر فلم يتمكن من دخول الأزهر، حيث قامت الحرب العالمية الثانية فرجع هو وغيره من أبناء المملكة، وعُيِّنَ فيما بعدُ مدرساً في مدرسة النَّمَاص في منطقة عسير، وآخرُ عهدي به - وكان يكاتبني - حين أخبرني بزواجه، وأنه وُلِدَ له وَلَدٌ وبنت سماهما (عنتر) و(عبلة) ولا أدري متى توفي - رحمه الله - .

إدارة برقيات المملكة العربية السعودية

[illegible]

جناب الشيخ [illegible]

[illegible] السيد [illegible]

[illegible] بالدائرة الشرعية

[illegible]

[illegible]

رئيس القضاة

[illegible]

آل حمـدان

هذه الأسـرة من أقدم من سكن بلدة (البـرود) قبل أن ينتقل إليـها (بَسَّامُ) ومن معه من (المُسْتَجِدَّة)، ولعلها لم تستقـر في هذا الموضع، بل سارت هي و (آل راشد) مع من ارتبطت به من القبـائل المنتـقلة من منطقـة المدينة كـ (آل ظفير) حتى مَرَّت بـ (السِّرِّ) فشاهدتا أرضاً صالحة للزراعـة، ذات مـيـاه غـزيرة فـاسـتـقـرتا في المنطقـة ، ويدل على قـدم استقـرارهما النسبي أن أكثر الآبار من أملاكهما مع قلة ما لبسام وذويه منها .

وتفريـع أسرة (آل حمدان) لم يرد مفصلاً في الأوراق المنسوب من أهلها إلى (عبد العزيز الحمود) وفصيلته (آل حمود) من (آل حمدان) وكل ما فيها هو : زامل ـ أو علي، خلف ثلاثة أولاد : حمدان، وجاسر ، وبسام، وحمدان خلف ثلاثة هم : سيف وحمود وناصر) وتحت هذا : (علي ذبحه واحد من «الهتمان» فذبحه سيف) .

والفصايل الثلاث المنسوبة إلى أبناء حمدان لا تزال معروفة ، فـ (آل حمود) ممن أدركت منهم إبراهيم بن عبدالعزيز بن حمود ، كان رجلاً خَيِّراً منصرفاً عن الناس ، كثير العبادة، وهو مؤذن مسجد البلدة، وكان صّيتاً حسن الصوت ، صديقاً حميماً لجَدِّي علي بن عبدالله بن سالم إمام المسجد، قَلّ أن يفترقا، وكان مَهيباً ذا وقارٍ بين جماعته، وله ابن عم يدعى محمداً ، كان مؤذّناً قبله ، ولم أدركه ، وله ثلاث بنات كبراهن تزوجها عبد الله بن فُلَيِّحْ من (آل راشد) فأتت بعلي توفي وله أولاده باقون الآن، والأخرى تزوجها عبد الله بن عبد الكريم بن ناهض،

وابنها منه عبدالرحمن ، من لِدَاتي ، لا يزال حيًّا ، وصغراهن (منيرة) تزوجها جَدِّي علي بن عبد الله إمام مسجد البلدة ، ومن أبنائها خالي عبد العزيز وخالتي (لؤلؤة) ولهما عقب ، وسعد مات صغيراً .

ولإبراهيم بن عبد العزيز بن حمود إبنان هما عبد العزيز ، وقد تولَّى بعد وفاة أبيه الأَذان والحِسْبةَ احتساباً حتى توفي ، وعبد الله تزوج (هيلة) إحدى بنات أخي (رَشُود) ولهما أولاد ، وأبوهما مهندس بناء ، وتولَّى الإمامة في أحد مساجد الدمام حيث استقر هناك .

أما (آل ناصر) فقد عرفت منهم عبد الله بن عبد الرحمن ، كان أحد أقاربه تزوج إحدى عمَّاتي ، فأتت منه ببنت هي (موضي) تزوجها ابن عمها هذا عبد الله بن عبد الرحمن بن ناصر .

و (آل حمود) و (آل ناصر) جاوروا (آل جاسر) وحفروا لهم بئراً غرب قصرهم ، عرفت بئره باسم (البابِيَّة) واستقروا فحدث التصاهر بين آل ناصر و(آل جاسر) ، واستمر إلى عهد قريب ، حين تزوج أخي (منيرة) بنت عبد الله بن عبد الرحمن بن ناصر ، وأمها ليست ابنة عمتي (موضي) بل ابنة إبراهيم بن عبدالعزيز بن حمود وتوفى أخي عنها سنة ١٣٤٩هـ، فتزوجها عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الهُذَيلي ، ولها منه أولاد ، وأخوها عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن عاش هو وإياها صغيرين ، فكفلهما جَدُّهُما من الأم إبراهيم بن عبدالعزيز بن حمود ، وهو الذي زوج أخي جاسر (منيرة) وأسكنهما جواره في بيت (خديجة) آل حمود ، من أقاربه ، ولعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن ناصر ابن هو عبدالله له أخوات في (الخرج) .

وقد مَكَثْتُ فترة من الزمن صغيراً أتعلم القرآن في قرية (حَزْمِيَّة) في بيت آل ناصر حيث كانت (موضي) بنت عمتي[1]، حين انتقل زوجها من (شرقة) فاستقر هناك أما آل حمود فكان استقرارهم في بلدة (البرود) وكذا كل أهل (شرقة).

ومن (آل حمدان): آل تركي، الذين منهم محسن بن تركي وعبد الله ابن تركي، ولكل منهم عقب سبق الحديث عنهم، ومنهم (آل فُلَيِّح)، وآل مُهَنا: وهاؤلاء انقرضوا على ما أخبرني الأمير عبد الله بن إبراهيم، وأما أسرة (آل راشد) فقد تفرعت إلى فروع كثيرة فانتشرت من (البرود) مستقرها الأول إلى ما بقربه من القُرى التي أنشأوا أكثرها، ومنها (القُصَيْر) بقرب (شرقة) شمالها، وصاحبه مشوح بن سعد آل مشوّح، حفر بئره وغرس عليها وعمرها، وخلف ابناً هو سعد لا يزال حياً وقد قارب المئة، وله أخوات كثيرات، وقد أدركت مشوحاً ـ رحمه الله ـ في صغري، بعد موت أمي، فكنت أذهب أنا وأخي رشود من (شرقة) ماشيَيْنِ إلى (القُصَيْر) فكان إذا رآنا أخذ بيدنا وأدخلنا (القهوة)[2] داخل القصر، وأتى لكل واحد منا بِتُمَيْرَات، وكان طيب القلب جِداًّ، بحيث كان يلاطفنا بالحديث، ويخبرنا بأنه سافر إلى الشام، وما كنا ندرك ما يتحدث به، وكانت له ابنة اسمها (نورة) زوجة لأحد أقاربه ويدعى سعد بن علي بن مشوح، وقد استأجر قليب (البابِيَّة) من ابن فوزان، بعد أن باعها آل حمود وآل ناصر، فغرسها نخلاً، وكان يثمر ذالك الحين، وكانت سيدة فاضلة.

ومن آل مشوح من انتقل إلى أمكنة أخرى بقرب (الفيضة)، منهم

آل سعد ، منهم (عِيسى) عرف هو ووالده بفعل الخير ، والإحسان إلى الناس ، ومنهم (آل مُلَيْحان) وغيرهم ممن لا أعرف عنهم ما يمكنني من تفصيل أحوالهم .

و(آل مُشَوَّح) و (آل مُلَيْحان) أبناء عمٍّ ، ولكني لا أعرف شيئاً عن صلتهم بـ (حمدان) الذي تُنمْى إليه الأسرة . ومن (آل راشد) فروع عديدة .

أما (سيف) المعدود من أبناء حمدان ، فقد سمعت أنه لا يزال من عقبه من يعرف بـ (آل سيف) في بلدة (شقراء) وأخبرني الأمير عبد الله بن إبراهيم بن ناهض أن منهم رجلاً يلقب (سُيَيْفان)[٣] وقد زارني منذ عهد قريب فتى قدم لي نفسه بأنه فلان بن سيف ، فأظهرت عدم معرفته فقال : أنا ابن (سُيَيْفَان) من آل سيف ونحن من أقاربكم أهل البرود ، ولم أتبسط معه في الحديث ، إذ كنت في حالة لا تمكنني من ذالك لتأثر صحتي ، ومن (آل سيف) السعودي محمد ، رجل أدركته من أسنان أبي ، وكان يسكن المقصورة التي على باب القصر الخارجي في (البرود) التي عرفت باسمه، وله عقب .

الحواشي:

(١): انظر السانحة الـ (٨٨) .

(٢): اسم (القهوة) يطلقها سكان القرى على المكان المعد لعمل القهوة وللاجتماع فيه لشربها ، ويسميها أبناء البادية (المَقْهَى).

(٣): قَلَّ أن تجد رجلاً من أهل (شقراء) لا يلقب بلقب هو بين جماعته أعرف به من اسمه .

بسم الله الرحمن الرحيم



الأستاذ الشيخ حمد الجاسر سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

أطلعتُ على رسالتكم المؤرخة في ١٤١٩/١١/١٨هـ، فأوليتها جلَّ اهتمامي، وتبينتُ كل ما جاء فيها من مشاعر أخوية جسدت لنا رؤية إنسانية لرجل نعتز بانتمائه لمملكة تحتضن أبنائها المخلصين، وتقدر لهم عطاءاتهم في سبيل رقي الكلمة وارتقاء الحرف.

وليس بالغريب - أيها الأخ - أن تحمل رسالتك الكريمة فيضاً من المشاعر تجاه ما قمنا به من ضم مكتبة المستشرق (جورج رينز) إلى مجموعات مكتبة الملك عبدالعزيز العامة. فمكتبة تحمل بين طياتها سير التاريخ، ودراسات متخصصة في الجغرافيا وغيرها نحن أحوج الناس لها وأكثر جوعاً إلى إشباع الفكر بها من غيرنا.

وما رسالتك - أيها الأخ الفاضل - إلا شهادة تعتز بها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة. لذلك، فقد أحلناها إلى أحد ملفاتها ليكون منها حافزاً لمن يوفقه الله إلى إدراك ما للكتاب من أهمية في حياة الإنسان.

شاكراً لكم اهتمامكم الأخوي، وسعيداً في ذات الوقت لما متعكم الله به من صحة، وذاكرة نشطة غنية بالعطاءات المتزايدة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..،،..

أخوكم

عبدالله

عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود

جدة في: ١٤١٩/١٢/٨هـ

الرقم: ١٩/٣/٧٨/خ



الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة

يليه (الجزء الثاني)


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





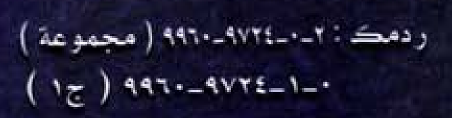
المؤلف بقلمه

حمد الجاسر

في عام ١٣٢٨ - تقريبا - وُلِدَ حمد بن محمد بن جاسر آل جاسر في قرية (البُرُود) لأبٍ فلّاح، من أسرة قُدِرَ عليها رزقُها.
عاش عليل الجسم، وتوفيت أمه وهو في السابعة، وفي مدرسة القرية (الكُتَّاب) تعلّم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ
القرآن الكريم نَظَرًا، وفي عام ١٣٤١ - وكّل أبوه أمره لقريبٍ له طالب علم في (الرياض) فحفظ القرآن غيبا، وقرأ بعض
المؤلفات المختصرة على المشايخ - كعادة طلبة العلم في ذلك العهد، وبوفاة ذلك القريب عاد من الرياض ليجد
أباه قد أنهكه المرض، وقد تفرق شمل الأسرة، فكفله جدّه لأمّه (مُطَوِّع) أهل القرية، وهو من أهل الصلاح والعبادة،
فصار يقرأ عليه في بعض الكتب، ويقوم بالخطابة والوعظ في المسجد لكبر سن جده وضعف بصره، وتولّى تعليم أطفال القرية
فترةً، ولكنّ أخاه الكبير لم يَرُقْ حالته فذهب به إلى (الرياض) في عام ١٣٤٦ وسعى حتى ضُمَّ إلى (الإخوان) أي
طلبة العلم، فعاش كأحدهم، وانتظم معهم في الدراسة على المشايخ في المساجد، ومن أشهرهم سعد بن حمد بن عتيق و
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ - قاضيا الرياض - ومحمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، في التوحيد والفقه والحديث
والنحو والفرائض. وفي عام ١٣٤٨ حجَّ والتحق بـ(المعهد السعودي) وفيه تخرّج عام ١٣٥٢ من (قسم التخصص
في القضاء الشرعي) ففضّل مهنة التدريس، وتنقّل فيها في ينبع وجُدّة ومكة والأحساء والظهران والرياض
وتخلّل ذلك القضاء فترة وجيزة في (ضبا) ثم عاد للتدريس، وآخر عمله فيه إدارة كليتي (العلوم الشرعية)
و(اللغة العربية) في الرياض في عام ١٣٧٦ وكان قد أنشأ أول صحيفة في الرياض (اليمامة) سنة ١٣٧٢ وأول مطبعة
فاتّجه للعمل في الصحافة، ثم انصرف للتأليف والتحقيق والنشر، فأنشأ (دار اليمامة للبحث والترجمة والتأليف)
ومُنِحَ مع إخوة له إجازة إنشاء (مؤسسة اليمامة الصحفية) وعمل في الصحافة زمنا، وأصدر مجلة
"العرب" التي قطعت نصف عامها السابع عشر هذا العام، ولا يزال يعمل فيما اتّجه إليه، وهو يأمل - و
(ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!) - أن يَنْسَأ الله له الأجل، ليرى ثمرة ذلك العمل، وما أعزّها من
أُمنيةٍ!!

مُنًى إن تكن حقًّا تكن أحسن المنى ... وإلّا فقد عشنا بها زمنًا رغدا

الرياض: ٢٧ شعبان ١٤٠٢هـ — حمد الجاسر
الموافق ١٥/٦/١٩٨٢م



ردمك: ٢-٠-٩٧٢٤-٩٩٦٠ (مجموعة)
٠-١-٩٧٢٤-٩٩٦٠ (ج١)



دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر



حمد الجاسر

من سوانح الذكريات

الجزء الثاني

المراجعة والتعليقات

عبد الرحمن الشبيلي



الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

إشراف: مركز حمد الجاسر الثقافي


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر

حمد الجاسر

من سوانح الذكريات

الجزء الثاني

المراجعة والتعليقات
عبدالرحمن الشبيلي

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

ⓒ دار اليمامة ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجاسر ، حمد
من سوانح الذكريات / حمد الجاسر ـ الرياض ، ١٤٢٦هـ
٢ مج
ردمك: ٢ ـ ٠ ـ ٩٧٢٤ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
٩ـ٢ـ٩٧٢٤ـ٩٩٦٠ (ج٢)
١ـ الجاسر ، حمد بن محمد ـ مذكرات أ. العنوان
ديوي ٩٢٣.٩ ١٤٢٦/٧٦٩٥

رقم الإيداع: ١٤٢٦/٧٦٩٥
ردمك: ٢ ـ ٠ ـ ٩٧٢٤ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
٠ـ١ـ٩٧٢٤ـ٩٩٦٠ (ج٢)





هذا الرسم في جريدة الجزيرة جاء بعد اعتراض الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ، على مشروع إدخال بعض الألفاظ العامية إلى الفصحى ، وقد رفض المشروع في تلك الجلسة بناءً على اعتراضه.



المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني

الملاحق والكشافات

المملكة العربية السعودية

مديرية المعارف العامة

عدد   مرفقات

١٩٥٦

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ حمد الجاسر

بعد التحية ـ بناءً على طلبكم صدرت الموافقة رقم ١٢٠٨٣ وتاريخ ٢٥/١٠/٥٧ على تعيينكم معاونا لمدرسة جدة الابتدائية الشاغرة براتبها المقرر ويسرنا ان نبلغكم ذلك لمباشرة عملكم ونامل تحقيق الثقة ببذل الجد والاجتهاد المعهود فيكم ونسأل الله تعالى ان يوفقنا واياكم الى ما فيه الخير والصلاح وقد عمدنا وزارة المالية بترحيلكم الى جدة في سيارة الشركة فاستعدوا لذلك ولذا حرر

٢٥/١٠/١٣٥٧ هـ   مدير المعارف العام

جدة الابتدائية عام ١٣٥٧هـ



عوداً إلى المهنة في مدينة (جدة)*

... أدركتُ من صلتي برئاسة القضاة أثناءَ إقامتي بمكة عائداً ـ بل مَفْصُولاً ـ من وظيفة القضاء أنه لا فائدة من ترقُّبِ النظر في أسباب ذالك الفصل، بل اتَّضح لي من خلال ما أحسست به من انصراف الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ ـ رئيس القضاة ـ عني حين حاولت مرارًا البحث معه في ذالك، وأدركت من تَجَهُّمِه، وعدم ارتياحه لاستقبالي بوجه عَامٍّ، وبما علمته من ذوي الصلة الوثيقة به أنَّ الأَمْرَ وقد صدر من (المقام العالي) وَافَقَ هَوىً في نفس الشيخ. ولم أُدركْ هذا لأول وَهْلةٍ، بل توقعتُ ـ كما جرت العادة في كثير من الأحوال ـ أَنني لا أزال مرتبطًا برئاسة القضاء، وأنه قد يُنْظَرُ في موضوع فصلي، بتحقيق أسبابه كما طلبت، أو بنقلي إلى عمل آخر، فما كان ما تلقيته وَاضِحًا بإِنْهَاء ذالك الارتباط بصفة عَامَّةٍ، كان برقيَّةً رقمها ١٤٧٨ وتاريخها ٢٢ / ٦ / ١٣٥٧هـ [١٨ / ٨ / ١٩٣٨م] ونصها الحرفي:

(ضباء الشيخ حمد الجاسر: صدر الأمر العالي بتعيين السيد علي الدباغ[1] قاضي لضبا بدلاً عنكم، المذكور توجه من جدة بالباخرة الخديوية في ٢٠ الجاري، حين وصوله أجروا الدَّوْرَ والتسليم معه، وأسلموه أعمال المحكمة ـ رئيس القضاة عبد الله بن حسن).

وما كنت فيما لو حدث لي بعضُ ما توقَّعْتُ راغبًا أو مُتطلِّعًا، بل كنت وَجِلاً مُحاذرًا، حَريصًا على أن تنقطع صلتي بالقضاء بصورة واضحة، ويبدُوْ أنَّ (الرئاسة) وقد تلقت أمر الفصل من (المقام العالي)

* المجلة العربية، العدد (١٧٨)، ذو القعدة ١٤١٢هـ / تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٩٣م.

وأنه لا يَدَ لها فيه، لا تستطيع أن تُبْدِيَ أَيَّ تصرف حياله، مع عدم ارتياحها لبعض ما بدر مني أثناء قيامي بالعمل، ومنه ما لَفَتَتْ نَظَري إليه مرَارًا كاتِّصالي بالملك وبنائبه من غير طريقها، في أمور ليست من اختصاصِهَا، ولهذا فهي غير مَعْنِيَّة بشأني ما لم تُدْفَع إلى ذالك من جهة أخرى، وهذا ما لم أتوقعه، (وشْ أنْتَ يَا بَعُوْضَة)[٢]، فماذا أنتظر وأنا في أَشَدِّ الحاجة إلى أن أَتَّجِهَ لعملٍ مَّا، بل إن الحاجة قد أخذت بخناقي من جميع النواحي!!

لقد أمضيتها شهوراً ثلاثة في مكة، أحسست خلالها بِأَلَمِ البُؤْسِ والْعَوَزِ إحْسَاسًا كاد أَنْ يَسُدَّ أمامي أبوابَ التَّطَلُّع إلى المستقبل بما يُهَيِّءُ لي حياةً مُرِيْحَة، لطغيانه على مدارك الإحساس والشعور في نفسي، إلى درجة كنت معها لا أُدْرِك الغاية من كثير مما يحدث مني من تصرفات.

ولقد كان حُبُّ المطالعة أقوى الرغبات التي كنت أشعر بها، وأَجِدُ فيها راحةً وبُعْدًا عما قد ينتابني من هواجس، أستشعر خلالها شيئًا من الضِّيْقِ أيًّا كان مصدره، إلاَّ أنني ـ تلك الأيام ـ مع كثرة تَرَدُّدي على (مكتبة الحرم) التي كنت ـ ولا أزال ـ أُحِسُّ أنها مَبْعَثَ الطمأنينة والراحة النفسية في كل وقت، قد بدأتُ أَفْقِدُ ذالك، فما كنت ـ كعادتي ـ حين آتي إليها مع أوَّلِ داخليها، ولا أخرج إلاَّ وقت إغلاقها ـ أُشْغِلُ الموظَّف بإحضار مجموعة من نوادر الكتب، التي أغرق في التنقيب والبحث فيها حتى انتهاء الوقت، ولكنني صِرْتُ أُمْضِيْه منصرفاً عن المطالعة إلى الاستماع لأحاديث بعض الزوار، أو بمشاركة بعضهم في بحثِ موضوعات ـ في الغالب ـ أَبْعَد ما تكون عمَّا اعتدْتُ بَحْثَهُ قديمًا للاستزادة من العلم والمعرفة، ولا أُحِسُّ من تلك المشاركة أو الاستماع بأي أثر في نفسي.

وفي صباح أحد الأيام ـ على غير تَرَقُّب أو انتظار ـ ذهبت إلى (مديرية المعارف العامة)[٣]، وكذا كانت تسمى في ذالك العهد، فقد قابلت بعد عصر اليوم السابق على ذالك الصباح ـ بدون قصدٍ ـ السيد محمد طاهر الدباغ[٤] في (المطاف) فأَحْسَسْتُ بما أبداه لي من بشاشة ولطف انْجِلاءَ ما غمر نفسي طيلة تلك الأيام من هَمٍّ، وكأنني كنت أَغُطُّ في سُبَاتٍ عميق ذي أحلام مزعجة، فامتدَّت إليَّ يَدٌ رَحيمةٌ برفقٍ فانتبهت منه مسرعًا فشعرت بالراحة، وهكذا كان، فلم يكن استقبالُ السيد طاهر ـ أسبغ الله عليه عفوَهُ ورضوانه ـ لي حين أتيت إليه في مقرِّ عمله في (الحميدية)[٥] بِأَقَلَّ لُطْفًا وَرِقَّةً مما قابلني به بالأمس.

لقد كان نقلي من العمل في (المعارف) بدون اختياري، وفي وقت كانت المدرسة التي أَتَوَلَّى إدارتَها بحاجةٍ إلى بقائي فيها، بل كان السيد طاهر يريد ذالك، لقلة الراغبين في وظائف التعليم، مما اضطر إلى شحن كثير من تلك الوظائف بمن ليس أهلاً للقيام بها، وبقاء كثير منها ـ وخاصة في غير المدينتين الكريمتين ـ خاليًا، لم تتمكن المعارف من إيجاد من يصلح للعمل فيه، يتَّضِح هذا جَلِيًّا من كتاب بعث به إليَّ السيد طاهر بتاريخ ١٧ / ١ / ١٣٥٦هـ [٢٩ / ٣ / ١٩٣٧م] حين كنت مديراً لتلك المدرسة ومنه: (نكتب إليكم أنَّ العثور على أساتذة من طرفنا متعذِّرٌ جِدًّا، فيمكنكم البحث بطرفكم عنهم، مثل أحمد أبو بكر وأبو رعيان الذي أبرقنا لكم عنه، وولد ابن عثمان كاتب المحكمة، فإن كانوا صالحين لضمان المصلحة فالأوفق تَعْيِينُهم، وبمساعدتكم سيحققون الغاية إن شاء الله تعالى، والمقصود أن لا تبقى المصلحة معطلة، فيتطرق الوهن في سير الدراسة).

ولا أرى ما يمنع من إضافة القول بأنه كان مرتاحًا إلى عملي، فقد جاء في كتاب منه بعثه إلى الشيخ عبد الله بن مُطْلَق[٦] أحد أساتذتي حين كنت طَالبًا في (المعهد)، وقد توسط لكي أُبْعَثَ إلى مصر للدراسة بتاريخ ٢٤ / ٥ / ١٣٥٥هـ [١١ / ٨ / ١٩٣٦م] جاء فيه:

(أفيدكم أنَّ الأوراقَ الرسمية بشأن هذه البعثة إلى الآن لم تَعُدْ إلينا، وإذا عادت سنعلن ذالك في الصحف، وفي ذالك الوقت يمكن للمذكور أن يكتب بنفسه طلب الالتحاق، ونحن نعاونه في ذالك بكل ممنونية، وإن كان يؤسفنا تركه عمله في ينبع فإنه مشكور في عمله).

لم أَكُنْ بحاجةٍ إلى أَنْ أُبْدِيَ رغبتي في العودة إلى العمل في التدريس، فقد بادرني السيد طاهر بقوله: سنبحث لك عن عملٍ قريب منَّا. ثم دعا الأستاذ عبد الرحمن رَهْبِيْني[٧]، وبعد حديث بينهما قال لي: ما رأيك في العمل في جدَّةَ الآن، وقد نَجِدُ لك في المستقبل ما هو أحسن منه؟

اعتراني شِبْهُ حالةٍ من التأثر بحيث لم أَسْتَطِعْ أن أُفصِحَ بالتعبير عن شكري لما غمرني به من عطف ورعاية، كحالة من طغَتْ عليه غَمرةٌ من الحَيرة حتى لا يكاد أن يبصر أَمامه أيَّ طريق مستنير، يسلكه للخروج مما هو فيه ليهتدي لما يطمح إليه في مستقبل أمره، وسرعان ما انجلت عنه تلك الغمرة في لحظة يأس، فاعتراه من شدة التأثر ما غمر إحساسه، فما كان مني إلاَّ أَنْ تَمْتَمْتُ بكلماتٍ مضطربةٍ مُتَدَاخلةٍ، فَهِمَ منها موافقتي، فلم أخرج من عنده إلا وفي جيبي ـ مع صورة الكتاب إلى (النيابة)[٨] عن ترشيحي لوظيفة معاون مدير مدرسة جدة الابتدائية، التي خلت بنقل الأستاذ عبد المجيد متبولي[٩] ـ مبلغ من النقود قَرْضًا أقوم بدفعه عندما يتوفَّرُ لديَّ من مرتبي ما يفي بتسديده، مع وَعْدٍ بتحقيق رغبتي بإلحاقي

بـ (البعثة العلمية) في القاهرة، متى تهيأت الوسائل لذالك، وهو ما سبق أن طلبته قبل نقلي من إدارة مدرسة ينبع إلى قضاء ظباء.

وخلال أسبوع ـ وبمتابعة من عبد الرحمن رَهْبِيْني لدى أحد موظفي النيابة العامة ـ أُبْلِغْتُ بتاريخ ٢٥ / ١٠ / ١٣٥٧هـ [١٧ / ١٢ / ١٩٣٨م] بما نصه: (بناء على طلبكم صدرت الموافقة رقم ١٢٠٨٣ وتاريخ ٢٥ / ١٠ / ١٣٥٧هـ على تعيينكم معاونًا لمدرسة جدة الابتدائية الشاغرة، براتبها المقرر، ويَسُرُّنا أن نبلغكم ذالك لمباشرة عملكم، ونأمل تحقيق الثقة ببذل الجد والاجتهاد المعهود فيكم، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم إلى ما فيه الخير والصلاح).

ولوزارة المالية سيارة كبيرة (حَمَّالي) تذهب كل يوم لنقل بعض موظفيها وغيرهم إلى جدة، وما كان الطريق الذي تبلغ مسافته (٧٣) كيلاً مُعَبّدًا، إلاَّ أن الاستراحة في قرية (بَحْرَةَ) تخفف بعض ما يُحِس به المسافر مما قد يعتريه خلال السير من مشقة.

كان مُديرُ المدرسة الابتدائية الأستاذَ عمر بن محمد حسين نصيف[١٠]، ممن أكمل دراسته في مصر، وكان على جانب عظيم من الفضل والاستقامة، وقد يشعر المرء عند مقابلته بشيء من الترفع في أخلاقه، إلاَّ أنه من أَلْطَفِ الناس مَعْشَرًا، وأَرَقِّهِم خُلُقًا، وأَشَدِّهم تواضعًا، غير أنه أقرب إلى الوضوح والمصارحة في صلاته بالآخرين منه إلى المجاملة، ولا أزال أذكر أنني أثناء اجتماعي به لأول مرة، وقد أَبْدى لي البشاشة واللطف وحسن الاستقبال، واسترسل في الترحيب والثناء بما سمع عني همس في أذني قائلا: (ومُشَاغِب) وأتبعها بضحكة عرفت ما وراءها، ثم أَدْرَكْتُ حسنَ طويته وسلامة قلبه، بل غمرني بفضله، فقد

سمح لي بالسكن في إحدى غرف المدرسة الخالية، وَأَلَحَّ عليَّ بأن أكون ضيفه حتى أُهَيِّءَ أموري، واستمرت هذه الضيافة نحو أسبوعين، بإلحاح منه ومن والده الشيخ محمد حسين نصيف[١١] ـ رحمهما الله ـ فقد كان بيت نصيف في هذه المدينة أشبهَ ما يكون بفندق أو دار ضيافة عامة، لا يخلو طوال الوقت من قادمين أو مسافرين أو مقيمين، من مختلف أقطار العالم الإسلامي، وخاصة من عِلْيَةِ الناس من علماء ووجهاء، من مصر والمغرب والهند واليمن والعراق، حتى أصبح ملتقى عَامًّا لأولئك لا في أوقات الحج حيث يمتلئُ بالضيوف فحسب، بل في جميع أوقات السنة، إذْ لا يخلو في فترة من الفترات من المتردِّدِين على الشيخ نصيف من مشاهير الوافدين إلى الحجاز من مشاهير علماء المسلمين، ممن يجدون في رحابة صدر الشيخ محمد نصيف وفي كرم ضيافته، وفي مكتبته الحافلة بالقيم والنادر من المؤلفات في مختلف العلوم خَيْرَ ما يأملون. ولا أزال أذكر أنني حين مررت بمدينة (روما) ودُعِيْتُ للقاء تعارف أقامه (معهد الشرق للدراسات) الذي كانت ترأسه (ماريا نلِّينو) المستشرقة المعروفة، سألتُها بعد أن عَلِمتُ أنها زارتْ مدينة جُدَّة عن أحسن ما شاهدته فيها، فقالت: مكتبة الشيخ نصيف!

قبل نحو ثلاثة عشر عامًا دُعِيْتُ للتحدث إلى طلاب (جامعة الملك عبدالعزيز) ليلة الاثنين ٢١ جمادى الأولى سنة ١٤٠٠هـ[٧/ ٤/ ١٩٨٠م] ـ فاستهللت الحديث بمطلع قصيدة للشاعر المصري الشيخ محمد عبد المطلب عن (دار العلوم):

لِي فِي ظِلالِكِ مَرْتَعٌ وَمَقِيلُ ... رَوْضٌ أغَنُّ، وَمَرْبَعٌ مَأْهُولُ

فمدينة جدة قبل خمسة وخمسين عامًا بالنسبة لي أشبه ما تكون

بـ(دار العلوم) كـمـا كـان يراها شـاعـرها، كـنـت أكـملتُ الدراسـة في (المعـهـد السـعـودي) بمكة، وفْقَ منهجٍ مـرسـوم قـد لا يُتـيحُ للمـكلَّف بالسير عليه الاستزادة من المعرفة كما يرغب، وتتوق نفسه للتَّزَوُّد منه من أصناف العلوم الأخرى، ومـا كانتِ الأوقـاتُ التي كنت أُمْضِيْهَا في التَّرَدُّد على (مكتبة الحرم) للاستفادة منها، أو مطالعة ما قد أقتنيه من كتب لِتُشْبِعَ نَهمِيْ، أما أثناء إقامتي في مدينة (جدَّة) ـ على قصرها ـ فقد تفتَّحَ لي خلالها آفاقٌ واسعةٌ لا من حيث التزود الثقافي فَحَسْبُ، بل بالتغلغل في إدراك كثير من الأحوال العامة من جَرَّاءِ صلتي بمختلف طبقات الناس، من أهل هذه البلاد، ومن الوافدين إليها من الأقطار الأخرى.

ومن المدرك ـ بَدَاهَةً ـ أَنَّ لِمُجْتَمَعِ أَيَّة بلدةٍ يقيم فيها المرءُ أَثَرَهُ في نُمُوِّ ثقافته، وفي اتِّساع مداركه، وفي إدراك كَثيرٍ من الأحوال التي تُحيط به، وعلى كل ذالك يستطيع أن يُكَيِّفَ سَيْرَهُ في حياته، وأن يُوَجِّهَهُ الْوِجْهَةَ التي يرتضيها.

ولئن كانت الحِقْبَةُ التي أمضيتُها في مكة المكرمة ـ وهي لا تزيد على ست سنوات قبل مجيئي إلى جدة ـ ذاتَ أثرٍ بالغ في إمدادي بكثير مما تأثرت به حياتي الماضية من روافد ثقافية وفكرية، إلاَّ أنَّ هذا لا يحولُ دونَ إدراكِ أثر ما يتصف به مجتمعُ تلك البلدة من صَلابَةٍ ـ لا أصفها بالانْغلاق ـ وهو مجتمعٌ يتلاءمُ مع مالهذه المدينة الكريمة من قداسة، ومنزلة دينية سامية.

لقد تغيرت الحالةُ في مدينة جدة، فأصبحت الحياةُ بالنسبة لي مُرِيحةً حقًّا، فالمسكن ـ وهو في المدرسة ـ في إحدى غرفها الفسيحة النظيفة، والمدرسة تتوسط البلدة، على مقربة من أهم شارع فيها، هو

(سوق النَّدَى) وأَهَمُّ من هذا كله أن في المدرسة مكتبةً حافلة بأمهات المؤلفات العربية المطبوعة في مختلف العلوم، فقد زارها ثَرِيٌّ غَربِيٌّ كان يُعْرَفُ بـ(صديق العرب)[١٢] فَأَهْدَى لها تلك المكتبة.

وما كان عملي ليحول بيني وبين الاستفادة من المطالعة، فقد وَفَّر لي الأستاذ عمر نَصِيف مديرالمدرسة الوقتَ الكافيَ، إذْ وَكَلَ القيامَ بالأعمال المُسْنَدَة إليَّ مما يتعلق بشؤون الطلاب إلى أحد المدرسين، وخيَّرني في اختيار ما أرغبُ أداءَه من الدروس، التي اقتصرت في الأسبوع على ثماني حصص. ليس من المبالغة القولُ إنني وجدتُ في مكتبة المدرسة من الكتب ما كنت في بعض الأوقات أَنْسَى نفسي وأنا مستغرقٌ في مطالعته، وقد يكون هذا ناشئًا عما سبق أن أحسست به من ضيقٍ نَفْسيٍّ في الأيام الماضية، فأَخْلَدتُّ إلى الراحة حين شعرت بزوال ذالك الضيق، ولا أزال أذكر أنني أثناء المطالعة في إحدى الليالي لم أشعر ـ وقد أوشك الفجر أن يطلع ـ إلاَّ بيدٍ تَرْبُتُ فوق كتفي وبصوت : (ارفق بنفسك يارجل) ! ! فرفعت رأسي فإذا بالسيد محمد طاهر الدباغ، وكان قد حضر مع بعض كبار موظفي المعارف لاستقبال الملك عبدالعزيز عند قدومه للحج فباتوا في المدرسة.

ولقد أدركتُ فيما بعد أنني لم أستفدْ كثيراً من تلك الساعات الطوال التي قضيتها في المطالعة، سوى الراحة، إذ لم يكن لي اتجاهٌ مقصود لدراسة فرع خاص من فروع العلم، أو محاولةُ جمع معلومات ذات ارتباط بموضوع من الموضوعات العلمية، وإنما كنت مُخْلِداً للاستراحة النفسية التي أُحِسُّ بها بمجرد مواصلة الاطلاع، واسترسال الذهن بمتابعة ما أرتاح بمطالعته من الكتب.

وكنت أُكْثِرُ التردد على بيت الشيخ محمد حسين نصيف، بعد صلاة العصر، أطلع على بعض ما تحويه مكتبته من نوادر الكتب، وكثيراً ما ألتقي هناك ببعض المشاهير من العلماء وغيرهم، ممن يقيم في هذه المدينة ومن الوافدين عليها من مختلف الأقطار الإسلامية، فكان أن عرفتُ كثيراً من أحوال تلك الأقطار، وعن مشاهير علمائها، والتقيت ببعضهم، وخاصة من ذوي الاتجاه السلفي كعلماء الحديث في الهند، وجماعة من أنصار السنة في مصر والسودان، ودعاة السلفية في المغرب وغيره.

ما كانت مدينة جدة في ذالك العهد بهذه السعة والانتشار بل كانت ممتد ة على الشاطىء، ومحاطة بسور ذيْ أبواب، بدأ العمران يتجاوزه ببناء بيوت قليلة خارجة في الجهة الشمالية لقائم مقام جدة، ولرئيس خفر السواحل وغيرهما .

كان (قائم مقام جدة)[١٣] تلك السنة الشيخ إبراهيم بن محمد بن معمر، ممن تولى رئاسة الديوان الملكي فترة طويلة، وكان ذا إلمام بالأدب[١٤]، وسعة اطلاع على أحوال العالم، وذا ذهْنٍ مُتَفَتِّحٍ، وخُلُق رَضيٍّ، وقاضي المدينة الشيخ محمد بن علي البيز، ممن سبق الحديث عنه بين أساتيذي في المعهد، ورئيس هيئة الأمر بالمعروف الشيخ فيصل ابن محمد بن مبارك[١٥]، وكان ذا صلة بالشيخ ابن معمر لقرابة بينهما.

كان الثلاثة يجتمعون كل يوم خارج المدينة عند بابها الشمالي في مكان مرتفع يُعَدُّ لجلوسهم، يقع على مقربة من الثكْنَة الَّتي بُنِيَتْ للجند في العهد التركي، وقد ينضم إليهم بعضُ من لهم به صلة برغبة

منهم، يجتمعون بعد العصر، ويبقون هناك إلى ما بعد صلاة العشاء، ثم يذهبون إلى بيت أحدهم لتناول الْعَشَاء، وكنت ممن انضم إليهم، وكانت أحاديثهم كثيراً ما تتناول القضايا العامة كالتعليم والصحة والمواصلات وغيرها من متطلبات الحياة، وما كان التعليم في تلك الفترة منتشراً في كثير من أجزاء المملكة، ويرجع هذا إلى عدة أسباب منها: ضعف الحالة الاقتصادية بصفة عامة، وقلة المتعلمين الأكفاء ليسند إليهم القيام بشؤونه، ومنها نفور بعض المواطنين مما لم يألفوه، ومن ذالك إنشاء المدارس الحديثة، أو تمكين أبنائهم من الانضمام إليها حين توجد، ويكاد الحديث في تلك الشؤون في المجتمعات العامة والخاصة أن يطغى على غيره، ولأَدَعَ هذا لما أَنَا بصدده.

لقد عشتها، أياماً على قِلَّتها ـ فهي لا تكمل أربعة شهور[١٦] ـ أحسست خلالها بالراحة الذهينة، وشعرت بالاستقرار النفسي، وألممت بمعرفة كثير من أحوال الناس، بالإضافة إلى تقوية صلتي ببعض ذوي النفوذ من رجال الدولة، بحيث استطعت بسهولة ويسر أن أدرك ما كنت أطمح إليه من إلحاقي بـ(البعثة العلمية) في مصر، للاستزادة من العلم والمعرفة وهذا ما سأتحدث عنه بعد.

الحواشي:

(١): السيد علي الدباغ، عالم فاضل يتصف بالزهد والورع وتغلب عليه طبيعة الانكماش، وعمه السيد طاهر الدباغ، وابنه السيد عبد الله الذي أسندت إليه وزارة الزراعة فترة من الزمن.

(٢): يضرب هذا المثل لمن يضع نفسه بمنزلة فوق منزلته أمام من لا يشعر به وقد تقدم شرحه.

(٣): هذا الاسم وأمثاله مما انتشر في عهد الدولة التركية فقد شاهدتُ أمثاله على بعض الدور الأثرية في إسطنبول مثل (مديريت . . . بلديت . . استخبارات).

(٤) : السيد محمد طاهر الدباغ من مشاهير رجال العصر وأفاضل الرجال خلقاً ونزاهة ورغبة في الإصلاح، توفي في القاهرة سنة ١٣٧٨هـ [١٩٥٨م] عن سبعين عاماً، وجهوده في التعليم تستدعي مؤلفاً خاصاً.

(٥) : من بقايا القصور التركية كانت مقرا للدوائر الرسمية، كالشُّورَى والمعارف والأوقاف والمحكمة المستعجلة والأمن العام، وكانت بجوار الحرم مما يلي أجْياد قبالَة باب أمِّ هاني ، موقع سوق الْحَزْوَرَة وسوق مكة القديم وقد أزيلت في توسعة المسجد الحرام في عهد الملك سعود.

(٦) : هو الشيخ عبد الله بن مطلق، تقدم الحديث عنه بين مدرسي المعهد، وقد أمضى حياته في التدريس وفي تأليف بعض المقررات الدينية لطلاب المدارس، توفي سنة ١٣٧٩هـ [١٩٥٩م] عن سبع وستين سنة، ومن مؤلفاته «مزيل الداء عن أصول القضاء».

(٧): الشيخ عبد الرحمن رَهْبِيْنِي: من خِيرة من تولى رئاسة مكتب مديرية المعارف فترة من الزمن، وبعده تولى الشيخ عبدالمؤمن مجلد.

(٨) : النيابة العامة.

(٩) : الأستاذ عبد المجيد متبولي: نُقِلَ مديراً لديوان إمارة الرياض في عهد الأمير نايف بن عبد العزيز ، ولا يزال يعمل في مكتبه الخاص.

(١٠) : عمر نَصيف: من خيرة رجال التعليم ، وهو والد الدكتور عبد الله نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي[وقت نشر هذه السوانح] .

(١١): محمد حسين نصيف: ولد سنة ١٣٠٢هـ [١٨٨٤م] وعاش يتيماً بكفالة جده لأبيه، عمر عبد الله نصيف من أشهر أعيان مدينة جدة وأثريائها، وتلقى العلم عن علماء تلك المدينة وكان ميَّالاً إلى التحرر الفكريِّ حتى أصبح من مشاهير الدعاة إلى مذهب السلف، قولاً وعملاً، وقد توفي سنة ١٣٩١هـ [١٩٧١م] .

(١٢): هو ثري أمريكي يدعى (كراين Charles R. Crane) ، وكان ذا صلة بالملك عبد العزيز وبالإمام يحيى ملك اليمن، وساعد في التنقيب عن المعادن والنفط بإرسال بعض الخبراء مثل (تُوِيْتشِلْ) وغيره من المهندسين لتلك الغاية، ولما زار مدرسة جدة في عشر الستين من القرن الماضي استشار الشيخ إبراهيم بن معمر، عَمَّا يقدم لتلك المدرسة تذكاراً لزيارته فأشار بأن تكون مجموعة مختارة من الكتب، فكانت كذلك.

(١٣): كلمة (قائم مقام) من بقايا التعبيرات التركية، وتعني من يقوم مقام الحاكم أو الأمير أو الوالي.

(١٤): مما أذكر من اتجاهه الأدبي أنه كتب وصفاً لرحلة الملك عبد العزيز من مكة إلى المدينة، نشر في جريدة «أم القرى» وأنه كان مغرمًا بقراءة الصحف، ولا أزال أذكر أنه حينما كان في بغداد وزيراً مفوضاً، اطلع في إحدى صحفنا على بحث لغوي لأحد كتابنا يُخَطِّي استعمال

الأستاذ انستاس الكرملي لكلمة (أجناب) فاتصل به وأخبره بذالك وبعث إليه الصحيفة فتلقى منه جواباً أوضح فيه صحة استعمال تلك الكلمة فبعثها إلى الصحيفة فنشرت.

(١٥): الشيخ فيصل بن محمد بن مبارك عالم معروف، وتولى عدداً من الوظائف ودرس في الحرم المكي، وله مشاركة في الأدب، فقد نشرت له قصيدة في مجلة «الإصلاح» سنة ١٣٤٨هـ.

(١٦): باشرت العمل في جدة في يوم ١٣٥٧/١٠/٢٧هـ وتركته في يوم ٢٥ /٢/ ١٣٥٨هـ حيث سافرت ملحقاً بالبعثة العلمية في مصر.

لمحة عن سير التعليم الحديث في البلاد*

ما كنت لأَطْرق هذا الموضوع لإدراكي بما أتصف به من قصور عن إيفائه حقه من البحث، مما هو من واجب ذوي الاختصاص من رجال التربية والتعليم، ممن هم أَعْمَق مني إدراكًا، وأوسع اطلاعًا، إلاَّ أَنَّ حافزًا دفعني إلى إبداء بعض الملاحظات المتصلة به، مما لا أزال بحاجة إلى أن يتناوله اؤلئك المختصون به في بلادنا.

كان مما قرأت منذ بضع سنوات في كتاب أُلِّفَ عن أحد أساتيذنا الكبار بمناسبة بلوغه السبعين من عمره، ورد فيه عن تلك المدرسة التي تحدثت في السانحة السابقة عن تعييني معاونًا لمديرها ما نصه: (في سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م ترك الجامعة وسافر إلى الحجاز مهاجرًا، فأنشأ ـ بناء على طلب من الملك عبد العزيز آل سعود ـ مدرسة جدة السعودية الابتدائية وعمل مديرًا لها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة في أواسط عام ١٩٢٩م) انتهى.

ويفهم من هذا أنها أول مدرسة أنشئت في مدينة جدة في عهد الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ سنة ١٣٤٧هـ وأنه لا عهد لهذه المدينة بالتعليم الحديث قبل ذالك العام.

والواقع أن سير التعليم منذ عهد الملك عبد العزيز امْتِدَادٌ لما كان عليه في هذه البلاد في العهدين السابقين لعهده، وأن محاولة تجديده وُجدت قبل ذالك العهد بصورة تدريجية وإن كانت اكتسبت نشاطًا وقوة فيه، وقد أنشيء في جدة في عهد متقدم كما أنشيء في غيرها من

* المجلة العربية، العدد (١٨٠)، محرم ١٤١٣هـ / تموز ١٩٩٢م.

مدن المنطقة الغربية مدارس في العهد التركي، استمرت أثناء العهد الذي بعده، منها المدرسة المذكورة، و(مدرسة الفلاح) وغيرهما ، مع إدخال تغيير على مناهج الدراسة في كل من عهد الملك عبد العزيز والعهد الذي سبقه فيما أحدث من مدارس.

ومن المعروف أن حركة التعليم في البلاد بصفة عامة فيما سبق زوال العهد التركي بزمن يسير حتى العهد السعودي تكاد تقتصر على متطلبات حاجة البلاد الدينية البحتة ولا تتعدى ذالك من قضاء وإمامة مساجد، ووعظ وإرشاد، في حلق المشايخ، وفي الكتاتيب حيث تعلم مباديء القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، على الطريقة المألوفة، المتوارثة منذ أقدم العصور، مع النفور الشديد من محاولة التغيير أو التجديد، لأسباب من أقواها ما ترزح تحته أكثر أقطار البلاد العربية من وطأة الجهل أزمانًا متعاقبة، مع التنائي بين تلك الأقطار، وانعدام الاستقرار والأمن فيها. مما سبب انعزالها وبعدها عما يجري حولها في أنحاء العالم الأخرى من تطور قويّ، وتغير سريع في مختلف أساليب الحياة العامة.

ومع أن النفوذ التركي قد امتد إلى جوانب من تلك البلاد فشمل الحجاز والأحساء وبلاد عَسير واليمن منذ زمن متقدم، ومع تأثر الدولة التركية بصلتها بالعالم الخارجي في مختلف أوضاعها الحيوية من ثقافية واجتماعية وسياسية، إلا أن ذالك التأثر لم يمتد إلى الأقطار التي شملها نفوذها إلا بدرجة ضعيفة، ولهذا لم يُحْدثْ جذورًا قوية من الناحية الفكرية العامة، لا فيما قامت الدولة بإدخاله من وسائل الإصلاح لقلة جدواه، ولا بتأثر بعض أبناء البلاد أثناء امتداد النفوذ ـ

بشيء من تلك الوسائل، ولقد أُنشئت مدارس قليلة في أمهات المدن، ولكن منهج الدراسة فيها كان هزيلاً، تركزت الغايةُ منه على الاهتمام بتعليم القراءة والكتابة والعناية بمباديء اللغة التركية ـ لغة الدولة المسيطرة على البلاد ـ الغريبة عن لغة أهلها بدرجة زادتهم كراهة ونفوراً من تلك المدارس، فازدادوا انغلاقًا وبُعْدًا عن التطلع إلى آفاق رحبة من العلم والمعرفة لمسايرة ركب العالم المحيط بهم في التطور والتأثر بكل نافع مفيد، ولا ينفي هذا ارتفاع أصوات إصلاحية في بعض الأحيان قد لا تجد مصيخًا للاستماع إليها، إذْ لم تتهيأ ـ بَعْدُ ـ التربةُ الخصبة التي تجود بالنبات المثمر، وهي العقول النيرة الواعية.

ولبعض دعاة الإصلاح والخَيِّرِيْنِ من الأثرياء جهودٌ في محاولة معالجة الأمر، بتصحيح اتجاه التعليم وفق متطلبات الحياة العامة، فأنشئت مدارس قليلة، روعي في مناهج الدراسة فيها ـ مع التزام الطريقة المتوارثة المألوفة ـ إضافة بعض العلوم الحديثة ـ نِسْبِيًّا ـ وبتنظيم أوقات الدراسة، وفصولها، وجعلها ملائمة لمدارك الطلاب، ومبلغ تحصيلهم، ولكن هذه المدارس لقلتها، وضعف التدريس فيها كانت محدودة الأثر، بحيث لم يتجاوز حاجة الدولة لشغل أعمالها على ماهي عليه في ذالك العهد من ضعف وقلة ، بمن تعلموا في تلك المدارس.

ولم تتغير حالة التعليم في البلاد خلال الفترة التي أعقبت زوال النفوذ التركي تغيرا ذا شأن، باستثناء التوسع في فتح مدارس في أمهات مدن المنطقة الغربية، مع إلغاء تدريس مباديء اللغة التركية، التي زالت الحاجة إليها بزوال دولتها من منهج الدراسة، وفي مكة أنشئت (المدرسة الراقية) التي يبدو أن الغاية من إنشائها إعداد التدريس فيها ليكون

مرحلة أعلى مما عليه المدارس القائمة التي لا تتجاوز فيها مستوى أعلى من المرحلة الابتدائية، باستثناء بعض المدارس الخاصة كـ (مدرستي الفلاح) في جدة ثم في مكة، اللتين أنشأهما الشيخ محمد علي زينل فيما بين سنتي ١٣٢٣هـ و ١٣٣٠هـ.

ولا يعدو ما تقدم إلماعة موجزة يعوزها من الدراسة والعمق ما يتجاوز أحاديث المناسبات، فأنا ـ كما أوضحت ـ لا أملك من مقومات المعرفة ما يفي بالغرض من البحث ومن التفصيل.

وفي منتصف عشر الخمسين من القرن الماضي ـ سنة ١٣٤٥هـ ـ أنشيء (المعهد الإسلامي)[1] في مكة، ووكل الإشراف على إدارته واختيار مدرسيه لأحد علماء الشام، وكان الغرض من إنشائه ـ في أول الأمر ـ نشر العقيدة السلفية، ثم اتضح أن ذالك يتطلب إعداد من يقوم بوظائف التدريس ممن يوثق بعلمه وكفاءته، ومن يصلح لتولي القضاء والدعوة والإرشاد، فَأُعِدَّ منهجُ الدراسة لتلك الغايات في فرعين أحدهما (قسم التخصص الديني) والآخر (قسم المعلمين) ـ وتقدمت الإشارة إلى هذا ـ وأُحضر للتدريس في الفرعين المذكورين من المعهد أساتذة متخصصون في العلوم المقرر تدريسها، ومنها ما هو حديث كاللغة الإنجليزية، والرياضة البدنية، ومع اهتمام الدولة بشؤون هذا المعهد من حيث اختيار مدرسيه، وتقرير إعانات شهرية لطلابه، إلا أن الإقبال على الدراسة فيه كان ضعيفاً، مع اشتداد الرغبة في نشر التعليم في جميع أنحاء البلاد، ولكن عقبة فقدان المدرس الصالح تقف عائقاً دون تحقيق تلك الرغبة مع ضعف موارد الدولة مما يحول دون الاستعانة بمدرسين من البلاد العربية كمصر والشام وغيرهما.

إذَنْ هما عقبتان كَأْدَاوَان حالتا دون انتشار التعليم، وجعله مسايراً وملائماً لمتطلبات البلاد في أولى مراحل قيام الدولة، بل هناك عقبة ثالثة لا تقل تأثيراً عنهما، إنها ما سيطر على عقول بعض أبناء هذه البلاد طيلة تعاقب القرون، من النفور من كل جديد غير موروث أو معروف أو مألوف، لا في وسائل نشر التعليم وحدها، بل في كل ما له صلة بأيٍّ جانب من جوانب حياتهم على اختلافها.

سارت الأمور في البلاد بصفة عامة على حالة من التدرج في شؤونها الحيوية، بالقدر المستطاع، لا بحسب ما تدعو إليه الحاجة، وتتطلبه الرغبات القوية الملحة من مختلف نواحي البلاد لنيل نصيبها من العلم والمعرفة، وقد استعين بعدد من المدرسين من خارج البلاد للعمل في مدارس المنطقة الغربية، وانتشرت المدارس في كثير من مدنها، وفُتِح في مناطق أخرى مدارس معدودة وفي خلال تلك الفترة التي تقارب عشر سنوات كان ممن تولى إدارة المعارف محمد كامل القصاب، وحافظ وهبة[٢]، ومحمد أمين فودة، حيث نقل رئيسًا للمحكمة الشرعية الكبرى بمكة، فولي المعارف بالوكالة إبراهيم الشُّوْرَى، حتى حل محله السيد محمد طاهر الدباغ سنة ١٣٥٥هـ مديرا للمعارف، ولم يطرأ جديد على سير الحركة التعليمية قبل السيد الدباغ، سوى أن الشيخ حافظ وهبة ـ لمنزلته لدى الملك عبدالعزيز، ولرغبته بشمول الإصلاح جميع مرافق البلاد، وتطلُّعه لأن تنال حظها من التقدم في كل مجال حيوي عام ـ حاول نشر التعليم، وتحديث مناهج الدراسة بإدخال بعض العلوم الحديثة فيها، وبإحضار بعض المدرسين من مصر، وبإرسال أول بعثة إلى تلك البلاد[٣]، للالتحاق بمعاهد العلم فيها، ولكنه لاقى

خلال ذالك معارضة شديدة من العلماء، فقد اتصلوا بالملك محتجين على منهج الدراسة الذي أقره حافظ إذ كان مشرفًا على التعليم، فخشي الملك أن يتطور الخلاف إلى إثارة شيء من أسباب الشغب، وأمرهم بالاجتماع ومناقشة الموضوع، فتم ذالك في سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) في مكة المكرمة، ولكن الشيخ حافظًا حاول إقناعَهُمْ بأنه ليس في القرآن ولا في السنة ما يتعارض مع ما قرر في برامج التعليم من المواد، قال[٤]: وانفض الاجتماع وهم يقولون: لقد بينّا للإمام عبد العزيز الأدلة، والمفاسدَ التي تترتب على تقرير هذه العلوم، فالرسم هو التصوير، والتصوير محرم قطعاً، وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار، وعلومهم الفاسدة، وفي ذالك ما فيه من خطر على عقائدنا، وعلى أخلاق أبنائنا، وأما الجغرافيا ففيها كروية الأرض ودورانها، والكلام عن النجوم والكواكب مما أخذ به علماءُ اليونان وأنكره علماء السلف... ولسنا بحاجة إلى الجدل المنهيِّ عنه شرعاً، فإنْ قَبِل الإمامُ رَأْيَنَا فالحمد لله، وإن خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها.

ثم يضيف حافظ: ولما وقف عبد العزيز على المناقشة واقتنع ـ بثاقب فكره ـ أنْ ليس لدَى العلماء دليل ديني يصح الاعتماد عليه لم يوافقهم على رأيهم، واستمر تعليم اللغات والرسم والجغرافيا كما كان انتهى.

ولكي يدرك المرء مدى تغلغل هذه الأفكار في العقول، أُضيفُ أن الأمر من حيث منع تدريس تلك المواد ـ مع إقرارها في منهج التعليم الابتدائي ـ قد استمر أكثر من عشرين عاماً بعد ذالك التاريخ في المدارس القليلة التي فتحت في المنطقة الوسطى خلال تلك الفترة، ولم

يطبق تدريس كل مواد ذالك المنهج إلا في عام ١٣٦٩هـ[١٩٥٠م] ـ كما سيأتي إيضاح هذا في محله ـ.

ويبدو أن ما لاقاه الشيخ حافظ من معارضة قوية من أولئك العلماء كان من الأسباب التي أوهنت عزيمته عن مواصلة الاستمرار في مواصلة العمل فيما بدأ به في ذالك السبيل، ويدرك القاريءُ مدَى ما كان يطمح إليه، وما يتصف به من إخلاص، وما يحس به من مرارة في قوله[٥]: في أيام الملك ابن السعود قامت حركة لا بأس بها من التعليم ولكنها أقل بكثير مما كان ينتظره الناس من رجل عظيم مثله، على أن هذه المدارس التي أُسِّسَت في الحجاز لا يشمل برنامجها أكثر من برنامج المدارس الابتدائية الأخرى، والتعليم بها سائر على الطرق القديمة البالية من الاعتماد على الحفظ دون التفكير، انتهى.

لقد أسند أمر التعليم بعد حافظ إلى آخرين، وجلُّهُمْ ممن ينظر إلى هذا الجانب نظرة أقرب إلى المحافظة، والاكتفاء بالسير على الطريقة المألوفة لدى العلماء، في الحرمين الشريفين، وفي حلقاتهم الأخرى، وحذا من بَعْدَه حذوه في عدم مجاوزة تلك الطريقة إلا بالقدر الذي لا يستدعي الإثارة أو محاولة التغيير، إذ لم يكن مقام أحد ممن تولى إدارة المعارف بعد الشيخ حافظ لدى ولاة الأمور في الدولة بالمنزلة التي كان يتمتع بها ليترسم خطاه في محاولة إصلاح مسير الحركة التعليمية، ولا بالجرأة التي كان يتصف بها، لما كان له من حظوة، وصلة وثيقة قديمة بالملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ .

تولى السيد الدباغ إدارة المعارف في عهد تغيرت فيه أحوال البلاد بعد استقرار الأمن فيها، وبدأ انتعاش اقتصادها، وازدياد صلاتها بما

حولها من الأقطار والأمم، فانتشر الوعي انتشاراً شاملاً قويًا، أحدث تغيراً في الأفكار والمفاهيم والنظر نحو جميع جوانب الحياة، فكان من أثر ذالك كله الإقبال الشديد على التعليم من مختلف طبقات الأمة.

ولم يكن السيد الدباغ حين تولى ذالك العمل ممن تُعْوِزُهُ صفات المواطن المخلص، الحريص على بذل الجهد ـ حسب القدرة والاستطاعة ـ في القيام بعمله في مرفق من مرافق الأمة تَنْبَنِي كل قاعدة من قواعد إصلاحها عليه. وبصرف النظر عن موقفه تجاه انضواء المنطقة الغربية تحت قيادة الملك عبد العزيز في أول عهده، فقد كان هذا الملك الحكيم أبعد نظراً، وأعمق إدراكاً في معرفة أقدار الرجال، إِذْ لم يكتف بما شمله هو وإخوانه من عفو وحسن استقبال عند عودتهم إلى البلاد، بل أسند إلى كل واحد منهم من الأعمال ما أبرز خلال القيام به من الكفاءة والإخلاص ما كان محل التقدير والرضا، ولا سيما السيد الدباغ، فلا أحد يستطيع إنكار ماله من جهد في تعميم التعليم في كل مناطق المملكة، وما له من عظيم الأثر في توجيه مسيرته وجهة صالحة، بوضع الأسس التي كانت الركائز الأولى في إيجاد المدرس الصالح، وبوجوده تستقيم المسيرة نحو الإصلاح، وتزول جميع الآفات التي تَنْخَرُ في جسم الأمة.

ولعل من أقوى تلك الأسس إنشاء (مدرسة تحضير البعثات) في مكة المكرمة، حيث اختير لها نخبة من الأساتذة من أبناء البلاد ومن خارجها، وضُمَّ إليها للدراسة مكملوا الدراسة الابتدائية من المدن الأخرى، وَوُضِع لها منهج دراسي يهيِّئُ الابتعاث للتخصص في مختلف فروع العلم، في جامعتي القاهرة ومعاهدها العالية وفي غيرها.

ولئن سبق إنشاء هذه المدرسة ابتعاث عدد قليل من الطلاب، فقد

كان لضعف التحصيل العلمي لدى كثير منهم من العوائق ما حال دون إكمال دراستهم، وكان لضعف معلومات آخرين منهم ما سبب تعثرهم في مسير دراستهم.

وكان إنشاء (المعهد) قبل عهد السيد الدباغ بزمن محاولة أولى لإيجاد المعلم الصالح، ولكن ضعف الإقبال على الالتحاق به حال دون الاستفادة من متخرجيه في ذالك الجانب إلا في أضيق الحدود لقلتهم.

ومن المعلوم أن التعليم في هذه البلاد منذ أقدم عصوره ـ و لا يزال ـ يتوخى الاتجاه للعناية بالجوانب الروحية الخلقية، وعلى هذا تركزت مواده الأساسية، وما أُحْدِثَ من تطوير في بعض مناهجه مما يتناول جوانب الحياة بصفة عامة لا يعدو إِدْخَالَ مواد حديثة قليلة من المباديء الأساسية لاكتساب المعارف، ولهذا فلا نكران ما لطلبة العلم في حِلَق المشايخ ـ كالقضاة، وأئمة المساجد ومعلمي الكتاتيب ـ من مشاركات مؤثرة في سير التعليم وتطوره، وخاصة في المراحل الأولى من تعميمه، بشغل وظائف التدريس، وبإزالة بعض ما علق في الأفهام من كراهية كل شيء غير مألوف، إذ كان من بين الوسائل لاجتذاب العامة إلى قبول فتح المدارس تعيين إمام مسجد البلدة مديراً للمدرسة أو تحويل (الكتاب) إليها، وبذل المرغبات لصاحبه ليوافق على هذا، وأخذ رأي القاضي في اختيار المدرس، أو موظف المدرسة أو موقعها، ولقد شاركت نخبة طيبة من العلماء والقضاة المستنيرين لا في بثٍّ الوعي وحده بين طبقات الأمة، بل تَعَدَّى ذالك المشاركة في نشر التعليم، ومن هاؤلاء الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي (١٣١٥ / ١٣٨٩هـ) [١٨٩٥ ـ١٩٦٩م] الذي أحدث موجة عارمة في منطقة واسعة من مناطق

المملكة وهي (تهامة)، إذْ فتِحَ فيها عشرات المدارس في عام ١٣٥٨هـ وما بعده، مما نشأ عنه مسارعة الأهالي لإلحاق أبنائهم بها، ولم يكن متوقعاً من أناس استولى على مداركهم من آثار الماضي سنين طويلة ما حال بينها وبين إدراك الحقائق فسهل ـ فيما بعد ـ توجيههم الوجهة الصالحة ولتقبل ما هو جديد ونافع، وزال عن عقولهم ما ران عليها من النفور من كل ما لم تألفه، فأصبحت تلك المدارس نواة لِمَا للمعارف من جهود في هذا السبيل، هذا في الوقت الذي لا تزال جهات كثيرة في مناطق مختلفة من البلاد محرومة من تلك الجهود، لشدة محافظة أهلها على ما توارثوه عن أسلافهم، مع ما تقوم به المعارف، وتبذله من وسائل الترغيب والتشويق.

ومما يذكر للسيد الدباغ في ذالك، أنه حين أدرك ضعف الإقبال على ما فتح من مدارس على قلتها في المنطقة الوسطى، مع إلغاء تدريس مباديء بعض العلوم الحديثة فيها استجابة لرغبة العلماء، وتركيز الدراسة على المواد الدينية استمالة لهم، وإسناد أعمال تلك المدارس إلى من اختاروه، وأدرك ـ مع كل ذالك ـ أن أقوى أسباب ذالك الضعف عدم جدوى تلك المدارس، بدرجة انعدام أي أثر نافع يحمل على اجتذاب الطلاب إليها، فأدرك أنه لا علاج لهذا الأمر إلاَّ بإعداد المعلم الصالح، من حيث تمكنه من أداء عمله على الوجه المطلوب، وتمتعه بالثقة التامة بين أولياء الطلاب في تلك الجهة، فكان أن قدم تقريراً عن حالة تعثر انتشار التعليم في نجد وإيضاح أسبابه، وأن أعظمها عدم العثور على المعلم الذي يتصف بما يؤهله للعمل في مدارس تلك البلاد، والأمر يتطلب أن يكون من أهلها، واقترح فتح مدرسة في الطائف

لإعداد المعلمين، يلحق بها عدد كاف من الشباب النجديين الذين تلقوا من العلوم الدينية على مشايخهم ما جعلتهم محلاً للثقة والاطمئنان من حيث رسوخ العقيدة السلفية ومبلغ التحصيل، لتتولى (المعارف) إدارة تلك المدرسة، وإحضارَ المدرسين المتخصصين بشؤون التربية لها ممن يُطْمَأَنُّ إلى صلاحهم. وليرغّب طلابها بالقيام بجميع متطلباتهم، ليتسنى إعدادهم لتولي حاجة تلك المنطقة، لتساير بقية مناطق المملكة في تقبل مسيرة إصلاح أقوى دعامة من دعائم التقدم والنجاح في جميع وسائل الحياة.

أعدَّ السيدُ الدباغُ تقريراً مفصلاً بشأن هذه المدرسة قدمه لنائب الملك، وعلى نحو أمثاله من التقارير المتعلقة بالشؤون العامة أُحيل إلى الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ رئيس القضاة في المنطقة الغربية، وهو المشرف على جميع الأمور الدينية، ومنها التعليم، ليُبْديَ رأيه حياله، فحبَّذَ فتح المدرسة على ما أُعدَّ لها من دراسات شاملة لكل متطلبات إنشائها واستمرار سيرها، ولكنه أبدى وجهة أخرى تتعلق بتقرير الغاية من إنشائها تُخَالفُ ما رأى مدير المعارف أن يقوم عليه منهج الدراسة فيها من إعداد العاملين في المدارس من معلمين وغيرهم، فقد أوضح شدة حاجة المحاكم الشرعية ودوائر كتاب العدل إلى موظفين أَكْفَاء من قضاة وكتاب ومفتشين، وقرر أن إعداد المدرسة لسد هذه الحاجة أهَمُّ وأولى لارتباطها بالمصالح العامة التي يتوقف عليها سير الأمور وانتظام الأحوال، وبنفس الطريقة المتبعة عرض الموضوع على الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ مفتي المملكة ـ فأبدى حياله رأياً ثالثاً هو أن تكون الغاية من فتح تلك المدرسة لا لإِعْدَادِ المعلمين ولا لسَدِّ

حاجة المحاكم بالقضاة، بل لترسيخ العقيدة الصحيحة القائمة على أساس التوحيد ونشرها، ولهذا فينبغي وضع منهج الدراسة وفق ما يُعِدُّ طلابَها للقيام بذالك، فهو أول ما يجب أن تُعْنَى الدولة به، وإعداد الطلاب على هذا الأساس سيجعل من بينهم من يستفاد منه في أعمال القضاء والتدريس وغيرهما.

وقد تمت الموافقة على ما اقترحه المفتي، فَأُنشئت (دار التوحيد) ـ كما اختار اسمها ـ في الطائف سنة ١٣٦٣هـ [١٩٤٤م] وفق الخطة التي رسمتها (المعارف) بعد تغيير منهج الدراسة بما يتلاءم مع رغبة (المفتي)، وأُلْحِقَ بها من شباب المنطقة الوسطى نخبة طيبة يناهز عددهم المائتين، من أوائل الطلاب في المدارس وعلى المشايخ، تولى اختيارهم ـ في أول الأمر ـ اثنان من طلبة العلم[٦]، قاما بجولة بين أمهات المدن، واستعانا بآراء قضاتها ومثقفيها في ذالك الاختيار.

وقد أُسْنِدَتْ إدارتها ـ بصفة مستقلة ـ إلى الشيخ محمد بهجة البيطار[٧]، العالم الدمشقي المشهور، المعروف بمناصرته للدعوة السلفية، وبصلته القوية بالقائمين على نشرها في هذه البلاد منذ عهد مبكر، وأن يرجع إلى العلماء فيما يتعلق بسير الدراسة فيها، فقام باختيار عدد من المدرسين من الشام ومن بين من رشحهم المشايخ من غيرهم، وعُدِّلَ منهج الدراسة فيها، وهُيِّىءَ ما يكفل لطلابها الراحة والاستقرار والرغبة في مواصلة الدراسة، فاستقام أمرها، وسارت سيراً حسناً ما يقرب من عشر سنوات حين بُدِيء بفتح الكليات التي التحق بها بعض طلابها، ولم يحل صرف منهجها عَمَّا رسم لها في أول الأمر دون أن تحدث تأثيراً قويًّا ـ وإنْ لم يكن مباشراً ـ في الأفكار والمفاهيم في

عقول اؤلئك الشباب، ممن نهل من معين المعرفة ما رغبه في الازدياد من العلم الذي أهله للقيام بما أسند إليه من أعمال استطاع خلال قيامه بها أداء واجبه نحو أمته بكفاءة وإخلاص، بعد أن أدرك أن ما ترزح بلاده تحته من تأخر وجمود، أساسه الجهل الذي تجب محاربته بكل الوسائل، وأقواها انتشار المعرفة بأيسر الطرق، وأقربها إلى الإفهام.

وتعتري مسيرة التعليم حالة من الركود، باستثناء ما كان لـ (مدرسة تحضير البعثات) من نشاط محدود، فبعد الفوج الأول من خريجيها المبتعثين سنة ١٣٥٥هـ [١٩٣٥م] ـ ممن ألحقوا بكليات الأزهر ودار العلوم وببعض المعاهد الأخرى ـ تناقَصَ العدد، وفي بعض السنوات لم يبعث أحد.

ثم أُسندت إدارة المعارف إلى الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع سنة ١٣٦٤هـ وهو عالم فاضل، إلاَّ أنه لا يطمح ـ بل لا يُحَبِّذُ ـ إحداث أي جديد في أُسُسِ ما أُسند إليه من عمل، ولهذا لم يطرأْ أيُّ تغيير على حالة التعليم في عهده.

ولكن التطورالشامل في جميع مظاهر حياة البلاد من ثقافية واجتماعية وغيرهما حدث في عام ١٣٧٣هـ [١٩٥٣م] حيث أنشئت وزارات لكثير من المرافق العامة، كالمعارف والمواصلات والصحة وغيرها، وخصص لكل وزارة في موازنة الدولة من المال ما يمكنها من تحقيق حاجات المجتمع، والاستجابة لتطلعاته، ولو بصورة تدريجية، فخصص لوزارة المعارف في موازنة ذالك العام ما يزيد على ثمانية وأربعين مليوناً من الريالات، بينما كان المخصص للمعارف في العام الذي قبله يقل عن ثلاثة عشر مليوناً، وفوق ذالك فقد أُسندت تلك الوزارة إلى وزير لا تعوزه الكفاءة ولا إِدراك

ما ينبغي أن تسير عليه وزارته لتحقيق غاياتها في خدمة الأمة، ومسايرة ركب الحضارة والتقدم، والمجال ـ بعد ـ من السعة والشمول بحاجة إلى إيفائه حقه من البحث والتفصيل لا في صفحات معدودة، بل في مؤلف خاص.

الحواشي:

(١) : ثم غير اسمه سنة ١٣٤٩هـ بـ (المعهد العلمي السعودي).

(٢) : القصاب : هو الشيخ محمد كامل بن أحمد (١٢٩٠/١٣٧٣هـ) دمشقي من زعماء حركة الاستقلال عن الحكم الاجنبي، ذو نشاط واسع في ذالك في الشام ومصر والحجاز، أنشأ بدمشق (المدرسة الكاملية) من أوائل العوامل في بث الروح القومية العربية، درس فيها عدد من المشاهير في الشام، ومنهم الأستاذ الزركلي «الأعلام».
حافظ وهبة : (١٣٠٧/١٣٨٧هـ) عالم مصري ممن عرف بالتحرر الفكري ومحاربة الجمود، تعلم في الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي، وعمل في صحافة الحزب الوطني بمصر، قرأت مقالاً له في (الهداية الإسلامية) التي يصدرها عبد العزيز جاويش باسم (حافظ وهبي)، رحل إلى الهند ثم إلى الكويت مدرساً في المدرسة (المباركية) ودعاه الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٤٢هـ، وكان قد عرفه قبل ذالك، وتقدم عنده، وعينه سفيراً في لندن، ومن مؤلفاته : «جزيرة العرب في القرن العشرين» و «خمسون عاماً في جزيرة العرب» ـ انظر «العرب» ٦/١٢٣ ـ .

(٣) : وذالك في سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) وعدد أفرادها (٢١) ، وممن أكمل الدراسة منهم : عبد الرحمن البسام وجميل داود المسلمي عملا في الخارجية، ويوسف بن إبراهيم الهاجري تولى وزارة الصحة، وعمر أسعد ، وولي الدين أسعد، وأحمد محمد العربي، وعبدالله بن حمود الطريقي، تولى وزارة البترول .
ومن الطريف أن الموازنة السنوية للبعثة (٢٥٠٠) جنيهاً انكليزياً (٢٤٣٧ جنيهاً مصرياً) انظر : «خواطر من ذكرياتي» للشيخ محمد حلمي ـ ٤٢ ـ .

(٤) : «جزيرة العرب في القرن العشرين» ـ ١٢٦ ط٢ ـ .

(٥) : المصدر ١٢٥ .

(٦) : هما الشيخان : محمد بن حمد بن راشد من شقراء ممن عمل في المعارف فترة طويلة منذ سنة ١٣٤٨هـ حتى عشر الستين، فعين واعظاً في (الحرس الوطني) وتوفي. وعبد الله العامر من بريدة ممن تولى القضاء.

في الطريق إلى القاهرة*

ها قـد تحـقـقـت أُمْنِيَّـةٌ طَالَ مَـا تَطَلَّعْتُ ـ بـل سَعَـيتُ بـجـدٍّ ودَأبٍ مـا وسـعـني السـعـي ـ لـتـحـقـيـقـهـا، منذ أن انتظمت في طلاب (المعـهـد الإسـلامي السـعـودي) في مكة أول عـام ١٣٤٩هـ حـيث قـويت صلتي بعـدد من العلماء المصـريين، كالشـيـخ محـمد عـبـد الظاهر أبي السَّمْح، إمام الحـرم المكي وخطيبه و المدرس فـيه، والشـيـخ محـمد بن عبد الرزاق حـمزة، أحـد أسـاتذة المعـهـد، ثم بـالشـيـخ إبراهيم الشُّوْرَى الذي تولَّى إدارته بعـد الشيخ محـمد بهجة البيـطار، وكـان أن تفتحت عيناي تلك الأثناء أول ما تفتحت ـ مما لا عهد لي به قبل ذالك ـ على مطالعة بعض الصحف المصرية التي تُعْنَى ـ أكثر ما تعنى ـ بالشؤون الثقافيـة كـمجلة «الهـلال»، ومـجلة «المقتطف»، ومـجلة «الزهراء»، ثم «الفتح»، ومـجلة «المنار» ومـجلة «نور الاسلام» على قـلة ما كـان متـداولاً بين طلاب المعهد من تلك المجـلات التي تصـل إلى بعض المدرسين، فـلا يَضِنُّ بـاطلاع طلابه أو من يثق به منهم عليـهـا على حَـذَرٍ، لاحـتـواء بـعـضـهـا على مـا لـيس مـسـتـسـاغًا أو مقبـولاً عنـد كل أحد في ذالك العـهـد، ثـم ازدادت الـصلة بـكثير ممن يفد من مـصـر، من المدرسين وغيرهم، فكان من أثر ذالك كله أن أدركـت عن تقدم الثـقافة وازدهار العلوم في تلك البـلاد ـ وخـاصـة في (الأزهر) ومعـاهده الدينيـة و(دار العلوم) ـ مـا استـحـوذ على فكـري، ولا أبالغ إذا وصـفـتـه بأنه أصـبـح من أقـوى الحـوافز في نفسـي لأبذل ما أستطيع من جهـد للازدياد من التحـصيل أثناء الدراسـة، مما يهيِّىءُ لي ـ

---

* المجلة العربية، العدد (١٧٩)، ذو الحجة ١٤١٢هـ / حزيران ـ تموز ١٩٩٢م.

لو استطعت ـ الذهاب إلى تلك البلاد للالتحاق بأحد معاهد العلم فيها، ومواصلة الاستزادة من المعرفة دون تعثر.

ومما كان يتردد صداه في مجتمعات طلاب (المعهد) في تلك الأيام نبأ مغامرة ثلاثة من الشبان، دفعهم طموحهم وتطلعهم إلى حياة أفضل مما هم عليها، ورغبتهم بالتسلح بأقوى عدة في هذا العصر، فغادروا قراهم الثلاث الواقعة في مناطق متنائية من بلاد نجد، إحداها (المُفَيْجر) بمنطقة (الْحَرِيْق)، والثانية (القُوَيْعيَّةُ) في (الْعِرْض)، والثالثة (خَبّ الحُلْوَة) من قرى بُرَيْدَة[1]، ولقد جمعتهم غاية واحدة بعد شتاتهم فالتقوا ـ بعد جهد وبُعْد شُقَّة ومكابدة كل مشقة ـ في الهند، ونهلوا في أحد معاهده العلمية ما تزودوا به لعودتهم، وكانوا قبل ذالك أدركوا طرفاً من العلوم أثناء مرورهم بمدينة (الزُّبَيْر) بالانضمام إلى (مدرسة النجاة) في هذه البلدة فترة من الزمن، ثم واصلوا رحلتهم إلى القاهرة، حيث استضافهم (الأزهر) بين طلابه.

وفي القاهرة شباب آخرون ينهلون من موارد العلم المختلفة، بعثتهم الدولة للدراسة[2]، ولكنني لا أملك من الوسائل ما يمكنني من الانضمام إلى هاؤلاء، ولم أنل بَعْدُ من المعرفة والتحصيل ما نال اؤلئك الشبان الثلاثة، لكي يتسنى قبولي بين طلاب الأزهر ـ في القسم العام ـ كما قُبِلوا، فكان أن أدركت أن لا وسيلة لبلوغ تلك الغاية ـ تحقيق أمنية الاستزادة من العلم في مصر ـ إلاَّ بعد أَنْ أُعِدَّ نفسي بما أستطيع من وسائل المعرفة.

ها هي سنوات أربع أمضيتها مُتَّجِهًا لبلوغ ما أتوخَّاه من غاية، وأنا راضٍ عن نفسي، مَمْلُوْءٌ بالثقة من استقامة سيري، متطلعٌ بأوسع أمل

إلى تحقيق ما أصبو إليه، ولكن:

مَا كُلُّ مَا يَتَمنَّى الْمَرءُ يُدْرِكُهُ   تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لا تَشْتَهِي السُّفُنُ

ولقد جرتْ هذه المرَّة، بما ليس في الحسبان، فقد دفعت الضائقة الاقتصاديةُ العامةُ الدولة ـ لا إلى عدم الابتعاث للخارج للدراسة فحسب ـ بل إلى إعادة المبتعثين، ومن بينهم من لم يكمل دراسته، وإذَنْ فلابُدَّ من الانتظار حتى يحدث الله بعد ذالك أَمْراً، فكان أن ألجأتني ظروف الحياة لقبول وظيفة مدرس في ينبع، بمرتب ثلاثين ريالاً شهرياً منذ أول سنة ١٣٥٤هـ [١٩٣٤م] ـ وحدث في السنة التالية أن فتح باب الابتعاث، وكانت المدرسة التي أعمل فيها في حالة سيئة من الفوضى، والارتباك في سيرها، لعجز القائم بإدراتها، ولقلة مدرسيها مع ضعفهم، بدرجة تجعلهم غير قادرين على القيام بما يراد منهم، مما اضطر (مديرية المعارف العامة) إلى إسناد إدارة المدرسة إلى أستاذ لا ينقصه الحزم والصرامة في عمله، ولكن كما قيل: (اليد الواحدة لا تُصَفِّق) وشغل صاحبنا بتعيينه معاونًا لذالك المدير[٣]، وفي تلك الأثناء قررت المعارف بعث عدد من خريجي (مدرسة تحضير البعثات)، وخريجي (المعهد) فلاحت بارقة أمل دفعته إلى طلب الانضمام إلى أولئك المبتعثين، فهو أحد الذين أكملوا دراستهم في (المعهد) ولكنه فوجيء بما لم يكن يتوقع، فقد تلقى الجواب المؤرخ في ٨ / ٧ / ١٣٥٥هـ [١٩٣٥م] ونصه: (بمراجعة قيود الإدارة وجدْنَا أن شهادتكم مقتصرة على قسم التخصص فقط، والمطلوب من الشهادات ما كان من قسم المعلمين، لأن شروط الالتحاق بمعاهد مصر قاسية، فأتأسف جداً لعدم إجابة الطلب) حقًّا كان (المعهد) في أول نشأته روعي أن يُعِدَّ مكملي الدراسة فيه للعمل في جانبين من جوانب الحياة الاجتماعية:

١ ـ القيام بأعمال الدراسة من إدارة مدارس وتعليم، وأُطلق على من سيعد لهذا الجانب (قسم المعلمين)، وتوسع في منهج الدراسة فيه حيث شمل أكثر العلوم الحديثة.

٢ ـ والقسم الثاني عرف باسم (قسم التخصص الديني) وركز منهج الدراسة فيه على العلوم الدينية واللغوية، لإعداد من يشغل وظائف القضاء، وتدريس الدين واللغة، ومدة الدراسة في كل قسم أربع سنوات، ويخير الطالب في الاِنْتِماءِ إلى القسم الذي يرغب الدراسة فيه.

ومن الملاحظ أن الابتعاث إلى مصر ـ في تلك الحقبة من الزمن ـ يكاد ينحصر طلابه في الإلحاق بإحدى كليات الأزهر، أو (دار العلوم) وما يدرس فيها يتلاءم مع منهج (قسم التخصص) في مواده الأساسية، ولكن يبدو أن هناك من الأسباب ما دفع (مديرية المعارف) إلى الاعتذار بعذر لم تلبث أن عدلتْ عنه آخر الأمر ـ كما سيأتي إيضاح هذا ـ ثم اتضح لي فيما بعد أن من أقوى أسباب عدم الموافقة على ابتعاثي حالة الاضطراب في مدرسة ينبع، من جَرَّاءِ قلَّة مدرسيها، وما حدث بين مديرها الجديد وبين بعضهم من خلاف، أدى إلى نقله وتعييني مديراً للمدرسة مكانه، مما أكد الحاجة إلى استمراري فيها، وهذا ما عبرت عنه (مديرية المعارف العامة) في كتاب أشرت إليه فيما مضى، يتضمن الوعد بالمساعدة على إلحاقي بـ(البعثة العلمية) في القاهرة، مع إضافة (وإن كان يؤسفنا تركه عمله في ينبع، فإنه مشكور في عمله) وليس أدلَّ على هذا من موافقة المعارف نفسها على ابتعاث طلاب لم يكملوا أية مرحلة من مراحل الدراسة الحديثة[٤]، وبصرف

النظر عن دوافع هذه الموافقة فهي في حدٍّ ذاتها اعتراف بعدم عوائق القبول في أحد المعاهد المصرية لمن هو أقل إدراكاً وتحصيلاً دراسياً من صاحبنا، وهذا ما انتهى إليه أمره، فقد تلقى في أول عام ١٣٥٨هـ [شباط ١٩٣٩م] من (مديرية المعارف) ـ وكان يشغل وظيفة معاون المدرسة الابتدائية في جدة ـ كتابًا مؤرخًا في ١ / ١ / ١٣٥٨هـ جاء فيه: (تبلغنا من المقام السامي صدور الأمر الملكي رقم ١٤ / ١ / ٣٢ وتاريخ ٢٩ / ١٢ / ١٣٥٧هـ بإلحاقكم بالبعثة العلمية بمصر، وامتثالاً للأمر سيكون إلحاقكم في أول العام الدراسي القادم، فاستعدوا للسفر في الوقت المذكور).

لم تزد فترة الانتظار على شهرين أمضيتهما في عملي في مدرسة جدة، ولم يتطلب الاستعداد للسفر أكثر من شراء بعض الملابس الملائمة، ومن بينها العباءة الصفيقة (المشلح الجبر)(٥) والعقال المقصب، و (غترة) الشال الصوف الكشميري المحاط بالتطريز، ولم أَنْسَ النعالَ النجدية، ذوات الْقِبَالِ الواحد(٦)، فقد اخترتها (قَصيمية) لأَبْدُوَ في مظهري بين الأجناب عربيًّا قُحًّا، من ساسي إلى رأسي، كما أوصاني بذالك صديقي الشيخ عبد الله بن سليمان المزروع(٧).

آه !! لقد أوشك أن ينفد جميع ما وفرته من النقود من راتبي خلال المدة التي أمضيتها في العمل بمدرسة جدة، ولـ(مديرية المعارف) في ذمتي قرض يجب وفاؤه فما العمل؟ لقد عرفت السيد طاهراً كريمًا ذا قلب رحيم، وهكذا كان، فبعد أن أوضحت له حقيقة الحال، وطلبت النَّظِرَةَ في الوفاء إلى مَيْسَرَةٍ، تلقيت منه جوابًا جاء فيه: (جواباً على كتابكم... نكتب إليكم بالاستعلام عن الجهة التي تؤهلكم معلوماتكم للالتحاق بها لنجري ما يلزم نحو تحقيق الرغبة، ولا بأس من اقتراض

المبلغ الذي بذمتكم بشرط تسديده لأول صرفية تصرف لكم).

كنت قد أدركت أن الجهات التي توجه المعارف إليها الطلبة المبتعثين إلى مصر لا تعدو إحدى كليات الأزهر الثلاث أو (دار العلوم) أو (دار المعلمين العالية)، وقد اختمرت في نفسي رغبة الالتحاق بكلية الآداب في (الجامعة)، ولم يسبق أن التحق بها أحد من طلاب البعثة، وقد لا توافق المعارف فيما لو أفصحت لها عن رغبتي تلك، بل قد يكون في هذا ما يعرقل ابتعاثي، فتركت الأمر في اختيار الجهة للمعارف وفي نفسي ما فيها مما سيأتي إيضاحه.

وصباح اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١٣٥٨هـ (١٩ / ٤ / ١٩٣٩م) بعد أن كنت أنهيت صلتي بالعمل في المدرسة لملمت ما أعددته للسفر، في حقيبة من حديد، وفي إحدى سيارات الإخوة كان الاتجاه إلى الميناء، حيث ترسو (بواخر شركة البوسطة الخديوية للملاحة) التي كانت تجوب البحر الأحمر، بين موانئه في مصر وفي المملكة حتى السودان، و(باسم الله مَجْرَاها) كان مسير الباخرة (الطائف) ضحوة ذالك اليوم، بين ركاب (الدرجة الثانية) والرفيق في الحجرة شاب أسمر، نحيل الجسم، يدعى محمد سلطان، ثم عرفت فيما بعد بقية اسمه (شَنب الدين) أحد موظفي (مطبعة أم القرى) في ذالك العهد، وقد بُعث إلى القاهرة للتمرن على أعمال الطباعة، ورأيته بعد ذالك بأكثر من أربعين عاماً يتولى عملاً لا يمت إلى اختصاصه بصلة في (جامعة الملك عبد العزيز) في جدة، حين دعيت في شهر جمادى الأولى سنة ١٤٠٠هـ للتحدث إلى طلاب تلك الجامعة[٨].

أحسست عند اتجاه الباخرة شرقًا تمخر عُبَابَ البحر ـ أو هكذا توهمت

عند استنشاق نسيم البحر، والفصل أول الربيع ـ أحسست انتعاشًا أضفى على نفسي فيضاً غامراً من الشعور بالبهجة والارتياح، لم أدرك له تعليلاً، فكثيراً ما استمتعت باستنشاق الهواء الطلق، أثناء تجوالي أطراف النهار على ساحل البحر، وفي الأمكنة البعيدة عن العمران.

لقد خطرت في ذهني المحاورة التي جرت بين الخليفة عمر بن الخطاب وبين الشاعر مُتَمِّم بنِ نُوَيْرَة اليربوعي الذي أنشد الخليفة بعض رثائه في أخيه مالك بن نُوَيْرة المقتول في وقعة الْبُطَاح، الموضع القريب من مدينة الرَّسِّ، فقال عمر عند سماعه لذالك الرثاء: هذا والله التأْبِينْ ولوددتُ أَنِّي حَسَنُ الشِّعْرِ فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك، فقال متمم: لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته، فقال عمر: ما عزَّاني أحد عن أخي بمثل ما عزاني به متمم، وكان عمر يقول: ما هَبَّت الصَّبَا من نحو اليمامة إلاَّ خُيِّلَ إِليَّ أني أَشُمُّ ريح أخي[٩]، وهذا هو الشاهد، فالصَّبا تحمل إلى عمر ما يجدد شجونه من ذكرى أخيه زيد، فتحدث له من ذالك ما يزيدها استعاراً ولوعة.

فلا بدع أن يثير هذا النسيم العليل في نفسي ذكرياتِ بلدةٍ لن ألبث طويلاً قبل مشاهدتها، فأستَعيدَ بذالك من بواعث تأثيرها في مرحلة مؤثرة في مسير حياتي بحيث خصصتها بإحدى بواكير مؤلفاتي[١٠]، فلم يبق بيني وبين الوصول إليها سوى مسيرة يَوْمٍ، إنها (ينبع) التي لم يَمْضِ طويلُ وقتٍ على مغادرتها كارهاً، بعد أن أقمت فيها نحو أربع سنوات، فَأَلِفْتُها، وأحببتها، ووجدت في عِشْرةِ أَهلها وفي صحبتهم ما حببهم إليَّ، وطَبَعَ نفسي بطابع جعلني أميل إلى هذه البلدة، وأجد راحة نفسية حينما أذكرها، وأتذكر تلك الفترة التي قضيتها فيها، إذَنْ

فلا غرابة أن يطغى عليَّ ذالك الشعور الذي ينتاب عادة من شارف بلوغ أحبته وإخوانه، ومبعث راحته، ومألف روحه يوماً من أيام حياته المؤثرة في مستقبله، ولكن كيف يكون اللقاء؟ إنها الأماني وما أخدعها !!.

ها قد غمرت أشعة شمس اليوم الثاني سَطْحَ البسيطة، فبدت معالم الْبَرِّ تبرز شيئاً فشيئاً، وما ذالك السواد الذي يتراآى للناظر كالسحابة، تَسْبَحُ في الجو من خلال السراب سوى هضبة (رَضْوَى) الشمَّاء، التي تنبسط قرى واحة (ينبع النخل) المخصبة آنذاك على ضفاف أوديتها المنسابة إلى البحر، وفي سهولها الفسيحة، بل هذه السفن والقوارب منتشرة بقرب ميناء البلدة التي يحاول بصري الكليل رغبة بالإحاطة برؤية ما أَلِف رؤيته من معالمها أن (يلتهمها) !.

لقد رست الباخرة في الميناء، وسارع أصحاب السنابيك إلى الاقتراب منها كعادتهم، ولقلَّة ما تحمله من ميناء (جدة) لم يتجاوز مستقبلوها ذوي الصلة بها، وإذَنْ فإلى من أتطلع، ولا أحدَ يعلم بوجودي بين من تحمل على ظهرها؟ ومن يدري فلعل ما أُعانيه من تباريح الذكرى مما لا يحس به أحد غيري! وما تلك بالحالة الغريبة ! ها أنا أتفرس في وجوه الصاعدين إلى الباخرة فيرتدُّ البصر حَسِيراً، غير أن سُحْنَةَ هذا الرجل الطلق المُحَيَّا، المعروق الوجه[11] دفعتني إلى تركيز النظر في ملامحه، وما أشدها دهشة حين سمعت (أستاذ حمد!) بصوت قد ألفت سماعه، ثم لم أشعر إِلاَّ بذراعين نحيلين يحتضناني، إنه (ياسين أفندي) نعم نعم! وكذا يعرف في هذه البلدة التي لا تزال كلمة (أفندي)[12] رطبةً في الأفواه، هو الأستاذ ياسين الجداوي، وكيل (شركة بواخر البوستة الخديوية) في ينبع، ومن خير من عرَفته، وعرَفته هذه البلدة استقامة وخلقًا[13].

ولم يدم الالتقاءُ إلاَّ بقدر ما كتب إلى ابنه الطالب في الجامعة يوصيه بي، بعد أن أَلَحَّ علي الاتصال به[١٤]، وغادرت الباخرة الميناء إلى وجهتها. وما تزال تباريح الهوى ونوازع الشوق لذالك المغنى الحبيب تتجدد بتجدد ما يغمرني من وفاء أبناء وأخوة هناك.

لم تمكث الباخرة في ميناء (الوجه) في يومها الثالث، ولكنها في اليوم الرابع حين بلغت (الطُّوْر) تريَّثَتْ قليلاً في مرسى يدعى الشيخ (أبو زَنِيْمَة) فنزل بعض ركابها، وكنت من بينهم، وحادثت بعض من قابلتهم فَأَنست بمحادثتهم، إذْ لهجتهم بدوية فصيحة، أشبه ما تكون بلهجة سكان شمال المملكة. بل هي هي، لعمق صلتهم بهم جِوَارًا وأصلاً وتزاورًا، وفي مسجد القرية ضريح، أراد أحد محدثي أن يعرفني بصاحبه المعمم، فأدركت أن محدثي على درجة من الجهل الْمُطْبِق تنفر من الاستماع لحديثه، ولكنني لم أصدمه بذالك بل اعتذرت بخشية إبحار الباخرة، وعدت إليها.

وكان النزول في ميناء (السويس)، وبدَت البلدة عن بُعْدٍ صغيرةً، تقف الرؤية عند حد إدراك مساحتها الممتدة على شاطىء البحر.

كنت أثناء مسير الباخرة في البحر لا آلفُ المكث دائماً في الغرفة المخصصة لركوبي أنا وزميلي كل الوقت، بل أُفَضِّلُ الاختلاط بمن في (الدرجة الثالثة) في سطح السفينة من المسافرين، وقد أُشارك بعضهم بما معه من طعام بالإضافة إلى ما أُحضره معي، فمرَّ زمن الرحلة سريعاً مريحًا ذهنيًا، وما كنت أتأثر بما يصاب به بعض المسافرين في البحر من (الْهُدَام)[١٥] ومنهم صاحبي، الذي حرمت من الأنس به، وبمحادثته طيلة السفر، فلم يكن يغادر مكانه إلاَّ لِمَاماً.

وفي ميناء السويس ترسو الباخرة على الرَّصيف، ولهذا لا يحتاج

المرء إلى من يساعده في إنزال متاعه، بل يحمله إذا كان خَفيفًا حتى يدخل بناء (الجمرك) وهكذا كان، فقد وضعت حقيبتي التي اخترتها من الحديد الجيد على متني، وتناولت بإحدى يدي لُفَافَةً صغيرة فيها بعض الأمتعة، ودلفت إلى مدخل البناء، ولكن إحدى السيدات من ركاب سطح الباخرة ـ وكنت قد عرفتها هي وابنها ـ استوقفتني قائلة: معي حاجة صغيرة أريد منك أن تساعدني في حملها حتى نخرج من دائرة (الجمرك) فأبديت استعدادي لذالك إن لم تكن ثقيلة، فأخرجتْ من جيب ثوبها قطَّةً صغيرة كانت مربوطة بحبل دقيق في رقبة القطة وفي عضد السيدة، ومدتها إليَّ، ففككت الحبل وأرجعته لها، وأخذت القطة وكانت بحجم الْكَفِّ الصغير فوضعتها في جيب ثوبي مما يلي الجنب، وحملت أمتعتي، وعند مروري بالموظف الذي يتولَّى تفتيش الحقائب، وكنت لابساً العباءة المتينة (مشلح الشمال) إذْ الجوُّ في أول فصل الربيع، وهو بارد، رفع الموظف رأسه يسألني: هل معي شيء؟ فأشرت إلى الحقيبة الموضوعة أمامه، وقدمت له اللفافة فأرجع هذه إليَّ وقال: افتح الحقيبة، فانحنيت لفتحها، ويظهر أنني ضغطت على القُطَيْطة فتأوهت بشدَّة، وماءَتْ (نَاوْ.. نَاوْ!!) فرفع الرجل رأسه نحوي قائلاً: (إيه يا شيخ العرب في بطنك قطط تُنَوْنو؟!) فأدخلت يدي في جيبي وأخرجت منه القطة وقلت: لا والله ليس في بطني ولكن في جيبي، وها هي، وتلك صاحبتها وأشرت إلى المرأة التي كانت ترقبني عند باب الخروج، فأخذها وقال: لا يسوغ إدخال الحيوانات إلاَّ بعد عرضها على (الطب البيطري).

وطريقة أخرى تعبر عن مبلغ ما أتصف به من غفلة ـ وإن شئت فَسَمِّهَا

بَلاهَةً ـ فأنا لا أرى غضاضة من ذكرها، لم يتأنَّ صاحبي حين شاهد موظف (الجمرك) يحاورني فذهب وتركني، فحملت متاعي، ولما خرجت من المبنى استقبلني عند بابه رجل بزيٍّ عربي كامل عباءة وعقال مُقَصَب، وثوب قائلا: مرحباً يا شيخ محمد! فظننت مراقب البعثات ـ وقد علم بقدومي ـ قد بعثه لاستقبالي، فقلت: هل أرسلك السيد ولي الدين؟ فأجاب: نعم! نعم! وتناول مني الحقيبة فحملها إلى مقهى قريب، وأمر صاحب المقهى أن يحضر لي قهوة وماء وخبزاً وفولاً، وأثناء الترحاب والسؤال عن الحال: قلت له: أين القِطَار؟ وكنت قد علمت أنه وسيلة السفر إلى القاهرة، ولكنني أجهل كل شيء عنه وأتخيله ـ من اسمه ـ آلة تُقْطَرُ بآلةٍ أخرى لتقوم بِجَرِّهَا نحو الجهة المقصودة، فأجاب: القطار قريب، هات الحاجات أوصلها إليه وأعود إليك بعد أن أُهيِّء لنا فيه مكانين للركوب، فقلت: خذ اللفافة، ودع الحقيبة فقد أحتاج الآن إلى شيءٍ مما فيها وأردت إصلاح شعر وجهي. غاب الرجل، وتقدم صاحب المقهى يطالبني بثمن ما قدم لي فاستمهلته حتى يعود صاحبي، فسألني؟! هل تعرفه إنه حرامي، وهكذا كان!.

الحواشي:

(١): هاؤلاء الشباب الثلاثة هم: عبد العزيز بن راشد من بلدة المُفَيْجر من أسرة آل حسين الشريفية النسب، وعبد الله بن يابس من القويعية من بني زيد، وعبد الله بن علي القصيمي، وتعرف أسرته في نجد بـ(الصعيدي) منهم حمود الذي يعرف بابن جميعه من الخدم المقربين لدى المغفور له الملك عبدالعزيز، وجد الأسرة قدم من صعيد مصر، وعمل سائساً لخيل ابن رشيد فعرف بالصعيدي وهو من قبيلة بني كعب.

(٢): هي أول بعثة تقدم ذكرها في سانحة (لمحة عن سير التعليم الحديث في البلاد).

(٣): الأستاذ النحاس هو: محمد علي النحاس قدم إلى المملكة في أول بعثة مصرية سنة ١٣٤٧هـ

في عهد الشيخ حافظ وهبة، وتـقلب في الوظائف في جدة وفي الوجه وفي ينبع وفي الأحساء، في وظائف التعليم، وعمل مـديراً لمالية تبوك، وكان رجلاً حازمـاً في إدارته، إذا اتضح له أمرأقدم عليه، وكان هذا من أسباب نجاحه في سيره في أعماله، وقد توفي في الأحساء، وله أبناء.

(٤) : منهم : عبد الله الخيال، وعبد الله الملحوق، وأحمد المبارك .

(٥) : كلمة (الجبر) في اللهجة النجدية الصفيق النسج.

(٦) : القِبَال ـ بكسر القاف ـ من النعل هو السير الذي يمتد من الإبهام إلى وسط الرجل، فنعال نجد ذات قبال واحد وغيرها لها قبالان اثنان.

(٧) : الشيخ عبد الله المزروع. تقدم ذكره في سانحة (ما أجهل المخدوعين بالمنصب الزائل).

(٨): انظر هذا الحديث في «العرب» ـ س١٥ ص ٢٢٧ ـ .

(٩): «الأغاني» ـ ١٥ / ٢٤٧ ـ طبع دار الثقافة.

(١٠): هو كتاب «بلاد ينبع لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة » نشر دار اليمامة سنة ١٣٨٦هـ[١٩٦٦م] .

(١١): المعروق ـ قليل لحم الوجه غير مُتَغَضِّن.

(١٢): كلمة (أفندي) كانت في ذالك العهد رائجة، فمدير الشرطة إبراهيم أفندي ورئيس كتاب الإمارة أحمد أفندي وهكذا، ومن الطريف أن طلعت حرب باشا مَرَّ بينبع تلك الأيام ومعه أحمد يكن باشا رئيس شركات مصر وهو أرفع مقاماً من طلعت حرب، وعند الاستقبال في المطار قدم الأمير سيارته قائلاً : أحمد أفندي يركب مع السائق وأنا وأنت يا طلعت أفندي نركب وراء، فرد طلعت بانفعال : لا ياسعادة الأمير هذا أحمد باشا لا يركب جوار السائق بل أنا، وهو يركب مع سعادتكم.

(١٣): انظر عنه «بلاد ينبع» ص ١٤٤ .

(١٤): يقتضيني الوفاء إثبات كتاب الأستاذ بنصه.

(١٥): الهدام : هو ما يعتري الإنسان عند ركوب البحر من تغير المزاج ويعبر عنه بكلمة (دوار البحر) والهدام عربية فصيحة.

مع (البعثة العلمية) في القاهرة*

كان الوصول إلى القاهرة مساء اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٨هـ (٢٣ / ٤ / ١٩٣٩م) ، فقد هيأ لي صاحب المقهى الركوب في سيارة كبيرة قديمة، حملتني من قرب ميناء السُّوَيْس إلى مقر (البعثة السعودية)، كما يُحْملُ أحد الصناديق التي لا يُخْشى تلف ما في داخلها، طيلة اجتياز طريق يمتد قرابة مئتَيْ كِيْلٍ، يتتبّع السائق بسيره فيه ما نَتَأَ منْ عقباته، وشقَّ اجتيازه من منعطفاته، أو هكذا كان إحساسي أثناء تَدَحْرُجي فوق سطح السيارة ـ كتدحرج الكُرَة بين أرجل اللاعبين ـ مع سخائي ببذل الأجرة فلم أُمَاكِسْ عند تحديدها لتقليلها مضطَرًّا، فقد أقبل المساء، وأخشى من إظلام الليل، مع رفقة ثلاثة أجهلهم، هم سائق السيارة وإثنان جواره.

وتحل (البعثة) في حَيٍّ (الحلمية الجديدة) الواقع فيما بين (السيدة زينب) و(القلعة) في منزل رَحْبٍ ذي ثلاثة أدوار، ثالثها سطح واسع، فيه غرفة واحدة، على مقربة من شارع (درب الجماميز) حيث تنتشر المكتبات فيه وفي امتداده من شارع محمد علي، على مقربة من(دار الكتب المصرية). وبقرب دار البعثة يقع مسجد الشيخ محمد رفعت أشهر القراء في ذالك العهد، والدار واسعة الجوانب، متعددة الغرف، ذات باب كبير، فوقه لافتة مكتوب فوقها اسم (البعثة العلمية السعودية) وعلى مقربة منها بناء قديم، يحمل مدخله عنوان (مركز الجهاد الإسلامي) وفي مقدمه حوش فسيح، قَلَّ أن يخلو ليلة من اجتماع عدد كثيرمن

---

* المجلة العربية، العدد (١٨١)، صفر ١٤١٣هـ / تموز وآب ١٩٩٢ .

الناس، للاستماع إلى محاضرات تلقى وتناقش موضوعاتها.

وعدد الطلاب هذا العام (٦٢) منهم من كان في بعثة سابقة، ومنهم من بعثه أولياء أمره، وأكثرهم ممن بعثتهم (مديرية المعارف العامة) في خلال أربع سنوات، ممن أكمل دراسته في (تحضير البعثات) أَو في (المعهد) أو (مدرستي الفلاح) ومنهم من لم يكملها. ولهذا فهم على مستويات متفاوتة في التحصيل والأعمار، وكان مراقب البعثات السيد ولي الدين أسعد، من أسرة كريمة من أهل طيبة الطيبة، أكمل دراسته في مصر، مع أول بعثة قدمت القاهرة، وما كان منزل البعثة يضم جميع أفرادها، فمن بينهم من ينفق عليه ولي أمره، وقد اختار له سكناً يلائمه، وألحقه بما رغب إلحاقه به من المدارس، وأكثر من بهذه الصفة من صغار السن، ممن لا يزالون في المراحل الأولى من الدراسة، وجُلُّهم من أبناء الأغنياء، ويقوم المراقب بالإشراف على جميع شؤونهم، وفي منزل البعثة هذا يسكن طلاب لم يلحقوا بها، أذكر من بينهم إسماعيل بن عبد الله كاظم، والده المدير العام للبرق والبريد، وحسن بن محمد سرور الصبَّان، وسليمان بن محمد السليمان التركي، ومن طلاب البعثة من اختار سكناً غير هذا المنزل، من متقدمي الدراسة، أو ممن له أقارب مقيمون في القاهرة، ومن هاؤلاء يوسف بن إبراهيم الهاجري، وعبدالله الطريقي.

لا يزال منطبعًا في ذهني ما استقبلني به السيد ولي الدين من بشاشة ولطف، وتلك سَجيته دائمًا مع كل أحد، بل في جميع الحالات أيضًا، حتى عندما يريد إيقاع عقاب بتلميذ مذنب، أو يُسْتثار غضبه، وما أبعد استثارته! إنه لا يعرف العبوس ولا التهجم، ولا الخروج عن

سجيته من طلاقة الوجه وتهلله بالبشر ، لقد كان حازمًا في إدارته ، مرهوبًا من جميع الطلاب ، مستقيمًا في أخلاقه .

على القادم تلك الأيام إلى القاهرة ، من خارج مصر الحضور في صباح اليوم الثاني من قدومه إلى أقرب مركز صحي للمكان الذي ينزل فيه ، لإجراء الكشف الطبي للتحقق من سلامته من الأمراض المُعْدِيَة ، فذهبت أنا ورفيقي في الباخرة محمد سلطان ، وكان قد سبقني إلى القاهرة ، ذهبنا مع أحد موظفي البعثة إلى المركز الصحي ، وبعد الانتظار فترة من الزمن مع آخرين ، تقدم أمامنا رجل خرج إلينا من حجرة مجاورة قائلاً : (من فيكم شنب الدين؟ ومن فيكم دقن الدين؟) وكنت قد تركت شعيرات لحيتي تنمو ، فظننت الرجل يسخر مني لأنني بدوت أمامه ملتحياً (ذا دقن) فصرخت في وجهه : أتهزأ بلحيتي ! وكدت أمسك بتلابيبه ، فما كان من صاحبي إلا أن هب واقفاً وقال : أنا محمد سلطان شنب الدين فتراجعت معتذراً قائلاً : لا مؤاخذة ، مادام صاحبي (شنب الدين) فسمني (دقن الدين) وانتهى الأمر بابتسامة الجميع .

كانت الأمور في دار البعثة على درجة حسنة من التنظيم ، والعناية بمتطلبات الطلاب ، من نظافة اللباس وحسن الطعام ، وإعداد ما يهيىء لهم الراحة والهدوء ، وكان الإشراف على كل ما يجري من عمل داخل الدار يناط كل يوم بأحدهم ، فهو الذي يشرف على إعداد الأكل ، ونظافة الغرف وأعمال القائمين بذالك ، ويخير الطالب بين أن يتناول وجباته الثلاث مع إخوانه وبين أن يدفع له في اليوم عن تلك الوجبات مبلغ سبعة قروش ونصف ، ويختار الأكل في أي محل يريده ، وكان بعضهم يفضل أخذ المبلغ حيث يكتفي بصرف جزء منه ، ويوفر كل يوم ثلاثة قروش .

أعدت لي غرفة فسيحة، يتخللها الهواء ـ وهكذا أكثر غرف الدار ـ تجاور غرفتي الأخوين حمد بن علي آل مبارك و عبد الله عريف، وأسكن معي فيما بعد شاب يدعى أحمد الشريف (ستي) وأنست باللقاء بعدد من الإخوان، عبد الله بن عبد العزيز الخيال، وعبدالله عبد الجبار، وعبد الله الملحوق، وإبراهيم بن عبد الله السويل، وغيرهم، وتم التعارف بيني وبين آخرين من أفراد البعثة كأحمد جمال عباس، وأحمد عبدالحميد الخطيب وأخيه فؤاد، وآخرين من غير أفراد البعثة.

ها أنا وقد تفتح نظري عند رؤية هذه المدينة لأول مرة على آفاق واسعة من أنماط الحياة مما لا عهد لي به، وأنا وإن أخذت نفسي بالشدة والصرامة بأن أكون الطالب المثالي في مختلف أوجه سلوكي، بل في كل شيء من أنواع مظاهر حياتي حتى الزي الذي اخترته، إلا أن طبيعة الإنسان الذي عانى حياة كلها جد وتقشف وعمل، وفجأة يخرج منها إلى هذه الأجواء الفسيحة من الانطلاق ليس في مستطاعه كبح الجماح عن التأثر بما ظل يعايشه.

لقد كان الوقت وقت فراغ، فالدراسة لم تبدأ بعد، فكنت أذهب مع أحد الإخوان لزيارة معالم المدينة، أو للاستماع لبعض محاضرات تلقى في مجتمعات عامة، أو لزيارة قادم، ولا أزال أذكر زيارة أول بعثة كويتية كان يراد إلحاقُها بالأزهر، من أفرادها عبد العزيز حسين والجسار ويوسف مشاري والعدواني. ومع كل ذالك فالإنسان ـ أي إنسانٍ كان ـ ذو طبيعة متأثرة بما يحيط به، لقد مَرَّ بي الأخ محمد المرشد الزغيبي ـ وكان مبتعثاً من الديوان الملكي ـ مساء في دار البعثة وكنت عرفته في جدة، موظفاً في خفر السواحل، فعرض عليَّ الخروج معًا لمشاهدة بعض مظاهر الحياة

الليلية في هذه المدينة، ورغب أن أغير لباسي اللافتَ للأنظار في ذالك العهد ـ العباءة والعقال المقصَّب ـ ولكنني أصررت على التمسك بمظهري العربي معتزًّا به، فكان الذهاب من دار البعثة إلى (شارع عماد الدين) مشيًا على الأقدام، وليست المسافة طويلة، وكان الشارع مكتظًا بدور الملاهي ومسارح الغناء والطرب، وعلى مقربة نهايته مما يلي ميدان السكة الحديدية يقع (مسرح بِبَا عزّ الدين)، ولعلها كانت أشهر راقصة إذْ ذاك، فكان الدخول فيه، وأراد صاحبي أن ننتحي جانبًا منزويًا للجلوس، وما كنت أحسُّ أيَّةَ غضاضة في ارتياد هذا المكان، ولا الجلوس في أبرز مكان فيه، لما أشعر به من ثقة في نفسي، وأنني لن أرتكبَ مَا أُلاَمُ عليه، وما كنت أدري ما يجري فيه، ولهذا انقدت لمن قدمني إلى كرسي يتوسط الملهى، وظننته إكرامًا لي، بينما اعتزل صاحبي في ركن قصيٍّ، ولا أذكر مما شاهدت سوى رقص خليع، تكاد تغشاني القشعريرة من مشاهدته، فَأَنْصَرِفَ بوجهي للجهة الأخرى، ولكنني لم أسلم من بعض الفضوليين ممن يقلقني بصخبه: (بصّ يا شيخ العرَب أُدَّام)! ولا أزال أذكر أنني تلك الأثناء رأيت رجلين دخلا المكان فأبصراني، فجلسا بعيدين، وقد بدا لي من سيماهما ما عَرَّفَنِي أحدهما، مع محاولتهما التنكر باللباس الإفرنجي، ولما رأيا هذا الجالس متصدِّراً في المسرح بزيه العربي خشيا أن يعرفهما فأسرعا بالانصراف، ولكن جريدة «الجهاد» التي كان يصدرها محمد توفيق دياب أفصحت عن أمرهما بخبر قصير في إحدى زواياها.

إنني إنسان خلق من لحم ودم، ولست قِدِّيْساً (مطهراً) معصومًا، وأنا أتحدث عن زمن مضى وانقضى، مارست فيه بعض ما يمارس من هو

في مثل سني، ولكنني لا أرى أيَّ حَرَج بأن أكون صريحًا، بل أَرَى أنه يجب أن أكون صادقًا مع نفسي ومع من أتحدث إليه ممن يهوى معرفة ما يحدث لإنسان تفتحت عيناه على مباهج الحياة بعد كبت وحرمان، مع شدة إغرائها، تصدى ليقف منها الموقف الذي يحس فيه الرضا التام عن نفسه، والبعد عن كل ما يُلام عليه من هو في مثل سنه.

أذكر أن أول رواية شاهدتها في (السينما) رأيت فيها محمد عبد الوهاب يغني: (يا وابور قل لي رايح على فين) ورواية غنت فيها صباح: (أنا ستوتة) وأُنسيت اسم الروايتين، ومما سمعت من أغاني أم كلثوم التي كانت تكرر في المقاهي وغيرها في ذالك العهد:

لِيهِ تِلاوْعِنِي، وَانْتِ نُوْر عيْنِي إِيْه جَرَى بيني فِي الْهَوَى وَبِيْنِكْ

وما أصبحت أميل إلى الاستماع لهذا النوع من الغناء العامي، ولكن إلى التغني بالشعر العربي الفصيح ـ فيما بعد ـ كقصيدة (نهج البردة) لأحمد شوقي، وقصيدة (أراك عصي الدمع) لأبي فراس ونحوهما.

وكنت أرتاح لما كان يمثَّل في مسرح (الريحاني) من روايات، وأُعْجَب بمقدرته هو وبعض أفراد فرقته على التمثل، ومنهم ماري منيب، حتَّى كنت أتخيل أثناء المشاهدة أنها حقيقية ليست خيالاً فيعتريني من التأثر ما يشغل ذهني.

لم تكن المواصلات متوفرة، حيث أجدني بحاجة إلى شغل الوقت بالزيارات، وكنت أهوى المشي ولا أسأم منه، وأذكر أنني في إحدى المرات ذهبت ماشياً من (الحلمية الجديدة) إلى مدينة الملاهي وكانت في (إمبابة) والمسافة تقارب خمسة أكيال، ثم عدت ماشياً، وأذكر أن

ممن رأيته هناك الشاعر المشهور أبو الإقبال اليعقوبي، وفي أثناء عودتي انقطع شِسْعُ إحدى نعليَّ فحملتهما ومشيت حافياً إلى المنزل، فوجدت الباب مغلقًا، وما كنت ممن اعتاد تملُّقَ البواب ليفتح لي، كبعض الطلاب من ذوي المآرب الخاصة، ولهذا لما عرف صوتي تجاهلني، فاضطررت للمبيت خارج البيت متوسداً عباءتي، فما شعرت أثناء النوم إلا بِرِجْلٍ تَرْكُلُني، فلما رفعت رأسي إذا بشرطي يقول لي: (إيه يا شيخ العرب! ليش أنت هنا) فأجبته: (أنا أحرس الباب، وأراقب الذين يحضرون من الطلاب متخلفين) فانصرف عني، ولو لم أقل هذا لما سلمت من شَرِّه.

ولقد ذهبت صبيحة يوم من دار البعثة مع أحد الإخوة لزيارة (البعثة الكويتية) في الأزهر، وبعد الزيارة كان الذهاب إلى (الجيزة) ثم العودة منها بعد الغداء، وزيارة حديقة الحيوان والتجول في جوانبها الفسيحة، وكل ذالك كان مشياً على الأقدام.

لقد كنت طُلَعَةً أَهْوَى معرفةَ كل شيء، وأحب أن أعلم ما أسمع الناس يتحدثون عنه في مجالسهم، وفي صحفهم التي أَلْتَهِمُ تلك الأيام مطالعة كل ما أتمكن من مطالعته التهاماً، وأكثر التردد على الأمكنة العامة التي تلقى فيها المحاضرات كـ(جمعية الشبان المسلمين) و(جماعة أنصار السنة) و (دار الحكمة) في شارع القصر العيني، وقد عرفت (دار الكتب المصرية) فرأيت في التردد عليها أعظم مَغْنَمٍ استفدته في هذه المدينة، لا من حيث الاطلاع على ما قد لا يتيسر لي الاطلاع عليه من نوادر الكتب فحسب، بل بمعرفة صفوة من العلماء من العاملين في القسم الأدبي فيها، ومن زوارها من غير المصريين.

وحان وقت الاستعداد للدراسة، ولم يتم بعدُ تحديد الكلية التي

سيسجل اسمي بين طلبتها، وكنت أحمل كتابًا من مدير المعارف السيد طاهر الدباغ لمراقب البعثات، لكي يسعى لإدخالي إحدى كليات الأزهر أو (دار العلوم)، وما كنت راغبًا في الانضمام إلى واحدة منها، ولكن المعارف وقد اطلعت على نتيجة دارستي القديمة، وأنني متخرج في (قسم التخصص في القضاء) في (المعهد السعودي)، أوضحت لي أنه لا يمكن ابتعاثي إلاَّ لدخول إحدى الكليات المذكورة، فوافقتُ ظاهرًا وفي نفسي ما فيها، وبعد وصولي إلى القاهرة أوضَحْت للمراقب رغبتي في دخول (كلية الآداب) ـ في الجامعة ـ فمانع، وبإلحاح أبرق للسيد طاهر عن ذالك، فأجابه بأن أدخل أية كلية أَرْغَب دخولها وأُقْبَل فيها.

وفي صباح أحد الأيام كان الذهاب إلى كلية (الآداب) ومقابلة عميدها محمد شفيق غربال فقال: إنني حديث العهد بالعمل، ويحسن الاتصال بالدكتور طه حسين ـ وكان عميد الكلية قبله ـ لاستشارته في أمر القبول، وها هو عنوانه، ورقم هاتفه.

اتصل المراقب بالدكتور، فحدد له موعد الزيارة الساعة الرابعة بعد الظهر، فكان الاجتماع به في الوقت المحدد بمنزله، وكان في (الزمالك) قبل أن ينتقل إلى دارته بطريق الهرم، ولما أوضح له السيد ولي الدين رغبتي في دخول (كلية الآداب) سأل: كم عدد الطلبة السعوديين في القاهرة؟، فقال السيد: إثنان وستون فاستوضح طه: اثنان وستون لا يدخل (كلية الآداب) سوى واحد؟ فبدت من السيد المراقب هفوة إذْ قال: وذالك بغير رغبتنا لأننا نريد طلاب علم في الدين واللغة العربية، سألني طه حسين عما قرأته من كتب الأدب القديم والحديث فسردت عليه ما حضر في ذهني منها، ومن بين المؤلفات الحديثة بعض مؤلفاته

ومؤلفات العقاد والمازني وأحمد أمين والرافعي، وذكرت من بينها «تحت راية القرآن» فابتسم، ووجه الكلام للمراقب: من السهل جداً قبول الطالب في الكلية، ثم أخرج بطاقته، وقدمها له قائلاً: يحسن أن تقابلوا الأستاذ إبراهيم مصطفى ـ أحد أساتذة الكلية ـ في (شارع المساحة) رقم (٧) ورقم هاتفه كَذَا وكَذَا، وأن تقدموا له هذه البطاقة، وسأتصل به لأكلمه في الموضوع.

لقد كان المراقب متوقعاً أنَّ الأمر لن يكون بهذه السهولة، وأن طه حسين سيعتذر بأن القبول من شؤون المشرفين على إدارة الكلية، وعلى رأسهم شفيق غربال الذي قد يكون نصحه بالاتصال به اعْتذَاراً لَبقاً، إلاَّ أنَّ حُسْنَ استقبال طه، والإلحاح على المراقب بانضمام عدد من الطلاب إلى الكلية، أحدث له ارتياحاً واطمئناناً، وامتدَّ الحديث بين الرجلين عن حالة التعليم في المملكة، وتمنى المراقب أن يقوم طه بزيارتها للاطلاع على تلك الحالة عن كَثَب، وقد يُمِدُّ الباحثين في تاريخ المشاعر المقدسة بمؤلف عن أفكاره وآرائه من الناحية التاريخية، كما فعل حسين هيكل باشا في كتابه «في منزل الوحي» وأبدى استعداده لبَذْل الوسائل التي تمكنه من ذالك بسهولة ويسر، فكرر طه: (إن شاء الله! إن شاء الله).

كان الأستاذ إبراهيم مصطفى قد زار مكة المكرمة والطائف، وقوبل بحفاوة وإكرام، وزار (المعهد) وعرف اتجاه الدراسة فيه، وتربطه هناك روابط قوية، فهو ابن عم الشيخ عبد الظاهر أبي السمح إمام الحرم المكي في ذالك الحين ـ من أسرة تعرف بـ(الفقيه) وقد توقعت أن أجد عند مقابلته خلاف ما وقع.

ذهبت مع المراقب صبيحة اليوم الثاني لمقابلته في (كلية الآداب) وكان من أساتيذها البارزين، وهو مؤلف كتاب «إحياء النحو» ، فقد حدد الزيارة في ذالك الوقت، لا في بيته، فما كان ـ رحمه الله ـ عند استقبال المراقب وهو يعرفه بلطف عميد الكلية، ولا الدكتور طه حسين. لقد بدأ الحديث بدون مقدمات عن صعوبة الانتساب إلى كلية (الآداب) ، وأنه لابد لمن يرغب ذالك أن يكون على جانب كبير من معرفة علم النحو بحيث يكمل دراسة «ألفية ابن مالك» وشروحها لابن عقيل وابن هشام وغيرهما، واسترسل في حديث مثبط للهمة، بحيث مال المراقب إلى ما قال، ولكنني قلت: إنني مستعد للاختبار. ولعله وجدها فرصة للتخلص منا فقال: إذن احضر بعد أسبوع في هذا المكان لامتحانك في النحو والأدب والتاريخ، ثم قدم ورقة مطبوعة فيها جملة من المواد العامة في العلوم المذكورة، مقتطفة من منهج الدراسة في الكلية.

لا أدري كيف جزت ذالك الامتحان بنجاح، فقد أقدمت متأثراً بما سمعت من صعوبة اجتيازه، ولعل للأستاذ أحمد أمين وزميله اللذين قاما بتوجيه أسئلة عامة فيما اختبرت فيه الأثر المشكور في نجاحي، بحيث نصحت الأخوة الكويتيين القادمين للدراسة بالالتحاق بالكلية فرغب أحدهم في ذالك وهو يوسف مشاري، بعدما أخبرته أن امتحان القبول سيكون سهلاً، وأن رئيس اللجنة أحمد أمين عاملني أحسن معاملة، وهكذا كان بالنسبة لهذا الطالب، ولا أستبعد أن يكون الأمر بتوجيه من طه حسين لاجتذاب الطلاب من البلاد العربية، الذين كنت أول واحد منهم من المملكة يلتحق بتلك الكلية.

ضُممت إلى (قسم التاريخ) في الكلية بعد أن ابتدأت فيها الدراسة،

وقد أسندت في الفصول الأولى إلى حديثي التخرج من الأساتذة كل في اختصاصه.

من المدرك بداهة أن تصور الأمور ـ أياً كانت ـ هو من أقوى العوامل في الإقدام عليها أو الإحجام عنها، وما كان تصوري لما كانت عليه حالة التعليم في مصر ليتجاوز حد المعقول بحيث أتوهم أن معاهد العلم فيها أوعية من المعرفة يعب منها الظمآن ما يُرْوِي أُوَامَهُ بوسائل (سحرية) تختلف عن الطرق المتبعة لتلقي العلوم، ولكنني ـ ككثيرين غيري ـ كنت معجباً بما يتصف به بعض علماء تلك البلاد من سعة آفاق المعرفة، وها أنا الآن لم تتغير النظرة ـ على وجه الإجمال ـ غير أنني أدركت من خلال ترددي على الكلية، واتصالي ببعض أساتذتها، ومحاولتي الاستفادة مما في مكتبتها من المؤلفات، بدأت أشعر بشيء من الضيق من معاملة بعض القائمين عليها، وقد يكون هذا الشعور ناشئاً عن شدة تطلعي لما هو فوق ذالك.

ثم حدثت المفاجأة التي لم تكن متوقعة لجميع طلاب البعثة، حيث أمرت (المعارف) بعودتهم إلى البلاد، حين قامت الحرب العالمية الثانية، إلاَّ أَنَّ من بين اؤلئك من آثر البقاء ممن في استطاعته القيام بشؤونه، وما كنت من هاؤلاء، وإن لم تَزَلْ رغبة مواصلة الدراسة تجتذبني، ولكن بدون ما كانت عليه قبل فترة من الزمن.

كان من بين الطلاب شابٌ يتولى أبوه الإنفاق عليه بسخاء، وقد قويت صلتي به، إِذْ كان يتهيأ لدخول اختبار (الشهادة الثانوية) فكنت أدارسه مادة الأدب، وقد نجح. فقرر البقاء لمواصلة الدراسة، ويعيش في مسكن مريح خارج دار البعثة، مع أسرة تتولى ما يحتاج إليه في المنزل، وقد

عرض عليَّ ـ بل أَلَحَّ وحاول ما استطاع ـ أن أبقى لنسكن معاً ، ونتقاسم ما قرره له أبوه من مرتب شهري يبلغ ستين جنيهاً ، وهو مبلغ يفي بحاجة عدد من الطلاب .

بقيت متردداً بين حالتي البقاء والسفر ، حتى لم يبق وقت للتفكير في الأمر ، بل العزم على مرافقة الإخوة في عودتهم ، لا سيما وأن بواعثها لم تتضح بعد ، وقد ينجلي الأمر فيعود جميع الطلاب في وقت قريب ، وهكذا كان إلاَّ أنني ممن آثر عدم العودة ، ولذالك حديث .

من القاهرة إلى الأحساء !!*

ما أبعدها من شقة، وما أشد ما قاسيت خلالها من تعب ومشقة !

من القاهرة إلى الأحساء !

وإذَنْ فلا استغراب لتلك القفزة الذهنية الماثلة من شاعر المعرة أبي العلاء، إذْ حَلَّق في أجواء الخيال فقال:

تَتْوَى المُلُوكُ ومِصْرٌ في تَغَيُّرِهِمْ   مِصْرٌ علَى الْعَهْدِ وَ الأَحْسَاءُ أحْسَاءُ[1]

أتراه استوحى هذا من صدى حوادث حكومات ذالك العصر، فقد كان في الأحساء القرامطة في آخر عهدهم، وكان في مصر الفاطميُّون، وبين الحكومتين من الصلات ما هو معروف.

لقد كنت متردداً بين مغادرة القاهرة وبين البقاء فيها ـ كما أشرت إلى ذالك ـ ولكنني حين رأيت زملائي قد أزمعوا الرحيل اندفعتُ فيهم بدون تَرَوٍّ أَوْ تصميم عَزْمٍ، فرافقتهم.

ومن ميناء (السويس) حملتنا الباخرة إلى جدة، ولا أذكر من أمرها شيئاً إلا أنني كنت أقضي أنا وبعضُ الإخوة من الرفقة بعضَ الوقت فوق ظهرها، نسرح أبصارنا في الفضاء الفسيح، ونمتعها بمشاهدة بعض مخلوقات الله السابحة في خِضَمِّ الموج أو المحلِّقة في أجواز الفضاء، وقد نلمح من بُعْدٍ بعضَ السفن الشراعية، مما يدل على قرب الشواطيء، وهكذا كانت تسير الباخرة على مقربة من شواطيء البحر الأحمر.

وقد نجلس مجتمعين في غرفة أحدنا للتسلي ببعض أنواع اللعب بالورق، وقلَّ أن نقرأ في كتابٍ، إذْ يظهر أن السأم أضعف هذه المتعة النافعة من نفوسنا.

---

* المجلة العربية، العدد (١٨٢)، ربيع أول ١٤١٢هـ / آب وأيلول ١٩٩٢م.

وعرفت فيمن عرفت في الباخرة رجلاً كان ذا شهرة في ذالك العهد، وكان عضواً في مجلس الشورى، إنه الشريف شرف رضا، عرفت فيه الرجلَ السَّمْحَ الأخلاق، الواسع الاطلاع على أحوال العالم، الرَّضِيَّ النفس، الملم بقدر حسن من الثقافة، ويبدو أنه عاش في مدينة (اسطنبول) فترة من الزمن، ولا أنسى أنه عرض عليَّ النزولَ عنده في بيته في مكة المكرمة، وَأَلَحَّ في ذالك وكرر العرض عند النزول في مدينة جدة.

وفي جدة استقبلت البعثةَ سياراتٌ بعثتها مديرية المعارف للذهاب إلى مكة، فذوو الأهل فيها ذهبوا إلى أهلهم، والباقون أُنْزِلُوا في أحسن فندق كان في مكة في حيٍّ أجياد، سوى اثنين.

لقد عرض عليَّ الصديق عبد الله بن عبد العزيز الخيال(٢) أن نتضيَّفَ فيصلاً، قائلاً: أنا كما تعرف عملت فترة من الزمن في مكتبه الخاص، وأنت سبق أن عرفك، ولن نعدم من صلته ما اعتاد قاصدوه من سائر الناس، وما لنا وللسير مع هاؤلاء الذين سيتفرقون غداً أو بعد غد.

لقد كان الخيال ذا صلة بفيصل، ومعرفة قوية وصداقة (بآل السُّمَيْرِي) المشرفين على شؤونه الخاصة، وعمل مع سليمان بن جوهر وابن ريِّس في المكتب الخاص في مكة قبل أن ينتقل للعمل في مالية الرياض.

أما أنا فلم أكن مجهولاً لدى فيصل حين كنت طالباً في المعهد، فقد كنت أتحدث أمامه في مناسبات عامة، ألقي فيها شيئاً مما نظمته في مدحه، منها قصيدة هنأته فيها بأحد الأعياد نشرت في جريدة «أم القرى» منها:

ذاتَ الجَمَالِ وفِتْنَةَ العُبَّاد — مَنْ لي بمِثْلِ قوامك المَيَّاد
خضلاً يُشابِهُ بانَةً مُخْضَرَّةً — غِبَّ السَّمَاءِ وفي مَسِيْلِ الوَادي
يُلقي عَلَيْهَا الجَوُّ من نَسَمَاته — والطَّيْرُ صادحَةٌ على الأَفْنَاد
وَالمَاءُ تحتَ جُذُورِهَا مُتَسَلسِلٌ — يَنْسَابُ يَهْزأُ من صَدَى الغَرَّاد
وعَلَى جَوَانبِهَا الأَقَاحُ كَأَنَّهُ — ثَغْرُ الحَبِيْبِ نَأى عَنِ الحُسَّاد
في لَيْلَةِ سَمَرَ الأَغَرُّ جَمِيْعَهَا — وكَسَا الفَضَاءَ بنُوره الوَقَّاد
فَكَأَنَهُ بَيْنَ النُجُومِ مُتَوَّجٌ — فَوْقَ السَّرِيْرِ وَهُنَّ كَالأَجْنَاد
بَلْ وَجْهُ فَيْصَلَ بَيْنَ أُمَّةِ يَعْرُبِ — وَسْطَ المَوَاكِبِ حُفَّ بِالأَعْيَاد

إلى آخرها.

وهنأته حين عاد من غزوة الحديدة سنة **١٣٥٣هـ** [**١٩٣٣م**] بقصيدة نشرت في جريدة «أم القرى» مطلعها:

بِمَنْ حَفَلَ الآنامُ فَازْدَانَ مَحْفِلُ — وَأَضْحَتْ بِلادُ اللّه بِالبِشْرِ تَرْفُلُ

ثم كان أن عينت قاضياً فقويتْ صلتي، مما سبق أن أشرت إلى بعضه في السوانح وخاصة قصة الهلال(٣).

كان المتوقَّع أن نُنْزَلَ في إحدى غرف القصر، محلَّ نزول الخاصة من ضيوف الأمير، ولكن يبدو أن المسؤول عن استقبال الضيوف اكتفى بإنزالنا في (ضيافة ابن قُنَيْعير)(٤) كما اعتاد أن يُنْزِلَ أكثرَ الوفود، ومن بينهم شيوخ البادية، وكبار القادمين من نجد من علماء وغيرهم.

لقد هيأت (المعارف) وسائل إيصال الزملاء، كُلٌّ إلى بلده، فتفرقوا ومكثنا زمناً في الضيافة نتطلَّع، حَتَّى أدركنا السأم فقنعنا بأية وسيلة توصلنا إلى الرياض، فكانت سيارة البريد، المزدحمة براكبيها وما تحمل من أكياس، فهي لا تسير في الأسبوع سوى يوم واحد، وما كانت

الطرق إذْ ذاك مُعَبَّدَةً، ولم تكن تلك السيارة على درجة من الصلاح والقوة بحيث تريح راكبيها، بل قد أصيبت بخلل في أثناء الطريق مرتين، وكدنا نهلك من العطش في إحداهما، ومضت لُيَيْلاتٌ خَمْسٌ قاسينا خلالها من العناء والتعب ما ذكَّرنا بحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام «السفر قطعة من العذاب».

وقبيل فجر الليلة التاسعة من شهر رمضان سنة ١٣٥٨هـ [١٩٣٩م]، وقفت بنا السيارة في (حوش الْقَرِيِّ) حيث موقع البرق والبريد هناك، فودعني صاحبي، واعتذر مني بأنه سيذهب إلى بيت أهله، فعذرته وشكرته، وتناولت السحور، أنا وسائق السيارة، كسيرات خبز يابسة مما بقي معنا من مكة وتُمَيْرات قدمها لنا سائق سيارة شاركنا في السحور.

وفي الصباح لبست أحسن ثيابي وتركت حقيبتي (صندوق حديد)، يحوي بعض كتب وأغراض خاصة، داخل السيارة، وذهبت إلى حيث تُنيخ الوفود رواحلهم في صَفَاة الرياض، أمام باب القصر، وهناك قابلت إبراهيم بن جُمَيْعة (رئيس التشريفات) وقدمت له نفسي بصفتي أحد أعضاء البعثة التي قدمت من مصر، فأمر بإنزالي في الضيافة الممتازة في محلة تدعى في ذالك العهد (محلة العبيد)(٥) واسمها الآن (شارع الأحرار) وكانت ضيافة ممتازةً حقًّا بنظافتها، وجودة ما يقدم للضيوف فيها، وأُسْكِنْتُ في حجرة كان الشيخ محمد ابن مانع ساكنًا فيها، وكان ممن عرفت بين الضيوف الشيخ عبد الله بن عبد العزيز من أهل الْحَرِيق، كفيف البصر، يقيم في جهات عمان، وكان خَالَ زميلي في المعهد الشيخ حسين السليمان(٦)، وظهر لي أن هذا الشيخ كان ذا صلة قوية ببعض كبار المشرفين على بعض شؤون

الدولة، وأنه يواصله بالمكاتبة من الجهة التي يقيم فيها عن بعض الأمور التي تستدعي الإيضاح من أحوال بعض من لهم صلة بالمملكة، ومكثت في دار الضيافة هذه ثلاثة أيام، وفي ضُحى اليوم الرابع نقلت إلى ضيافة أخرى قد أتحدث عنها في سانحة خاصة[٧].

وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٥٨هـ وكنت قد عرفت بعض الإخوة من أهل الزلفي من أقارب صديق لي هو عبد الوهاب الدَّوِيش[٨] كان (مُطَوَّعاً)[٩] في منطقة (الْهَدَة)[١٠] فرغبت من أحدهم أن يحضر إِليَّ جَمَّالاً أتفق معه على استئجار راحلة منه إلى الأحساء.

لم أكن في كثير من أمور رحلتي هذه أسير على طريقة عقدت العزم على السير عليها منذ غادرت القاهرة، ولكنني كنت مُتردِّدًا في كثير من أحوالي، وكانت الأمور تسير فأنقاد لها بدون إعْمَال رَوِيَّةٍ أو تفكير.

وكنت عندما عزمت على الاتجاه إلى الرياض مفكراً في الذهاب منها لزيارة أقاربي في قرية (البرود) إِلاَّ أَنَّ أَمراً حدث لي منعني من ذالك أوضحته في سانحة أخرى.

ولقد كان من الأولى أن أبقى في مكة بقرب (مديرية المعارف) ريثما يتضح أمر البعثة، إذْ هناك من الشائعات ما راج بأنها ستعود إلى مصر، وأنه لا ضرر من جراء الحرب، كما كان متوهَّمًا، بل إن من المصلحة أَلاَّ تتأخر عودة أفرادها لئلا تتعرقل دراستهم أو تتعثر.

وقد يكون لما أحسست به من ملل أنا وصاحبي ما أَثَّر في رغبتي في البقاء بمكة وعزمي على مرافقته إلى بلدته، ولكن ماذا أعمل فيها الآن.

ولما كان الشيخ محمدعلي النحاس مديراً لمدرسة ينبع[١١] طلب مني

أربع عباءات (مشالح) من النوع الجيد، ليتحف بها بعض معارفه في مدينة الوَجْه، وكان ممن لا يُبْقِي في يده مما ينال من رزق درهمًا واحدًا، لقد كان يكرم نفسه، ويكرم غيره، ولم يكن راتبه يفي بمتطلبات حاجاته، فكان لا يعفُّ عن الاقتراض أو الاستدانة، ولو تراكمت عليه الديون، ويسير على طريقة (أَنْفِق ما في الجيب يأتك ما في الغيب). سافر الشيخ النحاس وثمن الْعِبيِّ تلك لم يدفعه، وهو وإن لم يتجاوز ثلاث مئة ريال، يُعَدُّ تلك الأيام كثيراً، ويغني عن عَوَزٍ.

يضاف إلى هذا أنني طالما سمعت صديقنا الأستاذ أحمد بن علي آل مبارك يسبغ على بلدة الأحساء من الثناء ويصف ما فيها من مباهج الحياة بما ينسي ما هو مشاهد على ضفاف النيل.

إذن سأغنم من زيارتي هذه البلاد استزادة علم ومعرفة عن جزء حبيب من بلادنا، واستيفاءَ مبلغ من المال أنا في أشد الحاجة إليه.

ها هو الدَّويش أحضر لي في صباح ذالك اليوم رجلاً من أهل بلدته (الزِّلفي) يدعوه (أبا بَرْجَس) وهو يعرف (بابن برجس) أثنى عليه ما وسعه الثناء، فسارعت إلى الاتفاق معه على استئجار ذلول، يُهَيِّىءُ لها ما يلزم من رحل[١٢] وغيره، ثم دفعت له مبلغًا من النقود وفق ما قرر، ليشتري لنا ما نحتاج إليه في الطريق من طعام وغيره، وواعدته بعد ظهر ذالك اليوم أن يحضر الراحلة وسيجدني مستعداً للسفر.

فوجئت في الوقت المحدد بصاحبي وهو يقود (قَعُوْدًا) على مقربة من باب الضيافة، ويبدو أن هذا القعود لم يُذلَّلْ بعدُ للركوب، يقوده بخطامه وفوق ظهره (حِداجَةٌ) أناخه بقرب الباب، ودخل عندي ليحمل متاعي، فسألته أين الذلول؟ فأجاب : تركتها خارج البلدة عند

الخيمة، وأتيت لأحمل ما عندك إلى هناك، ولكنه وَضع المتاع وَضْعاً يفهم منه أنه سيمكث على وضعه ذالك مدة.

خرجنا من المدينة ولم نجد راحلة، وخدعني بقوله : (سار رفقاؤنا وهي معهم وسنلحق بهم قبل الليل).

استمر بنا السير حتى أضناني التعب من المشي، لأنني لم أقبل ركوب القعود، يضاف إلى هذا ما اعتراني من حالة التأثر من فعل صاحبي، ومن الارتياب في قوله، فأبديت له أنني صرت لا أستطيع المشي، وأنني بحاجة إلى الراحة، فما كان منه إلا أن أناخ قعوده، وأنزل ما عليه، وبدأ يُعِدُّ شيئًا من الأكل والقهوة، فأدركت أنَّ الرجل لم يكن على ما تخيلت فيه أول الأمر من حيث الأمانة والصدق، فلم يحضر من الطعام إلا شيئًا يسيراً.

بتنا تلك الليلة، وفي اليوم الثاني كان المسير قبيل الفجر، ولم أرتح لركوب القعود ففضلت المشي، ولعل ذالك هو ما يتطلع إليه صاحبي الذي كان يتتبع بنا مواقع رعي قعوده، ويُعْنىَ به أكثر من عنايته بصاحبه.

وبعد أن أشرقت الشمس أظهرت له الحاجة إلى تناول شيء من الطعام أو القهوة، فقرب الأمتعة أمامي وكان يدعوني (محمد الحجازي) وقال : اعمل القهوة وفكوك الريق، وأنا سأبحث عن علف لراحلتنا.

وهكذا كان مسيرنا تسعة أيام، كنت أخدمه بإصلاح ما يحتاج إليه من طعام وقهوة، وأُرِيحه بعدم ركوب بعيره، وكان هو يُعْنَي بهذا البعير، ولا شيء له أكثر من ذالك.

وبعد الوصول إلى مدينة الأحساء لم يجد غضاضة في أن يطلب الأواني والأوعية التي دفعت ثمنها، بل لم يكتف بما اتفقنا عليه من أجرة، وكان آخر كلمة ودَّعني بها : (أنت يا مُلاَّ محمد رجَّال طيب) وقد صدق، فكلمة (طَيِّب) يُعْنى بها خلاف المراد منها وهي صفة تنطبق عليَّ في معاملتي لذالك الْجَمَّال، وفي معاملة غيره في بعض الحالات.

الحواشي:

(١) : «لزوم ما لا يلزم» ١/٤٧ دار صادر.

(٢) : انظر عنه «العرب» س٢٤ ص ١٢٣ .

(٣) : انظر سانحة «حركات غير مريحة» .

(٤) : ابن قنيعير هو : عبد العزيز من أهل مدينة عنيزة كان موظفاً في وزارة المالية فأسندت إليه إدارة إحدى دور الضيافة بمكة.

(٥) : عرفت بهذا الاسم لأن أكثر سكانها في أول عهدها من موالي الملك عبد العزيز - رحمه الله - .

(٦) : انظر عنه «العرب» س٤ ص ٨٩ .

(٧) : سانحة «من ضيافة التكريم إلى ضيافة التأديب».

(٨) : آل الدويش من الأسر المعروفة في مدينة الزلفي انتقلوا من بلدة العطار إليها وهم من العرينات من بني عمرو بن سبيع على اختلاف في نسبة العرينات بين هاؤلاء وبين عرينات تميم.

(٩) : المُطَوَّع وتنطق ـ بفتح الواو عند أهل نجد، هو الواعظ والمرشد وإمام القرية.

(١٠): الْهَدَة وتسمى (الْهَدأة) بعد الدال همزة ويطلق الاسم على موضعين أحدهما يقع شمال مكة وهو واد طويل ذو قرى وقد يدعى (هدة الشام) لوقوعه شمال مكة وفي هذا الوادي حدثت قصة الرجيع حيث غدرت قبيلتا عضل والقارة من كنانة بأصحاب رسول الله ﷺ، والخبر في

كتب السيرة وفي «صحيح البخاري» أما الهدة الثانية فتُعرف بـ (هدة زليفة) نسبة لفرع من هذيل وتقع في سراة الطائف على نحو ثمانية عشر كيلاً غرب مدينة الطائف، وقد ازدهر عمرانها لوقوعها بمنطقة اصطياف.

(١١): سانحة « في مدرسة ينبع قبل نصف قرن » .

(١٢): الذلول هي الراحلة المذللة للركوب، والرحل هنا قصد به ما يُعرف عند أهل نجد باسم (الشّدَاد) ولعله سمي بذالك لكونه يشد أي يربط ويوثق على ظهر الدابة، والرَّحل لغة هو مركب البعير، وهو أصغر من القتب وهو ما يعرف الآن باسم الشّداد، وهو الكُوْر، ومن أنواع الرحال : المَسَامة : وهي رحل واسع يشد عادة على ظهر المطية المعدة للحمل، ولعل الاسم مأخوذ من الخشبة العريضة التي تجعل في أسفل قاعدتي الباب، كما في كتب اللغة ، ومن الرحال أيضاً القتب وهو مركب صغير على قدر السنام، كما أن الاسم يطلق على أداة السانية التي توضع على ظهرها، ومن الرحال أيضاً الحداجة وهي قتب صغير يلحق به حواء محشو وبَراً أو شعراً أو تبناً يركب فوقه.

(١٣): نوع من الرحال يستعمل في الغالب للحمل لا للركوب .

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
إمارة الرياض

الرقم ....
التاريخ ٢٦/١٢/١٣٧٢ هـ
المرفقات ....

حضرة المكرم الأستاذ حمد الجاسر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فقد أخذت تحريركم ومعه العدد الاول من صحيفة (اليمامة) فشكرا لاهتمامكم .

اما مجهودكم في اصدار هذه الصحيفة فليس من نضرة طاهرة البيان وانتم معروفون باتقان العمل وتجويده ، وكان من بهاء الصحيفة وقد ملأت شهرتها الاصقاع وأدت رسالتها على احسن وجه بفضل اقداركم الجديد ، وما يسطر فيها من آراء ومعلومات مفيدة ، وتوجيه حسن .

وانه ليوفق الله هم بالرجال العاملين لسعد البلاد فعلى بركة الله وفق الله الجميع والسلام عليكم

خطاب صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز آمير منطقة الرياض ، بعد تسلمه للعدد الأول من صحيفة (اليمامة).

من (ضيافة التكريم) إلى (ضيافة التأديب)

يُعَدُّ أميرُ القرية - في نجد - إلى عهد قريب كشيخ القبيلة في العصور القديمة، فهو الذي يتولَّى الإشرافَ على جميع شؤون أهل قريته العامة، من حيث صلاتهم بالولاة والحكام، ومن حيث تعاونهم فيما قد ينوبهم، أو يحتاجون إليه من أمورهم، ولهذا فله منزلة سامية في نفوسهم، ينقادون له، ويخضعون لأوامره، وينصاعون لتوجيهاته، إِذْ هُوَ منهم، ولا يسعى إِلاَّ في مصالحهم، وفي رعاية جميع شؤونهم، وهم في الغالب الذين يختارونه لهذا المنصب، لتميزه في جانب من جوانب حياته الاجتماعية، التي بها أصبح أهلاً لهذا الاختيار، والقرية التي عشت فيها - البرود - تولَّى إِمْرَتَها في خلال فترة تقارب ثلاثة قرون أَفْرَادٌ من أسرة (آل ناهض) بالتعاقب، ومنهم الأمير إبراهيم بن محمد[1]، الذي تربطني به عَدَا صلةِ النسب قرابة المصاهرة، فهو زوج أختي، وأنا خال لأصغر أبنائه، والحياة في القرية تجري على حالة من البساطة واليسر، وعلى أسس من المحبة والتعاون، والتساوي في الحقوق والواجبات، فلا تمييز فيها بين أمير أو غيره، إِلاَّ ما يتصف به من أخلاق فاضلة، بها امتاز حتى كان أهلاً للتقديم على غيره، ومن تلك الأخلاق عدم ترفعه، وسيره معهم كواحد منهم، في جميع أحواله، وهم لذالك يعاملونه بالإِجلال والتقدير.

ومجتمعات أهل القرية تتلاءم في البساطة مع حياتهم، فلا تمييز لأحد على غيره ولا تفاضل، حتى فيما يجري بينهم من أحاديث تتناول بعض شؤونهم أو غيرها.

وقد حدث في منتصف عام ١٣٥٨هـ [١٩٣٩م] بين الأمير وبين أحد أهل قريته لِجاجٌ إثْرَ كلام مما يجري مثله دائمًا في مجتمعات أهل القرية، حيث اعتادوا دائمًا الاجتماع مع أميرهم في مجالسهم العامة، وتداول الأحاديث بينهم، في بعض أمورهم وأحوالهم وفي غيرها كما جرت عادتهم بذالك، وهم ـ عادة ـ أثناء تداول تلك الأحاديث ينطلقون فيها على سجيتهم وفطرتهم، فينظرون إلى أميرهم نظرتهم إلى أحدهم دون تمييز، وبينما كان الأمير يتحدث كعادته قاطعه أحدهم مستدركًا عليه، وما كان الموضوع بذي أهمية تستدعي مقاطعة، فما كان من الأمير إلاَّ أن رَدَّ عليه قائلاً : (اسكت ياثور)، وكثيرًا ما يحدث مثل هذا في مجالس أهل القرية فلا يكون له أي أثر، غير أن الرجل لم يكن لديه من الرويّة عند سماع هذه الكلمة والاتزان ما يحمله على التأدب مع أميره، بل انفعل قائلاً : (الثور أنت) فاستشاط الأمير غضبًا، ورفع يده ليضربه، وأمير القرية غالبًا ما يستعمل أنواعًا من التأديب قد تصل إلى الضرب أحيانًا، ويقابل بالانصياع لفعله، وبعدم التأثر، ولكن الرجل هذه المرة أمسك بيد الأمير، فتلازما حتى فَرَّق بينهما الحاضرون.

وكانت إمارة القرية مرتبطة بأمير عام، هو أمير بلدة الدوادمي، ويدعى في ذالك العهد (سُعَيِّدٌ الفيصل) من موالي آل سعود، فما كان من الأمير ـ وقد أحس أن الرجل جرح كبرياءه ـ إلاَّ أن أبلغ ذالك الأمير، بما حدث من استهانة الرجل بمقامه، فلم يشعر ـ بعد يومين من الحادث ـ إلاَّ وقد أتى إليه رجلان من خدم أمير الدوادمي، فأخذاه، وذهبا به إلى ذالك الأمير، وكان لبعض الأمراء في ذالك العهد من السلطة والنفوذ الحق في تقرير ما يرونه رادعًا عن ارتكاب ما هو محظور

من الأمور، وما كان كل من يخول حق هذه الصلاحية على درجة من إدراك الغاية منها، التي هي رعاية المصالح العامة، ودرء المفاسد، فقد تستغل ـ في بعض الحالات ـ لا لإصلاح الأمور من حيث الحيلولة دون ارتكاب المخالفات والجرائم، بل لأغراض أخرى، وقد يشتط في تطبيقها، فتجاوز الحد، وتحدث ضرراً أشد مما قصد منه حدوثه.

لقد كان مما قرر الأمير على ذالك الرجل من العقوبة (نكالاً) إحضار (عِدْلَيْن) من جيد القمح، المعروف باسم (اللُّقَيْمِي)[٢]، فحاول الرجل أن يوضح له أن ما ارتكب من عمل لا يستلزم هذا (النكال) الذي لا يستطيع القيام به، فكل ما جرى كلمة بكلمة، وانتهى الأمر عند هذا الحد بينه وبين أميره، دون أن يكون لذالك من البواعث والأسباب ما يستدعى الاهتمام به بهذه الدرجة التي تكلفه ما لا يطيق، والأمير نفسه لا يرضى لأحد من أبناء قريته أن يبلغ به العقاب إلى أن يغرم بدفع ما لا يقدر على دفعه، فما كان من الأمير سُعَيّدُ بعد أن رأى امتناع الرجل عن القيام بأداء ما طلب منه إلاَّ أن أمر بوضع القيد في رجليه وتكبيل يديه، وبعثه مخفوراً إلى الرياض، حيث أودع سجن (المُصْمَك)[٣].

خرجت في صبيحة اليوم الحادي عشر من رمضان سنة ١٣٥٨هـ [١٩٣٩م]، وهو اليوم الثالث لقدومي إلى مدينة الرياض، وبينما أنا أسير في سوقها العام بين جامعها الكبير وبين القصر، إذا بأحد أهل القرية، ويدعى علي بن عبد الله بن فُلَيِّحٍ، يقابلني، وبعد التعارف قال لي : إن سعد بن عبد المحسن بن تركي مريض، وهو في (المصمك)، وأوضح لي جانباً من خبره مع أميره، وكان لي بسعد هذا غير صلة

النسب صلة مصاهرة، فأخته زوجة أخي، وهو خال أولاده، وكان ابن فُلَيِّحٍ هذا قد زاره في السجن، وعرف مكانه، ولما استوضحت منه هل في إمكاني زيارته، أجاب بأنه يعرف البواب وقد لا يمانع في الزيارة، وقبيل الظهر من ذالك اليوم كان الذهاب إلى قصر (المصمك) ولمعرفة البواب، وهو من أهل أُشَيْقر[٤] سمح لنا بالدخول، فوجدت الرجل طريح الفراش من المرض، وأوضح لي ما حدث ، فما كان مني بعد أن خرجت إلاَّ أن كتبت كتابًا إلى الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أوضحت فيه ما علمته من أمر حبسه، وما كان من تصرف أمير الدوادمي، ورجوت أن يُسْمَحَ بمعالجة الرجل حتى يُشْفَى ثم يحال مع خصمه إلى الشرع، ومتى ثبتت عليه جناية يعاقب بما يستحقه، ثم قدمت الكتاب لإبراهيم ابن جُمَيعة في اليوم نفسه.

وفي اليوم الثاني عشر من شهر رمضان مررت بإبراهيم بن جميعة[٥]، وكان عادة يجلس أمام باب القصر، فلما سألته عما تم في الكتاب الذي قدمته له تَبَسَّم وقال : اذهب إلى إبراهيم بن عيدان[٦] في الديوان يخبرك.

وإبراهيم هذا يتولى رئاسة إحدى شعب الديوان، فأتيت إليه في مكتبه، حوالي الساعة الخامسة صباحًا ـ بالتوقيت الغروبي ـ بعد خروجه من عرض أوراقه على الملك، وبعد انتهائه من توجيه ما تلقى من أوامر مما عرض إلى جهاتها، سألته عما تم بشأن الرجل المحبوس، وأوضحت له أنني صاحب الكتاب الذي طلب من الملك السماح بمعالجته، ثم بإحالته إلى الشرع فقال لي: (أنت حمد الجاسر؟!ـ وأردف: أنت إنسان شرِّير، تدافع عن إنسان شِرِّيْر!! وقد أمر جلالة

مولاي بحبسك معه ! ! تعال يا فلان كلم لي ابن عطيشان) .

وابن عطيشان إذ ذاك هو محمد ، مدير شرطة الرياض ، أخ لتركي الذي كان أميراً في (رأس تنورة) ثم في (البُرَيْمِي) عاد الرجل ليقول : (ابن عطيشان راح للدايرة)[٧] فدعا إنسانًا آخر ، متقلداً مسدَّسًا ، ويحمل سيفاً فقال له : (امسك الرجل هذا ، وسلمه لمدير الشرطة ، وقل : هذا الذي أمر الملك بحبسه) ، خرجت من القصر فاخترقت الصفاة حيث مجتمع الناس ، والرجل ممسك بي ، فقلت له : دَعْني وسأسير معك ! فأجاب : (إن لم تسكت وضعت حمايل السيف في رقبتك وجررتك) .

كان مقر الشرطة قريبًا من الصفاة في أول شارع الثُّمَيري ، مقابلاً لقصر الأمير محمد بن عبد الرحمن ، يفصل الشارع بينهما ، في بناية صغيرة ، منها نافذة تطل على الباب ، فشاهد الرجل مدير الشرطة في النافذة ، فناداه : (هذا ابن جاسر الذي أمروا الشيوخ بحبسه ، أرسلني به ابن عيدان) فأجابه : (ابن جاسر حبسناه من الصبح) فقال : (يقول لك إبراهيم هذا المطلوب اطلقوا الذي حبستم) فقال : سلمه (للنوبتجي)[٨] يقصد البواب ، وكان شرطيًا واقفًا بالباب ففتح حجرة في مدخل تلك البناية ضيقة ، قد علق في وتد من أوتادها أربع بنادق ، وأرضها غير مفروشة ولا مبلطة ، دخلت فيها فأغلق علي الباب ، ولما حان وقت صلاة الظهر دققته فقال لي الشرطي ـ ويبدو أنه من أبناء البادية : (وِشْ تَبَا)[٩] فأجبته : أريد أن أقضي حاجة ، فأجابني : (بُلْ مكانك لعلَّكَ تبول دَمٌ) وبعد وقت ناديته ليفتح لأتوضأ لصلاة الظهر فقال : (اطْبُل الْعَفُوْر)[١٠] أي تَيَمَّم ، فكان ذالك .

وهنا أمر لا بُدَّ من إيضاحه لمعرفة حقيقة ما جرى: يتكون (الديوان الملكي) من عدد من الشُّعَب، وحين يحضر الملك في الصباح، يكون رئيس كل شعبة قد أعد ما قُدِّمَ له من الأوراق الموجهة للملك لعرضها عليه، وليس من المستطاع قراءتها كلها، ولهذا فكان لا بُدَّ من عرضها ملخَّصَةً بأخصر ما تعبر عنه من كلمات، وعلى أساس هذا التلخيص تبرز النتيجة، التي هي في الغالب مطابقة لما فهم منه، ولهذا فليس من المستبعد أن يكون ملخص ما عرض على الملك من كتابي بهذه الصورة: (ابن جاسر من أهل البرود، يتوجه للرجل الذي أمر خادمكم سعَيِّد بحبسه لأنه سب أميره)، وأن الجواب كان ما عبر عنه ابن عيدان !!، ومن هنا يتضح ما لعرض الأمور على غير حقيقتها من أضرار، وَمِنْ ثَمَّ يتضح أن تَبِعَة ما يحدث، نتيجة لذالك العرض من أخطاء تقع على من يتولى التلخيص، أو العرض شفويًا بصورة ناقصة، وكما قيل: (يفعلها الصغار، ويُلْحَقُ عارُها بالكبار) !!.

انصرفت الشمس إلى المغرب، وبين باب الحجرة وبين سقفها فضاء واسع تدخل منه الشمس فتملأ الغرفة، وأنا صائم إِذْ اليوم هو الثاني عشر من رمضان إِلاَّ أَنَّ الوقت معتدل لا قَرَّ ولا حَرَّ، ولكن لا مناص ـ بأيَّة حال من الأحوال ـ من تحمل حرارتها والصبر على ذالك.

وقبيل الغروب حرك الباب للفتح فإذا بشرطيين أمسك كل واحد منهما بِإِحْدَى يديَّ، وذهبا بي إلى (المُصْمَك) وسلَماني للبواب الذي كان أول ما عمل معي أن أخذ كل ما في جيوب معطفي وثوبي، من أوراق وقلم ونقود، وخلع الساعة من يدي وقال: بأنه مأمور بهذا، وسيعيد كل ذالك إذا خرجت، ولكنه لم يفعل !!، أوصلني شرطيٌّ إلى

المكان الذي وجدت فيه صاحبي لا يستطيع حراكًا من المرض، ومعه في الحجرة أربعة عرفت فيما بعد أن أحدهم من أهل (جازان) وأنه قتل ثلاثة رجال، فاعترف فحكم عليه بالقصاص، وأن الثاني من أهل (حَوْطَة بني تميم) سرق ألفاً وثمان مئة ريال فرنسي، وقد حكم عليه بقطع اليد، أما الثالث فهو رجل مختل العقل، لا يترك فوق جسمه شيئًا من اللباس إلاَّ مزقه، فخيط فوق جسمه من قطع الخيش ما يستر عورته، وقد حدث منه ما سبب معاقبته بالضرب المُبَرِّحِ مراراً حتى فقد عقله.

هذه الحجرة تتصل بها حجرة أُخْرَى قد سقط جزء من سقفها فصارت غير صالحة للسكنى، فاتخذ منها هاؤلاء مكانًا لقضاء حاجتهم، وفي كل أسبوع يُزَال ما فيها من الأذى.

وكان الطعام يأتي من (مَضِيف ثُلَيْم)* فيحضر قبل المغرب طعام العشاء ـ ومنه الإفطار، صحن كبير، من الرز وحده، وقبل الفجر للسحور مثل ذالك، وكان أحد المحسنين قد أرسل بكمية من التمر، صدقة فوزعت على المساجين، فتناولت من نصيبي منها تمرات اكتفيت بها في الإفطار، وأبقيت منها للسحور، ولم أستسغ تناولَ شيء من الطعام غيرها.

وفي منتصف النهار بين صلاتي العصر والظهر أُخْرِجت أنا ومن معي إلى فناء قصر المصمك (الحوش) وفي مقدمته في الجانب الجنوبي منه مكان مُسَقَّفٌ، أدَّيْنَا فيه صلاتي الظهر والعصر جمعًا، بعد أن توضأنا من ماء بئر تقع في الجانب الشمالي من الحوش، ويستخرج منها الماء لملء جابية صغيرة بجوارها، يستعمل وضُوءًا وشُربًا.

كنت حين ذهبت إلى القصر قد لبست أحسن ثيابي ـ عباءة سوداء،

* مضافة أخرى تقع شمال شارع البطحاء، وأكثر ضيوفها من رجال البادية. (ش).

ومعطفًا فوق ثوب وحذاء جَدِيْدَيْن ـ فدخلت هذا المكان في هذا اللباس، وبعد الانصراف من الصلاة، والاتجاه بحراسة الشرطي إلى الحجرة مع أصحابي، ما شعرت إلاَّ بالشرطي يقول لي: ارفع رأسك، فإذا برجل يطلُّ من غرفة في الدور الأعلى ويرمي بلفافةٍ، فبادر الشرطيُ بأخذها أولاً ودخل بها معنا في الحجرة، فلما أزال الورق الذي لُفَّتْ به وهو ورق جرايد سليمة، إذا بداخلها تمر وخبز فترك لي الشرطيُّ هذا، ولكنه أخذ الجرائد قائلاً: (هذا ممنوع) وأبقيت قليلاً من الخبز للسحور، واستمر الرجل معي كل يوم بهذه الطريقة[11].

ما كنت بالحالة التي تمكنني من تصور وضع (المصمك) في ذالك العهد، سوى ما بدا لي مما كنت أشاهده كل يوم، حين أخرج للصلاة، وكل ما عرفت عنه أن في مدخله مسجداً صغيراً فوقه برج واسع، وفوق هذا البرج غرفٌ اتخذت سِجْنًا لأناس كان منهم صاحبي الذي صار يتعهدني بإحسانه مدة وجودي في السجن، وما كنت أعتقد بأنه يعرفني، فقد يكون توسم من مظهري المختلف عن أصحابي ما كان مبعثًا لعطفه وإحسانه إليَّ، وفي داخل القصر حُجَرٌ في جوانبه الغربية معدة للسجن، وفي الجهة الشمالية تقع البئر، ويليها أحد الأبراج، وفي باب صغير ينزل منه درج يفضي إلى قَبْوٍ واسع، كان مُعَدًّا لسجن ذوي الجرائم العظيمة، ويعرف باسم (دَبَّاب* العنقري)[12]، ويقع ذالك الباب يمين المكان المسقف المْعدِّ للصلاة، في الجانب الجنوبي من الحوش، ويبدو أنَّ القبو تحت البرج الذي في مدخل القصر وما حوله، ويُهَوِّلُ الشرطيُّ المكلفُ بحراسة المساجين ما في داخل القبو، ولعله

* القبو باللهجة المحلية. (ش).

يفعل ذالك للتخويف فيصف (الخشبة)[١٣] التي تُصَفَّدُ بها أرجل المساجين، حين يلقون على ظهورهم على الأرض، مغلولة أيديهم، بحيث لا يستطيعون القيام، وأن من دخل هذا القبو ميؤوس منه، ولعل الشرطيَّ يبالغ فيما يقول للتخويف.

وعلى ذكر هذا فلا أزال أذكر أنه قد وضع في (كُوَّة) أمام المصلين رَأسُ إنسان ذي لحية مصبوغة بالحناء، قيل لنا : إنه يُدْعى (الْجلْدَ)[١٤] وقد حاول تسور جدار المصمك ليهرب، فسقط إلى الأرض فَوُجِدَ به رمق فقتل، وقطع رأسه، ووضع في هذا المكان لتخويف المساجين.

وفي ضحى اليوم الثالث دعاني الشرطي وقال: هات البشارة، فوعدته حين آخذ نقودي من البواب، وذهبت معه إلى مدخل القصر، فإذا بوابه وبجواره محمد بن منديل ـ لم أكن أعرفه في ذالك الوقت ـ وهو من موظفي الديوان الملكي، وكان عبد الوهاب الدَّوِيْش[١٥] قد بعث معي بندقية لهذا الرجل، فجرى لي ما جرى قبل دفعها إليه، فسألني عنها، فأخبرته بأنها في الضيافة، فطلب مني ورقة لمدير الضيافة، فكتبها هو ووقعتها، ولما هَمَّ بالانصراف أبديت الرغبة في أن أبعث معه كتابًا للملك لتوضيح حالتي، ولكنه قال : أَرْسِله مع غيري. وانصرف.

أمضيتها أَحَدَ عشر يومًا في تلك الحالة السيئة، من اليوم الثاني عشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٨هـ، إلى اليوم الحادي والعشرين منه، حيث أذن الله لي بالخروج فقد علم بما حدث لي الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف[١٦] ـ أسبل الله على قبره شآبيب العفو والغفران ـ فما كان منه إلا أن قابل الملك، وعلمت منه فيما بعد أنه أقسم له بأنه لم يكن يعرف أَنَّ مَنْ أمر بحبسه هو القاضي الذي سبق أن

حكم بمئة من الإبل[١٧]، وإنما ظنه (فَزَّاع من أهل البرود لإخراج إنسان مجرم من السجن).

لم تطل إقامتي في مدينة الرياض، فقد وصلت إليها في اليوم التاسع من شهر رمضان، وأمضيتها ثلاثة أيام في دار الضيافة، ومن بعدها إلى اليوم الحادي والعشرين في (المصمك)، وفي اليوم الثاني والعشرين من الشهر المذكور أزمعت السفر إلى الأحساء.

أما كيف انتهت قصة صاحبي الذي رافقته تلك الفترة في السجن، فلقد أمضى في مكانه من جرَّاء تلك الكلمة التي لم يُلْقِ لها بالاً ما يقرب من نصف عام من جمادى حتى قَرُبَ عيد الأضحى، فصدر عفو عام عن جميع المسجونين وهو أحدهم: لقد مضى الجميع إلى حكم عدل.

إِلَى دَيَّان يَوْمِ الدِّيْنِ نَمْضِي   وَعِنْدَ اللّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُوْمُ!!

الحواشي:

(١): إبراهيم هذا هو الأمير الخامس من أسرته بعد آبائه محمد بن عبد العزيز بن محمد بن ناهض بن بسام.

(٢): اللُّقيمي، قال في «القاموس وشرحه»: الحنطة اللُّقيمية: هي الكبار السَّرَوِيَّةُ، التي يؤتى بها من السراة، أو نسبة إلى لُقَيْمِ كَزُبَيرَ بلدة بالطائف، موصوفة بجودة البر والشعير. انتهى، ولُقَيم في الطائف وادٍ بمنطقة الْحَوِيَّة معروف، ولكنه ينطق الآن معرفًا (القيم).

(٣): المصمك ـ قد يكون مأخوذًا من كلمة القصر المُسَمَّك بتشديد الميم، أي العالي، والسين تبدلت صادًا.

(٤): أشيقر البلدة المعروفة في منطقة الوشم.

(٥): إبراهيم بن جميعة كان رئيس شؤون البادية في عهد الملك عبد العزيز.

(٦): إبراهيم بن عيدان كان رئيس شعبة البادية في الديوان الملكي هو إبراهيم بن عبد الله بن عيدان توفي سنة ١٣٨٨هـ ـ انظر «علماء نجد» ج٢ ص٥١.

(٧) : أي ذاهب إلى دائرة الشرطة مقر عمله.

(٨) : (النوبتجي) كلمة تركية معناها (البواب) من كلمة (نوبة) وهي عربية و (جي) تؤدي معنى صاحب.

(٩) : (وِشْ تَبَا) أي : (أيُّ شيء تبغي) والكلمة بلهجة عامة أبناء البادية.

(١٠) : (اطبل العفور) : أي اضرب الأرض من (طبل) أي ضرب بيديه، والعفور : التراب.

(١١) : كان هذا الشيخ حسين نائب الحرم أخو عبد الوهاب الذي كان يومًا ما مديرًا للحرم المكي، ومن أسرة تولت هذا المنصب زمنًا، وهو عم الأستاذ أحمد عبد الوهاب رئيس المراسم (التشريفات) في عهد الملك فيصل والملك خالد، وقد أمضى في الحبس بضع سنين ثم أخرج لخلاف بينه وبين فيصل ـ رحمهما الله ـ حين كان نائبًا في الحجاز، وقد عرفته فيما بعد في الطائف، وسألته أكان عرفني حينما كنت في الحبس؟ فقال: لا، ولكن رأيت لباسك يخالف قومك الذين أنت معهم فتذكرت قصة سليمان حينما قال عن الهدهد: (لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيْدًا) وأن ذالك حَبْسه مع غير جنسه في بعض التفاسير.

(١٢) العنقري : هو مشاري العنقري، أمير بلدة ثرمدا، وكان ذا هَوَى مع الفئة المعادية لعبد العزيز في أول أمره، فلما استولى على ثرمداء سنة ١٣٢١هـ. قبض عليه وأدخل هذا السجن حتى مات فيه.

(١٣) : والخشبة من الأدوات التي تستعمل لتعذيب المحبوسين وتعرف قديمًا باسم (المِقْطَرَةُ) خشبة فيها خروق كل خرق على قدر سعة الساق تدخل فيها أرجل المحبوسين، بينما أيديهم مصفدة مربوطة وقد طرحوا على الأرض.

(١٤) : الجلد من أسرة تدعى (الجلود) من أهل ساجر، وهم إثنان أخوان سجنا بعد وقعة السبلة سنة ١٣٤٧هـ، فماتا في الحبس.

(١٥) : سيأتي ذكر الدويش في سانحة بعد هذه.

(١٦) : هو مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ ولد سنة ١٣١١هـ وتوفي سنة ١٣٨٩هـ [١٩٦٩م] وشهرته تغني عن التوسع في ترجمته، وسيرد له ـ رحمه الله ـ ذكر يَدٍ أخرى على صاحب هذه السوانح .

(١٧) : انظر سانحة : (قضية كانت هي القاضية) .

إحدى المقالات السياسية التي نشرتها اليمامة وأثارت ملاحظة الرقابة

في الأحساء قبل نصف قرن من الزمان*

كان الوصول إلى مدينة (الهفوف) في إِقبال المساء من ليلة عيد الفطر سنة ١٣٥٨هـ [١١ / ١١ / ١٩٣٩م]، وعلَى هَدْي الحكمة المأثورة (صَابِحِ الْقَوْمَ ولا تُماسِهِمْ) بل الأثرِ النبويِّ «بُورِكَ لأُمَّتي في بكورها»[١] رأيتُ الْمَبِيْتَ، حيث اعتاد صاحبي وغيره من الْجَمَّالين الإناخَةَ والاستقرار فيه، وهو مكان مرتفع غرب المدينة، على نحو مسافة خمسة أكيال منها يدعى (الرُّقَيِّقَة) تصغير (الرَّقيْقَةَ) ينتشر فيه قليل من الخيام وبيوت الشعر، والأكواخ المعمولة من جريد النخل، وها هو (أبو بَرْجَس) أناخ قعوده بقرب خيمة استقبله صاحبها استقبالَ العارف المسرور به، من طلاقة الوجه، وحسن الترحيب، كما لو كان أحدهما يعرف الآخر، وغاب عنه زمنًا، ولم يَضِنَّ (سعدٌ) ــ وهذا هو اسم صاحب الخيمة ــ من أن يُضْفِيَ على رفيق صاحبه من البشاشة والترحيب نَصِيْبَهُ.

إِلاَّ أَنَّ الأَمرَ الغريبَ أَنَّ صاحبَ القعود بعد (وَشْوَشَةٍ) قصيرة بينه وبين سعد، وبعد أن استوفَى منِّي كُلَّ ما رغب فيه، ودَّعَنِي وداعَ المنصرف، وقاد قعوده إلى حيث لا أدري.

بدأ سَعْدُ يُعِدُّ القهوة، ولكن التعبُ كان قد أَخَذَ منِّي كُلَّ مأْخَذٍ، فسرعان ما تناولت فنجانًا و (قَدَعْتُ) بقليل[٢] من التُّمَيْرَات، ثم تمدَّدْتُ على الأرض في جانب الخيمة، والوقتُ عِشَاءٌ، فلم استفق إلا على (عُوَاءٍ) متواصل، تتجاوب أصداؤه في جهات مختلفة، كلما ارتفع من جانب تردد الصَّدَى في الجوانب الأُخرى، وكان الوقتُ

* المجلة العربية، العدد (١٨٣)، ربيع الآخر ١٤١٣هـ / أيلول وتشرين الأول ١٩٩٢م.

فَجْراً، وقد أوقد سعدٌ النارَ لإصلاح القهوة قبل انبلاج الصباح، وتلك عادة مألوفة عند النجديين، حضراً وسَفراً.

أبديت لسعد الاستغراب من أصوات العواء المترددة، وسألته عنها، فابتسم قائلاً: هذه كل ليلة قبيل طلوع الفجر، وهي عواء (الواويات)، ذكرت الكلمة التي أسمعها من العامة عندما يصفون إنسانًا بالضعف والخسَّة يقولون: (فلان الْوَاوِي)، والواوي هذا هو تحريفٌ لاسْم (ابن آوى)[٣] حيوانٌ صغيرٌ يألف الأرياف لكي يعيش على أكلِ دجاج أَهلِ القرى، أو ما يصطاده من طيور داجنة أو نافرة، وهو من الحيوانات الْحَذِرَة جدًّا كما قال الشاعر:

إنَّ ابْنَ آوىَ لَشَدِيْدُ الْمُقْتَنَصْ وَهْوَ إِذَا مَا صِيْدَ رِيْحٌ فِي قَفَصْ

أي إنه سَيِّءُ الريح قليل النفع، وفي آخر الليل حين يستوحش يكثر عواؤه لكي تجاوبه بنات جنسه.

ويبدو أنَّ الأزهريَّ محمد بن أحمد بن طلحة بن الأزهر الشافعي (٢٨٢ / ٣٧٠هـ)[٤] صاحب كتاب «تهذيب اللغة» الذي أقام في هذه البلاد فترة من الزمن، وكانت كتاباته عنها وعن ما حولها من أوثق ما يُرْجَع إليه ويستفاد منه، قد عُني بذكر هذا الحيوان، فذكر أن صياحه يسمى لُغَةً (الْوَاوَا) وأنه هو يُسَمَّى (الْعِلَّوْض) باللغة الحِمْيَرِيَّة[٥] وقال: إنه لا يصيح إلا إذا جاع، لندَعَ هذا الحيوان المسكين الذي لم يسلم من ابن آدم بحيث استجاز بعضهم أكله مع أنه معدود من فصيلة الكلاب، وأنه ذو أنياب[٦].

سعد هذا (قَعَدِيٌّ)[٧] أي إنه ممن أقام في هذه البلاد مدة وليس من

أهلها، وهو يتخذ من خيمته هذه وسيلة ارتزاق لمن يؤويهم الليل إليه، فلا يجدون مَأوىً سواه، وله من سماحة خلقه ورقة خلاله أكْبَرُ عَوْنٍ لجلب مَنْ يستفيد منهم.

أبديتُ له في الصباح رغبتي في العثور على مسكن أقيم فيه أسبوعا، يكون في وسط البلد، فعرض علي أنه مادامت مدة إقامتي في هذه البلدة لا تطول، فلماذا لا أبقى عنده في الخيمة، ولكنني أظهرت له رغبتي في القرب ببعض أصدقاء لي في داخل المدينة، فقال: (بَعْد فُكُوكِ الرِّيقْ يِنْسَمِحُ الطَّرِيق)(٨) وهكذا كان فقد دعا إنسانًا حمل أمتعتي، وذهبنا الثلاثة مشياً على الأقدام إلى المدينة، وعلى مقربة من مسجد الإمام فيصل، والناس يتفرقون من صلاة العيد، كان يطرق باب بيت ذي حوش واسع، ولما لم يُفْتَحِ البابُ أدخل يده وعالجه حتى انفتح، ودخلنا، ولم يطل بنا الانتظار، إذ دخل علينا شاب في الخامسة والعشرين من عمره، فاستقبل سعداً مُهَنِّئًا بالعيد، ودعانا كلنا للدخول في غرفة القهوة، وقال بأن أباه لم يَعُدْ بعد من المسجد، عاد الأبُ وعرفَ الغايةَ التي حضرنا لها، فسأل عن المدة التي سأقضيها في المسكن، فأخبرته بأنها لا تقل عن أسبوع، ولهذا يحسن أن يكونَ تحديدُ الأجرةِ على أَساس الأُسبوع، فوافق بعد أن حددها بعشرة ريالات.

كانت الحجرة حديثةَ البناء، ذاتَ نوافذٍ على الحوش واسعة، أما الحمام فمشترك، وكذالك مكان الطبخ، لم يكن لديَّ وقت للتفكير، بل أبديت الموافقة، وكنت أبدو بمظهر أَنْفِرُ منه قَبْلَ غيري، من وَعْثَاءِ السفر وعدم إصلاح الشعر، واليوم يوم عيدٍ، فشُغلْتُ بإصلاح مظهري، ولبست أحسن ثيابي، ورأيت إقفال حجرتي حين عزمت على

الخروج، ولكنني وجدتُ البابَ لا ينغلق، فأتيت إلى (أبي عبد الرحمن)، وهذا ما عرفته من اسمه مستغربًا كون الحجرة لا تُغْلق فقال: (لا تخف، لستَ أوَّلَ مَنْ سكن فيها، وأنت ببلاد أمان واطمئنان، ولو تركت نقودك بارزة لما تجرأ أحد عليها أنت في ديرة ابن جَلَوِي).

استوضحت منه عن بيت الأستاذ محمد علي النحاس فأمر ابنه بأن يذهب معي لإرشادي إليه، وكان قريبًا، وحينما قربنا من باب الدار إذا (أبوُ طلال)(٩) خارجًا ولعله مُتَهَيِّىءٌ للزيارة المعتادة في هذا اليوم، ففوجِيءَ برؤية صديق له لم يكن يخطر بباله أن يراه، فأوسعه حسن استقبال، وإظهار سرور، وبعد تناول عصير من الفاكهة، أبديت له رغبتي في أن أرافقه لزيارة من يرغب زيارتهم، أو أن أعود إلى منزلي وآتي وقتًا آخر، ولكنه سُرَّ بأن أذهب معه، فكان أن عَرَّفَنِي بعدد من سَرَاة أهل البلد، من علمائها وتجارها وأساتذة المدرسة، ورغب إليَّ بعد انتهاء تلك الزيارة والمرورِ على الحجرة التي أسكنها، أن يختار لي منزلاً خيرًا مما أنا فيه، ولكنني أبديتُ رغبتي في البقاءِ أسبوعًا في مكاني هذا، وهو قريب من منزل الأستاذ.

ومضت أيام العيد في الزيارات، وفي مشاهدة معالم المدينة من عيون وحدائق، وكانت البلاد إذ ذاك على درجة قوية من غزارة المياه، ذات بساتين وحدائق نَضِرةٍ، تزدان بأنواع كثيرة من أشجار الفواكه المثمرة، ومن أصناف النخيل التي عرفت بها هذه البلاد منذ أقدم العصور.

ويحسن أن ألمح بإيجاز عن تاريخ إنشاء هذه المدينة التي هي قاعدة المنطقة المعروفة قديما باسم البحرين، وهي مدينة (الْهُفُهُوْف) وتدعى أيضاً (الأحساء) ويبدو أن بَدْءَ عمرانها كان بعد استيلاء الدولة

التركية على هذه البلاد، في آخر القرن العاشر الهجري، حين أدرك ولاة الأمور من تلك الدولة أن موقع مدينة الأحساء القديمة، في منخفض الواحة، بين الحدائق والبساتين الملتفة، التي تنتشر خلالها القُرى، وكانت على مقربة من نَهْرِ (الجَوْهَرِيَّةِ) وتجرى المياه لريِّ تلك البساتين بغزارة، فتعقب مستنقعات كثيرة، قد تسبب في انتشار كثير من الأمراض كالْحُمَّى وغيرها، فرأى أولئك اختيار موقع مرتفع عن منخفض الواحة، قريب من مواقع القرى، وهو موقع المدينة التي عرفت باسم (الهُفْهُوفِ) ويقال: إن التسمية هذه مأخوذة من هَفْهَفَةِ الرياح في ذالك الموضع المرتفع[10]، وأنشأت الدولة في هذا المكان قصراً لجندها ولموظفيها دعي (الْكُوْت)[11] وعُمِر داخله مساكن واسعة ومنتشرة لموظفي الدولة وللجند، وهُيّيءَ بجميع المرافق التي لا بد من توفرها في المدينة من مساجد وغيرها.

ويبدو أن إنشاء هذا القصر كان في آخر القرن العاشر حيث وقع تاريخ عمارة أحد المساجد عام ٩٦٣هـ[12].

ومعروف أن المكان الذي تُعْنَى به الدولة، وتتخذ منه مَقرّاً لولاتها وجندها يصبح من الأماكن المرغوبة للاستيطان.

ومن هنا انتشر بقرب الهفوف العمرانُ، فنشأت محلات متفرقة، منها محلة (الرِّفعة) ومحلة (النَعاثِل)، ومحلة (الصالحيَّة)، ومحلة (الرُّقَيِّقَة) التي كانت في الأصل من الأمكنة المألوفة لاستيطان أبناء البادية في بيوت من الشعر والأكواخ، حتى تم عمرانها في العهد الأخير.

من ذالك العهد أصبحت (الهُفْهُوْفُ) هي القاعدة، وقد يتخذ غيرها مكانها في بعض الأحيان في فترات كثيرة، ولكنها عند قيام

الدولة السعوديةَ الكريمة في عهد الملك عبد العزيز كانت هي القاعدة، ومنها استسلمت المنطقة للحكم السعودي الميمون، وبقيت هي القاعدة حتى تم العثور على النفط في منطقة الظهران، على مقربة من ميناء (الدَّمَّام) واتجهت حركة العمران إلى تلك المنطقة، ومن ثَمَّ اتخذت الدمام قاعدة للبلاد منذ عام ١٣٧٠هـ[١٩٥٠م].

كان من أوائل من عرفت عند قدومي هذه المدينة أحد أساتيذ مدرستها الشيخ مشعان بن ناصر العنزي(١٣)، ممن عاش في مدينة الزُّبَير، وتلقى العلم على بعض علمائها، ومن أشهرهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مؤسس (مدرسة النجاة) هناك، والشيخ الشنقيطي من دعاة الإصلاح، ومن مناصري الدعوة الإصلاحية التي قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنشرها.

وقد تأثر الشيخ مشعان بشيخه الشنقيطي في ذالك، واتجه اتجاهاً تامّاً إلى دراسة كتب أئمة السلف كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ومن نحا نحوهما، ثم في العهد الأخير مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومؤلفات أبنائه وأحفاده ومؤازري دعوته من المعاصرين، كالشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار»، ومن محبته لهذا الشيخ الأخير أنه سمى ابنه على اسمه.

وكان الشيخ مشعان ذا صلة ببعض سراة النجديين وأغنيائهم في هذه البلدة، ومن هنا تمكنت بواسطته من معرفة عدد منهم كآل العجاجي، وآل الجميح، وآل القصيبي، وآل المنقور، وابن مهنا وغيرهم، وعرفت ممن عرفت أيضًا بعض طلبة العلم من اؤلئك، وقل أن يمضي يوم لا نُدْعَى إلى بيت أحدهم.

ومن مدرسي تلك المدرسة الذين عرفتهم أول ما قدمت إلى هذه المدينة الشيخ يوسف بن راشد آل مبارك من أسرة آل مبارك التي عرف كثير من أفرادها بالعلم والأدب.

وقد كان الأخ الأستاذ أحمد بن علي آل مبارك بعث معي كتباً لأبيه الشيخ علي وللأستاذ يوسف ولغيرهما للتعريف بي.

ومن هنا وبواسطة الشيخ يوسف حظيت بمعرفة أبرز مشاهير هذه الأسرة، ومنهم بل أعلم من قابلته في هذه المدينة الشيخ عبد العزيز بن حمد آل مبارك، وكان على درجة عظيمة من حسن السمت، ورجحان العقل، وكرم الأخلاق، وعرفت آخرين غيره من هذه الأسرة من ذوي الفضل والعلم والأدب، ومنهم الأستاذ أحمد بن راشد آل مبارك من الأدباء والشعراء البارزين، قرأت له مقطوعات شعرية نشرت في مجلة «الأمالي» التي كان يصدرها الدكتور عمر فروخ في لبنان في عشر الخمسين من القرن الماضي، وبواسطة الشيخ يوسف زرت الشيخ عبد العزيز بن صالح الْعَلَجِيَّ، وكان شِبْهَ مُقْعَدٍ في بيته في تلك الأيام، وهو من أشهر علماء الأحساء[١٤]، وعرفت له ابناً فاضلاً هو الأستاذ محمد، وصِنْواً ـ أي ابن بنت ـ هو عبد الله الرُّوْمِي، ويتسع المجال فيما لو أردت الاسترسال في الحديث عن كل من عرفت تلك الأيام.

وفي إحدى زيارات الأستاذ النحاس لأحد آل جَلَوِي في صباح يوم العيد كانت مفاجأة لي حين وجدت عنده زميلي في الدراسة الأستاذ سعد بن حَجْرَفٍ البواردي[١٥]، فسر كل واحد منا، وخرج حتى أريته المكان الذي أسكنه، فكان خير مؤنس لي في أكثر الأوقات التي لا يمر بي الأستاذ النحاس أو أُدْعى معه من قبل أحد أصدقائه.

ومن أبرز ما لمحته أن الحياة الاجتماعية في المدن يبدو فيها أثر الانعزال، وهذا أمر طبيعي تستلزمه متطلبات الحياة، فكل إنسان قد تشغله شؤون عمله عما يراد منه، من تقوية أواصر الأخوة بالمواصلة، ولكنني لاحظت في هذ المدينة أمراً آخر هو أن كل طائفة من السكان تتكون من وحدة متماسكة، قد لا تجد بينها وبين غيرها من الروابط والتواصل ما يقوّي الصلات كسكان أهل بلدة واحدة، ولن أسترسل في تفصيل هذا الأمر الذي يمكن أن يُعْزَى إلى ما كان سائداً في هذه الجهات من تغاير في المذهب، وفي طبيعة الحياة بين الحاضرة والبادية.

الحواشي:

(١) : رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، وفي الحديث الذي صححه ابن حِبَّان عن صخر بن وداعة الغامدي أن النبي ﷺ قال : «اللهم بارك لأمتي في بكورها» .

(٢) : قَدَعَ من القُدُوع وهو الأكل الخفيف، ولعله سمي بهذا لأنه يَكْسِرُ حِدَّةَ الجوع ومنه الأثر (اقْدعوا هذه الأنفس) أي اكسروا حدتها بحرمانها بعض ما تشتهي.

(٣) : ومع أنه مذكر فإنه يقال في جمعه (بَنَات آوى) .

(٤) : انظر عنه البحث الذي نشر في «المجلة العربية» ومقدمة الجزء الأول من «المعجم الجغرافي» قسم المنطقة الشرقية .

(٥) : انظر « تهذيب اللغة » ـ ج١ ص ٤٧٦ ـ .

(٦) : هناك قول عند الشافعية وعند غيرهم بجواز أكله.

(٧) : (القَعَدِيّ) باللهجة النجدية ولها أصل في الفصحى يقصد به الرجل المقيم في المدينة وليس من أهلها.

(٨) : (فكوك الريق) هو ما يؤكل في الصباح، إذ الريق بعد النوم لا يزال شِبْهَ مستمسك.

(٩) : هو أكبر أبناء الأستاذ محمد علي النحاس، وله غيره ومنهم فهد أحد موظفي جامعة الملك فهد بالظهران .

(١٠) : ولأحد شعراء المنطقة وهو الشيخ علي بن حبيب الخطي من أهل القرن الحادي عشر الهجري :

مَهْلاً مُهَفْهَفَةَ (الهُفهُوْفِ) منْ هَجَرِ ... أَنَغْمَةُ الْعُوْدِ ذي أَمْ رَنَّةُ الْوَتَـرِ

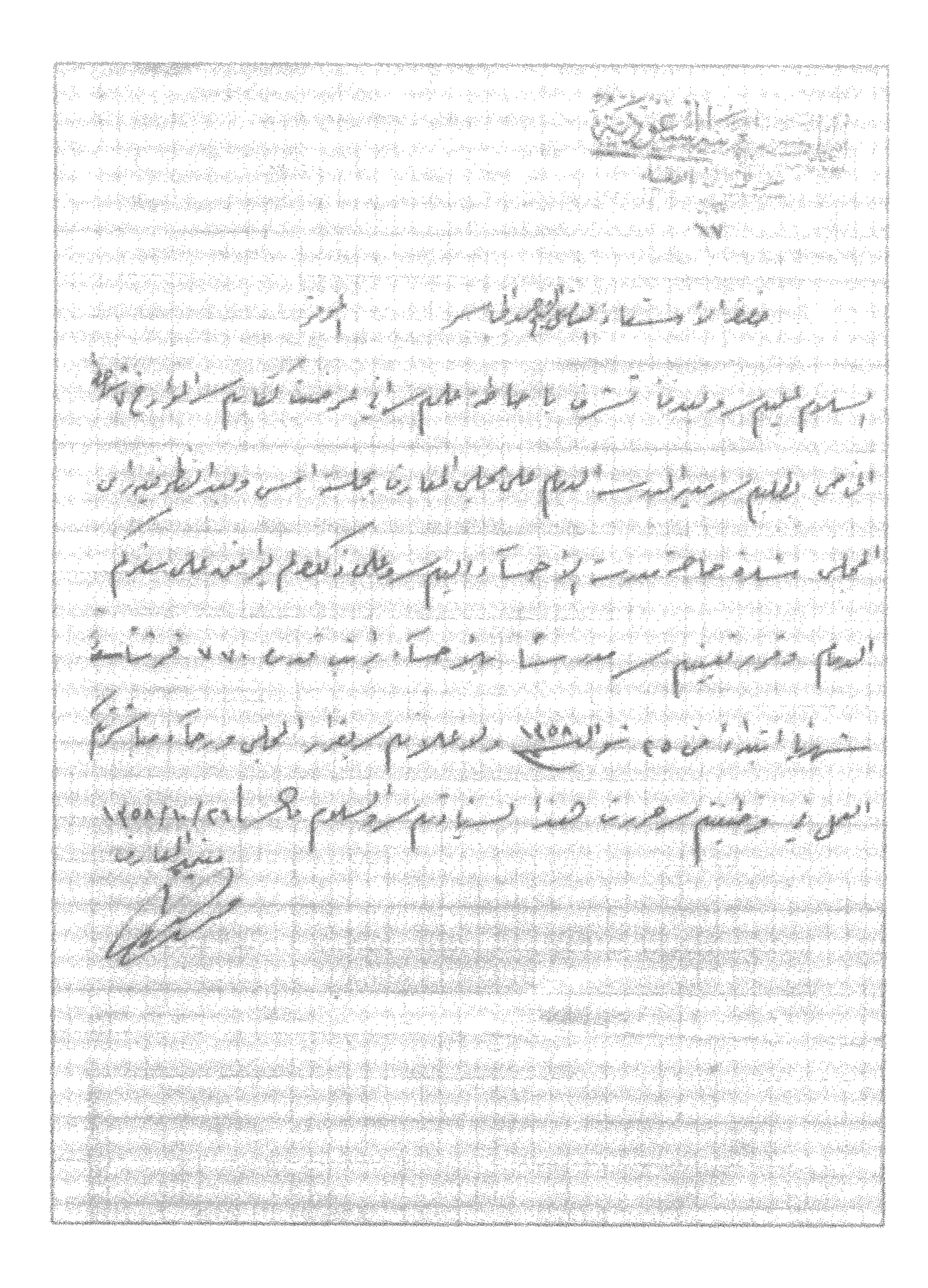
(١١) : انتشرت هذه الكلمة بعد استيلاء البرتغاليين على سواحل الخليج وإنشائهم حصوناً دعوا الواحد منها باسم (كوت) ويقصد به مقر الجند.

(١٢) : هو مسجد الدبس في داخل الكوت، سمي بهذا الاسم لأن قلال التمر كانت تعرض بقربه للبيع، فيسيل دِبْسُها حوله، فعرف الموضع بمسجد الدبس، وقد عمر هذا المسجد في عهد السلطان سليمان القانوني في سنة ٩٦٢هـ، كما هو مسجل في حجر في جدار ذالك المسجد قرأته سنة ١٣٥٨هـ .

(١٣): سأتحدث عنه بتفصيل في موضع آخر.

(١٤): وللشيخ عبد العزيز الرُّشَيْد كلام عنه في «تاريخ الكويت» .

(١٥): حَجْرَف هو لقب واسمه عبد الله بن محمد بن إبراهيم من أسرة البواريد أمراء شقراء المعروفين، وقد درس في المعهد فلم يكمل الدراسة وعاش بكنف آل جَلَوِي في الأحساء حتى توفي في آخر القرن الماضي. وهو عم المهندس خالد بن محمد بن عبد الله وهو حجرف البواردي مدير مياه الرياض الآن.



خطاب من معتمد المعارف بالأحساء للشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ، عام ١٣٥٨هـ

الحالة العلمية في الأحساء*

هذه البلاد مَهْدُ حضارةٍ منذ عصورها القديمة، وأَساس الحضارة العلم، ولما جاء الإسلام كان لأهلها من فضل السبق ما هو معروف، إِذْ شَرُفَ عدد من سكانها من بني عبد الْقَيْسِ ومن غيرهم بصحبة المصطفى ﷺ، وقد كان لأتباعهم من بعدهم في مختلف العصور نصيبهم من المعرفة، مما لا يتسع المجال للإسهاب فيه، وهو جدير بِأَنْ يُفْرَدَ بدراسة واسعة.

وسأقصر الحديثَ على بواكير التعليم في العهود القريبة متوخياً الإيجاز.

لقد حكمت الدولة التركية هذه البلاد قرابة ثلاثة قرون، وليس حُكْمُهَا شَرًّا كله، بل كان لها في ميادين العمران، وإِنشاء المدارس، وتشييد المساجد وبناء الحصون ما هو معروف.

ومن أبرز مظاهر التعليم في العهد التركي الاهتمام بالتعليم الديني، بصفة تكاد أن تنفرد بها هذه المنطقة عن غيرها من أقاليم المملكة الأخرى، لكثرة المدارس الدينية فيها، والمدرسة هذه عبارة عن بناء متقن، يتكون من عدة غرف، تحيط بفناء واسع، غالباً يقوم بالإنفاق على إنشائه أحد الولاة أو الأعيان يُعد له وقفًا تصرف غلته على شؤون إصلاحها، وعلى من يختاره ليتولى التدريس في تلك المدرسة، ومتى تُوُفِّيَ انتقل اختصاصُ هذا الوقف إلى أقارب من أُنشئت المدرسة من أجله، فكأنَّ المقصودَ في أول الأمر ببناء هذه المدرسة منفعةُ هذا العالِم، وتخصيص هذا الوقف ليستفيد منه.

* المجلة العربية، العدد (١٨٤)، جمادى الأولى ١٤١٣هـ / تشرين الأول ـ تشرين الثاني ١٩٩٢م.

ومن المدارس المعروفة في محلة الكوت : ـ والحديث عن هذه المدارس سنة ١٣٥٩هـ [١٩٤٠م] ـ :

١ ـ مدرسة علي باشا ـ أحد ولاة الأتراك ـ أُنْشئت سنة ١٠١٩هـ ويتولى التدريس فيها الشيخ أحمد بن الشيخ عبد اللطيف آل مُلاَّ ، وهم أسرة قديمة ، قدم جدُّهم في القرن العاشر الهجري من (عِيْنتاب) التابعة لحلب ، واَعظاً مع أحد ولاة الأتراك[1] ، ومن أفراد تلك الأسرة الشيخ أبوبكر المُلاَّ ـ الأول ـ له تآليف دينية مطبوع بعضها ، ومنهم الأستاذ عبد الله بن عبد الرحمن المُلاَّ ، تخرج في جامعة (ديوبند) وهي في الهند ودرس في غيرها .

٢ ـ مدرسة مصطفى باشا بن علي باشا ، والمدرس فيها الشيخ عبد الرحمن ابن أحمد بن عثمان .

٣ ـ مدرسة آل عُمَيْر ، وهم من الأسر القديمة المعروفة هناك بالعلم منذ عهد قديم ، ويتولى التدريس فيها الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل عمير .

٤ ـ مدرسة الشيخ أحمد بن شلهوب .

٥ ـ المدرسة العميرية .

٦ ـ مدرسة راشد بن دِهْنِيْنَ العماني ، عمرت سنة ١٢٩٢هـ .

ويدرس في هذه المدراس الثلاث أبوبكر بن عبد الله بن أبي بكر المُلاَّ .

٧ ـ مدرسة آل عبداللطيف - وهي من الأسر العريقة في العلم في بلاد الأحساء ، ويدرس فيها الشيخ محمد بن أحمد بن عبد اللطيف .

٨ ـ مدرسة محمد بن حسن بن خاطر ، عمرت سنة ١٢٧٢هـ ، ويتولى التدريس فيها السادة الهاشميُّون ، وقد انتقلوا من المغرب إلى

الأحساء، كما انتقل السيد الزَّوَاوِي[٢] ـ في زمن مجهول وحازوا فيه ثقة أهله لفضلهم وعلمهم، أَمَّا الآن فينوب عنهم في التدريس في هذه المدرسة الشيخ عبد الله الخطيب.

وفي محلة النَّعاثِل خمس مدارس ـ اثنتان يتولى التدريس فيهما آل مبارك من الأسر القديمة المعروفة بالعلم لدى أهل ذالك الإقليم، وما يجاوره من البلدان، واثنتان يدرس فيهما آل عُمير من الأسر المعروفة أيضاً، وواحدة تابعة لآل نُعَيْمٍ، في محلة (الرفعة) ثلاث مدارس تابعة لآل مبارك[٣].

وفي محلة (الصالحية) مدرسة واحدة تابعة لآل مبارك أيضاً.

أما طريقة التدريس في هذه المدارس فهي طريقة عقيمة غير منتجة، يحضر المدرس ومعه كتاب من كتب الوعظ كمختصر التبصرة «للشيخ أبي بكر المُلاَّ» أو غيره، ويحضر عنده أشخاص قليلون، لا يزيد عددهم في كثير من الأحيان على العشرة، ويقرأ عليهم صفحة من ذالك الكتاب يسردها سرداً لا يستفيد السامع منه شيئًا، لأن المدرس يقصد بعمله هذا النفع المادي بالاستيلاء على وقف تلك المدرسة، والمستمع يقصد مجرد الحضور لمجلس الذكر تبركاً، وكثيراً ما يتولَّى التدريس في تلك المدارس من لا يصلح له.

وعند قيام الدولة السعودية في دورها الأول، كان لعلماء الأحساء الأثر المحمود في نشر التعليم في نجد، فقد حفلت تلك البلاد بعدد من العلماء منهم الشيخ حسين بن أبي بكر بن عبد الله بن غَنَّام، الذي قال عنه تلميذه عبد الله بن المبارك بن بُشَيِّر: هو إمام فاضل، متضلع من علم الفقه، يؤتى بالمسألة الفقهية فيسرد فيها أقوالاً وتعليلات لا يتمكن الإنسان من نقلها، برع في علم اللغة، ونبغ في علم النحو، وملك أَزِمَّة

عِلْمِ الأصول والحديث، وتصَدَّر للإفتاء والتدريس وهو في ثلاث وعشرين سنة بالأحساء، مولده عام اثنتين وخمسين بعد مائة وألف، وله في الإنشاء يَدٌ طُوْلَى، وله القصيدة الطائية التي نقلها الناس[٤].

وأما عبد الوهاب بن غَنَّام فهو أخو الشيخ حسين، ونسبه ظاهر، متضلع من فقه مالك، وأما الحسين بن أبي بكر بن محمد بن راجح، فمتضلع من علم المعاني، مشارك في النحو والفقه، وأما ابن خَضْرُوْه فهو علي بن خَضَرُوَه بن علي بن عثمان. قال ابن المبارك: وهذا النسب محفوظ عنه، وهو أحسائِيٌّ لا يُجَارَى ولا يُبارَى في علم الفقه والنحو، لَيْسَ إلاَّ، وهو في هذا العام قاضي الأحساء[٥]. انتهى.

وعندما ضم [الإمام] سعود بن عبد العزيز الأحساء إلى المملكة نقل عالمَيْنِ جليلين من علماء المذهب المالكي، أحدهما الشيخ حسين بن غنام، أول من تَصَدَّى لتدوين تاريخ قيام الدعوة الإصلاحية السلفية بكتابه المعروف «روضة الأفكار والأفهام».

والعالم الثاني هو: عبد الله بن مبارك بن بُشَيِّر، وصفه جَحَّافٌ، المؤرخ اليمني في كتابه «درر نحور الحور العين» وقد اجتمع به وعرفه فقال: كان هذا المترجم[٦] ممن دخل تحت ولاية سعود عام أخذه للأحساء، فنقله لمعرفته، فإنه كما خبرناه له معرفة تامة بالتوحيد والصرف، وهو مالكي المذهب، عارف به أتم المعرفة، أديب ظريف، لطيف خفيف، شاعر، فيه رقة أهل الحضر وسلاستهم، مع رصانة وتُؤَدَةٍ وحِذْقٍ باهرٍ، جهير الصوت، طويل القامة، بطيء الحركة، كثير الصمت، بعينه نقطة بيضاء من الجدري، له يَدٌ في الأدب طُوْلَى، وقد أخذ عن حسين بن غنام علم الفقه والنحو، وقليلاً في الحديث وعلم البيان وشيئاً من المنطق، وعن

عبد الوهاب بن غنام في «الرسالة» لابن أبي زيد، في فقه مالك، وفي «شرح الألفية» لابن هشام في النحو عن الحسين بن راجح، وفي «تلخيص المفتاح»، وفي «عقود الجمان في المعاني والبيان»، وأخذ عن عثمان بن خَضْروه في التصريح لخالد بن أبي بكر الأزهري. انتهى.

وقد أوفده سعود إلى صنعاء لبيان العقيدة الإصلاحية[7]، و له مع بعض علماء اليمن وشعرائه مطارحات، ومناظرات، حتى أنه تَصَدَّى إذْ ذالك للرد على كبير العلماء الشيخ محمد بن علي الشوكاني في إحدى القضايا، فألَّف رسالة يعارض فيها رأيه، تدل على سعة علمه، ورحابة أفقه[8].

وفي عهد الدولة السعودية حين انضمت البلاد إلى حكم الملك عبدالعزيز، كان من المدارس المعروفة (المدرسة الرّشديَّة) التي أنشأتها الدولة التركية في آخر القرن الهجري الماضي، واختارت لها مكاناً متوسطاً من محلة (الكوت)، وعُمِرت على طراز صحي حسن، منعزلة من جميع جهاتها عن البنيان، ويحيط بها فناء واسع أعد قسم منه للحركات الرياضية، وكان التعليم في هذه المدرسة ضعيفاً، ويكاد يتركز اهتمامه على مباديء القراءة والكتابة، والعناية باللغة التركية، ومع ذالك استطاعت أن تؤهل بعض من درس فيها للقيام ببعض الأعمال الحكومية في هذه المنطقة، وممن تعلم فيها الصحفي العراقي الفكه نوري ثابت، صاحب جريدة (حَبْزَ بُوزْ) الذي توفي في عشر الستين من القرن الماضي، وقد ماتت هذه المدرسة بجلاء الأتراك عن هذه البلاد سنة ١٣٣١هـ، واتخذ مَحَلَّها دارًا أَحَدُ أبناءِ الأُسرة الحاكمة.

وكان من أوائل من اهتم بشؤون التعليم الشيخ عبد الرحمن بن

حسن القُصَيْبي، فقد كان أول من أنشأ مدرسة خاصة على نفقته، وقد قام بطبع كثير من الكتب العلمية[٩] النافعة، وبذل مساعدات جَمَّة للمدرسة التي أنشأتها الحكومة، وأمر بأن يكون تلاميذ مدرسته نواة لطلابها.

أما أول مدرسة أُنْشِئَت، ففي سنة **١٣٥٢**هـ، إلاَّ أن سيرها تعثَّر، وسبب ذالك أن (مديرية المعارف العامة) عينت لإدارتها الشيخ راغباً القبَّانِيَّ الدمشقيَّ، أحد حاملي شهادة العالِمية من الأزهر، وكان من أوائل المدرسين الذين أتوا إلى هذه البلاد للاشتغال في التعليم، وكان على جانب من الفضل وحسن العقيدة، فقد كانت له صلة بالشيخ محمد بهجت البيطار ـ رحمه الله ـ ويبدو أَنَّه هو الذي سَعَى في إحضاره في أول عهد إنشاء المعارف، حين كان يتولاها الشيخ محمد كامل القصاب[١٠].

لقد عُيِّن الشيخ راغب مديراً لمدرسة الوجه، ولكنه نقل منها بسبب هفوة لسان نُسِبَتْ إليه وهو يلقي وَعْظاً على العامة يتعلق بالصفات[١١]، ثم نقل بعد ذالك ليقوم بفتح مدرسة في الأحساء لأول مرة تفتتح فيها (مديرية المعارف) مدرسة، ومعه أستاذ يدعى محمود شعلان، فما كان من الشيخ إلاَّ أن قصد أشهر مسجد في المدينة، وهو الجامع الكبير الذي بناه الإمام فيصل في يوم جمعة، وبعد أداء الصلاة وقف خطيباً لِيَحُثَّ الناس ويرغبهم في إدخال أبنائهم في المدرسة التي أمرت الحكومة بفتحها، وبعد أن بيَّن فضائل العلم ومنافعه، شرع يتكلم عن الجهل ومضارِّه، فوصفه بأنه (ضرب أَطنابه في هذه البلاد) وكان لهذه الجملة تَأْثِيرُها السَّيِّء في نفوس العلماء الدينيين، وَعَدُّوْهَا إهانَةً موجهة لهم، مع ما تشبَّعوا به من فكرة سيئة عن المدارس الحديثة، من الجهة

الأخلاقية، ولذالك سَعَوْا في التنفير عنها، حتى أُغْلِقَت بعد بضعة شهور من فتحها، وعاد الشيخ راغب بعد ذالك إلى بلاده وتوفي في بيروت سنة ١٣٧٣هـ.

وتحسن الإشارة إلى أن نظرة علماء الدين إلى المدارس الحديثة ليست خاصة بهم، بل تكاد تكون عامة لدى العلماء وغيرهم، قبل إدراكهم ما كانت تسير عليه تلك المدارس في مناهجها من حسن التوجيه وتيسير تلقي مباديء العلوم.

وأذكر أنني حينما أُسند إليَّ القيام بعمل (معتمد المعارف في نجد) كان أحد وجهاء مدينة الرياض قد أنشأ مدرسة خاصة لبناته، وأحضر لها مدرسات من فلسطين، فرغب إليَّ أن أضع نهج الدراسة لهاؤلاء المدرسات، وأن أختار المواد التي ينبغي تدريسها في هذه المدرسة، فقمت بذالك حسب استطاعتي، فكان قَلَّ أَنْ يمضي يوم لا يدعوني فيه ليحدثني عن أمر من أمور هذه المدرسة، وَحَدَثَ أَنْ قُمْتُ برحلة إلى (حَوْطَة بني تميم) ثم إلى (الأَفْلاَجِ) لفتح مدارس، أمر بها سعود ــ رحمه الله ــ وكان إذْ ذاك وَلّيًا للعهد سنة ١٣٦٩هـ[١٩٥٠م]، فغبت أحد عشر يوماً، ولما عدتُ دعاني كالعادة، وسألني عن سبب غيابي، فأخبرته فقال: ليس في هذه المدارس التي تفتحونها سوى الجهل، من أراد العلم فليحضر إلى مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم، فرفعت رأسي إلى (مُكَيِّفِ الهواء) وإلى (ثُرَيَّات الكهرباء) التي في مجلسه وقلت: إنكم حينما تحتاجون إلى إصلاح خلل قد يحدث في هذه الأشياء تتصلون بشركة (أرامكو) ولا تطلبون من الشيخ محمد أن يبعث لكم أحد تلاميذه.

وقد سبقت الإشارة إلى أن سبب تأخر انتشار التعليم في بلاد نجد هو نظرة بعض العلماء إلى المدارس الحديثة[١٢]، ولما اتضح لهم الأمر كانوا من أوائل من ألحق أبناءهم بها في داخل البلاد وخارجها.

الحواشي:

(١) : ومن هنا عرف جد الأسرة بـ(المُلاّ) وهذه الكلمة تقابل كلمة (المطوَّع) عند أهل نجد، أي الواعظ وإمام المسجد وخطيبه.

(٢) : أسرة الزواوي منسوبة إلى بلدة (زواوة) من بلاد المغرب، ومن مشاهيرها عالم كان بالأحساء عند استيلاء الدولة السعودية على هذه البلاد في أول عهدها، فذهب إلى عُمَان، وله ذكر كثير في المؤلفات العُمانية.

(٣) : انظر عن هذه الأسرة مجلة «العرب» س٨، ص ٦٦٧.

(٤) : يقصد قصيدة الشيخ حسين بن غنام التي مطلعها :

عَلَىَ وَجْهِهَا الموسوم بِالشُّؤمِ قَدْ خُطَّا　　　عَرُوس هَوى مَمْقُوتَةٌ زارَتِ الشَّطَّا

في ست وسبعين بيتاً، ذكر فيها استيلاء الإمام سعود على الأحساء، وقد رد بهذه القصيدة على ابن فَيْرُوز، حين أرسل مستنجداً بسليمان باشا والي بغداد محرضاً له على حرب السعوديين بقصيدة مطلعها :

أَنَامِلُ كَفٍّ السَّعْدِ قَدْ أَثْبَتَتْ خَطَّا　　　بِأَقْلامِ أَحْكَامِ حررت لنا ضَبْطَا

(٥) : يقصد سنة ١٢٢٢هـ.

(٦) : عن ابن بُشَيِّر هذا انظر مجلة «العرب» س٢٢ ص ٢٠١/٣٦٩/٤٩٢.

(٧) : عن هذا الوفد انظر مجلة «العرب» س٢٢ ص ٤٣٣ بعنوان : (الصلات بين الدرعية وصنعاء).

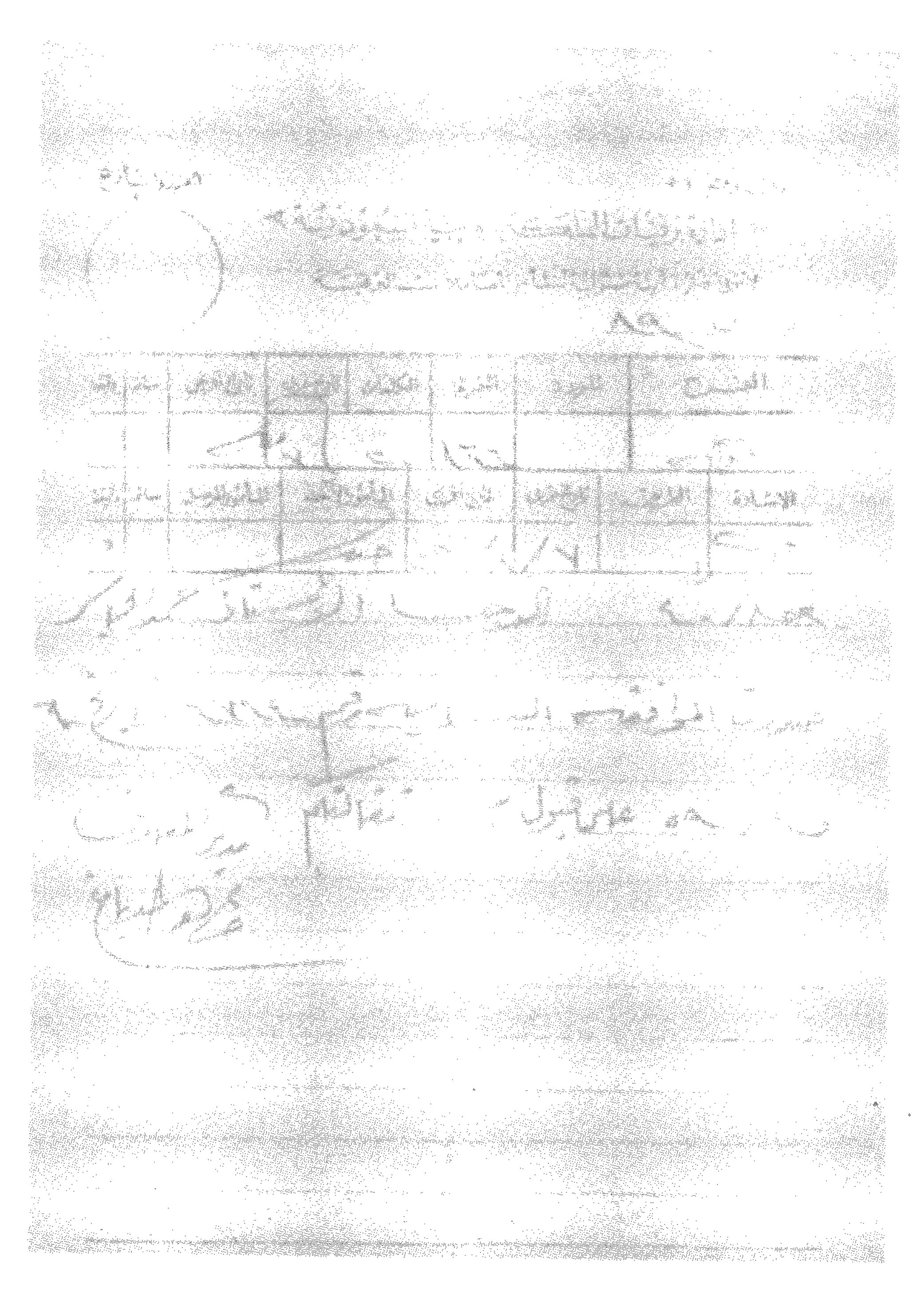
(٨) : كان الشيخ الشوكاني وهو رئيس القضاة والعلماء ومفتي الدولة في عهده، ألف رسالة في إجبار اليهود على نقل الزبالة من أسواق صنعاء، فرد عليه عدد من علماء اليمن، وكان ممن رد عليه الشيخ عبد الله بن مبارك بن بشير في رسالة دعاها «تحقيق المقال وقطع الجدال على حل الأشكال وإرسال المقال» فرد عليه الشوكاني برسالة «الإعلال لتحقيق المقال».

(٩) : كان الشيخ القُصَيبي ذَا صلة بالأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مطبعة الفتح، فتولّى طبع عدد من كتب السلف على نفقة الشيخ القصيبي ومنها «فتح المجيد» و «الروض المربع» و «شرح مفردات الإمام أحمد» وكتب أخرى، وزار القصيبي القاهرة سنة ١٣٤٨هـ، فأقيم له حفل تكريم في جمعية الشبان المسلمين كان من خطبائه الأستاذ محب الدين الخطيب.

(١٠): سنة ١٣٤٦هـ.

(١١): تلك الهفوة التي نسبت إليه هي أنه وصف الله أثناء وعظه بصفة اعتاد أهل الضلال أن يصفوه بها تستلزم عدم إثبات جهة العلو واستيلائه على العرش جَلَّ وَعَلا، وكان الشيخ راغب إذْ ذاك مديراً لمدرسة الوجه،وقاضي البلدة الشيخ سليمان السُّحَيمي، فما كان من الشيخ راغب عندما سأله القاضي عما نسب إليه إلا أن تسرع قائلاً : (زوجتي زبيدة طالق ثلاثاً البتة إن كنت قلت ذالك الكلام) ! ولكن أناساً ممن حضروا الوعظ شهدوا عند الشيخ بأنه قاله، ففرق بينه وبين زوجته، وبعد ذالك نقل إلى إدارة مدرسة ينبع سنة ١٣٤٩هـ ولم يطل عهده بها فقد تأثر بما حدث له من التفريق بينه وبين زوجته.

(١٢): انظر سانحة (لمحة عن سير التعليم الحديث في البلاد).



من مدير المعارف العامة السيد طاهر الدباغ للشيخ حمد الجاسر ـ رحمهما الله ، يشعره بصدور الموافقة السامية بقبول استقالته من مدرسة الأحساء في عام ١٣٥٩هـ

في مدرسة الأحساء قبل خمسين عاماً*

لكي تتصل هذه السانحة بما قبلها عن تحديث التعليم في هذه البلاد، يحسن الحديث بإيجازٍ عن أستاذ كان له الأثر الحميد في ذالك، ومع هذا لم يحظ بما يستحق من تقدير.

في سنة ١٣٤٧هـ [١٩٢٨م] قدم الأستاذ محمد علي النحاس من مصر، مع أساتذة آخرين كان الشيخ حافظ وهبة مدير المعارف في ذالك العهد، قد قرر إحضارهم، للعمل في المدراس في الحجاز، وكان الأستاذ النحاس ـ على ما حدثني ـ قد عمل في الصحافة مع حافظ عوض صاحب جريدة «كوكب الشرق»[1] ثم عمل في التعليم هناك مفتشاً على مدارس البنات في القاهرة، ونُدِبَ بعد ذالك إلى الحجاز، فعين أول ما عين في مدرسة جدة في رجب سنة ١٣٤٧هـ، ولم يطل عهده فيها، حيث قَدَّمَ تقريراً طِبِّياً بأن هواءها لم يناسب صحته، فأُجِيزَ أسبوعاً لتغيير الهواء في مكة المكرمة، ثم قررت المعارف نقله إلى وظيفة معاون لمدير مدرسة الوجه، وباشر العمل في غرة ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ، وكان مدير المدرسة إذْ ذاك الشيخَ راغبًا الْقَبَّانيَّ، الذي سبق الحديث عنه، ثم نقل إلى إدارة مدرسة ينبع سنة ١٣٤٩هـ حيث تولى النحاس إدارة مدرسة الوجه بعده، حتى سنة ١٣٥٤هـ، ثم نقل مديراً لمدرسة ينبع، وفي سنة ١٣٥٥هـ نقل منها وندب سنة ١٣٥٦هـ[2] ليتولى فتح مدرسة الأحساء التي سبق أَنْ وُكِلَ أَمْرُ إنشائِها إلى الشيخ راغب، فلم يتم له ذالك.

---

* المجلة العربية، العدد (١٨٥)، جمادى الآخرة ١٤١٣هـ / تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٩٢م).

وعندما قدم الشيخ النحاس إلى هذه البلاد ـ وكان قد علم بما جرى لسلفه ـ اتخذ من ذالك درساً نافعاً، فما كان منه إلاَّ أن سارع إلى الاتصال بالعلماء فكرر زياراتهم، والتحبب إليهم، والمباحثة معهم في شأن ما كُلِّف به من عمل، فكان أن اتفق معهم بأن تكون جميعُ أمور المدرسة تحت توجيههم، ومراقبتهم وإرشادهم، وقَدَّمَ لهم تَعَهُّدًا بذالك، مُوَقَّعًا منه، ويمثِّلُ العلماءَ أُسَرٌ معروفة منهم: آل مبارك، وآل عبدالقادر، وآل مُلاَّ، واختار الأستاذ النحاس أوائل المدرسين في هذه المدرسة من هذه الأسر، أو ممن يقع عليه الاختيار، ممن يحوز ثقة عامة أهل البلد، بموافقة العلماء، وبهذا استطاع أن يضمَّ إلى المدرسة أكبر عدد من التلاميذ، وأن تسير الأمور فيها على درجة حسنة.

ولكي يدرك المرء مَدَى تأثير اؤلئك العلماء في شؤون المدرسة حَدَثَ أنَّ الأستاذ النحاس وَزَّع على المدرسين كتابًا يحوي تفصيلات وافية، عن تدريس المواد على أحدث الطرق، ومثل هذا الكتاب كان المدرسون في أشدِّ الحاجة إلى الاستفادة منه، إذْ لم يسبق لأحدٍ منهم أن عرف شيئاً عن طرق التدريس الحديثة، وهذا الكتاب هو «الحديث في طرق التدريس» فكان يحوي فيما يحوي (طريقة تدريس الجغرافيا)، وسرعان ما علم العلماء بذالك، فدعوا الأستاذ النحاس، وشددوا عليه النكير، بل أَوْعَزُوا بمختلف الطرق إلى التنفير من المدرسة، بحيث تَسَلَّلَ منها عدد من التلاميذ، ممن تربطهم باؤلئك صلة، ولولا أنه تدارك الأمر بنزع الكتاب من أَيْدِي المدرسين، واتصل بالعلماء معتذراً إليهم بأنه كان يجهل ما يحويه ذالك الكتاب مما أثار سخطهم لاخْتَلَّ سَيْرُ الدراسة، ولما استقام له أمر.

لقد غالب الأستاذُ النحاسُ ما يعترضه من صعوبات، وسار في عمله سيراً حسناً بحيث ظهر من أثر التعليم الحديث ما صار حافزاً لأهل البلاد على الإقبال على المدرسة، لا سيما بعد أن عرفوا رأي العلماء، ورأوا موقفهم من المدرسة ومديرها ، ووثقوا من أن أبناءهم سوف لا يتطرق إليهم شيء من المفاسد التي يحاذرونها أو يتوهمونها، مما يؤثر في أخلاقهم أو عقائدهم، وقد بلغ عدد تلاميذ المدرسة في أول عهدها ما يقرب من ثلاث مئة، مع أنه لا يزال يوجد بين أهل تلك البلاد في ذالك العهد من كان ينظر إلى المدارس الحديثة ـ بصفة عامة ـ نظرة ارتياب وشك وحيرة، وفي بعض الأحيان عدم ثقة، ومازال عدد الطلاب يتزايد حتى شمل أبناء سكان القرى ممن سارع لإلحاق أبنائهم بمدرسة (الهفهوف).

ولعل من أَقْوَى الأسباب التي مكنت الأستاذ النحاس من النجاح في عمله أنه كان ذا عزم وتصميم، فإذا فكر في أمر ورأى صوابه أقدم على تنفيذه، دون الرجوع إلى الجهة المنوط بها أمر الموافقة على التنفيذ، وإن كانت بعض تصرفاته تثير كثيراً من الانتقاد، وقد تسبب له ولبعض العاملين معه بعض المتاعب في أول الأمر، ولكنها في أغلب الأحيان محمودة العاقبة، وقد كان من أثر تصرفه هذا أن أصبحت المعارف العامة لا ترتاح إلى كثير من تصرفاته، ولكنها عاجزة عن معالجة الأمور في هذه المنطقة النائية عنها بخير مِمَّا وقع.

وفي عهد الشيخ النحاس أنشيء (مجلس معارف الأحساء) من مدير وستة أعضاء، ثلاثة من العلماء، وثلاثة من أعيان أهل البلاد، وربطت إدارة شؤون التعليم في المنطقة بهذا المجلس، من حيث تعيين

الموظفين وفصلهم، وتقرير رواتبهم، وغير ذالك من جميع الأمور المتعلقة بالتعليم، على أن تعرض قراراته على (مديرية المعارف العامة) لتتخذ حيالها ما تراه.

ولكن الأستاذ النحاس استطاع أن يؤثر في هذا المجلس حَتَّى وَجَد فيه خير عون له، فما كان أعضاؤه يدركون الكثير من أحوال التعليم، وقد كان من بينهم من هو قوي الصلة بالأمير، وهو مستشاره الخاص أحد كبار التجار، وكان صلة الأستاذ النحاس به حسنة، فكان يبلغه ما يجري في المجلس من صغيرة أو كبيرة، فتبلغ الأمير مع وجهة نظر النحاس في الموضوع الذي يراد من المجلس دراسته، فيتلقى من ذالك المستشار وجهة رأيه أول الأمر التي تكون مطابقة لرأي الأمير، وهي في الوقت نفسه ما سبق للأستاذ النحاس أن أقنع المستشار به، وعلى ضوء هذا يتخذ المجلس قراره مطابقاً لما يرغب الأستاذ النحاس اتخاذه، وبهذا أصبح المجلس أداة طيعة لتحقيق ما كان يتطلع إليه فيما يعرضه من شؤون التعليم، ولكنه مع كل ذالك لم تكن له مطامح تتعارض مع المصلحة العامة، وأصبحت قرارات المجلس لا تعرض على (مديرية المعارف).

وكلمة حق يجب أن تقال عن رجل قَدِمَ على ما قَدَّمَ بعد أن خدم التعليم في هذه البلاد ما يزيد على عشرين عاماً، غريباً عن بلده.

لقد بذل جهداً متميزاً في سبيل إرساء قواعد التعليم الحديث، في أُوْلَى مراحله في هذه البلاد، كما كان في المدة التي أمضاها في مدرستي الوجه وينبع مثالاً للمجدِّ المخلص في عمله، إنه لذو تصرفات يبدو فيها التعجل والارتجال، ولكنه كان يَتَوَخَّى في كل ما يأتيه منها تحقيق غاية حسنة، وكان لابُدَّ من أن يتصرف ذالك التصرف الذي تلجئه إليه

ظروف انعدام المدرسين الأكفاء، وقلة الرواتب مع شدة الإقبال على التعليم في مختلف مناطق المملكة.

وليس من المبالغة القول بأن شؤون التعليم في الأحساء في تلك الفترة التي أسندت إليه خلالها لو أسندت إلى غيره ممن لا تتوفر فيه الصفات التي هيأت للأستاذ النحاس النجاح في عمله، لتغيرت الحالة عما هي عليه الآن، بل لتعثرت مسيرةُ التعليم فترة طويلة، إن لم تبق جامدة.

وقد كان من أثر تصرفات الأستاذ النحاس أن أصبحت نظرة (مديرية المعارف العامة) إليه لا تتسم بالارتياح، ولكنها كانت مضطرة لأن تسير الأمور في هذه البلاد على ما هي عليه لعجزها عن التغيير.

لقد لاقَى الأستاذ النحاس كثيراً من المتاعب، لا مِنْ موقف المعارف فحسب، بل من قبل صنائع له، هو الذي قربهم وعينهم ليكونوا عوناً له، فأصبحوا يتدخلون في شؤونه، ويعارضونه في عمله، وينسبون إليه من المساوىء ما هو بريء منه، في مرحلة من حياته قد اعتراه فيها كثير من السأم وضعف الشيخوخة، وآلام الغربة، وكفران الجميل، مِمَّا أَوْهَى عزائمه.

لقد كان من بين أساتذة المدرسة مدرسون ممن اضطر إلى تعيينهم في أعمالهم استجابةً لرغبة العلماء، وكان هاؤلاء ـ بما لهم من صلة بأسرهم العلمية، ونظرة بعض فئات المجتمع إليهم ـ يَرَوْنَ في بعض تصرفات الأستاذ النحاس بالنسبة إليهم عَدَم تقدير لهم، ومن ثم يوجهون سهام نقدهم إليه تلميحًا أو تصريحًا، بل ظلوا في المحافل العامة بين مختلف الطبقات من العلماء والتجار وغيرهم ينالون منه إنْ

حَقًّا وإنْ باطلاً، فكان يُوجَّهُ إليه من قوارص التجريح، وسهام الانتقاد ما يسبب له الامتعاض والتأثر.

وها هو وقد استطاع مع كل مَا لاقَى أن يرسي قواعد التعليم الحديث في هذه المنطقة بدأ يحس بثقل ما يعاني من تلك الأحوال، يقدم استقالته من العمل في الحقل الذي قدم إلى هذه البلاد أول ما قدم للعمل فيه، ولعله تركه وهو مرتاح الضمير، حيث شاهد ثماره في هذه المدرسة الواسعة الكبيرة التي أنشئت في عهده، وفي غيرها من آثار التعليم الأخرى، التي بدأت تنتشر في المنطقة كلها، وفي هذا الإقبال القوي على طلب فتح المدارس، بعد ذالك النفور الشديد، والنظرات السيئة نحو المدارس الحديثة.

وها هو بواسطة أحد أصدقائه تسند إليه وظيفة أبعد ما تكون عن اختصاصه[٣]، لقد استقال من وظيفة (معتمد المعارف في الأحساء) ومن إدارة مدرستها سنة ١٣٦١هـ[١٩٤٢م]، فعين بعد ذالك مديراً لمالية تبوك. فتولاها حتى توفي سنة ١٣٦٧هـ.

إنه استطراد كان لابد منه ليكون متمماً للكلام عن انتشار التعليم الحديث في هذه المنطقة، عن جهد أبرز الأوائل الرُّوَّادِ في هذا المجال، تحسن العودة بعده لما قصد بهذه السانحة.

ما كنت قبل قدومي إلى هذه البلدة الكريمة ذا رغبةٍ للاستقرار فيها، لأنني كنت أفكر في الرجوع إلى مصر مع البعثة، متى تقرر أمر إرجاعها، ولكنني وجدت من حسن استقبال الأستاذ النحاس لي ما غَيَّر نظرتي، ولعل من أبرز ما أتصف به من العيوب أنني (كثير الرَّوَابِع) كما في المثل النجدي[٤]، لا أستقر على رأي أفكر فيه، بل يعتريني التردد

وتضعف عزيمتي، وأفكر في أمور أخرى كثيرة، وقد استغل الأستاذ النحاس ـ رحمه الله ـ صفة الضعف هذه بالإغراء والتشويق والترغيب حتى عزمت على الاستقرار، وقبول ما يعرض عليَّ من عمل، فخيرني بين إدارة مدرسة الدمام التي لم تفتح بعد، لكي أتولى فتحها، وبين وظيفة (سكرتير مجلس المعارف في الأحساء) ووظيفة مدرس في المدرسة، ريثما تسنح الفرصة لإيجاد وظيفة لي سيتقدم بطلبها، وهي وظيفة مفتش على التعليم في المنطقة، فَمَا كَان مني إلا أن سارعتُ بطلب تعييني مديراً لمدرسة الدمام، ولكنني تلقيت كتاباً منه بصفته معتمد المعارف رقم ١٧ تاريخه ٢٦ / ١٠ / ١٣٥٨هـ ونصه: (عرضت كتابكم المؤرخ في ٧ شوال سنة ١٣٥٨هـ [٧ / ١٢ / ١٩٣٨م الخاص بطلبكم مديراً لمدرسة الدمام على مجلس المعارف، بجلسة أمس، وبعد النظر فيه رَأَى المجلس شدة حاجة مدرسة الأحساء إليكم، وعلى ذالك لم يوافق على سفركم إلى الدمام، وقرر تعيينكم مدرسًا بالأحساء براتب قدره ٧٧٠ قرشًا سعوديًا شهريًا ابتداء من ٢٥ شوال سنة ١٣٥٨هـ ولإعلامكم قرار المجلس، ورجاء مباشرتكم العمل في وظيفتكم، حررت هذه لسيادتكم).

ولقد كنت منذ أَنْ فُتحَت المدرسةُ بعد عطلة العيد أُمْضِي أكثر الوقت فيها، استجابة لرغبة الأستاذ النحاس، فكان يَكلُ إليَّ القيامَ بالتدريس في بعض الفصول، التي يغيب أحد مدرسيها، فعرفت المدرسين، واختلطت بالتلاميذ، واتصلت ببعض أولياء أمورهم، فأحسست بكثير من الراحة، وقويت رغبتي في مواصلة مهنة التعليم هنا.

وللراتب في تلك الأيام وهو سبعون ريالاً إغراؤه، ولا أزال مَدْيَنًا للمعارف بمبلغ اقترضته حين كنت معاوناً لمدير مدرسة جدة.

وكانت الحياة في هذه البلدة على غاية من اليسر والرخاء، فالفواكه والْخُضَرُ فَضْلاً عن أصناف الرطب وبقية متطلبات المعيشة، هي هنا أرخص من غيرها في أية جهة من جهات البلاد، وها أنا قد اكتسبت بمزاملة عدد من أساتيذ المدرسة أصدقاء، واستفدت بصلتي ببعض العلماء، وتكرار الزيارة لهم ما استزدت به معرفة عن تاريخ هذه المنطقة، بحيث إنني اتفقت أنا وأحد زملائي في المدرسة على جمع ما نستطيع جمعه عن تاريخ البلاد، وكان صاحبي هذا فيما بَدَا لي منه، حُفَظَةً ولا تعوزه سعة الخيال، بحيث إذا حادثه المرء توهم أنه يُلِمُّ بكل ما يتعلق بتاريخ هذه المنطقة قديمًا وحديثًا، إلاَّ أنني بعد أن رسمْتُ الأُسُسَ التي ينبغي أن نتشارك في الكتابة عنها، وأن نجمع ما يتعلق بها من معلومات، كان حَجَرُ الْعَثْرَةِ أننا لم نستطع السير خطوة واحدة، لتعذر الاطلاع على أي مصدر من المصادر التي توهمت توفرها لَدَى صاحبي.

ومن مدرسي المدرسة شيخ ذو إلمام حسن بالعلوم الدينية، أصبح يلازمني ملازمة الظِّلِّ، وقَلَّ أن يُدْعَى أو أُدْعَى من قبل أحد الأصدقاء إلاَّ ونجيب مجتمعَيْنِ، وكنت قد انخدعت بهذا الرجل لكونه سلفي العقيدة، وله إلمام بالثقافة الحديثة(٥).

هذان الزميلان في المدرسة كانا ممن تَوَلَّى كِبْرَ النيل من الأستاذ النحاس، ولكل واحد منهما صلة قوية في مختلف فئات المجتمع، وكما قيل:

عَنِ الْمَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

لقد تأثرت بهذين الصديقين بالنسبة لرجل لم أَرَ منه ما أحسُّ أن فيه انتقاصًا لي، أو نَيْلاً مني، أو هَضْمًا لحقي، بل كان بعكس ذالك كله، وما أحسست منه ما آخذه عليه إلاَّ أنني حين قدمت هذه البلاد لم أَرَ أن أقطع صلتي بالمعارف[٦]، فقد كان مديرها السيد محمد طاهر الدباغ، ذَا فَضْلٍ عليَّ، ولهذا لَمَّا تلقيت الكتاب بتعييني مدرسًا بعثت بصورة منه إليه، وكتبت له مستشيراً، وموضحًا رغبتي في الاستقرار في هذه البلاد، فنصحني بقبول العرض، ريثما يتسنَّى لي من العمل ما هو أحسن، وأبلغني بعد ذالك صدور الأمر السامي بتعييني في تلك الوظيفة بعد مباشرة العمل فيها بزمن، وقد تأثر الأستاذ النحاس من تصرفي هذا حين علم به، وأحسست في نظرته إليَّ فيما بعد شيئاً من الجفوة وكما قيل :

إِنَّ القُلُوْبَ إِذَا تَنَافَرَ وُدُّهَا مِثْلُ الزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا لاَ يُشْعَبُ

ومع محاولة إزالة ما في نفسه نحوي، إلاَّ أن ملازمتي للرجلين اللَّذَيْنِ يعرف موقفهما تجاهه كانت من أَقْوَى الأسباب التي عمقت النفرة، وباعدت بيننا على غير رغبة مني، ومع أنني كنت واثقًا من أنه بحاجة إلى عملي في المدرسة، إلاَّ أنني كنت أَطمح إلى ما هو خير منه، مما سبق أن وعدني به، ويبدُوْ أَنَّ موقفه الآن قد تغير.

وكان أن قويت صلتي بالشيخ محمد بن عبد المحسن آل عبد القادر، قاضي المبرز، ورئيس مجلس المعارف، فقد كان يكرمني، ويطلعني على مواد من كتاب ألفه عن تاريخ الأحساء[٧]، ويستزيرني في كثير من المناسبات، وقد أدركت من صلتي به حين حادثته عَمَّا وعدني به الأستاذ النحاس من وظيفة مفتش، أنه ليس في استطاعة المجلس أن

يعمل شيئاً، ما لم يتقدم النحاس بطلبه، وأن يحوز ذالك الطلب رضا جهة أخرى للموافقة عليه، ولكنني أدركت بعد أن أمضيتُ في عملي هذا ما يقرب من نصف عام، أن حالة الفوضى في المدرسة، وعدم الانسجام بين الأساتذة والمدير، وبين الأساتذة أنفسهم، وأن نظرة الأستاذ نحوي قد تَغَيَّرَتْ، كل هذه الأمور بل أقلها مما يقلق الراحة، ويبعث السأم في النفس، فكتبت إلى الأستاذ النحاس مستقيلاً من وظيفة التدريس، ولكنه قال بأن أمر إقالتي لا بد أن يقررها المجلس، ثم أدركت من مماطلته في عرضها على المجلس محاولة بقائي في العمل، ثم أبدى الاستعداد لنقلي لإدارة إحدى المدراس التي تقرر فتحها في المنطقة.

ولكنني توقعت عدم الارتياح في أي عمل يناط به مالم تتغير نظرته نحوي، ولن تتغير، فتركت العمل، وأبرقت إلى المعارف بذالك، فكان أن تلقيت برقية بتوقيع مدير المعارف طاهر الدباغ رقمها (٨٥٣ / ٤٠) وتاريخها ٧ / ٤ / ١٣٥٩هـ بصدور الموافقة السامية برقم ٤٧٦٤ وتاريخ ٦ / ٤ / ١٣٥٩هـ على قبول استقالتي، ويبدو أن المعارف أرسلت صورة من هذه البرقية لمعتمد المعارف في الأحساء الذي كتب إليَّ بعد ذالك برقم ٤١ وتاريخ ٨ / ٤ / ١٣٥٩هـ بأنه : (وردت اليوم برقية المعارف عدد ٣٨ / ٨٥١ وتاريخ ٧ الجاري معطوفة على الأمر السامي بقبول استقالتكم من ترككم العمل).

الحواشي :

(١): هو أحمد حافظ عوض (١٢٩٤/١٣٧٠هـ) أديب مصري قصصي صحفي، وقد انتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية.

(٢): وقد كتب أحد الأخوة في جريدة « اليوم » تاريخ ١٤١٢/١٢/١٧هـ ما يفهم منه بأن الأستاذ

النحاس كان سنة ١٣٤٧هـ مديرًا لمدرسة الأحساء ولعل ما وقع هنا تطبيع وأن الصواب سنة ١٣٥٧هـ.

(٣): كان ذا صلة بالشيخ زكي عمر مدير الجمارك في الأحساء حين كان زكي محاسبًا في مالية ينبع، وحدث سنة ١٣٥٣هـ أن احترقت مالية ينبع، وكان زكي يشرف على إدارتها في غياب مديرها محمد العثمان الناجم مع وكيل وزارة المالية في الحملة التي قادها الأمير فيصل في غزو اليمن، فتأثر الملك لحريق المالية، وأمر ببعث لجنة برئاسة أمين العاصمة عباس قطان وفيها الأستاذ أحمد الغزاوي فقررت اللجنة أن الاحتراق قضاء وقدر واستحسنت نقل زكي إلى وظيفة أخرى، فعين في الأحساء، وبينه وبين النحاس معرفة قديمة، فرشحه لإدارة مالية تبوك.

(٤): يضرب المثل لمن لا يستقر على حالة واحدة في تصرفاته، ولعل (الروابع) لُغَةً ـ يقصد بها الرباعة وهي الحال، يقال : الناس على رَباعتهم ورَبَعَاتِهم، يعني على استقامتهم، ورِبَاعَة الرجل شأنه وحاله التي هو رابع عليها أي ثابت ومقيم.

(٥): تكشف لي بعد ذالك عن صفة سيئة أخبرني بها اللواء سعيد كردي رئيس الاستخبارات العامة أيام كان الرجل مقيماً في الرياض وكان يكرر زيارتي ويلازمني صباح مساء في عملي في صحيفة «اليمامة» فلما اتضح لي من أمره ما اتضح قاطعته.

(٦): وبقيت الصلة مستمرة بعد أن غادرت الأحساء، كما سيأتي في إحدى السوانح.

(٧): هو كتاب «تحفة المستفيد في تاريخ الأحساء في القديم والجديد» وقد أشرفت على طبع الجزء الأول منه في مطابع الرياض سنة ١٣٧٩هـ ووضعت له مقدمة وأضفت إليه حواشي.

المملكة العربية السعودية
وزارة المالية
مكتب الوزير [illegible]

حضرة الأخ الكريم حمد الجاسر المحترم حفظه الله

بعد التحية والأشواق [illegible]

[illegible]

خلال فترة عمل الشيخ حمد الجاسر ــ رحمه الله ، معلماً لأبناء الشيخ ابن سليمان وزير المالية ــ رحمه الله .

في مدرسة تحضير البعثات*

وبعد أن مكثتُ في الأحساء نصف عام من ١ / ٩ / ١٣٥٨هـ [١٣ / ١٠ / ١٩٣٩م] إلى ١٠ / ٤ / ١٣٥٩هـ كان عوداً حميداً إلى البلدة الطيبة مكة المكرمة، ولم أمكث سوى زمن يسير حيث أُسْنِدَتْ إليَّ وظيفةُ تدريس العلوم الدينية (التوحيد والحديث والفقه) في (مدرسة تحضير البعثات)، وكانت هذه المدرسة كما وصفها الأستاذ الزركلي[1] (من أَجْدَى المعاهد السعودية نفعاً)، وتُعَدُّ من أَجَلِّ ما قام به السيد طاهر الدباغ أثناءَ تَوَلِّيه إدارة المعارف من أعمال نافعة، وقد سعى لإنشائها في السنة الأولى من إسناد ذالك العمل إليه، وأُعِدَّ مَنْهَجُ الدراسة فيها لِيُؤَهِّلَ للالتحاق بالمعاهد العليا، وكليات الجامعات في مصر وغيرها من البلاد العربية، وكانت مدَّةُ الدراسة فيها أربعَ سنوات في القسم العام، وخمسَ سنوات في القسم الخاص، وكان السيد الدبَّاغ يوليها جُلَّ عنايته، ويختار لها من الأساتذة من يثق بمقدرته وكفاءته، للقيام بالتدريس فيها من أبناء البلاد، وممن يندبون للتدريس فيها من خارجها، وهي أول مدرسة ثانوية أنشئت في المملكة، وقد اختير لها مكان مناسب في بناية محكمة البناء، واسعة الفِنَاء ذات أَبْهَاءٍ وغرف فسيحة، يتخللها الهواء من جميع الجوانب، وتتسع لعدد كبير من الطلاب، في قمة جبل (هِنْدي)، وكانت في الأصل قلعةً أُنْشِئَتْ في العهد التركي، كما يظهر في طراز بنائها وَقِدَمِه، وهي تُطِلُّ على الحرم الشريف، وتشرف على وسط المدينة، وقد بلغ عدد المبتعثين من تلك المدرسة للدراسة خارج البلاد من سنة ١٣٥٩هـ [١٩٤٠م] حتى سنة ١٣٧١هـ

---

* المجلة العربية، العدد (١٨٦)، رجب ١٤١٣هـ / كانون الأول والثاني ١٩٩٣م.

(١٦٩) من خيرة الشباب الذين أكملوا دراساتهم في مختلف المعاهد والكليات[٢]، وبعد ما يقرب من سبعة عشر عاماً من إنشائها ـ وفي عهد أول وزارة للمعارف سنة ١٣٧٣هـ ـ غُيِّرَ اسمها إلى (المدرسة العزيزية الثانوية) .

كانت الدراسة الدينية في المدارس على درجة من الضعف لا يمكن تصورها ، إذ يُكْتَفَى مِنَ التلميذ بأن يحفظ ما يستطيع حفظه من المقرر في المنهج الدراسي ، وعند الاختبار يكتفَى منه أن يكون كالْبَبَّغَاء ينطق بما حفظ ، في الاختبارات الشفوية ، أما في الاختبارات التحريرية فقد كانت الأسئلةُ تُوَجَّهُ بطريقة تتلاءم مع النقل من الكتب كأن يقال : ما حُكْمُ من حقَّق التوحيد ؟ وقد سبق للطالب أن درس (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) فيكون الجواب : (دخل الجنة بغير حساب) .

وفي الفقه يكون السؤال عن : (نواقض الوضوء) أو عن (أركان الصلاة) فيسردها الطالب في الجواب ، وقد يكون أعَدَّها مكتوبةً في جَيْبِهِ ، أو مُخْفَاةً في درج مَكْتَبِهِ ، أو يستعين بجاره في الإجابة ، وكان الذين يتولون تدريس العلوم الدينية في المدارس في ذالك العهد من طلبة العلم ، الذين ليس لديهم إلْمَامٌ بوسائل التربية الحديثة ، فهم يسيرون على الطريقة التي تَلَقَّوْهَا عن مشائخهم ، ولن أتوسع في الحديث في هذا الموضوع ، إذ الدراسة بوجه عام في المدارس كلها لضعف معلميها في حالة من الضعف مُحْزِنَة .

كان طلابُ (مدرسة تحضير البعثات) قد اختيروا ممن أكمل الدراسة الابتدائية في المدينتين الكريمتين ، وقد بلغ أكثرهم مرحلة النُّضْج العقلي ، ونالوا حظًّا من التعليم والمعرفة بصفة عامة ، فكان بعضهم بعد

أن قويت الصلة بيني وبين هاؤلاء الطلاب، وزالت الْكلْفَةُ يكاشفني بأنَّ الدروس الدينية هي أشقُّ الدروس وأَقَلُّهَا نَفْعًا، فأدركتُ أن هذا ناشئٌ مما كانوا يكلفون به من حفظها دون إدراك وفهم لمعانيها، فحاولت ـ بقدر إمكاني ـ أن أسعى لترغيبهم في تَلَقِّيْها بتيسيرها، وبمحاولة إيجاد الصِّلَة بين الغاية منها وبين حياتهم العامة، ولتخفيف ما يحسون به من ثقلها في نفوسهم، سرت في التدريس على طريقة إيضاح معاني المادة بأسلوب يدركه الطالب، غَيْرَ مُتَقَيِّد بعبارة مؤلِّف الكتاب المقرر تدريسه، مع عدم المطالبة بالحفظ، ما عدا الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأن يعبر الطالب عن المعنى المراد بالأسلوب الذي يستطيع التعبير به، وسِرْتُ على هذا فأحسست ارتياحاً من الطلاب، وأدركت من كثير منهم رغبةً وحرصاً على الاستفادة من تلك الدروس، التي كان كثير منهم يحاول عدم حضورها متعللاً بأَوْهَى الأسباب.

وَعُيِّنَ في هذا العام أحدُ العلماء، بل منْ أَجَلِّهمْ علْماً وفضْلاً وخُلُقاً، وسَعَةَ إدراكٍ، وقُوَّةَ صِلَة بِعلماءِ البلاد العربية المشهورين[٣]، عُيِّنَ مفتشًا للعلوم الدينية في المدارس، فكان أن قرر إلقاء درس ديني في يوم الخميس، يحضره مع الطلاب مدرسو العلوم الدينية، فَأُعِدَّ أَحَدُ أبهاء المدرسة لذالك، بفرشه بالبُسُط لجلوس الطلاب، وأُعِدَّ للشيخ مَنَصَّةٌ نُصِبَتْ في صدر البهو، وبجوانبها كراسي لمدير المدرسة وللمدرسين، وحضر في الوقت المحدد، وهو الحصة الرابعة من حصص الدراسة في ذالك اليوم، وابتدأ بإلقاء درسه من أول كتاب «فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد» سَيْراً على الطريقة المألوفة لدى العلماء، وفي الأثْنَاء أَحَسَّ الطلابُ بعض الملل، مما دفعهم إلى المعابثة بينهم، كعادتهم، وعدم

الإصغاء للدرس، فرأيت في ذالك إساءَةَ أدبٍ منهم لم أُطِقْ تحَمُّلَهُ، فانصرفت قبل إكمال الدرس، وفي يوم السبت أخبرني المدير بأن الشيخَ تَأَثَّرَ من خروجي قبل إكمال درسه، فلما حضر يوم الخميس حاولتُ الاعتذار منه، ولكنه تَوَهَّمَ خلاف ماقَصَدْتُ، ولم يَقْبل مني، وجابهني بِرَدٍّ أَثَّرَ في نفسي، فكتبتُ لمدير المدرسة مستقيلاً من العمل، اعتباراً من هذا اليوم، ولم آت إلى المدرسة يوم السبت، وبعد ثلاثة أيام دعاني السيد طاهر الدباغ في إدارة المعارف، فأوضحتُ له سبب الاستقالة، فأمرني بأن أعود وأَنَّ الأَمْرَ إليَّ في حضور دروس الشيخ أو عدمه.

وبعد هذا بنحو أُسْبُوعٍ أَتَى الشيخُ في غير اليوم الذي يأتي به عادةً، وزار فصول الدراسة، ومن بينها الفصل الذي كنت أُلْقِي الدرس فيه، وبعد استماعه لشرح الدرس، صار يوجه إلى الطلاب بعضَ أسئلة فكانوا يجيبون بغير نصوص الكتاب المقرر، فكان الشيخ يُخَطِّئُهُمْ، ويطالبهم بأن يقرأوا النص من الكتاب، فأخبروه بأنني لا أطالبهم بالحفظ، فلم يَرْتَحْ لهذا، وأمرني بأن أتقيد بنص عبارات العلماء، فحاولت إيضاح رأيي في الأمر، فلم أستطع، وأدركت أن الشيخ غير مرتاح للطريقة التي أسير عليها في التدريس، بل صرَّحَ بذالك لمدير المدرسة، وكرر على الطلاب ضرورة الحفظ، ثم جاء اختبار نصف السنة الدراسية، وكان مدرس المادة هو الذي يضع درجات الطلاب، وكانت نسبة النجاح بين الطلاب الذين قمت بتدريسهم حسب ما اتضح لي لا تتجاوز (٣٠٪) ، ولكن الشيخ أمر بإعادة الاختبار، وتولَّى هو وضع الأسئلة، ثم تولى تصحيحها يساعده أستاذٌ يُدْعَى الْجَمَّاوي، فلم يرسب أيُّ طالب من الطلاب الذين كنت أدرسهم، وما ذالك إلاَّ لأن

الأسئلة وُضِعَتْ بصورة يسهل جوابها من نصوص الكتاب المقرر، ومن اليسير معرفة ذالك أثناء الاختبار لتداول الكتاب بين أيدي الطلاب.

أدركت بعد هذا أنني لا أستطيع الاستمرار في العمل، فأوضحت هذا لمدير المعارف.

وفي تلك السنة (١٣٦٠هـ) [١٩٤٠م] بَعَثَتْ الحكومة إلى منطقة جازان لجنة تتقَصَّى أحوالها، يرأسها الشيخ محمد بن علي الْبَيْز، قاضي جدة، ومن أعضائها الشيخ فيصل بن محمد بن مبارك ــ رئيس هيئة الأمر بالمعروف في جدة ــ والأستاذ محمد حابس ــ من ديوان النيابة العامة ــ وآخرون من مجلس الشورى ووزارة المالية، فكان مما قَرَّرَتْهُ ضَعْفُ حالة التعليم هناك وضرورة إيجاد الوسائل الكفيلة لإصلاحه، واقترحتْ فيما اقترحت تعيين معتمد للمعارف في تلك الناحية على درجة من الكفاءةِ تتلاءم مع ما يتطلبه ذالك الجانب من إصلاح.

وقدعلمت حين قابلت السيدَ الدباغ ــ مدير المعارف ــ بأنه تلقَّى أمراً من النيابة العامة بإسناد ذالك العمل إليَّ، تنفيذاً لاقتراح تلك اللجنة، ولكنه، أَبْدَى رغبته في بقائي في عملَي في (مدرسة تحضير البعثات) ووعد بأن يبذل وُسْعَهُ في معالجة ما أشكو منه من تَدَخُّلٍ في عملي أو مضايقةٍ فيه، أو بإسناد عمل آخر إليَّ، وإلاَّ فَالعَمَلُ في جازان.

ومكثتُ فترةً قصيرةً حدث في خلالها ما لم يكن في الحسبان، كنت صبيحة يوم أثناءَ أداءِ عملي في المدرسة، منتظراً مَنْ سَيَحِلُّ مكاني، إذا بأحدهم يدعوني للهاتف، وكان المتحدِّثُ من بيت الشيخ عبد الله السليمان ــ وزير المالية ــ ليخبرني بأن الوزير سَيَتَّصِلُ بي، فكان ذالك، وحددتُ الوقتَ والمكانَ لإرسال من سآتي معه بعد انتهاء الدراسة لمقابلته.

اجتمعت بالوزير في بيته في محلة جرول، فحدثني عن حالة تَعَثُّر أبنائه في دراستهم، بسبب كثرة تنقله بين مكة والرياض والخرج، حيث يشرف على المشروع الزراعي الذي أُنشيء فيه، وأنه لذالك يرغب أن أتولى تنظيم دراسة أبنائه الذين يحب أن يرافقوه في أي بلدة ينتقل إليها.

لَقَدْ بلغ مني السَّأَمُ مِنْ حالة الضِّيْق التي أنا فيها مَبْلَغَهُ، وما كنت ذا ارتياحٍ قَويٍّ للسفر إلى جازان، وما أبدَيْتُ الامتثال لقبول العمل هناك إلا لما أحسست به من ضِيْقٍ، بل لما أدركته من أن عملي في (مدرسة تحضير البعثات) أَصْبَحَ عَدِيْمَ الْجَدْوَى، ولولا ما أحمل في نفسي من تقدير وإجلال للسيد طاهر ـ مدير المعارف ـ ولأستاذي السيد أحمد العربي ـ مدير المدرسة ـ وما لهما عليَّ من فضل لما أَوْلَيَانِي من رعاية وعَطْف، لكنت تركت العمل قبل هذا الوقت.

أبديت للوزير أثناء حديثي معه استحساني للاتصال بالسيد طاهر الدباغ، لكوني أحد موظفي المعارف، ولأنني أحمل له في نفسي من التقدير ما هو جدير به اعترافاً بفضله، ومراعاة لما يجب عليَّ نحوه، فكان أن اتصل الوزير بالهاتف وأنا عنده، وأخبرني بأَنَّ الأمر مَوْكُولٌ إليَّ، فأبديتُ الموافقةَ، إلاَّ أنني أوضحت له الخشية من بعض أمور تُعَرْقل سير الدراسة أو تحول دون انتظام العمل مما يتعلق بمنهج الدراسة، وتحديد أوقاتها ومتطلباتها، ومعاملة التلاميذ، أما ما يخصني أنا مما يُهَيِّئُ لي أداء عملي على الوجه المطلوب فأترك ذالك لمعاليكم، وقد أدركت ارتياحًا لما أبديته، حيث كتب كتابًا مطولاً إلى أخيه حمد، يخبره باختياري للإشراف على تعليم أبنائه، ويبلغه بما ينبغي اتخاذه

حول ما يلزم لإعداد كل الوسائل لذالك العمل موضحاً أهم ما ذكرته.

وفي صباح اليوم الثاني حضرت إلى المدرسة كعادتي، فعلمت أن مدير المعارف دعاني لمقابلته، فكان مما بدأني به بعد السلام عليه: ماذا جرى؟ فأجبته: بأنني لا أَفْتَاتُ على ما يراه لي في أي أمر من أموري، فقال: الأمر إليك، فأنا لا أريد لك إلاَّ الخير، ولكنني أود أن تعملَ في مجالٍ أَعَمٌّ نفعاً، ولا أزال آمَلُ هذا.

لقد عدت إلى المدرسة فقدمت استقالتي لمديرها، بعد أن أمضيت فيها أكثر من عام، واتجهت لاتخاذ الأُهْبَةِ لما أنا مُقْبِلٌ عليه من عمل، وبينما أنا لا أزال أُوَالِي الاتصال بمن وَكَلَ إليهم الوزير تهيئةَ ما يلزم للعمل الجديد، إذَا بي أتلقى برقية من مدير المعارف بتاريخ ٨ / ١٠ / ١٣٦٠هـ [٢٨ / ١٠ / ١٩٤١م] نصها: (يقتضي الإسراع بالسفر إلى جازان، أفيدونا عن الأشخاص المرافقين لكم، وعن الطريق الذي تسافرون منه حالاً)، وتوقيع: طاهر الدباغ.

وكان قبل ذالك في المقابلة التي قبل هذه قدم إلي كتاباً برقم ١٦٣٠ تاريخ ٢١ / ٩ / ١٣٦٠هـ، جاء فيه: (بما أن المعارف في حاجة ماسة إلى وضع ميزانية خاصة لمدارس منطقة جيزان، وبالنظر إلى أنكم ستتوجهون إلى تلك المنطقة، وتقفون على حالة المدارس وتشكيلاتها، فنرغب وضع الميزانية الملائمة لحالة هذه المدارس، بالنسبة إلى وارد صندوق مدارس جيزان، الذي هو في إدارة المالية هناك، والذي يمكنكم الوقوف على وارداته من المالية بطرفكم، فننتظر منكم وضع مشروع هذه الميزانية ورفعه إلينا).

وعلمتُ فيما بعد أن المعارف تلقت استيضاحاً من النيابة العامة حول إبلاغي، فأرسلَتْ نسخةً من هذه البرقية إليها، وأقْدَمْتُ لما عَزَمْتُ عليه مِنْ عمل.

الحواشي:

(١): «شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز» ٦٣٨/١.

(٢): «الانطلاقة التعليمية»، ٢٧٦/١ . تأليف الأستاذ عبد الله بغدادي.

(٣): أفردت الحديث عنه في سانحة خاصة، وأوضحت أن ما حدث بيننا لم يكن عن سوء نية، بل عن طيب قلب، وقد زالت آثاره قبل وفاة الشيخ فحل محله التصافي والوداد. والله يتولى الجميع بعفوه وغفرانه.

في منعطف الطريق*

تدعو المناسبةُ للاسترسال في حديث قد يبدو من مضمونه أو عنوانه أنه لا يُعَدُّ من سوانح الذكريات، والواقع أنه في صميمها، فقد عشت في كنف أسرة عصاميَّةٍ كريمة فترةً من الزمن، ذاتَ أثرٍ في حياتي، ومن هنا فمن المناسب أن أتحدَّث عمَّا لتلك الفترة من أثر في مسير هذه الحياة، وأن يَنْجَرَّ الحديث ويتسعَ ليشمل البحث في موضوع أراه جديراً بالإيضاح، له صلة بجوانب من حياتنا العامة، أكثرت الكتابة عنها، فتوهم بعض الإخوة من ذالك خلاف ما أردت، ذالك هو علم الأنساب، فقد وُصِمْتُ لكثرة ما كتبت فيه[1] بأنني (عنصري)، وأن كتاباتي في ذالك الجانب من حياة مجتمعنا تسبب الفرقةَ، وتوجد التقاطع بين مختلف طبقات هذا المجتمع، والواقع أن هذا ناشئٌ عن سوء فهم، وعن عدم إدراك للغاية التي توخَّيتُها في جميع ما تعرضت له في صميم هذا الموضوع، أو من مختلف جوانبه، والتي أوضحتها مرارا عديدة لمن حادثني في الأمر، وفيما كان لي من آثار فيه، وهي غاية نبيلة، إذْ إنَّ ما أهدف إليه من جميع ما كتبت عن الأنساب تقويةُ أواصر الإخاء، ومحاولة إحكام الترابط بين جميع طبقات الأمة، ويتضح هذا من أمور:

الأمر الأول: أنني أعتقد عن يقينٍ وعُمْقِ إدراك، أنَّ جميع طبقات المجتمع في بلادنا ترتبط بروابط قوية، لا من حيثُ الأنساب فحسب، بل من حيث الاتِّجَاه والقصد، والسير في هذه الحياة نحو غاية واحدة مشتركة، واتِّحَادُ الغايات هو أقوى الروابط بين طبقات المجتمع، بل هو الكفيل بإزالة الفوارق والمميزات لكل طبقة على أخرى.

* المجلة العربية، العدد (١٨٧)، شعبان ١٤١٣هـ / كانون الثاني وشباط ١٩٩٣م.

الأمر الثاني: أَنَّني أرى في الأنساب إيْجَادَ قوةٍ لتلك الروابط، من حيث النظرة إلى أن جميع طبقات المجتمع في بلادنا تشترك في أنسابها اشتراكاً لا يميز طبقة على أخرى، فقد كانت هذه البلاد منذ القدم مَهْدَ العنصر العربي الأصيل، وجميعُ سكانه يرتبطون بذالك الأصل، إنْ نَسَبًا وإنْ صِهْرًا، وإنْ حِلْفًا وإن وَلاءً، والعربُ أنفسُهم منذ أقدمِ عصورهم لا يفرِّقون بين هذه الأمور، فليس الأصل عندهم مُجَرَّدَ الانتساب إلى جدٍّ واحد، بل تتكون القبيلة قديمًا وحديثًا من فروع تنتمي إلى أصول متعددة، وإنِ انْتَسَبَ بعضها إلى أب واحد، إلاَّ أن عناصر أخرى تختلط بها، وتشاركها الانتساب، وإن كانت تنتمي إلى أصول أخرى، ولا يزال هذا أكثرَ بُرُوْزًا في القبائل العربية في عهدنا الحاضر.

الأمر الثالث: إنني على أساس ما تقدم لا أرى بين طبقات المجتمع في هذه البلاد من لا يَمُتُّ إلى أصل عربي بإحدى الوسائل المتقدمة. ومن هنا فأنا لا أهدف مما أتحدث به عن الأنساب إلى التمييز بين الطبقات، وقد أشرت في مقدمة كتابى «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» إلى هذا مِمَّا لا داعي لتكراره.

ولو صح وَصْفُ كلٍّ من ألَّف في علم النسب بأنه يسعى للتمييز بين طبقات مُجْتَمَعه، لشمل هذا صفوةً ممتازةً من أجلة العلماء قديماً وحديثاً، فَعِمَادُ كتب سيرة المصطفى ـ عليه الصلاة والسَلام ـ عِلْمُ النسب، والمَعْنِيُّوْنَ بهذا العلم من السلف الصالح من عهد الرسالة إلى العصر الحاضر لا يُحْصَوْنَ كَثْرَةً، وهل يصح أن يوصف من أَلَّف فيه ـ وفيهم الأئمة في العلم والدين ـ بإيجاد وسائل الفرقة بين المسلمين، كأبِي عُبَيْدٍالقاسمِ بن سَلاَّم[٢]، وعالم قريش في عهده الزبير بن

بكّار[٣]، وإمام المذهب الظاهري ابن حزم[٤]، وشيخ المذهب الحنبلي ـ بل شيخ الإسلام ـ موفق الدين بن قُدَامة[٥]، وغير هاؤلاء ممن لا يُحْصَى كثرةً، ومؤلفاتهم في الأنساب معروفة[٦].

الأمر الرابع: أنني أرى أنَّ الأمة كلما أوغلت في التحضر تخلَّتْ عن المميزات القبلية التي من أبرزها النسب، فالقبيلة تحافظ عليه لحاجتها إلى الاحتماء والمؤازرة، والمناصرة من قبل أقربائها فيه، ولكنها بعدما تَتَحَضَّرُ تصبح في غنى عن ذالك، ولهذا فأعرقُ القبائل تَحَضُّرًا جهلت أنسابها بعد أَنْ رأت أَنْ لا حاجة إليها، وقد يتخلَّى الْقَبَلِيُّ عن نسبه لسبب من الأسباب الأخرى، لكي يندمج في المجتمع الذي يعيش فيه، أو تُلْجِئُهُ الحاجة، فيمارس مهنة من المهن التي تترفع العرب عن ممارستها[٧]، أو يدفعه إلى عدم الانتساب أمر من الأمور الأخرى كارتكاب جناية وخوف من عقوبة[٨].

ولا يمنع هذا وجودَ فئةٍ قليلة من الموالي، ممن وفد من خارج الجزيرة، وهؤلاء في الغالبِ يَبْدُوْنَ من سُحَنِهِمْ، ولكنهم مع طول مكثهم في البلاد يندمجون في المجتمع القَبلي، الذي يعيشون فيه اندماجاً تامًّا، بحيث يصبح لهم الحقُّ أن يتمتعوا بجميع ما يتمتع به هذا المجتمع من حقوق، وأن يقوموا بكل الواجبات التي يقوم بها غيرهم، فتتَّحدُ أهدافهم وغاياتهم، ومن ثَمَّ يصبحون جزءاً من هذا المجتمع بحيث لا يصح التمييز بينهم وبين غيرهم، في أي أَمْرٍ من الأمور.

الأمر الخامس: أنَّ نظرتي إلى الأنساب تغاير من يرى فيها بمفردها تَفَوُّقاً أو ميزةً أو اختصاصاً بفضيلة، إذِ الْفَخْرُ بالأحساب، أو الطعن في الأنساب من أخلاق أهل الجاهلية التي قضى عليها الإسلام، وأبطلها

منذ أن أنزل الله جلَّ ذكره: ﴿ وَأنْ لَّيْسَ لِلإنْسانِ إلاَّ ما سَعَى ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ ولأنَّ الله جلَّ ذكره أوجدَ الخليقة من أصل واحد: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ فلا فَضْلَ لأحدٍ على أحد إلا بالعملِ الصالح النافع.

واتجاهي للكتابة في هذا الجانب من حياة الأمة نَاشِيءٌ عن أسباب:

السبب الأول: أنَّ علم الأنساب كانَ هو أُوْلَى الوسائل لتدوين تاريخ العرب، والكتب المؤلفة في ذالك عُنيَ بها في الدرجة الأولى الناحية التاريخية بذكر ذَوي الأعمال، الذين بَرَّزُوا على غيرهم بها، من شجاعةٍ أو كرم أو غير ذالك من الخصال المحمودة.

السبب الثاني: أنني أنظر إليها لكونها جانبًا من تُرَاث الأمة العربية، الذي ينبغي الحِفَاظُ عليه كغيره من جوانب التراث الأخرى، وكلُّ أمةٍ من الأمم عربية أو غير عربية، تُعْنَى بالحفاظ على تراثها، ثُمَّ لها بعد ذالك أن تنظر إلى الجوانب النافعة من هذا التراث فتستفيد منه، وإلى النواحي الأخرى فتحاذره وتنآى عنه.

السبب الثالث: أنني أُدْرِكُ إدراكاً تامًّا أَنَّ الوعيَ في الأمة قد بلغ درجة من النُّضْجِ والقوة، بحيث يميز الأهدافَ والغاياتِ مما يُقَدَّمُ له من نتاجٍ فكريٍّ، وقد أدركَت الأمة ـ بوعيها منذ أقدم عصورها ـ أَنَّ الإنسان بعمله، لا بنسبه، وقديماً كانت الحكمة المأثورة: (كُنْ عصَاميًّا، ولا تَكُنْ عِظَاميًّا) أَخْذاً من قول الشاعر الجاهلي النَّابغَة الذُّبيَانيِّ:

نَفْسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا   وعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإِقْدَامَا

حَتَّى عَلا، وَجَاوَزَ الأَقْوَامَا [٩]

وما زالت هذه الحكمة متوارثةً قولاً وَعَملاً حتى عهدنا الحاضر، فالشاعر الشعبي محمد بن حَمَد بن لَعْبُونَ المتوفى سنة ١٢٤٧هـ يَقُوْلُ:

يَفْتَخِرْ ـ حَاشَاكْ ـ بِالْعَظْم الرِّمِيْمَ   مَفْخَرَ الْبَزُّوْنْ بِالسَّبْع الْغَشُوْمْ

وأبلغ منه الشاعر محمد بن عبد الله القاضي، إذْ يقول:

لا يَفْتَخِرْ مَنْ جَادَ عَمُّهْ وخالُهْ   (هِيْ بِالْهِمَمْ لاَ بِالرِّمَمْ) مِثْل مَا قَالْ

أي إِنَّ المرءَ بهمته، وبِمَا لَهُ من أفعال حميدة، لا بافتخاره بالرِّمَمِ البالية من الأجداد، ومن هنا نرى في مجتمعنا أُسَراً لا تُعَدُّ حَصْراً، لا تُعْنَى بالتَّعَلُّقِ بأصولها القديمة وإن كانت كريمة، كما قال الشاعر(١٠):

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ   يَوْماً عَلَى الأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا   تَبْنِيْ وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وعلى ذكر هذا البيت يحسن إيراد قِصَّة طريفة عن الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أوردها الريحاني(١١) قال: قَرَأْتُ مرّة في حضرة السلطان ما كُتبَ فوق باب المجلس وهو:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا   يَوْماً عَلَى الأَنْسَابِ نَتَّكِلُ

وجاء مغلوطاً مبنىً لا معنىً، فقلتُ ـ والمعنى ما يهم: ليس أشرف منه مَبْدَءَا يامولاي، ولا أشرف منه حِكْمَةً، وإنّي أُجِلُّ وأَحترِمُ أهلَ نَجْد، لأنهم يعملون بها، ولأن السيادة والمجد في بيت آل سعود نشأ عنها أَأَنْتُمْ عِصَامِيُّون دِيْمُقْرَاطِيُّونَ، ونحن في زمن يرفع العِصَامِيَّ الدِّيْمُقْرَاطيَّ فيه إلى أعلى المقامات، ولكن البيت الثاني:

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا   تَبْنِي وَنفعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوْا

ها هنا الخطر الأكبر، وإنَّا إذا تساهلنا في تحليل البيت نُسَلِّمُ بنصفه

الذي ولا شكَّ ينفع الشرقيين العملُ به، إذ لا أظن أننا نستطيع نَبْذَ الماضي كُلِّهُ بحذافيره، فلا بأس أن نبني كما كانت تبني أوائلُنَا، فَقَطَعَ عظمةُ السلطان قائلاً: نحن نبني يا حضرة الأستاذ كما كانت تبني أوائلُنا، ولكنَّنَا نفعل فَوْقَ ما فعلوا، فقلت: أَحْسَنْتَ يا طويل العمر، أَحْسَنْتَ!! أَصْلِحُوا البيتَ إِذَنْ حتَّى إذا قرأ كُلُّ من تشرف بالمثول لديكم:

نبْنِـي كَمَا كَانَـتْ أوَائِلُنْـا تَبْنِي، ونَفْعَلُ (فَوْقَ) مَا فَعَلُـوْا

نعم! هناك أسرٌ كريمة كثيرة، قد يكون لها من فضيلة النسب ما جهلته، ولكنها بَرَّزَتْ في جوانب أخرى من الأعمال النافعة، فرفعت قَدرَها، وأعلت ذكرها، إذ ساهمت في رفع شأن الأمة في جوانب متعددة.

الحواشي:

(١): تناولت الكلام عن علم النسب كثيراً في مجلة «العرب» التي دخلت سنتها الثامنة والعشرين في شهر رجب ١٤١٣هـ وفي مؤلفات صدر منها:
١ ـ «معجم قبائل المملكة العربية السعودية» صدر في مجلدين.
٢ ـ «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» صدر في مجلدين.
٣ ـ «نظرات في اختلاط الأنساب وتداخلها» لم ينشر.

(٢): ابن سَلاَّم أبو عُبيد القاسم بن سلاَّم (١٥٧/٢٢٤هـ) أصله من هراة (بلاد الأفغان) عالم محدث أديب، له مؤلفات كثيرة منها كتاب «النسب» نشر نشراً سيئاً في الشام وتحدثت عنه في أحد أجزاء مجلة «العرب» حديثاً.

(٣): الزبير بن بَكَّار (أبي بكر) الزُّبيري القرشي (١٧٢/٢٥٦هـ) من أبرز علماء الأدب والتاريخ، له مؤلفات منها في النسب «جمهرة نسب قريش» وهو من أجل ما أُلِّف في موضوعه، صدر الجزء الأول منه بتحقيق الأستاذ محمود شاكر.

(٤) : ابن حَزم: علي بن أحمد (٣٨٤/٤٥٦هـ) عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، وله مؤلفات في الحديث والفقه والسيرة من أشهرها «الْمُحَلَّى» في الفقه، ومن مؤلفاته «جمهرة أنساب العرب» مطبوع.

(٥) : ابن قُدَامة: عبد الله بن أحمد بن محمد (٤٥١/٦٢٠هـ) مؤلف كتاب «المغني» في الفقه الإسلامي وغيره من المؤلفات ومنها في الأنْساب «التبيين في نسب القرشيين» و «الاستبصار في نسب الأنصار» وهما مطبوعان.

(٦) : انظر كتاب «طبقات النسابين» للدكتور بكر بن أبي زيد ـ عضو هيئة كبار العلماء ـ والكتاب مطبوع.

(٧) : لعراقة العرب في جزيرتهم في البداوة صاروا يحتقرون الصناعات إذ هي من آثار الحضارة والعمران، وهذا من أسباب تخلفهم عن ركب الحضارة في أول عهدهم.

(٨) : كأن يرتكب جريمةً فيخشى العقوبةَ إن عُرِف، فيلجأ إلى بلدة لا يعرف فيها ويُخْفِي نسبه.

(٩) : عصام هو حاجب الملك النعمان بن المنذر.

(١٠): الشعر للمتوكل الليثي، وهو المتوكل بن عبد الله من شعراء الدولة الأموية، وجمع شعره الدكتور يحيى الْجُبُوْرِي، انظر «العرب» س٦ ص ١٥٩ .

(١١): كتاب «ملوك العرب» ج٢ ص ٩٧.

بسم الله الرحمن الرحيم من بومباي ٥ شعبان ١٣٤٨ [illegible]

جناب الاجل الامجد المحترم [illegible] حضرة سيدي [illegible] الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل المعظم دام [illegible] [illegible]

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته تعالى الدوام والسؤال عن تلك الذات البهية والاخلاق الرضية وعن [illegible] وتلك [illegible] الينا بكم مكتوب [illegible]

وصل لنا هذا الطرف [illegible] [illegible] بوصول هذا الطرف

[illegible] ماسية [illegible] السبع [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] شهر رمضان المبارك [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] والسلام [illegible]

(آل حمدان): أسرة عِصَامِيَّة كريمة*

ومنْ عَمَلٍ سُدَّتْ عليَّ فيه جَميعُ المنافذ والطرق لتأديته على خير وجه أستطيعه، كي يحقق الغاية المتوخَّاة منه فيما أرى، وهو تدريس العلوم الدينية في (تحضير البعثات) و(المعهد)، إلى عمل أُسْنِدَ إليَّ بأكمله وحدي، لأَتَولَّى البدْءَ بإنشائه، ثم الاستمرار بالقيام به، وهو تنظيم شؤون دراسة أبناء وزير جليل، من أسرة عِصَامِيَّةٍ[1] كريمة، تدعو المناسبة لتوطئة الحديث عن نشأتها، ثم عن عميدها ذالك (الوزير) الذي عشت في كنفه، مشمولاً بالتقدير والاحترام ما يزيد على عامينِ، من ١ / ١١ / ١٣٦٠هـ [٩ / ١١ / ١٩٤١م] إلى أول ذي الحجة ١٣٦٣هـ.

من الأسر الكريمة العصامية التي برزت بجليل أعمالها، في منتصف القرن الماضي أُسْرَةُ (آل سليمان الحمدان). ولئن أحاط الغموضُ جوانب من تاريخ نشأتها في أول أمرها كغيرها من كثير من أسر البلاد النجدية، في عهود لا يُهْتَمُّ فيها بتدوين ما يتعلق بتاريخ حياة الأسر، ولا يعنى بضبط أنسابهم، بل كان ينظر إلى هذا الأمر من بعضِ تلك الأسر نظرة استخفاف، تَأَثُّراً بالحديث الشريف: (من أَبْطَأ به عمله لم يسرع في نسبه)[2]، إلاَّ أنَّ مما لا شكَّ فيه أن هذه الأسرة تبوأت خلال ثلاثين عاماً من النصف الثاني من القرن الماضي من سُمُوِّ المكانة، وعلوِّ القدر، وارتفاع الذكر والصِّيْت، ما أصبحت به مغبوطة بل محسودة على ما قامت به من جليل الأعمال، وما ارتفع لها في زمنها من ذائع الصيت في عهد الملك عبد العزيز.

---

* المجلة العربية، العدد (١٨٨)، رمضان ١٤١٣هـ / شباط وآذار ١٩٩٣م.

ولقد حدثني الأخ الشيخ سعد بن عبد العزيز الرويشد، أنه سمع من عميد هذه الأسرة الشيخ عبد الله السليمان*، أنها كانت في أول ما عُرِف من أمرها تقيم في مدينة الدِّرْعيَّة، حتى حدث لهذه المدينة سنة ١٢٣٣هـ [١٨١٨م] ما حدث من تخريب العدو الغازي، وتشتت أهلها، ومن اؤلئك (أسرة آل حمدان) التي تشتتت كغيرها من الأسر الكثيرة من أهل هذه المدينة، فمنهم من انتقل إلى بلدة الزُّبَيْر وغيرها خارج هذه البلاد، ومنهم من استقر في بلدة الْخَبْرَاءِ[٣] من بلاد القصيم، على مقربة من مدينة عنيزة، ومنهم من حل في مدينة حائل، ومن سكن إقليم الوشم، وكان من الفروع الذين استوطنوا بلدة الخبراء (آل سليمان)، إذ امتهن والدهم فيها مهنة الفلاحة كسكان تلك القرية، ومعروف أن حالة الفلاحة في ذالك العصر كثيراً ما تسبب لمتهنها من الفقر والفاقة والشدة وتراكم الديون، ما يضطره إلى تركها بعد أن يعجز عن مواصلة عمله فيها، وهكذا كانت حالة حمد بن سليمان بن حمدان، جدُّ الأسرة الذي انتقل إلى مدينة عنيزة في أواخر القرن الثالث عشر، فاستقر فيها في بيت في محلة الْمُسْهِرِيَّة، شرقَ الجامع الكبير[٤] في قَلْب تلك المدينة، حيث ملك هذا البيت المجاور لمنزل عالم عنيزة الشيخ صالح القاضي[٥]، وكانت هذه المدينة من أقوى المدن النجدية وأكثرها حركة وعمراناً، وكان لسكانها من النشاط في الأعمال التجارية ومن الاتصال بالعالم الخارجي لذالك ما هو معروف.

وقد ولد لحمد بن سليمان في هذه المدينة ثلاثة أبناء لم يعقب منهم سوى سليمان الذي عاش بين أهل بلدته كسائر أهلها على حالة من الكفاف، إلاَّ أنه رزق بثلاثة أبناء هم محمد وعبدالله وحمد، توفي

* ألّف عبدالرحمن بن سليمان الرويشد كتاباً تضمّن سيرة الشيخ عبدالله السليمان الحمدان (مطبعة دار الشبل ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م). (ش).

أبوهم بعدما كبر أكبرهم، فقام مقامه بشؤون أخويه حتى بلغا مبلغ الرجال، وقد نال محمد طرفًا من المعرفة مع ما كان يتصف به من ذكاء دفعته إلى التطلع إلى حياة أفضل مما هُوَ فيه، فوجه أخويه إلى هذه الوجهة، وقويت الصلة بين الإخوة الثلاثة بكبار الأثرياء في هذه المدينة، ومنهم الشيخ مقبل بن عبد الرحمن الذكير، المتوفى سنة ١٣١٤هـ، وبغيره من مشاهير التجار الذين يمتد نشاطهم إلى خارج البلاد في الخليج العربي، وفي الهند، وفي مصر والشام، فغادر الإخوان عبد الله وحمد مدينة عنيزة سنة ١٣٣٢هـ [١٩١٣م]، مع الشيخ مقبل الذكير[٦]، وكان أخوهما محمد قد سبقهما في السفر إلى الهند، حيث كان أحد مشاهير التجار العرب في تلك البلاد، وهو الشيخ عبد الله بن محمد آل فوزان[٧]، وكان لهذا الثَّرِيِّ صلة قوية بالملك عبد العزيز ـ رحمهما الله ـ في أول عهده لِتَوْحِيد أجزاء هذه المملكة، فَلَمَّا استقر له الأمر رغب من ابن فوزان اختيار رجل يعول عليه في تنظيم أمور ديوانه، فبعث إليه بمحمد بن سليمان أكبر الإخوة الثلاثة، فتولى إدارة شؤون الديوان من سنة ١٣٣٥هـ، حتى سنة ١٣٣٨هـ، حيث أصيب بداء عضال في رأسه مما سبب له فقد حاسة السمع، فسافر إلى البحرين للعلاج[٨] بعد أن استقدم أخاه عبد الله من الهند، فحل محله في العمل، إلا أن المرض لم يمهل محمداً، حيث توفي، فاستقر أخوه عبد الله مكانه حتى سنة ١٣٤٤هـ [١٩٢٥م]، وعندما عزم عبد العزيز ـ رحمه الله ـ السفر إلى الحجاز في ربيع الثاني سنة ١٣٤٣هـ، بعثه هو والشيخ حافظ وهبة والدكتور عبد الله الدملوجي[٩]، لتهيئة الأمور هناك، استعداداً لقدومه إلى تلك البلاد، ثم أسند إليه سنة ١٣٤٥هـ تنظيم الواردات المالية في الحجاز، فأنشأ (وكالة الشؤون المالية) وأبدى من الكفاءة وحسن

التنظيم ما كان دافعاً لأن يُوْكَلَ إليه الإشراف على شؤون واردات الدولة بصفة عامة، ثم حُوِّلَتْ هذه الوكالة سنة ١٣٥١هـ إلى (وِزارةٍ) أُسندت إليه، فكان أَوَّلَ من عرف بلقب (الوزير) في هذه البلاد، وعين أخوه الشيخ حمد وكيلاً له، يتولى الأعمال باسمه ونيابة عنه، واختار ابنُ سليمان من أقاربه وأعوانه من وثق بكفاءته وإخلاصه في أداء عمله، في عَهْدٍ قَلَّ العثور فيه على ذوي الكفاءة والمقدرة، والإخلاص في أداء ما يسند إليهم القيام به من أعمال، ولكن هذه الصفوة التي اختارها ابن سليمان كأخيه حمد وبعض أقاربه نالت من ثقة مليك البلاد ما هيأ لها أن تبرز من إخلاصها وكفاءتها، ومن حسن تصريفها لما وكل إليها من أعمال ما عَمَّقَ تلك الثقة، وقَوَّاهَا في نفس الملك، فكان ذالك من أقوى الأسباب لكي يبلغ ابن سليمان وآل سليمان كلهم ما بلغوه، لأنهم كانوا يتوخون في جميع تصرفاتهم تحقيق رغبات مليكهم، وبلوغ ما يطمح إليه في إنشاء هذه المملكة، وهو أن يوطِّدها على أسس العدل، ويقيمها على دعائم تقوية روابط الأخوة والمحبة والمساواة بين أفراد الشعب، وبذالك يَقْوَى الْمُلْك، وترسخ قواعده، ولا أبلغ في ذالك من استمالة القلوب بالإحسان إليها:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ[١٠]

وإِذَنْ فليس غريبًا أن يتخذ ابنُ سليمان وآل سليمان تأسِّياً بمليك البلاد، وتَرَسُّماً لخطى سيره، وتحقيقًا لما يطمح لبلوغه من غايات، مما وكل إليهم القيام به وبلغت ثقته بهم غايتها في نزاهة قصدهم وصدق إخلاصهم، أن يتخذُوْا من ذالك أقوى الوسائل في اجتذاب القلوب، واستمالة رغبات نفوس الشعب لهذا الحكم الميمون، بالإحسان إليهم،

ومن هنا حفظ التاريخ لهذه الأسرة من جميع الذكر في هذا العصر ما هو معروف، مما لا يتسع المقام للحديث عنه أكثر من إيراد لمحاتٍ موجزة، أدع تفصيلها لمناسبة أخرى.

لم تنحصر أعمال (الوزير) في أمور وزارة المالية، بل رُبط بهذه الوزارة (شؤون الحج) و (التموين) و (الزراعة) و (الأشغال العامة) و (السيارات) وما يجري مجراها[11]، وكما قال الأستاذ خير الدين الزركلي[12]: لم يبلغ إنسانٌ من رجال عبد العزيز ما بلغه عنده عبد الله بن سليمان الحمدان، من ثقةٍ، ونفوذ كلمة وتمكُّنٍ ـ إلى أن قال ـ : وتقدم عبد الله عند الملك بحسن خطه وبذكائه ونشاطه[13] فسلمه عبد العزيز صندوق دراهمه ثم دنانيره ينفق منه على بيته وأضيافه، واستقرت الدولة، وأقبلت أموال النفط، وتفرد ابن سليمان وحده بلقب (الوزير) و(معالي الوزير) واستمر هو الشخصية الأولى في الدولة بعد الملك وكبار الأمراء مدة وزارته الطويلة، ولم يقتصر عمله على المالية، بل أضيفت إليه مهام أخرى كالدفاع قبل أن تتألف وِزَارته، و(وكالة الخارجية) و(شؤون المعادن) ومنها البترول وما يتصل بذالك من اتفاقات، ومداولات داخلية وخارجية، وبلغ من ثقة عبد العزيز ـ رحمه الله ـ بابن سليمان ألا تخرج برقية من ديوان الملك بإحدى الشفرات الخاصة أو العامة في جميع شؤون الدولة، إلاَّ أرسلت بالبرق ثلاث نسخ منها إلى (ولي العهد) و(النائب العام) و(ابن سليمان).

حقًّا لقد بلغ الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان عند الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ منزلةً قَلَّ أن يبلغها وزير لدى ملك، وقد كان ابن سليمان لما أبداه من إخلاص وكفاءة في أعماله وحسن

تَصَـرُّفٍ جديراً بهـذه المكانة، وكـان الملك عبـد العـزيز ـ رحـمـه الله ـ يعرف الرجال حقَّ المعرفة، ويقدر ذوي الكفاءات منهم، فلا غرو أن يستمر في تلك المنزلة ما يزيد على ثلاثين عاماً، قد فوض إليه الملك في الشؤون المالية مطلق التصرف، لثقته بأنه لن يخرج في تصرفاته عن الأهداف والغايات التي يسعى الملك لتحقيقها وإدراكها.

ولكن كما قيل: (رِضَا الناس غايَةٌ لا تُدْرَكُ) ولا يَضيرُ ابنَ سليمان ما دام قد حظي برضا مليكه، وسار في جميع أموره عن ثقة واطمئنان، بأنه يتوخَّى ما هو خير لهذه البلاد قدر طاقته، وقد أمضى حياته متمتعاً بأسمى ما يطمح إليه إنسانٌ في الحياة، وأعقب من حميد الذكر ما يتردد صداه.

لقد وُلد ـ رحمه الله ـ سنة ١٣٠٥هـ، واتصل بالملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ سنة ١٣٣٨هـ، واستقال في أول المحرم سنة ١٣٧٤هـ، بعد أن خدم مليكه ـ الذي توفي قبل استقالته ـ ما يقرب من خمس وثلاثين سنة، ولقي ربَّه في مدينة جدة سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) بعد أن تجاوز عمره ثمانين عاماً.

ويبدو أن الأستاذ الزركليّ ـ رحمه الله ـ وقد تحدث عن استقالته[١٤] وعن وفاته[١٥] كان مُتَأثِّراً بصديقه يوسف ياسين، الذي كان بينه وبين ابن سليمان مجافاةٌ ونفورٌ، وقد قدم الجميع على ما قَدَّمُوْا:

وَمَنْ ذَا الَّذِيْ تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

الحواشي :

(١) : العِصَاميُّ : هو الإنسان الذي لا يعتمد على حسبه ونسبه، بل يُبْرِزُ له قيمة وقدراً بأعماله، عملاً بالمثل العربي: (كُنْ عِصَامِيّاً ولا تكن عِظَامِيّاً) .

(٢) : قال صاحب كتاب «كشف الخفاء والالتباس عما يدور من الحديث في ألسنة الناس» رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

(٣) : بلدة زراعية عمرت في منتصف القرن الثاني عشر على ما ذكر ابن عيسى في كتابه «تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد» نشر (دار اليمامة) وتقع على ضفة وادي الرُّمَة، والآن مدينة من أكبر مدن القصيم، وتبعد عن بريدة قاعدة المنطقة غرباً ما يقرب من سبعين كيلاً.

(٤) : جُلُّ هذه المعلومات من كتاب بعث به إلي صاحب الفضيلة الشيخ محمد العثمان القاضي بتاريخ ٥ جمادى الأولى سنة ١٤١٣هـ.

(٥) : الشيخ صالح بن عثمان القاضي من أجلّة العلماء في عصره، علماً وَوَرَعاً وصَلاحاً، وهو من أسرة القُضَاةِ المشهورة، من الوهبة من بني تميم، ولد سنة ١٢٨٢هـ وتوفي سنة ١٣٥١هـ، انظر: ترجمته في كتاب حفيده الشيخ محمد بن عثمان القاضي «روضة الناظرين» ج١ ص ١٥٢ .

(٦) : مقبل بن عبد الرحمن الذكير المتوفى سنة ١٣٤١هـ كان من أشهر أثرياء أهل نجد في عهده، ذَا مآثِرَ في فعل الخير، وذا اهتمام في نشر المؤلفات النافعة كمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأمهات كتب الفقه عند الحنابلة كـ «شرح الاقناع» و «المنتهى» .

(٧) : انظر «العرب» س٤ ص ٩٠، وهو والد الشيخ يوسف الفوزان الذي كان سفيراً للمملكة في أسبانيا، ثم في لندن، وتوفي ـ رحمه الله ـ.

(٨) : انظر عن ذالك صورة كتابه بخط يده للامام عبد العزيز ـ رحمهما الله ـ .

(٩) : مقدمة كتاب «جزيرة العرب في القرن العشرين» لحافظ وهبة.

(١٠): البيت لأبي الفتح علي بن محمد البُسْتِي المتوفى سنة ٤٠٠هـ من قصيدته التي مطلعها :

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ وَرِبْحُهُ غَيْرَ مَحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ

(١١): انظر : كتاب «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» ـ ص ٣٧٦ـ .

(١٢): «شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز» ـ ص ٩٠٩ ـ وما بعدها.

(١٣): بل بشيء أهم من كل ذالك وهو إخلاصه وكفاءته.

(١٤): «شبه الجزيرة» ـ ص ٩١١ ـ . فقد حاول ربط استقالة ابن سليمان بقدوم شاعر لبناني بعد وفاة الملك عبد العزيز بما يقرب من عام فمدحه بقصيدة جاء فيها بيت معناه : أنه صار مع الملك كجعفر عند هارون الرشيد فقال من سمعه : البرامكة؟! وما مضى زمن حتى استقال، لأمرٍ مَّا !! وقبلت الاستقالة، ولم يكن يتوقَّع قبولها، كذا قال الزركلي : وما هذا سوى تخرصات لا

حقيقة لها، فمنزلة ابن سليمان في نفس خليفة الملك عبد العزيز كمنزلته في نفس عبدالعزيز، وما كان ابن سليمان بحاجة إلى أن يبقى في العمل فقد بلغ من عمره ما أرهقه العمل خلاله، واحتاج إلى الراحة.

(١٥): قائلاً : إنه عمل بعد استقالته في تشمير ثروته بمشروعات ضخمة إلى أن توفي. والواقع أن ابن سليمان لو أراد الثراء الضخم لناله بأسهل الطرق، ولكنه في آخر حياته أراد أن يختم أعماله بعمل صالح في خدمة مواطنيه، فقرر في مدينة عنيزة وغيرها إجراء أعمال برٍّ تستمر بعد وفاته منها الإنفاق على مائتي حاج من عنيزة في كل عام بكل ما يحتاجون ذهاباً وإياباً، ومنها صيانة قنوات آبار عذبة تبلغ ثلاثين بئراً عليها آلات رافعة للمياه لإدخال مائها إلى مدينة عنيزة، ومنها تعمير مساجد وأمكنة عامة غيرها، وأمور أخرى لا داعي لذكرها، فخير أعمال البر أخفاها.

في (المدرسة الوزيرية)*

وكانت الاستقالة من وظيفة التدريس، والاتفاق مع الوزير للإشراف على تعليم أبنائه، في استقبال وقت الحج، واشتغال موظفي الدولة وعلى رأسهم الوزير بما ينبغي اتخاذه، من ترتيب متطلبات حج الملك وخاصته، والإشراف على أحوال الحجاج بصفة عامة.

وقد كان أهم ما يهدف إليه الوزير بشأن تعليم أبنائه تنظيم دراستهم عندما يكونون معه في بلدة الْخَرْج، حيث قرر إمضاء أكثر وقته في هذه البلدة، مُشْرِفاً على إنشاء المشروع الزراعي الذي اتجه إليه اتجاهاً يكاد يكون تامًّا.

هما شهران من عام ١٣٦٠هـ من أشهر الحج، ذو القعدة و ذو الحجة، أعقبتهما فترة قصيرة مضى كُلُّ ذالك في انتظار القيام بالعمل الجديد، ولكنني استفدت خلال ذالك الانتظار راحةً، وازددت علماً، فلقد أبديت للوزير الرغبة في أَنْ يَكِلَ إليَّ من الأعمال ما أُشْغل به الفراغ، حتى يحينَ وقت السفر إلى الخرج، فما كان منه إلاَّ أن اتصل بالشيخ عبد الله المحمد الحمدان، وكان يتولى إدارة فرع من فروع وزارة المالية، مرتبط بالوزير نفسه، وقد اختار كل موظفيه، وهذا الفرع هو المعنيُّ بتصريف جميع الأمور التي لها صلة بمخصصات الملك، وما يحتاج إليه هو وأسرته الكريمة، عندما يقدم إلى مكة المكرمة.

ويُعَدُّ هذا الفرع أهم فروع الوزارة ويدعى (مصلحة اللوازم)، وإليه

---

* المجلة العربية، العدد (١٨٩)، شوال ١٤١٣هـ / آذار ونيسان ١٩٩٣م.

يرجع الوزير في صرف كل ما يحتاج صرفه دون الاتصال بفروع الوزارة الأخرى مما يتطلب إجراؤه تَأَنِّياً وإبطاءً، بعض الوقت من حيث التنفيذ، بخلاف (مصلحة اللوازم) فالأمور تتم فيها بأسهل الطرق وأسرعها، وبمجرد صدور أمر الوزير بِأَيَّة وسيلة من الوسائل.

اتصل بي الشيخ عبد الله المحمد الحمدان، وأخبرني بأن (العم)[1] أمره ليختار لي عملاً مناسباً ريثما يحين وقت السفر إلى الخرج، إذْ أبناؤه الآن يدرسون مع أبناء أخيه الشيخ حمد، في مدرسة خاصة، وعطلة الحج مقبلة. وأضاف: وقد تكون بحاجة إلى ما يشغل وقتك، وقد خصصت لك مكتباً بقرب مكتبي، لكي تشرف على شؤون التحرير، وهذا العمل باختيارك ورغبتك، ولست مُطَالباً بأن تقيد بالقيام به بوقت أو عمل.

كان ذالك مع تقرير مرتب شهري، هو ما سأتقاضاه في عملي المقبل، مع تخصيص (مصرف)، وهذا هو كمية من الطعام وغيره تصرف في أول كل شهر من (الشونة)* وتفي بكل متطلبات الشهر، مع استئجار مسكن ملائم اختاره، يُهَيَّأُ لي ما يلزمه من أثاث.

وتم تنفيذ كل ذالك في وقت قصير، بحيث تمكنت من أن أقضي ما عليَّ من ديون.

هما أمران: أقْسى ما يصاب المرء بهما في حياته، كنت أصبحت تلك الأيام فريسةً لهما، إنهما (القَهْرُ) و (الْفَقْرُ) فقد ضُويْقت بالأمر الأول بدرجة أرغمتني على كراهية العمل الذي أحببته، واخترته،

---

* لفظة عامية، تعني «مستودع» الأرزاق، ولعل أصلها تركي، وهناك من يعتقد أنها من «الشؤون». (ش).

ووطنت نفسي للقيام به، وأمضيت شطراً من حياتي في ممارسته بحيث اقتنعت اقتناعًا تامًّا أنني لا أصلح ولا أطمح ولا أرغب في غيره من الأعمال، وهو عمل التدريس، ولكنني الآن تركته مرغمًا من جراء ما أوضحته في سانحة قبل هذه، وابتُلِيْتُ بالثاني وهو (الفقر) بحيث اضطررت للسكن مع أحد أصدقائي، ممن حالته كحالتي، في حجرة من حجر رباط الدَّاوودية في أسفله حيث ترشح مياه المجاري، وتنتشر بعض الحشرات والروائح الكريهة، لأنني لم أستطع دفع أجرة منزل مناسب لي وصرف الرواتب قد يتأخر بعض الوقت.

وها أنا الآن وقد أمضيت أياماً في هذا العمل الجديد الغريب حقًّا بالنسبة لي، أُحِسُّ بمنتهى الراحة والاطمئنان، فأنا لا أُكَلَّفُ بالقيام بِأَيٍّ عمل إلاَّ بموافقة ورغبةٍ مني، وقد يمضي الوقت بأكمله أكون منصرفًا أثناء وجودي في مقر العمل بمطالعة كتاب أو كتابة مقال، وقد أتخلف اليومين والثلاثة مكتفيًا بإخبار الشيخ عبد الله المحمد بذالك، ممضيًا الوقت في المطالعة في مكتبة الحرم، فقد أقبلت عليها نَهِمًا، وعنيت بنسخ بعض كتب أو تعليق ما قد أحتاج إلى مراجعته من فوائد، وأذكر مما نسخته تلك الأيام كتاب «طبقات الأمم» لصاعد الأندلسي عن نسخة قيمة كان أصلها بقلم علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (/ ٦٨٥ ٦١٠هـ) وقد فقدته مع غيره من كتب أخرى[٢].

لم أعدم أثناء عملي هذا من الاستفادة بِمعرفة عدد من الإخوة العاملين في هذا الفرع من فروع الوزارة، وتقوية صلتي بهم، ومنهم مدير (المصلحة) الشيخ عبد الله بن محمد الحمدان من أسرة الوزير نفسه، ومن خيرة من عرفت من الرجال طيبًا وسماحةَ نفس، وحرصًا

على فعل الخير، وملازمة للوقار، والحلم والهدوء في جميع أعماله، ولو أَقْسَمْتُ ـ لَمْ أحْنَثْ ـ بأنني لم أَرَهُ يوماً مًّا غاضباً مع كثرة من يتصل به من الناس، واختلاف طباعهم، ومن بينهم من يتصف بالغلظة والقسوة، والشدة في كلامه معه، ومع ذالك فقد كان يقابل الجميع بالابتسامة والرضا، ومحاولة إقناع كل واحد وإرضائه(٣).

كما عرفت الشيخ عبد الله السعد (عبد الله بن سعد آل قُبْلَان) وهو في المصلحة ذُوْ هَيْمَنةٍ وإشراف تامٍّ على جميع شؤونها، يصرفها بحكمة وبنزاهة وإخلاص، والشيخ عبد الله السعد عاش في كنف (آل سليمان) فأحسنوا تربيته وتوجيهه، منذ أن كان طفلاً كما قال هو: تربيت في كنف عبد الله السليمان منذ الطفولة، وتعهدني وأكرمني، وأحسن إليَّ في كل مراحل عمري، وسعى إلى ترقيتي في كل وظائفي في الدولة إلى أن صرت وكيل وزارة، ولا أزال أذكر عطفه وحنانه في معاملتي(٤).

وعبدالله من أبناء البادية من قبيلة (بَلْحَارث) المشهورة، وتمتدُّ بلادها من السراة جنوب الطائف، منحدرةً إلى السهل جنوبي جبل حَضَنٍ(٥)، فيما بين الطائف وتُربَة، وعاش في مدينة الرياض في أول حياته، ثم انتقل إلى مكة فأكمل الدراسة الابتدائية في إحدى مدارسها، ودخل المعهد السعودي فأكمل فيه الدراسة(٦) سنة **١٣٥٢هـ**، وعمره يقارب عشرين عامًا(٧).

وقد شغل الأستاذ عبد الله السعد بعد عمله في (مصلحة اللوازم) وكالة وزارة المالية، فوكالة وزارة المواصلات خمس سنوات، فوزارتها حتى سنة **١٣٨١هـ** [**١٩٦١م**]، إذْ أُحيل إلى التقاعد، ويعد الأستاذ عبد الله من الأدباء، فله أسلوب في الكتابة رَشيق، وصدر له مؤلفان

يتعلقان بقضية فلسطين، أولهما : «النكبات الثلاث» و الثاني «على خط النار» ألفه بعد أن قام برحلة إلى الأردن سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) وألف كتاباً آخر هو «رسوم على اللوحة*» وقد حَوَى هذا الكتاب بعض النوادر التي كانت تتردد بين بعض الناس في مجالسهم العامة، وقد حُمِلَتْ على غير المحمل الذي أراد من ذكرها في هذا الكتاب، فالرجل صادق الولاء متفانٍ في خدمة مليكه وأسرته الكريمة، مقدر للرجال المخلصين من أبناء هذه البلاد، وما كان محلاً لِسَيِّءِ الظنون والأوهام، ولا يحمل ضغينة في قلبه، ولا حقداً على أحد ممن دارت الشكوك حول إلصاق تلك النوادر بهم، ولكن يغلب على طبعه سلامة القلب وطيبه، وكان من أثر ما أُخذ عليه أن انطوى عن المجتمع، وعاش في شبه عزلة إلاَّ من خاصته وبعض العارفين بما يتصف به من صدق طوية، ونزاهة قصد. وقد توفي في يوم الجمعة ثاني شهر ذي الحجة سنة ١٤١٤هـ [١٢ / ٥ / ١٩٩٤م] ـ رحمه الله ـ عن نحو (٨٤) عاماً .

وعرفت أخاه خالداً ذا ميول أدبية إلاَّ أن الوظيفة شغلته حتى توفي ـ رحمه الله ـ وله ابنة تُعَدُّ في أوائل المثقفات من فتيات بلادنا، اللواتي عُنِينَ في وقت مبكر بمعالجة بعض قضايا المجتمع بكتاباتهن في الصحف**، كما عرفت تلك الأيام قَدْهِي المحمد[٨]، أمين الشؤون الخاصة في (مصلحة اللوازم)، ومن أبرز صفاته تهلل وجهه بالبشر دائماً، والابتسامة التي تعلو محياه، كما عرفت لمحمد بن سليمان أخي الوزير ابناً هو : علي المحمد، أمين الصندوق، وصالح الأحمد الذكير،

* اسم الكتاب رموز على اللوحة، طبع في مطابع الأصفهاني وشركائه بجدة . د.ت . (ش) .
** الدكتورة نورة خالد السعد . (ش) .

مدير التحرير، وغيرهما ممن أراني لو تحدثت عنه لخرجت عن الموضوع.

أزف الترحل إلى بلدة (السيح) في إقليم الخرج، وهي بلدة أُنشئت حديثًا لسكنى الوزير وموظفيه، وكبار العاملين في مشروع الزراعة هناك، وفي قصر فسيح تقع مساكن الوزير في شرقيه، كان اختيار المدرسة ملاصقًا للمكتب الخاص، وفي جوانب أخرى من القصر منازل بعض الموظفين، وفي مقدمه من الغرب مسجد كبير يفصل بينه وبين بيوت الوزير فناء واسع (حوش).

أما المكان المُعدُّ للدراسة فَيتكوَّنُ من حجرتين، وبهو صغير في مقدمهما، وما كان الطلاب في أول الأمر كثيري العدد، فهم لا يزيدون قليلاً على العشرين، منهم من أبناء الوزير: عبدالعزيز، وخالد، وأحمد، وفهد، ومن أبناء أخيه حمد: يوسف بن حمد، وعبدالرزاق بن عتيق جده محمد بن سليمان أخو الوزير، ومعهم إثنان من أبناء عبد الرحمن القصيبي صغيران ، وعدد من الحشم المرافقين لأولئك، كانوا في أول الأمر ينفردون عنهم أثناء الدراسة حتى حبَّذْت للوزير أن من الأحسن مشاركتهم في الدراسة، وعدم حرمانهم من العلم، فَسُرَّ بذالك.

وما كنت في أول الأمر أتوقع أن عدد الطلاب سيزداد، ولهذا فقد اكتفيت باختيار مساعدين اثنين لي في التدريس، وسارت الأمور سيراً حسناً[٩].

لقد أدركت من خلال عملي بمهنة التدريس فترة طويلة، أن من أهم ما يحبب التلميذ ويرغبه في تلقي الدراسة، أن تزول الكلفة بينه وبين أستاذه، وأن تقدم له المعلومات أسهل ما تكون وأقربها إلى فهمه، بحيث تبسط له تبسيطاً يتلاءم مع إدراكه، يضاف إلى هذا أن تكون

مشوقة بحيث لا يَمَلُّهَا، أو يجد فيها من الجفاف ما يصرفه عن تلقيها، وقد سرت على ذالك فاستطعت التغلب على ما يحدث من قصور من بعضهم بسهولة ويسر، وكان من ذالك القصور تأخر بعضهم عن الحضور في الصباح لصغرهم واستغراقهم في النوم، مما اضطرني في أول الأمر إلى تأخير البدء في الدراسة، حتى تم معالجة هذا الأمر من قبل المشرفين عليهم في المنزل.

أما أداء بعض الواجبات المتعلقة بدروسهم ـ كحل بعض التمارين ـ فكنت أستعمل وسائل الترغيب التي اجتذبتْ من يحدث منه تقصير، وقد ألجا إلى بعض العقوبات التي لا تجرح شعورهم، إما بتأخير الانصراف، أو بمعاتبة المقصر على انفراد، ولا أنسى أنني في إحدى المرات، أثناء ذالك، ولعل صوتي ارتفع فما شعرت إلاَّ بـ(الوزير) واقفًا عند باب الفصل، وهو يحرضني على إيقاع العقوبة على ذالك الطالب، وكان أحد أبنائه، فما كان مني من أثر الانفعال إلاَّ أن قلت: أرجو أن تذهبَ إلى عملك، وتَدَعَنَا وشأْنَنَا!! فانصرف وكان مسروراً ـ كما علمت فيما بعد ـ.

سارت الدراسة على هذه الوتيرة سيراً مرضيا.

لقد ألف التلاميذ فقلّ تخلف صغارهم عن الحضور، وشاع بينهم من روح التنافس في تلقي الدروس ما دفعهم لبذل جدهم واجتهادهم دون حوافز أخرى، وهناك جانب ذُوْ أهمية في الناحية التربوية في اتجاه التلميذ في دراسته، هو أثر البيت في ذالك، ولقد كان بالنسبة لهاؤلاء التلاميذ عميقاً وقويًّا ونافعًا، فوالدهم مع استغراق جُلِّ وقته لأعماله ـ التي قد يطغى الاهتمام بها على ما عداها، كان شديدَ الحرص على توجيه أبنائه توجيهًا حسنًا في أخلاقهم وسلوكهم، فاختار المربيات

الصالحات لهم صغاراً، ومرافقيهم في أولى مراحل حياتهم، وكان كثيراً ما يتقصّى أحوال سيرهم وسلوكهم أثناء الدراسة. ولعناية أمهاتهم[١٠] بهم من هذه الناحية لا في البيت وحده، بل وفي المدرسة أَثرٌ محمود، يضاف إلى كل ذالك انعدام الوسائل التي قد تلهي الصغار أو تشغلهم، أو يكون لها تأثير في صرفهم عن الدراسة، فلم يحدث ما هو منتشر الآن من أنواع اللهو واللعب، ولم تدخل آلة المرناة (التلفاز) البيت في هذه البلاد.

ومن هنا قامت تنشئة هاؤلاء الأبناء منذ صغرهم في سلوكهم وطباعهم ومعاملتهم لغيرهم على أسس صالحة.

وأقبل موسم الحج فكان الانتقال إلى مكة والبقاء فيها حتى انقضى، وأعقب ذالك الاصطياف في مدينة الطائف حيث استؤنفت الدراسة، وفي آخر العام أكمل أوائل التلاميذ الدراسة الابتدائية وفق المنهج المقرر من قبل (مديرية المعارف)، وأقيم لذالك احتفال حضره مديرها السيد محمد طاهر الدباغ وكبار موظفيها وغيرهم، وكان من أوائل اؤلئك عبد الرزاق العتيق[١١] حفيد [سبط] الوزير من ابنته، وعبد العزيز ابنه، ويوسف ابن أخيه حمد[١٢] وغيرهم.

لقد أصبح اؤلئك الذين أكملوا الدراسة الابتدائية بحاجة إلى مواصلة الدراسة في المرحلة الثانوية، وتهيأ الباقون للسير في دارستهم دون تعثُّرٍ، ومن هنا أوضحت للوزير أن من المناسب إلحاقهم بالمدارس المصرية، فالدراسة الثانوية في بلادنا تكاد تكون منحصرة في (مدرسة تحضير البعثات) وهي تُعِدُّ للابتعاث خارج البلاد، وما كان اؤلئك بحاجة إلى الإعداد، إذْ من الممكن إيجاد الوسائل التي تهيىءُ لهم

استكمال مراحل الدراسة هناك، دون خلل ينشأ من جراء عدم الانسجام بين سير الداسة في بلادنا، وفي المدارس المصرية، بسبب اختلاف المناهج، وكوَن التدريس في مدارس بلادنا يُعَدُّ في مراحله الأولى.

وقد وافق الوزير على ذالك، فقرر بعث أبنائه، وأبدى لي الرغبة بأن أذهب معهم، فكان ما سأوضحه في سانحة أخرى.

الحواشي :

(١) : كلمة (العم) تستعمل في نجد بمعنى أخي الأب، وكبير السن و(السيد) أو كما يفسرها العامة (العم من عمتك نعمته) فهي لا تنحصر بأخي الأب، والوزير بالنسبة لعبدالله المحمد عَمٌّ حقيقة.

(٢) : انظر سانحة « وللفاقة أثرها في حياة الفتى » .

(٣) : مما يذكر له من الأفعال الكريمة أن أحد طلاب البعثة العلمية الأولى حين أعادتها الحكومة من مصر سنة ١٣٤٨هـ أتى إليه طالبًا مقابلة الوزير، فلما علم عبد الله بغايته من ذالك أمره أن يعود إليه بعد ثلاثة أيام، فلما عاد وجده قد هيأ له الركوب إلى مصر في الباخرة، وجواز السفر، ودفع له مبلغًا من المال يكفي للإنفاق عليه مدة من الزمن، ووعده بمساعدته في المستقبل فعاد هذا الطالب للدراسة هناك، فكان ثاني تلميذ في نيل الشهادة الابتدائية عام ١٣٤٩هـ في القطر المصري، مما دفع وزارة الثقافة هناك لتكافئه بضمه إلى فرقة الكشافة في رحلة إلى أوروبا على حسابها، وأن تعفيه من مصاريف الدراسة.

(٤) : انظر مجلة « اقرأ » تاريخ ١٤١٢/٣/٤هـ العدد ٨٣١ .

(٥) : حضن : جبل في عالية نجد مشهور وفيه المثل :(أَنْجَدَ من رآى حضناً) وقد وهم الريحاني فزعم هذا حديثًا في كتابه « تاريخ نجد الحديث» .

(٦) : انظر مجلة « اقرأ » تاريخ ١٤١٢/٣/٤هـ العدد ٨٣١

(٧) : فقد ولد على وجه التقريب سنة ١٣٣٠هـ « المنهل » المجلد الـ (٢٧) ص٧٣٢ تاريخ رجب ١٣٨٦هـ، ومن طريف ما حدث له ، أنه ألقى أمام فيصل ــ رحمه الله ــ في إحدى زياراته للمعهد كلمة معدة عن طلاب السنة الثانية ثم ألقى بعدها كلمة كان أخفاها نصها : (مولاي . . بمناسبة المقام وبصفتي وليد تلك الواحات النجدية أقول : نظرت إلى ما عملتم في أرضنا

الحجاز المقدسة فسررت كثيرًا ، وحمدت الله على ذالك، ولكنني سمعت من أختها نجد صوتا عالياً مزعجاً جاءت به نسيم الصبا، وردَّدَهُ الصدّى في جبال الحجاز وهي تصرخ وتقول : أين نصيبي مما عملتم في شقيقتي؟!. أما تعلمون أنني مسقط رؤوسكم وآخر حصن لكم، فبكيتُ وسأظل أبكي حتى تجيبوا نداءها!!) .

(٨) : هو والد الأستاذ إبراهيم القدهي وكيل وزارة الإعلام للشؤون المالية والإدارية [وإخوانه] .

(٩) : وقد كان من أثر ما رأيت من رغبة أولياء الأمور في بلدة السيح بتعليم أبنائهم أن تقدمت بطلب إلى الوزير بذلك، وأن تنشأ المدرسة على حسابه، فوافق وأفضل بالأمر بفتحها، واقترحت الصديق الأستاذ عبد الكريم الجهيمان ليكون مديرًا لها، انظر جريدة «الجزيرة» العدد ٣٩١٦ تاريخ ٢٩ شعبان ١٤٠٣هـ صفحة ٨ العمود السادس.

(١٠): أمهات أبناء الوزير من فضليات النساء ينتمين إلى أسر كريمة، فأم عبد العزيز من أسرة (آل فضل) المعروفة بالثراء من أهل عنيزة ومنها رجال بارزون منهم: عبد الله المحمد الفضل، الذي كان معاونًا لفيصل حين كان نائبًا لوالده الملك رحمهما الله، ومنهم عبد الله بن إبراهيم الفضل الذي تولى مناصب في وزارة المالية، ثم سفيرًا للمملكة في مصر، وآخرون غيرهم.
وابناه خالد وأحمد والدتهما من آل الخريجي الأسرة العنيزية المعروفة وأصغرهم فهد والدته من أسرة (آل أبي هليل) العسيرية المعروفة.

(١١): وعبد الرزاق هذا جده من قبل الأب محمد بن سليمان الحمدان، مدير ديوان الإمام عبد العزيز سنة ١٣٣٨هـ وهو أخو الوزير، والوزير جدُّه من قبل الأم وقد توفي بحادث سيارة.

(١٢): ووالدته من أهل الأحساء أخت لأم محمد الابن الأكبر للوزير.

لمحة عن عمران (الخرج) قديماً*

أمضيت في بلدة (السيح)[1] بمنطقة الخرج فترة من الزمن في عامي (١٣٦١هـ و ١٣٦٢هـ) وكنت أتولى عملاً يتطلب مني جهداً شاقًّا، وانصرافاً إليه تامًّا، إلا أنني عشت تلك الفترة من فترات حياتي في غاية من الهدوء والراحة، لما هُيِّئَ لي من مختلف الوسائل التي تتيح لي الاستقرار والهدوء الذهني، يضاف إلى ذالك ـ وهو أمر مُهِمٌّ ـ أن مجتمع بلدة (السَّيْح) إذ ذاك كان مجتمعاً طبعيًّا أبعد ما يكون عن مظاهر التكلف، فكل الأمور تسير على غاية من البساطة والسهولة واليسر، فخالطتُّ مختلف الطبقات، وعرفت كثيراً من أهل البلاد، ومن الوافدين عليها، واجتمعت ببعض مثقفيها، وكان أبرزهم عالمها الشيخ عبد الله بن محمد بن فوّاز، ينتمي إلى أسرة (زعْبٍ)[2] السَّلَمِيَّة الشهيرة. وهو من أورع علماء هذا العهد، وأبعدهم عن المظاهر، وأزهدهم في الدنيا، وكان يقيم في بلدة اليمامة، وكان اجتماعي به لِماماً، في أوقات قصيرة.

وكان ممن عرفته الشيخ إبراهيم إسلام[3] ـ من كبار موظفي وزارة المالية ـ عرفت فيه التواضع، وسعة الاطلاع على أحوال العالم، ومحبة الخير لكل أحد، كما عرفت عن كثب الأستاذ محمد حسين زيدان[4] ـ وكان أميناً لصندوق وزارة المالية. ويرافق الوزير أو يحضر للاجتماع به في الخرج، وقدم إلى السيح تلك الأيام باقتراح من الوزير، بعثة مكونة من عشرة طلاب بعثتهم مديرية المعارف للاستفادة بما يجري في مزارع

---

* المجلة العربية، العدد (١٩٠)، ذو القعدة ١٤١٣هـ / نيسان وأيار ١٩٩٣م .

الخرج من تجارب زراعية حديثة، ويرأس هذه البعثة الأستاذ عبدالحميد عنبر[٥]، ومن أعضائها الأستاذ صالح بن عبد العزيز بن جهيمان، وسبق لي أن عرفت الأستاذ عبد الحميد، من الكتاب البارزين بما ينشر له في الصحف من كتابات، فقويت الصلة بيننا، بحيث كنا نقضي كثيراً من وقت فراغنا معاً، بالقراءة، أو بالتجوال بين الحقول، وقد نتسلى بصيد اليرابيع، وأنا أجيد ذالك[٦].

ولا أزال أذكر أننا في إحدى المرات حاولنا أن نتشبه بعلماء الآثار، فقد كان يمتد في الجانب الجنوبي بامتداد مدينة (السيح) حَزْمٌ مرتفع تنتشر فيه الرُّجوم ـ جمع رجْم* ـ التي يقال بأنها مقابر لبعض من كان يسكن تلك البلاد في العهد الجاهلي من الأمم البائدة كَطَسْمٍ وجَدِيْس[٧]، وفي إحدى المرات عقدنا العزم على نبش أحدها، فأحضرنا معنا من العمال من يتولى الحفر، واخترنا أحد أبرز تلك الرجوم، وبعد إزالة ما فوقه من الأحجار سار الحفر مع ما كان محفوراً قبل استخراج ما فيه من تراب، حتى جاوز المترين، فانتهى دون أن يتبين في داخل الحفرة شيء، فهل كانت تلك الحفر معدَّةً لدفن أجساد تامة، وأُخرجت قبل حفرنا، أم كانت لوضع رماد أو جزء صغير يعبر عن الميت، مما لم يبد لنا عند الحفر، أو أنها في الأصل ليست قبوراً؟! .

ولأدع ما يتصل بي أثناء إقامتي في هذه البلدة الطيبة، لما قد يكون أكثر فائدة للقراء، وهو ما يتعلق بعمرانها القديم، وهو جزء من تاريخها الذي لا يتسع المجال لتفصيل الحديث عنه، فأكتفي بإيراد نبذة موجزة عن عمرانه في العهد الإسلامي.

---

* مرتفع صخري. (ش).

حَبَا الله منطقة الخرج ما هيأها لأَنْ تكون من أصلح البقاع للانْتفَاع بهـا زراعةً وغـرَاسًـا وحَرْثاً، فـالميـاه غزيرة، والتـربة خـصبـة، والأرض واسعة، إِنَّهـا سَهْلٌ أَفْيَحُ واسع، مستطيلٌ من الغرب إلى الشرق، تفيض فـيه السيـول من جهاته الثلاث، ففي جهـته الغربية تقع سلسلة جبـال العـارض (عَارض اليـمامة). ويبـدو من بينهـا جبل الكـلب الذي ذكـره الأعشى في قصة زَرْقَاءِ اليمامة:

مَا نَظَرَتْ ذَاتُ أَشْفَارٍ كَنَظْرَتِهَا ... حَقًا كَمَا صَدَقَ الذِّئْبِيُّ إِذْ سَجَعَا

إِذْ نَظَرَتْ نَـظْـرَةً لَيْـسَـتْ بِكَـاذِبَـة ... إِذْ يَرْفَعُ الآلُ رَأْسَ الْكَلْبِ فَارْتَفَعَا

وَقلَّبَتْ مُـقْـلَـةً لَيْـسَـتْ بِمُـقْـرِفَـةٍ ... إِنْسَانَ عَيْنٍ ومُؤْقًا لَـمْ يَكُـنْ قَمِعَا

قَـالَتْ: أرَى رَجُلاً في كَفِّه كَـتِفٌ ... أَوْ يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهْـفِي أَيَّةً صَنَعَا

فَكَذَّبُـوهَـا بِمَـا قَـالَتْ فَـصَبَّـحَـهُـمْ ... ذُو آلِ حَسَّانَ يُزْجِي الْمَوْتَ والشَّرَعَا

فَاسْتَنْزَلُوا أَهْلَ (جَوٍّ) مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ... وَهَدَّمُـوا شَاخِصَ الْبُنْيَانِ فَـاتَّضَعَا

وتنحـدر إِليـه أوديتـهـا، تلك الجـبـال كـوادي العِـرْضِ (عِـرض بني حنيـفـة)، ووادي لُحَـاء[8] ـ بضم اللام ووادي مَلكَ بكَـسر اللام ويعرف باسم (الأوسط)، ووادي نِسَـاح بِكَسـر النون وأودية أخـرى غـيـرها، ويحـيط بهـا من الشـمال جـبـال الْعَـرمَـة. ومنهـا تسـيل أودية في هذا السـهل الفـسيح، ومن النـاحيـة الجنوبـية يَلُبُّ بـها حَزْم مـستطيل يدعى قـديمًا (الدَّام)، ومنه بعض الأودية والشعـاب التي تسـيل إلى هذا القـرار من الأرض كَـوادِي (الرَّيْحـانِي) المعـروف قـديمًا بـاسم (الـروحـان) الذي يقول فيه جرير :

يَاحَبَّذَا (الْخَرْجُ) بَيْنَ (الدَّامِ) فَـ(الأَدَمَى)

فَالرِّمْثُ مِنْ بُرْقَةِ (الرَّوْحَانِ) فَـ(الغَرَفُ)

أمـا من الجـهة الشـرقـيـة فتليـهـا كثبـان (الدَّهنا)، فَتَنْحَـصِرُ سيـولـها

وتحجزها عن الجرَيان، وقد كانت في القديم تستمر فتكوِّنُ واديًا عظيمًا، يشق تلك الرمال، ويخترق شرق الجزيرة حتى يفيض في ساحل الخليج بين (قَطَر) وبلاد الإمارات، ولا يزال يُرى لذالك المجرى آثار في الأمكنة التي تقل فيها الرمال، ويطلق عليه في بعضها اسم (السهباء) لامتداده من روضة (السهباء) التي تُنَهِّيْ بها الأودية.

وهذا السهل الواسع من الأرض تقدر مساحته بما يقارب مئة كيل طولاً من الغرب إلى الشرق، ونحو النصف من ذالك عرضًا، وكان ذا مياه غزيرة على ما يبدو من الآثار الباقية، وكان في أعلاه عين تدعى عين (الفرزة) عرفتْ إلى عهد قريب باسم (فَرْزَان)، ويبدو أن بعض العيون كانت تجري سيْحاً كالأنهار، فتسقي حروث المنطقة وما فيها من حدائق النخيل، ثم تقلصت المياه وانخفضت، ولم يبق من تلك العيون سوى ثلاث في أعلى بلدة السيح تُعْرَفُ احداها باسم (نَبْعَة) والثانية (عين الضلع) والثالثة (أم خيْسَة) وكانت أشبه ببحيرات صغيرة، وقد ركبت فوقها في العهد الأخير آلاتُ ترفع الماء فتكون نهراً جارياً تروى به الأراضي التي حرثت للزراعة والغراس حول بلدة السيح في العهد الأخير، ثم امتد السقي إلى روضة السهباء.

ولقد شاع على ألسنة العامة قولهم: (سميت الخرج لكونها تخرج على الحرمين)، وليس هذا القول خطأ من كل الوجوه، فالخرج لغة هو الوادي الذي لا منفذ لسيوله أو ـ كما في «لسان العرب» ـ الخرج وادٍ لا منفذ فيه. وهذه المنطقة لا منفذ لخروج سيولها منها، وهذا مما يزيدها خصوبة.

أما القول بأنها كانت تخرج على الحرمين فله أصل وإنْ لم يكن

صحيحًا من كل وجه، فقد عرفت اليمامة ـ وهذه البلاد جزء منها ـ عرفت باتجاه كثير من سكانها لاستغلال الأرض في الفلاحة، ومعروف أن بلاد الحرمين ـ ولا سيما مكة شرفها الله ـ لا تجود حاصلاتها بما يفي احتياج أهلها، ولهذا فقد كانت البلاد المجاورة لها وخاصة اليمامة تُمدُّها بمحصولاتها الزراعية.

ذكر ابن هشام في «السيرة النبوية»[9] أن الرسول ﷺ، لما أسر ثمامة ابن أثال الحنفي، أحد ملكي اليمامة[10]، فأسلم بعد أن منَّ عليه الرسول ﷺ، وخرج إلى مكة معتمراً، فأرادت قريش قتله ولكنهم تركوه لحاجتهم إلى اليمامة، فقال لهم: ولا والله لا تصل إليكم حَبَّةٌ من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. ثم خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلِّيَ بينهم وبين الْحمْل.

ويتكرر الأمر هذا حين استولى نجدة بن عامر الحنفي على اليمامة سنة خمس وستين فيقطع الميرة عن الحرمين، حتى يكتب إليه عبد الله بن عباس: إنَّ ثَمامة بن أثال، لما أسلم قطع الميرة عن مكة، وهم مشركون، فكتب إليه رسول الله ﷺ: إن أهل مكة أهْلُ الله، فلا تمنعهم الميرة، فخلاَّها لهم، وإنك قطعت الميرة ونحن مسلمون فخلاها لهم نجدة[11].

ولا تسعف المصادرُ الباحثَ بإمداده بمعلومات مفصلة عن حالة هذه البلاد الاقتصادية في العهد الأمويّ، إلا أن مما هو معروف أن معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ كان ذا عناية بالعمران، وخاصة ما يتعلق منه بالفلاحة، وقد ولَّى مروانَ بن الحكم على المدينة، وأضاف إليها

اليمامة، ويذكر صاحب «الأغاني»[١٢] أن مروان كان إذ ولي المدينة وجه أبا حفصة إلى اليمامة، وكانت مضافةً إليها ليجمع ما فيها من المال ويحمله إليه.

ويَروي ابن الأثير في «تاريخه»[١٣] أن (الخضارم) كانت لبني حنيفة، فأخذها منهم معاوية بن أبي سفيان، وجعل فيها من الرقيق ما عدتهم وعدة أبنائهم ونسائهم أربعة آلاف، ويرى بعض المؤرخين أن هاؤلاء هم الذين عُرِفو باسم (الصعافقة) ـ جمع صعفوق ـ وأنهم كانوا من خدم مروان الذين أنزلهم اليمامة، وأن مروان بن أبي حفصة كان منهم[١٤]، والخضارم التي سبق القول بأنها كانت لبني حنيفة هي في منطقة الخرج، وليست الخضرمة الواقعة بين حَجْرٍ ومنفوحة قديماً[١٥].

غير أن ما اتجه إليه معاوية من العناية بزراعة هذه المنطقة الخصبة من البلاد إذ جلب إليها العدد الوافر من العبيد لم يكن ذا أثر كبير، إذ حدث بعد وفاة معاوية وابنه يزيد ـ أن استولى أبو طالوت على هذه البلاد، ويبدو أنه كان قاصر النظر، فعمد إلى اؤلئك الزراع من الرقيق الذين جعلهم معاوية يصلحون الأرض فيزرعونها، فقسمهم بين أصحابه ـ أي عدهم غنيمة حرب ـ، وتلك طباع من تغلب البداوة على أخلاقه، يفضل القليل العاجل على الخير الكثير الآجل، وإن شئت فقل: إنها نظرة ابن البادية بصفة عامة إلى الحضارة.

وَمَنْ تَكُنِ الْحَضَارَةُ أَعْجَبَتْـهُ فَأَيَّ رِجَالِ بَادِيَةٍ تَـرَانَـــا ؟

ولكن نجدة بن عامر الحنفي كان أبعد نظرة منه، فقد استولى على قافلة كانت تحمل أموالاً فأتى بها إلى أبي طالوت ومن معه في الخضارم فقال نجدة: اقتسموا هذا المال واجعلوا غلة هذه السيوح لكم، ولمن لحق

بكم، وردوا هذا الرقيق فدعوهم كما كانوا يعتملون الأرض ويعمرونها، فإن ذالك أَرَدُّ وأنفع، فاقتسموا المالَ وقالوا لأبي طالوت: إنما بايعناك على أنا إن وجدنا خيراً منك بايعناه وبايَعْتَهُ، ونجدة خير لنا منك فبايعوه[16].

ويبدو أن تعلق الأمويين بالتملك في هذه البلاد استمر بعد زوال حكم نجدة، فقد ذكر البلاذري أن عبد الملك بن مروان بعث عبيداً له من الروم إلى أموال كانت له باليمامة، فتأذَّى بهم الناس، وخرجوا على الناس بسيوفهم عاصين، فقاتلهم بنو قيس بن حنظلة فقتلوهم، فقال مِيْجَاس:

ألا يا أمير المؤمنين ألم يكن ... لما جاهدتْ قيسٌ بَلاءٌ فيعلما
فلا تنس ملقانا من الروم عُصْبَةً ... عصوك وولَّوْا لا يالون محرما

وقد كان بنو حنيفة من أقدم القبائل تحضُّراً واعتناءً بالزراعة، ولهذا كانوا من أوائل من اتجه لعمران الخضارم الواقعة في أسفل مسيل واديهم، ولعنايتهم بالفلاحة كانوا يعيرون بها فيقول أحد الشعراء حين أَسندَ زياد سنة إحدى وخمسين ولاية خراسان إلى خُليد بن عبد الله الحنفي:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّيْ زيَادًا ... مُغَلْغَلَةً يخبُّ بِهَا الْبَرِيْدُ؟
أَتَعْزِلُنِي وتُطْعِمُهَا خُلَيْدًا ... لَقَد لاقَتْ حَنِيْفَةُ ما تُرِيْدُ
عَلَيْكُمْ بِالْيَمَامَةِ فَاحْرِثُوْها ... فَأَوَّلُكُمْ وآخِرُكُمْ عَبِيْدُ!![17]

ويروي ابنُ قتيبة في «عيون الأخبار»[18] أن قومًا من أهل اليمامة جَنَوْا جناية فأرسل السلطان إليهم جنداً من جند ابن زياد، فتصدَّى أهل اليمامة لحربهم، ويسوق ابنُ عبد ربه في «العقد الفريد»[19] خُطْبَةً

لأحد اليماميين، يحرض قومه على عدم الاستسلام قائلاً: يا معشر العرب، ويا بني الْمُحصَنات قاتلوا عن أحسابكم وأنسابكم، فوالله لئنْ ظهر هاؤلاء عليكم لا يَدَعُونَ فيها لبنةً حمراءَ، ولا نخْلة خضراءَ، إلا وضعوها في الأرض. انتهى، وفي هذا ما يشير إلى ارتباط أهل هذه البلاد بعمران الأرض فلاحة وتحضيرا.

وتتوالى القرون وأحوالُ قلب الجزيرة يغطيها ظلامٌ دامسٌ لم يحاول أحد ممن عني بتدوين التاريخ ـ فيما عرف حتى الآن ـ التَّصَدِّي لكشفه بإيضاح ما وراءه من حقائق، حتَّى يأذن اللهُ لها في منتصف القرن الثاني عشر الهجري بالصحوة الإصلاحية العامة، التي شملتْ جميع جوانب الحياة فيها، وفي أثناء فترة استيلاء الأجنبيِّ على هذه البلاد في عهد الإمام فيصل بن تركي، وفي سنة ١٢٥٥هـ، يتجه أحد قواد أولئك الغزاة إلى عمارة بلاد الخرج، على ما أشار إليه ابن بشر[٢٠] من قوله عن خورشيد باشا : ثم رحل من الخرج في آخر عاشوراء من هذه السنة، وأبقى في بلد السَّلَمِيَّة رجالاً من المغاربة والترك، وجعلهم في عيون الأسياح يعمرون ويزرعون، وقصد بعساكره الرياض ونزل فيها.

ثم يأذن الله بِأَنْ يشمل بفضله الجزيرة كلها فَيُقَيِّضُ مَنْ يوحِّدُ أجزاءها، ويتجه نحو عمرانها الشامل من جميع نواحيه، فينال هذه البقعة الطيبة من بلادنا نصيبها الموفور من ذالك العمران، على يد وزير ذالك الملك المصلح، الشيخ عبد الله السليمان في عام ١٣٦٠هـ، [١٩٤١م] فيجلب لها العلماء المختصين بشؤون الزراعة، لدراسة طبيعة الأرض، وأحوال المياه، تمهيداً للبدء باستثمارها والاستفادة منها، ثم يوليها هذا الوزير النشط من اتجاهه واهتمامه ما جعل منها واحةَ خصبٍ ونماءٍ وخَيْرٍ لهذه البلاد.

الحواشي :

(١): السيح : لا أستبعد أنها هي التي كانت تعرف قديمًا باسم (السيوح) والتي ذكر ياقوت في «معجم البلدان» أنَّهَا من قرى اليمامة التي لم تدخل في صلح خالد بن الوليد رضي الله عنه، لما قتل مسيلمة الكذاب، وفي «الأغاني» ١٣/٧٣ ـ ط. الثقافة، أن الخليفة الواثق أقطع مروان بن الحكم الجنوب ضيعة يقال لها (السيوح) في اليمامة ثم أمضاها له ـ الخليفة المتوكل .

(٢): عن نسب (زِعْب) انظر قسم الأنساب من كتاب «التعليقات والنوادر» للهجري، وزِعْب هو ابن مالك بن خفاف بن امريء القيس بن بهثة بن سليم .

(٣): هو عم الدكتور سامر بن صالح إسلام مدير مستشفى الملك خالد للعيون ووالده صالح من خيرة من عرفت نبلاً وكرم خلال، وتولى مناصب مالية من آخرها رئاسة أموال المنطقة الشرقية .

(٤): هو الأديب الذي تغني شهرته عن الحديث عنه، وقد توفي رحمه الله سنة ١٤١٣هـ .

(٥): توفي الأستاذ عبدالحميد عنبر ـ رحمه الله ـ سنة ١٣٩١هـ، وكان آخر عمل تولاه عضوًا في مجلس الشورى، وقد جمع آثاره ابنته حياة، في كتابين: الشعر بعنوان «اللُّجَيْن المذاب» والنثر بعنوان «ظننت المضيفة أول الأمر» .

(٦): [سبق توضيحها في سانحة: أصبحت مطوّعاً ، في الجزء الأول] وصَيْدُها يحتاج إلى مهارة، فاليربوع ذو حاسة بها يستطيع حفر جُحُره بطريقة يخفيها عن غير العارفين فهو يختار مكاناً منخفضًا كموطيء بعير وشبهه، فيزيل قشرة التراب التي فوقه لتأثرها بالشمس، ويبدأ الحفر ويخرج التراب ويسويه في هذه الحفرة الواسعة، ثم يسد بابه المفضي إلى الجُحْر، ويدمدم التراب الذي كان قشرة فوق تراب الْحَفْرِ ليخفيه، ويسمى هذا الموضع من جحره (الدَّامِثَاء) وفي داخل الجحر يجعله ثلاث شعب أو أكثر، شعبة يجعل نهايتها مدخل الجحر، فإذا دخل أخذ من تراب من داخل الجحر ودفعه برأسه حتى يسد الباب ويسمى هذا الباب (القَاصِعاء) وشعبة أخرى يحفرها حتى يشاهد ضوء الشمس من فوقه دون أن يثقب أعلاها، بل يكون رقيقاً ليسهل عليه كسره برأسه عندما يحس بعدوٍّ مهاجم، فيهرب من هذا الطرف ويسمى (النَّافِقَاء). أما الشعبة السفلى من الجحر فيوسع نهايتها ليجمع فيها عُشًا لفراخه، وقد يتخذ شعبة رابعة عندما يهاجمه أحد مع المنفذَيْن الأولين يعمد إليها فيحفر عندما يحس بالخطر ويوالي الحفر حتى يحس أنه قرب من سطح الأرض فيخترق نهاية هذه الشعبة برأسه ويهرب. وتُسَمَّى هذه الشعبة (الدَّامِنَاء).

(٧) : لطسم وجديس من العرب البائدة ارتباط وثيق بمنطقة الخرج، مفصل في كتب التاريخ.

(٨) : لُحَاء : هو الوادي المعروف الآن وضبطه ياقوت بضم اللام وقال بأنه كثير الزرع والنخل لِعَنَزَةَ ولا يخالطه فيهم أحد ، ووادي لُحاء بينه وبين مهب الشمال المجازة. انتهى ، فإذا كان يقصد

مجازة برك فالصواب مهب الجنوب، أما مجازة الطريق فوراء الدهناء بعيدة عن لُحاء ويؤيد هذا أنه لما ذكر واديَ مِلْكٍ وهو ما يعرف الآن باسم الأوسط قال : ومن ورائه وادي نساح، ووقع في معجم البلدان : ملك أكثر أهله بنو جشم من بني الحارث بن لؤي حلفاء بني زهران والصواب (بني هزّانَ).

(٩) : ـ ج٢ ص ٦٣٨ .

(١٠): «السيرة النبوية» ـ ج٢ ص ٦٠٧ ـ .

(١١): «تاريخ ابن خلدون» ـ ج٣ ص ٣١٥ ـ طبع دار الكتاب اللبناني.

(١٢): ـ ج٩ ص ٣٥ ـ طبعة الساسي.

(١٣): « الكامل » ـ ج٣ ص ٣٥٢ ـ .

(١٤): « تاج العروس » ، رسم (صعفق) .

(١٥): الخضارم وجو الخضارم حدد موقعها الهمداني في «صفة جزيرة العرب» ـ ص ٢٨٢ـ طبعة دار اليمامة، تحديداً واضحاً وهي غير الخضرمة التي كان منها أحمد بن أبي رِيَاش الأديب اليمامي المعروف وهي المشهورة بجودة البصل وموقعها بين حَجْرٍ (الرياض) وبين منفوحة، وكانت معروفة إلى عهد قريب.

(١٦): « أنساب الأشراف » للبلاذري ـ ج ١١ .

(١٧): « تاريخ الطبري »، حوادث سنة ٥١، وكذب هذا الشاعر فقد كانت بنو حنيفة وهم حَيٌّ لقَاح أي لا يدينون لأحد بطاعة لعزهم وشجاعتهم .

(١٨): ـ ج١ ص ١٣٢ ـ .

(١٩): ـ ج١ ص ٢٩ـ مطبعة الاستقامة بمصر .

(٢٠): « عنوان المجد » ـ ١٨١٢/٢ ـ طبع دارة الملك عبد العزيز .

في الطريق إلى الظهران*

وبعد سنتَيْنِ تزيدان قليلاً (من ١ / ١١ / ١٣٦٠هـ [٩ / ١١ / ١٩٤١م] إلى غرة ذي الحجة ١٣٦٣هـ) أمضيتها في الإشراف على تعليم أبناء الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان، وبينما أنا في زيارة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن ناصر العنقري، الذي أصبح فيما بعد صِهْراً لي**، وكان الوقت بعد عصر أحد أيام ذي القعدة سنة ١٣٦٠هـ، في بيته في محلة قَرْوَا في الطائف، إذْ بصالح العبَّاد ـ رئيس ديوان الأمير فيصل ـ في ذالك العهد، يدخل، وبعد أن استقر به المجلس سأل عني، ولم يسبق بيننا تعارُفٌ، فأشار الشيخ عبد العزيز إليَّ فقال صالح لي: إنَّ سمو الأمير يريد حضورك عنده الساعة الخامسة غَداً، فاستوضحت منه عن الغاية من ذالك، فأظهر عدم معرفته بها، فأخبرته بأنني لا أستطيع الحضور قبل الساعة السابعة، لأنني أتولى إدارة مدرسة أبناء وزير المالية، وتم تحديد وقت اللقاء في الساعة السابعة والنصف.

فقابلت الأمير في الوقت المحدد، وما كنت متوقِّعاً أن أحظى بما شاهدت منه من بشاشة ولطف، وحسن استقبال، إذ لم أجتمع به منذ سنين، ثم أخبرني بأنه تلقَّى أمراً من الملك بأن أَتَوَجَّهَ إلى الرياض سريعاً، فأوضحت له أنني على أتم الاستعداد لتنفيذ أَيٍّ أمرٍ يُطْلَبُ مني تنفيذُه، ولكن أودُّ إيضاح الغاية من ذهابي، لأنني الآن مرتبط بالعمل مع وزير المالية للإشرافِ على دراسة أبنائه، ومن ناحية أخرى فقد يحتاج ذهابي إلى الرياض التأهُّبَ لما أنا مَدْعُوٌّ إليه، فقال: إنه سَيُفْتَحُ

---

* المجلة العربية، العدد (١٩١)، ذو الحجة ١٤١٣هـ / أيار وحزيران ١٩٩٣م.

** والد أم محمد رحمه الله وأخيه وأخواتهما، وهي الزوجة الوحيدة للشيخ حمد الجاسر، انظر سانحة: عن الحياة الزوجية، وانظر حواشيها، (ش).

في الظهران مكتبٌ يتولى الإشراف على شؤون التعليم هناك، ومراقبة مما يرد من مطبوعات، وعلى ما ينشر من صحف ويراد من هذا المكتب الإشرافُ على كل ذالك، فأوضحت بأنني لا أصلح للعمل في هذا المكتب، لأنني لا أحسن اللغة الإنجليزية، ومن أهم ما ينبغي أن يتصف به من يتولى إدارتَهُ إجادَةُ تلك اللغة، ليتمكن من أداءِ عمله كاملاً، فقال لي: أنت ستكون مديراً لهذا المكتب، وسيكون معك من الموظفين من يتولى الترجمة.

كان الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الملحوق قد تخرج في دار العلوم [في مصر]، وعاد فوجد زميلين له تخرجا قبله هما: إبراهيم بن عبد الله السُّوَيِّل(1)، وعبد الله بن عبد العزيز الخَيَّال(2) يعملان في وزارة الخارجية، ففضل العمل في هذه الوزارة على العمل في التدريس، وبقي في انتظار ذالك شهوراً، فقلت للأمير: ألا ترون أن يسند اْلأَمْرُ إلى ابنكم عبد الله الملحوق، فقد درس اللغة الإنجليزية، وتخرج في دار العلوم، فأجاب: الأمر مُوَجَّهٌ إليك أنت، وإذا أردتَّ أن يذهب معك فلا مانع من ذالك، فأبديت الموافقة، إلاَّ أنني أوضحت له بأنني سأستخير الله سبحانه وتعالى، وغداً في مثل هذا الوقت سأخبر سموه بما عزمت عليه.

كان كبار أبناء الوزير قد أتموا الدراسة الابتدائية، وقد أُقِيمَ لذالك احتفال في الطائف، حضره مدير المعارف السيد طاهر الدباغ، وكبار موظفيها وغيرهم، وكان الوزير قد أوضح لي بأنه يرغب في بعثهم إلى مصر، لإتمام مراحل الدراسة الثانوية هناك، وأن أُذْهَبَ معهم لأقوم بالإشراف على سير أمورهم، فلم أُبْدِ أَيَّ اعتراض، إذْ في الوقت مُتَّسَعٌ، ولا يزال الأمر ـ فيما اتضح لي ـ في دور التفكير.

قابلت الوزيرَ بعد عصر اليوم الذي اجتمعت فيه بالأمير فيصل ـ وأخبرته بما جرى، فتأثَّر، وأعاد ذكر بعث أبنائه لإكمال الدراسة، وأن أكون معهم وقال: بأنه سَيُبْرِق للملك ليوضِّحَ له ذالك للبحث عن غيري.

كنت قد أدركت منذ أن عرض عَلَيَّ الأمرَ ـ في المرة الأولى ـ أنه لا جَدْوَى لذهابي إلى مصر لتلك الغاية، فأمورُ الدراسة سيتولَّى تنظيمها والإشراف عليها من هو أقدر مني، وماذا أستطيع عمله لتوجيه نَشْءٍ في فورة الشباب، عاش حياة فيها نوع من الكبت، يجد نفسه في بلاد كمصر، مُتَفتِّحَةً على جميع وسائل المغريات والترف، وغير ذالك، مما سَيُؤَثِّرُ أبلغ الأثر في حياة الطالب وسلوكه، كما أدركت أنني لن أستطيع التأثير مهما حاولت في سلوك اؤلئك الشباب، ومن ثَمَّ قد يُنْسَبُ إليَّ ما قد يحدث من تعثُّرٍ في دراستهم، مما لا يَدَ لي فيه، فأوضحت جانبًا من هذا للوزير، بل صارحته بعدم رغبتي في الذهاب إلى مصر، ورجوته بأن لا أكون وسيلةً في إيجاد سوء تفاهم بينه وبين الأمير فيصل، الذي أَبْدَيْتُ له استعدادي لتنفيذ ما أبلغني به، فما كان منه إلاَّ أن تَمَنَّى لي التوفيق في جميع أموري، وقنع بوجهة رأيي.

اتصلت بالأمير فيصل، وأخبرته بأنني على استعداد للسفر إلى الرياض، وأوضحت له أن من المناسب أن يسافر الأستاذ ابن ملحوق معي، فقال: لا مانع إنْ رغب، وأَخْبِرْهُ أنت بذالك، وكان إبراهيم السليمان ابن عَقيل ـ رئيس الديوان ـ واقفًا بين يديه، فأمره بترتيب السفر، وبعد توديع الأمير، قال لي إبراهيم: غداً يكون الغَدَاءُ عندي، فكان ذالك، وكان أن أَعَدَّ أَمْرًا إلى مدير البريد بإركابنا الاثنين إلى الرياض، في سيارة البريد، التي كانت لا تسير في الأسبوعِ إلاَّ مَرَّةً واحدة.

لم تكن الرحلة مُريحةً، فأمر السير، والنزول للاستراحة يتحكم فيه سائق السيارة، والرفقةُ خَليطٌ من أهل البلاد وغيرهم، يزيدون على اثني عشر راكباً، ويزدحمون في الأمكنة داخل سيارة من نوع (لوري) والطريق غيرُ مُعَبَّدٍ، والسائق وهو طُمْطاني[٣] أفريقي، يدعى هارون، لا يَفْهَمُ إنْ كُلِّمَ، ولاَ يُفْهَمُ إنْ تكَلَّم، وليس يعنيه شيء من أمور أصحابه، فهو ينظر إليهم كبضاعةٍ كُلِّف بِحَمْلها من بلد إلى بلد، وليس مطالبًا بالرفق بـ (بضاعته) المكدَّسَة داخلَ سيارته، فقد يقفز بها عقَباتٍ تدع الرؤوس تضرب سَقْفَهَا بشدة وعنف، أو يوقفها حين يشرف على نَشَزٍ، أو يَخْشَى أن تهْوِيَ في مُنْخَفضٍ فَجْأَةً فيتدحرجون داخلها، ويضرب بعضهم بعضاً، وبعد أن يأخذ التعبُ منه مَأْخَذَهُ ـ صارفاً النظر عما يحس به رفاقه مما يعانونه، وعن حاجتهم إلى الاستراحة ـ يوقف سيارته بدون اختيار للمكان الذي يقف فيه، ولو كانت منزلة الطريق على بضعة أكيال منه، وينفرد هو ومعاونه بتهيئة طعامهما، أما الباقون فأكثرهم كان يجهل أن المسافة ستطول، فلم يتخذ الأهبةَ بإحضار ما يحتاج إليه من زاد أو غيره، فكان يرمي بجسمه مُتَمَدِّداً على الأرض، بعد أن يتناول يسيراً من أكل قد ينفحه به بعض رفاقه، واستمرت الرحلة على هذه الصورة خمسة أيام كاملةً، حيث كان الوصول إلى مدينة الرياض في مساء اليوم السادس من مغادرة مدينة الطائف، وسيراً على هدى الْمَثل (صابِحِ القَوْمَ ولا تُمَاسِهِمْ) أو بالأولى الحديث المأثور «بُورِكَ لأُمَّتِي في بكورها» كان الذهاب في الصباح إلى القصر الملكي حيث تمت مقابلة إبراهيم بن جُمَيعة[٤]، ولما علم بالغاية التي حضرتُ لأجلها أمر بإنزالي في الضيافة.

وفي مساء ذالك اليوم أتاني رسول منه ليخبرني بأنني سأقابل الملك في الصباح، فبعثت إلى صاحبي، وكان ساكناً في بيت أبيه، ثم ذهبنا في الوقت المحدد فتم الاستقبال في (الشعبة السياسية) بحضور بعض موظفيها، وبَعْد أن استقرَّ بنا الجلوس بدأ الملك ـ رحمه الله ـ حديثه قائلاً: الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر ـ قدس الله روحه ـ من العلماء العاملين الزُّهَّاد، ولكن أهل الشر لا يتركون أحداً، وقد ينسبون إلى الإنسان ماليس فيه(٥).

ولما رأيته استرسل في الحديث قلت له: طال عمركم، إنه لا صلة بيني وبين الشيخ إبراهيم بن جاسر، فهو من أهل بُرَيْدَة، وأنا من أهل قرية الْبُرُوْدِ في السِّر، أنتمي إلى قبيلة حَرْبٍ، فقال: ظننتك ابنه ـ الله يعفو عنه ـ ثم أشار لنا ابن جُمَيْعة بالقيام والانصراف، وعند الخروج من المجلس قال لي: لماذا قاطعت الشيوخ الله يَهْدِيك؟! فقلت: لأوضح الحقيقة، لأنه يثني على الشيخ من قبيل إكرامي بحسن الاستقبال، ظَنَّا أنني ابنه.

ذهب الملك بعد ذالك بيوم إلى الخرج، فأتى إِلَيَّ رسولٌ من الطُّبَيْشِي(٦) في عصر اليوم الثاني ليخبرني بأن الملك استدعاني، وبعد المغرب أُحْضِرَتْ إلى دار الضِّيافَة سيارةٌ كبيرة حملتني وصاحبي إلى بلدة السَّيْحِ، حيث كان يقيم الملك ـ رحمه الله ـ وقد هُيِّيءَ لنا منزلٌ حسن فسيح، وكان قد قال لنا من أحضر السيارة: (يقول عبد الرحمن: سَنَعكم عند رُشْدِي)(٧) وفي الصباح زارنا الأخ محمد [بن عبد الرحمن] الشبيلي من موظفي (الشعبة السياسية)، وأبلغنا بأن الأستاذ رُشْدي ملحس مديرها يدعونا لكي نسلم على الملك، ولما استقر بنا المجلس، وقفَ

أحَدُ من فيه، ولعله ممن يؤمن بالحكمة المأثورة: (استعينوا على أموركم بالكتمان) وكان قد أعَدَّ قصيدة لهذه المناسبة، ولم يُطْلِعْ عليها أحدًا ـ فقال: أستأذن ـ يا طويل العمر ـ لإلقاء قصيدة، فقال: لا بأس، فكان أول ما طرق الأسماع جلجلةُ صَوْته الْجَهُوريّ في ذالك المجلس الذي لا يضم مع الملك أكثر من سبعة رجال: (أنْتَ آمالُنَا وفيك الرجاء)، وقد تبين ـ على ما فهمت فيما بعد ـ أن الوقت ما كان ملائماً، واتَّضَح هذا من شدة انفعال الملك عند سماع ذالك المَطْلَع، وإسكاته بعنف للمتكلم، واسترساله في إيضاح ما فيه من أمور لا يصلح أن يُقْصَدَ بها غيرُ اللّه سبحانه، كالرجاء أو تعليق الآمال، فحاولت أن أخفف من أثر ذالك فقلتُ: لعلَّ فيما بعد مطلع القصيدة ما يوضح هذا لو سمحتم ـ طال عمركم ـ في الاستماع إليها؟ ولكن التأثر كان شديداً فأبى، وقد أشار الأستاذ الزركلي في كتابه «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز»[٨] إلى ذالك.

لم يطل بنا البقاء في المجلس بعد ما حدث، وأشير لنا بالخروج، فخرجنا قبل أن نعلم من أمرنا شَيْئاً، وفي اليوم الثاني كان الذهاب إلى الديوان الملكي لمقابلة الأستاذ رشدي ملحس ـ مدير الشعبة السياسية وكان ـ والله يعفو عن الجميع ـ من أبرز صفاته الْكَزَازَة والتجهم[٩]، فلم نحظ بأكثر من قوله: الملك علم بقدومكم ولا أعرف أَكْثَرَ من هذا.

ومضى اليوم الأول، وزمن الانتظار والترقب طويل وإن قَصُرَ، إلاَّ أنَّ مما خفف ذالك أن مدير الضيافة الملكية اتصل بي، وعرض إنزال الشيخ سعود بن رشود[١٠] قاضي الرياض، معنا في هذا البيت الواسع، فرحبت بذالك، وحسناً فَعَلْتُ، فقد أدركت أنه ـ فضلاً عن علمه وخُلُقه ـ ذُو

ميـول أدبيـة، ومـعرفة لكثيـر من المواضع القـديمة في منطقـة الأفلاج، ويُعْنَى بحفظ ما يتعلق بها من الشعر العامي، فكان أن قرأت عليه ما ورد في «صفة جزيرة العرب» للهمداني عن (الأفلاج) وعلّقْت عنه فوائدَ، ذاتَ صلة بمواضع تلك المنطقة، واستفدت منه عن أنساب أهلها، وكان معه ابنٌ له يدعى محمداً، على جانب من الذكاء مع صغر سنّه، وبالصلة بهذا العالم الفاضل السَّمْح الْخُلُقِ، الرضيِّ النفس، شعرت بالراحة، وتمنيت لو أن زمن الاجتماع به يطول. إلاَّ أنني فُوْجِئت بعزمه على العودة إلى الرياض في ثالث يوم من تعارفنا، ولكن صلتي به لم تنقطع، فكنت كلما مررت بمدينة الرياض أحرص على مقابلته.

وعلى غِرَّةٍ من الأمر بالنسبة لنا في ضحوة يوم من أيام ذي الحجة سنة ١٣٦٣هـ اتصل بنا مدير الضيافة، وطلب أن نسرع السير معه إلى (الشعبة السياسية) وبعد أن أُدْخِلْنَا على الملك فيها، إِذِ الْمَجْلِسُ يضم مع من فيه مِن موظفي الشعبة وجوهاً غريبة، فلما استقر بنا المجلس قال الملك لرشدي: أَعطِ الأوراق فلاناً ليقرأها، وكان صاحبي أَخَفَّ مني، فتناولها من يد السيد رشدي، وشرع يقرأ ما فيها، فلما أبصر الملك أن القاريء ذُوْ عِقَالٍ، التفت متسائلاً: شَيْخٌ ويلبس عقالْ؟! فقال رشدي: الشيخ فلان جالس عن يمينك ـ طال عمرك ـ والذي يقرأ صاحبه. فأشار بيده إليه: هات الأوراق أعطوها الشيخ، فقدمت لي فقرأتها وأنا جالس، وكانت تحوي ما يجب السير عليه من قبل المكلفين بمراقبة التعليم في الظهران، وتبين أن من بين الحضور مدير شركة أرامكو في ذالك الوقت ويدعى (بَارْقَر) ومعه اثنان من كبار موظفي الشركة ومترجم هندي يدعى (عجب خان).

وبعد ظهر ذالك اليوم حضر إلينا السيد رشدي، والشيخ عبد الله اللنجاوي مدير مالية الرياض ، ومعه ما اعتاد الملك أن يكرم به ضيوفه من كسوة فاخرة، و(شَرْهَة)[11] وقدم لي رشدي كتاباً من الملك إلى الأمير سعود بن جلوي أمير الأحساء، وكتاباً آخر إلى ممثل الحكومة لدى الشركة، وكان إذْ ذاك السيد سامي كتبي بشأن ما خصص لنا من مرتب شهري، وبما يلزم من تَهْيئَةِ مسكن، وإعداد الوسائل التي تمكِّنُ من سير العمل وانتظامه على الوجه المطلوب.

وفي صباح اليوم التالي أتى إلينا إنسان قال بأنه قد أَحْضَر سيارة توصلنا إلى الظهران، وسيرافقنا إلى هناك، فكان المسير في ذالك الصباح، وفي اليوم الثاني كان الوصول إلى الأحساء، وبعد تناول العشاء مع الأمير سعود بن جلوي بعد صلاة العصر ـ وبذالك جرت العادة فيما مضى ـ كان السير إلى الظهران، وفي الساعة الرابعة ليلاً، [بالتوقيت الغروبي] كان الوصول والنزول في حَيِّ العمال، ولم يكن فيه بناء، وإنما المساكن أكواخٌ من جريد النخل، وألواح (فروش) من حجر البحر، تدعى (بَرَسْتِيَّات)[12] وكان الْجَوُّ بارداً، فالتجأنا إلى أحدها، وكان خالياً حيث أُعِدَّ ليكون مطبخاً لمن حوله من السكان، وفيه موقدٌ للغاز أوقد لنا فاستدفأنا به ونُمْنا.

وفي الصباح المبكر وقفتْ بنا سيارتُنا عند بيت الإمارة في مدينة الْخُبَرِ، وكان الأمير محمد بن عبد العزيز بن ماضي وهو أمير المنطقة كلها، وتسمى منطقة القطيف إذْ ذاك، وكنا نحمل كتاباً من الأمير سعود بن جلوي إليه، يتعلق بالعمل الذي سنقوم به.

الحواشي :

(١) : تخرج في (دار العلوم) وتنقل في وظائف الدولة حتى كان وزيراً للخارجية وتوفي ـ رحمه الله ـ.

(٢) : آخر عمل قام به سفيراً في (النمسا) وتوفي سنة ١٤٠٨هـ وقد تجاوز الثمانين انظر «العرب» ـ س٢٦ ص ١٢٣ وبعدها.

(٣) : طمطماني : في لسانه عجمة، فهو من بلاد (التكرور).

(٤) : المكلف باستقبال الملك في ذالك العهد.

(٥) : الشيخ إبراهيم من العلماء المشهورين من أهل بريدة تولى قضاءها وقضاء عنيزة، ومن أشهر تلاميذه الشيخ عبد الرحمن بن سِعْدِي وقد توفي الشيخ إبراهيم سنة ١٣٣٨هـ في الكويت حيث سَافر إليها للعلاج، وتراجع ترجمته في كتاب «علماء نجد في خلال ستة قرون» ـ ١٠٦ ـ.

(٦) : عبد الرحمن بن عبد المحسن الطبيشي ـ رئيس الخاصة الملكية في عهد الملك عبد العزيز [ووالد رئيس المراسم الملكية وقت طبع هذه السوانح] .

(٧) : هو الأستاذ رشدي بن صالح مَلْحَس، ولد في (نابلس) سنة ١٣١٧هـ أسند إليه يوسف ياسين رئاسة تحرير جريدة «أم القرى» سنة ١٣٤٧هـ، وتولى إدارة الشعبة السياسية في الديوان الملكي، وله مؤلفات نشر بعضها، وأبحاث جغرافية نشرت في الصحف، وتوفي في جدة سنة ١٣٧٨هـ م [١٩٥٨م] ترجم في «الأعلام».

(٨) : صفحة (٧٤٦).

(٩) : الانقباض وعدم إظهار البشاشة وحسن الاستقبال.

(١٠): الشيخ سعود بن محمد آل رشود، ولد في (الأفلاج) سنة ١٣٢٢هـ وتولى قضاء الرياض وتوفي سنة ١٣٧٣هـ [١٩٥٣م] .

(١١): الشرهة : منحة من النقود غير محددة، بل بقدر منزلة المكرم بها.

(١٢): الكلمة من (برست) الفارسية وتعني (عشّة) أو ما يتظلل به من الشمس.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مولاي - المعظم:

إن أمة أعلتك سويداءها، وناطت بك بسلام أمورها، وعلقت عليك آمالها، لأمة جديرة بأن تحتل أسمى محل، وأن تنزل أرفع منزل، وأنه تبلغ من قمة المجد والعلى ما تصبو إليه. وأنها تدرك من أسباب السعادة والرقي، ما يعلي ذكرها، ويرفع قدرها. فقد وهبك الله - يا مولاي - من صفات المجد والنبل، وأعطاك من خلال الشهامة والفضل، ما تميزت به على غيرك، وفضلك على من سواك. ولا غرو فأنت شبل ذلك الأسد، ونجل ذلك الملك العظيم، الذي:

بـ(الله) أحيا دولة العرب بعدما غدت مضرب الأمثال في الهون والذل

وشاد بها صرح المكارم والعلى وأرسى أساس الملك بالأمن والعدل

وسار ولي العهد الأمير بسيره فشابهه في الوصف والقول والفعل

(سعود) ومن للعرب غير سعودهم يقودهم للعز في أقوم السبل

وينشئ للعلم الصحيح معاهداً تزيل بنور العلم حلوك الجهل

مولاي: يقول ابن عبد الحكيم: بالعلم والمال يبني الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل وإقلال

ولقد قال هذا الشاعر فصلاً، ونطق حقاً، فالممالك التي يسود فيها الجهل، تعم فيها الفوضى، وينتشر فيها الفقر، وتفتك بأهلها الأمراض، وتصبح عرضة للاضمحلال والزوال.

ولقد كان من يمن طالع هذه الجزيرة العربية، ومن حسن حظ أهلها، ومن إرادة الله لساكنيها الخير، أن ألقى مقاليد الحكم فيها، إلى أبطال هذه الأسرة المباركة الطاهرة، ورجال هذه الأسرة الكريمة السعودية، فأدركوا بثاقب بصيرتهم، وسداد رأيهم، أن العلم الصحيح هو حياة الأمم، وأنه لا ثبات لملك لم يبن على دعائم العلم والعدل. فشيدوا ملكهم على هذا الأساس القويم، وثبتوا دعائمه، وأرسوا قواعده على ذلك.

وإن عنايتكم الكريمة بنشر العلم لهو أصدق شاهد وأوضح دليل: وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل. أطال الله عمركم، وأعز بكم الإسلام، وأسعد بكم الأمة، ونفع بكم العلم وأهله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خطاب الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ، لولي العهد الأمير سعود ـ رحمه الله ـ يتحدث فيه عن أهمية التعليم .

مراقبة التعليم في الظهران*

كنت علمت من فيصلٍ ـ رحمه الله ـ أنه سَيُعْهَدُ إليَّ إنشاء مكتب لمراقبة شؤون التعليم ، في المدارس التي افتتحتها شركة (أرامكو) لتعليم أبناء موظفيها ، وما ستفتتحه منها ، ويقوم هذا المكتب بملاحظة ما تنشره الشركة من مطبوعات توزعها ، وما قد يرد لها من خارج البلاد من كتب وصحف وغيرها لئلا يقع في شيء من كل ذالك من الأمور مالا يتفق مع تعاليم الدين الحنيف ، أو ما ينافي سياسة الدولة .

وعندما دُعِيْتُ لمقابلة الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في (الْخَرْج) في اليوم الثالث من شهر ذي الحجة سنة ١٣٦٣هـ[١٨ / ١١ / ١٩٤٤م] وعلمت بأن مدير تلك الشركة ويدعى (بارقر) واثنين من رؤسائها مع مترجمها في ذالك العهد محمد عجب خان ، قد حضروا ، فكان الاجتماع بهم في مقر (الشعبة السياسية) من ديوان الملك وبحضوره .

وفي تلك الأثناء قدمت إلي تعليماتٌ وضعت من قبل تلك الشعبة توضح أعمال مراقبة التعليم ، ويبدو أنها أُعِدَّت من نسختين تحوي إحداهما مادتين تتعلقان بالتبشير ، وبما له مساس بالدين أو سياسة الدولة ، وقبل البدء بقراءتها نبهني السيد رشدي مَلْحَس بعدم قراءة المادتين المذكورتين في النسخة التي قدمت إلي ، فلم يترجما أثناء القراءة إلى اللغة الإنجليزية بينما ترجم ما عداهما من تلك التعليمات التي سُلِّمَتْ نسخة منها لمدير الشركة ، وهي خالية من المادتين المذكورتين .

ولقد بدا لي من اتصال الملك بفيصل ، ليبعث له من يثق به ليسند

* المجلة العربية ، العدد (١٩٢) ، محرم ١٤١٤هـ / حزيران وتموز ١٩٩٣م .

إليه الأمر، ومن استدعاء رؤساء الشركة، ومن إعداد تلك التعليمات ـ بدا لي ـ من كل ذالك مبلغ اهتمام الملك بالأمر، إلا أنه ظهر لي فيما بَعْدُ من إسناد متابعته إلى مدير الشعبة السياسية في ذالك العهد وهو السيد رشدي ملحس[1] ـ أو هكذا تخيلت ـ أن ذالك كله لا يعدُوْ أن يكون حالةً ارتجاليةً ككثير من الحالات التي تنشأ عن تَأَثُّرٍ عارض، سرعان ما يتلاشى الاهتمام به بعد التعمق في معرفة كُنْهِه، وإدراك الغاية منه، فالأستاذ رشدي ـ والله يعفو عنه ـ مع ما يتصف به من اطلاع في شؤون الثقافة والأدب والدراسة الجغرافية مما أهله ليتناول بعض جوانبها التاريخية أو الجغرافية بالبحث والكتابة في بعض الصحف ثم ليتولى الإشراف على تحرير جريدة «أم القرى» الجريدة الرسمية للدولة، بتوجيهِ رئيس تحريرها الأول الشيخ يوسف ياسين، ولكي يَكِلَ إليه في آخر الأمر إدارة الأعمال في الشعبة السياسية لثقته به، وإداركه بأنه خَيْرُ من يُسْنَدُ إليه مثل هذا العمل، لما يتصف به في كل أموره من التكتم، والانغلاق على نفسه وعدم اختلاطه بأحد من الناس، وهو في الوقت نفسه رجل لا يستطيع التصدِّي للقيام بالأمور التي تستدعي جُهْداً وإن كان يسيراً، ولا يقدر على معالجة اليسير من الأمور، لأنه من الضعف بدرجة تجعل صلته بالمسؤولين من رجال الدولة فيما قد يناط به من ذالك عديمة الجدوى.

وأمر أوضح من كل ما تقدم هو أن الموضوع يتعلق بشؤون التعليم، وقد يكون له مساس بجانب ديني، فَأَيَّةُ صلةٍ للأمرَيْن بشعبة خصصت للشؤون السياسية، التي تتمثل بالصلات الخارجية بين الدولة وبين

الدول الأخرى*، ثم إنَّ الأمر نفسَهُ ذُوْ صِلَةٍ وثيقة بشركة أبْرَمَ وزير مالية هذه الدولة اتفاقًا معها، فصَّل جميع اختصاصاتها، وما هي مطالبة به، فكان الأَولى الرجوع إلى الجهة التي أبرمت ذالك الاتفاق، أو إلى ممثلها لدى الشركة، فهو المكلف بكل ما له صلة بها من الأمور.

كان كلُّ ما قام به السيد رشدي مَلْحَس بعد تقديم نسخة من تلك (التعليمات) مكتوبة على الآلةِ الكاتبة إليَّ في مجلس الملك بأمره، وبعد أن همس في أذني بأن لا يطلع عليها أحد ـ أن حضر بعد الظهر هو وعبدالله اللنجاوي مدير مالية الرياض إلى دار الضيافة، ومعهما ما اعتاد الملك أن يكرم به ضيوفه من كسوة و (شرهة)، ومعهما كتابان أحدهما لأمير المنطقة، سعود بن عبد الله بن جَلَوِي[٢]، والثاني لممثل الشركة السيد سامي كتبي، والكتابان مقفلان، وقالا: إنهما يتضمنان تعريف أمير المنطقة بعملكم، وبتقرير ما يلزم لكم هناك.

وفي إحدى السيارات الكبيرة كان التوجه إلى الأحساء، ثم مقابلة الأمير سعود وتسليمه الكتاب، والإقامة يوماً، كان السفر إلى الظهران في مسائه، بعد تناول العشاء وكان يقدم عادةً بعد صلاة العصر.

وكان الوصول إلى الظهران حوالي الساعة الرابعة ليلاً بالتوقيت الغروبي، والمبيت في عُشَّةٍ (برستي) أُعِدَّت مَطْبَخاً لبعض عمال الشركة، وقد هُيِّءَ فيها موقدٌ بالغاز، استدفأنا به تلك الليلة لأن الجو كان بارداً.

وقبل طلوع الشمس كان الاتجاه إلى بلدة الخُبَر لكي نسلم للأمير محمد بن ماضي كتاب الأمير سعود، وابن ماضي هو أمير منطقة القطيف، إذ تلك الإمارة لا تزال تعرف باسم (إمارة القطيف)، فبلدة الخُبَرِ وغيرها

---

* كانت الشعبة السياسية ـ في الواقع ـ أمانة سر أعمال المستشارين، والساعد الأيمن للملك في معظم الأمور، في وقت كانت الوزارات في مكة المكرمة. (ش).

كبلدة الدمام وبلدة الظهران كلها لا تزال في دور الإنشاء.

كانت المنطقة كلها تعرف قديماً باسم (الخط)[٣] وهو الجانب المتاخم للبحر مما يعرف الآن بالمنطقة الشرقية، ويمتد شمالاً من الجُبَيْل (عَيْنَيْنِ قديماً) إلى موازاة (بُقَيْقٍ)[٤] جنوباً شرقياً، وكانت بلاد الخط قديماً على جانب قويٍ من الخصب والنماء، لكثرة ينابيعها العذبة، وانتشار العمران فيها من شمالها إلى جنوبها، بالقرى ومواطن الاستقرار وكثرة السكان، وكانت واحة القطيف أعمر تلك الناحية وقاعدتها (الزَّارَة).

ثم مَرَّت فترة من الزمن درسَت أكثرُ تلك القرى، وانتشر أبناء البادية في هذه البلاد، حيث يجدون في خصوبة الأرض، ووفرة مياهها العذبة المرتع الملائم لأنعامهم، وبانتشار اؤلئك في ربوع البلاد في تلك الأزمان الغابرة التي تخلو من سيطرة دولة قوية، تصون الأمن وتحافظ على الاستقرار، تنتشر الفوضى ويحل الخراب، وهكذا كان حتى أذن الله لها بحياة جديدة في عشر الأربعين من القرن الماضي، باستقرار الحكم الذي وطَّد الأمن، وأرسى قواعد العدل بين جميع سكان هذه البلاد المشمولة بحكم الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ.

لقد كانت منطقة الظهران ذات نخيل وأشجار وثمار كثيرة، وزروع ومداخيل من بَرٍّ وبحر[٥]، إلا أنها أصبحت في الأَزمان الأخيرة جرداءَ إلاَّ مما ينتشر من أحراش النخيل في جوانب تلك الصحراء، ومن بعض ينابيع المياه العذبة أو الآبار التي تردها البادية بأنعامهم، حتى كان سنة ١٣٥٢هـ [١٩٣٣م] حين منحت (شركة الزيت العربية الأمريكية) امتياز التنقيب على النفط.

وفي خلال سبع سنوات بعد عقد الاتفاق تم العثور على حقول

واسعة منه، فكان أن انتعشت البلاد كلها، ودخلت في طور جديد من أطوار حياتها، لا عهد لها به.

وكانت (الخُبر) مِنْ مرافيء السفن الشراعية الصغيرة، لمرتادي تلك السواحل من المشتغلين بالمهن البحرية، ولم تتخذ مقرًّا للاستيطان إلاَّ في عام إحدى وأربعين وثلاث مئة وألف [١٩٢٢م] من قبل أناس من قبيلة الدواسر انتقلوا من (البديع) في البحرين برئاسة الشيخ محمد ابن راشد الدوسري، إثر مغاضبة جرت بينهم وبين الحكومة البريطانية ذات النفوذ في ذالك العهد في البحرين، فسمح لهم الملك عبد العزيز بالاستقرار في الخبر ، وبدأوا بعمرانها.

وما كان إنشاءُ المساكن في هذه البلدة إذ ذاك يتطلب أكثر من استخراج كمية من الأحجار البحريةَ الرقيقةَ (الفُرُوْش) لاتخاذها جدراناً، وتسقيفها بعسبان النخيل، المهملة المنتشرة بكثرة في تلك المنطقة، ويدعون البيوت التي تقام بتلك الصفة (بَرَسْتِيَّات) واحدها (برستي) وهي كلمة فارسية تؤدّي مَعْنَى (عُشَّةَ)، وكانت مساكن القرية في أوائل سنة ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م] من هذا النوع، باستثناء بيوت تعد على الأصابع، بنيت بالجص والحجر، وسقفت بخشب الصندل*، ووضع فوقها بواري منسوجة من قصب البردي أو الحلفاء.

ولقرب الخبر من البحرين عنيت الشركة بمينائها، وأحدثت في البلدة مساكن حديثة لموظفيها، مما دفع ذوي الأعمال من التجار وكبار المقاولين الذين لهم صلة بأعمال الشركة إلى اتخاذها مقرًّا لتصريف شؤونهم، فأصبحت لذالك من أعظم المراكز التجارية في شرق الجزيرة.

---

* كانت مستقيمة صلبة تستورد من الهند . (ش) .

أما بلدة (الدمام) فقد كان البرتغاليون في القرن العاشر الهجري حين استولوا على الخليج، أَنْشَأُوْا في مدخل مينائها حصناً دعوه (كُوْتاً) كالحصون الكثيرة التي أسسوها في سواحل الخليج لمراقبة السفن التي تجوس سواحله من مدخله في بحر العرب حتى نهايته في (كاظمة) شمال موقع (الكويت).

ثم بعد ما يقرب من قرنين اتخذها رحمة بن جابر الْجِلْهِمِيُّ[٦] مقراً له أثناء اختلافه مع أمراء البحرين، في الثلث الأول من القرن الثالث عشر، إلا أن العمران فيها كان بقدر يسير، ولقد بقيت القلعة التي أنشأها البرتغاليون، ثم أجريت فيها بعض الإصلاحات في عهد رحمة ابن جابر الجلهمي في سنتي ١٢٢٦ و ١٢٣٢هـ - بقيت قائمةً حتى آخر عشر السبعين من القرن الماضي، فقد كان بناؤها محكماً من الحجارة والجص، ويتوسطها برجٌ مرتفع، يشاهد المرءُ من أعلاه كثيراً من موانيء الساحل، ويشاهد البحرين وجزيرة تاروت وفيها دَارِيْن.

وفي وسط القلعة عين يفيض ماؤها فيجري في البحر، وماؤها عذب، ومن شدة صفائه كان أزرق اللون، وكان أهل بلدة الدمام يستعذبون منها الماء، قبل إنباط ماء الآبار (الارتوازية)، وقد اتخذت (إدارة خفر السواحل) هذه القلعة مقراً لها حتى هدمت، وكانت العين مطوية بالصخر طيًّا محكمًا، وكانت عميقة، وليست فوهتها واسعة. ولقلعة الدمام هذه - وقد يعبر عنها بقصر الدمام - ذكر كثير في حوادث القرن الثالث عشر، فقد استقر فيها رحمة بن جابر الجلهمي بعد استيلاء إبراهيم باشا على الدرعية سنة ١٢٣٣هـ [١٨١٨م] - حتى قتل.

ثم استقر بها بشير بن جابر بن رحمة، من سنة ١٨٣٠م (١٢٤٧هـ) إلى سنة ١٨٣٣م، حيث اتخذ قسم من الْعُمُورْ[٧] من بني خالد الدمَّام، مقراً لهم بتشجيع من شيوخ البحرين، ليحاصروا القطيف الذي كان تحت الحكم السعودي، حتى استولى الإمام فيصل في سنة ١٢٦٠هـ على قصر الدَّمام، وكان فيه حاكم البحرين عبد الله بن خليفة هو وأولاده ومن معهم من بني خالد، وكان عبد الله قد التجأ إلى الدمام سنة ١٢٥٨هـ، بعد أن انتزع منه ابن عمه علي بن خليفة الحكم في البحرين، فحاصرهم الإمام فيصل اثنى عشر يوماً حتى طلبوا الأمان، فأمنهم فخرجوا، ودخل القصر، وجعل فيه مئة رجل مرابطين.

ولكي نتصور مناعة هذه القلعة نشير إلى أنَّ الحكومة البريطانية حينما ساءت علاقتها بالحكومة السعودية بعد وفاة الإمام فيصل أرسلت سفناً للاستيلاء على ميناءَيِ القطيف والدمام، وفي ٣ فبراير سنة ١٨٦٦م (١٢٨٢هـ) توجه الملازم لونج (LIEUT. LONG) إلى قلعة الدمام في قوارب مسلحة، ولكنه صُدَّ من قبل الحامية التي في القلعة وقتل ثلاثة من جنوده، وأصيب ضابطان، وجرح ثلاثة جنود آخرين[٨].

ثم في ٤ فبراير كرر هجومه على القلعة، مستخدماً الرصاص والقنابل والصواريخ، ولكنه لم يتمكن من إحداث صدع فيها، وكر راجعاً بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها.

وفي سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة وألف، حين سمح الملك عبد العزيز للدواسر بالانتقال إليها من البحرين برئاسة الشيخ حمد بن عبد الله الدوسري، كما سمح لإخوانهم قبلهم إثر غضبهم لعزل الحكومة البريطانية شيخ البحرين الشيخ عيسى بن علي بن خليفة، وتعيين ابنه

الشيخ حمد مكانه، فغضبوا من ذالك، وانتقلوا من (البديع) في البحرين فاستقروا في هذه البلدة، واتخذوا أنماطاً من المساكن مشابهة لما اتخذه إخوانهم في بلدة الخبر، وكانوا يحترفون بعض الأعمال البحرية كالغوص للبحث عن اللؤلؤ، وصيد الأسماك، حتى أذنَ اللهُ لهذه البلاد بأن تحيا حياةَ سعةٍ ورخاءٍ، حتى أصبحت الدمام قاعدة للمنطقة الشرقية عام ١٣٧٠ (سبعين وثلاث مئة وألف) [١٩٥٠م]، ومُدَّ منها خَطٌّ للسكة الحديد إلى مدينة الرياض، وأُنْشِيءَ فيها ميناء يعد من أعظم الموانيء، وازدهر فيها العمران.

بعد تناول طعام الغداء مبكراً مع الأمير محمد بن ماضي أحد أيام عيد الأضحى سنة ١٣٦٣هـ كان الاتجاه إلى الدمام، حيث يقيم السيد سامي كتبي ممثل الحكومة لدى الشركة، فكان الاستقبال حسناً، والبقاء ذالك اليوم عنده حتى تتم تهيئة المكان المعد لنزولنا، في بلدة الخبر القريبة من مقر الشركة، وهي في الوقت نفسه مقر إمارة المنطقة التي لا تزال تعرف باسم (إمارة القطيف).

وبقدر ما كان صاحبنا الأول منغلقًا على نفسه متجهمًا أو كما قيل في وصف مثله: (كالجلم من حيث نظرت إليه تَجِدْ: لا) كان السيد سامي[٩] طلق المحيا، بشوشاً، متفتح النفس، أدركت من خلال مقابلته للوهلة الأولى أن ما تصورته في الموضوع من أنه لا يعدو انفعالاً عاطفيًّا كان صحيحًا، ولقد استطاع اؤلئك الذين كانوا يحيطون بالملك أن يقنعوه بصواب ما اتخذوه حيال ذالك الانفعال من ترتيب مرتجل، لم تتخذ له أهبته، وعلى رأس هاؤلاء الشيخ يوسف ياسين، كما سيتضح جليًا فيما بعد، من موقفه حين أمره الملك بدراسة أول تقرير كتبته في

ذالك الشأن، مما سيأتي مفصلاً ـ لقد استغرب السيد سامي أنه لم يبلغ من قبل (وزارة المالية) بأي أمر يتصل بإحداث مراقبة للتعليم في الظهران، وأنه لم يتلق من طريق (الشعبة السياسية) سوى الكتاب الذي حدد فيه الراتب الشهري لي ولزميلي، ولكنه قد علم من مدير العلاقات الحكومية في الشركة شيئاً عن التعليمات الموضوعة من قبل (الشعبة السياسية) التي قدمت نسخة منها لرئيس الشركة (بارقر). وإذَنْ ماذا سيكون وضعي أنا وصاحبي؟.

أبدى السيد سامي استعداده للاتصال بالشركة لمحاولة إعداد ما يلزم لنا من سكن وغيره، أما الراتب الشهري وهو مقرر بأمر ملكي فلن تمانع (وزارة المالية) بصرفه.

كانت الوسيلة التي بها استطاع ممثل الحكومة لدى الشركة إقناعها هي أنني أنا وصاحبي [عبدالله الملحوق] نُدِبْنَا للإشراف على التعليم في المدارس التي افتتحتها الشركة، لأبناء موظفيها وعمالها، وبما أن عملنا هو مرتبط بتعليم اولئك الأبناء، والشركة ملزمة بتعليمهم، فإن على الشركة أن تهيء ما يلزم لنا من سكن، وأن تعد لنا وسيلة الانتقال إلى مقر العمل، وبلباقة الممثل وجهده وصلته الشخصية تم الأمر باختيار بيت حسن، في بلدة الخبر، حيث لا مساكن في الظهران لغير الأمريكان وللعمال، وكان يملك ذالك البيت أحد موظفي الشركة ويلقب (موسليني) صومالي الأصل، وقد تمت تهيئته بما يحتاج إليه من فراش ملائم وأواني.

كان الممثل السيد سامي قد أخبرنا بأنه تم تقرير سيارة تنقلنا من الخبر إلى مقر المدرسة في الظهران، والمسافة تقارب عشرة أكيال، وفي صبيحة اليوم الثاني أُحْضِرت سيارة صغيرة، فكان الذهاب إلى

المدرسة، وتقع في الحي الأمريكي، والعمران في مدينة الظهران لا يزال في أوله، ويبدو أن موقع المدرسة لم يُعَدَّ لها، وإنما كان أحد الأمكنة التي كانت تستعمل لبعض موظفي الشركة، والموقع ذو حُجَرٍ ست، مبني بناء حديثاً، منها حجرتان لمدير التعليم ومترجمه العربي، وثالثة للمدرسين، وثلاث حجر معدة للطلاب. وكان التعارف في أول الأمر بمدير التعليم الأمريكي ويدعى (جي. ام. نيرباص) وبمترجمه وهو لبناني يدعى وديع صباغ، ثم بثلاثة مدرسين أحدهم السيد فهمي البصراوي من مدينة جدة، والثاني من أهل المنطقة، والثالث هندي، ولم نشاهد في حجر الطلاب سوى عدد قليل، لا يتجاوز الأربعين، منهم من بلغ عمره الثلاثين، ومنهم من لم يتجاوز العاشرة، ثم كان البحث مع مدير التعليم حول منهج الدراسة، فأوضح أنه لم يوضع لذالك منهج مقرر، وإنما الغاية منه إيجاد عدد ممن يحسنون التخاطب باللغة الانجليزية، للتفاهم معهم أثناء إسناد بعض الأعمال إليهم في الشركة بينهم وبين رؤسائهم، وما يُعَلَّمُ في سبيل ذالك يكاد يقتصر على الكلمات التي يكثر استعمالها في أمكنة العمل، أو في أمكنة اختلاط الموظفين والعمال في المكاتب، أو محلات الاجتماع، بحيث يراد من الطلاب إجادة نطق الكلمة وكتابتها، وفي فترات قصيرة قد يمرن الطلاب على بعض الحركات الرياضية الجسمية، وما يجري في هذه المدرسة لا يزال في دور التجربة، وبعد ذالك يمكن التوسع في فتح مدارس مماثلة لهذه المدرسة في الأمكنة التي توجد فيها أعمال للشركة كرأس تَنُّوْرَةَ وبُقَيْق وغيرهما من مراكز للعمل، وقد يُفَكَّرُ بإحداث فصول مسائية لكبار العمال، والغاية من كل ذالك إيجاد من يستطيعون التفاهم من العمال مع رؤساء أعمالهم الأمريكان باللغة الانجليزية.

وبعد الاستيضاح منه: لماذ لَمْ يتلقَّ هاؤلاء الصغار المعلومات الوثيقة بحياتهم في أمور دينهم أو لغتهم؟ أجاب: بأن هذا الأمر ليس من اختصاصنا، وحين لفت نظره إلى أن عقد الاتفاق بين الحكومة وبين الشركة ينص على تعليم أبناء العمال، وأن المقصود من ذالك أشمل وأعم من أن يلقنوا كلمات لا صلة لها بلغتهم، مما قد يؤثر عليهم تلقيها وهم لا يزالون في مستقبل المراحل الأولى من حياتهم، وأن الضرورة تقضي بأن يتلقَّى هاؤلاء الصغار أولاً مبادىء اللغة العربية قراءة وكتابة، وما يجب أن يلموا بمعرفته من أمور دينهم قال: بأن هذا الأمر منوط بالحكومة، أما غاية الشركة فتقف عند حد الاستفادة من هاؤلاء بقدر ما يحسنون من معرفة اللغة الإنجليزية التي هي وسيلة التخاطب بينهم وبين رؤسائهم في العمل، وهم سيتدرجون في الوظائف بقدر تحصيلهم منها.

لقد كان صريحًا، وبما أوضحته اتضح أن الأمر يتطلب ما هو أهم من مراقبة ما يحدث في هذه المدرسة وأمثالها، إنه قبل كل شيء فعل ما يمكن فعله للحفاظ على مستقبل حياة هذا النَّشْءِ بترسيخ المبادىء الأساسية الخلقية والدينية في نفوسهم، ما دامت قابلة لتلقي ذالك، وهي لا تزال على درجة من الصفاء والنقاء، بحيث ينطبع فيها ما تتلقاه، فهل أدرك المعنيون بتوجيه النشء هذا؟ لا شك أن الذين وضعوا نصوص عقد الاتفاق مع هذه الشركة أولوه جانباً من العناية، حيث نصوا في ذالك العقد على وجوب قيامها بتعليم أبناء عمالها، وأنهم عند ذالك كانوا يدركون الغاية من هذا التعليم، وقد لا أذهب بعيداً حين أتوقع أن الغاية من التفكير في إنشاء مكتب لمراقبة التعليم في الظهران قد يكون من بواعثه التحقق من تنفيذ ذالك، إلا أن الذينَ

تولوا الأمر في أوله لم تكن لديهم إحاطة تامة به، ولهذا فلم يولوه من الاهتمام ما يمكّنُ من أدائه على الوجه الصحيح، ومن أوضح الأدلة على هذا عدم اكتراثهم من موقف الشركة حياله، حين قدمت تقريراً مفصلاً للملك أحيل إلى رئيس الشعبة، وقد سافر إلى الظهران، واطلع على الحالة هناك فكان منه ما كان.

كان الانصراف إلى الخبر والبقاء في المنزل إلى ما بعد العشاء، حيث أتاني رسول من الأمير محمد بن عبد العزيز بن ماضي يدعوني للحضور، ولم يسبق أن حصل تعارف بيننا عن تلاق واجتماع، قبل اليوم الذي كان القدوم فيه من الأحساء، ولكنه كان يعرفني، لأنني توليت القضاء في بلدة (ظبا) وكان أميرها فأناب أخاه الأمير عبد العزيز بن ماضي مكانه، حتى أُصِّلَ في العمل، ثم أناب عبد العزيز أخاه في ذالك حين سافر، وحدث بيني وبين نائبه الأمير مشاري جفوة لاشك أن الأمير محمداً علم بها، ولقد كان استقباله لي ولصاحبي في أول الأمر بمنتهى الرقة والبشاشة، إلا أنه ـ رحمه الله ـ كما يقال في المثل (ما يُخَلِّي عليها قُشَاش) فأثناء تناولنا طعام الغداء في صباح ذالك اليوم لم يراع صاحبي بعض ما ينبغي مراعاته من القواعد المتبعة من حيث القيام عن الطعام، وأنه لا ينبغي التقدم في ذالك على من هو أرفع مقاماً، ويبدو أن صاحبي لم يعجبه الطعام فقام مسرعاً، مما لفت نظر الأمير، فاتجه إلي قائلاً : من صاحبك هذا؟ فأخبرته مثنياً عليه، وموضحاً مقدار تحصيله من الثقافة والمعرفة، وقد كان يعرف أباه، فانهال بالنيل من الأب، ووجّه كلمات نابيةً إلى صاحبي دفعته إلى أن لا يذهب لإجابة دعوة الأمير.

كان ابن ماضي ـ رحمه الله[10] ـ من الأفذاذ القلائل الذين يتصفون بقوة الشخصية، وبالاعتزاز بكرامة النفس، ومع ذالك قد يعوزه شيء من اللطف في معاملة بعض من يجهل حاله في أول الأمر.

ولقد استمر الأمير يتعهدني في كثير من المناسبات، بل قلّ أن تمضي ليلة لا يدعوني فيها إلى حضور مجلسه، والتحدث معه برهة من الوقت، ولديه ميل إلى البحث في التاريخ، وخاصة ما يتعلق بأخبار العرب وأنسابهم، وله عناية بذالك خاصة ما يتعلق بأنساب المتأخرين، وله قصة مع الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ تتعلق بأنساب الأسرة السُّدَيْرية أخوال الملك وأصهاره[11]، وفي أحد الأيام قال لي: بأن أحد علماء اليمن أهدى إليه كتابًا مخطوطاً في الأنساب، حينما كان أميراً في جازان، وعرض عليّ الاطلاع عليه، فأبديت له رغبتي وشكرته، فقدّم لي مجموعاً يحوي عدداً من الكتب :

١ ـ «أنساب حمير وقحطان» لليَهْري والهمداني.

٢ ـ «طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب» ليوسف بن عمر بن رسول.

٣ ـ «روضة الأحباب وتحفة الألباب» ويعرف بمشجَّر بن أبي علامة وهو يمني من أهل القرن العاشر.

٤ ـ «صفة جزيرة العرب» للهمداني ملخصة.

٥ ـ «أرجوزة لابن الديبع في تاريخ زبيد».

٦ ـ «أسماء ولاة اليمن من الأتراك».

٧ ـ «منتخبات متفرقة في موضوعات مختلفة».

أخذتُ الكتاب وتوقعت أنه سيبقى عندي حتى أنتهي من مطالعته، ومنْ نقل ما أريد نقله منه، وكنت أضع في هوامشه إشارات موجزة عن

تواريخ بعض من يمر ذكرهم للاهتداء إلى زمن تأليف كتاب «أنساب حمير وهمدان» وفي صبيحة يوم من أيام الجمعة، ولم يمض على استعارة الكتاب أكثر من أسبوع ما شعرت إلا بأحد خدم الأمير يأتي إليَّ طالباً الكتاب، ليرسل إلى الملك حسب طلبه في طائرة اليوم، فأخذته، وذهبت إلى الأمير وأفهمته أن الطلب ليس من الملك، وإنما هو من رشدي مَلْحَس الذي كان حريصًا على أن يستحوذ على ما يستطيع الحصول عليه من نوادر المخطوطات في نجد، وله في ذالك وسائل متعددة حيث يتخذ من اسم الملك وسيلة لفعله هذا، إلا أن الأمير أصرَّ على إرساله فقدمته له، ولم يمض أكثر من عشرة أيام إلا و (إدارة جمرك الخبر) كعادتها تقدم لي بياناً يتضمن أسماء كتب وردت للشركة، لكي أبدي رأيي حيال السماح بدخولها، فرأيت من بينها اسم كتاب عربي مخطوط مصور، فطلبت هذا الكتاب، فإذا هو ما بعث به الأمير إلى الرياض، أرسله رشدي إلى الشركة لتصور له نسخة منه وتعيده إليه، فكان ذلك. أما الأصل فيبدو أنه قدّمه للأمير عبد الله بن الإمام يحيى حميد الدين ولي عهد اليمن، وبقي في حوزته حتى قُتل، وبعد ذالك زار اليمن الدكتور حسين الهمداني وبيني وبينه تعارف، وتعاون فيما له صلة بتاريخ اليمن، وكان يقيم في القاهرة مدرسًا في (دار العلوم) فلما عاد اتصل بي بالهاتف وقال: لقد عثرت على مجموع يحوي كتباً قيّمة، ولما سرد لي أسماءها قلت له: ستجد في بعض هوامش كتاب «أنساب حمْير» تعليقات عن الصليحي بأنه متأخر عن عهد الهمداني مما يدل على عدم صحة نسبة الكتاب للهمداني، كما ستجد تعليقاً آخر عن الإمام أحمد الناصر، وأنه توفي سنة ٣٢٦ فهو

معاصر للهمداني. ثم حدثته عن أصل الكتاب.

قد يكون في هذا الاستطراد الوارد في غير محله ما سيدفع سأم القارئ من رتابة البحث.

لقد اتضح الأمر من أن إنشاء مكتب للرقابة لا يزال فكرةً، وليس من المحقق إبرازها، وإذن فماذا سيكون موقفي؟ الأمور في أول أمرها لا تُجابَهُ بالرفض، وخاصة ممن لا يقوى على المجابهة، ولهذا رأيت السير على هدى الشاعر:

لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةٌ وتَنْقَضِي   مَا غَلَبَ الأَيَّامَ إلاَّ مَنْ رَضِي

فليكن البدء بأمور لا يصعب تنفيذها، ومنها الكتابة إلى إدارة المعارف لتعين مدرسين في مدرسة الشركة، أحدهما لتعليم مباديء العلوم الدينية، والآخر لتدريس اللغة العربية كتابة ونطقاً، وقد استجابت لذالك، فعينت اثنين هما: الشيخ صالح الطرابلسي والسيد توفيق الإدريسي، وسيحضران قريباً.

أما ملاحظة ما يرد للشركة من كتب أو مطبوعات وما تقوم بنشره من ذالك، فما كان بالأمر المستعصي، إذْ لم تكن الشركة في ذالك العهد مَعْنِيَّةً بطلب مطبوعات من الخارج سوى ما يرد للأفراد، وجلها إن لم يكن كلها مما يتعلق بعملهم في صناعة الزيت أو هندسته أو ما يتصل بذالك، وفي الغالب فلا محظور فيها، وكنت كثيراً ما أكتفي عندما أطلع على ترجمة أسماء تلك الكتب، أن أوجه بعدم حجزها، وما كان للشركة ما تنشره سوى نشرة أسبوعية في صفحات قليلة باللغة الإنجليزية تدعى (**Sun and Flare**) : (الشمس واللهب)، توزع

نسخها القليلة على مكاتبها، وما ينشر فيها يتعلق بأخبار موجزة عن موظفيها، وما يستجد من أخبارها، وقد تنشر فيها بعض القصص القصيرة، ومن ذالك ما نشر في أحد أعدادها بتوقيع شخص يدعى (الصويغ) من الموظفين العرب، أخبرني مدير مكتب التعليم السيد وديع صباغ أنه أثار تذمُّراً بين العرب، وترجمه لي، فإذا خلاصته أن لهذا الكاتب صديقاً أمريكياً يقتني كلباً مدلَّلاً، وفي إحدى المرات زار ذالك الصديق صديقه، فقابله الحارس وهو عربي فلما سأله عن صاحبه أخبره بغيابه، فسأله عن الكلب المدلل فقال بلهجة التأثر: آه لو كان الأمريكان يعاملوننا نحن العرب كما يعاملون كلابهم لكنا أكثر وفاء وولاء لهم، وقد بعثت بهذا تقريراً إلى (الشعبة) فصدر أمر بالتحقيق مع الكاتب، ومع المشرف على الصحيفة، وتم على أثر ذالك التعهد بعدم نشر أي شيء خارج عن الأخبار، مما قد يحدث تأثيراً سيئاً في النفوس.

كنت قبل توجهي إلى الظهران قد عزمت على الزواج، ولما أبديت هذا لفيصل ـ رحمه الله ـ نصحني بالذهاب أولاً، وبعد ذالك فمن الممكن أن أطلب إجازة أعود في خلالها لإنفاذ ما عزمت عليه، وبعد مرور فترة من الزمن تزيد على شهرين أرسلت برقية للملك وكان لا يزال في مَكَّة بعد أداء الحج أوضحت فيها: أنه بتوفيق الله سبحانه ثم توجيهاتكم السديدة تسير جميع الأمور على ما يرام، ثم أبديت حاجتي لمنحي إجازة شهر للعودة إلى مَكَّة لإتمام ما عزمت عليه من أمر الزواج، فتلقيت في اليوم التالي برقية شكر وموافقة، بعد السؤال عمن سيحل مكاني حتى عودتي، فأوضحت أنه زميلي الذي سافر معي من مكة، وتوجهت بالطائرة، وفي اليوم الثاني من وصولي إلى مكة حضر إلي أحد موظفي ديوان

النيابة العامة، وأبلغني بأن الأمير منصوراً يريد أن أقابله، وأن هذا الموظف حضر لذلك لأذهب معه.

كان فيصل غائباً ويتولى الأمر نيابة عنه الأمير منصور بن عبد العزيز وزير الدفاع، فلما قابلته سألني: متى عدت من الظهران؟ فأخبرته بأن هذا ثاني يوم من وصولي مكة، وأنني حضرت بإجازة من الملك، وكانت البرقية في جيبي فعرضتها عليه، ولكنه قال: لقد تلقيت برقية بعد هذه بسرعة عودتك إلى مقر عملك، ولابد من ذهابك في هذا اليوم إلى جدة لتسافر في الطائرة إلى الرياض، فلم أستطع التعلل لما بدا لي من تصميمه، وبعث من يذهب معي إلى جدة ليتولى ترتيب سفري، وقد عرفت فيما بعد بأن صاحبي الذي قام بعملي أرسل للملك برقية أثارت استغرابه فأمر بأن أعود سريعًا.

وفي مطار الرياض وراكبو الطائرة يتوجهون إلى الخيمة المعدة لجلوسهم حيث لم يُبْنَ مكان لذالك، إذا بأحد الضباط ويدعى (محمد الذيب) يستعرضهم منادياً (حمد الجاسر) فأجبته، ولعل صوتي كان خافتاً، وكان أمامي ثلاثة التفت إلي أحدهم سائلاً: أنت حمد الجاسر؟ فقلت: نعم، فما كان منه إلا أن رفع صوته قائلاً حين سمع تكرار النداء: (حاضر) فأشار الضابط إلى سيارة على مقربة منه قائلاً له: تفضلوا في السيارة إلى دار الضيافة فتقدم الإخوة الثلاثة وأنا أتبعهم إلى السيارة، ثم إلى الضيافة في قصة طريفة قد يحلو للقاري أن يسمعها مفردة.

الحواشي :

(١) : رشدي بن صالح مَلْحَس (١٣١٧/١٣٧٨هـ) فلسطيني الأصل، ولد في نابلس وأقام في اسطنبول، وعمل في الصحافة بدمشق، ودعاه يوسف ياسين ليحل محله في تحرير جريدة «أم القرى» ثم جعله نائباً عنه في رئاسة الشعبة السياسية ومكث نحو ثلاثين عاماً، ومن مؤلفاته «سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي» مطبوع، ودراسات جغرافية عن المملكة نشر بعضها في بعض الصحف، وحقق «تاريخ مكة» للأزرقي في طبعته الثانية، وتوفي في جدة (ملخص عن الأعلام للزركلي) [انظر حواشي السانحة السابقة].

(٢) : الأمير سعود بن جلوي هو : سعود بن عبد الله بن جلوي بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، تولى إمارة الأحساء بعد وفاة والده في رابع شهر شعبان سنة ١٣٥٤هـ، وسار في الحزم على طريقة أبيه في إدارة شؤون الإمارة حتى توفي في السادس من شهر ذي الحجة سنة ١٣٨٦هـ [١٩٦٦م] ـ تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه ـ .

(٣) : انظر عن تعريف (الخط) «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» قسم المنطقة الشرقية.

(٤) : يكتب خطأ وينطق (أبْقَيْق) لأن الاسم كتب في أول الأمر من قبل راسمي المصورات الجغرافية (الخرائط) وهم أعاجم ـ كما تنطقه العامة وغالباً ما يسكنون أول الاسم مثل (محمد) و(سليمان) فيقولون (امحمد) و (اسليمان) وهكذا، وهذا خطأ.

(٥) : شرح « ديوان ابن مقرب » الطبعة الهندية سنة ١٣١٠هـ صفحة ٤٥٨ .

(٦) : انظر عن رحمة هذا « عنوان المجد في تاريخ نجد » لابن بشر حوادث سنة ١٢٤٧هـ .

(٧) : الْعُمُوْرُ هاؤلاء كانوا في الأصل من بني عبد القيس، ورد ذكرهم في مقدمة كتاب «معجم ما استعجم» ـ ص٨٢ ـ وفي مواضع من «معجم البلدان» منها (صلاصل) .

(٨) : انظر رسم (الدمام) في قسم المنطقة الشرقية من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» .

(٩) : السيد سامي من أسرة آل الكتبي، الأسرة العلمية الشهيرة في مكة المكرمة، وقد توفى ـ رحمه الله ـ في آخر القرن الماضي.

(١٠): الأمير محمد بن عبد العزيز بن ماضي من أسرة آل ماضي، الأسرة التميمية المشهورة انظر عنها «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» ولد في روضة سُدَيْرِ عام ١٣١٦هـ وتولى إمارة بلدته بعد وفاة أخيه جاسر سنة ١٣٣٤هـ، وتولى في عهد الملك عبد العزيز إمارة ظبا، ثم القنفذة ثم جازان، ثم إمارة القطيف التي عرفت فيما بعد باسم إمارة الظهران إلى جمادى

الثانية سنة ١٣٦٤هـ، وتوفي ـ رحمه الله ـ في ٥ رجب سنة ١٣٧٢هـ.

(١١): ملخص هذه القصة : أنه عرض على الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ طبع كتاب أُلِّفَ حديثاً، ورد فيه كلام عن قبيلةَ الدواسر لم يعجب الملك، وكان في روَضةِ خُرَيْمٍ، فأمر بإرسال سيارة إلى الأمير محمد بن ماضي في روضة سدير، وكان لأبيه عبد العزيز قصيدة في مدح الأسرة السديرية من الدواسر توضح أنسابهم منها في مدح أحمد السديري.

سُوْرَ البلاد عن الأَضْدَاد ونِسْبته   من عامْرٍ في زَايْدِ جدَّانْها

وكان محمد يحفظ القصيدة.



الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ في مدينة سان فرانسيسكو ـ مقاطعة كاليفورنيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية في رحلته الأولى إلى أمريكا بدعوة صحفية من شركة الزيت العربية الأمريكية «ارامكو» عام ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م لزيارة المناطق السياحية

فقدتُّ اسمي ثلاثة أيام !!*

بل أُخذَ منّي بدُونْ اختياري، كان ذالك سنة ١٣٦٤هـ [١٩٤٥م] ـ بُعَيْدَ أَنْ عُيِّنْتُ بأَمْرٍ مَلَكي رئيساً لمراقبة التعليم في الظهران، فقد كنت قبل التعيين قد عزمت على الزواج، وَهيَّأْتُ ما يلزم له، ولكنني بعد أن تلقيت الأمر أَخَّرْتُهُ حتى تسنح الفرصة المناسبة، وبعد أن استقام العمل أبرقت للملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ طالباً إجازة شهر لإتمام ما عزمت عليه، وأن صاحبي سيقوم بالعمل حتى عودتي، ويظهر أنه أبرق للملك بما أثار استغرابه، فَأُخْبِرَ بأنه هو الذي يقوم بعملي، وأنني سافرت إلى مكة، وفي اليوم الثاني من وصولي إليها، دُعيت إلى (ديوان النيابة العامة) وكان فيصل ـ رحمه الله ـ وهو نائب الملك غائباً، ويتولى عمله الأمير منصور ـ وزير الدفاع ـ فلما قابلته سألني: متى قدمت؟ وكيف تركت عملك؟ فأخبرته، وقدّمت له برقية الملك، فاستغرب وقال: تلقينا البارحة أمراً بوجوب عودتك اليوم إلى عملك، ولن تسافر الطائرة إلاَّ وأنت فيها، وسأَبرق بذالك، فامتثلت.

وعندما هبطت الطائرة في مطار الرياض، إذا بضابط يدعى محمد الذيب، يستعرض الركاب النازلين من الطائرة وينادي باسمي، وإذا أمامي ثلاثة يتقدمهم رجل قصير، حسن الْبِزَّة، فلما سمعت اسمي أجبت: نعم. نعم، فالتفت إليَّ الرجل قائلاً: أنت حمد الجاسر، فقلت: نعم، فما كان منه إلا أن رفع صاحبه: حاضر، حمد الجاسر ـ ووقف عند الضابط الذي أشار إلى سيارة (بكس) بقربه: إلى الضيافة، فذهبنا أربعة يتقدمنا ذالك الرجل، أُنْزِلْنا في مكان واسعٍ (مجلس) في

* المجلة العربية، العدد (١٩٣)، صفر ١٤١٤هـ / تموز وآب ١٩٩٣م.

(ضيافة أم قبيس)، فما كان من صاحبنا إلا أن التفت لمن تولّى إنزالنا صارخًا في وجهه: أنت لا تعرف قدرنا. كَلِّمْ لِي الآن ابن محَيًّا ـ وكان مدير الضيافة ـ فقال برقة واستعطاف: أنا يا سيدي أحمد العسيري وكيله، ومستعد لتنفيذ كل ما تطلبون، وفعلاً هيأ لكل واحد منّا غرفة، وهيأ مجلسًا للاجتماع، ومكاناً لتناول الطعام، وأمر بإحضار القهوة والشاهي، فلما أُحْضِرَا أمر من أتى بهما أن يتعهدنَا دائماً بما نحتاج إليه.

كان الرجل ذَا معرفة تامَّة بأحوال الضيافة، بل الأحوال عامَّةً في مدينة الرياض، حيث كان مدرِّساً لأبناء سمو الأمير ناصر بن عبد العزيز، من قبل، فلما قُدِّمَ الْعَشَاءُ حين طلب تقديمه هو، وتفقد أنواع الأكل، قال لمن يشرف على ذالك: ناد لي ابن محيا أو العسيري. فحضر الأخير مسرعاً، فقال له باللهجة النجدية: (ويْنْ حليبَ الخلفات[1]؟ وَيْن القرصان[2]؟) وسرعان ما أُحْضِرَ إناءٌ مملوء بالثَّريد (الخبز الرقيق المثرود بمرق اللحم) وآخر مملوء بالحليب.

واتصل بعد ذالك بمكتب إبراهيم بن جميعة ـ مدير المراسم الملكية ـ وحدد موعداً لحضور الشيخ حمد (إياه) للسلام على الملك صباحًا الساعة الرابعة غداً، فكان الذهاب في الوقت المحدد بالسيارة المخصصة للرفاق، يتقدمهم الرجل الذي أُجْلِسَ في أقرب مكان من الملك، بينما أُجلس رفاقه الثلاثة ـ ثالثهم صاحبنا!! في طرف المجلس.

لقد بدا استغرابي من موقف الرجل حيالي، وتصرفه معي، يخف شيئًا فشيئًا إذْ ـ حتى الآن ـ لم أَرَ منه مالا أرتضيه، ولك أن تسبغ عليَّ من صفات الغفلة والبلاهة ما شئت، فقد أسلستُ له القياد، وقلت في نفسي: لعله قد أُوْعِزَ إليه من جهة ما لمرافقتي، وقد هيأ لي ما أنا بحاجة

إلى تهيئته فأدعه، إذْ مِن أسْوَإِ صفاتي شدة الحياء، بدرجة لا أستطيع معها في كثير من المواقف التعبير عمّا أرغب، إذ يغلبني الحياء فأتلعثم في الكلام، وكثيراً ما أحجم عن فعل ما ينبغي أن أفعله مع من هم أرفع مني مقاماً لعدم جرأتي على الظهور بمظهر يمكنني من إيضاح رغبتي، لما يعتريني من انقماع وخجل، واضطراب في الكلام.

لقد بدا لي الرجل من الغرابة، لا من حيث تصرفاته نحوي، بل في صفاته كلها، مَرَحًا، وخِفَّةَ روح، ومعرفةً بأحوال الناس، وإلماماً بالأدب والأدباء، وتذوقًا للشعر، وحفظاً لكثير من النكت والطرائف وشعر الإحماض* وأخباره، وأشهر من عرف بهذا الفن من متقدمي الشعراء، مع عدم تورعه من إيراد ما لا يستساغ منه فحشًا ترفعًا دون حياء أو خجل.

وظهر لي من كثرة زائريه أنه ذو منزلة اجتماعية تنآى به عن سلوك طرق المكر والعبث والخداع، بحيث ساورني الشكُّ فيما بدا لي من تصرفاته بحيث اتهمت نفسي، حتى كان مساء اليوم الثالث الذي عزمت على السفر إلى الظهران، وكان قد أخبرني بأن رئيس الديوان عبد الله بن عثمان، طلب مني الاتصال به، وأنه حدد الساعة الخامسة من صباح هذا اليوم لمقابلته، فكان أن تمت المقابلة، وأبلغت بالعودة إلى مقر عملي في الظهران، وفي المساء زارني أحد الإخوة من موظفي الديوان ليقدم لي أمر الإركاب في إحدى سيارات (فرع الشركة العربية للسيارات) وقد رأى صاحبنا معي، وأبدى استغرابه حين علم بأننا نسكن معًا، فسألته: وهل تعرف الرجل؟ فأجاب ضاحكًا ـ على مسمع منه ـ: ومن ذا الذي يجهل (أبا خليل) إنه إبراهيم غلام، المشهور بأبرع حيل المكر

* شعر التسلية، يغلب عليه الأدب المكشوف، والكلمة تعني التغيير، كما تغيّر الإبل في مرعاها بحثاً عن الحمض. (ش).

والدهاء والاحتيال، إنه ـ كما يسميه إخواننا ـ (أبو المقالب) فعسى أن لا تكون وقعت في مصيدته؟ لاشيء أكثر من (استعارة) اسمي منذ نزلت في المطار حتى الآن، وهي (استعارة) لم آسَ عليها، فقد هَيَّأَت لي من الراحة فوق ما أتوقعه لو (تَجَلْبَبْتُ) بذالك الاسم. واستمر الأخ في سرد قصص هي أغرب من الخيال، على مسمع من الرجل الذي كان يفغر فاه كالمشدوه، ثم لا يلبث أن يجلجلها ضحكة عالية أشبه بفرقعة الآلة التي وقف محركها فجأة.

سافر إلى العراق أثناء عطلة أحد العيدين، فقابل في البصرة ثلاثة من (أغوات الحرم المكي) كانوا حضروا للبحث عن أوقافٍ تتعلق بالأغوات في مدينة البصرة، ويظهر أنهم لم يكونوا على درجة من حسن التصرف مما سبب لهم السأم، وقد رغبوا العودة بعد نفاد ما معهم من نفقة، فضاقت بهم السبل، فاهتبلها (أبو المقالب) فرصة سانحة فالتفَّ بهم، وتلقى ديوان ولي العهد في الرياض برقية من رئيس وفد أغوات الحرمين الشريفين للمطالبة بأوقافهم، عن رغبتهم بمقابلة سموه، لتهنئته بولاية العهد، وهم يأملون إبلاغ القنصلية في البصرة بتهيئة جميع الوسائل اللازمة لتوجههم، ولم يمض بضعة أيام إلا و (أبو خليل) رئيس وفد الأغوات يتقدم ثلاثة منهم في القصر الملكي، وقد شملهم ما اعتاد قُصَّادُ ذالك القصر من كرم الوفادة، حتى عادوا إلى مكة.

ويفد أحد الشعراء السودانيين إلى الرياض، فيحين العيد، وقد أمضى ذالك الشاعر الليلة التي سبقته ساهراً يدبِّجُ قصيدة عصماء ليلقيها أثناء الاحتفال، وكانت عين (أبي خليل) الذي أوقع سوءُ الطالع ذالك

الشاعر بالسكنى معه تراقبه، وعلى غفلة منه ـ وهما راكبان معًا في سيارة إلى القصر ـ تمتد يَدٌ إلى جيب جُبَّةِ الشاعر السوداني الواسع، وأثناء الجلوس أمام الذي تصدر الاحتفال، يتقدم (أبو خليل) مستأذنًا بإلقاء قصيدة لم يشرع في قراءة البيت الأول منها إلا وقد أوشك الشاعر السوداني أن يخرج من وعيه من شدة ما اعتراه من الاضطراب والدهشة والغيظ.

لقد تولى الرجل وظيفة مرموقة في (المراقبة العامة) تؤهله لأن يُهيَّأَ له السكنُ عند انتقال الديوان الملكي أثناء الحج، وهاهو الآن في غرفة واسعة في أحد فنادق مكة، وقد أقنعه مديره بأن الشيخ فلانًا ـ أحد القضاة المعروفين ـ قد أُمِر بإنزاله في الفندق، فليبت الليلة معه في غرفته الواسعة، وغدًا سينتقل إلى غرفة أخرى.. أَهْلاً وسَهْلاً، على الرحب والسعة!!

ويُجْرِي مدير الفندق التعارف بين الاثنين، ويرتاح الشيخ لحسن استقبال صاحبه ولطفه، ويعجب بعد أن يستقر بالثلاثة المجلس في تناول القهوة بأحاديثه التي تشعبت، واستمرت حتى حان وقت النوم، فَيَتَمَدَّدُ كل واحد منهم على سريره في جانب من جوانب الغرفة .. ولم تمض لحظات حتى يجلجل في الغرفة صوت تتبعه قهقهات مفزعة، ولعل الشيخ تخيل أن صاحبه استغرق في النوم، فاستولت عليه أضغاث الأحلام ولكنه يفاجأ بكلمة (ما سَمِع) يعقبها صوت أسوأ من الأول، وقهقهات متتالية ممزوجة بما يشبه الشهيق، فيقفز الشيخ من السرير ليجمع ما فرقه قبل النوم من ملابسه في حقيبته ويغادر الغرفة مسرعًا.

وَقَلَّ أن تقابل أَحَدَ معارف الرجل فلا يحدثك عنه بأحاديث هي

أغرب من الخيال من وقائعه وأخباره، وعن حوادث وقعت له مع أناس لا تربطه بهم أية رابطة، ولكنه استطاع بحذق حيلته أو (بمكره) بلوغ ما أراد منهم.

عرفت الرجل ـ بعد ذالك ـ معرفة تامة، فقد كان ذا مكانة مرموقة في وزارة الزراعة، وذا صلة حسنة بالمجتمعات العامة، وقد أطلعني على مؤلف له عن مشاهداته في الرياض، تحدث فيه بتوسع عن أبرز الرجال العاملين في مختلف مناصب الدولة، من أمراء، ومستشارين للملك، إلى موظفي الديوان فمن دونهم، ويحوي الكتاب كثيراً من الحقائق والمعلومات المفيدة، إلا أن فيه مغامز تتعلق بكثير ممن تحدث عنهم.

وقد كان آخر اجتماعي به في المدينة المنورة حين قمت برحلة إليها لدراسة موقع مينائها القديم (الجار) أسفل وادي الصفراء، فلما عزمت على الذهاب إلى تلك الجهة أخبرني الشيخ محمد الحافظ أحد علماء المدينة وقضاتها المعروفين، بضرورة استئذان الأمير والاستعانة بكتاب منه إلى أمير الصفراء، وأكرمني ـ أكرمه الله ـ بالذهاب معي إلى (ديوان الإمارة) ضحوة يوم السبت ٤ / ٣ / ١٣٩٠هـ [١٩٧٠م]، وأثناء الاتجاه إلى مكتب وكيل الأمير الأستاذ سعد الناصر السديري، إذا برجل يمسك بي ليسلم عليَّ، ولولا قهقهته المتميزة لما عرفته، ولعل الوكيل السديري استغرب دخولنا عليه معًا، ولما أردت إيضاح قِدَم التعارف بذكر أول أسبابه غمزني صاحبنا مبدياً عدم ارتياحه للاسترسال في الحديث عن الماضي، إنه الآن مدير فرع وزارة الزراعة في طيبة الطيبة، ومن وجهائها البارزين.

الحواشي :

(١) : حليب الخلفات : حليب الإبل، وكان لا يُقدّم إلا للخاصة من الضيوف.

(٢) : القرصان : هي أرغفة رقيقة جداً تُروّى بمرق اللحم وبعض الخضر، هي ما يُعرف قديماً باسم الثريد :

إذَا مَا الخُبزُ تَأْدُمُهُ بِلَحْمٍ فَذَاكَ أَمَانَةُ اللَّهِ الثَّرِيْدُ

«الأصل : فذا وأمانة الله . . ولكن الحلف بالأمانة لا يجوز» وكان الثريد أطيب أطعمة العرب، ولهذا ورد في الحديث «فَضْلُ عائشة على النساءِ كفضل الثريد على سائر الطعام» .

(٣) : انظر جريدة «الجزيرة» تاريخ ٢ شوال سنة ١٤١٠هـ .

(٤) : انظر كتاب «في شمال غرب الجزيرة» ـ ص١٧٨ .



الشيخ حمد الجاسر مع ابنه محمد ـ رحمهما الله ، ويبدو في الخلف الشيخ ناصر المنقور .

إلى الظَّهران مرة أخرى*

لم آسَ على سرعة رجوعي قبل أن يتم ما قصدته حين طلبت الإجازة التي لَمْ أسْتَفدْ بها، فقد تهيأتْ لي فرصة استطعت خلالها أن أُعدَّ تقريراً مفصلاً عما أحسست بأنني مطالب به أمام ولاة الأمر، من إيضاح الحقائق التي شاهدتها، وما قد يترتب عليها من أثر في مستقبل حياة جزء كبير من نَشْءِ الأمة، وقد ضمنت هذا التقرير أموراً:

أولها: إيضاح أن الشركة مطالبة بأن تُهَيِّءَ الوسائل الكفيلة بتعليم أبناء موظفيها.

ثانياً: أوضحت أن المقصود بذالك التعليم السير وفق المنهج الذي تُعدُّهُ الدولة ليسار عليه في جميع مراحل الدراسة بين جميع المواطنين، مما يكفل للمجتمع إيجاد شباب قد انطبعت العقيدة الإسلامية في نفوسهم، ونُشِّئُوا على التخلق بالأخلاق الفاضلة منذ صغرهم، وتمكنوا من إجادة لغتهم، كتابة وقراءة ونطقاً، وأن يتدرجوا في ذالك حسب مراحل أعمارهم، كشباب أمة شرفها الله بالإسلام، واختارها من أفضل الأمم، وشرف لغتها بأن اختصها بلغة وحيه المنزل على أكرم خلقه، وأشرف رسله محمد ﷺ.

ثالثها: أن الشركة نفسها لم تقم بشيء حيال ذالك الأمر، بل لم يَبْدُ من أعمالها الاتجاه للقيام به، وإنما أوجدت أمكنة تلقن فيها الصغار كلمات إنجليزية، نطقاً وكتابة، قبل أن يُلِمُّوا بمعرفة شَيْءٍ من لغتهم الأصلية، وهي بذالك تُعدُّهُمْ لا لتولي أعمال رفيعة، بل بالقيام من

* المجلة العربية، العدد (١٩٤)، ربيع أول ١٤١٣هـ / آب وأيلول ١٩٩٣م.

الأعمال بأيسرها، وأقلها جَدْوىً في مستقبل حياتهم، مع التأثير بما يلقنون على ذالك المستقبل في مراحل حياتهم الأولى، قبل أن تكون لديهم حصيلة من المعرفة تحول دون تأثر أفكارهم وأخلاقهم.

رابعًا: أَنه لا يوجد للشركة نشاط متميز في التعليم لكي تُنْشَأَ رقابةٌ عليه، فهي بَعْدُ لم تنفذْ شيئاً مما يجب أن تنفذه في هذا السبيل.

ولهذا فأَرى من أَوْلَى وأَوَّلِ ما يجب اتخاذه:

١ـ تكليف إدارة المعارف العامة بأن تدرس أحوال عمال الشركة في مناطق عملها، دراسة تمكنها من معرفة أمكنة سكناهم، ومحلات تكاثرهم، ومن ثمَّ إدراك ما يتطلب ذالك من إنشاء مدارس كافية في تلك الأمكنة، على الطرق الحديثة، وتتولى المعارف اختيار مديري تلك المدارس ومدرسيها، ولا مانع من الاستعانة بالشركة في تعيين بعض المدرسين، أو المشرفين على التمارين الرياضية، وأن يسمح باستغلال بعض أوقات إضافية لتدريس اللغة الإنجليزية بإشراف المعارف.

٢ ـ أن يسير التدريس في تلك المدارس وفق المناهج المقررة للتعليم في مراحله التمهيدية والابتدائية والثانوية، وألا يسمح للشركة بأن تفتح أية مدرسة لا تسير على هذا المنهج، وبمعنى أوضح: لا تتدخل الشركة في أي شأن من شؤون التعليم بدون موافقة إدارة المعارف التي لها الحق وحدها بالإشراف على تلك الشؤون في المملكة بصفة عامة.

٣ ـ أما موضوع مراقبة الكتب والصحف وخلافهما مما ينشر بين العمال، فالحكومة سائرة في ذالك في المناطق الأخرى على أن يتولى هذا أناس يعينون من قبل قضاة تلك المناطق أو من يختارونهم لهذه الغاية، ولا أرى ما يدعو لأَنْ تعامل الشركة في هذا الأمر معاملة خاصة.

٤ ـ أما إذا رأت الحكومة ضرورة إيجاد مكتب لمراقبة التعليم بصفة عامة، فإن هذا يتطلب أموراً:

أولها: أن لا يناط هذا العمل بالشركة، فقد فهمت من مدير التعليم ومن غيره أنها ليست معنية به، بل قد اتضح مما ظهر لي أثناء عملي أنها تعاملني أنا وزميلي فيما تقدمه لنا مما يتعلق بالسكنى، وبوسيلة إيصالنا إلى مقر العمل، وبمعاملتنا فيه معاملة المُمْتَنِّ المتفضل.

ولعل من أوضح الأدلة على ذالك أنها لم تهيِّيءْ لنا مكاناً خاصًا في المدرسة، بل تركتنا مع مدرسيها في غرفة واحدة، كما أنها في أول الأمر كانت تبعث إلينا سيارة صغيرة لنقلنا من الخبر إلى المدرسة، وفي آخر الأمر صارت تبعث بسيارة كبيرة مكشوفة، أُزَاحِمُ أنا وصاحبي سائقَها للركوب معه في مقدمتها، وكثيراً ما كانت تتأخر عن الوقت المحدد للعمل، أو للرجوع إلى المنزل، مما يضطرني في بعض الأحيان إلى العودة ماشياً مع بعد المسافة.

وعلى ما تقدم فالأمر يتطلب إعداد مكان خاص لمراقبة التعليم وتهيئته بكل ما يلزم له من مكاتب وغيرها، وتقرير وسائل الانتقال منه إلى المنزل في مدينة الخبر، وهذا الأمر يتطلب دراسة وافية من جميع جوانبه، وعلى أساسها يتم تنفيذه. ومن الممكن أن تلزم الشركة بذالك لكونه من متممات ما هي مطالبة به من تعليم أبناء عمالها. تلك خلاصة ما أعددته في ذالك التقرير.

وبعد مضي ما يقرب من شهرين عاودت السعي مرة أخرى لنيل إجازة، فتم ذالك، وبعد إتمام ما عزمت عليه من الزواج في مكة عدت

بعد شهر إلى الرياض، وكنت قد علمت بأنه قد عين للظهران أميرٌ جديد، هو الأمير خالد بن أحمد السديري[1]، فلما وصلت الرياض وأسكنت في دار الضيافة وقابلت الملك قدمت له التقرير الذي أعددته، ولما اتصلت بالشعبة السياسية لأعرف ماذا تم بشأنه علمت بأن الملك أمر الشيخ يوسف ياسين[2] الذي سيسافر مع الأمير السُّديري ومعهم عبد الله السليمان وزير المالية، وأن الملك قد اهتم به فأمر يوسف بملاحظة ما ورد فيه، كما أمر بأن أسافر معهم، وفي صباح اليوم الثالث علمت بأن الأمير السديري ومن معه سيتوجهون في المساء، فلما حان وقت الاتجاه من دار الضيافة إلى المطار ركب كل إنسان سيارته المخصصة له، وبقيت وحدي لم يهيأ لي ما يوصلني إلى المطار، فرآني السيد رشدي مَلْحَس، وإذا بسيارة لعبد الرحمن القصيبي[3] تركها، ورافق وزير المالية في سيارته، فقدمت لي سيارة القصيبي لأذهب إلى المطار، وكان موقعه في مكان يعرف باسم (بُوَيْب) والطريق وعثٌ ليس معبَّداً، وتعترضه رمال وأمكنة وعرة، وفي مكان يعرف باسم (المعيزيلة) ساخَتْ عجلات السيارة في الرمل، ولم نستطع الخروج إلا بعد غروب الشمس، وقد ذهب القوم قبل ذالك الوقت بزمن.

وفي صبيحة اليوم الثاني وقد أبلغت الشعبة بسبب تأخري، حضر إلي مندوب منها بسيارة كبيرة، فكان التوجه بها إلى الظهران، ووصلتها ثاني يوم من مغادرة الرياض، وفي مساء ذالك اليوم بينما أنا وصاحبي جالسان بعد العشاء في منزلنا إذا بالباب يطرق، وبسيارة واقفة عنده، فقال لنا الطارق: هذا الشيخ يوسف، تَفَضَّلوا اركبوا معه.

فكان أول ما فاجأني به بعد السلام: لماذا جسمت الأمور أمام الملك؟ فأجبته: لن تجد كلمة واحدة فيما كتبت في ذالك التقرير لا تطابق الحقيقة، لأنني توقعت قبل كتابته أن يقال هذا، ويبدو أنك لم تقرأه قراءة إمعانٍ وتَرَوٍّ، فقال: لقد قرأناه وانتهينا إلى قرار بشأنه، وها نحن ذاهبون إلى الأمير خالد في الدمام، لتعرف ما اتخذناه في الموضوع، ولما دخلنا على الأمير في مجلسه قال له يوسف: أقدم لك أجبن رجل في العالم الذي هرب من ركوب الطائرة !! فأجبت: ركوب الطائرة أو عدمه لا يدل على شجاعة أو جبن، وقد ركبتها قبل عشر سنوات حينما كنت مديراً لمدرسة ينبع، ومر بالبلدة الاقتصادي المصري المعروف طلعت حرب باشا، فركبت معه الطائرة إلى مدينة جدة بقيادة الطيار محمد صدقي، الذي خلد ذكره أمير الشعراء أحمد شوقي بإحدى قصائده.

ولما استقر بنا المجلس أعاد الشيخ يوسف قوله بأن التقرير مبالغ فيه، وقد أخبرت الملك وبينت رأيي حياله وما اقترحته فيما ورد فيه، فوافق على ذالك، ثم استرسل يتحدث عنه قائلاً: أما عن عناية الحكومة بتربية النشء من أبناء شعبها على العقيدة الإسلامية الصحيحة والأخلاق العربية، فقد قامت بواجبها من ذالك في كل منطقة من مناطق المملكة، ومنها منطقة الظهران التي يكثر منها عمال الشركة، فقد فتحت فيها مدارس في الخبر وفي الدمام وفي القطيف وفي الجبيل، وهي في سبيل فتح مدارس أخرى في بقية الجهات، والشركة نفسها حريصة على أن تنفذ جميع ما اتفقت عليه مع الحكومة، ولهذا لا داعي لتحمل نفقات لفتح مدارس لا تدعو الحاجة إليها، وهاؤلاء الصغار الذين يُعَلَّمُوْنَ في أمكنة العمل عند الشركة

مباديءَ اللغة الانجليزية هم من أبناء العمال الفقراء، الذين قد يضطرون للاشتغال في سن مبكرة فتُوجِد لهم الشركة أعمالاً يسيرة في مكاتبها، كسعاة أو مساعدي أرباب أعمال أخرى، وهاؤلاء يلزم أن يتعلموا من الكلمات الإنجليزية ما يستطيعون التخاطب به مع أصحاب العمل، والغريب من موقفك حيال تعليم اللغة الإنجليزية لهم وأنت تعلم أن محمداً عليه الصلاة والسلام أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود، وأغرب من هذا أنك تشكو من أن الشركة لم تخصص لنقلكم إلى مقر العمل إلا سيارة كبيرة، وهل نسيت وأنت من أهل نجد أنكم تعودتم الحل والترحال على ظهور الجمال، وكان الملك كثيراً ما يسرد علينا أخباره في مغازيه، حيث يقطع هو ومن معه المسافات الطويلة على ظهور الإبل بطريقة مرهقة.

وموضوع إفرادكم في مكان فهذا أمر مناسب، فقبل يومين زرت المدرسة، فرأيت المكان المعد لجلوسكم مع غيركم ممن قد يتعاطى شرب الدخان، فرأيت هذا لا يليق بكم، واتفقت مع الشركة على تخصيص مكان منفرد، قريب من المدرسة، فتم ذالك وغداً قبيل الظهر سأكون هناك لمعرفة ذالك المكان.

أدركت أن الرجل مقتنعٌ مما قال، بل فوق ذالك قد أقنع أُولِي الأمر بذالك، فما الذي يُجْدِي من محاورته، فما كان مني إلا أن قلت: أنت يا معالي الشيخ تتحدث عن ثقة واطمئنان بصحة ما تقول، وأنا أضْعَفُ من أن أتصدّى لإبداء رأيي فيما سمعته، ومن هنا لا يسعني إلا إظهار الموافقة وأقولها صريحة: بأنني لم أقتنع بحرف واحد مما ذكرت، وسأحضر غداً في الوقت المحدد، وهممت بالخروج فقال: بأنه ساكن

في الظهران عند الشركة فلأنتظر قليلاً للعودة معه، فالخبر في الطريق إلى مقر سكناه.

تقع المدرسة قرب المستشفى في الحي الأمريكي، وبينهما خيمة أُعدَّتْ ليفصل فيها المرضى المصابون بأمراض معدية كالجدري والحصبة وغيرهما، برهة من الوقت حتى يبعث بهم إلى الأمكنة المخصصة لهم.

لقد حضر الشيخ يوسف في الوقت المحدد ولم يدخل المدرسة بل دعاني ونزل من سيارته ومعه أحد موظفي الشركة، فأشار إلى الخيمة قائلاً: لقد تم اختيارِ تلك الخيمة، مقرًّا لكم أنت وزميلك، ومن سيحضر من المدرسين الذين ستبعثهم المعارف، فقلت له: أتعرف لماذا أعدت تلك الخيمة وخصصت له؟ إنها قد أعدت ليفصل فيها من أصيبوا بمرض مُعْدٍ، فكيف ترضى أن تختارها الشركة لموظفين لا ترضى الحكومة أن تجرح كرامتهم؟! فقال رافعًا صوته: أعوذ بالله يا شيخ حمد! وهل بلغ بك التطير والتشاؤم إلى هذا الحد، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «لا عدوى ولا طيرة» إن المكان سينظفُ وستعد لكم فيه مكاتب وصوانات (دواليب) لوضع كتبكم وأوراقكم، ويمد لكم فيه أنبوب من الماء العذب، ثم ركب سيارته، فكانت هذه المقابلة الأخيرة بيني وبينه بشأن الموضوع، وعدت إلى المنزل في مدينة الخبر، فبعثت برقية للملك طالبًا إقالتي من العمل، متعللاً بضعف صحتي، وعدم قدرتي على القيام به، وبقيت نحو أسبوع، فلم أشعر في صبيحة يوم من الأيام بعد ذالك إلا بالشيخ إبراهيم الشورى يأتي إلي في المنزل في الخبر، وكان إذْ ذاك يعمل مستشارًا للأمير السديري، فقدم إلي برقية من الملك إلى الأمير مضمونها: خيروا فلاناً بين أحد أمرين الاستمرار في

عمله أو أدخلوه الحبس وأخبرونا ! فاستحسنت مقابلة الأمير نفسه، لإبلاغه ما أراه في الموضوع، وذهبت مع الشيخ الشورى في سيارته إلى الدمام لتلك الغاية.

كان الأمير خالد بن أحمد السديري من خير من عرفت من الرجال خلقًا وأدبًا ومروءة، وكان حين عين أميرًا لمنطقة الظهران ذَا آمالٍ واسعة في حفظ الاستقرار، بحيث اختار لبعض الأعمال البارزة من يثق به ممن سبق أن عرفهم. فاختار لمراكز الإمارة في الخبر والقطيف والجبيل ورأس تنورة من يثق به، ولقضاء بلدة الدمام الشيخ عبد الرحمن بن محيميد ممن عمل معه في جازان ، ولقضاء بلدة الخبر الشيخ صالح بن عبد الله العنقري، كما اختار غيرهما ممن أسندت إليهم بعض الأعمال، ولكن يبدو أن الظروف وقت تعيينه في هذا العمل ما كانت ملائمة، إذ من المعروف أن منطقة الظهران كانت تابعة لإمارة القطيف، إحدى مراكز إمارات الأحساء، التي كان يتولاها الأمير عبد الله بن جلوي بن تركي آل سعود من أبناء عم الملك عبد العزيز منذ أن شملها حكم الملك في سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة وألف، أقام الملك عبد العزيز ابنه سعودًا [ابن جلوي] مقامه، فكانت إمارة القطيف تابعة له، حتى عُيِّن الأمير خالد السديري سنة ١٣٦٤هـ، فعين في مراكز الإمارة في المنطقة من اختارهم لذالك، ومع أنه كان يحظى من الملك عبد العزيز هو وإخوانه بتقدير خاص، إذ هم ـ أي السدارى ـ أخواله وأصهاره، إلا أن آل جلوي أيضًا لهم في نفس الملك مكانتهم للقرابة، ولما أبدوه من أعمال بارزة إبَّانَ البدء في تأسيس المملكة.

ويبدو أن الأمير السديري مع ما شمله من عطف الملك ورعايته وما

حظي به من تقدير بتعيينه في هذا المنصب، ما كان مطمئناً لأن ينال من الراحة ما توقع، يضاف إلى هذا أن عمله أصبح مرتبطًا بشركة أجنبية، لها وضع خاص، ولأساليب التعامل معها وسائل خاصة أيضًا، وهي في الوقت نفسه مرتبطة بوزارة المالية التي يتولاها وزير قوي النفوذ والصلة بالملك.

حين قابلت الأمير السديري أبدى لي تأثره من تلك البرقية، أوضح بأنه لم يطلع على التقرير، وكان المفروض اطلاعه عليه فلم يتسن ذالك له لاشتغاله مع ابن سليمان في بعض الأمور المتعلقة بأحوال الإمارة، ولكنه نصحني بالاستمرار في العمل، لا سيما وأنه لا يتطلب مني سوى الإشراف العام الذي لا يستغرق إلا جزءاً يسيراً من وقتي، وسيحاول معالجة الموضوع عن غير طريق يوسف ياسين، ولكن هذا يتطلب التريُّثَ حتى يحين الوقت المناسب، وكان أن أبرق إلى الملك باستمراري في عملي.

ومع قصر المدة التي أمضاها السديري في عمله أميراً في الظهران، بحيث لم تستكمل عامًا واحداً، إلا أنه كان خلال ذالك فيما يبدو للمتصلين به قلقَ النفس، غير مستقر، بحيث كان كثيراً ما يسافر إلى الرياض، وينيب أخاه الأمير سليمان مكانه، حتى تم نقله مستشاراً للملك، وعادت إمارة المنطقة إلى آل جلوي.

لقد أدركت خلال هذه الفترة أموراً:

أولها: أنني قد بذلت ما أستطيع من حيث لفتُ أنظار ولاة الأمور إلى ما يجب الاهتمام به من شؤون تنشئة النشء في هذه المنطقة التنشئة

القويمة، في إعداد وسائل تعليمهم التي تكفلها، وهذا هو كل ما أستطيع فعله وما لست مطالبًا بأكثر منه.

الأمر الثاني: أن الأمور تلك وكلت إلى أناس لهم آراؤهم حيالها، وهم في الوقت نفسه ذوو مكانة، بها يستطيعون تحقيق ما يرون بعد إقناع الجهات المسؤولة لصحة ما يرون، وفعلاً قد تم هذا وأصبح من العسير إن لم يكن من المستحيل تغييره.

الأمر الثالث: أنني بحاجة إلى أن يسند إلي أي عمل من الأعمال التي أستطيع من خلالها تنظيم مستقبل حياتي، وما أقوم به الآن بدرجة تبعث على الطمأنينة والارتياح، يضاف إلى هذا أنني أستطيع خلال هذا العمل أن أبذل جهداً مَّا، وإن لم يكن على ما أتوقع من النفع، ولكن لا يكلف الله نفساً فوق طاقتها.

من هنا وبعد نقل الأمير الذي وعدني بمعالجة الأمر، وإن لم أكن على ثقة من تمكنه من ذالك، رأيت توطين النفس، وتقبل الواقع على ما هو عليه، ومن يدري فقد تأتي الأيام بخلاف ما في الحسبان، وقدْ عُيِّنَ أمير جديد في المنطقة، وإن كانت لا صلة لعملي به إلا أنني أتوقع أن قد يحدث في المنطقة تغيير في بعض الأحوال، يضاف إلى ما تقدم أن التعارف بيني وبين عدد من كبار موظفي الدولة كان من الأسباب التي أضفت على نفسي شيئاً من الراحة والاطمئنان في الاستقرار، ومن اؤلئك الشيخ صالح إسلام مدير الماليات والجمارك في المنطقة كلها، فقد عرفت فيه الرجل الشهم، حينما لجأت إليه في إحدى المرات لأقترض على حساب راتبي مبلغاً من المال، فما كان منه إلا أن سارع بالأمر، لا بتحقيق تلك الرغبة، بل بإبلاغ مالية الظهران بأن تصرف لي

مرتبي في أي وقت أراجعها فيه بدون الرجوع إليه في ذالك، كما جرت العادة التي ينشأ عنها تأخر الصرف فترة من الزمن، وأبدى لي استعداده بمساعدتي فيما لو أردت شيئاً زائداً على ذالك.

وفي تلك الأثناء، وبمساعدة من السيد سامي هُيِّئَ لي في مدينة الدمام التي أصبحت القاعدة، منزل مريح واسع فانتقلت من مدينة الخبر إليه، واتصلت بمجتمع أكثر انفتاحاً وملاءمة لحياتي من مجتمع بلدة الخبر، وعرفت عدداً من مشاهير البلدة، وأكثرت التردد على مدينة القطيف التي عرفت بعض أدبائها وشعرائها، مع ما كنت أكلف به من قبل الإمارة في الاشتراك في لجنة تحقيق القضايا العامة.

ولم آسف على شيء إلاَّ أنني في تلك الفترة التي أحسست فيها بالاستقرار الذهني لم أستغلها في تعلم اللغة الانجليزية التي توفرت لي أسباب تعلمها، ولا في الاتجاه للدراسة والبحث في الجوانب التي أحس من نفسي ميلاً إلى معرفتها.

الحواشي :

(١) : الأمير خالد بن أحمد السديري هو ابن خال الملك عبد العزيز، ولد في بلدة لَيْلَى في الأفلاج وتلقى مبادي القراءة والكتابة على الطريقة المألوفة في ذالك العهد، وعين أميرًا للظهران في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٦٤هـ، وفي خلال عام ١٣٦٦هـ عين في مجلس المستشارين حتى ندب في سنة ١٣٦٧هـ أميرًا لمنطقة تبوك، وبقي فيها نحو ثماني سنوات، وفي عام ١٣٧٥هـ عين وزيرًا للزراعة إلى أن استقالت وزارة الملك فيصل، ثم عين سنة ١٣٨٢هـ في إمارة منطقة نجران إلى أن توفي سنة ١٣٩٩هـ وقد عرفت الرجل حق المعرفة، فأدركت أنه على جانب عظيم من الأخلاق الفاضلة، من محبة الخيرِ، والرغبة في الإصلاح العام، كما أنه يتمتع بقسط من الثقافة، وسلامة التفكير، ومعرفة أحوال الناس، وترفعه عن كل نقيصة.

(٢) : يوسف بن محمد ياسين (١٣٠٩/١٣٨١هـ) ولد في اللاذقية في سُوْرِّية، والتحق بمدرسة الدعوة والإرشاد التي أنشأها السيد محمد رشيد رضا في مصر، وأقام في القدس وعَمَّان في عهد الشريف عبدالله، وقدم الرياض عن طريق بغداد فالأحساء سنة ١٣٤٣هـ وتولى رئاسة تحرير جريدة أم القرى، ثم عينه الملك عبد العزيز رئيساً للشعبة السياسية، وتوفي في مدينة الدمام ودفن في الرياض، وله مقالات نشرت في جريدة «أم القرى» ومنها وصفه لرحلة الملك عبد العزيز إلى الحجاز طبعت مفردة، ومذكرات سجلها من إملائه على أشرطة لم يتمها (الأعلام).

(٣) : عبد الرحمن بن حسن القصيبي ـ سبقت الإشارة إليه في بعض السوانح ـ وهو عميد الأسرة القُصيبية المعروفة بالثراء والفضل في القرن الماضي، وهو والد سفير بلادنا في لندن الأستاذ الدكتور غازي القصيبي، ويُعَدُّ من خير رجالات العرب الذين عرفتهم، ممن كانت لهم صلات بالبلاد الخارجية، لما يتمتع به من رغبة في فعل الخير، والإسهام في نشر العلم، وقد توفي سنة ١٣٩٦هـ [١٩٧٦م] ، وقد شارف المئة عام.

عَن الحياة الزوجية *

لم أُقْدِم على الزواج إلاَّ في آخر العقد الرابع من عمري، وعلى وجه التحديد حين بلغت السنة السادسة والثلاثين منه، وما كان لي من يدٍ في هذا التأخير، إذْ قبل ذالك لم أنل من الاستقرار في حياتي ما يمكنني من تحقيق هذه الرغبة، فأنا أدرك ـ كغيري ـ أن سعادة المرء لا تتم إلاَّ حينما يوفق لقرين صالح، يتمكَّنانِ بتعاونهما وسعيهما معًا من تحقيق ما يطمحان إليه، من بناء بيت مستقبلهما السعيد، الذي في كنفه ينالان ما يتطلعان إليه من راحة وطمأنينة، ويهنآن بما تكمل به سعادتهما، وتقر به أعينهما مما ينجبانه من ذرية صالحة.

وها أنا الآن بعد زواجي وقد شعرت عن ثقة وارتياح، بتحقيق ما أطمح إليه على خير الوجوه وأتمها، أُحِسُّ بأنني من أسعد الناس في حياتي الزوجية، وكثيراً ما يعتريني الأسى الشديد حين تعود بي الذاكرة إلى عهد الطفولة، وهو عهد بؤس وشقاء، لا بالنسبة لي وحدي بل لكل من عاش على شاكلتي من أبناء الفلاحين، فأتذكر ما كان يعانيه والداي من شقاق دائم، ينغص عليهما عيشتهما في حياتهما، فلقد كان أبي فلاَّحاً لا يستطيع بكده وعمله إدراك الكفاف من العيش، لمن يعوله في جميع الأوقات، وكانت أمي تشاركه في جميع أعمال فلاحته، كنساء القرية كلهن، فإحداهن ـ مع المشاركة التامة في العمل ـ تقوم بكل أعمال المنزل، وتربية الأطفال، فلا تحظى بأي قسط من الراحة، لاستغراق ما تؤديه من أعمال جميع وقتها، وفق رغبة زوجها، وكانت والدتي مع كل ذالك تقاسي من سوء معاملة

* المجلة العربية، العدد (١٩٥)، ربيع آخر ١٤١٤هـ / أيلول وتشرين الأول ١٩٩٣م.

والدي الشيء الكثير مما كان يقاسي مثله غيرها من زوجات الفلاحين بدون استثناء في منطقتنا، ولهذا فقد كانت ـ رحمها الله ـ كثيراً ما تلتجيء من شدة ما تلقى إلى بيت أبِيها، في قرية مجاورة، تاركة أطفالها الصغار ـ وأنا أحدهم ـ بدون رعاية ولا تفقد، ولكنها لا تلبث حين تتغلب عليها عاطفة الأمومة فتستهين بكل ما تلقى من أذى في سبيل حنوها على أطفالها، فتسرع العودة إليهم.

ولقد كان أبي ـ والله يتولاه بعفوه ورضوانه ـ وإن كان حادّ المزاج، إلاَّ أنه سريع الفيئة، لا يلبث حين يشاهد ما عليه أطفاله من سوء الحال لفقد أمهم أن يحاول ما استطاع إظهار الندم على ما بدر منه، بمحاولة إرضاء والدتهم، ولكن ما يكتنف حياته من فاقة شديدة، يدفعه إلى أن يعيش مضطرب النفس، سريع الغضب، عليل الجسم، حتى انتقل من هذا العالم، ولما يكمل العقد السادس من عمره.

وقد يتضح من هذه الصورة، وأمثالها مما يجري في الطبقات الفقيرة في مجتمعنا الحاضر، أن ما كانت توصم به بعض القبائل في جاهليتها مما يبرز المرأة بينها في حالة من الضعة والاستهانة، لا تليق بكرامتها، كان من الأمور التي لا اختيار لها فيها، وإنما ألجأتها إلى ذالك أحوال اضطرارية عارضة، من استحكام الفقر، واشتداد الفاقة في حياة أؤلئك، إذ العرب ـ بصفة عامة ـ أمّةٌ كغيرها من الأمم التي أدركت غريزة، وصفاء فطرة، واكتساب معرفة، أهم مقومات هذه الحياة، وأن هذه المقومات ـ التي أساسها الحياة الزوجية ـ لا يتم بناؤها إلاَّ على المودة المتبادلة، والتقدير التام، ومن هنا فليس غريبًا أن نجد الشاعر العربي يشيد بقرينته فيخاطبها بالكنية في مقام الإجلال والاحترام،

ويضيف إلى ذالك ما يؤكده فيقول:

يَا رَبَّةَ الْبَيْتِ قُومِي غَيْرَ صَاغِرَةٍ ضُمِّي إلَيْكِ رِحَالَ الْقَوْمِ والْقِرَبَا

إنه يكل إليها الاهتمام بأضيافه، وبإكرام هاؤلاء بمختلف صنوف الإكرام تسمو منزلته ويعلو قدره، فقد أسند إليها ـ لعلو منزلتها في نفسه ـ ما يعتز ويفخر به، ويعده من أبرز سمات إجلاله في قومه.

لعل لما أحسست به في تلك الفترة ولما شاهدته إذ ذاك من الحالات فيما بعد، مما كان يحدث بين الأزواج من الخلاف الذي يفضي في كثير من الأحيان إلى انفصام عقد الزوجية، ويقوض صرح الحياة في بيت كادت تكمل السعادة فيه محبة وألفة، لعل في كل ذالك من الأثر في هذا الجانب من حياتي الزوجية ما دفعني للتعمق في التفكير في هذا الأمر قبل الإقدام عليه، فأنا أدرك ـ وهذا من الأمور البدهية ـ أن عمران هذا الكون قائم على هذه القاعدة الاجتماعية، ولكنني أدرك أيضاً ـ كما يدرك الآخرون ـ أن صلاح هذه القاعدة، وبناءها على أسس ثابتة، لِتَتَحَقَّقَ الغاية منها، كل ذالك لا يتم إلاَّ بعد أن يدرك كل واحد من الزوجين ماله من الحقوق، وما عليه من الواجبات، قبل الارتباط بهذه الوظيفة الاجتماعية، وأن يتم ذالك الإدراك، ويقوم كل واحد منهما بما هو مطالب به في حالة من التكافؤ والتعاون والشعور التام، المنبعث عن رضا وقناعة، وإحساس نفسي بأنه وهو يبني حياة مستقبله مع قرينه، على أساس المشاركة التي بها تتم سعادتهما معًا، دون استعلاء أو استطالة من أحدهما على الآخر، مع مراعاة الجانب الأهم الذي لا تستقيم الحالة الاجتماعية بدونه، ألاَ وهو التوافق القائم على أساس المحبة المتبادلة، فمتى شعر كل واحد من الزوجين بسمو الغاية فيما

أقدما عليه من حياتهما الجديدة، وعرفا مالهما وما عليهما، وقاما بكل ذالك كُلٌّ بقدر استطاعته، متحلِّيَيْنِ بصدق الرغبة، وبالوفاق التام، استطاعا أن يبنيا هذه الحياة على خير ما ينشدانه من السعادة، والمحبة والاستقرار، مع امتداد هذه الحياة.

كان الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن ناصر العنقري (١٣١١ / ١٣٩٢هـ) من وجهاء أسرته، أمراء (ثرمداء)[١]، وكان على جانب من الأخلاق الفاضلة، وحسن السمعة في مجتمعه، يجيد القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريم نظراً، ويديم قراءته، ويكثر المطالعة في كتب الأدب والتاريخ، وله ميل خاص إلى الشعر الشعبي، ينتقي الجيد منه حفظاً وكتابة، من قصائد ابن لعبون وابن سُبَيِّلٍ وغيرهما من مشاهير شعراء العامية، وله منزلة اجتماعية مرموقة، وعندما اجتذبت (الْجُنْدِيَّةُ) في المنطقةالغربية كثيراً من أهل نَجْد، قدم مكة المكرمة، فأسندت إليه رئاسة ثلة من الجند ممن وكل إليهم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان أكثر من معه ممن اختارهم من أهل بلدته، وكنت أثناء دراستي في (المعهد) قد اضطررت إلى العمل في وظيفة إمام في (قلعة أجياد) حيث كان أحد أخوال أبي قائداً لمن في تلك القلعة من الجُنْد[٢]، ثم رغبت الالتحاق بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأتمكن من مواصلة الدراسة بدون عائق، فتم لي هذا، وفضلت الانضمام إلى رئاسة الشيخ عبد العزيز حيث سبق لي أن عرفته، فأدركت مما يتمتع به من حسن الأخلاق ما رغبني في ذالك، فصاحبت الرجل زمناً، وبمرور الوقت أدركت من نبله ووفرة عقله، ومحبته للخير، ومعرفته بأحوال الناس، ما قوّى ما بيننا من صلة امتدت، حتى

تمكنت من خلالها من معرفة الكثير من أحواله الخاصة، بل صرت بالنسبة إليه كأحد أبنائه.

ومضت فترة من الزمن لم أكن خلالها أفكر في الزواج، وبعد أن تقدمت بي السن، وأدركت أنني أستطيع القيام بالأعباء التي يتطلبها استقبال حياة جديدة، والقيام بمتطلباتها، تقدمت لخطبة إحدى بنات صاحبي الثلاث، وهي الوسطى منهن، وكانت والدتها من أعقل من عرفت من النساء، وأحسنهن تدبيراً لشؤون بيتها، وللإشراف على أحوال أبنائها، وهي ابنة رجل وجيه في أهل بلدته، عبد المحسن بن محمد العنقري الذي ولاه الملك عبد العزيز إمارة ثرمداء حين استولى عليها سنة ١٣٢١هـ عند قيامه لتوحيد المملكة، ووالدتها ابنة أحد الأشراف المعروفين في وادي (لِيَّةَ) بمنطقة الطائف، قدم بلاد نجد مُغَاضِباً لابن عمه أمير مكة في ذالك العهد، الشريف عون الرَّفِيق، فتزوج ابنة رجل من بني زيد من أهل شقراء يدعى ابن مُجَيْوِل، فرزق منها بابنة تركها عند أمها ، وعاد إلى بلاده بعد اتفاقه مع ابن عمه ، ولما بلغت ابنته مبلغ النساء تزوجها عبد المحسن بن محمد العنقري، فكان من أبنائها زوجة صاحبي، التي أصبحت فيما بعد جَدَّةً لأولادي[٣]، وقد نالت الفتاة التي خطبتها قسطاً حسناً من التعليم، فأجادت القراءة، وأحسنت الكتابة، وتكونت لديها ميول في الاستزادة بكثرة المطالعة، وهي وإن كانت تصغرني سنًّا، تتصف بالعقل والرزانة وحسن التدبير، ولم يتردد صاحبي حين تقدمت لخطبة ابنته في الموافقة، وعلى إتمام عقد الزواج في الوقت الذي أحدده، بعد أن عرف ما أنا مرتبط به من عمل، ولم يمانع حين أظهرت له رغبتي بأن يكون

الزواج خاليًا من جميع المظاهر التي اعتاد الناس إحاطته بها، وأن يُكْتَفى بوليمة يدعى إليها الأقرباء والأصدقاء.

وقد تم جميع ذالك، ومرت أيام هناء وراحة أحسست خلالها تغييراً في حياتي، بما غمر نفسي من استقرار ذهني، لا سيما بعد أن أدركت أن اختياري كان موفقاً.

وكان أن رزقنا أول مولود أنثى، والعادة أن المرء من قبيل الوفاء لوالدته يسمي باسمها أول مولودة له، غير أن هذا الأمر يحول دونه أَنَّ اسْم أُمِّي يتفق مع اسم زوجتي، فكان أن اخترت اسم (مَيّ) وهو يوافق في حساب الْجُمَّلِ[٤] اسم أُمِّي (هيلة) فكل واحد من الاسمين يقابل خمسين من العدد، وكان بعض مشاهير الشعراء الشعبيين وهو محمدبن حمد بن لَعْبُوْن المتوفى سنة ١٢٤٧هـ يهوى فتاة تدعى (هيلة) فكان يُكَنِّي عنها في شعره باسم (ميٍّ) كما يبدو هذا في كثير من قصائده، وقد صرح بذالك في أحدها إذ قال:

والله لَوْلاَ الحيَا والخوفْ   لاصِيْحَ واقول يا (هَيْله)[٥]!!

ومن طريف ما وقع لي في اختيار هذا الاسم أن أصبحت أوقع ما ينشر لي من مقالات بكلمة (أَبُو مَيْ) فطلب مني الأستاذ عبد الله عريف ـ رئيس تحرير جريدة «البلاد السعودية» ـ كتابة مقال بعنوان (مِنَى في الأدب العربي) لينشر في عدد سيصدر يوم عيد الأضحى[٦]، ويوزع في أيام منى، فكان ذالك، وكنت ممن حج ذالك العام، فزرت أحد الوجهاء في صباح العيد، فما كان منه إلاَّ أن أنحى عليَّ باللائمة كيف لم أحترم هذا اليوم، وأن أنشر هذا المقال الذي لا يليق نشره فيه، فكان أن حاولت أن أوضح له أن الرفث المحرم في الحج هو الفعل السَّيِّءُ، وليس

الكلام منه، وأوردت أدلة ونصوصاً عن العلماء ومنها: أن عبد الله بن عباس رضي الله عنه وهو ترجمان القرآن، حين سُئِلَ عن الرَّفَثِ وهو محرم، سائر إلى عرفة للوقوف فيها أنشد قول الراجز:

وَهُنَّ يَمْشِيْنَ بِنَا هَمِيْسًا   إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ (...) لَمِيْسَا(٧)

ثم أوضح أن الرفث الفعل وليس القول، ولكن هذا الرجل ومن طبيعته اللجاج قال: ولِمَ تُسَمِّي ابْنتك بمَيٍّ وهو اسم غير مألوف عندنا في نَجْد، ولكنك أردت (خالِفْ تُعْرَفْ) فأوضحت له أنني سميتها باسمٍ عُرِف به كثير من شهيرات نساء العرب، ومنهن من خلد الشعر العربي ذكرها في أزمان عدة، ولكنك سميت ابنك باسم رجل معروف موقف المسلمين منه، ومن إنكار كثير مما جرى من أفعاله، ثم انصرفت مِنْ مجلسه خوفاً من حِدَّة لسانه.

لم تعش (مَيٌّ) الأولى سوى شهور، ولكن الله عوضنا من الذرية الصالحة ما أقر به أعيننا، فرزقنا بستة أبناء هم على التوالي: مَيٌّ ومحمد وهند وسَلْوى ومعن ومنى، في زمن ما كان تعليم الفتيات في بلادنا مُتَيَسِّراً، ولكن الله هيأ لنا من الوسائل ما مكَّن جميع الأبناء من إكمال مراحل دراستهم بسهولة ويسر، وكما يقال (رُبَّ ضارَّة نافعة) فقد كان من أثر ما حدث بين المملكة وبين مصر في عام ١٣٨١هـ [١٩٦١م] أن اتجهت صحافة كل بلد للنيل من الآخر، وكنت أصدر في الرياض صحيفة «اليمامة» ولكنني أبيت أن أنزل بمستواها إلى ميدان المهاترة، وحاولتُ إقناع المشرفين على شؤون الصحافة في البلاد إلى ما تتمتع به من سمعة في العالم الإسلامي، وبأنه يجب الحفاظ على مكانتها، بكونها قبلة المسلمين في أرجاء العالم، ويجب أن تكون مثالاً

لِسُمُوِّ الأخلاق، والترفع عن النقائص، والتأسِّي والاقتداء بما أَدَّبَ اللهُ به عباده الصالحين الذين إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، وأبيت أن أنشر في تلك الصحيفة شيئاً مما كانت تبعث به (المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر) للنيل من حكام مصر، ـ كما ينشر في صحف اؤلئك ـ بأساليب تؤجج نار العداوة، وتحدث أسباب الحقد والتقاطع والبغضاء بين شعبين، ارتبطا بأواصر قوية من المحبة والأخوة منذ أقدم العصور، ولكنَّ موقفي لم يرق لأولئك، فكان أن أوغَرُوا صدر الملك سعود ـ رحمه الله ـ وهو رجل سليم القلب، محبٌّ للخير، فأمر بنزع الصحيفة مني، وبأن أُسْجن، وكنت إذ ذاك سافرت إلى الشام، لإحضار عمال لمطابع الرياض التي أتولى إدارتها، حين أضرب العمال المصريون فيها عن العمل، عند محاولة إرغامهم على أمر من أمور الطباعة لجريدة «القصيم» فيه تعرض لبلادهم بما يكرهون، فعلمت بالأمر المتعلق بي، من حيث نزع صحيفتي من يدي، وخشيت أن ينالني سوء بعودتي إلى الرياض، فكان أن بقيت في بيروت، وبعد فترة من الزمن وبرعاية خاصة من فيصل ـ رحمه الله ـ وكان رئيساً للوزراء، تمكنت من إلحاق جميع أبنائي بـ (مدارس المقاصد الإسلامية) حتى اجتازوا مرحلتي الدراسة الابتدائية والثانوية، ثم اتجه كل واحد منهم لوجهة تخصصه وميوله، حتى نالوا قسطاً من العلم هيأ لهم الاسهام في خدمة أمتهم، فأصبحوا أعضاء عاملين كل في حدود اختصاصه(٨).

ويقتضيني الوفاء، أن أعترف بما كان لزوجتي من جهود كان لها أعمق الأثر في اجتياز أبنائها مراحل دراستهم بطريقة مرضية، ولما لها

من آراء سديدة، ونظرات صائبة، وعزيمة قوية في حسن توجيههم، وفي تربيتهم تربية مثالية، مع العناية التامة بجميع أحوالهم في البيت وفي المدرسة، وبذالك أتاحت لي من الاستقرار والانصراف للعمل المثمر أطول فترة من الزمن عشتها في تلك البلاد، إذْ كفتني الاشتغال بما أنا مطالب به من تفقد أحوال الأولاد في مسيرتهم الدراسية، وجميع شؤون البيت، بحيث أصبحت متفرغاً مُدَّةً استطعت خلالها أن أنشيء (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر)، وأن أصدر فيما بعد ـ مجلة «العرب» ـ وكان لذالك التفرغ الذهني والاستقرار النفسي أثرهما في تقديم ما استطعت تقديمه خلال ما ينشر في مجلة «العرب» وما تصدره «دار اليمامة» مما ألفته أو حققته من كتب، مما يُعدُّ أهم ما استطعت تقديمه في حياتي، ولتلك الزوجة الوفية في كل ذالك فضلها الذي لا ينسى، حيث لم تقف عند حَدٍّ عنايتها بجميع أحوال أبنائها، ورعاية شؤون بيتها، بل أضفت على قلب زوجها من الراحة ما مهد أمامه السبل، ليبذل ما يستطيع بذله فيما اتجه له من عمل نافع.

الحواشي:

(١) : عن الأسرة العنقرية، انظر كتاب «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» ج٢ ص ٥٨٣ .

(٢) : تقدم ذكر هذا في سانحة (على هامش الدراسة).

(٣) : انظر عن هذا مجلة «العرب» ـ س١٥ ص١٧١ .

(٤) : حساب الجُمَّل هو المعروف عند أهل نجد بالحساب الأبجدي، حيث يستدل بكل حرف من حروف الهجاء على رقم عدد خاص معروف [أبجد هوَّز ... الخ] .

(٥) : شعر ابن لعبون جمع مرات ونشر، من أولها في كتاب «خيار ما يلتقط من شعر النبط» جمعه الأستاذ خالد الفرج بأمر الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ـ رحمهم الله ـ .

(٦) : نشر في شهر ذي الحجة سنة ١٣٦٥هـ (الموافق ٥ نوفمبر ١٩٤٦م) .

(٧) : انظر تفسير الآية الكريمة (الحج أشهر معلومات) من سورة البقرة وفي تفسير ابن كثير وغيره.

(٨) : وهـم :

- مي الثانية: ولدت في الطائف سنـة ١٣٦٧هـ وأكملت دراستها العاليـة في علم الطفيليات وهي الآن معيدة في جامعة الملك سعود، وتحضر رسالة لنيل الدكتوراه من جامعة لندن، وربة بيت لها ثلاثة أولاد.
- محمـد : ولد سنة ١٣٧٠هـ في الطائف، وأكمل دراسته العالية في الجامعة الأمريكية في بيروت في قسم العلوم السياسية والاقتصاد، وتوفى في حادثة محزنة في يوم الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٩٥هـ، وانظر عن أثر فقده في نفسي « العرب » - س١٦ ص٥٦ .
- هند : ولدت سنة ١٣٧٢هـ في الطائـف، وتخرجت صيدلانية، تعمل الآن في مستشفى الملك فيصل التخصصي، وهي ربة بيت ولها ابنتان.
- سلوى : ولدت سنة ١٣٧٣هـ في الرياض واختصاصها في علم الرياضيات وهي ربة بيت لها ابنتان، وتحاضر في جامعة الملك سعود في علم الحاسب الآلي.
- معن : ولد سنة ١٣٧٥هـ في الطائف، وتخرج في كليـة البترول (جامعة الملك فهد) بالظهران، في شؤون الإدارة الصناعية، ويعمل منذ تخرجه في صندوق التنمية الصناعي، وله ابنان علياء وحمد الجاسر - الحفيد -.
- منى : ولدت سنة ١٣٧٦هـ، في الرياض اختصاصها في تعليم الأطفال من جامعة لندن، وتحضر لنيل الدكتوراه منها، وتحاضر في اختصاصها في جامعة الملك سعود، وتتولى تربية ابنها إبراهيم في مرحلة الدراسة الابتدائية.

نحو الاستقرار في الدمام*

لا أبالغ إذا قلت بأنني في الفترة السابقة أحسست من الراحة والاطمئنان الذهني ما جعلني أتجه للاستقرار في مدينة الدمام استقراراً ثابتاً، فقد منحتني البلديَّةُ فيه أرضًا في وسط المدينة القديمة، وقمت ببناء تلك الأرض على الطريقة المألوفة عند أهل البلدة، وما كانت المساحة واسعةً وما كانت طريقة البناء على الطريقة الحديثة، بل لم تكن من القوة والإحكام بالدرجة التي تحمل على اتخاذ المكان داراً للمستقبل ولكن هكذا كان.

كانت مساحة الموقع ثمانين قدمًا طولاً في أربعين عرضاً، وكنت قد عرفت رجلاً يدعى (أبا دُحَيْم) وكان ممن يتسم بسيما أهل الصلاح والخير، لديه ثلاثة أحمرة، ينقل عليها الحصا من البحر إلى السوق لبيعه، فلما علم بما فكرت فيه أبدَى استعداده للقيام ببناء (البويت) على طريقة بناء مساكن البلدة في ذالك الوقت، تُبْنَى جدرانُ المنزل بألواح رقيقة من حَجَر البحر، (فروش واحدُهَا فَرشٌ) تكون طويلة وعريضة ورقيقة، يقام بعضها فوق بعض، ويُحَشَى ما بينها من الخلل بكسر صغيرة من الحصا، وتبلط بالجص، ويقام في ملتقى الجدران سواري مربعة بالحجر والجص، ويكون السقف بالخشب، يوضع فوقه نوع من الحصر الخشنة تدعى (بَوَاري) واحدتها بَارِيَة، معمولة من قصب الحلفاء.

تم الاتفاق مع (أبِي دُحيم) على بناء بيت خططت أمكنته وحددتها، والأجرة سبعة آلاف ريال، ولها وزنها في ذالك العهد.

* المجلة العربية، العدد (١٩٦)، جمادى الأولى ١٤١٤هـ / تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٩٣م).

وكنت حين أعود ظهراً من عملي آخذ معي بعض الطعام من خبز وتمر، وآتي إلى العمال، فنشترك بما أحضرته، وأذكر أنني في إحدى المرات وقد جلسنا في ظل جدار قريب من المكان نأكل تمراً، إذا بسيارة فخمة تقف غير بعيدة عنا، وإذا بداخلها رجل يدعو باسمي ويضيف: (يا إقطاعي يا إقطاعي)!! وإذا به الشيخ عبد الله الطريقي الذي كان يعمل تلك الأيام إثر إنهاء دراسته في الظهران، فدعوته للأكل معنا، فقابلني بضحكة عريضة، ولكنه ما لبث أن صار يتحين ذالك الوقت للمعابثة.

انتهى بناء المنزل، ودفعت للرجل الذي بناه حقَّهُ كاملاً، ولكنني فوجئت وأنا أتأهب للانتقال إليه، عندما شاهدت في الجدار الخارجي مَيْلاً، وتصدُّعاً مستطيلاً باستطالة البيت، فاتصلت بـ(البلدية) فأرسلت معي مهندساً قرر أن البيت سيسقط، وينبغي أن تهدمه (البلدية) لئلا يسقط على أحد، وهكذا كان.

ذهبت إلى صاحبي (أبي دُحَيم) فوراً فأخبرته، فكان جوابه: (سلمته لك وهو مافيه عَيَاب) ثم تراضينا على الحضور عند قاضي الدمام في تلك الأيام، وأمامه قال أبو دحيم: أنا سلمته البيت وهو مافيه خلل، والذي حدث قضاءٌ من الله! فوجه إليّ القاضي سوالاً: أنت إن شاء الله تؤمن بقضاء الله وقدره؟! فقلت نعم ولكن .. غير أنه لم يدع لي فرصة لإكمال كلامي، بل أمرنا بالقيام من عنده، وانتهى الأمر عند هذا الحد. فاضطررت لإعادة بنائه على الطريقة نفسها، ولا يزال ـ ولله الحمد قائماً ـ غير أنني منذ عامين مررت به فشاهدت من آثار الخراب فيه ما حال بيني وبين دخوله خشية أن لا أخرج منه، ومع ذالك فقد كان مسكوناً على ما قيل لي ـ !!.

وقد مُنِحْتُ أرضًا أخرى، واسعة، في موقع مرتفع عن رطوبة الشاطيء يدعى (الْعَدَامَة) أصبح الآن في وسط المدينة، ومن أَعْمَرِ أحيائها، ولرغبتي في بنائها لاتخاذها مسكنًا، سعيت حتى سجلت لدى (كاتب عدل الدمام) بصفة هبة (ملكية) ولكن المرء ـ في هذه الحياة ـ مُسَيَّرٌ، وليس مُخَيَّرًا.

عُيِّنَ الأمير عبدالمحسن بن عبد الله بن جَلَوِي[1] محل السُّدَيْرِي في إمارة الظهران التي سبق أن غُيِّر اسمها من (إمارة القطيف) في عهد الأمير السديري الذي أسند أمر تسليم العمل لرئيس ديوانه مساعد السيف، فبعث الأمير سعود بن جلوي أحد خدمه لتلك الغاية، وهو رجل أُمِيٌّ ولكنه ممن عرف بالإخلاص لولي أمره، وتحضرني حادثة أرى بذكرها شيئاً من الطرافة، لقد حَبَّذَ صاحبي الذهاب إلى هذا القادم الجديد للسلام عليه، كما جرت العادة بذالك. وعند الدخول في مجلسه قال أحد الخدم الواقفين على بابه: (سلموا واسكتوا، تَرَى الأمير ما يحب الكلام) ولعله كان يعرف عني أنني (ثرثار) وهكذا كان، فبعد أن استقر بنا المجلس، رأيت من مظهر الرجل ووجاهته ووسامته، وحسن هندامه ما دفعني إلى أن أقول ـ موجِّهًا الكلام إليه ـ وكان في جلسته منحرفًا بكل جسمه عن الجهة التي أجلس فيها أنا وصاحبي: (كيف حالكم طال عمرك؟!) فاتجه إلينا محدقاً النظر قائلاً: (وِشْ انْتُمْ ياحْبَيِّبِي؟!) وسكن الحاء وفخم الباء. فقلت: طال عمرك! أنا فلان وصاحبي فلان، نعمل في (مراقبة التعليم) فقال: (تِعْلُوْمَ العَسْكر)؟ فقلت: لا! تعليم المدارس، فما كان منه إلاَّ أن انحرف بجسمه قائلاً: (مُعَلِّمَة وِغْدَان[2]!!)

فقلت في نفسي: (على نفسها جَنَتْ بَرَاقِش) وانصرفت خجلاً، وماذا كان يُتَوَقَّعُ من إنسان مثله، عاش في بيئة ترى أن الذين يتولون تعليم الصغار غالباً ما يكونون من الضعفاء، المنظور إليهم بشيء من الاستخفاف والزراية.

ولما تولى الأمير عبد المحسن الإمارة، كان الاتصال به في أغلب الأوقات العامة، فأدركت أنه يتمتع بكثير من الرقة والوقار، وكان يحاول أن تكون صِلاتُه بالناس عن تعارف، ليزيل ما كان عالقاً في النفوس من أن هيبة آل جلوي ناشئة عما يتصفون به من ترفُّعٍ، ولكن من المعروف أن من عاش في أسرة أَلِفَتْ نوعًا من الحياة فيه انقباض وشدة في بعض الأحوال، فمن الصعب أن يزول أثر ذالك من النفوس. ولهذا فقلّ أن يدرك من يقابله ما كان يتصف به من لين العريكة ورقة الخلق، ومع ذالك، فقد أحسست في أول الأمر منه من بوادر العطف والرعاية ما ارتحت إليه، وقد يكون هذا لكوني اشتغلت في التعليم في الأحساء منذ سبع سنوات (٥٨ و ١٣٥٩هـ[١٩٤٠م]) وممن كان من تلاميذي أخوه تركي، وابن أخيه عبد العزيز بن سعود، وأبناء أخيه فهد ومحمد وخالد، ويتولى أَوَّلُ هاؤلاء الإخوة في هذا العهد إمارة الأحساء، كما نشرت بحثاً مطولاً عن (الأحساء) في مجلة «المنهل» تحدثت فيه عن الأسرة الجلوية[٣].

لقد كان الأمير عبد المحسن يتعهدني، فقل أن يقيم مأدبة، أو يدعو لاجتماع عام لا أكون من بين المدعوين.

وأذكر أنه دعاني في إحدى المرات وأخبرني بأن الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ سيزور البلاد، ورغب مني أن أُعِدَّ كلمة ترحيب تلقى في

حفلة الاستقبال فكان أن نظمت قصيدة مطلعها :

أحْلُلْ على الرَّحْبِ فَالأحْدَاقُ أوْطَانُ   يَـا مَـنْ بِمَقْدَمِـه الأوْطَانُ تَـزْدَانُ
مَا غِبْتَ عَـنْ أُمَّةٍ قَدْ ظَـلَّ يُمْطِـرُهَا   مِنْ فَيْضِ جُوْدِكَ بِالإحْسَانِ هَتَّانُ

وأذكر أن فيصلاً ـ رحمه الله ـ وكان ممن حضر مع الملك، تقدم إليَّ أثناء الإلقاء، وكنت بعيداً عن المِسْمَعِ (الميكروفون) فنقله حتى صار بقربي، ويظهر أن لِحُسْنِ الإلقاء من الأثر ما أخفى عُوَارَ القول، فكان الاستحسان، وكانت الجائزة.

لقد تغيرت الطريقة التي تعالج بها القضايا العامة، وتحل بها المشكلات في المنطقة، عما كان مألوفًا ومتوقعًا، منذ أن عُيِّن الأمير عبد المحسن، بل من عهد الأمير السُّدَيري، ويبدو أنه كان من توجيهات الملك لابن جلوي عند إسناد إمارة الظهران إلى أخيه عدم السير على تلك الطريقة القديمة المألوفة، في معالجة القضايا بأكثر مما تتطلب من الصرامة والقوة، ولهذا سار على طريقة أخرى، فأية قضية عامة تتعلق بحق من الحقوق، يقوم بعرضها على أخيه سعود، فيتلقَّى منه أمراً بتأليف لجنة لدراستها، والتحقيق فيها من قبل تلك اللجنة الخاصة بعد أن تقدم تقريرها عنها له، فسار الأمير عبد المحسن على هذا فيما يعرض له من القضايا العامة، وعين لجنة تتكون من الشيخ حمد بن عبد الله الدوسري شيخ الدواسر في الدمام، والسيد سلمان مدير الجمارك، وحمد الجاسر، وكثيراً ما كانت أكثر القضايا التي تحال إلى هذه اللجنة من أهل القطيف، وأما من عداهم فَجُلُّ قضاياهم ليس مما يستعصي حلُّها، وهذه تحال إلى القضاء فتحل بسرعة، أما قضايا أولئك فتتعلق بتملك العقارات، والاختلاف في الحدود بين القرى، وغير ذالك مما

ينشأ عادة بين أهل المدن، وتبعد هذه المدينة عن الدمام نحو خمسة وعشرين كيلاً، وقد يستلزم بحث القضية أياماً، ومنها ما يتم البتّ فيه في زيارة واحدة، وأذكر أن من بين هذه القضايا دعوى أقامها أناس من أهل القطيف، في أرض ادعوا مُلْكَهَا، وأنها كانت إلى عهد قريب محياة بالزراعة والنخيل، ولكنهم ضعفوا عنها فجفّ ماؤها، ومات ما زرع فيها، فما كان من ابن أمير القطيف في تلك الأيام إلا أن أحضر آلة حفْرٍ استخرج بواسطتها الماء، وشرع في إحياء الأرض، فكان أن اجتمعت اللجنة أول الأمر بالأمير، إذ هو الذي تولى الدفاع عن ابنه، فطلبت منه ما يثبت تملكه، فادعى بأنها هبة من سعود بن جلوي، ولم يبرز على ذالك ما يثبت دعواه، بحجة أن الصلة بينهما ما كانت تستلزم أن يطلب منه إعطاءه وثيقة، وبعد أن قرر بأن هذا هو كل ما لديه بشأن تملك تلك الأرض، وأنه أحياها فاستحقها، طلبت اللجنة منه الخروج من المكان، وهو أحد مكاتب الإمارة، لتستمع إلى ما يقوله خصومه على انفراد، كما جرى مع المدعي، وكان رَأْيُ زَمِيْلَيَّ أن ندعوهم بحضوره، ولكنني أفهمتهم أنه ليس من العدل أن نستمع كلامه وحده، وأن يحضر معهم عند سماع أقوالهم، فامتنع من الخروج بحجة أنه في مكتب من مكاتب الإمارة، وهو أمير البلدة، فما كان مني إلا أن جمعت الأوراق في الحقيبة وحملتها، متجهاً إلى خارج دار الإمارة، وتبعني صاحباي، مما اضطره إلى أن يُلْحِقَ أثرنا أحدَ خدمه، ليخبرنا بموافقته على الخروج من المكان، فأبرز الخصوم وثائق واضحة تثبت تملكهم، ثم ذهبنا إلى المكان فطبقنا ما ورد في تلك الوثائق على حدوده، فاتضح لنا ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ صحة دعواهم، فقررت اللجنة نزعها من ابن الأمير وإعادتها إلى أصحابها.

ومما كلفت به اللجنة واستلزم أيامًا تقديم بيانات مفصلة عن أملاك أهل القطيف، مع بيان عدد النخيل في كل عقار، وهذا يستلزم تتبع القرى قرية قرية، وهي تعد بالعشرات وتسجيل كل ملك فيها على حده وهكذا كان.

ولئن كان صاحباي قد تضايقا وخاصة السيد سلمان الذي رأى في هذا العمل ما يؤثر على سير وظيفته الرسمية، فكان كثيراً ما يعبر عن استيائه بإبداء الصخب والتذمر، والتفوُّه بكلمات نابية، بخلاف الشيخ حمد بن عبد الله الدوسري الذي يرى في إسناد هذا الأمر إليه نوعاً من التقدير من ولاة الأمور، أما أنا فقد وجدت في ذالك متعة أضفَتْ على نفسي كثيراً من الراحة.

وبكثرة ترددي على بلدة القطيف عرفت بعض الأدباء والمثقفين، وكان ممن يقيم في تلك المدينة في ذالك العهد الشاعر خالد بن محمد الفرج منذ فترة، فقد تولى إدارة بلديتها، وله مزرعة واسعة تدعى (الْعَيَّاشي) وكان في صباح كل خميس يذهب إلى سوق البلدة الأسبوعي، وهناك قهوة في أثناء السوق، كثيراً ما يجلس فيها فيجتمع إليه أدباء البلدة، وكنت أتحين ذالك الوقت، فأذهب إلى هناك للاجتماع به، وللالتقاء بمن عرفت، ولا أرجع إلا في المساء، وقد أذهب في غير ذالك اليوم، ومما أذكره أنني في أحد أيام الخميس[٤] ذهبت إلى القطيف، فمررت بدكان رجل كان يبيع الكتب القديمة، ويدعى - إن لم تخني الذاكرة - علي الكَسَّار، وكان دكانه واسعاً، مملوءاً بالأنواع التي تُجْلب ذالك اليوم، أقصاه فيه قِلال التمر التي يتسرب منها الدِّبْس، ومن دونها مختلف الأواني القديمة من قدور وغيرها، وبجانب منه كتب منوعة، مطبوعة

ومخطوطة، مركوم بعضها فوق بعض على الأرض، وفي المدخل أنواع الخضر والفواكه الموسمية، والأسماك، الطريُّ منها والمقدَّد الذي تنبعث رائحته القوية منتشرة في كل الجهة، وكان أُمِّيًا، ولهذا فهو يقدر ثمن الكتاب بأمرين: رغبة المشتري وحرصه، وبِحُسْن مظهر الكتاب، وثقله في اليد، وقد اشتريت منه في ذالك اليوم كتابين، وسمكةً بطول الذراع طريَّةً، وقُفَّةً صغيرة، وضعت فيها ما اشتريت، وكان الجو بارداً، والوقت ظهراً، وقد أحسست بالجوع، فاستوضحت منه عن مكان عين، ماؤها حارٌّ، يذهب إليها أهل البلدة للاستحمام تدعى (خَبَّاقة)، فوصف لي موقعها، فحملت قُفَّتي، وذهبت إليها ماشياً، ولما وصلتها وكان الجوع قد أخذ مني مَأْخَذَهُ، جلست غير بعيدٍ عن قبة الحمام، وجمعت من الكَرَب وعسْبَان النخل كومةً، أشعلت فيها النار، ثم وضعت السمكة قبل أن يُجَمِّرَ الحطب، فانطفأت النار، وثار منها دخان كاد يسدُّ منافذ القبة، فما شعرت إلا بعدد كبير ممن كان داخل الحمام، يخرجون شبه عُرَاةٍ، مسرعين نحوي، بعد أن أشرقهم الدخان، فلما رأيتهم أقبلوا عليّ أسرعت في الهرب، فما كان منهم إلا أن أتوا بماء وأطفأوا به النار وتركوا السمكة والقفة، فاحتملتهما وعدت إلى القطيف.

وعلى ذكر صاحبنا الكتبي الأمي، كان الأستاذ الشاعر خالد الفرج ـ كما سبق أن أوضحت ـ مقيماً في القطيف، وكانت صلتي به قوية، وقد اقتنى مجموعة من المخطوطات اشتراها من صاحبنا الكتبي الأمي ومن غيره، وله مقطوعة من الشعر لا أحفظ شيئاً منها، ولكنها تدور حول وصف مدينة (حاكمها) أُمي، و (رئيس المجلس البلدي) فيها أمي، بل لا يقف الأمر عند هذا الحد، حتى (بائع الكتب) فيها أمي،

ومعذرة للإخوة من أهل هذه البلاد ، فأنا أتحدث عن زمن مضى ، له ما يزيد على نصف قرن، وقد تغير كل شيء الآن .

كان مما اشتريت من المخطوطات من صاحبنا الكسَّار كتاب «الراموز» في اللغة ومؤلفه معاصر لصاحب «القاموس» ، وكنت في إحدى رحلاتي للقاهرة أخذته معي للبحث عن نسخة أخرى منه ، وكانت نسختي بخط المؤلف ، وقد طالت إقامتي في القاهرة حتى احتجت إلى شيء من النقود ، ففكرت في تقديمه لدار الكتب ، لكي أحصل على بعض حاجتي ، ولكي يبقى الكتاب محفوظاً في مكان أستطيع فيما لو احتجت إلى الرجوع إليه أن أجده ، وفعلاً قدمته لقسم المخطوطات في الدار المذكورة ، وكتبت تقريراً عنه قلت فيه : إنه مسودة المؤلف . وقد علم أحمد عبد الغفور عطار بذالك ، وكان قد طلب مني أن أبيعه إياه فقلت له : إنني أريد أن أضعه في مكان يتسنَّى لي الاطلاع عليه متى أردت ذالك ، وعندك لا يتم لي هذا في كل وقت ، وقد يخرج من يدك .

وبعد أسبوع قال لي العطار : أتعرف ماذا قدر (قسم المخطوطات) ثمناً للكتاب ؟ إنه أربعة عشر جنيهاً .

ذهبت إلى (دار الكتب) فاطلعت على تقرير (قسم المخطوطات) عن الكتاب وعن تقدير قيمته ، فإذا في التقرير : (وقد أخبرنا الأستاذ أحمد عطار من علماء الحجاز بأن مسودة المؤلف من هذا الكتاب في مكتبة شيخ الإسلام في المدينة المنورة) .

فأخذت الكتاب ، إلا أن الحاجة اضطرتني إلى أن أبيعه على العطار نفسه ، بمئتي جنيه ، وما كان هذا المبلغ قيمة له ، ولقد أخذته بدافع الغضب من جهل كاتب التقرير ، الذي قلت له : كيف تعتمد على

مجرد قول قيل لك، لا تعرف مبلغه من الصدق؟! وقال لي العطار ـ فيما بعد ـ إنه أهداه للشيخ محمد سرور الصبان، فضمه إلى مكتبته.

ومدينة القطيف من مراكز الحضارة في الجزيرة، وقد حفلت في العهود السابقة بكثير من رجال العلم والأدب والثقافة، ونجد الأصفهاني صاحب كتاب «خريدة العصر» في القرن الخامس الهجري يترجم بعض شعرائها، وكذا ابن معصوم في القرن الحادي عشر، فقد ترجم في «السلافة» عدداً من أدبائها وشعرائها، ومن أبرزهم جعفر الْخَطِّيُّ، ولكن عدم تدوين ما يتعلق بالجانب الثقافي بصفة عامة فيها فيما مضى، لانصراف علمائها إلى العلوم الدينية البحتة، كان من الأسباب التي أضفت سُجُفًا* على تاريخها الأدبي في العصور الأخيرة بخلاف المهتمين بالمباحث الدينية.

ولهذا فليس بدعًا أن يكون فيها بيوت علمية تعنى بجمع المؤلفات في مختلف أنواع العلوم، وقد اطلعت لدى بعض المثقفين من أهل هذه البلدة على عدد من نوادر المخطوطات: منها مجلد من «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري يحوي أخبار الشعراء، وأجزاء من «الخريدة» لابن بسام الأندلسي صوَّرت صفحات من أحدها، وبعثت به إلى الدكتور عبد الوهاب عزام، الذي كان من المشاركين في نشر الكتاب، وعلمت أن هذا الجزء أهداه الشيخ خالد الفرج إلى مكتبة الشيخ محمد سرور الصبان.

ومما اطلعت عليه من مكتبة آل الْجِشِّي، وهي من الأسر العريقة في تلك المدينة مجموعة من المخطوطات، منها نسخة قيمة من كتاب «سلافة العصر» لابن معصوم الموسوي، وهي نسخته الأصلية، وفي

* لعله من أسجف: أظلم. (ش).

طرتها ختمه، وكتابات بخطه، وقد عجبت حين رأيت أحد أدبائها ويدعى أحمد المصطفى يقتني كتاب «منهاج السنة» لابن تيمية فقلت له مستغربا : ألا تعرف أن هذا الكتاب يرد على أصحاب مذهبك ؟ ! فقال لي : أعرف هذا ولكنني أبحث عن الحق مع من كان .

وممن توثقت الصلة بيني وبينه من أهل هذه المدينة عبد رب الرسول الجشي، ومحمد سعيد الـمُسْلم، وعبدالله بن إخوان، وعبدالله بن نصر الله، وحسن الجشي، وكان من ألطف من عرفت في هذه البلدة، وأوسعهم اطلاعاً على الثقافة الغربية، فقد أجاد اللغة الإنجليزية، حيث كان موظفًا في شركة (أرامكو) مما مكنه من مواصلة الاستفادة والاستزادة من المعرفة، وقد أُسنِدَتْ إليه وظيفة إدارة بلدية المدينة، وكان أحد أعمامه يتولى رئاسة المجلس البلدي فيها .

وأرى الاستطراد أبعد بي عن القصد، وقد يكون من فوائده ما هو أحق بالتقديم لبعض القراء مما أنحوه في هذه السوانح .

لقد اجتذبتْ منطقة الظهران بسرعة ما انتشر فيها من مظاهر العمران الحديثة، وما تردد من أصداء ذالك في داخل البلاد وخارجها ـ اجتذب ذالك رُوّاد الرحلات والتنقل لمشاهدتها، وكان من بين هاؤلاء بعض إخواني وأصدقائي ممن كنت أستمتع بلقائهم وبالأنس بهم ولو في فترات قصيرة عند مرورهم بها .

ومن اؤلئك الأصدقاء الذين زاروا الظهران في عهد الأمير السديري الأستاذ عبد الكريم بن جُهيمان، وقد مكث فترة عرض عليه الأمير وظيفة إدارة بلدية الخبر، فتردد في الأمر، وبمشورة بعض أصدقائه رفضها، وعين فيها أحد أهل جدة ويدعى صالح سلامة، وقد زار الأستاذ

عبد الكريم البحرين ثم عاد ومعه مجموعة من الكتب الحديثة، وكان مما أهدى إليّ منها كتاب «أنا تول فرانس في مباذله» للأستاذ شكيب أرسلان، ولما استوضحت منه: لم اختار لي هذه الهدية وهو يعرف ميولي لمطالعة الكتب التاريخية القديمة؟ أجاب: رأيت بينك وبين (أناتول) تشابُهاً من بعض الوجوه[٥]!! والصديق أبو سهيل ذو لفتات ذهنية يستعصي إدراك كنهها لكثير ممن يحاول ذالك، ولهذا فأنا حتى الآن لم أتبين وجه التشابه الذي أراد.

ومن اؤلئك الزوار ممن تربطني بهم صلة صداقة قديمة الشيخ محمد ابن حسن الضُّبَيْب، والشيخ عبد الحميد حامد أسد الله[٦]، وقد نزلا في ضيافة الأمير عبد المحسن، ويديرها رجل فاضل من أهل حائل، واسمه (عاشق) على جانب كبير من الدماثة، وهدوء الخلق، والأَخَوَانِ الكريمان يتصفان بالمرح وخفة الروح، مما جعلهما يلهجان بالثناء عليه، واستعادة بعض ذكريات الأيام القصيرة التي زارا فيها الدمام، ثم بعد زيارتهما البحرين رجعا إلى مكة.

ومن الأصدقاء الذين مكثوا أياماً في الظهران في تلك الحقبة من الزمن الشيخ عبد الله بن سليمان المزروع[٧]، وهو رجل لطيف المعشر، إلا أن له تصرفات تبدو غريبة في بعض الأحيان، فبعد أن مكث أسبوعاً متنقلاً بين الأحساء وبين الدمام، أبدى لي رغبته في السفر معًا إلى البحرين، فوافقت بشرط أن يترك لي أمر النزول هناك، لأنني أدرك كثرة أصدقائه في تلك البلاد، وتقديرهم له بحيث توقعت أن يستضيفه أحدهم، وما أشق على نفسي من أن لا تترك لي حرية الاختيار بما يتعلق في سكني وطعامي، وقد وافق على هذا، ولما وصل

بنا الزورق الذي ركبنا فيه من ميناء الخبر إلى رصيف المرفأ في البحرين، إذا بالشيخ حسن بن عبد العزيز العجاجي[٨] يستقبلنا، ثم يدعونا للركوب معه في سيارته إلى بيته، ولما أبدَيْت لصاحبي تأثري من تصرفه صار يكرر كلمة (الله يهديك!! الله يهديك!! بيت الشيخ حسن أوسع من كل فنادق البحرين!)، والشيخ حسن من وجهاء تلك المنطقة، وهو أحد أفراد أسرة آل العجاجي، المعروفة بالثراء العريض في المنطقة كلها، وأثناء نزولنا عنده تم التعارف بيننا وبين إبراهيم العريّض الشاعر المشهور، فقد كان يقوم بتعليم أبناء الشيخ حسن اللغة الإنجليزية، وكان موظفاً في شركة (نفط البحرين).

وفي أحد الأيام قال لي صاحبي: لقد اهتديت إلى مكتبة عظيمة، توارثتها أسرة من أغنى الأسر، وفيها مخطوطات، وقد اتفقت مع صاحبها على أن أقوم أنا وأنت بزيارتها عند الساعة الرابعة صباحاً [بالتوقيت الغروبي]، وستحضر إلينا سيارة تقلنا من البيت إلى مقر المكتبة، فوافقت، وكان الذهاب في الوقت المحدد، ولكنني استغربت حين دخلت بنا السيارة في فناء قصر كبير فخم، رأينا في مدخله عدداً غير قليل من الرجال الذين يبدو من مظهرهم أنهم من الجند، وبعد أن علم بنا أحدهم أفسح للسيارة الطريق حتى اجتازت الفناء وبلغنا باباً داخليًا فنزلنا منها، وصعد بنا إلى الدور الأول، فإذا مجلس واسع، فيه أناس جالسون على الأرائك، وآخرون على الأرض، فاتضح لي أنه مجلس أمير، ولم نفتأ إلا بالشيخ سلمان بن حمد بن عيسى آل خليفة حاكم البلاد يدخل ويتصدر المجلس بعد السلام وبعد أن قُدمت له أنا وصاحبي، فكان سؤالٌ عن الحال، واستيضاح عن مكان القدوم، فأجبت بأنه الظهران، فعلق على ذالك قائلاً: (الظهران يبَل، وهو مكان النفط

وعندنا يبَل مثله اسمه الدخان وفيه مقر النفط)[٩]، فعلقت على هذا بأن الصلات بيننا وبينكم ـ طال عمركم ـ في كل جانب من جوانب الحياة، فأنتم انتقلتم من الأفلاج من نجد فقال: صحيح، صحيح، الشيخ محمد وهو مؤرخ، لديه معرفة في ذالك، وبعد برهة من الوقت كان الانصراف، وكانت زيارة في المساء للشيخ محمد بن خليفة ـ برغبة مني، واستحسان من مضيفنا ـ وقد أعجبني في هذا الرجل كثرة محفوظه من الشعر الفصيح والعامي، وعنايته بما يتعلق بتاريخ هذه البلاد، ويُعَدُّ حُجَّةً فيما يتعلق منه بالأسرة الخليفية، ومن محفوظه أكثر ما قاله الشعراء في مدحها، وقد رجعت إليه حين رغب مني الأخ الشيخ سعد بن رويشد الإشراف على نشر ديوان ابن عثيمين، في تلقي إحدى قصائده من إملائه وكان يصطاف في (بحمدون) في لبنان[١٠].

وفي صباح أحد الأيام قال لي صاحبي: (مارأيك يا أبا مَي أن تفُكّ الريق بمراصيع[١١] وتمر ولبن وزبد بَقَر)، وصار يكرر كلمة (زُبْد ! زُبْد !) ويمثل بيديه مجموعتين كالكرة، للتدليل على عظمه، فابتسمت وأبديت بأن مضيفنا الكريم، وكان حاضراً سيقدم لنا ما نختار، ولكن حسناً نفسه أضاف: لقد اتصل بي سعد الشملان يدعوكما، وأرجو أن تستجيبا لدعوته للغداء في هذا اليوم، وعندنا مثلٌ: (من فَطَّرَ غَدَّى)، ولهذا فقد بعث لكما سيارته للذهاب إلى بيته في إحدى ضواحي المدينة، فكان الذهاب إليه، ويقع على مقربة من عين مشهورة في جزيرة البحرين تدعى (عَذَارِي)، وهي حين شاهدناها أشبه ببحيرة مستديرة، يقارب قطرها عشرة أمتار، وكانت المياه منها ـ قديماً ـ تجري إلى ما حولها من الحدائق والبساتين، بحيث كان الموقع من متنزهات البحرين المشهورة،

ولكن ماءها ضعف، وقد علمت فيما بعد بأنها رُدِمَتْ بسبب ما كان يُخشى من تلويث المنطقة بالروائح المنبعثة من مياهها الآسِنَة، ولما يلقى فيها من الأوساخ.

وعرفت لسعد الشملان هذا ابنين أحدهما عبد العزيز، وكان إذ ذاك رئيس (نادي العروبة)، وكان من أبرز شباب هذه البلاد في حركة التحرر من الاستعمار البريطاني، وله في هذا السبيل دور معروف، وفي البحرين في ذالك العهد ناديان ثقافيان (نادي العروبة) و(نادي البحرين).

والابن الآخر لسعد الشملان عبد اللطيف، وقد درس في مصر في عشر الستين من القرن الماضي، حتى أكمل دراسته في (دار العلوم) وعمل في الكويت، وآخر عهدي به حين كان ملحقاً ثقافياً في لبنان لحكومة الكويت في عشر التسعين من القرن الماضي، وكنت عرفته في القاهرة لصلته ببعض النجديين هناك.

وفي المساء كانت زيارتنا لنادي البحرين، وكان يضم مكتبة تحوي أنواعاً من الكتب الحديثة، التي لم تكن منتشرة في بلادنا، وترد إليه أشهر المجلات التي كانت تصدر في العراق أو سورية أو مصر، ويرتاده المثقفون لمطالعة ما يرغبون في مطالعته، ويسمح بالإعارة لفترة لا تتجاوز أسبوعاً، وكان ممن عرفت من اؤلئك الأستاذ علي محمد التاجر[١٢]، وقد علمت بأن والده من علماء البحرين المعروفين، يقتني مكتبة لا تخلو من مخطوطات قديمة، فذهبت أنا وصاحبي لزيارته في الصباح، فاستقبلنا بحفاوة ولطف، واطلعنا على مؤلف له يتعلق بتراجم أهل البحرين، وهو يقصد المسمى الشامل للبلاد التي تعرف قديماً بهذا الاسم[١٣]، كما اطلعنا على بعض مخطوطات أخرى أسفنا

أننا لن نستطيع الاستفادة منها لقصر وقت إقامتنا في هذه البلاد، ولعدم تمكننا من نقل ما نريد منها.

وفي المساء حين أتينا النادي، أبديت لابنه الأستاذ علي التاجر ارتياحنا وسرورنا لزيارة والده، وبمشاهدة بعض نفائس ما لديه من الكتب، ففوجئت بقوله: كل تلك الكتب لافائدة منها، فقلت مستغرباً: وبماذا يستفاد؟ فقال: بالقرآن الكريم، وبديوان أبي الطيب المتنبي، وبكتاب «ضوء في دراسة التوحيد» لأحمد صبري شويمان، وشويمان هذا كان قد أسس في مصر جماعة تدعى (الأنصار)، وأصدر مجلة بهذا الاسم لنشر أفكاره التي تقوم على أساس تفضيل العرب على جميع الأمم، ولكنه كان يغالي في ذالك، بحيث يرى أنهم في جاهليتهم أفضل من غيرهم، وأن ما ينسب إليهم من ارتكاب أمور جاء الشرع الإسلامي الحنيف بتحريمها وإبطالها، منها ما كانت نسبته إليهم غير صحيحة، ومنها ما كانت له في ذالك العهد مسوغات تجيز ارتكابه، ومنها ما كانت حياتهم تضطرهم إلى فعله، فهم في كل ذالك معذورون، ولا شك أن كثيراً من آرائه على خطإٍ واضح، ومع ذالك فقد لاقت فكرته تقبلاً لدى عدد قليل من الشبان، كان منهم في البحرين أحد أفراد الأسرة الخليفية وهو شاعر ويُدْعَى ـ إن لم تخني الذاكرة ـ محمد بن أحمد، ومنهم علي التاجر، ومنهم في مصر وفي الأردن وغيرها، وكانت مجلة «الأنصار» تحمل بعنف وشدة على علماء الدين كالشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة، وعلى غيره.

وقد آلت الحال بشويمان أن حاول أن يعيش عيشة البداوة، فاقتنى

غنماً، واتخذ بيتاً من شعر، وذهب إلى صحراء السويس، ولكنه هُوجم هناك وأُخِذَ جميعُ ما معه.

وفي البحرين مكتبة تدعى (مكتبة المؤيد) لبيع الكتب، ومع صغرها يعجب المرء لكثرة ما يجتمع فيها من المؤلفات الحديثة من منشورات مصر والعراق والشام، مع مطبوعات بعض البلاد الأخرى كإيران والهند، وترد إليها أشهر المجلات العربية.

الحواشي:

(١) : توفي ـ رحمه الله ـ في اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ١٤٠٨هـ، ومن أبرز خلاله اتصافه بالرزانة والهدوء واللطف ومحبة فعل الخير.

(٢) : (الوِغْدَان) في لهجة سكان شمال نجد (الأطفال) واحدهم (وغد).

(٣) : انظر «المنهل» ـ ج ٦٣ ـ تاريخ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠هـ (يوليو ١٩٤١م).

(٤) : «العرب» ـ س١٣ ص٨٠٣ ـ.

(٥) : انظر صورة الإهداء.

(٦) : الأول هو والد الدكتور أحمد الضبيب ـ مدير جامعة الملك سعود، والثاني كان أحد أساتيذ مدرسة الأمراء مع الشيخ عبد الله خياط، ومع أخيه أحمد علي أسد الله الكاظمي، وقد توفي الاثنان ـ رحمهما الله ـ.

(٧) : سبق أن تحدثت عن الأستاذ المزروع في سانحة سابقة، وقد توفي ـ رحمه الله ـ في ١٥ شعبان سنة ١٣٨٥هـ، وقد طبع من آثاره كتاب «وصايا أساطين الأدب والسياسة».

(٨) : أسرة العجاجي من الأسر الشهيرة في الاشتغال بالتجارة في شرق الجزيرة منهم محمد بن عبد العزيز كان مستشاراً للأمير سعود بن جلوي، وعميداً لتجار الأحساء، وإخوانه، ومنهم حسن من تجار البحرين وهو على جانب من الأخلاق الفاضلة، وملم بطرف من الثقافة.

(٩) : (يَل) : جبل، من قبيل إبدال الجيم ياءاً، وهي لهجة عربية قديمة قال الشاعر:

إذا لم يكن فيكن ظل ولا (يَنَى)   فأبعدكن الله من (شيرَات)

(يَنى) : جنَا، و (شيـرَات) : شجرات، ولا تزال هذه اللهجـة مستعملة في الجـزيرة في حوطة بني تميم، وفي المنطقة الشرقية.

(١٠) : انظر ـ ص ٣٨٦ ـ من «العقد الثمين في شعر محمد بن عثيمين» ـ الطبعة الثالثة.

(١١) : المراصيع : واحدها مرصوع، وهي الأقراص الصغيرة للخبز البر.

(١٢) : ويقيم الآن في مدينة دبي، وقد نشرت له مجلة «العرب» بحثـاً ضافياً بعنوان (الربان أحمد بن ماجد) في السنة الخامسة من ص٢٨٠ وما بعدها .

(١٣) : انظر عن مدلول هذا الاسم «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» قسم المنطقة الشرقية.

من الظهران إلى الرياض*

حدثت جفوة بيني وبين زميلي في العمل في عهد مبكر، فهو شاب طموح، نال قسطاً من العلم والثقافة الحديثة، وهو ذو تطلُّعٍ إلى مستقبل أفضل، ولم يلبث أن وجد عملاً ملائماً، حيث عين رئيساً لديوان إمارة الظهران، وبدأت أُحِسُّ ـ أو هكذا أتخيل ـ تغيُّراً من الأمير عبد المحسن بن جلوي، بالنسبة لما عهدته من بِشْره، وحسن استقباله لي، ولم أكترث بذالك كثيراً، إذ عزوت الدوافع إلى أمرٍ لا يَدَ لي فيه، ولكنني فوجئت في يوم من الأيام بكتاب من الأمير موجه إليَّ بهذا النص: (إلى حمد الجاسر وبعد: فقد بلغنا بأنك كثيراً ما تتأخر عن عملك، وهذا من الأمور التي لا نرضاها، ونريد أن لا تتكرر) ثم الختم، فتحينت فرصة الاتصال به، في وقت أستطيع به التحدث إليه في الموضوع على انفراد فتم لي ذالك، فأوضحت له أن عملي لا يتطلب مني الذهاب إلى الظهران كل يوم، فقد عيّنت المعارف مُدَرِّسَيْنِ يقومان بتدريس العلوم الدينية، ومباديء اللغة العربية[1]، والمطبوعات التي ترد للشركة، وكذا ما تنشره لتوزعه على موظفيها وعمالها، يتولى مراقبة جميع ذالك قاضي الظهران، ولهذا اقتصر عملي على الإشراف العام على التدريس، وعلى المشاركة في دراسة بعض الأمور الدينية، مع من يسند إليه ذالك، ويسعدني أن يسعى سموكم ليصبح ارتباط عملي بإشرافكم، فهذا أَوْلَى من ارتباطه بـ(الشعبة السياسية) المختصة بأمور أهم وأعظم، وهي دائماً معنية بها قبل غيرها. ثم قدمت له الكتاب،

---

* المجلة العربية، العدد (١٧٩)، جمادى الآخرة ١٤١٤هـ / تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٩٣م.

وأثناء تصفحه أبديت له الاستغراب من لهجته لا بالنسبة لكونه موجها إليَّ، بل لكونه صادراً من أمير جليلٍ، له منزلة في النفوس، ولم تجر العادة بأن يخلو أيُّ كتاب من التحية المعتادة، فأبدى تعجبه وتأثره من هذا، وكاد ألاَّ يصدِّق، حتى أعاد قراءة الكتاب مرة ثانية، فما كان منه إلاَّ أن قال: (فلان الله يهديه) وسمَّى صاحبي، وأضاف: يؤسفني هذا وأنا أعرف بأنك مخلص لحكومتك ولبلادك، وقائم بعملك المسند إليك من غير جهتنا، ونتمنى لك كل خير.

لم يمضِ على هذا سوى فترة وجيزة، ففي إحدى الليالي وعلى غير انتظار مني، ما شعرت حوالي الساعة الثالثة والنصف ليلاً [بالتوقيت الغروبي]، وقد تهيأْتُ للنوم، إلاَّ بطارق يطرق الباب بشدَّةٍ، ثم تبين أنه رسول من الأمير، يدعوني للذهاب معه، فتهيأت لذالك، وركبت معه في سيارته إلى مقر الإمارة، فوجدت الأمير جالساً وحده، ولما استقر بي المجلس قال: الأخ سعود اتصل بي وطلب أن تسافر إلى الأحساء، والسيارة جاهزة، فاستوضحت عن الغاية من ذالك، فأجاب بأنه لا يدري، وأبديت رغبتي في العودة إلى البيت لتهيئة ما قد أحتاج إليه هناك من ملابس فقال: لا داعي لهذا، ويحسن أن تتوجه الآن. ثم دعا بإنسان همس بأذنه فدخل جندي (من الأخويا[٢]) مدجج بالسلاح بندقية ومسدساً، وأشار إليَّ فقال الجندي: تفضل! لقد أيقنت أن الأمر لن يكون محمود العاقبة، ولكن ما الذي أستطيع فعله؟ وفي سيارة كبيرة ركبت بين الجندي وسائقها، وكان الاتجاه إلى الأحساء، والطريق غير مُعَبَّدٍ في كثير من أجزائه، والسيارة قديمة، عندما تعلو فوق المرتفعات تكاد رؤوسنا تنال السقف منها، وما كان السائق رفيقاً بمن

معه، ومع ذالك فقد طغى شعوري بالتفكير عما سيحدث لي في المستقبل على شدة ما أُقاسيه من آلام السير.

وقبيل طلوع الفجر كان الوصول إلى مدينة (الهفهوف) قاعدة الأحساء، فسمعت صاحبيّ يتحاوران أين يتجهان الآن، والأمير لم يخرج بعد إلى صلاة الفجر؟! فقلت لهما: إنني أعرف أحد الإخوان، وبيته قريب، ومن الممكن أن نستريح، ونتناول عنده القهوة حتى يحين وقت خروج الأمير للصلاة، ومن ثَمَّ نَذْهَبُ إلى القصر، فوافقا على ذالك، ووصفت لهما بيت الأستاذ عبد العزيز المنصور التركي، مدير التعليم في المنطقة، وهو من خُلَّصِ أصدقائي، وبعد قرع متواصل لباب بيته أجابنا من الداخل: من؟ فأخبرته باسمي، ففتح الباب، وأدخلنا في مجلس، ولكنه استراب من رؤية (الْخَوِيِّ) المسلح معي، وسألني هامساً، ولما أبديت له جهلي بالغاية من حضوري اضطرب قائلاً: يحسن أن تتوجهوا الآن إلى قصر الأمير، فحاولت أن أُهَدِّيءَ روعَهُ لكي يتركنا نستريح قليلاً، ولكنه أَلَحَّ، فأدرك صاحباي عدمَ رغبته بالبقاء، فعدنا إلى السيارة، واتجهنا إلى القصر، وبقينا بقرب المسجد حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر، وبعد أداء الصلاة، وبينما كان الأمير سعود بن جلوي منصرفًا منها لمنزله لحق به الجندي فأخبره، فوقف وتقدمت حتى سلمت عليه، فالتفت إلى إنسان كان ممن يسير خلفه من خدمه، وهمس له بكلام غير مسموع، وإذا بالرجل يأتي إليّ سائلاً عن أمتعتنا وسيارتنا، ثم أخبر الجندي المرافق بالمكان المعد لنزولي، وكان بيتًا واسعًا مؤثثًا تأثيثًا حسنًا، وقد هُيِّئَ بما يُحْتَاج إليه لمن ينزل فيه، وفيه من يُعِدُّ القهوة، ويحضر الطعام في أوقاته المحددة، واقتصرت

استراحتي على وضع جسمي على الفراش، وطغى على مشاعري من الأوهام والأفكار السيئة مالم أستطع مقاومته، إذ لم أدرك بعد ما يبعث في نفسي الاطمئنان، وما كان في مقابلة الأمير، ولا فيما بدا لي من حالته أثناء السلام عليه ما يُسْتَشَفُّ منه ما يخفي، ثم بعد طلوع الشمس حضر إليَّ الرجل الذي تولى إنزالي، وهو مدير الضيافة، فدعاني للذهاب إلي الأمير، وكانت العادة تناول طعام الغداء في الصباح المبكر، وطعام العشاء بعد صلاة العصر، ثم الجلوس مع الأمير بعد ذالك، وقد أحسست حينذاك مما أبداه من لطف، وما تحدث به من عبارات المجاملة ارتياحًا واطمئنانًا، أحسست من أثرهما أن الأمر بخلاف ما تصورت، وأن الأمير عبد المحسن كان يجهل الغاية من ذهابي، جَهْلاً حمله على معاملتي عند السفر تلك المعاملة، ولعله تصور من دعوة سعود لي وطلبه الإسراع بأن أحضر تلك الليلة ما حمله على ذالك، أما سعود ـ والله يعفو عن الجميع ـ فمن المعروف عنه أنه يحيط أموره بالكتمان، ولهذا أمر بأن أتوجه ليلاً.

ومضت ثلاثة أيام لم أُحِسَّ بأَيَّةِ مضايقة خلالها، وزرت بعض الإخوان، ومنهم صاحبي الذي أبدى لي اعتذاره عَمَّا حدث منه، بسبب ما هو معروف مما لا يستطيع الإفصاح عنه تلك الساعة.

وبعد تناول العشاء عصر اليوم الثالث مع الأمير، ثم الجلوس كالعادة معه في مجلسه، وكنت على مقربة منه قلت له ما خلاصته: تعرفون سموكم أنني موظف، ولا يسوغ لي التأخر عن عملي بدون سبب، وإذا كان لسموكم ما يدعو إلى بقائي، فالأمر لله ثم لكم، وإلاَّ فأنا أرغب العودة إلى مقر عملي. فالتفت إلى ثلاثة كانوا جالسين في طرف المجلس

من مرافقيه، التفاتة فهموا منها أنه يأمرهم بالخروج، فانفردت وحدي معه، فقال بصوت هامس ما معناه: الأحوال في الظهران بوجود الشركة وكثرة الأجانب تغيرت، وكثرت الحوادث والقضايا التي تحتاج إلى تتبع، وملاحظة وانتباه لها، والأخ عبد المحسن ـ الله يسلمه ـ قد تخفى عليه بعض الأمور، وأنا أرغب أن أعرف كل ما يحدث هناك، ولهذا فأنا بحاجة إلى من يوضح لي ما قد يجري في تلك الجهة، ثم أثنى عليَّ لكوني معروفًا وموثوقًا به، وله صلة بالشركة وبغيرها من الموظفين، وأضاف: ولهذا فالغاية من طلب حضورك إخبارك برغبتي بأن تكتب إليَّ بكل ما تشاهده هناك، مما يستدعي لفت النظر إليه، سواء ما يتعلق بالشركة أو بالموظفين أو غيرهم، ويكون ما تكتب به إليَّ سرًا لا يعلم به أحد. فعبرت له عن شكري لهذه الثقة التي أولاني، ثم أوضحت له بأنني مكلف بعمل لا يسوغ لي أن أشتغل بما عداه من الأعمال، وأن من ضمن ذالك العمل فيما لو لاحظت ما يستدعي لفت النظر للاهتمام به مما يتعلق بأحوال الشركة أن أكتب عنه للجهة التي عينت من قبلها، وهي (الشعبة السياسية في ديوان الملك)، ولا شك أن سموكم وأنتم المرجع في شؤون المنطقة كلها تحال إليكم جميع الأمور المتعلقة بالشركة وغيرها.

وكررت الرجاء بأن يحمل اعتذاري هذا محمل الإخلاص التام لمن كلفني بذالك العمل، وهو جلالة الملك الذي هو ممثله في هذه المنطقة، وأن يسمح لي بالعودة. فلم يعلق على كلامي هذا بشيء، بحيث انتابتني حيرة، ماذا سيكون مصيري، وذهبت بي الأوهام كل مذهب، حتى الفراغ من صلاة المغرب، فإذا بمدير الضيافة عند الخروج من

المسجد يخبرني بأن السفر إلى الظهران سيكون بعد صلاة العشاء، فتنفست الصَّعْدَاء، ولم أشعر بالراحة حقًّا إلاَّ حين وقفت بي السيارة ليلاً ـ كما سافرت ليلاً ـ عند باب منزلي في الدمام.

الإرهاق النفسي أعمق أثراً في فكر المرء وجسمه من الإرهاق الذي يعتري الجسم، وهذا ما أصبحت أُعانيه تلك الأيام من جرَّاء ما حدث لي، مما شعرت أنه يتطلب قسطاً وافراً من الراحة مع البعد ما استطعت، ولو لفترة من الزمن عما كان سبباً في إحداث ما اعتراني من ذالك.

ومنذ أحيل تقريري إلى الشيخ يوسف ياسين وباب الشعبة يوشك أن يكون مُوْصَداً أمامي، بحيث أصبحت لا أتلقى أيَّ جوابٍ لما أبعث به، وما أُبرِق به إلى الملك لا يعرض عليه، إذ بلغ حالة من العناية بصحته تستلزم ألا يشغل بالأمور اليسيرة، وها هو وقت الصيف على الأبواب، بحلول برج الجوزاء (حزيران) فما كان مني إلاَّ أن ذهبت إلى الأمير عبد المحسن، وأخبرته أن من حقي كموظف أن أتمتع بإجازة سنوية، وقد مضى لي الآن نحو ثلاث سنوات لم أغادر مكان عملي، فأبدى لي عدم معارضته قائلاً: اتصل بمرجعك في هذا الأمر.

وقد كان ذالك ولكن بدون استجابة، فقد أصبحت في نظر الشيخ يوسف وهو رئيس الشعبة أدنى من أن يعتني بأمري[٣]، فلماذا إذن أتحمل هذا منه ومن أمثاله إلى هذا الحد المزري؟ ولِمَ لاَ أستبد بالاهتمام بشأني (والعاجز من لا يستبد) ليكن ما يكون!!

ولا يُقِيمُ على ضَيْمٍ يُرَاد بـه ... إلاّ الأَذَلاَّنِ عَيْرُ الْحَيِّ والْوَتَدُ
هذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَمـا يَرْثي له أحَـد

فكان أن بعثت كتاباً باسم الملك، فصلت فيه بأن حالتي تستلزم مراجعة بعض الأطباء خارج البلاد، في الوقت الذي من حقي أن أتمتع بإجازة سنوية، وعملي لا يتأثر بغيابي خلال تلك المدة التي لا تتجاوز شهراً واحداً.

وفي صبيحة يوم من أيام شعبان سنة ١٣٦٨هـ (حزيران سنة ١٩٤٨م) اتجهت في سيارة قاصداً بلاد الكويت، وأقمت هناك نحو أسبوع، ونزلت في فندق يدعى (فندق الخليج)، ولم تكن الكويت إذ ذالك على ما عُرفت به من الازدهار والعمران، بل كانت في حالة من الفقر، وقلة الموارد، وغلاء ما يحتاج إليه فيها، حتى الماء كان يؤتى به بالسفن من شط العرب، والصفيحة منه تباع بروبيتين، ومع أن المرء تلك الأيام من المفروض أن يستحم كل يوم لارتفاع درجة الحرارة إلاَّ أن ذالك يكلفه ثمناً مرتفعاً، وكانت هذه أول زيارة لهذه البلاد، ولأول مرة عرفت بعض المثقفين فيها، من بينهم الأستاذ أحمد زين السقاف، وكان حديث العهد بقدومه من (عدن) ويعمل مدرساً، ويصدر مجلة «كاظمة»، وأثناء إقامتي في الكويت صدر عددها السابع، فأُوْقِفَت بإيعاز من الممثل البريطاني، للأمير أحمد الجابر الصباح، وممن عرفت الشيخ يوسف بن عيسى القِنَاعي شيخ الكويت علماً ووجاهة، ودعوة إلى الإصلاح والتجديد، والأستاذ عبد اللطيف بن سعد الشملان، وهو ممن عرفته في القاهرة سنة ١٣٥٨هـ.

ومن الكويت كان الاتجاه إلى بغداد، بعد الإقامة في البصرة ما يقرب من أسبوع، قابلت الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن السِّعْدي، أحد وجهاء مدينة عنيزة، وابن عالمها الشهير، وحظينا معاً برعاية كريمة من الشيخ

محمد الحمد الشُّبيلي، وقمنا بمرافقته بزيارة بلدة (الزُّبَيْر) وبالاجتماع بعالمها في ذالك العهد الشيخ محمد بن سند، وببعض وجهاء النجديين من التجار هناك.

أما في بغداد فقد كان الوزير المفوض الشيخ عبد الله الخيال، وارتباط الصداقة بيننا يرجع إلى عهد قديم، وكان من مظاهر احتفائه أن دعا عدداً من علماء بغداد ومن أدبائها للالتقاء بهم ومعرفتهم، ومنهم الشيخ محمد بهجة الأثري، والدكتور تقي الدين الهلالي الجزائري الأصل، والشيخ محمد الصواف، والأستاذ أحمد حامد الصراف وغيرهم.

وممن عرفت من علماء بغداد الأستاذ عباس الْعزَّاوي، وقد توثقت الصلة بيننا حتى توفي، والشيخ محمد رضا الشَّبيبي، الذي تزاملنا فيما بعد في مجمع اللغة العربية في القاهرة، حتى توفي، والدكتور جواد علي صاحب كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» والدكتور مصطفى جواد، ومع مالهذا العالم من شهرة إلاَّ أنني أحسست أثناء اجتماعي به في خلقه من الانقباض والكزازة ما استغربته، ولما أبديت له رغبتي في زيارته في بيته لكي يطلعني على بعض ما كان يشير إليه في مقالاته التي كان ينشر بعضها في مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق من مخطوطات نادرة، اقتنى صوراً منها في رحلاته في البلاد الأوربية ـ رائداً للملك غازي في صغره على ماقيل لي ـ اعتذر بأن بيته ضيق، وأن الكتب فيه ليست سهلة التناول، لعدم ترتيب وضعها، ورأيت من انصرافه ما زهّدني في الاتصال به.

ومن المكتبات التي أكثرت التردد عليها (مكتبة المتحف العراقي)، وقد ضُمَّتْ إليها تلك الأيام مجموعة مخطوطات الأب أنستاس

الكرملي، وفيها عدد من النوادر، وبعض كتب الأستاذ سليمان الدَّخِيل ـ تحدثت عنها في موضع آخر ـ وكان مما اطلعت عليه من تلك المخطوطات «شرح أبي العلاء المعري لشعر ابن أبي حصينة السلمي المعري» ونسخة من كتاب «بلاد العرب» للغدة الأصفهاني، نسخها سليمان الدخيل من نسخة الشيخ محمود الألوسي، وكنت في المساء أجتمع بالأستاذ العزاوي في (قهوة بلقيس) على شاطيء دجلة، لأقابل مخطوطتي من هذا الكتاب، على نسخة السيد الألوسي، التي آلتْ إلى الأستاذ العزاوي، وزرت (المجمع العلمي العراقي) وكان رئيسه الدكتور منير القاضي، وأكرمني الإخوة فيه بإضافة اسمي إلى أسمائهم بصفتي عُضْواً مراسلاً، ثم كان الذهاب إلى دمشق، وهناك وجدت في مخطوطات دار الكتب الظاهرية من النفائس ما (يملأ القلبَ بهجة ويُسْلِي عن الأوطان كل غريب).

وزرت (المجمع العلمي العربي) فالتقيت برئيسه الشيخ محمد كرد علي، وبنائبه الأستاذ خليل مردم، وبالشيخ عبدالقادر المغربي، وبشيخ علماء السلف محمد بهجة البيطار، وبغيرهم من أعضاء المجمع. وفي إحدى زياراتي سألتهم عن «شرح المعري لشعر ابن أبي حصينةً»، فاستغربوا ذكر هذا الكتاب بين مؤلفات المعرِّي، وأتوا بالكتاب الذي كان قد طبع تخليداً لذكرى أبي العلاء المعرِّي بمناسبة ذكراه، وفيما يحويه من المؤلفات كتاب ابن العديم عنه «الانصاف والتحرِّي» فإذا فيه: (وشرح شعر ابن أبي حصينة[٤]) فرغب إليّ رئيس المجمع بأن أصف النسخة التي اطلعت عليها من هذا الكتاب، في خزانة المتحف العراقي، لينشر ما أكتبه في مجلة المجمع، فكان ذالك، ونشر البحث،

ونالني من تقدير هاؤلاء الإخوة أن ضُمَّ اسمي إلى أسمائهم ـ عضوا مراسلاً في (المجمع العلمي العربي)، وكان ممن عرفت في دمشق السيد أحمد عُبَيْد صاحب (المكتبة العربية)، وهو في معرفته بعلم (الوراقة) ممن يعيد إلى الأذهان عهدَ الورَّاقين الأوائل، في العصر الحديث، لسعة اطلاعه، ولمعرفته بنوادر المخطوطات، وقد عُرِفَ بذالك منذ زمن، وحفلت خزانة كتبه بكثير منها، واشتريت من مكتبته من مطبوعات الشام كتباً منها «تهذيب تاريخ ابن عساكر» للشيخ محمد بن بدران الدومي الحنبلي في سبعة أجزاء، وغيره.

ولن أنسى من ليالي دمشق تلك الليلة الممتعة التي أَنِسْت فيها بالالتقاء بشيخنا البيطار في بيته في (حي الميدان)، حيث دعا بعض علماء هذه البلاد وغيرهم، لتناول طعام العشاء، فمضت سويعات لطيفة يتجاذب فيها اؤلئك العلماء الأحاديث الممتعة المنوعة، في العلم والأدب والسياسة، حتى مضى هزيع من الليل، وأذكر من بين اؤلِئك العلماء الشيخ عبد الله القلقيلي من علماء فلسطين.

ومن دمشق واصلت السير إلى الأردن، ولم أمكث في (عَمَّان) أكثر من أسبوع سافرت منها إلى (معان) في سيارة كبيرة، تحمل أكثر من أربعين راكباً من الحجاج، وفي (ذات الحاج) حيث يتم تفتيش الأمتعة وجوازات السفر تأخر السير إلى تبوك يوماً كاملاً بليلته، وفي ضيافة الأمير خالد بن أحمد السديري كان نزولي في بلدة تبوك، وما عُرِف من كرم هذا الأمير ولطفه مع كل أحد جدير بذالك، يغني عن الحديث في هذا الأمر، وكنت قد عرفت الشيخ إبراهيم السُّوَيِّح في مكة في عشر الستين(٥)، وقد أصبح الآن قاضياً في هذه البلدة، كما قابلت فيها

الأستاذ محمد علي النحاس مديراً للمالية، وكان قبل ذالك معتمداً للمعارف في الإحساء.

ومررت ببلدة (العلا) مروراً عابراً. وفي المدينة أمضيت ثلاثة أيام، ومنها إلى مكة حيث يقيم الأهل وأمضيتها أيام استقرار وراحة.

وكنت قد أعددت وأنا في مكة تقريراً موجزاً عن عملي في الظهران قدمته لفيصل حين قابلته، أوضحت فيه ما حدث لي منذ غادرت الطائف، وما تقدمت به حول تنظيم العمل هناك، ومما لا أراه يستقيم بدونه، ومنه عدم تهويل الأمر فيما يتعلق بموقف (أرامكو) من التعليم مَتَى وُكِلَ إلى إدارة المعارف العامة، ولم أُخْفِ رغبتي في البقاء هناك. لولا أنني في ذالك العمل أصبحت معلقاً لا أدري إلى أي جهة أتجه، وخاصة بعد أن وقف معي يوسف ياسين ذالك الموقف، كما أن العمل نفسه بحالته الحاضرة قد يكون عديم الأثر، قليل الجدوى، فوعد بأن ينظر في الموضوع، ولكن على أساس نقل عملي من تلك الجهة لاعتقاده بأنه لا يتسنى لي الاستقرار هناك، ما دامت الحالة كما وصفت، وعليّ أن أنتظر إلى ما بعد الحج، وأن أرجع إلى عملي مهما كانت الحال.

وكانت العودة إلى الظهران، ولم يحدث جديد في الأمر أثناء غيابي.

وكان الشيخ عبد الله بن عدوان[٦] قد قدم المنطقة منذ بضع سنوات مندوباً من قبل (وزارة المالية) هو ونسيب السباعي[٧]، وشكيب الأموي[٨]، للقيام بتقدير مخلفات شركة (بَكْتَل)، وهي شركة قامت بأعمال إنشائية في مطار الظهران، وبعد انتهائها أو إنهاء عملها، بعثت الوزارة أولئك

للنظر فيما خلفته من معدات وآلات حديثة من رافعات وجرارات وكميات من الحديد، وغير ذالك لتقدير قيمة هذه المخلفات لكي تعوَّض عنها الشركة، أو تترك لتتولى هي بيعها، وبعد انتهاء اؤلئك من عملهم أُسندت إلى ابن عدوان أعمال أخرى مرتبطة بوزارة المالية وفي شركة (أرامكو) ومنها ما يتعلق بشؤون العمال، وكان بيني وبين الرجل تواصل وتعارف، وكان حديث القدوم من مدينة الرياض، فذهبت لزيارته فقال لي: لقد سعيت في أمر يتعلق بك، وقد لا يكون في مصلحتك أنت، أو لا يرضيك، إلاَّ أنني راعيت في ذالك المصلحة العامة العائدة للبلاد، فقد تحدثت مع سمو ولي العهد الأمير سعود عن ضعف حركة التعليم في بلاد نجد، بينما هي في جهات أخرى قد أخذت بنصيب من التقدم والانتشار، وقد استشارني فكان أن أشرت بنقلك لتتولى إدارة التعليم في الرياض، فأمرني أنا ومدير برقياته الأخ سعود الدغيشر[٩]، بالذهاب إلى الشيخ محمد بن إبراهيم[١٠] لعرض الأمر عليه، ومعرفة رأيه حولك، فما كان منه إلاَّ أن أثنى عليك ثناءً حسناً، فقدمت أنا وسعود نصَّ كلامه مكتوباً للأمير سعود، فاتصل بمدير المعارف في مكة بشأن تعيينك في العمل، وأتوقع أن تتلقى قريباً أمراً بالتوجه إلى الرياض لمباشرة عملك هناك.

ما كنت مرتاحاً لما أبداه لي ابن عدوان لأسباب :

منها أنني قد عقدت العزم على الاستقرار في المنطقة التي أصبحت تجتذب بما هي مقبلة عليه من ازدهار عمرانها الناسَ من مختلف مناطق المملكة.

ومنها أنني أترقب من فيصل أن يعالج الأمر بالنسبة لي بحالة أحسن.

ومنها أن الصلة بيني وبين مدير المعارف العام ليست على ما يرام كما سبق إيضاح طرف من هذا.

وأهم من كل ما تقدم فأنا واثق بأنه لو تَمَّ نقلي لذالك العمل فَسَأُلاقي من المضايقة وعدم تمكيني من التصرف فيما أراه مفيداً مما عليه يتوقفُ سير التعليم بصفة مرضية، بل ستكون الحالة بالنسبة لي أسوأ مما أنا فيه الآن، فالمعارفِ نفسها ليس في استطاعتها أن تغير من سوء حالة التعليم بصفة عامة، ولا أَنْ تُولِيَ أية جهة في البلاد عناية خاصة، وإن كانت جديرة بذالك، كبلاد نجد، لحداثة عهدها بالتعليم الحديث، ولقلة ما فتح فيها من المدارس، وهذا راجع إلى ضعف موارد الدولة بصفة عامة، وضآلة ما خصص للتعليم من تلك الموارد، ولئن استطاعت المعارف أن تولي بعض المناطق شيئاً من الاهتمام، فهذا راجع إلى طبيعة هذه المناطق، وعراقتها في الاتجاه للعلم، ويضاف إلى ذالك ما تتمتع به من موارد مالية ـ كالمنطقتين الغربية والشرقية ـ بخلاف غيرهما من المناطق، ولم يتم بعد تنظيم موازنة الدولة المالية بصفة عامة.

أوضحت كل هذا للشيخ ابن عدوان غير أنني لمحت في لهجته ـ مع ما بيننا من صلة حسنة ـ رغبته الملحّة لكي أذهب إلى الرياض، مما أَثَّر في نفسي بعدم الارتياح لما عرض عليَّ، مع أنه عاد ليؤكد بأنه مقتنع من أن وليّ العهد سيهتم بالأمر، ولما لفتُّ نظره إلى أنه سَيُشْغَلُ بما هو أَهَمّ، فقد وُكِلَ إليه من تصريف الشؤون العامة للدولة ما يستغرق جهده، بعد أن أسند إليه الملك ذالك لتقدمه في السن، ولضعفه عن القيام بمهمات تصريف الحكم، ومع حرص سموه على تقدم البلاد كلها في جميع مرافقها العامة من أمن ورخاء وصحة وتعليم وغير

ذالك من متطلبات الإصلاح والتنظيم، إلاَّ أن موضوع التعليم مع أهميته قد أسند إلى أناس يتمتعون من ثقة الدولة بهم، ما مكنهم من القيام بأعمالهم بقدر الطاقة، فما الذي سيفعله سمو ولي العهد. والحالة كما أوضحت؟

ما كنت أودُّ التحدث عن موقف ابن عدوان ـ تغمده الله بواسع رحمته ـ مما لم أجد ارتياحاً إلى الاسترسال فيه، فالرجل قَدِم على ما قَدَّم، والأمور انتهت كما توقعت، لولا أنني رأيت في كتاب طبع بعد وفاته ـ رحمه الله ـ بعنوان «عبد الله بن عدوان كلمات للتاريخ»[11] وتحت عنوان (التعليم في نجد) يقول باعتزاز ـ وبعد كلام ـ: كانت مديرية المعارف على رأسها الشيخ محمد بن مانع أرسل الشيخ حمد الجاسر والشيخ عبد الله الملحوق لمراقبة مدارس أرامكو، لم تستجب أرامكو لمطالبهم في تأمين منزل لهم وسيارة وسئموا من العمل، ابن ملحوق التحق كرئيس لديوان الإمارة والشيخ حمد بقي بدون عمل. وأشرت على الشيخ حمد أن يكون مديراً للتعليم في نجد، فوافق على أن أكلم ولي العهد. إلى آخر ما ذكر عن تعييني مديراً للتعليم في الرياض، ثم بعد ذالك رأيت أحد الإخوة نسب إلى الشيخ ابن عدوان كلاماً في إحدى الصحف[12]، ومع احترامي لهذا الأخ فإن ذالك الكلام من الشيخ ابن عدوان، ومن هذا الأخ في مجمله ليس صحيحاً. وخاصة ما يتعلق بي من حيث تعييني في الظهران، ومن حيث استشارتي، وأنني بقيت بدون عمل، مما سبق أن أوضحت حقيقته فيما تقدم من سوانح الذكريات، كما أنني سمعت من الشيخ ابن عدوان ـ رحمه الله ـ في بيت الأخ الشيخ سعد بن رويشد وبحضور الأمير

سلمان بن عبد العزيز، كلاماً فهمت منه أنه امْتَنَّ عليَّ بسعيه لنقلي من تلك الجهة، فأبديتُ اعتراضي، لأن الأمر بالنسبة لي خاصةً بخلاف ما بدا منه، ولكنه كرر القول بأنه أراد المصلحة العامة، فالله سبحانه وتعالى يتولى مثوبة كل إنسان على قدر نيته، ويسبغ رداء عفوه على الجميع.

الحواشي:

(١) : هما الشيخ صالح طرابلسي، والأستاذ توفيق الإدريسي.

(٢) : كلمة (الأخويا) يعبر بها أهل نجد عن خدم الرجل واحدهم (خوي) و(الخوة) عندهم المرافقة.

(٣) : سيأتي ذكر بعض المواقف له معي توضح هذا أكثر.

(٤) : وقد طبع المجمع العلمي العربي بدمشق «شعر ابن أبي حصينة «بشرح المعرِّي بعد ذالك.

(٥) : حيث كان مدرساً لأبناء الأمير تركي بن عبد الله آل سعود.

(٦) : هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عدوان، تلقى مباديء القراءة والكتابة على عادة أبناء ذالك العهد، ثم أسندت إليه بعض الوظائف الدينية كالإمامة عند بعض الأمراء، ثم عيّنه الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في هيئة المراقبة المرتبطة بالديوان الملكي، وبعد ذالك عُيِّن ممثلاً لوزارة المالية في الظهران، وأسندت إليه وكالة وزارة المالية حين تولى الوزارة محمد سرور الصبّان، وبعد استقالة محمد سرور عيّن ابن عدوان وزيراً، وبعد ذالك تولى رئاسة بنك الرياض وبعض المؤسسات العامة وأصبحت له مكانة بارزة في المجتمع، لما يتمتع به من الأخلاق الفاضلة، حتى توفي في اليوم الثاني من شهر شوال سنة ١٤١٢هـ [١٩٩٢م].

(٧) : سوري الأصل عمل في وزارة المالية خبيراً اقتصادياً ثم رئيساً للمحاسبة، واستقر في البلاد وعرفت عنه الاستقامة واتصافه بالتدين والأخلاق الفاضلة.

(٨) : من أدباء المملكة البارزين وأصله فلسطيني ولد في صفد سنة ١٩١٧م وتولى رئاسة تحرير مجلة «قافلة الزيت» فترة من الزمن وَعَرَّب كتاب «تويتشل عن المملكة العربية السعودية» وله مؤلفات أخرى، انظر «دليل الكاتب السعودي» ـ ص١٠٧ ـ ووالى نشر كتاباته في كثير من صحف المملكة.

(٩) : الشيخ سعود بن عبد العزيز الدغيثر كان من موظفي ديوان الملك فيصل ثم مديراً لبرقيات الملك سعود فسفيراً للمملكة في بيروت حتى استقال.

(١٠): هو الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رئيس علماء المملكة ومفتيها، ولد سنة ١٣١١هـ وتوفي سنة ١٣٨٩هـ وشهرته ـ رحمه الله ـ تغني عن التوسع في الحديث عنه.

(١١): ـ ص ١٠١ ـ.

(١٢): «الجزيرة» ـ ١ جمادى الآخرة ١٤١٠هـ ـ العدد ٦٣٠١ ـ ونصه : سبق أن حضرت حديثاً لمعالي الشيخ عبد الله، وكان مما دونته تعيين الشيخ حمد الجاسر والشيخ عبد الله الملحوق مشرفين على مدارس أبناء عمال أرامكو من قبل مديرية المعارف(؟) ونقل الشيخ عبد الله الملحوق بديوان رئاسة ديوان إمارة المنطقة الشرقية وبقي الشيخ حمد الجاسر خارج بدون عمل (؟) وفي إحدى زيارات معالي الشيخ عبد الله بن عدوان إلى الرياض للسلام على جلالة الملك عبد العزيز يرحمه الله والسلام على ولي العهد الملك سعود يرحمه الله والسلام على فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم والتعقيب على طلبات المنطقة الشرقية عرض على ولي العهد عام ١٣٦٤هـ (؟) نقل الشيخ حمد الجاسر إلى معتمدية المعارف في الرياض لما عرف عنه من إخلاص ومحبة للعلم والتعليم وعقيدة صالحة وهو رجل علم وتعليم والمنطقة تحتاجه في هذا الوقت ووافق ولي العهد ـ يرحمه الله ـ شريطة موافقة الشيخ محمد بن إبراهيم يرحمه الله، وذكر معالي ابن عدوان أنه زار الشيخ محمد بن إبراهيم وأبلغه رغبة ولي العهد بنقل الشيخ حمد الجاسر شريطة موافقة سماحته على ذالك وكان يرافق ابن عدوان في زيارته للشيخ محمد، فهد بن كريديس وإبراهيم الشايقي (؟) ووافق سماحة الشيخ محمد على نقل حمد الجاسر، وأبلغوا ولي العهد موافقة الشيخ وجرت مكاتبات بين ولي العهد يرحمه الله ومديرية المعارف في عهد الشيخ محمد بن مانع يرحمه الله وباشر عمله معتمداً للمعارف في الرياض.

إلى (الرياض) حيث بدت بوادر العمل كما توقعت !!*

وبعد عيد الأضحى من عام ثمانية وستين وثلاث مئة وألف [١٩٤٩م]، تلقيت برقية من سمو ولي العهد الأمير سعود، يأمرني بالحضور سريعاً إلى الرياض، لمباشرة عملي، فتريثت برهة من الوقت لا لأمل أن أعود، بل لترتيب بعض أموري الخاصة، وسافرت في اليوم الخامس والعشرين من الشهر بسيارة إلى الرياض، بعد أن مكثت في الظهران أربع سنوات واثنى عشر يوماً، فقد قدمتها في اليوم الثالث عشر من ذي الحجة عام ١٣٦٤هـ.

كان استقبال سعود لي ـ أسبغ الله عليه شآبيب مغفرته ورضوانه ـ حسناً، وكان السكن في الضيافة، وفي صبيحة اليوم الثاني كان الاجتماع به مرة ثانية بحضور بعض مستشاريه ومعهم رشيد عالي الكيلاني، وجمال الحسيني، فعرّفهما بي، وأحسن الثناء عليَّ، وجرى بينه وبينهما حديث طويل حول التعليم، وما يطمح من أن تبلغ البلاد نصيبها منه، بل من كل وسيلة من وسائل الرقي والإصلاح كاملاً غير منقوص، وأنه لن يَدَّخِر وسعاً في هذا السبيل، وسيعنى بصفة خاصة بنشر العلم، إذ به يدرك المرء ما يجب عليه إدراكه من خير وشر، ولم أشارك في هذا الحديث، ثم وجه الكلام إليَّ قائلاً: ينبغي أن تقوم بزيارة المدارس ثم بالتجوّل على جميع المدن والقرى، وأن تقدم لي تقريراً شاملاً عَمَّا تتطلبه حالة التعليم وإصلاحه، ووعد بالمسارعة في عمل ما يمكن عمله في سبيل ذالك.

---

* المجلة العربية، العدد (١٩٨)، رجب ١٤١٤هـ / كانون الأول وكانون الثاني ١٩٩٣م.

ولم أر الفرصة مناسبة للتوسع في الحديث، فأبديت الموافقة مع الرغبة في مقابلة سموه في الوقت الذي يراه، لبحث الموضوع مرة أخرى، فكان أن حَدَّد بعد العشاء، إلاَّ أنني في ذالك الوقت لم أجد مناسبة لبحث الموضوع لانشغاله بكثرة المتصلين به، ومن بينهم أجانب من غير أهل البلاد، ولكنني في ضحوة اليوم الثالث حضرت إلى الديوان في (الناصرية) وتحينت فرصة السماح لي بالمقابلة بعد الانتهاء من عرض الأوراق، وتم ذالك قبيل صلاة الظهر، وقد أدرك أنني أود التحدث منفرداً، فقام من المجلس العام وأمرني بالإدخال عليه وحده، وبعد أن أوضحت له أنني على أتم الاستعداد لتنفيذ أي أمر أستطيعه، وأنني سواء كنت في عملي في الظهران أو في الرياض فأنا أؤدي خدمة لبلادي حسب توجيهه، ووفق رغبته، إلاّ أنني أدرك أن شؤون التعليم في نجد ليس من السهل لمثلي أن يتسنّى له القيام بعمل ذي جَدْوَى حيال إصلاحه، إذ الأمر يتطلب نظرة شاملة لحالة التعليم بصفة عامة، يضاف إلى هذا أنه قد أُسند إلى جهة ذات اختصاص وإمكانات، تؤدي ما تستطيع تأديته، وفق ما تتمتع به من كفاءات، وما تقدر عليه بما هيأت لها الدولة من الإمكانات، ولكنه ـ رحمه الله ـ كرر كلمة (اسمع! اسمع! بارك الله فيك) واسترسل بكلام فهمت منه تصميمه على عدم عودتي إلى الظهران ومباشرة عملي في الرياض في هذا اليوم، فأوضحت أن العمل مرتبط بـ (مديرية المعارف) وليس من المستحسن الافتئات عليها بشروعي في عمل من أعمالها قبل موافقتها والاتصال بها، لا سيما على رأسها الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع، الذي لا تجهلون منزلته، وما هو جدير به من التقدير والإجلال، لعلمه وفضله، وقد يرى من هو أصلح مني للقيام بهذا العمل، فبادرني مسرعاً بقوله: لقد

أخبرت مدير المعارف الشيخ محمد بن مانع وحصلت مراجعة بيني وبينه انتهت إلى إسناد العمل إليك، وكان الوقت ضيقاً، حيث حان القيام لأداء صلاة الظهر، وبعد أدائها استأذنت في الانصراف، ثم حضرت العشاء مع سموه في الناصرية، ورأيت أن الأمر بالنسبة للبقاء في الرياض أصبح مفروغاً منه، وعلى هذا فلابد من السفر إلى مكة لمقابلة الشيخ محمد بن مانع ـ مدير المعارف العام ـ لمحاولة إزالة ما علق بذهنه عَنِّي حينما كنت مدرساً في (المعهد) و (تحضير البعثات) قبل عشر سنوات، فأوضحت له ـ بإيجاز ـ رغبتي تلك للسلام على الشيخ، وتلقي توجيهاته للقيام بعملي، فاستحسن هذا ودَعَا أحد موظفي الديوان، وأملى عليه كتاباً للشيخ محمد بن مانع مدير المعارف العام عن تعييني معتمداً للمعارف في نجد، وبعد الثناء عليَّ رجا من الشيخ أن يهتم بكل ما من شأنه تمكيني من أداء عملي على خير الوجوه وأتمها.

وكان السفر إلى مكة لتلك الغاية، والالتقاء بالشيخ ـ رحمه الله ـ وقد أبدى استعداده التام لفعل ما يمكن فعله في سبيل أداء العمل على الوجه المطلوب، وكنت قد أعددت كتاباً ذكرت فيه ضرورة تهيئة مقر مناسب للعمل في مدينة الرياض مُعَدٍّ بما يلزم من أثاث وتهيئة سيارة، كما طلبت أن أعامل كموظف منقول بمقتضى المادة (١١١) من نظام الموظفين التي تنص على أنه: (يجوز لمصلحة حكومية نقل الموظف مع ضمان ترفيعه أو ترقيته درجة وراتباً) ومرتب معتمد المعارف في نجد أقل من مرتبي في الظهران، وحالتي تستلزم تطبيق تلك المادة لأَن تكاليف المعيشة في الرياض أَشَدُّ كلفة منها في الظهران، وعملي في الرياض سيكون أشق من عملي هناك، فكان أن كتبت المعارف عن كل ذالك لوزارة المالية فعدت إلى الرياض.

لي أصدقاء في (المعارف) وقد قال لي أحدهم ممن أثق بحسن قصده من قبيل النصح لي : إنه ليس في مستطاعك أن تحقق ما ترغب إلى تحقيقه في عملك الجديد، مهما كانت الأحوال، فموازنة المعارف محدودة، وضآلةُ رواتب موظفي التعليم وقلة ذوي الكفاءات منهم من أكبر العوائق، ولهذا فينبغي أن تسير في جميع أمورك على طريقة: (سَدِّدُوا وقاربوا) و (مالا يُدْرَكُ جُلّه لا يترك كلُّه).

بعد عودتي إلى الرياض قمت بزيارة بعض مدارسها، فكان من أغرب ما لفت نظري في جداول الدراسة اليومية الاقتصار على القرآن الكريم، وعلى معظم الدروس الدينية، فاجتمعت بمديري المدارس، واستوضحت منهم عن السبب في هذا، فتعللوا ذالك بكون المعارف لم ترسل إليهم شيئاً من المقررات المدرسية، ولهذا اضطروا إلى الاقتصار على تحفيظ القرآن، وعلى تدريس بعض مباديء العلوم الدينية، فقمت بإعداد بيان مفصل بالمقررات من كتب وغيرها، وبما لا يتوفر وجوده في الرياض من الأدوات المدرسية، وكتبت إلى المعارف بطلب ذالك، وبعثته مع أحد مديري تلك المدارس وهو الأستاذ علي بن محمد المطلق ـ مدير المدرسة العزيزية ـ فمكث في مكة فترة من الزمن وعاد ومعه ما يفي بحاجة مدارس الرياض، دون ما عداها من المدارس الأخرى.

لا أذكر سعوداً ـ طيب الله ثراه ـ إلاّ خطر في ذهني قول الأستاذ خيرالدين الزركلي:

وَاللّهِ مَا كَانَ (الْحُسَـ   ـيْنُ) الشَّيْـخُ بِالشَّيْخِ النَّؤُوْم

فلقد كان سعود يَتَّقِد غيرة ووطنية، وحرصاً على تقدم البلاد في

كل ناحية من نواحي حياتها، وكان يسعى ما وسعه السعي لتبلغ من الإصلاح والتقدم ما تطمح إليه، ولكن لم تَجْرِ الأمور كما كان يتوخاه ويريده:

هِيَ ٱلْمَقَادِيرُ فَلُمْنِي أَوْ فَـذَرْ   إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَا ٱلْقَدَر

ليس من شأني هنا التحدث عن الأسباب، ولكنني أقولها كلمة حق حسبما اتضح لي أثناء مقابلتي، وحديثي معه في الفترات المتقدمة، وفي فترات أخرى بعد ذالك، لقد كان متفانياً في حبٍّ بلاده حريصا على فعل ما يعلي شأن أمته، خلال الفترة التي أسند إليه والده الملك عبد العزيز ـ تغمده الله برحمته ورضوانه ـ بعد أن كبر وضعف عن القيام بأعباء الحكم، فوكل إليه تصريف شؤون الدولة.

حقًّا إن عقل المرء مهما بلغ ليس في مقدوره إدراك جميع حقائق الأمور، وإذا لم يكن له من الأعوان وذوي الصلة القوية به من يكون خَيْرَ عون له في تسديده بالرأي، ومساعدته في توجيهه في أعماله، ممن يتصف بالاستقامة، والإخلاص والنزاهة، ومَتَى فقد ذالك لم يستطع مهما أُوتي من حول أو طول أن يستقيم عمله، وأن يحقق ما تطمح إليه نفسه من جليل الأعمال.

ولقد كانت حالة التعليم في البلاد بصفة عامة، على درجة من الضعف بسبب قلة واردات الدولة، ولهذا كان ما خصص للتعليم يتناسب مع تلك الواردات، مع ضعفها، يضاف إلى هذا كثرة سكان البلاد، وشدة الإقبال على التعليم في أكثر مناطق المملكة، باستثناء بلاد نجد التي أحاطت بها ظروف كثيرة حالت دون إدراك أهلها لفائدة التعليم الحديث الذي كان بدء انتشاره في الحجاز منذ عهد الدولة التركية

أول القرن الماضي، وكان من أثر ذالك وفرة عدد من المتعلمين في ذالك القطر، ممن أسندت إليهم إدارات المدارس والتعليم فيها في تلك البلاد، في الوقت الذي كان بعض النجديين ينفرون من فتح المدارس.

وفي عهد إسناد إدارة (المعارف) إلى السيد محمد طاهر الدباغ ـ رحمه الله ـ من سنة **١٣٥٥هـ** [**١٩٣٥م**] إلى سنة **١٣٦٤هـ** ـ رأى ضرورة تعميم التعليم في جميع جهات المملكة، فقرر فتح مدارس في كبريات المدن في نجد، وكانت المشكلة التي اعترضت ذالك ولم يستطع حلها قلة الأكفاء الذين توكل إليهم وظائف التدريس من إدارة وتعليم، ففكر في إنشاء مدرسة في (الطائف) وأن يُخصص الالتحاق بها لعدد من الشبان النجديين النابهين، وتُهيأ لهم الوسائل التي ترغبهم حتى يكملوا الدراسة، وفق المنهج الذي يعدهم لتولي وظائف التعليم في مدارس نجد.

ولكن حدث أثناء عرض الموضوع على الجهات العليا في الدولة أن صرفت غاية تلك المدرسة عَمَّا أراد السيد الدباغ للعناية بجانب آخر هو جدير بأن يهتم وأن يعتنى به، وقد سبقت الإشارة إلى ذالك مفصلاً[(١)].

لم أكن أتطلع من (المعارف) إلى أكثر مما عملت معي، فقد علمت وأنا في مكة بأنها رشحت لعملي عبد الرحيم صَدِّيق، مدير إحدى مدارس الرياض، حين تلقيت الأمر بتعييني، ولكن سعوداً ـ رحمه الله ـ لم يوافق على تعيين عبدالرحيم، وأصر على تنفيذ أمره، ومن هنا فهي تنظر إلى ما حدث بشأني وتعده تدخُّلاً في شؤونها بدون موافقتها. وهي في الوقت نفسه ما كانت تنظر إليَّ نظرة ارتياح قبل هذا، فكان أن عدت إلى الرياض وقد كاد اليأس يطغى على نفسي بأنني لن أجد أمامي طريقاً مُمهَّداً لأصل به إلى القيام بعملي على الوجه الذي أرتاح

إليه، وأُرَانِي قد قمت به حسب استطاعتي قياماً مُرضياً، ومع ذالك فأنا لا أزال مطالباً بأَنْ أَعمل، ولكن ما الذي يستطيعه مَنْ كان مثلي على هذه الحالة :

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مكْتُوفاً وقالَ له: إيَّاكَ إيَّاك أنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ!!

كان أول عمل قامت به المعارف بعد تعييني أَنْ فَصَلَت مدارس القصيم عن مدارس نجد وعَينَتْ (معتمداً لها)، سبق أن فصلته عن وظيفة التدريس لعدم كفاءته، وها هو الآن قد أصبح كُفأً لتولي وظيفة أعلى، وليكن هذا ففيه تخفيف عني، وقد تنال مدارس تلك الجهة عناية أوفر مما لو كانت ضمن مدارس نجد، واستمرت صلتها بمديري المدارس في أمور هي من اختصاص المعتمد، ولكنها لم تعبأ بهذا، بل قد كانت تكلف بعض مديري المدارس بإعداد ما يلزم لتأثيث بعضها.

واستمر صرف رواتب المدرسين من (المعارف) دون أن يكون للمعتمد أي علم بها أو بما يتم حولها، فكل مدير مدرسة يبعث بأسماء موظفي مدرسته إلى مكة، فتبعث إليه (المعارف) الرواتب والاستحقاقات الأخرى، ولا يعلم المعتمد عن ذالك شيئاً.

لم أُبْدِ أَيَّ تأثُرٍ بمثل هذه الأمور، فقد وَطَّنْتُ نفسي على تحيّن الفرصة الملائمة للخروج من هذه الحالة بطريقة هادئة، وما الذي يعنيني من التعرض لأمور سأدع إصلاحها لغيري، إلاّ أن هذا لا يعفيني من أن أبذل الوسع في أداء ما وكل إليَّ من عمل حتى يأذن الله لي بالخلاص منه.

كنت لاحظت في أول زيارة قمت بها لمدارس الرياض عدم تطبيق منهج الدراسة كاملاً، وقد تعلَّل بعض مديري المدارس بِكون (المعارف)

لم تبعث لهم مقررات الدراسة، وها هي الآن بين أيديهم، فما كان مني إلاّ أن أبلغت جميع اؤلئك بضرورة تطبيق المنهج الدراسي الابتدائي كما هو مرسوم، غير أنني فوجئت بعد مغرب ذالك اليوم بحضور بعضهم ومعهم كتاب موقع ممن لم يحضر منهم بأنه لا يمكنهم تدريس مادتي (تقويم البلدان) و (الهندسة)؛ لأن الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ قرر منع تدريسهما، والاستعاضة عنهما بدروس دينية.

وأردت تهدئة الأمر فأمرتهم بالاستمرار في ذالك، ولكنني في صباح اليوم الثاني قابلت سعوداً ـ رحمه الله ـ فأوضحت له أن منهج الدراسة الابتدائية موافق عليه جلالة الملك، وإنه مطبق في مدارس مكة والمدينة، والمدارس الأخرى، فأمر بأن أؤكد بضرورة السير على ما هو متبع في جميع مدارس المملكة، وأمر بالكتابة إليَّ بهذا لإبلاغه.

وفي مساء اليوم نفسه ذهبت فصليت العشاء مع الشيخ محمد بن إبراهيم، وسرت معه حتى دخل منزله، فأمرني بالدخول، وكنت قد أحضرت معي نسختين من مقرر مادَّتَيْ (تقويم البلدان) و (الهندسة) في المنهج الابتدائي الذي أحضرت نسخة منه، وبعد أن أوضحت له أن هذا المنهج موافق عليه من قبل الملك، ومن الجهات المعنية بشؤون التعليم. وأن العمل يسير عليه في مدارس المملكة باستثناء مدارس الرياض، وقد أحضرت المواد المقرر تدريسها، وأبديت استعدادي للحضور كل ليلة لقراءتها وحذف ما يراه الشيخ معارضاً لشيء من الأحكام الشرعية.

من أبرز صفات الشيخ محمد الحكمة والأناة، وعدم التسرع فيما يعرض عليه، فكان أن قال: دع الكتابين وراجعني بعد أسبوع، فكان ذالك، فأخبرني بأنه لم يرَ في مقرري (تقويمِ البلدان) و (الهندسة)

ما يتعارض مع شيءٍ من الأمور الشرعية، ولكنه يرى أَنَّ إشغالَ الطلاب بهذين العلمين ليس فيه كبير فائدة، وخيرٌ لهم أن يُشْغَلُوا بمعرفة ما تجب عليهم معرفته من أمور دينهم، فأوضحت له أن منهج الدراسة قد أَوْلَى الجانب الديني من الاهتمام والعناية ما يحقق تلك الغاية، وحبذا لو أن فضيلته أمر بإنشاء معاهد دينية للتخصص في دراسة العلوم الشرعية، فاستحسن هذا، وخرجت وأنا مرتاح من حسن استقبال الشيخ لي، وأنه لم يُبْدِ أيَّ اعتراض على تدريس جميع ما هو مقرر في منهج الدراسة الابتدائية.

وعلى ذكر هذا تحسن الإشارة إلى أنه في عام ١٣٦٨هـ [١٩٤٨م] كان من بين من نالوا شهادة إكمال الدراسة الابتدائية في نجد أحد عشر تلميذاً من المدرسة السعودية (دار الأيتام في الرياض)، وقد منحتهم المعارف شهادة تنص على: (أن التلميذ... قد أكمل الدراسة الابتدائية) مع أنه لم يدرس العلمين المذكورين و(المعارف) تعلم هذا، ومع ذالك شهدت بما يتنافى مع الواقع!!

كل القائمين بالعمل في مدارس نجد ممن نال قسطاً من العلوم الدينية على المشايخ في حِلَق المساجد، أو ممن حفظ القرآن الكريم في أحد (الكتاتيب)، وأدرك قدراً يسيراً من معرفة الكتابة، وهم في الواقع مَن أمكنْ أن توكل إليهم الأعمال التي يقومون بها، إذ قلة الرواتب المقررة للقائمين بهذه الأعمال، وارتفاع تكاليف المعيشة في نجد من الأسباب التي حالت دون وجود مدرسين أكفأ منهم.

ومع ما يتصف به هاؤلاء من أخلاق فاضلة إلاّ أن طريقة التدريس علم قائم بذاته، وبغيره ليس من الممكن إيصال المعلومات إلى أذهان التلاميذ.

ومن هنا فهُم في حاجةٍ إلى أن يتلقوا من هذا العلم ما يؤهلهم للاستمرار في أعمالهم بطريقة مجدية.

وكان في مدرسة أبناء سعود عدد من الأساتذة المصريين ممن يمكن الاستفادة بهم لتوجيه مدرسي مدارس الرياض إلى طرق التدريس الحديثة، فتقدمت برجاء إليه ـ رحمه الله ـ ليبلغ مدير المدرسة الأستاذ عثمان الصالح بالأمر، ولكي أتَّفقَ معه على ما ينبغي اتخاذه من طريقة لتحقيق هذه الغاية، وقد فاتني أنَّ مِنَ الأوْلَى أن أَتَّصِلَ أولاً بالأخ عثمان قبل ذالك، فما كان منه حين أبلغه سعود إلاّ أن اعْتَذر بأن أساتذة المدرسة ليس لديهم من الوقت ما يتمكنون فيه من العمل خارج مدرستهم. وإذا كلفوا بذالك فسيؤثر في سير الدراسة في مدرسة الأنجال.

ويبدو أن سعوداً استدعى أحدهم وهو المفتش محمد النجار، فلما عرض عليه الأَمْرَ أَبْدَى استعداده هو وبعض أساتيذ المدرسة للقيام بذالك العمل، فأمر سعود مدير مدرسة أبنائه بأن يتفق مع المفتش ومع الأساتيذ المصريين لتنفيذ تلك الفكرة.

كنت قد سافرت إلى مكة، ولم يكن لدى الأستاذ عثمان ولا المفتش علمٌ بما أردته من الاستعانة بالأساتذة المصريين، وهو تمرين المدرسين لاتباع طرق التدريس الحديثة، لا للقيام بتدريسهم مواد أخرى، وكنت قد أعددت نسخاً من كتاب معروف هو «الحديث في طرق التدريس» لكي يستعان به ويستفاد منه، وتلقيت برقية من الأستاذ عثمان بتاريخ ٧ / ٥ / ١٣٦٩هـ [١٩٥٠م] بأنه تَمَّ فتح مدرسة ليلية للمعلمين، يتولى التدريس فيها أساتذة مدرسة الأنجال، وأضاف : وأهنئكم بأن ثمرات اقتراحكم أثمرت، وأن سمو الأمير مهتم بهذا.

ثم بعث إلي كتاباً بتاريخ ١٦ / ٥ / ١٣٦٩هـ يُسَمِّي القائمين بالعمل في مدرسة المعلمين الليلية وما يقومون بتدريسه من العلوم، فالأستاذ عثمان يدرِّسُ الإملاء والخط، ومحمد السناري التاريخ والإنشاء والجغرافيا، ومحمد عبد الصمد الهندسة والحساب، وعبدالله بن سليم وهو أحد مديري المدارس الذين من المفروض أن يكون من بين من يتلقى بعض التمارين على طرق التدريس الحديثة يُدَرِّسُ النحو، ويضيف في آخر كتابه: فالمدرسة نفسها ما هي إلا ثمرة اقتراحك وفقك الله.

مع أنه قبل ذالك بعث للمعارف بطلب إعداد منهج للدراسة، وتخصيص مكافآت لمديرها ومعاونه ومدرسيها، فبعثتْ إليه المعارف منهجاً مُعَدًّا من قَبْلُ لمدارس المعلمين الليلية، وقررت مكافأة شهرية قدرها (٧١٠) ريالات في الشهر، للمدير مئتان ولمعاونه مئة وخمسون، ولمدرسين مصريين مئتان، ومئة وستون لأربعة خدم، وكان الأخ عثمان قد قام بافتتاح المدرسة في ليلة الاثنين ٣ / ٥ / ١٣٦٩هـ وقرر أن تكون في مقر المدرسة الأهلية، وأن ابتداء الدراسة بعد المغرب من الساعة الواحدة إلى انتهاء الساعة الثالثة وعشر دقائق.

مما يتصف به الأستاذ عثمان الصالح مع صفاته الحسنة طِيْبُ القلب بدرجة يحسد عليها، ولعل من ذالك اختياره أحد مديري مدارس الرياض، ليكون معاوناً له ثم تخلَّى عن الإدارة ـ فيما بَعْدُ ـ له وهو لا يدرك ما بينه وبين زملائه مديري المدارس الأخرى من تنافس، وهم ألصق به وأكثر اتصالاً وأقوى معرفة به.

من هنا بدأ الوهن في فكرة إنشاء هذه المدرسة من أول ليلة من ليالي افتتاحها، حيث وقع هرج ومرج، فالفكرة المختمرة في أذهان موظفي

التعليم أن الغاية منها التوجيه والإرشاد إلى طرق التدريس الحديثة، وأن الذي سيتولى ذالك أساتذة مختصون من المصريين، ولكنهم فوجئوا حين حضروا في المدرسة بأن من بين من سيتولى التدريس الأخوان عثمان الصالح مدير المدرسة وعبدالله بن سليم معاونها، فكان أن كتب إلي وأنا في مكة مُديرا المدرستين العزيزية والسعودية بما خلاصته: بأن جميع موظفي التعليم صدموا بما شاهدوا ورأوا في ذالك انتقاصاً لهم، فكيف يكون زميل لهم أستاذاً يدرسهم، وهو وإياه على حد سواء. ومن هنا فلا يسعهم قبول هذا الأمر.

كان الحضور أول ليلة افتتحت فيها المدرسة (٤٨) واستمر منهم في الحضور في الأسبوع الأول نحو (١٠)، وفي الأسبوع الثاني لم يحضر أحد، ووافق أن ضآلة المكافأة المقررة من قبل المعارف كانت من أسباب تخلي الأستاذ عثمان الصالح ثم مدرسي مدرسته عن العمل.

لعل مشكلة وجود المعلم الصالح هي أم مشكلات التعليم، ومن هنا فقد حاولت معالجتها.

كنت أوضحت لسعود ـ رحمه الله ـ أن قاعدة إصلاح التعليم بوجود المعلم الصالح، وهذا لا يتسنى بدون إحضار عدد من المدرسين من خارج البلاد، وقدمت له تقريراً بهذا، فكتب بذالك إلى المعارف برقم ١٠٤١ في ٢٩ / ٣ / ١٣٦٩هـ وأمر بانتداب ثلاثين أستاذاً من مصر، وأكد هذا الأمر، فأجابته المعارف برقياً برقم ٥٠١٢ تاريخ ٢ / ٤ / ١٣٦٩هـ بما نصه: (سمو ولي العهد المعظم. ج لأمر سموكم رقم ١٠٤١ في ٢٩ / ٣ / ١٣٦٩هـ وزارة المعارف المصرية لا توافق على انتداب أساتذة الآن، لأن السنة الدراسية على الانتهاء وسنعمد معتمد المعارف بمصر

بانتداب ثلاثين أستاذاً فلسطينياً لمدارس نجد، بعد موافقة سموكم وسيقدمون في أول السنة الدراسية القادمة لقرب انتهاء السنة الدراسية الحالية، أرجو تعميد وزارة المالية باعتماد الأساتذة الفلسطينيين المذكورين لمدارس نجد لنعمد معتمد مصر بانتدابهم).

فأمرهم بمراجعة سمو الأمير فيصل بشأن الأساتذة الذين ينتدبون إلى مدارس نجد، فكان جواب فيصل ـ رحمه الله ـ برقم ١٠٣ في ٢٤ / ٤ / ١٣٦٩هـ إن الأساتذة المصريين أمثل مِنْ غيرهم، ولكن نظراً لما حدث منهم وتشددهم في بعض الأمور نرى أن إرسال الفلسطينيين أوفق، وكان جواب سعود ـ رحمه الله ـ برقم ١٢٥٠ تاريخ ١٣٦٩ / ١٣ / ٥هـ: (من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى الأخ المكرم فيصل بن عبد العزيز سلمه الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد تجدون طيه الكتاب الوارد إلينا من حمد الجاسر بشأن اعتذار المعارف في موضوع الأساتذة اللازمين لمدارس نجد، وحيث إن مدارس نجد في دور التأسيس وتحتاج إلى مدرسين أكفاء فأنتم إن شاء الله تتراجعون مع الشيخ محمد بن مانع وتؤمنون الأساتذة والمديرين اللازمين لمدارس نجد، وحمد الجاسر موجود عندكم وهو يعرف ما تحتاجه المدارس، أما كون الأساتذة مصريين أو فلسطينيين أو خلافهم فهذا شيء ما فيه مانع، فقط أن يكونوا من ذوي الكفاءات ليكون التعليم على أساس قوي، إن شاء الله تحرصون على هذه المسألة غاية ما يكون. هذا مالزم بيانه والسلام).

وكتاباً مماثلاً للشيخ محمد بن مانع.

فكان جواب المعارف ببرقية رقمها ٦١٦٥ تاريخها ٢٢ / ٥ / ١٣٦٩هـ

لسمو ولي العهد المعظم: (ج لكتاب سموكم رقم ١٢٥١ في ١٣ / ٥ / ١٣٦٩هـ أرجو تعميد وزارة المالية بإحداث ثلاثين وظيفة أستاذ فلسطيني لمدارس نجد براتب (٢٥) جنيهاً مصرياً لكل أستاذ، مع منحهم جميع الحقوق التي تعادل المصري، يستحسن انتداب الشيخ حمد الجاسر لاختيار أصحاب الكفاءات والأخلاق العالية إن رأيتم ذالك، نظراً لما أشرتم إليه من السرعة).

ثُمَّ انتهى الموضوع بما أبرق به فيصل ـ رحمه الله ـ برقم ٢٩٣١ تاريخ ٣ / ٦ / ١٣٦٩هـ للمعارف، ونصه: (بالإشارة إلى برقيتكم رقم ٦١٦٥ / ٢٣ الماضي لسمو سيدي الأمير سعود بخصوص الأساتذة الفلسطينيين قف لقد أمر سموه بالمراجعة معكم في هذا الشأن، والذي نرى أنه بالنظر لانتهاء أكثر السنة الدراسية أن يعمل طريقة مقاولة مع الفلسطينيين بغض النظر عما هو جار مع الأساتذة المصريين. ثانياً يكون انتداب حمد الجاسر في وقت متسع حتى يتمكن من اختبار الكفاءات هذا الذي نراه في الموضوع).

وعندما راجعت (المعارف) لما حان وقت انتداب المدرسين من المصريين وغيرهم أخبرني مدير المعارف بأن أمر الانتداب لجميع المدارس سيقوم به موظفون من المعارف، مزودون بتعليمات يسيرون عليها، وسنلاحظ الاتفاق مع العدد المقرر من المدرسين المخصصين لمدارس نجد، حسبما وافق عليه المقام السامي، ولا داعي لسفركم، وبهذا انتهى الأمر.

الحواشي:

(١): سانحة (لمحة عن سير التعليم الحديث في البلاد).

أحاديث عن بدايات التعليم الحديث في نجد (١)*

سعود ـ رحمه الله ـ يحبُّ أن يعمل، وهو كغيره من البشر يودُّ أَنْ يتحدث الناس عن عمله، ولهذا فقد أمر بفتح مدارس عديدة في كثير من القرى، قبل أَنْ تُقرر المعارف فتحها، ومعروف أَنَّ فَتْحَ أَيَّة مدرسة يستلزم دراسةً تامةً لإعداد الوسائل التي تحقق إنشاءها على أساس يكفل تحقيق الغاية منها، ومن أهم ذالك أن يُعَدَّ لها ما تحتاج إليه من النفقات، كرواتب موظفيها وتأثيثها وأجرة محلها، في موازنة المعارف التي جرى الاتفاق عليها من وزارة المالية، إذْ صَرْفُ أَيِّ مبلغ من المال، زائداً عما قُرِّرَ فيما خصص له، يُسَبِّبُ ارتباكاً في واردات الدولة ومصروفاتها، ولما حاول مستشاره عبد العزيز بن إبراهيم بن معمر إيضاحَ هذا له قاطعه قائلاً: نحن الذين نقرر ما تحتاج إليه مشروعاتنا من المصروفات، وأَمْرُ المالية بيدنا. وبعد أَنْ أَوْضَحْتُ له أن عدد المدارس التي تَمَّ فَتْحُها في نجد في خلال تسع سنوات كثيرة، ولكنها ليسَتْ ذاتَ جَدْوَى، فهي كمدارس الملك حسين التي وصفها الأستاذ الزركلي بقوله:

وَمَدارِسًا مَا كَانَ يَنْـ ـقُصُ حُسْنَهُنَّ سِوَى الْعُلُوْمْ

ومن الخير الاتجاه أولاً إلى إصلاح التعليم في هذه المدارس، وبعد ذالك يصبح الاستكثار منها من الأمور السهلة، فهي إذَا أُصْلِحتْ تخرج فيها أناس يساعدون في نشر التعليم في بلادهم على أسس صحيحة.

وأَرَاني هنا وأنا أتحدث عن ذكريات زمان مضى، وعن صلتي بأناس

* المجلة العربية، العدد (١٩٩)، شعبان ١٤١٤هـ / كانون الثاني وشباط ١٩٩٤م.

انتقلوا إلى الآخرة، وأصبح ليس في مستطاع أحد منهم أن يبين زَيْفَ ما أتحدث به عنه إن كان فيه زَيْفٌ، فليس يليق بي أن ينطبق علي القول:

وَإِذَا مَا خَلا الْجَبَانُ بِأَرْضٍ ذَكَرَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ والنِّزَالا

ثم إنني أُجِلُّ نفسي أن أُلْصِقَ بأولئك ما ليس فيهم، أَو أَنْ أَتحدَّث عن شيءٍ من مساوئهم - في رأيي - فأُخَالفَ قولَ المصطفى عليه الصلاة والسلام: «اذْكُروا محاسِنَ مَوْتاكم وكُفُّوا عن مساوئهم[1]» ولكنني أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتغمد الجميع برحمته التي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ، وهذا لا يمنعني من أن أوضح بعض أمور تتعلق ببدايات نشر التعليم في نجد، والغاية من ذالك إيضاح ما أراه من الحقائق من الأسباب التي حالت دون تقدم هذه البلاد، في أقوى مرفق من مرافق حياتها وهو العلم.

لقد أَدركتُ أنه ليس في استطاعتي سوى إِبْدَاءِ بعضِ ما أراه من الوسائل لإصلاح حالة التعليم للأمير سعود - رحمه الله - وكان حريصاً على ذالك، بل كان يُلِحُّ بطلبه حينما أجتمع به، ويوليه جانباً من العناية والاهتمام، وقد يتصل بي رئيس ديوانه أو مستشاره ابن مُعَمَّرٍ، وإن كنت قد أَدْركتُ أنَّ ما يُتَّخَذُ حِيالَ ذالك ليس بذي أَثَرٍ مُجْدٍ لأُمورٍ أَهَمُّهَا: أن أكثر المحيطين به من مستشارين وغيرهم لايعنيهم من أمر انتشار التعليم الحديث في نجد. ومنها: أن الاتجاه العام بين سكان هذه المنطقة لَمْ يَتَأَثَّر بعدُ بوسائل الحياة الحديثة، ولا يزال كثير من ذوي الحلِّ والعقد فيهم يفضل عدم التغيير، فيما كان متوارثاً منذ أجيال عديدة في أساليب الحياة العامة، ومنها: أن المعنيين بالشؤون المالية لَمْ يُولُوا الناحية التعليمية ما هي جديرة به من حيث تقرير المبالغ الكافية لنشر التعليم نشراً قوياً.

كان مما قدمت من تقارير في هذا الشأن بتاريخ ٢٥ / ٢ / ١٣٦٩هـ

وبرقم (٦١) ما هذا نصه :

(حضرة صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم، أيده الله وأدام توفيقه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد ـ فلا يخفى سموكم ـ أعزكم الله ـ أن التعليم في مدارس نجد ضعيفٌ ضعفاً يحمل على الارتياب في الحصول على نتيجة طيبة ـ في زمن قصير ـ وقد ظهر لي أن لذالك عدة أسباب :

السبب الأول : بُعْدُ (مديرية المعارف العامة) عن نَجْدٍ بُعْدًا نَشَأَ عنه جهلها بحالة كثير من المدارس، وخاصة في القرى والبلدان النائية، يضاف إلى ذالك اشتغال مديرية المعارف بالتعليم الثانوي والعالي، وشؤون البعثات إلى الخارج، اشتغالاً استغرق جُلَّ وقتها، واستنفد أعظم مجهودها، فنشأ عن ذالك ضعفُ التعليم الأوَّلِيِّ والابتدائي ـ ولا سيما في نجد، وليس لهذا الأمر من علاج إلاَّ بإحدى ثلاث وسائل :

الأولى : أَنْ تُعَيِّنَ المعارف في المدارس مديرين ومعلمين من ذوي الكفاءات، وهذا من الأمور المتعذرة في الوقت الحاضر.

الثانية : أن تُعَيّن المعارف مفتشين جوَّالين يترددون على مدارس نجد في كل شهر مرة على الأقل، ويوجهون المدارس، ويرشدون موظفيها إلى طرق التعليم الصحيحة، ويرفعون ما يرون أن المصلحة تقضي برفعه من اقتراحات يعود تنفيذها بنفع لتلك المدارس ـ ولكن هذه الوسيلة قد يكون من الصعب تنفيذها لقلة الموظفين الأكفاء لدى المعارف مع ما يستلزم تعيينهم من مصاريف.

وأسهل من الوسيلتين السابقتين :

الثالثةُ: وهي تأسيس مجلس للمعارف في الرياض، للإشراف على مدارس نجد وتوجيهها، وتقرير ما يراه من جميع وسائل إصلاح التعليم، ويكون مُسَهِّلاً لمهمة مديرية المعارف العامة، ومعاضداً لها، وواسطة بينها وبين مدارس نجد. يختار سموكم له رئيساً وأعضاء ممن لهم من الصفات العلمية، والخبرة والدراية بشؤون التعليم والمعرفة بأحوال بلدان نجد وقراه ما يمكنهم من القيام بعملهم ومن أداء مهمتهم.

ولقد سبق أن صدرت الموافقة الملكية الكريمة في سنة ١٣٥٧هـ [١٩٣٧م]، بتأسيس مثل هذا المجلس في الأحساء، وكان من نتائج ذالك أن أصبح التعليم في تلك الجهة على درجة حسنة من التقدم، يضاف إلى ذالك اختيار مديرية المعارف لرجال ذوي كفاءة وإخلاص، ساعدوا على تقدم التعليم في تلك الناحية.

السبب الثاني: عدم كفاءة موظفي التعليم الحاليين، فكثير منهم لم يكملوا الدراسة الابتدائية، ولم يحصل لهم مِرَانٌ وتَدَرُّبٌ على مزاولة مهنة التعليم، بل منهم من لم يدخل المدارس أصلاً، وأَرَى أَنَّ الحلَّ العاجل المؤقت لهذه المشكلة هو انتداب أساتذة من خيرة المعلمين الموجودين في الحجاز مقدرة وأخلاقاً لكي يقوموا بتمرين موظفي التعليم، ويكون انتدابهم لمدة سنة واحدة دراسية، وهاؤلاء الأساتذة يوزعون على مدارس نجد، فيجعل في كل مدرسة لا يقل تلاميذها عن مئة واحداً منهم.

وينحصر عمل هاؤلاء الأساتذة المنتدبين في التوجيه والإرشاد إلى أسهل الطرق وأنفعها، وذالك بإلقاء محاضرات منظمة على المعلمين، في كيفية التدريس، وتطبيق التدريس بصورة عملية أمامهم، وينبغي أن يرغَّبَ المعلمون لتلقي إرشادات اؤلئك الأساتذة، والاستفادة بمعلوماتهم.

وذالك بتخصيص مكافآت مالية، وترقية وتقديم في الوظائف لمن يبدي تَفَوُّقاً ويظهرُ اسْتِعداداً يدل على انتفاعه بتلك الإرشادات.

السبب الثالث: عدم توفر الأدوات والكتب المدرسية في المدارس، ومن الواضح أن حالة أهل نجد تستلزم أن تتوفر في مدارسهم جميعُ ما يلزم لها من وسائل التعليم، لأنهم لم يصلوا بعدُ إلى الدرجة التي تجعلهم يدركون فائدة التعليم، ويستسهلون ما يصرفونه في سبيله، بل هم في حاجة إلى عمل الأسباب التي تحببهم، وترغبهم في إلحاق أبنائهم في المدارس، يضاف إلى ذالك أن كثيراً منهم في حالةِ فقرٍ لا تمكنهم من توفير ما يحتاجه أبناؤهم من كتب ولوازم مدرسية، ومديرية المعارف العامة تصرف قسطاً وافراً من موازنتها في سبيل الأدوات واللوازم المدرسية، فينبغي والحالة هذه أَنْ تَسُدَّ حاجة مدارس نجد من هذه الناحية وأن توليها شيئاً من العناية والملاحظة أكثر مما هي عليه الآن.

هذه ملاحظات أرجو أن تنال من موافقة سموكم ما هو معهود منكم ـ أطال الله عمركم ـ من حرص على كل أمر يعود على بلادكم بالنفع، وسَهَرٍ على ما يعلي شأن أمتكم).

وقد كتب سعود ـ رحمه الله ـ مع هذا التقرير كتاباً إلى فيصل ـ رحمه الله ـ برقم ٧٧٥ تاريخ ٥ / ٣ / ١٣٦٩هـ جاء فيه: (وبعد تجدون طيه الاقتراح المرفوع إلينا من حمد الجاسر معتمد المعارف بنجد حول الطرق التي ستؤدِّي إلى تقوية التعليم في نجد، وحيث إنه اقتراح طيب، فأنتم إن شاء الله تبحثون المسألة مع الشيخ محمد بن مانع وتفيدونا بما ترونه حول هذا الموضوع سريعاً احرصوا على ذالك غاية ما يكون، هذا ما لزم بيانه والسلام).

ثم أُحيل ذالك التقرير للمعارف فكان أن أصدر مجلس المعارف قرارا رقمه ٨١ وتاريخه٢٦ / ٤ / ١٣٦٩هـ ونصه: (اطلع مجلس المعارف على مذكرة معتمد المعارف بالرياض رقم ٦١ وتاريخ ٢٥ / ٢ / ١٣٦٩هـ المرفوعة منه لسمو ولي العهد المعظم والمحالة من المقام السامي، حول مقترحات المعتمد في إصلاح التعليم بنجد، وبعد دراستها قرر المجلس ما يلي:

أولاً: لقد مهَّد المعتمدُ لمقترحاته في هذا الصدد بقوله (إن التعليم في مدارس نجد ضعيف ضعفاً يحمل على الارتياب في الحصول على نتائج طيبة في زمن قصير)، ومجلس المعارف الذي يعلم حداثةَ إنشاء المدارس في نجد ـ يقرر أن التعليم في هذه المدارس سائرٌ ولله الحمد بخطوات موفقة، وحثيثة إلى الأمام، وستحصل منه النتائج الطيبة في زمن قصير إن شاء الله، لما هو ملموس من عناية أولي الأمر بنشر التعليم هناك، ثم لما تبذله المعارف إدارةً ومجلساً من جهود صادقة في هذا السبيل، وللاستعداد الموجود في ناشئة البلاد، ومما يؤكد حسن سير التعليم بنجد النتائج الطيبة التي ظهرت في اختبارات هذه المدارس عامة ومدارس الرياض خاصة، إذ كان النجاح حليف طلبتها في اختبار الشهادات الابتدائية، ولم يرسب فيها ولا واحد كما قررت لجنة الاختبارات في مكة.

وإنَّ الارتياب الذي أبداه معتمد المعارف في الرياض لا محل له في حقيقة الأمر الواقع، وما دامت النتائج ناطقة بهذا الشكل الحميد السار، فارتيابه هذا قد يكون عن عدم درايته بواقع أَمر هذه المدارس لحداثة عهد تعيينه معتمداً بالرياض، والنتائج والأرقام تشهد على خلاف قوله.

ثانياً: ويقول: (إنه ظهر له أن لضعف التعليم ثلاثة أسباب أولها بعد مديرية المعارف عن نجد بُعْداً نَشَأ عنه جهلها بحالة كثير من المدارس، وخاصة في القرى والبلدان النائية يضاف إلى ذالك اشتغالها بالتعليم الثانوي والعالي وشؤون البعثات إلى الخارج).

والمجلس يقرر أن مديرية المعارف ليستْ بعيدةً عن مدارس نجد، فإن سرعة المواصلات الحديثة، وانتظام ارتباط مديري المدارس بإدارة المعارف العامة، ووجود معتمدي المعارف بكل ناحية ومقاطعة، واتصال التقارير الفنية من المعتمدين والمديرين إلى الإدارة العامة للمعارف، ومَدّها إليهم وموالاة إرسال المعارف للمفتشين إلى نجد يستكشفون لها حالة مدارسها وينبئونها بجميع أحوالها، ويضعون التقارير والحلول للإصلاح المنشود ـ كل هذه الأشياء جعلت مدارس نجد بالنسبة للمعارف وجعلت المعارف بالنسبة لمدارس نجد حَلْقَةً متصلة بعضها ببعض على الدوام.

وأما ما أشار إليه معتمد المعارف بالرياض من اشتغال مديرية المعارف بشؤون التعليم الثانوي وحده فذالك أيضاً ما لا تقره الحقائق الملموسة، فإنَّ مديرية المعارف تُعْنَى بصفة خاصّةٍ بنشر التعليم بنجد بجميع أنواعه، وتُهَيِّئُ له من الوسائل الشيءَ الكثير، ولا يشغل عنه شاغل، ويكفي أن نقرر هنا أنها في عامين افتتحت أكثر من خمسين مدرسة ابتدائية وقروية وثانوية بنجد، وهَيَّأَتْ موازنتها، وزودتها بالأساتذة اللازمين وبالمديرين، وبكل ما يلزم لها من دور وكتب ومكاتب، وهي ماضية في خطتها بين كل فينة وأخرى تفتح المعارف مدرسة جديدة في نواحي نجد وقراها ومدنها، وهي خبيرة بها، وخاصة في القرى والبوادي كما هو مثبت ومعروف، وكل ذالك تنفيذاً للرغبة الملكية الكريمة،

وتوجيهات سمو ولي العهد المعظم، وسمو النائب العام، لأن هذه المدارس هي أساس التعليم الثانويّ والجامعي.

ثالثاً: ويفيد المعتمد بأنه يرى علاجاً لضعف التعليم بمدارس نجد إحدى ثلاث وسائل ويستهلها بقوله: (أَنْ تعين المعارف في المدارس مديرين ومعلمين من ذوي الكفاءات) ثم قال: (إن هذا من المتعذر في الوقت الحاضر لعدم وجود العدد الكافي من اؤلئك في البلاد) ويقرر المجلس أن المديرين والمعلمين الذين تعيّنهم المعارف بمدارس نجد على ثلاث طبقات: متخرجين من المدارس الابتدائية أو الثانوية ـ مصريين منتدبين أو فلسطينيين ـ أو من رشحه المشائخ، ولا تُعَيِّنُ المعارف أحداً منهم إلاَّ بعد الاطلاع على شهادته، ومنهم من تَخْتبره في الجهات النائية، والطبقتان الأوليان تقومان بألوان التعليم الحديث، والثانية تقوم بالتعليم الديني في المدارس. ويبرهن على كفاءة المعلمين والمديرين بمدارس نجد هذا النجاح المطرد في كل سنة في الاختبارات السنوية بها حتى إن مدارس الرياض ومدارس القصيم وحائل في اختبار عام ١٣٦٨هـ وهو آخر اختبار سنوي للشهادة الابتدائية لم يرسب منها ولا تلميذ واحد، مما لم يحصل له مثيل حتى في الحجاز.

ويقول المعتمد بعد ذالك: (إن من وسائل علاج ضعف التعليم أن تعين المعارف مفتشين جوالين يترددون على مدارس نجد في كل شهر مرة على الأقل ليوجهوا المدارس) ولكنه يعود فيقول: (وقد يكون من الصعب تنفيذ هذا لقلة الموظفين الأكفاء لدى المعارف، مع ما يستلزم تعيين هاؤلاء المفتشين من مصاريف كثيرة).

والمجلس يقرر أن ما اقترحه المعتمد قد حصل، فاقتراحه من حيث التعيين من تحصيل الحاصل، فإنَّ مديرية المعارف ـ وهي حريصة على نهضة التعليم بنجد كما هي حريصة على ذالك في عموم أنحاء المملكة ـ ماضيةٌ على انتداب مفتشيها إلى نجد بالتوالي والتتابع، وها هي الأرقام تنطِقُ بذالك، سافر إلى نجد في عام ١٣٦٨هـ المفتش صالح خُزامِي، وقام بجولة تفتيشية على مدارس نجد استغرقت نحو ثلاثة أشهر، ثم بعد عودته انتُدِبَ المفتش الأستاذ عبد العزيز بن مانع فقام بجولة تفتيشية على مدارس الرياض والدرعية وشقراء وأشيقر وغيرها، وأشرف على سير الاختبارات العامة في الرياض في هذا العام، وقام المفتش المصري المختص بالعلوم العربية والاجتماعية الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم برحلة إلى نجد وقد عاد أخيراً، وسيتوجه بعده المفتش المصري الأستاذ حسن عامر المختص بالعلوم الرياضية والموجود حالياً في الأحساء، وسيقوم بالإشراف على سير التعليم هناك، وسيقوم كذالك المفتش الثانوي الأستاذ محمد النجار المصري المنتدب برحلة توجيهية عامة لجميع المدارس الابتدائية والثانوية بنجد والأحساء، كما أن المفتش الديني الأستاذ عبد العزيز المانع توجه للتفتيش على مدارس نجد وعفيف وشقراء والدوادمي والوشم، ومن كل ذالك يظهر أن المعارف دائبة على إرسال مفتشيها الابتدائيين والثانويين والدينيين في ربوع نجد، بدون تقاعس، بصورة مثمرة متتابعة، ولولا هذه العناية البالغة بعد توفيق الله ثم حسن نية جلالة الملك وسمو ولي العهد المعظم لما أَثْمَرَتْ هذه المدارس ثمارها الملموسة مع حداثة عهدها بالإنشاء، وحداثة عهد نَجْدٍ بها.

وتأميناً لدوام حسن سير العمل في مدارس الرياض وما قاربها

يقترح المجلس بهذه المناسبة أن يجرى في مدارس الرياض ما أُجْرِيَ في غيرها بتشكيل (هيئة للإشراف على مدارسها) بنظر فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم، لأنها وقد ظهرت فوائدها في ضمان سير الدراسة قَمِيْنَةٌ بِأَنْ تُؤَلَّفَ أيضا في مدينة الرياض لهذا الغرض، تطبيقاً لقرار مجلس المعارف رقم ٥١ في ١٢ / ٦ / ١٣٦٧هـ المقترن بالتصديق السامي الخاص بمشروع نظامها المرفقة صورته.

رابعاً: ويقول المعتمد: (إن أسهل وسيلة لإصلاح التعليم بنجد هي تأسيس مجلس للمعارف بالرياض للإشراف على مدارس نجد وتوجيهها) وضرب مثلاً لإفادة هذا المجلس بمجلس الأَحساء الذي سبق أَنْ أُلِّفَ وهو المجلس الذي أُلْغِيَ بعد ذالك. ويقرر المجلس حيال ما ذكره المعتمد ما يلي:

١ ـ إن تأليف هيئة للإشراف المشار إليها بالرياض تقوم مقام المجلس الذي اقترحه المذكور في كل شيء، وحبذا لو وضع في جميع أنحاء المملكة.

٢ ـ إن استدلاله بتشكيل مجلس المعارف الْمُلْغَى في الأحساء استدلالٌ يخالف الواقع، ذالك أن هذا المجلس حينما أُلِّفَ كان عَقَبَةً في تقدم التعليم، فلقد أخر التعليم في الأحساء نتيجة الفوضى التي أحدثها، ونتيجة المشاغبات بين أعضائه، وقد عرقل سير التعليم وعرقل إشراف المعارف ونهضتها بمدارس الأحساء، فلم يحصل منه أيُّ نفعٍ، بل كانت منه أضرارٌ منها توظيف من لا يستحق التوظيف، وسَرَتْ فيه الأغراض، وحينما أُلْغِيَ وأُبْدِلَ به هيئات الإشراف نَهَضَتْ مدارس

الأحساء حتى حازت الأوليّة بين مدراس المملكة في النجاح كما هو مؤيد بالأرقام.

خامساً: ويقول المعتمد: (إن من أسباب ضعف التعليم عدم كفاءة موظفي المدارس الحاليين) ويرى الحل في انتداب أساتذة من خيرة الموجودين في الحجاز. ومجلس المعارف ينفي الشقَّ الأول من هذا الرأي، وقد سبق في هذا القرارِ أنْ أوضح أنواع من يقومون بالتدريس في نجد وأوصافهم، واشتراطات المعارف فيهم، كما أن المجلس يقرر حيال الشق الثاني وهو اقتراح انتداب أساتذة من خيرة الموجودين في الحجاز بأنه سبق أن اتخذت التدابير اللازمة لتحقيق ذالك، فالاقتراح إذَنْ من تحصيل الحاصل، وذالك حيث سبق أن قرر هذا المجلس انتدابَ ثلاثين مدرساً ابتدائياً من مصر لتوزيعهم على المدارس، تقويةً لها وتوجيهاً لمدرسيها. كما أنَّ المعارف طلبت من المقام السامي الموافقةَ على انتداب عشرين مدرساً من الفلسطينيين اللاجئين لهذه الغرض، وقد وصل بعضهم ووزع على المدارس، كما أن مجلس المعارف قرر برقم ٤٦ في ٢٠ / ٣ / ١٣٦٩هـ إنشاء مدارس للمعلمين في الرياض وعنيزة وبريدة، لتقوية الأساتذةِ في بعض العلوم، وقررت تخصيص مكافآت لهم لتشجيعهم على متابعةِ الدراسة، بموجب قراره المشفوعة صورته برقم ٢٢ في ١٠ / ٢ / ١٣٦٩هـ ويكفي لتثبت كفاءة مدرسي ومديري مدارس نجد قيام معهد عنيزة السعودي على نتائج هذه المدارس، كما أن جدول النتائج التالي لمدارس نجد منذ عام ١٣٦٦هـ حتى الآن دليلٌ واقع على تقدمها ونجاحها:

البلـــد	نتيجة عام ١٣٦٨		نتيجة عام ١٣٦٧		نتيجة عام ١٣٦٦	
	ناجحون	راسبون	ناجحون	راسبون	ناجحون	راسبون
الرياض	١١	١	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
بـريـدة	١٥	٢	٧	٠٠	٠٠	٠٠
عنيـــزة	١٢	٢	١١	٠٠	٠٠	٠٠
شـقـراء	٤	٠٠	٤	١	٤	٠٠
الـــرس	٠٠	٠٠	١٠	٠٠	٠٠	٠٠

سادسًا: ويقول: (إن من أسباب ضعف التعلم بنجد عدم توفر الأدوات الدراسية في مدارس نجد، ويقترح موالاة إرسال المعارف لذالك بكثرة إلى نجد)، والمجلس يقرر هنا أن ما اقترحه المعتمد في هذا الشأن قد سبق أَنْ نُفِّذَ، ولايزال تنفيذه مستمراً باتِّسَاعٍ، فإن المعارف دائبة على إرسال كل الأدوات والكتب اللازمة لمدارس نجد إلى أَبْعَد حَدٍّ بقدر تتسع له ميزانيتها، نظراً لما ترغب فيه وتسعى إليه من نهضة التعليم، وتدعيمها ومساعدة طلاب العلم، وحفزهم إلى تلقيه، وتشجيعهم وترغيبهم فيه امتثالاً للرغبة الملكية العالية وتنفيذًا للتوجيهات السامية من لدن حضرة صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم، وحضرة صاحب السمو الملكي النائب العام المعظم حفظهم الله. وعلى ذالك جرى التوقيع).

رئيس مجلس المعارف: محمد بن مانع، أعضاء: محمد أحمد شطا ـ عبد القدوس الأنصاري ـ عبد المؤمن مجلد ـ أحمد العربي.

لا بأس من الوقوف في تقرير المعارف هذا حول بعض ما ورد فيه ومنها: اقتراح تشكيل هيئة للإشراف على المدارس بنظر فضيلة الشيخ

محمد بن إبراهيم، الأمر الذي سبق لمجلس المعارف تقريره برقم ٥١ في ٢ / ١٢ / ١٣٦٧هـ، ويبدو أن الشيخ ـ رحمه الله ـ لم يوافق عليه.

لقد كانت المعارف حين أبلغها سعود ـ رحمه الله ـ تعييني في العمل وأبدت عدم كفاءتي اقترحت في الوقت نفسه إرجاع الأمر للشيخ محمد، ليختار من يراه أصلح مني، فأوضح سعود بأن تعييني كان بعد موافقة الشيخ، غير أن المعارف لم تقنع بهذا، فأرسلت برقية للملك تأثر منها سعود، وأبلغها بانتهاء الأمر بتعييني في العمل بموافقة من الملك ومن الشيخ، وما كانت غايةُ المعارف فيما يبدو الإساءةَ إليَّ وإنما لاقْتناع مديرها بأن من الخير لأهل نجد أن يتجهوا للدراسة الدينية، خشية من أن تتأثر عقائدهم وأخلاقهم، وما كان هذا الرأْيُ خَاصًّا بمدير المعارف، فلا أزال أذكر أنني بعد أن استقرَّ عملي في الرياض، كان أحد كبار رجال الدولة قد أحضر ثلاث مدرسات فلسطينيات لبناته، فطلب مني وضع منهج لتلك الدراسة، ثم طلب إعداد المواد المقررة للتدريس، فكان ذالك، وكان يبعث إليَّ في فترات متقاربة لكي أُبْدِيَ شيئاً من التوجيه للمدرسات، وأُشْرِفَ على بعض نتائج عملهنَّ، وحدث أن غبت عن الرياض أَحَدَ عشر يومًا لفتح مدارس في الحوطة وفي الأفلاج، فلما عدت سألني عن سبب غيابي، فأخبرته فبادرني بقوله : لا خير لنا في هذه المدارس التي تفتح، ومن أراد العلم فليحضُرْ لِتَلَقِّيْهِ عن الشيخ محمد بن إبراهيم، فقلت له : حَقًّا الأُمَّةُ بحاجةٍ إلى العلوم الدينية، كما أنها بحاجة إلى أن يكون فيها طبيب ومهندس وغيرهما من العلماء الآخرين، وأنتم إذا حدث خلل في آلة التكييف أو في مولدات الكهرباء اتصلتم بشركة (أرامكو) ولم

تتصلوا بالشيخ، والله سبحانه وتعالى أنزل على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام حين صارت وفود العرب تتسابق للقدوم إليه في المدينة لتلقِّي أمور دينها عنه عليه الصلاة والسلام، أنزل الله عليه ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[٢].

لقد أدركت المعارف في عهد السيد طاهر الدباغ صعوبة نشر التعليم في نجد، لعدم وجود المعلمين الأكفاء من أبناء البلاد أنفسهم، ففكرت بفتح مدرسة لتلك الغاية، يوضع لها منهج خاص، ويلحق بالدراسة فيها بعض الشبان النابهين من أهل البلاد، ليستفاد منهم بعد تخرجهم في شغل وظائف التعليم في مدارسهم، إلاَّ أَنَّ الفكرة صُرِفَت عن الغاية من تلك المدرسة[٣] بعد الموافقة على إنشائها لغاية أخرى، وما كانَ مُتَوَقَّعًا بعد عهد الدباغ أن تتغير النظرة إلى التعليم الحديث عما كانَتْ عليه بالنسبة لعلماء هذه البلاد، ومنهم من وقف معارضًا للشيخ حافظ وهبة أول مَنْ وَكَلَ إليه الملكُ عبد العزيز ـ رحمهما الله ـ الإشراف على التعليم ، حين حاول إصلاحه بتقرير بعض العلوم الحديثة في المدارس[٤].

ولم توجد بعد حوافز للمواطنين أنفسهم تدفع إلى تغييرها، لا سيما وقد مضى على فتح المدارس بينهم أكثر من عشر سنوات لم يروا لها أثراً نافعاً.

وإذَنْ فما الذي تستطيع المعارف في هذا العهد أن تفعله أكثر من أن يقرر مجلسها برقم ٥١ تاريخ ١٢ / ٦ / ١٣٦٧هـ ثم أَيَّدَ هذا القرار

برقم ٨١ تاريخ ٢٦ / ٤ / ١٣٦٩هـ بأن تؤلف هيئةٌ للإشراف على مدارس الرياض بنظر فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم، أي إن المعارف لم تجد أَيَّةَ وسيلةٍ من وسائل إصلاح التعليم إلاَّ في التخلي عن تبعته وإسناده ليكون تحت إشراف العلماء، ولهاؤلاء أن يقرروا حياله ما يرون، ولو كان ذالك في إلغاء ما يرون إلغاءه من منهج الدراسة كما حدث بالنسبة لعلمي (تقويم البلدان) و (الهندسة)، ومع ذالك فلا مانع من أن تمنح المعارف شهادة (إكمال الدراسة الابتدائية) لمن تعلم في هذه المدارس، وإن لم يدرس هذين العلمين، كما حدث لتلاميذ المدرسة السعودية في الرياض في اختبار عام ١٣٦٨هـ الذي أشرف عليه أحد مفتشي المعارف، فنجح كل الطلاب الذين تقدموا وعددهم أَحَدَ عشر، وشهدت لهم المعارف بأنهم (أكملوا الدراسة الابتدائية) بل عَدَّتْ هذا الأمر مما يبرهن على كفاءة معلمي ومديري مدارس نجد (إذ لم يرسب ولا تلميذ واحد(!) مما لم يحصل له مثيل حتى في الحجاز) كذا في البند الثالث من التقرير.

يضاف إلى ما تقدم أن أكثر القائمين على شؤون تلك المدارس إدارة أو تدريساً ـ إن لم يكن كلهم ـ هم ممن طلب العلم على المشايخ، ممن لم يسبق له أن درس دراسة منظمة، والأخ الذي كتب تقرير مجلس المعارف لم يُراعِ الدقَّةَ في ذكر عدد المدارس، حيث جاء في ذالك التقرير في الفقرة الثانية في التدليل على ما تبذله المعارف من جهد: (يكفي أن نقرر هنا أنها في عامين افتتحت أكثر من خمسين مدرسة ابتدائية وقروية وثانوية في نجد).

ولعل الأخ الكاتب خلط بين مدارس نجد وغيرها، إذ يفهم مما جاء في الفقرة الثالثة من التقرير ما نصه: (إن المفتش الديني الأستاذ عبد العزيز المانع توجه للتفتيش على مدارس نجد، وعفيف، وشقراء، والدوادمي والوشم)، يفهم من هذا أنه يجهل ما يراد بـ(نجد) حيث ظن الوشم والدوادمي وشقراء وعفيف ليست داخلة في مسمى نجد.

والغريب أن يتكرر هذا الخطأ من المعارف مرة أخرى، فقد جاء في جريدة «البلاد السعودية[٥]» أي بعد كتابة التقرير بزمن يسير: (وبلغ عدد المدارس التي تم افتتاحها منذ العام الماضي أكثر من ستين مدرسة ما بين ابتدائية وقروية منها حوالي أربعين مدرسة في نجد، ووادي الدواسر وأفلاج(!)، وسدير، والمحمل والوشن(!)، والقصيم، وحايل، والباقية في منطقة عسير والمدينة والجوف، وفي العاصمة ونواحيها وجدة، وكان مستوى التعليم في مدارس نجد أرقى منه في أي جهة، حتى إن نسبة النجاح في اختبار الشهادة الابتدائية للعام الماضي كانت (١٠٠٪) في أكثر مدارس نجد) انتهى.

وفي تقرير مجلس المعارف في الفقرة الأولى منه: (ومما يؤكد حسن سير التعليم في نَجْد النتائج الطيبة التي ظهرت في اختبارات هذه المدارس عامة ومدارس الرياض خاصة، إذ كان النجاح حليف طلبتها في اختبار الشهادات الابتدائية ولم يرسب ولا واحد «كذا!» كما قررت لجنة الاختبارات في مكة) انتهى.

مع أنه ورد في جدول نتائج الاختبارات في التقرير المشار إليه بأن عدد الطلاب الناجحين (٣٧) وعدد الراسبين (٥) أي إنَّ نسبة الرسوب

(٢٢٪) يضاف إلى هذا أن طلاب مدرسة الرياض الذين ذكر التقرير أن الناجحين أحد عشر، لم يكملوا دراسة المنهج الابتدائي المقرر فكيف يُعَدُّوْنَ ناجحين، وهم لم يدرسوا (تقويم البلدان) ولا (الهندسة) وقد حضر اختبار هاؤلاء أحد مفتشي المعارف.

والواقع أن جميع المدارس التي تحت إشراف معتمد المعارف في نجد إحدى وثلاثون مدرسة[٦] بين ابتدائية وقروية، وليس فيها ثانوية واحدة، وقد مضى على افتتاح بعضها ما يقرب من عشر سنوات، إذ فتح كثير منها في عهد السيد طاهر الدباغ.

ومثل هذا ما جاء في الفقرة الثالثة من التقرير ونصه: (ويقرر المجلس أن المديرين والمعلمين الذين تعينهم المعارف بمدارس نجد على ثلاث طبقات متخرجين من المدارس الابتدائية أو الثانوية ـ مصريين منتدبين أو فلسطينيين ـ أو من رشحه المشايخ، والطبقتان الأُوْلَيَان تقومان بألوان التعليم الحديث، والثانية تقوم بالتعليم الديني في المدارس).

وحقيقة الأمر أن مديري المدارس ومعلميها، جُلُّهُمْ ـ إن لم يكن كلهم حين كتابة التقرير ـ ممن لم تسبق لهم دراسة منظمة وحديثة، وإنما تلقوا العلم على المشايخ، ولا يوجد من بينهم مصريون أو فلسطينيون، استثناء مدرستي أبناء الملك وولي عهده، وهما ليستا تابعتين للمعارف.

الحواشي:

(١) : انظر تخريج هذا الحديث في كتاب « كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث عن ألسنة الناس » ـ ج١ ص ١١٤ الطبعة الرابعة.

(٢) : سورة التوبة ـ الآية ١٢٢ ـ .

(٣) : هي دار التوحيد.

(٤) : انظر كتاب «جزيرة العرب في القرن العشرين» لحافظ وهبة ص١٢٦ الطبعة الثانية .

(٥) : عدد رقم ٧٧٦ تاريخ ١٣٦٩/٣/٢٩هـ .

(٦) : انظر السانحة التي بعد هذا.

أحاديث عن بدايات التعليم الحديث في نجد (٢)*

منذ قابلت الشيخ محمدَ بنَ إبراهيم[١] حين قدمت من الظهران أحسست من حسن مقابلته رغبته القوية في العناية بشؤون التعليم، وحرصه على أن يثمر الثمرة المرجوة منه بتنظيم المدارس، واختيار المعلمين الذين يُرْجَى من ورائهم نفع، وأدركت أنه لم يكن ممن ينظر إلى التعليم الحديث نظرةً سيئة، في حَدِّ ذاته، وإنما كان يحاذر أن يكون وسيلة من الوسائل التي تؤثر في أخلاق النشء حينما يُعْهَدُ التدريس إلى من ليس متحلِّياً بالصفات التي جاءت الأوامر الشرعية بالتحلي بها، أو متخلقاً بالأخلاق الحميدة، ومحافظاً على التقيد بالآداب والعادات الفاضلة، كعادة كثير ممن يَقْدُم من خارج البلاد، ومتى تم اختيار المدرسين الموثوق بهم من ناحية العقيدة، والتخلق بالأخلاق الفاضلة، والظهور بالمظهر اللائق بهم، فإنه لا يرى ما يمنع من الاتفاق مع هاؤلاء للعمل في وظائف التدريس.

كما أدركت حين عرضْتُ عليه موضوع تدريس عِلْمَي (تقويم البلدان) و(الهندسة) موافقتهُ على ذالك، وأنه لا يعارض في تدريس أي علم من العلوم، ما لم يكن فيه مصادمة لأمر من الأمور الشرعية.

وقد اتضح أن من الخير لي إِذَا أَردتُّ أن يكون عملي ذَا أَثَرٍ نافع أَنْ أُقَوِّيَ صلتي بالشيخ، فله مكانته بين مختلف طبقات المجتمع، ومنزلته في نفوس ولاة الأمور، وصفته العلمية التي لا تُجْهَل، كما أنَّ جُلَّ

---

* المجلة العربية، العدد (٢٠٠)، رمضان ١٤١٤هـ/ شباط وآذار ١٩٩٤م، والعدد (٢٠١)، شوال ١٤١٤هـ/ آذار ونيسان ١٩٩٤م.

موظَّفي التعليم من تلامذته، ومن الممكن متى تَمَّ توجيههم الوجهة النافعة أَنْ يُستفاد منهم، بل من الممكن أيضاً أن يكون للشيخ من الأثر ما يُمَكِّنُ من إصلاح التعليم في المدارس، وذالك فيما لو وافق على إنشاء معهد دِيْنِي يُمِدُّ المدارسَ بمن يتخرج منه للعمل في التدريس، ومثل هاؤلاء سيكونون خيراً ممن يُؤْتى به من خارج البلاد، وقد تكون دراستهم في هذا المعهد حافزاً لهم على مواصلة الدراسة في الجامعات، ومن ثَمَّ يكونون ذَا أَثَرٍ في الإِسهام بنشر العلم في هذه البلاد، بِشَكْلٍ أَعَمَّ وأشمل.

ومن هنا كان من أول ما فكرتُ فيه هذا الأمر، وقد فاتحت الشيخ في الموضوع ولكنه قال: إن هذا راجع لولاة الأمور، وقد أدركت أَنَّ الفكرة في إنشاء مثل هذا المعهد قد اختمرت في ذهنه قبل أن أفاتحه بالأمر[٢]، ولما حَدَّثْتُ سعوداً ـ رحمه الله ـ بما جرى بيني وبين الشيخ أمرني بأن أكتب له عن ذالك فقدمْت له تقريراً رقمه (٦١) وتاريخه ٢٨ / ٢ / ١٣٦٩هـ [١٨ / ١٢ / ١٩٤٩م]. ونصه:

(حضرة صاحب السمو ولي العهد المعظم. أدام الله توفيقه وتأييده. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد ـ فإن ما أعلمه عن سموكم ـ أطال الله عمركم ـ من الرغبة القوية في فعل كل أمر يعود على أمتكم وبلادكم بالصلاح، وما اشتهر عن سموكم من الاهتمام العظيم، والحرص الشديد على إعلاء شأن رعيتكم، والسهر على مصالحها، هو الذي دفعني إلى أن أرفع لسموكم اقتراحاً يتعلق بإصلاح التعليم في نجد، وأنا واثق بأن ينال من عناية سموكم وملاحظتكم بقدر ماله من الأهمية، وبقدر ما عرف عن سموكم من محبة في فعل الخير ورغبة في الإصلاح.

من المعلوم أن جميع بلدان نجد أصبحت الآن في أشد الحاجة إلى رجال اتصفوا بالصفات الآتية :

(١) علماء درسوا العلوم الدينية دراسة وافية ، ونالوا من معرفة العلوم العربية قِسْطاً وافراً ، وأدركوا من بقية الفنون الأخرى ما لابُدَّ منه ، لكي يقوم هاؤلاء العلماء بالوظائف الدينية قياماً نافعاً ، ولكي يُؤَدُّوْهَا على وجهها الصحيح ، مثل أعمال المحاكم الشرعية ، والوعظ والإرشاد والإمامة وتدريس العلوم الدينية ، وحث الأمة على التمسك بآداب الدين الإسلامي الحنيف ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة .

(٢) مدرِّسين ومديرين للمدارس ، يحسنون طرق التربية والتعليم ، إحساناً يمكِّنهم من سدِّ حاجة مدارس نجد ، والاستغناء بهم عن غيرهم .

(٣) رجال يتخصصون في الفنون والعلوم الأخرى التي أصبحت البلاد الآن عالةً على الأجانب فيها ، مع شدة الحاجة إلى تلك العلوم ، كالطب والهندسة والاقتصاد السياسي والزراعة وغيرها .

ومن الواضح الجلي أنه لا يمكن الحصول على جميع أولئك الرجال ما لم يُؤسَّسْ معهدٌ في مدينة الرياض ، التي هي العاصمة الثانية للمملكة ، والتي يجب أَنْ تُولَى من العناية ما يتناسب مع ما لها من مركز اجتماعي ، ومكانة مهمة .

وينبغي أن يحتوي ذالك المعهد على ثلاثة أقسام :

أ ـ قسم التخصص الديني : لدراسة العلوم الدينية دراسة واسعة ، مع ما تمسُّ الحاجة إليه من العلوم العربية وغيرها ، ويقتبس منهج الدراسة في هذا القسم من مِنْهَاجَيْ (دار التوحيد) و (كلية الشريعة) ويكتفى

به في الرياض عن الإلحاق بالمدرستين المذكورتين، حيث إن كثيراً من الطلبة لا يرغبون في مغادرة أهلهم وأوطانهم.

ب ـ قسم المعلمين: ويدرس في هذا القسم التربية وعلم النفس ـ أي معرفة طرق التدريس النافعة، ودراسة غرائز الأطفال، وأحوال الطلبة ـ ويكون هذا القسم متمشياً على منهج (المعهد العلمي) بمكة، مع اختزال بعض المواد والفنون التي لا ضرورة لتدريسها في الوقت الحاضر، ومراعاة توسيع منهج الدراسة تدريجياً.

جـ ـ قسم البعثات: ويكون هذا القسم مطابقاً لمنهج الدراسة بمدرسة (تحضير البعثات) في جميع المواد، إذ المفروض في طلبة هذا القسم أن يكونوا ممن أكمل جميع مواد الدراسة الثانوية ليتسنَّى قبولهم في الكليات العالية.

وقد يقال: بأن تأسيس هذا المعهد الآن يعترضه أمران: أحدهما عدم وجود الأساتذة الأكفاء للتدريس في جميع أقسامه، من أهل البلاد، وأن المعلمين الذين يُؤْتَى بهم من الخارج كثيراً ما تكون بعض أحوالهم وعاداتهم وأخلاقهم مُغَايِرَةً لما عليه هذه البلاد من المحافظة على الآداب الإسلامية، والعادات والتقاليد العربية، ولكن متى أدركنا أَن مثل هذه العلوم المذكورة أصبح تعلمها من الأمور الضرورية، ومتى أدركنا أيضاً أَنَّ تأسيسَ مدارس في بلادنا تحت إشرافنا ورقابتنا خَيرٌ من إرسال أبنائنا إلى بلاد تغاير طباع أهلها وأخلاقهم طباعنا وأخلاقنا، ومتى أدركنا أننا سوف لا نبقى في عزلتنا وبُعدنا عن العالم، ولابُدَّ من الاختلاط والاتصال سواء رغبنا ورضينا أو كرهنا، ومتى أدركنا أن من الممكن وجود أساتذة أكفاء يوثق بدينهم وأخلاقهم وعاداتهم في البلاد العربية إذا روعيت

طريقة الاختيار، إذا أدركنا جميع ما تقدم إدراكاً صحيحاً تبين لنا أن مسألة وجود المعلمين ميسورة جداً، وأنَّ جلب معلمين من الخارج هُو وإنْ كان يُخْشَى أن يترتب عليه ضرر، إلاَّ أنَّ ضرر الجهل أعظم، وارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما قاعدة من قواعد الشريعة، مع ملاحظة أن لدينا من العلماء في نجد من يسدُّ حاجة القسم الديني، ومع ملاحظة أن هذا المعهد سيكون تحت إشراف رئيس العلماء في الرياض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

ثانيهما: عدم وجود طلبة في الوقت الحاضر مع عدم الرغبة في الاستمرار لإكمال الدراسة، ولكن هذا الأمر أيسر من الأول بكثير، فالقسم الديني من المعهد ينبغي أن يُقْبَلَ فيه كلُّ إنسانٍ لديه مباديء في العلوم الدينية، وله من الصفات ما يمكّنه من الاستفادة والانتفاع، من ناحية صغر السن وشدة الرغبة وقوة الفهم، وطلبة قسم المعلمين يُختارون من الشبان الذين درسوا في المدارس الابتدائية ممن اتصفوا بصفات تؤهلهم للاشتغال بالتعليم، ويوجد ممن بهذه الصفة من العدد ما يكفي لفتح هذا القسم الآن، أما قسم البعثات فينبغي أن لا يلحق به إلاَّ من حاز الشهادة الابتدائية، ومن المؤمل أن يحوزها في هذا العام في مدارس الرياض وغيرها ما يكوِّنُ فَصْلاً واحداً ثم في كل سنة يُفْتَحُ فصلٌ آخر حتى يكمل العدد المطلوب.

أما ترغيب الطلبة لكي يلتحقوا بأقسام هذا المعهد، ولكي يواصلوا دراستهم فهذا أمرٌ لا بُدَّ منه وذالك بعمل ما يلي:

أولاً: تأسيس قسم داخلي تابع لهذا المعهد، يقوم بما يلزم للطلبة من مأكل وملبس، كما هو الحال في (المعهد العلمي) و(مدرسة تحضير

البعثات) بمكة و(معهد عنيزة)، مع ملاحظة عَدَمِ قَصْرِ قبول الالتحاق بالقسم الداخلي على الغرباء، بل يدخل فيه كل راغب من الطلبة ولو لم يكن غريباً.

ثانياً: تخصيص راتب شهري لمن لا يرغب الالتحاق بالقسم الداخلي، لا يَقِلُّ عَمَّا خُصِّصَ لطلبة (كلية الشريعة) بمكة.

ثالثاً: توفير الأدوات والكتب المدرسية التي يحتاجها الطلبة وصرفها لهم مجاناً.

هذا ما رأيت رفعه لسموكم بصورة مجملة مع استعدادي لإيضاح كل ما أجملته، وإنَّ لي من عظيم الثقة بالله ثم بسموكم، ومن قَوِي الرجاء ما يحملني على الاعتقاد بِأَنَّ هذا الأمر سيحوز موافقة سموكم على سرعة تنفيذه، والمبادرة إلى اتخاذ ما يلزم للشروع فيه من الأسباب.

والله المسؤول أن يديم لسموكم العز والسعادة في الدارين، وأن يوفقكم للخير والصلاح. معتمد المعارف في نجد).

فصدر من سعود ـ رحمه الله ـ برقم ٧٤٥ تاريخ ٢ / ٣ / ١٣٦٩هـ [كانون الأول ١٩٤٩م] ما نصه:

(من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى جناب المكرم الشيخ محمد بن إبراهيم سلمه الله تعالى. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فلا يخفى عليكم أننا أمرنا بتعيين حمد الجاسر معتمداً للمعارف بنجد، لأنه من أهل نجد، ومعروف عنه بأنه صاحب دين، وأخلاق طيبة، ورجل مخلص، والقصد من ذالك تقوية التعليم في نجد مع المحافظة على الدين والأخلاق، والعادات الطيبة، وقد

قدم لنا المذكور اقتراحاً بفتح معهد في الرياض، وهو اقتراح طَيِّب، وسيكون له نتائج طيبة إن شاء الله، ولكن نحن لا نحب نوافق على شيء ما لم تطلعوا عليه، وتروه موافقاً، والاقتراح تجدونه برفق هذا.

نأمل اطلاعكم عليه، وإفادتنا عن ما ترونه في ذالك، حفظكم الله ووفق الجميع لما فيه خير الإسلام والمسلمين. هذا ما لزم تعريفه والسلام).

وتدعو المناسبة لِسرد أسماء المدارس التي افتتحت في نجد في خلال اثنتي عشرة سنة، منذ سنة ١٣٥٩هـ [١٩٤٠م] إلى سنة ١٣٧١هـ [١٩٥١م] ـ أي من ابتداء عهد نشر التعليم الحديث في هذه البلاد، باستثناء مدارس القصيم ومنطقتي حائل والجوف، فقد أُسْنِدَ الإشراف عليها لغير معتمد المعارف في نجد.

١ ـ المدرسة العزيزية في الرياض، ومديرها علي بن محمد المُطْلَق من تلاميذ الشيخ محمد، وفيها أحد عشر مُدرساً وأربعة من الخدم.

٢ ـ المدرسة السعودية في الرياض (دار الأيتام)، مديرها محمد أحمد عاشور المعاون، درس في مدرسة ينبع، وفي المدرسة أحد عشر مُدرساً وأربعة من الخدم.

٣ ـ المدرسة الأهلية في الرياض مديرها عبد الله بن إبراهيم آل سليم من تلاميذ المشايخ آل سليم في بريدة، وفي المدرسة تسعة عشر مُدرساً وثمانية من الخدم على ما ذُكِرَ لي(٣).

٤ ـ مدرسة الرياض الرابعة، ومديرها صالح الرُّزَيْزَاء من تلاميذ المشايخ، وفيها ثمانية مدرسين وخادمان.

٥ ـ مدرسة الرياض الخامسة، ومديرها عبد الرحمن أبو بكر من تلاميذ المشايخ وفيها أربعة مدرسين.

٦ ـ مدرسة الدرعية، ومديرها عبد الله الديميغ من تلاميذ المشائخ، ومعه ثلاثة مدرسين.

٧ ـ مدرسة الباطن، ومديرها عبد الله الطويل ومعه مُدرسان.

٨ ـ مدرسة عرقة، ومديرها محمد بن عبد الله السدحان ومعه مُدرس واحد.

٩ ـ مدرسة السَّيْح في الخرج، ومديرها عبد الوهاب كلنتن، درس في الحرم الشريف، ومعه خمسة مدرسين.

١٠ ـ مدرسة الدلَم، ومديرها صالح بن حسين، من تلاميذ الشيخ ابن باز، ومعه خمسة مدرسين.

١١ ـ مدرسة اليمامة، ومديرها محمد بن زيد ومعه مُدرس واحد.

١٢ ـ مدرسة المحمَّدي، ومديرها عبد اللطيف بن محمد بن شُدَيِّد، ومعه مُدرسان.

١٣ ـ مدرسة المجمعة، ومديرها عثمان الحقيل المعاون من تلاميذ الشيخ العنقري، ومعه ثمانية مدرسين وثلاثة خدم.

١٤ ـ مدرسة حَرْمَةَ ومديرها محمد بن مقحم من تلاميذ الشيخ العنقري، ومعه ثلاثة مدرسين.

١٥ ـ مدرسة الغاط، ومديرها أحمد العلي ومعه خمسة مدرسين.

١٦ ـ مدرسة الزُّلْفِي، ومديرها محمد السليمان الذُّيَيْب ومعه خمسة مدرسين.

١٧ ـ مدرسة تادق، ومديرها سلطان الحمد معاون، ومعه ثلاثة مدرسين.

١٨ ـ مدرسة روضة سُدَيْر، ومديرها عبد المحسن أَبَا بُطَيْن، ومعه ثلاثة مدرسين.

١٩ ـ مدرسة جلاجل، ومديرها منصور بن عمران، ومعه مدرسان.

٢٠ ـ مدرسة السَّلَمِيَّة في الخرج، ومديرها أحمد عرفة، ومعه ثلاثة مدرسين.

٢١ ـ مدرسة شقراء، ومديرها عبد الرحمن بن عبد الله معاون، ومعه عشرة مدرسين وخمسة خدم.

٢٢ ـ مدرسة أُشَيْقِر ، ومديرها عبد العزيز الفُرَيْح ومعه أربعة مدرسين.
٢٣ ـ مدرسة مراة، ومديرها عبد الله الزَّوْم، ومعه أربعة مدرسين.
٢٤ ـ مدرسة الدَّوادِمِي، ومديرها عبد العزيز المزيني، ومعه ستة مدرسين.
٢٥ ـ مدرسة الشعراء ، ومديرها عبد العزيز بن عيفان، ومعه أربعة مدرسين.
٢٦ـ مدرسة القويعية، ومديرها محمد بن صالح المطلق معاون، ومعه مدرس.
٢٧ـ مدرسة حُرَيْمِلاء، ومديرها محمد مختار، ومعه مدرسان.
٢٨ـ مدرسة سَدُوْس، ومديرها عبد العزيز بن علي بن سالم، ومعه مدرس.
٢٩ـ مدرسة الحوطة، ومديرها سليمان بن أحمد، ومعه مدرس.
٣٠ ـ مدرسة الأفلاج، ومديرها زيد بن محمد، ومعه مدرس.
٣١ ـ مدرسة وادي الدواسر، ومديرها سعيد بن سَلِيم، ومعه ثلاثة مدرسين.
٣٢ ـ مدرسة عَفَيف، ومديرها صالح بن خُزَيِّم، ومعه مدرس.
٣٣ ـ مدرسة ترَبَة، ومديرها محمد الطيب بن يوسف، ومعه مدرس واحد.

هي ثلاث وثلاثون مدرسة بين ابتدائية وقروية وليس من بينها ثانوية، ومديروها والمدرسون فيها ممن لم يسبق له أن تخرج في مدرسة ابتدائية، وإن كان لدى بعضهم من التحصيل العلمي الديني ما يبلغ مستوى طلاب الثانوية إن لم يَفُقْهُ. ومن بين هذه المدارس خمس عشرة مدرسة فُتحت فيما بين ٣ / ٤ / ١٣٦٩هـ و ٧ / ٧ / ١٣٦٩هـ بأمر من ولي العهد الأمير سعود ـ رحمه الله ـ وأُثِّثَتْ من قِبل مالية الرياض وهي: مدارس الروضة وضَرَمَى وعَرْقَة والدِّرْعِيَّة والباطِن والْحُلْوَة والحوطة وجُلاجل والشَّعْرَاء وأُشَيْقِر والأفلاج ووادِي الدواسر وحُرَيْمِلاءَ وسَدُوْس والمُحَمَّدي.

ومن هنا يتضح أن عدد المدارس المفتوحة حتَّى كتابة تقرير المعارف ثماني عشرة مدرسة، لا كما جاء في التقرير من أن مديرية المعارف في

عامين افتتحت أكثر من خمسين مدرسة ابتدائية وقروية وثانوية بنجد.

والواقع أن هذا العدد لو صحَّ لكان في جميع مدارس المملكة حسبما أوضحت المعارف نفسها في جريدة «أم القرى»[٤] حيث قالت بالنص: (وقد فتحت مديرية المعارف في هذا العام والذي قبله أكثر من ستين مدرسة ابتدائيةً وقروية في الحجاز، وعسير، ونجد وأكثرها في نجد، وقد اختارتْ لها الأساتذة الأقوياء).

ويبقى التساؤل عَمَّا لهذه المدارس التي شملت أغلب المناطق من الأثر، ولا داعي للإطالة في الحديث عن ذالك.

ويكفي عرض جدول نتائج اختبار الدراسة لتلك المدارس منذ إنشائها حتى هذا العام، وهو ما وضعته المعارف في تقريرها، ووصفته بأنه دليل واقع على تقدم تلك المدارس ونجاحها وإثبات كفاءة مدرسي ومديري مدارس نجد.

لن يجد القاريء في ذالك الجدول سوى مدرستين اثنتين من كل المدارس التي تقدم ذكرها هما اللتان أكمل بعضُ طلابهما الدراسة الابتدائية، وهما مدرسة شقراء التي كانت نتيجة طلابها في السنوات الثلاث (١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨هـ) نجاح أربعة في كل سنة، والمدرسة السعودية التي نجح من أوائل طلابها سنة ١٣٦٨هـ أحد عشر تلميذاً تقدم الحديث حول نجاحهم[٥].

أما مدرسة شقراء فقد هيأ الله لها مديراً ذا كفاءة في علمه، وإخلاص في عمله، وقصد صالح، وجدٍّ واجتهادٍ هو الشيخ عبدالمجيد حسن[٦] الذي عيّن سنة ١٣٥٩هـ في عهد السيد طاهر الدباغ لفتح المدرسة، فاختار من إخوانه وممن يثق به نخبة طيبة، ووجد من تعاون أهل مدينة

شقراء ومساعدتهم ما كان خيرَ عونٍ له هو وإخوانه لأن تصبح مدرسة شقراء في مقدمة مدارس المملكة.

ولعل مما يلاحظ بين هذه المدارس عدم ذكر مدرسة واحدة في إحدى هُجَرِ أبناء البادية الذين كانوا يزيدون على نصف السكان في ذالك العهد[٧]، وكان هذا الأمر مما لفتَّ إليه نظر سعود ـ رحمه الله ـ وأوضحت له أن كثيراً من الحوادث التي تقع من بعض أبناء البادية تنشأ عن أمرين لا ثالث لهما. أولهما: الجهل، والثاني: الفقر، فإذا استطاعت الدولة أن تعالج المشكلة الأولى فمن المحقق أن أبناء البادية سليمو الفطرة نَقِيُّو الطبيعة، يحملون قلوباً طيبة، فمتى أدركوا من العلم ما يُقوِّمُونَ به أخلاقهم فإنَّ ما يُنسب إليهم من حوادث سيزول، وبِدُوْنِ ذالك لا ينفع العنف ولا الشدة إذا لم تكن هناك قناعة ثابتة في النفس، تحول دون ارتكاب المحظورات، وتلك القناعة لا تَتِمُّ إلاَّ بالعلم.

وقد قدمت بهذا تقريراً برقم ٦٢ تاريخ ٢٥ / ٢ / ١٣٦٩هـ هذا [١٥ / ١٢ / ١٩٤٩م] نصه: (حضرة صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم ـ أيده الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وأسأل الله جلَّ وعلا أن يديم لسموكم السعادة والهناء في الدنيا والآخرة، وبعد:

فإن ما رأيته من اهتمام سموكم بنشر العلم، وتعميمه بين مختلف طبقات الأمة قد دفعني إلى أن أرفع لسموكم عن موضوع من المواضيع التي لها صلة وثيقة ومساس قويٌّ بهذه الناحية.

لا يخفى سموكم، أطال الله عمركم، أن البادية في نجد يكوّنون جزءاً كبيراً من السكان، وأن لهم وعليهم من الحقوق والواجبات مثل غيرهم،

وأنهم قد أصبحوا على جانب عظيم من الجهل بمباديء الدين الضرورية، وأن الواجب الديني يقضي باتخاذ الوسائل التي تمكّنهم من معرفة أمور دينهم، ومعرفة بعض العلوم التي فيها صلاح دنياهم.

ولا يخفى سموكم أطال الله حياتكم أن تعليم البادية هذه الأمور فيه عدة منافع ـ منها: قطع جذور الشرِّ المتأصلة في طبيعة البدوي من السلب والنهب، تلك الجذور لدى البعض التي وإن أخفاها العجز أو غيره في بعض الأحيان فكثيراً ما تظهرها القوة، أو شدة الحاجة ونحوها.

والتعليم الصحيح يهذِّبُ النفوس ويوجهها نحو الخير، ومنها أن تعليم البادية وسيلة من وسائل تحضرهم، ومعرفتهم بطرق كسب معايشهم، وبقاؤهم على بداوتهم سبب من الأسباب التي تجعلهم في كثير من الأوقات عالَةً محتاجين لطلب المعيشة من أحقر الطرق، ومن المعلوم أنه ليس من الممكن تأسيس مدارس للبادية في الوقت الحاضر، ولا إنشاء مدارس متجولة كما أُنْشِئَتْ في بعض البلاد العربية، ولذالك فإن خير طريقة، وأنجع وسيلة هي فتح قسم داخلي في إحدى مدارس الرياض، لا يقبل فيه إلاّ أبناء البادية الذين يرغبون في التعليم، وأَنا وَاثِقٌ بِأَنَّ الإقبالَ على هذا القسم سيكون قويًّا، وخاصة إذا استعملت طريقة الترغيب بسهولة ويسر، وبدون إرغام أو إكراه، ولعله مما يسر سموكم أن تعلموا، أطال الله حياتكم، أنه سبق أن جُرِّبَتْ هذه الطريقة، ففي سنة ١٣٥٢هـ [١٩٣٣م] صدر أمر من حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بإدخال بعض أبناء بادية ينبع في المدرسة، وأن يخصص لهم ما يكفي للإنفاق عليهم وإيوائهم، وقد واظب بعضهم على التعلم حتى أصبحوا الآن يتولون كثيراً من الوظائف المهمة، كما

أن حالة بادية الحجاز من ناحية التعليم أحسن بكثير من حالة بادية نجد، ففي رابغ مدرسةٌ جُلُّ تلاميذها من أبناء البادية، وفي المسيجيد مدرسة كل تلاميذها منهم، وتبذل الحكومة الجليلة مساعدات طيبة لهاتين المدرستين، هذا مارأيت إيضاحه لسموكم بدافع الإخلاص، واثقاً بأنه سينالَ من العناية ما يكون سبباً للنظر بعين العطف والرعاية إلى قسم كبير من رعيتكم، هم في أشد الحاجة إلى ذالك.

أدام الله عزّكم وتوفيقكم. معتمد المعارف).

قد يقال: وما جَدْوَى هذه التقارير وولي العهد في تلك الفترة مَعْنِيٌّ بتصريف شؤون الدولة العليا عناية تحمله على الاعتماد على من أُسْنِدَتْ إليهم النواحي الأخرى من ذوي الاختصاص، كُلٌّ في مجال عمله، وقد اتضح ذالك من موقف المعارف حيال ما تتقدم به من آراء؟

والواقع أنني كنت قد أدركت هذا الأمر من جميع نواحيه قبل الْمَجِيءِ إلى الرياض لتولّي العمل، ولكن ماذا أفعل، وقد بذلت ما في وسعي لتدرك المعارف وغيرها أنني بعد أَنْ كُلِّفْتُ بعملي أرغب أداءه على خير وجه أستطيعه، وأنا في الوقت نفسه أُدْرِكُ إدراكاً تامًّا أن هذا لا يتسنَّى لي مالم أجد من المعارف خيرَ عَوْنٍ على ذالك، وأن تدركَ عن يقين بأنني لست أرغب التعاون معها فحسب، بل إنني أعُدُّ نفسي أقلَّ وأَضْعَفَ من أن يكون لي أيُّ أثر نافع مالم أجد من مؤازرتها ما يمكنني من القيام به، ولهذا كان أَوَّلَ ما قمتُ به حين أدركت من ولي العهد تصميماً على إسناد ذالك العمل إليَّ، أن سافرتُ إلى مكة، وأوضحتُ لمدير المعارف أنني أَعُدُّ نفسي ابْناً من أبنائه، وأحاول في كل ما أعمل أن أنال رضاه، وحسن توجيهه، بل رغبت منه ما هو فوق ذالك، وهو

إقناع ولي العهد لاختيار غيري، ولكنه ـ تغمده الله بواسع مغفرته ـ أظهر لي الارتياح من تعييني، ووعد بأن لا يضنّ بأيٍّ توجيه أو إرشاد أو فعلٍ، يسدِّدُ سَيْرِي في أداء عملي على الوجه الأكمل، فكان أن عَبَّرْتُ له عن بالغ سروري، وأبدَيْت ارتياحي على موقفه مني، وحين عُدتُّ إلى الرياض بعثت له كتاباً خاصًّا برقم ١٣١ تاريخ ٨ / ٣ / ١٣٦٩هـ [٢٧ / ١٢ / ١٩٤٩م] كما بعثت في الموضوع كتاباً للأستاذ عبدالمؤمن مجلد، المعروفة مكانته لدى الشيخ، وتأثيره في توجيه أمور المعارف بتاريخ ٩ / ٣ / ١٣٦٩هـ فأجابني بكتاب يفيض رقة ولطفاً بتاريخ ١٩ / ٣ / ١٣٦٩هـ جاء فيه: (أُفْهِمُ حضرتكم بأن الوضع الذي اتفقنا عليه قبل سفركم لا يزال مُتَّبَعاً، ولا زالتْ مديرية المعارف تعرف لكم مكانتكم، وتقدِّرُ لكم كريم معاونتكم، وثقتها بكم لا تَقفُ عندَ حدٍّ، وهي ترجو لكم كل خير وإصلاح، هذا عدا تقديري الخاص لشخصيتكم الكريمة، وما تتصفون به من سُمُوٍّ في الأخلاق، ورفعة في المواهب لمستها فيكم أثناء معرفتي الطويلة بكم).

وكنت قد فهمت من الشيخ حين اجتماعي به ومن موظفي المعارف أنه ليس من المستطاع في الوقت الحاضر اتخاذ أي أمر من الأمور التي تؤثر في سير التعليم، من إحداث وظائف، أو فتح مدارس، أو انتداب مدرسين من الخارج لمدارس نجد، مما ليس مقرراً في موازنة هذا العام، التي وُضِعَتْ من قِبَلِ (وزارة المالية) مالم يصدر أمر سامٍ حول إجراء بعض إصلاحات في التعليم، مع تخصيص ما يلزم لتلك الإصلاحات من المصروفات التي تُقِرُّهَا (وزارة المالية)، كما فهمت أن المعارف تريد مني أن أعمل ما أستطيع مما يحفز لتحقيق شَيْءٍ من ذالك بطريقتي الخاصة،

وهذا ما دفعني إلى تقديم ما قدمت من تقارير إلى ولي العهد، بل لم أَكْتَفِ بذالك فقد كتبت إلى فيصل ـ رحمه الله ـ، وإلى وزير المالية وإلى وكيل الوزارة وغيرهم ممن توسمت فيه بذل جهد في هذا السبيل.

وهذا نص ما كتبت إلى الشيخ بعد عودتي من الرياض واطمئناني برضاه عني:

(حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا العلامة الجليل الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع. حفظه الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأسأل الله جل وعلا أن يديم لفضيلتكم خيري الدارَيْنِ، وأن يطيل عمركم، لتواصلوا خدماتكم النافعة وعملكم الموفق، وسعيكم المبارك إن شاء الله في خدمة الإسلام والمسلمين، وبعد، أطال الله عمركم:

لقد وصلت الرياض، وكررت الزيارة لمدارسها ومدارس ما حولها من القرى، ولم أتمكَّن بَعْدُ من زيارة بقية مدارس نجد حيث إن السيارة التي طلبتِ المعارفُ من الوزارة تخصيصها لمعتمد نجد لم تصل إلى الآن، وقد أبرق سمو ولي العهد المعظم أطال الله عمره إلى الوزارة بسرعة إرسالها. ولقد رأيت من سموه ـ أعزه الله ـ حرصاً شديداً ورغبةً قويَّة في تعميم التعليم، وفي فعل كل أمر يعود على البلاد بالخير والصلاح.

وقد أمرني سموه أطال الله عمره أن أكتب تقريراً عن طرق إصلاح التعليم، لكي يرسله إلى فضيلتكم، فكتبت تقريراً مختصراً، مبنياً على ما شاهدته، وأدركته من حالة تأخر التعليم، وقد أحببت إطلاع فضيلتكم عليه، خوفاً من أن يتأخر إرساله، فأرفقت بهذا صورةً منه لتطلعوا فضيلتكم وَحْدَكُمْ عليها.

والحقيقة ـ يا صاحب الفضيلة ـ أن حالة التعليم في نجد سَيِّئَةٌ جدًّا، ومديرية المعارف العامة مَعْذُورةٌ لعدة أسباب منها: قلة رواتب موظفي التعليم، ومنها: عدم الأَكْفَاءِ الذين يرغبون في وظائف التعليم، و منها: ثقة مديرية المعارف ببعض المديرين حِيْنَمَا يرشحون بعض الأشخاص الذين لا يقصدون بترشحيهم إِلاَّ منفعتهم الخاصة، وغير ذالك من الأسباب التي لا تخفى على فضيلتكم، وإنني أعرف من مديري مدارس نجد من لا يحسن كتابة الكتاب (الخط)، كما أعرف من المديرين ـ في القصيم ـ من عَيَّنَ أباه وأَخَوَيْهِ في الإدارة والتدريس، وفيهم من هو أُمِّيٌّ أو شبيه الأُمِّيِّ، فأيَّةُ فائدة ترجى من أمثال هاؤلاء؟!

إنني ـ يا سيدي الجليل ـ أُعتقد أَنَّ فضيلتكم لم تَدَّخِرُوا ـ ولن تَدَّخِروا ـ وُسْعاً في سبيل إنهاض التعليم في جميع أنحاء المملكة، ولكنني أرجو من فضيلتكم ما يرجوه كل عربي مسلم ذُوْ غَيْرةٍ ووطنيةٍ، وذالك بأن تحظى مدارس نجد بلفتةٍ من لفتاتكم، وأن تنظروا إلى التعليم في تلك البلاد نظرة خاصَّةً، لأنكم ـ أطال الله عمركم ـ قد بذلتم من الهمة والنشاط، والاهتمام ما أبلغ التعليم في الحجاز إلى درجة عَلِيَّةٍ، بحيث أُنْشِئت فيه كلياتٌ عالية، وتعلمون حفظكم الله أنَّ نجدًا إلى الآن لم يوجد فيه تعليمٌ أَوَّلِيٌّ ابتدائي منظَّمٌ، ونَجْدُ صِنْوُ الحجاز، وجزء من البلاد التي يجب أن ينظر إليها نظرة واحدة شاملة، والشخص الذي له ابنان أَحَدُهُمَا قويُّ الجسم نشيط، والثاني ينخر المرض جسمه، يقضي الْعَدْلُ أن يُوْلِيَ ذالك المريض عنايةً خاصة.

وإنني أبتهل إلى الله ليديمَ لفضيلتكم الخير، وأن يوفقكم لما فيه

الصلاح. وتحيتي المقرونة بالتقدير لحضرات الأنجال المحترمين والله تعالى يرعاكم،

ابنكم حمد الجاسر. في ٨ / ٣ / ١٣٦٩هـ).

ويبدو أن الشيخ ـ رحمه الله ـ أَسْنَد كتابة الجواب لأحد موظفيه، خلاف ما توقعت من أن أتلقّى جواباً خاصًّا لا مذكرة رسمية رقمها ٣١٩ تاريخها ١٢ / ٣ / ١٣٦٩هـ ونصها:

حضرة الفاضل الأستاذ حمد الجاسر. معتمد المعارف بنجد، الموقر بعد التحية ـ وصل كتابكم رقم ١٣١ في ٨ / ٣ / ١٣٦٩هـ والنسخة المشفوعة به من التقرير الذي رفعتموه إلى سمو ولي العهد المعظم.

ونفيدكم أن ما تبذله هذه المديرية من جهود، وعناية بالتعليم الابتدائي أمرٌ كان ملموساً، وهذه الكثرة الكاثرة من المدارس الابتدائية التي قامت هذه المديرية بتأسيسها، وبالأخص في مدارس نجد لَتُشِيرُ إشَارةً واضحة كلَّ الوضوح إلى العناية التامة التي تبذلها هذه المديرية في سبيل التعليم الابتدائي، وما أشرتم إليه من أن حالة التعليم في نجد تَقِلُّ كثيراً عن حالته في الحجاز، فذالك لم يكن لعدم اهتمام هذه المديرية بمدارس الحجاز دون نجد، ولكن لأَنَّ التعليمَ في نجد حديثُ العهد، لم تمرَّ عليه السنون الطوال، التي مَرَّتْ على التعليم في الحجاز. وإنكم إذا تضافرتم معنا على ما نحن آخذون فيه من رفع مستوى التعليم بالمدارس، ومواصلة إرشادها وتوجيهها فسوف ترون آثار ذالك واضحةً لكل ذي عينين.

لم تُقَصِّرْ هذه المديرية في بعث المفتشين إلى بلاد نجد من حجازيين ومصريين، وهذا المفتش المصري عبد الفتاح بين ظهرانيكم الآنَ يُؤَدي مهمته، التوجيه والإرشاد، وسوف تزداد هذه الحركة بِتقَدُّم الزمن،

ومضافرة الحكومة، وتكاتف المخلصين معنا في العمل.

إننا لا نَوَدُّ رفع تقرير، وإنما نود العمل على كل ما يكفل إنهاض التعليم ورفع مستواه، نحبُّ الآن أن نكثر المدارس الابتدائية بنجد، ويرتفع شأنها حتى إذا أَنتجت الإنتاج الحسن نأخذ في فتح المدارس الثانوية هناك، ونبذل من الجهود ما بُذِلَ في التعليم الابتدائي، وبهذا نتمكن من التمهيد للتعليم العالي، وعندما رأينا استعداداً في مدارس عُنيزة للتعليم الثانوي قمنا بتأسيس المعهد.

قّدموا لنا كل ما تحتاجونه من طلبات لصالح التعليم، ورفع مستواه بنجد، ونحن مستعدون لإنجازها، إننا لا ندخر وسعاً في مساعدة كل حركة جِدِّيَّةٍ وكل عمل مُجْدٍ، واهتمامنا لا يقتصر على ناحية دون ناحية، بل نحن نبذل قُصَارَى وُسْعِنَا في تغذية كل جهة بكل ما هي في حاجة إليه، فاعملوا معنا،وكاتفونا حتى نصل جميعاً إلى أهدافنا، فبالجهود والأعمال تنال الآمال، والله من وراء القصد.

إن الحركةَ التعليميةَ بمدارس الأَحساء التي نوهتم عنها لم تكن من نتائج مجلس الأَحساء، وإنَّما قامتْ هذه الحركة بعد إلغاء ذالك المجلس، وكان إلغاؤه نتيجةَ الشغب والفوضى التي بالتعليم هناك، ولهذه المديرية نظر فيما تعالج به كل جهةٍ، ولديها من التجارب والخبرة ونصح الناصحين ما يحقق الأهداف، وهي لا تأنف من كل ذِكْرَى يتقدم بها المخلصون. وعلى الله قصد السبيل.

مدير المعارف العام. محمد بن مانع).

وكان مما كتبت به إلي وزير المالية عبد الله السليمان ـ رحمه الله ـ

بتاريخ ١٠ / ٣ / ١٣٦٩هـ [٢٩ / ١٢ / ١٩٤٩م] ما نصه : (وبعد فلاعتقادي أنه يَسُرُّ معاليكم ـ أطال الله عمركم ـ أن تعلموا أن أحد أبنائكم الذين شُمِلُوا بعطفكم ورعايتكم، وعاشوا مدة طويلة تحت كنفكم، قد اختاره سمو ولي العهد المعظم لوظيفة معتمد للمعارف في نجد.

ولقد باشرت تلك الوظيفة، ورأيت من اهتمام سموه ـ أعزه الله ـ لإنهاض مستوى التعليم في نجد ما يَسُرُّ كل وطني، مخلص لأُمَّتِه ولحكومته ولبلاده.

وحيث إن معاليكم ـ أطال الله عمركم ـ ممن يبذلون كل ما في وسعهم في فعل كل أمر يعود على الأمة وعلى البلاد بنفعٍ، تَرَسُّماً لخطى حضرة صاحب الجلالة الملك المصلح العظيم، وقياماً بما أوجب الله عليكم في خدمة بلادكم، ولقد بذلتم في كل سبيل نافع أَوْفَرَ قسط وأكمل نصيب وفق استطاعتكم، غير أنني أعرف عن معاليكم أنكم تستصغرون العظيم الذي تبذلونه في خدمة بلادكم، وتستقلون الكثير الذي تفعلونه في رفع مستوى أمتكم، وهذا ما دفعني إلى أَنْ أُشير لمعاليكم إِلَى أنَّ مدارس نجد في حالة سيئةٍ من التأخر، وقصدي من هذه الإشارة المجملة أن يحظى التعليم في نجد بلفتة من لفتاتكم السامية، وبنظرة صائبةٍ من سديد رأيكم مما به مساعدة وتشجيع لتلك المدارس، في جميع أمورها.

والله المسؤول أن يديم لمعاليكم خيري الدارين في ظل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم.

ابنكم : حمد الجاسر في ١٠ / ٣ / ١٣٦٩هـ .

فتلقيت منه برقم ٤٠٧ تاريخ ١٩ / ٣ / ١٣٦٩هـ كتاباً جاء فيه :

(وطلبكم إبداء المساعدات اللازمة نحوكم للنهوض بتلك المدارس

إلى مستواها اللائق بها، والتدرج بها في مدارج الكمال، والحقيقة إنه ليسعدنا أَنْ نساعدَ ونشجعَ على ذالك، ولهذا نَوَدُّ منكم الإفادة عن رأيكم فيما يُتَّخَذُ لتحقيق الفائدة المتوخاة[٨]).

فكان أن بعثت إليه تقريراً مفصلاً برقم ٨٥ تاريخ ٢٤ / ٤ / ١٣٦٩هـ خلاصته:

١ ـ قلة رواتب موظفي التعليم في نجد، بالنسبة إلى غلاء تكاليف المعيشة وإلى ضآلة تلك الرواتب عن اجتذاب رَغْبة من فيه كفاءة للقيام بالعمل في تلك المدارس، وأن سمو ولي العهد قد أمر المعارف بزيادة مرتبة في رواتب موظفي التعليم، وبعثت صورة من هذا، وطلبت أن تنال هذه المسألة من الوزير ما يكفل تحقيقها.

٢ ـ طلبت تعيين أساتذةٍ قديرين ليوجهوا المدارس ويرشدوا موظفيها إلى طرق التعليم النافعة، وهذا يتطلب تقرير ما يلزم لأولئك من الرواتب.

٣ ـ خلو المدارس من الأدوات المدرسية ومن الأثاث.

٤ ـ في موظفي التعليم من له أكثر من ثمانية شهور لم يصرف له راتب، وقد صرفت الرواتب لكثير من موظفي المملكة إلى نهاية ٨ / ٦ / ١٣٦٩هـ. إلى أمور أخرى تُعدُ ثانوية.

والواقع أَنَّ موقف الشيخ عبد الله السليمان حيال ما أوضحته كان كريماً، فقد أمر الوزارة بالموافقة على زيادة المرتبة في رواتب موظفي التعليم في نجد[٩].

وعندما أتى إلى مدينة الرياض تلك الأيام كتبت له كتاباً ذهب به اثنان من موظفي التعليم، هما صالح الخليفة وضحيان بن عبد العزيز، أوضحت فيه ما يشكو منه موظفو المدارس من تأخر رواتبهم، فاتصلَ بي الأَخَوَانِ مِنْ عِنْده، وقالا : إن الوزير يطلب الآن بيان مقدار رواتب

أربعة شهور، لجميع موظفي المدارس، فكان أن أخبرتهما بأن ذالك هو (مئة وثمانية وستون ألف ريال) فلم يعودا إلاَّ معهما نسخة من برقية الوزير لمدير مالية الأحساء بأن يصرف هذا المبلغ حالاً لمعتمد المعارف في الأحساء، فتم ذالك وتم بعثها إلى الرياض حيث جرى توزيعها على مستحقيها.

الحواشي:

(١) : هو صاحب الفضيلة علاّمة البلاد السعودية ومفتيها الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف ابن عبد الرحمن بن حسن بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهم الله ـ ولد سنة ١٣١١هـ وتلقى العلم على علماء الرياض وغيرهم من مشاهير علماء نجد في ذالك العهد، وتولى التدريس والإفتاء وإمامة الجامع والخطابة بعد وفاة عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف لما توفي سنة ١٣٣٩هـ، كما تولى اختيار القضاة في البلاد في عهد الملك عبد العزيز ومن بعده، وفي عهده أسست المحاكم الشرعية في نجد، فكان رئيسها وأسند إليه إنشاء مدارس للبنات فقام بذالك خير قيام، وأنشأ دار الإفتاء، وأصبح هو مفتي المملكة ومرجع الأعمال الشرعية فيها وتوفي في عام ١٣٨٩هـ تغمده الله بواسع رحمته.

(٢) : وقد حققها سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة وألف بفتح معهد الرياض العلمي.

(٣) : إذ لم يقدم لي أيُّ بيان عن عدد أساتذة مدرسته أو طلابه.

(٤) : «جريدة أم القرى» ـ عدد ١٢٩٥، تاريخ ١٣٦٩/٣/٩هـ.

(٥) : في الحلقة التي قبل هذه.

(٦) : الشيخ عبد المجيد حسن من أجلة العلماء، تولى القضاء في المدينة المنورة، ثم عيّن في هيئة كبار العلماء حتى أعجزه المرض عن القيام بعمله، وهو والد الدكتور أنور عبد المجيد الجبرتي وكيل وزارة الصحة والمشرف على مستشفى الملك فيصل التخصصي الآن.

(٧) : حسب إحصائهم في كتاب «قلب جزيرة العرب» لفؤاد حمزة إذ جعل نسبتهم إلى الحضر ٦٧٪.

(٨) : صورة كتاب الوزير .

(٩) : وجرى تنفيذ هـذا من غرة محرم سنة ١٣٦٩هـ كما جاء في مذكرة وزارة المعارف رقم ٧١٠٣ تاريخ ١٣٦٩/٦/١٣هـ لوزير المالية تنفيذاً لكتاب النيابة للوزارة برقم ٧١٢٧ تاريخ ١٣٦٩/٩/٢هـ وتنفيذاً لأمر ولي العهد رقم ٩٤٩٤ في ١٣٦٩/٥/١٥هـ.

أحاديث عن بدايات التعليم الحديث في نجد (٣) *

على المرءِ أنْ يسعَى إلى الخيرِ جُهْدَهُ　　　وليسَ عليهِ أنْ تَتِمَّ المطالبُ

وهكذا أنا فقد سعيت جهدي، وبذلت ما أستطيع بذله مما أراه نافعاً، وأبديت لمن بيدهم الحل والعقد ما اتضح لي أنه من الوسائل التي بها تستقيم مسيرة التعليم للوجهة الصالحة لتؤتي ثمارها، ولن تبلغ بي الثقة في نفسي أنني أسير على هدىً في كل ما فعلت، غير أنني لم أدخر وسعاً في إرادة الخير في ذالك عن نية صادقة في جميع ما أوضحته.

ولن أطيل بإيراد ما حاولت به معالجة بعض الشؤون الأخرى من تقارير، بل أكتفي بالإشارة إلى ما صدر من سعود ـ رحمه الله ـ الموافقة عليه منها، والكتابة إلى المعارف بذالك:

(أ): صدر أمره برقم ٨٦٢ تاريخ ١٢ / ٣ / ١٣٦٩هـ [٣١ / ١٢ / ١٩٤٩م] بمايلي: ـ

١ـ فتح مدرسة ليلية لتعليم الأُمِّيين الكبار مباديء القراءة والكتابة.

٢ـ فتح مدرسة ليلية لتمرين الأساتذة على طرق التدريس.

٣ـ تخصيص إعانة شهرية لفقراء تلاميذ المدارس بنجد مثل ما يصرف لبعض المدارس الأخرى.

٤ـ تزويد المدارس بالمقررات المدرسية.

٥ـ فتح مدارس في المدن والقرى التي لم تفتح فيها مدارس وهي بحاجة إلى ذالك.

---

* المجلة العربية، العدد (٢٠٢)، ذو القعدة ١٤١٤هـ / نيسان ـ أيار ١٩٩٤م.

(ب) : وصدر أمره برقم ١٨٤٢ تاريخ ١١ / ٨ / ١٣٦٩هـ بفتح مدرسة ثانوية في الرياض على غرار (تحضير البعثات) بمكة في بداية السنة الدراسية .

(ج) : وصدر أمره برقم ١٨٤١ تاريخ ١١ / ٨ / ١٣٦٩هـ بفتح معهد في شقراء مثل معهد عنيزة في بداية السنة الدراسية ـ انظر الصورة رقم ٢ ـ.

وأمر ـ رحمه الله ـ المعارف بالتباحث معي فيما ينبغي اتخاذه لتحقيق ذالك ، فأبدت المعارف عدم استطاعتها ذالك في الوقت الحاضر .

ولقد كان في إمكان سعود ـ رحمه الله ـ أن لا يقف عند حدٍّ أمر المعارف ، لأنه يدرك عجزها عن تنفيذ ما يطلب منها ، إذْ موازنة التعليم محددة ، ما لم يصدر أمر سام لوزارة المالية بزيادة تلك الموازنة ، وفق ما يطلب من إحداث في شؤون التعليم ، وقد يكون موقفه ـ رحمه الله ـ من هذا الأمر ما كان معروفا من هيمنة وزير المالية على جميع شؤون مصروفات الدولة ، بتوجيه من الملك ، وسعود لا يريد إثارة ما قد يحدث في نفس والده أثرا لا يتلاءم مع كبر سنه ، وتأثر صحته ، ومهما يكن فإن جميع مرافق الدولة الأخرى في ذالك العهد لم يحدث فيها كبير تطور مع اشتداد الحاجة إلى ذالك .

أما ما حاولته من حيث إصلاح سير تلك المدارس المنتشرة في القرى والمدن فقد اعترضتني صعوبات أخرى ، لم أستطع اجتيازها ، منها بل لعله أشدها عدم التعاون بيني وبين بعض مديري تلك المدارس ، فقد أدرك هاؤلاء أنني عُيِّنْتُ في العمل بدون رغبة من المعارف نفسها التي رشحت للقيام به أحدهم ، ثم ما كان من موقفها معهم بحيث كانت

تتصل ببعضهم، وتُكَلِّفُهُ القيام ببعض الأعمال التي هي من اختصاص (معتمد المعارف)، وكانت تُعَيِّنُ في الوظائف، وتصرف جميع رواتب موظفي التعليم على أساس ما يقدم لها بعض مديري المدارس من بيانات، وتتلقى جداول الحضور والغياب منهم، ولا يعلم (المعتمد) شيئاً عن ذالك، وقد نشأ عن هذا :

١ ـ غياب كثير من موظفي تلك المدارس وخاصة من مديريها عن أعمالهم، فقد يغيب أحدهم الشهر الكامل متعللاً بأن معاون المدرسة يقوم بعمله، أو أنه أخذ إجازة من المعارف، وينشأ عن هذا أن يسير المدرسون سيرته، والتلاميذ من باب أولى.

زرت يوم سبت إحدى مدراس الخرج، وكان الوقت قبيل الظهر، فلم أجد مدير المدرسة فيها، ولما سألت عنه قيل: إن من عادته الذهاب إلى الرياض يوم الخميس لزيارة أهله ولا يعود إلا يوم السبت، ولكنه تأخر هذا اليوم، وأَسَرَّ لي أحد المدرسين على انفراد بأنه لا يحضر إلا مرة أو مرتين في الشهر، فكتبت له كتاباً لكي يأتي إليَّ في الرياض، فلمّا سألته عن سبب غيابه قال : إنه قد استأذن من ولي العهد بأن يبقى عند أهله في الرياض ثلاثة أيام في الأسبوع، فرجوته أن يواظب، واستوضحت من ديوان ولي العهد عن قوله، فكان الجواب: نفي ذالك، وأنه يجب أن يُعامل كما يُعامل غيره، فكتبت له كتاباً بهذا، ورجوته أَنْ لا أزور المدرسة فأجده غائباً، وحينما زرتها بعد عشرة أيام علمت بأنه لا يزال على حالته، فكان أن كتبت إلى الديوان بذالك، فتلقيت أمراً بفصله، فبقي في الرياض، وراتبه يصل إليه من المعارف مع إبلاغها بما تم بشأنه.

وزرت مدرسة أخرى في الرياض فلم أجد من معلميها إلا أقل من

النصف، ولمّا استوضحت من المدير قال: إن أكثرهم من أهل القصيم، وهم يذهبون يوم الخميس لقضاء يوم الجمعة عند أهلهم، ومن هنا تأخروا هذا اليوم بسبب عدم انتظام المواصلات.

وعلمت فيما بعد أن المدير نفسه يغيب كثيراً من الأيام، فلمّا عاتبته أجاب: بأنه استجاز من المعارف، وعلاج هذا الأمر لا يكون ناجعاً بدون أن يُقتَطع من راتب الموظف مبلغٌ يوازي مرتب أيام غيابه، فإذا تكرر الغياب بدون عذر يفصل من العمل، إلا أن رواتب جميع موظفي مدارس نجد تُصْرف من قبل المعارف، وتبعث من مكة إلى مديري تلك المدارس، ولا أعرف شيئاً عنها، لا من حيث المقدار، ولا من حيث عدد موظفي المدارس، وحينما أُبلِغ المعارف بما يحدث من حيث الغياب، قد تكتفي بأن تكتب إلى مدير المدرسة: نحيل إليك المكاتبة الواردة لنا من معتمد المعارف ونرغب بعد الاطلاع الإفادة. (مذكرة المعارف رقم (٢٧١) في ٢٤ / ٢ / ١٣٧٠).

وحينما أوضحت لديوان ولي العهد ما ينشأ من خلل في سير التعليم بسبب غياب أحد موظفي المدرسة، تلقيت كتاباً رقمه (٩٩٤) في ٢٥ / ٣ / ١٣٦٩هـ ينص على أنه لا يسمح لأيٍّ من موظفي التعليم بنجد بمغادرة أعمالهم إلا بإجازة رسمية محددة من قبلنا، ومبلّغة إلى الموظف من طريق معتمدية المعارف في نجد.

ومع أنني أوضحت للديوان أن ليس من المناسب إشغال سعود ـ رحمه الله ـ بمثل هذه الأمور، وأن من الأَوْفق أن تبلغ المعارف بأن يكون صرف رواتب موظفي التعليم في نجد عن طريق معتمد المعارف، إلا أن المعارف لم تُعِرْ هذا الأمر أَيَّ اهتمام.

٢ ـ ومشكلة أخرى: هي عدم التقيد بمنهج الدراسة، بحيث إن بعض مديري المدارس أَلْغَى تدريس بعض المواد الدارسية المقررة في المنهج، وأقرَّ الاستعاضة عنها بغيرها، وحجة هاؤلاء أنه لا يوجد في المدرسة من يستطيع القيام بتدريس تلك العلوم كـ(الخط)، و(الهندسة) مثلاً.

وقد لفتُّ نظر المعارف إلى هذا، وطلبت مدرسين لبعض المدارس لتلك العلوم، فوعَدت المعارف خيراً عند بداية السنة الجديدة، ودخلت السنة الجديدة وانتهت والحالة هي هي.

ولا داعي للاسترسال بذكر بعض ما عانَيْتُ من بعض موظفي التعليم، مما قد يعاني مثله أو أَشَدَّ منه من أُسْنِدَ إليه عملٌ من الأعمال العامة التي لها صلة بالمجتمع، وهي لا تزال في بدايتها.

ومع ذالك فلا أزالُ أَستعيد في الذاكرة أجملَ الذكريات لكثير من الإخوة الذين عرفت فيهم الوفاء والإخلاص في أداء عملهم، والحرصَ على أن يبذلوا الوسعَ ما استطاعوا، للقيام به على خير ما يقدرون عليه.

ولكنني لا أستطيع أن أَنْسَى ولا أَنْ أتجاهل مواقف آخرين، بدا لي من تصرفاتهم ما يحملني ـ وأنا أتحدث عن أمور مضت وانقضت ـ على الاعتقاد بأن تلك التصرفات كان لها من الآثار السيئة في عرقلة سير حركة التعليم في ذالك الوقت، ولا أَجِدُ غضاضةً أن أُشِيْرَ إلى بعضها، وفي استطاعة من نُسِبَتْ إليه ممن لا يزال على قيد الحياة، اتخاذ الموقف الذي يحلو له حيال ما ذكرت.

هما مُدِيْرَا مدرستين من كبريات مدارس المنطقة، يتمتعان بمكانة حسنة في مجتمعهما، فقد أدركا من جوانب المعرفة ما أهَّلَهُمَا لتلك المكانة، واستطاعا بما أُوتيا من ذكاءٍ تصريف ما يسند إليهما القيام به

من الأعمال ـ على ما يهويان ـ بقدرة ودهاء.

أحدهما أُسْندت إليه إدارة مدرسة أُنشئت لمناسبة خاصة، دفعت إلى الاهتمام بجميع شؤونها، بطريقة غير معهودة، فكان أَن اخْتِيْرَ لإدارتها عن غير طريق المعارف، إنه من أُسرة علمية معروفة، ومعروف في بلده بمزاولة بعض أعمال التدريس وغيره، وهو على درجة من المحافظة على ما عُرف عن أُسْرته من حسن السمت، والظهور في المظهر الحسن، فَدُعِيَ من بلدته لتُسند إليه إدارة المدرسة، فلم يكن بالسهل الانقياد، بل أَبْدَى تَمَنُّعاً، وأخيراً استجاب بعد أَن اطْمَأَنَّ بتحقيق رغباته الخاصة، التي تكفل له العيش ـ بعيداً عن بلدته وأسرته ـ براحة واطمئنان، كما فُوِّضَ إليه ـ وفْقَ ما طلب ـ أن يتولى تعيين العدد الكافي للعمل معه في المدرسة، التي بُنِيَ لها بناءٌ خاص، يتلاءم بتنظيمه وسعته مع المناسبة التي أُنْشِئَت المدرسة من أجلها.

وفُتحت المدرسة، وبلغ عدد تلاميذها ـ بقول مديرها ـ نحو الألف، و قيل لي: إن عدد موظفيها ١٩، وفيها من الخدم ثمانية، وخصص حيوانان اثنان (حماران) لإخراج الماء من البئر، للوضوء للصلوات، تدفع مالية الرياض للقيام عليهما ألف ريال في الشهر، ولم أستطع التثبت من ذالك، فجداول الأسماء تبعث للمعارف، سواء منها ما يتعلق بعدد الطلاب أو بتسجيل حضور وغياب الأساتذة وبيان عددهم.

مضت سنوات على فتح هذه المدرسة بتلك الصورة، ومع أَنَّ المعارف عينت قبلي مُعتمدَيْنِ للمعارف، أولهما: صالح خُزَامِي، ـ فترة قصيرة ـ ثم عُين مفتشاً، وثانيهما: عبد المالك الطرابلسي، إلا أن المعارف لم تقرر لعملهما مَقَرّاً، ولم تُهَيِّء لهما وسيلة للتنقل بين المدارس، فكان

مكثهما في الرياض زمناً قصيراً بعيدَيْنِ عن إثارة ما قد يكون سبباً بارتباطهما بالبقاء مدة أطول، ومدرسة (فلان) مثَالٌ يُحْتَذَى في التقدم، كأخلاقه التي تكاد تسيل رقَّةً وعذوبةً، وهكذا تصورتُ حين قدمت الرياض، فلصق بي الرجل، وجذبني بما كان يُظهر لي من تودّد، وما يبديه من لطف، بحيث أَسْنَدْتُ إليه بعض الأعمال، كاستئجار مقر للمعتمدية وتأثيثه، وغير ذالك من أمور خاصة بي.

كان أَنْ زرت تلك المدرسة فاستغربْتُ قلة التلاميذ، ولم أر من المدرسين سوى ستة، فكانَ جواب المدير أن المدرسين أغلبهم من القصيم، فهم يقضون آخرَ الأسبوع هناك، وقد يتأخرون بسبب عدم انتظام المواصلات، أما التلاميذ، فمع اشتداد البرد أكثرهم مرضى، ولم أطمئن إلى هذا الجواب، فطلبت تقديم بيان صحيح بعددهم، فتلكأ فترة، وبعد إلحاح بعث لي بياناً أوضح فيه أن مجموع العدد (٥٨٢) طالباً ، ولكنني قمت بزيارة أخرى مفاجئة للمدرسة، فوجدت فيها سبعة مدرسين، ومن التلاميذ في جميع الفصول أقل من مئتين.

والغريب في الأمر أنني حين عاتبته على عدم الدقة فيما قدم لي عن عدد الطلاب، علّل هذا بأنه قدم الحقيقة، إلاَّ أنَّ كثيراً منهم كان يتأخر عن الحضور، ولهذا فسيفصل ما يقرب من مئتي طالب(!!) .

أدْرَكْتُ أن سوء الإدارة في هذه المدرسة شاملٌ لكل ما يجري فيها، ولن تقنع المعارف مني فيما أقدمه لها، فهي توليه من الثقة أكثر مما تولي مديري المدارس الأخرى، فقد تكلفه بتأثيت بعض المدارس ، وقد أسندت إليه إدارة المدرسة الليلية التي طَلَبْتُ فتحها لتمرين موظفي المدارس على طرق التدريس الحديثة، فكان ذالك سبباً لفشلها، إذْ أَنف مديرو المدارس وأساتذتهم من أن يكونوا مرؤوسين لإنسان يعرفونه

حَقَّ المعرفة ، وهو لا يمتازِ عليهم بأيِّ صفة من الصفات، وقد رشح لإدارة هذه المدرسة من قبل مدير مدرسة أبناء ولي العهد.

طلبت من المعارف بعث مفتش يقوم بجولة على مدارس الرياض، وأرافقه في زيارة بعض مدارس المدن الأخرى، فاستجابتْ لذالك، وبعثت السيد إبراهيم نوري(١) كبير مفتشي المعارف، فوصل الرياض، فاستقبلته في المطار، وأُنْزِلَ في دار الضيافة، واتصلت بإبراهيم بن جميعة الذي يتولى ترتيب أوقات الضيوف للسلام على الملك، فحدد الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي.

علم المدير وغيره بوصول المفتش، فما كان منه إلا أن اسْتَمَال آخرين، وذهبوا إلى أحد العلماء فقالوا له: إنَّ فلانا أحضر إلى الرياض إنساناً (جَهْمِيًّا) ليتولى التفتيش على المدارس، فاستشاروا بذالك الشيخ، وكلمة (الجهمي) لها وقع الصاعقة في نفوس العلماء، فما كان منه إلا أن ذهب بعد صلاة المغرب وقابل الملك، وأَبدى له انفعاله من حضور مفتش جهمي، سيتسبب في إفساد عقائد أبناء المسلمين، ولم أعرف شيئًا من هذا، فذهبت مع الشيخ إبراهيم النوري في الصباح، فاستقبلنا ابن جميعة، وأجلسنا في مكان حتى استعد الملك لاستقبال المسلِّمين، فكنا من أول من تقدم لذالك، وبعد أَنْ قبلت جبينه قلت: هذا الشيخ إبراهيم النوري، من علماء مكة، وقد أرسله الشيخ محمد بن مانع للتفتيش على المدارس. فما كان من الملك ـ رحمه الله ـ إلا أن صاح بأعلى صوته: جهمي!! يَخْسا الجهمي!

اطردوه، أخرجوه، لا يمسي في الرياض! وكرر هذه الكلمات فأُخْرِجنا من القصر، وعُدْنا إلى دار الضيافة لتهيئة وسائل سفر الشيخ إبراهيم وعودته إلى مكة.

وهكذا استطاعت وسائل المكر والاحتيال أن تحول دون كشف ما يحدث في هذه المدرسة وفي غيرها من المدارس من سوء إدارة ومن تلاعب قد يقصد منه اتخاذ الوظيفة وسيلة للابتزاز.

أما المدير الثاني فكان تلميذاً لعالم من علماء الحرم ممن لأحد كبار موظفي المعارف به معرفة، وكان من أول ما تولاه من الأعمال، وظيفة كاتبٍ عند قاضي (الظفير) ـ بلاد غامد وزهران ـ وأثناء إقامتهما هناك نُسِبَ إلى القاضي وإلى كاتبه ما سبب فصلهما، وصدور أمر ملكي بعدم توظيفهما، إلاَّ أَن هذا الكاتب كان صديقاً لمدير الأمن العام في المنطقة الشرقية، فَأَسْنَدَ إليه وظيفةَ كاتب في الشرطة، وقد لا يعلم بما صدر بالنسبة له، وحدث أَن اتُّهِم بأمر كان مدعاة لحبسه بأمر قاضي الظهران، ولكن المدير رغب من القاضي بعد أن أوضح له أنه من تلاميذ الشيخ المعروف أن يتركه وسبيله، ليعود إلى مكة، فكان ذالك، ولما عاد اتصل بالمعارف فعينته مديراً لمدرسة (الأيتام السعودية في الرياض).

ولمّا قدم لمباشرة عمله وكانت هذه المدرسة خيرَ مدرسة في ذالك العهد، بُنِيَتْ على الطريقة الحديثة، فمبناها يتكون من قسمين، كل قسم يحوي أربع غرف، يتخللها الضوء والهواء، وتتسع للفصول الدراسية، فما كان من هذا المدير إلا أن طلب من إمارة القصر السماح له بحوش واسع، مجاور للمدرسة، يدعى (حوش ابن خُشيلة) مُدَّعِياً أنَّ طلاب المدرسة يحتاجون إليه للقيام ببعض تمارين رياضية في الصباح،

وباستعماله في الفراغ بين حصص الدراسة، وفي جوانب هذا الحوش حُجَرٌ لا منافذ فيها للضوء ولا للهواء إلاَّ من أبوابها، وأَرْضُها غير مبلطة، وجدرانها مَبنية من الطين، فما كان منه إلا أن نقل جميع الطلاب من البناء المخصص لهم ووزعهم في هذه الحجر، واستعمل القسم الغربي من بناء المدرسة لسكنى أهله، وأَخْلَى حجرات القسم الشرقي له ولمعاون المدرسة، وللأساتذة، والحجرة الرابعة لمعتمد المعارف في نجد، وكان مرشحاً لهذه الوظيفة.

ولما زرت المدرسة وأتيت إلى المكان الذي وضع المدير فيه التلاميذ رأيت الموقع سيئاً، فالحوش غير نظيف، وفي وسطه حفرة عميقة واسعة ترمى فيها بعض الأشياء القذرة، وتنبعث منها روئح كريهة، ورأيت بين هذا الحوش وبين القصر الملكي أرضاً براحاً واسعة، ولكنها مملوءة بالأوساخ، حيث يستعملها الطلاب لقضاء حاجتهم، وهذا المكان مجاور للقصر الملكي من الخلف، فأوضحتُ للمدير أنه لا يليق بمدرسة أن تكون بهذه الصفة، وخاصَّةً ما دام طلابها من اليتامى، الذين هم إلى مزيد من الرعاية أحوج من غيرهم، ورأيت اؤلئك الطلاب لا يزيد عددهم على ثلاثة فصول، وإن كانوا موزعين إلى ستة، إذْ طلاب السنوات الثلاث: الرابعة والخامسة والسادسة قليلون، فأمرت المدير بنقل هاؤلاء إلى أقرب مدرسة من مدارس الرياض، فتلاميذ كل سنة لا يُكَوِّنُوْنَ فصلاً من حيث العدد، ويبقى طلاب السنوات الثلاث الذين يجب نقلهم إلى حجر المبنى المخصص للدراسة، وليكتفِ المدير والمعلمون والمعاون بحجرة واحدة.

فأَبْدَى الموافقة، ولكنه تعلّل بالحاجة إلى أثاث للْحُجَر الثلاث، فطلبت منه كتابة ما يحتاج إليه، ولم تمض ثلاثة أيام إلاّ وقَدْ أُحْضِرَ له ما طلب،

ورجوته أن ينفذ ما أمرته به قبل حلول يوم السبت الآتي، غير أنني لَمّا زرته في ذالك اليوم قال: إنه لم يتمكن في المدة الماضية، ويرجو إمهاله أسبوعاً فكان ذالك، ولمّا اتصلت به بعد مضي أسبوع أجابني: إنَّك تَسِير علَى غيرِ هُدَى!! فاستوضحت منه فقال: إن المدرسة تابعة لإمارة القصر، وليس لمعتمد المعارف حقٌّ التدخل في شؤونها، وسأبعث إليكم الأثاث الذي أرسلتم!

أسرعت في الذهاب إلى أمير القصر، وكان الأمير مشعل بن عبد العزيز، فأوضحت له الوضع المزري للمدرسة، ولا سيما أنها مرتبطة بالقصر، وينبغي أن تكون مثالاً حسناً في جميع أحوالها، وذكرت له ما اتخذته من إجراء حول إعادة الطلاب إلى المبنى المخصص للدراسة. فأبدى لي موافقته وأضاف : كل ما تراه مناسباً فأنا موافق عليه، وأنت المسؤول عن المدرسة. ثم أَيَّدَ هذا كتابةً، فأبلغت المدير ولكنه تَلَكَّأَ وقال: بأنه سيراجع الأمير. فكتبت إلى ديوان ولي العهد عن الأمر مفصّلاً، فتلقيت الجواب بفصله من العمل، فأبلغته ذالك، وعاد إلى مكة، وبقي ثمانية أشهر، والمعارف تصرف له راتبه في إدارة المدرسة التي فُصِلَ منها.

وبعدها عينته المعارف مديراً لمدرسة إحدى كبريات المدن في نجد بدون الاتصال بـ(معتمد المعارف) في الأمر.

وحان وقت الاختبار في آخر عام ١٣٦٩هـ[١٩٥٠م] ، وفي تلك المدرسة طلاب أكملوا الدراسة الابتدائية، فعينت لجنة للإشراف على اختبارهم مكونة من أحد وجهاء المدينة، ومدير المدرسة، ومدير مدرسة بلدة قريبة، وأحد الأساتذة الفلسطينيين، وأثناء كتابة الأجوبة كان

المدير يتنقل بين الطلاب لتصحيح ما قد يحتاجون لتصحيحه من الأجوبة، مما دفع أحد أعضاء اللجنة وهو مدير المدرسة الأخرى إلى الاحتجاج، ثم مغادرة مكان الاختبار، وبعد عصر ذالك اليوم اتضح وقوع أخطاء في أجوبة بعض الطلاب، فاستعاد المدير الأجوبة من البريد، وصحح الخطأ، وسار على طريقته تلك جميع أيام الاختبار، وقبل انتهائه كتب إليَّ أحد أعضاء اللجنة ـ وهو مدير المدرسة الثانية ـ مفصلاً، وبعث نماذج من أجوبة الطلاب المغيّرة، وبعد أن أبرقت للمعارف بما حدث، وطلبت إلغاء هذا الاختبار، وإعادته في الدور الثاني، إلاَّ أنني فوجئت عند إعلان نتائج الاختبارات بمذكرة منشورة في جريدة «البلاد السعودية» موجهة لذالك المدير لتهنئته بأن طلاب مدرسته تفوقوا في نجاحهم على جميع طلاب المدارس الابتدائية، وموقعة باسم مدير المعارف العام!

ولم تعبأ المعارف بما حدث في الاختبار من غش وتدليس من مدير مدرسة سبق أن حدث منه مثل هذا، فقد كان مدير المدرسة السعودية التي بَاهَى مجلس المعارف بأن النجاح فيها كان بنسبة (١٠٠٪)، وسبق إيضاح ما يتعلق بهذا.

إذَنْ فلا بِدْعَ من أَنْ تكافيء المعارف هذا المدير القدير النشيط!! وقد كان ذالك، فقد عينته فيما بعد معتمداً للمعارف فترة قصيرة من الزمن حتى فصل بأمر سامٍ، وعين مكانه من هو أقدر منه وذالك عام ١٣٧١هـ [١٩٥١م].

أكتفي بعرض هاتين الصورتين الواضحتين لاثنين يُعَدَّان في عشر السبعين من القرن الماضي ـ وهو عهد تحديث التعليم في نجد ـ من أبرز

القائمين على تصريف شؤونه، ممن كان يؤمّل منهم أن يكونوا مثالاً حسناً يُقْتَدَى بهم في أعمالهم، فهم القائمون على توجيهه الوجهةَ المثلى لتنشئة شبابِ الأمة الذين عليهم ـ بعد الله سبحانه وتعالى ـ تعقد الآمال لبلوغ أسمى الغايات، علماً وعملاً، وحياةً سعيدةً، قائمةً على قواعد ثابتة من الصفات الكريمة، والسمو عن جميع الأفعال المزرية بأقدار من يتولّى تربية نَشْءِ الأمة، وعمادِ حياتها، على أسس الفضيلة وعِزَّةِ النفس، وطَهَارةِ الأخلاق.

الحواشي :

(١) : هو الشيخ إبراهيم بن سليمان النوري، تخرج في مدرسة الفلاح بجدة، فعيّن مدرساً فيها فوكيلاً لمديرها ثم عيّن مفتشاً أول في مديرية المعارف العامة، فمعاوناً لمدير المعارف، فمستشاراً في وزارة المعارف، وقد درس في المسجد الحرام وأنشأ [مع آخرين منهم محمد سرور الصبّان] (دار مصحف مكة لطباعة القرآن الكريم)، ويعدُّ من أجلة علماء البلد الحرام تقوىً وصلاحاً وحسن عقيدة، وقد توفي في ٢٤ المحرم ١٣٨٤هـ إثر حادث سيارة وهو في طريقة لزيارة المسجد النبوي.

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
معتمدية المعارف بنجد

الرقم: ٢٥٤
التاريخ: ٢٠/٢/١٣٦٩
المرفوقات ـــــــ

حضـرة صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم أدام الله عزه وتأييده

بعد أن أتشرف برفع أسمى عبارات الاجلال والتوقير للمقام العالي

ان الاهتمام الذي يبذله سموكم ـ أطال الله عمركم ـ في سبيل التعليم يدفعني الى ابداء هذه الملاحظات

١ــ انه لايوجد في جميع مدارس نجد الموظف الكفء القدير في عمله ، والدليل على ذلك انه ليس في موظفي التعليم من يحمل شهادة ثانوية ـ باستثناء مدرسة عنيزة ـ بل الكثير منهم لم يدخلوا المدارس الابتدائية . ورجال التعليم ـ كما لا يخفى سموكم ـ يجب ان يكونوا قدوة غيرهم كفاءة واخلاقا وعلما . وهذا لا يتم طالما يُمْتَهَنُ بهم من ناحية الراتب

٢ــ ان الكاتب في بعض الدوائر يتقاضى راتبا اكثر من راتب مدير المدرسة الذي هو رئيس دائرة والذي يرجى منه من تثقيف وتهذيب رجال المستقبل وتعليمهم ونفعهم ما لا يرجى من غيره

٣ــ ان كثيرا من المدارس التي صدرت الاوامر الكريمة بفتحها لم تفتح الى الآن وستبقى مدة طويلة بسبب عدم الموظف الكفء الذي يرغب الاشتغال بوظائف التعليم لقلة الراتب

لذلك ارجو من مولاي المعظم ان يشمل التعليم بنظرة سامية وعطف كريم خاص وذلك بصدور الامر العالي لسمو رئيس مجلس الوكلاء او لوزير المالية بان تزاد رواتب جميع موظفي التعليم في نجد مرتبة كاملة اعتبارا من اول هذا العام ، واحب ان الفت النظر الكريم الى ان زيادة المرتبة لا تؤثر تأثيرا كبيرا في الزيادة ولكنها تساعد الموظفين ، وتوضيح ذلك .

ان مدير المدرسة راتبه الحالي بخبزه وعلاوة = ٢٣٠ ريالا وسيصبح ٣٢٠ ـ أي بزيادة ٩٠ ريالا

والاستاذ من الدرجة الاولى راتبه بخبزه وعلاوة = ١٢٠ = = ١٩٥ = = ٧٥ =

والاستاذ من الدرجة الثانية = = ١٨٠ = = ٢٤٥ = = ٦٥ =

كما ارجو صدور الامر العالي للشيخ محمد بن مانع بان يرسل معي عند عودتي من الحجاز ثلاثين استاذا من خيرة الاساتذة الموجودين عندهم ولتوزيعهم على مدارس نجد ولتعيينهم في مدرسة المعلمين الليلية .

والله المسئول ان يطيل عمر سموكم ذخرا للاسلام والمسلمين وان يديم عزكم ، مولاي المعظم ...

الخادم
حمد الجاسر
معتمد المعارف في نجد

خطاب موجه من الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ لولي العهد الأمير سعود ـ رحمه الله ، خصوص بعض شؤون التعليم عام ١٣٦٩هـ إبان كونه معتمد معارف نجد.

وكان الاستقرار في مدينة الرياض

من الحكم المأثورة أن على العاقل أن لا يثقل الآخرين بعرض مشكلاته، وما أردتُّ مما سبق أن عرضته من بعض الأمور التي عانيتها أثناء عملي في إدارة التعليم، خلال سنتين كاملتين، إلاَّ أن أوضح بعض الأسباب التي كانت من العوائق لنشر التعليم الحديث في هذه البلاد، وتتلخص في أمور : ـ

١ ـ أهمها ضعف موارد الدولة ـ في تلك الفترة من الزمن ـ ومن هنا فلم يخصص للتعليم في موازنتها سوى مبلغ يسير.

٢ ـ كانت نظرة سكان هذه البلاد إلى التعليم الحديث نظرة استنكارٍ واستغرابٍ لأَنَّ (من جهِل شَيْئًا عاداه)، ومن هنا تأخر فتح المدارس الحديثة في نجد، بعد أن انتشرت في المناطق الأخرى.

٣ ـ كانت (مديرية المعارف) بعيدةً عن هذه البلاد، وتجهل الكثير من أحوالها، يضاف إلى هذا قوة الإقبال على التعليم بجميع أنواعه في الحجاز، قوةً تستدعي تخصيص متطلبات ذالك، مع ضآلة المقرر للتعليم من واردات الدولة.

٤ ـ عندما فكَّرتِ المعارفُ بفتح مدارس حديثة في نجد، في عهد السيد طاهر الدباغ ـ رحمه الله ـ اعترضتها عقباتٌ لم تستطع اجتيازها، أشدُّ تلك العقبات عدم العثور على من يتولّى العمل في المدارس هنا، ولهذا اضطرت إلى السير على طريقة (سَدِّدُوْا وقارِبُوا) و (ما لا يُدْرَكُ جُلّه لا يُتْرَكُ كله) فأُسْنِدت الأعمالُ ـ من إدارة وتدريس ـ إلى أناس من أهل البلاد، غير مؤهَّلِيْنَ للقيام بها، لأنها حين تريد أن تكل شيئًا من ذالك إلى أحد من غيرهم ممن سبق له العمل في مدارس المناطق الأخرى

لا تجد من يرغب في ذالك، لا لضآلة المرتبات فحسب، بل لأسباب أخرى، منها ما عُرِفَ عن أهل هذه البلاد من عدم اطمئنانهم إلى من ليس منهم، اطمئنانًا يمكنه من الإقامة بينهم.

وقد يدرك القاريء جانبًا من أسباب تأخر عهد فتح المدارس في نجد، مع مسارعة مناطق أخرى إلى ذالك، وعدم العثور على من يصلح لأن يتولى شيئًا من شؤون التدريس، حين يعلم أن مدرسة إحدى كبريات المدن ــ أُسندتْ إدارتها إلى أحد أبناء البادية ممن درس في المدرسة المخصصة لهم في ينبع، ثم أكمل دراسته في المدرسة الابتدائية في تلك البلاد، وهو الأستاذ عودة بن سليمان الحُبيشي الجهني، الذي تولى إدارة المدرسة (المجمعة) بعد أن قام بفتحها أحد أبناء هذه المدينة وهو الشيخ سليمان بن أحمد الذي عمل فترة من الزمن واعظًا ومرشدًا في الحجاز، وكان معاونه الأستاذ عثمان الصالح، ثم بعد فتحه المدرسة وقيامه بإدارتها استقال، وعين مكانه الأستاذ الحبيشي[1].

٥ ــ تولى الوظيفة التي أُسْنِدَتْ إليَّ (معتمد المعارف في نجد) أستاذان فاضلان قبلي وهما: صالح خُزَامي، وعبد المالك الطرابلسي، ولا شك أنهما بذلا ما يستطيعان من جهد في محاولة إصلاح الحالة، ولكنهما أدركا أن من الخير لهما أن يبقيا في مكة مدة وجودهما في العمل حتى استراحا من متاعبه.

لقد كان سعود ــ رحمه الله ــ رجلاً خَيِّرًا، يُحبُّ أن يعمل ما في استطاعته عمله، في سبيل منفعة أمته وبلاده، ولكنه لم يوفَّق للبطانة الصالحة التي تعينه بتوجيهه وتسديده بالنصح والإرشاد وسلوك الطريق الأقوم.

يضاف إلى هذا أنه في آخر عهد والده أصبح ثقيلَ الأعباءِ بما كُلِّفَ به من تصريف أمور الدولة، وقد أُلْقِيَ في روعه بأن جميع أمورها العامة قد أُسْنِدَتْ إلى أكفاء، وهم يقومون بها على خير الوجوه، ومن هنا فقد أصبح اعتماده في ذالك على من وكلت إليهم جميع الشؤون العامة، بحيث قلَّ اضطلاعه بما كان من الواجب أن يضطلع به منها دون سواه، وحرصت تلك البطانةُ على عدم اطلاعه على جميع الأمور، بل ضربت سِياجًا قويًا دون الاتصال به، فخفيت عليه أحوالُ الدولة، وأُبْرِزَتْ له على غير حقيقتها، وما كانت حالة التعليم إذ ذاك بالنسبة لهذه البطانة مما ينبغي الاهتمام به، يضاف إلى هذا أن سعوداً ـ رحمه الله ـ لكثرة ما حُمِّل من أعباء شؤون الدولة ضعف اهتمامه بهذا الجانب. ولا داعي للاسترسال في هذا الموضوع.

هما سنتان كاملتان ـ من آخر شهر ذي الحجة سنة ١٣٦٨هـ [١٩٤٩م] ـ إلى الشهر نفسه من سنة ١٣٧٠هـ ـ مكثت في هذا العمل، ومع ما قاسيته من تعب ومشقة، إلاَّ أنني أحس براحة نفسية عظيمة، فقد أقنعتُ الإخوةَ المشرفين على التعليم بوجه عام شدةَ احتياج هذه البلاد للعناية بنشره فيها، ومكنتني صلتي بسعود ـ رحمه الله ـ في أول الأمر من فتح عدد من المدارس، منها في الرياض مدرستان، وفي بعض مناطق لا عهد لها بالتعليم كالحوطة والأفلاج، وفي مدن في مناطق أخرى كالروضة وجلاجل وحريملاء وغيرها، مع عدد من المدارس القروية في الباطن وسَدُوس والبرود، ولم آل جهداً في القيام بما أُسْنِدَ إليَّ وِفْقَ ما أرى فيه تحقيقًا للمصلحة العامة.

ومن عدم الإنصاف القول بأن تبعة تأخر انتشار التعليم الحديث في

نجد تعود إلى القائمين إذ ذاك بإدارة المعارف العامة وحدهم، فهاؤلاء لو استطاعوا أكثر مما فعلوا لما تأخروا عن القيام به، ولكن كما قيل: (فاقدُ الشيءِ لا يعطيه).

ولن أعفي نفسي من تحمل قسط من تلك التبعة، فما كنت من ناحية التعامل مع الناس على درجة من معرفة أحوالهم، ثم مسايرة تلك الأحوال، ومصانعتها بالوسائل التي تؤثر فيها، كما يفعل من وُهِبوُا من عمق الإدارك والمعرفة، وتَكَيُّف الطباع، ما يؤهلهم لنيل مآربهم من حيث التأثير على من بيدهم الحلِّ والْعَقْدِ، ليولوا ما أقوم به من العناية ما يحقق الغاية المتوخاة منه.

ومع كل ما تقدم فقد اطْمَأْنَنْتُ إلى أنني بذلت جهدي، فأبلغت نفسي عُذرَهَا بالقيام بما أُسند إليَّ، وفق ما يرضي ضميري، وما أعتقد أنني مطالَبٌ به، و(عليَّ أن أسْعَى وليس عليَّ إدراكُ النجاح)، وهكذا كان.

لم أشْعُر إلاَّ ببرقية من مدير المعارف نصها: (تبلغنا صدور الأمر العالي بنقلكم للعمل مع الشيخ محمد بن إبراهيم في إنشاء المعهد، فسلموا العمل لمعاونكم) فتم ذالك، وبعد فترة قصيرة عُيِّنَ أحد الأستاذين اللذين سبق أن تحدثت عنهما[٢] في الوظيفة التي نقلت منها، ومكث فيها بضعة شهور، ثم عين الأستاذ ناصر المنقور في ذالك العمل.

لقد كانت صلتي بالشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ حسنة كما سبق أن أشرت إلى ذالك[٣].

ومع أنني لم أُفَاتَحْ بأيّ شيء يتعلق بالعمل الذي سيسنده إلي الشيخ، إلاَّ أنني كنت في أشد الرغبة إلى الانتقال من عملي إلى غيره

من الأعمال، مهما كان نوع ذالك العمل، إذْ إنني أحسست شدَّة حاجتي إلى الارتياح، ولو لفترة من الزمن، فقد شارفت الأربعين من عمري، وأنا في حالة من عدم الاستقرار، وها أنا بعد أن تزوجت قد صرتُ ذَا أطفالٍ، فأصبحت أفكر في مستقبلهم، وفي كل الوسائل التي تمكنني من إصلاح شؤونهم في المستقبل، وإحساس أبي الأطفال، وشعوره ونظرته نحو الحياة تتغير عن نظرات غيره، فيصبح أقرب إلى البحث عن الوسائل التي تُهَيِّئُ له الراحة والاطمئنان. ومن هنا فقد وطنت العزم على الاستقرار في مدينة الرياض.

ولن أجافي الحقيقة حينما أقول بأن حالتي المادية لا تتجاوز الكفاف، فالمرتب هُوَ هُو كما كنت في الظهران، ومتطلبات الحياة الآن أكثر مما كانت عليه هناك، ولكنَّ ما أحسست به من عدم ارتياح في العمل كان له أكبر الأثر فيما عزمت على الإقدام عليه، وهو الاستقرار في هذه المدينة. وها هي الآن مقبلةٌ على ازدهار عمراني شامل، وتوليها الدولة من اهتمامها والعناية بجميع مرافقها ما يجتذب إليها السكان من كل مكان.

ولعل القارىء يتطلع إلى معرفة لمحة عن هذه المدينة في أوائل عشر الثمانين من القرن الماضي[٤]، فلقد كانت إلى ما قبل ذالك مدينة صغيرة، يحيط بها سور كغيرها من مدن نجد، لم تنل من وسائل الحضارة التي تتمتع بها بعض مدن المنطقة الغربية ما هي في أشد الحاجة إليه، ولكنَّ سعوداً ـ رحمه الله ـ منذ أَنْ أُسندَ إليه تصريفُ شؤون الدولة في آخر عشر السبعين، بعد أن تَأَثَّرَتْ صحةُ والده الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ بالكِبَرِ والمرض، جَدَّ جاهِداً لكي تتمتع هذه المدينة بخير ما تحظى به أية مدينة أخرى، فأمر بإنشاء جهة لتنظيمها

(أمانة مدينة الرياض) ، وأسند إدارتها إلى رجل حازم من الأسرة السعودية ، ذي مكانة عنده ، هو سمو الأمير فهد بن فيصل بن فرحان ، فشملها التنظيم ، وعمتها النظافة ، فُوسِّعَتْ شوارعها ، وأُزيل السور القديم حيث أصبح عديم الفائدة ، فأصبحت من حيث تنظيم الشوارع والنظافة من خير المدن ، وقد بدأ تغير طراز العمران فيها منذ أوائل عشر الثمانين ، فأُبدلت موادُّ البناء القديمة التي هي اللبن والطين والخشب ، بمواد (الاسمنت) والحديد والحجر ، فانتشرت البنايات الضخمة الكبيرة ، التي تماثل ما يشاهده المرء في المدن الأخرى كالقاهرة وبيروت ، وحل محل الحوانيت الضيقة الصغيرة ، المبنية بالطين واللبن ، متاجِرُ واسعة ، محكمة البناء على أحدث طراز ، وأُنشئت المعارض في الشوارع الرئيسية لأنواع البضائع ، والأدوات والآلات الضخمة الكبيرة ، والسيارات ونحوها .

وبينما كان المرء لا يجد في هذه المدينة ما قد يحتاجه حينما يكون من غير أهل البلدة من مسكن ومطعم أو مشرب ، فقد كثرت فيها المقاهي والمطاعم وعُنِيت (البلدية) بالإشراف على نظافتها وتفقدها ، بعد أن فَتَحَتْ هي نفسها مقهى ومطعماً في وسط المدينة ، وبدأ إنشاء الفنادق حيث تَمَّ فَتْحُ (فندق الرياض) في القسم الشرقي من المدينة ، على طريق محطة القطار ، وانتشرت المدارس الحديثة فيما كانت هذه المدينة لا تعرف منها سوى مدرستين إحداهما أُنشئت سنة ١٣٥٠هـ [١٩٣٠م] أمر بإنشائها الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ لتدريس أبنائه ، وفي سنة ١٣٦٥هـ [١٩٤٥م] أمر الأمير منصور بن عبد العزيز حين كان أميراً للقصر الملكي بافتتاح مدرسة عامة تابعة للقصر عرفت باسم (دار الأيتام) ، ثم بعد ذالك أمر سعود بفتح خمس مدارس في

سنتي ١٣٦٨هـ[١٩٤٨م] والتي تليها، وفي سنة ١٣٧٠هـ[١٩٥٠م] فتحت أول مدرسة ثانوية فيها، ثم ازداد عدد المدارس الابتدائية حتى بلغت عشراً، وثلاث مدارس ليلية لمكافحة الأمية، ومدرسة صناعية، وأخرى لتعليم اللغة الانجليزية، كل ذالك قبل انتهاء عشر السبعين من القرن الماضي.

وفي عام ١٣٦٣هـ[١٩٤٤م] افتتحت أول مكتبة عامة، أنشأها الأمير مساعد بن عبد الرحمن وخصص لها مكانًا في بيته.

وبعد ذالك بعشر سنوات ١٣٧٣هـ* ، أمر الملك سعود ـ رحمه الله ـ بافتتاح المكتبة السعودية بجوار مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم وتحت إدارته.

وسُمِحَ بافتتاح المكتبات الخاصة لبيع الكتب في المدينة.

أما عن الصحافة، فأول صحيفة صدرت في الرياض هي صحيفة «اليمامة» في آخر ١٣٧٢هـ[١٩٥٢م]، وأنشئت لها مطبعة بإسهام عدد من المواطنين.

وَعن المرافق العامة الأخرى، فأول عهد مدينة الرياض بالمستشفيات كان عام ١٣٤٧هـ[١٩٢٨م] إذ افتتح أول مستشفى في هذه المدينة في (محلة الْقَرِيّ) وبعد ذالك أنشئت إدارة للصحة، تعرف باسم (صحة الرياض) ذات شعب متعددة، تتولى علاج المرضى يوميًا، وفيها جناح لمن يستدعى مرضهم البقاء مدة من الزمن.

وكانت المدينة إلى عام ١٣٧١هـ[١٩٥١م]، تُعَوِّلُ في ماء الشرب

---

* كان إنشاء المكتبة المذكورة عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م)، أي في عهد الملك عبدالعزيز، وقد نشرت (أم القرى) في عددها رقم (١٤١٧) مقالاً للشيخ الجاسر بهذه المناسبة. (ش).

على الآبار الواقعة داخل البلدة، ولم تكن المياه فيها متوفرةً، وفي ذالك العام قامت الحكومة بمدِّ المياه من مكان يدعى (السُّوَيْدِي) في الوادي (الباطن) يبعد عن المدينة نحو خمسة أكيال، ولَمَّا لم تَفِ بحاجة السكان قَرَّرَتْ إجراء الماء من (الحائر) على بعد (٣٤) كيلا، فتم ذالك في شهر شعبان من العام المذكور، وحُفِر في جوانب المدينة ـ بواسطة شركة فرنسية ـ آبار عُثِر فيها على ماء عذب، ولكنه بعيد الغور.

وفي عشر السبعين أُنْشِئَتْ محطة لتوليد الكهرباء في (محلة الشُّمَيْسِي) لإنارة القصور الملكية وقصور كبار موظفي الحكومة ودوائرها الرسمية، ولكن هذه المحطة لم تف بمتطلبات جميع سكان المدينة فقامت شركة أهلية بإنشاء محطة لتوليد الكهرباء.

وتم تنظيم شؤون المواصلات بواسطة إنشاء مكاتب للبريد، ومركزٍ عام للهاتف.

وفوق كل ما تقدم فإن سعوداً ـ رحمه الله ـ كان تَوَّاقًا إلى أن تبلغ هذه المدينة خيرَ ما بلغته مدينةٌ عالمية تَقَدُّمًا وعُمراناً واستكمالاً لجميع وسائل راحة السكان.

أما في عهد الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فقد شُغِلَ بشؤون توطيد دعائم الدولة العامة، كتثبيت قواعد الحكم بعد أن وحد أجزاء البلاد، وذالك مما لا يتمكن معه من الاتجاه إلى ما ينبغي فعله في إصلاح الشؤون الداخلية، مع أنه أولاها قدْرًا من ذالك، وخاصة ما يتعلق براحة سكان البلاد بوجه عام، وما كان من اليسير تنفيذ الإصلاحات الداخلية بسهولة ويسر، فهناك كثير ممن لهم كلمة مسموعة يعارضون

بعض ما لا يألفون و ما قد يستريبون منه، أو يحاذرون أن يكون ذا أثر غير محمود على أحوال السكان.

ومن الأمثلة على ذالك، أن الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في أوائل عشر الستين حينما بدأت بعض الحوادث المخلّة بالأمن تبدو في مدينة الرياض لكثرة الطارئين عليها قرر إنشاء (شرطة) تتولى رعاية الأمن داخل المدينة، ومن عادة العلماء الاجتماع به في ضحى كل يوم خميس، وفي إحدى اجتماعاتهم أخبرهم الملك بما قرر، وشرح لهم الأسباب الداعية لذالك، وكان فيما قال ما معناه: أحببت إخباركم بهذا، وإلاَّ فأنا عازم على تنفيذه إن شاء الله، فما كان من أحد اؤلئك القضاة في المدينة إلاَّ أن قال: (ما دام الأمر لمجرد الإخبار فلو تركت كل واحد منا في حَوِيِّه[٥] لأتاه الخبر، إذا لم تكن تريد مشاورتنا) ـ أو كلاماً هذا معناه ـ فانفعل الملك من هذا الاعتراض، انفعالاً عَبَّر عنه بتوبيخ الشيخ توبيخًا دفعه إلى عدم الحضور في يوم الخميس الثاني حتى استدعاه الملك، وأرضاه.

وحينما أرادت (بلدية الرياض) توسعة بعض شوارعها الداخلية اعترض كثير من الوجهاء من العلماء وغيرهم، بأن هذا قد يُحْدِثُ تغييراً في بعض الدور القديمة التي هي من الأوقاف، فلم يُعَالَجْ هذا الأمر إلاَّ بطريقة تقدير ما يتم هدمه وإزالته بقيمة أعلى من قيمته، بحيث كان السكان جميعهم يرغبون أن يشمل الإصلاح كل المدينة.

لقد قَرَّرتُ الاستيطان في مدينة الرياض، منذ أن أُسْنِدَتْ إليَّ وظيفة (معتمد المعارف) ومُنِحْتُ أرضًا بواسطة من كان يتولى بعض الأعمال

العمرانية في المدينة المهندس محمد بن لادن، فاخترت الموقع بجوار (محطة الكهرباء) التي قررت الشركة الأهلية إنشاءَهَا تَوَهُّماً مني أن ما كان أقرب من البيوت إلى محطة الكهرباء كان أكثر استفادة، إذ كثيراً ما كان ينقطع التيار الكهربائي عن البيوت في وقت تشتد الحاجة إليه، لضعف المولدات الكهربائية في ذالك العهد، وقد وكلت بناء البيت في تلك الأرض إلى مقاول مشهور إذ ذالك هو الشيخ سعيد ابن علي الأصبحي اليماني[٦]، الذي قا م بإنشاء كثير من الدور الحديثة في هذه المدينة، ومنها دار (أمانة مدينة الرياض) وغيرها، فتم البناء والاستقرار في تلك الدار.

وفتحتُ تلك الأيام (مكتبة العرب) لبيع الكتب [١٣٦٩هـ-١٩٥٠م]، واخترت لها موقعًا مجاوراً للمسجد الجامع الكبير، شرقه، على مقربة من (الصفاة) وكان لي قريبان تربيا في بيتي، أحدهما ابن أخي، والثاني ابن أختي[٧]، كانا يشتغلان في الدراسة صباحًا، وفي المساء يتوليان الإشراف على المكتبة، التي حرصت أن أجلب لها بعض الكتب الحديثة، ولعلها أول مكتبة عنيت بذالك، وهناك مكتبتان أخريان هما: (المكتبة الأهلية) لصاحبها الشيخ عبدالمحسن أبا بطين، والثانية (المكتبة السلفية) لصاحبها محمد المليباري، وأذكر أن من بين الكتب الحديثة التي كانت تعرض في مكتبة «العرب» كتابي «من هنا نبدأ» و «لئلا نزرع في البحر» لخالد محمد خالد، وكنت عرفت الرجل سنة ١٣٥٨هـ [١٩٣٩م]، حينما كنت في مصر، قبل أن يؤلف الكتابين، وأذكر أن الأمير عبد الله الفيصل رآهما في المكتبة، وفي

أحدهما نقد شديد ـ بل تحامل سَيِّءٌ[8] ـ على علماء هذه البلدة، فأوعز الأمير بعدم عرضهما للبيع، وتمَّ ذالك.

الحواشي

(١) : وقع في سانحة (في بلدة ينبع قبل خمسين عاماً) فيما نشر في «المجلة العربية» أن عودة بن سليمان أول من تولى إدارة مدرسة المجمعة، والصواب : (كان من أول) وقد نبهني إلى ما وقع من خطأ ابن الشيخ سليمان بن أحمد.

(٢) : سانحة (أحاديث عن بدايات التعليم الحديث «٣»).

(٣) : سانحة (أحاديث عن بدايات التعليم الحديث «٢»).

(٤) : كتبت كلمة في الموضوع بعنوان (الرياض قديما وحديثا) نشرت في مجلة «قافلة الزيت» في شهر صفر سنة ١٣٧٣هـ [١٩٥٣م].

(٥) : (الحَوِيُّ) بلهجة سكان هذه المدينة (البيت) ومما يُتَنَدَّرُ به أن عجوزًا قالت لأخرى : لقد امتلأ صندوقي بالنقود بحيث لا أعرف وجهًا لصرفها. فقالت الأخرى : (قُضِّي حُوَيِّك وابنيه) والحُوَيُّ بضم الحاء تصغير (حَوِيٍّ) بفتحها. أي اهدمي بيتك ثم أعيدي بناءه فستصرفين لذالك نُقُودًا تفرغ ما في صندوقك.

(٦) : كان من أوائل من اشتغل في الأعمال العمرانية في مدينة الرياض وعلى جانب عظيم من إتقان العمل وعدم المغالاة بما يتقاضاه من أجر في ذالك، مع اتصافه بالصدق والأمانة وكان إلى جانب ذالك ذا إحسان ورعاية لمواطنيه اليمنيين يصرف لعدد منهم نفقات الدراسة خارج بلادهم في مصر وغيرها، ويساعد المعوزين منهم، وقد عاد إلى اليمن فذهب ضحية محاولته إصلاح البين بين طائفتين متنازعتين هناك.

(٧) : هما محمد بن رشود بن جاسر، وسعد بن إبراهيم بن محمد بن ناهض، أكملا دراستهما في جامعة الرياض، الأول في كلية الآداب والثاني في كلية الزراعة، وقد واصل هذا الدراسة حتى نال إجازة (الدكتوراه) وتولى التدريس في الكلية، وقد توفي منذ سنتين، والأول موظف في وزارة المعارف.

(٨) : بحيث نسب إلى أحدهم بأنه يرى شرب الدخان أشد من ارتكاب إحدى الكبائر السبع.

المملكة العربية السعودية — الرقم ١٠٤١

ديوان سمو ولي العهد — التاريخ ٢١/ ٣/ ١٣٦٩

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب الاخ المكرم الشيخ محمد بن مانع سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد تجدون طيه المقترحات المرفوعة الينا من حمد الجاسر مفتش المعارف في نجد . اما ما يختص بزيادة مرتبة في رواتب جميع موظفي التعليم في نجد فهذا اقتراح طيب ، لأنه اذا لم يكن هناك فرق فلا يمكن الا ستحصال على اساتذة نجديين في نجد فانتم ان شاء الله تدرسون الاقتراح المذكور فاذا لم يكن هناك ما يمنع من تطبيقه فلا بأس من العمل بموجبه كما ان فيه فائدة كبيرة من اجل الحصول على الموظفين الاكفاء لمدارس نجد .

كذلك طلب المذكور ارسال ثلاثين استاذا من قبلكم نجديين لأجل توزيعهم على مدارس نجد فهذا شيء لابد منه فانتم ان شاء الله تحرصون على هذه المسألة على قدر الامكان . هذا ما لزم بيانه والسلام ... (التوقيع الكريم)

خطاب الأمير سعود ولي العهد ـ رحمه الله ـ إلى الشيخ محمد بن مانع ـ رحمه الله ـ خصوص بعض مقترحات الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ للتعليم في نجد عام ١٣٦٩هـ.

في (معهد الرياض العلمي)*

وهذا هو اسم أول ما أنشيء من المعاهد التابعة لإشراف الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ، رئيس العلماء، التي عُمِّمَتْ في أكثر مدن المملكة، وأصبحت الآن تابعةً لـ(جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

ويُعْنَى بـ(العلمي) العلوم الشرعية، كعلم تفسير القرآن الكريم، وبسنة المصطفى ﷺ قولاً وفعلاً، وبأقوال أصحابه وأفعالهم، كما قال: ابن القيم في نونيته[1]:

(الْعِلْمُ) قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُوْلُهُ   قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ

ويلحق بتلك العلوم ما يُعَدُّ مُتَمِّمًا لها، كعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبيان وبديع، وغير ذالك.

لم أَهْتَمَّ كثيراً حين أُبْلِغْت من المعارف بنقلي من عملي إلى العمل مع الشيخ محمد بماذا سَيُسْنِدُ إِلَيَّ من عملٍ، فقد كنت بحاجة إلى الاستقرار والراحة، وهكذا كان، حتى مضى أسبوعان، فما شعرت إلا بعلي بن خميس يأتي إليَّ في بيتي، ليخبرني أن الشيخ في انتظاري الآن، وكان الوقت ضُحًى، فذهبت معه، وكان في المجلس الذي اعتاد أن يستقبل به الزوار، إلا أنه أخذ بيدِيْ، ودخل بي داخل البيت، ثم صعدنا إلى غرفة، ولما استقر به الجلوس إذا بأحد أبنائه يأتي فيجلس معنا، فأمره أن يدعو أخاه الشيخ عبد اللطيف، فحضر، ثم حضر إبراهيم بن الشيخ محمد، فوجه الشيخ كلامه إلي بما معناه: أنا أَعُدُّكَ كأحد أبنائي، ولهذا لما طلبت نقلك للعمل معنا لم آخذ رأيك، لأنني

واثق بأنك لن تخالفني، فأنت تعرف أنني لا أريد لك إلا الخير، ولا أريد من العمل الذي سيسند إليك إلا منفعة المسلمين، وأنت إن شاء الله تُسَرّ بهذا وتسعى إليه، وقد تقرر فتح معهد في الرياض، فأحببت أن تتساعد أنت والشيخ عبد اللطيف في إدارته، والإشراف عليه، لأن الأعمال الموكولة إليَّ أصبحتْ كثيرة وشاقَّةً تستلزم التفرغ أكثر الوقت، ومع ذالك فشؤون المعهد سوف أتولى الإشراف عليها جميعها.

وقد رأيت أن تسافر إلى مصر، وأن تتصل ببعض العلماء، الموثوق بهم في اختيار من يصلح للتدريس في المعهد، واختيار بعض الكتب التي ينبغي تقريرها في بعض العلوم العربية، مع إحضار مناهج المعاهد الدينية، وكلية الشريعة، وكلية اللغة العربية التابعة لإدارة الأزهر.

وقد تَمَّ ترتيب جميع ما تحتاج إليه في سفرك لتلك الغاية.

عبرت للشيخ عن تقديري لما أولاني من عطف، وأبديت له الموافقة، والاستعداد لتنفيذ ما طلب مني، ولكنني أدركت من فحوى كلامه أن الشيخ عبد اللطيف سيتولى إدارة المعهد، وأنني سأكون مساعداً له، وأنا وإنْ لم أكن مرتاحاً لهذا، إلا أنني أصبحت في حالةٍ تستدعي مني الموافقة، ولو لفترة أتمكن خلالها من التصرف في أمري، على رَوِيَّةٍ وتَبَصُّرٍ، ومع ذالك فقد اتصلت بسعود ـ رحمه الله ـ لأخبره بما تم بشأني من حيث صدور الأمر السامي بنقلي للعمل مع الشيخ محمد، وعَبَّرْتُ له عن شكري لما لاقيته من سموه من عون ورعاية أثناء عملي، فسألني عمن أراه صالحاً ليتولاه، فذكرت له الأستاذ ناصر بن حمد المنقور[٢]،

---

* المجلة العربية، العدد (٢٠٤)، محرم ١٤١٥هـ / حزيران وتموز ١٩٩٤م.

ثم أبديت له بأنه لم يتضح لي من الشيخ محمد ماذا سيكل إلي في المعهد من عمل، فقال لي: إنَّك أنت ستكون مديراً للمعهد، وعلمت أنه فيما بعد أرسل إبراهيم الشايقي[٣] إلى الشيخ للتأكيد عليه في هذا الأمر، إلا أنني لم أُعِرْ هذا كبيرَ اهتمام.

صِرْتُ أتصل بالشيخ لإتمام ما يتعلق بأمر سفري إلى مصر، فكان ذالك، وسافرت للقاهرة، فاتفقت هناك مع بعض المدرسين، ومنهم الشيخ عبد الرزاق عفيفي[٤]، ومحمد عبد الرحيم وغيرهما، واتصلت بالأستاذ محب الدين الخطيب[٥]، وكان يرأس تحرير مجلة «الأزهر» فأحضر لي نسخاً من المناهج التي طلبها الشيخ، واستعنت به على اختيار مجموعة من الكتب التي ستدرس في علوم اللغة العربية، وما يتصل بها كـ«النحو الواضح»، و«البلاغة الواضحة»، و«أدب الدنيا والدين»، و«الأحكام السلطانية»، و«قصص العرب»، و«البخلاء» للجاحظ وغيرها، كما طبعت عنده باسم المعهد بعض المقررات، ومنها كتاب «مختصر كتاب تحقيق الأمل» في الأصول لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي الحنبلي (٦٥٨ / ٧٣٩هـ) وعدت إلى الرياض.

وكان الشيخ قد أعد (مُوازَنة) للمعهد، هو والشيخ عبد اللطيف، ومن استعانا به في ذالك، فأمر الملك عبد العزيز باعتمادها، ولما عرض على وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان منها ما يتعلق برواتب المدرسين، لاحظ أن مرتبي الشهري الذي وضع فيها هو ما كنت أتقاضاه في وظيفتي في المعارف ست مئة ريال، ورأى أن من بين الأساتذة المصريين من يبلغ مرتبه مئة جنيه ـ أي نحو ألف ريال ـ، فأمر أن لا يقل مرتبي عن أعلى راتب أي مدرس مصري في الموازنة، فقرر لي ألف ريال، على ما أخبرني الشيخ عبد اللطيف نفسه بهذا.

ويحسن هنا أن آتي بلمحة عن إنشاء المعهد.

سبق أن ذكرت[٦] أنني قدمت تقريراً لسعود ـ رحمه الله ـ رقمه ٦١ وتاريخه ٢٨ / ٢ / ١٣٦٩هـ عن إصلاح حالة التعليم في نجد، واقتراح إنشاء معهد في مدينة الرياض، يحوي ثلاثة أقسام: ـ هي قسم للتخصص الديني، وقسم للمعلمين، وقسم للبعثات ـ مع إعداد قسم داخلي يقوم بما يلزم للطلبة من مأكل وملبس وتوفير الأدوات والكتب المدرسية للطلاب، وتخصيص مكافآت شهرية لبعضهم، فكتب سعود للشيخ محمد ـ رحمهما الله ـ برقم ٧٤٥ تاريخ ٢ / ٣ / ١٣٦٩هـ بما ملخصه: (كتب لنا... اقتراحاً بفتح معهد في الرياض، وهو اقتراح طَيِّبٌ، وسيكون له نتائج طيبة إن شاء الله، ولكن لا نحب نوافق على شيءٍ مالم تطلعوا عليه وتروه موافقاً).

ولقد كانت فكرة إنشاء معهد في مدينة الرياض أو (مدرسة علمية منظمة) تراود ذهن الشيخ محمد بن إبراهيم، وتخامِرُ فِكْرَهُ منذ منتصف القرن الماضي، ففي عشر الستين من ذالك القرن كثر نزوح طلبة العلم من الرياض إلى مكة المكرمة لأسباب منها: ـ أنهم يجدون في مكة المكرمة الكثير من أسباب توفير المعيشة، كما يجدون في تنظيم الدراسة وكثرة العلماء ما لا يجدونه في مدينة الرياض.

فقد كان الشيخ عبد الله بن حسن ـ رئيس القضاة ـ يُهَيِّئُ لطلبة العلم مختلف الوسائل التي تمكنهم من مواصلة التعليم، بتعيينهم في الوظائف كإمامة المساجد، والوعظ والإرشاد، والإلحاق بهيئة الأمر بالمعروف، وكل هذه الأمور يتقاضون عليها مرتبات، ولا يحول عملهم فيها دون مواصلة الدراسة في الحرم المكي الشريف، على مشاهير

العلماء كالشيخ أبي السمح، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، والشيخ محمد بن مانع وغيرهم، أو حتى في بعض المدارس.

وقد يلتحق بعضهم في (المعهد السعودي) فَيُهَيَّأُ له ما يحتاجه من سكن ومطعم وغيره.

والدراسة في (المعهد)[في مكة المكرمة] في ذالك العهد تُعْنَى بالدروس الدينية، وفيه عدد من علماء نجد، منهم الشيخ محمد بن عثمان الشاوي، والشيخ محمد بن علي البَيْز، والشيخ عبد الله بن مطلق(٧) وغيرهم من العلماء من غير أهل نجد.

أما في مدينة الرياض فما كانت الإعانة التي تصرف لطالب العلم تزيد على قليل من الأرز والتمر في كل شهر، بحيث يقارب المخصص لأعلى الطلبة نصفَ كِيْسٍ من الأرز، وقُلَّةً (جُلَّةً)(٨) من التمر، ودون ذالك لمن دونه إلى ثلاثة آصع*، وربع (قلّة) من التمر، وأكثر هاؤلاء الطلاب ممن بلغ في السن مرحلة تستلزم قيامه بأعباء الإنفاق على أسرته، وذالك القدر الزهيد قد لا يفي بقوته وَحْدَهُ، فضلاً عما تحتاجه أسرته.

أما من حيث الدراسة فغالباً ما تكون مقصورةً على الشيخ محمد، واثنين من العلماء أو ثلاثة، وما كانت الأوقات محددة، وما كان الطالب في الغالب منتظماً في حلقةٍ تتلاءم مع إدراكه وفهمه.

ومن هنا فلم تكن الدراسة إذْ ذَاك منظَّمةً، وخاصة بعد أن شُغِلَ الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ بقضايا الدولةِ من إفتاء، ونظر في أحكام تحال إليه أو مخاصمات.

لهذا فكر بإنشاء معهد تكون الغاية منه استمرار التعليم الديني،

---

* جمع صاع، وقد وردت في السوانح بصيغ جمع مختلفة. (ش).

وتقويته وتنظيمه، والعناية بشؤون الطلاب، وأوضح ذالك للملك عبد العزيز فاستجاب ـ رحمه الله ـ لتحقيق هذه الرغبة، وأمر بأن تقام بناية للمعهد في حي (دُخْنَةَ) على مقربة من مسجد الشيخ وبيته، وتم إنشاء تلك البناية[٩]، ولكنها بقيت بدون استعمال بضع سنين لأن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان متردِّدًا في الأمر، ولعل مبعث التردد هو عدم تصور سماحته لما يجب أن يكون عليه هذا المعهد.

وبعد أن عاد الشيخ محمد من رحلته إلى مصر للعلاج عام ١٣٧٠هـ [١٩٥٠م] قابل الملك عبد العزيز ـ رحمهما الله ـ سأله: ما الذي أعجبه في مصر؟ فقال سماحته: الأزهر وما أُلْحِقَ به من معاهد، فما كان من الملك إلا أن قال: ينبغي أن نفتح المعهد الآن. وأصدر الأمر بإعداد جميع ما يلزم لذالك، فَبُدِئَ بتأثيث بناية المعهد التي أنشئت قبل بضع سنوات، تأثيثاً حسناً، بجميع ما يلزم لذالك، وتم إدخال الكهرباء للإنارة والتبريد، وإدخال الماء العذب، وذالك في آخر عام ١٣٧٠هـ.

وقد أُنْشِيءَ (المعهد) يحوي أقساماً ثلاثة تمهيديًّا وثانوياً وخاصًّا، يُقْبَلُ فيه بعض الطلاب الذين فقدوا نعمة البصر، وله منهج خاص يقتصر على العلوم الدينية والعربية، وقررت رواتبُ للطلاب الذين حدد عددهم في السنة الأولى بثلاث مئة طالب، للثانوي (٢٦٢) ريالاً في الشهر، ولمن في القسم التمهيدي (٥٦) ريالاً.

وابتدأت الدراسةُ في بناية المعهد، وتم افتتاحه بصفة (رسميةٍ) من قبل ولي العهد سعود بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في اليوم العاشر من شهر المحرم سنة ١٣٧١هـ، وأقيم لذالك احتفال بُدِيءَ بتلاوة آي من الذكر الحكيم، ثم كلمة لسعود: حمد الله وأثنى عليه فيها، وتحدث

عن فضل العلم، وأنه لا حياة للبلاد إلاَّ به، ثم ذكر الغاية من إنشاء هذا المعهد، ووعد بأن يَبْذِلَ كُلَّ عون ومساعدة لكي يصبح جامعةً علميةً عظيمةً يفد إليها طلاب العلم ورواد مناهله من جميع أنحاء البلاد الإسلامية، وتفاءل سموه له بالنجاح، وحثَّ رئيسه الشيخ محمد بأن يعرض على سموه كل أمر فيه صلاح وخير، ومنفعة تعود على هذا المعهد[١٠].

وبعد أن تحدث الشيخ محمد عن أثر العلم في حياة الأمة، وحاجة البلاد إليه، أشار إلى ما يبذله جلالة الملك وسمو ولي عهده في سبيل نشره من جهود مشكورة [١١]، ثم زار سمو ولي العهد ومعه فضيلتا رئيس المعهد ومديره فصول الدراسة، وأبدى سروره بما شاهده من حسن الترتيب والتنظيم، وشكر القائمين على ذالك.

ومع أن المنهج الذي وضع من قبل بعض الأساتذة الذين اختارهم الشيخ محمد، ووافق على ما وضعوا إلا أن هذا المنهج كان دائماً عرضةً للتغيير، سواء في مواده أو في الكتب المقررة، ولعل من الطريف أن أذكر أن الشيخ حامد الفقي[١٢] زار المعهد هو والشيخ محمد فلما دخلا على طلاب السنة الأولى من القسم الثانوي، إذ الطلاب يقرأون في درس المطالعة في كتاب «البخلاء» للجاحظ، وهو كتاب وافق عليه الشيخ، وأُحْضِرتْ منه كمية كبيرة من النسخ من مصر، فما كان من الشيخ الفقي إلا أن قال رافعاً صوته: أعوذ بالله!! كتاب الجاحظ المعتزلي يُدَرَّس في أعلى معهد ديني في منبع السلفية؟! فقال الشيخ محمد: ما الذي تَرَى أن يحل محله؟ فأجاب: «فتح المجيد» ولدينا كمية جاهزة منه في مصر. فأمره الشيخ بأن يبعثها لكي تدرس في حصة (المطالعة)!! مع أن كتاب «فتح المجيد» مقررة دراسته في علم التوحيد

في الأقسام العالية. وكثيراً ما يبدي بعض المشايخ كالشيخ ابن باز أو غيره أن الحصص المقررة لتدريس التوحيد أو التفسير قليلة، فيلغى تدريس حصص من العلوم العربية لذالك، ولهذا كان المنهج الدراسي غير ثابت.

وأذكر أن في شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ زار وفد (جامعة الدول العربية[١٣]) المعهد باقتراح من الملك، فطلب الوفد من مديره ـ بعد أن تفقد الفصول ـ أن يبعث إليه بيانات عن سير الدراسة ومناهجها، فَبُعِثَتْ تلك البيانات، فكان الجواب من المشرف على شؤون الإدارة الاجتماعية في الجامعة العربية في كتابه رقم ١٨٨٦ في ٢٥ / ٥ / ١٩٥٣م مع مذكرة من الإدارة الثقافية جاء فيها ما نصه: (وإني أذكر بهذه المناسبة الزيارة التي هَيَّأَتْ لنا الوقوف على نشاط هذا المعهد، وأهدافه، مما أثلج صدورنا، وقوّى الأمل في نهوض هذا المعهد، بإعداد ما تحتاج إليه المملكة العربية السعودية الشقيقة من رجالات لتوجيه سياستها العامة، والإصلاحية في نواحي النشاط الإداري والثقافي والديني.

وأرجو أن تسمحوا بأن أرسل مع هذا مذكرة بالملاحظات التي عَنَّت للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، لتكون تحت نظركم ونظر القائمين على شؤون المعهد، وهذه هي الملاحظات:

١ ـ بما أن المعهد يرمي إلى تخريج علماء يقومون بأعمال القضاء والوعظ والإرشاد أو بتدريس العلوم العربية، أو يتولون الوظائف الحكومية، فربما كان من المستحسن أن يشمل القسم العالي في المعهد ثلاثة فروع، يختص كل منها بنوع من الدراسة، تلائم المهمة التي تنتظر الخريجين، وفي هذه الحالة يمكن أن تتمركز الدراسة في

الفرع الأول حول العلوم الدينية واللغة العربية، وفي الفرع الثاني يُعْنَى بفنون التربية وأصول التدريس إلى جانب علوم اللغة، أما الفرع الثالث الخاص بتخريج موظفي الحكومة، فنرى أن تدرس فيه بعض الموضوعات المتعلقة بأساليب الإدارة والمحاسبة والمالية، ومبادىء الاقتصاد والتجارة عدا التاريخ وتقويم البلدان.

٢ ـ نرى أن تزيد العناية بإتقان اللغة العربية أداءً وكتابة، وهذا يقتضي الإكثار من المطالعة، والنقد والتحليل، والتدريب على الإنشاء، بجانب القدر الكافي من قواعد اللغة.

٣ ـ نرى أن يضاف إلى منهج القسم الثانوي بالمعهد بعض الحصص لتدريس الرياضيات والعلوم، فيجتمع بجانب التثقيف العقلي للطلبة، الإعداد للحياة العامة[١٤].

ولكن لم يَرَ الشيخ ـ رحمه الله ـ أن يُغَيِّرَ في الأمر شيئاً، مالم يكن برأي المشايخ الذين يثق بهم ويوافق على آرائهم، وهم في الغالب لا يُقرُّون إدخال شيء من العلوم الحديثة.

وفي رمضان سنة ١٣٧٤هـ صدر مرسوم ملكي يخول سماحة مفتي البلاد السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ منح الشهادات الابتدائية والثانوية والعالية وشهادات التخصص لمن أكمل الدراسة في المعاهد الدينية[١٥]، وكان المعهد إذ ذاك يحوي الأقسام الأربعة.

لا تسير الأمور الإدارية في المعهد، ولا في فروعه، ولا في الكليتين على طرق مرسومة بطريقة ثابتة، فكثير منها عرضةٌ للتغيير، لأنها جميعها مرتبطة بالشيخ محمد وتحت إشرافه، وهو كثيراً ما يجري تغييرات من حيث مناهج الدراسة ومن حيث حصص المدرسين ونقل بعضهم.

أما ما يتعلق بالموازنة، فما كان غير الشيخ وأخيه عبد اللطيف يعلمان شيئاً عنها، وأما إدارة شؤون المعهد فهي ظاهراً للشيخ عبد اللطيف، فهو مدير المعهد، ولكن يتحمل غيره أهمها، وخاصة ما يتعلق بشؤون الطلاب وقبولهم في فصولهم، وبإدارة الشيخ عبد اللطيف ترتبط جميع الفروع، وكذا شؤون الكليتين، حتى كان شهر صفر سنة ١٣٧٥هـ.

وقد افتتحت فروع للمعهد في عهد مبكر هي :

١ ـ معهد بريدة: افتتح سنة ١٣٧٢هـ وبلغ عدد طلابه مئة وعشرين طالباً، ومع أن المقرر أن يفتح هو وفروع أخرى سنة ١٣٧٣هـ، إلاَّ أن صلة قاضي بريدة بالشيخ وهو من أخص تلاميذه كانت من أسباب الاستجابة إلى فتح ذالك الفرع، وأسندت إدارته إلى محمد الناصر العبودي.

٢ ـ وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ صدر أمر الملك بفتح أربعة فروع للمعهد في الأحساء وعُنيزة وشقراء والمجمعة وصامطة، وكان افتتاحها من أول العام الدراسي ١٣٧٤هـ.

٣ ـ معهد عنيزة: إلاَّ أن أهل مدينة عنيزة كرروا الطلب، وألحوا أن يفتح المعهد في مدينتهم كما فتح في بُرَيدة، فتم ذالك في شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ، حيث بدأت الدراسة فيه في يوم ٤ / ٥ / ١٣٧٣هـ، وبلغ عدد المدرسين سبعة، ثلاثة من الأزهر وأربعة من الوطنيين، ومديره سعد بن إبراهيم أبو معطي، وبلغ عدد تلاميذه مئةً وعشرين طالباً.

وفي شهر شعبان سنة ١٣٧٣هـ جرى اختبار المعاهد الثلاثة في الرياض وبريدة وعنيزة، إذ لم يكن في تلك السنة غيرها.

٤ ـ أما المعاهد الأخرى فقد افتتحت سنة ١٣٧٤هـ وأسندت إدارة معهد

شقراء إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن المُسْند، ومعهد المجمعة إلى عثمان بن حمد الحقيل[16]، ومعهد صامطة إلى عبد الله القرعاوي، ومعهد الأحساء إلى عبد الله بن خَميس، وبلغ مجموع الطلاب في تلك المعاهد ألفاً وست مئة واثنين، منهم خمس مئة وثمانون في القسم التمهيدي الابتدائي، وتسع مئة وستون في القسم الثانوي، وفي معهد الرياض سبعة وخمسون في القسم العالي ضُمُّوا إلى كليتي الشريعة واللغة العربية اللتين سيأتي الحديث عنهما.

كما بلغ عدد المدرسين الذين نُدِبُوْا للتدريس في معهد الرياض خمسة وخمسين منهم اثنان وأربعون مدرساً أزهرياً[17].

الحواشي:

(١): المعروفة بـ «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية».

(٢): وكان حديث التخرج في كلية الآداب من مصر ويعمل بوزارة الخارجية.

(٣): الشايقي من كتاب الديوان على ما يقال من عهد الإمام عبد الله بن فيصل ـ رحمه الله ـ.

(٤): ويعرف بعبد الرزاق عفيفي النوبي بمصر، وهو من خيرة العلماء وقد استقر في المملكة استقراراً تاماً. [وتوفي فيها].

(٥): وقد سبق لي أن عرفت محب الدين الخطيب ونشرت في مجلة «الفتح» التي يصدرها بعض المقالات.

(٦): سانحة (بدايات التعليم الحديث في نجد).

(٧): هاؤلاء المشايخ الثلاثة ممن تلقيت العلم عنهم في المعهد وتقدم ذكرهم.

(٨): لعل كلمة (قلة) تحريف (جُلة) بالجيم فالعامة كثيراً ما يعاقبون بين الحرفين والجلة هي وعاء التمر، قال حميد الأرقط:

باتوا وجُلَّتَنا الصَّهباءُ بينهم   كأن أظفارهم فيها السكاكين

(٩): مجلة «اليمامة» ـ ج٢، ص٣ ـ السنة الأولى.

(١٠): المصدر السابق ـ ج ٢، ص٤ ـ السنة الأولى.

(١١): وكان أن ألقيت قصيدة مطلعها :

صُغْها مِنَ الزَّهْرِ رَفَّافاً أَنَاشِيدا   ومِنْ صَدَى الْبُلْبُلِ الصَّدَّاحِ تَغْرِيْدا

أثنيت فيها على سعود، وتمنيت أن يسير هذا المعهد على خير طريقة تُعِدُّ شباب البلاد لخدمة أمتهم على خير الوجوه.

(١٢): الشيخ الفقي ممن اتصل بهذه البلاد في عهد مبكر، فعين في إحدى وظائف التعليم في مكة، وأصدر مجلة «الإصلاح» في سنة ١٣٤٧هـ، ١٣٤٨هـ شهرية، ثم عاد إلى مصر، وتولى رئاسة (أنصار السنة) وقويت صلته بالعلماء في نجد، فكان يقوم بطبع كثير من المؤلفات على نفقة الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ.

(١٣): يتكون هذا الوفد من عبد الخالق حسونة وأحمد الشقيري ومحمد العشماوي ومحمد غازي، وكان معهم جمال الحسيني مستشار الملك، والملك هو الذي رغب منهم أن يزوروا المعهد، فلم يقابلهم الشيخ محمد، ورأيت من قبيل المجاملة أن ألقي كلمة اعتذار عن عدم حضور الرئيس لظروف خاصة وكان هذا باقتراح من الشيخ عبد اللطيف، فبعد أن رحبت بالوفد وأبديت للشيخ محمد العذر، وأوضحت الغاية من إنشاء هذا المعهد وإجمال ما تسير عليه الدراسة من منهج، كان فيما قلت : (والمعهد يُعنَى بطائفة ممن حُرِموا نعمة البصر، ليوجههم وجهةً تجعلهم يعيشون في هذه الحياة غير عالة على غيرهم، ومن يدري فقد يكون من بين هاؤلاء من يرفع شأن أمته عالياً كالدكتور طه حسين، الذي لم يرفع شأن مصر وحدها، بل شأن الأمة العربية بحيث أصبحت جامعات الغرب تتبارى في دعوته ليحاضر فيها)، فما كان من جمال الحسيني إلاَّ أن قاطعني قائلاً : لا يا أستاذ كالشيخ محمد بن إبراهيم ـ مع أنني أتحدث باسم الشيخ محمد بن إبراهيم، وقد كان لهذا التعليق صدى واسع واتخذ منه المغرضون وسائل للنيل مني).

(١٤): مجلة «اليمامة» ـ ج١، ص٤٠ السنة الأولى .

(١٥): المصدر السابق ج٩، ص٤٠ .

(١٦): حتى عام ١٣٧٥هـ حين عين مكانه عبد العزيز بن صالح بن مقرن .

(١٧): «اليمامة» ـ ج١ ، ص٤٢ ـ السنة الثانية .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٣٦٩/٢/٢٦

ايضـــاح بعض امور لابد منها في تاسيس المعهد

١ـ اقسام المعهد

يتكون المعهد من ثلاثة اقسام ، قسم ابتدائي وقسم ثانوي وقسم عال ، ومدة الدراسة في كل قسم اربع سنوات .
ويسمح للطالب الذي يستطيع اكمال مقرر الدراسة في احد الاقسام او بعضها ان ينتقل الى ما يلائمه من الفصول ولو لم يمكث في المعهد المدة المحددة للدراسة ـ بعد اختباره فيما درس ، ونجاحه فيه

ثانيا ـ شروط الالتحاق باقسام المعهد ـ

لا يسوغ الدخول في القسم الابتدائي الا لمن اتصف بالصفات الآتية (١) ان لا يقل العمر عن ١٥ سنة ولا يزيد عن ٢٥ (٢) ان يكون الطالب قد حفظ القران الكريم نظرا وحفظ منه غيبا ما لا يقل عن جزئين (٣) ان يكون قد تعلم مبادئ القراءة والكتابة
ولا يسوغ الدخول في القسم الثانوي الا لمن اكمل مقرر الدراسة في القسم الابتدائي او ما يعادلها وان لا ينقص عمره عن ١٥ سنة ولا يزيد على ٣٠ سنة
ولا يسوغ الدخول في القسم العالي الا لمن اكمل دراسة القسم الثانوي او ما يعادلها وان لا يتجاوز عمره ٣٥ سنة

ثالثا ـ العلوم التي تدرس في المعهد

١ـ القران الكريم . ـ٢ـ التجويد . ـ٣ـ القرآت . ـ٤ـ التفسير . ـ٥ـ اصول التفسير . ـ٦ـ التوحيد . ـ٧ـ الفقه ٨ـ اصول الفقه . ـ٩ـ الحديث . ـ١٠ـ مصطلح الحديث . ـ١١ـ النحو . ـ١٢ـ الصرف . ـ١٣ـ البلاغة (المعاني والبيان والبديع) . ـ١٤ـ ادب اللغة (الادب العربي) . ـ١٥ـ محفوظات من الشعر والنثر . ـ١٦ـ الانشاء . ـ١٧ـ الاملاء . ـ١٨ـ الخط . ـ١٩ـ التاريخ . ـ٢٠ـ الحساب . ـ٢١ـ تقويم البلدان . ـ٢٢ـ المطالعة .
ويقتصر في القسم الابتدائي على (القران والفقه والتوحيد والنحو والانشاء والاملاء والخط والمحفوظات والمطالعة والحساب ومبادئ السيرة النبوية من التاريخ)
ويوضع لكل قسم من اقسام المعهد منهج دراسي يبين مقدار المواد التي تدرس في كل سنة من السنين والكتب التي تدرس والحصص اليومية لكل علم من العلوم المذكورة

رابعا ـ اوقات الدراسة

الدراسة السنوية عشرة اشهر (جميع اشهر السنة سوى رمضان وذي الحجة)
في كل يوم من ايام الاسبوع ستة دروس ما عدا يوم الخميس فاربعة ، ويوم الجمعة استراحة
لا يزيد زمن الدرس عن ساعة واحدة ولا ينقص عن اربعين دقيقة وينبغي ان يكون بين كل درسين فترة استراحة قصيرة
ابتداء الدراسة اليومية يختلف باختلاف الفصول ، ولكن يلاحظ في تحديد ذلك حالة الطلبة

خامسا ـ موظفو المعهد

~~يحتاج المعهد من الموظفين~~ (١) مدير كفء ويحسن ان يكون من اهل البلاد (٢) معاونان اثنان ويشترط فيهما ان يكونا ممن درس دراسة عالية في مدرسة منظمة ، ليمكنهما مساعدة المدير في الاعمال وتنظيم الجداول الدراسية والاوقات واوراق الاختبارات (٣) ثلاثة مراقبين لمراقبة الطلبة في المدرسة في اثناء الاستراحات وملاحظة المتخلفين منهم واشعار الادارة بذلك يوميا ولا يشترط فيهم ان يكونوا من ذوي الكفاءات العلمية العالية بل كل رجل حسن الاخلاق يجيد القراءة والكتابة يصلح لهذا العمل (٤) مدرسان للقران الكريم والتجويد ومن الممكن وجود كفء من اهل البلاد (٥) مدرسان للتفسير واصوله (٦) خمسة مدرسين للفقه والتوحيد والحديث واصول الفقه والمصطلح ويوجد من علماء نجد من يقوم بتدريس هذه العلوم خير قيام (٧) عشرة مدرسين منهم ثمانية للغة العربية وعلومها وللتاريخ واثنان

واثنان ليساعدا في تدريس اصول الفقه واصول التفسير ، ومن المستحسن ان ينتدب الاخ عبد العزيز بن [illegible] ابراهيم للسفر الى مصر او الى الشام ليختار هؤلاء المدرسين العشرة بمساعدة الشيخ حامد الفقي والاخ عبد العزيز بن عبد الله بن حسن والشيخ بهجة البيطار وامثالهم من الذين يوثق بهم (٨) مدرس واحد للحساب ويكون عالما بعلم الفرائض . (٩) خمسة خدم للمعهد

تقرير الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ عن تأسيس المعهد العلمي بالرياض .

٢٠/٨/٧٠
٤/٥/٥٢

ملحوظ:
ألم تطلع على قصة (بيت يهود)
التي أرسلتها من [illegible] جيل جيلان
لقد نشرت في البلاد السعودية [illegible]
لينتبه الاستاذ [illegible]

الموقر

حضرة الأستاذ المقدم حمد الجاسر

تحية وسلاما: الله الله تكونوا بخير وانهيتم الاختبارات وما يتعلق بها.

سررت يا أستاذ حمد من أنك أجابتك بشأن المعهد وعن وجود جملة شتيمة [illegible]
يدرس الدروس الدنيوية - ومن يدرس الدروس الدينية - هذا هو داء هو [illegible]
يا أستاذ لو عرفنا الذين كنا حملنا - فإذا تبينه من دراسة تكريس الدروس الدينية وترك
الدروس الأخرى - الناس تتقدم اخرجوا لهم سيارات والطيارات وجيوش [illegible]
نتفرج ونقول هذا حرام وهذا حلال، وكل هذه الأشياء لا نزال نحن [illegible]
العلم أوسع ترتيبا من قبوله واستنارته، فلا نحن لا نفتح هذه المدارس [illegible]
بعمامات وأحجبة [illegible] الحكام سنسبق نحن في الدخول إلى الجنة
ونحن لم نفتح هذه المدارس، يا ويلنا من هذه الأفكار، ويا ويلنا من الجهل المطبق
إنا لله [illegible] الذين [illegible] - ولو حتى يقعدوا في بيوتهم - وما كانوا ويسكتوا
فقط لو يتركوا غيرهم لو يعنيهم. ماذا هل يظنون أنهم بهذا سيحافظون على الدين لا والله
هذه [illegible] - وهذا هو الجامع الأزهر فيه من علماء الدين ما يغنون [illegible] - هل منعهم
أن يوقفوا سبيل التقدم والرقي، وأنا هذا غيرة على الدين.
[illegible] الأستاذ [illegible] بقدر ما تستطيع [illegible] الله [illegible] خطاك ووفقك والسلام [illegible]

[illegible]

في إدارة كليتي (العلوم الشرعية) و (اللغة العربية)

في عام ١٣٧٥هـ [١٩٥٥م] كان الشيخ محمد [بن إبراهيم] ـ رحمه الله ـ قد تقدمت به السن، إذ بلغ منتصف العقد السابع[1]، وقد اعترته بعض الأمراض التي أضعفت صحته، فسافر لعلاجها للخارج، ولكنه لم يستفد.

وقبيل ذالك كان أكبر أبنائه الشيخ عبد العزيز قد سافر إلى مصر للالتحاق بكلية الشريعة التابعة للأزهر، ومكث فترة من الزمن، فلم يتسنَّ له ذالك على ما أظن، إذ لم يكن أمر الالتحاق ميسوراً كما كان في العهد الحاضر.

وقد كثرتْ أعمال المعاهد لتعدُّدِ ما أُنشيء منها في مختلف المدن، مع عدم كفاءة كثير من المشرفين على شؤونها، مما سبب توجيه انتقادات كثيرة إلى من وُكِل إليهم أمر الإشراف على تلك المعاهد.

وفي شهر صفر من ذالك العام ـ ١٣٧٥هـ [أيلول وتشرين الأول ١٩٥٥م] ـ بعد أن كثر الإلحاح على الشيخ لكي تسير الشؤون الإدارية بطريقة منظمة كان مما قرر :

١ ـ إنشاء إدارة عامة للمعاهد والكليات، يسند القيام بها لأخيه الشيخ عبداللطيف، وتنحصر في الشؤون الإدارية.

٢ ـ تعيين الشيخ عبد العزيز بن محمد مديراً لمعهد الرياض، ولكليتي العلوم الشرعية واللغة العربية، وأَنْ تُسْنَدَ إِليَّ وظيفة مساعدٍ للشيخ عبد العزيز، ولما أبلغني الشيخ عبد اللطيف بهذا أوضحت له عدم رغبتي في الاستمرار في العمل، وأن من الأحسن بالنسبة لي أن يكتب إلى الملك سعود بالاستغناء عني .

وبعد يومين دعاني الشيخ إلى منزله ، فحاول أن يزيل ما في نفسي من أثر بعبارات رقيقة ، وأوضح أنه لا يريد لي دائماً إلاَّ الخير ، وأن الأخ الشيخ عبد اللطيف أخبره بما قلت له ، وتأثر بهذا ، فأوضحت له أنني لم أَقُلْ ذالك ترفُّعًا عن العمل مع أَيِّ إنسانٍ ترون لي العمل معه، سواء كان ابنكم أو غيره، وقد أمضيت أربع سنوات وأنا أعمل مع الأخ الشيخ عبد اللطيف، ومع أنني لم تحدد لي وظيفة إلا أنني كنت مرتاحًا للعمل معه، لحسن معاملته وتقديره لي(٢)، ولقد سبق أن أمضيت في التعليم ما يزيد على عشرين عاماً، وحينما أكلف بعمل مع إنسان قد يجهل الكثير مما يتعلق بذالك العمل، فإنَّ هذا مما يسبب الخلاف بيننا، يضاف إلى ذالك أنني وقد أمضيت تلك الفترة من العمل تحت إشرافكم فأنا جدير بأن أجد من رعايتكم ما أتطلع إليه من عمل مناسب لي. فما كان من الشيخ إلاَّ أن قال: يكون خير إن شاء الله، ثم خرجت من عنده، وبعد صلاة العصر دعاني الشيخ عبد اللطيف وأخبرني بأن الشيخ قرر بأن أتولى إدارة الكليتين، وأن يفصلا عن إدارة المعهد، وأن يجعلا في مقر خاص هو بناية المعهد القديمة، في شارع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ورغب مني أن أسمي من أريد أن يساعدني في العمل، فذكرت له صالح الخليفة، فكان ذالك، وباشرت العمل في إدارة الكليتين في شهر صفر سنة ١٣٧٥هـ.

وكان قد مضى على إنشائهما زمن ، فقد افتتحت (كلية العلوم الشرعية) في أول عام ١٣٧٣هـ، حيث بلغ عدد طلابها في سنتيها الأولى والثانية سبعة وثلاثين طالباً.

وفي سنة ١٣٧٤هـ [١٩٥٤م] افتتحت (كلية اللغة العربية) والتحق

بهـا عـشـرون طالبـاً . وحـينمـا اسـتـقـر عـملي في إدارة الكـليـتين نُدِبَ للتـدريس فـيـهـا تسـعـة أسـاتـذة هم المشـايـخ : عـبـد العـزيز بن بـاز ، عـبـد العزيز بـن رَشيـد ، مـحـمـد الأمين الشـنقـيـطي ، عبـد الرحـمن الإفـريقي وخمسة من علمـاء الأزهر هـم : يوسـف عـمر ، وعبـد اللطيف سـرحان ، ورفعت فتح الله ، وجمعة حسنين ، وجابر إسماعيل[٣] .

ومن أوائل متخرجي الكليتين : ـ

محـمـد بن سليـمان الأشـقـر معاونـاً لمعـهـد شـقـراء ، وعبـد العـزيز بن عبد المنعم مدرساً في معهد المجمعة ، وعبد العزيز الْحُزَيْمي معاونًا ثانياً في مـعـهـد الـرياض ، وعـبـد الله بن غُدَيَّان مـدرسـاً في مـعـهـد الرياض ، وعطيـة مـحـمـد سـالـم مـدرسًـا فـي [مـعـهـد] الأحـسـاء ، وراشـد بـن خُنَيْن مـدرسًا في [مـعـهـد] شقـراء ، ومـحـمـد بن عـثـيمين مـدرسـاً في [مـعـهـد] عنيزة من العام الماضي[٤] .

إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَنافَرَ وِدُّها ... مِثْلُ الزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا لا يُشْعَبُ[٥]

وهكـذا كـان بين مدير المعهد ومدير الكليتين ، فقد تصور الأول ـ بل ربما وقع فـي قلبـه ـ عن امـتنـاع الثـاني عن العـمـل معـه مـا كـان له الأثر السيء في الصلة بين الرجلين .

ولعل مما حدث وإن لـم يكـن ذا أهمية ـ أن مـدير المعهد ـ منذ الأسبوع الأول لتوليه العمل ـ أمر بمنع دخول صحيفة «اليمامة» في المعهد ، وكان طلابه من المشتركين فيها ، وممن يحرصـون على قراءتها ، فهي الصحيفة الوحيدة التي تصدر في مدينة الرياض في ذالك العـهد ، ويسـهل لقرائها الاطلاع عليـها حين صدورها ، وهـي مع ذالك تُعنَى بصفـة خاصة بما يـهتم به اؤلئك الطلاب مما يتعلق بالمعاهد والكليتين من أخبار وتنشـر كثيـراً

من كتابات مدرسيهم، بل إن كثيراً منهم ممن يحاول أن ينشر له فيها ما يمرنه على الكتابة في المستقبل، وهكذا كان.

وما زال هذا النفور بين الاثنين يزداد حتى استحكم، ولا سيما بعد أن أصبح أحدهما أقرب إلى إدارة الشؤون العامة للمعاهد والكليات، فقد كان الشيخ عبد اللطيف يراعي نفوذ الرجل الذي كانت صلته بوالده الرئيس العام أقوى وأعمق، ولهذا فكثيراً ما كان في أول الأمر يشارك عمه [الشيخ عبداللطيف] في العمل، فكان يقوم بالسفر إلى مصر لاختيار المدرسين، ولتوزيعهم كما يشاء، بل كان يتدخل في أمور إدارة الكليتين.

ولقد أدركت أنه ليس في استطاعتي فعل أيِّ شيء حِيَال ذالك، كما أحسست ممن وكلت إليه الإدارة العامة ضعفاً، ورغبة في أن لا يتدخل بين الابن وأبيه، بل تَخَلِّيًا عَمَّا يتصل بعملي، ومن طبيعتي الانطواء والعزلة، وهكذا كان، بحيث انقطعت صلتي بالشيخ، ما عدا الاقتصار على زيارته في المناسبات.

وسارت الأمور على هذه الوتيرة سنة كاملة، منذ أن توليت منفرداً إدارة الكليتين في شهر صفر سنة ١٣٧٥هـ، حتى اليوم الحادي عشر من الشهر نفسه، سنة ١٣٧٦هـ أي من حين أن تولى المعهد مديرُهُ الجديد، وقد كنت قبل ذالك أقوم بالمشاركة في الإشراف على إدارتهما مع المعهد.

وأجدني الآن أُحِسُّ بكثير من الراحة والسرور، حين أتذكر ما كان لفتح هذا المعهد من أَثَرٍ في توجيه عدد من أبناء البلاد وجهة صالحة، وما أحدثه ذالك التوجيه من تأثير في حياتهم الثقافية بصفة عامة، فضلاً عن إعداد كثير منهم للمشاركة في القيام بكثير من أمور بلادهم في جوانب متعددة من حياتها في مختلف المجالات.

لم يقف تأثير فتح المعهد في مدينة الرياض وفتح فروعه في البلاد الأخرى علي حدٍّ ما يتلقاه طلابه من دروس، وإنما كان له من الآثار ما هو أعم وأوسع ، فقد نُدِب للتدريس فيه عددٌ من خيرة المدرسين المصريين استطاعوا أن تكون صلتهم بالطلاب مُجْدِيَةً ونافعة، لكي يدركوا أن هناك من آفاق المعرفة الواسعة خارج بلادهم ما لم يدركوه أو يعرفوا شيئاً عنه، كما رغبهم في تلقي علومٍ إن لم تكن غير مقبولة لدى مشائخهم فهي ليست معروفة لديهم، يضاف إلى هذا اطِّلاعُ أولئك الطلاب على ذالك الفيض الغامر من المؤلفات الحديثة، والصحف التي تنشر خارج البلاد، وفيها من صنوف المعرفة، ومن وصف أحوال العالم، ومن الاتصال به ما لا عهد لهم به.

فكان من آثار ذالك كله أن تفتحت أذهانهم، واتسعت مداركهم، وأحبوا أن يُجَارُوا غيرهم في جميع الأعمال النافعة.

لقد أنشأ طلاب معهد الرياض مكتبة اختار أكثر مؤلفاتها إخوانهم من طلاب البعثات السعودية كالأستاذ ناصر المنقور وزملائه، وفيها من الكتب الحديثة، ومن المراجع العامة الشيء الكثير ، دفعوا ثمن ذالك من تبرعاتهم ، وأنشأوا نادياً أسبوعياً كل ليلة جمعة يتمرنون فيه على الخطابة والإلقاء والمناظرات، وفكروا في إصدار مجلة شهرية[٦]، إلى غير ذالك مما يدل على تفتح الوعي بين ناشئة البلاد. ولا داعي للاسترسال في الكلام عَمَّا لهذا المعهد وفروعه في مجال التعليم، بل الثقافة العامة على وجه العموم، من جليل الآثار.

لن أُعْفِيَ نفسي من أسباب ما حدث بيني وبين مدير المعهد، فقد كان من اليسير عليَّ أن أُعالِجَ الأمر في أوله بالطريقة الحسنى، بالمسايرة

والتسامح، وعدم الظهور بمظهر يفهم منه الترفع، مما يستلزم زيادة النفور استحكاماً، ولن أُعْفِيَ نفسي من الاعتراف بأنني كثيراً ما ألجأ إلى المقاطعة، في وقت أنا أحوج ما أكون إلى التواصل والتقارب، وكان من الواجب عليَّ إذ ذاك أن تقوى صلتي بالشيخ لا أن تضعف، وأن أُبْدِيَ له بطريقة لا تجرح العواطف كل ما أراه مؤثراً في نفسي.

ولا أكتم القارىءَ أن الشيخ ـ رحمه الله ـ كانت بداية تأثره بالنسبة لي قبل عودة ابنه من مصر، فقد سبقت الإشارة إلى أنني في الكلمة التي ألقيتها ترحيباً بوفد (جامعة الدول العربية) ذكرت الدكتور طه حسين، وأن مستشار الملك جمال الحسيني قاطعني مُسَمِّياً الشيخ محمد، مع أنني أعبر بكلمتي عن الشيخ نفسه، وليس من الملائم أن أُثني عليه، وإنما المقام مقام اعتذار عن تأخر حضوره، إلا أنني أدركت فيما بعد من كلام الشيخ عبد اللطيف عدم استحسان ذكر الدكتور طه حسين، وحدث بعد هذا بفترة من الزمن أن زار أحد الأمراء الشيخ في بيته، فنال مني لكوني شبهت أبناء المسلمين بطه حسين، بل طلب أن أُنَحَّى عن عملي، لسابق مشادَّةٍ جرت بيني وبين هذا الأمير مِمَّا أغضبه[7].

ثم حدث بعد ذالك أن زار الشيخ المعهد، ومعه الشيخ حامد الفقي[8] رئيس أنصار السنة، الذي صرخ بأعلى صوته حينما دخل فصلاً يقرأ طلابه في درس المطالعة كتاب « البخلاء » للجاحظ: أعوذ بالله كتب الجاحظ المعتزلي تدرس في المعهد؟! فما كان من الشيخ إلاَّ أن أمر بإلغاء تدريس هذا الكتاب، وقد سبق أن أقره، إلى أمور أخرى لا داعي لذكرها.

حتى كان شهر صفر سنة ١٣٧٦هـ [أيلول ١٩٥٦م] وكنت إذ ذاك أصدر صحيفة «اليمامة» وقد قرر رئيس وزراء الهند (جواهر لال نهرو)

زيارة البلاد، فكتبت (المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر) إلى جميع الصحف بنشر ما يدل على الاحتفاء بالضيف من كلمات ترحيبية وغيرها، فكان أن نشرت في العدد الـ (٤٦) الصادر في يوم الأحد ١١ صفر سنة ١٣٧٦هـ [١٦ / ٩ / ١٩٥٦م] كلمة بعنوان (مرحباً برسول السلام) في الصفحة الأولى التي تتوسطها صورتا الملك سعود ورئيس جمهورية الهند وجواهر لال نهرو، تحوي إشارات موجزة إلى أعمال ذالك البطل الإنساني داعية السلام ورسول التعايش السلمي.

ويحسن إيراد نصها كاملاً ليتضح للقاريء الباحث عن جميع جوانب الأمر أن هذه الكلمة حُمِّلَتْ من المعاني مالم تحتمل:

(تستقبل مدينة الرياض في أول الأسبوع المقبل ضيفاً كريماً، جديراً بأن يستقبل بكل ضروب الإكرام والحفاوة والتقدير، وتستعد هذه المدينة لكي تُبْرِزَ ما تستطيع إبرازه للتعبير عن سرورها وابتهاجها بمقدم ذالك البطل العالمي العظيم، بما تقيمه من معالم الزينة في ميادينها وشوارعها العامة، وأَسْمَى من ذالك وأَجَلُّ ما يعبِّر به كل فرد من سكانها من البِشر والابتهاج بهذه الزيارة الكريمة، فالعربيُّ من أبرز صفاته عِرْفَانُ الجميل، والوفاء، والكرم، وتقدير العاملين.

وضيفنا العظيم (البانديت جواهر لال نِهْرو) رئيس وزراء (الجمهورية الهندية) جدير بكل ذالك، وبأكثر منه، فأعماله المجيدة في سبيل الدفاع عن حرية الشعوب، ومؤازرته في كل موقف سياسي عالمي للأمم الضعيفة، ودفاعه القوي عن حقوق الدول الأسيوية، وموقفه في (بانْدُونْغ) و(بَرِيُونِي) وغيرهما في مناصرة القضايا العربية، وموقف حكومته الأخير من قضية (قناة السويس)، وهي قضية العرب أجمعين، كل هذه ـ وأكثر منها مما لا نطيل بذكره ـ جديرةٌ بأن تُحِلَّهُ أسمى قِمَّةٍ من قِمم البطولة والمجد،

وأن توجد له في قلب كل إنسان ـ عربياً كان أو غير عربي ـ من الإجلال والتقدير الشيء العظيم.

فمرحباً بهذا البطل الإنساني، الذي يسعى لخير الإنسانية، سعياً خالصاً، مجرداً من كل غرض، وأهلاً بهذا الرجل الرحيم، الذي أفعمت قلبه الرحمة، وملأته بالعطف والشفقة، فأصبح داعية السلام الأول ورسول (التعايش السلمي) وعلى الرحب والسعة، في بلاد يرى أهلها من أوجب واجباتهم جزاء الإحسان بالإحسان، وتربطهم ببلادك أيها البطل العظيم روابط قوية، من الجوار والصلات القديمة، وهم يعرفون لهذه الروابط حقها، ويأملون أن تزداد قوة على قوتها.

حياك الله أيها الضيف الكريم، في رحاب مليكنا العظيم، تجمعكما غاية واحدة، هي نصرة الحق والسلام، وتسعيان سعياً مشتركاً لإسعاد شعبيكما، اللذين يُكِنَّان لكما من ضروب الود والمحبة أكثر مما يُبْدِيان، وتعملان جاهدين ما استطعتما ليحل الوئام والإخاء محل الفرقة والتقاطع، وفق شريعة الحق والصلاح) .انتهى.

وفي صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من الشهر المذكور، وبينما كنت أشرف على اختبار بعض طلاب (مكملين) في ضحوة ذالك اليوم، إذا بأحد تلاميذي يدخل عليَّ الغرفة وينادي بحيث يسمع الطلاب صوته قائلاً: يا حمد، يا حمد، يقول لك الشيخ محمد بن إبراهيم: اخرج من (كليتنا) ولا تدخلها بعد اليوم!! فقربت منه وقلت له: لا بأس اذهَبْ لا تشوش على الطلاب، ويكون خيراً إن شاء الله، ثم شُغِلْتُ بعد صلاة الظهر مع بعض الأساتذة بتصحيح أوراق الاختبار، وبعد عصر ذالك اليوم اتصلت بالهاتف بالشيخ عبد اللطيف، وسألته عن الأمر فقال، الشيخ متأثر مما نشِر في الجريدة، فقلت له: ما نُشِر يعبر عن رأي

الحكومة، فهي التي أمرت بواسطة (المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر) بكتابتها، وليست موقعة باسمي، ومع ذالك فلم أرَ فيها ما يحول دون نشرها، فقال: أستحسن أن تحضر عندي لنذهب معاً إلى الشيخ، فقلت له: لقد أحسست أن الشيخ منذ أن امتنعت من العمل مع الأخ عبد العزيز لا يبدو عليه ارتياحٌ حين مقابلتي، مما يدلُّ على أنه يُبَلَّغُ عني ما قد يؤثر في نفسه دون أن أشعر.

ومن هنا فلا أَستحسن الذهاب إليه، ولا أرغب الاستمرار في العمل، وكل ما أرومه وقد سعيتم لنقلي من وظيفتي بدون اختياري أن تكتبوا إلى الملك بأنكم استغنيتم عني.

وفي صباح يوم الثلاثاء قابلت الشيخ عبد اللطيف في بيته فَقَدَّم لي صورة ما كتبه أخوه الشيخ محمد إلى الملك سعود ونصه بعد البسملة:

(من محمد بن إبراهيم إلى الإمام المكرم سعود بن عبد العزيز وفقه الله، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فقد استغنينا عن الأستاذ حمد الجاسر وهو مشكور في عمله، والسلام).

وبعد يومين قابلت سعوداً فكان مما قلت له: إنَّ نظام الموظفين قد كفل حقوق كل موظف كاملةً، فلا يُعَزل من عمله، ولا ينزل من مرتبته، ولا ينقص راتبه إلا بسبب موجب لذالك، بعد أن يحقق معه، ويثبت ذالك السبب، وحيث إنني نُحِّيْتُ عن عملي بدون تقصير مني فيه، فأرجو تأليف لجنة للتحقيق في قضيتي، وليست غايتي الاستمرار في العمل، وإنما أريد أن يتضح أنني نُحِّيْتُ عنها لا لتقصير مني في القيام بها، فكان جوابه (أنت خبل؟ تَبِينا نشكل لجنة تحاكم الشيخ محمد؟[9] راتبك نأمر باستمرار صرفه لك، ولا عليك من الشيخ)، وقد تم هذا بحيث أصبح هو راتبي التقاعُدِي الذي أتقاضاه إلى هذا

الوقت، مع ما أضيف إلى رواتب التقاعد من زيادات.

لم يقف تأثير تلك الكلمة التي نشرتْ عن (نهرو) بما حدث بالنسبة لي، بل كان من ذالك احتجاج (الحكومة الباكستانية) بحيث دعت حكومتنا سفيرها عبد الرحمن البسام من باكستان، وقد تولى إثارة الموضوع هناك أحد علماء تلك البلاد، ويدعى (مولانا خليق الزمان)، وسأعود للحديث عن هذا في مناسبة أخرى.

ما كنت يوما ما من الأيَّامِ أحملُ في نفسي للشيخ محمد ـ رحمه الله ـ سوى الحب والتقدير، لمكانته العلمية، ولما بذله في خدمة الإسلام والمسلمين من جهود مشكورة، هذا بصفة عامة وبالنسبة لي، فله معي مواقف كريمة، منذ أن انتظمت في حلقة طلابه سنتي ست وأربعين وسبع وأربعين وثلاث مئة وألف [١٩٢٨م]، ثم وساطته في إخراجي من السجن في عهد الملك عبد العزيز سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة وألف[١٠] [١٩٣٨م]، وغير ذالك مما سيأتي تفصيله، لقد كَانَ، تغمده الله بواسع رحمته، يتَّصفُ بمنتهى الطيبة وكرم الأخلاق وسموها، لا يحمل حقْداً لأحد، ولم يعرف عنه أنه تسبب في إساءة أو إيذاء لأي مخلوق كانت له به صلة، وقد عُرِفَتْ أسرته الكريمة بهذه الخلال الحميدة:

وَإِذَا (الْكَرِيْمُ) أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ   جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيْعِ

لم يكن لما حدث بالنسبة إليَّ أيُّ أثرٍ في نفسي، فأنا أُدرك أن الشيخ بالنسبة لما جرى قد تأثر تأثُّراً عاطفيّاً مَدْفُوعاً إليه، ولو وضحَ له الأمر على جليته لكان له رأي آخر، وأنا أتحدث عن أُمور مَضَتْ، ورجل انتقل إلى الآخرة، ولكني أعبر عما أحس وأشعر به نحوه، ومن هنا فقد حزنت لوفاته حينما علمت بها وأنا في بيروت في رمضان سنة

١٣٨٩هـ، وقد عَبَّرْتُ عن ذالك فيما نظمته إذ ذاك، مما لم أَرْتَضِ نشره، إذْ رأيته أضعف عما أحس به نحو ذالك العالم الجليل من إجلال وتقدير، أبتهل إلى المولى جَلَّ وَعَلا أن يتغمده، برحمته ومغفرته ورضوانه ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.

الحواشي

(١) : حيث ولد سنة ١٣١١هـ .

(٢) : بحيث لا أذكر أنه خلال تلك المدة أظهر لي ما يؤثر في نفس أو اعترض عليَّ في أي أمر من الأمور المتعلقة بعملي، مع عدم وضوح اختصاص كل واحد منا في ذالك العمل، إلا أنه كان كثيراً ما يسند إليَّ كل ما يتعلق بشوون الدراسة .

(٣) : مجلة « اليمامة » ـ العدد الأول من السنة الثالثة ص ٢ ـ .

(٤) : مجلة « اليمامة» ـ العدد الأول من السنة الثالثة ص ٢ ـ .

(٥) : البيت لصالح بن عبد القدوس من قصيدته المعروفة بالزينبية والتي مطلعها :

صرمت حبالَكَ بعدَ وصلِك زينبُ   والدهر فيه تصرُّفٌ وتقلُّبُ

(٦) : جريدة « البلاد » السعودية ـ ع ١١١٤ في ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٧١هـ .

(٧) : كانت لي صلة بهذا الأمير منذ أن كنت معتمداً للمعارف، فقد وضعت منهجاً لدراسة بناته اللاتي أحضر لهن مدرسات من فلسطين، ثم كلفني باختيار مواد لذالك المنهج فكان ذالك، وكان كثيراً ما يبعث إليَّ للحضور عنده، وفي ليلة من إحدى الليالي الممطرة سال وادي (الباطن) وكنت أجتمع بعد عصر كل يوم مع أساتذة مدرسة الأمراء الشيخ عبد الله خياط والسيد أحمد علي أسد الله، وبعض رفاقهم، فاقترح أحدهم أن نذهب إلى هذا الأمير لنبارك له بسيل الباطن، وتلك عادة معروفة في هذه البلاد، وبينما نحن في مجلسه قلت : إنَّ الباطن اسمه القديم (عِرْضُ بنِي حَنِيْفَة) فجابهني بكلمة : (تكذب) وانجرَّ الكلام بيننا حتى قمت غاضباً من مجلسه، فأراد أن يثنيني معتذراً، ولكنني صمَمتُ على مغادرة المجلس وعدم الاتصال به، وهكذا كان مما دفعه أن يتحين كل فرصة للنيل مني.

(٨) : سبقت الإشارة إلى أن هذا الشيخ عمل في مكة في سنتي ١٣٤٧، ١٣٤٨هـ، ثم حدث منه

ما سبب عودته إلى مصر ، وكان يتولى رئاسة أنصار السنة ، ولعقيدته السلفية، ودفاعه في مجلته التي تصدر باسم جماعته لمؤازرة تلك الدعوة ، كان ذا مكانة هيأتْ أن يُعهد إليه الإشراف على طبع كثير من الكتب، فأنشأ لذالك مطبعة ونشر عدداً كبيراً منها.

(٩) : (خبْل): أي بدونِ عقل. (تبِيْنا) : تبغينا وتريد منا.

(١٠) : تَقَدَّم ذكر هذا في سانحة: (من ضيافة التكريم إلى ضيافة التأديب).

وتنفست الصعداء (أحسست بالراحة) !!*

أي إنسان يُنَحَّى عن عمل من الأعمال التي تولاها فترةً من الزمن، وأَلِفَها وارتبط بمن تتصل به ارتباطًا وثيقًا، لا بد أن يحسَّ بشيءٍ من الامتعاض والاستياء، حين ينحَّى عن ذالك العمل بدون رغبة ولا اختيار، وهكذا أنا، وإن كنت قد أحسست في الأيام الأخيرة من المضايقة ما كَرَّه إليَّ الاستمرار فيه ومواصلته، إلا أنني كنت أرغب محاولة تركه بطريقة هادئة لا تثير في نفسي، ولا حولي مثل تلك الزوبعة التي فتحت أفواهاً كثيرة للنيل مني، ومحاولة إلصاق ما أنا أبعدُ الناس عنه بي من التهم، حتى ممن كنت أتوسم فيهم الخير، ممن كانت صلتي بالعمل تحملهم على الظهور لي بمظهر تكشَّف لي زيفه، عندما نُحِّيت عنه، وتلك سجية أخلاَّء التصنُّع والغايات الخاصة في كل زمان ومكان (إذا الريح مالتْ مال عنك حيث تميل) إلا أنني لا أملك الآن من الأمر شيئًا، سوى أن أوطِّنَ نفسي، وأن أقابل الأمور بما أستطيعه من الرضا والاطمئنان فليس لي مندوحة عن ذالك.

يضاف إلى هذا أن الملك سعوداً ـ رحمه الله ـ أمر باستمرار صرف مرتبي[1]، وهو كل ما أستفيده من خلال العمل في إدارة (كليتي العلوم الشرعية واللغة العربية)، وسبق أن منحتني الدولة أرضاً سعتها ست مئة متر، بعت نصفها بثمن هيأ لي بناء سكن مناسب في النصف الباقي، جوار محطة الكهرباء في شرق المدينة بين شارعي القِطَار جنوبًا والجامعة شمالاً، وها أنا بعد أن وطدت العزم على الاستقرار في مدينة

* المجلة العربية، العدد (٢١٦)، محرم ١٤١٦هـ / أيار وحزيران ١٩٩٥م.

الرياض، مضى لي فيها الآن سبع سنوات تزيد أياماً (من ٢٥ ذي الحجة ١٣٦٨هـ إلى ١٢ صفر ١٣٧٦هـ) كنت خلالها قد اتجهت لممارسة مهنة أخرى، أحسست أنها بحاجة إلى أن أبذل لها جُلَّ وقتي وجهدي، ولم يكن العمل في مرحلته الأولى ليؤثر على القيام بأداء عملي، أما الآن فالأمر يتطلب التفرغ التام لذالك العمل وسيأتي تفصيل هذا.

لعل من أقوى ما يربط المرءَ بأية بلدة يقرر الاستقرار فيها صِلَتُهُ ببعض أهلها أو سكانها، فالمرء اجتماعي بطبيعته يألف ويؤلف، ومع أن صلتي بمن كنت أشاركهم العمل من أساتذة أو طلاب، كانت قائمة على أساس قوي من التآخي، إلا أنني وقد أُخْرِجْتُ منه بطريقةٍ غير مريحة، ولا حسنة السمعة، قد أحسست بتغير الحال، بالنسبة لأكثر اؤلئك، فقد انقطع اتصالهم بي، وقلّت زيارات من اعتاد زيارتي بصفة دائمة، وأنا وإن كنت أدرك ما يحمل لي أكثرهم من التقدير، إلا أن هذه المقاطعة أيًّا كان سببها لها أثرها في نفسي، لا سيما وقد أدركت أن أغلب ما يتظاهرون به من التزلُّفِ إلي والتعلق بي كان مبنيًا على زيف وغش، وأن الغاية تَتَبُّعُ ما قد يبدر مني من الهفوات، لاتخاذها وسيلة لدى الآخرين (إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً).

غير أن مما كان يخفف أثر هذا في نفسي أن لي إخوة آخرين ممن تربطني بهم روابط تعارف وصلات قديمة من المهتمين بالشؤون الثقافية، من موظفي التعليم، ومن طلاب المدارس وغيرهم، ممن عرفوا كل ما يتعلق بتنحيتي عن العمل على حقيقته، بل كان من بينهم من يتوقع لي ذالك ممن كانوا ذوي صلة بالشيخ محمد ـ رحمه الله ـ أو بحاشيته من أبنائه وغيرهم، ويدركون ما حدث بيني وبين «أحد الأخوة» من تنافر،

بل كان من بين هاؤلاء من كان دائم النصح لي بالاتصال بالشيخ، لمعالجة الأمر الذي أحدث ذالك التنافر، وإدراك ما قد يكون غَيَّر خاطر الشيخ بالنسبة لي، غير أنني كنت أفكر بأن الحالة لن تتعدَّى فصلي من العمل، وهذا ما كنت أتوقعه وأرغب فيه، وقد وطَّنت نفسي على تقبله، وما ظننت أنه سيلبس من الأسباب ما يبرزني بصورة متهم بما أنه منه بَرِيء من حيث موالاة أعداء الله، ووصفهم بأوصاف رُسُله[٢]، فقد انقطعت زياراتي للشيخ في بيته، منذ أحسست بشيء من النفور بيني وبين أحد الأعزاء عليه، واقتصرت رؤيتي له على زيارته لإحدى الكليتين التي أتولى إدارتهما، وهي نادرة جداً، وأنا أدرك أنني بعملي من حيث الإقلال من صلتي بالشيخ أوجدتُ هُوَّةً بيني وبينه اتخذ منها ذوو الصلة به ما سيحدث في نفسه بعض التأثر علي، وما كنت أحمل له في نفسي إلا الحب والإجلال، والاعتراف بالفضل، وهو جدير بكل ذالك، ولكن من سجيتي الانقباض، وعدم توطين النفس على ما يوجد الألفة من التواصل والتزاور، وخاصة مع ذوي العلم والفضل ممن أستفيد منهم في زيارتهم أو تربطني بهم صلة من الصلات التي تستلزم مثل هذه الزيارة، إلا أن هذه السجية التي أدرك أنها غير حسنة لم أستطع التغلب عليها.

ولقد كان من بين اولئك الخلَّص من الإخوة (أساتذة مدرسة الأمراء)[٣] ممن كانت صلتي بهم قديمة، حيث عرفت بعضهم في مكة أثناء الدراسة في (المعهد السعودي) في أوائل عشر الخمسين من القرن الماضي، كالشيخ عبد الله عبد الغني خياط مدير المدرسة، والأستاذ السيد أحمد علي وأخيه الأستاذ عبد الحميد حامد وغيرهم.

كانت صلتي بالشيخ الخياط وزميليه منذ ذالك العهد مع (ثلة) من

الإخوان، منهم الشيخ محمد الحسن الضُّبيب ـ والد الدكتور أحمد مدير جامعة الملك سعود ـ والشيخ عبد الله بن سليمان المزروع، ويقتضيني الوفاء لهذه الصفوة من الإخوة أن أتآى بالقاري قليلاً عما قد يؤثر في النفس، بإبراز جوانب مما عرفت عن بعضهم، وجلهم ممن انتقل إلى جوار ربه، أسأله سبحانه وتعالى أن يتغمدهم بواسع رحمته.

عاش الشيخ عبد الله [خيّاط] في بيئة سلفية متأثرة بأفكار (أهل الحديث) في الهند، ممن هاجر إلى مكة المكرمة، واستقر بها كالشيخ عبد الرحمن مظهر رئيس مطوفي الهنود وبعض أقاربه وإخوانه وغيرهم، ثم انضم الشيخ الخياط إلى طلاب (المعهد السعودي) أول افتتاحه، فأكمل دراسته فيه، وكان على اتصال بالشيخ عبد الظاهر محمد أبي السمح إمام الحرم المكي الشريف، وبصهره الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة، وببعض العلماء السلفيين ممن تلقى عنهم العلم، ولا يتسع المقام لتفصيل الحديث عن هذا.

ولقد كان من أبرز آثار قوة صلة الشيخ الخياط بالشيخ أبي السمح تأثره به في تلاوة القرآن الكريم، الذي قرأه عليه حتى أتقن طريقة أدائه، بحيث إن من استمع الشيخ الخياط يرتل القراءة ممن سبق له استماع قراءة الشيخ أبي السمح لا يفرق بينهما إلا من حيث طبيعة الصوت.

وكان للشيخ الخياط نشاط بارز في نشر كثير من الأبحاث الدينية، والرسائل والخطب، في الدفاع عن العقيدة السلفية، وفي الحث على التخلق بالأخلاق الفاضلة، وفي التفسير مما أوجد له مكانة لدى ولاة الأمور، فأُسْندت إليه وظائف دينية منها (رئاسة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) والإمامة في الحرم المكي، ثم إدارة (مدرسة الأمراء في الرياض) فالعمل في (وزارة المعارف) في مناصب عالية، وأخيراً عين في (هيئة كبار العلماء).

أما الأستاذ السيد أحمد علي أسد الله الكاظمي فقد تخرج في المعهد أيضاً وكان يجيد اللغة الإنجليزية، قراءة وكتابة وترجمة، ونشر أبحاثاً تاريخية وأثرية مترجمة عنها في مجلة «المنهل» وغيرها من الصحف، كما نشر في موضوعات أخرى، ومنها في وصف رحلاته داخل البلاد وخارجها، وكان ـ رحمه الله ـ ذا نَفْسٍ مرحة، قل أن يشاهد إلا وهو رضي البال، متهلل الوجه، كثير الابتسام، وهي صفات تنطبق على أخيه الأستاذ السيد عبد الحميد حامد ـ رحمه الله ـ في أكثر الأحوال، قبل أن يشتد به مرض الربو بحيث أمضى آخر أيامه في (مستشفى الصدر بمصر الجديدة في القاهرة) حتى لاقى ربه، أما الأستاذ أحمد فقد تولى التدريس في مكة ثم في (مدرسة الأمراء) مع صديقه وصهره الشيخ عبد الله خياط الذي كانت الصلة بينهما على أقوى ما يكون، بحيث كانا يسكنان في دار واحدة، ويقضيان أوقاتهما معاً متلازمين، مرتبطين بروابط نسب ورحم، وكان من آخر ما تولى قبل وفاته في (وزارة المعارف) مستشاراً لها، وقبل ذالك كان عميداً (لكلية الشريعة بمكة) أكثر من عشر سنوات، وقبلها مديراً (لكلية المعلمين بمكة)، ومن آثاره كتاب «آل سعود» أرخ فيه لهذه الأسرة الكريمة، وكتاب «مذكراتي» نشره (نادي الطائف الأدبي)*، وبحث قيِّمٌ عن (تطور المملكة خلال [٢٥] عاماً) نشر في مجلة «المنهل» في عددها الفضي. وقد انتقل إلى جوار ربه يوم الاثنين ٢٩ جمادى الأولى لعام ١٤١٣هـ.

أما الشيخ محمد الحسن الضُّبَيْب، فقد كان في أوائل عشر

* أصدرت دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤١٩هـ (١٩٩٩م) الجزء الأول من مذكراته بعنوان: «يوميات الرياض»، وكان ما أصدره نادي الطائف ملخصاً لها.

الخمسين موظفاً في (إدارة الأوقاف بمكة) التي يديرها الشيخ محمد ماجد الكردي من علماء مكة وأعيانها، وكان الأستاذ الضبيب ذا إلمام حسن بالأدب، قديمه وحديثه، وذا صلة بكثير من أدباء المملكة في ذالك العهد، وله اهتمام باقتناء بعض النوادر من المخطوطات والرسائل، أذكر أنه أطلعني في إحدى المرات على رسالة من التاجر المشهور (ضاحي بن عون) لحاكم نجد في ذالك العهد (ابن ثنيان) يطلب منه إرجاع ما صودر من أملاك أهل (حَرْمَة)، وأذكر أيضاً أن الأستاذ حسين ابن سرحان ـ رحمه الله ـ استعار منه ديواناً مخطوطاً، وكتب عنه بحثاً في إحدى الصحف، وتوقيع ما كتب بكنية يقصد بها العامة معنى سيئاً جداً، فكان الشيخ الضُّبيب إذا أراد معابثة الأستاذ حسين يدعوه بها، ويتمتع الشيخ الضبيب ـ رحمه الله ـ مع تقدم سنه ـ بروح فكهة وهو يرتاح للنكتة، ويحفظ من الأشعار الطريفة الرقيقة الكثير، ويتحف مجالسيه بنوادر من الطرف والحكايات الممتعة، ومع ذالك فقد كان وقور النفس ذا محافظة تامة على كل خلق نبيل، وكان لي من أعز الأصدقاء إذ تجاورنا في رباط (باب الزيادة) فترة من الزمن، وقد توفي ـ رحمه الله ـ ليلة الجمعة ٢٤ شوال سنة ١٣٨١هـ [٣٠ / ٣ / ١٩٦٢م].

كانت هذه الثلة قد اعتادت الخروج بعد صلاة العصر في الحرم مساء كل خميس إلى أعلى (الأبطح) بعد مجاوزة عمران مكة، والمبيت في مقهى يدعى (قهوة عثمان[٤]) ما عدا الأستاذ ابن مزروع، فإنه يرجع إلى أهله عندما تبلغ الساعة الثالثة ليلاً بالتوقيت الغروبي، وكان المجيْء إلى هذا المكان مشياً على الأقدام، من الحرم الشريف، وموقعه بعد

(قصر فيصل) ـ رحمه الله ـ أسفل الجبل الذي فوقه (قلعة المعابدة)، ويتناوب الإخوة منذ وصولهم إلى المكان قراءة أحد الكتب، التي يقع عليها الاختيار، وكثيراً ما كان يزودهم الأستاذ ابن مزروع بالطريف الجديد من الصحف، والكتب الحديثة، وبعد مطالعة ذالك كانوا قد أعدوا أحد الكتب الأدبية القديمة للقراءة، وأتذكر أن مما أُكْمِلَتْ قراءته منها الأجزاء الأربعة الأولى من كتاب «الأغاني» مطالعة ومذاكرة، مع ما كان يعرض من النقاش والحوار في بعض القضايا الأدبية والفكرية أو السياسية العارضة عند قراءة بعض الصحف.

تفرقت الثلة فانتقل الشيخ الخياط وإخوته إلى الرياض للعمل في (مدرسة الأمراء)، فكان أن وجدت بالاجتماع باؤلئك الإخوة حين قدومي إلى هذه المدينة ما خفف عني بعض ما كنت أعانيه، في أول عملي في إدارة التعليم، مما كان يُحْدِثُ في نفسي كثيراً من المضايقات ـ مما سبق إيضاح الكثير منه في حديثي عن تلك الفترة من عملي، وكانت صلة الشيخ الخياط قوية بالشيخ عبد المؤمن مُجَلِّد، رئيس كتاب المعارف في ذالك الوقت، وهي وإن لم تكن ذات تأثير كبير على ما يعترض عملي من مشكلات تتصل بالمعارف، إلاَّ أنها قد توضح في كثير منها وجهة نظري، على أقل تقدير، فتقنع بعض العاملين في المعارف.

والشيخ عبد المؤمن من خيرة الرجال علماً وخلقاً وحسن عقيدة، إلاَّ أنه كان ضعيف النفوذ في تلك الفترة.

اعتدت الخروج مع الإخوة الشيخ الخياط وزملائه كل يوم، بعد صلاة العصر في سيارة من نوع (البكس) بعد تهيئة أدوات الشاهي إلى إحدى ضواحي (الرياض) القريبة: (أبو مخروق) أو (الباطن)، و أكثر الأحيان (صِياح) بجوار نخل (الريّس) حيث نستظل بظلال أثل يحيط بذالك

النخل، وبعد صلاة العشاء تكون العودة مرتبطة في الغالب بزيارة أحد الأمراء أو الإخوان، كالأميرين عبد الله بن عبد الرحمن ومساعد بن عبد الرحمن ـ رحمهما الله ـ أو الاستجابة لدعوة أحد الإخوة لتناول طعام العشاء، وقد يُعَدُّ العشاء في بيت الأساتذة، وما كانت تلك الأوقات التي تمر بنا تلك الأثناء (تمضي سَبَهْلَلاً) بل كنا نشغلها بالمطالعة والمذاكرة، إذ كثيراً ما تصلُ مختلف الصحف العربية إلى (مدرسة الأمراء) بينما لا توجد في (الرياض) مكتبات تتولى توزيعها، وكثيراً ما يُمدُّ الأستاذ عبد الله المزروع إخوانه بالجديد الطريف من المؤلفات، فهو ذو صلة بجهات تصل إليها المطبوعات المنوعة من مختلف الأقطار بسهولة ويسر.

لقد كان في هذه الاجتماعات ما أضفى على نفسي من الراحة ما أصبحت لا أشعر معه بكبير أهمية، لما يشاع حول تنحيتي من العمل، بل أحسست أن عليَّ أن أتركه (دَبْرَ أذني[٥]) وأن أتجه لعمل كنت قد شرعت فيه، وأدركت بأنه يتطلب مني اتجاهاً تامًّا يستلزم تفرغي عما عداه، وهذا ما حدث، ومن هنا كان اتجاهي لذالك العمل، وأنا في حالة ارتياح واطمئنان غير مكترث بما حدث لي.

الحواشي:

(١): انظر السانحة «في إدارة كليتي العلوم الشرعية واللغة العربية».

(٢): حيث نشرت في «مجلة اليمامة» مقالاً بعنوان (مرحباً برسول السلام) عن نهرو، انظر السانحة «في إدارة كليتي العلوم الشرعية واللغة العربية».

(٣): أول من أسس (مدرسة الأمراء) في الرياض وقام بتنظيم الدراسة فيها سنة ١٣٥٤هـ أستاذنا الجليل السيد أحمد بن محمد العربي، وتولى إدارتها حتى سنة ١٣٥٦هـ، حيث نقل إلى إدارة مدرسة تحضير البعثات، انظر كتاب «الانطلاقة التعليمية» ـ ج١ ص٢٦٨ ـ.

(٤): ينطق الاسم (عصمان) بالصاد ـ.

(٥): أي لم أصغ إليه ولم أهتم به ولم ألتفت له.

نشأة الصحافة في (الرياض)*

كنت أثناء دراستي في (المعهد الإسلامي السعودي) في مكة سنة ١٣٤٩هـ وما بعدها ـ كَصحبي في الدراسة ـ ذوي ميول لمطالعة الصحف، وكان من بين أساتيذنا من يُنَمِّي هذه الرغبة في نفوسنا، وهو الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة[1] ـ رحمه الله ـ مع قلة الصحف التي نستطيع الاطلاع عليها، فهي لا تعدو صحيفتي (أم القرى) و (صوت الحجاز) وبعض المجلات المصرية القليلة كـ(الهلال) و(المقتطف) و(الفتح) ومجلة (الأزهر)، وكنت كغيري من إخوتي نكاد نلتهم ما نقرأ التهاماً، ونمضي جزءاً غير قليل من وقتنا في النقاش فيما ينشر من مقالات أدبية أو اجتماعية، وخاصة في صحيفة (صوت الحجاز) التي رأس تحريرها الصديق الأستاذ الشاعر محمد حسن فقي فترة من الزمن، وكان لأحد صحبي في (المعهد) وهو عبد العزيز بن صالح المداوي ـ رحمه الله ـ أخ موظف في (ديوان النيابة العامة) يتحف أخاه في كثير من الأحيان ببعض الصحف المصرية والشامية، فنعنى بقراءة ما له صلة بالأدب والتاريخ، وأذكر من بينها مجلة لبنانية تدعى (الشمس) يرأس تحريرها أستاذ من بيت (الْغُرَيِّب) تطرق موضوعات فكرية، من أبعد ما يكون عن بيئتنا، وما ألفناه من أفكار، ومع ذالك كنت أطالع أبحاثها، التي تكتب بأسلوب لا يستعصي فهمه على تلميذ مثلي، مطالعة المستغرب لما تحويه من تلك الأفكار الغريبة، وكنت إذ ذاك ذا ميل قوي في الرغبة بأن أكتب شيئاً يقرأ وينشر، وأعتقد أن هذا من طبيعة كل شاب في

---

* المجلة العربية، العدد (٢١٧)، صفر ١٤١٦هـ / تموز ١٩٩٥م.

إبَّان نشأته الأدبية، فكان أن بعثت إلى مجلة (الشمس) بشيء مما كتبت، وما كنت أحس أن أسلوبه مما لا يسوغ نشره، ولا حتى قراءته، لتأثره بما أنا عليه من تأثير نشأتي الأولى من محافظة وثبات في اتجاهاتي الفكرية التي أعتقد بصحتها، ولا أدرك أنها بحاجة إلى شيء من التهذيب لتتلاءم مع حالة ما يجب أن يتصف به من يتصدَّى لنقد ما قد يستنكره من آراء وأفكار، مما به يسهل إقناع الآخرين.

لن أطيل بذكر أمثلة بما كنت أبعث به إلى الصحف، وقد ينشر بعضه، فقد تحدثت عن هذا في موضع آخر[٢]، إلاَّ أنني سأشير إلى أن تلك الرغبة ما زالت تزداد في نفسي بازدياد ما ينشر لي في الصحف، حتى نقلت من (مراقبة التعليم في الظهران) إلى وظيفة (معتمد للمعارف في نجد) وبعد فترة نقلت بأمر ملكي من تلك الوظيفة، وبدون رغبة مني للعمل مع الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ حين إنشاء (معهد الرياض)، وقد كنت أدركت من سعود ـ رحمه الله ـ وكان ولياً للعهد، وهو المعني بتصريف البلاد في تلك الفترة أثناء كبر سنِّ والده وضعفه، رغبةً قوية في إيجاد جميع الوسائل التي تبرز (الرياض) في مكانتها اللائقة بصفتها قاعدة البلاد في جميع مرافق الحياة، ومن ذالك إيجاد صحافة وطباعة في هذه المدينة.

وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٣٧٢هـ [مطلع ١٩٥٣م] تقدمت بطلب إصدار صحيفة يومية على أن تصدر أول الأمر شهرية فأسبوعية حتى تُهَيَّأَ الوسائل لإصدارها يومية، وبعد اجتماع طويل معه بطلب منه في اليوم الـ(١٣) من ذالك الشهر، لم أخرج من عنده إلا وأنا أحمل نسختي كتابين أحدها هذا نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم ـ من سعود بن عبد العزيز إلى المكرم عبد الله السليمان، سلمه الله ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لقد طلب منا الشيخ حمد الجاسر السماح له بإصدار صحيفة في الرياض باسم (الرياض) فوافقنا على ذالك، فأنتم إن شاء الله تعاملون الصحيفة فيما يرد لها من ورق وخلافه، كما تعاملون الجرائد والمجلات الداخلية، وسيرد لها مطبعة فأنتم أعفوها من الرسوم، والسلام. التوقيع «سعود»).

والكتاب الثاني موجه لوزير الداخلية الأمير عبد الله الفيصل بهذا المضمون.

وكان أمر إجازة إصدار الصحف منوطاً بوزارة الخارجية، وفيها فرع يعرف باسم (قلم المطبوعات)، وكان نظام المطبوعات يقضي ـ بعد الموافقة السامية على منح الرخصة بإصدار أية صحيفة ـ بتقديم كفيلين: كفالة غرامة مالية وكفالة إحضار لمن يسمح له بإصدار صحيفة عند طلبه من جهة حكومية، ولقد تعثر الأمر بالنسبة لي، وكنت في جدة لمتابعة الموضوع، فزرت الشيخ محمد بن علي البَيْز[٣] ـ رحمه الله ـ وكان من أساتذتي حين كنت طالباً في (المعهد السعودي) بمكة فجرى الحديث في مجلسه عما تم في أمر إصدار الصحيفة، فذكرت ما اعترض سيري فقال أخوه الشيخ أحمد ـ رحمه الله ـ: أنا مستعد لكفالتك كفالة غرامة، وكان من بين الحاضرين الشيخ عبد العزيز الحمد العبدلي من سراة أهل (عنيزة) فقال: وأنا أكفلك كفالة إحضار، ثم ذهبا معي إلى (وزارة الخارجية) فتم كل شيء، وخرجت بالرخصة التي تقضي

بالسماح لي بإصدار صحيفة يومية باسم جريدة (الرياض) تصدر مؤقتة مجلة شهرية.

وهنا أتى التفكير فيما سأقدمه للقراء في أول صحيفة تصدر في هذه البلدة الكريمة (مدينة الرياض) مما يتلاءم مع أذواقهم، وفق رغباتهم، وجلُّهُمْ ـ إن لم يكن كلهم ـ ينظر إلى الصحافة بوجه عام بأنها من الوسائل التي تصرف عن الاشتغال بالعلم، وأن جُلَّ ما ينشر فيها مما يلهي ويشغل، بحيث كان أحدهم إذا أراد وصف كلام بعدم الحصافة والسداد قال: (كلام جرايد مجمع)، وكان الشيخ يوسف ياسين[٤] ـ رحمه الله ـ من كبار مستشاري الملك يعرف بينهم باسم (يوسف جريدة) لأنه كان يتولى رئاسة تحرير (أم القرى)، فكان يطلق عليه هذا الاسم تهجيناً لا تكريماً، وأذكر أنني كنت سنة ١٣٤٦هـ أشاهد داخل قصر الحكم في الحوش القريب من بيت المال الذي كان الشيخ حمد بن فارس ـ رحمه الله ـ يتولى إدارته، ومنه يصرف ماهو مخصص لطلبة العلم من إعاشة، وكان في ذالك الحوش خمس نعامات يأتي بعض الناس لمشاهدتها، فكنت أشاهد على مقربة من ذالك الحوش، ركاماً من الجرائد في أغلفتها، تجمع ثم تحرق قبل قراءتها، مما يدل على قلة من يهتم بقراءة الصحف سوى (أم القرى) التي تنشر كثيراً من الأخبار، وتنشر أحاديث الملك وما يتعلق بذالك.

إن نظرة القراء في هذه المدينة إلى الصحافة بطيئة التغير، ولابد من أن يقدم لهم في أول صحيفة يفتحون أعينهم عليها في بلادهم ما يستهوي ميولهم، ويوجد الرغبة في نفوسهم لكي لا يحدث لهم من النفور ما يصرفهم عنها أو يصرفها هي، وليس ثَمَّةَ وسيلة سوى استمالتهم بالطرق الملائمة.

من هنا طلبت من بعض العلماء الكتابة لهذه الصحيفة، فاستجاب لي أكثرهم، ومنهم: الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الله الخياط، والشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، والشيخ محمد بن عبد العزيز المهيزع، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، والشيخ محمد علي عبدالرحيم، والشيخ خليل الهراس، والشيخ عبد الحكيم المرسي، والأخيرون من أساتذة كلية الشريعة في الرياض ـ تغمد الله الجميع بواسع رحمته ـ.

ورأيت إضافة آخرين من الكتاب والشعراء في موضوعات مختلفة.

وكان من أثر عملي في (المعهد) صلتي بالمشايخ وبالمدرسين من العلماء، وكنت ذا صلة قوية بطلبة (البعثة) في القاهرة، ومنهم من كان على وشك إكمال الدراسة الجامعية.

لقد تهيأت الوسائل لإصدار الصحيفة سوى عقبة من السهل اجتيازها وهي (الطباعة)، وما المانع من اغتنام الفرصة، وطبعها خارج البلاد، بعد أن يئست من إمكان طبعها في مطابع المملكة، وهي خمس: أقواها (مطبعة أم القرى) مخصصة لطباعة الجريدة الرسمية، وأوراق الدواوين، ثم (المطبعة السعودية بمكة)، وعنها تصدر جريدة (البلاد السعودية) وهي أفضل مطبعة خاصة في ذالك العهد، أما (المطبعة الماجدية بمكة) فكانت معطلة، وفي (المدينة) مطبعة صغيرة ومثلها في (جدة).

لقد جمعت بعض مواد العدد الأول للمجلة، وسارعت بالسفر إلى القاهرة، فوجدت لدى كل من لي بهم صلة من طلاب (البعثة) من الاهتمام بالموضوع، والمشاركة فيه ما مكنني خلال وقت قصير من

إعداد العدد الأول من المجلة، وطبعه في (مطابع دار الكتاب العربي) وكان ذالك العدد يحوي:

١ ـ يا صديقي القاريء وهي كلمة (أسرة التحرير) وخلاصتها: (سترى في هذه الصحيفة الجامعة صورة مصغرة لنا ـ بما فينا من محاسن ومساويء، ولسنا ممن يقول: اقبل المحاسن، وتجاوز عن المساويء؛ إذ تجاوزك إقرار لها، وإبقاءٌ عليها، وهذا ما لا نرضاه لك، ولا ترضاه لنفسك).

٢ ـ ثم فاتحة المجلة بعنوان: (هذه الصحيفة يد بيضاء لسمو ولي العهد المحبوب) جاء فيها: (وأمة تتولى أمورها هذه الحكومة التي يتبوأ عرشها ملك عادل مصلح، ويدير دفة توجيهها نحو كل خير ومجد وسؤدد، ولي عهد تربَّع في سويداء القلوب، قبل أن يتربع فوق دست* الحكم ـ هي جديرة بأن تدرك ما تصبو إليه من عز ورفعة، وحَرِيَّةٌ بأن تصل إلى ما تسعى نحوه من خير وصلاح إن شاء الله) ثم تعبير عن نظرة ولي العهد إلى (ما للصحافة في عهدنا الحاضر من عظيم الأثر، في نشر الآراء النافعة، وتوجيه الأفكار، وإنارة الشعور العام، ورأي هذه المدينة العظيمة بماضيها الزاهي المجيد، وحاضرها المبارك السعيد، مدينة (الرياض) التي بلغت من الازدهار، والنشاط العمراني ما لم يسبق له مثيل في ماضيها، وقل أن يوجد له نظير بين لداتها ـ أحوج ما تكون إلى صحيفة) ألخ ..

٣ ـ ثم مقالات دينية للشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الله الخياط، والأستاذ خليل الهراس، فمقطوعات شعرية قديمة وحديثة، فدراسة أدبية، فنقد كتابي «تهذيب الصحاح» و «طبقات فحول

* فارسية معرّبة تعني في هذا الموضع مجلس الرئاسة. (ش).

الشعراء» فبحث لغوي، فوصف كتاب مخطوط، فبحث طبي، والخاتمة صفحتان بعنوان (من أنباء الحركة الثقافية) عن شؤون التعليم، وحركة النشر والتأليف والمكتبات.

ومن كتاب هذا العدد: حمد الجاسر وناصر المنقور ويوسف الحميدان وعبدالرحمن المنصور وحارث الراوي.

وصفحات العدد (٤٤) بالغلاف.

وعلى الصفحة الأولى من الغلاف التاريخ (ذو الحجة سنة ١٣٧٢هـ ـ أغسطس سنة ١٩٥٣م) ثم البيانات التي توضع عادة عن اسم الصحيفة ورقم العدد.

وفي الصفحة الأخيرة إعلان عن (مكتبة العرب)، وهي مكتبة أنشأتها لبيع الكتب وللقيام بالنشر والتوزيع، وكانت من أولى المكتبات التي أنشئت في مدينة الرياض لبيع الكتب الحديثة والمجلات.

(إذا كان خصمك القاضي فمن تقاضي)؟!

مما يؤخذ على (الديوان العالي) في عهد سعود وليًّا للعهد ثم ملكاً ـ تغمده الله برحمته ـ تعدد فروعه، مع انعدام الصلة بين رؤساء تلك الفروع، مما كان من أسباب عدم التنسيق بين ما يصدر عن ذالك الديوان من أوامر وقرارات، وتلك الفروع المتعددة أحدها يديره عبد الرحمن الحميدي وهو أقوى الفروع، والثاني محمد بن أحمد بن سعيد، والثالث: إبراهيم بن عيدان.

تأبطت خمسة أعداد من أول جزء يصدر من مجلة (الرياض) وأتيت إلى الديوان فقدمتها لرئيسه الحَميدي مع كتاب مني أرجو صدور الأمر بنقل المجلة من القاهرة جواًّ ـ وهي لا تزيد على ٥٠ كيلاً ـ إذ نقلها بحراً يؤخر صدورها في وقتها.

ولكنني فوجئت في اليوم الثاني بدعوتي إلى الديوان، وفيه وقعت على تسلم كتاب قرأته عائداً ومما فيه: (بالإشارة إلى ما رفعتم لسمو سيدي عن نقل مجلتكم من القاهرة أخبركم بما يأتي:

١ ـ لا يوافق سموه على استعمال اسم (الرياض) لمجلتكم، ولا يسمح بدخولها وهي تحمل هذا الاسم لأن سموه قد منح الأستاذ عبد الله بَلْخَير مستشار سموه امتياز إصدار صحيفة باسم (الرياض).

٢ ـ لم يوافق سموه على نقل صحيفتكم، وعليكم أن تتحمّلوا تكاليف نقلها).

تأثرت ـ حقاً ـ بما أبلغت به، ولكنني بعد تفكير تذكرت كلمة الأحنف بن قيس: (طَأْطِي لها رأسك تَمُرّ) وإن لم تكن في موضعها.

وكثير من الأمور التي يراها الإنسان مثبطات، لن يعدم من خلالها من الحوافز ما يكون دافعاً له إلى الاستمرار في عمله، متى وثق بأنه سائر في طريق الخير.

ولقد كان نظام المطبوعات بالنسبة لما حدث مَرِناً، فما عليَّ حسب ما يقضي به إلا أن أختار اسماً آخر، بشرط ألا يكون اسم صحيفة موجودة، أو لم يمض على توقفها عشر سنوات، وهكذا كان بالنسبة لي، فقد كتبت إلى (وزارة الخارجية) بأنني لأسباب خاصة لم أستطع استعمال اسم (الرياض) الذي منحت الرخصة لإصدار الصحيفة باسمه، وقد اخترت اسم (اليمامة)، وبعد فترة تلقيت كتاباً من (وزارة الخارجية) بتوقيع (خير الدين الزركلي) ينص على صدور الأمر الكريم بأن يكون الاسم (نجد اليمامة) أو (يمامة نجد) ومعه كتاب خاص من

الأستاذ الزركلي، وبيني وبينه تعارف واتصال، يقول فيه: (إليك الأمر وقعته كما بلغنا، ولن تعدم الوسيلة الملائمة)!! وقد وجدتها في الاسم الذي اخترته.

لقد وصل العدد يحمل الاسم الجديد فوق غلافه (اليمامة)، وفي داخله من المقالات ما يحمل اسم (الرياض) مما كان مبعث انتقاد من كثير ممن لم يفهموا جلية الأمر، ومن ذالك كلمة نشرها أحد الإخوة في مجلة (صوت البحرين) في عدد الربيعين سنة ١٣٧٣هـ بعنوان (ما كان ظني كذا) جاء فيها: كان القراء في المملكة يتلهفون على صحيفة تمثل الفكر الناضج، والتوجيه الصحيح في بلادهم، بعد أن فشلت المجلات والصحف المحلية في مسايرة الوعي الفكري الذي شمل الشيوخ والشباب.

ولهذا لم يكن غريباً أن يشتد إقبالهم على العدد الأول من مجلة (اليمامة) التي صدرت في (الرياض) وقد سرَّهم من اللحظة الأولى التي استقبلوا فيها (اليمامة) أنها مغلفة بورق ناعم صقيل، وأن حروف طباعتها دقيقة وواضحة، ولكن فرحهم لم يعمر طويلاً، فقد خاب أملهم، ثم بعد ذالك أوضح هذا الذي خيب الأمل: بأن عدد كتاب المجلة من القلة بحيث لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة.

وأضاف: أن الصحيفة سميت على الغلاف الخارجي (اليمامة) فإذا قرأت المقال الافتتاحي وجدتَّ فيه: (ونرى قراء الرياض في كل مدينة) وفي مكان آخر: (تصبح الرياض لا صحيفة أسبوعية فحسب بل يومية) إنه يتكلم عن صحيفة (الرياض) فأين هي، إنه يعني صحيفة (اليمامة) التي أبدل اسمها من (الرياض) وقد كتبت المقالات، ولم

يفطن إلى تعديلها ومراجعتها بعد تبديل الاسم.

وفي مقال الأستاذ الخياط: (خطوة مباركة يخطوها صديقنا البحاثة الأستاذ حمد الجاسر بإصدار صحيفة في الرياض باسم (الرياض)، وفي مكان آخر: (أتاح لي مدير «الرياض» فرصة التحدث من منبر صحيفته الفتية المتوثبة) إلى آخر ما ذكر الكاتب الكريم.

مما سبق إيضاح السبب في هذا، وكتب أحد الإخوة في العدد السابع في مجلة (اليمامة) الصادر بتاريخ جمادى الآخر سنة ١٣٧٣هـ، إيضاحاً لما تعرض له من نقد.

وقد لقي العدد الأول استقبالاً فوق ما كنت أتصور من مختلف طبقات الأمة فنائب الملك، ورئيس مجلس الوزراء فيصل ـ تغمده الله برحمته ـ يقول في كتاب مؤرخ في ١٠ / ١ / ١٣٧٣هـ [١٨ / ٩ / ١٩٥٣م] رقمه (٢٤٩): (وإننا إذ نشكركم على ما قدمتموه، نتمنى لكم التوفيق في القيام بهذه المهمة، التي يرجى أن يكون من ورائها النفع المأمول).

وأمير الرياض في ذالك الوقت سمو الأمير نايف بن عبد العزيز يقول في كتاب منه مؤرخ في ٢٦ / ١٢ / ١٣٧٢هـ [٤ / ٩ / ١٩٥٣م]: (أما مجهودكم في إصدار هذه الصحيفة فملموس من نظرة عابرة إليها، وأنتم معروفون بإتقان العمل وتجويده، وكأني بهذه الصحيفة، وقد ملأت شهرتها الأسماع، وأدّت رسالتها على أحسن وجه، بفضل إدارتكم الحميدة، وما يسطر فيها من آراء قيمة، ومعلومات مفيدة، وتوجيه حسن.

وإنه لبتوفيق الله ثم بالرجال العاملين تسعد البلاد، فعلى بركة الله. وفق الله الجميع).

ومشاهير العلماء في الرياض في كثير من المناسبات يثنون على ما حوته المجلة من المقالات، ويَعِدُ آخرون منهم بالكتابة فيها، وهذا عالم (أم القرى) السيد علوي عباس المالكي ـ رحمه الله ـ يقول في كتاب منه: (إن مجلتكم اليمامة لقد فاقت بحسن ترتيبها، وجليل أهدافها، وسمو موضوعاتها، ولذا أحببت أن أقدم لكم موضوعي هذا حول حجة الوداع هدية لكم).

وها هو رئيس تحرير مجلة (الأزهر) الكاتب المعروف الأستاذ محب الدين الخطيب يرى في هذه المجلة التي تصدر من قلب الجزيرة بوادر أمل، تدفعه إلى أن يتوقع لها المستقبل الحسن بعد أن يبدي إعجابه بموضوعاتها وبأسلوبها.

وآخرون كثيرون من ذوي الحل والعقد في البلاد، ومن الطبقة المثقفة فيها كثيرون ممن رأوا في صدور هذه الصحيفة في مدينة الرياض أمراً جديراً بالاهتمام، وإن لم يكن بالمستوى الملائم المتوقع، ولكن الأمور مهما كانت تبدأ ضعيفة ثم تقوى شيئاً فشيئاً.

والمهم في الأمر وجود صحيفة، وقد تم ولم يبق سوى الوسائل.

الحواشي:

(١) : انظر سانحة (قصتي عندما قلت بجواز الزي العسكري).

(٢) : انظر «العرب» س٩، ص١ وما بعدها.

(٣) : انظر سانحة (قصتي عندما قلت بجواز الزي العسكري).

(٤) : ويوسف بن محمد ياسين (١٣٠٩/١٣٨١هـ) من أهل (اللاذقية) في سورية، التحق بدار الدعوة والإرشاد التي أنشأها السيد رشيد رضا في القاهرة، ثم اشتغل في الصحافة في القدس فترة من الزمن ثم قدم الرياض سنة ١٣٤٣هـ، وحاز ثقة الملك عبد العزيز وتولى إصدار جريدة (أم القرى) وتحريرها فترة من الزمن ثم [أصبح] رئيساً للشعبة السياسية في الديوان الملكي، وتوفي في الدمام ونقل إلى الرياض، له «الرحلة الملكية» مطبوعة، و «مذكرات» سجل منها سبعة أفلام ولم يتمها ـ «الأعلام» للزركلي.

.. ولبداية الطباعة في مدينة الرياض
تاريخ أيضاً*(١)

كنت مدركاً منذ أن راودتني فكرةُ إنشاء صحيفة في مدينة الرياض ضرورة إيجاد مطبعة في هذه المدينة، التي لا عهد لها بالمطابع، فلما تقدَّمْت بطلب السماح لي بإصدار الصحيفة كان مما طلبت الإِذْنَ بإِنشاء مطبعة تمكن من تحقيق تلك الغاية، وأوضحت أن مدينة تُعَدُّ قاعدة للبلاد قد استكملت جميع مرافقها الحيوية لا ينبغي أن تكون خالية من المطابع، فكان أن صدر أمر سعود ـ رحمه الله ـ وكان إذ ذاك وليًّا للعهد، وقد وكل إليه الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ تصريفَ شؤون المملكة، فأصدر أمره إلى وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان بالسماح لي بإنشاء مطبعة، وبإعفاء جميع آلاتها وأدواتها اللازمة من الرسوم الجمركية، وكان ذالك بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة وألف[١٩٥٢م]، فشرعت باتخاذ ما في استطاعتي من الوسائل لتحقيق ذالك، وما كان إنشاء مطبعة تمكن من طبع صحيفة يومية بالأمر السهل لمن ليس بذي سعة وجِدَةٍ مثلي، وكنت إذ ذاك أتولى جانباً من الإشراف على بعض شؤون إدارة المعهد والكليتين المنشأتين حديثاً، وصلتي بالأساتذة والطلاب كانت حسنةً مما هيأ لي إقناع هاؤلاء بإنشاء شركة مساهمة، رأس مالها خمس مئة ألف ريال، موزعة على خمسة آلاف سهم، فسارع كل إنسان بما استطاع، بحيث زاد عدد المسهمين على الثلاث مئة من مختلف الطبقات من علماء وتجار وطلاب

* المجلة العربية، العدد (٢١٨)، ربيع أول ١٤١٦هـ / آب ١٩٩٥م.

وغيرهم، منهم من بلغتْ سهامه خمس مئة، أي بمبلغ خمسين ألف ريال، وهما اثنان: الأول: كانت إدارة المعهد تحسم من الطالب الذي يتأخر عن الدراسة من مخصصه الشهري ما يوازي قسط تأخره ساعةً أو يوماً فاجتمع من ذالك مبلغ كبير من المال، فأمر الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ وكان مدير المعهد والكليتين إذ ذاك، أمر بصرف خمسين ألف ريال من ذالك المبلغ إسهاماً في تلك الشركة، والثاني: اضطررت لتسجيله باسمي، بعد أن توقف الاكتتاب وكان لا بُدّ من تسديده، وما كنت أملك ذالك المبلغ ولكنني لجأْتُ مضطراً للاقتراض، لكي لا يفشل المشروع تسديداً لِمَا لَمْ يتم الاكتتاب به، وأقل المسهمين بسهم واحد، والمتوسط بخمسة، وما كان الحافز لكثير من هاؤلاء سوى الدافع الوطني، لإيجاد عمل نافع لبلادهم، مما حَدَا بكثيرمنهم أن يبعث بالقدر الذي رغب المشاركة به، دون أن يعرف ما تجب معرفته عن هذا المشروع، بل قد تجاوزت رغبة كثير منهم وهمته إلى أن كان يبعث بمبلغ من المال، بصفة مساعدة للقائم بهذا العمل، من قبيل التعضيد والمؤازرة، ومنهم الأمراء سلطان ومتعب ونايف وسلمان أبناء عبد العزيز آل سعود، بعث كل واحد منهم مبلغ عشرة آلاف ريال، مساعدة له لا من قبيل الاشتراك، إلا أنني سجلت مقابل كل ذالك سهاماً بأسمائهم.

ولقد كان للشيخ عبد الله السليمان ـ رحمه الله ـ يَدٌ طُوْلَى في نجاح هذا العمل، فعندما علم بشراء أرض لتتخذَ دارًا للطباعة، أمر بصرف مبلغ أربعين ألف ريال من ثمنها، ثم قدَّم مبلغ مئة ألف ريال مساعدة خاصة لي، ولكنني سجلتها سهاماً باسمه.

وتم اختيارُ الموقع، وشراءُ الأرض التي بلغ ثمنها (٤٦٠٨٧) من

الريالات، وتم التعاقد على بنائها بحيث بلغ مجموع الثمن وأجور البناء مئة وخمسة وثلاثين ألف ريال.

ثم قمت برحلة إلى مصر بشأن آلات للطباعة، فاتصلت بالمحلات التجارية التي تقوم بتوريدها، فقدمت لي عروضاً عن آلات في إمكانها طبع جريدة يومية، بالإضافة إلى مطبوعات أخرى، وما كنت على خبرة بهذه الأمور، فاتصلت بالأستاذ محب الدين الخطيب صاحب (دار الفتح) وهو من أقدم من عانى مهنة الطباعة، واشتغل بها، فنصحني بأن يكون طلب الآلات من (ألمانيا) وليس شراؤها من أيَّة بلاد أخرى، فكان بعد أن تمكنت من معرفة أشهر المحلات المعنيَّة بتوريد مثل تلك الآلات أَنْ تَمَّ طلبُ ستٍّ مطابع هي:

١ ـ مطبعة آلية من نوع (جوهانزبرج) تطبع من الورق قياس ٧٠ × ١٠٠سم.
٢ ـ مطبعة ألمانية من نوع (فرنتكس) تطبع من الورق قياس ٥٠ × ٣٥ سم.
٣ ـ مطبعة آلية من نوع (هايدل برج) متوسطة الحجم.
٤ ـ مطبعة آلية من نوع (هايدل برج) صغيرة.
٥ ـ مطبعة صغيرة من نوع (هايد سيك) تطبع من الورق قياس ٣٥ × ٢٥ سم.
٦ ـ آلة صغيرة للتجارب (البروفات).

مع عدد من آلات التجليد لقص الورق وخياطته وتخريمه وكبسه.

أما حروف الطباعة فقد تَمَّ طلبها من (المسابك المصرية)، ولم يكن في ذالك العهد في البلاد العربية قد عُرِفَتْ آلاتُ سبك الحروف، وإنما يجري الطبع بحروف مفردة يقوم عامل الصفِّ بتنضيدها بيدهِ حرفاً حرفاً.

ولتعقيد إجراءات التصدير من مصر، بعد الاتفاق، ودفع قسط من

الثمن، تأخر وصولها، مما ألجا إلى شراء كمية من الحروف من المسابك اللبنانية، ومعروفة جودة المسابك المصرية وتميزها في ذالك.

لم تكن الكهرباءُ في مدينة الرياض في ذالك العهد مُعَمَّمَةً مما اضطر إلى شِراءِ مولِّدَيْنِ كهربائيين جديدين (ألمانيين) من نوع (مان MAN)، وبلغ مجموع ما صرف من رأس المال المكتتب به، ومنه مالم يتمَّ دفْعُه بلغ على النحو الآتي:

ثمن الأرض والمباني	١٣٥٠٠٠
ثمن المطابع	٩٢,٨١٣,٧٥
آلات التجليد	١٩,٤٧٠,١٨
للحروف	٣٩,٥٨٢
لمولدي الكهرباء	٣٤,٥١٥
المجموع	٣٢١,٣٨٠,٩٣

وكان من أقوى ما جابه سَيْرَ هذا العمل إبَّانَ إنشائه من العقبات، الحصولُ على عمال فنيين، فالبلاد حديثةُ العهد بالطباعة، والذين مارسوا هذه المهنة قليلون جدًّا، يعملون في مطابع مكة وجدة والمدينة، وليس من الممكن الحصول على أحد منهم للعمل في الرياض، ما اضطر لطلب عمال من مصر والشام ولبنان، تترواح رواتب هاؤلاء بين (٣٥٠) ريالاً و (٦٥٠) ريالاً عدا أجور الأوقات الإضافية التي تتضاعف، ويُضَافُ إلى هذه الأجور مصاريفُ سفر العمال، ورسوم إقامتهم، وأجور سكنهم.

ولقد تَمَّ التغلُّبُ على هذا الجانب بعد البدءِ في العمل بصورة تدريجية، وإن كانت بطيئة، وذالك بتمرين عدد من أبناء البلاد، ممن استطاع فيما بعد أن يتولَّى أكثر أعمال الطباعة.

مَـرَّتْ فـتـرة من الزمن، تزيـد على عـامين من ١٣ ربيع الثـاني سنة ١٣٧٢هـ إلى ٢٦ شعبان سنة ١٣٧٤هـ في اتخاذ الوسائل لإعداد العمل مع بذل المستطاع من جهد، في سبيل محاولة إزالة العقبات التي تسبب تأخيره، ولكن كثيراً منها مما لا يستطاع التغلُّبُ عليه، كتأخير ورود بعض الآلات من (ألمانيا) مما اضطر لِبَدْءِ العمل ببعض ما حضر منها، وبِمَنْ حضر من العمال الفنيين من لبنان، بعد تأخر العمال المصريين من جرَّاء تعقيد إجراءات السفر هناك.

ولقد بدأ عَمَلُ الطباعة في تلك الأثناء بعد حضور المهندس، الذي تولى تركيب ما وصل من الآلات، وإجراء التجارب فترة قصيرة، حتى كان يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر شعبان من عام أربعة وسبعين وثلاث مئة وألف حيث شَهِدَتْ هذه المدينة الكريمة قيامَ أول مشروع طباعي فيها، بعدد قليل من الآلات والأدوات، وسار مُتَدَرِّجاً في التوسع شيئاً فشيئاً حتى أصبح في إمكان ما تَمَّ تركيبه من آلات الطباعة وأدواتها ومستلزماتها، القيامُ بطبع عدد من الصحف، وكمية كبيرة من مطبوعات الدوائر الرسمية والمحلات التجارية، يضاف إلى ذالك مجموعة من الكتب الدينية والأدبية والدراسية.

إنه من الأيام الميمونة لهذه المدينة الكريمة، ففيه تم افتتاح العمل[1] بوسيلةٍ تُعَدُّ من أقوى الوسائل في إنماء الحركة الثقافية، ونشرها، بإيجاد أول مطبعة فيها هي (مطابع الرياض)[2] التي أُنْشِئَت بتوفيق من الله سبحانه، ثم بفضل ما بذلته نخبة كريمة من أبناء هذه المدينة الطيبة، بسخاء وطيب نفس، وإدراك ووعي بأن هذا العمل النافع متى وُجِّهَ الوجهة الصالحة يُعَدُّ من الأُسس الحضارية، التي تقوم عليها حياة الأمة،

وفُقْدانه في أية مدينة يعبر عن تخلفها عن مسايرة ركب العالم المتحضر.

ولقد كان لسعود بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ولإخوته أَبْرَزُ الأَثَرِ في قيامه كغيره من الأعمال النافعة التي بها تسعد الأمة، وتجاري غيرها في ميادين التقدم لما فيه عزها.

ولعلني لم أَعْدُ الحقيقة ولم أجنحَ إلى المبالغة حين عبَّرْتُ عما غمر كلَّ مثقف يُحِبُّ الخيرَ لهذه المدينة، بل لكل بلادنا بصفة عامة ـ عبرت بكلمة نشرت في أول جزء طبع بهذه المطابع من مجلة «اليمامة»[٣] ملخصها عن (الطباعة في الرياض):

«يرى مؤرخو تطور الفكر الإنساني ـ وحقًّا ما يرون ـ أنَّ من أقوى الآثار في تطوره حدوث الطباعة، فهي الوسيلة التي مكنت العلماء والباحثين من تدوين آرائهم وأفكارهم، تدويناً يكفل انتشارها، وييسر اطلاع كل من أراد الاطلاع عليها، فهي ـ لهذا ـ من مقومات المدنيَّة الحديثة، ومن دعائم الحضارة الإنسانية في العصر الحديث، وانتشار الطباعة في بلد ما، يدل على انتشار الوعي، وقوة الروح العلمية، وحياة ذالك البلد من الناحية المعنوية.

ولقد كان من بوادر اليمن والخير لهذه المملكة العربية السعيدة عامة، ولهذه المدينة الكريمة على كل عربي خاصة، أن تنال من جلالة مليكها العظيم من الرعاية والعناية ما يحقق لها الكثير من آمالها، ففي أول عهده الزاهر تم إنشاء عدة دور للطباعة، في مختلف أنحاء المملكة، فَأُسِّسَتْ (مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر في جدة)، وقام الأستاذ خالد الفرج ـ رحمه الله ـ بإنشاء مطبعة في مدينة (الدمام)

سماها (المطبعة السعودية) ، وقام الأستاذ عبد الله الملحوق بتأسيس شركة للطبع والنشر والترجمة في الدمام بمساعدة إخوانه من المواطنين سماها (شركة الخط* للطبع والترجمة والتأليف) ، وهذه المؤسسات الطباعية الثلاث قامت في خلال العام الماضي.

ومنذ ثلاثة أعوام (في رجب سنة ١٣٧٢هـ) أَبْدَيْتُ لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ــ وكان إذْ ذَاك وليًّا للعهد ــ رغبتي في إنشاءِ صحيفة في الرياض، فحقق جلالته هذه الرغبة، بما بذله من عطف وعَوْنٍ كفلا إبراز الفكرة إلَى حيِّزِ العمل، ثم أوضحت لجلالته ضرورة وجود مطبعة في هذه المدينة، فأصدر أمره الكريم بالسماح لي بإنشاء مطبعة، ولم يَقِفْ عَوْنُ جلالته عند هذا الحدِّ، بل أصدر أمره بإعفائها من جميع الرسوم، وبالسماح لعمالها الفنيين بالدخول، والإقامة في هذه البلاد، ولم تزلْ معونة جلالته، وعطفه وبره، تترى وتتتابع في كل مناسبة، حتى تَمَّ إنْشَاءُ أول مطبعة في هذه المدينة، في دار حديثة البناء، في موقع حسن من المدينة، بِآلات جديدة جيدة الصنع.

إنَّ إنشاءَ دارٍ للطباعة والنشر في مدينة الرياض يُعَدُّ من الأمور العظيمة الأَثَر، في تطور الحركة الفكرية الثقافية في بلادنا، وسيأتي أُنَاسٌ ينظرون إليه نظرة تغاير نظرتنا إليه اليوم. وإنَّ يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ١٣٧٤هـ الذي دَارَتْ فيه تلك الآلاتُ دورتها الأولى، فأخرَجَتْ أولَ ورقة مطبوعة هي (الملحق الخاص للعدد الثامن من السنة الثانية من مجلة اليمامة) لَيُعَدُّ من أيام هذه المدينة المعدودة، وإِنَّ اؤلئك الرجال الذين يزيدون على المئتين ممن سعوا لخدمة أمتهم بهذا

* الخط : الاسم الجغرافي القديم للساحل الشرقي ، كما سبق . (ش) .

العمل الجليل، سينالون من إكبار مواطنيهم وإجلالهم، وتقديرهم لعملهم هذا ـ ولو في الأجيال المقبلة ـ ماهم جديرون به، وماهم أهلٌ له.

وأَمَّا بَعْدُ: فلا أقلَّ من كلمة شكر أزجيها ـ خالصةً صادقة ـ إلى هذه النخبة الممتازة، الذين بعونهم وما بذلوه ـ عن سخاء وطيْب نفس وأريحية ـ وُجدَتْ في مدينة الرياض، في قلب جزيرة العرب، دارُ طباعةٍ صالحة، قويَّةٍ، تضارع كبرياتِ دور الطباعة في البلاد العربية الأخرى، وقد تَفوق كثيراً من دور الطباعة، إذا تعهدها البررة من أبناء هذه البلاد بالرعاية، وأحاطوها بصنوف العون والتعضيد، وإنهم لفاعلون، وللأمل لمحققون».

لقد قام العمل في هذه المطابع على أساس الثقة المتبادلة، بين المسهمين فيه وبين المشرف عليه بِضْعَ سنَواتٍ، سائراً على طريقة حسنة، مريحة للجميع، محققة للأهداف والغايات التي أُنْشئَتْ من أجلها، إذْ ما كانَت الدوافعُ لإنشائها ماديَّةً بَحْتَةً، بل كان من أولاها الإسهام بالقدر الممكن لما يتصل بالجانب الثقافي، بتيسير نشر بعض المؤلفات المختلفة، وأن تتساهل ما أمكن التساهل من حيث تقاضي أجور ما هو من هذا القبيل تزيد على تكاليف الطبع، فكان مما طبعته دون حصر لذالك ـ من الكتب:

١ ـ «أهداف العمران في المملكة العربية السعودية» للدكتور عمر حليق في (١١٦) من الصفحات، والمؤلف أحد أعضاء وفد المملكة في هيئة الأمم المتحدة، وهو أول كتاب عالج جوانب من الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها معالجة مبنية على أسس علمية حديثة، تم طبعه في السنة الأولى لتأسيس المطابع أي عام ١٣٧٤هـ.

٢ ـ كتاب «شهر في دمشق» للأستاذ عبد الله بن خميس، سجل فيه مشاهداته أثناء رحلة قام بها إلى بلاد الشام، وطبع الكتاب سنة ١٣٧٥هـ في (٤١٦) من الصفحات.

٣ ـ «في وادي عبقر» وقصص أخرى للأستاذ خالد خليفة، استوحى قصصه من واقعنا، بأسلوب فَكِهٍ يحبب للنشء القراءة ويرغبهم فيها، ويوسع مدارك خيالهم، في (١٩١) من الصفحات طبع في السنة الأولى ١٣٧٤هـ من إنشاء المطابع.

٤ ـ كتاب «دفع الاضطراب عن آي الكتاب» للعلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، المدرس في كليتي العلوم الشرعية واللغة العربية، وهو من أجلّ ما ألف في موضوعه، في (٣٠٢) من الصفحات، ستة آلاف نسخة، وكان طبعه عام ١٣٧٥هـ.

٥ ـ كتاب «الهدية السنية» مجموعة رسائل لكبار علماء نجد ـ في (١١٤) من الصفحات ـ طبع سنة ١٣٧٥هـ.

٦ ـ كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ في (٩٥) صفحة طبع سنة ١٣٧٥هـ.

٧ ـ «هداية الطريق في رسائل آل عتيق» مجموعة رسائل كتبها عالمان فاضلان من آل عتيق ـ في (٧٢) صفحة طبع سنة ١٣٧٥هـ.

٨ ـ «التصوير الضوئي» للشيخ عبد اللطيف زيد ـ في أكثر من (١٠٠) صفحة ـ أمرت بطبعه دار الإفتاء سنة ١٣٧٥هـ.

٩ ـ «المجموع المفيد للطالب المستفيد» مجموع رسائل وكتب في أصول الدين وفروعه لبعض مشاهير علماء السلف ـ طبع سنة ١٣٧٦هـ.

١٠ ـ «من فتاوى شيخ الإسلام» ـ طبع سنة ١٣٧٦هـ.

١١ ـ «الدلائل القرآنية» للشيخ عبد الرحمن بن سعْدِي ـ طبع عام ١٣٧٦هـ.

١٢ ـ «التفسير الميسر في تفسير جزئي (عم وتبارك)» للشيخ عبد الله خياط ـ طبع سنة ١٣٧٦هـ.

١٣ ـ «تمرين الرائض في علم الفرائض» للشيخ عبد الله الخليفي ـ طبع سنة ١٣٧٦هـ.

١٤ ـ «عُدَّة الباحث في أحكام التوارث» للشيخ عبد العزيز بن رَشِيد ـ طبع سنة ١٣٧٦هـ ـ.

١٥ ـ مجموعة مؤلفات الشيخ سليمان بن سحمان (كشف غياهب الظلام ـ الصواعق المرسلة ـ الأسِنَّة الحِداد ـ تبرئة الشيخين الجليلين ـ كشف شبهات البغدادي ـ الجهر بالذكر بعد الصلاة ـ الضياء الشارق) طبعت بأمر الملك سعود ـ رحمه الله ـ عام ١٣٧٧هـ.

١٦ ـ مجموع رسائل وفتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في (٣٥) مجلداً، جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، على نفقة الملك سعود ـ رحمه الله ـ.

١٧ ـ «من أعلام الشعر اليمامي» للأستاذ عمران بن محمد العمران، دراسة أدبية لشعراء اليمامة قديماً في (١٥٣) صفحة طبع عام ١٣٧٧هـ.

١٨ ـ «تاريخ المخلاف السليماني» للأستاذ محمد بن أحمد العقيلي ـ جزآن ـ.

١٩ ـ «تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء» للشيخ محمد بن عبدالمحسن آل عبد القادر.

هذه بعض ما قامت بطبعه، دون حصر لجميعه.

ومن الرسائل :

١ ـ «مقدمة التفسير» للشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم في ثمان صفحات ـ طبع سنة ١٣٧٤هـ ـ.

٢ ـ كتاب «كشف التلبيس» للشيخ صالح بن أحمد ـ في ثلاثين صفحة ـ طبع سنة ١٣٧٤هـ سنة إنشاء المطابع، وهو في علم التوحيد والعقيدة السلفية.

٣ ـ «التحقيق والإيضاح في مناسك الحج والعمرة» للشيخ عبد العزيز ابن باز في ـ (٥٦) صفحة ـ طبع سنة ١٣٧٤هـ السنة الأولى من إنشاء المطابع.

٤ ـ «الجواب المفيد في حكم التصوير» للشيخ عبد العزيز بن باز، طبع سنة ١٣٧٤هـ السنة الأولى من إنشاء المطابع.

٥ ـ رسائل الشيخ ابن عكَّاس، نبذة ألفها الشيخ عيسى بن عكاس من علماء الأحساء في مسائل دينية، طبعت سنة ١٣٧٤هـ السنة الأولى من إنشاء المطبعة.

٦ ـ «فَتْوَى القات» للشيخ محمد بن إبراهيم مفتي البلاد السعودية في (٧٠) صفحة وتاريخ الطبع سنة ١٣٧٥هـ.

٧ ـ «متن الورقات في أصول الفقه» ـ طبع في عام ١٣٧٥هـ.

٨ ـ «شرح الورقات» ـ طبع سنة ١٣٧٥هـ.

٩ ـ «الفتوى اللاذقية» للشيخ محمد بن إبراهيم، جواب لسؤال ورد من اللاذقية ـ في (٣٦) صفحة طبع سنة ١٣٧٥هـ.

١٠ ـ «منع جواز المجاز» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ في (٣٢) صفحة طبع سنة ١٣٧٦هـ.

١١ ـ «نصيحتان لعموم المسلمين» للشيخ عبد العزيز بن محمد الشثري، طبعت سنة ١٣٧٧هـ.

أما الصحف فهي «اليمامة» و «الخليج العربي» و «القصيم» و «الدعوة» و«الجزيرة» و مجلة «المعرفة» التي تصدرها وزارة المعارف، ومجلة «الجامعة».

الحواشي :

(١) : وقد افتتح العمل حضرة صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض إذ ذاك.

(٢) : سجلت فيما بعد لدى (وزارة التجارة) باسم (شركة الطباعة والنشر الوطنية) برقم ٩٥٧ في سنة ١٣٧٦هـ.

(٣) : العدد التاسع ـ رمضان ١٣٧٤هـ ـ .

.. ولبداية الطباعة في مدينة الرياض تاريخ أيضاً *(٢)

لقد تم تسجيل مطابع الرياض لدى (وزارة التجارة) باسم (شركة الطباعة والنشر الوطنية) وَوُضِع لها نظام قُدِّم للوزارة لدراسته، وقُرِّرَ السيرُ بموجبه ريثما يأتي من الوزارة ما يتعلق به.

وقد كان سيرُ أمور الشركة وما حققته مطابعها (مطابع الرياض) من سمعة طيبة في البلاد، من الحوافز القويَّة التي دفعت عدداً من المهتمين بالنواحي الاقتصادية لإنشاء مطابع أخرى، في هذه المدينة الكريمة، كما كان ذالك من الدوافع لزيادة رأس مال الشركة بمضاعفته بحيث يبلغ مليون ريال، عن عشرة آلاف سهم، قيمة السهم الواحد مئة ريال، إلاّ أن إقبال بعض المواطنين للاشتراك في مطابع أخرى كان سبباً في عدم تسديد جميع السهام، فلم يتم الاكتتاب إلاّ في أربعة آلاف وسبع مئة وواحد وسبعين سهماً، وبهذا بلغ رأس مال الشركة تسع مئة وسبعة وسبعين ألفاً ومئة ريال، لأربع مئة وتسعة من المساهمين منهم من يملك ألف سهم، ومنهم من لا يملك سوى سهم واحد، وكانت الغاية من الزيادة في رأس المال توسيع أعمال الشركة بجلب آلاتٍ وعُدَدِ طِباعة وتجليد، ومواد تشغيل، وقد تم بالفعل شراء آلات تنضيد الحروف وسبكها من نوع (لينوتيب) للاستعاضة بها عن الطريقة القديمة، التي هي صفُّ الحروف باليد، مما يوفر الوقت مع جودة الحروف، والسرعة في العمل، وتم الاتفاق على شراء معدات أخرى،

* المجلة العربية، العدد (٢١٩)، ربيع آخر ١٤١٦هـ / آب وأيلول ١٩٩٥م.

بها تستكمل المطابع إمكاناتها التي تهيِّئُ لها القيامَ بما يُراد منها، وقد بلغ عدد العمال خمسة وستين، منهم اثنان وعشرون من أبناء البلاد، أجاد منهم خمسةٌ مهنةَ الطباعة على الآلات الحديثة، وتنضيد الحروف، والعمل في قسم التجليد، وهناك آخرون يتدربون على الأعمال مما هيأ للشركة انخفاض الأجور الشهرية بنسبة تقرب من (٤٠٪) مع تمكين عدد من أبناء البلاد من إتقان مهنة صناعية، جديدة مفيدة، البلادُ في أشد الحاجة إلى معرفتها.

لقد استمر سير الشركة مرضياً حتى بعد إنشاء ثلاث مطابع غير مطبعتها، وذالك في عام ١٣٧٨هـ، والمطابع هي: (مطبعة الجزيرة*، ومطبعة الشرق، والمطبعة الأهلية).

ومع أن تأثير إنشاء هذه المطابع أصبح واضحاً في سير العمل بالنسبة لمطابع الرياض وخصوصاً فيما يتعلق بالمطبوعات التجارية، وقد كانت تُوَفِّرُ لها دْخَلاً جَيِّداً، غير أن تلك المطابع لصغرها وقلة عمالها كانت تستحوذ على تلك المطبوعات.

ومن المعروف أن هذه المدينة الكريمة كانَتْ ولا تزال ينقصها الكثير من وسائل الطباعة الحديثة القوية، لا المطابع هذه التي تم تركيبها إذ ذاك، فعملها محدود، وليس أدل على حسن سير العمل في مطابع الرياض من أنها في خلال سنيها الأولى كانت توزع في كل عام من الأرباح ما لا يقل عن ١٠٪، وفي خلال ثلاث سنوات وزعت ٣٧٪ من رأس المال.

أما في عام ١٣٧٨هـ فقد تَدَنَّت الأرباح إلى ٧٪ ومع ذالك فالوضع

* ليست لها علاقة بصحيفة الجزيرة. (ش).

المالي للشركة لا يزال جيداً، والمطابع تحوي عدداً من الآلات الطباعية، وأدوات التجليد، ومواد الطباعة، وقد أصبح الوضع المالي للشركة يمثل (٩٤١٢٧٥) ريال، المبلغ الاحتياطي العام: ٢٦٩٨٢٨، الأصول الثابتة: ٦٧١٤٤٧ حسب تقدير محاسبين قانونيين.

وأن ما ينقص مطابعها العمال الفنيين الذين بواسطتهم يمكنها الدخول مع المطابع الكبيرة خارج البلاد للاشتراك في طبع ما تحتاجه الدولة من مطبوعات، تتجاوز أجورها عشرات الملايين، كالمقررات الدراسية لوزارة المعارف وغيرها من مطبوعات الحكومة.

وهذا الأمر ـ أعني توفُّرَ العمال الفنيين ـ لم يتم التغلب عليه لقلة أمثال هاؤلاء في البلاد العربية، ولارتفاع أجور غيرهم في البلاد الأخرى.

وحدث في تلك الفترة أن اضطررت للسفر إلى خارج البلاد، لأمر يتعلق بالعمال أنفسهم، وذالك أن الصحف التي تصدر في مدينة الرياض كانت تطبع كلها في مطابع الشركة، ومنها جريدة «القصيم» حينما كان الأخ صالح بن سليمان العمري يقوم بإصدارها، وفي تلك الأثناء كانت الحالة بين الملك سعود ـ رحمه الله ـ وبين عبد الناصر، ليست على ما يرام، والصحف هنا وهناك تنال من الجانب الآخر، فأحضر صاحب جريدة «القصيم» مقالاً للصف وسلمه لأحد العمال المصريين وكان يعمل على آلة تنضيد الحروف، فيه نيل وانتقاص يتعلق بعبد الناصر فطلب من صاحب الجريدة أن يقدمه لزميله اللبناني الذي يعمل على الآلة الأخرى، ولكن صاحب الجريدة أصر على أن يتولى هو صف ذالك المقال وفيه مالا يرضاه عن حاكم بلاده، فما كان منه إلاَّ أن امتنع وقام وأخبر زملاءه من المصريين وكانوا تسعة فترك كل واحد عمله وذهبوا إلى مقر

سكناهم ، وكان ذالك في صباح اليوم الأول من شهر رمضان سنة ١٣٨١هـ، فلما علمت بالأمر حاولت مع الأخوة العمال الرجوع إلى عملهم ولكنهم امتنعوا ، فاتصلت بالأستاذ ناصر المنقور، وكان إذ ذاك يتولى شؤون وزارة العمل بالإضافة إلى عمله، فاستحسن أن أذهب إلى فيصل ـ وكان رئيس الوزراء ـ رحمه الله ـ لأهنئه بشهر رمضان ولأخبره بما حدث من العمال، فذهبت في صبيحة اليوم الثاني فوجدت عنده الشيخ يوسف ياسين بين الحاضرين، ودار الحديث حول رؤية الهلال، فقال فيصل ـ رحمه الله ـ موجهاً الكلام إلى يوسف مبتسماً : ما دام فلان ـ يشير إليّ ـ حاضراً فهو أدرى بموضوع الأهلة .

لقد تذكر حادثة جرت سنة ١٣٥٧هـ لي حين كنت قاضياً في ضبا* عندما تلقيت خبراً من الإمارة بأن النيابة العامة أبرقت بثبوت رؤية هلال شوال فكتبت إليها بأنني لم أتلق من رئاسة القضاة، ولا من عالم شرعي ما يثبت ذالك، وأنا في انتظار أخبار من رئاسة القضاة فهي المختصة بهذا الشأن، وكان بيني وبين أمير البلدة (م . م) تلك الأيام سوء تفاهم، فما كان منه ـ رحمه الله ـ إلاَّ أن أبرق إلى فيصل ـ رحمه الله ـ بأن القاضي لم يقبل ما أبلغتمونا به، فكان أن أجابها : أخبروه بأن هذا قد ثبت لدى جميع علماء المسلمين، فإذا وافق فالحمد لله وإلاَّ فابحثوا عن غيره ليصلي بكم صلاة العيد، وفي تلك الأثناء تلقيت من رئاسة القضاة برقية تؤيد ذالك .

لقد أَخبرت فيصلاً ـ رحمه الله ـ بما حدث من العمال فقال يوسف : أنت لم تنشر في جريدتك شيئًا يغضبهم، فأوضحت السبب، فما كان

* سبق أن تناولها في الجزء الأول في سانحة (حركات غير مريحة) . (ش) .

من فيصل إلاَّ أن أمر صالحاً العبَّاد بالإبراق إلى القنصليات في دمشق وعمَّان وبيروت بمنح تأشيرات لعشرة عمال طباعة لمطابع الرياض، وأن يرحلوا من هناك على حساب الدولة.

كان الملك سعود ـ رحمه الله ـ في أسبانيا للعلاج، وقد بعث إليه الشيخ يوسف ياسين تقريراً مطولاً عن الحالة العامة مما يتعلق بالوزراء وغيرهم، ومنه تقرير عن سير الصحافة، أوضح فيه بأن كل الصحف تسير على الخطة المرسومة سوى صحيفة «اليمامة» التي ينبغي أن يتخذ حيالها ما يكون رادعاً، وقد اطلعت على صورة من هذا التقرير وأنا في بيروت بعثها الأستاذ عبد العزيز بن معمر إلى الأمير طلال بعد ذالك بزمن.

سافرت من الرياض للاتفاق مع اؤلئك العمال فوصلت إلى دمشق أولاً، وكان السفير إذ ذاك على صلة قوية بالملك سعود، وبما يقدم له من تقارير، وفي أثناء مقابلته بشأن الحديث عن منح السمة للعمال جابهني بقوله: كثير ممن يطلع على «اليمامة» يقولون لي: كيف تسمحون بصدورها في بلادكم؟ وكان من الحاضرين عنده الدكتور مدحت شيخ الأرض، فشاركه في الحديث، فامتعضت وتكلمت كلاماً خلاصته: إنكما لستما من المخلصين لا لبلادكما ولا لمليككما، واسترسلت في الموضوع بحيث تأثر السفير بما جابهني به، وحاول الاعتذار، ومثله الدكتور مدحت، ولكنني خرجت.

ولما أتيت إلى بيروت تلقيت برقية من الشيخ عبد الله الطريقي وكان وزيراً للبترول فحواها: الأمر ببقائي، وأن الحالة بالنسبة لي غير مرضية، والتفصيل في البريد ومخرجها (البحرين)، ثم علمت بعد

ذالك بأن الملك سعود ـ رحمه الله ـ أمر بنزع «اليمامة» مني وبحبسي مدة وعقابي ، ثم بعد ذالك الأمر بفرض إقامتي الجبرية في قريتي (البرود) فكان هذا من الأسباب التي دعت إلى استقراري في بيروت فترة ، حتى عهد فيصل ـ رحمه الله ـ) .

وكنت حين عزمت على السفر أسندت الإشراف على المطابع إلى الأخ الشيخ عبد الله بن فهد بن ثنيان أحد أعضاء مجلس الإدارة، كما قرر الأعضاء ذالك .

وكان أعضاء مجلس الإدارة من كبار مساهمي الشركة، وقد فوضوا من قبل جمعيتها العامة باتخاذ جميع ما يرونه من قرارات في مصلحة الشركة دون استثناء، وهم الإخوة (حسب الترتيب الهجائي) :

١ ـ ثنيان بن فهد بن ثنيان .
٢ ـ حمد بن محمد الجاسر .
٣ ـ سعد بن عبد العزيز بن رويشد .
٤ ـ عبد الكريم المحمد .
٥ ـ عبد الله بن فهد بن ثنيان .
٦ ـ عودة العبد الله العودة .
٧ ـ فهد بن محمد بن عمران .
٨ ـ محمد الإبراهيم السبيعي .
٩ ـ محمد بن عبد العزيز المشعل .

كنت أواصل الأخ عبد الله بن ثنيان ـ العضو المنتدب للإشراف على الشركة ـ بالتفقد عن سير العمل، وبعمل ما في استطاعتي عمله، مما يتعلق بانتظام سير الشركة خلال المدة التي أمضيتها في

بيروت، ثم بعد أَن عُدتُ إلى الرياض في عهد الملك فيصل ـ رحمه الله ـ وكان قد مضى على انعقاد الجمعية التأسيسية للشركة فترة طويلة، والإخوة في مجلس الإدارة هم الذين يتولون شؤونها، وكان من الملائم انعقاد الجمعية لعرض موازنة الفترة الماضية، ولانتخاب مجلس إدارة جديد، وقد حدد لذالك باتفاق الأعضاء ليلة الثالث عشر من شهر صفر سنة ١٣٨٥هـ [١٢/٦/١٩٦٥م].

وكان للشركة نظام موافق عليه من مجلس الإدارة المفوض من قبل جميع المسهمين، وقد روعي في هذا النظام الحيلولة دون سيطرة أحد المسهمين في الشركة عليها، فروعي فيه التَّنَاسُبُ في التصويت بين حصص المسهمين المتفاوتة بين سهم فأكثر من ذالك إلى ألف سهم.

فنصت المادة الثالثة والأربعون: على أن التصويت في الجمعية العمومية من حق حاملي الأسهم على الترتيب الآتي: لكل من يملك من سهم واحد إلى خمسين سهماً صوت واحد، عن كل سهم يملكه، ولكل من يملك من ٥١ إلى ٢٠٠ سهم لكل سهمين صوت واحد، ولكل من يملك من ٢٠١ إلى ١٠٠٠ سهم على كل خمسة أسهم صوت واحد.

كما روعي عدم تغلغل نفوذ أعضاء مجلس الإدارة بواسطة التّوكُّل عن الغائبين، فنصَّت المادة الخامسة والعشرون: على أنه لا يجوز أن ينوب عضو مجلس الإدارة عن أكثر من عضو واحد.

وقد كتبت إلى (وزارة التجارة) عن تحديد موعد اجتماع الجمعية العمومية لشركة الطباعة والنشر الوطنية، فنَدَبتِ اثنين من موظفيها لحضور الاجتماع، ولكن لم يحضر من جميع المساهمين سوى تسعة عشر[1]،

من ثلاث مئة وثلاثة وتسعين، أي بنسبة تنقص عن ٥٪ من مجموع المساهمين، وهاؤلاء الحاضرون لا يملكون من رأس مال الشركة إلاَّ نسبة أقل من ٢٥٪ حيث تبلغ جميع سهامهم ألفين وأربع مئة وعشرة أسهم من تسعة آلاف وسبع مئة واثنين وسبعين سهماً، بينما أَحضر عددٌ من الإخوة من أعضاء مجلس الإدارة وكالات، كثيرٌ منها لَيْسَ موثَّقاً، مما سبب حدوث نقاش أثناء انعقاد الجلسة، وانتشرت الفوضى بين جميع الحاضرين، ولم يتدخل مندوبا الوزارة في الأمر، فاضطررت لذالك لإبلاغ الحاضرين بأن الجلسة لاغية، وأن الاجتماع سيقرر فيما بعد، وسارعت في الخروج من المكان.

وفي اليوم الثاني اتصلت بوزارة التجارة فأوضحت في كتاب مؤرخ في ١٤ / ٢ / ١٣٨٥هـ طرفاً مما حدث، ووصفت وضع الشركة وشدَّة الحاجة إلى محاولة إصلاحها، ولم أَقفْ عند هذا الحد، بل اتصلت ببعض الجهات الأخرى، وأخيراً اتضح لي أن الأمر ما دام ذا صلة بإخوة لهم مكانة في نفسي، ومنزلة أرى من الوفاء لهم الحفاظ عليها، وعدم إثارة ما يسبب تنافراً في النفوس، ومادام المسهمون في الشركة أنفسهم ــ وإن كنت أنا أكثرهم سهاماً ــ لم يُبْدُوا أيَّ اهتمام بها، وذالك ما يدل على أحد أمرين:

إما اليأس من إصلاح الشركة، أو عدم الاهتمام بنصيبهم فيها، وما كنت في شيء من هذين إلا أنني رأيت الحفاظ على الصداقة والأُخُوَّة أولى من الاشتغال بأمور لا يَحْسُن من مثلي الانصراف إليها، ولي من أعمالي ما يشغلني.

ولقد كانت ليلة الثالث عشر من شهر صفر سنة ١٣٨٥هـ هي آخر

ليلة زرت فيها داراً أحمل لها في نفسي أجمل الذكريات، وأعجبها وأغربها، وأعمقها أثراً في حياتي، إلا أنني:

إِذَا انْصَرَفَتْ نفسِي عَن الشَّيْءِ لَمْ تَكُنْ
إليهِ بِوَجْهٍ آخِرَ الدَّهْرِ تُقْبِلُ

أما (مطابع الرياض) فآخر العهد بها (خاوية على عِروشها).

وقد رأت (مؤسسة اليمامة للصحافة والطباعة والنشر) الاحتفاظ بأثر من آثار المطابع الأولى لصحيفتيها «اليمامة» و«الرياض»، فَاشْتَرَتْ منذ عهد قريب قبيل الاحتفال بافتتاح دارها الجديدة أكبر مطابعها، وهي (ألمانية) من نوع (كوسار) لم يمضِ على استعمالها سوى فترة قصيرة من الزمن، وقد رُكِّبت تلك الآلة في مدخل المؤسسة، فبدت (ذكرى) معبِّرة عن إنشاء أول مطبعة في هذه المدينة الكريمة قبل أربعين عاماً.

الحواشي:

(١): هم وعدد أسهمهم كما يلي:

حمد الجاسر وله (١٠٠٠)، محمد المشعل (١٤٢)، عودة العبد الله (١٥٠)، عبد الله بن إدريس (١٥)، عبد الله بن ثنيان (١٤٨)، عبد المحسن التويجري (٢٠)، ثنيان الثنيان (٣٠٠)، سعد الرويشد (١١٧)، فهد العمران (١١٠)، سعد البواردي (١٠٠)، عبد الرحمن الجريسي (١٠٠)، محمد السياف (١١)، صالح بن عواد (٥)، محمد بن ثنيان (٥)، سليمان التخيفي (٥٨)، عبدالرحمن بن جبر (٥٠)، عبد الرحمن بن منصور (٢٥)، صالح بن سليمان الغنيم (٥٠)، عبد العزيز بن مضحي (٥).



صورة الصفحة الأولى للعدد الأول من صحيفة اليمامة

ولماذا الكتابة عن الأنساب؟!*

حاورني أخ كريم، ذو مكانة مكينة في نفسي، لما يتصف به من علم وفضل وخلق مُتَميِّزٍ، في أحد الموضوعات التي تعنى مجلتي كثيراً بنشر ما يتعلق بها من كتابات منوعة، ومنها من الأبحاث ما يشغل حيِّزاً واسعًا من صفحاتها، أو يثير كثيراً من تكرار الكتابة عنه، لما ينشأ من اختلاف آراء القراء حوله، مما يعبر بوضوح عن اهتمام المَعْنِيِّ بالإشراف على تحرير المجلة به، عناية لم تقف عند حد ما ينشر فيها، بل تجاوزت ذالك إلى تَصَدِّيْه للتأليف عن الأنساب، وتناولها بالبحث والدراسة في مؤلفاته الأخرى بتوسع وإسهاب.

ومن الأمور المدركة بداهة أن جميع الأمم والشعوب لا تعير الأنساب أي اهتمام، باستثناء سكان جزء محدود في قلب الجزيرة في هذا الوطن الكريم، حيث يبدو الاهتمام بها بين هاؤلاء واضحاً في إيجاد فوارق في حياتهم الاجتماعية، وهي فوارق لها آثار أقل ما توصف به أنها لا تقوم على أسس معقولة، بل على عادات وتقاليد متوارثة، منذ أزمنة قديمة، إذا تعمق الباحث فيها أدرك أنها من الأمور التي جاء ديننا الحنيف بالقضاء عليها كغيرها من جميع الأسباب التي يبدو من خلالها استعلاء أو تميز بين طبقة وأخرى، أو بين فرد وآخر من طبقات المجتمع المسلم أو أفراده، ما لم يكن ذالك قائماً على أساس التفاضل بالأعمال ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّه أَتْقَاكُمْ﴾[1]. «إن اللّه قد أذهب عنكم عبِّيَّةَ الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي»[2].

---

* المجلة العربية، العدد (٢٢٠)، جمادى الأولى ١٤١٦هـ / أيلول ـ تشرين الأول ١٩٩٥م.

ليس من شك أن استحكام العادات والتقاليد ورسوخها من الصعب القضاء عليها، واجتثاث جذورها، ومن المعروف أن التعاليم الإسلامية في أول عهدها لم تَتَغلغل في نفوس جميع سكان البلاد، وخاصة أبناء البادية في قلب الجزيرة، وفي الصحاري النائية عن مراكز الدعوة الإسلامية، في المدينة وغيرها من قواعد الحكم الإسلامي، كما أخبر اللّه عز وجل: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[٣] . فكان من جَرَّاءِ عدم مباشرة تلك التعاليم لقلوب هاؤلاء بَقاءُ بعض التقاليد الموروثة، مسيطرة على النفوس، ومنها ماله صلة بالحياة الاجتماعية، كالنظرة إلى الأنساب نظرة تمييز، وكما في الحديث «ثلاث في أمتي من أمور الجاهلية: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة على الميت»[٤] .

ولعل هذا الأمر مما لمحه الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ حيث خصص مبحثاً له في كتاب «التوحيد»، وهو من الأمور التي يجب على كل مريد للخير، ومحب لإصلاح أمته أن يسعى ما وسعه السعي، لكي لا تتصف به .

ومن هنا كان مدخل حديث الصديق: ألا ترى أن التأليف في الأنساب مما يوسع الْهُوَّةَ بين طبقات المجتمع ؟ ! .

قد يدرك القارئ لأول وَهْلَةٍ ما لهذا القول في الصحة من نصيب، ولكن ينبغي أن يلاحظ قبل ذالك من الأمور ما يزيد الموضوع إيضاحاً:

١ ـ النظر إلى الغاية الأولى من التأليف في علم الأنساب .

٢ ـ منزلته في تراث الأمة الذي ينبغي الحفاظ عليه، والعناية بحفظه .

٣ ـ نظرة سلف الأمة الذين هم القدوة إليه.
٤ ـ غاية كل مُؤَلِّفٍ من هذا العلم، وهدفه من التأليف.

أما بالنسبة للأمر الأول فقد كان علم النسب عند العرب من أسس تاريخهم القديم، إذ كانت الغاية منه تسجيل مآثرهم، وبيان ما لهم من مناقب ومفاخر، بذكر الْمُبَرِّزين في كل قبيلة بخصلة من خصال المجد والشرف، كالشجاعة والكرم، وحماية الجار، وغير ذالك من الأمور المحبوبة.

ومن هنا ينظر إلى هذا العلم بصفته متمماً ومكملاً لتاريخ الأمة العربية.

ثم بالنسبة للنظر إليه لموقعه من التراث العربي، فلا تجد أحداً ممن عني بالدراسات التاريخية إلاَّ وهو يدرك ما له من قيمة تستلزم الاهتمام به؛ لارتباطه بكثير من العلوم الإسلامية.

ويتضح الأمر الثالث بمعرفة كثرة المهتمين في التأليف فيه، من سلف هذه الأمة ومشاهيرهم، بحيث لم يقتصر ذالك على فئة خاصة من العرب الصريحي النسب، بل شاركهم في ذالك علماء أجِلاَّء، لهم مكانتهم بين علماء المسلمين ديانة وعلماً وخلقاً، وحسبك بأمثال أبي عُبَيْدٍ القاسم بن سلام (٢٢٤ / ٣٣٨هـ) مؤلف كتاب «النسب»، وبأبي محمد علي بن حزم الأندلسي (٣٨٤ / ٤٥٦هـ) وغيرهما من أجلة العلماء ممن لا يتسع المجال لسرد أسمائهم.

ولقد أوضح الإمام ابن حزم في مقدمة كتابه «جمهرة أنساب العرب» ما فهمه من مدلول الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

فقال: (وإن كان الله قد حكم بأن الأكرم هو الأتقى، ولو أنه ابنُ زِنْجيَّةٍ لِغَيَّةٍ، وأن العاصي والكافر محطوط الدرجة، ولو أنه ابن نبيين، فقد جعل لتعارف الناس بأنسابهم غَرَضاً له في خلقه إِيَّانا شعوباً وقبائل، فوجب بذالك أن علم النسب علم جليل رفيع).

وإذَنْ فالتأليف في علم النسب متى كان مقصوداً به الاهتمام بتاريخ الأمة من جميع نواحيه فهو من الأمور المحمودة.

ويأتي الأمر الرابع : وهو ما أوضحه الصديق بقوله: هناك طبقة في المجتمع لا يهتمون بأنسابهم، اهتماماً يحملهم على العناية بها، فهم في هذا كغيرهم من مختلف الشعوب في جميع الأمم يرون عدم أهمية ذالك، وليست هذه الطبقة مجهولة الانتساب إلى الأمة العربية دَماً ووطَناً ولغةً واتفاقاً في الغايات والمقاصد، ولا مغموطة الحق في أداء ما عليها من واجبات دينية، أو خُلقيَّة أو وطنية، وقد يحدث بين أحد أفراد هاؤلاء وبين غيره ممن له عناية بالأنساب مما ينشأ عنه من التنافر ما يوغر الصدور، وقد يكون ذالك من أثر ما لهذه المؤلفات التي انتشرت هذه الأيام، مع اهتمام بعض الصحف بنشر ما يتعلق من ذالك.

من هنا اتضح لي ضرورة إزالة ما علق في ذهن هذا الصديق الكريم أو غيره من القراء ـ حول اتجاهي في الآونة الأخيرة للاهتمام بهذا الموضوع، وذالك بإيضاح جوانب حياله :ـ

الأول: أنني نظرت إلى علم الأنساب نظرة عامَّةً فرأيت قوة ارتباطه بتراث الأمة، ومن هنا كانت نظرتي مجردة من كل غاية لا تهدف لخدمة التراث، وكنت أدرك أن من بين ذالك التراث ما ليس جديراً بالاهتمام به في هذه الأزمنة لعدم الحاجة إليه، بخلاف هذا العلم الذي

يحتاج إليه كل باحث في أي علم من العلوم، من تفسير، وحديث، وفقه، وتاريخ، وأدب، ولغة.

الثاني: أنني أدركت أن بعض من تصدَّى للتأليف فيه وقعت منه أخطاء لا يصح التغاضي عنها ممن أدركها، بل بلغ الأمر إلى أن كثيراً ممن تصدى لذالك ليس أهلاً له، فرأيت أنني قد أُقَدِّمُ لمن لا يزال متعلقاً به ما يصح الاعتماد عليه، فكان أن ألّفت كتابين أحدهما «معجم قبائل المملكة العربية السعودية» حاوياً جُلَّ ما هو متعارف عن أنساب القبائل التي لم تتحضر بَعْدُ، من أبناء البادية. والثاني «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد».

وأنا في الكتابين لست سوى ناقل لما هو متداول ومعروف، مِمَّا لا يُؤَثِّرُ في إضعاف روابط المجتمع، بل يزيدها تماسكاً.

الثالث: أنني حاولت في الكتابين وفي غيرهما ـ مما كنت أنشره في «العرب» وغيرها من أبحاث في الموضوع ـ أن أزيل كثيراً من الأوهام التي أُلْصِقَتْ ببعض القبائل، مع التعمق في دراسة أنسابها حتى تمكنت من إثباتها على الوجه المرضيِّ، مما دفع بعضهم إلى النيل مني في مؤلفات مطبوعة، بل لقد كان من أثر ذالك أن بعضهم غضب علي حين كتبت بحثاً يتعلق بالأنساب مما لا داعي لذكره(٥).

ولا أبالغ إذا قلت بأن علم النسب لا يقوم على أسس علميه صحيحة، فما هو سوى موروث الأجداد للأحفاد فمن بعدهم، مما يعتمد على الذاكرة والعاطفة، وهما ليستا مُؤْتَمَنَتَيْن دائماً.

وكنت فكرت في تأليف قسم ثالث عن أنساب بعض الأُسَرِ والقبائل الحديثة لمحاولة إرجاع بعضها إلى أصول قديمة، ولإثبات أنساب أُسَرٍ تُعَدُّ

مجهولة النسب، أو مغمورة، غير أنني رأيت فتح هذا الباب قد يثير تساؤلات كثيرة، أنا في غنى عنها، ومع ذالك فقد أثبتُّ في مقدمة كتاب «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» رأيي في كثير من الأسر المجهولة النسب حين قلت : إنَّني أَعْتَقِدُ جازماً أَنَّ كُلَّ أُسْرَةٍ نَجْدِيَّة، كَانَتْ تُقيمُ في هَذِه الْبلادِ قَبْلَ أَنْ يَتمَّ الاتِّصَالُ بالعَالَمِ الخارجيِّ بعد مُنْتَصَف القرن الرابع عشر الهجريِّ، كُلُّ أُسْرَةٍ ذاتُ أَصْلٍ عَرَبيٍّ صَحيح، إِمَّا بصلَة نَسَبٍ أَوْ بحلْفٍ أوْ ولاءٍ، وكل هذه الأُمُور تُبْنَى عَلَيْهَا صحَّةُ النَّسَب منذ أَقْدَم العُصُور، ولكن كثيراً من تلك الأُسَرِ جَهِلَتْ أُصُولَهَا لأَسْبَاب كثيرة.

حتى الموالي ذكرت انصهارها في المجتمع العربي، فأصبحت عربية اللغة والخُلُق والوطن لها كل الحقوق التي لغيرها من سكان هذا الوطن الكريم.

ولن أجانب الحقيقة حين أقول: بأنني حاولتُ في جميع ما كتبت، مما يتعلق بالأنساب إبراز جانبين :

أولهما : أن الأمة العربية جميعها وحدة متماسكة، على تعدد قبائلها، وتفرقها في بلادها، وما امتزج فيها من عناصر اندمجت فيها وامتزجت، بحيث انعدمت الفوارق والمميزات، ومن كل ذالك تَكَوَّنَ هذا الكيان العظيم، كيان هذه الأمة، التي شرفها الله على من سواها بأن اختار منها خير خلقه، الذي اصطفاه لرسالته إلى الناس أجمعين، وأنزل بلغتها أشرف كتبه، واختار موقع بيته الكريم الذي فرض حجه على كل مسلم في بلادها، وأناط نشر الدعوة للهداية والصلاح بالرعيل الأول من سلفها الصالح، فميزها بذالك على غيرها من أمم العالم.

ثانيهما : أنني حاولت فيما كتبت ـ وفق ما استطعت ـ سدَّ الثغَرات التي قد ينشأ عنها ما يؤثر في ذالك الكيان ، مما قد يحدث حزازات أو ضغائن في بعض النفوس ، من إبراز فوارق أو مميزات ، أو مغامز أو عيوب ، لأنني نظرت إلى الموضوع نظرةً أعَمَّ وأشمل من كونه متعلقاً بإثبات نسب ما ، ولكن لكونه وسيلة من وسائل إيجاد الروابط القوية بين القبائل والأسر ، لينشأ التعارف الموجب للصلة والتقارب ، اللذين بهما تقوم حياة المجتمع ـ في ذالك الكيان ـ على أسس من المحبة والأُخُوَّة .

أفتراني ـ والأمر كما أوضحت ـ خالفت نهجاً سلكه من علماء هذه الأمة من يحسن الاقتداء بهم ، والسير على طريقهم ؟

لقد أَردتُ ما هو خير ، فبذلت الوسع : (وَمَنْ ذَا الذي تُرْضَى سجاياه كلها) !! .

الحواشي :

(١) : سورة الحجرات الآية (١٣).

(٢) : رواه الإمام أحمد وأبو داوود والبيهقي كما في «الجامع الكبير» للسيوطي ص١٧٢ .

(٣) : سورة (الحجرات) الأية الـ (١٤).

(٤) : رواه الضياء المقدسي عن أنس كما في «الجامع الكبير» ص٤٨٤ .

(٥) : «العرب» ١٧١/١٥ ـ رمضان ١٤٠٠ ـ حيث تحدثت عن زواج الأميرة بسمة ابنة الملك طلال برجل عرف بعصاميته لا بأصالة نسبه وتوسعت في الكلام على هذا.



مقالة للفيصل ـ رحمه الله ـ نشرت في العدد الخاص بوفاة الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ، في مجلة اليمامة في ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ .

(٤٠) عاماً في دنيا الصحافة*

حديثُ المرءِ عن نفسه ـ في مقام الإطراء والثناء ـ من الأحاديث السمجة الممجوجة، ما لم يتناول جانباً من جوانب أعمالِ تلك النفس لغرض إبراز حقيقة من الحقائق التي قد يَعْلَقُ في الأذهان حيالها ما ليس صحيحاً، فما أرى هذا النوع من الأحاديث إلاَّ محموداً، وخاصة حين تدعو المناسبة إلى ذالك.

وهذا ما دفعني للتحدث بإيجاز عن بعض الجوانب المتعلقة بإنشاء المجلة الحبيبة إلى قلبي، استجابة لرغبة أُستاذٍ كريمٍ أُجِلُّهُ وأْحمِلُ له في نفسي من التقدير ما يوجب عليَّ تحقيق رغبته.

في صبيحة يوم من أيام ربيع الثاني سنة ١٣٧٢هـ وقد تسنى لي الاجتماعُ بسعود بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إذْ كانَ ولياً للعهد، وكان قد أمر بنقلي من (مراقبة التعليم في الظهران) قبل ثلاث سنوات لأتولَّى (إدارة التعليم في نجد)، ثم نُقِلْتُ من هذا العمل بأمر ملكي حين أُمِرَ الشيخُ محمدُ بن إبراهيم بإنشاءِ معهد ديني علمي في الرياض، لأُسَاعِدَ في إنشاء هذا المعهد، فكنت على صلة حسنة بسمو ولي العهد تلك الأيام، فأظهرت له في صباح ذالك اليوم ضرورة إيجاد صحيفة في مدينة الرياض. وكان ـ تغمده الله بواسع رحمته ـ ذَا رَغْبَةٍ قوية في فعل كل ما مِنْ شأنه تقدمُ هذه البلاد وإصلاحها في مختلف مرافقها الحيوية، وكان ذا نفسٍ سَمْحَةٍ، سريع الاستجابة لفعل الخير، فما كان منه وقد علم برغبتي بِأَنْ أقوم بالإشراف على هذه الصحيفة إلا أَنْ أَمر بالكتابة

* المجلة العربية، العدد (٢٣٣)، جمادى الآخرة ١٤١٧هـ / تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٩٦م، المجلة العربية، العدد (٢٣٤)، رجب ١٤١٧هـ / تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٩٦م.

إلى وزير الداخلية وإلى وزير المالية بالكتابين رقم ٧١٨٢ و ٧١٨٣ وتاريخهما ١٣ / ٤ / ١٣٧٢هـ بما صورته:

من سعود بن عبد العزيز إلى ....

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

لقد طلب منا الشيخ حمد الجاسر السماح له بإصدار صحيفة في الرياض باسم (الرياض) فوافقنا على ذالك.

فأنتم إن شاء الله تعاملون الصحيفة فيما يرد لها من ورق وخلافه كما تعاملون الجرائد والمجلات الداخلية، وسيرد لها مطبعة، فأنتم أعفوها من الرسوم. والسلام..

التوقيع

سعود

كان أن اتصلت بوزارة الداخلية ويتولاها في ذالك العهد الأمير عبد الله الفيصل فأحيل الكتابُ إلى وزارة الخارجية، إذْ (قلم المطبوعات) كان من فروع تلك الوزارة، وهو الذي يمنح الإجازة بإصدار الصحف، وكان مقرها في جدة، وبعد الاتصال بها طُلِبَ مني إحضارُ كفيلين، أحدهما غارم، والآخر يتعهد بإحضاري في أي وقت يراد مني فيه الحضور. ولم أكُنْ أعرفُ أحداً في هذه المدينة الكريمة سوى أشخاص لا تمكنهم أعمالهم الرسمية من تحقيق رغبتي، فيما لو طلبت منهم كفالتي، إلاَّ أنني كنت مدعواً للغداء عند الشيخ محمد بن علي الْبَيْز قاضي تلك المدينة، وكان من أساتذتي في المعهد السعودي في مكة المكرمة سنة ١٣٤٩هـ وما بعدها، ومن بين المدعوين أخوه أحمد، وعبد العزيز بن

حمد العبدليُّ من وجهاء أهل عنيزة، وحين علما بالأمر أَبْديا موافقتهما على أن يكفلاني لدى قلم المطبوعات، فكان ذالك، ومُنِحْتُ رخصةً بإصدار صحيفة باسم (الرياض) تصدر بصفة موقتة شهرية، ثم أسبوعية، فيومية.

عدتُّ إلى الرياض وجَمَعْتُ بعض موادٍّ للعدد الأول من هذه الصحيفة التي رأيت الإسراع بإصدارها خشية أن يَحْدُثَ من الأُمور ما يحول دون ذالك، وسافَرْتُ إلى مصر، وهناك اجتمعت بأبنائنا من الطلبة الذين يدرسون في الجامعة ودار العلوم وكليات الأزهر، ورأيت أن أُكِلَ رسم الأسُسِ التي ينبغي أن تسير عليها هذه الصحيفة إلى اؤلئك الشباب الذين هم بِدُونِ شَكٍّ أكثر خِبْرَةً وأوسعُ معرفة وإدراكاً لما ينبغي أن تكون عليه الصحافة الناشئة في مثل بلدنا، وهكذا وجدتُّ في اؤلئك الأبناء ما كنت أتوقع، فقد توالت اجتماعاتهم في أحد منازلهم في شارع يوسف جوهر في الدُّقي، حيث رسموا الأسس التي ينبغي أن تقوم عليها هذه الصحيفة، من حيث الشكل والمنهج، ثم هَيَّأُوا مما كتبوه ما أضافوه إلى ما أحضرته معي من مقالات، وفي (مطابع دار الكتاب العربي) تم الاتفاق على طبع العدد الأول من مجلة (الرياض)، فصدر ذالك مصدراً بكلمة كتبتها بعنوان (هذه الصحيفة : يدٌ بيضاءُ لسمو وليِّ العهد المحبوب)، أوضحت فيها ملامح عَمَّا توخاه المشرفون على إصدارها من الإسراع إلى ذالك بهذه الصورة، ومما جاء في تلك الكلمة:

فأصدرنا هذا العدد، ولم نُؤْثِرْ أَنْ يصطبغ بهذه الصبغة الأدبية التي قد تروق لفئة خاصة، غير أَنَّ الظروف والملابسات قَسَرَتْنَا قَسْراً سنكون عنه ــ إن شاء الله ــ بمنجاة ومنأى، حينما يُهَيِّءُ الله الوسائل

اللازمة، فنرى «مطبعة الرياض» تلقف ما يقدم لها من نتاج الأفكار، وقرائح الفهوم، فتحيله أُكُلاً شَهِيًّا طرِيًّا، وشرابًا سائغًا عَذْبًا، يُرَبِّي العقول وينعش الأرواح. ونرى قراء «الرياض» في كل مدينة من مدن هذه المملكة العظيمة، وفي كل قرية من قراها - بل في كل شعب من شعابها، وفي كل وادٍ من أوديتها - يجودون لها بكل جديد طريف، عن دراية ومعرفة، وبصيرة ورشد، ويجدون فيها وفي غيرها من صحفنا مِنْ غِذاءِ الأرواح والعقول كل نافع مفيد. حينما نرى ذالك - وهو قريب إن شاء الله - بفضل ما يبذله سمو ولي عهدنا المحبوب في جميع السبل التي تعود على الأمة بالصلاح - تصبح «الرياض» لا صحيفة أسبوعية فحسبُ، بل يومية تتجاوب أصداؤها في أنحاء المعمورة، مدوية بما يطيب ذكره، ويحسن نشره، عن هذه المدينة السعيدة، بل عن هذه الأمة المجيدة، وما ذالك على الله بعزيز.

تتلوها كلمة بعنوان (سبيل الدعوة إلى الحق) للشيخ عبد العزيز ابن باز المدرس في معهد الرياض، فأخرى بعنوان (حاجة الإسلام إلى الدعاية) للشيخ عبد الله الخياط مدير مدرسة الأمراء في الرياض، فكلمة الأستاذ خليل الهراس أحد الأساتذة المصريين المدرسين في معهد الرياض، فمقطوعات شعرية قديمة وحديثة، فدراسة أدبية للأستاذ ناصر الحمد المنقور، معتمد المعارف في نجد، فمقال للأستاذ شكيب الأموي عن (القوة والعلم أم الضعف والجهل). فوصف رحلة في داخل نجد، يتلوها نقد لكتاب «تهذيب الصحاح» في اللغة الذي طبع على نفقة الشيخ محمد سرور الصبان وصدر تلك الأيام، ونَقْدٌ آخر لكتاب «طبقات فحول الشعراء»، ثم بحث لغوي للشيخ يوسف الضبع، فوصف

مـخطوط نادر، فـمـقـال طِـبِّيٌّ بعنـوان (عـالـج نفـسـك بدون طبـيـب) للدكـتـور يوسف الحُـمَـيْـدَان، فـمـخـتـارات وتعـليـقـات، وينتـهي العـدد بصفحتين عن أنباء الحركة الثقافية.

ويتوالى نشاط اؤلئك الأحبة من أبنائنا الطلبة ممن أصبحوا فيما بعد يتسنَّمون أعلى المراكز في الدولة من وزارات وغيرها، منهم بل أبرزهم وأنشطهم بالنسبة للعمل في هذه الصحيفة في أول نشأتها اثنان هما: ناصـر المنـقور، وصالح الحُصَـيِّن، ومن اؤلئك عبـد الرحـمن أبا الخيل، وعبد العزيز السالم، ومحمد بن عبد الرحمن الفُريح، وعبد الرزاق الريِّس، وعبد الرحمن بن سليمان آل الشيخ، وحسن المشاري، وإبراهيم العنقري، وعبد الله الطريقي، إلى آخرين لا يتسع المقام لذكر أسمائهم من مشاهير الكتاب والشعراء الذين في استطاعة القاريء أن يرى آثارهم فيما نشرته المجلة في سنتيها الأولين.

لقد طبع العدد وتقدمت بنسخ منه لسعود ـ رحمه الله ـ طالباً الأمر بنقله من القاهرة إلى الرياض بواسطة الخطوط السعودية، وهو لا يزيد على خمسين كيلاً، ولكنني فوجئت بكتاب من الديوان بتوقيع رئيس الديوان ملخصه:

إن سموه أمر بما يلي:

١ ـ عدم استعمال اسم (الرياض) للمجلة التي أصدرتم لأن هذا الاسم منحه سموه الشيخ عبد الله بلخير مستشار سموه.

٢ ـ يمكنكم أن تنقلوا المجلة على حسابكم.

٣ ـ سوف لا يُسمح بتوزيع أي عدد من المجلة وهي تحمل اسم (الرياض).

أصبح لا مندوحة لي من تغيير الاسم، بعد طبع أوراق وظروف ودفاتر كلها تحمله، مع الإعلان في جريدة «البلاد» السعودية عن (الرياض) وتكاليف ذالك لا يعتبر يسيراً بالنسبة لحالتي في ذالك الوقت.

وكان نظام المطبوعات إذ ذاك مَرِناً من حَيْثُ استبدال الاسم بغيره، إذ تَنُصُّ إحدى مواده على أن لصاحب المطبوعة (جريدة أو مجلة أو غيرها) أن يغير الاسم بما يختاره من الأسماء، بشرط ألا تكون مستعملة الآن، أو أنه لم يَمْضِ على استعمالها في الماضي أكثر من عشر سنوات. فقدمت طلباً بتغيير الاسم إلى (اليمامة) لعدم استطاعتي استعمال الاسم الأول، ولكن ما الحيلة والمجلة قد طبعتْ، والمبلغ المصروف لطبعها وإن كان قليلاً إلا أنه بالنسبة لي في ذالك الوقت يعتبر كثيراً ؟! ليكن تغيير الغلاف والورقة الأولى التي تحمل اسم (الرياض) وما يقابلها في الملزمة، وأُجرة إعادة طبع الغلاف مع الورقتين المذكورتين أيسر من طبع المجلة كلها، فكان ذالك. ولكن بعض المقالات كتبت لمجلة الرياض وورد اسمها فيها، وليكن هذا فما الذي يضير ؟!.

أُرْسِلَتِ المجلةُ بعد هذا التعديل مجزّأة مع بعض المسافرين، فوصلت إلى الرياض ووزعت، وكانت الاشتراكات فيها لم تتجاوز مئة نسخة، والباقي ـ من الألف ـ بيع، سوى ما يقرب من مئتي نسخة.

وبعد ذالك تلقيت كتاباً من وزارة الخارجية ينصُّ على أنه جرى رفع طلب تغيير الاسم إلى المقام السامي، ولكنه صدر بدون الموافقة على الاسم الذي اخترته إلا بإضافة كلمة أخرى (يمامة نجد) أو (نجد اليمامة)، وكان بيني وبين الأستاذ خير الدين الزركلي ـ رحمه الله ـ صداقة، وكان الذي يتولى وكالة الخارجية، وهو الذي وقّع كتابها، وقد ألحق به

في ورقة منفصلة كتابة ورد فيها : (هذا ما ورد من المقام السامي ولن يعجزك وجود مخرج من ذالك) .

كان المخرج الاستمرار على اسم (اليمامة) وإن كان اسم الرياض الذي اخترته أولاً بقي يداعب مخيلتي، وأتمنى في كل مناسبة صدور صحيفة في هذه المدينة باسمها، إلاَّ أن المعارضة في ذالك تأتي من جانب قوي كان هو المشرف على شؤون الصحافة، وهو الأستاذ عبد الله بَلْخَيْر، ولم يَمْضِ يَسيرُ زمنٍ حتى قامت مؤسسة الصحافة والطباعة والنشر، التي يملكها ثَرِيٌّ كبير مشهور في مدينة جدة بإصدار مجلة باسم «الرياض»، ولما حادثت الشيخ عبد الله بلخير في الأمر، وكيف أُمْنَعُ من استعمال اسمٍ مُنِحْتُ به رخصة من قلم المطبوعات ويسمح لغيري باستعماله؟!

أَحَرَامٌ عَلَى بَلابِلِهِ الدَّوْ ... حُ حَلالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ؟!

أجاب : بأنه صاحب الحق في الاسم وقد (أعاره) مؤسسة الصحافة!

كان الشيخ بلخير قد قرر القيام بمشروع طباعي صحفي ضخم، ومنحته الدولة لتلك الغاية أرضاً واسعة تتوسط مدينة الرياض، تُحَدُّ جنوباً من بيوت آل فهد (شارع القطار فيما بعد) إلى ما عرف باسم (شارع الجامعة) شمالاً، وغرباً من (طريق المطار) إلى قرب مؤسسة الكهرباء شرقاً، وأحضر إلى الرياض من لبنان خَبِيْراً بشؤون الطباعة هو جورج صيقلي، فمكث مدة في الرياض وفي الظهران درس خلالها ما تتطلبه البلاد من مطبوعات وما يلزم لها من آلات طباعة، فكان أَن أُحضرت بعض الآلات إلى ميناء الدمام، وبقيت في صناديقها فترة من الزمن.

وبعد أن توقفت مجلة «الرياض» التي صدرت في جدة كانت فكرة إصدار صحيفة في مدينة الرياض باسم الرياض لا تزال تراودني.

وأذكر أنني في إحدى المرات عَبَّرْتُ لجهة مسؤولة عن تلك الفكرة، فوجدت استحساناً بل موافقة ووعْداً بالعمل على تحقيقها، فكان أن تقدمت بطلب ذالك، وبعد أن تمت الموافقة ونلت تصريحاً برقم ٢ / ٧٦٧٨ تاريخ ١ / ١٢ / ١٣٧٦هـ هذا نصه:

تصريح

بناء على الأمر الملكي الكريم برقياً برقم ٢٢٦٥٨ في ١٣٧٦ / ١١ / ١٧هـ بالموافقة الملكية العالية على طلب الشيخ حمد الجاسر إصدار صحيفة أسبوعية في الرياض باسم (الرياض) تكون خاضعة لنظام الصحافة وتتجنب الدخول في السياسة أو المهاترات الصحفية.

لقد أخذ التعهد على الشيخ حمد المذكور، وأعطي هذا التصريح لإصدار صحيفة باسم «الرياض» في الرياض، ونرجو أن تقوم بواجبها في خدمة الحكومة والبلاد بكل نزاهة وإخلاص.

صورة للديوان الملكي للبرقيات الختم توقيع أمير الرياض

بدأتُ بالاستعداد لإصدار الصحيفة، وأعلنت ذالك في صحيفة «اليمامة» ولكنني فُوجِئْتُ من الجهة المسؤولة عن شؤون المطبوعات بمعارضة شديدة، لم أستطع التغلب عليها، إلا بعد أن وكلت الصحافة في عهد فيصل ـ رحمه الله ـ إلى مؤسساتٍ مُنِحْتُ امتيازَ إحداها مع عدد من الإخوة الذين اخترتهم، وهي (مؤسسة اليمامة الصحفية).

لقد صدر العدد الأول أول ما صدرت صحيفة اليمامة في عهدها الأول، بتلك الصورة التي أوضحتها من حيث تنوع الموضوعات فيه،

تنوعاً كان مثار نَقْدٍ من كثير من المهتمين بالشؤون الصحفية، إذ لم تَتَّضِحْ من خلالها أهدافُ الصحيفة، مع أن أولئك الشباب من أبنائنا، ومنهم من كان قد أكمل دراسته قد عُنوا بهذه الناحية الأساسية، ولكن للظروف حكمها في بلاد لم ينتشر فيها التعليم الحديث، ولا تزال نظرة كثير من أَهْلها إلى الصحافة نظرة استرابة، بل استهجان من بعضهم، ولهذا كان من أهم الوسائل التي أريد منها محاولة تغيير تلك النظرة الاستعانة بنشر آراء العلماء وأفكارهم في المجلة، ثم التدرج فيما ينشر بالطريقة الممكنة نحو الغاية المتوخاة، التي هي الاهتمام بالنواحي الاجتماعية بصفة عامة.

كان من أول ما فكرت فيه بعد الموافقة على السماح لي بإصدار الصحيفة إيجادُ مطبعةٍ لها في مدينة الرياض، وكنت إذ ذاك مساعداً لمدير المعهد، الذي يتولى رئاسته الشيخ محمد بن إبراهيم، ويضم عدداً كبيراً من المدرسين والطلاب، فاستطعت أن أجمع منهم مبلغاً من المال لغرض إنشاء شركة باسم (شركة الطباعة والنشر الوطنية) وأردتُ شراء مطبعة مستعملة من مصر، ولكن الأستاذ محب الدين الخطيب ـ وهو خبير بهذا الشأن ـ نصحني بأن أشتري آلات حديثة، وهيأ لي الاتصال بإحدى الشركات التي تتولى توريد آلات الطباعة من ألمانيا، وبواسطة وكيلها في بيروت (سابا وشركاه) تَمَّ شراء آلات مطبعة كاملة، وبدأ وصول بعضها إلى الرياض.

وفي تلك الأثناء تم طبع العددين الأولين في مصر لاتخاذهما أنموذجاً لما يطبع بعدهما من أجزاء، وكنت قبل طبعهما قد اجتمعت ببعض الأخوة المشرفين على إدارة مطبعة (البلاد السعودية) في مكة فعلمت أنه بإمكانها طبع الصحيفة ما دامت شهرية.

وكنت كتبتُ للصديق الأستاذ عبد الله عريف ـ رحمه الله ـ وهو مدير تلك المطبعة، أطلب منه أن يُمدَّ «اليمامة» بشيء من كتاباته، فبعث يستوضح عن موضوع ما يكتبه، وأشار إلى ما حواه العدد الأول من موضوعات من بينها ما نشرته المجلة عن «تهذيب الصحاح»، وذكر أنَّ الشيخ محمداً كان راضياً عن ذالك لا كما قَدَّرْتُ، وأضاف في كتابه إلي: (لست من رأيك في طبع المجلة في مصر، لا لأني أريدها لمطبعة البلاد السعودية، بل لأن ذالك أكرم لبلادنا، ومَسْأَلَةُ الأسعار والمطابع هنا ولا سيما مطبعتنا تستطيع أن تساعدك في هذا، لا سيما إذا قَدَّرْتَ مشاكلَ الشحن من القاهرة إلى هنا).

إذَنْ ها هي مشكلة الطباعة قد أَوْشَكَتْ أنْ تَنْحَلَّ، وفعلاً تم الاتفاق على أن تتولى مطبعة البلاد السعودية في مكة طبع المجلة اعتباراً من العدد الثالث بأجرة قدرها (٥٦٠) ريالاً لألف نسخة (خمس ملازم) أي ما يقرب من ضعف أجرة طبعها في مصر، ويضاف إلى هذا (٦٠) ريالاً تصحيح التجارب (البروفات)، ولكن أحد الأخوة أبدى استعداده للقيام بالتصحيح بدون مقابل وهو الأستاذ عبد الله بن خميس، وكان مقيماً في مكة في ذالك الوقت، وفعلاً صدرت أربعة أعداد من الثالث إلى السادس مع ملحق لجزء ربيع الثاني ١٣٧٣هـ عن وفاة الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ مطبوعة بتلك المطبعة، ولكن تلك الأعداد كانت تتأخر في صدورها عن الوقت المحدد، فقد يوشك أن ينتهي الشهر قبل صدور العدد المخصص له، والمفروض توزيعه في أوله، مما اضطر الأستاذ عبد الله [بن خميس] لكتابة كلمة في باطن غلاف العدد السادس الصادر في شهر جمادى الأولى ١٣٧٣هـ جاء فيها:

(فررنا من المطابع المصرية لسببين :

١ ـ كثرة الأغلاط المطبعية وهي نتيجة حتمية تفرضها بحوث المجلة وتحقيقاتها الغريبة على المصححين هناك .

٢ ـ هوة البعد السحيقة بين محرري المجلة وبين المطبعة ، مما يسبب تأخر المراسلات والوقوع في الارتباك ، ولأجل هذا اخترنا مطابع البلاد السعودية لتكون الفائدة مزدوجة ، فانعكست القضية وجاءت الخسارة بالنسبة إلينا مزدوجة) .

ثارتْ ثائرةُ الصديق الأستاذ عبد الله عريف مدير مطابع البلاد ، فأرجع مواد العدد السابع وأخبر الأستاذ عبد الله برفض طبعها ، ولم يُجْدِ ما بذلته من محاولاتٍ ليبقى الأمر على ما هو عليه ، فكان الاتصال بمؤسسة الطباعة والصحافة والنشر في جدة ويديرها السيد مدني بن حمد ، لطبع المجلة ، وبعد الموافقة بشفاعة الشيخ إبراهيم الجفالي ـ رحمه الله ـ تم تقديم عدد رجب ، ولقد انتهى الشهر الذي يليه ، ثم خرج العدد بشكل غير ملائم للأعداد التي صدرتْ من حيث الشكل مما اضطر إلى العودة للطبع في الخارج .

وكان بعض الإخوة* قد أنشأوا مكتباً في بيروت باسم (المكتب السعودي للتأليف والنشر) ، ومن أعماله الإشراف على طبع ما يوكل إليه من مطبوعات كان من بينها هذه المجلة ، من العدد الثامن من سنتها الأولى حتى العدد التاسع من السنة الثانية ، حيث تم طبعه في (مطابع الرياض) في شهر رمضان سنة ١٣٧٤هـ ، وبعده صدر العددان العاشر والحادي عشر عن شوال وذي القعدة سنة ١٣٧٤هـ مزدوجين ، لتبدو

* منهم عبدالله الملحوق وعبدالكريم الجهيمان . (ش) .

الصحيفة فيما بعد في شكل جريدة أسبوعية جامعة اعتباراً من غرة شهر صفر سنة ١٣٧٥هـ (١٨ سبتمبر ١٩٥٥م).

ويشاء الله أن تُنْزَعَ من يدي وأنا أُهَيِّئُهَا للصدور يومية في سنتها الثامنة، إلا أن فيصلاً - رحمه الله - لم يَرْضَ بهذا الحيف، فسارع لإزالته في أول مناسبة سنحت لذالك.

لم تكن المسيرة في معايشة الصحافة - في السنوات الماضية - مريحة، وخاصة بالنسبة لي، مما لا داعي لتفصيل ما قاسيته خلال صدور «اليمامة» جريدة، ولن أتحدث عن المشكلات التي تعترض سير الصحفي الناشي في بلاد حديثة العهد بالصحافة، ولكنني أكتفي بالإشارة إلى واحدة منها، ومنها تنشأ أشدُ البلايا وأسوأ المشكلات، إنها مشكلة الرقابة على المطبوعات (ولا ينبئك مثل خبير).

لم أشعر صباح يوم من الأيام وأنا في مكتبي في مطابع الرياض إلا بالأستاذين عبد العزيز بن إبراهيم بن معمر وعبد الله بلخير مستشاري الملك سعود - رحمه الله - يدخلان عليَّ، وأثناء حديثهما أخبراني أن الملك بعثهما لكي يسند إليَّ رئاسة مكتب مراقبة المطبوعات في الرياض الذي أمر بإنشائه، فرجوتهما أن يبلغاه جزيل شكري على هذه الثقة التي أَعْتَزُ بها، وأنني أرجو منه أن يفضل عليَّ بأن أتولى رقابة الجريدة التي أُصدرها وحدَها دون غيرها، فكان الأمر كذالك، ومضى وقت و«اليمامة» بدون رقيب، ثم حدثت أمور لا داعي لتفصيلها، وتولى الرقابة في خلال ذالك عدد من المراقبين ممن كان وصفهم بالجهل لغاية ما أسند إليهم من عمل أيسر صفة تنطبق عليهم حتى حانت من فيصل - رحمه الله - إحدى نظراته الصائبة، فأزال عن الصحافة (كابوس) الرقابة، [سيرد تفصيله].

وكان مما حدث أنني في شهر محرم سنة ١٣٧٧هـ [١٩٥٧م] وصحيفة «اليمامة» في سنتها الرابعة ـ رأيت قضاءَ فترة من الوقت في مصر، وفي مساء اليوم الذي قررت السَّفَرَ في صبيحة الذي يليه، وكنت قد أَسندت عمل الإشراف على شؤون الصحيفة للأستاذ عمران ابن محمد العمران، إذْ دخل علي شابٌّ من شُدَاة الأدب، ممن كنت أرى بعض كتاباتهم تُنْشَر في الصحف، فقدم لي كتاباً خلاصته أَنَّ الأمر السامي صدر بإنشاءِ مكتب للمطبوعات في مدينة الرياض، وإسناد إدارته لفلان (الشاب نفسه) ليتولى الإشراف على المطبوعات بما فيها صحيفة «اليمامة»، فاستقبلته استقبالاً حسناً، وأخبرته بأنني سأسافر غداً وأَنَّ الأستاذ عمران سيتولى رئاسة تحرير الصحيفة، وأنني لآمُلُ أن يكون عوناً له في عمله، وبعد حديث طويل عبرت له فيه عن سروري بتوليه أعمال رقابة المطبوعات، وما يناط به وبأمثاله من الشباب المثقف من آمال، حيال صحافة بلادنا الناشئة ـ خرجنا إلى المكان الذي اعتاد الناس في ذالك العهد الخروج إليه في المساء (طريق خريص) وبقينا في أحد المقاهي إلى ما بعد العشاء، ثم افترقنا مطمئناً على أن الصحيفة ستجد من هذا الشاب خَيْرَ عون لها لتسير سيراً محققاً للغاية المتوخَّاة.

ولكنني لم أشْعُرْ وأنا في القاهرة أستمع إلى إذاعة لندن في صباح أحد أيام آخر شهر صفر، ولم أستكمل الشهر في غيابي إلا بإذاعة خبر فحواه: أنَّ الحكومة السعودية قررتْ إيقاف جريدة «اليمامة» مدة شهر، ومحاكمة صاحبها لنشرها مقالاً يمسُّ الحكومة الباكستانية.

كان الأستاذ عمران نشر كلمة في العدد الـ(٩٦) بتاريخ ٢٠ / ٢ / ١٣٧٧هـ عن (أغاخان) وتعرض فيها لذكر حكومة الباكستان، وكان الرقيبُ قد

أجازَ نشرها، فلما احتجت الحكومة الباكستانية وعَرَضَ الأمْرَ الشيخُ يوسف ياسين على الرَّجُل المسؤول في الدولة في غياب الملك وولي عهده، أمر بإيقاف الصحيفة وسجن صاحبها، وقبل البدء في التحقيق عمدَ الرقيبُ إلى أخذ أصل المقال، وقال للمشرف على الصحيفة: إذا سُئِلْتَ عن نشره فقل: بأن قسم الصف أخذه مع الأوراق الأخرى بدون اطلاعي.

عدتُّ في ١٨ شهر ربيع الثاني ١٣٧٧هـ وأشرفتُ على تهيئة العدد الجديد من الصحيفة، ولكن الأستاذ عمران أخبرني بأنَّ الرقيب لم يُجزْ نَشْرَ شيءٍ من مقالاته، فلما استوضحت منه بالهاتف كان جوابه: يُوَجَّهُ هذا السؤال إلى مرجعي، ولم يستكمل كلامي، فكان أن ذهبتُ في صباح اليوم التالي إلى الشيخ عبد الله بلخير، ومعي إضْبَارَةٌ مملوءةٌ بالمقالات التي أمر الرقيبُ بعدم نشر شيء منها، فوجدت الاثنين معاً، فكان مما جرى الحديث فيه موضوع الرقابة، وأن الأخ القائم بها الآن لا يُبْدى تعاوناً مع المشرفين على الصحيفة، وقدمت له النماذج مما في الإضبارة ليطلع على شيء من تصرفاته، وكان من بين تلك المقالات مقالٌ للأستاذ محمد علي العبد عن احتجاج جمعية الرفق بالحيوان في بريطانيا بشأن (الكلبة لايكا)، وسكوتها عن قذف الطائرات البريطانية القنابل المحرقة على الشيوخ والنساء في الجنوب العربي، ومقالٌ آخر للأستاذ عبد الكريم بن جهيمان عن ضرورة إيجاد أمكنةٍ لقضاء الحاجة في الميادين والساحات العامة في مدينة الرياض استكمالاً لنظافتها، فلما استوضح الشيخ بلخير من المراقب عن عدم السماح بنشر عدد من المقالات، كان مما أجاب به: بريطانيا صديقة لنا ولا يسوغ أن نوجه لها نقداً، كما أن مدينة الرياض ينبغي ألاَّ يقرأ الناس عنها أنها غير

متكاملة في مظهرها الحسن. وأجوبة أخرى عن المقالات الأخرى من هذا القبيل.

فأكدت للشيخ بلخير ضرورة تغيير المراقب بإنشاء هيئة رقابة مكونة من مندوب من وزارة المعارف، وآخر من إمارة الرياض، وثالث من المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر، ورابع من إدارة الصحيفة أو تَرْك الأمر إليَّ كما كان في السابق، ولكنه أظهر لي من الرقة واللطف والتودد ما حملني على الثقة به، ولكن كما قيل: (يدٌ تَشُجُّ وأُخْرَى مِنْكَ تَأْسُونِي)، فأصدرتُ العدد الذي كان المراقب قد أشار بعدم نشر بعض مقالاته إذْ رأيتها كلها صالحة للنشر، وفي مساء ذالك اليوم تلقيت صورة برقية مطولة موجهة إلى صاحب الجلالة وإلى سمو ولي عهده، وإلى المدير العام للإذاعة والصحافة والنشر بأن صاحب «اليمامة» قد تخطى نظام المطبوعات، وخالف الأوامر وفعل كيت وكيت.

فما كان مني إلا أن وجهت برقية لتلك الجهات مضمونها: إن عدم تعاون المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر مع الصحيفة اضطرني إلى إيقافها حتى ترى الحكومة رأيها في الأمر.

اتصل بي الأمير فهد الفيصل أمين مدينة الرياض، وأخبرني بأن الملك ليس راضياً عن إيقاف صدور «اليمامة» فأوضحتُ له الأمر، فكان أن اسْتُبْدِلَ الرَّقِيْبُ فتنفس القائمون على الصحيفة الصُّعَدَاء، ولكن أَصْلَ الداءِ لم ينحسم حتى حانتْ من فيصل ـ رحمه الله ـ إحدى نظراته الصائبة، فأزال عن الصحافة كابوس الرقابة في ٢٤ رجب سنة ١٣٧٩هـ.

كان الأستاذ السيد علي فدعق يكتب في «اليمامة» بصفة مستمرة، فكان فيما يكتب ملاحظات حول (ديوان المظالم)، ويرأسه في ذالك العهد الأمير مساعد بن عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ فأثار ما كتب غضب الأمير ، وكان الذي يتولى إدارة الإذاعة والصحافة والنشر الأستاذ إبراهيم الشورى بالوكالة عن الشيخ عبد الله بلخير، وكان حديث العهد بالقدوم إلى الرياض، وبيني وبينه معرفة، منذ كان مديراً للمعهد السعودي في مكة، وكنت من طلابه، فذهبت للسلام عليه في (فندق زهرة الشرق)، وبينما أنا عنده إذْ دخل عليه الأستاذ عبد المؤمن مُجَلِّد، مدير مكتب رئيس ديوان المظالم فَقَدَّم له الجريدة مشيراً إلى مقال الأستاذ فدعق، وأخبره بأن الأمير متأثر من هذا المقال، فغضب الأستاذ الشورى.

وما كان فيما كتب الأستاذ السيد علي فدعق ما يثير الغضب، إذ نصه كما جاء في العدد الـ(٢٠٢) الصادر في تاريخ ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٧٩هـ تحت عنوان: (كل أحد):

٢ ـ ديوان المظالم لدينا عُنْصُرٌ من عناصر العدالة، وتطبيق النظام، ونصفة الذين تقع عليهم ظلامات رؤسائهم الذين يستغلون سلطتهم لظلم الآخرين، هذا الديوان هل رفع [تقاريره] لجهة الاختصاص، إذ تنص المادة العشرون من نظام شُعَب مجلس الوزراء الموقر على وجوب رفع تقرير كل ستة شهور؟ لم نَسْمَعْ ولم نَقْرَأ أنه رفع مرةً تقريره إلى الجهة المختصة، إنّنا نرجو أنْ نَقْرأ ـ مجموعة أحكام ديوان المظالم ـ لأنها تحوي آراء فقهية محترمة وتفسيرات قانونية سليمة لأنَّ بالديوان علماء، نرجو ذالك، وكان الله في عونه. انتهى.

ولكن الشيخ الشورى، وهو المشرف على إدارة شؤون الصحافة أثناء غياب الشيخ عبد الله بلخير، كتب أثناء زيارتي للسلام عليه كلاماً باسم (رئيس التحرير) يدور حول ثقة الصحيفة ببعض الكُتّاب، وكون بعضهم ليس محلاً للثقة؛ لأنهم يُكنون من الأهواء والأغراض خلاف ما يبدونه في مجال النصح والإرشاد، وذكر الأستاذ السيد علي حسن فدعق باسمه، وطلب مني أن أنشر هذا الكلام بتوقيعي، فأظهرت له الموافقة مجاملة ولكنني رأيت الكلام على درجة من القسوة تحول دون نشره.

وفي المساء تلقيت برقية بعدم نشر أي شيء من كتابات الأستاذ علي فدعق.

واتفق أن زار المطابع الشيخ الشورى في صبيحة اليوم الثامن عشر من شهر رجب ١٣٧٩هـ لطبع أوراق تتعلق بزيارة ملك المغرب التي ستجري في العشرين من الشهر المذكور، فرأى العدد الـ(٢٠٥) الصادر في ذالك اليوم خالياً مما كتب عن الأستاذ علي حسن فدعق، فانفعل ووجَّه إليَّ كلاماً شديدًا لم أستطع تَحَمُّلَهُ، فخرج من المطبعة غضباناً، ويظهر أنه ذهب إلى مجلس الوزراء لمقابلة سمو الأمير فيصل، فكان أن صدر الأمر بدعوة الصحفيين في صبيحة يوم السبت ٢٤ رجب ١٣٧٩هـ [٢٢ / ١١ / ١٩٦٠م].

وعقد الاجتماع الصحفي في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت في التاريخ المحدد، برئاسة سمو رئيس مجلس الوزراء الأمير فيصل، وحضره عن المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر الأستاذ إبراهيم الشورى وحسن الأشعري، كما حضره رؤساء تحرير الصحف (قريش واليمامة والندوة والرائد وأم القرى والخليج العربي والمدينة المنورة والقصيم).

وكانت تحية كريمة من فيصل ـ رحمه الله ـ حيث رأى صاحبي (قريش)* و(اليمامة) جالسين في طرف الحاضرين أن دعاهما وأجلسهما بجواره، ووصفهما بأنهما شيخا الصحافة وينبغي أن يتصدرا المجلس. وكان ذالك في الوقت الذي كان بعض الحاضرين يتوقع أن يَصُبَّ جامَ غضبه على من كان السبب في الدعوة لهذا الاجتماع.

ثم كانت لفتة كريمة أخرى من سموه حين سمى «اليمامة» في معرض الحديث عن الصحف التي كان يحرص على قراءتها وهو في (لوزان).

وفي سياق التدليل على ما يكنه سموه للصحفيين من تقدير واحترام واعتراف بفضلهم قال: إنه أصدر أمره بتعيين أحدهم وهو الأستاذ عبد الله عريف (أميناً للعاصمة)، ووصف الاجتماع بأنه عائلي أَخَوِيٌّ، المقصود منه التذاكر في الشؤون المتعلقة بالصحافة، ثم أعلن سموه إلغاء الرقابة قائلاً: «إن القائمين على الصحف هم أبناء البلاد، ومن الصفوة الطيبة التي يجب أن تكون قدوة صالحة في كل عمل نافع، في التوجيه والإرشاد، وفي تحرِّي الحقيقة، وفي النقد النَّزِيه، وفي عدم الانحياز إلى هوى أو مأرب خاص، وإن لهاؤلاء الصحفيين من التقدير في نفسي ومن الثقة بهم ما يحملني على أن أرفع الرقابة عن الصحف».

ويبقى حديث ـ بل أحاديث ـ فقد أيقنت سُنُوّ الصحافة العسيرة في القلب أسى، وفي النفس حرقة، وفي الحلق غصة، إلا أن المقام يستدعي الإيجاز، والمناسبة مناسبة طيبة، يراد منها استجلاء جهود خيرة، جديرة بأن تمحو آثار تلك المتاعب الماضية، فها هي صحافة

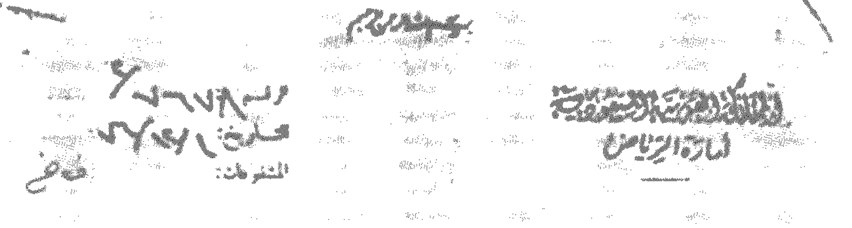
* يقصد أحمد السباعي، وكانت (قريش) قد بدأت في الصدور قبل نحو ثلاثة أشهر من ذلك الاجتماع. (ش).

البلاد تبدو في أروع مظهر وأقواه، في رعاية شاملة من دولة كريمة، توجهها عقول نيرة حكيمة.

وها هي نخبة الشباب الواعي المثقف ـ بما أوتيت من علم وإدراك ـ تكتنف جنبات تلك الصحافة في مختلف شؤونها لتبلغ بها ما يستطاع بلوغه في توجيه الأمة وجهة الخير والصلاح.

وما إخالك ـ أيها القارىء الكريم ـ بحاجة إلى مزيد من البرهان أوضح مما بين يديك:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل



المملكة العربية السعودية
إمارة الرياض

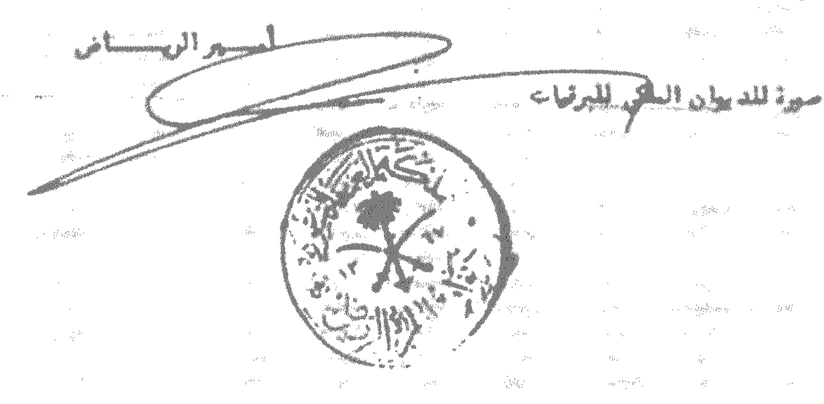
الرقم:
التاريخ:
المرفقات:

تصريح

بناء على الأمر الملكي الكريم برقيا برقم ١٩٩٥٨ في ١٣٧٦/١١/١٢هـ بالموافقة الملكية العالية على طلب الشيخ حمد الجاسر لإصدار صحيفة أسبوعية في الرياض باسم (الرياض) تكون خاضعة لنظام الصحافة وتتجنب الدخول في السياسة أو المهاترات الصحفية لقد أخذ التعهد على الشيخ حمد المذكور وأعطي هذا التصريح لإصدار صحيفة باسم ((الرياض)) في الرياض . ونرجو أن تقوم بواجبها في خدمة الحكومة والبلاد بكل نزاهة وإخلاص ..

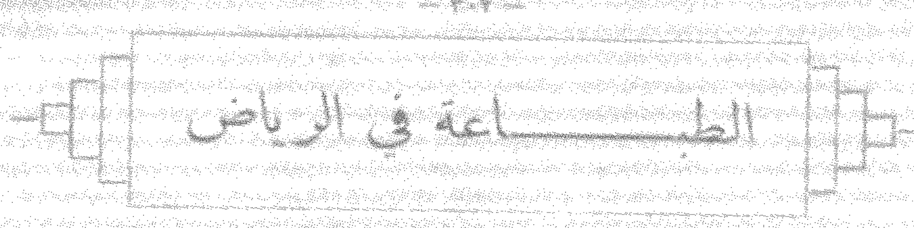
أمير الرياض

صورة للديوان الملكي للبرقيات



التصريح الممنوح من الأمير سلمان بن عبدالعزيز للشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ، لإصدار صحيفة أسبوعية باسم الرياض في مدينة الرياض بعد صدور الموافقة الملكية عام ١٣٧٦هـ.

الملاحق والكشافات



الطباعة في الرياض

مقالة بقلم الجاسر ـ رحمه الله ـ بمناسبة طباعة العدد التاسع من السنة الثانية من مجلة (اليمامة)، أول عدد يطبع في مطابع الرياض

حول فصل (مدارس نجد) عن المعارف

سررت حين قُدِّمَ لي مقالٌ مطول تقع صورته في تسعِ صفحات عدا ما أضيف إليه من أوراق ملحقة به ، ومبعث هذا السرور أن ذالك المقال معنون بـ (تعليق على سوانح الجاسر عن بدايات التعليم في نجد) بقلم الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العمري .

ولقد كان سروري من نواحي : ـ

أولاها : أنه يتعلق بموضوع أتطلع دائماً إلى أن أَتلقيَّ من القراء ما أُصحح به ما وقع مني من خطإٍ ، أو أَستدرك به ما فاتني ، أو أضيفه فأُستفيد بإضافته ما كنت أجهله ، وكما في الأثر الشريف : « كُلُّ بني آدم خَطَّاء» .

الناحية الثانية : توسمي بالكاتب الكريم خيراً ما دام يحمل إجازةً علمية ، لها مكانتها وقدرها في النفوس .

الناحية الثالثة : أن الكاتب ينتمي إلى أسرة كريمة كانت لي صلة ببعض أفرادها كالشيخ محمد بن حمد العمري، وهو ذو أخلاق فاضلة بالإضافة إلى إلمامه بأطراف العلوم مما دفعه للاهتمام بجمع الكتب النادرة ، وقد عمل فترة طويلة موظفاً في الديوان الملكي ، وقامت صلتي به على أساس إتحافي ـ في بعض الفترات ـ بإطلاعي على بعض ما تحويه مكتبته من نوادر ، وقد توفي ـ رحمه الله ـ وانتقلت بعض كتبه إلى إحدى الجامعات في الرياض ، كما عرفت منذ سنة ١٣٦٢هـ

من تلك الأسرة الأستاذ صالح بن سليمان العمري ، وبقيت الصلة به تتجدد حتى كان من عمله في إحدى الصحف ما قواها بالاتصال بمطابع الرياض التي أنشأتها وكنت أشرف على إدارتها .

ولقد عرفت ما بين أسرة الدكتور عبدالعزيز وبين أسرة أحد مديري المدارس ، الذين تحدثت عنهم في بعض السوانح عن التعليم في نجد كالسانحة الـ (١٠٠) وما قبلها ، وظهر لي من مقال الدكتور عبدالعزيز في أوله وفي أثنائه من الثناء عليّ ما حملني على الاعتقاد بأنه سيعالج الموضوع الذي تحدث عنه متجرداً من كل غاية لا تهدف إلى البحث عن الحقيقة ، ولم أَكُنْ أتصور أن يكون لصلة القرابة بين الأسرتين الكريمتين (العُمَرِيَّة) و(السَّلِيْمِيَّة) ـ كالخؤولة والمصاهرة وغيرهما من الروابط القوية ـ من التأثير ما اتضح لي بعد أن واصلت قراءة المقال ، لقد أدركت طغيان العاطفة في كل سطر من سطوره ، كما اتضح لي أنه ينصب في غايته ومرماه على الإثارة والتحريض ، وهما أَمران لا يتأثر بهما إلا الضعفاء .

لقد كنت أَودُّ أن الدكتور عبدالعزيز لم يُغالِ في الثناء عليَّ بحيث وصفني بـ (علامة الجزيرة) و (أستاذ الجيل) وبأنه ممن يفتخرون بالشيخ حمد الجاسر ، ويقرأون له ، بل ويفخرون به وبأمثاله في هذا البلد ، فله عندي منزلة كبيرة لا ينقص منها ما كتبته عنه في هذه الصفحات ، وأمثال هذه العبارات التي كنت أود أنه وازن بينها وبين ما وصمني به من مساوىء ، أنا واثق بأنه هو نفسه ليس مقتنعاً بها ، وإنما هي أثر من آثار طغيان عاطفة القرابة ، وهذا ما يحملني على أن أنظر إلى جميع ما وجَّه إليَّ من مَدْحٍ أو قدح نظرة واحدة سَيْراً على المثل :

(بيضاؤُهُم تقابل سَوْدَاءَهم)[1] .

ولا أُوَجِّهُ كبير عتب للدكتور عبد العزيز ، إِلاَّ أَن هذا لا يمنعني من أَن أُبْديَ ملاحظات حول ما كتبه ، مما أخشى أن يبقى عالقاً في ذهنه ، أو ذهن من قرأ كتابته مِنْ تصوُّرِ الأُمور على غير حقيقتها .

لم استغرب ما وقع في المقال من أخطاء نحوية من إنسان يحمل شهادة عالية مثل : ـ (لم يَدَّعِ أَحدًا) ـ ص١ ـ .

و (لا يزال بعضهم موجود) ـ ص٣ ـ .

و (استدرك في العدد التالي شيء مما قاله) ـ ص٥ ـ .

و (مع ذالك عدوا الطلاب ناجحون) ـ ص٥ ـ .

و (لا يعرف حمد شيء عن أحوالها) ـ ص٧ ـ .

أو جمع (مدير) على (مدراء) في كثير من الصفحات .

وأمثال ذالك من الأخطاء النحوية التي لا تقبل من طلاب الدراسة الابتدائية .

لم أستغرب هذا ، بل قلت لعل الكاتب الكريم وقد أكمل دراسته في قسم الاجتماع ، مِمَّنْ لم يُعْنَ باللغة العربية ، وإن كان من أوجب ما ينبغي أن تتركز عناية الجامعة التي تخرج فيها على لغة القرآن الكريم ، فهي تحمل اسماً يتطلب أن تكون عنايتها بها تتلاءم مع الغاية التي أُنْشئت الجامعة من أجلها .

ولم أتأثر بما وصمني به من أنني أحتقر جهود الآخرين وأدَّعِي السيطرة على التعليم في نجد ـ ص١ ـ . وأن مديرية المعارف (على علم بطبيعة حمد ، وأنه سيحاول ازدراء عمل الآخرين والحط منه) ـ ص٣ ـ وأمثال هذه العبارات التي يدور المقال على تقرير مضمونها .

ولم أكترِثْ بما أضفاه على قريبه من مبالغات في الثناء كوصفه بأنه (أول مدير ومؤسس لأول مدارس الرياض الابتدائية) في الصفحات ـ٢ / ٧ / ٨ـ٠ إذ كل هذا من تأثير العاطفة، ومتى غلبت العاطفةُ فَقُلْ : على العقل والعلم وتَحَرِّي الحقائق السلام.

أما ما يحويه المقال من المبالغات كقوله عن من يدافع عنهم : (لديهم آلاف الوثائق عن تلك الفترة ، لا تزال محفوظة ولعلها تخرج بإذن الله على يد بعض الكتاب) ـ ص١ ـ .

فالكاتب يلقي القول فيها على عواهنه دون تفكير كأن يقول : (بأن معتمدية المعارف في القصيم فُتِحَتْ قبل معتمدية المعارف في نجد) ـ ص٢ ـ . أو قوله : عن استقدام بعض المدرسين من بلاد عربية للتدريس في المدارس الابتدائية (قوبل بمعارضة شديدة من بعض مدراء المدارس ومن قبل مديرية المعارف العامة) لأنه يجهل شؤون التعليم ، ويجهل تاريخ إنشاء معتمدية القصيم، كما يجهل أن المدارس الابتدائية وُجِدَتْ في مدينة الرياض قبل مجيء صاحبه إليها، إذ سبق أن أُنشئت (المدرسة السعودية) سنة ١٣٦٦هـ وتخرج أول فوج من طلابها سنة ١٣٦٨هـ في السنة التي أُنشئت فيها (المدرسة الأهلية) ، وقبل (المدرسة السعودية) كانت (مدرسة أبناء الملك) وبعدها (مدرسة أبناء ولي العهد) ، وهو يجهل أيضاً أن المدرسة التي تولى إدارتها صاحبه لم تستكمل سنواتها الابتدائية الست أثناء وجودي مشرفا على التعليم.

ولن أتوسع في تتبع ما تعرض له كاتب المقال من أمور سبق أن أوضحت المهم منها ، ولن أشغل القارئَ بغيرها ، بل سأحصر حديثي في موضوعين ما كنت أود الحديث عنهما ، إذ أحدهما يتعلق بي ،

وهذا مما لا يعني غالب القراء ، ولئلا يتوهّم متوهّم مما ذكره الدكتور خلاف الواقع أردت إيضاحه.

فِرْية فصل (مدارس نجد) عن (المعارف) :

هي فرية حقًّا كنت أجهل السبب لإلصاقها بي ، إلا أن صاحب المقال أوضح لي جوانب بها استطعت إدراك حقيقة ما حدث .

قال في كلامه عن المعارف: (يعتقدون أن الشيخ الجاسر كان حريصاً على إيجاد مؤسسة خاصة به، ولو على حساب هدم مديرية المعارف ، وسيكون جاداً في الانفصال عن المديرية، وإيجاد مديرية خاصة للمعارف في نجد ، مستقلة بالكلية عن مديرية المعارف العامة بالمملكة، وقد صدق ظنّ مديرية المعارف العامة) ، وعلق على هذا بقوله: (توجد بعض الوثائق المتعلقة بهذه القضية بذاتها آثرت عدم نشرها الآن ، كما أن ولي العهد آنذاك كان له موقف مشهور حول تلك الأحداث آثرت عدم الخوض فيه) . انتهى.

ويتضح هذا الأمر للقارىء الكريم من أمور: ـ

١ ـ ما شعرت في صبيحة يوم من شهر رجب سنة ١٣٧١هـ وأنا في مقر عملي إلا بثلاثة ضباط يدخلون علي، وبعد أن استقر بهم الجلوس قال احدهم : نريد أن نتحدث معك على انفراد، فقمنا إلى حجرة مجاورة ، وبعد أن استقر بهم الجلوس قال أحدهم: لن نخبرك بالغاية التي كُلِّفنا بها ، لقد وردت برقية لجلالة الملك من مدير المعارف بأنك أبلغت مديري المدارس بفصل مدارس نجد عن (مديرية المعارف العامة) ، وأنك وضعت لا فتات للمدارس تدل على هذا ، فعلى أيِّ أساس

تصرفت هذا التصرف؟ فتحت باب الحجرة وكلمت أحد الجالسين في المكتب ، وطلبت منه إحضار اللافتة التي في مدخل البيت وهي تحمل كتابة هذا نصها (المملكة العربية السعودية، مديرية المعارف العامة، معتمدية المعارف في نجد، اسست سنة ١٣٦٦هـ) وكان في المستودع لافتات لبعض المدارس، فطلبت إحضار واحدة منها وكان مكتوباً فيها (معتمدية المعارف في نجد، مدرسة سدوس، أنشئت سنة ١٣٧٠هـ) وأريتهم اللافتتين، فقال أحدهم : هذه ـ مشيراً إلى لافتة المدرسة ـ ليس فيها اسم (المعارف) . فقلت : إن كلمة (معتمدية المعارف في نجد) تغني عن اسم (المعارف) وسبب ذالك أن اللافتة صغيرة ولا تتسع لكتابة اسم المملكة ثم المعارف ثم المعتمدية ثم المدرسة ثم التاريخ، فهي لا تزيد على نصف متر عملت بهذا المقاس اضطراراً لقلة المبلغ المقرر لعمل اللافتات، اقتنعوا بأن كلمة (معتمدية المعارف) تغني عن كتابة (مديرية المعارف) ولم يحدث منهم شيء أكثر من هذا .

وقد سبق أن مدير المعارف ـ حين عينت بدون موافقته ـ أبرق للملك يصمني بأَسْوَإِ وصمة، ويصفني بأنني لا أصلح للإشراف على التعليم في نجد ، ولكن سعوداً ـ رحمه الله ـ أقنع الملك بأنني لم أُعَيَّن إلا بعد استشارة الشيخ محمد بن إبراهيم وموافقته، وهو أعرف بي من مدير المعارف، فانتهى الأمر عند هذا الحد، وقد خشيت أن يكون لزيارة الضباط ما لا أرتاح إليه، فذهبت لمقابلة سعود ـ رحمه الله ـ وأخبرته بما حدث فطمأنني بعد أن دعا المسؤول عن البرقيات في ديوان جلالة الملك، فحضر إليه ، فخرجت من عنده ، وكان هذا كل ما عرفته عن هذا الأمر حتى تجلت لي أسبابه واضحة فيما بعد .

٢ ـ كانت صلتي حسنة بالمعارف قبل ذالك العهد أثناء إدارة السيد طاهر الدباغ ـ رحمه الله ـ حين كنت أُدَرِّسُ في المعهد وتحضير البعثات في مكة ، وقد يتصل بي بعض موظفي التعليم في مدارس نجد ، فأبذل ما أستطيع من مساعدة ، وممن عرفت تلك الأثناء ممن اتصل بي الأستاذان عبدالله بن إبراهيم بن سليم وصالح السليمان العمري ، وبعد ذالك زرت مدينة (بريدة) في جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢هـ وزرت المدرسة التي كانا يعملان فيها فأبديا لي من حسن الاستقبال والرعاية والإكرام ما حملني بعد عوتي إلى الرياض في طريق مكة أن كتبت لهما كتاباً مؤرخاً في ١٠ / ٦ / ١٣٦٢هـ نصه :

(إلى حضرتي الصديقين الكريمين ، والأستاذين الفاضلين ، الأخ عبد الله بن إبراهيم آل سليم ، والأخ صالح السليمان العمري سلمها الله .

سلام عليكما ورحمة الله وبركاته ، وأرجو من الله لكما دوام كل صحة وسرور ، وتجديداً للعهد كتبت هذا الكتاب ، وأنا في الرياض متوجه إلى الطائف ، وأكون مسروراً بقضاء ما يلزم لكما ، وأرجو أن تكون مدرستكما مستمرة في سيرها ، متقدمة في جميع أحوالها ، وأن تكون زيادة المعارف في الرواتب قد نالت المدرسة منه قسطها ، كما أبشركما بأن معالي الوزير قد وعد بالاعتناء والاهتمام بمدارس نجد ، وعزم على فتح مدرسة في الخرج ، ليست مرتبطة بالمعارف إلا في المنهج ، وقد وكل إليَّ اختيار مدير وأساتذة لها ، وستفتح إن شاء الله في هذين الشهرين ، ولا شك أن هذا الخبر يسركما . وسلامي عليكما وعلى كافة أساتذة المدرسة والله تعالى يحفظكما . أخوكما (التوقيع) .

فكان أن تلقيت جواباً من أولهما كتاباً مؤرخاً في ٢٠ / ٦ / ١٣٦٢هـ ونصه:

(حضرة الأمجد الأفخم ، الأستاذ الفاضل الشيخ حمد بن محمد الجاسر حفظه الله تعالى آمين .

وبعد التحية والاحترام ، أرجوا أن حضرتكم بكمال الرفاهية .

عزيزي: أخذت كتابكم الكريم الذي لي أنا وصالح العمري، حامداً الله تعالى على صحتكم، شاكراً لحضرتكم على وفائكم، الدال على حسن نيتكم، وفقكم الله تعالى.

عزيزي: أحسنتم الإفادة من خصوص فتح المدرسة، وزادنا الأخ سليمان بن حجّي أن الوزير وَكَل موظفيها إلى حضرتكم واختياركم، ولعمري إنَّ هذه لنعمة أخرى إذْ وُسدَ الأمْرَ ولله الحمدَ إلى أهله.

سيدي : والله إني دائماً أتذكر تلك الأيام التي قضيناها بمكة، وتحصل المشاهدة لحضرتكم، وأدعو لكم، سرَّنا الله تعالى بمشاهدتكم عند بيته الحرام، إذْ رأينا عواطف فضلكم، وأخلاقكم الفاضلة، زادكم الله تعالى من سوابغ نعمه وحفظكم ، ولا أعدمنا وجودكمَّ، والله يا سيدي إني في خجل عظيم من حضرتكم ، إذْ لم اكتب لكم فوراً حين وصولي، أشكر حضرتكم على فضلكم، وإنعامكم على أخيكم المقصر ، لكني والله لا يحصل لي لكثرة الأعمال لعدم خفاء أخلاق أهل البلاد على حضرتكم، ونودُّ أنَّ كل إنسان يرى، إذ الموجود بالمدرسة حالاً من الطلبة ما يزيد على الأربع مئة تلميذ، والأساتذة الأكفاء قليلون، ولكن ولله الحمد الناس معهم إقبال، ورأوا ثمرة التعليم،

وبعض الطلبة الأول جنى من ثمرة أعماله، إذ توظف من طلاب المدرسة الذين بلغوا السنة الأولى الابتدائية جمعٌ منهم من (٤٠) إلى (٨٠) وكل هاؤلاء ينظر الناس إليهم، ويشجع بعضهم بعضاً، انظروا إلى ابن فلان وفلان مع أنهم لم يكملوا دراستهم ، والحقيقة زال كل مافي نفوسهم مما لا يخفاكم، والمدرسة بحول الله يرجى لها مستقبل حسن يبشر بنجاح باهر، بحول الله وقوته .

هذا ما لزم بيانه وأرجو تشريفي بما يلزم أية شيء تحب قضاءه فَأَخُوْكَ برسم الممنونية، ومستعد لما يلزم ، وأنت أهل الفضل، جزاك الله عنا خيراً ، منا السلام على الأستاذ عبد الكريم الجهيمان ، والعزيز لديك من غير أذكر اسمه، كما منا صالح العمري والأساتذة يهدونكم جزيل السلام ، ودمتم لمحبكم والسلام ، المحب) ثم (التوقيع) .

٣ ـ ولما وصلت مدينة الرياض في آخر ذي الحجة سنة ١٣٦٨هـ كان الأستاذ ابن سليم أكثر موظفي التعليم في الرياض ارتباطاً بي ، وأقواهم صلة ، بحيث كان يلازمني في جميع أوقات فراغه من عمله ، ويظهر لي من لطفه وحسن معاملته ما حملني على أن أُوليه ثقتي، وأَكِلُ إليه كثيراً من الأمور المتعلقة بشؤون التعليم ، التي يراجعني عنها بعض مديري المدارس ، بل بلغ الأمر إلى أن صِرت أُكَلِّفُه بِقضاء أكثر شؤوني الخاصة والعامة ، فقد عهد إليه بالبحث عن دار ملائمة لتكون مقرًّا للمعتمدية ، وأن يختار لي من يراه من الموظفين في المكتب ، فاختار ابن عم له يدعى محمد العثمان آل سليم رئيساً للمكتب ومعه اثنان من معارفه ، وبعد أن وافقت على الدار رغبت إليه بأن يتولى تأثيثها ، فقام بجميع ذالك .

وما كان يخامرني أي شك في حسن تصرفاته ، ولعل من عيوبي أنني ينطبق علي الوصف (المؤمن غِرٌّ غافل) فإذا ارتحت إلى ما ظهر لي من إنسان ذي صلة بي أوليته كل ثقتي ، دون أن أَسير على الحكمة القائلة (أَحْبِبْ حبيبك هَوْنًا مًّا ، عسى أن يكون عدوك يوماً ما) ، وهكذا سِرْتُ مع الاستاذ ابن سليم لم افكر بأن ما يظهر لي من تحبب وملاطفة وتقرب يخفي وَرَاءَ ذالك أشياء أخرى تكشفت فيما بعد.

٤ ـ كنت طلبت من وزير المالية مبلغ ألفي جنيه على حساب (مديرية المعارف) ليشترى بها لوازم لمدارس نجد، من مصورات جغرافية (خرائط وأطالس) وأدوات هندسية ، مع كتابة لافتات بأسماء المدارس ، جرى تحويل المبلغ إلى عبدالله الإبراهيم الفضل الوزير المفوض في مصر وتم صرفه ، واتفقت مع خطاط مصري يدعى (البطراوي) على كتابة ثلاثين لافتة بأسماء مدارس نجد، إلاَّ أن المبلغ لم يف بثمن تلك اللوازم ، وبأجرة كتابة اللافتات التي كان من المقرر أن تكون بقياس متر مربع ، فاقترح الخطاط أن تجعل في نصف متر من القماش وأن تختصر الكتابة.

٥ ـ عهدت إلى الأستاذ ابن سليم بأن يُعِدَّ ما سيكتب على اللافتات مع محاولة الاختصار، إذْ لا تتسع مساحة اللافتة لأكثر من ثلاثة سطور، فكان أن قدم لي بياناً بأسماء المدارس وفوق اسم كل مدرسة كلمة (معارف نجد) فأمرت بتغيير الكلمة الأولى لتكون (معتمدية المعارف في نجد) فأظهر لي أن من الأحسن ألا تتصل مدارس نجد بالمعارف، ويبدو أنه أَحَسَّ مني شيئاً من التأثر، وانتهى الأمر عند هذا الحد وكتبت اللافتات وقد يكون من بينها ما هو بخلاف تلك الصورة مما لم أطلع عليه لهوىً في نفسه اتضح فيما بعد .

٦ ـ وها هو الدكتور يكشف عن أمر كنت أجهله بما سماه (وثيقة رقم ٦) وهو كتاب موجه من مدير المعارف العام بتاريخ ٥ / ٦ / ١٣٧١هـ ونصه:

(إلى حضرة الأستاذ الفاضل الأخ الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سليم حرسه الله تعالى، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

وصل إِليَّ كتابكم، وفهمت شريف خطابكم وفي خصوص نقلكم إلى بريدة فلا يخفاكم أنكم خاصة طُلبِتم بأمر ولي العهد، وقد ذكرت له بكتاب من جهة المعتمد وحالته معكم على سبيل الإشارة فأنت اصبر الآن فإذا كانت الحكومة والمعارف والمشايخ يعرفون لك قدرك واجتهادك فلا يهمك .. الموظفين وهذه عادة جارية، رأيت في كتابكم لعبد العزيز: أن المعتمد أرسل لكم قطعة مكتوب عليها (معارف نجد) فلا تقبلوها، أو أهملها لأن المعارف واحدة، وهذه التفرقة لا ترضاها الحكومة، فإن راجعكم المعتمد بنشرها فامتنع، وأخبرني رسمياً، واخبرني بنتيجة المجلس الذي أشرتم إليه في كتابكم لعبد العزيز على وجه التفصيل. هذا ما لزم وبلغ سلامي العيال والمشايخ ومن لدينا العيال يسلمون والسلام. مدير المعارف العام (التوقيع).

٧ ـ يكاد يخامرني الشَّكُّ في صحة هذا الكتاب، لأنني أجد من الصعب أن يتصور المرء أن عالماً جليلاً يتولى الإشراف على هذا المنصب الرفيع، ينزل إلى مستوى إيقاع أسباب الشقاق بين مُوَظَّفِيْنِ من موظفيه أو أن يُغْرِيَ موظفاً على الكيد لرئيسه، أو أن يعمل في الظلام للإضرار بذالك الرئيس، هذه أمور أُجِلُّ مدير المعارف أَن تُنْسب إليه، ولكن ماذا أفعل وهذا أخونا كاتب المقال يتخذ من هذا الكتاب

(وثيقة) لكي ينسب إليَّ ما أنا منه بريء؟ ، بل ما هو في الحقيقة أثر من آثار صاحبه الذي تصدَّى للدفاع عنه ، ولن أتوسع في هذا لأتناول ما دعاه الكاتب (وثائق) لا أستبعد أن تكون كلها على نمط الوثيقة المتقدمة ، وهذا ما أُجلُّ مُدِيرَ المعارف المعروف بعلمه وفضله ، وطهارة قلبه من أن تُنْسب إليه ما تحويه تلك (الوثائق) التي من المحتمل أن تكون مدسوسةً عليه ، ولو ثبتَتْ نسبتها إليه لكان له من أعماله الجليلة ، وحسن نيته ما تعد تلك صغائر بالنسبة إليها ، ويرجى له مع كل ذالك أن يتغمده الله بواسع مغفرته ورضوانه . ولعلَّ من أسوأ ما في هذا المقال نسبة تلك الأمور لرجل ذي مكانة سامية في النفوس ، لما عرف من فضله وعلمه ، وكان جديراً بأن تستعاد ذكراه بالتقدير والاحترام ، وسؤال المولى جل وعلا أن يتولى جزاءه بمثوبته ، وواسع رحمته ، لما قام به في سبيل خدمة أمته وبلاده ابتغاء وجهه تعالى ، لا أن تنسب إليه أمور لا يعقل أن تصدر ممن هو دونه مكانة وعلماً ، ولو لم يكن في نسْبتها إليه سوى مخالفة ما ورد في الأثر الشريف : «اذكروا محاسن موتاكم ، وكُفُّوا عن مساوئهم» لكفى بذالك رادعًا .

وإن من أغبى الغباء وأجهل الجهل أن تُعَدَّ تلك السقطات مناقب لمن تنسب إليه ، إذ هي من أسوأ المثالب ، لما تحدثه بين رئيس ومرؤوسيه من إثارة أسباب الخلاف ، وإيغار الصدور بأمور لا حقيقة لها إلى غير ذالك ، مما أرى من الخير عدم التوسع في الحديث عنه .

الحواشي:

(١): كان معروفاً منذ عهد غير بعيد إبراز ما يجري من بعض مشاهير القوم مما كان غريباً من أفعالهم في المجتمعات العامة كأيام مِنَى وقت الحج فيسير المرء راكبا راحلته بين مضارب الحجيج رافعاً عقيرته: (بيض الله وجه فلان .. فقد فعل كذا وفعل كذا !!) وقد يأتي منادٍ آخر : (سوّدَ الله وجه فلان فقد فعل كذا وكذا) وحدث أن مرَّ بأحد شيوخ عتيبة مناديان أحدهما يدعو ببياض وجهه والآخر بسواده، فالتفت إلى من حوله قائلاً : (يا ولاد ما تنطح ساداهم باضاهم) أي: يا أولاد ألا تقابل بيضاؤهم سوداءهم؟ أي المدح بالقدح فأصبح سالما .

خطاب من الشيخ عبدالله عريف للجاسر ـ رحمهما الله ـ
مقترحاً طباعة مجلة اليمامة في مطابع «البلاد» بدلاً من طباعتها في مصر

كيف وُئِدَتْ (مدرسة المعلمين) في مَهْدِهَا؟

والموضوع الثاني مما تصدّى صاحب المقال للحديث عنه حديث الجاهل بحقيقة أمره هو (مدرسة المعلمين الأهلية) التي وُئِدَتْ في مَهْدِها، فذكر أن هذه المدرسة أسست وقامت في وقت كان فيه حمد [الجاسر] خارج الرياض، وأضاف: (وقد اشترك في التخطيط والعمل فيها كل من الشيخ عثمان الصالح والشيخ عبد الله بن سليم، وكانت ترتبط مباشرة بمديرية المعارف،ولم يكن للشيخ حمد أيُّ دور في تنفيذ ذالك الاقتراح وهذا ما أغضبه).

من اليسير أن ينسب صاحبنا لمن تصدّى للدفاع عنه ما شاء من المناقب، ولكن العبرة ليس بهذا، وإنما بإيراد ما يثبت ما ادّعاه.

وحقيقة الأمر بالنسبة للشيخ عثمان أنه كان يتصف بخير ما يتصف به الإنسان من طيب القلب وسلامة النية، فما حدث منه حيال هذه المدرسة كان قائماً على ذالك.

وبالإيجاز فإن تصرف ابن سليم هو الذي وَأَدَ هذه المدرسة في مهدها.

حقًّا لم أَستشر الشيخ عثمان في أول الأمرَ فكان أَن اعتذر، وبعد ذالك اتصل مستشار [ولي العهد] سعود ـ رحمه الله ـ وهو عبد العزيز بن مُعمَّر بالمفتش الأستاذ محمد النجار، وهو المشرف على تنظيم شؤون مدرسي

(مدرسة أبناء ولي العهد) من المصريين ، فأقنعه ، وذهب به لمقابلة سعود ، واقترح ابن معمر أن يقوم الأستاذ النجار بجولة على مدارس الرياض لكي يطلع على حالة العمل فيها ، وأن يوضح ذالك لسعود ، فكان أن أمره هو ومن يراه من الأساتذة المصريين للعمل في توجيه مديري المدارس وأساتيذها لطرق التدريس الصحيحة ، وأبلغني ابن معمر بأن الأمر قد انتهى ، فدعوت مديري المدارس وأخبرتهم بذالك ، وأن الدراسة سوف تقتصر على معرفة وسائل التدريس الحديثة ، وأن هذا العمل سوف لا يستغرق كثيراً من وقت فراغهم ، إذ سيكتفى بحصة واحدة أو اثنتين في الوقت الذي يتفقون عليه وقت فراغهم من كل يوم ، فأبدوا استعدادهم لذالك ، وحدث بعد هذا أن ذهبت إلى مكة لحضور مناقشة مجلس المعارف لتقرير أُحيل من سعود ـ رحمه الله ـ عن حالة التعليم في نجد ، مما سبب مكثي هناك زمناً رأى [خلاله] الشيخ عثمان الصالح فتح المدرسة ، وترتيب الدراسة فيها بتوجيه من سعود ، ولكنه لم يدرك الغاية من طلب فتحها أولاً ، فكان أن أسند إلى ابن سليم أن يتولى التدريس فيها ، وأضاف إلى ذالك قيامه ببعض أمور ادارتها ، ثم آخر الأمر تخلّى له عن الإدارة ، فكان كل ذالك من الأسباب التي نفرت مديري المدارس وأساتذتها من الالتحاق بهذه المدرسة ، كما يتضح هذا من كتاب مدير (المدرسة الثالثة) بالرياض بتاريخ ١ / ٥ / ١٣٦٩هـ من قوله : (بان لنا بعد ذلك أن عثمان والمفتش النجار عينوا عبد الله السليم أستاذاً للقواعد ، وقلنا نحن وعبد الرحيم ـ يعني مدير المدرسة السعودية ـ : الأخ ابن سليم زميلٌ لنا ، فكيف يكون استاذاً علينا ، ونحن وهو على حدٍ سواء إنا نرغب معرفة كيفية طرق التعليم) إلى آخر ما قال .

ويتضح هذا أيضاً من كتاب ابن سليم نفسه إليَّ المورخ في ٤ / ٥ / ١٣٦٩هـ ونصه : (وأرى يا سيدي أن المسألة سيكون فيها بعض الشيء مبدئيًّا لعدة وجوه ، ربما لا تخفى على فضيلتكم) ثم تحدث عن نظرة المدرسين إلى هذه المدرسة .

أما محاولة الدكتور إبراز هذه المدرسة كأثر من آثار صاحبه فليهنئه الله بذالك ، ولكنه يجهل أن صاحبه قال في كتابه المشار إليه : (كل هذه نتيجة اقتراح فضيلتكم ، وبودنا لو تمت بحضوركم لتروا فيها رأيكم) .

كما أن الأستاذ عثمان الصالح فيما كتب إليَّ به في تاريخ ١٦ / ٥ / ١٣٦٩هـ قال : (إن المدرسة نفسها ما هي إلا ثمرة اقتراحك) وفي كتاب آخر بتاريخ ٢١ / ٦ / ١٣٦٩هـ : (نفذنا رغبتكم في فتح المدرسة الليلية) وفي كتاب ثالث بتاريخ ٣ / ٩ / ١٣٦٩هـ يقول : (أحب أن أوجه نظرك إلى أن المدرسة الليلية أول مشاريعك التي رفعتها للمعارف ، وما هي إلا جزء من اقتراحاتك) إلى آخر ما ذكر .

لقد تم فتح المدرسة في غيابي ، واختير لها موقع كنت قررت خلافه ، وقررت فيها دروساً ما كنت أرى حاجة للاشتغال بها عما هو أهم ، وهو ما سبق أن أوضحته ، وفوق ذالك وُكل شؤون الإشراف الفعلي عليها لإنسان لا ينظر إليه مديرو المدارس ولا مدرسوها نظرة تقدير تحملهم على قبول مشاركته في العمل بها ، وكل هذه من الأسباب التي وأدت هذه المدرسة في مهدها .

وسأكتفي بعرض بعض رسائل تلقيتها بشأنها وكنت أتوقع ساعة ما علمت بفتحها لها ذالك المصير السَّيِّء :

١ ـ كتب إلي الأستاذ علي بن محمد المطلق مدير (المدرسة الثالثة) في الرياض بتاريخ ١ / ٥ / ١٣٦٩هـ بما نصه :

(صاحب الفضيلة معتمد المعارف الموقر..

بعد التحية والإجلال : في اليوم الموافق ٢٨ / ٤ / ١٣٦٩هـ ، ورد لنا مذكرة من مدير المدرسة الأهلية يقول فيها : حسب أمر المفتش محمد النجار المصري تحضرون بعد عصر يوم الجمعة الموافق ٢٩ / ٤ / ١٣٦٩هـ. وبعد العصر من اليوم المذكور حضرنا وأساتذة المدرسة ، وموظفو المدارس في الرياض بالمدرسة الأهلية ، وبعد ما جلسنا جميعاً مع المفتش المصري، وعثمان الصالح، افتتح بتلاوة أي من الذكر الحكيم الاستاذ عبدالفتاح قارىء، أحد أساتذة المدرسة السعودية، ثم تبعه المفتش محمد النجار، وقال ما معناه : إن سمو ولي العهد حفظه الله أمر بفتح مدرسة ليلية، ويكون مقرها المدرسة الأهلية للمعلمين، والمدير عليها عثمان الصالح مدير مدرسة أنجال سموه، ومعلمو المدرسة اخوانكم الأساتذة المصريون، وسموه لا يزال ناهضاً إلى القمة العليا نحو التعليم ، فهو يرغب أن تنضموا جميعاً تحت هذا المشروع ،ويكون افتتاحه يوم الاثنين، والدراسة ليلة الثلاثاء الموافق ٣ / ٥ / ١٣٦٩هـ ، والفنون هي : إنشاء، إملاء، تقويم ، طرق [تدريس]، حساب ، هندسة ، ويكون التعليم مبدئياً على وفق منهج المعارف الآن ، ومكوناً من سنة أولى فصل أ ، وفصل ب ، ثم السنة الثانية تكون سنة ثانية فثالثة فرابعة فخامسة فسادسة ، ثم طلب منا عموماً : متى ترغبون يكون وقت الدراسة ؟ فأجمع رأي الجميع أن يبتدئ من الساعة الواحدة ليلاً ، وينتهي بمنتهاه ، وكل ليلة ثلاث حصص كل حصة أربعون دقيقة ، ثم تكلم الأستاذ

عثمان الصالح وقال : إن سمو ولي العهد وكل إليَّ إدارة المدرسة لأمر لا يمكن أن تطلعوا عليه ، وإلاَّ فيه من يقوم باللازم لإدارة هذه المدرسة الليلية ، وفهمنا معنى هذا أنه يمكن يكون عبد الله السليم ، لأنه بان لنا بعد ذالك أن عثمان والمفتش محمد النجار عينوا عبد الله السليم استاذاً للقواعد ، وقد صرح به الأستاذ عثمان ، وقلنا نحن وعبدالرحيم : الأخ ابن سليم زميل لنا ، وكيف يكون أُستاذًا علينا ، ويتطرق ذالك فيما بعد للقيل والقال ، ونحن وابن سليم على حدٍّ سواء من هذه التاحية ، إنَّا نرغب معرفة كيفية طرق التعليم ، ويكون ذالك بواسطة الأساتذة المصريين . . وانفض المجلس ، وقد كتبت هذا مع علمي أنه لا يخفاك ، ولكن مما بالنفس ، لترى الرأي السديد الذي يؤمن لنا المصلحة ، ويسر الجميع ، نرجو الله أن نراك بخير ، هذا وبلغ سلامي نفسك العزيزة ، ومن يعز عليكم ، كما منا الأساتذة يبلغونكم السلام ، ويدعون الله أن يروك بخير سالماً موفقاً والسلام عليكم .

ابنك المخلص : علي بن محمد بن مطلق)

٢ ـ وبعث إليَّ الأستاذ عبدالله بن إبراهيم بن سليم مدير المدرسة الأهلية بكتاب مؤرخ في ٤ / ٥ / ١٣٦٩هـ هذا نصه :

(سيدي الأستاذ الكبير معتمد المعارف بنجد الشيخ حمد الجاسر ، الموقر .

بعد التحية والإجلال : أرجو لكم دوام الانشراح ، وعنا من كرم الباري كما تحبون ، أخبار طرفنا ساكنة لم يجر ما تحسن الإفادة عنه ، فقط أن المفتش محمد النجار قدم اقتراحاً على سمو ولي العهد ، بفتح مدرسة للمعلمين ، كجبر لنقص ذي النقص منهم ، وإسناد إدارتها لعثمان بن ناصر ، بعد موافقة ولي العهد المعظم على ذالك ، بشرط أن

لا تخل إدارتها بعمله ، وجاء هو وعثمان ، وأخبراني بالفكرة ، وطلبا مني أن أقوم بدرس القواعد ، واخبرتهما بما أرى ، وأنه يوجد أناس ربما أن لا يستحسنوا ذالك ، فقالا : مالك شغل ! وعدم استحسانهم من عدة وجوه ، إما لشخصي فعلى كل حال ربما أن لا يخفاكم السبب ، وهي شيء واحد (الحسد) وأنا والله يا سيدي إني في القصيم أَرْيَح ، وأقلُّ كلفة ، وجوٌّ هاديء ، ويعرفونني وأعرفهم ، أما الرياض فقد فشى فيه ...... والتصنع ، وطبعي تعرفه ، ويصلح لمن يحب القال والقيل ، وأما للمصرين الذين هم تبع للأستاذ عثمان فيبوح أكثر مدرسي مدرسة دخنة بعدم انقيادهم ، وبعضهم يقول : ما ندرس على أناس حالقين لحاهم ، ويشربون الدخان ، وإن أُلْزِمنا على الحضور فنحن نأتي لتتبع عثراتهم في كل شيء ، والله يهدينا وإياهم ، وأنا لا سمعت منهم هذا الكلام ولكن يخبرني به من يجلس معهم ، وكل هذه نتيجة اقتراح فضيلتكم ، وبودنا أن لو تمت بحضوركم ، لتروا فيها رأيكم ، وعلى كل حال الرأي لكم في كل الأمور ، والله لا يحرمنا إرشاداتكم ويحفظكم ، ويسرنا بمشاهدتكم ، ولا بدَّ اطلعتم على الحالة من المعارف ، إن كل ديوان سمو ولي العهد قد كتب في ذالك شيئاً ، وهي للآن لم تفتح ، لأنهما قَدَّما طلباتٍ ويظنان أنها سَتُسَلَّم خلال يومين ، وحددا للمعلمين وقتاً يحضرون فيه ، وهو ليلة الثلاثاء الموافق ٣ / ٥ / ١٣٦٩هـ فحضروا قبل أن تجيء اللوازم فأخبراهم بالمسالة والمانع ، وأفاداهم أنها عندما تحضر اللوازم الضرورية نكتب لكم بالحضور ، وهو طبعا بالمدرسة الأهلية حسب اقتراحهم ، ثم قالا لهم : الغرض من ذالك تكملة النقص ، والذي يرى من نفسه الكفاءة أو له أوقات قراءة

فيقدم لنا بعذره ومقبول ، أما مدراء المدارس فغير داخلين في التعليم ، وأرى يا سيدي أن المسالة سيكون فيها بعض الشيء مبدئياً لعدة وجوه ... ربما أنهما لا تخفي على فضيلتكم ، حملوها على طرق شتى ، فمنهم من يقول : إن غرضهم طلبة الشيخ يَبُوْنَ يَظهرون نقصهم ، وهم والله مما سمعت ، وأفهم أنهما لم يحملاهما إلا لهما في عدم تكليفهم ، وهل يكونون ممنونين من هذه أم لا ، مع أنهما أخبراهم بذالك وقالا : الذي لا يحب الحضور مسموح ، هذا ما لزم بيانه مع ما يبدو لفضيلتكم من لا زم ، سلامي لنفسك العزيزة وكل عزيز لديك و ... و ... و من لدينا العيال والأساتذة يهدونكم السلام ودمتم. أحببت شرح الحالة لكم كما هي ليفهم فضيلتكم منها ما أراد، وختاماً أسأل الله تعالى أن يسرنا بمشاهدتكم على أحسن حال، وأنعم بال ودمتم (التوقيع) .

٣ ـ ثم بعث إليَّ بكتاب مؤرخ في ١٦ / ٥ / ١٣٦٩هـ هذا نصه : (حضرة صاحب الفضيلة الشيخ حمد الجاسر ، معتمد المعارف بنجد الموقر .

بعد التحية والاحترام ، أتمنى لفضيلتكم دوام الانشراح ، وأسأل الله تعالى أن يقرن أموركم بالنجاح والفلاح، وأن يثيبكم على جهادكم وأن يسركم ببلوغ أمنيتكم ، حتى تروا المدارس على الحالة المرضية التي يصبو إليها كل مخلص مثلكم، أخبار جهتنا لم يحدث ما تحسن الإفادة عنه فقط فتح المدرسة الليلية ، فقد فتحت ليلة الأحد الموافق ١٦ / ٥ / ١٣٦٩هـ وباشر العمل محمد عبدالصمد للحساب والهندسة ومحمد السناري الذي جاء بدل السيد حامد دَرَّسَ في

التاريخ، وسيدرس الجغرافيا والتاريخ، وإني أرجو عدم تأخر فضيلتكم، نظراً لاضطرار المدرسة إليكم وتوجيهاتكم كما أنها لا تستغني عن إفادتكم، ولا سيما والمتعلمون الأساتذة، وعلى كل حال في نظركم البركة، وكل هذا من ثمرات اقتراحاتكم التي سيتعاقب تنفيذها إن شاء الله، هذا ما لزم بيانه مع ما يبدو لفضيلتكم من لازم سلامي لك وكل عزيز لديك، ومن لدينا الأساتذة كافة، والعيال يبلغونكم السلام ودمتم. (التوقيع).

٤ ـ ثم تلقيت برقية من الأستاذ عثمان الصالح (مدير مدرسة الأنجال) بتاريخ ٧ / ٥ / ١٣٦٩هـ نصها:

(الشيخ حمد الجاسر، أمرسيدي ولي العهد على المفتش بالإشراف على المدارس كلها، ومع الأسف وجد أن هيئة المعلمين تحتاج إلى تكميل بعض المواد وإفهامهم كيفية التدريس، فأصدر سموه أمراً بتشكيل مدرسة ليلية للمعلمين، والتمس المفتش من تتوفر فيه الكفاءة، فلم يجد أحداً يقوم بهذه المهمة، فالتمس من سموه التنازل بأساتذة مدرسة أنجاله للتدريس، فوافق، والتمس منه أيضاً تكليفي بالإشراف عليها، فوافق سموه، واعتذرت فلم يقبل عُذري، وقد أبرقت للمعارف بهذا، وأهنئكم بأن أول ثمرات اقتراحاتكم أثمرت، وأملي أن تؤكدوا على المعارف بتطبيق نظام المدارس الليلية، الموجودة في الحجاز في هذه المدرسة، لأن سمو سيدي مهتمٌّ في ذالك. مدير مدرسة أنجال ولي العهد).

٥ ـ ثم بعث إليَّ كتاباً بتاريخ ١٦ / ٥ / ١٣٦٩هـ نصه:

(حضرة الشيخ حمد الجاسر المحترم

بعد التحية والاحترام. عزيزي تناولت رسالتكم ، وسررت بجهادكم النبيل عند المعارف ، والذي إذا تَمَّ ستبني لأمتك مجداً لا يتهدم، بإذن الله ، أما المدرسة الليلية فأشكرك على هذا، وأقدر لك شعورك ولكن ليعلم عزيزي أنني لا أستقيم على العمل فيها إلا مؤقتاً ريثما تصل ، وما قبولي لذالك طمعاً أو رغبة في الشهرة ، لأنَّ عملي الآن بإدارة مدرسة أنجال مولاي أشرف لي منها، وهنا سرٌّ يحملني أيضاً على القبول ، وهو أن الأساتذة المصريين بمدرستنا رفضوا العمل فيها تحت إدارة أحد غيرنا ، فقبول الإدارة إذن من قبيل التهدئة، وتمشية العمل، لا أقل ولا أكثر، وثِقْ أنك إذا تأخرت في الحجاز كثيراً فسأرفع استقالتي فوراً ، أما الدروس التي في مقدرتي تأديتها ليلاً فسأقوم بها ، وقد ابرقت لك بعدد (٢٤٣) بتاريخ ٥ / ٥ من خصوص المدرسة الليلية ووضحت لك ذالك مفصلاً ، ومع الأسف لم أحْظَ بجواب، أما المنهج فقد استلمناه ، وأعطيناه المفتش ، هذا ورغبتي شديدة في ملاحظتك للمدرسة الليلية ، وتحضير ما تحتاج له من رواتب المدرسين ، الذين يقومون بالعمل وإليك بيانهم:

هندسة : حساب : محمد عبد الصمد .

تاريخ، إنشاء، جغرافيا: السناري المصري الذي قد وصل قريباً بدل السيد حامد.

إملاء ، خط : عثمان الصالح .

قواعد النحو : عبد الله بن سليم .

وإذا ترون إدخال مدرسين آخرين فهذا موكول إليك، ومهما يكن من الأمر فما لي رغبة في مواصلة العمل فيها إلا إذا رأيت ذالك سهلاً ،

ورأيت كل صعب مذللاً، وأخيرا أرجو بالسرعة الممكنة إفادتي عن كل ما ترونه وما تقترحونه ، وإذا حضرتم وذالك قريب إنشاء الله فستتولاها أنت ، لأن لي من مشاغلي وأعمالي ما يحول بيني وبينها ، مع أن المدرسة نفسها ما هي إلا ثمرة اقتراحك، وفقك الله وهدانا جميعاً إلى ما فيه الصلاح والفلاح . مدير مدرسة أنجال ولي العهد . (التوقيع).

٦ ـ ثم تلقيت صورة مذكرة منه رقمها (٢٧٤) تاريخ ٢٦ / ٥ / ١٣٦٩هـ موجهة إلى مدير المعارف نصها :

(سعادة مدير المعارف العام . الموقر .

بعد التحية والاحترام: وبعد، نظراً لما قام به المفتش محمد النجار من مراجعة مولاي في تأسيس المدرسة الليلية للمعلمين، وموافقته على هذا المشروع الحيوي، فإني ألفت نظركم إلى أن أساتذة مدرستنا لا يستطيعون مواصلة العمل ، لأنهم ربما قنصوا أو سافروا ، وحينئذ يصحبونهم فيختَلُّ عَمل المدرسة الليلية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإذا ترون تكليف عبد الله بن سليم مدير المدرسة الليلية أو تشاوروا معه فيمن ترون فيه الكفاءة لتأمين العمل ، والذي أرى تكليف من يقوم بالتدريس ، وبما أن أنجال مولاي لهم دراسة خاصة في الليل تتطلب إشرافاً، فابتداء من الأسبوع القادم لا أستطيع الحضور ليلاً في المدرسة الليلية، ومدير المدرسة الأهلية فيه البركة ، والله يرعاكم ، مدير مدرسة أنجال ولي العهد المعظم).

٧ ـ وتلقيت كتاباً من الشيخ عثمان برقم (٤٧٤) تاريخ ٢١ / ٦ / ١٣٦٩هـ نصه:

(عزيزي الأستاذ حمد الجاسر المحترم

بعد التحية والاحترام: بمزيد السرور والارتياح، تناولت كتابكم رقم (٩٢٢) وتاريخ ١٩ / ٦ / ١٣٦٩هـ وأقدر لكم اهتمامكم وغيرتكم كما أشكركم على اعتنائكم بما كتبنا لكم، وما ذكرتموه بصدد الأساتذة والرواتب فلي كبير الأمل أن يُبَتَّ فيها بما يرضي الجميع، ويكفل سير العمل على الوجه الأكمل، ولقد بلغت الأساتذة المصريين بمساعيكم ، وكتابتكم للمعارف بهذا الشأن ، ويرجون أن يعلموا قريباً بمساواتهم في الرواتب بزملائهم في العاصمة، لا سيما وقد صدر أمر من سمو سيدي ولي العهد برقم (١٢٩٢) في ٢٢ / ٥ / ١٣٦٩هـ يقضي بصرف مكافآت للمدرسين في المدرسة الليلية عندنا كأمثالهم في المدارس الليلية في العاصمة، وهذا أمر صريح لا تأويل فيه ، تلوت كتابيك للمعارف رقم (٨١٥ و ٨١٦) وسررت باهتمامك وأرجو أن يكون على يدك من النجاح ما فيه الصلاح والتقدم.

أوافق على تريثك في مسألة الخدم نفذنا رغبتكم في فتح المدرسة الليلية بكل طالب ، جدول الدراسة يصلكم برفقه ، آسف على عدم إرسال أستاذين للمدرسة الليلية، ولو وُفِّقْتَ إلى إقناع المعارف بضرورة إرسال الأستاذين لرأيت من الإقبال على الدراسة، ولرأيت من الفائدة العائدة على الجميع ما يؤتي من الثمار أطيبها، ومن الفوائد أعظمها ، وأنت لا تجهل النقص المستولي على الأساتذة، ولمستَ هذا في خلال إشرافك على المدارس، وقبل أن تفتح المدارس يجب أن يتوفر المعلمون ، وإذا كان لدينا الآن بضع مدارس يدرس فيها أناس جهال ماذا تكون النتيجة؟ لا شك أن النتيجة تكون جهلاً وضياع وقت وذهاب مال ،

هذه الكلمات أقولها لك بصفتك صديق وعزيز ، وتحس بألمنا ، وتشعر بشعورنا ، أرجو أن تكلل جهودك بالنجاح في إقناع المعارف بصرف المكافآت من مالية مكة ، ويكون بندها مع بند المدارس الليلية في العاصمة ، ولا حاجة لشَرح فائدة مثل هذا .

أُدْرِك تمام الإدراك ما تلاقيه من الصعوبات والمشقةَ أيدك الله ووفقك ، إن استطعت طلب كتب أدبية وثقافية للمدرسة الليلية فلا تدخر وسعاً ، وأخيراً لك تحياتي الخالصة والله يرعاكم . المخلص : مدير مدرسة المعلمين الليلية) .

٨ ـ لقد أوضحت للأستاذ عثمان بأنه ليس الغاية من هذه المدرسة تدريس مواد ، وإنما المراد إرشاد المدرسين للطرق الحديثة في التعليم ، وآمل عند عودتي محاولة إصلاح وضع هذه المدرسة .

وكنت في تلك الأثناء أقوم بمراجعة المعارف لبعض الشؤون المتعلقة بالتعليم ، ومنها تخصيص مكافأة شهرية للعاملين في مدرسة المعلمين ، وكان قد صدر أمر من سمو ولي العهد برقم (١٢٩٢) في ٢٢ / ٥ / ١٣٦٩هـ بأن تصرف لهم مكافآت شهرية مثل أمثالهم في مدارس الحجاز الليلية ، وتقرر هذا ، وطَلَبت المعارفُ برقم (٦٦٧٩) تاريخ ٢ / ٦ / ١٣٦٩هـ من وزارة المالية إبلاغ مالية الرياض بصرف المكافآت المقررة ابتداء من جمادى الأولى ١٣٦٩هـ كما يلي :

ريال	
٢٠٠	مكافأة المدير عثمان الصالح
١٥٠	مكافأة المعاون عبد الله بن سليم
١٠٠	المعلم المنتدب محمد زكي السناري

١٠٠ المعلم المنتدب محمد عبد الصمد
٤٠ مكافأة الخادم عبد الله الناصر
٤٠ مكافأة الخادم عبد الله بن حسين
٤٠ مكافأة الخادم أحمد العبد الله
٤٠ مكافأة الخادم عبد الله بن راشد

٧١٠

٩ ـ لم تقع تلك المكافأة من نفوس الأساتذة المصريين موقعاً حسناً كما يبدو من كتاب بعثه إليَّ الأستاذ عثمان الصالح برقم (٤٢٦) تاريخ ٩ / ٦ / ١٣٦٩هـ ونصه :

(عزيزي الشيخ حمد الجاسر

بعد التحية : وصل إليَّ صورة من الخطاب الصادر من المعارف لمعالي وزير المالية برقم (٤٦٧٩) والمؤرخ في ٢ / ٦ / بصدد المكافآت المخصصة لهيئة المدرسة الليلية بالرياض، ويعلم عزيزي أن كل واحد من الأستاذين المصريين يقوم بعشرة دروس كل أسبوع ، وإذا فرضنا أنه إذا خصص لهما مكافأة فلا أقل من راتب أستاذ في الدرجة الأولى في المدارس الابتدائية، هذا إذا كانت المكافآت المخصصة للمدارس الليلية في العاصمة أقل، أما إذا كانت أكثر فيصار إليها، وبلدنا لا يخفاك تكاليف الحياة فيه ، لا سيما والأستاذان المصريان كل منهما في بيت، ويأتيان إلى المدرسة الليلية من مكان بعيد و (١٠٠) ريال لا تشجعهما على العمل ، وقد هَدَّأْتُهُما ووعدتهما بالكتابة للمعارف، وإذا لَمْ تُلبِّ رغبتهما ونُعْطهما ما يرضيهما فهما في واسع العذر في أن يتركا

المدرسة الليلية، والمدرسة المذكورة لها سمعة طيبة والإقبال عليها كبير. ، وفائدتها بين الأهالي كبيرة، وأملي أن تعمل على تحقيق ما يرضيهما، ويرغبهما في مواصلة الدراسة ، وتجد برفقه جدولاً فيه الدروس التي يلقيانها وجازني سرعة الجواب ودمتم. المخلص: مدير مدرسة أنجال ولي العهد .

أرجو السماح والمعذرة فقد حررته على جانب عظيم من السرعة.

ملحوظات : [إضافية من الشيخ عثمان الصالح]

١ ـ إن رأيت أنك تستطيع إقناع المعارف بضرورة تعيين أستاذين يحملان شهادة عالية للتدريس في المدرسة الليلية في الرياض لأن المدرسة ظهر لها إنتاج طيب، وثمرة حسنة ، ولها سمعة تستحق من هذه السمعة أن تؤمن الدراسة فيها فيما لو سافرت هيئة مدرسة أنجال ولي العهد للمقناص.

٢ ـ تقرر لكل واحد من خدم المدرسة الليلية أربعون ريالاً وهذه قليلة فلا أقل من خمسين ريالاً .

٣ ـ ألتمس بالصورة الممكنة تحويل المكافأة بدلاً من الرياض إلى المالية في مكّة، لتكون ضمن بند المدارس الليلية في العاصمة ، وأملي إقناع المعارف بهذا لأن تحويل مكافآت الأساتذة إلى مالية الرياض فيها شك لكل منفعة تحصل لهم من جهات أخرى، ومثلك يفهم هذه الأوضاع .

٤ ـ العمل مستمر في المدرسة الليلية للمعلمين ، وسمعتها طيبة عند العموم ، والإقبال عليها كثير، ولولا أننا أوقفنا القبول للطالبين

الانضمام إليها لبلغ التلامذة قوة أكثر من مئة وخمسين طالباً .

الجدول الدراسي للسنتين ـ أ ـ و ـ ب ـ

الهندسة : للأستاذ محمد عبد الصمد ، درسان في الأسبوع .
الحساب : للأستاذ محمد عبد الصمد ، ثلاثة دروس في الأسبوع .
التاريخ : للأستاذ السناري ، درس واحد في الأسبوع .
الجغرافيا : للأستاذ السناري ، درس واحد في الأسبوع .
الإمـلاء : للأستاذ السناري ، درسان في الأسبوع .
طرق تدريس : للأستاذ السناري ، درسان في الأسبوع .

إذن : فمجموع كل الدروس التي تلقى في السنتين «أ و ب» عشرون درساً ، للسناري عشرة ولمحمد عبدالصمد) انتهى كتاب الأستاذ عثمان .

١٠ ـ يتضح مما تقدم ارتباك حالة المدرسة في أول يوم من افتتاحها وأهم أسباب ذالك تأثر مديري المدارس وأساتذتها من إسناد بعض شؤون إدارتهما والتدريس فيها إلى الأستاذ ابن سليم ، وهو كما جاء في كتاب أحدهم لا يتميز عنهم بشيء ، بل هو بحاجة إلي أن يتلقى من المعرفة ما ينبغي أن يتزودوا به في شؤون التعليم .

ومن هنا أصبحوا لا يحضرون إلى المدرسة .

١١ ـ ولعل هذا مما دفع الأستاذ عثمان الصالح أن يكتب إليَّ برقم (٤٤١) تاريخ ٣ / ٩ / ١٣٦٩هـ ما نصه :

(عزيزي الأستاذ حمد الجاسر المحترم

تحية طيبة تغاديك وتراوحك ، تناولت كتابك الكريم المؤرخ ، وسررت كثيراً بما تضمنه من الود الأكبر لأخيك ، وما أومأتَ إليه من

خصوص المدرسة الليلية فيسرني ويشرح صدري أَنْ أُساهم في رفع مستواها ـ وقد فعلت ـ ولكن حينما كنت غائباً ، وما مهمتي إلاَّ مسايرة المصريين ، وتشجيعهم على مواصلة الدراسة ، أما أن أكون مشرفاً على كل دقيقة وجليلة ، فهذا ما لا يتأتّى ، ويكفي أنني وضعت المنهج ، وحملتهم على تطبيقه ، وقطعت دَابِرَ كل مشاغبة ، وسددت كل نفق يتأتّى منه أي معارضة ، ولكن بقدر المستطاع سأعمل ، لكن لا بدَّ من مسؤول تكون باسمه المراجعة والأخذ والرد ، لأنك تفهم مشغوليتي وأن الأمير اشترط عليَّ أن لا تأخذ المدرسة الليلية إلاَّ قسطاً صغيراً من وقتي ، ونفذت هذا الشرط ، وابتعدت عن كل ما يؤدي إلى ذالك ، ومساعدتي ستستمر ، ولكن على شرط أن لا يذكر اسمي في صحيفة ولا في مجلة، ولا عند أولي الأمر في برقية أو كتاب ، وكل ما تحب المعارف مراجعتي فيه يكون كتابياً فقط ، وسأدلي إليها بالحقيقة ، مع مراعاة النصح الذي سوف يكون متواصلاً ، هذا وأول ما أَلفت نظرك إليه أن تصدر المعارف كتاباً إلى الأساتذة بواسطتنا بأن المالية جعلت لكل واحد منهم مكافأة على الدرس الواحد ، وأما أنا فما يهمني إن اعطيت مكافأة فيها ونعمة، ولكن لاحظ أن لا يراجع الأمير فيها ، وإلاَّ فما يهمني قرر لي أم لم يقرر، وشيء آخر أحبُّ أن أوجه نظركَ إليه وهو أن المدرسة الليلية أولى مشاريعك التي رفعتها للمعارف، وما هي إلا جزء من اقتراحك .

أرجو ـ ورجائي سيتحقق بفضل همتك وغيرتك ـ أن يتعين وقبل انتهاء السنة ـ لا حظ ـ نعم أن يتعين أستاذانِ أزهريان في علوم اللغة العربية أو التربية ، ليكونا نواة للقيام بحملة عنيفة، تطارد الجهل،

وتبـدد الظلام ، لا في البـلاد ولكن في أفكار الأسـاتذة الذين عـشش الجهل في أفكارهم وفرَّخ ، وسُيودِعونه تلاميذهم ـ يا سيد حمد ـ إن رضيت بهذا ـ عفواً ـ هل ترضى بهذا ، لقد اجتمعت بكثير من الأساتذة فهل رأيت من يصح أن يكون مربياً ومدرسا ينهض بتلاميذه إلى المستوى اللائق !!

لقد أطلت يا عزيزي وأحب قبل أن أختم كتابي بإشعارك أنه لو سافر أنجال مولاي إلى المقناص لوقف دولاب العمل في المدرسة الليلية، فسارع إلى إقناع المعارف بإرسال الأستاذين اللذين ذكرت لك ، وإذا لم تنفذ هذه الفكرة فثق أن المدرسة مردُّها إلى الزوال، وأخيراً لك تحياتي الخالصة، والله يرعاك ، عثمان الصالح، ملحوظة: كنت أود أن أبيض كتابي ولكن حالت المشاغل دون تبييضه ، أرجو أن توفق إلى قراءته ومعذرة وسماحاً) .

١٢ ـ أما الأستاذ ابن سليم الذي أسند إليه الأستاذ عثمان إدارة المدرسة، فقد كتب إليَّ ما نصه:

(فضيلة الشيخ حمد الجاسر

بعد التحية، أتشرف بافادة فضيلتكم عن عدد الطلاب بالمدرسة الليلية، أنهم بلغوا عدد (٤٨) هذا في أول افتتاحها ، ثم إنه تضاءل العدد فلم يبق إلا نصفهم لمعلوميتكم . (التوقيع) في ١٥ / ٧ / ١٣٦٩) .

والواقع أنه لم يبق فيها أحد سوى بعض خدم المدرسة الأهلية وخمسة غيرهم ليسوا من موظفي المدارس ضُمُّوا لغاية في نفس الأخ ابن سليم .

سأكتفي بما تقدم في الحديث عن هذه المدرسة بل عن تناول جميع ما جاء في مقال الدكتور العمري مما تعرض فيه للكلام عن أمور يجهلها ، فكان كالسائر في بيداء مَجْهَلةٍ ، يضرب على غير هُدى ، وهكذا كل من انساق وراء العاطفة وحدها دون التعمق في البحث عن حقائق الأمور ، ومحاولة إبرازها على أساس من الإنصاف وعدم التحيز لجانب دون آخر .

البوارح بعد السوانح

(١)

تمهيد:

نشرت لي «المجلة العربية» أحاديث تتعلق بجوانب من مَجْرَيات حياتي ، فيما يقرب من مئة حلقة ، ابتداءً من العدد الـ (١٠٣) من السنة الـ(١٠) الصادر في شعبان ١٤٠٦ (آيار ١٩٨٦م) إلى العدد الـ (٢٣٤) من السنة الـ (٢١) الصادر في رجب ١٤١٧ (تشرين الثاني ١٩٩٦م) بعنوان (من سوانح الذكريات) ، وذالك بطلب من رئيس تحريرها أخي الأستاذ حمد بن عبد الله القاضي ، وباستعمال مختلف الوسائل لكي أواصل الكتابة في تدوين تلك المقالات ، مما سنح لي تدوينه ، حول تلك الجوانب من شؤوني ، وما أراه متصلاً بأحوال المجتمع ، الذي أعايشه ، وأعيش مرتبطاً به غاية الارتباط ، متوخِّياً من وراء ذالك إفادة القارىء ما استطعت إلى ذالك سبيلاً .

وجاء إملاء تلك (السوانح) عَفْوَ الخاطر ، مما جادت به الذاكرة الكليلة ، وقد تكون في بعض الأحيان خوَّانَة ، إلا أنني حاولت ـ ما استطعت ـ أن لا أَنْسَاق وراء كل ما قد تجود به مما لا أطمئن إليه ، ومن هنا فقد كنت أكبح جماح الاسترسال في الحديث ، في موضوعات قد لا تتسع لتفصيلها صدور بعض القراء ، وكثيراً ما كنت أجَمْجِمُ في مواضع أخرى ، دون الإفصاح عما أريد قوله على حد قول الشاعر :

في فمي مَاءٌ وهل ينـ — ـطق من في فيه ماء ؟ !

وأحياناً أربأ بتشتيت ذهن القارىء بالبعد به عما هو متجه إليه ،

فأدع من تفصيل الحديث ما أراه ليس بحاجة إليه، مع شدة ارتباطه بالموضوع الذي طرقته، مما يُعَدُّ مكملاً له، فيفوتني إكماله، حيث ينبغي ذالك، كما يدرك الإخوة الأحبة المشرفون على تحرير المجلة أن من بين ما أقدمه للنشر ما لا يحسن، أو ما هو بحاجة إلى تشذيب منه، ولعمق إدراكي لإخلاصهم لعملهم، ولإدراكهم لما تتطلبه مهنتهم من جميع جوانبها ـ كنت أرتاح لمواقفهم تلك حيال بعض تلك (السوانح).

ومن هنا فكثيراً ما استوضح مني بعض القراء عن أمور لم أتعرض لذكرها، وعن أمورٍ أُخْرَى ذكرتها دون أن أوضحها التوضيح الوافي.

وهناك من الموضوعات التي هي مع أهميتها وعمق ارتباطها، بما ألمحت إلى بعضه في (السوانح) لم أجد الحديث المفصل عنها ملائماً لظروف خاصة.

وهذه (البوارح) بعد (السوانح) الغاية منها تدارك بعض ما قد فات، من إيضاح ما هو مبهم، أو زيادة تفصيل لما يحتاج إلى ذالك في الأمور الخاصة بي، أو تناول بعض الشؤون المتصلة بالحياة العامة من خلال إدراكي وتصوري.

وقد يقال: لماذا (البوارح)؟.

من المدرك بداهة أن أصل مادة (برح) تدل على الظهور والبيان، ومنه: أرض بَرَاحُ، أي واسعة، والبراح من الأمر: الواضح، ولا تزال العامة في بلادنا تستعمل هذه الكلمة في معاني لا تخرج عن هذا، فتقول: بَرِّحْ مَجْرَى الماء. أَيْ أَزِلْ من المَجْرَى ما يؤثر في جريانه، وبرِّحُوا الطريق للقادم إذا كان وجيهاً، أي أخلوه مما يعترض سير موكبه.

ومن مأثور اللغة : (البوارح من الصيد) ، وهي ما مَرَّ عن يمين الصائد إلى يساره ، مما لا يتمكن من رميه حتى ينحرف إليه ، وقد يكون الصيد أثناء انحرافه قد فاته ، ولهذا كانت العرب تتطيَّرُ بالبارح من الصيد ، كما تتيامن بالسانح ، وهو ما يَمُرُّ منه بين يَدَي القانص ، من جهة يساره إلى يمينه ، فيسارع لرميه في خلال الوقت الذي لم يتسنَّ للصيد البعد عنه ، والتشاؤم والتيامن مما أبطله الإسلام ، وقد تقدَّمَت الآن وسائل الصيد في عصرنا ، ولهذا سهل اقتناص البوارح منه ، كالسوانح ، والبوارح من الرياح هي التي تحمل التراب في شِدَّة هَبُوبِها ، وكلمة (برح) من المفردات اللغوية الواسطة المعنى .

وآمل أن لا يجد القارىء ممن سعد باستقبال (السوانح) في تلقي (بوارحها) ما يحاذر منه ، فهي مما يُعدُّ مكملاً لها في موضوعها ، غير أنني قد أجد مجال القول ذا سعةٍ ، فأسقط عن نفسي كلفة الاحتشام ، فأبدي أموراً حاولت إخفاءها ، أو رأيت عدم الفائدة من ذكرها ـ إذ ذاك فظهر لي خلاف هذا ، بل قد أُشير إلى ما لا أرتضيه من الآراء في بعض الأمور التي لم يتضح لي وجه الصواب فيها .

وقد يكون الدافع لإملاء هذه (البوارح) أن المرء إذا تقدمت به السنُّ أحسَّ أنه بحاجة إلى أن يعبر عن نفسه ليثبت وجوده ، وأقرب وسيلة يستطيعها لذالك هو مجال الحديث الذي قد يسترسل فيه استرسالاً يأمن من أن يعاب عليه ، وكثيراً ما يحدث هذا ، وتلك هي عادة الله في خلقه (ولَنْ تَجِدَ لِسنَّة اللهِ تَبْدِيلا) .

لقد تحدثت فيما أمليت من (سوانح الذكريات) التي بلغت من

الحلقات (١٠٣) نشر منها في «المجلة العربية» (١٠٢) تتخللها حلقات يسيرة لم تنشر ، وأخرى حُذفتْ عباراتٍ وجمل اقتضت حالة المجلة حذفها، وما نشر يسجل أبرز مظاهر حياتي في خلال فترة من الزمن تقارب (٤٧) سنة من عمري منذ ولادتي حتى عام (١٣٧٥هـ) حين أسندت إليَّ إدارة (كلية العلوم الشرعية) و (كلية اللغة العربية) فَفُصِلْت بعد فترة من العمل ، مما رأت المجلة عدم نشر ما يتعلق بهذا الأمر، لكون الحديث فيه نال رجلا كان اذ ذاك سنة ١٤١٥هـ (١٩٩٤م) مستشاراً في (الديوان الملكي) وهو الشيخ عبد العزيز بن الشيخ محمد ابن إبراهيم، ولقد كنت حريصاً على أن ينشر ليطلع عليه، ويبدي رأيه حياله ، لكي يتضح موقفه من أمر هو في رأيي (الذي تَوَلَّى كِبْره)لأنني أعرف والده الشيخ محمداً، وما يتصف به من إنصاف وعدل ، وما يحمل من تقدير لما قمت به خلال إنشاء (المعهد) ثم في بذل الوسع في المساعدة لاستقامة أموره، خلال ثلاث سنوات حتى أنشئت الكليتان ، فسعى الشيخ عبد العزيز ـ حين عاد من مصر، ولم يتمكن ـ على ما أظن ـ من الالتحاق بإحدى كليات الأزهر، مع مكثه هناك فترة من الزمن ورغب مني والده، بعد أن اتسع عمله وأنشئت المعاهد التابعة له في كثير من المدن ، أن أكون معاوناً له ، فرفضت هذا كما أوضحت في السوانح ، فكان أن أسند إلـيَّ عمـل إدارة (الكليتين) ، ولكنه ـ سامحه الله ـ صار يضيق عليَّ الخناق في عملي، ويوغر صدر والده الطيب القلب. حتى سنحت له الفرصة في أمر لا صلة له بعملي، ولكنه وجد ذريعة منه لفصلي ، وتم ذلك ولم آس به ، وآمل أن أتمكن من نشر جميع السوانح، كما أمليتها .

وسأضيف في هذه (البوارح) ما لم أتعرض له فيها، ومنه ما هو جدير بالتسجيل، إذ فيه ما هو عميق الأثر في مجرى حياتي، لا أبالغ إذا قلت بأنه ـ في الواقع، وفيما أرى ـ: أَوْلَى فترات حياتي بالإبانة والإيضاح، ففي خلالها مارست مهنة (الصحافة) وهي حقاً (أم المتاعب) تحدث لي من جراء عملي فيها أبرز حوادث غيرت مجرى حياتي، كما عرفت أجلّ عمل عام نافع شامل ـ فيما أرى ـ اتجهت للقيام به وهو مواصلة الدراسة والبحث، وإنشاء (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) وعنها كانت تصدر مجلة «العرب» مع قيامي بتحقيق بعض المؤلفات القديمة، واشتغالي بالتأليف، ومواصلة عملي في المجال الصحفي بإصدار مجلة «العرب» وما تخلل ذالك مما كان له من الأثر في مسير حياتي ما يدعو لتفصيله وإيضاحه، ما استطعت إلى ذالك سبيلاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمد الجاسر
صاحب مجلة «العرب»
الرياض (ص ب ١٣٧) الرمز البريدي (١١٤١١) هاتف وفاكس (٤٦٢١٢٢٣)

الرقم : ٣/٣١٨ التاريخ : ١٤١٦/٧/٢٠هـ المرفقات : ....

حضرة صاحب المعالي استاذنا العلامة الجليل الدكتور ناصر الدين الاسد

رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فلقد تلقيت شاكراً ومقدراً تهنئة استاذنا الرئيس الجليل واخوتي أعضاء المجمع الملكي بنيل جائزة المويس التي أحس في نفسي أنني لست كفأ لها لولا ماأفضل به عليّ اساتذي واخوتي من رعاية وتقدير حيث رأوني جديراً بالانضمام إلى هذا المجمع الجليل وبذلك نلت تلك الجائزة .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتولى الجميع بتوفيقه ورعايته .

ومع عميق اجلالي وتوقيري أرجو التفضل بقبول جزيل شكري وعميق تقديري وأرجو ابلاغ اخوتي في المجمع ذلك .

والله تعالى يرعاكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محبكم
[توقيع]
حمد الجاسر

الكشـــافـــات

حضرة صاحب السعادة رئيس الاعلام المحترم

١٣٨٣/٧/٤

نتشرف بإحاطة [illegible] (نظام المؤسسات الصحفية الاهلية) الصادر بالمرسوم الملكي رقم ٦٢ وتاريخ [illegible] [illegible] مؤسسة صحفية باسم (المؤسسة اليمامة الصحفية) في مدينة الرياض [illegible] : ١ - جريدة يومية باسم (الرياض) ٢ - [illegible] مجلة اسبوعية باسم (اليمامة) .

[illegible]

ولسعادتكم الاحترام والتقدير

[illegible]

فهرس الأعلام



فهرس المواقع والقبائل ونحو ذلك

فهرس المطبوعات

- هذه حياتي لحسن كتبي: ٣٢٢.
- وحي الصحراء: ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٢.
- وصايا أساطين الأدب والسياسة لعبدالله بن سليمان المزروع: ٨٠٣.
- وفاء الوفا: ٤٢٨.
- يوميات الرياض لأحمد علي أسد الله الكاظمي: ٩٣١.
- SAUDI - ARABIA: ٥١٧، ٥٢١.

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

الديوان الملكي



برقية

الرقم ....

التاريخ ....

المرفقات ....

المكرم / معن بن حمد بن محمد الجاسر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:-

علمنا بنبأ وفاة والدكم الشيخ / حمد - رحمه الله - ونبعث إليكم ولإفراد أسرتكم جميعاً بتعازينا ومواساتنا بوفاته، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتغمده بواسع رحمته ويسكنه فسيح جنته، ويلهمكم الصبر ويجزل لكم الأجر، وهذا قضاء الله وقدره، ولا راد لقضائه، إنا لله وإنا إليه راجعون.،،،

فهـد بن عبدالعزيـز




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





المؤلف بقلمه

حمد الجاسر

في عام ١٣٢٨ - تقريباً - وُلِدَ حمد بن محمد بن جاسر آل جاسر في قرية (البُرُود) لأبٍ فلاحٍ، من أُسرة قُدِرَ عليها رزقها.
ونشأ عليل الجسم، وتوفيت أمه وهو في السابعة، وفي مدرسة القرية (الكُتّاب) تعلّم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ
القرآن الكريم نظراً. وفي عام ١٣٤١ - وكّل أبوه أمره لقريب له طالب علم في (الرياض) فحفظ القرآن غيباً، وقرأ بعض
المؤلفات المختصرة على المشايخ - كعادة طلبة العلم في ذلك العهد، وبوفاة ذلك القريب عاد من الرياض ليجد
أباه قد أنهكه المرض، وقد تفرّق شمل الأسرة، فكفله جدّه لأمه (مُطَوّع) أهل القرية، وهو من أهل الصلاح والعبادة،
فصار يقرأ عليه في بعض الكتب، ويقوم بالخطابة والوعظ في المسجد لكبر سن جده وضعف بصره، وتولّى تعليم أطفال القرية
فترة، ولكنّ أخاه الكبير لم يرضَ حالته فذهب به إلى (الرياض) في عام ١٣٤٦ وسعى حتى ضُمّ إلى (الإخوان) أي
طلبة العلم، فعاش كأحدهم، وانتظم معهم في الدراسة على المشايخ في المساجد، ومن أشهرهم سعد بن حمد بن عتيق و
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ - قاضيا الرياض - ومحمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، في التوحيد والفقه والحديث
والنحو والفرائض. وفي عام ١٣٤٨ حجّ وأُلحق بـ (المعهد السعودي) وفيه تخرّج عام ١٣٥٣ من (قسم التخصص
في القضاء الشرعي) ففضّل مهنة التدريس، وتقلّب فيها في ينبع وجدّة ومكّة والأحساء والظهران والرياض
وتخلّل ذلك القضاء فترة وجيزة في (ظبا) ثم عاد للتدريس، وآخر عمله فيه إدارة كليتي (العلوم الشرعية)
و (اللغة العربية) في الرياض في عام ١٣٧٦ وكان قد أنشأ أول صحيفة في الرياض (اليمامة) سنة ١٣٧٢ وأول مطبعة
فاتّجه للعمل في الصحافة، ثم انصرف للتأليف والتحقيق والنشر، فأنشأ (دار اليمامة للبحث والترجمة والتأليف)
ومُنح مع إخوة له إجازة إنشاء (مؤسسة اليمامة الصحفية) وعمل في الصحافة زمناً، وأصدر مجلة
"العرب" التي قطعت نصف عامها السابع عشر هذا العام، ولا يزال يعمل فيما اتّجه إليه، وهو يأمل - و
(ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!) - أن ينسأ الله له الأجل، ليرى ثمرة ذلك العمل، وما أعزّها من
أُمنيةٍ!!

مُنىً إنْ تكنْ حقاً تكنْ أحسنَ المُنى ... وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رَغْداً

الرياض: ٢٧ شعبان ١٤٠٢هـ
الموافق ١٥/٦/١٩٨٢م
حمد الجاسر

ردمك: ٢-٠-٩٧٢٤-٩٩٦٠ (مجموعة)
٩-٢-٩٧٢٤-٩٩٦٠ (ج٢)

